GEORGE ORWELL



جورج أورويل

الأعمال السياسية والأدبية

ترجمة: أسعد الحسين

دراسات فكرية

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

الجزء الثاني

جورج أورويل

الأعمال السياسية والأدبية

عنوان الكتـاب: جورج أورويل – الأعمال السياسية والأدبية - الجزء الثاني

اسـم المؤلـف: جورج أورويل

إعداد وترجمـة: أسعد الحسين

الموضــــوع: دراسات فكرية

عدد الصفحات: 800 ص

القيـــاس: 17 × 24 سم

الطبعـة الأولى: 1000 / 2019 م - 1440 هـ

ISBN: 978-9933-38-149-3

دار نينوى

للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب 4650

تلفاكس: 2314511 11 963+

هاتـف: 2326985 11 963+

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org


دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع


Ayman ghazaly

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

جورج أورويل

الأعمال السياسية والأدبية

الجزء الثاني

إعداد وترجمة:

أسعد الحسين

الفهرس

تشارلز ديكنز

القسم الأول:

ديكنز واحد من هؤلاء الكتاب الجديرين بأن يُسرقوا، حتى إن دفن جثته في ويستمنستر آبيه، كان ضرباً من السرقة، هذا إذا انتبهتم للأمر وفكرتم فيه.

حين كتب تشيسترتون مقدماته لأعمال ديكنز، التي نشرتها مطبعة إيفريمان، بدا له من الطبيعي تماماً أن يَسِمَ ديكنز صاحب الطابع الفردي الرفيع الخاص به، بمُثُل ومبادئ القرون الوسطى، كما بذل الكاتب الماركسي السيد تي إيه جاكسون جهوداً نشطة مؤخراً لتحويل ديكنز إلى ثوري متعطش للدماء؛ إذ يزعم الماركسيون أنه ماركسي "تقريباً"، ويزعم الكاثوليكيون أنه كاثوليكي "تقريباً"، ويزعم كلاهما أنه بطل البروليتاريا (أو "الفقراء" كما يضعها تشيسترتون). ومن جانب آخر، تروي ناديجدا كروبسكايا، في كتيبها عن لينين، أن لينين قبيل نهاية حياته ذهب ليرى نسخة ممثلة على المسرح من **الصرصار على الموقد**، ووجد أن تعاطف ديكنز مع "الطبقة الوسطى" كان مفرطاً، لذلك مشى وخرج في منتصف المشهد.

إذا اخذنا معنى "طبقة وسطى" بالمعنى الذي توقعته كروبسكايا، فربما كان حكماً أكثر صحة من حكمي تشيسترتون وجاكسون. لكن اللافت أن الكره الموجه إلى ديكنز، المفهوم ضمنياً في هذه الملاحظة، شيء غير عادي، فقد وجده الكثير من الناس لا يطاق، لكن الذين شعروا بعداوة تجاه الروح العامة لأعماله قليلون جداً كما يبدو. بعد بضع سنوات نشر السيد بيشهوفر روبيرتس هجوماً طويلاً على ديكنز في شكل رواية بعنوان (**هذه الوثنية المنحازة**)، لكنها كانت مجرد هجوم شخصي، اهتمت في قسمها الأكبر بمعاملة ديكنز لزوجته. عالجت الرواية أحداثاً لم يسمع بها واحد من ألف من قراء ديكنز، والتي لا توهن عمله بتاتاً. في الحقيقة كل ما بينه الكتاب، هو أن شخصية الكاتب الأدبية لا علاقة لها بشخصيته الذاتية. كان ديكنز من ذلك النوع الأناني المتبلد كما أظهره السيد بيشهوفر روبيرتس في كتابه، لكن في أعماله المنشورة، هناك شخصية ضمنية تختلف تماماً عن هذه، شخصية أكسبته أصدقاء أكثر بكثير من الأعداء. حتى لو كان ديكنز برجوازياً، فإنه كان

بالتأكيد كاتباً مخرباً وراديكالياً، ويمكن القول بصدق إنه كان متمرداً، وقد شعر بهذا كل من قرأ الكثير من أعماله. فمثلاً غيسينغ، وهو من أفضل الذين كتبوا عن ديكنز، قال إنه كان أي شيء باستثناء أنه راديكالي، واستهجن هذه النزعة في ديكنز، وتمنى لو لم تكن موجودة، لكن لم يخطر في باله أبداً أن يرفضها. في **أوليفر تويست وأزمنة صعبة وبيت كئيب والصغيرة دوريت**، هاجم ديكنز المؤسسات الإنكليزية بضراوة لم يدانيه فيها أحد أبداً، ونجح في فعل ذلك من دون أن يجعل من نفسه مكروهاً، بل أكثر من هذا، لقد قبله الناس الذين هاجمهم، لذلك أصبح بنفسه مؤسسة وطنية. بهذا الموقف من ديكنز، كان الجمهور الإنكليزي مثل الفيل الذي يشعر بأن ضربة العكاز دغدغة مبهجة. قبل أن أبلغ العاشرة من عمري، جرّعني مدراء المدارس بديكنز حتى حلقي، الذين حتى وأنا في ذلك العمر رأيت فيهم شبهاً قوياً مع السيد كريكل، والمرء يعرف من دون حاجة لإخباره بأن المحامين يبتهجون بالرقيب بوزفوز، وأن دوريت الصغيرة محبوبة في وزارة الداخلية. يبدو أن ديكنز نجح في مهاجمة كل واحد من دون أن يخاصم أي واحد. لهذا من الطبيعي أن يتساءل أخيراً إن كان هناك شيء غير حقيقي في هجومه على المجتمع.

في المقام الأول، هو لم يكن، كما أظهره السيدان تشيسترتون وجاكسون ضمناً، كاتباً "بروليتارياً". بداية هو لم يكتب عن البروليتاريا، وهو في هذا يشبه الأكثرية الساحقة من الروائيين في الماضي والحاضر. إن بحثت عن الطبقات العاملة في القصص وخصوصاً القصص الإنكليزي، فإن كل ما ستجده ثقباً. ربما يحتاج هذا البيان إلى تأهيل. لأسباب تسهل رؤيتها، نال العامل الزراعي (في إنكلترا بروليتاري) ظهوراً جيداً إلى حد ما في القصص، وكُتب مقدار كبير عن المجرمين والمهملين وعن مثقفي الطبقة العاملة حديثاً، لكن البروليتارية المدينية العادية. الناس الذين يجعلون العجلة تدور، جرى تجاهلهم دائماً من قبل الروائيين، وحين يجدون طريقهم بين أغلفة كتاب، يكونون دائماً موضوع شفقة أو كفترة راحة من الهزل. يحدث الفعل المركزي لقصص ديكنز في بيئات الطبقة الوسطى بشكل ثابت تقريباً. لو تفحص المرء رواياته بالتفصيل، لوجد أن موضوعه الرئيسي هو برجوازية لندن التجارية وطفيليوها- المحامون والكتبة وأصحاب المتاجر وأصحاب الخانات والحرفيون الصغار والخدم. ليس لديه صورة لأي عامل زراعي، بل صورة واحدة فقط (ستيفن بلاكبول في

أزمنة صعبة) لعامل صناعي. ربما يكون آل بلورنيش في الصغيرة دوريت أفضل صورة لعائلة من الطبقة العاملة- آل بيغوتي مثلاً الذين لا يتتمون إلى الطبقة العاملة- لكن في المجمل لم يكن ديكنز ناجحاً في هذا النوع من الشخوص. إن سألت أي قارئ عادي عن أي شخصية بروليتارية يتذكرها لديكنز، فإن الشخوص الثلاث الذين سيذكرهم بالتأكيد هم: بيل سايكس وسام ويلر والسيدة غامب. قابلة ثملة ولص ومنظف ملابس- شخصيات ليست بالضبط عينة أنموذجية من الطبقة العاملة الإنكليزية.

ثانياً، في المعنى المقبول للكلمة عادة، ديكنز ليس كاتباً ثورياً. لكن موقعه هنا يحتاج إلى بعض التحديد.

أياً كان ديكنز، فهو لم يكن منقذ أرواح خفي ونوع الأبله حسن النية، الذي يعتقد بأن العالم يكون مثالياً لو أصلحت بضعة قوانين داخلية ومحوت بضع حالات شاذة. يجدر مقارنته بتشارلز ريد مثلاً. كان ريد رجلاً ذا اطلاع أفضل من ديكنز، وفي بعض النواحي إنسانياً أكثر منه. لقد كره أعمال التعسف والانتهاكات التي استطاع إدراكها، وأظهرها في سلسلة من الروايات التي قُرأت بإفراط رغم كل سخافتها، وربما ساعد في تغيير الرأي العام في نقاط ثانوية قليلة، لكنها هامة، ولكن إدراك ذلك يتجاوز قدراته، بسبب الشكل القائم للمجتمع والشرور المعينة المستعصية على العلاج. التمسك بهذا التعسف الثانوي أو ذاك وفضحه وكشفه للعلن وإحضاره أمام هيئة محلفين بريطانية وكل شيء، سيكون على ما يرام. هكذا رأى الأمور. لم يتخيل ديكنز في أي مقياس أنك تستطيع مداواة البثرة باستئصالها. يستطيع المرء أن يرى في كل صفحة من أعماله وعياً بأن المجتمع خطأ في مكان ما في أساساته. لن يبدأ في فهم موقفه، إلا حين يسأل المرء "أي أساس؟"

الحقيقة هي إن نقد ديكنز للمجتمع أخلاقي حصراً في غالبه. لهذا تفتقر كل أعماله تماماً إلى أي اقتراح بناء. هو يهاجم القانون والحكومات النيابية والنظام التربوي وهلم جرا، من دون أي اقتراح واضح لما سيضعه بدلاً منها. طبعاً ليس من عمل الروائي بالضرورة أو الهجّاء أن يقدم اقتراحات بنّاءة، لكن المهم أن موقف ديكنز في أساسه ليس هداماً. لا توجد أي علامة واضحة بأنه يريد الإطاحة بالنظام القائم، أو أنه يؤمن بأن الإطاحة به تشكل فرقاً كبيراً، لأن هدفه في الواقع لم يكن المجتمع وإنما "الطبيعة الإنسانية". من الصعب الإشارة إلى مقطع في

أي من أعماله يوحي بأن النظام الاقتصادي خاطئ كنظام، ولم يهاجم في أي مكان المشاريع الخاصة أو الملكية الخاصة. حتى في كتاب مثل صديقنا المشترك الذي يشغل طاقة الجثث لتتصادم مع الناس الأحياء بواسطة إرادات حمقاء، لم يخطر له أن يوحي بأن الأفراد يجب ألا يملكوا هذه القدرة غير المسؤولة. طبعاً يستطيع المرء التوصل إلى هذا الاستنتاج بنفسه، ويستطيع المرء التوصل إليه من الملاحظات حول إرادة باوندرباي في نهاية أزمنة صعبة. وفي الحقيقة من كل أعمال ديكنز، يستطيع المرء استنتاج شر الرأسمالية المنفلتة؛ لكن ديكنز نفسه لا يقوم بهذا الاستنتاج. قيل إن ماكاولي رفض أن يراجع رواية أزمنة صعبة، لأنه لم يستحسن "اشتراكيتها الفظة". من الواضح أن ماكاولي يستخدم كلمة "اشتراكية" هنا بالمعنى نفسه الذي كان يُشار فيه، قبل عشرين سنة، إلى وجبة طعام نباتية أو إلى صورة تكعيبية بأنها "بلشفية" لا يوجد سطر واحد في الكتاب يمكن وصفه بأنه اشتراكي كما ينبغي؛ وميله في الواقع إن وُجد مناصر للرأسمالية، لأن المغزى الكلي للكتاب يكمن في أن الرأسمالية يجب أن تكون لطيفة وكريمة، وليس أن يكون الشغيلة متمردين. كان باوندرباي متبجحاً متنمراً، وكان غراندغريند أعمى أخلاقياً، ولو كانا رجلين أفضل، لاشتغل النظام بشكل جيد. ذلك هو المضمون. وبقدر ما يذهب إليه النقد الاجتماعي، لا يمكن للمرء أن يستخلص من ديكنز أكثر من هذا، إلا إذا قرأ فيه مدلولات بشكل متعمد. إن "رسالته" الكلية واحدة، وتبدو للنظرة الأولى مثل تفاهة: لو تصرف الناس بشكل محترم، لأصبح العالم محترماً.

طبعاً (وهذه رسالته) هو ينادي بضعة أشخاص في موقع السلطة، يتصرفون بشكل محترم. هذا الشخص الذي يصوره ديكنز بشكل متكرر، هو الرجل الغني الطيب، وهذا الشخص ينتمي إلى فترة ديكنز المتفائلة المبكرة على وجه الخصوص، وهو عادة "تاجر" (ليس علينا أن نعرف بأي بضاعة يتاجر). وهو دائماً سيد كبير السن طيب القلب بشكل فوق بشري "يهرول ذهاباً وإياباً، يرفع أجور موظفيه، ويربت على رؤوس الأطفال، ويُخرج المدينين من السجن". وفي العموم يقوم بدور العرّابة الجنية. طبعاً هو شخصية خيالية صرفة، وأبعد كثيراً عن الحياة الحقيقية من سكويزر أو ميكاوبر مثلاً. حتى ديكنز، كما يفترض، فكر ملياً أحياناً بأن الشخص التوّاق إلى التخلي عن ماله، يفترض أنه لا يجعله أبداً في الدرجة الأولى. إن السيد بيكويك مثلاً "ذهب إلى المدينة"، لكن من الصعب تخيل أنه جمع ثروة هناك. رغم ذلك، فإن هذه

الشخصية تسري مثل خيط واصل عبر معظم كتبه الأولى. بيكويك وآل تشيريبيل والعجوز تشوزلويت وسكروج- إنها نفس الشخصية تكرر مراراً، شخصية الرجل الغني الطيب الذي يناول الجنيهات. لكن ديكنز يبدي علامات عن تطوره هنا. وفي كتبه في الفترة الوسطى، يخبو الرجل الغني الطيب إلى حد ما، فليس هناك أحد لعب هذا الدور في **قصة مدينتين** أو في **آمال عظيمة**- إن **آمال عظيمة** في الحقيقة هجوم على الرعاية والإحسان- وفي **أزمنة صعبة**، لعب غراندغريند الدور بعد إصلاحه بشكل ملتبس. كما تظهر هذه الشخصية مرة أخرى في شكل مختلف قليلاً باسم ميغلز في **دوريت الصغيرة** وجون جارندايس في **بيت كئيب**- ويمكن للمرء أن يضيف بيستي تروتود في **ديفيد كوبرفيلد**. لكن في هذه الكتب، تضاءل الرجل الغني الطيب من "تاجر" إلى صاحب دخل من أرض أو سندات. هذا مهم. صاحب الدخل جزء من الطبقة المتملكة، يستطيع ومن دون أن يعرف ذلك تقريباً، أن يجعل أناساً آخرين يعملون من أجله، إلا أن سلطته المباشرة قليلة جداً. وعلى العكس، فإن سكروج أو آل تشيريبيل، لا يستطيع تصحيح كل شيء برفع أجور الجميع. إن الاستنتاج الظاهري من الكتب الكئيبة نوعاً ما التي كتبها ديكنز في الخمسينيات، هو أنه فهم في ذلك الوقت عجز الأفراد ذوي النوايا الحسنة في مجتمع فاسد. ومع ذلك، ففي الرواية الأخيرة المكتملة **صديقنا المشترك** (نشرت ١٨٦٤-٥)، يعود الرجل الغني الطيب بكل أبهته في شخص بوفين. بوفين بروليتاري في الأصل والمنشأ وغني بالميراث، لكنه **الرب الآلي أو الأداة السحرية**، يحل مشاكل كل واحد بإمطار نقوده في كل الاتجاهات. حتى إنه "يهرول" مثل آل تشيريبيل. إن **صديقنا المشترك** بطرق كثيرة، هي عودة إلى الأسلوب السابق، ولكن هذه العودة غير ناجحة كذلك. يبدو أن أفكار ديكنز بلغت دورتها الكاملة وعادت إلى بداياتها. مرة أخرى، يكون العطف الفردي هو العلاج لكل شيء.

أحد الشرور الصارخة في زمنه، التي لم يقل عنها ديكنز سوى القليل، هو عمل الأطفال. هناك وفرة من الصور لأطفال يعانون في كتبه، لكنهم يعانون في المدارس عادة بدلاً من المصانع. إن السرد الوحيد المفصل عن عمل الأطفال، هو ذاك الذي قدمه في وصفه لديفيد الصغير في **ديفيد كوبرفيلد** وهو يغسل القناني في مخزن ميردستون وغرينبي. وهذه سيرة ذاتية طبعاً؛ فديكنز نفسه في عمر العاشرة عمل في معمل ورين للصباغ في الستراند الذي يشبه

كثيراً ما وصفه هنا. كانت ذكرى مريرة مرعبة له، جزئياً لأنه شعر أن الحدث برمته ضار بسمعة والديه، وأخفاه عن زوجته حتى وقت طويل بعد زواجهما. عند تذكر هذه الفترة، يقول في ديفيد كوبرفيلد:

"إنها مسألة تدهشني نوعاً ما حتى الآن، كان يمكن لي أن أصبح منبوذاً ومهملاً بسهولة في هذا العمر. طفل ذو قدرات ممتازة وقوة ملاحظة، سريع ومتشوق ومرهف، ثم يتعرض لأذى جسدي وعقلي عاجلاً. بدا لي من الرائع لو أن أحداً ما أدلى بأي إشارة لصالحي، لكن ذلك لم يحدث، وأصبحت عاملاً صغيراً عمره عشر سنوات في خدمة موردستون وغرينبي".

كما وصف كثيراً الأولاد القساة الذين عمل وسطهم:

"ليس هناك كلمات تستطيع التعبير عن عذاب روحي حين انحدرت إلى هذه الرفقة.... وشعرت أن آمالي بأن أكبر وأتعلم وأكون رجلاً مميزاً، تُسحق في صدري".

من الواضح أن المتكلم ليس ديفيد كوبرفيلد، وإنما ديكنز نفسه، وهو يستخدم تقريباً نفس الكلمات في السيرة الذاتية، التي بدأ بكتابتها، ثم تخلى عنها قبل بضعة أشهر. إن ديكنز محق طبعاً في قوله إن الطفل الموهوب يجب ألا يعمل عشر ساعات في اليوم في لصق الرقع على القناني، لكنه لم يقل إن هذا القدر يجب ألا يكون مصير أي طفل. وليس هناك سبب للاستنتاج بأنه فكر بذلك. يهرب ديفيد من المستودع، لكن ميك وكر وميلي بوتيتوز وآخرين ظلوا هناك. ولا توجد أي إشارة بأن هذا أقلق ديكنز على نحو خاص، فهو كالعادة لم يكشف عن أي وعي في إمكانية تغيير بنية المجتمع. كما أنه يزدري السياسة، ولا يؤمن بأي شيء جيد يأتي من البرلمان- لقد كان كاتب اختزال في البرلمان، وكانت تجربة مخيبة للآمال بلا شك- وهو عدائي قليلاً تجاه أهم حركة واعدة في عصره، الحركة النقابية العمالية. في أزمنة صعبة تُصور الحركة النقابية كشيء ليس أفضل من صخب وشيء يحدث، لأن أصحاب العمل ليسوا أبويين (لطفاء) بشكل كافٍ. إن رفض ستيفن بلاكبول الانضمام إلى النقابة، يُعدّ فضيلة في نظر ديكنز. أشار السيد جاكسون أيضاً إلى أن جمعية الحرفيين في بارنابي رودج التي ينتمي إليها سيم تابيرتيت، كانت على الأرجح ضربة للنقابات غير الشرعية أو الشرعية بالكاد في عصر ديكنز. من الواضح أنه يريد أن يُعامل الشغيلة باحترام، لكن ليست هناك إشارة تبين أنه يريدهم أن يتولوا مصيرهم بأيديهم ولو بالعنف المكشوف.

كما يحدث، يتعامل ديكنز مع الثورة بأضيق إدراك في روايتين له: **بارنابي رودج وقصة مدينتين**. في **بارنابي رودج** تكون الثورة هي حالة شغب أكثر منها ثورة. إن أعمال شغب غوردون في عام ١٧٨٠ رغم تذرعها بالتعصب الديني، إلا أنها لم تعدُ عن كونها انفجاراً عبثياً من النهب. موقف ديكنز من هذا النوع من الأشياء مشار إليه بفكرته الأولى في جعل زعماء الشغب ثلاثة مجانين فروا من مصحة عقلية. كذريعة بدت مجرد اندلاع لنهب غير هادف، وقد نُصح في الامتناع عن هذا، لكن الشخصية الرئيسية في الكتاب هي معتوه ريفي في الحقيقة. في الفصول التي تعالج الشغب، يبدي ديكنز رعباً عميقاً من عنف الغوغاء، ويبتهج في وصف مشاهد تتصرف فيها "حثالة" السكان بوحشية فظيعة. إن هذه الفصول من الكتاب لها أهمية نفسية عظيمة، لأنها تظهر العمق الذي فكر فيه بهذا الموضوع. إن الأشياء التي وصفها لا تخرج إلا من خياله، إذ لم يحدث أي شغب أو ما يشبهه بنفس الدرجة في حياته. هذا واحد من أوصافه كمثال:

لو أن بوابات بيدلام (مستشفى المجانين في لندن – المترجم) فتحت على مصراعيها، لما تدفق منها ممسوسون مثل السعار الذي خرج منها في تلك الليلة. كان هناك رجال يرقصون ويدوسون على مساكب الزهور، كما لو كانوا يدوسون على أعداء بشريين، يلوونها وينتزعونها من سوقها مثل متوحشين يلوون وينتزعون رقاباً بشرية. هناك رجال يقذفون مشاعلهم في الهواء ويتركونها تسقط على رؤوسهم ووجوههم، فتقرح الجلد بحروق عميقة عنيفة. هناك رجال اندفعوا إلى النار وجذفوها بأيديهم، كما لو كانوا في الماء، وآخرون منعوا بالقوة من الغطس فيها ليشبعوا رغبتهم المميتة. صبي ثمل لم يبلغ العشرين من عمره من خلال منظره، استلقى على الأرض مع قنينة في فمه، فانهمر الرصاص من السقف على جمجمته، وتدفق في وابل من النار السائلة الحارة البيضاء، وصهرت رأسه كالشمع.... لكن لم يعرف أحد من كل الحشد الكبير المولول الرحمة أو الاشمئزاز من هذه المناظر؛ ولم يشبع الغيظ الرهيب والمخبول والأحمق رجلاً واحداً.

ربما تظن أنك كنت تقرأ وصفاً لـ "الحمر" تقريباً كتبه أحد أنصار الجنرال فرانكو. ينبغي على المرء طبعاً أن يتذكر أن "غوغاء" لندن مازالت موجودة عندما كان ديكنز يكتب. (الآن ليس هناك غوغاء، بل مجرد قطيع فقط). لقد سببت الأجور المتدنية والنمو وانتقال السكان،

بوجود بروليتاريا الأحياء الفقيرة الهائلة، ولم تكن هناك قوة شرطة حتى أواسط القرن التاسع عشر. حين بدأت شظايا القرميد بالتطاير، لم يكن هناك شيء بين إغلاق مصاريع نوافذك وأمر الجنود في فتح النار. في **قصة مدينتين** يتعامل ديكنز مع ثورة كانت حول شيء ما في الحقيقة، وكان موقفه مختلفاً لكن ليس كلياً. من الحقيقي والمسلم به أن **قصة مدينتين** كتاب يميل إلى ترك انطباع زائف خلفه، خصوصاً بعد مرور فترة من الوقت.

الشيء الوحيد الذي يتذكره كل من قرأ **قصة مدينتين**، هو عهد حكم الإرهاب. الكتاب كله تهيمن عليه عربات المقصلة وهي ترعد ذهاباً وإياباً، وسكاكين تقطر دماً ورؤوس تتدحرج إلى داخل سلة، وعجائز فاسدات يحكن وهن يتفرجن. في الواقع هذه المشاهد لا تشغل سوى بضعة فصول، لكنها كُتبت بكثافة شديدة، وبقية الكتاب عبارة عن تقدم بطيء. لكن **قصة مدينتين** ليست مجلداً وصيفاً لـ **كزبرة الثعلب القرمزية**. لقد رأى ديكنز بوضوح أن الثورة الفرنسية كانت ستحدث بشكل مؤكد، وأن الكثير من الأشخاص الذين أعدموا يستحقون ما نالوه. وقال إن تصرفتم كما فعلت الأرستقراطية الفرنسية، ستواجهون الانتقام. كرر هذا مراراً، وذُكرنا بشكل دائم أنه طالما "سيدي" يتسكع في السرير مع أربعة خدم ببزاتهم الرسمية يعدون ويقدمون له شراب الشوكولا والفلاحون يموتون من الجوع، ستنمو في الخارج في مكان ما في الغابة شجرة وتقطع وتُنشر في الحال إلى ألواح من أجل منصة المقصلة إلخ، إلخ، إلخ. لقد أكد على حتمية الإرهاب المعروفة أسبابه بأوضح العبارات:

كان التحدث عن هذه الثورة الرهيبة، كما لو أنها كانت الحصاد الوحيد المعروف تحت السماوات الذي لم يُبذر-وكأن شيئاً لم يُفعل أي شيء أو يُهمل أدى إليها، وكأن مراقبو الملايين البائسة في فرنسا والموارد التي استخدمت بشكل سيء التي كان مناطاً بها أن تجعلهم مزدهرين، لم يروها قادمة حتماً قبل سنوات من حدوثها، ولم يدونوا ما رأوه في عبارات صريحة.

مرة أخرى:

كل الوحوش المفترسة والنهمة التي يمكن تخيلها منذ بدأ تدوين التخيل، اندمجت في تحقق واحد هو المقصلة. ومع ذلك لا يوجد في فرنسا بتنوعها الغني في التربة والمناخ، نصل نبتة وورقة وجذر ونبع وحبة فلفل تنمو لتنضج تحت ظروف مؤكدة، أكثر من تلك التي أنتجها

هذا الرعب. اسحقْ الإنسانية وشوّهها مرة أخرى تحت مطارق مماثلة، وستحيك ذاتها في الأشكال المعذبة نفسها.

بكلمات أخرى، لقد حفرت الأرستقراطية الفرنسية قبرها بيديها. لكن لا توجد هنا بصيرة لما يسمى الآن بالحتمية التاريخية. يرى ديكنز أن النتائج حتمية بفضل الأسباب، لكنه يعتقد بإمكانية تفادي الأسباب. الثورة شيء ما، حدث بسبب قرون من الاضطهاد، جعلت طبقة الفلاحين الفرنسيين دون مستوى البشر. لو استطاع النبيل الشرير قلب صفحة جديدة مثل سكروج، لما كانت هناك ثورة أو فلاحون ثوار (جاكريه) أو مقصلة، وهذا أفضل. هذا نقيض الموقف "الثوري". من وجهة النظر "الثورية" فإن الصراع الطبقي هو المصدر الأساسي للتقدم، وذلك النبيل الذي سرق الفلاح ودفعه ليثور، يلعب دوراً ضرورياً بقدر دور اليعقوبي الذي قصل النبيل. لم يكتب ديكنز سطراً واحداً في أي مكان يمكن تفسيره بهذا المعنى. والثورة كما يراها هي مجرد مسخ ينجبه الاستبداد، وتنتهي دائماً بالتهام أدواتها الخاصة بها. في رؤية سيدني كارتون في أسفل المقصلة، يتنبأ بفناء ديفارج وأرواح كل قادة الإرهاب الأخرى تحت السكين نفسها- وهو ما حدث تقريباً في الواقع.

إن ديكنز متأكد جداً بأن الثورة مسخ. لهذا السبب يتذكر كل واحد أن للمناظر الثورية في **قصة مدينتين** صفة الكابوس، وهو كابوس ديكنز الخاص به. يصرّ ديكنز المرة تلو الأخرى على رعب الثورة العبثي- المجازر الجماعية والظلم وإرهاب الجواسيس الحاضر دائماً ورغبة الغوغاء المخيفة المتعطشة للدماء. إن المقاطع التي وصف فيها غوغاء باريس- كوصف حشد القتلة وهم يتصارعون حول المجلخة لشحذ أسلحتهم قبل ذبح السجناء في مذابح سبتمبر- فاقت أي شيء في بارنابي رودج. لقد بدا له الثوار همجيين منحطين ومجانين في الحقيقة. تأمل سعارهم بكثافة خيالية لافتة، وهو يصفهم يرقصون "الكارمانيول" مثلاً:

لا يمكن أن يكونوا أقل من خمسمائة شخص، وكانوا يرقصون مثل خمسة آلاف عفريت..... رقصوا لأغنية الثورة الفرنسية المحبوبة، وحافظوا على تزامن شرير كان مثل صرير أسنان متناغم.... تقدموا، تراجعوا، ضربوا أيادي بعضهم البعض، تشبثوا برؤوس بعضهم، لفوا حول أنفسهم فرادى، أمسك بعضهم بالآخر، وألفوا أزواجاً، حتى سقط الكثير منهم.... فجأة توقفوا ثانية، تأنوا، بدؤوا الجولة من جديد، وشكلوا صفوفاً بعرض

الطريق العام وبرؤوسهم التي نكسوها نحو الأسفل وأيديهم المرفوعة إلى الأعلى انقضوا وهم يزعقون. ليس هناك قتال بنصف رعب وإرهاب هذه الرقصة. كانت تسلية هابطة بشكل لافت للنظر، وشيئاً كان بريئاً مرة، لكنه سُلم لسلطة شيطانية.

حتى إنه ينسب إلى بعض من هؤلاء الحقراء ميلاً لقصل الأطفال. إن الفصل الذي أوجزته آنفاً، يجب أن يُقرأ بأكمله، فهو كغيره من المقاطع المشابهة له، يبين كم كان رعب ديكنز عميقاً من الهستريا الثورية. لاحظ مثلاً ذلك الأثر "برؤوسهم التي نكسوها نحو الأسفل وأياديهم المرفوعة إلى الأعلى"، إلخ...، والصورة الشريرة التي تنقلها. إن السيدة ديفارج شخصية بغيضة جداً في الحقيقة، وهي بالتأكيد أنجح محاولات ديكنز في تصوير شخصية الخبيث. إن ديفارج وآخرين ليسوا سوى المضطهدين الجدد والظالمين الذين انبثقوا من دمار المضطهدين القدماء. "المحاكم الثورية يرأسها أحط وأقسى العوام" وهكذا، وهلم جرا. من البداية حتى النهاية، يصرّ ديكنز على عدم الأمان الكابوسي للفترة الثورية. وفي هذا يبدي مقداراً كبيراً من التبصر. "قانون المشتبه به الذي أزال كل ضمانة للحرية أو الحياة، وسلم أي شخص طيب وبريء إلى أي شخص سيئ ومذنب؛ غصت السجون بأشخاص لم يرتكبوا أي إثم من دون أن يتمكنوا من فرصة لسماع أقوالهم"- وهذا يطبق على نحو دقيق تماماً في كثير من البلدان اليوم.

يحاول المدافعون عن أي ثورة، التقليل من رعبها عادة. أما حافز ديكنز فكان أن يضخم رعبها- و بالغ في ذلك بالتأكيد من وجهة نظر تاريخية. حتى عهد حكم الإرهاب كان شيئاً أصغر بكثير مما أظهره ديكنز. رغم أنه لم يعط أرقاماً، إلا أنه أعطى انطباعاً لمذبحة مسعورة استمرت لسنين، بينما في الحقيقة كان الإرهاب برمته وبأقصى عدد للأموات، مجرد دعابة مقارنة بمعركة واحدة من المعارك التي خاضها نابليون. لكن السكاكين التي تقطر دماً وعربات الفلاحين التي تتدحرج ذهاباً وإياباً، خلقت في ذهنه رؤية شريرة خاصة، نجح في تمريرها إلى أجيال من القراء. بفضل ديكنز أصبح لكلمة "عربة" نفسها صوت قاتل؛ حتى إن المرء ينسى أن الكلمة تعني مجرد نوع من عربات المزارع. إلى هذا اليوم، لا تعني الثورة الفرنسية للشخص الإنكليزي العادي أكثر من هرم من الرؤوس المقطوعة. شيء غريب أن يلعب ديكنز، المتعاطف مع أفكار الثورة أكثر من أغلب الإنكليز في زمنه، دوراً في خلق هذا الانطباع.

إن كنت تكره العنف ولا تؤمن بالسياسية، فإن العلاج الوحيد المتبقي هو التعليم. ربما فات الأوان على التضرع والصلاة من أجل المجتمع، لكن يظل هناك دائماً أمل بالكائن الإنساني الفرد، إن لحقت به وهو صغير كفاية. هذه الاعتقاد يفسر جزئياً ويبرر انهماك ديكنز بالطفولة وانشغاله بها.

لا يوجد أحد، وفي كل الأحوال لا يوجد كاتب إنكليزي كتب عن الطفولة أفضل من ديكنز. رغم كل المعارف التي تراكمت منذ ذلك الحين، ورغم حقيقة أن الأطفال يعاملون الآن بطريقة سليمة وعقلانية نسبياً، فليس هناك روائي أظهر نفس المقدرة على الدخول إلى قلب وجهة نظر الطفل. يفترض أنني كنت في التاسعة من عمري تقريباً حين قرأت ديفيد كوبرفيلد لأول مرة. الجو الفكري للفصول الافتتاحية كان مفهوماً لي في الحال، لذلك تخيلتُ بصورة مبهمة أنها كُتبت بواسطة طفل، ولكن حين يعيد قراءة الكتاب رجل راشد ويرى آل ميردستون مثلاً، يتضاءلون من شخصيات عملاقة تتحكم بالأقدار إلى مسوخ شبه هزلية، هذه المقاطع لا تخسر شيئاً. كان ديكنز قادراً على أن يقف داخل وخارج عقل الطفل معاً، بطريقة يمكن لنفس المنظر أن يكون سخرية شديدة أو واقعية مشؤومة وفقاً للعمر الذي يقرؤه الشخص فيه. انظر مثلاً إلى المشهد الذي اتُّهم فيه ديفيد كوبرفيلد ظلماً بأكل قطع لحم الضأن، أو المشهد من آمال كبيرة، الذي فيه بيب العائد من الآنسة بيت هافيشام، ويجد نفسه عاجزاً تماماً عن وصف ما رآه، فيلجأ إلى سلسلة من الأكاذيب الفاضحة -التي تُصدق بتلهف طبعاً. تجد كل انعزال الطفولة هناك والدقة العالية التي سجل فيها آليات ذهن الطفل ونزعته للتخيل وحساسيته إلى أنواع محددة من الانطباع. يروي بيب كيف اشتق في طفولته أفكاره عن والديه الميتين من شاهدتي قبريهما:

أشكال الحروف على ضريح والدي أعطتني فكرة غريبة، بأنه كان رجلاً أسمر مربعاً وسميناً مع شعر أسود مجعد. من طبيعة ودوران النقش في عبارة "أيضاً غريغوريا زوجة المذكور آنفاً"، استنتجت استنتاجاً طفولياً بأن أمي كانت منمشة وسقيمة. خمسة أحجار مربعة صغيرة، طول الواحدة منها حوالي قدم ونصف، رتبت في صف أنيق بجانب قبريهما، كانت مخصصة لذكرى خمسة من أشقائي.... أنا مدان لاعتقاد استضفته بورع بأنهم ولدوا كلهم على ظهورهم، وأيديهم في جيوب سراويلهم، ولم يخرجوها أبداً في هذه الحالة من الوجود.

هناك مقطع مشابه في **ديفيد كوبرفيلد**. بعد عضّ يد السيد ميردستون، يُبعد ديفيد إلى مدرسة ويُجبر على وضع إعلان على ظهره يقول "احذروا منه. إنه يعضّ". ينظر إلى الباب في الملعب حيث نقش الأولاد أسماءهم، ومن مظهر كل اسم تراءى له أنه يعرف نغمة صوت الصبي الذي سيقرأ الإعلان:

كان هناك صبي - محدد جي ستيرفورث - حفر اسمه عميقاً جداً، وكثيراً ما تخيلتُ أنه سيقرأه بصوت قوي نوعاً ما، ثم يشد شعري، وهناك ولد آخر هو تومي ترادليز، خشيت أن يجعل منه لعبة، ويتظاهر بأنه خائف بشكل مفزع مني، وكان هناك ثالث جورج ديمبل تخيلت أنه سيغنيه.

حين قرأت هذا المقطع كطفل، بدا لي أن هؤلاء كانوا بالضبط الصور التي تستحضرها تلك الأسماء الخاصة. السبب طبعاً هو الترافق الصوتي لكلمات ("ديمبل" ومعبد و"ترادليز" وفرار). لكن كم شخصاً قبل ديكنز لاحظ مثل هذه الأشياء؟ الموقف المتعاطف تجاه الأطفال كان شيئاً أندر بكثير في عهد ديكنز مما هو الآن. لم يكن القرن التاسع عشر زمناً جيداً لتكون طفلاً فيه. في شباب ديكنز، كان الأولاد "يحاكمون بوقار في أقفاص المحاكم الجنائية حيث يحتجزون لكي يُشاهدوا"، وليس بعيداً الزمن الذي كان يُشنق الأطفال فيه وهم في الثالثة عشرة من العمر بسبب سرقات تافهة. عقيدة "كسر روح الطفل" كانت في أوجها وكان كتاب **عائلة فيرتشايلد**، هو الكتاب المعياري للأطفال حتى وقت متأخر في القرن. هذا الكتاب المشؤوم الذي تصدر منه الآن طبعات جميلة خاضعة للرقابة، يجدر أن يُقرأ بنسخته الأصلية. إنه يعطي فكرة ما عن الأبعاد التي وصل إليها انضباط الطفل أحياناً. السيد فيرتشايلد مثلاً حين يمسك أطفاله يتشاجرون، كان يضربهم أولاً، ويتلو عليهم كلام الدكتور واتس "دعوا الكلاب تبتهج لتنبح وتعضّ" بين ضربات العصا، ثم يأخذهم لقضاء فترة بعد الظهر تحت مشنقة؛ حيث تعلق جثة قاتل متعفنة. في القسم الأول من القرن كان عشرات آلاف الأطفال من أعمار صغيرة حتى السادسة أحياناً يُشغلون فعلياً حتى الموت في المناجم أو معامل القطن، وكان الأولاد يجلدون بالسياط حتى في المدارس الخاصة الحديثة، حتى يتدفق الدم منهم لخطأ في أبيات من الشعر اللاتيني. يبدو أن ديكنز قد اعترف بشيء واحد لم يعترف به أغلب معاصريه وهو العنصر الجنسي السادي في الجلد. أعتقد أنه يمكن

استنتاج هذا من **ديفيد كوبرفيلد** ونيكولاس نيكلباي. إن القسوة العقلية تجاه الأطفال أثارت حنقه بقدر القسوة الجسدية، ولكن هناك عدداً لا بأس به من الاستثناءات، فنظراء مدرسته أوغاد عموماً.

لقد تعرضت كل أنواع التعليم الموجود آنذاك، باستثناء الجامعات والمدارس الخاصة الكبيرة، لنقد شديد من ديكنز. هناك أكاديمية الدكتور بليمبر؛ حيث يقصف الأولاد باللغة الإغريقية حتى ينفجرون، ومدراس المؤسسات الخيرية المقززة في تلك الفترة التي أنتجت عينات مثل نوح كليبول ويورياه هيب وسالم هاوس ودوذابويز هول، ومدرسة السد الصغيرة الشائنة التي تديرها عمة السيد وبسل الكبيرة. إن بعض ما قاله ديكنز يظل صحيحاً حتى اليوم. سالم هاوس هي سلف "المدرسة الإعدادية الحديثة التي مازالت تحمل شبهاً كبيراً منها؛ وبالنسبة إلى عمة السيد وبلس الكبيرة، مازال بعض من الخداع القديم ذو الطابع نفسه مستمراً في هذه اللحظة في كل بلدة صغيرة في إنكلترا تقريباً. لكن كالعادة، لم يكن نقد ديكنز خلاقاً أو هداماً، إنه يري بلاهة النظام التعليمي المبني على المعجم الإغريقي والعصا التي عولجت أطرافها بالشمع؛ ومن جانب آخر لم يكن لديه أي نفع للنوع الجديد من المدارس التي ظهرت في الخمسينيات والستينيات، المدرسة "الحديثة" بإصرارها الشجاع والحازم على "الحقائق". إذاً ما الذي يريده؟ كما هو الحال دائماً، ما يريده على ما يبدو هو نسخة فاضلة من الشيء الموجود- الطراز القديم من المدارس، لكن من دون ضرب بالعصا ومن دون تنمر أو تغذية ناقصة ومن دون الكثير جداً من اللغة الإغريقية. إن مدرسة الدكتور سترونغ التي ذهب إليها ديفيد كوبرفيلد بعد فراره من مدرسة موردستون وغرينباي، هي ببساطة سالم هاوس بحذف العيوب منها وإضافة قدر جيد من جو مدرسة "أولد غري ستونز":

"كانت مدرسة الدكتور سترونغ ممتازة ومختلفة عن مدرسة السيد كريكل كما الخير عن الشر. كانت رزينة ومرتبة بشكل محترم، ومبنية على نظام سليم، ودعوة في كل شيء إلى احترام الصبيان وحسن نواياهم.......... التي فعلت المعجزات. شعرنا كلنا أن لنا دوراً في إدارة المكان وفي دعم خصوصيته وكرامته، لهذا أصبحنا مرتبطين به فوراً- أنا متأكد أنني عملت من أجل واحد، ولم أعرف في حياتي كلها صبياً مختلفاً- وتعلمت بنية طيبة وهمة جيدة وتقت إلى جعلها مفخرة. كانت لدينا ألعاب نبيلة لساعات، ووفرة من الحرية، لكن حتى في ذلك الوقت

كما أتذكر، تحدثت عنا البلدة بكلام طيب، ولم نرتكب أي عمل مخزٍ بمظهرنا أو بسلوكنا يضر بسمعة الدكتور سترونغ وصبيانه"

في غموض هذا المقطع المشوش، يرى المرء افتقار ديكنز الكلي لأي نظرية تعليمية. يستطيع تخيل الجو الأخلاقي للمدرسة الجيدة، لكن لا شيء أكثر من ذلك. الصبيان "يتعلمون بمشيئة طيبة"، لكن ما الذي يتعلمونه؟ لا شك بأنه منهاج دكتور بليمبر بشكل مخفف قليلاً. بتأمل موقف ديكنز من المجتمع المتضمن في كل أعماله، يوشك المرء أن يصدم حين يعرف أنه أرسل ابنه الأكبر إلى إيتون، وأرسل أولاده كلهم إلى طاحونة التعليمي العادي. يعتقد غيسينغ أنه ربما فعل هذا، لأنه كان مدركاً بنحو موجع بتدني مستواه التعليمي. لم يتلقّ ديكنز تعليماً رسمياً أو القليل منه، لكنه لم يخسر شيئاً بتضييعه. وفي المجمل كان مدركاً لهذا. ولو أنه كان عاجزاً عن تخيل مدرسة أفضل من مدرسة دكتور سترونغ في الحياة الحقيقية، فذلك يعود إلى نقص فكري مختلف عما يوحي به غيسينغ.

يبدو أن كل هجوم يشنه ديكنز على المجتمع، كان يشير دائماً إلى تغيير في الروح بدلاً من تغيير في البنية. من العبث أن تحاول أن تنسبه إلى أي علاج محدد أو أي عقيدة سياسية. كانت مقاربته دائماً بموازاة المستوى الأخلاقي، ويلخص موقفه على نحو كاف في تلك الملاحظة حول مدرسة سترونغ، كونها مختلفة عن مدرسة كريكل "كاختلاف الخير عن الشر". شيئان يمكن أن يكونا متشابهين جداً، ومع ذلك يختلفان بشكل مطلق. إن الفردوس والجحيم في المكان نفسه. لا فائدة من تغيير المؤسسات بدون "تغيير في القلوب"؛ هذا جوهر ما يقوله دائماً.

إن كان ذلك كل شيء، فربما لا يكون أكثر من كاتب مبهج ودجال رجعي. إن "تغيير في القلوب" في الحقيقة، هو العذر الذي يقدمه الأشخاص الذين لا يرغبون في تعريض الوضع القائم للخطر. لكن ديكنز ليس دجالاً، باستثناء القضايا الثانوية، والانطباع الأقوى الوحيد الذي يحمله من كتبه هو كرهه للاستبداد. لقد قلت سابقاً إن ديكنز ليس كاتباً ثورياً بالمعنى المستحسن، لكن من غير المؤكد نهائياً أن النقد الأخلاقي للمجتمع ليس كالنقد "الثوري" تماماً - والثورة أخيراً تنعي قلب الأشياء رأساً على عقب-مثل النقد السياسي - الاقتصادي الرائج في هذه اللحظة. لم يكن بليك سياسياً، لكن فهمه لطبيعة المجتمع السياسي في قصيدة مثل "أنا أهيم في كل شارع مرسوم" أكثر من ثلاثة أرباع الأدب السياسي. إن التقدم ليس

وهماً. إنه يحدث، لكن ببطء ومخيباً للآمال بشكل متغير. دائماً هناك طاغية جديد يستولي على السلطة من طاغية قديم- ليس بنفس الدرجة من السوء عادة، لكنه يظل طاغية. وبناءً عليه، فكلا الرأيين مبرران دائماً. الرأي الأول، كيف تستطيع تحسين الطبيعة الإنسانية قبل أن تغير النظام؟ والرأي الآخر ما الفائدة من تغيير النظام قبل أن تحسن الطبيعة البشرية؟ إنهما يجذبان أفراداً مختلفين، ويظهران ميلاً إلى التبادل في نقطة من الزمن. الفاضل والثوري يقوضان بعضهما البعض باستمرار. فجر ماركس مئة طن من الديناميت تحت موقع الفاضل، ونحن لا نزال نعيش في صدى ذلك الارتطام الهائل. لكن مسبقاً، وفي مكان ما أو آخر، يعمل مهندسو الألغام وقد حشوا ديناميتاً جديداً معداً لنسف ماركس وإرساله إلى القمر. عندئذ سيرد ماركس أو أحد ما مثله بديناميت أكثر. وهكذا تستمر العملية إلى نهاية لا يمكننا التنبؤ بها، وتبقى المشكلة المركزية- كيف يمكن منع إساءة استعمال السلطة- دون حل. إن ديكنز الذي لم تكن له البصيرة ليرى أن الملكية الخاصة عائقاً مزعجاً، كانت لديه البصيرة ليرى أنه "لو تصرف البشر بطريقة محترمة فسيكون العالم محترماً" وهذه ليست ملاحظة تافهة كما تبدو.

القسم الثاني:

ربما يمكن تفسير ديكنز على ضوء أصله الاجتماعي أكثر من أي كاتب آخر، رغم أن تاريخ عائلته في الواقع ليس ما يستنتجه المرء تماماً من رواياته. كان والده كاتباً في الخدمة الحكومية، ولديه أقرباء من خلال عائلة والدته في الجيش والبحرية، لكنه من عمر التاسعة وبعد، تربى في لندن في بيئة تجارية وفي جو من فقر مجهد عموماً. عقلياً هو ينتمي إلى البرجوازية المدينية الصغيرة، وكان أنموذجاً رائعاً وفذاً لهذه الطبقة بكل "النقاط" المتطورة جداً. وهذا ما جعله مشوقاً وممتعاً جزئياً. وإن أراد المرء مكافئاً عصرياً له، فسيكون الأقرب اتش جي ويلز، الذي لديه تاريخ مماثل إلى حد ما، والذي يدين وبوضوح بشيء لديكنز كروائي. كما أن أرنولد بينيت جوهرياً من نفس النوع أيضاً، لكنه على خلاف الاثنين السابقين، كان من وسط البلاد ومن خلفية صناعية منشقة عن الكنيسة، ولم يكن من خلفية تجارية أنجليكانية.

إن مساوئ ومحاسن البورجوازية المدينية الصغيرة، هي وجهة نظره المحدودة. إنه يرى العالم عالم للطبقة الوسطى، وكل شيء خارج هذه الحدود القصوى، هو إما مثير للسخرية أو

شرير قليلاً. فهو من جهة، ليس له أي تماس مع الصناعة أو الأرض، ومن جهة أخرى ليس له تماس مع الطبقات الحاكمة. كل من يقرأ روايات ويلز بشكل مفصل، يلاحظ أنه رغم كرهه للأرستقراطي (النبيل) مثل السم، لم يكن لديه اعتراض خاص على البلوتوقراطي (الثري المتنفذ) ولا حماس للبروليتاري (العامل- الكادح). الأنموذج الذي يكنّ له أشد الكره هم الأشخاص الذي يعتقد أنهم المسؤولون عن كل الشرور البشرية، الملوك وأصحاب الأراضي والكهنة والقوميون والجنود والعلماء والفلاحون. إن القائمة التي تبدأ بملوك وتنتهي بفلاحين، تبدو في الوهلة الأولى خليطاً، لكن في الحقيقة فإن كل هؤلاء الناس لديهم عامل مشترك. كلهم نماذج عتيقة وأناس تحكمهم التقاليد وعيونهم استدارت باتجاه الماضي، لذلك فإن العكس منهم هو البورجوازي الصاعد الذي وضع نقوده على المستقبل، ويرى الماضي مجرد أثر غير مرغوب.

لقد عاش ديكنز في الحقيقة في فترة كانت البورجوازية فيها طبقة صاعدة فعلياً، ويبرز هذه الصفة بقوة أقل من ويلز، كما أنه لم يكن مدركاً وشاعراً بالمستقبل تقريباً، ولديه حب للتصويرية ("الكنيسة القديمة غريبة الطراز" الخ). وعلى الرغم من ذلك فإن قائمته لأشد النماذج المكروهة، تشبه قائمة ويلز، لأن التماثل بينهما لافت. هو يقف إلى جانب الطبقة العاملة على نحو مبهم- لديه تعاطف معهم لأنهم مضطهدون- لكنه في الحقيقة لا يعرف شيئاً عنهم؛ يأتون في كتبه كخدم بشكل رئيسي وخدم مضحكون. في الطرف الآخر من كفة القياس، هو يشمئز من النبيل و- يتفوق على ويلز في هذا الاشمئزاز الذي يطال البورجوازي الكبير أيضاً. إن تعاطفه الحقيقي يقتصر على السيد بيكويك في حده الأعلى، وعلى السيد باركيس في حده الأدنى، لكن مصطلح "أرستقراطي" بالنسبة إلى الأنموذج الذي يكرهه ديكنز، غامض ويحتاج إلى تعريف وتحديد.

في الواقع لم يكن هدف ديكنز الأرستقراطية الكبيرة جداً، التي نادراً ما دخلت في كتبه بقدر فروعها الصغيرة، كأرامل النبلاء العجائز المتسولات اللواتي يعشن في بيوت صغيرة كالإسطبلات في مايفير، والبيروقراطيين والجنود المحترفين. في أعماله كلها هناك صور عدائية لا تحصى لهؤلاء الناس، ونادراً ما كانت ودية. لا توجد عملياً صور ودية لطبقة ملاكي الأراضي مثلاً. ربما يشكك المرء بالسير ليزيستر ديدلوك كاستثناء؛ لهذا ليس هناك سوى السيد

وادل (وهو شخصية مخزنة لـ"تابع الفارس القديم الطيب" وهاريديل في بارنابي رودج الذي نال تعاطف ديكنز لأنه كاثوليكي مضطهد. ليس هناك صور ودية للجنود (الضباط) أو رجال البحرية. بالنسبة إلى بيروقراطييه وحكامه وقضاته، فكلهم يشعرون بالارتياح في مكتب الإسهاب. الموظفون الوحيدون الذين يتعامل معهم ديكنز بدون أي نوع من الود وبشكل واضح، هم رجال الشرطة.

إن موقف ديكنز مفهوم بسهولة للشخص الإنكليزي، لأنه جزء من التقليد الإنكليزي المتزمت الذي يمت إلى هذا اليوم. إن الطبقة التي ينتمي إليها ديكنز بالتبني على الأقل، كانت تزداد ثراء على حين غرة بعد قرنين من الخمول. لقد نمت، بشكل رئيس، في البلدات الكبيرة التي ليس لها أي اتصال بالزراعة، وكانت الحكومة، العاجزة سياسياً في أن تجرب شيئاً، إما متدخلة بشؤونها أو قمعية. وبناءً عليه كانت طبقة ليس لها تقاليد في الخدمة العامة، وليس لها الكثير من تقاليد المنفعة. إن الذي يلفت نظرنا كشيء رائع الآن حول الطبقة الجديدة الغنية في القرن التاسع عشر، هو عدم مسؤوليتها التامة؛ فأفرادها يرون كل شيء من خلال النجاح الفردي من دون أي شعور بوجود المجتمع. من جانب آخر كانت لدى تايت بارناكل، حتى حين كان يهمل واجباته، فكرة غامضة للواجبات التي كان يهملها. إن موقف ديكنز لم يكن غير مسؤول أبداً، فقد ظل يأخذ خط سمايلز المنقب عن المال؛ لكن في خلفية ذهنه كان هناك دائماً شبه اعتقاد بأن الجهاز الحكومي برمته غير ضروري، فالبرلمان ليس أكثر من لورد كودل والسير توماس دودل، والإمبراطورية الميجور باغستوك وخادمه الهندي، والجيش الكولونيل تشاوزر والدكتور سلامر، والخدمات العامة مكتب الإسهاب، وهلم جر. الذي لم يره أو رآه بشكل متقطع أن كودل ودودل وكل الجيف الأخرى المتبقية من القرن الثامن عشر، كانت تنجز وظيفة، ولم تكن تقلق وتزعج بيكويك ولا بوفين أبداً.

إن هذا الضيق في الرؤيا، واحد من الفوائد العظيمة له طبعاً، لأن رؤية الكثير جداً قاتلة بالنسبة إلى رسام الكاريكاتير. من وجهة نظر ديكنز "الطيب" هم مجرد مجموعة من البلهاء القرويين. يا لها من عصبة، ليدي تيبينز! السيدة غوان! لورد فيرسوفت! الموقر بوب ستيبلز! السيدة سبارسيت (زوجها أسير حرب)! ذا تايت بارناكلز! نوبكينز! إنه سجل حالات الجنون. لكن في الوقت نفسه، فإن بعده عن طبقة ملاكي الأراضي والعسكر والبيروقراطيين

أوهنه من الهجاء الكامل. لم يكن ينجح مع هذه الطبقة إلا حين يصور أفرادها كعاهات عقلية. الاتهام الذي وجه ضد ديكنز في حياته بأنه "لم يستطع أن يصور الجنتلمان" كان سخافة، لكنه صحيح بهذا المعنى. لذلك ما يقوله ضد طبقة "الجنتلمان" نادراً ما كان مؤذياً جداً، فالسير موليبري هوك مثلاً محاولة بائسة لأنموذج البارون الشرير، أما هارتهاوس في أزمنة صعبة، فإنه أفضل، لكنه مجرد مأثرة عادية بالنسبة إلى ترولوب أو ثاكري. إن أفكار ترولوب قلما انتقلت إلى خارج طبقة "الجنتلمان"، لكن لثاكري أفضلية كبرى، فقد كان له موطئ قدم في معسكرين أخلاقيين، وكانت وجهة نظره مشابهة جداً لوجهة نظر ديكنز في بعض النواحي، فقد تعاطف مثل ديكنز مع الطبقة الغنية المتزمتة ضد الأرستقراطية التي تلعب القمار وتتهرب من سداد الديون. والقرن الثامن عشر، كما يراه، يخترق القرن التاسع عشر، ويظهر فيه بشكل بارز في شخص اللورد ستاين الشرير. إن دار الغرور عبارة نسخة طويلة لما فعله ديكنز في بضعة فصول في دوريت الصغيرة، لكن بالأصول والتربية كان ثاكري أقرب نوعاً ما إلى الطبقة التي هجاها. وبناءً على ذلك استطاع أن ينتج نماذج مصقولة نسبياً كالميجور بينديس ورودون كروالي مثلاً، فالميجور بينديس نفاج ضحل عتيق ورودون كراولي شرير غبي لا يرى خطأ في العيش لسنين في الاحتيال على أصحاب المتاجر؛ لكن ثاكري يدرك أنهما ليسا رجلين سيئين بناءً على نظامهما الأخلاقي المعوج. إن الميجور بينديس لا يوقع شيكاً باطلاً مثلاً، أما رودون فيفعل ذلك بالتأكيد، لكنه من جانب آخر لا يتخلى عن صديق يكون في وضع حرج. وكلاهما تصرفا بصورة جيدة في ساحة المعركة- شيء لم يكن جذاباً لديكنز. النتيجة أنه في النهاية يُترك المرء مع نوع من التسامح نحو الميجور بينديس ومع شيء يقارب الاحترام لرودون؛ لكن المرء يرى بشكل أفضل مما يفعله أي نقد لاذع، الفساد المطلق والفاضح لذلك النوع من حياة التسول والتزلف على هوامش مجتمع نشيط وذكي ومنظم. إن ديكنز سيكون عاجزاً عن هذا، وبيديه سينحط كل من رودون والميجور إلى رسمين كاريكاتوريين. وبالمجل، إن هجماته على المجتمع "الجيد" ميكانيكية وفاترة نوعاً ما. إن الأرستقراطية والبورجوازية الكبيرة توجدان في كتابه بشكل رئيس كنوع من "ضجيج بعيد" وكورال متلعثم في مكان ما في الأجنحة مثل ولائم بودسناب المسائية. حين ينتج صورة مؤذية مصقولة بشكل حقيقي مثل جون دوريت أو هارولد سكيمبول، تكون عادة لشخص عادي غير مهم.

إن الشيء اللافت جداً حول ديكنز، خصوصاً إذا أخذنا الزمن الذي عاش فيه في الاعتبار، هو افتقاره إلى النزعة القومية السوقية. كل الشعوب التي وصلت إلى النقطة التي أصبحت فيه أمماً تميل إلى احتقار الأجانب، وليس هناك شك كبير بأن السلالات الناطقة بالإنكليزية هي أسوأ المذنبين. يستطع المرء أن يرى هذا من حقيقة أنهم حالما يصبحون مدركين لأي سلالة أجنبية، يخترعون لقباً مهيناً لها. إن ووب وداغو وفروغي وسكويرهيد وكايك وشيني ونيغار وتشينك، ليست سوى باقة مختارة. (ووب للإيطالي، وداغو للإسباني والبرتغالي، وفروغي للفرنسي، وسكويرهيد للألماني أو الاسكندنافي، وكايك لليهودي واللماع، ونيغر للزنجي، وتشينك للصيني، ووغ للشخص صاحب البشرة غير البيضاء، غريسر للأمريكي اللاتيني، ويلوبيلي للجبان-المترجم). لو كنا في أي زمن قبل عام ١٨٧٠ لكانت القائمة أقصر، لأن خريطة العالم كانت مختلفة عما هي الآن، فقد كانت هناك ثلاث سلالات أو أربع فقط دخلت إلى داخل الوعي الإنكليزي، وكان الموقف الإنكليزي المحابي نحو تلك السلالات وخصوصاً نحو الفرنسيين الأمة الأقرب، لا يحتمل أبداً، لهذا مازالت "الغطرسة" و"الرهاب من الأجانب" أسطورتين، وهما ليستا أسطورتين غير صحيحتين تماماً حتى الآن طبعاً، فحتى وقت متأخر جداً كل الأطفال الإنكليز تقريباً تربوا على ازدراء الأعراق الأوروبية الجنوبية. والتاريخ كما يُعلّم في المدارس كان أساساً عبارة عن قائمة بالمعارك التي انتصرت فيها إنكلترا. وينبغي على المرء أن يقرأ كورترلي ريفيو من الثلاثينيات ليعرف ما هو التبجح فعلاً. ففي تلك الأيام شيد الإنكليز أسطورتهم عن أنفسهم كـ"سكان جزر لا يقهرون" و"قلوب صلبة من السنديان"، زمن سلّم فيه الإنكليز كحقيقة علمية، وأن الرجل الإنكليزي الواحد يعادل ثلاثة أجانب. في كل روايات القرن التاسع عشر وصحفه الهزلية المصورة، تسري الشخصية التقليدية لـ"فروغ"- رجل مضحك ضئيل الجسم بلحية صغيرة جداً وقبعة عالية مدلاة، يثرثر ويومئ دائماً، تافه، طائش وملمع بالتفاخر بمآثره الحربية، لكنه تعود على الفرار عادة حين يظهر خطر حقيقي، وبمواجهته جون بول "ضابط البحرية الإنكليزي الصغير الذي لا يستسلم" أو (نسخة مدرسية أكثر شعبية) الرجل الإنكليزي القوي والصامت في أعمال تشارلز كينغزلي وتوم هيوز وآخرين.

إن ثاكري مثلاً لديه وجهة النظر هذه بقوة، لكن هناك لحظات رأى من خلالها وسخر منها. إن الحقيقة التاريخية الوحيدة التي ثبتت بقوة في ذهنه هي أن الإنكليز انتصروا في معركة واترلو، ولا يقرأ المرء كثيراً في كتبه من دون أن يجد إشارة إلى ذلك، فهو يرى الإنكليز لا يغلبون بسبب قوتهم البدنية الهائلة العائدة بشكل أساس إلى تناولهم للحم البقر. ومثل أغلب الإنكليز في عصره، كان لديه الوهم الغريب بأن الإنكليز أضخم من الشعوب الأخرى (كان ثاكري أضخم من أغلب الناس) ولذلك استطاع كتابة مقاطع كهذه:

أقول لك إنك أفضل من الفرنسي، وأراهن بالمال أن طولك أكثر من خمسة أقدام وسبع بوصات، وتزن أكثر من أحد عشر حجراً، بينما طول الفرنسي خمسة أقدام وأربع بوصات ولا يزن تسعة أحجار؛ يتناول الفرنسي بعد حسائه طبقاً من الخضار، بينما تتناول أنت طبقاً من اللحم. أنت حيوان مختلف ومتفوق- حيوان يهزم الفرنسي (لقد أثبت تاريخ من مئات السنين أنك هكذا)، إلخ إلخ.

هناك مقاطع مشابهة تبعثرت في كل أعمال ثاكري. لم يرتكب ديكنز أبداً أي إثم من ذلك النوع، لكن القول إنه لم يسخر من الأجانب في مكان ما هو مبالغة، وهو لم يتأثر بالثقافة الأوروبية طبعاً مثل كل إنكليز القرن التاسع عشر تقريباً، لكنه لم ينغمس أبداً في التبجح الإنكليزي وأسلوب الحديث المكون من "سلالة الجزر" و"ذرية البولدوغ" و"الجزيرة الصغيرة المثلى والمحكمة". لا يوجد سطر واحد في كل **قصة مدينتين** يمكن أن يفهم كـ" انظر كيف يتصرف هؤلاء الفرنسيون الأشرار!". إن المكان الوحيد الذي يبدي فيه كرهاً عادياً للأجانب، هو في الفصول الأمريكية لـ **مارتن تشازلويت**، لكن هذا كان ببساطة رد فعل العقل السمح ضد الانحراف. لو كان ديكنز حياً اليوم، لقام برحلة إلى روسيا السوفييتية، وعاد إلى الكتاب مثل كتاب جايد عودة إلى الاتحاد السوفييتي، لكنه كان متحرراً بشكل لافت من حماقة النظر إلى الأمم ومعاملتها كأفراد. حتى إنه لم يؤلف دعابات تهاجم الجنسية، ولم يستغل الايرلندي المضحك مثلاً، ليس لأنه يعترض على الشخوص المخزنة والدعابات المصنعة الجاهزة التي من الواضح أنه لم يستخدمها، والأكثر بروزاً أنه لم يُظهر أي تحامل ضد اليهود. صحيح أنه يسلم بديهياً بأن متلقي البضائع المسروقة في (**أوليفر تويست** و**آمال كبيرة**) يكون يهودياً، وهذا كان مبرراً في عصره. لكن "الدعابة اليهودية" الوباء

المستوطن في الأدب الإنكليزي حتى ظهور هتلر، لم تظهر في كتبه. وفي صديقنا المشترك يقوم بمحاولة ورعة، لكنها لم تكن مقنعة جداً للوقوف إلى جانب اليهود وتأييدهم.

إن خلو ديكنز من القومية السوقية، هو جزئياً علامة عن سعة عقل حقيقة، وجزئياً نتيجة لموقفه السياسي السلبي غير الداعم. إنه إنكليزي حقيقي جداً، لكنه قلما أدرك ذلك. وبالتأكيد لم تثر فكرة كونه إنكليزياً الرعشة فيه. ليست لديه مشاعر إمبريالية ولا آراء مرئية حول السياسة الخارجية، ولم يتأثر بالتقليد العسكري. ومزاجياً هو أقرب بكثير إلى تاجر صغير منشق ينظر بازدراء إلى "المعاطف الحمر"، ويعتقد أن الحرب شريرة- نظرة عوراء، لكن بعد كل شيء الحرب شريرة. من الملاحظ أن ديكنز قلما كتب عن الحرب ولو لشجبها، ولم يصف أي معركة رغم كل قواه العجيبة في التصوير ووصف الأشياء التي رآها، إلا إذا اعتبرنا الهجوم على الباستيل في قصة مدينتين وصفاً لمعركة. ربما لم يشده الموضوع كموضوع مشوق. وفي كافة الأحوال لم يعتبر ساحة المعركة مكاناً يمكن أن يستقر فيه أي شيء جدير بالاستقرار. إنها مكان يقتصر على العقلية المتزمتة للطبقة الوسطى الدنيا.

القسم الثالث:

لقد ترعرع ديكنز قريباً من العوز، بشكل يكفي ليرتاع منه، ولم يتحرر من تحامل الأنيق الرث رغم اتساع عقله وسماحته. إن اعتباره كاتباً "شعبياً" وبطل "الجماهير المضطهدة" أمر عادي. فهو هكذا طالما أنه يفكر فيهم كأناس مضطهدين، لكن هناك شيئين اشترطا موقفه. في المكان الأول هو رجل من جنوب إنكلترا وكوكني في ذلك، ولذلك لم يتأثر بالقسم الأكبر من الجماهير المضطهدة الحقيقية، العمال الصناعيين والزراعيين. من المشوق أن نرى تشيسترتون وهو كوكني آخر يصور ديكنز دائماً على أنه الناطق بلسان "الفقراء" من دون أن يبدي وعياً كثيراً ويدرك من وكيف هم "الفقراء" الحقيقيون. إن "الفقير" بالنسبة إلى تشيسترتون يعني أصحاب المتاجر الصغيرة والخدم. ويقول إن سام ويلر هو "الرمز الكبير للجماهير العادية الخاص بإنكلترا في الأدب الإنكليزي"، علماً أن وسام ويلر مستخدم ينظف الملابس في فندق! النقطة الأخرى أن تجربة ديكنز المبكرة أعطته رعباً من الخشونة البروليتارية، ويبدي هذا بشكل غير ملتبس كلما كتب عن أفقر الفقراء من ساكني الأحياء الفقيرة، كما أن وصفه لأحياء لندن الفقيرة، ممتلئ دائماً بنفور سافر:

الطرقات ملوثة وضيقة والمتاجر والبيوت بائسة والناس شبه عراة وسكارى غير مبالين وقبيحين. إن الأزقة والمداخل المقنطرة تنفث روائحها الكريهة والقذارة، مثل أماكن تبول كثيرة. كما أن الحياة في الشوارع ممتدة بغير اتساق أو نظام، والحي كله يفوح برائحة الجريمة والفحش والشقاء.. إلخ إلخ.

هناك مقاطع مشابهة كثيرة في ديكنز، يخرج المرء منها بانطباع عن أعداد كاملة مغمورة من السكان الذين يعتبرهم غير مقبولين أبداً، وبنفس الطريقة يشطب المنظر الاشتراكي المعاصر بازدراء كتلة واسعة من السكان على أنها "بروليتاريا سوقية غبية مهمشة".

يُظهر ديكنز تفهماً للمجرمين أقل مما هو متوقع منه، ويشعر دائماً تقريباً كما يبدو، رغم إدراكه الجيد لأسباب الجريمة الاجتماعية والاقتصادية، أن الإنسان يضع نفسه خارج المجتمع الإنساني حين ينتهك القانون. يوجد فصل في نهاية **ديفيد كوبرفيلد** يزور فيه ديفيد السجن؛ حيث يقضي لاتيمر ويورياه هيب عقوبتيهما. يبدو أن ديكنز بالفعل يعتبر السجون "الأنموذجية" الرهيبة حيث شن تشارلز ريد هجومه البارز في **لم يفت الوقت على الإصلاح**، أكثر من إنسانية. يشكو ديكنز بأن الطعام أكثر من جيد! حالما ينقلب ضد الجريمة أو ضد أسوأ أعماق الفاقة، يُظهر آثاراً من العادة الذهنية "أنا حافظت على احترام نفسي دائماً". إن موقف بيب (موقف ديكنز نفسه بوضوح) تجاه ماغويتش في **آمال كبيرة** مشوق إلى أقصى حد. يشعر بيب دائماً بعقوقه تجاه جو، وبالقليل جداً من العقوق نحو ماغويتش بالمقارنة. حين يكتشف الشخص الذي حشاه بالفوائد لسنين هو مجرم منفي محكوم في الحقيقة، تنتابه نوبات من الغثيان. "إن المقت الذي أضمرته للرجل والفزع الذي نالني منه والتقزز الذي جعلني أنكمش وأبتعد عنه، لا يمكن أن يفوقه شيء، حتى لو أنه كان بهيمة رهيبة" إلخ إلخ. ويكتشف المرء من النص أن هذا الأمر ليس لأن بيب روعه ماغويتش في فناء الكنيسة حين كان طفلاً، وإنما لأن ماغويتش مجرم ومدان بحكم. هناك أثر أكثر من "أنا حافظت على احترام نفسي دائماً" في حقيقة أن بيب يشعر كأمر بديهي أنه لا يستطيع أن يأخذ نقود ماغويتش. إن النقود ليست نتاج الجريمة، وقد اكتسبت بطريقة شريفة، لكنها نقود مدان سابق، ولذلك هي "ملطخة". لا يوجد شيء زائف نفسياً في هذا أيضاً. نفسياً القسم الختامي من **آمال كبيرة** حول أفضل شيء فعله ديكنز؛ خلال هذا القسم من الكتاب يشعر المرء

"نعم، ذلك ما سيتصرفه بيب تماماً" لكن النقطة أن ديكنز يتعاطف مع بيب في مسألة ماغويتش، وأن موقفه متكبر في أساسه. النتيجة أن ماغويتش ينتمي إلى نفس الصنف من الشخصيات الغريبة مثل فالستاف، وربما دون كيشوت- شخصيات مثيرة للشفقة أكثر مما قصده المؤلف.

حين تكون القضية الفقير غير المجرم أو الفقير العادي المحتشم والشغيل، فلا يوجد هناك طبعاً أي شيء ازدرائي في موقف ديكنز، فهو يكن أخلص الإعجاب لأناس مثل آل بيجوتي وآل بلورنيش، لكن يُشك أنه اعتبرهما أنداداً متساوين في الحقيقة. من أعظم الفوائد قراءة الفصل الحادي عشر من **ديفيد كوبرفيلد** ومعه شظايا السيرة الذاتية (أجزاء من هذا معطاة في كتاب فروستر حياة) الذي يعبر فيه ديكنز عن مشاعره تجاه حادث معمل الصباغ بصورة أقوى بكثير من الرواية. وبعد أكثر من عشرين سنة ظل هذا الحادث ذكرى مؤلمة جداً له، لدرجة أنه خرج عن طريقه، ليتجنب ذلك القسم من الشاطئ، ويقول: إن عبور ذلك الطريق "جعلني أبكي بعد أن استطاع طفلي الأكبر أن يتكلم". يوضح النص جيداً أن الذي آذاه أكثر من غيره ومن ثم عند استعادة الماضي، هو الاتصال المباشر الإجباري مع رفاق "دونيين":

ليست هناك كلمات تستطيع أن تعبر عن كرب روحي الخفي، حين غرقت في هذه الرفقة، بمقارنة هؤلاء الرفاق اليوميين مع هؤلاء في طفولتي الأكثر سعادة. لكنني تقلدت مركزاً ما في مستودع الصباغ أيضاً..... أصبحت بعد فترة قصيرة بارعاً وسريعاً في استخدام يدي مثل غيري من الصبيان على الأقل. رغم تآلفي معهم، كان سلوكي وأسلوبي مختلفين عنهم بشكل يكفي لوضع مسافة بيننا. هم والرجال كانوا يتكلمون دائماً عني بـ "بالجنتلمان الصغير". رجل معين.....اعتاد أن يناديني "تشارلز" أحياناً حين كان يكلمني؛ لكنني أعتقد أن أكثره حين كنا نتبادل الأسرار..... ثار بول غرين مرة وتمرد ضد استعمال "الجنتلمان الصغير"، لكن بوب فاغين هدّأه بسرعة.

كان جيداً أن تكون هنا "مسافة بيننا" كما ترى. مهما كان إعجاب ديكنز بالطبقات العاملة كبيراً، إلا أنه لم يرغب في أن يشبههم، ومن الصعب أن يكون غير ذلك بسبب أصوله والزمن الذي عاش فيه. في بداية القرن التاسع عشر ربما كان العداء الطبقي أكثر حدة مما هو عليه

الآن، وكانت الاختلافات السطحية بين طبقة وطبقة أكبر بكثير، ويفترض أن الـ"جنتلمان" والـ"الرجل العادي" كانا مثل جنسين مختلفين من الحيوانات. إن ديكنز صادق تماماً في وقوفه في صف الفقراء ضد الأغنياء، لكن من شبه المستحيل ألا ينظر إلى الطبقة العاملة كشيء خارجي، كما لو كانت وصمة عار. في إحدى خرافات تولستوي، يحكم فلاحو قرية معينة على كل رجل غريب من حالة يديه. إن كانت راحتا يديه قاسيتين من العمل، يسمحون له بالدخول، وإن كانتا ناعمتين كانوا يطردونه. كان هذا غير مفهوم لديكنز، فكل أبطاله أياديهم ناعمة. أبطاله الأصغر عمرا -نيكولاس نيكلباي ومارتن تشازلويت وإدوارد تشيستر وديفيد كوبرفيلد وجون هارمون- عادة من النوع المعروف بـ"الجنتلمان الذي يمشي على قدميه". إنه يحب مظهر البورجوازي الخارجي واللهجة البرجوازية (وليس الأرستقراطية). إحدى هذه الظواهر الغريبة في هذا المجال أنه لم يسمح لأي واحد يلعب دوراً بطولياً أن يتكلم مثل رجل من الطبقة العاملة. يستطيع بطل هزلي مثل سام ويلر أو مجرد شخصية مثيرة للشفقة مثل ستيفن بلاكبول، التكلم بلهجة رحبة، لكن الرئيس الصغير يتكلم دائماً بلغة معادلة للغة محطة البي بي سي. الأمر هكذا حتى حين يتضمن سخافات، فمثلاً ليتل بيب رباه أناس يتكلمون لهجة ايسكس، لكنه تحدث بإنكليزية الطبقة العليا منذ طفولته المبكرة؛ بينما يفترض فيه في الواقع أن يتكلم بنفس اللهجة العامية مثل جو أو على الأقل مثل السيدة غارغري. وهكذا الأمر كذلك مع ويسل وليزي هيكسام وسيسي جوبي وأوليفر تويست-وربما يمكن إضافة دوريت الصغيرة. حتى راشيل في أزمنة صعبة، تجد بالكاد أثراً من لهجة لانكشاير في كلامها، وهذه استحالة في حالتها.

هناك شيء واحد يعطي دليلاً على مشاعر الروائي الحقيقية في المسألة الطبقية، وهو الموقف الذي يتخذه حين تتصادم الطبقة مع الجنس، وهذا شيء من الصعب والمزعج الكذب فيه، وبالتالي هو أحد النقاط التي يميل فيها التظاهر في "أنا لست متكبراً" إلى الانهيار.

يرى المرء ذلك في أوضح صوره، حين يكون الاختلاف الطبقي اختلافاً في اللون أيضاً. يوجد شيء مشابه للموقف الكولونيالي بأن (النساء الأصليات- بنات البلد لهو ومرح مشروع، أما النساء البيض فمقدسات إلى أبعد الحدود) في شكل مستتر في المجتمعات التي كلها من البيض ويسبب امتعاضاً مريراً لكلا الطرفين. حين تظهر هذه القضية، يرتد

الروائيون دائماً تقريباً إلى مشاعر طبقية فجة، قد يتنصلون منها في أحيان أخرى. وهناك مثال جيد عن ردة فعل الوعي الطبقي في رواية شبه منسية لأندرو بارتون بعنوان **أهالي كلويتون**، تختلط فيها مجموعة المبادئ الأخلاقية للمؤلف بالكره الطبقي بوضوح تام. يشعر تجاه إغواء رجل غني لفتاة فقيرة كشيء شنيع ونوع من الدنس؛ شيء مختلف تماماً عن إغوائها من قبل رجل من نفس مشربها في الحياة. يتناول ترولوب هذا الموضوع مرتين (**الكتبة الثلاث والبيت الصغير في ألينغتون**) وكما يتوقع المرء، يعالجه من زاوية الطبقة العليا بالكامل، فيرى أن العلاقة الغرامية مع نادلة حانة أو ابنة صاحبة فندق مجرد "ورطة أو شرك" يجب الفرار منها. إن معايير ترولوب الأخلاقية صارمة، ولا يسمح بحدوث الإغواء، لكن المعنى الضمني دائماً هو أن مشاعر فتاة الطبقة العاملة لا تهم كثيراً، حتى إنه يفصح عن ردة فعل طبقية أنموذجية في إشارته بأن للفتاة "رائحة كريهة" في **الكتبة الثلاث**. يتبنى ميريديث (روهدا فليمنغ) وجهة نظر طبقية أشد، لكن ثاكري يبدو متردداً كما هو غالباً، فموقفه في **بيندينس** (فاني بولتون) يشبه موقف ترولوب كثيراً، وموقفه في **قصة أرستقراطي** رث أقرب إلى ميريديث.

يستطيع المرء أن يتكهن بالكثير حول أصول ترولوب أو ميريديث أو بارتون الاجتماعية، من مجرد تناولهم للموضوع الجنسي الطبقي. ويستطيع كذلك مع ديكنز، لكنه يميل إلى التعاطف مع الطبقة الوسطى أكثر من البروليتاريا كما يظهر عادة. إن الحدث الوحيد الذي يبدو يناقض هذا، هو قصة الفتاة الريفية الصغيرة في مخطوطة الدكتور مانيه في **قصة مدينتين**، لكن هذا كان مجرد مسرحية أُقحمت لشرح كره مدام ديفارج الحقود الذي لم يتظاهر ديكنز باستحسانه، وفي **ديفيد كوبرفيلد** حيث يتناول إغواء القرن التاسع عشر الأنموذجي لم تجذبه القضية الطبقية كقضية أساسية كما يبدو. إن عدم السماح بمرور الجرائم الجنسية من دون عقاب، هو قانون في روايات العصر الفيكتوري. ولهذا يتم إغراق ستيرفورث في رمال يارماوث، لكن ديكنز أو العجوز بيغوتي أو حتى هام، لم يشعروا كما يبدو أن ستيرفورث قد زاد من جريمته، كونه ابن والدين غنيين. يتأثر آل ستيرفورث بدوافع طبقية، لكن آل بيغوتي ليسوا كذلك حتى في المشهد بين السيدة ستيرفورث والعجوز بيغوتي، ولو فعلوا لانقلبوا ربما ضد ديفيد وضد ستيرفورث أيضاً.

في صديقنا المشترك يعالج ديكنز حادثة يوجين رايبرن وليزي هيكسام بواقعية شديدة ومن دون إظهار للتحيز الطبقي. وفقاً لتقليد "ارفع يدك عني أيها المسخ!" ينبغي بليزي إما أن "ترفض وتزدري" يوجين، أو أن يسلبها عفافها، فترمي نفسها من فوق جسر واترلو: يوجين ينبغي أن يكون إما خائناً متحجر القلب أو بطلاً صمم على تحدي المجتمع، لكنه لم يتصرف بهذا الشكل أبداً. ترتعب ليزي من محاولات تقدم يوجين نحوها، وبالفعل تهرب بعيداً عنه، لكنها قلما تظاهرت بكرهها لتقدمه؛ يوجين ينجذب إليها، لكن لديه احتشاماً كبيراً يمنعه من محاولة إغوائها، ولا يجرؤ على الزواج بها خوفاً من عائلته. أخيراً يتزوجان من دون أن يتضرر أحد سوى السيدة تويملو التي ضيعت بضع مآدب خطوبة. وهذا شبيه جداً بما كان يفترض أن يحدث في الحياة الواقعية. لكن أي روائي لديه وعي طبقي، كان سيسلمها إلى براطي هيدستون.

لكن حين يكون الأمر معكوساً -أي حين تكون الحالة رجل فقير يطمح في امرأة "فوقه"، يتقهقر ديكنز فوراً إلى موقف الطبقة الوسطى، وهو مفتون بالفكرة الفيكتورية بأن المرأة (امرأة بحرف كبير) فوق الرجل. يشعر بيب أن ايستيلا "فوقه"، وإيستر سومرسن "فوق" غوبي، وليتل دوريت "فوق" جون شيفري، ولوسي مانيه "فوق" سيدني كارتون. في بعض من هذه الحالات تكون الفوقية أخلاقية فقط، وفي حالات أخرى تكون الفوقية اجتماعية. هناك رد فعل طبقي لا يقبل الخطأ حين اكتشف ديفيد كوبرفيلد أن يورياه هيب يخطط للزواج من أغنيس ويكفيلد. يورياه المثير للاشمئزاز يعلن فجأة أنه مفتون بها:

"أوه، أستاذ كوبرفيلد، بوجدان طاهر أحب الأرض التي تمشي عليها أغنيس"

"أعتقد أن فكرة محمومة خطرت لي بأن أمسك بمذكي النار الحامي وأخرجه من النار وأطعنه به، وغادرتني كصدمة، كرصاصة أطلقت من بندقية، لكن صورة أغنيس الغاضبة جداً من فكرة هذا الحيوان ذي الشعر الأحمر، بقيت في ذهني (حين أنظر إليه وهو يجلس بشكل منحرف، كأن روحه الخسيسة أمسكت بجسده بقوة) وجعلتني أصاب بالدوار....." (يقول ديفيد لاحقاً) "أعتقد أن أغنيس ويكفيلد بعيدة جداً فوقك وبعيدة جداً عن طموحاتك كلها كبعد القمر نفسه"

عند التأمل في الطريقة التي انتقدت فيها دونية هيب العامة -سلوكه المتذلل وإسقاط حروف الاتش وغيرها من أول الكتاب إلى آخره، لا يبقى شك كثير حول طبيعة مشاعر ديكنز. يلعب هيب طبعاً دوراً حقيراً، لكن حتى الحقراء لديهم حياة جنسية؛ إن فكرة أغنيس "الطاهرة" في فراش مع رجل يسقط حروف الاتش الاستهلالية، تجعل ديكنز يثور ويشمئز. إن ميله المعتاد يجعله يتعامل مع الرجل المفتون بامرأة "فوقه" كدعابة. إنها واحدة من الدعابات المخزنة في الأدب الإنكليزي من ماليفوليو فصاعداً. غوبي في بيت كئيب أنموذج عن ذلك، وجون شيفري أنموذج آخر، وهناك معالجة أسوأ وأردأ لهذا الموضوع في "السواري" في أوراق بيكويك.

هنا يصف ديكنز خدم باث بأنهم يعيشون في الخيال، ويقيمون المآدب تقليداً لـ"الأفضل" منهم، ويخدعون أنفسهم بأن سيداتهم الشابات مفتونات بهم، وهذا يلفت انتباهه كشيء هزلي جداً، لكن يمكن أن يتساءل المرء: هل الأفضل ألا تكون لدى الخادم أوهام من هذا النوع والقبول بمنزلته الاجتماعية في روح المبادئ المسيحية، أم العكس.

لم يسبق ديكنز عصره في موقفه تجاه الخدم. في القرن التاسع عشر كانت الثورة ضد الثورة ضد الخدمة المنزلية في بدايتها، وسببت إزعاجاً كبيراً لكل من يفوق دخله الـ ٥٠٠ جنيه سنوياً. وقد تناول عدد هائل من الدعابات الساخرة في صحف القرن التاسع عشر الهزلية غرور الخدم واعتدادهم بأنفسهم، وظلت صحيفة بنش حتى سنوات قريبة تصدر سلاسل من النكات المسماة "سيرفانت غاليزم" التي تتجاهل الحقيقة المذهلة بأن الخادم كائن بشري. وديكنز نفسه مذنب أحياناً بهذا النوع من الشيء؛ فكتبه تزخر بالخدم العاديين المثيرين للضحك؛ يصورهم غير أمينين في آمال كبيرة وغير أكفاء في ديفيد كوبرفيلد، ويرفضون الطعام الجيد، ويتكبرون عليه في أوراق بيكويك، إلخ إلخ- بروح ربة بيت الضواحي مع طباخ جنرال مضطهد واحد، لكن الغريب في متطرف من القرن التاسع عشر، أنه حين يريد أن يرسم صورة يتعاطف فيها مع الخادم، يخلق ما يعرف بالأنموذج الإقطاعي. إن سام ويلر ومارك تابلي وكلارا بيغوتي، كلهم شخصيات إقطاعية ينتمون إلى "تابع خادم العائلة العجوز" ويرتبطون بعائلة سيدهم، ويكونون مخلصين كالكلاب ومألوفين تماماً. لا شك أن شخصيتي مارك تابلي وسام ويلر مشتقتان من سموليت بدرجة ما، ومن ثم من

سيرفانتيس. لكن الممتع أن ديكنز كان منجذباً إلى مثل هذا النوع كما يفترض. إن موقف سام ويلر قروسطي بلا ريب، فهو يجلب الاعتقال لنفسه، لكي يلحق السيد بيكويك في الأسطول، ويرفض بعدئذ الزواج، لأنه يشعر بأن السيد بيكويك مازال بحاجة إلى خدماته. يوجد مشهد مميز بينهما:

"بأجر أو من دونه، بطعام أو من دونه، بسكن أو من دونه، سام ويلر يظل إلى جانبك مثلما أخذته من الخان القديم في المدينة مهما حدث"

قال السيد بيكويك: "يا تابعي الطيب جين"، جلس السيد ثانية مرتبكاً من حماسه "يجب عليك أن تراعي مشاعر المرأة الشابة أيضاً".

"لقد راعيتُ مشاعر المرأة الصغيرة يا سيدي" قال سام. "راعيتُ مشاعرها وتكلمت معها وأخبرتها بوضعي، وهي مستعدة لتنتظر كي أكون مستعداً، وأنا أصدق بأنها ستفعل. إن لم تفعل، فهي ليست المرأة الصغيرة التي سأختار، وسأتخلى عنها بسهولة"

من السهل تخيل ما الذي كانت المرأة الصغيرة ستقوله رداً على هذا في الحياة الواقعية. لكن لاحظ الجو الإقطاعي. سام ويلر مستعد كشيء مسلم به، للتضحية بسنين عمره من أجل سيده، ويستطيع الجلوس في حضرة سيده أيضاً، أما الخادم في العصر الحديث، فلا يفكر أبداً في كلا الفعلين. إن آراء ديكنز في قضية الخدم، لا تتعدى تمنيه بأن يحب ذلك السيد وخادمه بعضهما البعض. إن سلوبي في صديقنا المشترك، رغم أنه فشل بائس كشخصية، إلا أنه يمثل نفس النوع من الولاء مثل سام ويلر. إن هكذا ولاء طبيعي وإنساني ومحبوب طبعاً، لكن هكذا كانت الإقطاعية.

إن ما يفعله ديكنز كالمعتاد على ما يبدو، هو الوصول إلى نسخة مثالية من الشيء القائم. كان يكتب في زمن كانت الخدمة المنزلية فيه شراً لا يمكن تجنبه كما يبدو، ولم تكن هناك أدوات منزلية توفر الجهد. وكان هناك تفاوت هائل في الثروة. كان عصراً من العائلات الضخمة والوجبات الطنانة والبيوت المتعبة، كانت فيه الخادمة تكدح أربع عشرة ساعة في اليوم في المطبخ القبو، ويعتبر الأمر شيئاً عادياً جداً. وبسبب حقيقة العبودية، كانت العلاقة الإقطاعية هي العلاقة المقبولة الوحيدة. إن سام ويلر ومارك تابلي شخصيتان حالمتان لا تقلان عن آل شيريبل. إن توجب وجود سادة وخدم، فكم يجب أن يكون السيد أفضل من السيد بيكويك،

والخادم أفضل من سام ويلر؟ إن الأفضل عدم وجود خدم نهائياً -لكن ديكنز لم يكن قادراً على تخيل ذلك. إن العدالة الإنسانية غير ممكنة عملياً من دون مستوى عال من التطور الآلي. ويبين ديكنز أنها غير متخيلة أيضاً.

القسم الرابع:

ليس من قبيل المصادفة ألا يكتب ديكنز عن الزراعة أبداً، وفي الوقت نفسه لم يتوقف عن الكتابة حول الغذاء. لقد كان كوكنيا ولندن هي مركز الأرض، كما البطن مركز الجسد، وهي مدينة من المستهلكين ومن الناس المتمدنين بعمق، لكنهم ليسوا مفيدين أصلاً. شيء يلفت انتباه المرء، فحين ينظر إلى ما تحت سطح كتب ديكنز، يجد أنه كان جاهلاً في الواقع مقارنة بما كان عليه روائيو القرن التاسع عشر، ولا يعرف إلا القليل عن الطريقة التي تحدث بها الأشياء في الحقيقة. من الوهلة الأولى يبدو هذا القول غير صحيح بشكل صريح، ويحتاج إلى بعض التأهيل.

لدى ديكنز نظرات حية من "الحياة الخسيسة" كالحياة في سجن المدينين مثلاً، وكان روائياً مشهوراً قادراً على أن يكتب عن الناس العاديين. وهكذا كانت الصفة المميزة لكل الروائيين الإنكليز في القرن التاسع عشر، فقد شعروا بالراحة في العالم الذي عاشوا فيه، أما كاتب هذه الأيام فمعزول جداً على نحو ميئوس منه. لهذا فإن الرواية الحديثة الأنموذجية، هي رواية عن الروائي نفسه. حتى حين أمضى جويس مثلاً عقداً من الزمن في محاولات صبورة للتواصل مع "إنسانه العادي" الذي تكشف بأنه يهودي، إلا أنه كان أرفع ثقافة قليلاً. أما ديكنز فلم يعانِ من الشيء نفسه على الأقل، ولم يواجه أي صعوبة في تقديم البواعث الشائعة كالحب والطموح والجشع والانتقام وهلم جرا، لكن الذي لم يكتب عنه بشكل ملاحظ، هو الشغل.

إن أي شيء من طبيعة الشغل في روايات ديكنز، يحدث في الكواليس. والشخصية الوحيدة من أبطاله التي لديها مهنة ظاهرية معقولة، هو ديفيد كوبر فيلد، الذي كان في البداية كاتب اختزال، ثم روائياً مثل ديكنز نفسه. أما الطريقة التي يكسب فيها أغلب الآخرين غيره أرزاقهم، فيأتي معظمها وصفاً في الخلفية. فمثلاً بيب "يدخل عالم التجارة والأعمال في مصر"، لكننا لا نعرف أي نوع من التجارة والأعمال. ولا يأخذ وصف حياة عمل بيب أكثر من نصف صفحة من الكتاب، وكلينهان اشتغل في عمل تجارة غير محددة في الصين، ثم عمل

لاحقاً في عمل تجارة لم تُسمَّ مع دويس، ومارتن تشزلويت مهندس معماري، لكن لم يتسنى له الوقت لممارسة مهنته كما يبدو. وليس هناك حالة واحدة انبثقت فيها مغامراتهم من عملهم بشكل مباشر. وهنا يبدو التباين بين ديكنز وترولوب مثلاً مروعاً، والسبب الوحيد لهذا أن ديكنز لا يعرف عن المهن التي يفترض بشخوصه متابعتها سوى القليل. ماذا كان يحدث بالضبط في مصانع غرادغريند؟ كيف جمع بودسناب ماله؟ كيف ينجح ميرديل في غشه؟ يعرف المرء أن ديكنز لم يستطع أبداً أن يدوّن تفاصيل الانتخابات النيابية ومضاربات البورصة، مثلما استطاع ترولوب. وعندما كان يضطر إلى التعامل مع التجارة أو التمويل أو الصناعة أو السياسة، كان يلجأ فوراً إلى الغموض أو الهجاء. وهذا هو الحال مع الدعاوى القانونية التي يفترض به أن يعرف الكثير عنها. قارن أية دعوى قضائية عند يكنز مع أخرى في **مزرعة أوريلي** مثلاً.

يعود السبب جزئياً إلى التشعبات غير الضرورية في روايات ديكنز و"الحبكة" الفيكتورية الرهيبة. صحيح أن رواياته كلها ليست متشابهة. **قصة مدينتين** قصة جيدة جداً وبسيطة تماماً، وكذلك **أزمنة صعبة** بطريقتها المختلفة؛ لكن هاتين هما الاثنتان اللتان رُفضتا دوماً بأنهما "لا تشبهان ديكنز"- ولم تُنشرا في أعداد شهرية بالمناسبة. إن الروايتين اللتين كتبتا بصيغة ضمير المتكلم، هما قصتان جيدتان بمعزل عن حبكتيهما الثانويتين. لكن روايات ديكنز الأنموذجية هي **نيكولاس نيكلباي وأوليفر تويست ومارتن تشيزلويت وصديقنا المشترك**، والتي تتواجد دائماً في إطار من الميلودراما. إن الشيء الأخير الذي يتذكره كل واحد حول الكتب دائماً، هو قصتها المركزية. ومن جانب آخر، أعتقد أنه لا يوجد أحد قرأها، ولم يحمل معه ذكرى صفحات فذة إلى يوم مماته. يرى ديكنز الكائنات البشرية بأقصى درجة من الحيوية الشديدة، لكنه يراها دائماً في حياة خاصة شخصية كـ "شخوص روائية" وليس كأفراد فعالين في المجتمع. وبعبارة أخرى هو يراهم بشكل ستاتيكي (ساكن)، وبناء عليه كانت **أوراق بيكويك** أعظم نجاح له، وهي ليست قصة على الإطلاق، وإنما مجرد سلسلة من المسودات، وليس فيها سوى محاولة صغيرة للتطوير- تستمر الشخصيات وتستمر ببساطة وتتصرف كالحمقى بنوع من الأبدية، وبمجرد أن يحاول إجبار شخصياته على الفعل، تبدأ الميلودراما. لا يستطيع هو أن يجعل الفعل يدور حول المهن العادية، ولهذا السبب تجد لعبة

المصادفات والمؤامرات وجرائم القتل والتنكر والوصايا المطمورة والإخوة المفقودين منذ زمن طويل.. إلخ إلخ. في النهاية حتى أناس مثل سكويرز وميكاوبر، تمتصهم هذه الآلية.

طبعاً من السخف القول إن ديكنز مجرد كاتب غامض أو ميلودرامي، فالكثير مما كتبه واقعي بإفراط، ولا يضاهيه أحد في القدرة على استحضار الصور البصرية. وحين يصف ديكنز شيئاً، تظل تراه طوال حياتك، لكن ملموسية ومادية رؤيته علامة لما افتقده. أخيراً وبعد كل شيء، إن ذلك هو ما يراه المتفرج العرضي دائماً -المظهر الخارجي وغير الوظيفي وسطح الأشياء. إن المتورط في المشهد بشكل فعلي، لا يرى المشهد أبداً. لا يصف ديكنز الصيرورة دائماً تقريباً مثلما يستطيع وصف المظهر بشكل رائع. إن الصور النشيطة التي ينجح في تركها في ذاكرة المرء دائماً تقريباً، هي صور الأشياء التي تُرى في لحظات الفراغ في مقاهي فنادق الريف الصغيرة، أو عبر نوافذ عربة تجرها الخيول، مثل لافتات الفنادق ودقاقات الأبواب النحاسية والأباريق الملونة بالطلاء، وباطن المتاجر، والبيوت الخاصة، والثياب والوجوه، وقبل كل شيء الطعام. كل شيء يُرى من وجهة نظر المستهلك. حين يكتب عن كوكستاون، فإنه ينجح في بضع فقرات في استحضار جو مدينة من مدن لانكشاير، كما يراها زائر جنوبي مصاب بالغثيان: "فيها قناة سوداء ونهر أرجواني يجري مع صباغ كريه الرائحة وأكوام واسعة من الأبنية مليئة بالنوافذ؛ حيث توجد قعقعة ورجفة طول اليوم؛ وحيث يعمل كباس المحرك البخاري بشكل رتيب، يرتفع وينخفض مثل رأس فيل، في حالة من الجنون السوداوي"

هذا أقرب مكان يصل إليه ديكنز من آلات المطاحن. إن المهندس أو سمسار القطن سيراها بشكل مختلف، لكن لا يستطيع أيّ منهما على تلك اللمسة الانطباعية حول رأس الفيلة.

إن موقفه من الحياة بمعنى مختلف قليلاً، غير مادي بشكل متطرف. إنه رجل يعيش بواسطة عينيه وأذنيه أكثر من يديه وعضلاته. في الواقع لم تكن عاداته جلوسية خاملة جداً كما يبدو هذا ضمناً، فرغم حالته الصحية وبنيته الجسدية المتواضعة، كان نشيطاً إلى درجة القلق. وخلال حياته كلها كان مشاءً استثنائياً. وعلى أي حال استطاع بشكل جيد أن ينجر وينصب المشهد المسرحي، لكنه لم يكن واحداً من الأشخاص الذين يشعرون بحاجة إلى استخدام أياديهم. من الصعب تخيله وهو يحفر في قطعة أرض مزروعة بالكرنب مثلاً، ولم يعط أي دليل

على معرفة أي شيء يتعلق بالزراعة. ومن الواضح أنه لا يعرف شيئاً عن أي لعبة أو رياضة، وليس لديه اهتمام في الملاكمة مثلاً. وإذا أخذنا بعين الاعتبار عمره حين كتب هذا، فإننا نجد أن قلة الوحشية البدنية الموجودة في روايات ديكنز تثير الدهشة. إن مارتن تشزلويت ومارك تابلي مثلاً يتصرفان بتساهل غير عادي تجاه الأمريكيين الذين يهددونهما بشكل مستمر بمسدسات وبسكاكين ضخمة مغمدة. أي كاتب إنكليزي أو أميركي عادي كان سيجعلهم يوجهون لكمات على الفك ويتبادلون الطلقات في كافة الاتجاهات. إن ديكنز محتشم جداً عن هذا، فهو يرى حماقة العنف، وينتمي أيضاً إلى طبقة مدينية محترسة، لا تتعامل مع كيل اللكمات للفك، حتى ولو كان ذلك بشكل نظري. وموقفه من الرياضة يختلط مع مشاعر اجتماعية. ففي إنكلترا تمتزج الرياضة وخصوصاً الميدانية منها، مع التكبر بشكل لا ينفصم لأسباب جغرافية بشكل رئيسي. يشكك الاشتراكيون الإنكليز دائماً تقريباً وعلى نحو مكشوف، حين يقال لهم إن لينين كان مخلصاً للرماية مثلاً، فهم يرون أن الرماية والصيد.. إلخ هي مجرد طقوس متكبرة لطبقة ملاكي الأراضي، ونسوا أن هذه الأشياء قد تظهر بشكل مختلف في بلاد شاسعة بكر مثل روسيا. من وجهة نظر ديكنز، فإن كل نوع من الرياضة تقريباً هو موضوع هجاء في أفضل حالاته، وبناء على ذلك، كان جانب من حياة القرن التاسع عشر- جانب حياة الملاكمة والسباق وقتال الديكة وحفر الغرير والصيد في أراضي الغير والإمساك بالجرذان، هو الجانب الذي حُنط بشكل عجيب، وحُفظ في رسومات ليتش التوضيحية إلى سورتيس- خارج مجاله.

اللافت أكثر في الراديكالي "التقدمي" ظاهرياً، أنه غير مهتم بالميكانيك، ولا يبدي اهتماماً في تفاصيل الآلات ولا في الأشياء التي يمكن للآلات فعلها، فكما يلاحظ غيسنغ: لم يصف ديكنز في أي مكان رحلة بالقطار، بحماس يشبه الذي يبديه في وصف رحلات بواسطة العربة التي يجرها الحصان. في كل كتبه تقريباً يتولد لدى المرء شعور غريب بأنه يعيش في الربع الأول من القرن التاسع عشر. وفي الحقيقة هو يميل إلى العودة إلى هذه الفترة. **ليتل دوريت** التي كُتبت في منتصف الخمسينات، تتناول أواخر العشرينات، و**آمال كبيرة** (١٨٦١) ليست مؤرخة، لكنها تتناول بوضوح العشرينيات والثلاثينيات. لقد ظهرت اختراعات واكتشافات كثيرة لأول مرة في حياة ديكنز، جعلت العالم الحديث ممكناً، مثل (التلغراف الكهربائي

والبندقية التي تحشى من عقبها ومطاط الهند وغاز الفحم والورق المصنوع من لب الخشب)، لكنه لم يذكرها في كتبه إلا نادراً. لا شيء أغرب من الغموض الذي يتكلم فيه عن اختراع دويس في **ليتل دوريت**، فقد صوره كشيء إبداعي جداً وثوري وذي أهمية عظيمة لبلاده ورفاقه البشر، وهو رابط ثانوي هام في الكتاب. ومع ذلك لم يخبرنا ما هو هذا "الاختراع"! من جانب آخر صور مظهر دويس البدني بلمسة ديكنزية أنموذجية: لديه طريقة غريبة في تحريك إبهامه، طريقة يتميز بها المهندسون. بعد ذلك يرسو دويس بقوة في ذاكرة المرء، لكن كالعادة، فإن ديكنز فعل ذلك من خلال ربطه بشيء خارجي.

هناك أشخاص كتينيسون مثلاً يفتقرون إلى المقدرة الميكانيكية، لكنهم يستطيعون رؤية الإمكانيات الاجتماعية للآلات، لكن ديكنز ليس لديه هذه الصفة العقلية، ويبدي وعياً قليلاً جداً بالمستقبل. وحين يتكلم عن التقدم الإنساني، يكون عادة في سياق التقدم الأخلاقي -بشر يتحسنون، وربما لم يقبل أبداً بأن البشر طيبون فقط بالقدر الذي يسمح فيه لهم التطور التقني. إن الفجوة في أقصاها بين ديكنز ونظيره الحديث اتش جي ويلز في هذه النقطة. ويلز يحمل المستقبل حول عنقه مثل حجر الطاحونة، وتفكير ديكنز العقلي غير العلمي مضرّ بنفس القدر بطريقة مختلفة، وهو الذي جعل أي موقف إيجابي صعباً بالنسبة إليه. هو عدائي تجاه الماضي الإقطاعي الزراعي، وليس له أي تماس حقيقي مع الحاضر الصناعي. حسناً إذاً، كل ما بقي هو المستقبل (يعني العلم، والتقدم وهلم جرا) الذي قلما دخل في أفكاره. لذلك لم يكن لديه أي معيار معرف للمقارنة حين هاجم فيه كل شيء وشيك وآت. كما أشرت سابقاً، هو يهاجم النظام التعليمي الراهن بإنصاف تام، ومع ذلك وبعد كل شيء، ليس لديه علاج يقدمه سوى نظراء مدارس أكثر لطفاً. لماذا لم يشر إلى ما يجب أن تكون عليه المدارس؟ لماذا لم يدع أبناءه يتعلمون بنفس خطته، بدلاً من إرسالهم إلى مدارس خاصة ليتم حشوهم باللغة الإغريقية؟ لأنه كان يفتقر إلى ذلك النوع من التخيل. لديه شعور أخلاقي لا يُخطئ، لكن فضوله العقلي قليل. وهنا يجد المرء شيئاً في الحقيقة، وهو أنه عجز هائل في ديكنز، وشيء جعل القرن التاسع عشر يبدو بعيداً جداً عنا- لم يكن لديه أية فكرة عن العمل.

باستثناء وحيد مريب في **ديفيد كوبرفيلد** (هو ديكنز نفسه) لا يستطيع المرء الإشارة إلى شخصية منفردة واحدة من شخصياته مهتمة أساساً بمهنتها. أبطاله يعملون ليكسبوا رزقهم

ويتزوجوا البطلات، وليس لأنهم يشعرون باهتمام عاطفي في موضوع واحد خاص. مارتن تشزلويت مثلاً لم يتحرق شوقاً ليكون مهندساً معمارياً، وكان يمكن أن يكون طبيباً أو محامياً. على أي حال، في الرواية الديكنزية الأنموذجية تدخل القوة السحرية الخارقة في حقيبة من ذهب في الفصل الأخير، فيُعفى البطل من صراع أطول. الشعور "هذا ما جئت إلى العالم لكي أفعله. كل شيء آخر غير ممتع. سوف أفعل هذا حتى لو كان يعني الموت جوعاً" الذي يحول البشر ذوي الطبائع المختلفة إلى علماء ومخترعين وفنانين ورجال دين ومستكشفين وثوار-هذا الحافز غائب تماماً تقريباً من كتب ديكنز. هو نفسه كمشهور عمل مثل عبد وآمن بعمله، كما لم يفعل سوى قلة من الروائيين. لكن ليس هناك على ما يبدو أي مهنة سوى كتابة الروايات (وربما التمثيل) يستطيع نحوها تخيل هذا النوع من التكريس والإخلاص، وأخيراً إن اعتبار موقفه سلبياً تجاه المجتمع، هو شيء طبيعي جداً. في الملاذ الأخير لا يوجد شيء أثار إعجابه سوى آداب السلوك المشتركة. العلم غير ممتع، والآلات قاسية وقبيحة (رؤوس الفيلة). التجارة للأشرار فقط مثل باوندرباي. بالنسبة إلى السياسة-اتركها لتيت بارناكلز. حقيقة، ليس هناك أي هدف سوى الزواج من البطلة والاستقرار والعيش برخاء، ويكون لطيفاً. ويمكنك فعل ذلك بشكل أفضل بكثير في حياتك الخاصة.

ربما يرى المرء هنا لمحة من خلفية ديكنز التخيلية الغامضة. ما هي الطريقة المرغوبة الأفضل للعيش برأيه؟ حين تصالح مارتن تشزلويت مع عمه، وعندما تزوج نيكولاس نيكلباي النقود، وحين اغتنى جون هارمان بواسطة بوفين، ماذا فعلوا؟

الجواب واضح بأنهم لم يفعلوا شيئاً. استثمر نيكولاس نيكلباي نقود زوجته مع آل تشيريل و"أصبح تاجراً غنياً وناجحاً"، ولكن حين اعتزل في دوفنشاير، نستطيع الافتراض بأنه لم يعمل بجد كبير. أما السيد والسيدة سنودغراس فقد "اشتريا مزرعة صغيرة وحرثاها بدافع تملك الأرض أكثر من الربح". تلك هي الروح التي تنتهي بها جلّ كتب ديكنز -نوع من الكسل المشع؛ حيث يبدو بأنه يستهجن الشبان الذين لا يعملون، مثل هارتهاوس وهاري، غوان وريتشارد كارستون، ورايبيرن قبل إصلاحه، فذلك لأنهم كلبيون وفاسقون، أو لأنهم عبء على شخص آخر. إن كنت "صالحاً" وتعيل نفسك أيضاً، فلا يوجد أي سبب يمنع من أن تمضي خمسين سنة من عمرك في استجرار إيراداتك من الأسهم. إن الحياة

البيتية وافية دائماً. وأخيراً هذه كانت الفرضية العامة لعصره. إن "الاكتفاء الدمث" و"الجدارة" و"الجنتلمان ذو الوسائل المستقلة" (أو "في ظروف سهلة") - عبارات تتحدث كلها عن الحلم الغريب والفارغ للبورجوازية الوسطى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. كان حلماً من الكسل التام. ينقل تشارلز ريد روحها بشكل مثالي في نهاية **عملة صعبة**. بطل **عملة صعبة** ألفريد هارداي، هو البطل الروائي الأنموذجي في القرن التاسع عشر (أسلوب المدارس الخاصة) بمواهب تصل إلى حد "النبوغ"، كما وصفها ريد. خريج قديم من إيتون وأكاديمي في أكسفورد، يعرف كل الآثار الأدبية الإغريقية واللاتينية تقريباً عن ظهر قلب، ويستطيع التلاكم مع مقاتلي الجوائز والفوز بالزوارق الماسية في هينيلي، ويجتاز مغامرات لا تصدق، يتصرف فيها طبعاً ببطولية معصومة، ثم في عمر الخامسة والعشرين يرث ثروة ويتزوج حبيبته جوليا دود، ويستقر في ضواحي ليفربول، في نفس البيت كما فعل حماه وحماته:

عاشوا كلهم معاً في البيون فيلا، والفضل في ذلك يعود لألفريد.... أوه أنت فيلا صغيرة سعيدة! أنت كنت مثل فردوس كما يمكن أن تكون أي دار هالكة، لكن جاء اليوم الذي لم تعد فيه جدرانك تستوعب كل النزلاء السعداء. منحت جوليا لألفريد صبياً جميلاً؛ تدخل ممرضتان وتبدي الفيلا علامات التفجر. شهران إضافيان، ويهرع ألفريد وزوجته إلى الفيلا التي تليها مباشرة، والتي تقع على بعد عشرين ياردة، وكان هناك سبب مضاعف لهذه الهجرة. وكما يحدث دائماً تقريباً بعد كل انفصال طويل، يهب الرب الكابتن والسيدة دود رضيعاً آخر ليلعب على ركبهما، إلخ إلخ.

هذا الضرب من النهايات الفيكتورية السعيدة -رؤية لعائلة ضخمة محبة من ثلاثة أو أربعة أجيال تكوموا معاً في نفس البيت ويتضاعفون باستمرار مثل سرير من المحار. اللافت جداً، هي الحياة السهلة المحمية الهينة التي تتضمنها. إنها ليست كسلاً عنيفاً مثل حياة سكواير ويسترن.

تلك هي أهمية خلفية ديكنز المدينية، وعدم اهتمامه بالجانب الرياضي البذيء للحياة العسكرية. إن أبطاله بمجرد أن يرثوا النقود ويستقرون، لا يكتفون بعدم امتهان أي عمل فقط، وإنما أيضاً لا يركبون الخيل أو يطلقون النار أو يبارزون أو يفرون مع الممثلات أو

يضيعون نقودهم في سباقات الخيل. إنهم يعيشون في بيوت على أسرّة من الريش، ويفضلون أن يكون جيرانهم من أقرباء الدم الذين يعيشون نفس الحياة تماماً:

كان أول عمل لنيكولاس، حين أصبح ثرياً وتاجراً ناجحاً، هو شراء بيت والده القديم. وبمرور الزمن أتى حوله تدريجياً مجموعة من الأطفال الجميلين، فتغير البيت وتوسع، لكن لم تُهدم واحدة من الغرف القديمة أو تقتلع شجرة واحدة، ولم يُنقل أو يُبدل أي شيء كان له أي ارتباط بالأزمنة الماضية.

على مسافة رمية حجر، كان هناك منزل آخر يعج بأصوات أطفال مسرة أيضاً؛ وهنا كانت كيت... نفس الأخت المغرمة الصادقة والمخلوقة اللطيفة، ونفس الحب لكل ما يحيط بها كما في أيام صباها.

إنه نفس الجو السفاحي، كما في المقطع المقتبس من ريد. ومن الواضح أن هذه هي النهاية الديكنزية المثالية التي تحققت تماماً في نيكولاس نيكلباي ومارتن تشازلويت وبيكويك، وتحققت تقريباً وبدرجات متفاوتة في كل الأعمال الأخرى، والاستثناءات هي أزمنة صعبة وآمال كبيرة- الأخيرة فيها "نهاية سعيدة" في الحقيقة، لكنها تناقض الميل العام للكتاب، وأُقحمت بطلب من بولار ليتون.

يبدو أن المثل الأعلى الذي يجب الصراع من أجله أذاً، هو شيء مثل هذا: مئة ألف جنيه وبيت قديم عتيق الطراز مع وفرة من نبات اللبلاب عليه، وزوجة أنثوية بصورة حلوة، وقبيلة من الأطفال ومن دون عمل. كل شيء آمن وسهل وهادئ، وقبل كل شيء منزلي. قبور الأحباء الذي رحلوا قبل حدوث النهاية السعيدة في فناء الكنيسة التي تنمو عليها الطحالب في أسفل الطريق. الخدم هزليون وإقطاعيون، والأطفال يثرثرون عند قدميك، والأصدقاء القدماء يجلسون حول موقدك يتحدثون عن الأيام الماضية، وهناك سلسلة متوالية لا تنتهي من الوجبات وشراب البنش البارد، وخمرة شيري، وأسرّة الريش، ومدفئات السرير، وحفلات عيد الميلاد مع الألعاب التمثيلية التحزيرية، وعكاز الرجل الأعمى؛ لكن لا شيء يحدث أبداً سوى ولادات الأطفال السنوية. الشيء الغريب أن تلك هي صورة سعيدة بصدق وحقيقية، أو أن ديكنز استطاع أن يجعلها تبدو هكذا. إن التفكير في تلك الحياة وذلك الوجود اللطيف يرضيه ويسره، وهذا وحده فقط سيكون كافياً ليخبر المرء أن أكثر من مئة سنة مرت منذ أن

كتب ديكنز كتابه الأول. لا يستطيع أي رجل عصري أن يوحد ويجمع مثل هذه التفاهة بهذا القدر الكبير من الحيوية.

القسم الخامس:

في هذا الوقت ربما يغضب مني كل محب لديكنز قرأ إلى هنا فقط.

كنت أناقش ديكنز في ضوء "رسالته"، وتجاهلت صفاته الأدبية تقريباً. لكل كاتب وخصوصاً الروائي "رسالة" - سواء اعترف بذلك أم لا- تؤثر على أدق التفاصيل في أعماله. إن الفن كله دعاية (بروباغاندا)، ولم يفكر ديكنز أو غيره من أكثر الروائيين الفيكتوريين في إنكار هذا، لكن من جانب آخر ليس كل الدعاية فناً. كما قلت سابقاً إن ديكنز واحد من هؤلاء الكتاب الذين شعروا بأنهم جديرون بأن يُسرقوا، وقد سُرق من قبل الماركسيين والكاثوليكيين، وقبل كل شيء من قبل المحافظين. السؤال هو ماذا يوجد هناك لسرقته؟ ولماذا يهتم الجميع بديكنز؟ ولماذا أنا أهتم بديكنز؟

لم تكن الإجابة على هذا النوع من الأسئلة سهلة أبداً. إن التفضيل الجمالي كقاعدة، إما أنه شيء لا يُفسر، أو أنه أُفسد ببواعث غير جمالية، ما يدفع المرء إلى التساؤل إن كان النقد الأدبي برمته ليس سوى شبكة ضخمة من الخدع والدجل. في حالة ديكنز العامل المعقد هو ألفته وحميميته. صدف أنه واحد من "المؤلفين العظماء" الذين ملؤوا حلق كل واحد في موضوع الطفولة، ما سبب في وقته تمرداً وتقيؤاً، ولكن قد يكون له آثار لاحقة في حياة تالية. فمثلاً إن كل واحد تقريباً يشعر بحب خفي للقصائد الوطنية التي حفظها عن ظهر قلب حين كان طفلاً "أنتم يا بحارة إنكلترا" و"مهمة اللواء الخفيف" وهلم جرا، وقد لا يستمتع بالقصائد نفسها بقدر استمتاعه بالذكريات التي تستدعيها تلك القصائد. ومع ديكنز تعمل نفس القوى التي تعمل في تداعي الأفكار. قد تجد نسخاً لواحد أو اثنين من كتبه في أكثر البيوت الإنكليزية، وكثير من الأطفال بدؤوا معرفتهم بشخصياته بالنظر قبل أن يعرفوا القراءة حتى، لأن ديكنز بالمجمل كان محظوظاً في أمثلته التوضيحية. إن الشيء الذي تتشرب به بوقت مبكر لن يتعارض مع أي حكم نقدي. حين يفكر المرء بهذا، فإنه يفكر بكل ما هو رديء وسخيف في ديكنز- "الحبكات" الروائية القوية والشخصيات التي لا تقوم بأي عمل، والمقاطع المملة الطويلة، والفقرات المكتوبة بالشعر الحر، وصفحات "الرثاء" البغيضة، ثم تنبثق الفكرة

بعدئذ. هل أقصد حين أقول أنا أحب ديكنز، أني أحب التفكير بطفولتي فقط؟ وهل ديكنز مجرد عُرف؟

إن كان كذلك، فهو عُرف لا مناص منه. فكم مرة في الحقيقة يفكر المرء بكاتب ما، وحتى الكاتب الذي يهتم به، شيء صعب تقريره؛ وأشك أن يستطيع كل من قرأ ديكنز فعلياً أن يمرر أسبوعاً من دون أن يتذكره في سياق أو آخر. إن كنت تستحسنه أم لا، فهو هناك مثل عمود نيلسون. في أية لحظة أنت عرضة بأن يخرج عليك مشهد ما أو شخصية من أحد كتبه التي لا تستطيع تذكر اسمه، ويسقط في ذهنك. رسائل ميكاوبر! ويتكل في قفص الشهود! السيدة غامب! السيدة ويتيترلي والسير تاملي سنوفيم! وآل تودجر! (قال جورج غيسنغ إنه حين مرّ بالنصب التذكاري، فإن ما فكر فيه، لم يكن حريق لندن أبداً، وإنما آل تودجر دائماً) السيدة ليو هانتر! وسكويرز! وسيلاس ويغ وسقوط الإمبراطورية الروسية! والسيدة ميلز وصحراء الصحارى! وبسل وهو يمثل دور هاملت! والسيدة جيليباي! ومانتاليني وجيري كرنشر وباركيس وبامبلتشوك وتريسي توبمان وسكيمبول وجو غارغيري وبيكسنيف- وتطول قائمة الأسماء. إنها أشبه بعالم مؤلف من سلسلة طويلة من الكتب. عالم ليس هزلياً صرفاً أيضاً، لأن قسماً مما يتذكره المرء في ديكنز هو مرضيته الفيكتورية وانجذابه المرضي نحو الجثث ومناظر الدم والرعد -موت سايكس واحتراق كروك العفوي وفاجين في زنزانة المحكومين، والنسوة يحبكن حول المقصلة. لقد دخل كل هذا وبمدى مدهش حتى في عقول الناس الذين لم يهتموا بكتبه. يستطيع أي ممثل هزلي في صالة موسيقى أن يصعد إلى المسرح ويمثل دور ميكاوبر أو السيدة غامب، وهو متيقن تماماً بأنه سيكون مفهوماً رغم عدم وجود واحد من عشرين من الحضور الذين قرؤوا كتاباً كاملاً لديكنز. حتى الذين يتظاهرون بازدرائه، فهم يقتبسونه من دون قصد منهم.

ديكنز كاتب يمكن تقليده إلى نقطة محددة، ومثال على ذلك، يوجد في الأدب الشعبي الأصلي نسخة الفيل والقلعة لسويني تود التي انتحلها بوقاحة تامة. إن الذي تمّ تقليده ببساطة، هو العرف الذي أخذه ديكنز من روائيين سابقين وطوره، ألا وهو عبادة "الشخصية" أي غرابة الأطوار. أما الشيء الذي لا يمكن تقليده، فهو خصوبة إبداعه الذي يقلّ في الشخصيات ويقلّ أكثر في "الأوضاع" مقارنة بأسلوبه الخاص في التعبير والتفاصيل

الملموسة. إن السمة البارزة والجلية في كتابات ديكنز هي **التفاصيل غير الضرورية**، والاقتباس التالي مثال عما أقصده. إن القصة التالية ليست هزلية بشكل متميز، لكن فيها عبارة واحدة متفردة مثل البصمة. السيد جاك هوبكنز في حفلة بوب سوير، يروي قصة طفل بلع قلادة أخته:

في اليوم التالي بلع الطفل خرزتين، وفي اليوم الذي تلاه متّع نفسه بثلاث، وهلم جرا. وفي غضون أسبوع، استهلك العقد -خمس وعشرين خرزة. الأخت التي كانت فتاة كادحة، وقلما دللت نفسها ولو بقليل من الحلي والبهرجة، بكت كثيراً على خسارة القلادة، وبحثت عنها في كل مكان، لكنها لم تجدها. وبعد بضعة أيام من ذلك، كانت العائلة على وجبة الغداء -كتف خروف محمص وبطاطا تحته- الطفل الذي لم يكن جائعاً كان يلعب في الغرفة حين كان هناك ضجيج رهيب مثل عاصفة برد صغيرة فجأة. "لا تفعل ذلك يا بني" قال الأب. "أنا لم أفعل شيئاً" قال الطفل. "حسناً لا تفعل ذلك ثانية" قال الأب. كان هناك صمت قصير، ثم بدأ الضجيج ثانية بشكل أسوأ من ذي قبل. "إن لم تكترث بما قلته لك يا ولدي" قال الأب "ستجد نفسك في السرير في شيء أقل من همسة خنزير". هز الأب الطفل لكي يمتثل للأمر، ونتج عن هذا الهز ما لم يسمعه أحد من قبل. "لماذا تدينوني، إنه في الطفل" قال الأب "لقد أصيب بالخناق في المكان الخطأ!"، قال الطفل "كلا لم أصب يا أبي" وبدأ بالبكاء "إنها القلادة؛ لقد بلعتها يا أبي" حمل الأب الطفل وركض به إلى المستشفى، وكان الخرز يقعقع في معدته طول الطريق مع الارتجاج، والناس ينظرون عالياً في الجو وفي الأقبية في الأسفل ليروا من أين يأتي الصوت غير المعتاد. "إنه في المستشفى الآن" قال جاك هوبكنز "ويصدر ضجيجاً رهيباً حين يمشي في المكان، لذلك اضطروا إلى تلفيعه ولفه بمعطف خفير كي لا يوقظ المرضى"

إجمالاً هذه القصة يمكن أن تأتي من أي صحيفة هزلية في القرن التاسع عشر، لكن لمسة ديكنز الواضحة والشيء الذي لم يفكر فيه أحد غيره، هو كتف الخروف المحمص والبطاطا تحته. كيف يحسّن هذا القصة ويجعلها تتقدم؟ الجواب: هذا لن يحسنها، وهو شيء غير ضروري تماماً وخربشة مزخرفة تافهة على هامش الصفحة، ولكن بهذه الخربشات فقط يخلق ديكنز جوه الخاص به. الشيء الآخر الذي يلاحظه المرء هنا، هو أن طريقة ديكنز في رواية القصة تأخذ وقتاً طويلاً، والمثال المشوق عن ذلك والذي أطول من أن يُقتبس هو قصة سام

ويلر عن المريض العنيد في الفصل الرابع والأربعين من أوراق بيكويك. في الحقيقة وكما حدث، ينتحل ديكنز القصة عمداً أم دون قصد، ولدينا معيار للمقارنة هنا. القصة يرويها كاتب إغريقي قديم جداً لا أستطيع إيجاد المقطع الآن، لكني قرأته منذ سنين حين كنت صبياً في المدرسة، وهي تحدث على الشكل التالي تقريباً:

أحد التراسيين الذي اشتهر بعناده، حذرّه طبيبه بأنه إذا شرب قنينة كبيرة من النبيذ، فإنها ستقتله. وبناء على ذلك، شرب التراسي قنينة النبيذ وقفز فوراً من أعلى البيت فهلك، وقال "لأنني بهذه الطريقة سأثبت بأن النبيذ لم يقتلني".

يروي الإغريقي القصة كلها بطريقته في حوالي ستة أسطر. أما سام ويلر فتأخذ منه ألف كلمة. قبل أن نصل إلى الغرض والمغزى بوقت طويل، يخبرنا عن ثياب المريض ووجبات طعامه وعاداته وحتى الصحف التي قرأها، والتركيبة الغريبة لعربة الطبيب التي تخفي عدم تناسب سروال الخوذي مع معطفه، ثم الحوار بين الطبيب والمريض. قال المريض "إن الكعك المحمص بالزبدة مفيد للصحة يا سيدي" ردّ الطبيب بقوة وبغض شديد: "إن الكعك المحمص بالزبدة ليس مفيداً للصحة يا سيدي" في النهاية تُطمر القصة تحت التفاصيل، والحال نفسه في أغلب مقاطع ديكنز المميزة، فخياله يغمر كل شيء مثل نوع من العشب الضار. يقف سكويرز ليخاطب صبيانه ويأتي إلى مسامعنا على الفور شيء عن والد بولدر المحتاج إلى جنيهين وعشرة بنسات، وزوجة والد موب التي أُخذت إلى سريرها حين سمعت أن موب لن يأكل الدسم، وتمنت أن يجلده السيد سكويرز ويدفعه إلى حالة عقلية أبهج. السيدة ليو تكتب قصيدة بعنوان "الضفدعة التي تلفظ أنفاسها الأخيرة" ويُقدم منها مقطعان شعريان كاملان، وبوفين يُرسم كبخيل. وعلى الفور نهبط وسط سير ذاتية قذرة عن بخلاء من القرن التاسع عشر بأسماء مثل فلتشر هوبكينز والمبجل بلوبيري جونز، وعناوين فصول مثل "قصة فطائر لحم الضأن" و"كنوز كومة الروث" والسيدة هاريس التي ليس لها وجود، ولها تفاصيل كُدست عليها تكفي لوصف أكثر من ثلاث شخصيات في أي رواية عادية. ونعرف في وسط الجملة أن ابن شقيق ميرلي الرضيع مثلاً شُوهد في قارورة في غرينيتش فير مع السيدة ذات العينين القرنفليتين والقزم البروسي والهيكل العظمي الحي. جو غارغيري يصف كيف سطا اللصوص على بيت تاجر الذرة والبذور بمبلتشوك "وأخذوا درج نقوده وخزنته

وشربوا نبيذه وأكلوا لغود دجاجه، وصفعوه على وجهه وشدو أنفه وربطوه إلى قائمة سريره، وسدوا فمه بنباتات حولية مزهرة كاملة النمو لمنعه من الصراخ". مرة أخرى نجد لمسة ديكنز الواضحة حول النباتات الحولية المزهرة. ولو كان أي روائي آخر، فلن يتذكر نصف هذه الانتهاكات. كل شيء يُكوّم ويُكدّس، تفصيل فوق تفصيل آخر وزخرفة فوق أخرى. من العبث الاعتراض أن تعتبر هذا النوع من الشيء روكوكو (زخرفة مفرطة) -يمكن للمرء أن يقوم بنفس الاعتراض على كعكة الزفاف. إما أنك تحبه أو لا تحبه. كتّابنا في القرن التاسع عشر، سورتيس وبارهام وثاكري وحتى ماريات، لديهم بعض من صفة ديكنز الفائضة والغزيرة، لكن ليس بنفس الدرجة والمقياس. إن جاذبية هؤلاء الكتاب كلهم الآن تعتمد جزئياً على نكهة دورية، ولكن ماريات مازال رسمياً "صبي كاتب"، وسورتيس لديه نوع من السمعة الأسطورية وسط رجال صيادين، وربما يُقرأ من قبل الناس المولعين بالمطالعة.

من الجدير بالذكر أن أكثر كتب ديكنز نجاحاً (ليس أفضل كتبه) أوراق بيكويك وهو ليس رواية، وازمنة صعبة، وقصة مدينتين غير الهزلية. إن خصوصية ديكنز الطبيعية كروائي، عرقلته كثيراً جداً بسبب المحاكاة الساخرة التي لم يقدر على مقاومتها أبداً، والتي تقتحم دائماً ما ينبغي به أن يكون أوضاعاً جدية. هناك مثال جيد عن هذا في الفصل الافتتاحي من آمال كبيرة. المجرم الفار ماغويتش الذي أسر بيب ذا الست سنوات في باحة الكنيسة. يبدأ المشهد بشكل مروع تماماً من وجهة نظر بيب. المجرم مغطى بالوحل، وبقيده المتدلي من ساقه يثب فجأة من وسط القبور ويخطف الطفل ويقلب عاليه على أسفله ويسرق جيوبه. ثم يبدأ بترويعه في جلب مبرد:

أمسك بي من ذراعي في وضع عمودي على قمة صخرة، واستمر بهذه العبارات المخيفة:

"ستحضر لي ذلك المبرد والسكاكين في صباح الغد. اجلب لي الكثير في ذلك الحصن القديم هناك. افعل ذلك ولا تحاول أن تنبس بكلمة أو بإشارة تتعلق برؤيتك لشخص مثلي أو أي شخص آخر، وسوف أتركك تعيش. إن فشلت أو خرجت عن كلماتي بأي جزئية مهما كانت صغيرة، فسأمزق قلبك وكبدك وأشويها وآكلهما. الآن أنا لست لوحدي كما تظن. هناك شاب مخبأ في داخلي، وأنا ملاك مقارنة بذلك الشاب. ذلك الشاب يسمع الكلمات التي تفوهت بها. ذلك الشاب لديه طريقة خاصة به في الوصول إلى أي صبي وإلى قلبه وإلى كبده.

من العبث أن يحاول صبي أن يختبئ من ذلك الشاب. قد يغلق صبي بابه على نفسه ويتدفأ بسريره وربما يغطي نفسه جيداً بلحاف أو يشد ثيابه فوق رأسه، وقد يظن نفسه مرتاحاً وآمناً، لكن ذلك الشاب سيتسلل ويشق طريقه إليه بسهولة، وينتزع الباب ويفتحه. أنا أمنع ذلك الشاب من إيذائك في الوقت الحالي، لكن بصعوبة كبيرة. أنا أجد صعوبة في منع ذلك الشاب عن أحشائك. ما رأيك الآن؟

يستسلم ديكنز للإغراء هنا ببساطة. بداية ليس هناك شخص مطارد وجائع يتكلم بهذه الطريقة، وبالرغم من الخطاب الذي يبين معرفة واضحة بالطريقة التي يفكر بها عقل الطفل، إلا أن كلماته الفعلية لا تتناسب أبداً مع النغمة التي تلي ذلك، لأنها حولت ماغويتش إلى العم الشرير في المسرحيات الإيمائية، أو إلى مسخ مرعب لو رآه أحد بعيني طفل. وفي صفحات لاحقة من الكتاب، لم يصُوّر ويُقدم أياً من الشكلين السابقين. وبسبب هذا لم يُصدق عرفانه بالجميل المبالغ به الذي تدور حوله الحبكة. كالمعتاد يغمره خيال ديكنز. إن التفاصيل التصويرية أجود من أن تُحذف. حتى مع شخصيات أكثر قليلاً من ماغويتش الذي كان عرضة للسقوط بعبارة إغواء، فالسيد ميردستون مثلاً له عادة في إنهاء دروس ديفيد كوبرفيلد في كل صباح بعملية جمع حسابية كريهة تبدأ دائماً: "لو دخلت أنا إلى متجر بائع الجبن، واشتريت أربعة آلاف قطعة جبن مزدوجة من نوع غلوستر، سعر القطعة الواحدة منها أربعة بنسات، قدم الفاتورة". مرة أخرى تجد التفصيل الأنموذجي عند ديكنز، الجبن المزدوج من صنف غلوستر، لكنها لمسة أبعد من أن تكون إنسانية بالنسبة إلى ميردستون لو جعلها خمسة آلاف خزنة حديدية. كلما تعزف هذه النغمة، تعاني وحدة الرواية. وهذا ليس مهماً بأي درجة، لأن ديكنز كاتب تهمه أجزاءه أكثر من كلياته بشكل واضح، وهو مكوّن من كل الكسر وكل التفاصيل المتعفنة لأسلوب البناء، لكنها تماثيل قبيحة رائعة -ولم يكن ديكنز أفضل حين يرسم واحدة من شخصياته التي تُجبر لاحقاً على الفعل بشكل متضارب.

من غير المعتاد طبعاً أن تجادل وتقول إن ديكنز جعل شخصياته تتصرف بشكل متضارب، لأنه متهم عموماً بفعل العكس تماماً. يفترض بشخصياته أنها مجرد "أنماط"، كل واحدة منها تمثل سمة وحيدة ومزودة برقعة مميزة، تتعرف من خلالها على هذه السمة. إن الاتهام المعتاد بأن ديكنز مجرد "رسام كاريكاتير"، هو اتهام ظالم لم ينصفه. بدايةً، هو لم ير نفسه رسام

كاريكاتير، وكان دائماً يشرك شخصياته، التي يفترض أنها ستاتيكية تماماً، في الفعل القصصي. سكويرز وميكاوبر والآنسة ماوتشر.* حوّل ديكنز الآنسة ماوتشر إلى بطلة، لأن المرأة الحقيقية التي رسمها بشكل كاريكاتوري، قرأت الفصول السابقة، واستاءت بشدة. فقد أردها سلفاً أن تلعب دوراً خسيساً. لكن أي فعل من قبل هكذا شخصية، سوف يبدو متضارباً. حاشية المؤلف. ويغ، سكيمبول وبيكسنيف وكثيرون غيرهم يُربطون في النهاية في "حبكات"، يبدون غير مناسبين فيها، ويتصرفون بشكل لا يصدق إطلاقاً. يبدؤون مثل شرائح فانوس سحري، وينتهون كما لو أنهم في فيلم من الدرجة الثالثة. أحياناً يستطيع المرء وضع إصبعه على جملة بعينها يتهدم فيها الوهم الأصلي. هناك مثل هذه الجملة في ديفيد كوبرفيلد. بعد حفلة عشاء مشهورة (الحفلة التي لم ينضج فيها فخذ الخروف) يقود ديفيد ضيوفه للتفرج على البيت، فيوقف ترادلز بأعلى درج السلم:

"ترادلز" قلت، "إن السيد ميكاوبر لا يقصد أي ضرر يا رفيقي المسكين، لكني لو كنت مكانك فلن اقرضه أي شيء"

"عزيزي كوبرفيلد" رد ترادليز مبتسماً "ليس لدي ما أقرضه إياه".

"لديك اسم، أنت تعرف ذلك" قلت.

....

في المكان الذي يقرأ المرء فيه هذه الملاحظة، فإنها ترتج قليلاً عبر شيء من النوع المحتوم عاجلاً أو آجلاً. القصة واقعية إلى حد ما، وديفيد يكبر، وأخيراً هو مجبر بأن يرى السيد ميكاوبر كما هو، وغد متسول. بعدئذ طبعاً، تهزمه عاطفية ديكنز، ويدفع ميكاوبر إلى قلب صفحة جديدة، لكن منذ ذلك الوقت بات من المستحيل استرداد ميكاوبر الأصلي رغم المحاولات اليائسة. كقاعدة، "الحبكة" التي تُشبك فيها شخصيات ديكنز، غير معقولة بشكل واضح، لكنها تتظاهر ببعض الواقعية على الأقل، والعالم الذي تنتمي إليه بلاد الأحلام الرائعة ونوع من الخلود. لكن هنا تماماً يرى المرء أن "مجرد رسام كاريكاتير" ليس إدانة في الحقيقة. إن الظن الدائم بديكنز كرسام كاريكاتير، على الرغم من محاولاته الدائمة بأن يكون شيئاً آخر، هي ربما أقوى علامة عن عبقريته. لازالت الفظاعات التي خلقها تُذكر كفظاعات، رغم الخلط بينها وبين ما يمكن اعتباره ميلودراما. أثرها الأول قوي جداً، لدرجة لا يمحوه أي شيء يليه، ومثل الناس الذين عرفهم المرء في طفولته، يتذكرهم المرء دائماً في وضع محدد

واحد، ويفعلون الشيء بعينه. فالسيدة سكويزر توزع الكبريت والدبس دائماً، والسيدة غميدج تبكي دائماً، والسيدة غارغيري تخبط رأس زوجها بالجدار دائماً، والسيدة جيليباي تخربش في كراسات، بينما أطفالها يسقطون في فناء الدار- وهم كلهم هناك مثبتون إلى الأبد مثل منمنمات متلألئة مرسومة على أغطية علب السعوط. إنها شخصيات وهمية تماماً، ولا تصدق. ومع ذلك إنها أكثر صلابة، ويمكن تذكرها أكثر بكثير من محاولات الروائيين الجديين. حتى بمعايير عصره، كان ديكنز كاتباً متكلفاً بشكل استثنائي. كما قال روسكين هو"اختار أن يعمل في دائرة نار المسرح". شخصياته مشوهة ومبسطة أكثر من شخصيات سموليت. ليس هناك قوانين في كتابة الرواية، ولكن لأي عمل فني هناك اختبار وحيد جدير بالاهتمام، ألا وهو البقاء. بهذا الاختبار، نجحت شخصيات ديكنز حتى لو لم يرها الناس الذين يتذكرونها، كائنات بشرية. إنها مسوخ، ولكنها موجودة وحية في كافة الأحوال.

لكن بالمثل، هناك سلبية وخسارة في الكتابة عن المسوخ. تصل إلى القول إن ديكنز لا يستطيع أن يخاطب إلا أمزجة محددة فقط، وأن هناك مناطق واسعة من العقل البشري لم يلمسها أبداً. لا يوجد شعور شاعري في أي مكان في كتبه أو مأساة حقيقية أو حتى الحب الجنسي خارج منظوره تقريباً. في الواقع إن كتبه ليست لاجنسية جداً كما تظهر أنها كذلك أحياناً، ومع الأخذ بعين الاعتبار الوقت الذي كان يكتب فيه، فهو صريح باعتدال، لكن لا يوجد فيه أي أثر من المشاعر التي يجدها المرء في مانون ليزكو أو سالامبو أو كارمن أو مرتفعات وذرينغ. حسب ما نقل ألدوس هكسلي، فإن دي إتش لورانس قال مرة إن بلزاك كان "قزماً عملاقاً"، وذلك يصح على ديكنز بمعنى ما. هناك عوالم كاملة لم يعرف عنها شيئاً أو لم يرغب في ذكرها. لا يستطيع المرء تعلم الكثير جداً من ديكنز إلا بطريقة ملتوية نوعاً ما، وقولي هذا يجعلني أفكر بالروائيين الروس العظام في القرن التاسع عشر فوراً. لماذا تبدو سيطرة تولستوي أضخم من سيطرة ديكنز بكثير- لماذا يبدو أنه قادر أن يخبرك الكثير جداً عن نفسك؟ ليس لأنه أكثر موهبة أو حتى في التحليل النهائي أكثر ذكاء، وإنما لأنه يكتب عن أناس يكبرون. إن شخصياته تكافح من أجل صنع جوهرها ونفسها، بينما شخصيات ديكنز منجزة وتامة مسبقاً. إن شخصيات ديكنز تتواجد في ذهني الخاص بي في أحوال أكثر بكثير وحية أكثر بكثير من شخصيات تولستوي، لكن في موقف واحد لا يتبدل دائماً كالصور أو

قطع الأثاث. لا يمكنك أن تدير محادثة خيالية مع شخصية من شخصيات ديكنز كما تستطيع مع بيتر بيزوخوف مثلاً، وهذا ليس لأن جدية تولستوي أكبر، فهناك أيضاً شخصيات هزلية تستطيع تخيل نفسك وأنت تتحدث إليها- بلوم مثلاً أو بيكوشيه أو حتى السيد بولي عند ويلز. السبب أن شخصيات ديكنز ليست لها حياة عقلية، فهي تقول الشيء الذي يجب عليها قوله تماماً، ولا يمكن تخيلها وهي تتحدث عن أي شيء آخر. إنها لا تتعلم أبداً ولا تفكر أبداً. ربما أكثر الشخصيات ولعاً بالتأمل والتفكير، هي شخصية بول دومبي وأفكاره هريسة. هل يعني هذا أن روايات تولستوي "أفضل" من روايات ديكنز؟ الحقيقة أنه من السخف إجراء مثل هذه المقارنة من منظور "أفضل" و"أسوأ". لو أُجبرت أن أقارن بين تولستوي وديكنز، ينبغي أن أقول إن جاذبية تولستوي أوسع على المدى الطويل، لأن ديكنز نادراً ما يكون مفهوماً خارج الثقافة الناطقة بالإنكليزية. ومن جانب آخر إن ديكنز قادر على الوصول إلى الناس البسطاء، وهذا ما عجز عنه تولستوي. تستطيع شخصيات تولستوي عبور الحد، أما شخصيات ديكنز فيمكن تصويرها على ورقة سيجارة. إن المرء ليس ملزماً على الاختيار بينهما، أكثر من اختياره بين قطعة من النقانق وبين وردة. إن أهدافهما نادراً ما تتقاطع.

القسم السادس:

لو كان ديكنز مجرد كاتب هزلي، لما تذكر أحد اسمه الآن، أو في أحسن الأحوال كانت ستبقى بضعة من كتبه بنفس الطريقة التي بقيت فيها كتب مثل **فرانك فيرلي** والسيد **فيردانت غرين** و**محاضرات السيدة كوديل المحجوبة**، كنوع من مخلفات الجو الفيكتوري، ونفحة ضئيلة لطيفة من المحار والجعة البنية. من منا لم يشعر أحياناً "بالأسف" لأن ديكنز هجر خط ونوع **بيكويك** من أجل أشياء مثل ليتل **دوريت الصغيرة** و**أزمنة صعبة**؟ إن الذي يطلبه الناس دائماً من الروائي الشعبي، هو أن يكتب نفس الكتاب مرة تلو أخرى، ناسين أن الرجل الذي يكتب نفس الكتاب مرتين، لا يستطيع أن يكتبه ولو مرة واحدة.

أي كاتب ليس ميتاً على نحو واضح، يتنقل على نوع من القطع المكافئ والتقوس النازل متضمن في التقوس الصاعد. أجبر جويس أن يبدأ بكفاءة فاترة في **أهالي دوبلن**، وانتهى بلغة حالمة في **يقظة فينيغان**، لكن **يولسيس** و**صورة الفنان**، فهما جزء من المسار المنحني. إن الشيء الذي دفع ديكنز قدماً إلى شكل من الفن، لم يكن يناسبه في الحقيقة، والذي بنفس

الوقت جعلنا نتذكره هو في الحقيقة أنه كان عالم أخلاق والشعور بأن "لديه ما يقوله". إنه يقدم المواعظ السلوكية دائماً، وهذا هو السر الحاسم لقدرته الإبداعية. لأنك تستطيع أن تبدع فقط إن استطعت أن تهتم. لا يمكن إنتاج أنماط مثل سكويرز وميكاوبر بواسطة كاتب مبتذل يبحث عن شيء ليكون مضحكاً. إن الدعابة الجديرة بأن تضحك دائماً، توجد فكرة خلفها وتكون فكرة متمردة عادة. إن ديكنز قادر على الاستمرار بكونه مضحكاً، لأنه في ثورة ضد السلطة، والسلطة دائماً هناك لإثارة السخرية. هناك دائماً متسع لفطيرة كستر أخرى.

إن راديكاليته من النوع الأكثر غموضاً، ومع ذلك يعرف المرء أنها موجودة هناك دائماً. ذلك هو الفرق بين الداعية الأخلاقي والسياسي. ليس لديه مقترحات بناءة ولا حتى إدراك واضح لطبيعة المجتمع الذي يهاجمه، وإنما لديه بصيرة عاطفية بالخطأ الموجود، وكل ما يستطيع قوله أخيراً "تصرفوا باحترام"، الذي كما أوحيت مسبقاً ليس بالضرورة ضحلاً جداً كما يبدو. غالبية الثوريين هم توريون (محافظون) كامنون، لأنهم يتصورون أن كل شيء يمكن تصحيحه بتبديل شكل المجتمع، وبمجرد إنجاز ذلك التغيير، كما يحدث أحياناً، يرون عدم الحاجة إلى أي شيء آخر غيره. ليس لدى ديكنز هذا النوع من الفظاظة العقلية. غموض سخطه هو العلامة على استمرار هذا السخط. هو ليس ضد هذه المؤسسة أو تلك، وإنما كما قالها تشيسترتون "تعبير على الوجه الإنساني". إن مبادئه الأخلاقية مبادئ مسيحية تقريباً، لكن رغم نشأته الإنجليكانية، إلا أنه كان مسيحي الكتاب المقدس، مثلما حين اهتم أن يوضح ذلك عند كتابة وصيته. وبأي حال لا يمكن وصفه بدقة كرجل متدين. لقد "آمن بالدين" بلا شك، لكن الدين بالمعنى التعبدي لم يدخل في أفكاره كما يبدو.* إنه مسيحي في وقوفه شبه الغريزي إلى جانب المظلومين ضد الظالمين. إنه يقف في صف الضحية دائماً وفي كل مكان، كشيء بديهي ومسلم به. لو دفعنا بهذا إلى نتيجته المنطقية، فيجب على المرء أن يبدل

---

* من رسالة إلى ابنه الأصغر عام ١٨٦٨: "سوف تتذكر أنك لم تتعرض إلى مضايقة في البيت أبداً بسبب الطقوس الدينية أو الشكليات. لقد كنت حذراً دائماً بألا أرهق أولادي بمثل هذه الأشياء قبل أن يكونوا كباراً ويشكلوا آراءهم التي يحترمونها. لذلك سوف تفهم أني الآن أغرس فيك صدق وجمال الدين المسيحي، كما جاء من المسيح نفسه، واستحالة أن تضل وتتوغل في الخطأ إن احترمته بإخلاص وتذلل..... لا تتخلَّ عن الممارسة المفيدة في تأدية صلواتك أبداً في الليل وفي الصباح. أنا لم أتركها أبداً وأعرف الراحة التي تجلبها. ملاحظة المؤلف.

الاصطفاف حين يتحول الضعيف إلى غالب، ولكن ديكنز في الحقيقة لم يرغب أو يميل إلى هذا الفعل. إنه يشمئز من الكنيسة الكاثوليكية مثلاً، لكن بمجرد أن يُضطهد الكاثوليك (بارنابي رودج) يصبح في صفهم، ويشمئز من الطبقة الأرستقراطية أكثر، لكن فور الإطاحة بها (الفصول الثورية في قصة مدينتين) يميل تعاطفه. كلما كان يحيد عن موقفه العاطفي كان يتوه. مثال معروف في نهاية ديفيد كوبرفيلد؛ حيث كل من يقرأه يشعر بوجود خلل ما. الخلل أن الفصول الختامية كانت مشبعة بعبادة النجاح بشكل باهت لكنه ملحوظ. إنه الإنجيل بالنسبة إلى سمايلز بدلاً من الإنجيل بالنسبة إلى ديكنز. الشخصيات الرثة الثياب الجذابة التي تم التخلص منها، ميكاوبر يجني ثروة، هيب يدخل السجن- هذان الحادثان مستحيلان بشكل واضح- حتى دورا تُقتل لتخلي المجال لأغنيس. إن أحببت يمكنك أن تقرأ دورا على أنها زوجة ديكنز وأغنيس أخت زوجته، لكن النقطة الجوهرية أن ديكنز قلب طبيعته المحترمة الخاصة به وقسا عليها. لهذا ربما تكون أغنيس الأشد كرهاً بين بطلاته، الملاك الذي بلا ساقين في القصص العاطفي الفيكتوري، ورديئة بدرجة لورا عند ثاكري.

ليس هناك شخص ناضج يقرأ ديكنز ولا يشعر بقصوره وعجزه، ومع ذلك يبقى هناك سخاء عقله الأصيل الذي يعمل كنوع من مرساة تبقيه حيث ينتمي، وربما هو السر المركزي لشعبيته. إن تناقض المبادئ الدمث والسلمي من الأنموذج الذي لدى ديكنز هو إحدى علامات الثقافة الشعبية الغربية، والتي يراها المرء في القصص الشعبية والأغاني الهزلية والشخصيات الخيالية مثل ميكي ماوس والبحار بوب-آي (كلاهما شكلين مختلفين عن جاك قاتل المارد) وفي تاريخ اشتراكية الطبقة العاملة في الاحتجاجات الشعبية (غير فعالة دائماً لكنها ليست زائفة دائماً) ضد الإمبريالية وفي الدافع الذي يجعل هيئة المحلفين تمنح مكافأة عن أضرار مفرطة تسببها عربة غني حين تدهس رجلاً فقيراً؛ إنه الشعور بأن يكون المرء في الجانب الخطأ من الضحية وفي جانب الضعيف ضد القوي. بمعنى واحد إنه الشعور الذي بات عتيقاً ومهملاً منذ خمسين سنة. إن الإنسان العادي لازال يعيش في عالم ديكنز العقلي، لكن كل مثقف عصري تقريباً انتقل إلى شكل آخر من الاستبدادية. من وجهة نظر الماركسي أو الفاشي إن كل ما مثله ديكنز وناصره تقريباً يمكن شطبه باعتباره "مبادئ أخلاقية بورجوازية". لكن في المنظور الأخلاقي لم يستطع أحد أن يكون أكثر "بورجوازية" من الطبقات العاملة

الإنكليزية. الناس العاديون في البلدان الغربية لم يدخلوا أبداً عقلياً في عالم "الواقعية" وسياسة القوة. ربما يفعلون هذا قريباً، وفي هذه الحالة سيكون ديكنز عتيقاً ومهملاً مثل العربة التي يجرها الحصان. لكن في عصره وعصرنا كان مشهوراً وله شعبية أساساً، لأنه كان قادراً أن يوضح في صور هزلية مبسطة، وبناءً عليه يمكن تذكرها شكلاً من آداب سلوك الرجل العادي المحتشم الأصيلة، والمهم من وجهة النظر هذه يمكن وصف الناس الذين من أنواع مختلفة جداً بـ"العوام". في بلاد مثل إنكلترا هناك وحدة ثقافية معينة رغم التركيبة الطبقية. في كل العصور المسيحية ومنذ الثورة الفرنسية خصوصاً، لازمت فكرة الحرية والمساواة العالم الغربي، ونفذت إلى كل مراتب المجتمع، على الرغم من كونها مجرد فكرة فقط. إن أشنع المظالم والأعمال الوحشية والأكاذيب والغطرسة موجودة في كل مكان، لكن ليس هناك أناس كثيرون يستطيعون النظر إلى هذه الأشياء بنفس لامبالاة الروماني مالك الرق مثلاً، فحتى المليونير يعاني من إحساس مبهم بالذنب مثل كلب يأكل فخذ ضأن مسروق. كل واحد تقريباً أياً كان سلوكه يستجيب عاطفياً لفكرة الأخوة الإنسانية. عبر ديكنز عن نظام آمن الناس به ولازالوا عموماً حتى من قبل الذين ينتهكونه، وإلا من الصعب تفسير لماذا استطاع الناس الشغيلة قراءته (شيء لم يحدث لأي روائي في منزلته) ولماذا دُفن في دير ويستمنستر.

حين يقرأ المرء أي قطعة مميزة من الكتابة، يتشكل لديه انطباع بأنه يرى وجهاً في مكان ما وراء الصفحة. ليس بالضرورة الوجه الحقيقي للكاتب. أشعر بهذا بقوة مع سويفت وديفو ومع فيلدينغ وستندال وثاكري وفلوبير، لكن في حالات كثيرة أنا لا أعرف كيف هو شكل هؤلاء الناس، ولا أريد أن أعرف. إن الذي يراه المرء هو الوجه الذي ينبغي بالكاتب أن يملكه. حسناً في حالة ديكنز أرى وجهاً ليس الوجه الذي في صور ديكنز تماماً لكنه يشبهه. إنه وجه رجل في حوالي الأربعين من عمره بلحية صغيرة وملامح متوردة. وجه يضحك مع لمسة من الغضب في ضحكه، لكنها بلا انتصار أو خبث. وجه رجل يحارب دائماً ضد شيء ما، لكنه يحارب جهاراً وعلى المكشوف وليس خائفاً، وجه رجل غاضب لكن بنبل -بعبارة أخرى وجه رجل ليبرالي من القرن التاسع عشر ذو ذكاء سخي ونمط مكروه بكره متساوٍ من قبل كل العقائد الأرثوذوكسية الصغيرة ذات الرائحة الكريهة، التي تتنافس على أرواحنا الآن.

داخل الحوت

القسم الأول:

حين ظهرت رواية هنري ميلر مدار السرطان في عام ١٩٣٥، قوبلت بثناء حذر نوعاً ما، اشترطه في بعض الحالات الخوف من التظاهر في الاستمتاع بالفن الإباحي. وكان من بين الذين أثنوا على الرواية تي إس إليوت وهيربرت ريد وألدوس هكسلي وآيرزا باوند- وهم إجمالاً ليسوا الكتاب الدارجين في هذه اللحظة. وفي الحقيقة، إن الموضع الرئيسي للكتاب وجوّه الفكري ينتمي في مدى محدد إلى العشرينيات أكثر منه إلى الثلاثينيات.

مدار السرطان رواية تُروى بضمير الشخص المتكلم، أو هي سيرة ذاتية في شكل رواية، كيفما كانت الطريقة التي تحب أن تنظر إليها بها. إن ميلر نفسه يصرّ على أنها سيرة ذاتية مباشرة، لكن الإيقاع السريع للأحداث وأسلوب سرد القصة، ينتميان إلى الرواية. إنها قصة باريس الأمريكية، لكن ليست على الخطوط المعتادة تماماً، لأن الأمريكيين الذين يظهرون فيها كانوا أشخاصاً من دون مال. أثناء سنوات الازدهار الاقتصادي، حين كانت الدولارات وافرة وكانت قيمة صرف الفرنك متدنية، اجتاحت باريس حشود من الفنانين والكتّاب والطلاب والفنانين الهواة والمنجمين والفاسقين والمتبطلين الصريحين، بشكل لم يشهد العالم له مثيلاً. وفي بعض أحياء المدينة، فاق عدد الفنانين المزعومين في الواقع، عدد السكان العاملين. ففي آخر العشرينيات في الواقع، كان هناك حوالي ثلاثين ألف رسام في باريس تقريباً، أغلبهم من الدجالين. ازدادت قسوة الجماهير نحو الفنانين، إلى درجة أن سحاقيات بأصواتهن الفظة وسراويلهن القصيرة المخططة وشبان في أزياء إغريقية أو قروسطية، ساروا في الشوارع من دون لفت الانتباه. وعلى طول ضفاف السين ونوتردام، كان من المستحيل تقريباً أن تجد طريقك بين مساند الرسم. لقد كان عصر الخيول السود والجني المهمل، والعبارة التي على كل لسان كانت "حين أكون مشهوراً" كما تبين فلم يكن أحد "مشهوراً"، وحلّ الركود وهبوط الأسعار مثل عصر جليدي آخر. تلاشى الرعاع العالميون من الفنانين، وتحولت مقاهي شارع مونتبارناس، التي كانت قبل عشر سنوات فقط تعج حتى الساعات المتأخرة بجماعات من المتكلفين

الزاعقين، إلى مقابر مظلمة خلت حتى من الأشباح. إنه العالم -الذي وصفه ويندهام لويس في روايته تار بين روايات أخرى - والذي كتب عنه ميلر من دون أن يتعامل إلا مع الجانب السفلي منه، والجماعة البروليتارية المتورمة التي كانت قادرة على البقاء حية والنجاة من الركود، لأنها مؤلفة جزئياً من فنانين أصيلين وجزئياً من أوغاد حقيقيين. إن الجن المهملين والمصابين بجنون العظمة الذين دائماً "سوف" يكتبون الرواية التي سيتفوقون فيها على بروست، هم جن فقط في اللحظات النادرة، حين لا يكونون يتصيدون ويفتشون عن الوجبة التالية. في قسمها الأكبر هي قصص الغرف الممتلئة بالبق في فنادق العمال والعراك والشجار والمتبطلين والمواخير الرخيصة واللاجئين الروس والتطفل والاحتيال والوظائف المؤقتة. كل جو الأحياء الفقيرة الباريسية كما يراها الأجنبي- الأزقة المرصوفة بالحصى ودخان النفايات الكريه والمطاعم الصغيرة بطاولاتها المصنوعة من الزنك والملوثة بالشحم وأرضياتها الخشبية المهترئة ومبولاتها الحديدية المفتتة ورائحة محطات المترو الغريبة المثيرة للغثيان، والسجائر التي تتكسر والحمام في حدائق لوكسمبورغ- كلها هناك، أو الشعور بأنها هناك على أي حال.

ظاهرياً، ليس هناك مادة واعدة أقل منها. حين نُشرت **مدار السرطان**، كان الإيطاليون يتخطون في أثيوبيا، ومعسكرات الاعتقال الهتلرية تتورم. كانت البؤر الثقافية في العالم روما وموسكو وبرلين، ولم تكن لحظة يُتوقع أن تُكتب فيها رواية ذات قيمة بارزة حول أميركي رث ومنهك يتسول جرعات الشراب في الحي اللاتيني. طبعاً الروائي غير ملزم أن يكتب عن التاريخ المعاصر بشكل مباشر، لكن الروائي الذي يهمل الأحداث العامة الرئيسية الراهنة، هو ببساطة إما عابث أو أبله صريح عموماً. من مجرد الموضوع الرئيسي لمدار السرطان، فإن أغلب الناس ربما يفترضون أنها ليست سوى بقية فائضة بذيئة من العشرينيات. فعلياً كل من قرأها تقريباً، رأى فوراً أنها تخلو من ذلك النوع، وهي كتاب رائع. كيف ولماذا هو رائع؟ سؤال لم تكن الإجابة عليه سهلة أبداً. من الأفضل البدء بوصف الانطباع الذي تركته مدار السرطان على ذهني.

حين فتحت كتاب **مدار السرطان** لأول مرة، ورأيته مملوء بكلمات غير صالحة للنشر، كان رد فعلي الفوري رفض التأثر، وأغلب الناس سيكونون مثلي كما أعتقد. مع ذلك، بعد فترة من الوقت، بدا جو الكتاب بالإضافة إلى تفاصيل لا تحصى، يتلكأ في ذاكرتي بطريقة غريبة. في هذه المرة كان مدار السرطان حاضراً في عقلي بقوة أكبر مما كان حين قرأته لأول مرة.

لم تكن لشعوري الأول حول **ربيع أسود**، الذي أظهر سقوطاً، نفس الوحدة التي في الكتاب الآخر حقيقة. لكن بعد سنة، كانت هناك مقاطع كثيرة في **ربيع أسود** جذرت نفسها في ذاكرتي. من الواضح أن الكتب التي من هذا النوع تترك نكهة بعدها-كتب "تخلق عالماً خاصاً بها" كما يقال. الكتب التي تفعل هذا، ليست كتباً جيدة بالضرورة، وقد تكون كتباً رديئة مثل قصص **رافلز** أو **شارلوك هولمز**، أو كتباً منحرفة وكئيبة مثل **مرتفعات وذرينغ** أو **البيت ذو درفات النوافذ الخضر**. لكن بين الحين والآخر تظهر رواية تعلن عن عالم جديد، ليس بكشف ما هو غريب وإنما بكشف ما هو مألوف. الشيء البارز حقاً حول **يوليسيس** مثلاً هو عادية (ابتذال) مادته. طبعاً هناك ما هو أكثر من هذا في **يوليسيس**، لأن جويس شاعر ومنظّر متحذلق كبير، وكان إنجازه الحقيقي هو الحصول على المألوف ووضعه على الورق. تجرأ- لأنها مسألة جرأة بقدر ما هي تكنيك- أن يعرض بلاهات العقل الداخلي، وبهذا الفعل اكتشف أمريكا التي كانت تحت أنف كل شخص. هنا عالم كامل من الحشو الذي تفترض أنه غير قابل للنقل بطبيعته، ويأتي شخص وينجح في نقله. الأثر هو تحطيم العزلة التي يعيش فيها الكائن الإنساني مؤقتاً في أي حال. حين تقرأ مقاطع محددة من **يوليسيس**، تشعر أن عقل جويس وعقلك هما عقل واحد، وأنه يعرف كل شيء عنك، رغم أنه لم يسمع باسمك أبداً، وأن هنالك عالماً ما خارج الزمان والمكان، تكونان أنت وهو فيه معاً. هناك لمسة من هذه الخاصية في هنري ميلر، رغم أنه لا يشبه جويس في طرق أخرى، لكنها ليست في كل مكان، لأن عمله متفاوت الجودة كثيراً، وأحياناً يميل إلى الإغراق بالحشو أو إلى عالم السرياليين الهش، خصوصاً في **ربيع اسود**. لكن اقرأ خمس صفحات أو عشراً له، وستشعر بارتياح غريب لا يأتي من فهمك له وإنما من كونك مفهوماً بالنسبة إليه. تشعر أنه "يعرف كل شيء عني" وأنه "كتب هذا خصيصاً لي". كأنك تسمع صوتاً يخاطبك، صوت أمريكي ودود ليس فيه احتيال أو غرض أخلاقي، وإنما مجرد افتراض ضمني بأننا كلنا متشابهون. الآن ابتعدتَ عن الأكاذيب والتبسيط، ووصفة أسلوب الدمية المتحركة للقصص العادي وحتى القصص الجيد، وتتعامل مع تجارب بشرية مألوفة ومدركة.

لكن أي نوع من التجارب؟ أي نوع من البشر؟ ميلر يكتب عن الإنسان الذي في الشارع، وبالمصادفة وليس الشفقة كان شارعاً مليئاً بالأشقاء. تلك هي عقوبة تركك لبلادك الأصلية

التي ولدت فيها ونقل جذورك إلى تربة ضحلة. ربما يكون المنفى مضراً للروائي أكثر من الرسام أو حتى الشاعر، لأن أثره ينتزعه من اتصاله المباشر مع الحياة الجارية الفعلية ويضيق مجاله إلى الشوارع والمقهى والكنيسة والماخور والمرسم. إجمالاً أنت تقرأ في كتب ميلر عن أناس يعيشون حياة المنفى، أناس يشربون ويتحدثون ويتأملون ويزنون، وليسوا أناسا يعملون ويتزوجون ويربون الأطفال؛ وللأسف كان عليه أن يصف المجموعة الأولى من النشاطات بالإضافة إلى المجموعة الأخرى. في ربيع أسود هناك ارتجاع فني (فلاش باك) رائع لنيويورك، نيويورك التي تعج بحشود الايرلنديين، نيويورك في فترة هنري، لكن المشاهد الباريسية هي الأفضل، وقُبلت تفاهتها الصارخة كنماذج اجتماعية، وعولجت حفلات السكر والمتبطلين الذين في المقاهي بشعور في الخصوصية، وفي تكنيك احترافي بارع لا تضاهيه أي رواية حديثة، وكلهم ليسوا معقولين فقط، وإنما مألوفين تماماً أيضاً. وتشعر أن كل مغامراتهم حدثت لك شخصياً. ليس هناك ما يفاجئ في درب مغامراتهم. هنري يحصل على وظيفة مع طالب هندي مكتئب، ثم يحصل على وظيفة أخرى في مدرسة فرنسية مروعة أثناء عضة برد تتجمد فيها المغاسل والمراحيض، ويستمر في جولات من الشراب والسكر في لوهافر مع صديقه القبطان البحري كولينز، ويذهب إلى المواخير؛ حيث الزنجيات الرائعات، ويتحدث مع صديقه الروائي فان نوردن الذي لديه الرواية العظمى عن العالم في رأسه، لكنه لا يستطيع أن يحمل نفسه على البدء في كتاباتها. صديقه كارل الذي كان على حافة الموت جوعاً، تلتقطه أرملة ثرية راغبة في الزواج منه. هناك محادثات هاملتية لانهائية، يحاول فيها كارل أن يقرر أيهما أسوأ، الجوع أم النوم مع امرأة كبيرة في السن. بتفصيل شديد يصف زياراته للأرملة، كيف يذهب إلى الفندق في أحلى حلة وكيف يهمل التبول قبل الدخول، لذلك يكون المساء كله فترة من العذاب المتزايد إلخ إلخ. وأخيراً هذا الأمر برمته غير حقيقي، فليس هناك وجود للأرملة -لقد اختلقها كارل ليعطي أهمية لنفسه. الكتاب كله في هذا المزاج تقريباً. لماذا هذه التفاهات الهائلة فاتنة جداً؟ ببساطة لأن الجو كله مألوف جداً ولأنك تشعر طول الوقت بأن هذه الأشياء حدثت لك، ويتملكك هذا الشعور لأن شخصاً ما اختار أن يسقط لغة جنيف من الرواية العادية، ويسحب سياسة الواقع من العقل الباطن، ويخرجها إلى العلن. في حالة ميلر هي ليست مسألة استكشاف آليات العقل، أكثر مما هي اعتراف بحقائق الحياة اليومية

وعواطف الحياة اليومية. لأن الحقيقة أن الكثير من الناس العاديين وربما الأغلبية الفعلية، يتكلمون ويتصرفون بالطريقة التي دونت هنا تماماً. الفظاظة القاسية التي تتحدث بها شخصيات مدار السرطان نادرة جداً في القصص، لكنها شائعة إلى حد الإفراط في الحياة الواقعية؛ لقد سمعت المرة تلو الأخرى مثل هذه المحادثات من أناس لم يدركوا أنهم كانوا يتحدثون بصورة فظة حتى. من اللافت أن مدار السرطان ليس كتاباً لرجل شاب. كان ميلر في أربعينيات عمره حين نشر الكتاب، ومنذ ذلك الوقت أنتج ثلاثة أو أربعة كتب أخرى. ومن الواضح أن هذا الكتاب الأول قد عاش معه لسنوات. إنه واحد من تلك الكتب التي أُنضجت ببطء في فقر وظلمة بواسطة أناس يعرفون ما يجب أن يفعلوه، ولذلك كانوا قادرين على الانتظار. النثر مذهل، وفي بعض أقسامه أفضل من ربيع أسود حتى. لسوء الحظ لا أستطيع الاقتباس؛ كلمات لا تصلح للطبع تظهر في كل مكان تقريباً. لكن تمعّنْ في مدار السرطان وتمعّنْ في ربيع أسود، واقرأ المائة صفحة الأولى فقط بشكل خاص. إنها تعطيك فكرة لكل مازال فعله ممكناً مع النثر الإنكليزي حتى في هذا الوقت المتأخر. فيهما (في الكتابين) تُعامل اللغة الإنكليزية كلغة محكية، لكن محكية بلا خوف، بلا خوف من علم البيان أو من المعتاد أو الكلمة الشعرية. عادت الصفة بعد عشر سنوات من نفيها. إنه نثر متدفق ومتورم، نثر فيه إيقاع، إنه شيء يختلف تماماً عن العبارات الحذرة الصريحة ولهجات المطاعم والمقاهي الدراجة الآن.

حين يظهر كتاب مثل مدار السرطان، فمن الطبيعي أن يكون الشيء الأول الذي يلاحظه الناس فيه هو فحشه. بسبب أفكارنا الحالية عن اللياقة الأدبية، ليس من السهل أبداً مقاربة كتاب غير قابل للطبع بانحياز؛ فالمرء إما أن يصاب بصدمة أو يشعر بالغثيان أو تسري فيه رعشة مريضة أو يعقد العزم على ألا يتأثر مهما كان. ربما يكون رد الفعل الأخير هو الأكثر شيوعاً، مع الاستنتاج بأن الكتب غير القابلة للطبع تحظى غالباً باهتمام أقل مما تستحقه. إن الدارج اليوم هو القول: لا شيء أسهل من كتابة كتاب فاحش، وإن الناس يفعلون ذلك ليجعلوا الآخرين يتحدثون عنهم أو لكسب المال إلخ، إلخ. يوضح الكتاب أن الحالة ليست هكذا، وأن الكتب الفاحشة في مفهوم محكمة الجنح غير شائعة بلا ريب، ولو كانت هناك أموال تأتي سهلة بواسطة الكلمات القذرة، لفعلها الكثير من الناس. لكن لأن الكتب الفاحشة

لا تظهر كثيراً جداً، فهناك ميل لرميها من دون تمييز كقاعدة غير مبررة نهائياً. أُرفق مدار السرطان على نحو غامض مع كتابين آخرين هما **يوليسيس** و**رحلة إلى آخر الليل**، لكن لا يوجد الكثير من التشابه في كلا الحالتين. إن الشيء المشترك بين ميلر وجويس، هو الرغبة والاستعداد لذكر الحقائق الحقيرة والتافهة للحياة اليومية. بوضع الاختلافات في التكنيك جانباً، فإن المشهد الجنائزي في **يوليسيس** مثلاً يلائم **مدار السرطان**؛ الفصل كله نوع من الاعتراف وفضح للتحجر الداخلي المخيف للكائن البشري. لكن التشابه ينتهي هناك. فرواية **مدار السرطان** أقل من **يوليسيس** منزلة. جويس فنان بالمعنى الذي لم يرغب أن يكون به ميلر، وفي كافة الأحوال فإن محاولته أكبر بكثير، فهو يستكشف الحالات المختلفة للوعي والحلم وأحلام اليقظة (فصل برونز بالذهب) والسكر إلخ، وتعشيقها كلها في أنموذج معقد ضخم مثل الحبكة الفيكتورية تقريباً. ميلر شخص قاس غير عاطفي، يتحدث عن الحياة ورجل أعمال أميركي عادي مع شجاعة فكرية وموهبة في الكلمات. ومن الهام ربما أنه يبدو تماماً مثل الفكرة التي يحملها كل واحد عن رجل الأعمال الأمريكي. أما بالمقارنة مع **رحلة إلى آخر الليل**، فهو ابعد كثيراً عن الغرض. إن كلا الكتابين يستخدمان كلمات مهينة، وكلاهما عبارة عن سيرة ذاتية بشكل ما، وهذا كل شيء. **رحلة إلى آخر الليل** كتاب هادف، وهدفه الاحتجاج ضد رعب الحياة العصرية وخلوها من أي معنى -الحياة الفعلية والحقيقية. إنه صيحة من الاشمئزاز الذي لا يحتمل، وصوت من المبولة. أما **مدار السرطان** فهو العكس تماماً تقريباً. يصبح الشيء غير عادي لدرجة يبدو شاذاً تقريباً، لكنه كتاب لرجل سعيد، وكذلك أيضاً **ربيع أسود** رغم أنه أقل تطابقاً، لأنه ملون في بعض الأماكن بالحنين إلى الوطن. بعد سنوات من الحياة البروليتارية المتورمة خلفه وجوع وتشرد وقذارة وفشل وليال في العراء ومعارك مع موظفي الهجرة وصراعات لا تنتهي من أجل القليل جداً من النقود، يجد ميلر نفسه أنه يمتع نفسه. إن مظاهر الحياة التي أشعرت سيلين بالرعب، هي التي جذبته بالضبط، ويقبلها راضياً وبعيداً عن الاحتجاج، وكلمة قبول بعينها تستدعي شبيهه الحقيقي الأمريكي الآخر والت ويتمان.

لكن هناك شيئاً غريباً نوعاً ما، بأن يكون ويتمان حياً في ثلاثينيات القرن العشرين. ليس من المؤكد إن كان ويتمان نفسه حياً في اللحظة التي كتب فيها أي شيء يشبه بأقل درجة أوراق

العشب. لأن ما يقوله بعد كل شيء هو: "أنا أقبل"، وهناك اختلاف جوهري بين القبول الآن والقبول آنذاك. كان ويتمان يكتب في زمن رخاء لا مثيل له، والأكثر من ذلك أنه كان يكتب في بلاد كانت فيها الحرية شيئاً أكثر من مجرد كلمة. الديمقراطية والمساواة والروح الرفاقية التي كان يتحدث عنها دائماً، ليست قيماً ومثلاً نائية، وإنما شيء متواجد أمام عينيه. في منتصف القرن التاسع عشر، شعر الرجال الأمريكيون بأنهم أحرار ومتساوون. كانوا أحراراً ومتساوين بالحد الأقصى الممكن خارج مجتمع من الشيوعية الصرفة. كان هناك فقر، وكانت هناك فروق طبقية أيضاً، لكن باستثناء الزنوج لم تكن هناك طبقة مغمورة دائماً. كل واحد لديه نوع من الجوهر في داخله والمعرفة بأنه يستطيع أن يحظى بعيش كريم يكسبه من دون تملق وتذلل. حين تقرأ عن مراكبية وربابنة الميسيسيبي الذين كتب عنهم مارك توين أو **المنقبون عن الذهب** لهربرت هات، فإنهم يبدون أبعد من آكلي لحوم البشر في العصر الحجري. السبب هو ببساطة أنهم كانوا بشراً أحراراً، لكن الوضع نفسه حتى مع الولايات الشرقية المدجنة المسالمة في أميركا **نساء صغيرات وأطفال هيلين والركوب من بانغور**. للحياة صفة نشطة ومبهجة تستطيع، وأنت تقرأ، الشعور بها مثل إحساس بدني في بطنك. إن كان ذلك ما يمجده ويتمان، فإنه فعله بطريقة رديئة جداً، لأنه واحد من الكتاب الذين يخبرونك بما يجب أن تشعر به بدلاً من أن تشعر به بنفسك. لحسن حظ معتقداته، مات مبكراً جداً، قبل أن يرى في الحياة الأمريكية ذلك الفساد الذي حدث مع ظهور الصناعة الكبيرة واستغلال العمل المهاجر الرخيص.

وجهة نظر ميلر قريبة جداً من وجهة نظر ويتمان، وكل من قرأه تقريباً لاحظ هذا. **مدار السرطان** تنتهي بمقطع وايتماني استثنائي، فبعد أعمال الفسق والاحتيال والقتال ونوبات السكر والحماقات، يجلس ببساطة ويراقب جريان السين بنوع من القبول الصوفي للشيء كما هو عليه. لكن بماذا قَبِل؟ في المقام الأول، ليس أمريكا وإنما بكومة العظام العتيقة لأوروبا؛ حيث كل حبة تراب اخترقت عدداً لا يحصى من الأجساد البشرية. ثانياً، ليس عصر توسع وحرية، وإنما عصر خوف واستبداد وخضوع للنظام. إن القول "أنا أقبل" بعصر مثل عصرنا، هو القول إنك تقبل بمعسكرات الاعتقال والعصي المطاطية وهتلر وستالين والقنابل والطائرات والطعام المعلب والبنادق الآلية والعصيانات المسلحة وحملات التطهير والشعارات وأحزمة وأقنعة الغاز والغواصات والجواسيس والمستفزين ورقابة الصحف

والسجون السرية والأسبرين وأفلام هوليوود والجرائم السياسية. ليست تلك الأشياء فقط طبعاً وإنما تلك الأشياء من بين كثير غيرها. وفي المجمل، هذه وجهة نظر ميلر، لكن ليس دائماً تماماً، لأنه أحياناً يبدي أمارات من نوع الحنين الأدبي العادي. هناك مقطع طويل في القسم الأول من ربيع أسود يمدح فيه العصور الوسطى، وكثير يجب أن يكون من أكثر القطع تميزاً في الكتابة في السنوات الأخيرة، ولكنه يكشف موقفاً لا يختلف جداً عن موقف تشيسترتون. في **ماكس وخلايا البلعمة البيضاء**، هنالك هجوم على الحضارة الأمريكية الحديثة (إفطار الحبوب والسيلوفان إلخ) من الزاوية المعتادة لرجل الأدب الذي يكره الصناعوية، لكن بشكل عام موقف "دعنا نبلعها (نقبلها) كلها". ومن هذا جاء الانهماك الظاهري في قلة الاحتشام والجانب القذر للحياة. إنه مجرد تظاهر، فقط لأن الحقيقة هي أن الحياة اليومية العادية تتألف من أشياء مرعبة أكثر مما تبالي وتعترف به القصص التي يكتبها الكتّاب. ويتمان نفسه "قَبِل" بالكثير جداً مما وجده معاصروه واعتبروه لا يصح ذكره. هو لم يكتب فقط عن المرج، بل تجول في المدينة ولاحظ الجمجمة المحطمة للمنتحر والوجوه المريضة الرمادية للمستمنين إلخ إلخ. لكن عصرنا في أوروبا الغربية أقل تعافياً وأقل أملاً بكل المقاييس من العصر الذي كتب فيه ويتمان. بعكس ويتمان، نحن نعيش في عالم منكمش، و"الآفاق الديمقراطية" انتهت بأسلاك شائكة، وهناك شعور أقل بالخلق والنمو، وتأكيد أقل فأقل بالمهد المتأرجح بشكل لانهائي، وتأكيد أكثر فأكثر على إبريق الشاي الذي يطبخ على النار بشكل متواصل. إن القبول بالحضارة، يعني عملياً القبول بالانحلال والانحطاط، فلم يعد الأمر موقفاً متحمساً، بل أصبح موقفاً سلبياً بل "منحطاً" حتى إن كان لتلك الكلمة معنى.

لكن بالضبط لأنه سلبي بمعنى ما تجاه التجربة. استطاع ميلر أن يقترب من الإنسان العادي أكثر مما هو ممكن لأكثر الكتاب الهادفين إلى ذلك، وكان سلبياً بالنسبة إلى الشخص العادي أيضاً، وشعر بأنه سيد قدره ضمن دائرة ضيقة مثل الحياة البيتية وربما النقابة العمالية أو السياسة المحلية، ولكنه كان عاجزاً ضد أحداث رئيسية وضد العناصر. بعيداً عن السعي للتأثير على المستقبل، ارتاح وترك الأشياء تحدث له. أثناء العشر سنوات الماضية ورط الأدب نفسه أكثر في السياسة. وفي النتيجة بات الحيز بالنسبة إلى الرجل العادي الآن أقل من أي وقت

خلال القرنين السابقين. يستطيع المرء أن يرى التغيير في الموقف الأدبي السائد بمقارنة الكتب التي كتبت حول الحرب الأهلية الإسبانية مع تلك التي كتبت حول حرب ١٩١٤-١٩١٨. الشيء اللافت بصورة فورية حول كتب الحرب الإسبانية على الأقل المكتوبة باللغة الإنكليزية، هو بلادتها المروعة وسوءها، لكن الأكثر أهمية أن أغلبها يسارية كانت أو يمينية، كتبت من زاوية سياسية بواسطة أنصار واثقين يخبرونك بما يجب أن تفكر فيه، بينما الكتب عن الحرب الكبرى كتبها جنود عاديون أو ضباط صغار، ولم يتظاهروا حتى بفهمهم لهدف الحرب ومغزاها. كتب مثل **كل الهدوء على الجبهة الغربية**، و**الحريق**، و**وداعاً للسلاح**، و**موت بطل**، و**وداعا لكل ذاك**، و**مذكرات ضابط مشاة** و**ملازم أول على سومي**، لم يكتبها المروجون والدعاة وإنما الضحايا. هم يقولون في الواقع "بحق الجحيم من أجل ماذا كل هذا؟ الرب هو من يعرف. كل ما نستطيع فعله هو أن نتحمل". وعلى الرغم من أنه لم يكتب عن الحرب أو السعادة إجمالاً، فهو أقرب إلى موقف ميلر من موقف العارف بكل شيء، وهو النمط السائد الآن. **ذا بوستر** هي دورية قصيرة العمر، عمل فيها محرراً جزئياً، وكانت تصف نفسها في إعلاناتها بـ "غير السياسية وغير التربوية وغير التقدمية وغير التعاونية وغير الأخلاقية وغير الأدبية وغير المتناسقة وغير المعاصرة"، ويمكن وصف عمل ميلر بنفس العبارات تقريباً. إنه صوت من الحشد، من المرؤوس، من حافلة الدرجة الثالثة، من الرجل العادي اللاسياسي واللاأخلاقي والسلبي.

استخدمت عبارة "الإنسان العادي" على نحو فضفاض نوعاً ما، واعتبرت من البديهي أن الإنسان العادي موجود الشيء الذي ينكره بعض الناس الآن. لا أقصد أن الناس الذين يكتب ميلر عنهم، يشكلون أغلبية، وأنه كتب أقل من ذلك عن البروليتاريين. لم يحاول أي روائي إنكليزي أو أمريكي ذلك بعد. ومرة أخرى، فإن الناس في **مدار السرطان** أخفقوا بأن يكونوا عاديين لدرجة أنهم كانوا كسالى وسيئي السمعة و"فنيين" تقريباً. كما قلت آنفاً، هذا يدعو للرثاء، لكنه نتيجة ضرورية للاغتراب. الإنسان العادي عند ميلر، ليس العامل العادي وليس رب بيت الضواحي أيضاً، وإنما المهمل المنبوذ والذي خُفضت رتبته الاجتماعية، والمغامر والمثقف الأمريكي الذي بلا جذور ونقود. لكن حتى التجربة التي من هذا النوع، تتطابق جزئياً مع تجارب الناس الأكثر عادية. استطاع ميلر الاستفادة من مادته المحدودة

بأقصى قدر، لأنه كان يمتلك الشجاعة للتعاطف معها. لقد أُعطي الإنسان العادي، الإنسان الحسي الداعر العادي، القدرة على التعبير مثل حمار بلعام.

سينظر إلى هذا كشيء بالٍ وعتيق أو كخارج النمط الدارج في كل المقاييس. الرجل الحسي العادي خارج النمط السائد. الانهماك بالجنس والصدق حول الحياة الداخلية خارج النمط السائد. باريس الأمريكية خارج النمط السائد. كتاب مثل **مدار السرطان**، ينشر في وقت كهذا، يجب أن يكون إما حذلقة مملة أو شيئاً غير عادي. وأعتقد أن الأكثرية من الناس الذين قرؤوه، يوافقون بأنه ليس الأول، ويستحق محاولة أن نكتشف ماذا يعني هذا الفرار من نمط التيار الأدبي السائد، لكن فعل ذلك يفرض على المرء أن يراه ضد خلفيته -أي ضد التطور العام للأدب الإنكليزي في السنوات العشرين التي تلت الحرب الكبرى.

القسم الثاني:

حين يقول امرؤ عن كاتب ما إنه متطابق مع الزي الحديث، فهو يقصد عملياً أنه نال إعجاب الناس الذين دون الثلاثين من عمرهم. في بداية الفترة التي أتكلم عنها أي في السنوات التي تلت الحرب مباشرة، كان الكاتب الذي له القبضة الأقوى على الشباب المفكر هو هاوسمان بلا ريب تقريباً. في السنوات بين ١٩١٠ و١٩٢٥ كان لهاوسمان تأثير هائل وسط الناس المراهقين ليس من السهل فهمه الآن. في عام ١٩٢٠ حين كنت في السابعة عشرة، عرفت **غلام الخراف الإنكليزية** عن ظهر قلب على الأرجح. أتساءل عن حجم الانطباع الكبير الذي أحدثه **غلام الخراف الإنكليزية** في هذه اللحظة على صبي بنفس العمر وبنفس العقل تقريباً؟ لا شك أنه سمع به أو حتى ألقى نظرة عليه: ربما لفت نظره ككتاب مناسب لرخصه -ربما سيكون ذلك كل الأمر. لكن هذه هي القصائد التي كنا نتلوها لأنفسنا مرة تلو أخرى بنوع من النشوة، كما تلتها الأجيال التي قبلنا "حب في الوادي" لميرديث و"حديقة بروسربابين" لسوينبيرن إلخ إلخ.

قلبي مترع بالأسى من أجل أصدقاء ذهبيين كانوا لي، ومن أجل عذارى ورديات الشفاه وصبيان رشيقين.

بجانب الجداول الواسعة التي يستحيل الوثب من فوقها، استلقى الصبيان الرشيقون؛ العذارى ذوات الشفاه الوردية نائمات في حقول ذوت فيها الورود.

إنها ترن تماماً. لكن لا يبدو أنها ترن في عام ١٩٢٠ . لماذا تنفجر الفقاعة دائماً؟ للإجابة على هذا السؤال، على المرء أن يأخذ في حسبانه الظروف الخارجية التي تجعل كتاباً معينين مشهورين في أوقات معينة. لم تجذب قصائد هاوسمان الكثير من الاهتمام حين نشرت لأول مرة. ما هو الشيء الذي فيها وجذب بعمق اهتمام جيل واحد، الجيل الذي ولد في عام ١٩٠٠ تقريباً؟

في المقام الأول، إن هاوسمان شاعر "ريفي" وقصائده مليئة بسحر القرى المنسية والحنين إلى أسماء الأماكن، كلونتون وكلونبيري ونايتون ولودلو وعلى وينلوك إيدج، وفي فصل الصيف على بريندون وسقوف القش وجلجلة الحدادين والنرجس البري في المراعي والتلال الزرق التي في الذاكرة. إن أغلب الشعر الإنكليزي في الفترة بين ١٩١٠ و١٩٢٥ ريفي ما عدا قصائد الحرب، والسبب أن طبقة أصحاب الدخول من الأرض المحترفين، لم يعد لها أي علاقة حقيقية بالتربة. وعلى أي حال ساد هناك نوع من التكبر أشد من الآن في الانتهاء إلى الريف واحتقار المدينة. لم تكن إنكلترا آنذاك بلداً زراعياً أكثر مما هي الآن، لكن قبل أن تبدأ الصناعات الخفيفة في الانتشار، كان من الأسهل تصورها كذلك. غالبية صبيان الطبقة الوسطى ترعرعوا في مشهد المزرعة، ومن الطبيعي أن يكون الجانب الفاتن من حياة المزرعة مغرياً لهم- الحرث والحصاد ودرس القش وهلم جرا. قبل أن يقوم بنفسه كصبي بالعمل، من غير المحتمل أن يلاحظ الكدح الرهيب لعزق اللفت وحلب الأبقار بأثدائها المفلوعة في الساعة الرابعة صباحاً إلخ إلخ. إن فترة ما قبل الحرب وما بعدها مباشرة وأثناءها كانت العصر العظيم لـ"شاعر الطبيعة" وذروة مجد ريتشارد جيفريز ودبليو إتش هدسون. إن قصيدة روبرت بروك المتألقة "غرانتشيستر" ليست سوى تدفق هائل للوجدان الريفي ونوع من القيء المتراكم لمعدة أُتخمت بأسماء الأماكن. قصيدة "غرانتشيستر" شيء أسوأ من التفاهة، لكنها صورة إيضاحية لما أحس به شباب الطبقة الوسطى المفكر في تلك الفترة ووثيقة قيمة.

لكن هاوسمان لم يتحمس للزهور المتعرشة في مزاج عطلة نهاية الأسبوع الذي لدى بروك والآخرين. يتواجد موضوع "الريف" هناك طوال الوقت لكن كخلفية أساساً. أغلب القصائد فيها موضوع شبه إنساني ونوع من الريفي المثالي، وفي الواقع عودة لستيفنسن وكوريدون بعد تحديثهما. هذا بحد ذاته له جاذبية عميقة. تبين التجربة أن الناس المتمدنين جداً يستمتعون بالقراءة عن الريفيين (عبارة رئيسية "القريبين من التربة") لأنهم يتصورونهم أكثر

بدائية وعاطفية منهم، ولهذا كانت رواية "الأرض المظلمة" لشيلا كايا-سميث إلخ. في ذاك الوقت كان صبي الطبقة الوسطى المنحاز للريف، يتعاطف مع العامل الزراعي، ولم يفعل أبداً ذلك مع عامل المدينة. أكثر الصبيان في أذهانهم صورة للحراث المثالي والغجري ولص الصيد وحارس الطرائد، الذي صُور دائماً كشخص طائش متجول حر وجامح وحياة صيد الأرانب ومصارعة الديوك والخيل والجعة والنساء، كما تمنحك هذه الرؤية بشكل فج جداً "النعمة الأزلية" لمانسفيلد، وهي عبارة عن دراما تاريخية قيمة أخرى اشتهرت وسط الصبيان في سنوات الحرب. يمكن أخذ موريسات هاوسمان وتيرينساته على محمل الجد، بينما لا يمكن ذلك مع سول كين مانسفيلد، في هذا الجانب كان هاوسمان مانسفيلد مع دفعة من الثيوقراطية. علاوة على ذلك فإن كل مواضيعه هي قتل مراهق وانتحار وحب حزين وموت مبكر. مواضيع تعالج كوارث بسيطة ومفهومة، وتشعرك أنك في مواجهة "حقائق الحياة الصلبة":

الشمس تحترق على التلة شبه المحصودة، والآن جفّ الدم؛ وموريس وسط القش مازال مستلقياً وسكّينتي في خاصرته.

مرة أخرى:

وضعونا الآن في سجن شروزبيري، ونفخت الصفارات بالبؤس، والقطارات تأنُّ طول الليل على السكة لرجال يموتون في الصباح.

هي من نفس اللحن تقريباً. كل شيء يأتي غير ثابت. "استلقى نيد طويلاً في فناء الكنيسة واستلقى توم طويلاً في السجن". ولاحظ أيضاً الشفقة على الذات المتقنة وشعور لا أحد يحبني:

حبات الماس التي تزين المتراس الواطئ في المرعى، إنها دموع الصباح التي ذُرفت، لكن ليس من أجلك.

حظ سيئ يا عزيزي! مثل هذه القصائد كان يمكن أن تكتب خصيصاً للمراهقين. التشاؤمية الجنسية المنتظمة (الفتاة تموت أو تتزوج شخصاً آخر دائماً) بدت مثل حكمة للصبيان المتجمعين معاً في مدارس خصوصية كالقطيع، ويميلون للاعتقاد بأن النساء شيء لا يمكن الوصول إليه. أشك إن كان هاوسمان جذاباً للفتيات أبداً. في قصائده لا يكترث بوجهة

نظر المرأة وهي مجرد حورية وغاوية ومخلوق نصف بشري غدار، تقودك إلى مسافة قصيرة ثم تفرّ منك.

إن هاوسمان لم يكن يناشد الناس الذين كانوا شباباً في عام ١٩٢٠ لو لم يكن ذلك من أجل نزعة تجديفية متناقضة ومتشائمة فيه. كان القتال الذي يحدث بين الأجيال دائماً مريراً بشكل استثنائي في نهاية الحرب العظمى، وهذا بسبب الحرب نفسها جزئياً ونتيجة مباشرة للثورة الروسية جزئياً. ولكن الصراع الثقافي كان متوقعاً في ذلك الموعد في كافة الأحوال. بسبب الحياة السهلة والأمان في إنكلترا التي لم تفسدها الحرب حتى، كثير من الناس الذين تشكلت أفكارهم في الثمانينات أو قبل ذلك، حملوها معهم من دون أي تعديل إلى عشرينات القرن العشرين. في هذه الأثناء، وبالقدر الذي يهم الجيل الأصغر، كانت المعتقدات الرسمية تتبدد مثل قلاع من الرمل. فقد كان سقوط المعتقدات الدينية دراماتيكياً مثلاً، ولسنوات كثيرة أخذت الخصومة بين الكبار والشباب صفة الكره الحقيقي. وخرج من بقوا أحياء من جيل الحرب زاحفين من المذبحة ليجدوا كبارهم مازالوا يجأرون بشعارات ١٩١٤. وكان الجيل الأصغر قليلاً من الصبيان يتضور من الألم تحت نظراء مدارس عزاب من ذوي التفكير القذر. هؤلاء هم الذين ناشدهم هاوسمان بثورته الجنسية الضمنية وتشكيه الشخصي ضد الرب. صحيح أنه كان وطنياً، لكن بطريقة قديمة لم تؤذ موقف المعاطف الحمر و"حفظ الرب الملكة" أكثر منه خوذ حديدية و"اشنقوا القيصر" كان معادياً للنصرانية بشكل مقبول، وأيد نوعاً من الوثنية الجريئة اللاذعة والاقتناع بأن الحياة قصيرة والآلهة ضدك، مما ناسب بالضبط المزاج السائد للشباب. وكان كل ذلك بصيغة شعر ساحر رقيق تألف جلّه من كلمات من مقطع واحد.

سيتبين أنني ناقشت هاوسمان كما لو أنه كان مجرد مروج دعائي ومتفوه بالحكم والاقتباسات القصيرة، لكن من الواضح أنه كان أكثر من ذلك. لا حاجة لبخسه قدره الآن، لأن تقييمه كان مبالغاً في السنوات القليلة الماضية. بالرغم من المشاكل التي يتورط بها المرء جراء قول هذا، هناك عدد من قصائده "في قلبي هواء يقتل" مثلاً و"هل فريقي يحرث؟" التي من غير المتوقع أن تبقى طويلاً من دون استحسان. لكن في العمق، هناك ميل الكاتب دائماً و"غرضه" و"رسالته" التي تجعله محبوباً أو مكروهاً، والبرهان على هذا هو الصعوبة

القصوى بأن ترى أي قيمة أدبية في كتاب يؤذي معتقداتك العميقة. لا يوجد كتاب محايد بصدق أبداً. نزعة أو أخرى لا تدرك دائماً في الشعر كما في النثر، حتى لو تفعل أكثر من تحديد الشكل واختيار الصور. إن الشعراء الذين ينالون شهرة واسعة مثل هاوسمان، هم كقاعدة كتاب خرافيون بالتأكيد لكن من الصعب فهمهم.

بعد الحرب وبعد هاوسمان وشعراء الطبيعة، ظهرت مجموعة من الكتاب ذات ميل مختلف كلياً -جويس وإليوت وباوند ولورانس وواينِدهام ولويسو ألدوس هكسلي وليتون ستراتشي. حتى أواسط وأواخر العشرينيات كان هؤلاء هم "الحركة" كما كانت جماعة أودن-سبيندر هي "الحركة" أثناء السنوات القليلة الماضية. صحيح أنه لا يمكن إدراج كل الكتّاب الموهوبين في تلك الفترة في هذا القالب، فقد كان أي إم فورستر مثلاً من جيل ما قبل الحرب أساساً، رغم أنه كتب أفضل كتاب له في عام ١٩٢٣ أو حوالي ذلك، ولا يبدو أن ييتس ينتمي إلى العشرينيات في كلا طوريه. آخرون مازالوا أحياء مثل مور وكونراد وبينيت وويلز ونورمان دوغلاس، أغلقوا أبوابهم بوجه الحرب المستمرة. من جانب آخ، فإن الكاتب الذي يجب إضافته إلى المجموعة والذي لم ينتمِ إليها بالمعنى الأدبي الضيق، هو سومرست موم. طبعاً لا تتطابق التواريخ بدقة، فأغلب هؤلاء الكتاب نشروا كتباً لهم قبل الحرب، لكن يمكن تصنيفهم بكتاب ما بعد الحرب بنفس المعنى الذي نصنف به الرجال الأصغر سناً الذين يكتبون الآن بكتاب مرحلة ما بعد السقوط. وبالمثل طبعاً يمكنك تفحص أكثر الصحف الأدبية في ذلك العصر، ولا تدرك أن هؤلاء الناس هم "الحركة" كما كان النقاد البارزون في الصحافة الأدبية في تلك الفترة مشغولين أكثر من أي وقت آخر بالزعم بأن فترة العصر قبل الأخير لم تصل إلى نهايتها. سكواير حكم لندن، ميركوري وغيبس ووالوب كانوا معبودي مكتبات الإعارة، كان هناك إعجاب وميل شديد للمرح والرجولة والبيرة والكريكيت والغلايين الخشبية والزواج الأحادي، وكان ممكناً في كل الأوقات كسب بضع جنيهات من كتابة مقال تشجب فيه "رفيعي الثقافة" لكن وبالرغم كل شيء، كان رفيعو الثقافة المحتقرون هم من أسروا وجذبوا الشباب. كانت الرياح تعصف من أوروبا ونسفت مدرسة البيرة والكريكيت وعرت أعضاءها من كل شيء، ولم تترك لهم سوى فروسيتهم قبل عام ١٩٣٠ بوقت طويل.

لكن أول ما يلاحظه المرء عن جماعة الكتاب الذين ذكرتهم آنفاً، أنهم لا يبدون كجماعة، فضلاً عن أن عدداً منهم رفضوا أن يقرنوا بالكثيرين منهم. كان لورانس وإليوت متنافرين في الواقع، أما هكسلي فقد بجّل لورانس، لكنه نفر من جويس، في حين أغلب الآخرين نظروا باحتقار لهكسلي وستارتشي وموم، كما هاجم لويس كل واحد منهم بالتتالي، وقد استندت سمعته ككاتب على هذه الهجمات بشكل كبير في الواقع. ومع ذلك هناك شبه مزاجي مثير معين اتضح الآن بما يكفي، رغم أنه لم يكن كذلك قبل عشر سنوات ماضية، ليصل إلى حد النظرة التشاؤمية، لكن من الضروري أن نوضح ما المقصود بالتشاؤمية.

إن كانت الفكرة الرئيسية والهامة عند الشعراء الجورجيين هي "جمال الطبيعة"، فإن الفكرة الرئيسية عند كتاب ما بعد الحرب هي "الشعور المأساوي بالحياة". إن المزاج الذي خلف قصائد هاوسمان مثلاً ليس مأساوياً ومتشكياً فقط، بل إنه مذهب المتعة الخائبة. وهذا يصح على هاري، لكن يجب أن نستثني **الأمراء**. إن جماعة جويس-إليوت التي أتت لاحقاً زمنياً، لم يكن خصمها الرئيسي البيوريتانية (التزمّت) واستطاع أعضاؤها منذ البداية أن"يروا ويدركوا" أغلب الأشياء التي قاتل من أجلها أسلافهم. كانوا كلهم معادين بشكل مزاجي لفكرة "التقدم" الذي في منظورهم ليس لم يحدث فقط، وإنما يجب ألا يحدث. مع هذا التماثل الشامل، هناك طبعاً اختلافات في المقاربة بين الكتاب الذين ذكرتهم بالإضافة إلى درجات مختلفة من الموهبة. إن تشاؤمية إليوت تشاؤمية مسيحية جزئياً تتضمن لامبالاة معينة بالبؤس الإنساني، وجزئياً رثاء لانحطاط الحضارة الغربية ("نحن الرجال المجوفون، نحن الرجال المتخمون، إلخ إلخ) ونوع من شعور بدمار الآلهة النهائي بعد معركتهم مع قوى الشر الذي يرشده أخيراً في سويني أغونيستيس مثلاً، كي ينجز مأثرة صعبة بجعل الحياة العصرية في الخارج أسوأ مما هي عليه. مع ستارشي هي مجرد شكوكية مهذبة من القرن الثامن عشر مختلطة بميل لفضح الزيف. مع موم هي نوع من الإذعان الصبور، الصاحب الحقيقي الذي يكتم ألمه في مكان ما شرق السويس، ويستمر في مهمته التي لا يؤمن بها مثل أنتونابن أمبرور. لا يبدو لورانس كاتباً متشائماً من النظرة الأولى لأنه مثل ديكنز، رجل ذو آراء ومواقف متبدلة، ويصرّ دائماً بأن الحياة هنا والآن، ستكون على ما يرام لو نظرت إليها بطريقة مختلفة قليلاً. لكنه يطالب بحركة بعيدة عن حضارتنا الممكننة لن تحدث. لذلك يتحول سخطه على الحاضر مرة أخرى

إلى إضفاء المثالية على الماضي، وهذه المرة ماض أسطوري آمن، العصر البرونزي. لكن حين يفضل لورانس الأوترورين علينا، فمن الصعب موافقته في ذلك، بل إنه نوع من الانهزامية حتى، لأن تلك ليست هي الجهة التي يتحرك العالم إليها. نوع الحياة التي يشير إليها دائماً، هي حياة تتمحور حول ألغاز بسيطة -الجنس والتراب والنار والماء والدم- مجرد قضية خاسرة. لذلك فإن كل الذي أنتجه كان رغبة بأن تحدث الأشياء بطريقة من الواضح أنها لن تحدث بها. يقول: "موجة سخاء أو موجة موت" لكن من الجلي عدم وجود أمواج سخاء في هذا الجانب من الأفق، لهذا يفرّ إلى المكسيك ليموت وهو في الخامسة والأربعين قبل بضع سنوات من بداية موجة الموت. سأبدو ثانية أنني أتكلم عن هؤلاء الناس كما لو أنهم ليسوا فنانين وكأنهم مجرد دعائيين ينقلون "رسالة" ومرة أخرى يتضح أنهم كلهم كانوا أكثر من ذلك. من السخف مثلاً أن ننظر إلى يوليسيس على أنها مجرد عرض لرعب الحياة العصرية، لعهد الديلي ميل القذر، كما عبر عنها باوند. في الحقيقة، إن جويس "فنان صرف" أكثر من أغلب الكتاب. لكن لا يمكن أن تُكتب يوليسيس بواسطة شخص هاو يتلاعب بشكل الكلمات؛ إنها نتاج رؤية مميزة للحياة، رؤية الكاثوليكي الذي فقد إيمانه. يقول جويس إن "الحياة هنا بلا رب. انظر إليها فقط!" وابتكاراتها الفنية رغم أهميتها تخدم هذا الغرض أساساً.

لكن اللافت حول هؤلاء الكتّاب، أن "الغرض" الذي لديهم غامض جداً. ليس هناك انتباه للمشاكل الملحة الآنية، وبشكل أساسي ليس هناك سياسية بالمعنى الأضيق. عيوننا موجهة إلى روما وبيزنطة ومونبانا والمكسيك والأتروريين وإلى اللاوعي وإلى المجموعة الشمسية- إلى كل مكان باستثناء الأماكن التي تحدث فيها الأشياء فعلياً. حين ينظر المرء إلى العشرينات، لا يجد شيئاً أكثر غرابة من الطريقة التي غابت فيها الأحداث المهمة عن نظر الطبقة المثقفة الإنجليزية؛ فالثورة الروسية كلها مثلاً تلاشت من الوعي الإنكليزي في الفترة بين موت لينين ومجاعة أوكرانيا -عشر سنوات تقريباً. خلال تلك السنوات، كانت روسيا تعني تولستوي ودستويفسكي والكونتات المنفيين الذين يقودون عربات الأجرة. وكانت إيطاليا تعني صالات عرض اللوحات الفنية والآثار والكنائس والمتاحف -وليس أصحاب القمصان السوداء. أما ألمانيا، فكانت تعني الأفلام والعري والتحليل النفسي -وليس هتلر الذي لم يسمع به أحد حتى عام ١٩٣١ تطاولت حركة "الفن من أجل الفن" عملياً في

الدوائر الثقافية إلى تقديس اللامعنى، وافترض بالأدب أن يكون مجرد تلاعب بالكلمات. وكان الحكم على كتاب من خلال موضوعه خطيئة لا تغتفر، وحتى الاطلاع على موضوعه هفوة ذوقية. في عام ١٩٢٨ تقريباً واحدة من الدعابات المضحكة الحقيقية الثلاث التي أنتجتها بنش منذ الحرب العظمى، تصور شاباً لا يطاق، يُخبر عمته أنه ينوي أن "يكتب"، فسألته العمة: "وعن ماذا ستكتب يا عزيزي؟" قال الشاب بشكل حاد: "عمتي الغالية، المرء لا يكتب عن أي شيء وإنما يكتب فقط". إن أفضل كتاب العشرينيات لم يؤيدوا هذا المذهب، وكان "غرضهم" في أغلب الحالات صريحاً نوعاً ما، لكنه عادة "غرض" بموازاة الخطوط الثقافية الدينية الأخلاقية، وعند تفسيره حسب المصطلحات السياسية، فهو ليس "يسار" في أي حال. إن ميل ونزعة كل كتاب هذه الجماعة، هو ميل محافظ بشكل أو بآخر. فمثلاً أمضى لويس سنوات في بحث مسعور عن آثار "البلشفية"، وكان قادراً على اكتشافها في أماكن غير متوقعة جداً. لقد بدل بعضاً من آرائه مؤخراً بعد تأثره بمعاملة هتلر للفنانين، لكن من الأسلم الرهان أنه لن يذهب بعيداً جداً باتجاه اليسار. يبدو أن باوند أيد الفاشية بوضوح والنوع الإيطالي منها في كافة الأحوال. بقي إليوت بمعزل، لكن إن أجبر بفوهة المسدس أن يختار بين الفاشية وبين شكل آخر من الاشتراكية أكثر ديمقراطية، فقد يختار الفاشية. بدأ هكسلي بيأسه المعتاد من الحياة، ثم تحت تأثير "بطن لورانس السوداء" جرب شيئاً سُمي بعبادة الحياة، ووصل أخيراً إلى السلمية (رفض حمل السلاح)- موقف يمكن الدفاع عنه، موقف محترم في هذه اللحظة، ولكن ربما يشمل نبذ الاشتراكية على المدى الطويل. من اللافت أيضاً أن أكثر الكتاب في هذه الجماعة لديهم حنان محدد للكنيسة الكاثوليكية، لكنه ليس من النوع الذي يقبل به الكاثوليكي الأرثوذوكسي عادة.

إن الرابط العقلي بين التشاؤمية والنظرة الرجعية واضح بما لا يدع مجالاً للشك، لكن غير الواضح ربما هو لماذا كان كتاب العشرينيات البارزين متشائمين بصورة مهيمنة، ولماذا الإحساس دائماً بالانحطاط والجماجم والصبار ورثاء الإيمان المفقود والحضارات المستحيلة؟ أليس السبب لأن هؤلاء الناس كانوا يكتبون في فترة مريحة بشكل استثنائي؟ من الصائب في مثل تلك الأوقات أن يزدهر "اليأس الكوني" أهل البطون الفارغة لا ييأسون أبداً من الكون ولا يفكرون بالكون حتى. كانت الفترة ما بين ١٩١٠ و١٩٣٠ فترة ازدهار، وحتى

سنوات الحرب كانت مقبولة مادياً إن لم يكن المرء مقاتلاً في إحدى بلدان التحالف. بالنسبة إلى العشرينيات، فقد كانت العصر الذهبي لصاحب الدخل من السندات- المثقف، فترة من عدم المسؤولية لم يشهدها العالم من قبل قط. انتهت الحرب ولم تظهر دول الشمولية الجديدة وتلاشت كل ضروب التابوهات الدينية وتدفق النقد إلى الداخل. كان "التحرر من الوهم" هو الموضة السائدة. كل من في يوفر في خزنته ٥٠٠ جنيه سنوياً تحول إلى مثقف وبدأ يمرن نفسه على سيرة ذاتية مضجرة. كان عصر النسور والكعك المدور المحلى واليأس السهل وهاملتات الأغنية الخلفية وتذاكر العودة الرخيصة في آخر الليل. في بعض من الروايات ذات الميزة القاصرة لتلك الفترة، كتب مثل رُويّ بواسطة أبله يصل فيها اليأس من الحياة إلى جو حمام تركي من الإشفاق على الذات. وحتى أفضل كتاب العصر يمكن إدانتهم بموقف أولمبي متشدد واستعداد زائد لغسل أياديهم من المشاكل العملية العاجلة. رأوا الحياة بشكل شامل جداً وأكثر بكثير من هؤلاء الذي أتوا قبل أو بعد الحرب مباشرة، لكنهم رأوها من خلال الطرف الخطأ من المنظار المقرب. لكن ذلك لم يبطل كتبهم ككتب. إن الاختبار الأول لأي عمل فني هو بقاؤه وبقاء كمية كبيرة مما كُتب في فترة ١٩١٠-١٩٣٠ حية وتبدو أنها ستستمر هو حقيقة. يكفي المرء أن ينظر إلى يوليسيس والعبودية البشرية وأغلب أعمال لورانس الأولى وخصوصاً قصصه القصيرة وعملياً كل قصائد إليوت حتى عام ١٩٣٠ تقريباً، ليتساءل ما الذي يكتب الآن والذي سيدوم بهذا القدر الجيد.

لكن حدث شيء بشكل مفاجئ في السنوات ١٩٣٠-٥. لقد تبدل المناخ الأدبي بظهور جماعة من الكتاب أودين وسبيندر والبقية. وكان هؤلاء الكتاب يدينون تقنياً لسابقيهم، إلا أن ميلهم كان مختلفاً تماماً. فجأة خرجنا من شفق الآلهة إلى جو صبي الكشافة (بوي سكوت) بالركب العارية والغناء الجماعي، ولم يعد رجل الأدب الأنموذجي هو المغترب المثقف الذي لديه ميل للكنيسة، وأصبح تلميذاً تواقاً يميل إلى الشيوعية. إن كانت الفكرة الرئيسية لكتاب العشرينيات هي "الإحساس المأساوي بالحياة"، فإن الفكرة الأساسية للكتاب الجدد هي "الغرض الجدي"

لقد نوقش الفرق بين المدرستين مطولاً في كتاب لويس ماكنيس **الشعر الحديث**، وكُتب هذا الكتاب طبعاً من وجهة نظر جماعة الشباب، واعتبر تفوق معاييرهم أمراً بديهياً. فوفقاً لما يراه السيد ماكنيس:

شعراء الإمضاءات الجديدة* على خلاف ييتس وإليوت متحزبون عاطفياً. اقترح ييتس أن يدير ظهره للأمنيات والضغائن؛ وجلس إليوت يتفرج على عواطف الناس بضجر وبإشفاق ساخر على الذات..... ومن جانب آخر تضمن كل شعر أودين وسبيندر وداي لويس الأمنيات والضغائن الخاصة بهم، بل أكثر من ذلك كانوا يعتقدون أن بعض الأشياء يجب أن يكون مرغوباً وبعضها الآخر مكروهاً.

ويقول ثانية:

شعراء الإمضاءات الجديدة رجعوا.... إلى التفضيل الإغريقي للمعلومة والبيان. إذاً المطلب الأول أن يكون لديك شيئاً تقوله، وبعد ذلك عليك أن تقوله بأفضل شكل تستطيعه.

بعبارة أخرى لقد عاد "الغرض" ودخل الكتّاب الشباب عالم السياسة. كما نوهتُ من قبل، لم يكن إليوت وشركاه غير متحزبين حقيقة مثلما اقترح السيد ماكنيس، ويظل صحيحاً عموماً أن التأكيد الأدبي في العشرينيات، كان أكثر على التكنيك وأقل على الموضوع مما هو عليه الآن.

الشخصيات القيادية والموجهة في هذه الجماعة هي: أودين وسبيندر وداي لويس وماكنيس، وهناك سلسلة طويلة من الكتّاب من نفس الميل تقريباً مثل إيشروود وجون ليهمان وآرثر كالدار – مارشال وإدوارد أبوارد وآلي براون وفيليب هندرسون والكثيرين غيرهم. وكما فعلت من قبل، أنا أجمعهم معاً حسب الميل فقط؛ إذ من الواضح وجود تباينات كبيرة في الموهبة. وحين يقارن المرء هؤلاء الكتاب مع جيل جويس- إليوت، فإن الشيء اللافت جداً هو السهولة الكبيرة في تشكيلهم في جماعة واحدة. تقنياً هم أقرب إلى بعضهم البعض، وسياسياً لا يمكن التمييز بينهم، ونقدهم لأعمال بعضهم البعض كان ودياً. كان الكتاب البارزون في العشرينات من أصول متنوعة جداً، والقليل جداً منهم مروا عبر الطاحونة التعليمية الإنكليزية العادية (أفضلهم لم يكونوا من الإنكليز باستثناء لورانس) وأغلبهم اضطروا في فترة ما إلى النضال ضد الفقر والإهمال والاضطهاد الصريح حتى. من جانب آخر، كل الكتاب الصغار الشباب تقريباً يمكن أن يكونوا مناسبين بسهولة لأنموذج –

---

* نشر عام ١٩٣٢.

مدرسة وجامعة بلومزبيري. إن القليلين منهم الذين لهم أصل بروليتاري، هم من النوع الذي نُزعت عنه الصفة الطبقية في وقت مبكر من حياته أولاً بواسطة المنح الدراسية، ثم بواسطة حوض تبيض "ثقافة" لندن. من الملاحظ أن الكثيرين من هذه الجماعة، لم يكونوا أولاداً وإنما أساتذة في المدارس الخاصة. منذ سنوات وصفت أودين بـ"كيلينغ جبان"، وهذا كنقد غير جدير. وفي الواقع كان مجرد ملاحظة حاقدة، لكن حقيقة في أعمال أودين خصوصاً المبكرة منها، هناك جو من الترفع- شيء أشبه بـ لو كيلينغ أو العب بكل طاقتك، العب بكل طاقتك والعب بشرف واستقامة!- لا يبدو بعيداً جداً أبداً. خذ قصيدة "أنتم راحلون الآن، وهذا يتوقف عليكم يا أولاد"، إنها رئيس فرقة كشافة صرفة ونفس سمة خطاب العشر دقائق المباشر عن أخطار الاستمناء. لا شك أن هنالك عنصراً من المحاكاة الساخرة الذي تقصده، لكن أيضاً هناك شبه أعمق من الذي تتعمده. إن السمة المتزمتة نوعاً ما الشائعة عند أكثر هؤلاء الكتاب، هي علامة انعتاق طبعاً. بإقصاء "الفن الصرف" جانباً، فإنهم حرروا أنفسهم من الخوف من أن يُسخر منهم ووسعوا مداهم كثيراً. كان الجانب التنبؤي في الماركسية مثلاً مادة جديدة للشعر تملك إمكانيات عظيمة:

نحن لا شيء، نحن سقطنا في الظلام وسوف نهلك. لكن تذكر أننا في هذا الظلام نحمل الصرة السرية لفكرة يدور دولابها الحي والمضيء في سنوات مستقبلية في الخارج. (سبيندر، محاكمة قاضٍ).

لكن، في الوقت نفسه، لم يقترب أكثر من الجماهير لكونه أدباً ممركساً، وبأخذ الفاصل الزمني في الاعتبار، كان أودين وسبنسر أبعد من أن يكونا كاتبين مشهورين مثل جويس وإليوت ناهيك عن لورانس. كما في السابق هناك كتاب معاصرون كانوا خارج التيار، لكن ليس هناك شك كبير حول ما هو التيار. بالنسبة إلى أواسط الثلاثينيات وأواخرها كان أودين وسبنسر وشركاؤهما هم "الحركة" كما كان جويس وإليوت وشركاؤهما في العشرينيات، وكانت الحركة نحو جهة غامضة سُميت بالشيوعية. فمنذ عام ١٩٣٤ او١٩٣٥ اعتبر من الشاذ في الدوائر الأدبية ألا تكون "يسارياً" تقريباً، وبعد سنة أو اثنتين من ذلك نضج معتقد يساري وخلق مجموعة محددة من الآراء الملزمة بشكل قاطع في بعض المواضيع، وبدأت الفكرة تتطور وتتوسع (راجع إدوارد أبوارد وآخرين) بأن الكاتب يجب إما أن يكون يسارياً

فاعلاً أو أنه سيكتب على نحو رديء. بين عام ١٩٣٥ وعام ١٩٣٩ كان للحزب الشيوعي فتنة لا تقاوم تقريباً لأي كاتب دون الأربعين من عمره، وأصبح من العادي أن تسمع أن فلاناً "انضم" كما كان قبل بضع سنين حين كانت الكثلكة الرومانية هي النمط السائد، وتسمع أن فلاناً "قُبل ورُحب به" لمدة ثلاث سنوات تقريباً في الحقيقة ظل التيار المركزي للأدب الإنكليزي تحت سيطرة شيوعية مباشرة تقريباً. كيف أمكن لشيء كهذا أن يحدث؟ وبنفس الوقت ما هو المقصود بـ "الشيوعية"؟ من الأنسب أن نجيب على السؤال الثاني أولاً.

بدأت الحركة الشيوعية في أوروبا الغربية كحركة للإطاحة بالرأسمالية بشكل عنيف، وانحطت خلال سنوات قليلة إلى أداة للسياسة الروسية الخارجية، وربما كان هذا محتوماً حين خمد هذا الهياج الثوري الذي تلا الحرب العظمى. بالقدر الذي أعرفه، إن التاريخ الشامل الوحيد لهذا الموضوع في اللغة الإنكليزية حسب معرفتي، هو كتاب فرانز بوركيناو **الشيوعي الأممي**. إن الوقائع التي يقدمها بوركيناو والتي تفوق استنتاجاته، توضح أن الشيوعية لم يكن بمقدورها أبداً أن تتطور بموازاة خطوطها الحالية، لو وجد أي شعور ثوري في البلدان الصناعية. ففي إنكلترا مثلاً من الواضح أن مثل هذا الشعور لم يتواجد لسنين مضت. وأرقام العضوية المثيرة للشفقة لكل الأحزاب المتطرفة، تبين هذا بوضوح. لذلك من الطبيعي أن يسيطر على الحركة الشيوعية الإنكليزية أشخاص كانوا تابعين لروسيا عقلياً وفكرياً، وليس لديهم أي هدف حقيقي سوى استغلال السياسة الإنكليزية الخارجية لصالح المصالح الروسية. طبعاً لا يمكن الاعتراف بهدف كهذا بشكل علني، وهذه الحقيقة هي التي أعطت الحزب الشيوعي طبيعته الغريبة جداً، أما النوع الأعلى صوتاً من الشيوعيين حقيقة فهو عميل للدعاية الشيوعية المتظاهر بأنه اشتراكي أممي. إنه موقف يمكن الحفاظ عليه بسهولة في الأوقات العادية، لكنه يصبح صعباً في الأزمات بسبب حقيقة أن الاتحاد السوفييتي شكاك في سياسته الخارجية أكثر من القوى العظمى. إن التحالفات وتبديل الجبهات..إلخ التي لا معنى لها إلا كجزء من لعبة سياسات القوة، يجب أن تُفسر وتُبرر على ضوء الاشتراكية الأممية. كل مرة يبدل ستالين فيها الشركاء تُسبك "الماركسية" وتُصاغ في شكل جديد، وهذا يستلزم تغييرات عنيفة ومفاجئة في "الخط" و"أعمال تطهير" واتهامات وتخريب ممنهج لأدب الحزب إلخ إلخ. إن كل شيوعي في الحقيقة عرضة في أي لحظة بأن يُجبر على تبديل جلّ قناعاته

الأساسية أو ترك الحزب. العقيدة التي لا يرقى إليها الشك في يوم الاثنين ربما تصبح هرطقة لعينة في يوم الثلاثاء وهكذا. لقد حدث هذا ثلاث مرات على الأقل خلال السنوات العشر الماضية. ونتيجة لذلك كان الحزب الشيوعي في أي بلد غربي غير مستقر دائماً وصغير جداً عادة، وكانت عضويته طويلة الأمد تتألف حقيقة من حلقة داخلية من المثقفين الذين تماثلوا مع البيروقراطية الروسية، وكيان أكبر من أشخاص من الطبقة العاملة الذين يشعرون بالولاء لروسيا السوفييتية، من دون أن يفهموا سياساتها، وإلا لكانت هناك عضوية متنقلة مجموعة تأتي وأخرى تذهب مع كل تغيير في "الخط".

في عام ١٩٣٠ كان الحزب الشيوعي الإنكليزي قزماً وتنظيماً قلما كان شرعياً، نشاطه الأساسي التشهير بحزب العمال. لكن في عام ١٩٣٥ تبدل وجه أوروبا وتبدلت معها سياسة الجناح اليساري. صعد هتلر إلى السلطة وبدأ يتسلح ثانية، ونجحت الخطة الروسية الخماسية، وظهرت روسيا ثانية كقوة عسكرية عظمى. وبما أن الأهداف الثلاثة التي سيهاجمها هتلر هي بريطانيا العظمى وفرنسا والاتحاد السوفييتي، فقد أُجبرت البلدان الثلاثة على نوع من التقارب الصعب. هذا يعني أن الشيوعي الإنكليزي أو الفرنسي كان مجبراً بأن يكون مواطناً صالحاً وإمبريالياً- أي أن يدافع عن نفس الأشياء التي كان يهاجمها في الخمس عشرة سنة الأخيرة، وخبا لون شعارات الكومنترن فجأة من الأحمر إلى القرنفلي. أخلت "الثورة العالمية" الطريق لـ "الدفاع عن الديمقراطية" و"إيقاف هتلر". وكانت السنوات من ١٩٣٥ إلى ١٩٣٩ فترة معاداة الفاشية والجبهة الشعبية وذروة نادي الكتاب اليساري والوقت الذي زارت فيه الدوقات الحمر والكهنة الكبار المنفتحون ساحات المعارك الحرب الإسبانية، والوقت الذي كان فيه ونستون تشرشل الصبي الأزرق العينين للديلي ووركر. منذ ذلك الحين طبعاً كان هناك تبدل آخر في "الخط"، لكن الهام من أجل غرضي هو أن الكتاب الإنكليز الأصغر عمراً انجذبوا إلى الشيوعية أثناء الطور المعادي للفاشية.

لا شك أن الصراع العنيف المتشعب بين الفاشية والديمقراطية، كان مصدر جذب بحد ذاته. تحولهم إلى المعتقد الجديد كان متوقعاً في ذلك التاريخ تقريباً في أي حال. كان واضحاً أن الرأسمالية الحرة هلكت، وكان من الضروري وجود نوع ما من نظام وبناء جديد وفي عالم ١٩٣٥ كان من شبه المستحيل أن تبقى غير مبالٍ بالسياسة، لكن لماذا استدار هؤلاء الشباب

ولجأوا إلى شيء غريب جداً مثل الشيوعية الروسية؟ لماذا كان على الكتاب الانجذاب إلى شكل من الاشتراكية يجعل الاستقامة الفكرية مستحيلة؟ إن التفسير يكمن في شيء جعل نفسه محسوساً قبل السقوط وقبل هتلر: بطالة الطبقة الوسطى.

البطالة ليست مسألة عدم حصولك على وظيفة فقط. أغلب الناس يستطيعون الحصول على وظيفة ما حتى في أسوأ الأوقات. كانت المشكلة أنه في حوالي ١٩٣٠ لم يكن هناك نشاط يمكن أن يؤمن به الشخص المفكر سوى البحث العلمي والفنون والسياسة اليسارية. وصل انفضاح الحضارة الغربية إلى ذروته، وانتشر "التحرر من الوهم" بشكل واسع. من يستطيع الآن أن يثق ويتحمل الحياة على طريقة الطبقة الوسطى، كجندي وقس وسمسار في البورصة وكموظف مدني هندي أو غيره؟ وكم من القيم التي عاش بها أجدادنا لا يمكن أخذها على محمل الجد؟ الوطنية والدين والإمبراطورية والعائلة وقدسية الزواج ورباط المدرسة القديمة والمولد والتكاثر والشرف والسلوك المنضبط- أي واحد ذو تعليم عادي يستطيع قلب المجموعة كلها رأساً على عقب في غضون ثلاث دقائق. لكن مع ذلك ما الذي أنجزته بالتخلص من مثل هذه الأشياء الأساسية كالوطنية والدين مثلاً؟ أنت لم تتخلص بالضرورة من الحاجة إلى شيء تؤمن به. كان هناك فجر زائف قبل بضع سنوات، حين فرّ عدد من المثقفين الشباب ومنهم كثيرون من الكتاب الموهوبين (إيفلين واو، كريستوفر هوليس وآخرون) بشكل ثابت إلى الكنيسة الكاثوليكية وليس إلى كنيسة إنكلترا أو الكنيسة الإغريقية أو الطوائف البروتستانتية؛ ذهبوا إلى الكنيسة التي هي منظمة عالمية والكنيسة التي لها انضباط صارم والكنيسة ذات السلطة والمكانة. ما هو جدير بالملاحظة وربما تحول المعتقد العصري الوحيد لمواهب الطراز الأول الحقيقية، كان إليوت الذي لم يعتنق الكثلكة (الكاثوليكية الرومانية) وإنما الكاثوليكية الإنكليزية المكافئ الكنسي للتروتسكوية. لكن لا أعتقد أن المرء يحتاج أن ينظر أبعد من هذا من أجل السبب الذي جعل الكتاب الشباب في الثلاثينيات يدخلون أسراباً في الحزب الشيوعي أو أن يتجهوا نحوه. إن كان مجرد شيء للإيمان، فهنا كنيسة وجيش وعقيدة وانضباط. هنا أرض الأجداد، وفوهرر منذ ١٩٣٥ إن كل الولاءات والخرافات التي تخلص منها العقل على ما يبدو، استطاعت أن تعود باندفاع قوي عنيف تحت أوهى الأقنعة. فالوطنية والدين والإمبراطورية والمجد العسكري -كلها في كلمة واحدة،

روسيا والأب والملك والقائد والبطل والمنقذ- كلهم في كلمة واحدة، ستالين. الرب - ستالين. الشيطان -هتلر. الجنة -موسكو. الجحيم -برلين. لقد مُلئت كل الثغرات، لهذا فإن "شيوعية" المثقف الإنكليزي هي شيء قابل للتفسير تماماً: إنها وطنية المستأصل من جذوره.

لكن هناك شيئاً آخر ساهم بدون شك في الإعجاب بروسيا وسط الإنتجلنسيا الإنكليزية خلال هذه السنين، ألا وهو نعومة الحياة والأمان في إنكلترا. بكل جورها تظل إنكلترا أرض القضاء، والغالبية العظمى من الشعب الإنكليزي ليس لديه تجربة في العنف أو اللاشرعية. إن تربيت وكبرت في ذلك الجو، فلن يكون من السهل أبداً لك أن تتخيل ما هو شكل النظام الاستبدادي. كل الكتاب المسيطرين في الثلاثينيات تقريباً انتموا إلى الطبقة الوسطى شبه الناضجة المتحررة، وكانوا أصغر من أن تكون لهم ذكريات مؤثرة عن الحرب العظمى. لأناس من هذا النوع أشياء مثل أعمال التطهير والشرطة السرية والإعدامات العاجلة والحبس دون محاكمة إلخ إلخ، لن تكون مرعبة، ويستطيعون بلع الشمولية لعدم معرفتهم بأي تجربة سوى الليبرالية. انظر مثلاً إلى هذا المقتطف من قصيدة السيد أودين "إسباني" (مصادفة هذه القصيدة واحدة من القلة المحتشمة التي كتبت حول الحرب الإسبانية):

الغد للشباب والشعراء ينفجرون كالقنابل والمشاوير بجانب البحيرة وأسابيع المشاركة والتعاون المثالي؛ غداً سباقات الدراجات عبر الضواحي في أمسيات الصيف. لكن في الوقت الحالي الصراع.

في الوقت الحالي الزيادة المتعمدة في فرص الموت والقبول المقصود بإثم القتل الضروري؛ في الوقت الحالي استهلاك الطاقات على الكتيب المنبطح السريع الزوال والاجتماع الممل.

إن المراد من المقطع الشعري الثاني نوع من مخطط مختصر ليوم من حياة "رجل حزبي صالح". في الصباح جريمتان سياسيتان وفاصل من عشرة دقائق لخنق الندم "البرجوازي"، ثم غداء عاجل، وأصيل حافل بالعمل، ومساء من الكتابة على الجدران بالطباشير وتوزيع الكراريس. تعليمي جداً. لكن لاحظ عبارة "قتل ضروري" التي لا يكتبها سوى شخص تكون الجريمة بالنسبة إليه مجرد كلمة على الأغلب. أنا لن أتكلم بهذا الاستخفاف عن القتل، فقد حدث ورأيت أجساد عدد من الرجال القتلى- لا أعني أنهم قتلوا في معركة، أقصد قتلوا. لذلك لدي فكرة عن معنى القتل-الإرهاب والكره والأقرباء النائحون وفحوصات الجثة بعد

الوفاة والدم والروائح الكريهة. إن القتل بالنسبة إلي شيء يجب تجنبه، وهكذا هو بالنسبة إلى كل شخص عادي. الهتلريون والستالينيون يجدون القتل ضرورياً، لكنهم لا يعلنون قساوة قلوبهم ولا يتكلمون عنه كجريمة؛ إنه "تصفية" و"إزالة" أو عبارة مخففة أخرى. إن نوع عدم الحس الأخلاقي عند أودين ممكنة فقط إن كنت نوع الشخص الذي يكون دائماً في مكان آخر حين يُشد زناد البندقية. الكثير من فكر الجناح اليساري هو نوع من اللعب بالنار من قبل أناس لا يعرفون أن النار حارة حتى. إن تهييج الحروب الذي استسلمت له الطبقة المثقفة الإنكليزية في الفترة بين ١٩٣٥ و١٩٣٩ كان مبنياً على إحساس بالمناعة الشخصية، أما الموقف في فرنسا فقد كان مختلفاً؛ إذ كان من الصعب تفادي الخدمة العسكرية. وكان رجال الأدب يعرفون ثقل الصرة أيضاً.

في نهاية كتاب السيد سيريل كونولي الحديث **أعداء الوعد**، يظهر مقطع مشوق وكاشف. إن الجزء الأول من الكتاب عبارة عن تقييم للأدب المعاصر تقريباً. ينتمي السيد كونولي إلى جيل كتاب "الحركة"، ولكن بلا شك فإن قيمهم هي قيمه. من الممتع ملاحظته أنه من بين كتاب النثر معجب بشكل أساسي بهؤلاء المتخصصين بالعنف وبالمدرسة الأمريكية التي ترغب أن تكون قاسية وهمنغواي إلخ. لكن القسم الأخير من الكتاب عبارة عن سيرة ذاتية، ويتألف من وصف دقيق بشكل مذهل لحياة في المدرسة الإعدادية، وإيتون في السنوات ١٩١٠-٢٠. ينهي السيد كونولي قائلاً:

لو استنتجت أي شيء من مشاعري عندما تركت إيتون لسميته نظرية المراهقة الدائمة، وهي النظرية التي ترى أن التجارب التي مر بها أولاد المدارس الخاصة كانت حادة جداً لدرجة تهيمن على حياتهم وتكبح تطورهم.

حين تقرأ الجملة الثانية من هذا المقطع، يبحث دافعك الطبيعي عن خطأ مطبعي. من المفترض عدم وجود حذف أو شيء ما. لكن لا، لا شيء من ذلك! إنه يقصد ذلك! والأكثر من ذلك هو يتكلم الحقيقة فقط لكن بطريقة معكوسة. لقد وصلت حياة الطبقة الوسطى المثقفة إلى درجة من النعومة، يمكن أن يُنظر إلى الخمس سنوات من التعليم في المدارس الخاصة- خمس سنوات في حمام التكبر الفاتر - كفترة حافلة بالأحداث. بالنسبة إلى الكتّاب الذين أُحصوا خلال الثلاثينيات هل حدثت أشياء أكثر مما دونه السيد كونولي في كتابه **أعداء**

الوعد؟ أنه الأنموذج نفسه دائماً؛ المدرسة الخاصة والجامعة ورحلات قليلة إلى الخارج ثم لندن. لم يكن الجوع والمشاق والعزلة والنفي والحرب والسجن والاضطهاد والعمل اليدوي سوى ألفاظ. لا عجب أن تجد قبيلة ضخمة عرفت بـ "الناس اليساريين الحقيقيين" أنه من السهل التغاضي عن أعمال التطهير والشرطة السرية جي بي يو للنظام الروسي ورعب الخطة الخماسية الأولى. كانوا عاجزين بشكل تام عن فهم ما كانت تعنيه. في حوالي عام ١٩٣٧ كانت كل الطبقة المثقفة الإنكليزية في حالة حرب فكرياً. لقد ضاق الفكر اليساري وتقلص إلى شكل من معاداة الفاشية أي إلى سيل سلبي من أدب الكره الموجه ضد ألمانيا والسياسيين المحبين لألمانيا، سيل كان ينهمر من الصحافة. إن الشيء الذي أخافني جداً في الحرب في إسبانيا لم يكن العنف الذي شهدته بعيني ولا حتى العداوات الحزبية خلف خطوط القتال، وإنما ظهور الجو الفكري للحرب العظمى من جديد في دوائر الجناح اليساري. نفس الأشخاص الذين سخروا من تفوقهم على هستيريا الحرب كانوا الأشخاص الذين تراجعوا بقوة إلى العقلية القذرة لعام ١٩١٥ كل حماقات الحرب المألوفة من صيد الجواسيس وشم المعتقدات (شم، شم. هل أنت عدو صالح للفاشية؟) وتسويق قصص الأعمال الوحشية عادت للرواج، كما لو أن السنوات الفاصلة لم تحدث أبداً. قبل نهاية الحرب الإسبانية، وقبل ميونيخ حتى، بدأ بعض من أفضل كتاب الجناح اليساري بالارتباك والتلوي. لم يكتب أودين أو سبيندر شيئاً عن الحرب الإسبانية بنفس المسحة التي كانت متوقعة منهما. منذ ذلك كان هناك تبدل في الشعور وكثير من الفزع والتشوش، لأن المسار الفعلي للأحداث سفّه عقيدة الجناح اليساري في السنوات القليلة الأخيرة، وبعد ذلك لم تعد هناك حاجة لذكاء كبير لترى أن الكثير منها كان عبارة عن هراء منذ البداية. وبناء عليه لم يكن هناك يقين بأن العقيدة التالية التي ستنبثق ستكون أفضل من سابقتها.

في المجمل يبدو التاريخ الأدبي للثلاثينيات يبرر الرأي بأن الكاتب يفعل الصواب إن ابتعد عن السياسة، لأن أي كاتب يقبل أو يقبل جزئياً بأنظمة حزب سياسي سيواجه عاجلاً أو أجلاً بالخيار: أطع الأوامر أو اصمت. طبعاً من الممكن أن تقول ما يُملى عليك وتستمر في الكتابة- كما هو رائع. أي ماركسي يستطيع أن يثبت بسهولة كبيرة جداً أن حرية الفكر "البرجوازية" هي مجرد وهم، لكن حين ينهي إثباته، تبقى هناك الحقيقة النفسية أنه من دون هذه الحرية

"البورجوازية" تتبدد القدرات الإبداعية وتتلاشى. قد يظهر الأدب الشمولي الاستبدادي في المستقبل، لكنه سيكون مختلفاً تماماً عن أي شيء نستطيع تخيله الآن. الأدب كما نعرفه شيء فرداني ويتطلب أمانة عقلية وحداً أدنى من الرقابة، وهذا صحيح في النثر أكثر منه في الشعر. ربما ليس مصادفة أن أفضل كتاب الثلاثينيات كانوا شعراء. إن الجو العقائدي مؤذ للشعر دائماً، وقبل كل شيء مدمر تماماً للرواية، الشكل الأكثر فوضوية من كل أشكال الأدب. كم عدد الكاثوليكيين الرومان الذين كانوا روائيين جيدين؟ حتى الحفنة التي يستطيع عدها المرء كانوا كاثوليكيين رديئين. إن الرواية عملياً شكل فني بروتستانتي ونتاج العقل الحر للفرد المستقل بذاته. لم يكن هناك عقد في المائة وخمسين سنة الماضية خلا من النثر التخيلي، كما كان عقد ثلاثينيات القرن العشرين. كانت هناك قصائد جيدة وأعمال سوسيولوجية جيدة وكراريس متألقة، لكن عملياً لم يكن هناك قصة أو رواية قيّمة على الإطلاق. من عام ١٩٣٣ فصاعداً كان المناخ العقلي ضدها بشكل متزايد، فأي شخص حساس وتأثر بروح العصر كان متورطاً في السياسة. ليس كل واحد بالتحديد طبعاً كان في العربدة السياسية، لكن عملياً كان كل واحد على محيط السياسة وتورط تقريباً في حملات الدعاية والجدالات القذرة. كان للشيوعيين والقريبين منهم تأثير واسع بشكل غير متكافئ في المجلات النقدية الأدبية. كان زمن الرقع والشعارات والمراوغات. في أسوأ اللحظات كان يتوقع منك أن تحبس نفسك في قفص صغير مقبِض للأمعاء من الأكاذيب وفي أفضلها نوع من الرقابة الطوعية ("هل ينبغي علي أن أقول هذا؟؟ وهل هذا القول مؤيد للفاشية؟") أسئلة كانت تدور في عقل كل واحد. من الصعب التصور أن تكتب روايات جيدة في جو كهذا. إن الروايات الجيدة لا تُكتب بواسطة شمامي العقائد ولا بواسطة أناس ضمائرهم معذبة بخصوص لاعقيدتهم (هرطقتهم). إن الروايات الجيدة تُكتب بواسطة أشخاص غير خائفين، وهذا يعيدني إلى هنري ميلر.

القسم الثالث:

إن كانت هذه هي اللحظة لإطلاق "مدرسة" أدبية، فربما يكون هنري ميلر نقطة البداية لمدرسة جديدة. فعلى أي حال إنه يرمز إلى أرجحة غير متوقعة لبندول الساعة. فالمرء ينجو في كتبه من "الحيوان السياسي"، ويعود إلى وجهة نظر ليست فردية فقط وإنما سلبية تماماً-

وجهة نظر رجل يؤمن بأن مسار العالم خارج سيطرته، ورجل نادراً ما يرغب بأي حال في السيطرة عليه.

قابلت ميلر لأول مرة في نهاية عام ١٩٣٦ حين كنت أمر بباريس في طريقي إلى إسبانيا. إن أكثر ما أثار فضولي حوله أنني وجدت أنه لم يشعر بأي اهتمام في الحرب الإسبانية. أخبرني فقط في تعبيرات قسرية أن الذهاب إلى إسبانيا في تلك اللحظة عمل رجل أحمق. هو يفهم أي واحد يذهب إلى هناك، إما بدوافع أنانية محضة كدافع الفضول مثلاً، أو أن تورط نفسك في مثل هذه الأشياء من إحساس في الواجب فهو مجرد غباء. وفي حالتي كانت أفكاري عن مقارعة الفاشية والدفاع عن الديمقراطية إلخ كلها هراء. حضارة مقدر لها ومحكومة بأن تكنس وتستبدل بشيء مختلف جداً لدرجة يجب ألا نعتبره إنسانياً - مشهد لا يضايقه كما قال. وبعض من وجهة النظر هذه متضمنة في كل أعماله. في كل مكان هناك إحساس بالجائحة الوشيكة، وفي كل مكان تقريباً الاعتقاد الضمني بأنها شيء غير مهم. إن التصريح السياسي الوحيد حسب معرفتي الذي أدلى به مطبوعاً كان تصريحاً سلبياً. منذ سنة أو أكثر أرسلت المجلة أمريكية الفصلية الماركسية استبياناً لكتاب أمريكيين مختلفين سألتهم أن يحددوا موقفهم من موضوع الحرب. ردّ ميلر في سلمية مفرطة ورفض فردي للقتال، مع عدم وجود رغبة ظاهرة في هداية الآخرين لاعتناق نفس الرأي - عملياً في الحقيقة هو تصريح باللامسؤولية.

لكن هناك أكثر من نوع من اللامسؤولية. كقاعدة إن الكتاب الذين ليس لديهم الرغبة في التعاطف مع العملية التاريخية الراهنة، إما يتجاهلونها أو يقاتلون ضدها. إن استطاعوا تجاهلها فهم حمقى على الأرجح. إن استطاعوا أن يفهموها جيداً بشكل يكفي أن يرغبوا في القتال ضدها، فعلى الأرجح تكون لديهم رؤيا كافية ليدركوا أنهم لا يستطيعون الفوز. انظر مثلاً إلى قصيدة مثل "الغجري العالم" مع شكواها ضد "مرض الحياة العصرية الغريب" والتشبيه الانهزامي في الستانزا الأخيرة. إنها تعبر عن واحد من المواقف الأدبية العادية وربما كان الموقف السائد فعلياً خلال المائة سنة الأخيرة. في المجمل كتاب العشرينات أخذوا الخط الأول، وكتاب الثلاثينات الخط الثاني. وفي أي لحظة محددة طبعاً، توجد قبيلة ضخمة من أمثال باري وديبينغ وديل الذين لم يلاحظوا ماذا يحدث. إن أهمية عمل ميلر يكمن في تجنبه

لكل هذه المواقف. فهو لم يدفع العملية التاريخية إلى الأمام ولم يحاول جرها إلى الخلف، لكن من جانب آخر لم يتجاهلها بالتأكيد. يجب أن أقول إنه يؤمن بالدمار الوشيك للحضارة الغربية بشكل أقوى من أغلبية الكتاب "الثوريين، لكنه لا يشعر بأنه يجب أن يفعل أي شيء بخصوص ذلك. هو يعزف بكمانه بينما روما تحترق، وبخلاف الأغلبية الهائلة من الناس الذين يفعلون هذا، يعزف ووجهه نحو ألسنة اللهب.

في **ماكس والخلايا البيضاء البالعة**، هناك مقاطع كاشفة يخبرنا فيه الكاتب قدراً كبيراً عن نفسه بينما يتحدث عن شخص آخر. يتضمن الكتاب مقالاً طويلاً عن مذكرات أنايس نين، التي لم أقرأها أبداً باستثناء بضع أجزاء صغيرة، والتي أعتقد أنها لم تنشر. يدعي ميلر أنها الكتابة الأنثوية الحقيقية الوحيدة التي ظهرت إلى الآن بغض النظر عما تعنيه. لكن المقطع الممتع هو المقطع الذي يقارن فيه أنايس نين، الشخصية تماماً وبشكل واضح والكاتبة الانطوائية، مع يونس في بطن الحوت. هو يشير بشكل عابر إلى مقال كتبه ألدوس هاكسلي منذ عدة سنوات عن صورة أل غريكو، حلم فيليب الثاني. يلاحظ هاكسلي أن الناس في صورة أل غريكو كما لو أنهم كانوا في بطون حيتان، ويدعي أنه اكتشف شيئاً مرعباً بشكل غريب في فكرة أن تكون في "سجن من الإمعاء". ميلر يرد على ذلك بشكل معاكس بقوله إن هناك أشياء كثيرة أسوأ من أن تبتلعك الحيتان. ويوضح المقطع أنه نفسه يجد الفكرة جذابة نوعاً ما. هو يقصد ويتطرق إلى وتر الوهم واسع الانتشار على الأرجح.

من الجدير بالملاحظة أن كل واحد وعلى الأقل كل شخص ناطق بالإنكليزية، يتكلم عن يونس والحوت. طبعاً المخلوق الذي ابتلع يونس كان سمكة ووصفت في الإنجيل، لكن الأطفال يظنونه خطأً أنه حوت. وهذه القطعة الصغيرة من حديث طفولي عادة تحمل إلى حياة لاحقة -علامة ربما عن أثر أسطورة يونس على مهاجرينا. أن تكون في داخل حوت، هي فكرة مريحة جداً ودافئة وعائلية. يونس التاريخي إن كان يمكن وصفه بذلك، كان مسروراً جداً لنجاته وفراره، وقد حسده عدد لا يحصى من الناس في الخيال وفي أحلام اليقظة. والسبب واضح جداً طبعاً. بطن الحوت رحم كبير يكفي لشخص بالغ. ها أنت في الفراغ المظلم الوثير الذي يناسبك تماماً مع ياردات من الدهن والبدانة بين نفسك وبين الحقيقة، قادر على أن تحافظ على موقف من اللامبالاة التامة لكل ما يحدث. عاصفة قد تغرق كل السفن الحربية في العالم قلما

تصلك كصدى. حتى حركات الحوت نفسه ربما تكون غير محسوسة لك. قد يكون يتمرغ وسط الأمواج السطحية أو يندفع بقوة نحو الأسفل في قلب الظلام ووسط البحار (بعمق ميل حسب ما جاء عن هيرمان ميلفيل) لكنك لن تلاحظ الفرق أبداً. إنها المرحلة النهائية التي لا يمكن تجاوزها من اللامسؤولية إن لم يكن المرء ميتاً. ومهما كانت مع أنايس نين، ليس هناك شك بأن ميلر نفسه داخل الحوت. كل مقاطعه المميزة والأفضل كتبت من زاوية يونس، يونس الراغب والمستعد. ليس لأنه انطوائي بشكل خاص-على العكس تماماً. في حالته صدف أن كان الحوت شفافاً. لكنه لم يشعر بأي دافع لتبديل العملية الجارية التي يقاسيها أو السيطرة عليها. هو أنجز فعل يونس الجوهري في حين سمح لنفسه أن يُبتلع وبقي سلبياً وموافقاً.

سوف يتبين ماذا يضيف هذا. إنه نوع من الأمان واطمئنان الروح الذي يتضمن إما عدم إيمان تام أو درجة من الإيمان الذي يصل إلى التصوف. إن موقف "جي مي نفوس" أو "أنا أثق به رغم أنه يذبحني" أياً كانت الطريقة التي نظرت إليه بها؛ لأغراض عملية، كلاهما متطابق، المغزى في كلا الحالتين "اجلس على عجيزتك، سيت اون يور بوم". لكن في زمن كزمننا هل هذا موقف يمكن الدفاع عنه؟ لاحظ أنه من شبه المستحيل الامتناع عن طرح هذا السؤال. في هذه اللحظة من الكتابة نحن لانزال في فترة ترى من البديهي أن الكتب يجب أن تكون إيجابية دائماً وجدية و"بناءة". منذ عشر سنوات هذه الفكرة كانت تقابل بالضحك والسخرية. ("عمتي العزيزة. المرء لا يكتب عن أي شيء. المرء يكتب فقط"). بعدئذ تأرجح النواس وابتعد عن الفكرة العابثة بأن الفن مجرد تكنيك، ولكنه ابتعد لمسافة طويلة جداً إلى نقطة من الحزم والتوكيد بأن الكتاب لا يمكن أن يكون جيداً إلا إذا تأسس على رؤية "صحيحة" للحياة. من الطبيعي أن الناس الذين يؤمنون بهذا، يؤمنون أيضاً بأنهم أنفسهم يمتلكون الحقيقة. النقاد الكاثوليكيون مثلاً يميلون إلى الادعاء بأن الكتب جيدة فقط عندما تكون نزعتها كاثوليكية. وزعم النقاد الماركسيون بالمثل، وبشكل أكثر جرأة بالنسبة إلى الكتب الماركسية مثل "تفسير ماركسي للأدب" للسيد إدوارد أبوارد في **عقول في قيود**:

النقد الأدبي الذي يهدف أن يكون ماركسياً يجب...... أن يعلن صراحة أنه لم يُكتب كتاب جيد في الوقت الحاضر يمكن أن يكون "جيداً" إذا لم يُكتب من وجهة نظر ماركسية أو قريبة منها.

كما صرح كتاب مختلفون آخرون بتصريحات مماثلة أو مساوية. السيد أبوارد يطبع بأحرف مائلة في الوقت الحالي، لأنه أدرك أنك لا تستطيع مثلاً أن تتجاهل هاملت على أرضية أن شكسبير لم يكن ماركسياً. ومع ذلك، فإن مقاله الممتع لا يشير إلى هذه الصعوبة إلا بتلميحات قصيرة جداً. إن الكثير من الأدب الذي أتى إلينا من الماضي مخترق، وفي الحقيقة مؤسس على اعتقادات (الاعتقاد بأبدية الروح مثلاً) التي تبدو لنا الآن مزيفة وفي بعض الحالات سخيفة وتافهة، وحتى لو كان "أدباً جيداً" إن كان البقاء هو الاختبار. يرد السيد أبوارد بلا أدنى شك أن الاعتقاد الذي كان ملائماً قبل عدة قرون قد لا يكون مناسباً، وبالتالي باطلاً الآن. لكن هذا لا يوصلنا إلى أبعد مما سبق، لأنه يفترض أن عصراً يكون فيه كيان إيماني واحداً، هو التيار الأقرب إلى الحقيقة، وأن الأدب الأفضل في عصره يكون منسجماً تقريباً معه. فعلياً لم يتواجد مثل هذا التناغم والاتساق. في إنكلترا القرن السابع عشر مثلاً، كان هناك انشقاق ديني وسياسي يشبه بوضوح خصومة اليسار الراهنة. عند النظر إلى الوراء، نجد أن أغلب الناس العصريين يشعرون أن وجهة النظر البرجوازية-البيوريتانية كانت أقرب إلى الحقيقة من وجهة النظر الكاثوليكية-الإقطاعية. لكن من المؤكد أن الحالة لم تكن أن كل أو أكثرية أفضل الكتاب كانوا من البيوريتانيين. وأكثر من هذا، وجد هناك "كتاب جيدون" كانت نظرتهم إلى العالم مزيفة وسخيفة. مثال على ذلك إدغار آلان بو. نظرة بو في أفضل حال لها رومانسية جامحة وفي أسوأ حالاتها ليست بعيدة عن كونه مجنوناً في المعنى السريري الأدبي. لماذا إذاً أن قصص مثل **القطط الأسود والقلب الملهم تيلل-تيل وسقوط بيت آشر** وهلم جرا، التي كان يمكن لمعتوه أن يكتبها، لم تنقل شعوراً بالزيف؟ لأنها حقيقية وصحيحة ضمن إطار محدد وتتقيد بقواعد من عالمها الخاص بها مثل صورة يابانية. لكن يبدو أنه لتكتب بنجاح عن هكذا عالم، عليك أن تؤمن به. يرى المرء الاختلاف فوراً إن قارن حكايات بو مع محاولة جوليان غرين المرائية في رأيي لتطوير جوّ مماثل في **مينويت**.

الشيء الذي يلفت اهتمام المرء فوراً حول **مينويت**، هو عدم وجود مبرر لوجوب حدوث أي من الأحداث فيه. كل شيء اعتباطي تماماً وليس هناك تتابع عاطفي. ولكن هذا بالضبط الذي لا يشعر المرء به مع قصص بو. هناك منطق ممسوس مقنع تماماً في بيئته المكانية والزمانية. حين يمسك الثمل بالقط الأسود ويقلع عينه بمطواة الجيب خاصته مثلاً، يعرف المرء بالضبط

لماذا فعل ذلك إلى درجة الشعور أن المرء كان سيقوم بنفس الفعل. لذلك يبدو أن تملك الحقيقة بالنسبة إلى الكاتب الإبداعي أقل أهمية من الصدق والإخلاص العاطفي. حتى السيد أبوارد لن يزعم أن الكاتب لا يحتاج إلى شيء يتعدى التدريب الماركسي. هو يحتاج إلى موهبة أيضاً، لكن من الواضح أن الموهبة مسألة أن تكون قادراً على الاهتمام والاعتناء وعلى الإيمان الحقيقي بمعتقداتك إن كانت صحيحة أو مزيفة. الفرق بين سيلين وإيفيلين واو مثلاً، هو فرق في الحلة العاطفية. إنه الفرق بين يأس صادق أصلي ويأس هو تظاهر باليأس جزئياً على الأقل. وبرفقة هذا، يصح اعتبار آخر ربما يكون أقل وضوحاً: هناك مناسبات يكون فيها التمسك بمعتقد "غير حقيقي"، محتملاً أكثر من المعتقد "الحقيقي"

لو نظر المرء إلى كتب الذكريات الشخصية التي كتبت حول حرب ١٩١٤-١٨، يلاحظ أن كل الكتب التي ظلت تقرأ بعد مرور فترة من الزمن، كتبت من زاوية سلبية هامدة. إنها سجلات لشيء ما لا معنى له تماماً وكابوس حدث في الخلاء. تلك ليست الحقيقة حول الحرب، ولكنها الحقيقة حول ردة فعل فردية. الجندي الذي يتقدم إلى داخل وابل من نيران البنادق الآلية أو يقف غارقاً حتى خصره في خندق غمره الفيضان، كان يعرف فقط أن هناك تجربة مفزعة هو فيها عاجز تماماً، وكان على الأرجح سيكتب كتاباً جيداً بسبب عجزه وجهله وليس من قوة مزعومة ترى الشيء كله من منظورها. بالنسبة إلى الكتب التي كتبت أثناء الحرب نفسها كان أفضلها عمل الأشخاص تقريباً الذين أداروا ظهورهم وحاولوا ألا يلاحظوا أن الحرب كانت تحدث. لقد وصف السيد أي إم فورستر كيف قرأ في عام ١٩١٧ بروفروك وقصائد أخرى مبكرة لإليوت، وكيف شجعته في هكذا وقت أن يمسك بقصائد كانت "بريئة من الحماسة الشعبية":

تغنت بالاشمئزاز الشخصي واللامبالاة وبأشخاص بدوا صادقين لأنهم كانوا غير جذابين أو ضعفاء.... هنا كان احتجاج واحتجاج واهن ومتجانس أكثر لكونه واهناً..... هو الذي استطاع أن يتنحى جانباً ليتشكى من سيدات ومن غرف استقبال واحتفظ بنقطة صغيرة جداً من احترامنا للذات، هو حمل على الإرث الإنساني.

قيل ذلك بشكل جيد جداً في الكتاب الذي أشرت إليه للتو، ويقتبس السيد ماكنيس هذا المقطع ويضيف باعتداد إلى حد ما:

بعد عشر سنوات من احتجاجات أقل، قام بها شعراء، استمر الإرث الإنساني بشكل مختلف نوعاً ما.... إن تأمل عالم من شظايا صغيرة، أصبح مملاً وخلفاء إليوت اهتموا أكثر في ترتيبه.

ملاحظات مماثلة تبعثرت في كل كتاب السيد ماكنيس. إن الذي تمنى منا أن نصدقه، هو أن "خلفاء" إليوت (القصد السيد ماكنيس وأصدقاؤه) احتجوا بطريقة ما بشكل أكثر فاعلية مما فعله إليوت في نشره قصيدة بورفروك، في اللحظة التي كانت جيوش الحلفاء تهاجم فيها جبهة هندينبيرغ. أنا لا أعرف أين توجد هذه الاحتجاجات، ولكن في المقارنة بين تعليق السيد فورستر وبين السيد ماكنيس، يكمن الاختلاف كله بين رجل يعرف كيف كانت حرب ١٩١٤-١٨ وبين رجل قلما يتذكرها. الحقيقة أنه في عام ١٩١٧ لم يكن هناك شيء يستطيع الشخص المفكر والحساس فعله، سوى أن يبقى إنسانياً إن أمكن وإيماءة من العجز وحتى من العبث، قد تكون الطريقة الأفضل لفعل ذلك. ولو أنني كنت جندياً يحارب في الحرب الكبرى، لتمسكت ببروفورك أكثر من المائة الألف الأولى أو رسائل إلى الأولاد في الخنادق لهوراشيو بتملي. كنت سأشعر مثل السيد فورستر بالوقوف جانباً والتواصل مع عواطف ما قبل الحرب، كان إليوت يحمل على التراث الإنساني. أي راحة ستكون في وقت كهذا، أن تقرأ عن تردد مثقف كبير أصلع في منتصف عمره! مختلفة جداً عن ثقب حربة! بعد القنابل وطوابير الطعام وملصقات التجنيد، صوت إنساني! يا لها من راحة!

لكن أخيراً، كانت حرب ١٩١٤-١٨ مجرد لحظة مضاعفة وعميقة في أزمة شبه مستمرة. في هذا التوقيت لم تكن هناك حاجة للحرب، حتى توضح لنا تفسخ مجتمعنا والعجز المتزايد لكل الناس المحتشمين. لذلك لهذا السبب كما أعتقد يكمن تبرير الموقف السلبي غير المعين المتضمن في أعمال هنري ميلر. إن كان على أعماله أن تكون تعبيراً عما ينبغي للناس أن يشعروا به أم لا، فإنها على الأرجح تقترب من التعبير عما يشعرون به. مرة أخرى، إن الصوت الإنساني وسط انفجارات القنابل، صوت أمريكي صديق "بريء من الحماسة الشعبية" لا مواعظ، وإنما مجرد الحقيقة الموضوعية. وبهذا المنوال من الواضح أنه من الممكن أن تُكتب رواية جيدة. ليست بالضرورة رواية مثقفة ومنورة، وإنما رواية تستحق القراءة، ويحتمل أن يتذكرها المرء بعد قراءتها.

بينما أكتب هذه المقالة، اندلعت حرب أوروبية أخرى. إما أنها ستستمر سنيناً كثيرة وتمزق الحضارة الغربية وتحولها إلى أشلاء، أو تنتهي بشكل غير حاسم وتمهد الطريق لحرب أخرى ستقوم بالوظيفة مرة وإلى الأبد. لكن الحرب مجرد "سلام مكثف" إن ما يحدث بوضوح سواء كان حرباً أم لا، فهو تفسخ الرأسمالية الليبرالية والثقافة المسيحية الليبرالية. حتى وقت حديث، لم يتكهن بالمعنى الضمني التام لهذه الحرب، لأن الناس عموماً تخيلوا أن الاشتراكية يمكنها أن تحافظ وتوسع جو الليبرالية. والآن هي البداية لندرك كم كانت تلك الفكرة زائفة. من شبه المؤكد أننا نتحرك إلى داخل عصر من الديكتاتوريات الشمولية - عصر ستكون فيه فكرة الحرية خطيئة مميتة أولاً، وفكرة مجردة لا معنى لها لاحقاً، وسوف يُستأصل الفرد المستقل ويُجتث من الوجود. وهذا يعني أن الأدب بالشكل الذي نعرفه، يجب أن يقاسي موتاً مؤقتاً على الأقل. إن أدب الليبرالية في طريقه إلى الهلاك، وأدب الشمولية لم يظهر بعد، ومن الصعب تخيله. بالنسبة إلى الكاتب، هو يجلس على جبل جليدي ذائب: إنه مجرد مفارقة تاريخية وأثر باق من العصر البرجوازي محكوم بالهلاك مثل جاموس البحر. يبدو لي ميلر رجلاً خارجاً عن المألوف لأنه رأى هذه الحقيقة الواقعية، وأعلن عنها قبل أن يفعل أغلب معاصريه بوقت طويل، حين كان الكثيرون منهم يثرثرون حول انبعاث ونهضة للأدب في الواقع. قال ويندهام لويس قبل سنين إن التاريخ الرئيسي للغة الإنكليزية انتهى، لكنه بنى هذا على مبررات تافهة. لكن من الآن فصاعداً، فإن الحقيقة الأهم للكتاب الإبداعيين ستكون أن هذا العالم ليس عالماً للكتاب. هذا لا يعني أنه لا يستطيع أن يساعد على ولادة المجتمع الجديد، وإنما لأنه لا يستطيع أن يشارك في العملية ككاتب. لأنه ككاتب هو ليبرالي، وما يحدث هو تدمير لليبرالية، لذلك من المحتمل كما يبدو أنه في السنين المتبقية من حرية الكلام، فإن أي رواية جديرة بالقراءة ستتبع تقريباً الخطوط التي سلكها ميلر- أنا لا أقصد في التكنيك أو الموضوع الرئيسي، وإنما في الموقف المتضمن. إن الموقف السلبي سيعود وسيكون أكثر سلبية من قبل. لقد تبين أن التقدمية والرجعية مخادعتان وغشاشتان. على ما يبدو لم يبق شيء سوى التصوف -سلب الواقع الحقيقي من إرهابه بمجرد الخضوع له. ادخل في بطن الحوت- أو بالأحرى اعترف بأنك داخل الحوت (لأنك في داخله طبعاً). سلم نفسك للعملية العالمية الجارية، وتوقف عن

القتال ضدها أو تظاهر أنك تتحكم بها واقبل بها ببساطة وتحملها ودوّنها. تلك هي الصيغة والوصفة التي على ما يبدو أن أي روائي حساس الآن يحتمل منه أن يتبناها. ففي الوقت الحالي من الصعب جداً تخيل رواية "بناءة" وأكثر إيجابية وليست زيفاً عاطفياً.

لكن هل أقصد بهذا أن ميلر "مؤلف عظيم" وأمل جديد للنثر الإنكليزي؟ إن ميلر نفسه سيكون الأخير الذي يدعي أو يريد أن يكون مثل هذا الشيء. لا شك بأنه سوف يستمر في الكتابة -أي أحد بدأ سيستمر دائماً في الكتابة- ويرافقه في ذلك عدد من الكتاب لهم نفس النزعة تقريباً. لورانس دوريل ومايكل فرانكل وآخرون ويشكلون "مدرسة" تقريباً. لكن هو نفسه يبدو لي جوهرياً رجلاً ذا كتاب واحد. عاجلاً أو آجلاً عليّ أن أتوقعه يسقط في الغموض -عدم الوضوح أو الشعوذة: هناك علامات لكليهما في عمله اللاحق. كتابه الأخير **مدار الجدي** الذي لم أقرأه حتى، ليس لأنني لم أرغب بقراءته وإنما لأن الشرطة ومسؤولي الجمارك نجحوا إلى حد الآن في منعي من الحصول عليه. لكنه سيفاجئني إن اقترب من كتاب **مدار السرطان** بأي شكل أو من الفصول الافتتاحية في **ربيع اسود**. مثل روائيي سيرة ذاتية آخرين، لديه الميزة لفعل شيء واحد بشكل مثالي. إن التأمل والتفكير بشكل النثر القصصي وحاله في ثلاثينات القرن العشرين مسألة أخرى.

نشرت كتب ميلر في مطبعة أوبليسك في باريس. ماذا سيحدث لمطبعة أوبليسك إذا اندلعت الحرب الآن ومات الناشر جاك كاثين؟ أنا لا أعرف. لكن في أي حال لازالت الكتب سهلة المنال. أنا أنصح جدياً أي واحد لم يفعل هكذا أن **يقرأ مدار السرطان** على الأقل. بإدارة بارعة بسيطة أو بدفع ثمن أكثر بقليل من الثمن المعلن، يمكنك الحصول عليه، وحتى إن أثارت اشمئزازك أجزاء منه، سوف يبقى في ذاكرتك. كما أنه كتاب مهم أيضاً بمعنى مختلف عن المعنى الذي تستخدم فيه الكلمة عادة. كقاعدة يقال عن الروايات "مهمة" حين لا تكون "اتهامية فظيعة" لشيء أو آخر، أو عندما تقدم لك بعضاً من الابتكار التقني. كلا هذين الصنفين لا ينطبقان على مدار السرطان. أهميتها مجرد شيء عرضي. هنا في رأيي كاتب النثر الخيالي الوحيد من أخف قيمة الذي ظهر وسط الأعراق الناطقة باللغة الإنكليزية في السنين الماضية. حتى لو جرى الاعتراض على هذا بكونه مبالغة، فربما يكون اعترافاً أن ميلر

كاتب غير عادي يستحق أكثر من مجرد نظرة سريعة، وأخيراً إنه كاتب سلبي تماماً وغير بناء وغير أخلاقي، مجرد يونس، قابل سلبي بالشر ونوع من وايتمان وسط الجثث. وفقاً للأعراض، ذاك مهم وذو مغزى أكثر من واقع أن خمسة آلاف رواية تنشر في إنكلترا كل سنة، أربعة آلاف وتسعمائة منها تافهة. إنها إيضاح وإثبات عن استحالة وتعذر وجود أي أدب رفيع حتى يهز العالم نفسه في شكله الجديد.

روديارد كيبلينغ

اضطر السيد إليوت أن يكون في وضع دفاعي إلى حد كبير في المقالة الطويلة التي استهل بها هذه الباقة المختارة من أشعار كيبلينغ، وهذا أمر يدعو إلى الرثاء. وكان تفادي ذلك متعذراً. فقبل أن يستطيع المرء التكلم عن كيبلينغ، يجب عليه أن يبدد أسطورة اختلقتها مجموعتان من الأشخاص الذين لم يقرؤوا أعماله. كان كيبلينغ في وضع غريب، بكونه موضوع سخرية وتهكم لمدة خمسين سنة. طوال خمسة أجيال أدبية احتقره كل شخص متنور، وفي نهاية ذلك الوقت تسعة أعشار هؤلاء الأشخاص المتنورين باتوا في عالم النسيان، وظل كيبلينغ هناك. لم يعلل السيد إليوت هذه الحقيقة بصورة مرضية، لأنه في الرد على التهمة المألوفة الضحلة بأن كيبلينغ كان "فاشياً" سقط في الخطأ المعاكس في الذود عنه وفي المكان الذي لا يمكن الدفاع عنه. من غير المجدي التظاهر بأن رؤية كيبلينغ للحياة بالمجمل مقبولة، أو يمكن التسامح معها من قبل الشخص المتمدن، ومن العبث الزعم مثلاً أنه حين يصف جندياً إنكليزياً يضرب "زنجياً" بسيخ التنظيف لكي يخرج النقود منه، بأنه كان يتصرف كمراسل إخباري فقط، ولا يستحسن بالضرورة ما يصفه. ليس هناك أوهى علامة في أي مكان في أعمال كيبلينغ يستهجن فيها ذلك النوع من السلوك -على العكس يوجد ضرب واضح من السادية فيه تفوق الوحشية التي يجب أن يمتلكها أي كاتب من ذلك الأنموذج. كيبلينغ إمبريالي (مؤيد للاستعمار) متطرف ومتبلد الإحساس أخلاقياً ومثير للاشمئزاز جمالياً. من الأفضل البدء بالاعتراف بذلك، ومن ثم المحاولة في اكتشاف سبب بقائه حياً، بينما تقادم الأشخاص الأنقياء والمهذبين الذين سخروا منه وتهالكوا بصورة سيئة جداً.

لكن رغم ذلك، يجب الردّ على تهمة الـ "فاشي"، لأن أول مفتاح لأي فهم لكيبلينغ أخلاقياً وسياسياً هي الحقيقة بأنه لم يكن فاشياً. إنه أبعد ما يكون فاشياً من أكثر شخص إنسانية و"تقدمية" في الوقت الحاضر. مثال مشوق للطريقة التي تتكرر فيها الاقتباسات بشكل ببغائي من دون أي محاولة للبحث عن سياقها أو اكتشاف معناها، هو بيت من قصيدته الانسحابي "سلالات أقل خارجة عن القانون". هذا البيت مثال جيد دائماً للسخرية في دوائر

اليسار المخنثة. من المفترض أن الـ"سلالات الأقل شأناً" هم "السكان الأصليون"، وتُستحضر صورة عقليه للصاحب الحقيقي (أنغلوهندي) في خوذة من الريش يركل حمالاً هندياً. معنى البيت في سياقه نقيض هذا تماماً تقريباً. إن عبارة "سلالات أقل" تشير بالتأكيد إلى الألمان وخصوصاً رابطة الكتاب الألمان الذين هم "خارج القانون"، بمعنى كونهم متمردين وليس بمعنى عاجزين. تقليدياً، إن القصيدة التي اعتبرت طقساً معربداً من التفاخر والتباهي هي شجب لسياسة القوة البريطانية والألمانية أيضاً. مقطعان شعريان جديران بالاقتباس (أقتبس هذا كسياسة وليس كشعر):

"لو ثملنا بمنظر القوة، ستنطلق ألسنتنا التي لا تهابك وتخشاك/ بتباه وتبجح مثل الذي يستخدمه الوثنيون أو سلالات أقل شأناً خارجة عن القانون -يا سيدنا رب الحشود كن معنا كي لا ننسى- كي لا ننسى!

للقلب الوثني الذي يضع ثقته في أنبوب تفوح منه روائح كريهة وكسرة حديد/ كل الثرى الشجاع الذي ينتصب على الثرى، ويدافع/ لم يدعوك لتدافع من أجل تبجح مسعور وكلمة غبية- ارحم شعبك يا رب!

إن الكثير من لغة كيبلينغ مأخوذة من الكتاب المقدس، ولا شك أنه في المقطع الشعري الثاني، كان يفكر في نص المزمور اثنين وسبعين: "لو لم يبنِ الرب البيت لكدحوا عبثاً لبنائه؛ لو لم يحم الرب المدينة لسهر الخفير دون جدوى". إنه ليس النص الذي له تأثير كبير على العقل ما بعد هتلر. لا يوجد أحد في زمننا يؤمن بأي قانون أعظم من القوة العسكرية، ولا أحد يعتقد بإمكانية قهر القوة إلا بقوة أعظم منها. ليس هناك "قانون"، هناك قوة فقط. أنا لا أقول بأن ذلك اعتقاد صحيح، لكنه الاعتقاد الذي يحمله كل الناس الحديثين فعلياً. هؤلاء الذين يتظاهرون بغير ذلك، هم إما مثقفون جبناء أو عبدة سلطة تحت قناع رقيق، أو أنهم ببساطة لم يقتربوا من العصر الذي يعيشون فيه. إن وجهة نظر كيبلينغ قبل فاشية، فهو لازال يعتقد بأن الغرور يأتي قبل السقوط، وأن الآلهة تعاقب الكبرياء. إنه لم يتنبأ بالدبابة والطائرة القاذفة والراديو والشرطة السرية أو نتائجها النفسية.

لكن في قولي هذا، ألا يسحب المرء كلامه حول ما قلته آنفاً عن وطنية كيبلينغ المغالية ووحشيته؟ كلا سيقول المرء إن وجهة نظر إمبريالي القرن التاسع عشر ووجهة نظر فرد

العصابة المعاصر شيئان مختلفان. ينتمي كيبلينغ إلى الفترة بين ١٨٨٥-١٩٠٢ بالتحديد. إن الحرب العظمى ونتيجتها نغصتا حياته، لكنه لا يبدي سوى علامة بسيطة عن تعلمه أي شيء من أي حدث تلا حرب البوير. كان نبي الإمبريالية البريطانية في طورها التوسعي (في قصائده وحتى في روايته اليتيمة النور الذي انطفأ يعطيك الجو في ذلك الزمن) وكان أيضاً المؤرخ غير الرسمي للجيش البريطاني، جيش المرتزقة القديم الذي بدأ بتغيير شكله في عام ١٩١٤ وبأن ثقته كلها وحيويته السوقية النشطة انبثقت من العجز والقصور الذي لم يشاركه فيه أي فاشي أو شبه فاشي.

أمضى كيبلينغ الجزء الأخير من حياته في عبوس، والسبب الكامن خلف هذا بلا شك خيبة أمل سياسية أكثر منه غروراً أدبياً. بطريقة ما لم يحدث التاريخ حسب خطة ما. بعد أعظم نصر عرفته في حياتها، كانت بريطانيا قوة عالمية أقل مما هي عليه من قبل، وكان كيبلينغ ذكياً تماماً ليرى هذا. رحلت الفضيلة من الطبقات التي أسبغ عليها المسحة المثالية، والشباب كانوا تلذذيين أو ساخطين، والرغبة في تلوين الخريطة بالأحمر تبخرت. لم يفهم ما كان يحدث، لأنه لم يفهم أبداً ويدرك القوى الاقتصادية الكامنة وراء التوسع الإمبريالي. من الجدير بالذكر أن كيبلينغ لم يدرك على ما يبدو "أكثر مما أدركه الجندي العادي أو رجل الإدارة في المستعمرات بأن الإمبراطورية هي أولاً وبشكل أساسي مشروع تجاري مربح. الإمبريالية كما رآها نوع من التنصير القسري. تنقض بندقيتك الغاتلينغ على حشد من "السكان الأصليين" العزّل ثم بعد ذلك تؤسس "القانون" الذي يشمل الطرق وسكك الحديد ودور القضاء، ولذلك لم يستطع التنبؤ بأن البواعث نفسها التي خلقت الإمبراطورية وأتت بها إلى الوجود، سوف تنتهي بتدميرها. إنه نفس الباعث مثلاً الذي سبب قص الغابات المالاوية من أجل ملكيات المطاط، وهو السبب الآن في تسليم تلك الملكيات سليمة إلى اليابانيين. يعرف المستبدون الحديثون ما يفعلون، أما إنكليز القرن التاسع عشر لم يعرفوا ماذا كانوا يفعلون. كلا وجهتي النظر لهما إيجابياتها، لكن كيبلينغ لم يقدر أبداً أن يتقدم ويتحرك من واحدة إلى الأخرى. إن وجهة نظره التي سمحت لحقيقة أنه فنان أولاً وأخيراً، كانت وجهة نظر واحد من البيروقراطيين من ذوي الرواتب الذي عاش حياته يحتقر عامل الكشك الهندي، من دون أن يدرك أن عامل الكشك هو من يتحكم بالأمر ويصدح باللحن.

بربط نفسه بالطبقة الرسمية وتأييدها، يمتلك كيلينغ شيئاً واحداً قلما امتلكه الأشخاص "المتنورون"، ألا وهو الشعور بالمسؤولية، ولهذا يكرهه يساريو الطبقة الوسطى بقدر كرههم لقسوته وسوقيته. إن كل أحزاب الجناح اليساري في البلدان الصناعية المتطورة زيف وخداع في صميمها، لأنها جعلت من القتال ضد شيء لا ترغب حقاً في تدميره مهنة لها. لديها أهداف أممية، وفي الوقت نفسه تناضل للحفاظ على مستوى حياتي يتنافر مع تلك الأهداف. نحن كلنا نعيش بسرقة العمال غير المؤهلين الآسيويين، ويطالب "المتنورون" منا بعتق هؤلاء العمال غير المؤهلين وتحريرهم، لكن مستوى عيشنا وبالتالي "تنويرنا" يتطلب ضرورة استمرار تلك اللصوصية. إن الإنساني المحب للخير منافق دائماً، وربما كان فهم كيلينغ وإدراكه لهذا هو السر المركزي لقدرته على خلق عبارات مؤثرة. من الصعب انتقاد السلمية العوراء للإنكليز في بضع كلمات أقل من عبارة "الاستهزاء بالثياب الرسمية التي تحرسك وأنت نائم". صحيح أن كيلينغ لم يدرك المظهر الاقتصادي للعلاقة بين المثقف وبين الشخص المحافظ الساذج، ولم يفهم أن الخريطة لونت بالأحمر لكي يُستغل العامل، وبدلاً من العامل الشرقي غير المؤهل يرى موظف الخدمة المدنية الهندي؛ ولكن حتى في ذلك المستوى كان فهمه لدور ووظيفة "من يحمي من" صحيحاً جداً. هو يرى بوضوح أن الناس لا يستطيعون أن يكونوا متمدنين جداً، إلا حين يكون هناك أناس أقل تمدناً حتماً يحمونهم ويطعمونهم.

إلى أي حد يتماثل كيلينغ مع المدراء والجنود والمهندسين الذين يتغنى بمدحهم؟ ليس كما يفترض تماماً أحياناً. لقد ارتحل بعيداً جداً حين كان شاباً وكبر ونضج بعقل متألق في بيئة محافظة أساساً، وفيه عرق عصابي ربما جعله يفضل الإنسان النشيط على الإنسان الحساس. كان أنغلوهنود القرن التاسع عشر -لنذكر الأقل تأييداً من معبوديه- بأي مقياس أشخاصاً فعلوا أشياء وربما كان كل ما فعلوه شراً، لكنهم بدلوا وجه الأرض (من المفيد النظر إلى خريطة آسيا ومقارنة شبكة الخطوط الحديدية الهندية مع تلك التي في البلدان المحيطة) لو كانت وجهة نظر الأنغلوهنود تلك التي للأديب أي إم فورستر مثلاً، لما استطاعوا إنجاز أي شيء، أو استطاعوا الاحتفاظ بالسلطة لأسبوع واحد. رغم البهرجة والضحالة، تظل الصورة الأدبية التي رسمها كيلينغ هي الوحيدة التي نملكها عن الهند الإنكليزية في القرن التاسع عشر، والتي استطاع خلقها، فقط لأنه كان فظاً بما يكفي، مما مكنه في التواجد

والسكوت في النوادي والمطاعم العسكرية. لكنه لم يكن يشبه كثيراً الناس الذين أعجبوه. أعرف من مصادر خاصة عديدة أن الكثيرين من الهنود الإنكليز المعاصرين لكيلينغ لم يحبوه ولم يستسيغوه وقالوا ولا شك بصحة ذلك، أنه لا يعرف شيئاً عن الهند، ومن جانب آخر كان من وجهة نظرهم مثقفاً أكثر مما يلزم. في الهند مال إلى الاختلاط مع الناس "الخطأ"، وبسبب ملامح وجهه الداكنة، ظنوا بشكل خاطئ أن لديه عرقاً من دم آسيوي. ويشير الكثير من نشوئه إلى ولادته في الهند وتركه المدرسة في سن مبكرة بخلفية مختلفة قليلاً، بأنه كان يمكن أن يكون روائياً جيداً أو كاتباً متفوقاً للأغاني التي تغنى في صالات الموسيقى، لكن إلى أي مدى وكم كان صحيحاً أنه كان قومياً فظاً مخلصاً ووكيلاً دعائياً لسيسيل رودز؟ هذا صحيح، لكن ليس صحيحاً أنه كان منافقاً للسلطة وانتهازياً، وبعد أيامه المبكرة لم يغازل الأسلوب الشعبي المحبب أبداً. يقول السيد إليوت إن ما أساء إليه أنه عبر عن وجهات نظر غير شعبية بأسلوب شعبي. هذا يضيق القضية بافتراض أن "غير شعبي" تعني غير شعبي مع الإنتلجنسيا، لكن الحقيقة أن "رسالة" كيلينغ لم يكن الجمهور الكبير يريدها، وفي الواقع لم يقبل بها أبداً، فقد كان العدد الأكبر من الناس في التسعينيات كما الآن وطنيين دون قصد فقط، ولكنهم معادون للروح العسكرية وضجروا من الإمبراطورية. كان المعجبون الرسميون بكيلينغ ولازالوا "موظفي" الطبقة الوسطى والناس الذين قرؤوا كتابات بلاكوود. في السنوات الأولى الغبية في هذا القرن، اكتشف المحافظون السذج أخيراً أحداً ما يمكن تسميته بشاعر كان في صفهم، فنصبوا كيلينغ على قاعدة تمثال وأعطوا بعضاً من قصائده المترعة بالمواعظ كقصيدة "لو" مثلاً منزلة مقدسة، لكن يُشك إن كان المحافظون السذج قرؤوه بانتباه أكثر مما قرؤوا به الكتاب المقدس، وهم لا يمكن أن يوافقوا على الكثير من أقواله. قلة قليلة هم الأشخاص الذين انتقدوا إنكلترا من الداخل وقالوا عنها أشياء أمر وأعنف مما قاله هذا الوطني البالوعة. كقاعدة، إن الذي يهاجمه كيلينغ هو الطبقة العاملة البريطانية لكن ليس دائماً. إن العبارة التي عن "الحمقى الذين يرتدون الفانيلة عند شباك بيع التذاكر والخرقاء الملوثون بالوحل عند المرمى تنغرز مثل السهم إلى هذا اليوم الموجه إلى مباراة إيتون وهارو وإلى نهائي مباراة الكأس. بعض الأشعار التي كتبها حول حرب البوير فيها رنين عصري غريب بقدر ما يصل إليه موضوعها الرئيسي، وقصيدة

"ستيلينبوش" التي كتبت في عام ١٩٠٢ كما يفترض، تلخص ما كان يقوله كل ضابط مشاة ذكي في عام ١٩١٨ أو ما يقوله الآن حول تلك المسألة.

إن أفكار كيبلينغ الرومانتيكية عن إنكلترا والإمبراطورية، كان يمكن ألا تكون مهمة لو أنه استطاع حملها من دون تحيز طبقي رافقها في ذلك الوقت. لو تفحص المرء أفضل أعماله وأكثرها أنموذجية، قصائد جنديه أغاني غرفة الثكنة للاحظ أن ما يفسدها أكثر من أي شيء آخر، هو جو ضمني من المناصرة والرعاية. يصبغ كيبلينغ المثالية على ضابط الجيش وخصوصاً الضابط الصغير وذلك إلى مدى أبله. أما الجندي النفر فيجب أن يكون هزلياً رغم كونه محبوباً ورومانتيكياً وصوّره دائماً وهو يتكلم بنوع من اللهجة الكوكنية الممنهجة غير المنتشرة بشكل كبير، مع إسقاط كل الاتشات والاغات في آخر الكلمات التي حذفت بعناية، فكانت النتيجة مربكة دائماً تقريباً مثل التلاوة الهزلية في حفلة أنس في الكنيسة. وهذا هو سبب الحقيقة الغريبة الذي يجعل المرء يستطيع استحسان قصائد كيبلينغ دائماً تقريباً ويجعلها أقل مضايقة وأقل سماجة بدراستها ونقلها من الكوكنية إلى لهجة قياسية. هذا صحيح في لوازم قصائده بشكل خاص التي لها صفة غنائية حقيقية دائماً تقريباً. مثالان سيكفيان بالغرض (واحد عن جنازة والآخر عن زفاف):

أطفئوا غلايينكم واتبعوني! انهوا شرب جعتكم واتبعوني! أوه عجلوا إلى نداء الطبل الكبير، اتبعوني-اتبعوني إلى الوطن!

ومرة أخرى:

هللوا لزفاف الرقيب -أعطوهما هتافاً آخر! خيول رمادية تجر المدافع في الريف ووغد يتزوج من مومس!

أنا استرجعت الاتشات هنا. كان ينبغي بكيبلينغ أن يعرف أفضل. كان عليه أن يرى أن البيتين الختاميين في المقطع الشعري الأول، هما بيتان جميلان، وكان ينبغي بهذا أن يتجاوز باعثه في السخرية من لهجة الإنسان العامل. في القصائد الروائية القديمة كان السيد الإقطاعي والفلاح يتكلمان اللغة نفسها. هذا مستحيل بالنسبة إلى كيبلينغ الذي ينظر من منظور طبقي مشوه وبواسطة قطعة من الاستقامة الشعرية أُفسدت أفضل أبياته الشعرية، لأن اتبعوني إلى الوطن (مع حذف حرف الاتش في كلمة وطن أقبح بكثير من بقائها) ولكن حتى حيث لا

يكون هناك أي فرق في الموسيقي، فإن لهجته الكوكنية تضايق وتثير الغضب. في كل الأحوال يُقتبس كيلينغ سماعياً وشفوياً أكثر منه قراءة على صفحة مطبوعة، وأغلب الناس يقومون بالتغييرات الضرورية غريزياً حين يقتبسونه.

هل تستطيع تخيل أي جندي نفر في التسعينات أو الآن يقرأ أغاني غرفة الثكنة ويشعر بأن كاتب هذه القصيدة يتكلم بالنيابة عنه؟ من الصعب فعل هذا. أي جندي قادر على قراءة كتاب من الشعر، سيلاحظ على الفور أن كيلينغ غير مدرك تقريباً للحرب الطبقية المستعرة في الجيش كما في أي مكان آخر، وهو لا يرى الجندي مثيراً للسخرية فقط، وإنما يراه وطنياً وإقطاعياً معجباً بضباطه وفخوراً بكونه جندياً عند الملكة. طبعاً هذا صحيح جزئياً، وإلا لما أُمكن خوض المعارك، لكن "ماذا فعلت من أجلك يا إنكلترا يا إنكلترتي؟" هو التساؤل الذي تسأله الطبقة الوسطى أساساً، وأي رجل عامل تقريباً يتبعه بسؤال ثان مباشرة "ما الذي فعلته إنكلترا لي؟" ويرجع كيلينغ هذا حسب إدراكه إلى "أنانية الطبقات الدنيا الشديدة" (حسب تعبيره). حين يكتب عن الهنود "الموالين" وليس عن البريطانيين، يحمل الموضوع "السلام، الصاحب" إلى أبعاد مثيرة للغثيان أحياناً. لكن يبقى صحيحاً أنه يكن اهتماماً كبيراً للجندي العادي وقلقاً كبيراً لدرجة ينال معاملة عادلة أكثر من "ليبراليي" عصره أو عصرنا، فهو يرى أن الجندي مُهمَل ويُبخس في أجره ويُحتقر على نحو زائف من قبل أشخاص هو من يحمي دخولهم. ويقول في مذكراته التي تلت وفاته "أدركت الرعب المكشوف لحياة الجندي والعذاب غير الضروري الذي يتحمله" هو متهم بتمجيده للحروب، وربما فعل هذا، لكن بالطريقة المعتادة بالتظاهر بأن الحرب نوع من مباراة كرة قدم. مثل أغلب الناس القادرين على كتابة شعر المعارك، لم يقاتل كيلينغ في أي معركة قط، لكن رؤيته للمعارك واقعية. هو يعرف أن الرصاص يؤذي، وأن الكل يرتعب تحت القصف، وأن الجندي العادي لم يعرف أبداً الهدف الذي تدور الحرب من أجله أو ماذا يجري إلا في ركنه الخاص من المعركة، وأن القوات البريطانية كغيرها من القوات تهرب كثيراً:

"سمعت الحراب خلفي/ لكنني لم أجرؤ أن أواجه أي رجل/ ولم أعرف إلى أين ذهبت لأنني لم أتوقف لأرى/ حتى سمعت شحاذاً يصرخ بصوت عال من أجل مأوى/ واعتقدت أنني عرفت الصوت وكان صوتي أنا!"

حدّث أسلوب هذا المقطع، وستخرج بواحد من كتب الحرب الفاضحة في عشرينات القرن العشرين. أو مرة أخرى:

والآن الرصاصات المعانقة تأتي وتنقر عبر التراب/ ولا أحد يريد مواجهتها، لكن كل مشرد يجب/ مثل رجل مقيد بالحديد غير مسرور بالذهاب/ يصرفونهم في جماعات متيبسة وبطيئة بشكل غير مألوف.

قارن هذا به:

إلى الأمام أيها اللواء السريع!/ هل يوجد أي رجل خائف؟ كلا! لكن الجندي عرف واحداً تعثر وارتبك.

إن بالغ كيلينغ بأي شيء، فقد بالغ في الرعب، لأن الحروب التي حدثت في شبابه لم تكن حروباً بمقاييسنا، وربما يعود ذلك إلى أثر عصابي فيه وجوع للقسوة والوحشية، ولكنه يعرف على الأقل أن الرجال الذين يُؤمرون للهجوم على أهداف مستحيلة، هم جنود خائفون، ويعلم أيضاً أن أربعة بنسات في اليوم ليست راتباً تقاعدياً سخياً.

هل الصورة التي تركها لنا كيلينغ عن الخدمة الطويلة لجيش من المرتزقة في أواخر القرن التاسع عشر، صحيحة أو تامة وإلى أي مدى؟ يجب القول عن هذا ـ إن ما كتبه كيلينغ عن الهند الإنكليزية في القرن التاسع عشر، ليس الصورة الأدبية الأفضل فقط وإنما الوحيدة التي في حوزتنا. لقد وضع على التدوين مقداراً ضخماً من الحشو، لذلك لا يستطيع المرء جمعه إلا من الحديث الشفوي أو من مؤرخين غير مقروئين تابعين للنظام. ربما صورته عن الحياة في الجيش تبدو أكمل وأكثر دقة مما عي عليه، لأن أي فرد من الطبقة الوسطى يعرف جيداً على الأرجح كيف يملأ الثغرات. على أي حال، فإن قراءة المقال عن كيلينغ الذي كتبه السيد إدموند ويلسون، نُشر أو على وشك ذلك[*]، دهشت بعدد الأشياء التي تبدو مألوفة لنا بشكل ممل وغير مفهومة للأمريكيين. لكن من الجزء الأساسي لأعمال كيلينغ المبكرة، تنبثق صورة حية وليست مضللة لجيش ما قبل البندقية الآلية–الثكنات شديدة الحر في جبل طارق أو لوكناو، والمعاطف الحمر والأحزمة المبيضة بالطين، والقبعات المدورة الصغيرة، والجعة وأعمال القتال والجلد

[*] نشر في مجلد من المقالات المختارة، الجرح والقوس. (ملاحظة المؤلف ١٩٤٥).

بالسوط والشنق والصلب، ونداءات البوق ورائحة الشوفان، وبول الخيول، والرقيب الذي يجأر بشواربه التي طولها حوالي القدم، والمناوشات الدامية وسوء الإدارة الدائم، وسفن الجند المكتظة، والمعسكرات التي تفشى بها وباء الكوليرا، والخليلات المحليات، والموت المطلق في الإصلاحيات والملاجئ. إنها صورة سوقية فجة، تحولت فيها صالة الموسيقى الوطنية وتشابهت مع مقاطع زولا الأكثر رعباً، لكن من هذه الصورة ستكون أجيال المستقبل قادرة على تجميع فكرة ما عن حال جيش المتطوعين لفترة طويلة، وبنفس المستوى ستقدر تلك الأجيال أن تتعلم شيئاً عن الهند البريطانية في الأيام التي لم تكن السيارات والثلاجات معروفة فيها. من الخطأ التخيل أننا كنا سنمتلك كتباً أفضل حول هذه المواضيع، لو أن الفرص التي توفرت لكيلينغ توفرت لجورج مور أو غيسينغ أو توماس هاردي مثلاً. هذا هو النوع من المصادفة الذي لا يمكن أن يحدث. كان من غير الممكن لإنكلترا القرن التاسع عشر أن تنتج كتاباً مثل الحرب والسلام أو مثل قصص تولستوي الثانوية عن حياة الجيش مثل سيباستوبول أو القوزاق، ليس السبب هو الافتقار إلى الموهبة، وإنما لعدم قيام الشخص الذي يتمتع برقة إحساس تكفي لكتابة مثل هذه الكتب بالاحتكاك المناسب. عاش تولستوي في إمبراطورية عسكرية عظيمة، كان من الطبيعي فيها لكل شاب من عائلة تقريباً أن يقضي بضع سنوات في الجيش، بينما كانت الإمبراطورية البريطانية تدار بهيئة مدنية لدرجة وجدها المراقبون القاريون لا تصدق تقريباً. الرجال المتحضرون لا يرحلون بسهولة ويبتعدون كثيراً عن مراكز الحضارة، وفي أغلب اللغات يوجد نقص كبير جداً لما يمكن تسميته بالأدب الكولونيالي. استدعى الأمر تجميع ظروف غير محتملة لإنتاج لوحة كيلينغ المبهرجة التي وضع فيها المجند أورثريس والسيدة هاوكسبي على خلفية من أشجار النخيل وصوت أجراس المعبد، بالإضافة إلى ظرف ضروري آخر، وهو أن كيلينغ نفسه كان نصف متمدن.

إن كيلينغ هو الكاتب الإنكليزي الوحيد في عصرنا الذي أضاف عبارات إلى اللغة. إن العبارات والألفاظ الجديدة التي أخذناها واستخدمناها من دون أن نتذكر مصدرها وأصلها، لا تأتي دائماً من كتّاب أعجبونا. إنه أمر غريب مثلاً أن نسمع المذيعين النازيين يشيرون إلى الجنود الروس بـ "روبوتات"، هم من دون قصد يستعيرون الكلمة من ديمقراطي تشيكي كانوا سيقتلونه لو وضعوا أياديهم عليه. هنا نصف دزينة من العبارات التي صاغها كيلينغ،

وتقتبسها مكاتب مدراء صحافة البواليع أو تُسمع في صالونات المشارب من أشخاص لم يسمعوا باسمه إلا نادراً. وكلها تشترك بميزة واحدة كما تظهر:

الشرق شرق والغرب غرب. عبء الرجل الأبيض. ما الذي يعرفه عن إنكلترا أولئك الذين لم يعرفوا سوى إنكلترا؟ أنثى النوع مميتة أكثر من الذكر. في مكان ما شرق السويس. سداد ضريبة التاج الدانماركية.

هناك أشياء أخرى مختلفة تشمل بعض أقوال عاشت بعد سياقها سنيناً كثيرة. فقد كانت عبارة "اقتل كروغر بفمك" مثلاً متداولة حتى وقت متأخر. ومن المحتمل أيضاً أن كيلينغ هو من أطلق استخدام كلمة "هانس" على الألمان، وعلى أي حال بدأ في استخدامها حين أطلقت نيران البنادق في عام ١٩١٤ لكن العبارات التي جدولتها آنفاً تشترك كلها بكونها عبارات يتفوه بها المرء بشيء من السخرية (كما هو الحال في "لأنني سأكون ملكة أيار يا أمي، أنا سأكون ملكة أيار" وسيعتاد عليها عاجلاً أم آجلاً. لا شيء يمكنه أن يتخطى احتقار ذا نيوستيتسمان مثل كيلينغ، لكن كم هي المرات الكثيرة التي وجدت فيها ذا نيوستيتسمان نفسها تقتبس تلك العبارة أثناء فترة ميونيخ حول سداد ضريبة التاج الدانماركية[⁕]؟ الحقيقة أن كيلينغ بمعزل عن حكمته الخفيفة وموهبته في حشو الكثير من الصور المثيرة الرخيصة في بضع كلمات ("نخيل وصنوبر" و"شرق السويس" و"الطريق إلى ماندالي") يتحدث بصدق عن أشياء كانت ذات اهتمام ملح. وليس مهماً من وجهة النظر هذه أن يجد الأشخاص المفكرون والمحترمون عموماً أنفسهم في الجانب الآخر من السياج عنه. إن عبارة "عبء الرجل الأبيض" تستحضر على الفور مشكلة حقيقية، حتى لو شعر المرء أنها كان ينبغي أن تُبدل إلى "عبء الرجل الأسود". قد لا يتفق المرء مع الموقف السياسي المتضمن في "ساكني الجزر"، لكنه لا يستطيع القول إنه موقف تافه. يتعامل كيلينغ بأفكار دارجة ودائمة، وهذا يثير الشك في مكانته المميزة كشاعر أو كاتب كلام منظوم.

[⁕] في الصفحة الأولى من كتابه الأخير آدم وحواء يقتبس السيد ميدلتون موراي الأبيات الشهيرة:

هناك تسعة وستون طريقة/ لبناء الأوكار القبلية/ وكل واحدة منها صحيحة.

هو ينسب هذه الأبيات إلى ثاكري، وهذا ما يعرف بـ"الخطأ الفرويدي". إن الشخص المتحضر لا يفضل أن يقتبس كيلينغ - أي أنه يفضل ألا يحس بأن كيلينغ عبر عن هذه الفكرة من أجله. (ملاحظة المؤلف ١٩٤٥)

يصف السيد إليوت أعمال كيبلينغ العروضية بـ "الكلام المنظوم" وليس "شعراً"، لكنه يضيف أنه كلام منظوم "عظيم"، ويذهب إلى أبعد من ذلك في تحديه، ويقول إن الكاتب لا يوصف بـ"كاتب كلام منظوم عظيم" إذا لم يكن هناك بعض من عمله لا يمكننا القول عنه إنه كلام منظوم أو شعر". من الواضح أن كيبلينغ كان ناظماً (ينقل النثر إلى شعر) يكتب بعض القصائد أحياناً. ومن المثير للشفقة في هذه الحالة أن السيد إليوت لم يعين هذه القصائد بالاسم. المشكلة أنه كلما بدت هناك حاجة إلى حكم فني على أعمال كيبلينغ، يكون السيد إليوت في موقف دفاعي لا يستطيع فيه التكلم ببساطة ووضوح. إن الذي لم يقله ويجب على المرء أن يبدأ بقوله عند مناقشة أعمال كيبلينغ، هو أن أغلب كلام كيبلينغ المنظوم سوقي بشكل فظيع، ويعطي المرء نفس الإحساس الذي يصيبه من مشاهدة عرض موسيقي لمؤدٍ من الدرجة الثالثة يتلو "ضفيرة وو فانغ فو" وأضواء المسرح الأرجوانية على وجهه. ومع ذلك هناك الكثير منه قادر على إمتاع أناس يعرفون ماذا يعني الشعر. في أسوأ قصائده وفي أكثرها حيوية مثل "غونغا دين" أو "داني ديفر" فإن المتعة التي يخلقها كيبلينغ مخزية، تقريباً مثل الولع بحلويات رخيصة يحملها سراً بعض الناس معهم إلى منتصف عمرهم. وحتى مع أفضل مقاطعه، يكون لدى المرء نفس الإحساس بأنه أغري بشيء زائف، ولكنه أغري بشكل لا يرقى إليه الشك. إن لم يكن المرء متعجرفاً وكذاباً، يستحيل أن يقول ما لم يستطع أحد يهتم بالشعر أن يجد متعة في أبيات شعرية كهذه:

لأن الريح في أشجار النخيل/ وأجراس المعبد تقول/ "عودوا أيها الجنود البريطانيون، عودوا إلى ماندالي!"

مع ذلك، فإن هذه الأبيات ليست شعراً بنفس المعنى الشعري لـ"فيليكس راندال" أو "حين تتدلى الكتل الجليدية من الجدار". يستطيع المرء ربما أن يقيم كيبلينغ بشكل مرض أكثر من التلاعب بكلمات "كلام منظوم" و"شعر"، إن وصفه ببساطة كشاعر رديء جيد. إنه شاعر بقدر ما كانت هارييت بيتشر روائية، ومجرد بقاء عمل من هذا النوع والذي أُدرك من قبل جيل بعد جيل بأنه عمل سوقي، ومع ذلك يظل يُقرأ ويخبرنا شيئاً واحداً عن العصر الذي نعيش فيه.

هناك مقدار كبير من الشعر الرديء الجيد في اللغة الإنكليزية، يجب أن أقول، تلا عام ١٧٩٠. أمثلة عن قصائد رديئة جيدة -أنا أختار عمداً قصائد متنوعة- "جسر الحسرات"

و"حين كل العالم صغيراً أيها الغلام" و"مهمة الفرقة الخفيفة" وقصيدة بريت هارت "ديكنز في الخدمة العسكرية" و"دفن السير جون مور" و"جيني ثبلتني" و"كيث رايلستون" و"كازبيانكا". كل هذه الروائح الكريهة من العاطفية المفرطة لكن -ليست هذه القصائد خصوصاً بل القصائد من هذا النوع قادرة على إعطاء متعة حقيقية للناس الذين يستطيعون أن يرووا بوضوح الخطأ الذي فيها. يستطيع المرء أن يملأ مقتطفات أدبية من الحجم المناسب بقصائد رديئة جيدة، حتى لو لم يكن ذلك من أجل الحقيقة الهامة بأن الشعر الرديء الجيد عادة مشهور جداً ليكون جديراً بإعادة طبعه.

لا يجدي التظاهر في عصر كعصرنا مثلاً، بأن الشعر "الجيد" يستطيع امتلاك أي شعبية حقيقية. إنه، ويجب أن يكون، محط إعجاب قلة من الناس الأقل تسامحاً مع الفنون. ربما يحتاج ذلك القول إلى قدر معين من التوضيح. يمكن للشعر أن يكون مقبولاً للعدد الأكبر من الناس أحياناً حين يقنع نفسه على أنه شيء آخر. يمكن للمرء أن يرى مثالاً عن هذا في الشعر الشعبي الذي لا تزال إنكلترا تمتلك أشعاراً مقفاة منه تغنى في حجر نوم الأطفال وأشعاراً مقفاة مساعدة للذاكرة مثلاً، والأغاني التي يؤلفها الجنود وتشمل الكلمات التي تترافق من نداءات البوق، لكن عصرنا عموماً حضارة تستحضر فيها مجرد كلمة "شعر" قهقهة عدائية، أو في أفضل الأحوال نوع من الغثيان المجمد الذي يشعر به أكثر الناس حين يسمعون كلمة "رب"

إن كنت تتقن العزف على الأوكورديون، فربما تستطيع الدخول إلى أقرب مشرب عام وتجمع لنفسك حضوراً معجباً من المستمعين خلال خمس دقائق، لكن كيف يكون موقف نفس الحضور لو اقترحت أن تقرأ لهم قصائد (سونيتات) شكسبير؟ لكن الشعر الرديء الجيد يستطيع أن يصل إلى المستمعين غير الواعدين إن هُيئ له الجو مسبقاً. قبل بعضة شهور أنتج تشرشل أثراً عظيماً باقتباس "مسعى" كلوف في واحد من خطاباته الإذاعية. استمعت إلى هذا الخطاب وسط أناس لا يمكن بالتأكيد اتهامهم بالاهتمام بالشعر، وأنا مقتنع بأن الزلة في الشعر انطبعت في أذهانهم ولم تربكهم، لكن حتى تشرشل نفسه لم يكن يستطيع النجاة والإفلات بها لو أنه اقتبس شيئاً أفضل من هذا.

كان كيبلينغ محبوباً، وربما لازال بالقدر الأقصى الذي يمكن لكاتب الشعر أن يكونه وتجاوزت في حياته بعضاً من قصائده الشعب القارئ بكثير وأيام الجوائز المدرسية وأغاني

صبيان الكشافة والطبعات ذات الأغلفة الجلدية اللينة والتقاويم، ووصلت إلى الخارج، إلى عالم القاعات الموسيقية الأوسع. على الرغم من هذا، يعتقد السيد إليوت بأهمية تحرير كتابات كيبلينغ، وبهذا إقرار بذوق يتشارك فيه آخرون، لكنه ليس صادقاً بها يكفي لذكره دائماً. أن يستطيع شعر رديء جيد من البقاء والتواجد، فهذا علامة عن التشابك العاطفي بين المثقف والرجل العادي في الحقيقة. إن المثقف يختلف عن الرجل العادي، لكن في مقاطع محددة من شخصيته فقط وحتى آنئذ ليس دائماً. لكن ما هي ميزة القصيدة الرديئة الجيدة؟ القصيدة الرديئة الجيدة هي نصب تذكاري جميل للواضح، وهي تسجل بشكل يمكن تذكره- في الشعر أداة تساعد على التذكر من بين أشياء أخرى- عاطفة ما يستطيع كل كائن بشري المشاركة فيها. إن قيمة قصيدة مثل "حين يكون العالم كله صغيراً أيها الصبي" بكون عاطفيتها "حقيقية" بغض النظر عن درجة عاطفيتها الزائدة، بمعنى أنك ملزم بأن تجد نفسك تفكر بالفكرة التي تعبر عنها عاجلاً أو آجلاً، ثم إن صدف وعرفت القصيدة، ستعود إلى ذهنك وتبدو لك أفضل مما كانت من قبل. هذا النوع من القصائد نوع من الأمثال المقفاة. والحقيقة أن الشعر الشعبي يُكثر من المواعظ والأقوال المأثورة. مثال واحد من كيبلينغ يكفي:

يدان بيضاوان تتشبثان بسير اللجام/ ينزلق المهماز من الحذاء الرافس/ أحن الأصوات تصرخ "در ثانية!"/ شفاه حمر تلطخ السيف الفولاذي المغمد/ إما سقوط إلى جيهينا (جهنم) أو سمو إلى العرش/ يرتحل أسرع من يرتحل لوحده.

هذه فكرة سوقية عُبّر عنها بقوة ربما تكون صحيحة، لكنها في كافة الأحوال فكرة يفكر بها كل واحد وعاجلاً أم آجلاً ستتاح لك الفرصة لتشعر أن المسافر الأسرع هو من يسافر لوحده، والفكرة هناك جاهزة مسبقاً في انتظارك وكذلك الفرص، فبمجرد أن تسمع هذا البيت الشعري سوف تتذكره.

هناك سبب واحد لقوة كيبلينغ كشاعر رديء جيد اقترحته مسبقاً، وهو شعوره بالمسؤولية التي مكنته من أن تكون لديه نظرة عالمية حتى ولو كانت زائفة. كان كيبلينغ محافظاً رغم أنه لم يكن على علاقة مباشرة مع أي حزب سياسي، وهذا شيء لا تجده في هذه الأيام. فهؤلاء الذين يدعون أنفسهم محافظين، هم إما ليبراليون أو فاشيون أو متواطئون مع الفاشيين وشركاء لهم. إنه يربط نفسه مع السلطة الحاكمة ويؤيدها، وليس مع المعارضة. وهذا يبدو غريباً لنا بل

ومقززاً حتى في الكاتب الموهوب، لكن كان له الفضل في إعطاء كيبلينغ فهماً معيناً للواقع. إن السلطة الحاكمة يواجهها دائماً السؤال "ماذا ستفعلين في ظروف كذا وكذا؟" بينما المعارضة ليست ملزمة بتولي المسؤولية أو اتخاذ أي قرارات حقيقية. إن كانت معارضة دائمة وتتلقى منحاً حكومية كما في إنكلترا، فإن نوعية فكرها ستتلف بالنتيجة. بل أكثر من ذلك، إن كل من يباشر في نظرة تشاؤمية ورجعية للحياة عرضة لأن تبررها الأحداث، لأن المدينة الفاضلة لن تصل أبداً و"آلهة عناوين الدفاتر" كما يسميهم كيبلينغ يعودون دائماً. باع كيبلينغ نفسه للطبقة الحاكمة البريطانية ليس مالياً وإنما عاطفياً، وهذا شوه رأيه السياسي وحكمه، لأن الطبقة الحاكمة البريطانية لم تكن كما تخيلها، وقادته إلى لجج الحماقة والغطرسة، لكنه كسب فائدة موازية في أنه حاول تخيل كيف يكون الفعل والمسؤولية. شيء عظيم لصالحه أنه لم يكن سريع البديهة وذكياً، ولم يكن جريئاً وليست لديه رغبة في إدهاش البورجوازيين. لقد تعامل مع الملاحظات المبتذلة. وبما أننا نعيش في عالم من التفاهة والابتذال، علق الكثير مما قاله في الأذهان. إن أسوأ حماقاته تبدو أقل ضحالة وأقل إثارة للغضب من العبارات "التنويرية" المتداولة بنفس الفترة، مثل حكم وايلد ومواعظه الساخرة أو مجموعة الشعارات النارية الكاذبة في نهاية الإنسان والإنسان الخارق.

ليـر وتولستوي والمهرج

إن كراسات تولستوي هي الجزء الأقل شهرة في أعماله، والوثيقة التي هاجم شكسبير فيها ليس من السهل العثور على ترجمة إنكليزية لها بأي شكل. لذلك ربما من المفيد لو أعطيت ملخصاً للكراس قبل محاولة مناقشته. الكراس بعنوان شكسبير والدراما.

كتبت في عام ١٩٠٣ تقريباً كمقدمة لكراس آخر شكسبير والطبقة العاملة، بقلم إيرنست كروسبي، (ملاحظة المؤلف).

يبدأ تولستوي بالقول إن شكسبير أثار فيه "نفوراً ضجراً لا يقاوم" خلال حياته وبسبب إدراكه لرأي العالم المتمدن المعارض لرأيه، قام بمحاولات الواحدة تلو الأخرى بخصوص أعمال شكسبير، فقرأها وأعاد قراءتها بالروسية والإنكليزية والألمانية، لكن "مررت بشكل ثابت بنفس المشاعر من النفور والضجر والارتباك". والآن وهو في عمر الخامسة والسبعين، يقول إنه قرأ مرة أخرى الأعمال الكاملة لشكسبير بما فيها مسرحياته التاريخية، وشعر وبقوة أكبر بنفس المشاعر- لكن هذه المرة ليس من الحيرة وإنما من قناعة ثابتة أن المجد الذي نعم به شكسبير كعبقري عظيم لا يرقى إليه الشك والذي أجبر كتاباً من عصرنا على تقليده وقراء ومتفرجين على اكتشاف فضائل غير موجودة فيه- وبذلك شوه فهمهم الجمالي والأخلاقي - شر عظيم مثله مثل أي كذبة.

ويضيف تولستوي إن شكسبير ليس غير عبقري فقط، وإنما ليس "مؤلفاً عادياً حتى"، ولكي يثبت هذا سوف يدرس مسرحية الملك لير التي كما ظهر من اقتباساته لهازليت وبرانديس وآخرين غيرهما، التي مُجدت بإسراف، ويمكن أخذها مثالاً عن أفضل أعمال شكسبير.

ثم يقوم تولستوي بعرض وتفسير لحبكة الملك لير، ويجدها في كل مرحلة غبية ومطنبة وغير طبيعية وغير مفهومة ومنمقة ومبتذلة ومملة ومليئة بأحداث لا تصدق، "هذيانات جامحة" و"دعابات غير مرحة" ومفارقات تاريخية وأشياء لا علاقة بينها وفواحش وتقاليد مسرحية بالية وأخطاء أخلاقية وجمالية أخرى. لير في أي حال، هو انتحال من مسرحية أسبق

وأفضل بكثير كتبها مؤلف مجهول وسرقها شكسبير ومن ثم خربها. يجدر اقتباس فقرة كنموذج لتوضيح الطريقة التي ذهب فيها تولستوي في عمله. الفصل الثالث المشهد الثاني الذي فيه لير وكنت والبهلول معاً في العاصفة) ملخصة بالشكل التالي:

يتمشى لير في أرض بور ويقول كلاماً القصد منه التعبير عن يأسه: هو يتمنى أن تعصف الريح بقوة لكي تكسر وتسحق وجناتهم والمطر ليغمر كل شيء، والبرق لكي يحرق لحيته البيضاء، والرعد ليسوي العالم بالتراب ويدمر كل البذور "التي تخلق الإنسان العاق"! يستمر البهلول في التلفظ بكلمات فارغة أكثر. يدخل كنت: لير يقول إنه لسبب ما أثناء هذه العاصفة سوف يُكتشف كل المجرمين ويحاكموا. يحاول كنت الذي لازال غير معروف من لير إقناعه بأن يلوذ في كوخ. في هذه النقطة ينطق البهلول بنبوءة لا صلة لها بالوضع بأي شكل ويفترقون كلهم.

إن حكم تولستوي النهائي على لير، هو حكم لا يستطيع مراقب غير منوم مغناطيسياً إن وجد ذلك النوع من المراقبين، أن يقرأه إلى النهاية بأي شعور سوى "المقت والسأم". والمثل صحيح بالضبط في "كل مسرحيات شكسبير الممجدة الأخرى من دون ذكر الحكايات التي لا معنى لها المسرحة بيركليس والليلة الثانية عشرة والعاصفة وسيمبلين وترويلوس وكريسيدا"

بعد أن اهتم بلير، يشهر تولستوي تهمة عامة أخرى ضد شكسبير. يجد أن شكسبير لديه مهارة فنية محددة يعود أصلها جزئياً إلى كونه ممثلاً، ولولاها لما كانت لديه أي جدارة. ليس لديه قدرة على رسم الشخصية أو صياغة الكلمات، والأفعال تثب بشكل طبيعي من الأوضاع، ولغته مبالغ فيها وسخيفة بشكل منتظم، ويقحم دائماً أفكاره العشوائية الخاصة به في فم أي شخصية تكون في متناوله، ويظهر "غياباً تاماً للشعور الجمالي" وكلماته "ليس فيها أي شبه بالفن والشعر".

يختم تولستوي قائلاً: "كان بإمكان شكسبير أن يكون أي شيء تحب، لكنه لم يكن فناناً" إضافة إلى ذلك لم تكن آراؤه أصيلة أو مشوقة، وميله "من النوع المنحط جداً والفاسق جداً. من اللافت أن تولستوي لم يؤسس هذه الحكم على الكلام الذي تفوه به شكسبير، وإنما على إفادات اثنين من النقاد جيرفينوس وبراندیس. بناءً على جيرفينوس (أو بقراءة تولستوي

لجريفنوس) "تلقن شكسبير.... بأن الشخص يمكن أن يكون طيباً جداً"، بينما حسب برانديس: "مبدأ شكسبير الأساسي...... هو الغاية تبرر الوسيلة. يضيف تولستوي على مسؤوليته أن شكسبير كان وطنياً متطرفاً من أسوأ الأنماط، وبالإضافة إلى هذا يعتبر أن جيرفينوس وبرانديس قدما وصفاً حقيقياً ووافياً لوجهة نظر شكسبير في الحياة.

بعد ذلك يلخص تولستوي في بضع فقرات، النظرية الفنية التي عبر عنها بشكل مطول في مكان آخر، ولكنها تظل قصيرة وترقى رغم اختصاره الأكبر لها إلى مطالبة بنبل الموضوع الأساسي والصدق والحرفية. إن العمل الفني الكبير يجب أن يعالج موضوعاً "مهماً للحياة البشرية" ويجب أن يعبر عن شيء يحس به المؤلف بصدق، ويجب أن يستخدم الأساليب الفنية التي تنتج التأثير المرغوب. بما أن شكسبير كان منحطاً في وجهة نظره ومهملاً في تنفيذه وعاجزاً عن أن يكون مخلصاً ولو للحظة واحدة، فإنه مدان بشكل واضح.

لكن يبرز هنا سؤال صعب. إن كان شكسبير كما أظهره تولستوي، فكيف نال إعجاب الجميع؟ من الواضح أن الجواب يكمن فقط في نوع من التنويم المغناطيسي الجماهيري أو "إيحاء وبائي". لقد ضُلل العالم المتمدن كله بشكل ما ليعتقد أن شكسبير كاتب جيد، لدرجة أن أوضح الإثباتات لنقض ذلك الاعتقاد لا تؤثر ولا تحدث أي انطباع، لأن المرء لا يتعامل مع رأي صواب ومبرر، وإنما مع شيء أقرب إلى الإيمان الديني. يقول تولستوي إنه عبر التاريخ كانت هناك سلسلة لانهائية من هذه "الإيحاءات الوبائية الشائعة" -مثل الصليبيين والبحث عن حجر الفلاسفة والجنون بزراعة الخزامى الذي اكتسح هولندا سابقاً وهكذا. وكمثال معاصر يورد بشكل ملحوظ قضية دريفوس التي هيجت العالم كله بعنف دون مبرر كافٍ. هناك أيضاً حالات جنون قصيرة الأمد بالنظريات السياسية والفلسفية الجديدة أو بهذا أو ذاك الكاتب أو الفنان أو العالم كداروين مثلاً الذي (في ١٩٠٣) "بدأ يُنسى" وفي بعض الحالات قد يبقى أحد المعبودين الشعبيين التافهين مفضلاً ومقبولاً تماماً لمدة قرون. و"يحدث أن تكون حالات الجنون التي تظهر نتيجة لأسباب خاصة تفضل مؤسستها مصادفة وتتوافق بدرجة ما مع وجهات نظر حياتية في المجتمع". استمرت مسرحيات شكسبير بنيل الإعجاب خلال فترة زمنية طويلة لأنها "توافقت وتطابقت مع الإطار اللاديني واللاأخلاقي لعقلية الطبقات العليا في عصره وفي عصرنا".

ويفسر تولستوي الطريقة التي بدأت فيها شهرة شكسبير بأنها "صعدت" بواسطة أساتذة ألمان في حوالي نهاية القرن الثامن عشر. إن صيته "نشأ في ألمانيا ومن هناك انتقل إلى إنكلترا" اختار الألمان رفع شأن شكسبير لأنهم عاشوا في زمن لم تكن فيه دراما ألمانية تستحق الذكر، وكان الأدب الكلاسيكي الفرنسي فاتراً ومصطنعاً، فافتتنوا "بتطوير شكسبير الذكي للمناظر المسرحية" ووجدوا فيه أيضاً تعبيراً جيداً عن موقفهم الخاص تجاه الحياة. لقد صرح غوته بأن شكسبير شاعر عظيم، وبناء على ذلك احتشد النقاد الآخرون خلفه مثل سرب من الببغاوات، واستمر الافتتان العام منذ ذلك الحين، وكانت النتيجة انحطاطاً أكبر في الدراما - تولستوي حريص أن يشمل مسرحياته الخاصة به حين اتهم المسرح المعاصر - وفساداً أكبر في النظرة الأخلاقية السائدة، وفي النتيجة إن "التمجيد الزائف لشكسبير" شر هام، شعر تولستوي أن من واجبه مقارعته.

هذا هو جوهر كراسة تولستوي إذاً. إن الشعور الأول الذي يحس به المرء تجاه شخص يصف شكسبير ككاتب رديء، هو أن هذا الشخص يقول شيئاً غير صحيح وغير حقيقي بشكل واضح. لكن الحالة ليست هذه، ففي الواقع ليس هناك أي دليل أو حجة يستطيع شكسبير أو كاتب آخر أن يبين بواسطتها أنه كاتب "جيد"، وبالمثل ليس هناك أي طريقة تثبت دون ريب أن ورويك بيبينغ "رديء". أخيراً ليس هناك اختبار -مثلاً- للجدارة الأدبية سوى البقاء الذي هو مؤشر بحد ذاته عن رأي الأغلبية. إن النظريات الفنية كنظرية تولستوي لا قيمة لها بتاتاً، ليس لأنها تنطلق من افتراضات اعتباطية فقط، وإنما لأنها تعتمد على مصطلحات غامضة أيضاً مثل ("خاص" و"هام" وهلم جرا) يمكن تفسيرها بالطريقة التي يختارها الشخص. للتكلم كما ينبغي لا يستطيع المرء الرد على هجوم تولستوي. السؤال المشوق هو: لماذا قام بفعلته هذه؟ لكن يجب أن يُلاحظ وبشكل عابر أنه استخدم حججاً كثيرة ضعيفة أو كاذبة، والبعض منها جدير بالتنويه، ليس لأنها تبطل تهمته الأساسية، وإنما لأنها دليل على الحقد كما يقال.

بداية، إن دراسته للملك لير ليست "نزيهة ومحايدة" كما زعم ذلك مرتين، فعلى العكس كانت تدريباً مطولاً في تشويه الحقائق والتحريف. من الواضح أنه حين تلخص الملك لير لفائدة أحد لم يقرأها، فأنت لست محايداً حقيقة حين تقدم خطاباً مهماً (خطاب لير حين تكون

كورديليا ميتة بين ذراعيه) بهذه الطريقة: "مرة أخرى تبدأ هذيانات لير البغيضة التي تشعر المرء بالخزي كما في الدعابات الفاشلة" وفي سلسلة طويلة من الأمثلة، يتبدل تولستوي قليلاً أو يلون المقاطع التي ينتقدها بطريقة محددة دائماً يظهر فيها أن الحبكة معقدة وبعيدة الاحتمال، أو أن اللغة مبالغ بها. مثال على ذلك، نحن نعلم أن لير "ليس لديه حاجة أو حافز للتنازل عن العرش" بالرغم أن مبرره للتنازل (بأنه عجوز ويرغب في التقاعد من هموم الدولة) مشار إليه بوضوح في المشهد الأول. سيتبين حتى في المقطع الذي اقتبسته آنفاً أن تولستوي أساء فهم عبارة واحدة عمداً وبدّل معناها بأخر متجاهلاً الملاحظة المعقولة والصائبة في سياقها. ليست أي من هذه القراءات الخاطئة ثقلاً كبيراً بحد ذاتها، لكن أثرها التراكمي يكمن في تضخيم التنافر والتفكك النفسي للمسرحية. مرة أخرى تولستوي عاجز عن تفسير لماذا لا تزال مسرحيات شكسبير تُطبع وتُمثل على المسرح بعد مائتي سنة من وفاته (قبل أن يبدأ "الإيحاء الوبائي")؛ وسرده الكامل عن صعود شكسبير للشهرة هو تخمين تمزقه بيانات كاذبة تماماً. ومرة أخرى إن الكثير من اتهاماته تناقض بعضها البعض: مثلاً شكسبير مجرد ممثل هزلي و"ليس جاداً" ومن جانب آخر يضع أفكاره الخاصة به في أفواه شخصياته دائماً. في المجمل من الصعب أن تشعر أن انتقادات تولستوي تنم عن نية حسنة. بأي حال من المستحيل عليه أن يؤمن تماماً بفرضيته الأساسية بأن العالم المتمدن كله انخدع بكذبة هائلة صريحة لقرن أو أكثر ولم يقدر أن يكتشفها أحد غيره. من المؤكد أن كرهه لشكسبير حقيقي تماماً، لكن أسباب ذلك الكره قد تكون مختلفة أو مختلفة جزئياً عما يجهر به، وهنا تكمن أهمية الكراسة.

في هذه النقطة يُجبر المرء على البدء في التخمين. لكن هناك مفتاحاً واحداً ممكناً على كل حال، أو على الأقل هناك سؤال ربما يلمح إلى طريق يؤدي إلى مفتاح وهو: لماذا انتقى تولستوي الملك لير من بين أكثر من ثلاثين مسرحية متاحة للاختيار كهدف لبحثه؟ صحيح أن لير مشهورة جيداً ونالت الكثير من المديح لدرجة يمكنها أن تؤخذ أنموذجاً ومثلاً عن أفضل أعمال شكسبير، لكن اختار تولستوي المسرحية التي كرهها أكثر من غيرها من أجل تحليل عدائي. ألا يحتمل أنه حمل عداوة خاصة نحو مسرحية محددة، لأنه كان مدركاً شعورياً أو لاشعورياً بالتشابه بين قصة لير وقصته هو؟ لكن من الأفضل مقاربة هذا المفتاح من الجهة المعاكسة -أي بدراسة لير نفسها والمزايا فيها التي فشل تولستوي في ذكرها.

أحد الأشياء الأولى التي سيلاحظها القارئ الإنكليزي في كراسة تولستوي، أنها نادراً ما تتعامل مع شكسبير كشاعر. عومل شكسبير ككاتب مسرحي، وكانت شعبيته غير المزيفة كما أُعتقد بفضل الخدع المسرحية التي وفرت فرصاً جيدة لممثلين بارعين. الآن إن هذا الادعاء غير صحيح، ففي كل البلدان الناطقة بالإنكليزية حظيت المسرحيات العديدة، التي لم تمثل أبداً أو نادراً، بأكبر تقدير من عشاق شكسبير "كتيمون الأثيني مثلاً"، بينما حظيت بعض من مسرحياته الأكثر تمثيلاً على المسرح كمسرحية حلم ليلة في منتصف الصيف بأقل إعجاب. هؤلاء الذين اهتموا بشكسبير كثيراً يجلونه في المقام الأول لاستخدامه للغة "الموسيقى اللفظية" التي اعترف ناقد عدائي آخر هو برنارد شو بأنها "لا تقاوم". إن تولستوي يتجاهل هذا، ولا يبدو أنه يدرك أن القصيدة تمتلك قيمة خاصة ومميزة عند هؤلاء الذين يتكلمون اللغة التي كتبت فيها تلك القصيدة. لكن حتى لو وضع المرء نفسه في مكان تولستوي، وحاول أن يعتبر شكسبير شاعراً أجنبياً، لبقي هناك شيء ما واضح حذفه تولستوي. إن الشعر كما يبدو ليس مسألة صوت وتداعي أفكار ومعاني فقط تافهة ولا قيمة لها خارج مجموعته اللغوية الخاصة به: وإلا كيف نجحت بعض القصائد التي كتبت بلغات ميتة في عبور الحدود؟ من الواضح أنه لا يمكن ترجمة قصيدة غنائية كشعر غنائي مثل "غداً عيد القديس فالانتاين" بشكل مسر، لكن في أعمال شكسبير الرئيسية هناك شيء يمكن وصفه كشعر، يمكن فصله عن الكلمات. تولستوي محق في قوله بأن لير ليست مسرحية جيدة جداً كمسرحية. هي مطولة جداً وفيها عدد كبير من الشخصيات والحبكات الثانوية. ابنة شريرة واحدة كانت تكفي وإيدغار شخصية زائدة: وفي الحقيقة كانت ستكون مسرحية أفضل لو أُزيل غلوستر وولداه. لكن بالرغم من ذلك ربما ينجو أنموذج ما أو جو من المضاعفات والفقرات المملة. يمكن تخيل لير كعرض دمى أو مسرحية إيمائية أو رقصة باليه أو سلسلة من الصور. إن الجزء الجوهري والأهم من شعرها متأصل في القصة ولازم لها ولا يعتمد على أي مجموعة محددة من الكلمات، ولا على العرض المسرحي الحي.

أغلق عينيك وفكر بالملك لير من دون استدعاء أي حوار للذهن إن أمكن. ما الذي تراه؟ هذا ما أراه في كافة الأحوال؛ رجل عجوز مهيب في عباءة طويلة سوداء مع شعر أبيض منساب ولحية، شخصية من رسومات بليك (لكن أيضاً وبغرابة كافية مثل تولستوي) يهيم في

عاصفة ويلعن السماوات [illegible] بهلول ومجذوب. وعلى الفور يتبدل المشهد والرجل العجوز لازال يلعن ولازال لا يفقه شيئاً، يحمل طفلة ميتة بين ذراعيه والبهلول يتدلى على مشنقة في مكان ما في الخلفية. هذا هو الهيكل المجرد للمسرحية، وحتى هنا يريد تولستوي أن يقتطع أكثر ما هو جوهري. هو يعترض على العاصفة بأنها غير ضرورية وعلى البهلول الذي يراه إزعاجاً مضجراً بوضوح وعذراً لإلقاء دعابات رديئة، ويعترض على موت كورديليا الذي كما يراه يسرق المسرحية من مغزاها. بالنسبة إلى تولستوي، المسرحية الأسبق الملك لير التي عدلها شكسبير، تنتهي بشكل طبيعي وبتوافق مع المطالب الأخلاقية للمتفرج أكثر مما تفعله مسرحية شكسبير، أي بتغلب ملك بلاد الغال على زوجي الأختين الكبيرتين، وكورديليا التي بدلاً من أن تُقتل تعيد لير إلى وضعه السابق.

بعبارة أخرى، كان ينبغي بالتراجيديا (المأساة) أن تكون الكوميديا (الملهاة) أو ربما ميلودراما، ويُشك إن كان معنى المأساة ينسجم مع الإيمان بالرب: على أي حال إنها لا تنسجم مع الكفر بالكرامة الإنسانية ومع نوع "الطلب الأخلاقي" الذي يشعر بأنه خُدع حين تفشل الفضيلة في الانتصار. إن الوضع المأساوي يتواجد بالضبط حين لا تنتصر الفضيلة فحسب، وإنما أيضاً حين يظل الشعور بأن الإنسان أنبل من القوى التي دمرته. ربما الأكثر أهمية أن تولستوي لا يرى أي مبرر لوجود البهلول. إن البهلول متمم للمسرحية، وهو ليس نوعاً من الكورس يجعل الوضع المركزي أوضح بالتعليق عليه بطريقة أكثر ذكاء من الشخصيات الأخرى فحسب، وإنما كنقيض شفاف يظهر نوبات لير المجنونة. إن دعاباته وأحاجيه وفتات كلامه المقفى ونبشه اللانهائي في حماقة لير النبيلة، تتدرج من السخرية المحضة إلى نوع من الشعر السوداوي "كل الألقاب الأخرى التي تخليت عنها والتي ولدت معها" مثل مجرى ضحل من سلامة العقل يجري عبر المسرحية، ومذكر يذكر في مكان ما أو آخر أن الحياة مستمرة كالمعتاد إلى حد كبير، رغم أعمال الظلم والوحشية والمؤامرات والخداع وسوء الفهم التي جرى تمثيلها هنا. إن نفاد صبر تولستوي من البهلول، يوفر لمحة سريعة عن نزاعه العميق مع شكسبير، فهو يعارض مع بعض التبرير رثاثة مسرحيات شكسبير وعدم تعلق الأشياء ببعضها والمكائد التي لا تصدق واللغة المبالغ بها: لكن ما يكرهه أكثر ومن الصميم، هو نوع من الحيوية والفرح ونزعة -لعدم الأخذ بالكثير من المتعة كاهتمام في الصيرورة الفعلية للحياة.

من الخطأ التغاضي عن تولستوي كأستاذ في علم الأخلاق يهاجم فناناً. هو لم يقل أبداً إن الفن شرير ولا معنى له مثلاً، ولم يقل إن البراعة الفنية الفائقة غير مهمة، ولكن كان هدفه الرئيسي في سنواته الأخيرة تضييق مدى الوعي الإنساني، ويجب أن تكون اهتمامات المرء ونقاط ارتباطه بالعالم المادي والصراع اليومي قليلة وليست كثيرة ما أمكن، ويجب أن يتألف الأدب من حكايات رمزية ذات معنى أخلاقي مجردة من التفصيل ومستقلة عن اللغة تقريباً. يختلف تولستوي في نظرته للحكايات الرمزية عن البيوريتاني المبتذل العادي، ويرى أنها يجب أن تكون بحد ذاتها أعمالاً فنية، لكن يجب إقصاء المتعة والفضول منها، وأيضاً يجب أن يُكتشف العلم من حب الاستطلاع والفضول. ويقول إن عمل العلم ليس اكتشاف ما يحدث، وإنما تعليم الرجال كيف يجب أن يعيشوا، وكذلك الأمر مع التاريخ وعلم السياسة. ويرى أن هناك مشاكل كثيرة (كقضية دريفوس مثلاً) لا تستحق الحل ببساطة، ويرغب في تركها كنهايات رخوة. في الواقع إن نظريته كلها عن "الجنون" أو "الإيحاءات الوبائية" التي يكوم فيها أشياء مثل الصليبيين وشغف الهولنديين بزراعة الخزامى، تبين رغبته في اعتبار نشاطات إنسانية كثيرة بأنها مجرد اندفاعات نملية إلى الأمام وإلى الخلف غير مفسرة وغير مشوقة. ومن الواضح أنه ليس لديه الصبر على كاتب مشوش ومغرق في التفاصيل واستطرادي مثل شكسبير. وكان رد فعله رد فعل رجل عجوز سريع الاهتياج ضايقه طفل كثير الضجيج. "لماذا تواصل الوثب نحو الأعلى والأسفل مثل ذلك؟ لماذا لا تستطيع الجلوس ساكناً كما أفعل؟ بطريقة ما، فإن الرجل العجوز على حق، لكن المشكلة أن ذلك الطفل لديه إحساس في أطرافه فقده الرجل العجوز، ولو عرف العجوز بوجود هذا الإحساس، لكانت النتيجة مجرد زيادة في إزعاجه: سيجعل الطفل شيخاً إن استطاع. ربما لا يعرف تولستوي ما الذي فقده بالضبط في شكسبير، لكنه يدرك أنه ضيّع شيئاً، وهو مصمم أن يحرم الآخرين منه أيضاً. كان تولستوي مستبداً وأنانياً بطبيعته، وبعد أن أصبح ناضجاً وكبيراً، ظل يضرب خدمه أحياناً في لحظات الغضب، وفي وقت متأخر حسب ما جاء عن كاتب سير إنكليزي يدعى ديريك ليون، شعر "برغبة تراوده بضرب وجوه الذين يختلف معهم بعد أوهى استفزاز". لا يتخلص المرء بالضرورة من هذا النوع من المزاج الحساس بتحوله إلى مذهب ديني جديد واعتناقه. وفي الحقيقة من الواضح أن ذلك الوهم في الانبعاث بعد الموت، ربما يسمح لرذائل

المرء الأصلية في الازدهار بحرية أكثر مما سبق، لكن بأشكال أخبث وأمكر. كان تولستوي قادراً على شجب العنف الجسدي وإدراك ما يتضمنه، لكنه لم يكن قادراً على التسامح أو التواضع. وحتى لو لم يكن المرء يعرف أي شيء عن كتاباته الأخرى، فإنه يستطيع استنتاج ميله نحو التنمر الروحي من كراس واحد.

على كل حال، لا يحاول تولستوي أن يسرق الآخرين من متعة لم يشاركهم فيها فقط. هو يفعل ذلك، لكن نزاعه مع شكسبير أبعد من ذلك. إنه النزاع بين الموقفين الديني والإنساني من الحياة. وهنا يعود المرء إلى الموضوع المركزي للملك لير، الذي لم يذكره تولستوي، رغم أنه عرض الحبكة في بعض التفصيل.

لير واحدة من مسرحيات شكسبير التي تدور حول شيء ما بوضوح. يتذمر تولستوي من الهراء الكثير الذي كتب عن شكسبير كفيلسوف وكعالم نفساني وكـ "معلم أخلاقي عظيم" وغيره. لم يكن شكسبير مفكراً ممنهجاً، وأهم أفكاره قيلت بغير اتصال بالموضوع وبشكل غير مباشر، ولا نعرف إلى أي مدى كان يكتب بـ "هدف" أو حتى كم كتب بنفسه فعلياً من العمل الذي نسب إليه، وهو لم يشر في قصائده (السونيتات) أبداً إلى مسرحياته كجزء من إنجازه، رغم أنه قام بتلميح شبه خجول على ما يبدو إلى مهنته كممثل. من الممكن تماماً أنه نظر إلى نصف مسرحياته على الأقل على أنها مجرد أعمال أدبية رخيصة غرضها المال، ونادراً ما اهتم بالغرض أو الأرجح طالما استطاع ترقيع شيء ما على عجل، من مواد مسروقة عادة تتناسق تقريباً على خشبة المسرح. لكن القصة الكاملة ليست تلك. بداية، كما يشير لتولستوي نفسه، فإن شكسبير لديه عادة إقحام الانعكاسات العامة غير المطلوبة في أفواه شخصياته. هذا خطأ فادح عند الكاتب المسرحي، لكنه لا يتلاءم مع صورة شكسبير التي رسمها له تولستوي ككاتب مأجور مبتذل ليس لديه آراء خاصة به، ويرغب فقط في إنتاج أعظم أثر بأقل عناء. والأكثر من هذا أن دزينة من مسرحياته التي كُتبت بعد عام ١٦٠٠ تمتلك بلا ريب معنى ومغزى أخلاقي أيضاً، فهي تدور حول موضوع مركزي يمكن تقليله إلى كلمة واحدة في بعض الحالات، فمثلاً مكبث عن الطموح، وعطيل عن الغيرة، وتيمون الأثيني عن النقود. إن موضوع لير هو التخلي عن ملك أو حق، ولا يستطيع المرء أن يخفق في فهم ما يقوله شكسبير إلا بالتعامي المقصود.

تخلى لير عن عرشه، لكنه توقع من الجميع أن يستمروا في معاملته كملك، ولم ير أنه إن تنازل عن السلطة، فسيغتنم الناس فرصة ضعفه، وأن هؤلاء الذين داهنوه وتملقوه بشكل فاضح مثل ريغان وغونريل، هم بالضبط الذين انقلبوا ضده. في اللحظة التي يجد فيها أنه لم يعد يستطيع حمل الناس على طاعته، كما كان يفعل سابقاً، تصيبه سورة من الهياج، يصفها تولستوي بـ "غريبة وغير طبيعية"، لكنها في الحقيقة أنموذجية وملائمة تماماً. ففي جنونه وقنوطه يمر بمزاجين طبيعيين تماماً في ظروفه، لكن ربما استخدم أحدهما جزئياً كناطق بآراء شكسبير الخاصة. الأول مزاج الاشمئزاز الذي تاب فيه لير، لأنه كان ملكاً، وأدرك للمرة الأولى حقارة العدالة الرسمية والمبادئ الأخلاقية المبتذلة، والآخر مزاج من الغضب الشديد العاجز الذي ينزل بواسطته أعمالاً انتقامية خيالية بهؤلاء الذين ظلموه وأخطؤوا بحقه. "أن يملك ألف بصاق أحمر حارق تنزل فوقهم! وهي تهس" و:

كانت حيلة محكمة أن تكسو فرقة من الخيالة باللباد؛ وسأختبرها؛ وحين أباغت هؤلاء الأصهار عندئذ اقتل، اقتل، اقتل، اقتل، اقتل، اقتل!

ولا يدرك كرجل عاقل إلا في النهاية، أن السلطة والانتقام والانتصار، هي أمور لا تستحق العناء.

كلا، كلا، كلا، كلا! تعال، دعنا نرحل إلى السجن..... وسوف نتآكل في حبس مسور، قطعان وطوائف عظيمة تنجزر وتمتد بالقمر.

وفي الوقت الذي ينجح باكتشافه، يكون الأوان قد فات، لأن موته وموت كورديليا قد تقرر مسبقاً. تلك هي القصة وتسمح ببعض الخرق عند روايتها. إنها قصة جيدة جداً.

لكن أليست هي مشابهة بشكل غريب أيضاً لتاريخ تولستوي نفسه؟ هناك شبه عام لا يستطيع المرء تجنب رؤيته، لأن أكثر حدث مؤثر في حياة تولستوي كما في حياة لير، كان فعل التنازل الضخم وغير المبرر. تولستوي في شيخوخته تخلى عن ملكيته ولقبه وحقوق نشره، وقام بمحاولة لم تكن ناجحة، لكنها صادقة للنجاة من موقعه المتميز والعيش حياة فلاح. لكن الشبه الأعمق يكمن في حقيقة أن تولستوي مثل لير تصرف بناءً على دوافع خاطئة، وفشل في الحصول على النتائج المرجوة. إن هدف كل كائن بشري برأي تولستوي هو السعادة، والسعادة لا يمكن بلوغها إلا بفعل مشيئة الرب، لكن فعل مشيئة الرب يعني نبذ كل المتع

الدنيوية والمطامح والعيش من أجل الآخرين فقط. لذلك اعتزل تولستوي العالم أخيراً، على أمل أن يجعله هذا أكثر سعادة. لكن إن كان هناك شيء واحد مؤكد في سنواته الأخيرة، فهو أنه لم يكن سعيداً، بل على العكس فقد دفعه سلوك الناس الذين حوله إلى حافة الجنون، الناس الذين ضايقوه بالضبط بسبب تنازله عن حقوقه. لم يكن تولستوي متواضعاً أو حكماً جيداً على الأشخاص. كان يميل أحياناً إلى الرجوع إلى مواقف الأرستقراطي رغم ثوبه الفلاحي، وكان لديه طفلان كان قد آمن بهما أيضاً، انقلبا ضده أخيراً، لكن بطريقة أقل إثارة من ريغان وغونيرل طبعاً. وكان اشمئزازه المبالغ به من النشاط الجنسي مشابهاً بوضوح لاشمئزاز شكسبير أيضاً. إن ملاحظة تولستوي بأن الزواج "عبودية وتخمة ونفور" ووسيلة لتحمل قرب "القبح والقذارة والرائحة الكريهة والقروح" يناظرها ثوران لير المشهور:

لكن الآلهة تورث للنساء من بين كل الشياطين تحت المشدات؛ هناك جحيم وهناك ظلام وهناك حفرة كبريتية تلتهب وتحرق، تصدر رائحة نتنة إلخ إلخ.

ورغم ذلك، لم يستطع تولستوي أن يتنبأ بهذا حين كتب مقاله عن شكسبير، وحتى في إنهاء حياته -الفرار المفاجئ وغير المخطط عبر الريف من دون رفقة إلا من ابنته المخلصة، والموت في كوخ في قرية غريبة -يبدو فيه أثر من ذكرى شبحية من لير.

لا يستطيع المرء التسليم بأن تولستوي كان مدركاً لهذا الشبه طبعاً، أو أنه كان سيعترف به لو أُشار به أحد إليه. لكن موقفه تجاه المسرحية يفترض أنه تأثر بموضوعها. إن التخلي عن السلطة والتخلي عن الأراضي كان موضوعاً شعر به بعمق ولديه المبرر في ذلك، لهذا ربما أغضبه المغزى الأخلاقي الذي استدره شكسبير على الأرجح، وأزعجه أكثر من انزعاجه من بعض المسرحيات الأخرى كمكبث مثلاً -التي لم تلامس حياته الخاصة به عن قرب. لكن ما هو بالضبط المغزى الأخلاقي من لير؟ من الواضح وجود مغزيين أخلاقيين؛ واحد صريح والآخر ضمني في القصة.

يبدأ شكسبير بافتراض مفاده أن تجعل نفسك عاجزاً، يعني أن تشجع الهجوم عليك. هذا لا يعني أن كل واحد سينقلب ضدك (كنت والمهرج وقفا إلى جانب لير منذ البداية حتى النهاية) لكن في كل الاحتمالات سيفعل ذلك أحد ما. لو ألقيت أسلحتك سوف يلتقطها شخص موسوس من رتبة أدنى. إن أدرت الخد الآخر ستنال صفعة أقسى عليه من التي نلتها

على الخد الأول. هذا لا يحدث دائماً، لكن يجب توقعه. وينبغي عليك ألا تتشكى إن حدث. الصفعة الثانية هي جزء من فعل إدارة الخد الآخر. لذلك أولاً وقبل كل شيء، هناك المغزى الأخلاقي العادي المنطقي الذي يلفت المهرج الانتباه إليه: "لا تتخلَّ عن السلطة، ولا تهب أراضيك". لكن هناك مغزى أخلاقياً آخر أيضاً لم يتفوه به شكسبير أبداً في كلمات كثيرة جداً، ولا يهم كثيراً جداً إذا كان مدركاً جداً له. إنه متضمن في القصة التي هو من ابتدعها أو بدلها لتناسب غرضه وهو التالي: "هب أراضيك وتخلَّ عنها إن أردت ذلك، لكن لا تتوقع أن تنال السعادة بفعل هذا، وعلى الأرجح أنك لن تنال السعادة. إن عشت من أجل الآخرين، فيجب أن تعيش من أجل الآخرين، وليس لتحقيق مصلحة شخصية لنفسك بطريقة ملتوية".

من الجلي أن لا أحد من هذين الاستنتاجين كان مرضياً لتولستوي. أولهما يعبر عن الأنانية العادية الدنيوية التي حاول أن يفر منها صادقاً، والآخر يتعارض مع رغبته في نيل الفائدة ودرء الضرر -أي أن يدمر أنانيته. وبهكذا فعل يفوز بحياة أبدية. إن لير ليست عظة لصالح الإيثارية طبعاً. إنها تبرز نتائج ممارسة نكران الذات لأسباب أنانية. لدى شكسبير عرق كبير من الدنيوية فيه، ولو لم يُجبر أن يصطف إلى جانب طرف في مسرحيته، لتعاطف مع المهرج على الأرجح، لكنه على الأقل استطاع أن يرى القضية الكاملة وعاملها بمستوى المأساة. الرذيلة تُعاقب، لكن الفضيلة لا تُكافئ. إن مبادئ شكسبير الأخلاقية في مسرحياته المأساوية اللاحقة، ليست دينية بالمعنى العادي وليست مسيحية بالتأكيد. اثنتان منها فقط هاملت وعطيل تحدثان في العصر المسيحي كما يعتقد، وحتى فيهما ليس هناك أي إشارة إلى "العالم التالي" الذي سيُصحح فيه كل شيء باستثناء الأفعال الغريبة للشبح في مسرحية هاملت. تبدأ كل هذه المسرحيات المأساوية بافتراض إنساني، يرى أن الحياة رغم أنها مترعة بالأسى، تستحق العيش، وأن الإنسان حيوان نبيل- اعتقاد لم يكن تولستوي من المؤمنين به في شيخوخته. لم يكن تولستوي قديساً، لكنه حاول جاهداً أن يجعل من نفسه قديساً، والمعايير التي طبقها على الأدب كانت معايير سماوية. من المهم أن ندرك أن الفرق بين القديس والكائن البشري العادي، هو فرق في النوع وليس في الدرجة. أي يجب ألا يُنظر إلى المرء كشكل ناقص عن الآخر. إن القديس من نوع قديسي تولستوي على كافة الأحوال، لا يحاول القيام بأي تحسينات في الحياة الدنيوية، وإنما على العكس يحاول أن ينهيها ويضع شيئاً مختلفاً في مكانها. وإحدى العبارات الواضحة التي

تدل على ذلك، هي الادعاء بأن العزوبية "أسمى" من الزواج. يقول تولستوي في الواقع لو أوقفنا التناسل والقتال والصراع والاستمتاع، لاستطعنا التخلص ليس من خطايانا فقط بل من كل شيء آخر يربطنا بسطح الأرض -بما فيه الحب، ومن ثم تنتهي العملية المؤلمة برمتها وتأتي مملكة السماء. لكن الكائن البشري العادي لا يريد مملكة السماء: إنه يريد للحياة على الأرض أن تستمر، وهذا ليس لأنه "ضعيف" فقط، وإنما لأنه "آثم" ومتلهف لـ "لمتعة والتسلية". أغلب الناس ينالون مقداراً جيداً من المتعة في حياتهم، لكن الحياة معاناة في المجمل والصغار جداً والحمقى جداً فقط من يتخيلونها بشكل مختلف. أخيراً، إنه الموقف المسيحي الأناني النفعي والتلذذي، بما أن الهدف دائماً هو الهروب من الصراع المؤلم للحياة الدنيوية وإيجاد السلام الأبدي في نوع من الفردوس أو النيرفانا. الموقف الإنساني يرى أن الصراع يجب أن يستمر وأن الموت هو الثمن للحياة. "البشر يجب أن يتحملوا ذهابهم من هنا مثلما تحملوا قدومهم إلى هنا: النضوج والاستعداد هو الكل"- وهو رأي غير مسيحي. توجد هدنة ظاهرية بين الإنسانوي والمتدين غالباً، لكن في الحقيقة لا يمكن التسوية بين موقفيهما: على المرء أن يختار بين هذا العالم والعالم التالي، والأغلبية الهائلة من البشر إن فهموا القضية سيختارون هذا العالم. إنهم يقومون بهذا الخيار حين يستمرون في العمل وفي التناسل والموت، بدلاً من تعطيل قدراتهم على أمل إحراز عقد إيجار جديد من البقاء في مكان آخر.

نحن لا نعرف الكثير عن معتقدات شكسبير الدينية، ومن خلال دليل من كتاباته يصبح من الصعب إثبات أي منها. لكن على أي حال هو لم يكن قديساً أو قديساً محتملاً: كان كائناً بشرياً وصالحاً في بعض الأوجه. ومن الواضح مثلاً أنه اتخذ موقفاً جيداً من الأغنياء وأصحاب النفوذ، وكان قادراً على مداهنتهم بأشد الطرق عبودية، كما كان حريصاً وبشكل ملحوظ أيضاً ألا يكون جباناً بطريقته للتفوه بالآراء العامة، ولم يضع أبداً تقريباً ملاحظة هدامة أو شكوكية في فم إحدى شخصياته التي يحتمل أن تتماثل معه. خلال مسرحياته، كان النقاد الاجتماعيون الأذكياء والناس الذين لم ينخدعوا بالأفكار الخاطئة المستحسنة، هم المهرجون والأوغاد والمجاذيب أو الأشخاص الذين يتظاهرون بالخبل أو في حالة من الهيستريا العنيفة، وهذه النزعة واضحة جداً بوجه خاص في مسرحية لير، وتحتوي على مقدار كبير من النقد الاجتماعي المقنع. وهذه هي النقطة التي فوتها تولستوي، والتي عبر عنها كلها المهرج

وإدغار حين تظاهر بأنه مجنون، ولير أثناء نوبات جنونه. لم يدل لير بملاحظة ذكية أبداً في لحظاته صحوته، وحقيقة إن شكسبير اضطر إلى استخدام هذه الحيل، تظهر المدى الواسع لتدرج أفكاره. لم يستطع كبح نفسه عن التعليق على كل شيء تقريباً، لهذا ارتدى سلسلة من الأقنعة لكي يفعل هذا. لو قرأ المرء شكسبير بانتباه مرة، فلن يسهل عليه أن يمر يوم دون أن يقتبسه، لأنه لم يترك الكثير من المواضيع الهامة الرئيسية دون أن يناقشها أو يذكرها في مكان أو آخر، على الأقل في طريقته الفوضوية، ولكنها طريقة منورة. وحتى الأشياء غير المتعلقة بالموضوع الرئيسي التي تتبعثر في كل مكان في مسرحياته-التورية والألغاز وقوائم الأسماء وفتات "التحقيق الصحفي" مثل محادثة الرسل في هنري الرابع والدعابات الفاجرة والأجزاء التي تم إنقاذها من الشعر الشعبي المنسي - هي مجرد نتاجات لحيوية مفرطة. لم يكن شكسبير فيلسوفاً أو عالماً، لكنه كان يمتلك حب الاستطلاع، وكان يحب سطح الأرض وصيرورة الحياة التي حتى لو وجب أن تُلغى، ليست نفس الشيء كالرغبة في إمضاء وقت ممتع والبقاء حياً أطول فترة ممكنة. إن شكسبير لم يبق حياً بسبب نوعية أفكاره طبعاً، وربما لن يتذكره أحد ككاتب مسرحي حتى لو لم يكن شاعراً. إن قوته المسيطرة علينا هي من خلال اللغة. ويمكن استنتاج مدى افتتان شكسبير الكبير بموسيقى الكلمات من خطب بستول. إن ما قاله بستول لا معنى له في غالبيته، لكن لو تمعن المرء في أبياته بشكل مفرد سيجدها شعراً بلاغياً رائعاً. من الواضح أن قطع الهراء المدوي ("دع السيول تغمر بأمواجها والعفاريت تولول من أجل الطعام" إلخ) كانت تظهر باستمرار في ذهن شكسبير من تلقاء نفسها، وكان من الضروري اختراع شخصية نصف مجنونة كي تستعملها.

إن لغة تولستوي الأم ليست الإنكليزية، ولا يستطيع المرء لومه لعدم تأثره بشعر شكسبير، ولا حتى رفضه التصديق بأن مهارة شكسبير بالكلمات كانت شيئاً خارجاً عن نطاق العادي والمألوف. ولكن كان عليه أيضاً أن ينبذ فكرة تقييم الشعر من خلال نسيجه ومادته أيضاً-بالضبط تقييمه كنوع من الموسيقى. لو كان بالإمكان بطريقة ما الإثبات له بأن شرحه لارتقاء شكسبير إلى الشهرة هو خطأ، فذلك لأن شعبية شكسبير داخل العالم الناطق بالإنكليزية أصيلة وحقيقية في كافة الأحوال، وأن مهارته في وضع لفظة بجانب أخرى منحت متعة شديدة لجيل تلو آخر للشعوب الناطقة بالإنكليزية -كل هذا كان يمكن اعتباره فضيلة لشكسبير لكن

بالعكس. كانت يكمن أن تكون إثباتاً إضافياً آخر للطبيعة اللادينية الدنيوية لشكسبير ومريديه. قال تولستوي إن الشعر يجب أن يقيّم من خلال معناه، وأن الأصوات الغاوية لا تحدث سوى مدلولات زائفة تمر من دون أن تُلحظ. في كل المستويات إنها نفس القضية -هذا العالم ضد العالم التالي: وبالتأكيد موسيقى الكلمات هي شيء ينتمي إلى هذا العالم.

هناك نوع من الشك يحوم دائماً حول شخصية تولستوي، مثل الشك الذي حام حول شخصية غاندي. هو لم يكن مرائياً مبتذلاً كما صرح بعض الأشخاص عنه، وكان سيفرض تضحيات على نفسه أكبر مما فعل، لو لم يعترض على ذلك المحيطين به وخصوصاً زوجته في كل خطوة، لكن من جانب آخر من الخطر أن نأخذ رجالاً كتولستوي من تقيم أتباعهم ومريديهم. توجد هناك الإمكانية أو الاحتمالية دائماً في الواقع -إنهم لم يفعلوا أكثر من استبدال شكل من الأنانية بشكل آخر. لقد تخلى تولستوي عن الثروة والشهرة والامتياز، وشجب كل أشكال العنف، وكان مستعدا أن يعاني بسبب هذا، لكن ليس من السهل التصديق أنه تخلى عن مبدأ القسر أو على الأقل عن الرغبة في إجبار الآخرين. هناك عائلات يقول الأب فيها لطفله "سوف تعاقب لو فعلت ذلك مرة أخرى"، والأم التي تطفح عيناها بالدموع التي تأخذ الطفل في ذراعيها وتتمتم بشغف "والآن يا حبيبي هل لطيف أن تفعل ذلك بماما؟" ومن يصر أن الأسلوب الثاني أقل استبداداً من الأول؟ إن الفرق الذي يهم حقيقة هو ليس بين العنف واللاعنف وإنما بين امتلاك الشهية للسلطة وعدم امتلاكها. هناك أشخاص مقتنعون أن الجيوش وقوات الشرطة عبارة عن شر، لكنهم مع ذلك يتسامحون ويستقصون في وجهة نظرهم أكثر من الشخص العادي الذي يعتقد أن استخدام العنف ضروري في ظروف معينة. هم لن يقولوا لأحد آخر "افعل هذا أو ذاك أو غيره وإلا ستذهب إلى السجن"، لكنهم سوف يدخلون إلى ذهنه إن استطاعوا ويلقنونه أفكاره في أدق التفاصيل. إن العقائد مثل السلامية (رفض الحرب) والفوضوية تبدو ظاهرياً أنها تتضمن تخلياً تاماً عن القوة ولا تشجع هذه العادة العقلية. إن اعتنقت عقيدة تبدو أنها خالية من قذارة السياسة المعتادة -عقيدة لا تتوقع أن تستجر منها أي فائدة مادية- ألا يثبت ذلك بشكل مؤكد أنك في الصحيح؟ وكلما تعمقت في المسار الصحيح أكثر، يكون من الطبيعي أكثر أن يُجبر كل واحد آخر على التفكير بطريقة مماثلة.

لم يكن تولستوي قادراً على أن يرى أي قيمة في شكسبير، إن كنا سنصدق ما قاله في كراسته، وكان يندهش دائماً حين يجد رفاقه الكتاب تورغينيف وفيت وآخرين، يفكرون بشكل مختلف. نحن متأكدون لو أن تولستوي كان في أيامه الضالة، لكان استنتاجه: "أنتم تحبون شكسبير- أنا لا. دعونا نترك الأمر هكذا" في وقت لاحق، حين هجرته بصيرته الغريبة، بات يرى في كتابات شكسبير شيئاً خطراً عليه هو نفسه. كلما زادت المتعة التي يجدونها في شكسبير، قلّ إصغاؤهم إلى تولستوي. لذلك يجب ألا يُسمح لأي أحد أن يستمتع بشكسبير، مثلما يجب على أي أحد ألا يستمتع بشرب الكحول وتدخين التبغ. صحيح أن تولستوي لم يمنعهم باستخدام القوة، ولم يطالب بأن تحجز الشرطة كل نسخة من أعمال شكسبير، لكنه سيشوه سمعة شكسبير إن استطاع، وسيحاول أن يدخل في عقل كل عاشق لشكسبير، ويقتل متعته بكل خدعة يستطيع التفكير فيها، تشمل -كما بينت في ملخصي لكراسته- حججاً متناقضة ذاتياً أو مشكوك في صدقها حتى.

لكن أخيراً، فإن الشيء اللافت جداً هو الصغر الشديد الذي أحدثه هذا الاختلاف كله. كما قلت سابقاً، إن المرء لا يستطيع الرد على كراسة تولستوي، وعلى الأقل فقراتها التهامية الأساسية. لا توجد حجة يستطيع المرء الدفاع بها عن قصيدة. إنها تدافع عن نفسها بالبقاء، أو أن الدفاع عنها متعذر. إن كان هذا الاختبار فعالاً وصحيحاً، أعتقد أن الحكم في قضية شكسبير يجب أن يكون "غير مذنب". سوف يُنسى شكسبير عاجلاً أو آجلاً مثل أي كاتب آخر، لكن من المستبعد أن تُثار تهمة أثقل ضده أبداً. ربما كان تولستوي الأديب الأكثر إعجاباً في عصره، ولم يكن بالتأكيد كاتب الكراريس الأقل جدارة. حوّل تولستوي كل قدراته وسلطاته في توجيه التهم ضد شكسبير، مثل سفينة حربية تهدر مدافعها كلها في وقت واحد. ولكن بأي نتيجة؟ أربعون سنة تلت ذلك، ولازال شكسبير غير متأثر تماماً، والمحاولة لتدميره لم يبق منها شيء سوى صفحات الكراس المصفرة، التي لم يقرأها أحد تقريباً، والتي كانت ستنسى تماماً، لو لم يكن تولستوي مؤلف الحرب والسلام وآنا كارينينا.

الحصانة الإكليركية:
بعض الملاحظات حول سلفادور دالي

إن السيرة الذاتية لا تكون موضع ثقة، إلا حين تكشف عن شيء شائن؛ فقد يكون الرجل الذي يقدم وصفاً جيداً لنفسه كاذباً، لأن الحياة مجرد سلسلة من الهزائم حين يُنظر إليها من الداخل، ومع ذلك حتى أكذب الكتب وأكثرها تشهيراً (كتابات فرانك هاريس للسير الذاتية مثال على ذلك) يمكن أن تعطي صورة حقيقية عن مؤلفيها. نشر دالي كتاباً مؤخراً، ظهر تحت العنوان التالي حياة. بعض الأحداث فيه لا تصدق بشكل فاضح، وبعضها الآخر رُتب وصُبغ بمسحة مثالية، ولم يُحذف منها الخزي والإذلال فقط، بل حتى الأمور الاعتيادية المستمرة للحياة اليومية. إن دالي نرجسي حتى في تشخيصيه لنفسه، وسيرته الذاتية عبارة عن عمل تعرٍ، جرى تحت أضواء قرنفلية، أو سجل من الفنتازيا والغريزة المنحرفة بات ممكناً، وله قيمة عظيمة بفضل عصر الآلة.

ها هي بعض من الأحداث من حياة دالي من أول سنواته المبكرة فصاعداً. أيها حقيقي وأيها خيالي، هي مسألة غير مهمة: المغزى أن هذا هو نوع الأشياء التي تمنى دالي أن يفعلها.

حين كان في السادسة من عمره، كان هناك بعض الإثارة حول ظهور مذنب هالي:

ظهر أحد الكتبة في مكتب والدي فجأة عند باب غرفة الجلوس، وأعلن عن إمكانية مشاهدة المذنب من الشرفة.... بينما كنت أعبر الصالة، لمحتُ أختي الصغيرة ذات الثلاث سنوات تحبو بصورة غير فضولية عبر المدخل. توقفتُ وترددتُ لثانية، ثم ركلتها بفظاعة في رأسها، كما لو كانت كرة، وتابعت الركض مدفوعاً بـ "فرح هائج"، سببه هذا العمل الوحشي، لكن والدي الذي كان خلفي، أمسك بي وقادني إلى المكتب؛ حيث بقيت فيه كعقوبة حتى وقت العشاء.

قبل سنة من هذا، رمى دالي "فجأة كما تحدث كل أفكاره" صبياً صغيراً آخر من فوق جسر معلق. عدد كبير من الأحداث من نفس النوع دُونت ومنها (كان هذا عندما كنت في

التاسعة والعشرين من العمر) طرح فتاة على الأرض ووطأها بقدميه "حتى اضطروا إلى انتزاعها بقوة وإبعادها عن متناول يدي وهي تنزف"

حين كان في الخامسة أمسك بخفاش مجروح، ووضعه داخل سطل من القصدير. وفي الصباح التالي وجد الخفاش شبه ميت ومغطى بنمل كان يلتهمه، فقام بوضعه في فمه مع النمل وعضه عضة شطره فيها إلى نصفين تقريباً.

حين كان مراهقاً وقعت فتاة في حبه بشكل متهور. كان يقبّلها ويلاطفها حتى يهيجها إلى أقصى حد ممكن، لكنه يرفض الذهاب إلى أبعد من ذلك. وصمم أن يستمر في هذا لمدة خمس سنوات (يسميها بخطته الخمسية) وهو مستمتع بإذلالها وبإحساس القوة الذي يعطيه له ذلك، وأخبرها مراراً أنه سيهجرها في نهاية السنوات الخمس، وحين حان الوقت فعل ذلك.

حتى وقت طويل في حياته كبالغ وراشد، واظب على ممارسة الاستمناء، وأحب هذا الفعل بجلاء أمام المرآة. لأغراض عادية هو عاجز جنسياً كما يبدو حتى عمر الثلاثين تقريباً، وحين قابل زوجته المستقبلية غالا للمرة الأولى، انتابه إغراء لدفعها من فوق جرف، وكان مدركا لشيء تريده أن يفعله لها. وبعد قبلتهما الأولى، يأتي الاعتراف: طرحت رأس غالا إلى الخلف وجررتها من شعرها، وكنت أرتعش في هستريا تامة، ثم أمرتها: "والآن أخبريني ما الذي تريدين أن أفعله بك! لكن أخبريني ببطء وأنت تنظرين في عيني بأفج وأقوى الكلمات الجنسية المثيرة التي أشعرتنا بأعظم الخزي!".

بعدئذ أجابت غالا، التي حولت آخر وميض في تعبيرها عن المتعة إلى ضوء قاس عن استبدادها الخاص بها قائلة: "أريدك أن تقتلني!"، لكنه يشعر بالخيبة بهذا الطلب، لأن هذا هو ما أراد فعله مسبقاً، فيفكر في رميها من برج جرس كاتدرائية توليدو، لكنه يحجم عن هذا الفعل.

أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، يتحاشى بخبث الاصطفاف مع أي طرف، ويقوم برحلة إلى إيطاليا. يشعر نفسه منجذباً أكثر فأكثر إلى الطبقة الأرستقراطية، ويتردد على المعارض الفنية الأنيقة، ويجد لنفسه رعاة أثرياء، ويتصور مع السمين فيسكونت دو نوايليس الذي وصفه بـ "نصيره السخي". حين اقتربت الحرب الأوروبية، كان لديه هاجس وحيد فقط: كيف يجد مكاناً فيه مطبخ جيد كما يستطيع أن ينجح في فرار سريع منه أيضاً إن اقترب الخطر كثيراً منه. يلجأ إلى بوردو ويفر منها إلى إسبانيا في الوقت المناسب أثناء معركة فرنسا. يبقى في

إسبانيا فترة طويلة، ليتقي بضع قصص ضد أعمال الحمر الوحشية، ثم يتجه نحو أمريكا. تنتهي القصة في لهيب من المحترمية. دالي في السابعة والثلاثين، وقد أصبح زوجاً مخلصاً متشافياً من شذوذه أو بعضاً منه ومتصالحاً تماماً مع الكنيسة الكاثوليكية، كما نجح في جمع مقدار جيد من المال أيضاً.

لكنه لم يتوقف البتة عن التفاخر بلوحاته من فترته السريالية بعناوين مثل "المستنمي الكبير" و"لواط جمجمة مع بيانو فخم" إلخ. هناك تناسل ونسخ لهذه في الكتاب كله. إن الكثير من رسومات دالي تمثيلية تصويرية، ولها صفة مميزة تُلحظ لاحقاً، أما في لوحاته الزيتية السريالية وصوره الضوئية، فيبرز شيئان اثنان: الانحراف الجنسي والانجذاب المرضي نحو الجثث. تتكرر المواضيع الجنسية والرموز -بعضها معروف جيداً مثل صديقنا القديم ذي الكعب العالي وأخرى مثل العكاز وفنجان الحليب الدافئ التي اخترعها دالي بنفسه -المرة تلو الأخرى، كما يوجد أيضاً باعث غائطي ملحوظ جيداً. في لوحته الزيتية لعبة الشيطان، يقول "رُسم السروال الداخلي الملوث بالبراز برضا ذاتي دقيق وواقعي، لذلك عانت المجموعة السريالية الصغيرة كلها من السؤال: هل هو من المقتاتين بالروث؟ يقتات به أم لا؟". يضيف دالي بقوة بأنه ليس كذلك، ويعتبر هذا الانحراف "منفراً"، لكنه ليس كذلك على ما يبدو، إلا في النقطة التي يتوقف فيها اهتمامه بالغائط. حتى حين يروي تجربته في التفرج على امرأة تتبول وهي واقفة، أضاف فصلاً بأنها أخطأت هدفها ولوثت حذاءها. لم يُعط أي شخص كل تلك الرذائل. ويتباهى دالي أيضاً بأنه ليس لوطياً، لكن بطريقة مختلفة يبدو أنه يمتلك تجهيزات من الانحرافات بالجودة التي يمكن أن يتمناها أي أحد.

ومع ذلك تظل صفته الأبرز، هي انجذابه المرضي للجثث، وهو يعترف بنفسه بهذا طوعاً، ويزعم بأنه شُفي منه. وجوه ميتة وجماجم وجثث حيوانات تظهر كثيراً وبانتظام في لوحاته، والنمل الذي يلتهم الخفاش المحتضر المتفسخ جداً. صورة أخرى تظهر الحمير الميتة متعفنة على قمة بيانوهات فخمة، شكلت جزءاً من الفيلم السريالي **الكلب الأندلسي**. ظل دالي يعود بأفكاره حول الحمير إلى الماضي بحماس عظيم.

لقد "صنعت" تعفن الحمير بقدور كبيرة من الغراء اللزج صببته فوقها، وأفرغت محاجر عيونها أيضاً ووسعتها بشقها بمقص، وبنفس الطريقة شققت أفواهها بغضب، لأظهر

صفوف أسنانها بشكل أفضل، وأضفت عدة فكوك لكل فم لتُظهر اللوحة أن الحمير كانت متعفنة مسبقاً وكانت تتقيأ موتها أيضاً، كما أن صفوف الأسنان الإضافية تلك شُكلت من مفاتيح البيانو السوداء.

وأخيراً، هناك لوحة -نوع من صورة ضوئية مزيفة بوضوح- "مانيكان تتفسخ في سيارة أجرة". فوق الوجه المتفخ قليلاً مسبقاً وصدر الفتاة الميتة بوضوح كانت تزحف حلزونات ضخمة. في العنوان الذي تحت الصورة، يدوّن دالي بأن هذه حلزونات بورغندي -أي من النوع الصالح للأكل.

طبعاً، في هذا الكتاب الطويل المؤلف من أربع مئة صفحة ربعية، هناك أكثر مما أشرت إليه، لكني لا أعتقد أنني قدمت وصفاً غير عادل لجوه الأخلاقي ومنظره العقلي، فهو كتاب ينافي الأخلاق، ولو أُمكن لكتاب أن يصدر رائحة مادية كريهة من صفحاته لفعلها هذا الكتاب - فكرة ربما أرضت دالي الذي دلك نفسه بمرهم مصنوع من روث الماعز المغلي بغراء السمك قبل أن يطلب يد زوجته المستقبلية لأول مرة، لكن ضد هذا كله يجب أن نقر حقيقة أن دالي رسام بموهبة استثنائية جداً، ولو حوكم من خلال دقة ونجاعة رسوماته كما يجب ذلك، فإنه عامل مجد وشخص استعراضي واحترافي، لكنه ليس دجالاً ولديه موهبة تفوق بخمسين مرة أغلب الأشخاص الذي يشجبون مبادئه الأخلاقية ويسخرون من لوحاته، وهاتان المجموعتان من الحقائق معاً تثيران سؤالاً قلما نال نقاشاً حقيقياً، لانعدام أي أساس اتفاقي حوله.

المهم هنا، لديك هجوم مباشر وجلي، ليس على سلامة العقل والاحتشام فقط، وإنما على الحياة نفسها بما أن بعضاً من صور دالي تميل إلى تسميم الخيال مثل بطاقة بريدية إباحية. إن ما فعله دالي وما تخيله جدالي وقابل للنقاش، لكنه في وجهة نظره وشخصيته، ليس هناك وجود للاحتشام الإنساني، وهو معادٍ للمجتمع مثل البرغوث. من الواضح أن مثل هؤلاء الناس غير مرغوبين، وأن المجتمع الذي يستطيعون الازدهار فيه يعاني من خلل ما.

الآن، لو عرضت هذا الكتاب مع رسوماته التوضيحية ليراه اللورد إيلتون والسيد نويز وكتّاب التايمز الرئيسين الذين يهللون فوق "كسوف المثقف الرفيع" وفي الحقيقة لأي "شخص إنكليزي عاقل كاره للفن- فمن السهل تخيل نوع الاستجابة التي تحصل عليها. سوف يرفضون تماماً أن يروا أي قيمة مهما كانت في دالي. إن مثل هؤلاء الناس ليسوا فقط غير

قادرين على الاعتراف بأن ما هو متفسخ أخلاقياً يمكن أن يكون صحيحاً فنياً، وإنما مطلبهم الحقيقي من كل فنان أيضاً أن يطبب على ظهورهم ويقول لهم إن التفكير غير ضروري. كما يمكنهم أن يكونوا خطرين بشكل خاص في وقت كوقتنا الحالي الذي وضعت فيه وزارة الإعلام والمجلس البريطاني السلطة بأيديهم، وإن دافعهم ليس سحق كل موهبة جديدة فقط، كما يبدو، وإنما إخصاء الماضي أيضاً. شاهد مضايقة المثقفين الرفيعين المتجددة المتواصلة الآن في هذه البلاد وأمريكا، والاحتجاج العنيف ليس ضد جويس وبروس ولورانس فقط، وإنما ضد تي إس إليوت حتى.

لكن لو تحدثت إلى الصنف الذي يرى فضائل دالي، فلن تكون الاستجابة التي تنالها أفضل بكثير عادة. فلو قلت إن دالي رغم كونه رساماً لامعاً، وغد صغير قذر، لَنُظر إليك كهمجي. ولو قلت إنك لا تحب الجيف المتعفنة وأن الأشخاص الذين يحبون الجيف المتفسخة هم مرضى عقلياً، لافترضوا أنك تفتقد إلى الحس الجمالي، طالما أن المانيكان التي تتعفن في سيارة الأجرة هي قطعة فنية جيدة. ليس هناك موقف وسطي بين هاتين الفكرتين الخاطئتين، ولم نسمع الكثير عنه من الجانب الأول الذي يمثل الثقافة البلشفية، ولا من الجانب الآخر الذي يمثل "الفن من أجل الفن" (رغم أن العبارة باتت قديمة). إن مناقشة الفحش بصدق وصراحة قضية صعبة جداً، والناس غير قادرين على تحديد العلاقة بين الفن والأخلاق، لأنهم مرعوبين، إما من التظاهر بالصدمة، أو من عدم التظاهر.

سيتبين أن ما يطالب به المدافعون عن دالي، هو نوع من الحصانة الإكليركية، أي يجب أن يُعفى الفنان من القوانين الأخلاقية التي تلزم الناس العاديين. تلفّظ بكلمة "فن" فقط ويكون كل شيء على ما يرام: ركل الفتيات الصغيرات على رؤوسهن أمر مقبول، وحتى فيلم مثل العصر الذهبي مستحسن (يذكر دالي فيلم العصر الذهبي، ويضيف أن عرضه الأول قوطع من قبل مشاغبين، لكنه لم يقل بالتفصيل عمّ كان الفيلم. بناء على ما جاء عن هنري ميلر في وصفه للفيلم، لقد عرض من بين أشياء أخرى بعض اللقطات التفصيلة لامرأة تتبرز. ملاحظة المؤلف) ويستحسن أيضاً أن يعتاش دالي مترفاً على فرنسا لسنين، ثم يفر كالجرذ فور تعرضها للخطر. طالما أنك تستطيع أن ترسم جيداً بما يكفي لاجتياز الاختبار، فكل شيء مسموح لك.

يستطيع المرء أن يرى كم هذا زائف إن وسّعه ليغطي الجريمة العادية. في عصر مثل عصرنا، حين يكون الفنان شخصاً استثنائياً بالكامل، يُسمح له بمقدار معين من التحلل من المسؤولية كالمرأة الحامل تماماً، لكن مع ذلك لم يقل أحد إن المرأة الحامل يسمح لها بارتكاب جريمة قتل، ولم يطالب أحد بمثل هذا الحق لأي فنان مهما كان موهوباً. لو أن شكسبير عاد إلى الأرض غداً ووُجد أن هوايته المفضلة كانت اغتصاب الفتيات الصغيرات في عربات سكة الحديد، ولا ينبغي علينا أن نخبره بالاستمرار في ممارسة هوايته، بحجة أنه ربما يكتب لنا مسرحية أخرى كمسرحية الملك لير. أخيراً إن أسوأ الجرائم هي ليست تلك التي يُعاقب عليها. بتشجيع أحلام اليقظة حول الانجذاب إلى الجثث، ربما يرتكب المرء ضرراً أكبر بكثير من نشل الجيوب في السباقات مثلاً. ينبغي على المرء أن يحفظ في رأسه وبنفس الوقت الحقيقتين التاليتين: الأولى أن دالي رسام جيد، والثانية أنه كائن بشري مقرف، وأن الأولى لا تبطل أو تؤثر على الأخرى. إن الشيء الأول الذي نطلبه من الجدار هو أن يظل واقفاً، فإن وقف فهو جدار جيد. أما السؤال عن الغرض الذي يخدمه، فإنه أمر منفصل، ولكن حتى أفضل جدار في العالم يستحق أن يُهدم إن كان يطوق معسكر اعتقال. وبنفس الطريقة يمكننا القول كما يفترض "هذا كتاب جيد أو لوحة جيدة، وينبغي أن تُحرق بواسطة جلاد الشعب"، وإذا لم يستطع المرء قول ذلك في خياله على الأقل، فإنه يتهرب من مضامين حقيقة أن الفنان مواطن وكائن بشري أيضاً.

لا يعني ذلك أن تُقمع سيرة دالي الذاتية ولوحاته طبعاً. باستثناء البطاقات البريدية القذرة التي كانت تباع في موانئ البلدات المتوسطية، فإن قمع أي شيء سياسة مريبة، كما أن خيالات دالي ربما تلقي ضوءاً مفيداً على فساد الحضارة الرأسمالية وانحلالها، ولكن ما يحتاجه دالي بوضوح هو التشخيص. السؤال المهم ليس إلى أي حد هو مثل كذا أو لماذا هو مثل كذا. يجب ألا يكون هناك شك أن عقله مريض، وربما لم يتبدل كثيراً بتحوله المزعوم واهتدائه، لأن النادمين الصادقين أو الناس الذين عادوا إلى الرشد، لا يتباهون برذائلهم السابقة بتلك الطريقة الراضية. هذا عرض وعلامة لمرض العالم. الشيء المهم ليس أن نشجبه كوغد ينبغي أن يجلد بالسوط أو ندافع عنه كعبقري ينبغي أن يُستجوب، وإنما أن نكتشف لماذا كان يعرض المجموعة الغريبة من الانحرافات.

ربما يمكن الكشف عن الإجابة في لوحاته التي أنا لست مؤهلاً لدراستها، لكنني أستطيع أن أشير إلى مفتاح ربما يقطع جزءاً واحداً من المسافة، وهو هذا الأسلوب الإدواردي التقليدي المفرط في الزخرفة والتنميق في الرسم الذي يميل دالي إلى الرجوع إليه حين لا يكون سريالياً. إن بعضاً من لوحات دالي عبارة عن مذكر بلوحات دورير وواحدة (في الصفحة ١١٣) تظهر تأثير بيردسلي وأخرى (في الصفحة ٢٦٩) تستعير شيئاً من بليك، لكن الأثر المستمر الأكبر هو الأسلوب الإدواردي. حين فتحت الكتاب لأول مرة ونظرت إلى الإيضاحات الهامشية التي لا تحصى، لاحظت تشابهاً لم أستطع كبحه فوراً. فُتنت بالشمعدان المزخرف في بداية القسم الأول (في الصفحة٧). بماذا يذكرني هذا؟ وأخيراً اقتفيت أثره. لقد ذكرني بنسخة مبتذلة كثيراً ومزينة بشكل منمق لأناتولي فرانس (في الترجمة) يُفترض أنها نشرت في عام ١٩١٤ تقريباً. طبعة لها عناوين فصول مزخرفة وملاحق على غرار هذا الأسلوب. يُظهر شمعدان دالي في أحد طرفيه مخلوقاً مجعداً شبيهاً بالسمك يبدو مألوفاً بشكل غريب (يبدو أنه بني على الدلفين التقليدي) ومن الطرف الآخر شمعة تحترق. هذه الشمعة التي تتكرر في صورة تلو أخرى هي صديق قديم جداً. ستجدها مع نفس اللطخ التصويرية الفاتنة من الشمع المرتب على أطرافها في تلك الأضواء الكهربائية الزائفة التي زُينت كشمعدانات محببة في فنادق تيودر الريفية المزيفة. هذه الشمعة والتصميم الفني الذي تحتها، ينقلان على الفور شعوراً مكثفاً من العاطفية، وكمعادل لها قام دالي برش ملء مكوك من الحبر فوق الصفحة، لكن بلا فائدة. يحافظ الانطباع نفسه على التكرر في صفحة تلو أخرى. إن العلامة بأسفل الصفحة ٦٢ مثلاً تُدرج في بيتر بان تقريباً والشكل على الصفحة ٢٢٤ رغم جمجمته المطولة الذي يشبه سجقة ضخمة هو الساحرة في كتب الحواري والخرافات. الحصان في الصفحة ٢٣٤ ووحيد القرن على الصفحة ٢١٨ يمكن أن يكونا رسمين توضيحيين لجيمس برانش كابيل. الرسومات المخنثة لشبان على الصفحات ٩٧ و١٠٠ وغيرهما تنقل الانطباع نفسه. تستمر التصويرية في الاقتحام. أزل الجماجم والنمل وجراد البحر والهواتف والممتلكات الشخصية الأخرى، فتعود بين الفينة والأخرى إلى عالم باربيه وراكهام ودونساني وإلى حيث ينتهي قوس قزح.

والغريب تماماً أن بعض اللمسات الداعرة في سيرة دالي الذاتية، ترتبط بنفس الفترة. حين قرأت المقطع الذي اقتبسته في البداية حول ركل رأس الأخت الصغيرة، كنت متيقظاً لشبه شبحي آخر. ماذا كان؟ طبعاً! قصائد لا رحمة فيها لأوطان قاسية القلب لهاري غراهام. مثل هذه القصائد كانت شائعة جداً في حوالي ١٩١٢ وتقول إحداها:

إن المسكين الصغير ويللي يبكي بشكل مؤلم جداً، إنه طفل صغير حزين، لأنه كسر عنق أخته الصغيرة، ولن ينال المربى من أجل الشاي.

ربما بنيت على مخطوطة دالي تقريباً. إن دالي يدرك ميوله الإدواردية طبعاً وحصد ربحاً كثيراً منها بروح (تقليد الآثار الأدبية). إنه يقر بنزوع استثنائي للعام ١٩٠٠ ويدعي أن كل شيء زخرفي من العام ١٩٠٠ مليء بالغموض والشعر والإثارة الجنسية والجنون والانحراف. إن أي تقليد يتضمن نزوعاً حقيقياً للشيء المُحاكى عادة. يبدو لي أنه من الشائع -إن لم يكن قاعدة- أن يكون الميل الفكري مصحوباً بدافع غير عقلاني أو صبياني حتى في نفس الاتجاه. فالنحات مثلاً يهتم في السطوح المستوية والانحناءات، لكنه أيضاً شخص يستمتع بالفعل البدني في العبث بالوحل أو الحجر، والمهندس شخص يستمتع بلمس الأدوات وضجيج المولدات ورائحة الزيت، والطبيب النفساني لديه ميل نحو الانحراف الجنسي عادة. داروين أصبح عالم أحياء، لأنه كان سيداً ريفياً ومغرماً بالحيوانات، لذلك ربما كان إعجاب دالي المنحرف بشكل ظاهر بالأشياء الإدواردية (مثلاً اكتشافه لمداخل قطار أنفاق ١٩٠٠) مجرد عرض لنزوع أكثر عمقاً وأقل إدراكاً. إن نسخ الرسومات المنفذة بشكل جميل التي لا تحصى في الكتاب المدرسي والمصنفة برزانة بالعنادل والساعة وهلم جرا التي بعثرها في كل أرجاء حواشيه، ربما كان القصد منها دعابة جزئياً، وإن الولد الصغير في السروال القصير الذي يلعب بلعبة الشيطان في الصفحة ١٠٣ لوحة زيتية مستكملة كل شروط عصرها، لكن هذه الأشياء هناك أيضاً، لأن دالي لا يستطيع تحاشي رسم ذلك النوع من الأشياء، لأنه ينتمي في الحقيقة إلى ذلك الأسلوب في الرسم وذلك العصر.

إن كان الأمر هكذا، فإن انحرافاته قابلة للتفسير جزئياً. ربما هي طريقة يؤكد فيها لذاته بأنه ليس مبتذلاً. الصفتان اللتان يمتلكهما دالي بشكل لا جدال فيه هما موهبة في الرسم وأنانية

وحشية. يقول في الفقرة الأولى من كتابه "في السابعة أردت أن أكون نابليون، وكان طموحي يزداد بشكل ثابت منذ ذلك الحين". صيغت هذه العبارة بطريقة مروعة عمداً، لكنها من دون شك صحيحة، وهكذا مشاعر شائعة تماماً. "أعرف أنني كنت نابغة" وقد قالها أحد الناس لي مرة "قبل أن أعرف أنني سأكون نابغة بوقت طويل". لنفرضْ أنك لا تملك شيئاً فيك سوى أنانيتك وبراعة لا تتجاوز كوعك، ولنفرض أن موهبتك الحقيقية هي في أسلوب تصويري تفصيلي أكاديمي في الرسم، لهذا ستكون صنعتك الحقيقية والأساسية رساماً توضيحياً في الكتب المدرسية العلمية، فكيف ستصبح نابليوناً عندئذ؟

هناك مفر واحد دائماً: إلى الشر. ارتكب الشيء الذي يصدم الناس ويجرحهم دائماً. في الخامسة رمى ولداً من فوق جسر وضرب طبيباً هرماً على وجهه بسوط وكسر له نظارته -أو في كافة الأحوال حلم بفعل أشياء كهذه. بعد ذلك بعشرين سنة اقتلع عيني حمار ميت بمقص. بهذا النحو تشعر أنك مبدع وأصيل دائماً. وأخيراً ذلك مربح! وأقل خطورة من الجريمة. بحسم كل أعمال القمع المحتملة في سيرة دالي الذاتية، من الواضح أنه لم يكن عليه أن يعاني ما عاناه جراء غرابة أطوراه، لو أنه فعلها في عصر أسبق. لقد ربي وترعرع في عالم فاسد في نهاية عَشرينيات القرن العشرين، حين كان التكلف متشراً بشكل هائل، وكانت كل عاصمة أوروبية تعج بالأرستقراطيين وأصحاب الدخول الذين هجروا الرياضة والسياسة وأحبوا رعاية الفنون. لو رميت حميراً ميتة للناس لردوا برميك بالنقود. الرهاب من الجنادب -التي كانت منذ بضعة عقود من السنين لا تثير أكثر من قهقهة- باتت الآن "عقدة" مشوقة يمكن استغلالها بنحو مربح. وحين انهار ذلك العالم الخاص أمام الجيش الألماني، كانت أمريكا تنتظر، وكان بإمكانك أن تتجاوز كل هذا بتحول ديني حتى، وتنتقل في وثبة واحدة ومن دون أي ذرة من التوبة من الصالونات الأنيقة في باريس إلى حضن أبراهام.

هذا هو ربما الموجز الأساسي لتاريخ دالي. لكن لماذا وجب أن تكون ضلالاته خصوصية ومتفردة كما كانت، ولماذا كان من السهل جداً "بيع مثل هذه الأشياء المرعبة كالجثث المتعفنة لجمهور رفيع الثقافة؟ تلك أسئلة للعالم النفساني والناقد المختص بعلم الاجتماع. إن النقد الماركسي له أسلوب مختصر مع هكذا ظواهر كالسريالية مثلاً. هي "تفسخ بورجوازي"

تلاعب كبير بعبارات "جيفة تسمم" و"انحلال طبقة أصحاب الدخول والإيرادات" وعلى الرغم من أن هذا قد يؤكد واقعاً، إلا أنه لا يؤسس رابطاً. يظل المرء يود أن يعرف لماذا يميل دالي نحو الانجذاب إلى الجثث الميتة (وليس اللواط مثلاً) ولماذا كان أصحاب الدخول والأرستقراطيون يشترون لوحاته بدلاً من الصيد وممارسة الجماع مثل أجدادهم. إن مجرد الاستهجان الأخلاقي لا يفي بالغرض وينبغي على المرء ألا يتظاهر باسم "عدم التحيز" بأن صوراً مثل "مانيكان تتعفن في سيارة أجرة" هي صور محايدة أخلاقياً. إنها صور مريضة ومثيرة للاشمئزاز، وأي تفحص ينبغي أن يبدأ من تلك الحقيقة.

آرثر كيسلر

إن إحدى الحقائق اللافتة حول الأدب الإنكليزي خلال القرن الحالي، هي هيمنة الأجانب الكبيرة عليه، من أمثال كونراد وهنري جيمس و شو و جويس وبيتس وباوند وإليوت، لكن إن اخترت أن تجعل من هذا مسألة هيبة وطنية و تفحصت إنجازاتنا في فروع الأدب المتنوعة، فلن تجد مساهمة جيدة لإنكلترا، حتى تصل إلى ما يمكن وصفه تقريباً بالكتابة السياسية أو تأليف الكراريس، و أقصد بهذا صنفا خاصا من الأدب، نتج عن الصراع السياسي الأوروبي منذ ظهور الفاشية، ويدرج تحت هذا العنوان روايات وكتب السير الذاتية و كتب التحقيقات الصحفية والبحوث السوسيولوجية والكراسات البسيطة وتكديسها معا، كما أنها تمتلك أصلا مشتركا وإلى حد كبير الجو العاطفي نفسه.

بعض من الشخصيات البارزة في مدرسة الكتاب هم: سيلوني و مالرو و ساليفيميني و بوركيناو و فيكتور سيرج وكيسلر نفسه. بعضهم كتاب إبداعيون وبعضهم ليسوا كذلك، لكنهم متشابهون كلهم بأنهم يحاولون كتابة تاريخ معاصر غير رسمي من النوع الذي جرى تجاهله في الكتب المدرسية وتبعثر في الصحف، ومتشابهون كلهم أيضاً في كونهم أوروبيين قاريين. ربما من المبالغة القول، لكنها ليست مبالغة كبيرة، إنه كلما ظهر كتاب يتناول نظام الحكم الشمولي في هذه البلاد، وظل جديرا بالقراءة بعد نشره لمدة ستة أشهر، فهو كتاب مترجم من لغة أجنبية ما، فقد صب الكتاب الإنكليز في غضون السنوات العشر فصاعدا فيضا هائلا من الأدب السياسي، لكنهم لم ينتجوا تقريبا أي قيمة جمالية والقليل جداً من القيمة التاريخية أيضاً. فنادي الكتاب اليساري مثلاً يعمل منذ ١٩٣٦ فكم اسما من مجلداته المختارة تستطيع أن تتذكر؟ أنتجت كتب مثل ألمانيا النازية وروسيا السوفييتية وإسبانيا وإثيوبيا و النمسا وتشيكوسلوفاكيا وكل تلك المواضيع وأقاربها في إنكلترا، ولكنها كانت كتبا مبتذلة من التحقيقات الصحفية والكراسات المضللة التي بلعت دعايتها كاملة، ثم جرى تقيؤها مرة أخرى بعد هضمها جزئيا. كما أنتجت قلة من كتب الإرشاد الموثوقة والكتب المدرسية. لا يوجد هناك شبيه ل فونتامارا مثلاً أو الظلام في الظهيرة، لأنه لا يوجد كاتب إنكليزي

واحد رأى نظام الحكم الشمولي من الداخل. لقد حدثت في أوروبا خلال العقد الماضي وأكثر، أشياء لأفراد الطبقة الوسطى، لم تحدث حتى للطبقة العاملة في إنكلترا. فقد أُجبر أغلب الكتاب الأوروبيين الذين ذكرتهم آنفاً والعشرات من أمثالهم، على انتهاك القانون لينهمكوا في السياسة بأي طريقة، فرمى بعضهم القنابل وحاربوا في قتال الشوارع. وكان الكثير منهم في السجون أو في معسكرات الاعتقال، أو هربوا عبر الحدود بأسماء مزيفة وجوازات سفر مزورة. لا يستطيع المرء أن يتخيل البروفيسور لاسكي مثلاً منغمساً في نشاطات من هذا النوع، لذلك تفتقر إنكلترا إلى ما يمكن تسميته أدب معسكرات الاعتقال. هذا العالم الخاص الذي أحدثته قوات الشرطة السرية السوفييتية والرقابة على الآراء والتعذيب والمحاكمات المدبرة، معروف ومستهجن إلى حد ما طبعاً، لكنه لم يترك سوى القليل من التأثير العاطفي. أحد نتائج هذا في إنكلترا، هو عدم وجود أدب محرر للوهم بخصوص الاتحاد السوفييتي. يوجد موقف من الاستنكار الجاهل ويوجد موقف من الإعجاب غير النقدي، ولكن لا يوجد سوى القليل جداً بينهما. فالآراء عن محاكمات تخريب موسكو مثلاً كانت منقسمة، وانقسمت بشكل رئيسي حول مسألة إن كان المتهم مذنباً أم لا. ولم يستطع سوى عدد قليل من الناس أن يرى أن المحاكمات كانت رعباً لا يوصف، سواء كانت مبررة أم غير ذلك. وكان الاستنكار الإنكليزي للانتهاكات النازية شيئاً وهمياً أيضاًن يُفتح ويُغلق كصنبور المياه وفقاً للنفعية السياسية. لفهم أشياء كهذه، على المرء أن يكون قادراً على تخيل نفسه الضحية، أما أن يكتب كاتب إنكليزي **ظلام في الظهيرة**، فهذا حدث بعيد الاحتمال، مثل أن يكتب تاجر رقيق **كوخ العم توم**.

نشر كيسلر عملاً يركز حقيقة على محاكمات موسكو، وموضوعه الرئيسي انحطاط الثورات نتيجة الآثار المفسدة للسلطة، لكن الطبيعة الخاصة لديكتاتورية ستالين، دفعته للرجوع إلى موقع غير بعيد من النزعة المحافظة المتشائمة. أنا لا أعرف كم كتاباً كتب، وهو هنغاري كُتبت كتبه الأولى باللغة الألمانية، ونُشرت خمسة من كتبه في إنكلترا: **العهد الإسباني** و**المجالدون** و**ظلام في الظهيرة** و**غثاء الثرى** و**وصول ومغادرة**. إن الموضوع الرئيسي لها كلها نفسه، ولم ينجُ أي كتاب منها من الجو الكابوسي لأكثر من بضع صفحات. يحدث الفعل كله في ثلاثة من الكتب الخمسة أو كلها تقريباً في السجن.

في الأشهر الافتتاحية للحرب الأهلية الإسبانية، كان كيسلر مراسلاً لصحيفة **نيوز كرونيكل** في إسبانيا. وفي بداية ١٩٣٧ أُخذ إلى السجن، حين أسر الفاشيون مدينة مالقا، وكاد أن يعدم اعتباطياً، ثم أمضى بضعة أشهر سجيناً في قلعة يستمع فيها في كل ليلة إلى هدير إطلاق البنادق التي كانت تعدم الجمهوريين دفعة وراء أخرى. وكان في أغلب الوقت في خطر شديد من أن يُعدم هو نفسه. هذه ليست مغامرة تصادفية "قد تحدث لأي أحد" لكنها كانت منسجمة مع نمط حياة كيسلر. إن الشخص الحيادي سياسيًا لن يظل في إسبانيا في ذلك الوقت، والمراقب الأكثر حذراً سيخرج من مالقا قبل وصول الفاشيين. ولو أنه كان صحفياً بريطانياً أو أمريكياً، لنال معاملة فيها قدر أكبر من الاهتمام. إن الكتاب الذي كتبه كيسلر عن هذا هو **العهد الإسباني الجديد**، ويحتوي على مقاطع رائعة، لكنه باستثناء القطع المتفرقة التي توجد عادة في كتاب من نوع التقرير الصحفي، زائف في مواضع أخرى بالتأكيد. في مشاهد السجن يؤسس كيسلر بنجاح جواً كابوسياً وهو براءة اختراعه كما يقال، أما بقية الكتاب فملونة جداً بأرثوذكسية الجبهة الشعبية آنذاك. مقطع واحد أو اثنان كما يبدو رُبّما لأغراض تخدم نادي الكتاب اليساري، فكيسلر كان لا يزال عضواً في الحزب الشيوعي في ذلك الوقت أو تركه حديثاً، والسياسيات المعقدة للحرب الأهلية، جعلت من المستحيل لأي شيوعي أن يكتب بصدق عن الصراع الداخلي من وجهة نظر الحكومة. إن خطيئة أفراد الجناح اليساري كلهم تقريباً من عام ١٩٣٣ فصاعداً، أنهم أرادوا أن يكونوا معادين للفاشية من دون أن يكونوا معادين للشمولية. وفي عام ١٩٣٧ كان كيسلر يعرف هذا مسبقاً، لكنه لم يشعر بأنه حرّ لقول هذا، وقد اقترب كثيراً من قوله. وفي الحقيقة قاله، لكنه ارتدى قناعاً لفعل ذلك –في عمله التالي **المجالدون** الذي نُشر قبل الحرب بسنة واحدة، ولسبب ما لم يجذب سوى القليل من الاهتمام.

المجالدون كتاب غير مقبول من بعض النواحي، فهو عن سبارتاكوس، ذلك المجالد التاراسي الذي حرك تمرد العبيد في إيطاليا في العام ٦٥ ق.م. وأي كتاب عن موضوع كهذا، هو كتاب مُعاق بمقارنة مرهقة مع **سالامبو**. في عصرنا يستحيل أن يكتب المرء كتاباً مثل **سالامبو** حتى لو توفرت لديه الموهبة. إن الشيء العظيم حول سالامبو والأهم من تفاصيله الدقيقة حتى، هو قسوته المطلقة، فقد استطاع فلوبير أن يتمعن في قلب الوحشية الصخرية

للعصور القديمة، حيث كان لدى المرء في منتصف القرن التاسع عشر راحة البال، ولديه الوقت للتجول في الماضي. أما في هذه الأيام فالحاضر والمستقبل مروعان كثيراً، لدرجة لا يمكن الهروب منهما. وحتى لو أقلق المرء نفسه بالتاريخ، فذلك لمجرد أن يجد معاني حديثة هناك. جعل كيسلر من سبارتاكوس شخصية مجازية، نسخة بدائية من الديكتاتور البروليتاري، بينما استطاع فلوبير بجهد مطول من التخيل، أن يجعل من سبارتاكوس المرتزق الوثني رجلاً عصرياً، لكن هذا قد لا يكون مسألة مهمة لو كان كيسلر مدركاً تماماً لما تعنيه استعارته المجازية. إن الفكرة الرئيسية للكتاب، هي أن الثورات تفشل دائماً، كما أنه حول السؤال الذي يطرحه بتلعثم وتردد -لماذا تفشل؟- ويدخل شكه في القصة، فيجعل الشخصيات المركزية مبهمة وغير حقيقية.

ظل العبيد الثائرون ناجحين بشكل منتظم لسنوات عديدة، وتضخمت أعدادهم إلى مئات الألوف، وغمروا مساحات عظيمة من جنوب إيطاليا، ودحروا البعثات التأديبية الواحدة تلو الأخرى، وتحالفوا مع القراصنة الذين كانوا في ذلك الوقت سادة البحر الأبيض المتوسط. وأخيراً شرعوا في العمل لبناء مدينة خاصة بهم، كانوا سيسمونها مدينة الشمس. في هذه المدينة سيكون البشر أحراراً ومتساوين، وقبل كل شيء سعداء: ليس فيها عبودية أو جوع أو ظلم أو جلد أو إعدامات. إنها الحلم كما يبدو بمجتمع عادل يراود كل خيال إنساني بشكل يتعذر استئصاله وفي كل العصور، سواء سمي بمملكة السماء أو المجتمع اللاطبقي، أو اعتُبر مثل العصر الذهبي الذي وجد مرة في الماضي ونكصنا وتفسخنا منه. لا حاجة للقول بأن العبيد فشلوا في إنجازه، إذ ما إن شكلوا أنفسهم في مجتمع، حتى تحولت حياتهم إلى حياة ظلم وكدح مرهق، يملؤها الخوف كغيرها. وحتى الصليب رمز العبودية، عاد إلى الحياة وازدهر لعقاب الأشرار، ثم تأتي النقطة الفاصلة حين يجد سبارتاكوس نفسه مجبراً على صلب عشرين واحداً من أعز أتباعه وأكثرهم إخلاصاً، بعدها تهلك مدينة الشمس، ينشق العبيد وينلحرون تماماً ويؤسر آخر خمسة عشر ألفاً منهم ويُصلبون دفعة واحدة.

يكمن الضعف الخطير في هذه القصة، في أن دوافع سبارتاكوس نفسه لم تكن واضحة أبداً، علماً أن القاضي الرومي فولفيوس الذي انضم إلى التمرد وعمل مؤرخاً لأحداثه، وصف المأزق المألوف من الغايات والوسائل: لن تستطيع إنجاز أي شيء، إلا إذا كنت راغباً

ومستعداً لاستخدام القوة والمكر، يمكنك تفسد أهدافك باستخدامها. إلا أن سبارتاكوس لم يُصور كمتعطش للسلطة، ولا كحالم من الجانب الآخر. وكان مدفوعاً بقوة غامضة، لم يفهمها، وفي أكثر الأوقات كان متردداً بين رأيين واختيار أفضلهما: إما أن يرمي بالمغامرة برمتها ويهرب إلى الإسكندرية، أو أن يستمر. كانت جمهورية العبيد ستُدمر في كافة الأحوال بمذهب المتعة، إن لم يكن بالصراع من أجل السلطة. لقد كان العبيد غير قانعين بحريتهم، لأنهم ظلوا مجبرين على العمل. وقد حدث الانقسام الحاسم، لأن العبيد الأكثر شغباً والأقل تمدنا الغاليين والألمان بشكل رئيس، استمروا في التصرف كقطاع طرق، بعد أن تأسست الجمهورية. قد يكون هذا وصفاً صحيحاً للأحداث- وبالطبع نحن لا نعرف سوى القليل عن تمرد العبيد في العصور القديمة، لكن السماح بأن تدمر مدينة الشمس لعدم منع الغالي كريكسوس من السلب والاغتصاب، فهنا يتردد كيسلر بين القصة المجازية والتاريخ. إن كان سبارتاكوس هو الأنموذج الأصلي للثوري الحديث -وواضح أنه مقصود كذلك- يجب عليه أن يتوه بسبب استحالة الجمع بين السلطة والاستقامة الأخلاقية، وشخصيته سلبية تقريباً. وكان منفعلاً أكثر منه فاعلاً، ولم يكن مقنعاً في بعض الأوقات. تفشل القصة جزئياً، وذلك بسبب تجنب المشكلة المركزية للثورة، أو بسبب عدم حلها على الأقل.

ثم حدث تجنبها مرة أخرى وبطريقة أحذق في الكتاب التالي تحفة كيسلر **ظلام في الظهيرة**، لكن القصة هنا تتعرض للتلف، لأنها تتعامل مع أفراد، واهتمامها نفسي. إنها حادثة منتقاة من خلفية يجب ألا يطالها الشك. **ظلام في الظهيرة** تصف حبس البلشفي العريق روباتشوف وموته، وهو الذي ينكر أولاً ثم يعترف أخيراً بجرائم يدرك تماماً أنه لم يرتكبها. إن النضج وانعدام الدهشة والشجب والشفقة والسخرية الذي رُويت بها القصة، تبين فائدة المرء في كونه أوروبياً حين يعالج موضوعاً من هذا النوع. ويصل الكتاب إلى مقام المأساة. ولو كان الكاتب إنكليزياً أو أمريكياً لحوله إلى كراس دعائي جدلي. لقد هضم كيسلر مادته، واستطاع معالجتها على المستوى الجمالي، وفي الوقت نفسه كان لهذه المعالجة مضموناً سياسياً غير مهم في هذه الحالة، لكنه ربما يكون مؤذياً في كتب لاحقة.

من الطبيعي أن يركز الكتاب كله حول سؤال واحد: لماذا اعترف روباتشوف؟ هو ليس مذنباً- أي ليس مذنباً بشيء، عدا الجريمة الأساسية وهي كره نظام ستالين. إن الأعمال المادية

الملموسة للخيانة التي يُفترض أنه تورط بها، تخيلية كلها، وهو لم يتعرض للتعذيب حتى، أو لم يُعذب بقسوة شديدة. لقد أرهقته العزلة ووجع أسنانه وعوزه للتبغ والأضواء المبهرة المسلطة على عينيه والاستجواب المستمر، لكن هذه كلها في حد ذاتها ليست كافية لتقهر ثوري صلد. لقد فعل النازيون به أشياء أسوأ من ذلك من دون أن يكسروا روحه. إن الاعترافات المنتزعة في محاكمات الدولة الروسية قابلة لثلاثة تفسيرات: أولاً المتهمون مذنبون؛ ثانياً المتهمون يتعرضون للتعذيب وربما الابتزاز بواسطة تهديد أقربائهم وأصدقائهم؛ ثالثاً المتهمون مدفوعون باليأس والإفلاس العقلي والولاء للحزب عادة.

إن التفسير الأول مستثنى بالنسبة لغرض كيسلر في ظلام في الظهيرة. ورغم أن هذا ليس المكان لمناقشة أعمال التطهير الروسية، إلا أنني يجب أن أضيف أن وجود أي دليل صغير مثبت هناك، يوحي بأن محاكمات البلاشفة عبارة عن أشراك. لو افترض المرء أن المتهمين ليسوا مذنبين -وهم في كل الأحوال غير مذنبين في الأشياء الخاصة التي اعترفوا بها- إذاً يكون التفسير الثاني هو التفسير المنطقي. لكن كيسلر يؤيد التفسير الثالث، وهو مقبول من التروتسكي بوريس سوفارين في كتيبه **كابوس في الاتحاد السوفييتي**. يعترف روباتشوف أخيراً، لأنه لم يستطع أن يجد في عقله سبباً يمنعه من ذلك، فالعدالة والحقيقة الموضوعية لم تعدا تعنيان شيئاً له منذ وقت طويل، وظل لعقود مجرد عبد للحزب الذي يطلب منه الآن الاعتراف بجرائم غير موجودة. في النهاية كان فخوراً بقراره في الاعتراف، رغم تعرضه للتنمر والإضعاف في البداية. لقد شعر بتفوقه وسموه على الضابط القيصري المسكين القاطن في الزنزانة المجاورة لزنزانته، والذي يتكلم مع روباتشوف بواسطة النقر على الجدار. وقد اندهش ذلك الضابط القيصري حين علم بأن روباتشوف عزم على الإذعان والاستسلام، لأنه يرى من زاويته "البورجوازية" أن على كل شخص حتى البلشفي الاستمرار في مقاومته. وقال إن الشرف يكمن في فعل ما تعتقد أنه صحيح. لكن روباتشوف يردّ عليه بالنقر "الشرف أن تكون مفيداً من دون جلبة". ويتأمل راضياً بأنه كان ينقر الجدار بنظارته الأنفية التي بلا ساعدين، بينما ينقر الآخر عبق الماضي، بنظارته التي بزجاجة واحدة. إن روباتشوف مثل بوخارين "يتطلع إلى الظلام" ماذا يوجد هناك، وأي مبدأ

وأي ولاء وأي ذكرة عن الخير والشر يستطيع من أجلها تحدي الحزب وتحمل قسط آخر من العذاب؟ إنه ليس وحيداً فقط، بل مجوفاً أيضاً، وقد ارتكب بنفسه جرائم أسوأ من التي ترتكب ضده الآن؛ فقد تخلص مثلاً كمبعوث سري للحزب في ألمانيا النازية من أتباعه المطيعين بإفشاء سرهم إلى الجيستابو. والغريب جداً أنه لو كانت لديه أي قوة داخلية يستجرها، فستكون ذكريات صباه حين كان ابن مالك أراضٍ. إن الشيء الأخير الذي يتذكره حين تطلق النار عليه من الخلف وترديه، هي أوراق أشجار الحور على ملكية والده العقارية. ينتمي روباتشوف إلى الجيل الأقدم من البلاشفة الذين كُنسوا في أعمال التطهير، وهو مطلع على الفن والأدب وعلى العالم خارج روسيا، وهو يتناقض بحدة مع جليتكين الشاب الذي يستجوبه ويعمل في الاستخبارات الروسية "رجل الحزب الطيب" الأنموذجي الذي يخلو من الوساوس والفضول تماماً، والذي هو عبارة عن غرامافون (حاكٍ) مفكر. إن روباشوف بخلاف جليتكين، لا يعتبر الثورة نقطة بداية له، ولم يكن ذهنه صفحة فارغة حين اخترقه الحزب، كما أن تفوقه على الآخر يُعزى إلى أصله البورجوازي أخيراً.

لا يستطيع المرء باعتقادي أن يجادل بأن ظلام في الظهيرة مجرد قصة تعالج مغامرات فرد يتخيل، ومن الواضح أنه كتاب سياسي مؤسس على التاريخ، ويقدم تفسيراً لأحداث مثيرة للجدل. فروباتشوف يمكن أن يُكنى بتروتسكي أو بوخارين أو راكوفسكي أو شخصية متحضرة نسبياً وسط البلاشفة القدماء. إذا كتب شخص عن محاكمات موسكو، فعليه أن يجيب على السؤال "لماذا اعترف المتهمون؟"، وأي جواب يقدمه هو بمثابة اتخاذ قرار سياسي. يجيب كيسلر في الواقع "لأن هؤلاء الأشخاص تعفنوا بالثورة التي خدموها"، واقترب بفعله هذا من الزعم بأن الثورات سيئة بطبيعتها. لو افترض المرء أن المتهمين في محاكمات موسكو أُجبروا على الاعتراف بواسطة نوع من الإرهاب، فإنه يقول إن مجموعة خاصة وحيدة من القادة الثوريين ضلت وتاهت عن أهدافها. وهنا سيُلام الأفراد وليس الوضع. لكن مضمون كتاب كيسلر يرى أن روباتشوف لو كان في السلطة، لكان أفضل من جليتكين: أو بالأحرى أفضل فقط لأن وجهة نظره مازالت قبل ثورية جزئياً. يبدو أن كيسلر يودّ القول إن الثورة عملية مفسدة. انضم إلى الثورة وستنتهي إما كـ

روباتشوف أو كـ جليتكين. ليست "السلطة من تُفسد" وحدها، وإنما وسائل إحرازها أيضاً، لذلك فإن كل الجهود لتجديد المجتمع بوسائل عنيفة، تؤدي إلى أقبية الشرطة السرية السوفييتية (جي بي يو - سلف الكيه جيه بي) وقد أدى لينين إلى وجود ستالين، وكان سيصبح مثل ستالين لو بقي حياً.

طبعاً، لم يقل كيسلر هذا بصراحة تامة، وربما لم يكن مدركاً له تماماً. هو يكتب عن الظلام، لكنه ظلام لما يجب أن يكون ظهراً. يشعر في قسم من الوقت أن الأشياء كان يمكن لها أن تحدث بشكل مختلف. إن فكرة فلان وفلان وفلان "خانوا" وأن الأشياء سارت في المسار الخاطئ بسبب الشر الفرداني، حاضرة دائماً في تفكير الجناح اليساري. لاحقاً في وصول ومغادرة، ينتقل أبعد بكثير باتجاه الموقف المعادي للثورة، لكن بين هذين الكتابين هناك كتاب آخر غثاء الثرى، وهو عبارة عن سيرة ذاتية أمينة، ليس فيه سوى رأي غير مباشر في المشاكل التي أثيرت في ظلام في الظهيرة. صادقاً مع نمطه الحياتي، علق كيسلر في فرنسا واحتجز هناك بسبب اندلاع الحرب، وكأجنبي معروف بعدائه للفاشية، ألقت حكومة دالدير القبض عليه واعتقلته. أمضى الأشهر التسعة الأولى من الحرب في معسكر، سجن ثم فرّ خلال انهيار فرنسا، وسافر بطرقات غير مباشرة إلى إنكلترا؛ حيث رُمي في السجن مرة أخرى كغريب عدو، لكن أُطلق سراحه عاجلاً هذه المرة. إن الكتاب تقرير صحفي قيّم ومع بعض القطع الأخرى من الكتابة الصادقة التي أُنتجت في وقت الهزيمة الكاملة، وهو مذكّر ورسالة من الأعماق التي يمكن أن تنحدر إليها الديمقراطية البورجوازية. في هذه اللحظة مع فرنسا المحررة حديثاً وحملة المطاردة المستمرة على أوجها التي استهدفت المتآمرين، نكاد أن ننسى أنه في عام ١٩٤٠ اعتقد مراقبون متنوعون على الأرض بأن حوالي أربعين في المائة من سكان فرنسا كانوا إما موالين للألمان أو لامبالين نهائياً. إن كتب الحرب الصادقة ليست مقبولة أبداً لغير المقاتلين، وكتاب كيسلر لم يلقَ الترحيب الجيد. لم يخرج منها أحد بخير لا السياسيون البرجوازيون الذين كانت فكرتهم في إدارة حرب ضد الفاشية في سجن كل واحد من الجناح اليساري يستطيعون وضع يدهم عليه، ولا الشيوعيون الفرنسيون الذين كانوا موالين للنازيين بشكل فعال وبذلوا ما في وسعهم لتخريب مسعى الحرب الفرنسية، ولا عموم أفراد الشعب الذين كان يسيرون وراء

الدجالين من أمثال دوريت كقادة موثوقين. يدوّن كيسلر بعض المحادثات الرائعة مع زملاء له كانوا ضحايا في معسكر الاعتقال، ويضيف أنه مثل أكثر اشتراكيي الطبقة الوسطى والشيوعيين، لم يقم حتى الآن بأي اتصال حقيقي مع البروليتاريين، وإنما مع الأقلية المثقفة فقط، ويخرج بخاتمة متشائمة: "من دون تثقيف الجماهير، لن يكون هناك أي تقدم اجتماعي. ومن دون التقدم الاجتماعي، لن يكون هناك تثقيف للجماهير" في غثاء الأرض يتوقف كيسلر عن إسباغ المثالية على العامة من الناس، كما أنه يهجر الستالينية، لكنه لم يكن تروتسكياً أيضاً. هذا الكتاب وصلة حقيقية مع كتاب وصول ومغادرة، حُذفت منه ما تسمى بوجهة النظر الثورية، وربما كان ذلك أفضل.

وصول ومغادرة، ليس كتاباً مرضياً، لكن الادعاء بأنه رواية، هو ادعاء هزيل جداً، وهو في الواقع كراسة مفادها أن العقائد الثورية مسوغات للدوافع العصابية. بكل تناسقه المتقن، يبدأ الكتاب وينتهي بنفس الفعل -وثبة إلى بلد أجنبي. شاب شيوعي سابق ينجح في الفرار من هنغاريا، ليقفز على شاطئ البرتغال؛ حيث يأمل في الانضمام إلى الجيوش البريطانية، القوة الوحيدة التي تقاتل ضد ألمانيا في ذلك الوقت. يبرد حماسه قليلاً بحقيقة أن القنصلية البريطانية غير مكترثة وتتجاهله تقريباً. لعدة شهور أثناءها تنفذ نقوده ويفرّ مع لاجئين آخرين أمكر منه إلى أمريكا. يتعرض للإغواء على التوالي من قبل العالم في شكل مروج دعائي نازي، ثم بالجسد على شكل فتاة فرنسية، وبعد انهيار عصبي- بالشيطان في شكل محلل نفساني. يستخرج المحلل النفساني منه حقيقة أن حماسه الثوري ليس مؤسساً على إيمان حقيقي بالحتمية التاريخية، وإنما على عقدة ذنب مرضية ناشئة عن محاولته في طفولته الباكرة لإعماء شقيقه الطفل. في الوقت الذي يحصل فيه على فرصة الانضمام إلى صفوف قوات الحلفاء، يفقد كل مبرر لرغبته في فعل ذلك. وحين يكون على وشك الرحيل إلى أمريكا، تسيطر عليه دوافعه غير العاقلة مرة أخرى. عملياً هو لا يستطيع التخلص من الصراع. حين ينتهي الكتاب، يهبط في مظلة فوق منظر مظلم من بلاده الأصلية؛ حيث يُجند كعميل سري لصالح بريطانيا.

كبيان سياسي (والكتاب ليس أكثر من ذلك بكثير) هو غير كافٍ طبعاً. صحيح أن النشاط الثوري في حالات كثيرة، وربما في كل الحالات، هو نتيجة لعدم التأقلم والانسجام الشخصي.

هؤلاء الذين يصارعون ضد المجتمع، هم على الإجمال الذين لديهم مبرر لكرهه، أما الناس الأصحاء العاديون فلا يجذبهم العنف واللاشرعية أكثر من الحرب. يدلي النازي الشاب في وصول ومغادرة بتعليق ثاقب، بأن المرء يستطيع أن يرى الخطأ في حركة اليسار من خلال قبح نسائها، لكن هذا لا يبطل القضية الاشتراكية أخيراً. إن الأفعال لها نتائج بغض النظر عن دوافعها، فدوافع ماركس الأساسية ربما كانت الحسد والحقد، لكن هذا لا يثبت أن استنتاجاته كانت مزيفة. لكي يأخذ البطل في وصول ومغادرة قراره الحاسم بسبب غريزة محضة بألا يتهرب من معركة أو خطر، يجعله كيسلر يعاني من فقدان مفاجئ لذكائه، لكن بمثل هذا التاريخ الذي لديه خلفه، كان قادراً أن يرى أشياء محددة عليه فعلها، سواء كانت مبرراتنا لفعلها "خيرة" أم "شريرة". إن التاريخ محكوم بالتحرك في جهة محددة، حتى لو دُفع في ذاك الطريق بواسطة العصابيين. في وصول ومغادرة تتساقط أوثان بيتر الواحد تلو الآخر. انحطت الثورة الروسية وانحرفت، وبريطانيا التي يُرمز لها القنصل الهرم بأصابعه المصابة بالنقرس، ليست أفضل، والوعي الطبقي البروليتاري الأممي خرافة. لكن بالنتيجة (بما أن كيسلر وبطله "يؤيدان" الحرب أخيراً) يجب أن يظل التخلص من هتلر هدفاً جديراً، قليل من الاقتيات الضروري دوافعه غير لازمة.

لأخذ قرار سياسي منطقي، يجب أن يكون لدى المرء صورة عن المستقبل. لكن في الوقت الحاضر، يبدو أن كيسلر لا يملك حتى واحدة أو بالأحرى يملك اثنتين باطلتين، فهو يؤمن بالفردوس الأرضي كهدف نهائي، دولة الشمس التي شرع المجالدون في تشييدها والتي لازمت خيال الاشتراكيين والفوضويين والمنشقين الدينيين لمئات السنين، لكن عقله يخبره أن الفردوس الأرضي يتراجع إلى مسافة بعيدة، وأن ما ينتظرنا هو سفك الدماء والاستبداد والحرمان. وقد وصف نفسه حديثاً بـ "المتشائم قصير الأمد". إن كل أنواع الرعب تعصف في الأفق، لكن الأمور ستُصحح كلها في النهاية. هذه النظرة ربما تنتشر وتتسع وسط الناس المفكرين: إنها ناتجة عن الصعوبة الكبيرة ذاتها، بعد أن تخلى المرء عن إيمانه الديني الأرثوذكسي في القبول بالحياة على الأرض كحياة بائسة بشكل متأصل، ومن جهة أخرى من الإدراك بأن جعل الحياة محتملة مشكلة أكبر بكثير مما تبدو عليه. فمنذ عام ١٩٣٠ تقريباً لم يقدم العالم أي مبرر لأي قدر من التفاؤل، ولا شيء في

المدى المنظور سوى هياج من الأكاذيب والكره والقسوة والجهل، كما تلوح وراء مشاكلنا الحالية مشاكل أضخم لم تدخل إلى الوعي الأوروبي إلا الآن. إن مشاكل الإنسان الرئيسية قد لا تُحل أبداً، لكن ذلك لا يمكن تصوره أيضاً! من الذي يجرؤ أن ينظر إلى العالم الحالي ويقول لنفسه "إنه سيظل هكذا دائماً: لا يمكن أن يتحسن بشكل ملحوظ حتى بعد مليون سنة؟" من هنا ينبثق الاعتقاد شبه الصوفي بعدم وجود علاج من أجل الحاضر، وأن الفعل السياسي عقيم كله. لكن في مكان ما في الفضاء والزمان، لن تظل الحياة الإنسانية هذا الشيء البائس البهيمي التي هي عليه الآن.

إن الطريق السهل الوحيد للخروج، هو طريق المؤمن الديني، الذي يعتبر هذه الحياة مجرد تحضير وإعداد للحياة التالية، لكن قلة من الناس المفكرين الآن تؤمن بالحياة بعد الموت، وعدد هؤلاء المؤمنين ربما في تناقص. ولو تدمر أساس الكنائس المسيحية الاقتصادي، لما بقيت حية بجدارتها الذاتية ربما.

المشكلة الحقيقية هي: كيف نحيي الموقف الديني مع القبول بالموت كخاتمة نهائية؟ يمكن أن يكون البشر سعداء فقط حين لا يفترضون أن الهدف من الحياة هو السعادة، لكن من غير المحتمل أن يقبل كيسلر بهذا، فهناك مسحة متعة واضحة في كتاباته وفشله في إيجاد موقف سياسي بعد انفصاله عن الستالينية، هو نتيجة لهذا.

ان الثورة الروسية، وهي الحدث المركزي في خماسية كيسلر، بدأت بآمال سامية. نحن نسينا هذه الأشياء الآن، لكن منذ ربع قرن كان من المتوقع جداً أن تؤدي الثورة الروسية إلى يوتوبيا، لكن من الواضح أن هذا لم يحدث. لم يكن كيسلر قليل الذكاء كي لا يرى هذا، ولا قليل الإحساس كي لا يتذكر الهدف الأصلي. وإضافة إلى هذا يستطيع أن يرى من زاويته الأوروبية أشياء مثل أعمال التطهير والترحيل الجماعي على حقيقتها، وهو ليس مثل شو أو لاسكي، حيث ينظر إليها من خلال الطرف الخطأ من المنظار المقرب. لذلك يتوصل إلى النتيجة: هذا ما تؤدي إليه الثورات. ليس هناك أي شيء من أجلها سوى "متشائم قصير الأمد" أي أن تبتعد عن السياسة، اصنع واحة تستطيع البقاء فيها أنت وأصدقاؤك سليمي العقول وتأملون في تحسن الأشياء بطريقة أو بأخرى خلال مئة سنة.

في أساس هذا، يكمن مذهبه في المتعة الذي يدفعه إلى التفكير في الفردوس الأرضي كشيء مرغوب. ربما درجة ما من المعاناة يتعذر استئصالها من الحياة الإنسانية، وربما الخيار أمام الإنسان دائماً خيار من الشرور، وربما حتى هدف الاشتراكية ليس جعل العالم مثالياً وإنما تحسينه. إن كل الثورات إخفاقات، لكنها ليست بنفس الإخفاق. إن عناد كيلر للاعتراف بهذا، هو الذي قاد ذهنه مؤقتاً إلى زقاق مسدود، ما جعل كتاب وصول ومغادرة يبدو ضحلاً مقارنة بكتبه التي سبقته.

مارك توين - المهرج المجاز

حطم مارك توين بوابات مكتبة إيفريمان الشامخة في توم سوير وهاكلبيري فين فقط اللذين اشتهرا سابقاً تحت قناع "كتب أطفال" (وهما ليسا كذلك) لكن أفضل كتبه وأكثرها تميزاً خشنها والأبرياء في البيت، وحتى الحياة في الميسيسيبي لا تذكر في هذه البلاد إلا قليلاً، ولولا الوطنية التي اختلطت بالحكم الأدبي في كل مكان، لم تبق حية في أميركا بلا شك.

أنتج مارك توين تشكيلة مذهلة من الكتب تتدرج من "حياة" مخنثة وضعيفة لجان دارك، إلى كراسة فاحشة جداً، لدرجة لم تطبع علانية. إلا أن أفضل أعماله تتركز حول نهر الميسيسيبي وبلدات التعدين المقفرة في الغرب. ولد في عام ١٨٣٥ (انحدر من عائلة جنوبية، عائلة غنية بما يكفي لتملك عبداً واحداً أو اثنين ربما) وأمضى شبابه والفترة المبكرة من رجولته في العصر الذهبي لأميركا، الفترة التي افتتحت فيها السهول العظيمة. وحين بدت الثروة والفرصة بلا حدود وشعرت الكائنات البشرية بأنها حرة، كانت حرة بالفعل كما لم تكن من قبل أبداً وربما لن تكون مرة أخرى لقرون من الزمن. الحياة في الميسيسيبي والكتابان الاثنان الآخران اللذان ذكرتهما، هي مجموعة مختلطة من حكايات نادرة وأوصاف تصويرية وتاريخ اجتماعي جدي وساخر معاً، لكن لها موضوعاً مركزياً ربما يمكن ترجمته بهذه الكلمات التالية: "هكذا تتصرف الكائنات البشرية حينما لا تكون مرعوبة من الطرد من العمل". لم يتعمد مارك توين كتابة ترتيلة للحرية من خلال كتابة هذه الكتب. في المقام الأول هو مهتم في "الشخصية" وفي التباينات المجنونة التي لا تصدق تقريباً التي تقدر عليها الطبيعة الإنسانية حين يُزال منها الضغط الاقتصادي والعرف. إنه لم يبالغ كثيراً في وصف رجال الطوافات وربابنة الميسيسيبي والمعدنين وقطاع الطرق ربما، لكنهم كانوا مختلفين عن الرجال الحديثين وعن بعضهم البعض، كاختلاف التماثيل ذات الوجوه البشعة في كاتدرائيات القرون الوسطى. استطاعوا تطوير فردانيتهم الغريبة والشريرة أحياناً لنقص في الضغط الخارجي. فالدولة لا وجود لها والكنائس ضعيفة وتتحدث بأصوات كثيرة، والأرض متوفرة ومجانية. إن كرهت وظيفتك، اضرب رئيس عملك في عينه، وانتقل إلى مدى أبعد في الغرب؛ علاوة على ذلك، كانت النقود

وافرة، لدرجة أن أصغر عملة نقدية متداولة تساوي في قيمتها شلناً. لم يكن الرواد الأمريكيون (سوبرمانات) فوق بشريين، ولم يكونوا شجعاناً بصورة استثنائية. بلدات كاملة من المنجمين عن الذهب الجسورين تركت نفسها فريسة الرعب والخوف من قطاع طرق، وافتقرت إلى الروح الشعبية لمقاومتهم. حتى إنهم لم يكونوا متحررين من الامتيازات الطبقية، فالمجرم المتهور الذي كان يطوف في شوارع مستوطنة التعدين مع مسدس ديزينغر في جيب معطفه وعشرون جثة في رصيده، يلبس معطفاً طويلاً وقبعة عالية لماعة ويصف نفسه بقوة بـ "الجنتلمان"، وكان موسوساً وشديد التدقيق بعادته الغذائية. لكن لم يكن قدر الإنسان مقرراً منذ ولادته على الاقل. أسطورة الـ"كوخ الخشبي إلى البيت الأبيض" كانت صحيحة طالما ظلت الأرض المجانية وبطريقة ما. من أجل هذا اقتحمت غوغاء باريس الباستيل. وحين يقرأ المرء مارك توين وبريت هارت ويتمان، فمن الصعب أن يشعر أن مسعاهم كان ضائعاً.

كان هدف مارك توين ومسعاه أن يكون شيئاً أكثر من مؤرخ إخباري للميسيسبي ولسباق البحث عن الذهب. لقد كان مشهوراً في عصره في كل أنحاء العالم كفكاهي ومحاضر هزلي، وكان له في نيويورك ولندن وبرلين وفيينا وملبورن وكالكوتا حضور واسع يهتز بالضحك على دعابات توقفت الآن بدون استثناء تقريباً عن كونها مضحكة. (من الجدير بالملاحظة أن محاضرات مارك توين لم تكن ناجحة إلا مع جمهورين من الحضور الأنغلوساكسوني والألماني فقط، أما الأعراق اللاتينية الناضجة نسبياً التي تركزت فكاهتها الخاصة بها دائماً حول الجنس، فتذمر من كونها لا تهتم بالسياسة أبداً. بالإضافة إلى ذلك، كان لدى مارك توين بعض المطامح ليكون ناقداً اجتماعياً وحتى نوعاً من فيلسوف، وكان لديه في داخله مزاج مهاجم للمعتقدات وثوري حتى أنه أراد بوضوح أن يتابعه، لكنه لم يفعل ذلك أبداً. كان يمكن أن يكون مدمراً للخدع ونبياً للديمقراطية أنفس من ويتمان، لأنه أفضل صحة وأكثر هزلاً، وبدلا من ذلك أصبح ذلك الشيء الملتبس "شخصية عامة" يتملقه موظفو جوازات السفر وتستضيفه الأسرة الملكية. إن مسيرته المهنية تعكس التدهور في الحياة الأمريكية التي توطدت بعد الحرب الأهلية.

لقد جرت مقارنة مارك توين بمعاصره أحياناً أناتول فرانس. وهذه المقارنة ليست تافهة كما تبدو. كان كلا الرجلين الابنين الروحيين لفولتير، وكلاهما لديه رؤية ساخرة ومشككة للحياة

وتشاؤمية فطرية يغطيها الفرح، وكلاهما عرفا أن النظام الاجتماعي القائم هو احتيال ومعتقداته المدللة أوهام في أغلبها كما كان كلاهما ملحدين متعصبين ومقتنعين (في حالة مارك توين كان التأثير لداروين) بقسوة الكون التي لا تطاق. لكن التشابه ينتهي هنا. إن الفرنسي ليس أكثر تعلماً بشكل هائل وأكثر تمدناً وأنشط جمالياً فقط، وإنما أكثر شجاعة أيضاً وهو يهاجم الأشياء التي لا يؤمن بها ولم يلجأ دائماً كمارك توين خلف القناع الأنيس لـ "للشخصية العامة" والمهرج المرخص له، وهو مستعد للمخاطرة بإغضاب الكنيسة، وأخذ الجانب غير الشعبي في الجدال - في قضية دريفوس مثلاً. لم يهاجم مارك توين باستثناء مقال قصير واحد "ما هو الإنسان؟" المعتقدات الموطدة أبداً بطريقة قد تورطه في مشكلة، ولم يستطع أبداً كذلك أن يفطم نفسه من الفكرة، وهي فكرة أمريكية بشكل خاص بأن النجاح والفضيلة هما الشيء نفسه.

في الحياة في الميسيسيبي، هناك توضيح قليل غريب للضعف المركزي لشخصية مارك توين. في القسم الأول من هذا الكتاب الذي بمعظمه عبارة عن سيرة ذاتية، تم تبديل التواريخ. يصف مارك توين مغامراته كملاح في نهر المسيسيبي، كما لو كان صبياً في حوالي السابعة عشر في ذلك الوقت، بينما كان في الحقيقة شاباً في الثلاثين تقريباً. هناك سبب لهذا، وفي نفس القسم من الكتاب يصف بطولاته في الحرب الأهلية التي لم تكن مشرفة بشكل واضح. بالإضافة إلى ذلك بدأ مارك توين بالقتال -ولو أمكن القول حارب- إلى جانب الجنوبيين، ثم بدل ولاءه قبل أن تضع الحرب أوزارها. وهذا النوع من السلوك يمكن غفرانه لصبي وليس لرجل - من هنا جاء تعديل التواريخ. لكن من الواضح بما يكفي أيضاً أنه بدل اصطفافه لأنه رأى أن الشمال سينتصر. فهذا الميل للوقوف إلى جانب الأقوى كلما أمكنه ذلك، والاعتقاد أن القوة هي الصح واضح في كل سيرته المهنية. في خشنتها هناك وصف مشوق لقاطع طريق يدعى سليد، ارتكب ثماني وعشرين جريمة قتل، إضافة إلى انتهاكات أخرى لا تحصى. من الواضح تماماً أن مارك توين معجب بهذا الوغد المثير للاشمئزاز. كان سليد ناجحاً، لذلك كان جديراً بالإعجاب. وهذه النظرة ليست أقل شيوعاً في الوقت الحاضر، ويوجزها التعبير الأمريكي الهام "يفعلها بنجاح".

في فترة البحث عن المال التي تلت الحرب الأهلية، كان من الصعب على أي واحد من طبيعة ومزاج مارك توين رفض النجاح. فقد كانت الديمقراطية القديمة والبسيطة وقطع

الأشجار ومضغ التبغ التي مثّلها أبراهام لينكولن تهلك: أصبح الآن عصر العامل المهاجر الرخيص ونمو الشركات الكبيرة. هجا مارك توين معاصريه بصورة معتدلة في العصر المطلي بالذهب، لكنه أيضاً سلّم نفسه إلى الحمى السائدة، فربح وخسر مبالغ كبيرة من المال. حتى إنه هجر الكتابة لفترة من السنين من أجل التجارة، وبدد وقته على التهريج، ليس في جولات من المحاضرات والمآدب العامة فقط، وإنما في كتابة كتاب مثل **يانكي من كونيكتيكوت في بلاط الملك آرثر** أيضاً، وهو مداهنة متعمدة لكل ما هو أشد سوءاً وسوقية في الحياة الأمريكية. الرجل الذي كان يمكن أن يكون نوعاً من فولتير قروي، أصبح خطيب العشاءات الأشهر عالمياً الذي فتن الحضور بحكاياته النادرة وقدرته على جعل رجال الأعمال يشعرون بأنهم متبرعون ومحسنون شعبيون.

من العادي أن يلقي مارك توين اللوم على زوجته في فشله بكتابة الكتب التي كان ينبغي عليه أن يكتبها، فمن الواضح أنها اضطهدته جيداً وتماماً. ففي كل صباح كان مارك توين يُريها ما كتبه في اليوم الذي قبله، فتقوم السيدة كليمنس (اسم مارك توين الحقيقي صامويل كليمنس) بمراجعته بقلم رصاص، فتقص أي شيء تظنه غير مناسب. يبدو أنها كانت صاحبة قلم أزرق رهيب حتى بمعايير القرن التاسع عشر. هناك وصف في كتاب دبليو. دي هاولز **مارك توين الخاص بي** للاحتجاج والاعتراض الذي حدث حول شتيمة فظيعة انتشرت بإطناب في **هاكلبيري فين**. استغاث مارك توين بهاولز الذي اعترف أنها كانت "ما ينبغي على هاك قوله" لكنه وافق السيدة كليمنس بأن الكلمة لا يمكن أن تُطبع. كانت الكلمة "جحيم"(بمعنى توبيخ قاس). رغم ذلك ليس هناك كاتب يكون العبد الفكري لزوجته في الحقيقة، ولم تكن السيدة كليمنس تستطيع توقيف مارك توين عن كتابة أي كتاب. لو أراد أن يكتب حقيقة، فربما هي جعلته يستسلم للمجتمع بشكل أسهل، لكن الاستسلام حدث بسبب ذلك الخلل في طبيعته الخاصة به، وهو عجزه عن احتقار النجاح.

الكثير من كتب مارك توين محكومة بالبقاء، لأنها تحتوي تاريخاً اجتماعياً نفيساً، فقد غطت حياته الفترة العظيمة للتوسع الأمريكي. حين كان طفلاً، كان الذهاب مع غداء في نزهة ومشاهدة شنق أحد الإلغائيين (الرق) خروجاً يومياً عادياً. وحين مات لم تعد الطائرة ابتداعاً جديداً. أنتجت هذه الفترة أدباً قليلاً نسبياً، ولكن بالنسبة إلى مارك توين، كانت صورتنا

لباخرة بمجاديف ميسيسيبية أو لعربة يجرها حصان تعبر السهول، ستكون أكثر عتامة مما هي عليه. لكن أغلب الناس الذين درسوا أعماله خرجوا بشعور أن مارك توين كان بإمكانه فعل شيء أكثر مما فعل، كما أنه يعطي طول الوقت انطباعاً غريباً بكونه على وشك أن يقول شيئاً ثم يخاف من قوله. لذلك الحياة في الميسيسيبي وباقي الأعمال، تبدو مسكونة بشبح كتاب أعظم وأكثر تماسكاً. من الملاحظ أنه بدأ سيرته الذاتية في التعليق أن حياة الإنسان الداخلية لا يمكن وصفها، ونحن لا نعرف ما كان يفترض أن يقوله-من المحتمل أن تقدم الكراسة صعبة المنال ١٦٠١ مفتاحاً لمعرفة ذلك، لكن يمكننا أن نخمن أنها قد تحطم شهرته وتقلل دخله بنسب معقولة.

تشارلز ريد

يستطيع المرء الزعم أنه مازال لتشارلز ريد أتباع، بما أن كتبه نُشرت ولاتزال في طبعات رخيصة. لكن من النادر أن تقابل أحداً قرأه طوعاً. إن اسمه يستحضر على الأكثر عند أغلب الناس ذكرى غامضة لـ"حل" **الدير والموقد** كواجب مدرسي في يوم العطلة. لسوء حظه أن يذكّر به هذا الكتاب بالخصوص تماماً، كما يذكّر فيلم **يانكي من كونيكتكوت في بلاط الملك آرثر** بمارك توين أساساً. كتب ريد عدداً من الكتب المملة، **والدير والموقد** أحدها، لكنه كتب أيضاً ثلاث روايات، أنا شخصياً أؤيد بأنها ستعمر أكثر من كل أعمال ميريديث وجورج إليوت، بالإضافة إلى بعض القصص القصيرة الطويلة الرائعة مثل **صاحب السبع مهن وسيرة ذاتية للص.**

ما هي جاذبية ريد؟ في الأساس هي نفس السحر الذي يجده المرء في قصص ار اوستين فريمان البوليسية أو **مجموعات غرائب الرائد البحري غولد**- سحر المعرفة العقيمة. كان ريد يفتقر إلى التعليم الموسوعي، ولكنه يمتلك مخزوناً واسعاً من معلومات غير مترابطة، سمحت له موهبته السردية النشطة بحشرها في كتب لا تجاز بأي شكل كروايات. لو كان لديك نوع العقل الذي يجد متعة في التواريخ والقوائم والفهارس والتفاصيل المادية وأوصاف الإجراءات وواجهات محلات السلع المستعملة والأعداد السابقة من اكستشينج آند مارت، ونوع العقل الذي يحب معرفة كيف كان يعمل منجنيق العصور الوسطى بالضبط، أو ما هي الأشياء التي كانت تحتويها زنزانة سجن من عشرينيات القرن الثامن عشر، إذاً فأنت لا تستطيع تفادي الاستمتاع بريد. لكنه طبعاً لم ير عمله في هذا المنظار، فقد تباهى بدقته وجمع كتبه عموماً من قصاصات الجرائد. لكن الوقائع الغريبة التي جمعها كانت ثانوية لـ "غرضه" الذي أراده، فكان مصلحاً اجتماعياً في بطريقة متشظية، وشنّ هجمات نشطة على شرور متنوعة مثل إراقة الدماء والروتين الممل والملاجئ الخاصة والعزوبية الإكليركية والجَلْد القاسي.

إن الرواية المفضلة من روايات تشارلز ريد لديّ هي **غش**، وهي ليست هجوماً على أي شيء على وجه الخصوص. إن **غش** مثل كل روايات القرن التاسع عشر، أعقد من أن تلخص، لكن

قصتها المركزية عن رجل دين شاب اسمه روبرت بينفولد الذي يدان ظلماً بجرم التزوير، فيُرحّل إلى استراليا، لكنه يهرب متنكراً، وتتحطم سفينته على جزيرة مهجورة مع البطلة. هنا طبعاً ريد في مجاله. من كل الرجال الذين عاشوا، كان الأفضل والمناسب لكتابة قصة جزيرة مهجورة. بعض قصص الجزر المهجورة طبعاً أسوأ من بعضها الآخر، لكن كلها لن تكون سيئة برمتها حين تُكرس للتفاصيل المادية الحقيقية عن الصراع من أجل البقاء. إن قائمة بالأشياء في ملكية رجل تحطمت سفينته، ربما أضمن رابح في الأدب القصصي وأضمن من مشهد محاكمة حتى. تقريباً بعد ثلاثين سنة من قراءة الكتاب لا أزال أتذكر تقريباً بالضبط ما هي الأشياء التي امتلكها الأبطال الثلاث في رواية بلانتاين جزيرة المرجان (منظار مقرب وست باردات من الحبل المجدول ومطواة وجرس نحاسي وقطعة حديدية) حتى كتاب كئيب مثل روبنسون كروزو غير قابل للقراءة جملة، ولا تعرف سوى قلة من الناس حتى بوجود الجزء الثاني منه، يصبح مشوقاً حين يصف جهود كروزو لصنع طاولة وصقل آنية خزفية وزراعة رقعة من القمح. لكن ريد كان خبيراً في الجزر القاحلة، أو في كافة الأحوال كان متبحراً في كتب الجغرافيا المدرسية في عصره. بالإضافة إلى ذلك، كان من النوع الذي يرتاح وكأنه في بيته وهو على جزيرة قاحلة، فهو لم يرتبك أبداً مثل كروزو بمشكلة سهلة مثل تخمير الخبز. وعلى العكس من بالانتاين، كان يعرف أن الرجال المتمدنين لا يستطيعون إشعال نار بفرك العصي معاً.

إن بطل غشّ ككل أبطال ريد تقريباً، نوع من رجل خارق. إنه بطل وقديس وعالم وسيد ورياضي وملاكم وملاح وعالم في الفيزيولوجيا وعالم في علم النبات وحداد ونجار، كلها أُدرجت في واحد، وخلاصة كل المواهب التي تخيلها ريد بأمانة لتكون النتاج القياسي لجامعة إنكليزية. طبعاً لم يمر شهر أو شهران فقط حتى يحول هذا الكاهن الرائع الجزيرة القاحلة إلى مكان مثل أحد فنادق ويست ايند. حتى قبل أن يصل إلى الجزيرة بعد أن مات كل الناجين في القارب المكشوف من العطش، أظهر براعته في صنع جهاز تقطير من وعاء فخاري وقارورة مياه حارة وقطعة من شبكة أنابيب. لكن أفضل مآثره هي الطريقة التي استنبطها لمغادرة الجزيرة. هناك جائزة لمن يقتله هو نفسه، ويفترض أن يكون مسروراً في البقاء، لكن البطلة هيلين رولستون التي لا تعلم أنه محكوم، كانت متشوقة للنجاة طبعاً. سألت روبرت أن يحول "عقله العظيم" لحل هذه المشكلة. كانت الصعوبة الأولى طبعاً اكتشاف موقع ومكان الجزيرة

بالضبط. لحسن الحظ كانت هيلين مازالت تلبس ساعة يدها المحتفظة بتوقيت سيدني. بتثبيت عصا في الأرض ومراقبة ظلها، دوّن روبرت لحظة الظهر بالضبط، وبعدها باتت مسألة تحديد خطوط الطول بسيطة- لرجل من قياسه، يفترض منه طبعاً أن يعرف خط طول سيدني، ومن الطبيعي بالمثل أنه يستطيع تحديد خطوط العرض ضمن درجة أو اثنتين من خلال طبيعة الحياة النباتية. أما الصعوبة التالية، فكانت أن يرسل رسالة إلى العالم الخارجي. وبعد تأمل وتفكير، كتب روبرت سلسلة من الرسائل على قطع من الرق مصنوع من مثانات الفقمة بحبر استخلصه من حشرات قرمزية اللون، ولاحظ أن الطيور المهاجرة كانت تستخدم الجزيرة كمكان توقف، وركز على البط كسعاة محتملين، لأن كل بطة عرضة لأن تُصاد عاجلاً أو آجلاً. وبواسطة استراتيجية مستخدمة في الهند كثيراً، أسر عدداً من البط، وربط رسالة بساق كل واحدة وتركها تذهب. أخيراً، التجأت إحدى البطات إلى إحدى السفن، وتم إنقاذ الاثنين (البطل والبطلة)، لكن نصف القصة لم يكتمل عند هذا الحد، إذ يتلوه تشعبات هائلة ومكائد ومكائد مضادة ومؤامرات وانتصارات وكوارث، تنتهي بتبرئة روبرت وبأجراس الزفاف.

ليس من العدل القول إن اهتمام ريد الوحيد كان في التفاصيل الفنية في أي من كتبه الثلاث: غش، ونقود، والإصلاح لا يفوت أوانه أبداً. إن قدرته في الكتابة التصويرية، وخصوصاً في وصف الفعل العنيف، مدهشة أيضاً. وعلى مستوى القصة المتسلسلة هو مخترع رائع للحبكات. ببساطة من المستحيل أخذه كروائي على محمل الجد، إذ ليس لديه إحساس مهما كان نوعه بالشخصية أو بالاحتمالية، لكن لديه أفضلية في إيمانه بأسخف تفاصيل قصصه. كتب عن الحياة كما رآها، وقد رآها كثير من الفيكتوريين بنفس الطريقة: أي كسلسة من (الميلودراما) الأحداث المثيرة الهائلة التي تنتصر فيها الفضيلة في كل مرة، وربما كان الوحيد المنسجم تماماً مع عصره من بين كل روائيي القرن التاسع عشر، الذين ظلوا يُقرأون. وعلى الرغم من كل عدم تقليديته وغرضه وتشوقه لفضح الانتهاكات، لم يخلق نقداً جوهرياً أبداً، وباستثناء قلة من الشرور السطحية، لم ير شيئاً خاطئاً في مجتمع طماع في مساواته بين المال والفضيلة، وبين مليونيريه الأتقياء وكهنته الأرسطوطاليسيين. ربما لم يعطه أحد قياسه أفضل مما ذكره روبرت بينفولد، عند تقديمه في بداية غش، بأنه عالم ولاعب كريكيت وكاهن.

هذا لا يعني أن ضمير ريد الاجتماعي لم يكن سلبياً، وساعد ربما في تثقيف الرأي العام بعدة طرق ثانوية. إن هجومه على نظام السجون في الإصلاح لا يفوت أوانه أبداً مناسب ووثيق الصلة إلى اليوم، أو كان كذلك حتى وقت متأخر. وفي نظرياته الطبية قيل إنه كان متقدماً كثيراً جداً على زمنه، لكنه كان يفتقر إلى الفكرة بأن عصر السكة الحديدية الباكر والمخطط الخاص للقيم المناسبة له، لن يستمرا إلى الأبد. هذا مدهش قليلاً حين يتذكر المرء أنه كان شقيق وينوود ريد. مهما بدا كتاب وينوود ريد استشهاد إنسان متهوراً وغير متوازن، يظل كتاباً يظهر سعة مدهشة من الرؤية، وربما كان الوالد والجد غير المعترف به "للخطوط العريضة" المحبوبة جداً اليوم. ربما كتب ريد "خطوط عريضة" لعلم الفراسة أو صنع الخزن أو عادات الحيتان، لكن ليس للتاريخ الإنساني. كان رجلاً محترماً من الطبقة الوسطى مع ضمير أكثر قليلاً من أغلب أفرادها، وعالماً فضّل العلم الشعبي على الكلاسيكي. من أجل ذلك السبب فقط، هو واحد من أفضل الروائيين "الناجين" الذين لدينا. غش ونقود كتابان جيدان إن أرسلا لجندي يقاسي بؤس خندق حربي مثلاً. ليس هناك مشاكل فيهما ولا "رسائل" أصيلة، بل مجرد سحر عقل موهوب، يعمل ضمن حدود ضيقة جداً، ويقدم انفصالاً تاماً عن الحياة الحقيقية مثل لعبة شطرنج أو أحجية صور مقطعة.

دبليو بي يتس

الشيء الوحيد الذي لم ينجح النقد الماركسي في عمله هو تعقب أثر الارتباط بين "الميل" وبين الأسلوب الأدبي. يمكن تفسير الموضوع الأساسي واللغة المجازية في كتاب بشروط سوسيولوجية، لكن لا يمكن ذلك مع بنيته على ما يبدو، رغم وجوب وجود مثل هذه الرابطة. فالمرء يعرف مثلاً أن الاشتراكي لن يكتب كما يكتب تشيسترتون أو إمبريالي من التوريين مثل برنارد شو، لكن كيف له أن يعرف أن القول ليس سهلاً. في حالة ييتس، يجب أن يكون هناك نوع من الارتباط بين تمرده وأسلوبه المحرف والمشاكس في الكتابة، وبين ورؤيته الشريرة للحياة. إن السيد مينون مهتم بشكل أساسي بالفلسفة الغامضة التي تشكل أساس عمل ييتس، إلا أن الاقتباسات التي تبعثرت في كل كتابه الممتع تخدم في تذكير المرء بالتصنع الكبير في أسلوب ييتس في الكتابة، وكقاعدة، فإن هذا التكلف مقبول كطريقة ايرلندية، أو حتى أن ييتس مشهور بالبساطة، لأنه يستخدم كلمات قصيرة. لكن في الحقيقة قلما يأتي المرء على ستة أبيات متوالية من شعره ليس فيها لفظة مهجورة أو عبارة متكلفة. لنأخذ المثال الأقرب:

هبني جنون رجل عجوز/ نفسي يجب أن أصنعها من جديد / حتى أكون تيمون ولير / أو وليام بليك ذاك / الذي دق على الجدار / حتى امتثلت الحقيقة لندائه.

تستورد كلمة "الذي" غير الضرورية شعوراً بالتكلف والتصنع، ونفس الميل موجود في الكل ما عدا أفضل مقاطع ييتس. ونادراً ما يبتعد المرء عن شك من "الغرابة" وشيء لا يرتبط مع "التسعينيات" فقط والبرج العاجي و"الأغطية الجليدية من العشب المبال فوقه" وإنما مع رسومات راكهام أيضاً. إن النسيج الفني للحرية وأرض أحلام بيتر بأن التي هي أخيراً "أرض البلدة السعيدة" مجرد أنموذج فاتح للشهية أكثر. هذا لا يهم، لأن ييتس في المجمل ينجح في إنجازه، ولو كان إجهاده اللاحق مزعجاً، لأمكنه أيضاً أن ينتج عبارات ("السنوات البارد العقيمة" و"البحار المكتظة بسمك المكاريل") التي تغمر المرء فجأة مثل وجه فتاة يُرى عبر غرفة. إنه استثناء للقاعدة التي ترى أن الشاعر لا يستخدم لغة شاعرية:

كم قرناً أمضته/ الروح الخاملة الجالسة / في أعمال كدح بقياس/ أبعد من النسر أو الخلد،/ أبعد من السمع أو النظر،/ أو تخمين أرخميدس،/ لتعيد إلى الحياة/ ذلك الحسن؟

هنا هو لا يحجم عن كلمة سوقية سهل هرسها مثل "الحسن"، وأخيراً لا تفسد جداً روعة هذا المقطع. لكن نفس الميول معاً مع نوع من الرثاثة المتعمدة بلا أي شك تضعف حكمة قصائده القصيرة المعبرة الساخرة وقصائده الجدلية. مثلاً (اقتبس من الذاكرة) القصيدة القصيرة ضد النقاد الذين أدانوا مستهتر العالم الغربي:

ذات مرة حين ضرب منتصف الليل الهواء/ تراكض المخصيون عبر الجحيم والتقوا/ في كل شارع مكتظ ليحدقوا/ بجوان العظيم وهو يمر ممتطياً حصانه/ حتى لمثل هؤلاء ليشجبوا ليصطفوا ويتعرقوا/ محدقين بساقيه القويتين.

إن القوة التي لدى ييتس داخل نفسه تعطيه التناظر الجاهز وتنتج الاحتقار المروع في السطر الأخير، لكن حتى في هذه القصيدة القصيرة، هناك ست أو سبع كلمات غير ضرورية. لو كانت أكثر أناقة، لكانت أكثر إماتة ربما.

بالمناسبة، فإن كتاب السيد مينون سيرة قصيرة لييتس، لكنه قبل كل شيء مهتم بـ "نظام" ييتس الفلسفي، الذي برأيه يزود موضوع البحث بمزيد من قصائد ييتس أكثر من المألوف عموماً. هذا النظام يعرض بشكل متشظ في أماكن متباينة، وبالتفصيل في رؤية، كتاب طبع سراً؛ أنا لم اقرأه لكن السيد مينون يقتبس منه بشكل واسع. يعطي ييتس روايات متضاربة عن أصله، ويلمح السيد مينون بشكل واسع أن "الوثائق" التي أسس عليها ظاهرياً كانت خيالية. نظام ييتس الفلسفي، يقول السيد مينون، "كان وراء حياته الفكرية منذ البداية تقريباً. شعره يغص به. بدونه شعره الأخير يصبح غير مفهوم تماماً تقريباً". حالما نقرأ حول النظام المزعوم، نكون في وسط طقس الدواليب الكبرى، الحلقات الحلزونية، دوار القمر، التقمص، الأرواح المحررة من الجسد، وعلم التنجيم وغيره.

كلام ييتس عن الحرفية التي آمن بواسطتها بكل هذا، لكنه بالتأكيد تبلل بالروحانية وعلم التنجيم. وفي مرحلة مبكرة من حياته قام ببعض التجارب في السيمياء. رغم تخفيه تحت تأويلات يصعب جداً فهمها عن أطوار القمر، تبدو فكرته المركزية لنظامه الفلسفي أنها صديقنا القديم، الكون الحلقي، الذي يتكرر حدوث أي شيء فيه المرة تلو الأخرى. المرء ربما

ليس له الحق في السخرية من ييتس لمعتقداته الباطنية- لأنني اعتقد أنه يمكن أن يكشف أن درجة ما من الاعتقاد بالسحر هو عالمي تقريباً- لكن يجب ألا يغفل المرء مثل هذه الأشياء كمجرد غرابة أطوار. إنها بصيرة السيد مينون، لهذا هي التي تعطي كتابه أعمق الأهمية. "في الفورة الأولى من الإعجاب والحماس"، يقول "اغلب الناس نبذوا الفلسفة الوهمية مثل الثمن الذي يجب أن ندفعه من أجل فطنة عظيمة وغريبة. لا يدرك المرء تماماً إلى أين كان متوجهاً. وهؤلاء الذين أدركوا، مثل باوند وربما إليوت، استحسنوا الموقف الذي أخذه أخيراً. رد الفعل الأول على هذا لم يأت، كما يتوقع المرء، من الشعراء الإنكليز الشباب الميالين للسياسة. لقد كانوا في حيرة بسبب نظام زائف أقل صلابة من ذاك الذي في رؤية يفترض ألا ينتج شعراً عظيماً ليتس في آخر أيامه". لا يمكن، وفلسفة ييتس لها مضامين شريرة جداً، كما أشار السيد مينون.

مفسراً بالمصطلح الفلسفي، ميل ييتس فاشي. خلال معظم حياته، وقبل أن يسمع بالفاشية، كانت لديه وجهة نظر لهؤلاء الذين وصلوا إلى الفاشية بمسار أرستقراطي. إنه كاره كبير للديمقراطية، للعالم الحديث والعلم والآلات وفكرة التقدم -قبل كل شيء، لفكرة المساواة الإنسانية. الكثير من صور وخيالات أعماله إقطاعية، ومن الواضح أنه لم يكن متحرراً تماماً من الغطرسة العادية. لاحقاً، أخذت هذه الميول شكلاً أوضح، وقادته إلى "قبول مبتهج بالشمولية -الفاشية كحل وحيد. حتى العنف والاستبداد ليسا شرين ضروريين، لأن الناس لا يعرفون الشر والخير، وسيصبحون ميالين إلى قبول الاستبداد تماماً...... كل شيء يجب أن يأتي من القمة. لاشيء يستطيع أن يأتي من الجماهير. "لم يهتم ييتس كثيراً بالسياسة، وقد اشمأز من غزواته المختصرة إلى الحياة العامة، ومع ذلك أطلق بعض البيانات السياسية. هو رجل أكبر من أن يشارك في أوهام الليبرالية. ومبكراً في عام ١٩٢٠ تنبأ في مقطع شهير منصف ("القدوم الثاني") بنوع العالم الذي انتقلنا إليه فعلياً. لكنه يظهر أنه يرحب بالعصر القادم، الذي سيكون "تراتبياً وذكورياً وقاسياً وجراحياً"، وتأثر بإيرزا باوند وكتاب فاشيين إيطاليين آخرين. يصف الحضارة الجديدة التي يأمل ويؤمن بأنها ستصل: حضارة أرستقراطية بأكمل صورة لها، كل تفصيل صغير من حياة تراتبية، كل باب رجل عظيم مكتظ من الفجر بالمتوسلين، ثروة عظيمة في كل مكان بيد قلة من الرجال، الكل يتكل على القلة، حتى الإمبراطور نفسه، الذي

هو حاكم قوي معتمد على حاكم أقوى وأعظم منه. وفي كل مكان، في البلاط، في العائلة، كان التفاوت قانوناً. "سذاجة هذا العرض مشوقة مثل تكبره" لنبدأ بعبارة "ثروة عظمى بيد قلة من الرجال"، يضع ييتس حقيقة الفاشية المركزية عارية، التي صممت كل دعايتها لتغطيتها. يدعي السياسي الفاشي دائماً أنه يقاتل من أجل العدالة: ييتس، الشاعر، يرى بلمحة أن الفاشية تعني الظلم، ويهتف لها للسبب نفسه. لكن، في الوقت نفسه، يفشل برؤية أن الحضارة الفاشية الجديدة، إن وصلت، لن تكون أرستقراطية أو ما يقصد بالأرستقراطية. لن يحكمها نبلاء بوجوه فان دايك، وإنما مليونيريون بلا أسماء وبيروقراطيون من ذوي الأزرار اللامعة وعصابات من قطاع الطرق القتلة. آخرون من الذين ارتكبوا الخطأ نفسه، غيروا آراءهم بعد ذلك، والمرء ينبغي ألا يفترض أن ييتس، إن عاش أطول، سيتبع بالضرورة صديقه باوند، حتى في المشاركة الوجدانية. لكن ميل المقطع الذي اقتبسته آنفاً ورميه التام جانباً لكل ما هو جيد الذي تحقق في السنوات الإلفين الماضية، عرض مرضي مقلق.

كيف ترتبط أفكار ييتس السياسية مع ميله نحو الغموض والأسرار؟ ليس واضحاً من النظرة الأولى سبب كرهه للديمقراطية وميله للاعتقاد بالتحديق الشفاف يجب أن يسيرا معاً. لا يناقش السيد مينون هذا إلا باختصار، لكن من الممكن القيام بتخمينين: لنبدأ أولاً بنظرية أن الحضارة تنتقل في حلقات راجعة ومتكررة، وأنها الطريق الوحيد إلى الخارج للذين يكرهون مفهوم المساواة الإنسانية. إن كان صحيحاً أن"كل هذا" أو شيئاً مثله "قد حدث سابقاً"، فإن العلم والعالم الحديث قد أفرغا بضربة واحدة وأصبح التقدم مستحيلاً إلى الأبد. لا يهم كثيراً إذا اعتلت الطبقات الدنيا غيت ابوف بعضها البعض ووصلت إلى مكان أعلى، لأننا سنعود حالاً أخيراً إلى عصر من الاستبداد. إن ييتس لوحده في هذا الرأي من كل بد.

إن كان الكون يتحرك بشكل دائري على عجلة، فالمستقبل يجب أن يكون مُدركاً قبل حدوثه وفي بعض التفصيل ربما. إنها مسألة لا تعدو عن اكتشاف قوانين حركته كما اكتشف الفلكيون السابقون السنة الشمسية. صدق ذلك ويصبح من الصعب ألا تؤمن بعلم التنجيم أو نظام مشابه ما. قبل الحرب بسنة وبتفحص نسخة من غرينغوار الأسبوعية الفاشية الفرنسية التي يقرؤها ضباط الجيش كثيراً، وجدت فيها ما لا يقل عن ثمانية وثلاثين إعلاناً للمتبصرين. ثانياً مفهوم الأسرار الخفية أوكالتيزم نفسه يحمل معه فكرة أن المعرفة يجب أن

تكون شيئاً سرياً ومقتصرة على دائرة صغيرة من الملقنين. لكن الفكرة نفسها متممة للفاشية. فهؤلاء الذين يفزعون من منظر معاناة الكون والتعليم الشعبي وحرية الفكر وتحرير النساء، سيهرعون في ولع نحو فرق دينية سرية. هناك رابط آخر بين الفاشية والسحر في عدائهما العميق للمبادئ الأخلاقية المسيحية.

لا شك أن ييتس يتقلب في معتقداته، وقد اعتنق آراء مختلفة في أوقات مختلفة بعضها تنويرية وبعضها غير ذلك. يكرر السيد مينون ادعاء إليوت أن لدى ييتس أطول فترة من التطور من أي شاعر عاش حتى الآن، لكن هناك شيئاً واحداً يبدو ثابتاً على الأقل في كل أعماله التي أستطيع تذكرها، ألا وهو كرهه للحضارة الغربية الحديثة والرغبة في العودة إلى العصر البرونزي أو ربما إلى العصور الوسطى. وككل هؤلاء المفكرين يتجه ليكتب مادحاً الجهل. إن الأبله في مسرحيته الرائعة **الساعة الرملية** شخصية تشيسترتونية "أبله الرب" "البريء المولود بشكل طبيعي" الأعقل دائماً من الرجل الحكيم. يموت الفيلسوف في المسرحية بمعرفته أن كل حياته الفكرية ضاعت (أنا أقتبس من الذاكرة مرة أخرى):

تيار العالم بدل مساره، ومع التيار صادفت أفكاري ربيعاً غائماً راعداً؛ ذلك هو المصدر الكبير، نعم، لنوبة جنون عقلي، إن كل ما أنجزناه غير منجز، تخميننا ليس سوى كلام فارغ.

كلمات جميلة، لكنها غامضة في مضمونها ورجعية في العمق، فإن كان صحيحاً حقيقة أن أبله قرية كهذا أعقل من فيلسوف، فمن الأفضل لو لم تخترع الأبجدية أبداً. طبعاً كل المديح للماضي وجدانياً جزئياً، لأننا لا نعيش في الماضي. إن الفقير لا يمتدح الفقر. قبل أن تستطيع احتقار الآلة، يجب على الآلة أن تعتقك من العمل البهيمي. لكن ذلك لا يعني أن توق ييتس لعصر أكثر بدائية وتراتبية لم يكن صادقاً. كم من هذا كله يمكن رده إلى مجرد تكبر ونتاج من موقف ييتس كفرع مفقر من الأرستقراطية مسألة أخرى. والرابط بين آرائه الغامضة وميله نحو "غرابة" لغوية، يبقى بانتظار الحل؛ فالسيد مينون لم يلمسه إلا نادراً.

هذا كتاب قصير جداً، وأحب كثيراً رؤية السيد مينون يتقدم ويكتب كتاباً آخر عن ييتس بادئاً من حيث تركنا الكتاب الحالي. "إن كان أعظم شاعر في عصرنا يقرع الجرس مبتهجاً في عصر من الفاشية، فهذا يبدو عرضاً مزعجاً ومقلقاً إلى حد ما، لأنه ليس عرضاً معزولاً. عموماً أن أفضل كتاب عصرنا كانوا رجعيين في ميولهم، ورغم ذلك لا تقدم

الفاشية أي عودة حقيقية إلى الماضي. إن هؤلاء الذين يتوقون إلى الماضي، سيقبلون بالفاشية قبل بدائلها المرجحة، لكن هناك خطوطاً أخرى للمقاربة كما رأينا أثناء الستين أو الثلاث الماضية. إن العلاقة بين الفاشية والطبقة المثقفة الأدبية تحتاج جداً إلى تفحص، وقد يكون ييتس البداية الحسنة. لقد درس جيداً من قبل شخص مثل السيد مينون، الذي استطاع أن يقارب شاعراً كشاعر في المقام الأول، ولكنه يعرف أيضاً أن معتقدات الكاتب السياسية والدينية ليست ناميات زائدة يجب إبعادها، وإنما شيء ما سيترك علامته وسمته حتى على أصغر التفاصيل في أعماله.

الركوب رحلة من بنغور

إن الظهور الثاني لـ **أطفال هيلين** الذي كان في أيامه واحداً من أشهر الكتب في العالم - لقد قرصنته عشرون شركة نشر مختلفة ضمن الإمبراطورية البريطانية لوحدها، وتلقى المؤلف ربحاً إجمالياً قدره ٤٠ جنيهاً من بيع مئات الآلاف أو الملايين من النسخ- سوف يقرع جرساً في أي شخص متعلم فوق الخامسة والثلاثين. ليس لأن الطبعة الحالية مرضية تماماً، فهو كتاب رخيص مع إيضاحات غير ملائمة وحذف كلمات عامية أمريكية متنوع منه كما يبدو وضياع المجلد المكمل له **أطفال الناس الآخرين** الذي كان معه في الطبعات السابقة، لكن من المسر أن ينشر **أطفال هيلين** مرة أخرى، فقد أصبح نادراً تقريباً في الأيام الأخيرة، وهو واحد من أفضل الكتب الأمريكية الصغيرة التي ولد عليها الناس في بداية تحول القرن وتربوا عليها.

إن الكتب التي يقرؤها المرء في الطفولة، وربما أغلب الكتب الرديئة وجد الرديئة، تخلق خريطة مزيفة للعالم وسلسلة من بلدان خرافية داخلها، يستطيع المرء التقهقر في لحظات شاذة طيلة حياته الباقية، والتي في بعض الحالات يمكن أن تغني عن زيارة البلدان الحقيقية التي تمثلها كما يفترض. البامبا (سهول عشبية أمريكية- المترجم) والأمازون وجزر المرجان في الباسيفيكي وروسيا وأرض شجرة البتولا والسماور وترانسيلفانيا مع نبلائها ومصاصي دمائها وصين غاي بوثباي وباريس دي موريير-يمكن للمرء عدّ قائمة طويلة، وهناك بلاد خيالية أخرى واحدة اكتسبتها مبكراً في حياتي، كانت تسمى أميركا. ولو توقفت عند كلمة أمريكا، ووضعت الحقيقة الموجودة جانباً بشكل متعمد واستدعيت تصوري لها في طفولتي، سأرى صورتين- صورتين مركبتين طبعاً حذف منهما كثير من التفاصيل.

الصورة الأولى لصبي يجلس في غرفة تعليمية مبيضة باردة، يضع حمالات سروال وعلى قميصه رقع. وإن كان الفصل صيفاً يكون حافياً. في زاوية غرفة المدرسة، يوجد سطل من مياه الشرب مع مغرفة. يعيش الصبي في بيت المزرعة المبني من الحجارة والمبيض أيضاً وعليه رهن عقاري. يطمح أن يكون الرئيس، ويأمل أن يبقي كوم الحطب كاملاً. في مكان في خلفية الصورة إنجيل أسود ضخم مهيمن عليها تماماً. الصورة الأخرى لرجل طويل القامة عظامه

بارزة مع قبعة مشوهة سحبت نحو الأسفل لتغطي عينيه، يتكئ على سياج خشبي ويبري عصا خشبية. فكه السفلي يتحرك ببطء لكن بلا توقف. في فواصل طويلة يقذف بمقاطع من الحكمة مثل "المرأة أعند مخلوق موجود باستثناء البغل" أو "حين لا تعرف شيئاً تفعله فلا تفعل شيئاً"، لكن الأكثر تكراراً هو تدفق عصارة تبغ الصادرة من فجوة في أسنانه الأمامية، وبين هاتين الصورتين تلخص انطباعي الباكر عن أميركا، ومن الاثنتين -التي كما أعتقد تمثل نيوإنغلاند والأخرى تمثل الجنوب- كان للأولى التأثير الأكبر علي.

الكتب التي استمديت هاتين الصورتين منها، تشمل طبعاً كتباً مازالت تؤخذ على محمل الجد مثل: **توم سوير، وكوخ العم توم**، لكن النكهة الأمريكية الأقوى موجودة في أعمال ثانوية نُسيت الآن تقريباً. أتساءل مثلاً إن لازال هناك أحد يقرأ **ريبيكا من مزرعة سنبروك** الذي بقي مفضلاً عند الشعب فترة كافية، لكي يصور في فيلم من بطولة ماري بيكفورد، أو ماذا عن كتب "**كاتي**" لسوزان كوليج (**ماذا فعلت كاتي في المدرسة، إلخ**) "العاطفية جداً" لأنها كتب للفتيات التي كان لها فتنة الأجنبي؟ **نساء صغيرات وزوجات صالحات** للويزا ام آلكوت مازالا كما أعتقد ينشران، وبالتأكيد لازال لهما أنصارهما. كطفل أحببت كليهما، لكن متعتي بثالث الثلاثية **رجال صغار** كانت أقل، ولم أستطع بلع تلك المدرسة الأنموذجية؛ حيث أسوأ عقوبة كانت ضرب ناظر المدرسة على مبدأ "هذا يؤلمني أكثر مما يؤلمك"

يتمي **أطفال هيلين** في أكثره إلى عالم نساء صغيرات نفسه، ويفترض أنه نشر في التاريخ نفسه تقريباً. ثم كان هناك آرتيموس وارد وبريت هارت وأغان متنوعة وتراتيل وقصائد غنائية شعبية، بالإضافة إلى أشعار عن الحرب الأهلية مثل "انسف هذا الرأس الشائب العجوز إن كان عليك ذلك، لكن حافظ على راية بلدك" و"غيفورد الصغير من تينيسي" لبربارة فريتشيو. هناك كتب أخرى غامضة جداً، لدرجة تبدو غير جديرة بالذكر، وقصص مجلات لا أتذكر منها شيئاً إلا ذلك المسكن القديم الذي يبدو دائماً مرهوناً عقارياً. كان هناك **جوي الجميلة**، الرد الأمريكي على **جمال أسود**، التي يمكنك شراء نسخة منها من كشك تافه. كل الكتب التي ذكرتها كتبت قبل عام ١٩٠٠ لكن شيئاً من النكهة الأمريكية الخاصة ظلت وتباطأت في هذه البلاد مثل ملاحق بستر براون الملونة وحتى في قصص بوث

تاركينغتون "بنرود" التي سوف تكتب في حوالي ١٩١٠. ربما هناك حتى مسحة منها في كتب إرنست ثومبسون سيتون عن الحيوان (الحيوانات البرية التي عرفتها- إلخ) التي سقطت الآن من الاستحسان، لكنها أبكت أطفالاً قبل عام ١٩١٤ بشكل مؤكد، مثلما فعل أسيء فهمه للأطفال من الجيل الأسبق.

باتت صورتي اللاحقة عن أميركا القرن التاسع عشر أكثر دقة، بفضل أغنية مازالت معروفة جيداً، ويمكن إيجادها كما أعتقد في كتاب الطالب الاسكتلندي للأغاني. وكالعادة في هذه الأيام التي ليس فيها كتب ولا أستطيع وضع يدي على نسخة، يجب أن أقتبس شظايا من الذاكرة. تبدأ الأغنية:

راكبين من بانغور/ في قطار الشرق،/ مسمرين بأسابيع من الصيد/ في غابات ماين/ سالفان عريضان جداً/ لحية وشارب أيضاً

جلس زميل طالب/ طويل القامة ونحيل ورائع.

يصعد في الحال زوجان شيخان و"صبية قروية" وصفت بـ "الجميلة والأنيقة" إلى العربة. تطايرت كميات من الجمر في المكان، ولم يمر وقت طويل حتى أصابت إحداها الزميل الطالب في عينه، فانتزعها الصبية القروية لفضيحة الزوجين الشيخين. بعد ذلك بقليل انطلق القطار في نفق طويل "أسود كليل مصر". وحين ظهر في ضوء النهار ثانية، كان وجه الصبية متورداً من الخجل، وانكشف سبب ارتباكها حين:

"ظهرت هناك فجأة/ حلقة أذن صغيرة جداً/ في لحية ذلك الطالب المروعة!".

لا أعرف تاريخ الأغنية، لكن بدائية القطار (ليست هناك أضواء في العربة وجمرة في عين شخص حادث عادي) توحي أنه ينتمي إلى القرن التاسع عشر.

ما الذي يربط هذه الأغنية بكتب مثل: أطفال هيلين أولاً وقبل كل شيء نوع من البراءة الحلوة والذروة، كما أن الشيء الذي يفترض أنه يصدمك، هو الحادثة التي تبدأ بها أي قطعة من النوتي نوتي- وثانياً، السوقية اللغوية الباهتة الممزوجة ببهرجة ثقافية محددة. أريد من أطفال هيلين أن يكون كتاباً هزلياً أو حتى سخيفاً، لكنه امتلأ من أوله إلى آخره بكلمات مثل "أنيق" و"أنيق بشكل مسرف" وهو ممتع بشكل رئيسي بسبب كوارثه الصغيرة جداً التي

تحدث على خلفية من الكياسة المقصودة. "وسيمة وذكية ورابطة الجأش وأنيقة الملبس بدون اشتباه بالمغازل العبث أو امرأة الموضة الكسولة حولها تتنبه وتستجيب بأقصى حد لكل عاطفة إعجاب مني" -هكذا وصفت البطلة التي صورت في مكان آخر "منتصبة القامة ونضرة وأنيقة وهادئة وعيناها براقتان ووجهها أشقر ومبتسمة وشديدة الملاحظة" يحصل المرء على لمحات جميلة من العالم الذي تلاشى الآن في تعليقات كهذه: "أعتقد أنك رتبت الزينة الزهرية في معرض سينت زيفانيا في الشتاء الماضي يا سيد بيرتون؟ كان أفضل إظهار للذوق الحسن في الموسم كله" لكن رغم الاستخدام العرضي لألفاظ وأساليب مهجورة -مثل "الردهة" عوضاً عن "غرفة الجلوس" و"مخدع" بدل عن "غرفة النوم" وغيرها -الكتاب لا يحدد التاريخ بشكل ملحوظ ويتخيل كثير من المعجبين به أنه كتب في حوالي عام ١٩٠٠، لكنه في الواقع كتب في عام ١٨٧٥، وهي حقيقة يستنتجها المرء من دليل داخلي، بما أن البطل الذي في الثامنة والعشرين من العمر كان محارباً قديماً في الحرب الأهلية.

الكتاب قصير جداً وقصته بسيطة. شاب أعزب أقنعته أخته بالاعتناء ببيتها وبولديها، الأول في الخامسة والثاني في الثالثة حين تكون هي وزوجها في إجازة مدتها نصف شهر. يدفعه الأطفال إلى حافة الجنون بأعمال لا تنتهي مثل السقوط في البرك وتجرع السم ورمي المفاتيح في الآبار وجرح أنفسهم بأمواس الحلاقة وشبه ذلك، لكنهما يسهلان خطوبته من "فتاة فاتنة كنت أهيم بها من بعيد منذ سنة". تقع هذه الأحداث في إحدى ضواحي مدينة نيويورك في مجتمع غير-أميركي يبدو الآن رزيناً ورسمياً ومتمدناً ومنسجماً مع المفاهيم الراهنة بشكل يثير الاندهاش. كل فعل تحكمه قواعد المعاشرة وآدابها. أن تمر بجانب عربة تحمل سيدات وقبعتك معقوفة محنة وأن تتعرف على أحد المعارف في كنيسة، هو شيء غير مهذب، وأن تصبح مخطوباً بعد عشرة أيام من التودد والمغازلة، هو هفوة اجتماعية قاسية. نحن معتادون على التفكير بأن المجتمع الأمريكي فج ومغامر بالمعنى الثقافي وديمقراطي أكثر من مجتمعنا. ومن كتاب مثل مارك توين وويتمان وبريت هارت، دون ذكر قصص رعاة البقر والهنود الحمر في الجرائد الأسبوعية، يرسم المرء صورة لعالم فوضوي متهور مأهول بغريبي الأطوار والمجرمين المتهورين الذين ليس لهم تقاليد ولا ارتباط بمكان واحد. تلك السمة لأمريكا القرن التاسع عشر موجودة طبعاً، لكن في الولايات الشرقية المزدحمة، هناك مجتمع مشابه

لمجتمع جين أوستن، استمر هناك لفترة أطول مما استمر في إنكلترا. ومن الصعب ألا يشعر المرء أنه كان مجتمعاً أفضل من الذي ظهر من التصنيع المفاجئ في الجزء الأخير من القرن. أطفال هيلين أو نساء صغيرات، ربما يكونان سخيفين باعتدال لكنهما غير فاسدين. لديهما شيء، أفضل وصف له هو الاستقامة أو المعنويات العالية المؤسسة على تقوى غير عاقلة جزئياً. من الطبيعي أن يحضر كل واحد إلى الكنيسة في صباح كل يوم أحد ويشكر الرب على نعمته قبل وجبات الطعام ويتلو الصلوات قبل النوم: لكي يسلي الأطفال، يحكي لهم قصص الكتاب المقدس (الإنجيل) وإن سألوه عن أغنية ستكون على الأرجح "المجد، المجد والشكر للرب". كما أن ذكر الموت بحرية في الأدب الخفيف في تلك الفترة، علامة على الصحة الروحية. مات شقيق بادج وتودي "بيبي فيل" قبل إصدار أطفال هيلين بقليل، وهناك إشارات كثيرة كئيبة إلى "تابوته الصغير جداً" أي كاتب معاصر يحاول كتابة قصة من هذا النوع، سيبقي التوابيت خارجها.

مازال الأطفال الإنكليز يتأمركون بواسطة أفلام السينما، ولم يعد يصلح الادعاء بعد بأن الكتب الأميركية هي الأفضل بالنسبة إلى الأطفال. من الذي يربي طفلاً على مجلات "الرسوم الهزلية" الملونة فيها أساتذة جامعيون فاسدون يقومون بتصنيع قنبلة ذرية في مختبرات تحت الأرض، بينما يطير سوبرمان ويئز عبر الغيوم، ورصاص الرشاشات الشرير يرتد عن صدره مثل حبات البازيلاء، والشقراوات البلاتينيات يغتصبن أو تقريباً جداً، بواسطة رجال آليين من الفولاذ، وديناصورات طول واحدها خمسون قدم؟ إنها صرخة بعيدة من سوبرمان إلى الإنجيل وكوم الحطب. كتب الأطفال السابقة أو الكتب التي يمكن أن يقرأها الأطفال، لم تملك البراءة فقط، وإنما نوعاً من البهجة الأصلية والشعور المفرح السعيد الذي كان، كما يفترض، نتاج الحرية الفريدة والأمن والطمأنينة التي نعم بها القرن التاسع عشر. تلك هي الحلقة الواصلة بين كتب تبدو متباعدة ومفصولة مثل نساء صغيرات والحياة على المسيسبي. في الكتاب الأول، المجتمع الموصوف خاضع ومحب للبيت، بينما الكتاب الآخر يتحدث عن عالم مجنون من قطاع الطرق ومناجم الذهب والمبارزات والسكر والقمار: لكن في كليهما يستطيع المرء أن يكتشف ثقة ضمنية بالمستقبل وإحساس بالحرية والفرصة المناسبة.

إن أمريكا القرن التاسع عشر بلاد غنية وفارغة تقع خارج المجرى الرئيسي للأحداث العالمية. والكابوسان اللذان يؤرقان كل رجل عصري تقريباً، كابوس البطالة وكابوس تدخل الدولة، لم يتشكلا فيها بعد. هناك فروق اجتماعية ملحوظة أكثر مما هي عليه اليوم، وهناك فقر (يظل المرء يتذكر في نساء صغيرات أن العائلة في إحدى المرات كانت بحاجة ماسة إلى المال، لذلك باعت إحدى الفتيات شعرها للحلاق)، لكن لم يكن هناك إحساس منتشر ومسيطر بالعجز كالموجود الآن. كان هناك متسع لكل شخص، وإن عملت بجد، تستطيع التأكد من العيش -وتتأكد حتى من أن تصبح ثرياً: هذا كان اعتقاداً عاماً، وبالنسبة إلى كثير من السكان كان حقيقة عامة. بعبارة أخرى حضارة أميركا القرن التاسع عشر كانت حضارة رأسمالية في أحسن حالاتها. بعد الحرب الأهلية بوقت قصير بدأ التدهور المحتوم. لكن لبعض من العقود على الأقل كانت الحياة في أمريكا ممتعة أكثر بكثير من الحياة في أوروبا - كانت هناك أحداث أكثر وألوان أكثر وتنوع أكثر وفرص أكثر- وكتب وأغاني تلك الفترة فيها نوع من المساواة البريئة المتبرعمة. من هنا كما أعتقد شعبية أطفال هيلين وغيره من الأدب الخفيف الذي جعل من الطبيعي للأطفال الإنكليز قبل ثلاثين أو أربعين سنة أن يتربوا مع معرفة نظرية بالراكونات وحيوانات المرموط والسلاحف الأمريكية والسناجب الأمريكية المخططة وشجر القارية والبطيخ وشظايا غير مألوفة من المشهد الأمريكي.

رافلز والآنسة بلانديش

بعد نصف قرن من ظهوره الأول، مازال "اللص الهاوي" رافلز واحداً من أشهر الشخصيات في الأدب القصصي الإنكليزي. قلة قليلة من الناس لا تعرف أنه لعب الكريكيت من جل إنكلترا، ولديه غرف عزاب في الباني، وسطا على بيوت مايفير التي دخلها أيضاً كضيف. ومن أجل ذلك السبب فقط هو ومآثره يشكلان خلفية، بناء عليها يمكن دراسة قصص جرائم أحدث مثل **لا زهور أوركيد من أجل الآنسة بلانديش**. أي خيار كهذا هو اعتباطي- يمكنني أن أختار بالتساوي آرسين لوبين مثلا- لكن زهور أوركيد وكتب رافلز [لاحظ في الأسفل] تمتلك خاصية مشتركة، كونها قصص جرائم تلقي الأضواء والانتباه على المجرم وليس على رجل الأمن، لأغراض سوسيولوجية لا يمكن المقارنة بينهما. **لا زهور أوركيد** هي نسخة عام ١٩٣٩ للجريمة الفاتنة ورافلز نسخة عام ١٩٠٠ ما يهمني هنا الاختلاف الهائل في الجو الأخلاقي بين الكتابين والتغير في الموقف الشعبي الذي يتضمنه هذا.

[لاحظ: رافيلز ولص في الليل والسيد جستيس رافيلز للكاتب أي دبليو هورنانغ. إن الكتاب الثالث فاشل بالتأكيد، الأول فقط له الجو الرافيلزي الحقيقي. كتب هورنانغ عدداً من قصص الجرائم نزع فيها إلى أخذ جانب المجرم عادة. كتاب ناجح في نفس الوريد مثل رافيلز ستيوغاري. (ملاحظة المؤلف)]

في هذا التاريخ، سحر رافيلز في جوه جزئياً وفي تفوقه التقني للقصص جزئياً. كان هونانغ ذا ضمير حي. وإن كاتباً بارعاً جداً على مستواه وكل من يهتم بالفعالية والكفاءة، فقط يجب أن يُعجب بعمله. لكن الشيء الدرامي حقيقة عن رافيلز والشيء الذي يجعله نوعاً من مثال إلى هذا اليوم (فقط منذ أسابيع قليلة في قضية سطو أشار قاض إلى السجين بـ "رافيلز" في الحياة الحقيقية) هو حقيقة أنه جنتلمان (سيد). يقدم لنا رافيلز وهذا محاك في قصاصات لا تحصى من الحوار والملاحظات العرضية- ليس كرجل شريف ضل، وإنما كرجل مدرسة عامة ضل. ندمه حين يحس بأي منه اجتماعي بشكل صرف تقريباً؛ لقد ألحق الخزي بـ "المدرسة القديمة" وفقد حقه لدخول "المجتمع المحترم"، وخسر منزلته كهاوٍ وأصبح وغداً. لم يشعر

أي من رافيلز أو بوني بقوة بأن السرقة خطأ بحد ذاتها، لكن رافيلز برر لنفسه مرة بملاحظة عرضية من أن "توزيع الملكية خاطئ كله بأي حال" ولم يريا نفسيهما كآثمين وإنما كمرتدين أو ببساطة كمنبوذين. إن النظام الأخلاقي لأغلبنا قريب جداً من نظام رافيلز، لذلك نشعر أن وضعه يجب أن يكون تهكمياً بشكل خاص. رجل نادي ويست ايند هو لص في الحقيقة! تلك قصة بحد ذاتها تقريباً أليست كذلك؟ لكن كيف لو كان اللص سمكرياً أو خضرجياً؟ هل سيكون هناك أي شيء درامياً متأصلاً في ذلك؟ كلا رغم أن الفكرة الرئيسية عن المحترمية المزدوجة التي تغطي الجريمة مازالت هناك. حتى تشارلز بيس بالياقة الإكليركية يبدو إلى حد ما أقل رياء من رافيلز في سترته الزينغارية الفضفاضة.

إن رافيلز، طبعاً، ماهر في كل الألعاب، لكن المناسب بشكل خاص أن تكون لعبته المختارة هي الكريكت. هذا لا يسمح فقط لتشابهات جزئية لانهاية لها بين مكر لاعب بولينغ بطيء ومكره كلص، بل أيضاً يساعد على تحديد الطبيعة الدقيقة لجريمته. الكريكت ليست في الحقيقة لعبة شعبية جداً في إنكلترا -هي ليست شعبية ككرة القدم في أي مكان مثلاً- لكنها تعبر عن صفة ملحوظة جيداً في الشخصية الإنكليزية، وهي النزعة إلى إعطاء قيمة "للشكل" أو "الأسلوب" أكبر وأهم من النجاح. في عيون أي محب حقيقي للعبة الكريكت، يمكن لجولة من عشرة أدوار أن تكون أفضل من جولة من مئة دور: الكريكت واحدة من الألعاب القليلة جداً التي يستطيع الهاوي فيها التفوق على المحترف. إنها لعبة مملوءة بالآمال اليائسة وتبدلات الحظ المثيرة المفاجئة وقواعدها محددة جداً، لذلك يمكن تأويلها كقضية أخلاقية جزئياً. فمثلاً حين مارس لاروود رمي كرة بوديلاين في أستراليا، لم يكن فعلياً يكسر أي قاعدة: كان يفعل شيئاً لم "يكن من لعبة الكريكت". بما أن الكريكت تستغرق الكثير من الوقت وهي لعبة مكلفة مالياً نوعاً ما، فهي لعبة الطبقة العليا على الأغلب، لكنها بالنسبة إلى الأمة كلها ترتبط بمفاهيم مثل "شكل جيد"، "العب اللعبة" إلخ، وقد انحدرت في شعبيتها كما انحدر عرف "لا تضرب رجلاً حين يكون ملقى على الأرض" إنها ليست من ألعاب القرن العشرين ويكرهها كل أصحاب التفكير الحديث تقريباً. لقد بذل النازيون مثلاً الجهود لتثبيط الكريكت التي حظيت بموطئ قدم معين في ألمانيا قبل وبعد الحرب الأخيرة. حين صور هورنانغ رافيلز كلاعب كريكت بالإضافة إلى لص، لم

يكن يقدمه بقناع مقبول ظاهرياً فقط، وإنما كان يرسم التباين الأخلاقي الحاد الذي استطاع تخيله أيضاً.

إن رافيلز ليس أقل من آمال كبيرة أو الأحمر والأسود، فهو قصة تكبّر وغطرسة، ونالت قدراً كبيراً من تقلقل مركز رافيلز الاجتماعي. ولو كان كاتباً أقل نضجاً لجعل "اللص الجنتلمان" عضواً في طبقة النبلاء أو على الأقل البارونات، لكن رافيلز من أصول من أعلى الطبقة الوسطى، وكان مقبولاً من الطبقة الأرستقراطية بسبب سحره الشخصي فقط. "كنا في مجتمع لكننا لسنا منه" هذا ما قاله لبوني في نهاية الكتاب تقريباً و"لقد دُعيت لأنني ألعب الكريكت". هو وبوني يقبلان بقيم "مجتمع" من غير اعتراض، وسيستوطنان فيه بشكل دائم إن استطاعا الهرب بنهب حمل كبير. كان الخراب الذي يهددهما دائماً هو الأفريقي الأمريكي لأنهما "يتتميان" بشكل يثير الريبة. الدوق الذي يؤدي عقوبة حبس يظل دوقاً، بينما الرجل العادي المديني لا يظل مدينياً إلى الأبد إن لحق به العار مرة. إن الفصول الختامية من الكتاب، حين يكتشف أمر رافيلز ويعيش تحت اسم منتحل، فيها شعور دمار الالهة وجو عقلي أشبه بقصيدة كيبلينغ، خادم ضباط الصف -جنتلمان رانكرز:

نعم، جندي من القوات -الذي سير خيوله الستة! إلخ.

ينتمي رافيلز بشكل لا يمكن إلغاؤه إلى "كتائب الملعونين". ظل يستطيع القيام بعمليات سطو ناجحة لكن ليس هناك مجال للعودة إلى الفردوس، الذي يعني بيكاديلي والام سي سي. بناء على قواعد المدرسة العامة، لا يوجد سوى وسيلة واحدة في إعادة التأهيل: الموت في القتال. يموت رافيلز وهو يقاتل ضد البوير (كما يتنبأ القارئ هذا من البداية) وفي عيون كل من بزني وخالقه هذا يلغي جرائمه.

كلاهما رافيلز وبوني، طبعاً، خاليان من الإيمان الديني، وليس لديهما قواعد أخلاقية حقيقية، مجرد قواعد معينة للسلوك الذي أدركاه بطريقة شبع غريزية. لكن هنا تماماً يصبح الفرق الأخلاقي بعمق بين رافيلز ولا زهور أوركيد ظاهراً. رافيلز وبوني، أخيراً، هما سيدان، وهكذا معايير كالتي لديهم يجب ألا تنتهك. أشياء محددة "لم يتم عملها" وفكرة فعلها قلما تظهر. رافيلز لا ينتهك آداب الضيافة مثلاً. سوف يرتكب عملية سطو في بيت كان يقيم فيه كضيف، لكن الضحية يجب أن تكون ضيفاً مماثلاً وليس المضيف. هو لن يرتكب جريم قتل

[لاحظ في الأسفل]، ويتجنب العنف أينما كان ممكناً، ويفضل أن ينفذ سرقاته أعزل بلا سلاح. هو يعتبر الصداقة شيئاً مقدساً، وشهم، لكن ليس أخلاقياً في علاقاته مع النساء. يجازف في مخاطر إضافية باسم "الروح الرياضية" وأحياناً لأسباب جمالية. وأهم من كل شيء، هو وطني بشكل شديد. هو يحتفل بالعيد الماسي ("لستين سنة، بوني، كنا محكومين من قبل أرفع ملكية عرفها العالم") بإرساله إلى الملكة بواسطة البريد كأساً ذهبية أثرية سرقها من المتحف البريطاني. هو يسرق، بدوافع سياسية جزئياً، لؤلؤة يرسلها الإمبراطور الألماني إلى أحد أعدائه في بريطانيا، وحين تبدأ حرب البوير تسوء فكرته الوحيدة لإيجاد طريقه إلى خط القتال. في الجبهة يكشف جاسوساً بكلفة كشف هويته هو، ومن ثم يموت بشكل مجيد برصاصة بويرية. في هذه التركيبة من الجريمة والوطنية، هو يشبه معاصره القريب أرسين لوبين الذي يقرع وينتقد الإمبراطور الألماني ويمسح ماضيه القذر بتطوعه في الفيلق الأجنبي.

[ملاحظة: رافيلز فعلياً يقتل رجلاً واحداً وهو مسؤول بشكل متعمد تقريباً عن موت رجلين آخرين. لكن ثلاثتهم أجانب وتصرفوا بطريقة تستحق الشجب الشديد، وفي مناسبة واحدة أيضاً فكر بقتل مبتز بلاكميلر. على كل هو تقليد راسخ في قصص الجرائم أن قتل مبتز "لا يؤثر". (حاشية المؤلف، ١٩٤٥)]

من المهم أن نلاحظ أن جرائم رافيلز بالمعايير الحديثة جرائم تافهة. مجوهرات بقيمة أربعمائة جنيه تبدو له غنيمة ممتازة، ولكن القصص مقنعة في تفاصيلها المادية. هي تحتوي على إثارة قليلة جداً –جثث قليلة جداً وبلا دماء أو جرائم جنسية أو سادية أو انحرافات من أي نوع. أربعمائة جنيه من النوع الصغير جداً. يبدو أن الوضع فيما يتعلق بقصص الجرائم بأي مقياس في مستوياتها العليا، زاد بشكل كثير تعطشها للدم أثناء العشرين سنة الأخيرة. إن بعضاً من القصص البوليسية المبكرة لا تحتوي على الجريمة حتى، وقصص شارلوك هولمز مثلاً ليست كلها جرائم قتل وبعض منها لا تعالج الجريمة الاتهامية حتى. كذلك الأمر مع قصص جون ثورندايك أيضاً، بينما قصص ماكس كارودز القليل والثانوي منها جرائم قتل. لكن منذ عام ١٩١٨ اصبحت القصة البوليسية التي لا تحتوي على جريمة قتل، نادرة. كما استغلت أشد التفاصيل المثيرة للاشمئزاز لتقطيع الأوصال وإخراج الجثث من القبور بشكل مشترك. فمثلاً بعض من قصص بيتر ويمسي تظهر اهتماماً مرضياً جداً بالجثث. لقد كتبت قصص

رافيلز من وجهة نظر الجاني، وهي معادية للمجتمع أقل بكثير من الكثير من القصص الحديثة التي كتبت من وجهة نظر البوليس السري. إن الانطباع الرئيسي التي تتركه خلفها صبيانية غير ناضجة، وهي تنتمي إلى زمن كان لدى الناس فيه معايير، رغم أنها معايير غبية. العبارة الرئيسية هي "لم يهلك" إن الخط الذي رسموه بين الخير والشر لا معنى له مثل تابو بولينيزي، لكن على الأقل له ميزة مثل التابو في قبوله من قبل الكل.

الكثير جداً من أجل رافيلز، أما الآن فقفزة في المبولة: **لا زهور أوركيد للآنسة بلانديش** بقلم جيمس هادلي تشيز التي نشرت في عام ١٩٣٩ ويبدو أنها حظيت بأكبر شعبية لها في عام ١٩٤٠ أثناء معركة بريطانيا والغارات الجوية. ملخص قصتها هو التالي:

الآنسة بلانديش ابنة ميلونير خطفت من قبل أفراد عصابة فوجئوا وقتلوا من قبل عصابة أكبر وأفضل تنظيماً على الفور تقريباً. حجزوها من أجل فدية وانتزعوا نصف مليون دولار من والدها. خطتهم الأصلية كانت لقتلها حالما يقبضوا مال الفدية، لكن الحظ يبقيها حية. أحد أفراد العصابة شاب يدعى سالم الذي تألف ابتهاجه الوحيد في غرز السكاكين في بطون الناس. في طفولته تخرج بتقطيع الحيوانات الحية بمقص صدئ. سالم عاجز جنسياً، لكنه يأخذ نوعاً من الرغبة بالآنسة بلانديش. أم سالم التي هي العقل الحقيقي للعصابة، ترى في هذا فرصة لشفاء سالم من عجزه، وتقرر الاحتفاظ بالآنسة بلانديش في حجز حتى ينجح سالم في اغتصابها. بعد محاولات كثيرة وإقناع كثير يشمل جَلْد الآنسة بلانديش بقطعة من أنبوب خرطوم يتم الاغتصاب. في هذا الوقت، يستأجر والد الآنسة بلانديش شرطياً سرياً. وبواسطة الرشوة والتعذيب ينجح الشرطي السري ورجال الأمن في إيجاد العصابة والقبض على أفرادها والقضاء عليهم. يفر سليم مع الآنسة بلانديش ويُقتل بعد اغتصاب أخير، ويحضر البوليس السري لإعادة الآنسة بلانديش إلى عائلتها، لكنها في هذا المرة أظهرت استلطافاً لملاطفات وعناق سالم [لاحظ في الأسفل] وشعرت أنها عاجزة عن العيش بدونه، لهذا تقفز من نافذة ناطحة سحاب.

نقاط عديدة أخرى تحتاج إلى الملاحظة قبل أن يستطيع المرء فهم كل مضامين هذا الكتاب. لنبدأ مع قصتها المركزية التي تحمل شبهاً ملحوظاً جداً مع رواية وليام فوكنر الحرم (الملجأ). ثانياً هي ليست كما يتوقع المرء عملاً مبتذلاً وسرقة جاهل، بل قطعة رائعة من الكتابة بدون

أي كلمة خاوية أو ملاحظة فظة في أي مكان فيها. ثالثاً الكتاب كله، السرد والحوار أيضاً كتب باللغة الأمريكية، علماً أن المؤلف رجل إنكليزي لم يذهب إلى الولايات المتحدة قط (في اعتقادي)، ولكن يبدو أنه قام بانتقال عقلي تام إلى عالم الجريمة والرذيلة الأمريكي. رابعاً، بيع من الكتاب حسب ناشريه ما لا يقل عن نصف مليون نسخة.

لقد أوجزت الحبكة القصصية للتو، لكن الموضوع الرئيسي أقذر ووحشي أكثر مما يوحي هذا بكثير. الكتاب يحتوي على ثمانية جرائم قتل مستفيضة وعدد لا يمكن تحديده من أعمال القتل العرضية والجروح ونبش الجثث (بمذكر حريص للرائحة النتنة) وجلد الآنسة بلانديش وتعذيب امرأة أخرى بأعقاب السجائر المشتعلة وفعل تعرٍ ومشهد من الدرجة الثالثة بقسوة لم يسمع بها، والكثير غير ذلك من النوع نفسه وتفترض ثقافة جنسية كبيرة لدى قرائها (هناك مشهد مثلاً فيه أحد أعضاء العصابة بدافع ماسوشي كما يفترض، يبلغ هزة الجماع في اللحظة التي يطعن فيها) ويعتبر الفساد التام والأنانية معياراً للسلوك البشري كشيء مسلم به. فالبوليس السري مثلاً وغد حقيقي تقريباً كأفراد العصابة وتحركه نفس الدوافع تقريباً، فهو يسعى مثلهم وراء الـ "خمسمائة دولار". من الضروري لأحداث القصة أن يكون السيد بلانديش متلهفاً لاستعادة ابنته، لكن باستثناء هذا، فإن أشياء مثل الحب والصداقة والسجية الطيبة أو حتى الكياسة العادية لا تدخل وتسجل في القصة ولا النشاط الجنسي العادي إلى مدى كبير كذلك. إن الدافع الوحيد الذي يعمل خلال القصة كلها، هو السعي وراء السلطة.

[ملاحظة: قراءة أخرى للفصل الأخير ممكنة. قد يعني أن الآنسة بلانديش حبلى. لكن التفسير الذي أعطيته آنفاً يبدو منسجماً أكثر مع الوحشية العامة للكتاب. (حاشية المؤلف)، ١٩٤٥]

يجب أن يُلاحظ أن الكتاب ليس بالمفهوم العادي للفن الإباحي، وعلى خلاف أغلب الكتب التي تعالج موضوع السادية الجنسية، يؤكد الكتاب على القسوة وليس على المتعة. سالم مغتصب الآنسة بلانديش له "شفتان مبللتان باللعاب الذي يسيل منهما": هذا مقزز، وكان القصد منه أن يكون مقززاً، لكن المشاهد التي تصف القسوة تجاه النساء روتينية نسبياً وتنقصها الحماسة. الجزء الأهم والأكثر متعة في الكتاب هي أعمال القسوة المرتكبة من قبل رجال على رجال آخرين، وقبل كل شيء استجواب فرد العصابة ايدي شولتز الذي رُبط بكرسي وجلد على رغامته بهراوات وكُسرت ذراعاه بضربات حديدة حين حرر نفسه. في

كتب أخرى للسيد تشيز مثل كتاب هو لن يحتاجها الآن، أريد للبطل أن يكون شخصية متعاطفة وربما نبيلة حتى يُوصف وهو يدوس على وجه شخص، ثم بعد ذلك يسحق فم الرجل إلى الداخل ويسحنه بإدخال كعب حذائه فيه وتدويره، وحتى حين لا يخطر هذا النوع من الأحداث المادية، يبقى الجو العقلي لهذه الكتب نفسه دائماً. إن موضوعها الرئيسي هو الصراع من أجل السلطة وانتصار القوي على الضعيف. أفراد العصابة الكبيرة يكنسون أفراد العصابة الصغيرة بلا رحمة، وسمك الكركي يلتهم السمك الصغير في البركة، ورجال الأمن يقتلون المجرمين بقسوة مثلما يقتل أبو الشص سمك الكركي. إذا أيد المرء رجال الأمن ضد أفراد العصابة في النهاية، فذلك فقط لأنهم أكثر تنظيماً وقوة، ولأن القانون في الحقيقة شغب أكبر من الجريمة. القوة هي الحق والويل للمغلوب.

كما ذكرت للتو حظي لا زهور أوركيد برواجه الأكبر في عام ١٩٤٠ رغم أنه كان يعرض كمسرحية بشكل ناجح في وقت لاحق من السنة. وكان في الحقيقة واحداً من الأشياء التي ساعدت لمواساة الناس من ضجرهم من القصف. في وقت مبكر من الحرب نشرت ذا نيويوركر صورة لرجل صغير الحجم يقترب من كشك لبيع الصحف فرش بصحف مع عناوين كهذه "معركة دبابات كبيرة في شمال فرنسا" و"معركة بحرية كبرى في بحر الشمال" و"معارك جوية هائلة فوق القنال" إلخ إلخ. كان الرجل الصغير يقول "قصص إثارة وحركة من فضلك". يمثل الرجل الصغير كل الملايين المخدرة الذين بالنسبة إليهم أفراد العصابات وحلبات ملاكمة الرهان "أصدق" و"أمتن" من أشياء كأشياء الحروب والثورات والزلازل والمجاعات والأوبئة. من وجهة نظر قارئ قصص الأحداث المثيرة، وصف غارات لندن أو الصراعات السرية للأطراف الأوروبية عبارة عن "هراء مخنث". من الجانب الآخر تبدو معارك تافهة بالمسدسات في شيكاغو تخلف عشرات القتلى "متينة" وحقيقية. هذه العادة الذهنية منتشرة بشكل زائد الآن. جندي ينبطح في خندق موحل مع رصاصات بندقية آلية تفرقع فوق رأسه بقدم أو اثنين يبعد ضجره الذي لا يطاق بقراءة قصة عن عضو عصابة أمريكي. وما الذي يجعل تلك القصة مثيرة جداً؟ بالضبط حقيقة أن الناس يطلقون النار على بعضهم البعض ببنادق آلية! لا الجندي ولا أي أحد يرى أي شيء غريب ولافت في هذا. من المسلم به أن الرصاصة الوهمية تثير الرعشة أكثر من الرصاصة الحقيقية.

التفسير الواضح: في الحياة الحقيقية يكون المرء ضحية سلبية عادة، بينما في قصة المغامرات يستطيع المرء اعتبار نفسه مركز الأحداث. لكن هناك أكثر من هذا فيها. هنا من الضروري أن نشير ثانية إلى حقيقة غريبة في لا زهور أوركيد كونها كتبت مع أخطاء فنية ربما، لكن بالتأكيد بمهارة كبيرة باللغة الأمريكية.

يوجد هناك في أمريكا أدب ضخم من نفس طابع لا زهور أوركيد تقريباً. بمعزل تام عن الكتب يوجد عدد كبير من "المجلات التي تطبع على ورق خشن" تتدرج لتقدم أنواعاً مختلفة من الفنتازيا (الخيال الجامح)، لكنها كلها تقريباً لها نفس الجو العقلي. قلة منها تدخل في الأدب الإباحي بشكل مباشر، لكن الغالبية الكبرى تستهدف بوضوح تام الساديين والماسوشيين. تباع النسخة بثلاث بنسات تحت عنوان يانك ماغز [لاحظ في الأسفل] أشياء كانت تتمتع بشعبية ضخمة في إنكلترا، لكن حين جف المخزون بسبب الحرب لم يقدم بديلاً مرضياً. النسخ الإنكليزية المقلدة "لمجلات الورق الخشن" موجودة الآن، لكنها أشياء هزيلة بالمقارنة مع الأصلية. أفلام اللصوص والمجرمين الإنكليزية لم تقترب أبداً من نظيراتها الأمريكية في وحشيتها. إن سيرة السيد تشيز تظهر مدى التأثير الأمريكي البعيد. ليس في كونه يعيش في حياة خيالية في عالم الجريمة والرذيلة في شيكاغو فقط، وإنما يستطيع أن يعتمد على مئات آلاف القراء الذين يعرفون ما هو المقصود بـ "كليبشوب" نوادي التعري الليلية أو "هوتسكوات" الكرسي الكهربائي، ولا يضطرون إلى إجراء حساب عقلي حين يجابهون بعبارة "فيفتي غراند" خمسين دولار، ويفهمون من لمحة جملة مثل "جوني كان لاعب ورق ومتقدماً بوثبتين فقط عن نت-فاكتوري مشفى المجانين". من الواضح أن هناك أعداداً كبيرة من الناس الإنكليز الذين تأمركوا لغوياً جزئياً، ويجب أن يضيف المرء وفي وجهة النظر الأخلاقية إذ لم يكن هناك احتجاج شعبي ضد لا ألوان أرجوانية لقد سحب الكتاب في النهاية، لكن فقط حين أثار عمل لاحق الآنسة كالاغان تسير إلى كارثة انتباه السلطات إلى كتب السيد تشيز. الحكم من خلال محادثات عرضية آنذاك، حصل القراء العاديون على رعشة معتدلة من فحش لا الوان أرجوانية لكنهم لم يروا شيئاً غير مرغوب فيه في الكتاب ككل. وتصور أناس كثيرون بالصدفة أنه كان كتاباً أمريكياً أعيد إصداره في إنكلترا.

[ملاحظة: قيل إنه استورد إلى بلاده كثقل موازن بسبب سعره المتدني ومظهره الضخم. منذ الحرب كانت السفن تفرش بشيء أكثر نفعاً، ربما الحصى. (ملاحظة المؤلف)]

الشيء الذي يجب على القارئ العادي أن يعترض عليه -بشكل شبه مؤكد، وكان يجب أن يعترض عليه قبل عقود قليلة من الزمن- هو الموقف الملتبس تجاه الجريمة. إنه متضمن عبر **لا ألوان أرجوانية** أن تكون مجرماً تستحق التوبيخ فقط، بمعنى أن ذلك لا يكسب الكثير. أن تكون رجل أمن يُكسب أكثر، لكن ليس هناك فرق أخلاقي بما أن رجال الشرطة يستخدمون طرقاً إجرامية. في كتاب **هو لن يحتاجها الآن**، يختفي التمييز بين الجريمة ومنع الجريمة عملياً. هذا رحيل جديد للأدب القصصي الإنكليزي المثير، الذي كان فيه دائماً حتى وقت حديث فرق واضح بين الصح والخطأ واتفاق عام بأن الفضيلة يجب أن تنتصر في الفصل الأخير. كتب إنكليزية تمجد الجريمة (الجريمة الحديثة أي-القراصنة وقطاع الطرق يكونون مختلفين) نادرة جداً. حتى كتاب مثل رافيلز، كما أشرت، تحكمه محرمات (تابوهات) جبارة. ومفهوم بشكل واضح أن جرائم رافيلز يجب أن يُكفر عنها عاجلاً أو آجلاً. في أميركا في الحياة كما في الأدب القصصي، نزعة التسامح مع الجريمة وحتى الإعجاب بالمجرم طالما هو يحقق نجاحاً أكثر من ملحوظ. في الحقيقة، في النهاية وجهة النظر هذه هي التي مكنت الجريمة من الازدهار بهذا المقياس الضخم. كُتبت كتباً عن آل كابوني لا تختلف في النغمة عن الكتب التي كتبت عن هنري فورد وستالين ولورد نورثكليف، وبقية اللواء من "الكوخ الخشبي إلى البيت الأبيض". وبالانتقال إلى ثمانين سنة إلى الوراء، يجد المرء مارك توين يتبنى نفس الموقف تقريباً نحو قاطع الطرق المثير للاشمئزاز سليد، بطل الثمان والعشرين جريمة قتل، ونحو المجرمين المتهورين الغربيين عموماً. كانوا ناجحين، هم "أحسنوا صنيعاً" لذلك هو أعجب بهم.

في كتاب **لا ألوان أرجوانية**، فإن المرء ليس كما في الأسلوب القديم لقصص الجرائم، يفر ببساطة من واقع ممل إلى عالم خيالي من الأكشن، وإنما يفر أساساً إلى قسوة وانحراف جنسي. **لا ألوان أرجوانية** يستهدف غريزة السلطة التي ليست في قصص رافيلز أو شارلوك هولمز. في الوقت نفسه، فإن الموقف الإنكليزي تجاه الجريمة ليس أرفع من الموقف الأمريكي كثيراً مثلما أشرت ضمناً. إنه ممزوج بعبادة القوة، وأصبح ملحوظاً أكثر في السنوات العشرين الأخيرة. كاتب يستحق الدراسة والتفحص إدغار والاس خصوصاً في كتب أنموذجية مثل

الخطيب وقصص السيد جيه جي ريدر. والاس واحد من كتاب قصص الجرائم الأوائل الذي كسر التقليد القديم للمخبر السري وابتعد عنه وجعله شخصيته المركزية ضابط سكوتلانديارد. شارلوك هولمز هو هاوٍ يحل مشاكله بدون العون من رجال الشرطة، وفي القصص المبكرة ضدهم حتى. إضافة إلى ذلك هو مثل لوبين مفكر أساساً حتى إنه عالم. هو يفسر منطقياً الواقع المدرك وعقليته تتباين باستمرار مع الطرق الروتينية لرجال الأمن. عارض والس بقوة هذا القدح والذم كما اعتبره من سكوتلانديارد. وفي مقالات صحفية عديدة خرج من مساره ليشجب هولمز بالاسم. مثاله الأعلى كان المخبر -المفتش الذي يمسك بالمجرمين، ليس لأنه ذكي عقلياً، وإنما لأنه جزء من منظمة جبارة. من هنا، فإن الحقيقة الغريبة أن في قصص ولاس الأكثر تميزاً لا تلعب "الإشارة" و"الاستدلال" أي دور. المجرم دائماً مهزوم من قبل صدفة لا تصدق أو لأن رجال الأمن يعرفون كل شيء عن الجريمة مسبقاً بطريقة غير مفسرة. نغمة القصص توضح تماماً أن إعجاب والاس برجال الأمن هو عبادة التنمر. مخبر من اسكوتلانديارد هو النوع الأقوى من الكائنات التي يستطيع تخيلها، بينما شخصيات المجرمين في عقله كخارجين عن القوانين، ويُسمح بكل شيء ضدهم مثل العبيد المحكوم عليهم في المجتلد الروماني. رجال أمنه يتصرفون بشكل وحشي أكثر بكثير مما يفعله رجال الأمن البريطانيون في الحياة الحقيقية- يضربون الناس بدون استفزاز ويطلقون مسدساتهم عند آذانهم ليرعبوهم وهلم جرا- وبعض القصص تظهر سادية فكرية مخيفة. (مثلاً، والاس يحب أن يرتب الأشياء لكي يشنق النذل في نفس اليوم الذي تتزوج فيه البطلة) لكنها سادية تقلد الموضة الإنكليزية: أي أنها لاواعية ولا يوجد أي جنس صريح فيها وهي تظل ضمن حدود القانون. الجمهور الإنكليزي يتسامح مع قانون جنائي قاس ويبتهج بمحاكمات جرائم القتل غير العادلة: لكن يظل ذلك أفضل في ظني من التسامح مع الجريمة أو الإعجاب بها. إن كان على المرء أن يعبد متنمراً، فمن الأفضل أن يكون رجل أمن بدلاً من عضو عصابة. لايزال والاس محكوماً إلى حد ما بمفهوم "لم ينجز". في **لا ألوان أرجوانية** أي شيء "ينجز" طالما أنه يؤدي إلى القوة. كل العقبات على الأرض وكل الدوافع تخرج إلى العلن. تشيز عرض منذر أسوأ من والاس، إلى درجة أن كل ما في المصارعة أسوأ من الملاكمة، أو الفاشية أسوأ من الديمقراطية الرأسمالية.

في استعارة من قصة وليام فوكنر الحرم، يأخذ تشيز الحبكة فقط، لكن الجو العقلي للكتابين ليس متشابهاً، فتشيز يستمد من مصادر أخرى في الحقيقة. وهذا الاقتباس القليل والاستعارة بالخصوص رمزي فقط، إذ يرمز إلى تبسيط الأفكار وإفقارها الذي يحدث دائماً، وربما يحدث بشكل أسرع في عصر الطباعة. وُصف تشيز بـ "فوكنر الجماهير"، لكنه كان أدق لو وصف بكارليل الجماهير. هو كاتب مشهور-هناك الكثير من هذا النوع في أميركا لكنهم لايزالون قلة نادرة في إنكلترا- لحق بما يدعى الآن "بالواقعية"، يعني العقيدة التي ترى أن القوة هي الحق. إن تطور "الواقعية" كان الميزة البارزة الكبيرة للتاريخ الفكري لعصرنا. لماذا هذا يجب أن يكون مسألة معقدة؟ الترابط بين السادية والماسوشية وعبادة النجاح وعبادة السلطة والقومية ونظام الحكم الشمولي، موضوع ضخم، قلما تخدشت حوافه، وحتى ذكره يعتبر فظاً نوعاً ما. خذ أول مثال يخطر بالبال كما أعتقد: لم يبرز أي أحد أبداً العنصر السادي والماسوشي في أعمال برنارد شو، ولم يوحِ بأن هذا له علاقة بإعجاب شو بالحكام الديكتاتوريين. تتساوى الفاشية على نحو طليق بالسادية غالباً، لكن دائماً من قبل أناس لا يرون أي شيء خطأ في عبودية ستالين. الحقيقة هي طبعاً أن مفكرين إنكليز لا يحصون من الذين يقبلون مؤخرة ستالين، ليسوا مختلفين عن الأقلية منهم الذين يقدمون ولاءهم لهتلر أو موسوليني، ليس من الخبراء الأكفاء الذين يبشرون بـ"لكمة قاضية" أو "دافع" أو "شخصية" أو "تعلم لتكن الرجل النمر" في عشرينات القرن العشرين، ولا من ذلك الجيل الأقدم من المفكرين مثل كارليل وكريسي والبقية الذين طأطؤوا رؤوسهم أمام العسكرية العدوانية الألمانية. كلهم يعبدون السلطة والقسوة الناجحة. من المهم أن نلاحظ أن عبادة القوة تميل إلى الاختلاط مع حب القسوة والشر ومن أجلهما فقط. الكل يُعجب بالطاغية إن صدف وكان محتالاً ملطخاً بالدم أيضاً. و"الغاية تبرر الوسيلة" غالباً ما تصبح بالنتيجة "الوسيلة تبرر نفسها بشرط أن تكون قذرة كفاية". هذه الفكرة تلون المنظر لكل المتعاطفين مع النظام الشمولي، ويفسر مثلاً البهجة الحقيقية التي رحب بها كثير من المفكرين الإنكليز بالميثاق النازي-السوفييتي. كانت خطوة مفيدة بشكل مريب للاتحاد السوفييتي فقط، لكنها كانت غير أخلاقية تماماً، ولذلك نالت الإعجاب. أما تفسيراتها الكثيرة والمتناقضة، فيمكن أن تأتي لاحقاً.

حتى وقت قريب، كانت قصص المغامرات المميزة للشعوب الناطقة بالإنكليزية قصصاً يقاتل فيها البطل ضد المحاباة. هذا صحيح بشكل كامل من روبين هود إلى البحار باباي. ربما الأسطورة الأساسية عن العالم الغربي هي جاك قاتل المارد، لكن لو توجهنا *برينغ أب تو* لنؤرخ هذا، لوجب أن يكون جاك قاتل القزم. ويوجد هناك أدب ضخم، يعلم بشكل صريح أو ضمني أن المرء يجب أن يقف إلى جانب الرجل الكبير ضد الصغير. أغلب مما يكتب الآن عن السياسية الخارجية مجرد زخرفة لهذا الموضوع ولمدة عقود عديدة، عبارات مثل "العب اللعبة"، "لا تضرب رجلاً وهو على الأرض" و"المسألة ليست كريكت" لم تفشل أبداً في أي واحدة من الادعاءات الفكرية والذرائع. ما هو جديد نسبياً أن تجد الأنموذج المقبول الذي وفقه (أ) الحق حق والخطأ خطأ، أياً كان الفائز، و(باء) الضعف يجب أن يُحترم ويختفي من الأدب الشعبي أيضاً. حين قرأتُ روايات دي إتش لورانس لأول مرة في عمر يقارب العشرين، احترتُ بحقيقة عدم وجود أي تصنيف للشخصيات في "خيرة" و"سيئة" بدا لورانس متعاطفاً معها كلها بالتساوي تقريباً، وهذا كان نادراً جداً، ما منحني الشعور بأنني ضيعت توجهاتي. اليوم لا أحد يفكر في البحث عن أبطال وأوغاد في رواية متسلسلة، لكن في الفن القصصي الرخيص مازال المرء يتوقع أن يجد فرقاً حاداً بين الصح والخطأ وبين الشرعية واللاشرعية. عوام الناس بالمجمل مازالوا يعيشون في العالم ذي الخير المطلق والشر الذي فر منه المفكرون منذ زمن بعيد. لكن شعبية وشهرة **لا ألوان أرجوانية** والكتب الأمريكية والمجلات التي تشبهه، تظهر السرعة الكبيرة التي يتقدم فيها مبدأ "الواقعية" ويحظى بالقبول.

لاحظ ذلك عدد كبير من الناس بعد قراءة **لا ألوان أرجوانية**، وقالوا لي: "إنها فاشية صرفة" هذا وصف صحيح، رغم أن الكتاب ليس فيه أي أدنى علاقة بالسياسة وبالقليل جداً مع المشاكل الاجتماعية والاقتصادية. إنها نفس العلاقة بالفاشية، مثل علاقة روايات ترولوب برأسمالية القرن التاسع عشر مثلاً. إنه حلم يقظة مناسب لعصر استبدادي شمولي. في عالمه المتخيل من اللصوص والعصابات، يمثل تشيز نسخة مقطرة من المشهد السياسي الحديث، الذي تعتبر فيه أشياء مثل قصف المدنيين بالقنابل واستخدام الرهائن والتعذيب للحصول على الاعترافات والسجون السرية وتنفيذ أحكام الإعدام من دون محاكمة والجلد بالهراوات المطاطية والإغراق بالمباول وسجلات منظمة من التزييف والإحصائيات والخيانة

والرشوة وبيع الوطن، أشياء عادية وحيادية أخلاقياً، وحتى إنها تنال الإعجاب حين تتم بطريقة كبيرة وجريئة. الرجل العادي ليس مهتماً مباشرة بالسياسة، وحين يقرأ يريد أن تترجم له الصراعات الراهنة في العالم إلى قصة بسيطة عن أفراد. يستطيع الاهتمام في بسالم وفينر، لأنه لم يستطع في الجي بي يو الشرطة السرية الروسية والجستابو الشرطة السرية النازية. الناس يعبدون القوة بالشكل الذي يستطيعون فهمه. هناك صبي في الثانية عشرة يعبد جاك ديمبسي، وهناك مراهق في أحياء الفقراء في غلاسغو يعبد آل كابوني، وهناك تلميذ طامح في كلية إدارة الأعمال يعبد لورد نوفيلد، كما أن قراء صحيفة نيو ستيتمان يعبدون ستالين. هناك فرق في النضج الفكري، لكن ليس في وجهة نظر أخلاقية. قبل ثلاثين سنة من الآن، لم يكن لأبطال القصص الشعبي أي علاقة مشتركة مع أفراد العصابات والمخبرين ومحبوبي الطبقة المثقفة الليبرالية الإنكليزية، وكانوا شخصيات متعاطفة نسبياً. بين هولمز وفينر من جانب وبين أبراهام لينكولن وستالين من الجانب الآخر، هناك هوة مماثلة.

لا يجب على المرء أن يستنتج الكثير جداً من نجاح كتب السيد تشيز، فربما تكون ظاهرة معزولة حدثت بالضجر المختلط ووحشية الحرب، لكن إن كانت مثل تلك الكتب قد تأقلمت في إنكلترا بشكل واضح بدلاً من أن تكون مجرد نصف مفهومة مستوردة من أمريكا، فسيكون هناك مبررات جيدة للفزع. باختيار رافلز كخلفية لأزهار أوركيد، فأنا عمداً اخترت كتاباً كان مريباً أخلاقياً بمقاييس عصرنا. رافلز كما أشرت ليس لديه نظام أخلاقي حقيقي أو دين أو وعي اجتماعي بالتأكيد. كل ما لديه مجموعة من انعكاسات لاإرادية للجهاز العصبي لرجل سيد جنتلمان. أعطه نقرة حادة على هذا المنعكس أو ذاك (هي تسمى "رياضة" و"صديق" و"امرأة" و"ملك" و"بلاد" وهكذا) وستحصل على رد فعل متنبأ به. في كتب السيد تشيز ليس هناك رجال سادة محترمون أو محرمات. التحرر تام. فرويد وميكيافيلي وصلا إلى الضواحي الخارجية للمدن. مقارنة الجو الطلابي في الكتاب الأول مع القسوة والفساد في الآخر، يدفع المرء للشعور بأن الغطرسة مثل النفاق قيد وكبح على السلوك الذي قلت قيمته من وجهة نظر اجتماعية.

كلمات جديدة

في الوقت الحاضر، إن تشكيل كلمات جديدة عملية بطيئة (لقد قرأت في مكان ما أن اللغة الإنكليزية تكسب حوالي ست كلمات وتخسر أربع في السنة الواحدة) ولا تصاغ كلمات جديدة عمداً إلا كأسماء لأشياء مادية. لم تصغ كلمات مجردة أبداً رغم أن كلمات قديمة (مثل "شرط" و"انعكاس" إلخ) تحرف إلى معاني جديدة لأغراض علمية. ما سوف أقوله هنا إنه من المعقول جداً أن نخترع مفردات ربما تصل إلى آلاف كثيرة من الكلمات تتعامل مع أجزاء من تجربتنا التي هي غير مذعنة للغتنا الآن عملياً. هناك اعتراضات كثيرة على الفكرة، وسأتعامل معها عند ظهورها. الخطوة الأولى أن نشير إلى نوع الغرض الذي لأجله نحتاج الكلمات.

يلاحظ كل من يفكر أن لغتنا عملياً غير مفيدة لوصف أي شيء يدور داخل ذهنه. هذا معترف به عموماً، فقد بدأ بعض الكتاب الماهرين ورفيعي المستوى (مثل ترولوب ومارك توين) سيرتيهما الذاتيتين بالقول إنهما لم ينويا وصف حياتيهما الداخليتين لأنهما ذاتا طبيعتين غير قابلتين للوصف. حالما نتعامل مع أي شيء ملموس أو مرئي (حتى هناك إلى درجة كبيرة- انظر إلى صعوبة وصف مظهر أي شخص) نجد أن الكلمات لا تشبه الحقيقة أكثر من شبه أحجار الشطرنج بالكائنات الحية. خذ حالة واضحة لا تثير قضايا جانبية، تأمل حلماً. كيف تصف الحلم؟ من الواضح أنك لم تصفه أبداً لعدم وجود كلمات في لغتنا تنقل جو الأحلام. طبعاً يمكنك إعطاء تقدير فج لبعض الوقائع في الحلم. يمكنك القول "حلمت بأنني أتمشى في ريجينت ستريت مع حيوان من القوارض يرتدي قبعة مستديرة سوداء إلخ، لكن ليس هناك وصف حقيقي للحلم، وحتى إن فسر عالم النفس حلمك على أساس "الرموز"، فهو يفعل ذلك بواسطة الحدس، لأن الخاصية الحقيقية للحلم التي تعطي القارض الشائك معناه الوحيد الفريد خارج عالم الكلمات. في الحقيقة إن وصف الحلم مثل ترجمة قصيدة إلى لغة أخرى من دون معرفة؛ إنها إعادة صياغة خالية من المعنى، إلا إذا كان المرء يعرف الأصل.

اخترت حلماً كمثال لا يمكن تفنيده، لكن لو كانت الأحلام فقط هي التي يتعذر وصفها، لربما كانت المسألة لا تستحق القلق. لكن، كما أشير مراراً وتكراراً، العقل اليقظ ليس مختلفاً كثيراً عن العقل الحالم كما يبدو أو كما نحب أن نزعم أنه يبدو. صحيح أن أغلب أفكار يقظتنا معقولة -أي يوجد في عقولنا نوع من رقعة شطرنج تتحرك فوقها الأفكار بشكل منطقي وحرفي؛ نحن نستعمل هذا الجزء من عقولنا لأي مشكلة فكرية مباشرة وندخل في عادة التفكير (أي التفكير في لحظات رقعة شطرنجنا) بأنه العقل كله. لكن من الواضح أنه ليس الكل. إن العالم المضطرب غير الحرفي اللفظي ينتمي إلى أحلام لا تغيب عن عقولنا أبداً، وإن كانت أي عملية حسابية ممكنة، أظن أننا سنكتشف أن نصف مقدار أفكار يقظتنا من هذا النوع. بالتأكيد الأفكار والأحلام تؤثر. حين نحاول التفكير شفوياً، فهي تؤثر على الأفكار الشفوية، وهي التي تجعل حياتنا الداخلية ذات قيمة إلى حد كبير. افحص أفكارك في أي لحظة عرضية، ستجد أن الحركة الرئيسية فيها تيار من أشياء مجهولة -مجهولة جداً لذلك المرء الذي لا يعرف إن كان سيسميها أفكاراً أو صوراً ذهنية أو مشاعر. في المقام الأول هناك أشياء تراها وأصوات تسمعها، يمكن وصفها بالكلمات، لكنها بمجرد أن تدخل إلى عقلك، تصبح شيئاً مختلفاً يتعذر وصفه تماماً" بالإضافة إلى ذلك هناك حياة حالمة يخلقها عقلك لنفسه من دون توقف -ولكن أغلب هذا تافه وينسى في الحال، وعلى الرغم من ذلك يحتوي على أشياء جميلة ومسلية..إلخ أبعد من أي شيء يُعبر عنه بالكلام. هذا الجزء غير اللفظي من عقلك والقسم الأهم منه حتى، هو مصدر كل الدوافع تقريباً. كل الذي تحب والذي لا تحب وكل المشاعر الجمالية وكل الأفكار حول الصح والخطأ (الاعتبارات الجمالية والأخلاقية لا سبيل إلى الفكاك منها بأي حال) تنبع من المشاعر التي يعترف بأنها أدق من الكلمات. حين تسأل "لماذا تفعل أو لا تفعل كذا وكذا؟" أنت تدرك بشكل ثابت أن مبررك الحقيقي لا يعبر عنه بالكلمات حتى حين لا تكون لديك رغبة في إخفائه، وبناءً عليه تبرر سلوكك بشكل مضلل تقريباً. أنا لا أعرف إن كان كل واحد سيعترف بهذا، وفي الحقيقة يبدو أن بعض الناس غافلون عن كونهم متأثرين بحياتهم الداخلية أو حتى امتلاكهم لأي داخل. لاحظت أن كثيراً من الناس يضحكون حين يكونون لوحدهم، وأعتقد أنه إن لم يضحك الإنسان حين يكون لوحده، فيجب أن تكون حياته الداخلية عقيمة. لكن كل إنسان فرد لديه حياة داخلية (روحية)

ومدرك للاستحالة العملية لفهم الآخرين أو أن يفهموه-عموماً ومن شبه عزلة النجوم التي تعيشها الكائنات البشرية. إن كل الأدب تقريباً عبارة عن محاولة للفرار من هذه العزلة بوسائل ملتوية -الوسائل المباشرة (كلمات في معانيها الأولية) عديمة الجدوى تقريباً.

الكتابة "التخيلية" هجوم من الخاصرة على مواقع حصينة من الواجهة الأمامية. إن الكاتب الذي يحاول أي شيء ليس غير "فكري" واهن، يستطيع أن ينجز القليل بالكلمات في معانيها الأولية. يباشر تأثيره إن كان له، باستخدام كلمات بطريقة خادعة ملتوية معتمداً على إيقاعها وهلم جرا، مثلما يعتمد في الكلام على النبرة والإيماءة. في حالة الشعر، هذا معروف جداً بأنه يستحق الجدال حوله. لا أحد له أصغر فهم للشعر يفترض أن:

ثبت القمر المميت كسوفه/ وسخر العرافون الحزينون من فالهم ونذيرهم.

ذلك يعني حقاً ما تعنيه الكلمات في معناها المعجمي. (قيل إن بيتي الشعر يشيران إلى الملكة إليزابيث التي تغلبت على حرجها الكبير بأمان). المعنى المعجمي فيه دائماً تقريباً شيء يتعلق بالمعنى الحقيقي، لكن ليس أكثر من علاقة "حكاية" صورة بتصميمها. والشيء نفسه مع النثر مع التغييرات الضرورية. فكر برواية، حتى الرواية التي لا علاقة لها بشكل ظاهر بالحياة الداخلية - ما يسمى "قصة مباشرة". تأمل مانون ليسكوت. لماذا اخترع المؤلف الهراء الطويل حول فتاة خائنة وراهب هارب؟ لأن لديه شعوراً محدداً، رؤيا، سمها ما شئت، ويعرف ربما بعد التجريب، أنه من العبث محاولة نقل هذه الرؤيا بوصفها كما يصف امرؤ جراد البحر لكتاب علم الحيوان. لكن بعدم وصفه، باختراع شيء آخر (في هذه الحالة رواية تشرد: في عصر آخر كان سيختار شكلاً آخر) يستطيع نقلها، أو نقل قسم منها. في الحقيقة، فإن فن الكتابة إلى حد كبير هو تحريف الكلمات، وسأقول حتى إنه كلما كان التحريف أقل وضوحاً، كان إنجاز العمل أتمّ وأشمل. كاتب يبدو أنه يلوي تويست أوت الكلمات من معانيها (جيرارد مانلي هويكينز مثلاً) لو نظر المرء عن قرب، فهو فعلاً يقوم بمحاولة يائسة لاستخدامها بشكل مباشر. بينما كاتب يبدو ليس لديه أي خدع كانت، مثلاً كتاب القصائد الغنائية الشعبية القديمة، يقومون بهجوم من الخاصرة بشكل بارع مميز، لكن في حالة كتاب القصائد الغنائية، هذا بلا شك غير متعمد. طبعاً يسمع المرء الكثير من النفاق، إلى درجة أن الفن الجيد فن "موضوعي"، وكل فنان حقيقي يحتفظ بحياته الداخلية لنفسه. لكن الناس

الذين يقولون هذا لا يقصدونه. كل ما يقصدونه، هو أنهم يريدون أن يتم التعبير عن الحياة الداخلية بأسلوب ملتو غير مباشر بشكل استثنائي، كما في القصيدة الغنائية أو القصة المباشرة.

يكمن ضعف الطريقة غير المباشرة عدا عن صعوبتها، أنها تفشل عادة. كما أن بلادة الكلمات لمن ليس فناناً هاماً تفضي إلى تزييف متواصل. هل هناك أي أحد من الذين كتبوا الكثير من رسائل الحب شعر أنه قال بالضبط ما نوى أن يقوله؟ الكاتب يزيف نفسه عن عمد وغير عمد. عن عمد لأن الصفات العرضية للكلمات تغويه وترعبه دائماً وتبعده عن معناه الحقيقي. هو يحصل على فكرة، ويبدأ في محاولة التعبير عنها وينخدع في فوضى الكلمات المرعبة التي ينتج عنها عادة أنموذج يبدأ بتشكيل ذاته عرضياً تقريباً. أنه ليس الأنموذج الذي أراده بأي شكل، لكنه في كل الأحوال أنموذج ليس مبتذلاً أو كريهاً، إنه "فن جيد". هو يقبله لأن "الفن الجيد" هبة غريبة تقريباً من السماء، ويبدو تضييعها حين تمنح نفسها، أمراً مؤسفاً. أليس أي شخص بأي درجة من الأمانة العقلية مدركاً لقول الأكاذيب طوال اليوم في الحديث والكتابة، لأن الأكاذيب ببساطة تسقط في قالب فني حيث لا تفلح الحقيقة؟ لكن لو أن الكلمات تمثل المعاني بشكل تام ودقيق، كما يمثل الارتفاع ضرب القاعدة مساحة متوازي الأضلاع -على الأقل ضرورة الكذب لن توجد أبداً، وهناك تشويهات أخرى في عقل القارئ أو السامع، فهو يرى دائماً معاني ليست هناك، لأن الكلمات ليست قناة مباشرة للفكر والإيضاح الجيد، لهذا تقديرنا المفترض للشعر الأجنبي. نحن نعرف من سيرة عاشقة الدكتور واتسون حشو النقاد الأجانب بأن الفهم الصحيح للأدب الأجنبي مستحيل تقريباً، مع ذلك يتظاهر بعض الناس الجهلة تماماً بحصولهم على متعة واسعة من شعر في لغات أجنبية ولغات ميتة حتى. من الواضح أن المتعة التي يستمدونها تأتي من شيء لم يقصده الكاتب أبداً، ربما من شيء يجعله يتلوى في قبره من الغيظ، لو عرف أن هذا الشيء نسب إليه. أنا أقول جملة لاتينية نفسها وأكررها مراراً لمدة خمس دقائق لجمال كلمة ما فيها، لكن بأخذ الفجوة الزمنية والثقافية بعين الاعتبار وجهلي باللاتينية وحقيقية عدم وجود أحد يعرف كيف تلفظ اللاتينية حتى، فهل من الممكن أن الأثر الذي استمتعت به هو الأثر الذي سعى هوراس من أجله؟ كما لو أنني كنت في نشوة وابتهاج من جمال لوحة، وكل ذلك بسبب بعض لطخ وطرطشة من الدهان لصقت بقماش اللوحة عرضياً بعد مئتي سنة من رسمها. لاحظ أنني لا أقول إن الفن

سيتحسن بالضرورة لو نقلت الكلمات بشكل موثوق، لأن كل ما أعرفه أن الفن يزدهر على بساطة وغموض اللغة. أنا أنتقد فقط الكلمات في وظيفتها المفترضة كوسائل نقل ومركبات للأفكار. وتبدو لي لغتنا من وجهة نظر الدقة والتعبيرية أنها بقيت في العصر الحجري.

الحل الذي أقترحه أن نخترع كلمات جديدة بشكل متعمد، كما نخترع أجزاء جديدة لمحرك السيارة. أفترض أن مجموعة من المفردات وجدت لتعبر بدقة عن حياة العقل أو قسم كبير منها. أفترض أن هناك حاجة لعدم إفساد الشعور بأن الحياة لا يمكن التعبير عنها، وليس هناك غش في الخدع الفنية؛ إن التعبير هو ببساطة مسألة أخذ الكلمات الصحيحة ووضعها في مكانها مثل حل معادلة جبرية. أعتقد أن فوائد هذا ستكون واضحة، لكن الأقل وضوحاً هو الجلوس وصياغة كلمات جديدة عمداً في عملية عقلانية. وقبل الإشارة إلى طريقة يمكن صياغة كلمات مرضية ومناسبة فيها، من الأفضل أن أتعامل مع الاعتراضات التي يجب أن تثار.

لو قلت لأي شخص عاقل: "دعنا نشكل جمعية من أجل اختراع كلمات جديدة أدق"، فإنه سيعارض بأنها فكرة شخص غريب الأطوار أولاً، ومن ثم ربما يقول إن كلماتنا الحالية لو عوملت على نحو لائق، ستواجه كل الصعوبات والعوائق. (هذا الأخير مجرد اعتراض نظري. عملياً كل شخص يدرك عدم كفاية وملائمة اللغة -تأمل عبارات كهذه "الكلمات تفشل" و"هذا ليس ما قلته، هذه هي الطريقة التي قالها فيها" إلخ) لكن أخيراً سيعطيك جواباً مثل هذا تقريباً: "لا يمكن فعل الأشياء بتلك الطريقة المتحذلقة. اللغة لا تنمو إلا ببطء مثل الأزهار، ولا تستطيع لصقها مثل قطع آلة. أي لغة مختلقة يجب أن تكون بلا شخصية وبلا حياة- انظر إلى الإسبيرانتو.. إلخ. إن المعنى الكامل للكلمة يكون في ترابطاتها وتداعياتها المكتسبة ببطء.. إلخ"

في المقام الأول، هذه الحجة مثل أغلب الحجج التي تنتج حين يقترح أحد تغيير أي شيء، هي قول طويل ممل بعيد عما يجب أن يكون. حتى الآن لم نهيئ أنفسنا إلى ابتداع متعمد للكلمات، وكل اللغات الحية نمت ببطء ومصادفة، لذلك لا تستطيع اللغة أن تنمو بطريقة أخرى. في الوقت الحاضر، حين نريد أن نقول شيئاً فوق مستوى التحديد الهندسي، فنحن ملزمون باستحضار خدع بأصوات ومرافقات وتداعيات..إلخ، لذلك فهذه الضرورة متأصلة في طبيعة الكلمات. المغالطة المنطقية واضحة. لاحظ أنني حين اقترحت كلمات مجردة، فأنا أقترح توسيعاً

وإضافة لمراسنا الحالي وخبرتنا. لأننا الآن نصيغ كلمات جديدة تعبر عن أشياء مادية. الطائرات والدراجات تخترع، ونحن نخترع لها أسماء، وهو الشيء الطبيعي الذي يجب فعله. إنها مجرد خطوة لصياغة أسماء للأشياء التي لا اسم لها الآن والتي توجد في الذهن. يمكن أن تقول "لماذا لا تحب السيد سميث؟"، وأقول "لأنه كذاب وجبان..إلخ"، وأنا شبه متأكد أنني أعطيت السبب الخطأ. في ذهني الجواب على الشكل التالي "لأنه - نوع من الرجال"- يمثل شيئاً أفهمه وأنت ستفهمه لو استطعت أن أقوله لك. لماذا لا أجد اسماً لـ؟ إن الصعوبة الوحيدة هي التوافق حول ما نسميه. لكن قبل أن تظهر هذه الصعوبة بوقت طويل، فإن أنموذج الإنسان الكاتب والقارئ سوف يتراجع وينفر من هكذا أفكار كاختراع الكلمات مثلاً. سوف يخترع حجة مثل التي أشرت إليها آنفاً أو أخرى مغالطة ساخرة تقريباً. في الواقع كل هذه الحجج هراء. إن النفور يأتي من غريزة عميقة غير مبررة خرافية في أصلها. إنه الشعور أن أي مقاربة عقلية مباشرة لمصاعب المرء وأي محاولة لحل مشاكل الحياة كما يحل المرء معادلة، لن تؤدي إلى أي مكان، وعلى الأكثر وبالتأكيد غير آمنة. يستطيع المرء رؤية هذه الفكرة معبر عنها في كل مكان بطريقة غير مباشرة. كل الهراء الذي جرى الحديث عنه حول عبقريتنا القومية من أجل "التغلب على المصاعب والنجاح" وكل التصوف الملحد الهش الذي أثير ضد صلابة العقل ودقته، القصد الأساسي منه أن عدم التفكير هو الأسلم. أنا متأكد أن هذا الشعور يبدأ في الاعتقاد المشترك عند الأطفال بأن الهواء محمل بعفاريت منتقمة تنتظر لتعاقب الاقتراض والحدس(٢). يظل الاعتقاد حياً عند البالغين كخوف من التفكير العقلاني. أنا المولى ربكم، أنا رب غيور، والغرور يأتي قبل السقوط إلخ- وأخطر أشكال الغرور، هو الغرور الزائف للعقل. عوقب داوود لأنه أحصى الناس- أي لأنه استعمل عقله بشكل علمي. لهذا مثل هذه الفكرة تبدو بحد ذاتها تكفيرية كفكرة نمو الكائن في بيئة اصطناعية خارج الجسم بمعزل عن تأثيراتها الممكنة على صحة العرق والحياة العائلية إلخ. وبالمثل فإن أي هجوم على شيء أساسي مثل اللغة كما لو كان هجوماً على تركيبتنا العقلية نفسها، هو تجديف ولذلك خطر. إن إصلاح اللغة عملياً أن نتدخل بكلمات الرب - لكني لا أقول إن أي شخص سيعبر عن ذلك في هذه الكلمات بالذات. وهذا الاعتراض مهم لأنه سيمنع أغلب الناس من التفكير بفكرة كهذه، كفكرة إصلاح اللغة مثلاً. وطبعاً الفكرة عبثية إن لم تتنطع لها أعداد كبيرة. لأن رجل واحد أو زمرة

تحاول أن تخترع لغة كما يفعل جيمس جويس الآن، في اعتقادي هي شيء سخيف مثل رجل واحد يلعب كرة القدم لوحده. المطلوب عدة آلاف من الناس الطبيعيين الموهوبين الذين يكرسون أنفسهم لاختراع كلمات بشكل جاد، كالأشخاص الذين يكرسون أنفسهم الآن لبحوث شكسبير. بفرض هذه الأشياء، أعتقد أننا نستطيع فعل الأعاجيب باللغة.

الآن بالنسبة إلى الوسائط. يرى المرء مثالاً عن الابتكار الناجح للكلمات رغم كونه فجاً وعلى صعيد قليل وسط أفراد عائلة كبيرة. كل العائلات الكبيرة لديها كلمتان أو ثلاث خاصة بها -كلمات اخترعوها وتنقل معاني غير معجمية مصقولة. يقولون "السيد سميث-.........- صنف من الرجال"، مستخدمين كلمة بيتية الصنع يفهمها الآخرون تماماً. هنا أيضاً ضمن حدود العائلة، توجد صفة تملأ واحدة من الثغرات التي تركها المعجم. إن الذي يمكن العائلة من ابتداع هذه الكلمات، هو أساس تجربتهم المشتركة. من دون تجربة مشتركة طبعاً ليس هناك كلمة يمكنها أن تعني أي شيء. لو قلت لي "كيف هي رائحة البرغموت؟" أقول "شيء مثل نبات رعي الحمام"، وطالما أنك تعرف رائحة زهرة رعي الحمام، فأنت تفهمني تقريباً. إن طريقة اختراع الكلمات لذلك، هي طريقة قياس وظيفي مبني على معرفة مشتركة جلية، ويجب أن يكون لدى المرء معايير يرجع إليها دون أي فرصة لسوء الفهم، كما تستطيع الرجوع إلى شيء مادي مثل رائحة نبات رعي الحمام. وفي الحقيقة يجب أن تنجح في إعطاء الكلمات وجوداً مادياً (مرئياً ربما). إن مجرد الحديث عن تعريفات لا طائل منها، يستطيع المرء أن يرى هذا كلما جرت محاولة تعريف إحدى الكلمات التي يستخدمها النقاد الأدبيون (مثل، "وجداني"[3] و"سوقي" و"مرضي" إلخ). كلها لا معنى لها -أو بالأحرى لها معنى مختلف لكل واحد يستخدمها. إن المطلوب أن نظهر معنى في شكل جلي، ومن ثم حين يحدده أناس مختلفون في عقولهم ويميزونه كتحديد يستحق، يعطونه اسماً. إن المشكلة ببساطة تكمن في إيجاد طريقة يستطيع فيها المرء أن يعطي الفكرة وجوداً موضوعياً.

الشيء الذي يقترح نفسه فوراً هو كاميرا التصوير السينمائي. لا بد أن الجميع لاحظوا القوى غير العادية الكامنة في الفيلم -قوى التحريف وقوى الخيال الجامح في فرار عام من قيود العالم المادي. أعتقد أنه لضرورة تجارية فقط استخدم الفيلم بشكل أساسي لمحاكاة سخيفة للمسرحيات التمثيلية بدلاً من التركيز، كما ينبغي أن يكون على أشياء أبعد من خشبة

المسرح. لو استخدم بالشكل اللائق فإن الفيلم هو الوسيط الممكن الوحيد لنقل عمليات عقلية. الحلم مثلاً كما قلت آنفاً يتعذر وصفه بالكلمات تماماً، لكن يمكن تقديمه بشكل جيد على الشاشة. قبل سنوات شاهدت فيلماً لدوغلاس فيربانكس، كان جزء منه تمثيلاً لحلم، أغلبه طبعاً كان مزاحاً سخيفاً حول الحلم؛ حيث أنت بلا ثياب في مكان عام، لكن لبضع دقائق كان مثل الحلم بطريقة كانت مستحيلة على الكلمات أو حتى الصورة أو في الموسيقى كما أتصور. رأيت نفس النوع من الشيء بومضات في أفلام أخرى. كفيلم دكتور كاليغاري الذي كان جله مجرد سخافة، والعنصر الخيالي فيه استغل من أجل ذاته، ولم ينقل أي معنى محدد. لو اعتقد المرء أن هناك القليل جداً في العقل لا يمكن تمثيله بواسطة القوى المحرفة الغريبة للفيلم. إن المليونير الذي لديه كاميرا تصوير سينمائية خاصة به وصالة وكل الدعامات الضرورية وفرقة من الممثلين الأذكياء يستطيع، إن رغب، أن يجعل كل حياته الداخلية معروفة عملياً. يستطيع أن يعلل الأسباب الحقيقية لأفعاله بدلاً من إخبار الناس أكاذيب ممنطقة، ويبرز الأشياء التي يبقيها الإنسان العادي سرية ومقفلة لعدم وجود كلمات للتعبير عنها. عموماً، يمكنه أن يجعل الناس الآخرين يفهمونه. طبعاً هذا ليس مرغوباً من كل إنسان ينقصه النبوغ أن يقدم عرضاً لحياته الداخلية. ما هو مطلوب أن نكتشف المشاعر التي بلا أسماء المشتركة بين الناس. كل الدوافع القوية التي لا يمكن الإفصاح عنها بالكلمات والتي هي سبب في الكذب المتواصل وسوء الفهم والتي يمكن تعقبها وإعطاؤها أشكالاً مرئية متفقاً عليها وأسماء. أنا واثق أن الفيلم بقواه غير المحدودة تقريباً على التقديم، يستطيع أن يكمل هذا على أيدي المحققين الصحيحين، رغم أن وضع الأفكار في شكل مرئي لن يكون سهلاً دائماً – وفي الواقع قد يكون صعباً في البداية مثل أي فن آخر.

ملاحظة حول الشكل الجديد الحقيقي الذي يجب أن تأخذه الكلمات. تصور أن آلافاً كثيرة من الناس الذين يمتلكون الوقت الضروري والمواهب والمال تعهدوا لإجراء إضافات للغة، وافترض أنهم نجحوا في الاتفاق على عدد من الكلمات الضرورية الجديدة، لكن يظل عليهم أن يحترسوا من إنتاج مجرد لغة اصطناعية تسقط من الاستخدام فور اختراعها. يبدو لي أن للكلمة وحتى الكلمة غير المتواجدة بعد، شكل طبيعي أو بالأحرى أشكال طبيعية مختلفة في لغات مختلفة. إن كانت اللغات معبرة حقاً، فلن تكون هناك حاجة للعب على أصوات

الكلمات كما نفعل الآن، ولكن أعتقد أن هناك دائماً علاقة متبادلة بين صوت الكلمة ومعناها. نظرية مقبولة ومعقولة باعتقادي عن أصل اللغات هي التالية. قبل أن تكون لدى الإنسان البدائي كلمات، اعتمد بشكل طبيعي على الإيماء، وكان يصيح مثل أي حيوان آخر في لحظة الإيماءة لكي يجذب الانتباه. والآن يقوم المرء غريزياً بالإيماءة التي تناسب المعنى الذي يقصده، وتتوافق وتنسجم كل أجزاء جسده بما فيها اللسان. لهذا فإن حركات معينة للسان -أي أصوات معينة- تترافق مع معاني محددة. في الشعر يستطيع المرء الإشارة إلى كلمات بمعزل عن معانيها المباشرة، وتنقل على نحو نظامي أفكاراً بأصواتها. وهكذا: "أعمق من صوت أي فادن (أو سقطة عمودية)" (شكسبير -أكثر من مرة كما أعتقد) "فاقت غطسة الفادن سقوط حاد ومفاجئ" (ايه أي هاوسمان). "البحر المالح المبعد الذي لم تسبر أغواره" (ماثيو أرنولد) إلخ. بوضوح، بمعزل عن المعاني المباشرة، صوت بلم و بلن (لون أرجواني مزرق داكن -أو له علاقة مع البحر الذي لا قرار له. لذلك في تشكيل الكلمات الجديدة يجب على المرء الانتباه إلى ملائمة الصوت بالإضافة إلى دقة المعنى. لا يكفي كما حالياً أن نفصل كلمة جديدة لها أي جدة حقيقية من كلمات قديمة، ولا يكفي أيضاً تشكيلها من مجموعة اعتباطية من الأحرف. يجب على المرء أن يحدد الشكل الطبيعي للكلمة. مثل هذا الاتفاق على المعاني الطبيعية للكلمات، يحتاج إلى تعاون عدد كبير من الناس.

كتبت هذا كله على عجالة، وحين راجعته رأيت وجود بقع ضعيفة في برهاني وابتذالاً في أكثره. بأي حال، إن فكرة إصلاح اللغة بمجملها تبدو لأغلب الناس إما فكرة هواة أو فكرة غريبي أطوار. لكن الجدير بالاعتبار هو عدم الفهم المطلق الموجود بين الكائنات البشرية -على الأقل بين هؤلاء غير الحميمين جداً. في الوقت الحاضر كما قال صامويل بتلر، أفضل فن (أي ناقل الفكر الأمثل) يجب أن يبقى حياً من شخص إلى آخر. ليس من الضروري أن يكون الأمر هكذا لو كانت لغتنا أكثر ملاءمة. إنه شيء غريب عندما نعرف وتتعقد حياتنا، ولذلك كما أعتقد فإن عقولنا تتطور بسرعة كبيرة، وينبغي على اللغة وهي الوسيلة الأساسية للاتصال، ألا تتحرك إلا نادراً. لهذا السبب أعتقد أن فكرة الاختراع المتعمد للكلمات تستحق التأمل على الأقل.

مراجعة لكتاب كفاحي
بقلم ادولف هتلر

من علامات السرعة التي تتحرك فيها الأحداث، أن تحرر نسخة كتاب كفاحي الذي نشرته هيرست وبلاكيت في السنة الماضية، من دون أن تحذف منه شيئاً من وجهة نظر مؤيدة لهتلر. إن النية الواضحة للمترجم الذي كتب المقدمة والملاحظات، هي تخفيف نغمة الكتاب الوحشية التي قدمت هتلر بأقصى درجة ممكنة من الكرم واللطف. لأن هتلر مازال رجلاً محترماً في ذلك التاريخ. لقد سحق حركة العمل الألمانية، ومن أجل هذا كانت الطبقات المالكة راغبة في مسامحته في أي شيء تقريباً، فالتقى اليمين واليسار في الفكرة الضحلة جداً، التي رأت أن الاشتراكية القومية مجرد نسخة للنزعة المحافظة.

ثم تبين فجأة أن هتلر لم يكن رجلاً محترماً أبداً، ونتيجة لهذا الاكتشاف أصدرت هيرست وبلاكيت طبعة أخرى بغلاف جديد، شرحت فيه أن كل الأرباح التي سيحققها الكتاب ستكرس للصليب الأحمر. لكن من الدليل الداخلي لكتاب كفاحي، يصعب على المرء أن يصدق حدوث أي تغيير حقيقي في أهداف هتلر وآرائه. حين يقارن المرء بين أقواله التي تفوه بها منذ سنة تقريباً مع تلك التي أدلى بها قبل خمسة عشر عاماً، فإن الشيء اللافت هو صلابة عقله والطريقة التي لم تتطور فيها وجهة نظره. إنها الرؤية الثابتة للشخص المصاب بمس أحادي، ومن غير المحتمل له أن تتأثر كثيراً بالمناورات المؤقتة لسياسة القوة. إن المعاهدة الروسية الألمانية في عقل هتلر لا تمثل أكثر من تغيير في جدول أعمال ومواعيد. كانت الخطة التي وضعت في كفاحي هي تحطيم روسيا أولاً مع النية الضمنية في تحطيم إنكلترا بعد ذلك، لكن الآن تبين أن عليه التعامل مع إنكلترا أولاً، لأن روسيا كانت الأسهل رشوة من الاثنين، وسيأتي دور روسيا بعد أن تخرج إنكلترا من المشهد- هكذا يرى هتلر الأمر بلا أدنى شك - حتى لو تبين أن تلك الطريقة ستكون مسألة مختلفة طبعاً.

لا يمكن معرفة السبب الأصلي الأولي لمظلمته وشكواه ضد العالم، إلا بالتخمين، لكنها موجودة على أي حال. هو الشهيد والضحية وبروميثيوس المقيد بالصخرة البطل الذي

يضحي بنفسه لوحده ضد الاحتمالات المستحيلة. لو قتل فأراً، فهو يعرف كيف يجعله يبدو كتنين. يشعر المرء مع نابليون أنه يقاتل ضد قدره وأنه لا يستطيع أن يربح، ومع ذلك يستحق أن يربح. إن جذب وضع كهذا هائل. نصف الأفلام التي يراها المرء تدور مثل هذه المواضيع.

لو فرضنا أن هتلر طبق برنامجه. ما الذي كان يتصوره؟ بعد مئة سنة من الآن دولة متراصة عدد سكانها ٢٥٠ مليون ألماني مع وفرة في "غرفة معيشة" (تمتد إلى أفغانستان تقريباً) إمبراطورية بلهاء رهيبة لا يحدث فيها أساساً سوى تدريب الشبان على الحرب وتناسل لانهائي للناس الذين يضحى بهم في الحروب. كيف حصل واستطاع أن يطبق هذا القرار الرهيب وينجزه؟ من السهل القول إنه في مرحلة ما من سيرته موّله أصحاب الصناعة الثقيلة الذين رأوا فيه الرجل الذي سيحطم الاشتراكيين والشيوعيين. ومع ذلك كانوا لن يساندوه لو لم يحدث حركة عظيمة إلى الوجود مسبقاً. كان الوضع في ألمانيا مع السبعة ملايين ألماني العاطلين عن العمل مناسباً للديماغوجيين زعماء الدهماء بوضوح. لكن هتلر لم يكن ينجح ضد منافسيه الكثيرين، لولا جاذبية شخصيته التي يحس بها المرء حتى في كتابته الخرقاء في كتاب كفاحي، والتي تكون ساحقة بلا شك حين يسمع المرء خطاباته. منذ أن وصل إلى السلطة وإلى الآن، أنا مثل كل شخص آخر، لم أكن قادراً على أن أكره هتلر. منذ أن وصل إلى السلطة- حتى بعد ذلك، مثل الكل تقريباً، خُدعت في الاعتقاد بأنه شخص غير مهم- فكرت ملياً أنني سأقتله لو استطعت وضع يدي عليه، لكنني لم أشعر نحوه بأي عداوة شخصية. الحقيقة أن هناك شيئاً جذاباً بشكل عميق حوله. يشعر المرء بهذا حين يرى صوره أيضاً- وأنا أنصح بالصورة التي في بداية طبعة هيرست وبلاكيت بالخصوص، التي تظهر هتلر في أيامه الأولى في القميص البني. وجه كلبي مثير للشفقة، وجه رجل يتعذب تحت أخطاء لا تطاق. بطريقة أكثر رجولية تولد الصورة إنتاج تعبير الصور التي لا تعد ولا تحصى للمسيح المصلوب، ولا شك أن هتلر يرى نفسه هكذا. من الصعب تخمين السبب الأولي الشخصي لشكواه ضد العالم، لكن الشكوى هناك في كل الأحوال. إنه الشهيد والضحية وبروميثيوس المكبل بالصخرة والبطل الإيثاري الذي يحارب لوحده ضد فروق بغيضة مستحيلة. ولو أنه كان يقتل فأراً فهو يعرف كيف يجعله يبدو كتنين. يشعر المرء مع نابليون أنه يقاتل ضد القدر، وأنه لن يفوز رغم أنه يستحقه

بشكل ما. إن جاذبية هكذا صورة هائلة طبعاً. ونصف الأفلام التي يراها المرء تدور حول مثل هذا الموضوع.

وهو أدرك أيضاً زيف الموقف المتعي من الحياة. كل الفكر الغربي تقريباً منذ الحرب الأخيرة وبالتأكيد كل الفكر "التقدمي"، افترض ضمنياً أن الكائنات البشرية لا تطلب أكثر من الراحة والأمان وتجنب الألم. في هكذا نظرة للحياة لا مجال للوطنية والفضائل العسكرية مثلاً. إن الاشتراكي الذي يجد أولاده يلعبون مع الجنود، ينزعج عادة، لكنه لم يستطع أن يفكر ببديل عن الجنود المصنوعين من القصدير، وأن السلامين المصنوعين من القصدير لا يفون بالغرض. بسبب عقله الكئيب، يشعر هتلر بهكذا بقوة استثنائية، ويعرف أن الكائنات البشرية لا تريد الراحة والأمان وساعات العمل القصيرة والعادات الصحية والنظافة وضبط الولادات وبشكل عام الفطرة السليمة والمنطق فقط، ولكنها تريد أيضاً وبشكل متقطع على الأقل الصراع والتضحية بالنفس والطبول والرايات ومسيرات الولاء. إن الفاشية والنازية كنظريات اقتصادية نفسياً أدق بكثير من أي مفهوم متعي للحياة. وهذا يصح تماماً على النسخة الستالينية العسكرية من الاشتراكية. لقد عزز الديكتاتوريون الكبار الثلاثة قوتهم بفرض أعباء لا تحتمل على شعوبهم. حين قالت الاشتراكية وحتى الرأسمالية بطريقة أكثر حقداً للشعب "أنا أقدم لكم وقتاً ممتعاً" قال لهم هتلر "أنا أقدم لكم الصراع والخطر والموت" وفي النتيجة رمت أمة كاملة بنفسها عند قدميه. ربما يملون منه لاحقاً ويبدلون رأيهم في نهاية الحرب الأخيرة. بعد سنوات من الذبح والمجازر والتجويع فإن الشعار الجيد هو "أعظم سعادة لأعظم عدد"، لكن الشعار الرابح في هذه اللحظة هو "نهاية مع الرعب أفضل من رعب بلا نهاية". وبما أننا الآن نقاتل الرجل الذي صاغ هذا الشعار، فينبغي علينا ألا نقلل من جاذبيته العاطفية.

إنغليش ويكلي ٢١ مارس/آذار ١٩٤٠.

لجنة الدفاع عن الحريات

يقبل الشعب البريطاني بالحرية كشيء بديهي، ويميل إلى أن ينسى أن ثمنها "احتراس أبدي"

حتى لو تذكروا القول الشهير، فإنهم لا يدركون على ما يبدو أن الاحتراس فعل يشمل الوقت والطاقة والمال.

تأسست لجنة الدفاع عن الحرية في عام ١٩٤٥ "لتدعم الحرية الأساسية للأفراد والمنظمات، ولتدافع عن هؤلاء الذين يضطهدون بسبب ممارستهم حقوقهم في حرية التعبير والكتابة والفعل".

تبين نشرتنا المتاحة لك كشخص يتقدم بطلب إلى السكرتير، أن وجودنا مبرر وبأي مدى. حالات الحبس الجائر والأحكام القضائية العقابية المفرطة والتمييز العرقي تتكرر ومألوفة. إن تهديدات حرية التعبير والكتابة والفعل تافهة غالباً، وهي منعزلة، إلا أنها تراكمية بتأثيرها، وإن لم تكبح فستؤدي إلى عدم احترام عام وازدراء لحقوق المواطن.

تقدم اللجنة العون للأفراد والمنظمات، بغض النظر عن مواقفهم السياسية. والمعيار الوحيد الذي يحدد ويقرر إن كانت اللجنة ستتصرف أم لا، هو طبيعة الهجوم على حريتهم. إن اللجنة كمبدأ، تعارض كل أشكال العسكرة والتجنيد الصناعي، وتعمل على إلغاء سلطات قانون الطوارئ وقوانين الدفاع وكل التشريعات والأنظمة التي تقيد حرية العمل السياسي.

نحن نحتاج إلى دخل ثابت بحدود ألف جنيه على الأقل كي نستمر ونواصل بشكل فعال. هذا المبلغ لم يكن في المتناول في السنة الماضية، وحساباتنا تظهر عجزاً يزيد عن الـ ١٤٥ جنيهاً. لكي نمكن عملنا من التقدم، نحتاج إلى مبلغ فوري يقدر بـ ٥٠٠ جنيه على الأقل. مستلزماتنا الأساسية متواضعة تماماً -ألف مشترك دائم بكلفة جنيه واحد في السنة؛ لكننا أيضاً في حاجة ماسة لتبرعات مالية كبيرة تمكننا من دفع ديوننا وإبقاء مكتبنا مفتوحاً.

يجب أن ترسل الاشتراكات والتبرعات إلى هربرت ريد رئيس لجنة الدفاع ٨ ايندزلي غاردنز، لندن دبليو سي ١

توقيع: بينجامين بريتن، أي إم فورستر، أغسطوس جون، جورج أورويل، أوزبرت سيتويل.

صحيفة فارذينغ

امي دو بوبيبل صحيفة باريسية. تأسست منذ ستة أشهر وأنجزت شيئاً لافتاً وغريباً حقاً في العالم الذي كل شيء فيه "هياج"، لأنها تباع بعشرة سنتيمات أو أقل من فارذينغ للنسخة الواحدة. إنها صحيفة نافعة وكاملة، فيها أخبار ومقالات ورسوم كاريكاتورية حسب المعايير المعتادة مع ميل للرياضة والجرائم والعاطفة القومية والدعاية المضادة لألمانيا. كل شيء عادي فيها باستثناء سعرها.

وليس هناك مدعاة للدهشة حول هذه الظاهرة الأخيرة، لأن مالكي الصحيفة عللوا كل شيء حولها في بيان ضخم لصق على جدران باريس في كل مكان غير ممنوع فيه لصق الإعلانات. عند قراءة هذا البيان، نعلم باندهاش ممتع أن امي دي بيبل ليست كالصحف الأخرى، فهي الروح الشعبية الأطهر ولم تتلوث بأفكار المكسب الدنيئة التي وراء نشوء غيرها من الصحف. المالكون الذين أخفوا خجلهم بإغفال أسمائهم يفرغون جيوبهم من أجل متعة عمل الخير فقط. أهدافهم كما علمنا، هي شن الحرب على التروستات الكبرى والقتال من أجل تكلفة أقل للمعيشة، والأهم من ذلك منازلة الصحف الجبارة التي تخنق حرية التعبير في فرنسا. بالرغم من المحاولات المشؤومة لهذه الصحف لإخماد فعل صحيفة امي دو بييل، فإنها ستقاتل حتى آخر لحظة. باختصار هذا كل ما يتضمنه اسمها.

يحيي المرء هذا الموقف من أجل الديمقراطية ويجله كثيراً، لو لم يكن يعرف أن مالك امي دو بييل هو السيد ام كوتي الرأسمالي الصناعي الكبير ومالك صحيفتي لافيغارو وغولواز. وينظر المرء بشك أقل لو لم تكن سياستها معادية للراديكالية والاشتراكية ومؤيدة ومتحمسة للصناعة والوفاق والمصالحة. لكن هذا كله خارج الموضوع الآن. الأسئلة المهمة بشكل واضح هي التالية: هل امي دو بييل تغطي تكلفتها؟ وإن كان الأمر كذلك فكيف؟ السؤال الثاني هل المهم بها أن مسيرة التقدم سائرة في اتجاه تروستات أكبر وأردأ دائماً، فإن أي انتقال جدير بالانتباه يقربنا من ذلك اليوم الذي تكون فيه الصحيفة مجرد صفحة إعلان ودعاية مع خبر ضئيل خاضع لرقابة جيدة عن السكر وحبة الدواء.

من الممكن جداً أن امي دو بيبل تحيا على الإعلانات التي تنشرها، ولكن من الممكن وبدرجة مساوية أنها تحقق ربحاً غير مباشر من خلال بث دعاية يريدها ام كوتي ورفاقه. صرح البيان المذكور أن المالكين قد يرتقون إلى ارتفاعات أعلى مدوخة من الإحسان بتوزيع امي دو بيبل مجاناً. هذا ليس مستحيلاً كما يبدو. لقد رأيت صحيفة يومية (في الهند) توزع مجاناً لبعض الوقت مع ربح ظاهر لداعميها، حلقة من المعلنين وجدوا جريدة مجانية لتكون وسيلة رخيصة ومرضية لنفخ بوقهم فيها. كانت الصحيفة فوق المستوى المتوسط في الهند وتقدم الأخبار التي يصادقون عليها فقط وليس غيرها. تلك الصحيفة الهندية الغامضة تكهنت بالهدف المنطقي لصناعة الصحافة الحديثة؛ ويجب أن نعتبر أن امي دو بيبل خطوة في الاتجاه نفسه.

لكن إن كانت هذه المكاسب مباشرة أو غير مباشرة، فإن امي دو بيبل تزدهر بالتأكيد. لقد حققت توزيعاً واسعاً جداً مسبقاً. ورغم أنها بدأت كصحيفة صباحية فقط، فهي تصدر الآن طبعة بعد منتصف النهار وطبعة مسائية. يتكلم مالكوها بصدق تام حين يصرحون أن بعض الصحف الأخرى تعمل جاهدة لسحق تلك البطلة الجديدة لحرية التعبير. قامت تلك الصحف الأخرى (هي تتصرف بدوافع غير أنانية طبعاً) بمحاولة نبيلة لإقصائها من محلات وكلاء الأخبار ونجحت بلفت اهتمام أكشاك زوايا الشوارع في ذلك. ففي بعض المتاجر الصغيرة التي أصحابها من الاشتراكيين، يرى المرء اللافتة "هنا لا تباع امي دو بيبل" معروضة في الواجهات. لكن امي دو بيبل ليست قلقة. فهي تباع في الشوارع والمقاهي بنشاط كبير وتباع في صالونات الحلاقة ودكاكين التبغ وتصل لكل أنواع الناس الذين لم يعملوا وكلاء صحف من قبل. أحياناً تترك أكوام كبيرة منها في الجادة مع علبة من القصدير بقطعتين من العملة الفرنسية (سو تعادل سنت) وبدون بائع أو مراقب. يستطيع المرء أن يرى أن المالكين مصممون بكل الوسائل على جعلها الصحيفة المقروءة الأوسع انتشاراً في باريس.

وافترض أنهم نجحوا، فماذا بعد؟ من الواضح أن امي دو بيبل سوف تخرج واحدة أو اثنتين من الصحف الأقل ازدهاراً من الوجود- لقد شعر عدد من الصحف بالقرصة مسبقاً. في النهاية هذه الصحف إما ستدمر أو تنقذ نفسها بتقليد تكتيك امي دو بيبل كما يفترض. لهذا السبب، فإن كل صحيفة من هذا النوع أياً كانت نواياها، هي عدوة لحرية التعبير. في الوقت الحالي فرنسا هي مقر حرية التعبير في الصحافة، إن لم تكن في غيرها أيضاً. لباريس وحدها

صحف يومية بالعشرات في واشتراكية وشيوعية؛ إكليركية وضد إكليركية؛ عسكرية وضد عسكرية؛ مؤيدة للسامية ومعادية للسامية. لديها اكسيون فاينانس الصحيفة الملكية التي لا تزال واحدة من اليوميات التي تقرأ، ولديها هيومانتي الصحيفة اليومية الحمراء الأكثر تطرفاً خارج روسيا السوفييتية. لديها لا ليبرا التي تكتب بالإيطالية والتي لم تُبَع في إيطاليا أبداً حتى، عدا أنها لا تنشر هناك. تطبع الصحف في باريس باللغات الفرنسية والإنكليزية والإيطالية واليهودية والألمانية والروسية والبولونية ولغات أخرى لا يميز الأوروبي الغربي أبجدياتها. أكشاك الشوارع تغص بالصحف من كل الأنواع. اتحاد الصحف الذي يتذمر منه الصحفيون الفرنسيون ليس له وجود بعد في فرنسا. لكن امي دو بيبل تبذل أنبل جهودها لتجعل منه حقيقة.

وبافتراض أن هذا النوع من الشيء وجد ليكون مجدياً مالياً في فرنسا، فلماذا لا يجرب في مكان آخر؟ لماذا لا يكون لدينا صحف الفارذينغ أو على الأقل صحف النصف بنس في لندن؟ بينما تجد الصحفي مجرد وكيل إعلان للشركات الكبيرة؟ إن التوزيع الواسع الحاصل بوسائل عادلة أو شنيعة هو الهدف الأول والوحيد لأي صاحب صحيفة. حتى وقت حديث، فإن عدداً متنوعاً من صحفنا حقق المستوى المرغوب من "المبيعات الصافية" بالوسيلة البسيطة في التخلي عن بضعة آلاف من الجنيهات بين الحين والآخر على جوائز بطولة كرة القدم. الآن تم إيقاف مباريات كرة القدم من قبل القانون، ولا شك فإن توزيع بعض الصحف سيهبط بضربة سيئة. علاوة على ذلك، فإن هذه أنموذج جدير لأقطاب صحفنا الإنكليزية. دعهم يقلدون امي دو بيبل ويبيعون صحفهم بفارذينغ. حتى لو لم يكن لها أي فائدة أخرى، على الأقل سيشعر الفقراء من عامة الشعب أنهم يحصلون على القيمة الصحيحة مقابل نقودهم.

أي ايه بلير

بعض الأفكار حول الضفدع العادي

قبل السنونو وقبل النرجس البري وبعد زهرة الثلج بقليل، يرحب الضفدع العادي بقدوم الربيع حسب طريقته، فيبزغ من حفرة في الأرض تمدد فيها وطمر نفسه منذ الخريف السابق، ثم يزحف بأسرع ما يستطيع نحو أقرب بقعة ماء. شيء-نوع من رجفة في التراب أو ربما مجرد ارتفاع قليل في درجات الحرارة تخبره أن وقت الاستيقاظ قد حان: لكن يبدو أن عدداً قليلاً من الضفادع ينام على مدار الساعة ويضيع سنة من وقت إلى آخر - على أي حال لقد حفرت الأرض وأخرجتها أكثر من مرة حية، وكانت بحال جيدة ظاهرياً في منتصف الصيف.

في هذه الفترة، بعد صيامه الطويل، يكون لدى الضفدع نظرة روحية جداً مثل الأنغلوكاثوليكي المتشدد تجاه نهاية الصوم الكبير: حركاته بطيئة وهادفة، جسده منكمش، ولكن بالمقارنة تبدو عيناه كبيرتان على نحو شاذ. هذا يسمح للمرء أن يلاحظ- مما قد لا يتوفر في أي وقت أخر- بأن للضفدع عينين أجمل من عيني أي مخلوق حي آخر. إنهما مثل الذهب أو مثل حجارة شبه كريمة بلون ذهبي، يراها المرء أحياناً في الخواتم التي تستخدم كختم رسمي وتسمى كريسوبريل كما أعتقد.

بعد أيام قليلة من الدخول في الماء، يركز الضفدع على بناء قوته بأكل حشرات صغيرة. في الحال ينتفخ إلى حجمه العادي مرة أخرى، ثم بعد ذلك يعزق الأرض في طور من الإثارة الجنسية القوية، وكل ما يعرفه، إن كان ضفدعاً ذكراً على الأقل، أن يضع ذراعيه حول شيء ما، وإن قدمت له عصا أو إصبعك سيتمسك بها بقوة مدهشة ويأخذ وقتاً طويلاً ليكتشف أنها ليست ضفدعة أنثى. كثيراً ما يصادف المرء كتلاً لا شكل لها من عشرة أو عشرين ضفدعاً تتدحرج في الماء، أحدها متشبث بالآخر دون تمييز في الجنس، لكنها تفرز أنفسها إلى أزواج تدريجياً، يكون الذكر جالساً كما ينبغي على ظهر الأنثى. الآن يمكنك تمييز الذكور من الإناث، لأن الذكر أصغر حجماً ولونه أغمق ويجلس على القمة وذراعاه متشابكتان بإحكام حول عنق الأنثى. بعد يوم أو اثنين يتوضع البيض في سيور طويلة تلتف داخل وخارج القصب وتصبح غير مرئية فوراً. وبعد بضعة أسابيع يعج الماء بحشود من أفراخ الضفادع

الصغيرة جداً التي تنمو بسرعة، تتبرعم لها أرجل خلفية ثم أرجل أمامية ثم أذناب، وأخيراً في منتصف الصيف، تقريباً يزحف الجيل الجديد من الضفادع التي تكون أصغر من ظفر الإبهام، لكنها تامة في كل تفصيل دقيق، وتخرج من الماء لتبدأ اللعبة من جديد.

ذكرت تفريخ الضفادع لأنها واحدة من ظواهر الربيع الذي يفتنني بعمق، ولأن الضفدع على العكس من القبرة وزهرة الربيع، لم يحصل على أي تشجيع من الشعراء. لكنني أدرك أن كثيراً من الناس لا يحبون الزواحف أو البرمائيات. وأنا لا أقترح أنه عليك أن تهتم بالضفادع لكي تستمتع بالربيع. هناك الزعفران أيضاً والطائر المغرد والوقواق والبرقوق إلخ. الهدف أن ملذات الربيع متاحة لكل واحد ولا تكلف شيئاً. حتى في أقذر الشوارع وأخسها يسجل قدوم الربيع نفسه بعلامة أو أخرى حتى لو بزرقة أكثر سطوعاً بين المداخن أو خضرة مفعمة بالحياة تبرعمت في موقع تعرض للقصف. في الواقع إن اللافت للانتباه كيف تواصل الطبيعة البقاء حية في قلب لندن بصورة غير رسمية وعشوائية إذا جاز التعبير. رأيت صقراً يطير فوق مصنع ديبتفورد لإنتاج الغاز، وسمعت حفلة موسيقية ممتازة لشحرور في طريق يوستون. هناك كما يجب مئات آلاف إن لم يكن ملايين الطيور التي تعيش داخل دائرة نصف قطرها أربعة أميال. والفكرة الممتعة أن لا أحد منها يدفع ولو نصف بنس كإيجار.

بالنسبة إلى الربيع، فإن الشوارع الضيقة والمظلمة حول بنك إنكلترا لا تستطيع حتى إقصاءه. يأتي ينز في كل مكان، مثل تلك الغازات السامة الجديدة التي تجتاز كل المصافي. يشار إلى الربيع عادة بـ"المعجزة"، وهذه الصورة البيانية البالية استأجرت فترة جديدة من الحياة خلال السنوات الخمس أو الست الماضية. بعد أنواع الشتاءات التي اضطررنا إلى تحملها مؤخراً، يبدو الربيع خارقاً لأن التصديق بأنه سيحدث بات أصعب فأصعب؛ ففي كل شباط/ فبراير منذ ١٩٤٠ كنت أجد نفسي أفكر بأن الشتاء سيكون دائماً هذه المرة، لكن بيرسفوني مثل الضفادع، دائماً تنهض من الموت بنفس اللحظة تقريباً. فجأة في نهاية شهر مارس/ آذار تحدث المعجزة ويتغير شكل الحي الفقير المتعفن الذي أعيش فيه. في الساحة تتحول شجيرات السياج الملوثة بالسخام إلى لون أخضر ساطع، وتتكاثف الأوراق التي على أشجار الكستناء، ويخرج النرجس البري ويتبرعم المنثور الأصفر، وتظهر سترة رجل الأمن ظلاً أزرق ممتعاً، ويرحب تاجر السمك بزبونه بابتسامة، وحتى عصافير الدوري تكون بلون

مختلف تماماً، بعد أن أحست باعتدال الجو ولطفه، فقوت نفسها لكي تأخذ حمامها الأول منذ سبتمبر/ أيلول الماضي. هل الاستمتاع بالربيع والتغييرات الفصلية الأخرى أمراً شريراً؟ للتعبير بدقة أكبر نستحق الشجب سياسياً حين نظهر ونحن نئن -أو يجب أن نئن على أي حال- ونتعذب تحت أصفاد الرأسمالية، ونبين أن الحياة أجدر للعيش في غالب الأحوال بسبب أغنية طائر حسون أو شجرة دردار صفراء في أكتوبر/ تشرين الأول أو ظاهرة طبيعية أخرى لا تكلف مالاً وليس لها جانباً طبقياً، كما يسميها رؤساء تحرير الجناح اليساري. ليس هناك شك أن كثيراً من الناس يفكرون هكذا. أعرف بالتجربة أن إشارة مفضلة إلى "الطبيعة" في واحدة من مقالاتي، كفيلة بأن تجلب لي رسائل بذيئة تختلط فيها فكرتان، على الرغم من أن الكلمة الرئيسية في هذه الرسائل ستكون "عاطفي جداً". الأولى أن أي متعة في سيرورة الحياة الفعلية تشجع نوعاً من التصوف السياسي والطمأنينة. الناس،حسب التفكير السائد، ينبغي أن يكونوا ساخطين وقلقين، ومهمتنا أن نضاعف رغباتنا وحاجاتنا وليس أن نزيد استمتاعنا بالأشياء التي لدينا مسبقاً. الفكرة الأخرى أن هذا هو عصر الآلات، وأن كره الآلة أو حتى الرغبة في الحد من هيمنتها، عبارة عن نظرة متخلفة ورجعية وسخيفة. يدعم هذه الفكرة القول إن حب الطبيعة نقطة ضعف سكان المدن الذين ليست لديهم أي فكرة عن حقيقة الطبيعة وشكلها، وأن الذين يضطرون إلى التعامل مع التربة الحقيقة -كما ثبت- لا يحبون التربة ولا يكترثون أبداً بالطيور والزهور إلا من وجهة نظر نفعية صارمة. لكي تحب الريف يجب عليك أن يعيش في مدينة وتأخذ إجازة نهاية الأسبوع أحياناً وتتنزه هناك في الأوقات الدافئة من السنة.

إن الفكرة الأخيرة زائفة بشكل مثبت. إن أدب القرون الوسطى مثلاً يشمل قصائد غنائية شعبية ومملوء بالحماسة الجورجية للطبيعة تقريباً، كما أن فن الشعوب الزراعية كالصينيين واليابانيين مثلاً يتركز دائماً حول الأشجار والطيور والزهور والأنهار والجبال. الفكرة الأخرى تبدو لي خاطئة بطريقة ماكرة. بالتأكيد ينبغي علينا أن نكون غير راضين، ولا ينبغي أن نكتشف طرقاً لتجميل المهمة السيئة لتبدو بأفضل شكل، ولكن إن قتلنا كل المتع في سيرورة الحياة الفعلية، فأي نوع من المستقبل نعده لأنفسنا؟ إن لم يستطع الإنسان أن يستمتع بعودة الربيع، فلماذا يجب أن يكون مسروراً في يوتوبيا تقلص له ساعات العمل؟ ماذا سيفعل المرء

بوقت الفراغ الذي ستعطيه له الآلة؟ أشك وأرتاب دائماً بحقيقة أن الحياة ستصبح أكثر بساطة وليست أكثر تعقيداً لو حُلت مشاكلنا الاقتصادية والسياسية فعلياً، وأن ذلك النوع من الاستمتاع الذي يحصل عليه المرء من إيجاد أول زهرة ربيع، سوف يكون أضخم من المتعة التي يحصل عليها من أكل المثلجات على أنغام فيرليتزر. أعتقد أن احتفاظ المرء بحبه الطفولي لأشياء كالأشجار والأسماك والفراشات و-لأعود إلى مثالي الأول- والضفادع يجعل المستقبل الأمن والمحترم ممكناً ومحتملاً أكثر، وأن التبشير بالعقيدة التي ترى أن لا شيء يجب أن ينال الإعجاب سوى الصلب والإسمنت المسلح، يؤكد أكثر أن الكائنات البشرية لن يكون لديها أي متنفس لطاقتها الفائضة، إلا في الكره وعبادة القائد.

على أي حال، إن الربيع هنا وحتى في لندن رقم واحد، وهم لا يستطيعون منعك من الاستمتاع به. هذه فكرة مسرة. كم مرة وقفت أراقب الضفادع وهي تتزاوج أو أراقب زوجاً من الأرانب يتلاكمان في مباراة في حقل من الذرة الصغيرة الناشئة، وفكرت بكل الأشخاص المهمين الذين هم مثلك ليسوا مريضين أو جائعين أو خائفين أو محصورين في سجن أو مخيم عطلات. سيظل الربيع ربيعاً. إن القنابل الذرية تتكدس أكواماً في المصانع، ورجال الأمن يجوسون شوارع المدن وأزقتها، والأكاذيب تتدفق بغزارة كالنهر من مكبرات الصوت، لكن الأرض لاتزال تدور حول الشمس، ولن يقدر الحكام المستبدون الطغاة والبيروقراطيون الذين يستهجنون العملية بقوة ومن أعماقهم أن يمنعوها من ذلك.

مراجعة الديمقراطي على طاولة العشاء بقلم كولم بورغان

إن النرجسية دافع عادي للروائيين، وينطبق هذا على أفضلهم. أن تعمل بثبات وصلابة وتكون جزئيا في لحظة الخطر، وتصحح المظالم وتكون شخصية مهيمنة، وتمارس الفتنة والسحر على الجنس الآخر، وتجلد أعداءك الشخصيين-هذه أشياء تنجز بسهولة أكبر على الورق من الحياة الحقيقية. فالرواية التي لا تحتوي في مكان ما أو آخر على صورة للمؤلف الذي يتخفى بشكل ضعيف كبطل أو قديس أو شهيد، ليست رواية عادية. ويلحظ هذا في الروايات التي فيها محادثة، خصوصاً التي ينتمي السيد بورغان إلى صنفها. من دون تقليد فعلي لتشيسترتون، من الواضح أن السيد بورغان قد تأثر به، وشخصيته المركزية لها قدرات الأب براون في التفوق في الجدال، وأيضاً في إحاطة نفسه بحمقى وأنذال، وظيفتهم أن يصلوا إلى أجوبته البارعة. الفعل -أو بالأحرى سلسلة المناقشات التي يتألف منها الكتاب -تحدث في فندق خاص. الـ "أنا -ضمير المتكلم المفرد" في القصة يصف نفسه كديمقراطي ويظهر ليكون كاثوليكياً: يشاركه طاولة العشاء شيوعي يهودي مدرس ذو آراء تقدمية وقومجي هندي، رجل أعمال وشاعر وصاحبة الفندق. الأسماء الثلاث الأولى أدوات بشكل واضح. رجل الأعمال يسمح له أن يبدي ومضات عرضية من المنطق السليم، بينما الشاعر شخصية مبهمة وغامضة، ويميل أحياناً إلى الاصطفاف إلى جانب الراوي وصاحبة الفندق الأنثى التشيسترتونية الأنموذجية بكونها خالية من أي منطق، لكنها تمتلك حكمة تتجاوز حكمة الذكر. بما أن المناقشات تدور بشكل رئيسي حول قضايا التجارة الحرة مقابل تحكم الدولة تمديد سن ترك المدرسة، يستطيع القارئ المجرب أن يتنبأ مقدماً بقدر كبير مما سيقوله كل واحد من المتجادلين.

ومع ذلك - حين يقارن المرء هذا الكتاب بأسلافه قبل عشرة أو عشرين سنة، يلفت انتباهه التراجع الذي أصاب النزعة المحافظة- أستخدم الكلمة بمعناها الواسع. السيد بورغان يدافع عن الرأسمالية وينفق براعة كبيرة في إظهار أن بريطانيا ستكون لها فرصة لاسترداد حصتها من الأسواق العالمية مع الاقتصاد "الحر" أفضل مما يكون لها مع الصناعات

المؤممة. هو لا يدعي مثل تشيسترتون أنه يمكن العودة إلى العصور الوسطى، وأن الكتلة الأعظم من الناس تتوق إلى فعل هذا. حتى إنه يدافع عن الإنتاج الكبير المتسلسل وهو مستعد للقبول بمبدأ الضمان الاجتماعي، رغم أنه يعارض جعله إجبارياً. هو يعارض النظام التعليمي الموحد ورفع سن ترك المدرسة، لكن من جانب آخر يريد إنفاق مال أكثر على مدارس الأطفال. ولم يقل كما يفترض أن يقوله مفكرون مشابهون له قبل وهلة قليلة، أن يكون للوالدين الحق ليقرروا إن كان أولادهم سيتعلمون أم لا. بالنتيجة الكتاب عمل رجعي - دفاع عن الماضي ناتج عن شعور بأن ما بقي للدفاع عنه ليس كثيراً. على كل حال تتبع المحادثة الأنموذج ذاته. الشيوعي مخلوق حاقد وعدواني يجر المرجعية إلى روسيا السوفييتية في كل جملة. المدرس متبجح ومدعٍ. الهندي كتلة من الترفع الأخلاقي الغامض والشكاوى التخيلية، وحتى رجل الأعمال عمليٍ ومتعنت على طريقته الخاصة ومفتون بمواعظ كاهن كانتربيري. بالنسبة إلى القاص هو أنموذج للفطنة والمعرفة والعقلانية وسعة التفكير والتفكير السليم، وإن فشل في إقناع الآخرين بوجهة نظره، فذلك لأن عقولهم أفسدتها حماقات التعليم الحديث.

المشكلة مع كل هذه الكتب هي نوع من التبرم الناشئ عن عدم امتلاك برنامج عملي لاقتراحه وتقديمه. السيد بورغان مدرك ربما أن العودة إلى الرأسمالية الحرة مستحيلة كما افترض بتشيسترتون أنه أدرك أن العودة إلى الملكية الفلاحية الريفية غير ممكنة، وربما درك أيضاً أن الفائدة عقيمة من إخبار الناس أن التعليم الإجباري والضمان الاجتماعي والتحكم بالاستثمارات والإشراف على العمل وتوجيهه ينتهي بالعبودية، لأنه حتى لو كان ذلك صحيحاً، فإن الجمهور الأكبر من الناس سيفضلون العبودية على هذا البديل. إن العالم يسير في اتجاه محدد، هو لا يحبه لكنه عاجز عن التفكير بأي اتجاه آخر يمكنه الذهاب فيه فعلياً. لهذا يأخذ الخط الدفاعي في الإشارة إلى سخافات وفظائع الفكرة "التقدمية"- الذي في النهاية خط ليس صعباً جداً. لكن ليس بهذه الطرق فقط يجب على المرء أن يفكر مرتين بالشيوعية والنسوية (المساواة بين الجنسين) والإلحاد والسلامية (رفض العنف) أو أي نزعة فكرية يكرهها السيد بورغان.

الأوبزيرفر ١٠ فبراير/ شباط ١٩٤٦.

أمام أنفك

أفادت تقارير حديثة كثيرة أنه من المستحيل على الأغلب إن لم يكن تماماً لنا أن نستخرج القدر الذي نحتاجه للوطن ولأغراض التصدير، وذلك لاستحالة إغراء عدد كافٍ من عمال المناجم للبقاء في الحفر. قدرت إحصائية رأيتها الأسبوع الماضي الضياع السنوي في عمال المناجم بـ ٦٠ ألف عامل واستيعاب عمال جدد بـ ١٠ آلاف. وفي الوقت نفسه مع هذا - وأحياناً في العمود نفسه وفي الجريدة نفسها - تجد هناك تقارير تفيد بعدم وجود رغبة في استخدام البولولنيين والألمان، لأن هذا قد يؤدي إلى بطالة في صناعة الفحم. لا تأتي الإفادتان من المصدر نفسه دائماً، لكن بالتأكيد هناك عدد كبير من الناس يقدرون على إبقاء هاتين الفكرتين المتناقضتين تماماً في رؤوسهم في لحظة واحدة. هذا مجرد مثال واحد عن عادة ذهنية منتشرة بشكل واسع. برنارد شو في المقدمة إلى أندروكوليس والأسد، يقتبس الفصل الأول من إنجيل ماثيو الذي يبدأ بالبرهنة أن نسب عيسى ووالد عيسى ينحدر من إبراهيم كمثال. في الآية الأولى يوصف عيسى بـ"ابن داوود، ابن إبراهيم"، ثم تتبع السلالة في الآيات الخمس عشرة التالية: ثم، في الآية التالية ولكن الوحيدة، يشرح أن عيسى لم ينحدر من إبراهيم كأمر بديهي بما أنه لم يكن ابن يوسف. يقول شو إن هذا لا يمثل أي صعوبة بالنسبة إلى المؤمن الديني، ويذكر كحالة مماثلة من الاستهتار في الطرف الشرقي من لندن لأنصار تيكبورن كليمانت الذي أعلن أن الرجل العامل البريطاني خدع وسلبت حقوقه. طبياً أعتقد أن هذه الطريقة في التفكير تسمى شيزوفرينيا: وهي القدرة على اعتناق معتقدين اثنين كل منهما يلغي الآخر ويبطله في الوقت نفسه. وترتبط بها بقوة وتتحالف القدرة على تجاهل الوقائع الواضحة والراسخة التي يجب أن تواجه عاجلاً أو آجلاً. وهذه الرذائل تزدهر في تفكيرنا السياسي خاصة. دعني أقدم بضعة مواضيع كنماذج. ليس بين بعضها البعض أي علاقة عضوية: وهي مجرد حالات أخذت بشكل عشوائي من وقائع صريحة وجلية تجنبها أناس يدركون أنها وقائع في قسم آخر من عقلهم.

هونغ كونغ:

منذ سنين كثيرة يعرف كل من لديه معرفة بأحوال الشرق الأقصى أن وضعنا في هونغ كونغ يتعذر الدفاع عنه، وأننا يجب أن نخسرها بمجرد أن تبدأ حرب رئيسية. لكن هذه المعرفة كانت لا تحتمل، واستمرت الحكومات الواحدة تلو الأخرى في التشبث بهونغ كونغ بدلاً من إعادتها إلى الصين. وزجت بقوات جديدة فيها قبل بضعة أسابيع من بدء الهجوم الياباني مع التأكد بأنهم سوف يؤسرون بلا أي فائدة. جاءت الحرب وسقطت هونغ كونغ فوراً -كما كان يعرف كل واحد منذ البداية أنها ستسقط.

التجنيد الإجباري: قبل الحرب بسنوات كثيرة، كان كل الناس المتنورين تقريباً يفضلون التصدي لألمانيا ومواجهتها: وكانت أغلبيتهم أيضاً ضد امتلاك ما يكفي من العدة والعتاد العسكري كي يكون هذا الموقف مؤثراً وفعالاً. أنا أعرف جيداً الحجج التي وضعت مسبقاً دفاعاً عن هذا الموقف؛ بعضها مبررة لكن في أغلبها كانت أعذاراً جدلية تماماً. إلى وقت متأخر من عام ١٩٣٩ صوت حزب العمال ضد التجنيد الإلزامي، خطوة ربما لعبت دورها الرئيسي في المعاهدة الروسية الألمانية، وبالتأكيد كانت لها نتيجة كارثية على الروح المعنوية في فرنسا. ثم أتى عام ١٩٤٠ بعد ذلك وكدنا نفنى بسبب افتقارنا إلى جيش كبير كفؤ وفعال الذي كان بإمكاننا أن نمتلكه فقط لو أننا فرضنا التجنيد الإلزامي قبل ثلاث سنين من ذلك.

معدل الولادات: قبل عشرين أو خمس وعشرين سنة اعتبر منع الحمل والتنوير مترادفين تقريباً، وإلى هذا اليوم فإن غالبية الناس يجادلون ويحاججون -الحجة يعبر عنها بشكل متعدد لكن تختصر إلى الشيء نفسه تقريباً دائماً- أن العائلات الكبيرة مستحيلة لأسباب اقتصادية. في الوقت نفسه، من المعروف على نطاق واسع أن معدل الولادات يكون في أعلى مستوياته في الأمم التي يتدنى فيها المستوى المعاشي، وفي سكاننا المستوى الأعلى نجده في الجماعات ذات الأجور الأسوأ، وقدمت حجج بأن السكان قليلي العدد يعني بطالة أقل وراحة أكثر، ولكن في الجانب الآخر ثبت جيداً أن تناقص عدد السكان وهرمهم يسبب مشاكل اقتصادية كارثية عصية على الحل. إن الأرقام ليست غير مؤكدة بالضرورة، لكن من المحتمل تماماً أن يزيد عدد السكان في سبعين سنة ١١ مليون نسمة، وسيكون أكثر من نصفهم من المحالين إلى التقاعد بسبب كبَر العمر. بما أن أكثر الناس لا يريدون عائلات كبيرة لأسباب مركبة، فإن الوقائع

المخيفة يمكن أن تتواجد في مكان أو آخر في وعيهم سواء المعلومة منها وغير معلومة في الوقت نفسه.

منظمة الأمم المتحدة: لكي يكون لها أي فعالية من أي نوع، يجب أن تكون المنظمة العالمية قادرة على أن تهيمن على الدول الكبيرة، بالإضافة إلى الدول الصغيرة. يجب أن يكون لها القدرة والسلطة على التفتيش على التسلح والحد منه، ما يعني أن يكون لموظفيها حق الوصول إلى كل بوصة مربعة في كل بلد من البلدان. ويجب أن تكون تحت تصرفها قوة مسلحة أكبر من أي قوة مسلحة أخرى، ولا تكون مسؤولة إلا أمام المنظمة نفسها. لا يبدو على الدولتين العظميين أو الثلاث أن تظاهرت بالموافقة على أي واحد من هذه الشروط حتى، كما أنها نظمت دستور الأمم المتحدة لكي لا يمكن حتى مناقشة تصرفاتها وأعمالها. بعبارة أخرى، فائدة منظمة الأمم المتحدة كوسيلة للسلام العالمي هي صفر. هذا كان واضحاً قبل أن بدأت تؤدي وظيفتها كما هو الآن. مع ذلك منذ بضعة شهور فقط اعتقد الملايين من الناس المطلعين جيداً أنها سوف تكون عملية ناجحة. ليس هناك فائدة من مضاعفة عدد الأمثلة. الهدف أننا كنا قادرين على أن نؤمن بأشياء نعرف أنها غير صحيحة وحقيقية، ومن ثم حين يثبت أنها خاطئة أخيراً، نحرف الوقائع بكل وقاحة لنبين أننا كنا على صواب. عقلياً، من الممكن أن تستمر هذه العملية لوقت غير محدد: الفحص الوحيد لها أن الاعتقاد الزائف سوف يصطدم بالواقع الصلب عاجلاً أو آجلاً في ساحة قتال عادة.

حين ينظر المرء إلى الشيزوفرينيا السائدة والمسيطرة في المجتمعات الديمقراطية، الأكاذيب التي قيلت لأغراض انتخابية، والسكوت عن القضايا الرئيسية وأعمال التحريف التي تقوم بها الصحافة، يميل المرء إلى الاعتقاد أن في البلدان الشمولية الاستبدادية دجل واحتيال أقل ومواجهة أكبر للوقائع. هناك على الأقل الجماعات الحاكمة لا تعتمد على التأييد الشعبي وتستطيع التفوه بالحقيقة بشكل فج ووحشي. استطاع غورينغ أن يقول "البنادق قبل الزبدة" بينما أجبر خصومه الديمقراطيون أن يلفوا نفس الفكرة بمئات من كلمات النفاق والرياء.

لكن فعلياً، تجنب الواقع والحقيقة نفسه في كل مكان وله نفس العقابيل تقريباً. لقد تعلم الشعب الروسي منذ سنين أنه أفضل من أي شعب آخر، وأظهرت الملصقات الدعائية العائلات الروسية تجلس أمام وجبات وافرة، بينما بروليتاريو البلدان الأخرى يموتون من

الجوع في البواليع. وفي ذلك الوقت كان العمال في البلدان الغربية أفضل من العمال الروس بكثير، لذلك كان عدم التواصل بين المواطنين السوفييت والدخلاء هو المبدأ المرشد للسياسة. بعد ذلك ونتيجة للحرب، نفذ ملايين الروس العاديون إلى داخل أوروبا، وحين يُعادون إلى وطنهم سوف يتم دفع ثمن تجاهل الحقيقة الجديدة في احتكاكات وخلافات من أنواع متعددة. لقد خسر الألمان واليابانيون الحرب إلى حد كبير، لأن حكامهم كانوا غير قادرين على رؤية الوقائع الحقيقية التي كانت واضحة لكل عين نزيهة.

لترى ماذا يوجد أمام أنفك يحتاج إلى صراع مستمر. أحد الأشياء التي تساعد هو أن تدون يومياتك أو تدون على الأقل آراءك بخصوص الأحداث الهامة. شيء آخر، حين تسفه الأحداث معتقداً سخيفاً ما ربما ينسى المرء ببساطة أنه كان يؤمن به يوماً ما. التنبؤات السياسية تكون خاطئة عادة، لكن حتى عندما ينجح المرء في واحدة، من الممكن جداً أن يكتشف لماذا كان مصيباً. على العموم لا يكون المرء مصيباً إلا عندما تتطابق الرغبة أو الخوف مع الواقع والحقيقة. إن أدرك المرء هذا فإنه لا يستطيع طبعاً أن يتخلص من مشاعره الذاتية، وإنما يستطيع أيضاً إلى حد ما أن يعزلها عن تفكيره ويتكهن بدم بارد بواسطة كتاب حساب. في الحياة الخاصة أغلب الناس واقعيون نوعاً ما. حين يحسب المرء ميزانيته الأسبوعية فإن مجموع اثنان زائد اثنان يساوي أربعة بشكل ثابت ودائم. السياسة من الجانب الآخر نوع من عالم دون ذري وغير إقليدي؛ حيث من السهل تماماً أن يكون الجزء أكبر من الكل أو أن يكون شيئان اثنان في نفس المكان في وقت واحد. لهذا فإن التناقضات والسخافات المنافية للعقل التي عرضتها أعلاه يعزى أثرها إلى إيمان سري خفي بأن آراء المرء السياسية، ليست مثل الميزانية الأسبوعية، يجب ألا تختبر على محك الحقيقة الصلبة.

التريبيون، ٢٢ مارس/ آذار ١٩٤٦.

مقالة افتتاحية
لصحيفة البوليمك

كرست فصلية المودرن كورترلي في عددها الصادر في ديسمبر/ كانون الأول فقرة واحدة من مقالتها الافتتاحية للهجوم على البوليمك، التي اتهمت كما يبدو بـ "بمحاولاتها الملحة والمستمرة لخلط القضايا الأخلاقية وتشويشها وتدمير الفرق بين الصح والخطأ". ومن المهم القول إن البوليمك وليست ذا تروث أو ذا تيبلت أو ذا نانيتينث سنتشري، هي الوحيدة المستهدفة في هذا الهجوم. لكن قبل التعامل مع هذه النقطة يجدر بنا إلقاء نظرة سريعة على منظومة القواعد الأخلاقية للبطل الذي تعرضه لنا المودرن كورترلي.

يتضمن التصريح المقتبس أعلاه وجود كيانين متلفين بشكل واضح يسميان "الصح والخطأ"، يتميزان عن بعضهما البعض بشكل واضح ولهما طبيعة دائمة تقريباً. ومن دون هذا الافتراض ليس هناك أي معنى. في الفقرة التالية من الافتتاحية نجد التصريح "إن الأساس الأخلاقي كله يحتاج إلى إعادة فحص وتدقيق -ويفهم من هذا ضمناً طبعاً أن الفرق بين الصح والخطأ ليس واضحاً جداً أو غير قابل للاعتراض، وأن تفكيكه أو تحديده واجب مرغوب. لاحقاً وفي نفس العدد في مقال بعنوان "الإيمان والعمل" نجد البروفيسور جيه دي بيرنال يزعم أن كل معيار أخلاقي يجب أن يكشط (يزال) حين تستدعي المنفعة السياسية ذلك.

لا حاجة للقول إن البروفيسور بيرنال لم يقل ذلك بهذا الشكل المباشر والمبسط، لكن إن كان لكلماته معنى فإن المقصود منها هو ذلك. وهذا أحد المقاطع الكثيرة التي يطرح فيها عقيدته.

"إن التغيير الجذري في الأخلاق على أي حال تتطلبه العلاقات الاجتماعية الجديدة التي دخل فيها البشر مسبقاً في مجتمع منظم ومخطط، لذلك بالتأكيد سوف تتأثر الأهمية النسبية للفضائل المتنوعة المختلفة. وقد تبدو الفضائل القديمة رذائل، وسوف يترسخ غيرها. إن الكثير من الفضائل الرئيسية مثل الصدق والرفقة والود قديمة قدم الإنسانية ولا تحتاج إلى تغيير، لكن تلك المؤسسة على الاهتمام المبالغ فيه في الاستقامة الفردية، ستحتاج إلى إعادة توجيه بما يخدم المسؤولية الاجتماعية.

بلغة إنكليزية أبسط، إن هذا المقطع يعني أن الروح الشعبية والاحتشام العام يُجر ويُشد في جهات متعاكسة، أما الفقرة ككل فتعني أننا يجب أن نبدل مفهومنا للصح والخطأ من سنة إلى أخرى ومن دقيقة إلى أخرى في حال الضرورة. وبلا أي شك فإن البروفيسور بيرنال ورفاقه المفكرين أبدوا نشاطاً وسرعة في فعل هذا. خلال السنوات الخمس أو الست الماضية تبدل الصح والخطأ فيما بينهما بسرعة مذهلة، فأصبحت الأفعال التي كانت خطأ في لحظة ما صحيحة بعد ذلك وبأثر رجعي والعكس صحيح. وهكذا في عام ١٩٣٩ شجب راديو موسكو الحصار البحري البريطاني لألمانيا واعتبره إجراء غير إنساني فُرض على أطفال ونساء. وفي عام ١٩٤٥ شجب الراديو نفسه الناس وأدان كل الذين اعترضوا على طرد عشرة ملايين فلاح ألماني من بيوتهم واعتبرهم مؤيدين للنازية، وكذلك تبدل تجويع النساء والأطفال من فعل سيء إلى فعل طيب، وعلى الأرجح ستصبح المجاعات السابقة أمراً جيداً مع مرور الوقت.

يحق لنا الاعتقاد أن البروفيسور بيرنال كان متفقاً مع راديو موسكو في مناسبات كثيرة. ففي عام ١٩٤٥ كان الغزو الألماني للنرويج هجوماً غادراً على دولة محايدة عزلاء. أما في عام ١٩٤٠ فقد كان عملاً مبرراً رداً على غزو سابق من قبل البريطانيين. ويمكن مضاعفة الأمثلة بشكل غير محدود. لكن من الواضح أن أي فضيلة يمكن أن تصبح رذيلة في رأي البروفيسور بيرنال حسب الحاجات الأساسية للحظة. حين استثنى الصدق نفترض أن دافعه كان الحيطة والتبصر. إن المعنى المضمن في المقطع كله يعني أن الكذب يمكن أن يكون فضيلة أيضاً، لكنه لم يكتب هذا حرفياً لأنه غير مجزٍ ومفيد للنشر.

بعد ذلك المقطع بقليل نقرأ التالي: "لأن الفعل الجماعي في الميادين الصناعي والسياسي هو الفعل المؤثر والفعال الحقيقي.... وهو الفعل الفاضل الوحيد. هذا يتضمن المبدأ الذي يرى أن "الفعل الصحيح في القضايا السياسية والصناعية هو الفعل الذي ينجح. ليس من العدل أن قوله هذا يعني أن كل فعل صحيح، لكن المعنى العام للمقال لم يترك أي شك بأن هناك خلطاً وتشوشاً معقداً بين القوة والفضيلة في ذهن البروفيسور بيرنال. لا يمكن للفعل الصحيح أن يكون في الانصياع للضمير أو لعقيدة أخلاقية تقليدية، وإنما يكمن في دفع التاريخ في الجهة التي نسير فيها فعلياً. وما هي تلك الجهة؟ من الطبيعي أن تكون جهة المجتمع اللاطبقي الذي يرغبه كل الناس المحتشمين، لكن الوصول إلى تلك الجهة السائرين نحوها

يحتاج إلى جهد. أي نوع من الجهد بالضبط؟ حسناً إنه التعاون الوثيق مع الاتحاد السوفييتي طبعاً، الذي كما يفهمه كل شيوعي والذي يعني الخنوع للاتحاد السوفييتي. هذه بعض الأجزاء من الخطبة المنمقة للبروفيسور بيرنال:

لقد تم الفوز بالحرب ويوشك العالم على الدخول في مرحلة صعبة من الشفاء وإعادة البناء لكنها مجيدة..... والتحالف الذي أنجزته الولايات المتحدة من خلال ضرورات الحرب، أصبح الآن أكثر أهمية كضمان ضد حروب مستقبلية ربما تكون أسوأ بكثير من الحروب التي مررنا بها. وللحفاظ على هذا التحالف وحمايته من أعدائه الصريحين وأعدائه ناشري الشكوك المتبادلة الماكرين، فإن هذا يتطلب يقظة مستمرة وجهوداً دائمة للوصول إلى تفاهم كبير ودائم... بدرجة نستطيع فيها رؤية الأشياء بنفس المنظور ونستطيع المضي قدماً معاً وبرفقة ومودة وأمل".

ماذا يقصد البروفيسور بيرنال بالضبط بـ "الرفقة والتفاهم الكبير والدائم" بين بريطانيا وجمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية؟ هل يقصد مثلاً أنه يُسمح للمراقبين المستقلين البريطانيين عموماً السفر إلى أي بقعة من أراضي الاتحاد السوفييتي وبأعداد كبيرة وإرسال تقارير غير خاضعة للرقابة إلى بلادهم؟ أو أن يُشجع المواطنون السوفييت على قراءة الصحف البريطانية والاستماع إلى محطة البي بي سي والنظر إلى مؤسسات هذه البلاد بعين الود؟ من الواضح أنه لم يقصد ذلك. إن كل ما يقصده: أن الدعاية الروسية في هذه البلاد يجب أن تُكثف وأن تُكمم أفواه كل الذين ينتقدون نظام الحكم السوفييتي الذين أشار إليهم ظلماً وتجنياً بناشري الشكوك المتبادلة. ويكرر الشيء عينه في اماكن أخرى كثيرة في مقالته. لهذا إن اختصرنا مقالته واكتفينا بالجوهري فيها، تبقى لدينا المقترحات التالية:

بمعزل عن الصداقة والمودة والرفقة، لا يمكن تصنيف أي صفة بـ "جيدة" أو "سيئة"

كل عمل يخدم قضية التقدم يعتبر عملاً فاضلاً.

التقدم يعني الانتقال والتحرك إلى مجتمع لاطبقي ومجتمع مخطط علمياً.

أسرع طريقة للوصول إلى هناك، تكمن في التعاون الوثيق مع الاتحاد السوفييتي.

التعاون مع الاتحاد السوفييتي يعني تحريم ومنع النقد الموجه لنظام الحكم الستاليني.

لنختصر المقال أكثر: أي شيء يخدم السياسة السوفييتية الخارجية صحيح.

على الأرجح لا يعترف البروفيسور بيرنال بأن هذا هو قصده، ولكن هذا ما يقوله في الواقع، وقد تطلب منه هذا خمس عشرة صفحة من الورق.

الشيء المميز في مقالة البروفيسور بيرنال هو لغتها الإنكليزية التي كتبت فيها؛ لقد كانت لغة طنانة وقذرة في الوقت نفسه. لا يعتبر لفت الانتباه هذا تدقيقاً مفرطاً، لأن الرابط بين عادات التفكير في الشمولية وإفساد اللغة هو موضوع هام لم يحظ بدراسة وافية أثناء الحرب. لدى البروفيسور بيرنال نزعة قوية مثل كل كتّاب مدرسته في اللجوء إلى اللغة اللاتينية عندما يقول شيئاً سمجاً ومزعجاً. يجدر بنا أن نعيد النظر إلى المقطع الذي اقتبسناه أولاً. القول إن الولاء الحزبي يعني أن تلوث ضميرك يكون فظا جداً، وكذلك القول إن الفضائل المبنية على اهتمام زائد في الفضائل الفردية تحتاج إلى إعادة توجيه نحو المسؤولية الاجتماعية. نلاحظ أن الكلمات الطويلة الغامضة تغير المعنى المقصود وفي الوقت نفسه تموه القذارة الأخلاقية لما قاله. ملاحظة خطرت في "العكس بالعكس" "لاف انستي" إجراءات رهيبة باللغة اللاتينية هي البديل عن كلمة الجلد وتوضح جيداً المبدأ الجوهري لهذا الأسلوب في الكتابة. وهناك صفة أخرى لدى الكتّاب الأصدقاء للنظام الشمولي تمت ملاحظتها، وهي النزعة إلى التلاعب بالتركيب النحوي وإنتاج جمل غير مترابطة أو خالية من أي معنى. سيتبين أن واحدة من الجمل المقتبسة من بروفيسور بيرنال كان يجب أن تعطى "سيك" لتبين عدم وجود خطأ مطبعي، وهناك أمثلة أخرى كثيرة. في العدد الشتوي لعام ١٩٤٤ من البارتيزان ريفيو، كتب إدموند ويلسون بعض الملاحظات الممتعة عن هذا الموضوع، بخصوص فيلم "مهمة إلى موسكو".

"مهمة إلى موسكو" تأسس على كتاب بقلم جوزيف أي ديفيس الذي كان سفير الولايات المتحدة في موسكو خلال فترة عمليات التطهير العرقي. ويعبر في الكتاب عن شكوك خطيرة في عدالة أحكام المحلفين في محاكمات التخريب. بينما في الفيلم الذي يتجسد فيه كواحدة من الشخصيات، يجري تصويره كشعور ليس فيه أي شك. مع الوقت، جعل الفيلم الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي حليفين، وجزء من هدفه "ترقية" أعمال التطهير العرقي واعتبارها إبادة مبررة تماماً للخونة. حتى إن النسخة الأولى احتوت على "لقطات" لتروتسكي متورطاً في مفاوضات سرية من ريبينتروب: ثم جرى حذفها لاحقاً، ربما احتراماً

لمشاعر الجالية اليهودية أو ربما لأنها كانت شديدة الشبه بالصور الفوتوغرافية الحقيقية لريبنتروب وهو يفاوض ستالين. أعطى ديفيس موافقته على نشر الفيلم، الذي كان في الواقع تزييفاً وتحريفاً لما قاله. لمناقشة هذا، يعطي ويلسون بعض النماذج من نثر ديفيس بهدف أن تلقي الضوء على عقليته. مقتطفان اثنان يكفيان:

سلام أوروبا، أن تحقق، في خطر وشيك من أن يكون سلاماً فرضه الحكام الديكتاتوريين تحت ظروف ستندفع فيها كل البلدان الصغيرة مسرعة لتصل وتكون تحت غطاء الحماية الألمانية، أو تحت ظروف تكون فيها حفلة للقوة كما تكهنت لكم قبل سنتين، "وهتلر يقود الفرقة الموسيقية".

ها هو السـيد ديفيس يتحدث عن موضوع يفغيني أونيغين:

كلا الأوبرا والباليه تأسستا على أعمال بوشكين الأدبية، والموسيقا كانت للعظيم تشايكوفسكي. الأوبرا كانت "يفغيني أونيغين" قصة رومانسية عن شابين ذوي منصب تصدعت صداقتهما بسبب سوء فهم، وشجار عشاق انتهى بمبارزة قتل فيها الشاعر. كانت ذات مغزى لنهاية بوشكين الشخصية، والأغرب أنه هو من كتبها.

الفوضى في هذا المقطع هائلة وكثيرة، لدرجة يتطلب فرز الأخطاء المختلفة وتصحيحها وقتاً كثيراً. لكن هنا السـيد بيرنال:

ديمقراطيتنا البريطانية، من الممارسة الطويلة، تمكننا بالتأكيد من أن نصون بدون إكراه وقسر أو سفك دماء لكن بطريقة خرقاء، ببطء شديد جداً وبتحيز ثقيل للامتيازات العتيقة.

ما هي الكلمة أو العبارة المفقودة هنا؟ نحن لا نعرف، ربما البرفيسور بيرنال لا يعرف أيضاً، لكن في كل الأحوال الجملة تخلو من المعنى. والغريب جداً أن مثل هذا النوع من اللغة الإنكليزية يتحول ويصبح مقالة افتتاحية:

إن كان لدى العلم الذي لانزال نتعلمه الكثير مما يعلمنا، يجب على العلم أيضاً أن يكون مدركاً أنه يتعرض اليوم لهجوم بغيض من قبل هؤلاء الذين يخشون أن الإنسان باتت لديه قوة تحت تصرفه أبعد وأكبر من قدرته على التحكم بها. هذه بالضبط واحدة من تلك الأفكار الملساء الطنانة التي يفتقر إليها النقد الذي لا يرحم.

واحدة بلا خاتمة منطقية وعبارة زائدة وأخطاء قواعدية في ستين كلمة. ولا ترتفع المقالة الافتتاحية في أي مكان فيها عن هذا المستوى المشار إليه أعلاه. لا نوحي أن تلك الأسباب للكتابة الخالية من المعنى وغير المرتبة، هي نفسها في كل حالة من الحالات. أحياناً يقع اللوم على "أخطاء فرويدية" وأحياناً بسبب عجز عقلي محض وأحياناً شعور غريزي بأن الفكرة الواضحة تكون خطراً على العقيدة التقليدية. لكن يبدو أن هناك علاقة مباشرة بين القبول بمذاهب الشمولية والاستبداد، وبين الكتابة بلغة إنكليزية رديئة، ونعتقد أن إبراز هذا مهم.

نعود إلى هجوم المودرن كورترلي على البوليمك. لقد بينا أن البروفيسور بيرنال يعلمنا، والمقالة الافتتاحية تقر وتصادق كما يبدو، المبدأ بأن أي شيء يكون صحيحاً إن كان نافعاً وملائماً سياسياً. لماذا إذاً يتهمون البوليمك بنفس الوقت بـ "تشويش القضايا الأخلاقية"، كما لو كان "الصح" و"الخطأ" كيانين ثابتين يعرف كل شخص محترم كيف يميز بينهما مسبقاً؟

السبب الوحيد الممكن أنهم ينزعجون قليلاً من ردود فعل قرائهم ذوي العقول الطرية، وأعتقد أن أهدافهم الحقيقية يجب ألا تُوضح بشكل صريح. وهكذا أيضاً مع ادعائهم أنهم سيستمعون إلى كل وجهات النظر أو الكثير جداً من وجهات النظر (حاشية المؤلف: طلب من البروفسور بيرنال أن يكتب للبوليك الأولى والثانية. ودعي الآن ليساهم في التالية).

هناك مدى واسع من الآراء المختلفة داخل مرجعيتنا ومنظورنا. إن قدراً من الحرية التأملية والتقديم الجسور ليس مسموحاً فقط وإنما مرغوباً أيضاً. يجب أن يردع الكاتب شعوره بأن آراءه قد تسبب صدمة لأي نوع من المعتقدات، فهناك دائماً علاج- رد فوري وفعال.

من الممتع إخضاع هذا التعبير إلى بضع اختبارات. هل ستنشر المودرن كورترلي مثلاً تاريخاً كاملاً عن اعتقال وإعدام القادة البولونيين الاشتراكيين ايهرليتش والتر؟ هل ستعيد نشر موجز من الكراريس الشيوعية "أوقفوا الحرب" التي صدرت في عام ١٩٤٠؟ هل ستنشر المقالات التي كتبها أنطون سيليغا أو فيكتور سيرج؟ هي لن تفعل ذلك. لهذا التعبير المقتبس آنفاً مجرد كذب، الهدف منه خلق انطباع عن سعة التفكير والتسامح على القراء الأغرار. إن تخمين سبب عداء المودرن كورترلي ليس صعباً. هوجمت البوليمك لأنها تؤيد وتدعم قيماً أخلاقية محددة بقاؤها خطر من وجهة نظر الشمولية، وهذه هي ما تسمى بالقيم الليبرالية.

نستعمل كلمة "ليبرالي" بمعنى "حب الحرية". هدفها الأول والأهم الدفاع عن حرية الفكر والتعبير التي تم انتزاعها والفوز بها بشكل موجع خلال الأربعمائة سنة الماضية. من الطبيعي جداً أن يعتبر البروفيسور بيرنال وآخرون مثله هذا هجوماً أسوأ من ابتداع وتشييد شكل ما منافس من الشمولية. حسب ما يرى البروفيسور بيرنال:

بدأت الفلسفة الليبرالية الفردانية الذرية في عصر النهضة، ووصلت إلى مكانتها التامة في الثورة الفرنسية. إنها فلسفة "حقوق الإنسان" و"الحرية والمساواة والإخوة"، والملكية الخاصة والتجارة الحرة والعمل الحر. عرفناها بشكل ممذوق لا علاقة لها بضرورات الزمن التي لم تعالج إلا بالاحتيال والنفاق، والعقول الصادقة والجاهلة فضلت حتى وحشية الفاشية على عقائدها الكاذبة والعقيمة.

يجب علينا أن نتنافس هنا مع اللغة الغائمة المعتادة وفوضى الأفكار، لكن إن كانت الجملة الأخيرة تعني أي شيء، فإنها تعني أن البروفيسور بيرنال يعتبر الفاشـية أفضل من الليبرالية. يفترض أن محرري المودرن كورترلي يوافقونه في هذا. وهكذا نصل إلى الاستنتاج الحقيقي القديم البغيض أن الشيوعي والفاشي اقرب إلى بعضهما البعض أكثر من الديمقراطي. بالنسبة إلى الاتهام الخاص المرفوع ضدنا في تهديم الفرق المميز بين الصح والخطأ، فقد نشأ بسبب حقيقة أن أحد المشاركين في مجلتنا اعترض على نظر الصحافة البريطانية وتحديقها المثير للقرف بمنظر الجثث المتدلية. نعتقد أننا قلنا ما يكفي لنبين أن جريمتنا الحقيقية في عيون المودرن كورترلي، تكمن في دفاعنا عن مفهوم الصح والخطأ وفي الآداب والأصول الفكرية التي كانت المسؤولة عن كل تقدم حقيقي في القرون الماضية، والتي بدونها لن تكون ديمومة الحياة الحضرية نفسها مؤكدة على الإطلاق.

البوليمك ٣ مايو/ أيار ١٩٤٦ (بلا توقيع)

مراجعة رواية "نحن"
لاي. آي. زامايتين

بعد سنوات كثيرة من وجودها، وضعت يدي على نسخة من رواية **نحن** لزامايتين أخيراً، وهي واحدة من النوادر الأدبية لهذا العصر الملتهب بالكتب. فتشت عنها في كتاب جليب ستروف **خمس وعشرون سنة من الأدب السوفييتي** ووجدت أن تاريخها كالتالي:

كان زامايتين، الذي مات في باريس، روائياً وناقداً روسياً، نشر عدداً من الكتب قبل وبعد الثورة. "نحن" كتبت في ١٩٢٣، ورغم أنها ليست عن روسيا وليس لها علاقة مباشرة بالسياسة المعاصرة -إنها فنتازية تتعامل مع القرن السادس والعشرين بعد الميلاد- فقد رفض نشرها على أساس أنها غير مرغوبة أيديولوجياً. وجدتْ نسخة من المخطوط طريقها إلى خارج البلاد، وظهر الكتاب في ترجمات إنكليزية وفرنسية وتشيكية، ولم ينشر بالروسية أبداً. نشرت الترجمة الإنكليزية في الولايات المتحدة ولم اتمكن من تدبير نسخة: لكن النسخ الفرنسية موجودة ونجحتُ في استعارة واحدة. إلى تلك الدرجة التي أستطيع الحكم فيها، فإنه ليس كتاباً من الدرجة الأولى، لكنه غير عادي بالتأكيد. وتفاجأت من عدم وجود أي ناشر إنكليزي أقدم على نشره. أول شيء يلاحظه المرء حول "نحن" حقيقة -لم يشر إليها أحد- أعتقد أن رواية ألدوس هكسلي **عالم جديد شجاع** مستمدة جزئياً منه. كلا الكتابين يعالجان عصيان الروح البشرية البدائية ضد عالم معقلن وممكنن لا يعرف الألم، وكلا القصتين يفترض بهما أن تحدثا بعد ستة قرون من الآن. الجو في كلا القصتين متشابه، وتصفان نفس نوع المجتمع تقريباً، لكن كتاب هكسلي يظهر إدراكاً سياسياً أقل وتأثراً أكبر بالنظريات البيولوجية والسيكولوجية الحديثة. في القرن السادس والعشرين، في رؤية زامايتين له، سكان اليوتوبيا (المدينة الفاضلة) يفقدون فردانيتهم تماماً ويعرفون بالأرقام. يعيشون في بيوت زجاجية (كتب هذا قبل اختراع التلفاز) مما يمكن الشرطة السرية المعروفة باسم "الحراس، الأوصياء" من مراقبتهم بسهولة. كلهم يرتدون بدلات نظامية، ويشار للكائن البشري إما "برقم" أو "البزة النظامية" يعيشون على طعام تركيبي، وهوياتهم المعتادة أن يسيروا

بمجموعات يتألف كل منها من أربعة أشخاص، بينما يعزف نشيد الدولة الوحيدة عبر مكبرات الصوت. في فواصل محددة ومبينة يسمح لهم لمدة ساعة واحدة (تعرف بـ"ساعة الجنس") أن ينزلوا الستائر على شققهم السكنية الزجاجية. طبعاً ليس هناك زواج، لكن الحياة الجنسية لا تبدو فاسقة تماماً. لأغراض الجماع لدى كل واحد كتاب حصص لبطاقات وردية، والشريك الذي يمضي معه ساعات الجنس المخصصة يوقع على الأرومة. يحكم الدولة الوحيدة شخص يدعى المحسن يعاد انتخابه سنوياً من قبل كل السكان، ونتيجة التصويت موافقة بالإجماع دائماً. المبدأ الموجه للدولة أن السعادة والحرية متضاربتان. في جنة عدن كان الإنسان سعيداً، لكن بحماقته طالب بالحرية فطرد منها إلى البرية. الآن الدولة الوحيدة أعادت له سعادته بإزالة حريته. حتى الآن التشابه مع عالم جديد شجاع مدهش. بالرغم من أن كتاب زامايتين أقل ترتيباً -فيه حبكة عرضية ضعيفة نوعاً ما يصعب تلخيصها- إلا أنه يملك نقطة سياسية يفتقدها الكتاب الآخر. إن المشكلة في كتاب هكسلي ذات "طبيعة إنسانية" وقد حلت بمعنى ما، وذلك من خلال الفرضية التالية: يمكن جعل الكائن البشري الحي يتخصص في أي طريق مرغوب بواسطة العلاج قبل الولادة وبالمخدرات والتنويم المغناطيسي. يمكن إنتاج عامل علمي من الطراز الأول بنفس السهولة التي ينتج فيها شخص نصف أبله تافه. وفي كلا الحالتين، تتم معالجة آثار الغرائز البدائية كالشعور بالأمومة أو الرغبة في الحرية بسهولة. في الوقت نفسه لا يُقدم سبب واضح لتقسيم المجتمع إلى طبقات بالطريقة المتقنة التفصيلية الموصوفة، فالهدف ليس الاستغلال الاقتصادي، ولا تبدو الرغبة للتنمر والسيطرة حافزاً أيضاً. ليس هناك تعطش للسلطة أو السادية أو القسوة من أي نوع. هؤلاء الذين في القمة ليس لديهم الدافع القوي للبقاء في القمة، ورغم أن الكل سعيد بطريقة بلهاء، إلا أن الحياة أصبحت تافهة ولا معنى لها، لدرجة يصعب التصديق فيها أن هذا المجتمع قادر على الاستمرار والبقاء. كتاب زامايتين بالمجمل يشبه وضعنا الخاص بنا. على الرغم من تعليم ويقظة الحراس لاتزال الكثير من الغرائز البشرية العتيقة موجودة هناك. إن راوي القصة، دي ٥٠٣ مهندس موهوب لكنه كائن تقليدي مسكين، نوع من اليوتوبي بيلي براون في لندن تاون، مروع دائماً بنزوات راجعة جينية تنتابه. يقع في حب (هذه جريمة طبعاً) مع ١-٣٣٠ التي هي عضو في حركة مقاومة سرية، وتنجح فترة في دفعه إلى التمرد. حين يندلع التمرد، يتضح أن

أعداء المحسن كثيرون، وهؤلاء الناس عدا عن تآمرهم للإطاحة بالدولة، ينغمسون في اللحظة التي يسدلون فيها ستائرهم في رذائل مثل التدخين السجائر وشرب الكحول. دي ٥٠٣ ينقذ تماماً من نتائج حماقته. تعلن السلطات أنها اكتشفت سبب الاضطرابات الأخيرة: وجود بعض الكائنات البشرية التي تعاني من مرض اسمه التخيل. لقد حدد المركز العصبي المسؤول عن التخيل، ويمكن الشفاء من المرض بالعلاج بأشعة إكس. يخضع دي ٥٠٣ للعملية التي صار من السهل له أن يعمل ما عرف منذ البداية أن عليه أن يفعله-أي يخون شركاءه في المؤامرة ويبلغ عنهم الشرطة. برباطة جأش تامة وهدوء، يراقب ١-٣٣٠ تعذب بهواء مضغوط تحت أنبوب غوص زجاجي: نظرت إلى يديها تقبضان على ذراعي الكرسي حتى انغلقت عيناها تماماً. أخرجوها وأعادوها إلى الوعي بواسطة صدمة كهربائية ووضعوها تحت الأنبوب ثانية. تكررت هذه العملية ثلاث مرات، ولم تصدر كلمة واحدة من شفتيها. الآخرون الذين أحضروا معها أظهروا أنهم أكثر صدقاً. كثيرون منهم اعترفوا بعد تطبيق واحد. غداً سيرسلون إلى آلة المحسن. آلة المحسن هي المقصلة. هناك إعدامات كثيرة في مدينة زامايتين الفاضلة. تحدث علانية بحضور المحسن مصحوباً بقصائد غنائية عن النصر يلقيها الشعراء الرسميون. المقصلة ليست أداة قديمة خاماً، وإنما أنموذج محسن جداً يذيب ضحيته حرفياً ويقلله في لحظة إلى نفثة دخان وبركة من الماء الصافي. الإعدام في الحقيقة تضحية بشرية، والمشهد الذي يصفه أعطى عمداً لون حضارات العالم القديم العبودية الشريرة. إنه الإدراك الحدسي للجانب غير العقلاني للشمولية -الأضحية البشرية والوحشية كغاية بنفسها وعبادة القائد المنسوب إليه صفات قدسية – ما يجعل كتاب زامايتين أرفع وأفضل من كتاب هكسلي. من السهل أن نرى لماذا رفض نشر الكتاب. المحادثة التالية (اختصرتها قليلاً) بين دي-٥٠٣ و١-٣٣٠ تكفي ليعمل القلم الأزرق:

"هل تدركين أن ما تقترحينه هو ثورة؟".

"طبعاً إنها ثورة. ولماذا لا؟"

"لأنه لا يمكن أن تكون هناك ثورة. ثورتنا كانت الأخيرة ولا يمكن أن تكون هناك ثورة أخرى أبداً. كل واحد يعرف ذلك"؟

"عزيزي أنت عالم رياضيات. أخبرني ما هو العدد الأخير؟"

"ماذا تقصدين بالعدد الأخير؟"

"حسناً إذاً، أكبر رقم!".

"لكن هذا سخف ومنافٍ للعقل. الأعداد لانهائية. لا يوجد عدد أخير"

"إذاً لماذا تتحدث عن الثورة الأخيرة؟".

هناك مقاطع مشابهة، لكن ربما لم يقصد زامايتين أن يكون نظام الحكم السوفييتي الهدف الخصوصي لهجائه، فقد كتب الكتاب في زمن موت لينين ولا يمكن أن تكون ديكتاتورية ستالين في تفكيره، ولم تكن الظروف في روسيا في العام ١٩٢٣ بالدرجة التي تجعل المرء يثور ضدها، لأن الحياة بدأت تصبح آمنة جداً ومريحة. لم يستهدف زامايتين على ما يبدو بلاداً بعينها، وإنما الأهداف الضمنية للحضارة الصناعية. لم أقرأ أياً من كتبه الأخرى، لكني عرفت من جليب ستروف أنه أمضى عدداً من السنين في إنكلترا وكتب بعض المقالات الهجائية اللاذعة عن الحياة الإنكليزية. واضح من "نحن" أن لديه ميلاً قوياً نحو البدائية. سجنته الحكومة القيصرية في ١٩٠٦ ثم سجنه البلاشفة في ١٩٢٢ في نفس الدهليز في نفس السجن، ولديه مبرره بأن يكره الأنظمة السياسية التي عاش في ظلها، لكن كتابه ليس مجرد تشكٍ وتذمر، بل دراسة للماشين (الآلة) ذلك العفريت الذي أطلقه الإنسان بطيشه من قمقمه، ولم يستطع إعادته ثانية. إنه كتاب يجب البحث عنه حين تظهر منه نسخة إنكليزية.

دفاعاً عن الرفيق زيلايكوس

منذ عدة أسابيع وجه السيد كي زيلايكوس رسالة طويلة، وكالعادة بذيئة إلى التريبيون، لا يتهمها بافتقارها إلى سياسة خارجية واضحة وقابلة للحياة، وإنما بكونها صحيفة معادية للروس، بينما تحافظ على إظهار العداوة نحو إيرنست بيفين. قال: إن بيفن أكثر واقعية من التريبيون منذ أن أدرك أنه لكي تعارض روسيا من الضروري عليك أن تعتمد على أمريكا و"وتدعم الفاشية"، بينما كانت التريبيون تجلس على السياج فقط وتتفوه بشعارات متناقضة ولا تصل إلى أي مكان.

أنا لا أتفق مع السيد زيلايكوس غالباً، ولكن يبهجني جداً أن أسجل اتفاقي معه في هذه المناسبة. بالتسليم في مصطلحه الخاص أعتقد أن اتهامه مبرر تماماً. يجب على المرء أن يتذكر طبعاً أن كلمات مثل الديمقراطية أو الفاشية أو الشمولية في أفواه السيد زيلايكوس ورفاقه لا تحمل تماماً معانيها العادية، فهم يميلون عموماً إلى التحول إلى عكسها. فالفاشية تعني لهم انتخابات غير مزيفة، والديمقراطية تعني حكم الأقلية وهلم جرا. لكن هذا لا يبدل حقيقة أنه لا يستقر على قضايا حقيقية فشلت التريبيون لسنوات المرة تلو الأخرى بأن توضح موقفها منها. هو يعرف أن القضايا السياسية الكبيرة الوحيدة في العالم اليوم هي مع أو ضد روسيا أو مع أو ضد أمريكا أو مع أو ضد الديمقراطية. ورغم أنه يصف نشاطاته في كلمات تختلف عما يستخدمه أغلبنا، لكننا نستطيع أن نراه أين يقف على الأقل.

لكن أين تقف التريبيون؟ أنا أعرف أو أعتقد أنني أعرف ماذا تفضل سياسة التريبيون الخارجية، لكني أعرف بالاستنتاج ومن الاتصالات الخاصة. يستطيع القراء العرضيون وحسب معرفتي هم يفعلون، أن يستجروا انطباعات كثيرة مختلفة. إن كان على المرء أن يلخص سياسة التريبيون الظاهرة بكلمة واحدة، فسيكون الاسم الذي سيصيغه لها أنها معادية للبيفينية. القانون الأول حين بيفن يقول أو يفعل شيئاً ما يجب أن توجد طريقة ما لإظهاره على أنه خطأ حتى لو كان الذي كانت تدافع عنه التريبيون في الأسبوع السابق. القانون الثاني: حين يمكن نقد السياسة الروسية، يجب أن توجد ظروف مخففة دائماً. القانون الثالث: حين يمكن

توجيه إهانة للولايات المتحدة يجب أن تهان. تحت أثر تأطير سياسة على هذه المبادئ، لا يستطيع المرء اكتشاف أي حل تعرضه التريبيون للمشاكل النوعية المحددة التي تناقشها كثيراً. لنأخذ مثالاً. هل تؤيد التريبيون الانسحاب من اليونان فوراً وبلا شروط؟ هل تعتقد التريبيون أن الروس يجب أن يأخذوا الدردنيل؟ هل التريبيون تفضل هجرة يهودية غير مقيدة إلى فلسطين؟ هل تؤيد التريبيون السماح لمصر بضم السودان إليها؟ في بعض الحالات أنا أعرف الإجابات، لكني أعتقد أن من الصعب اكتشافها بمجرد قراءة الصحيفة.

أعتقد أن جزءاً من المشكلة، يكمن في أن التريبيون بعد أن ضخمت بيفن واعتبرته عدو الشعب رقم واحد، اكتشفت أنها ليست على خلاف حقيقي معه. بالتأكيد هناك خلافات حقيقية بينهما حول فلسطين وإسبانيا وربما اليونان، لكن عموما أعتقد أنه والتريبيون يؤيدان نفس النوع من السياسة. هناك، هذا متفق عليه عموماً، ثلاث سياسات أجنبية محتملة لبريطانيا العظمى. الأولى أن تفعل كما يريدنا السيد زيلايكوس أن نفعل، أي أن نصبح جزءاً من المنظومة الروسية بحكومة ربما أقل عبودية من حكومة بولندا وتشيكوسلوفاكيا، لكن جوهرياً مثلها؛ الثانية أن ننتقل بشكل واضح إلى فلك الولايات المتحدة؛ والثالثة أن نصبح جزءاً من اتحاد فيدرالي في جمهوريات أوروبا الغربية الاشتراكية التي ستشمل أفريقيا إن أمكن وإن أمكن ثانية (رغم أنه أقل احتمالاً) الدول التابعة للتاج البريطاني. أنا أستنتج أن التريبيون -لأنها لم تقل بوضوح- تفضل السياسة الثالثة وبيفين يفضل هذا، أي الحكومة كما أعتقد. لكن التريبيون ليست متورطة في عداء شخصي مع بيفين فقط، وإنما ترفض مواجهة حقيقتين أيضاً -حقائق غير شعبية الآن- يجب أن تواجههما إن أراد المرء أن يناقش اتحاداً غربياً بجدية. الأولى أنه من الصعب لهكذا اتحاد أن ينجح بدون دعم وود أمريكي، والأخرى أن أمريكا ملزمة بأن تجلب العداوة الروسية مهما كانت نواياها مسالمة. هنا بالضبط فشلت التريبيون كجريدة رأي، وكل التباساتها الأخرى كما أعتقد نشأت من الفزع من رأي هازئ حديث جداً بخصوص موضوع روسيا وأمريكا.

أحد الأشياء اللافتة جداً في التريبيون هو التظاهر بأن لبيفين سياسته الخاصة به حصرياً. هو بوضوح نوع من حصان هارب يجر مجلس وزراء عنيد خلفه، وسياستنا كان يجب أن تكون مختلفة تماماً- والأهم علاقاتنا مع الاتحاد السوفييتي كانت ستكون أفضل لو كان لدينا

فقط وزير خارجية متنور أكثر. الآن واضح أن هذا لا يمكن أن يكون بهذا الشكل. لن يبقى وزير يعطل إرادة الحكومة في المنصب سنتين. لماذا إذاً نلقي اللوم على شخص واحد؟ ألم يكن السبب لأننا لم نقل أن حكومة عمالية كهذه ملزمة على الأغلب أن تكون على علاقة رديئة مع حكومة الاتحاد السوفييتي؟ يمكننا الحصول على علاقات ممتازة متبادلة مع روسيا مع حكومة يرأسها بريت وزيلايكوس، ويمكننا إصلاح بعض التدابير مع حكومة يرأسها تشرشل وبيفربروك، لكن أي حكومة تمثل بصدق الحركة العمالية، فيجب أن ينظر إليها بعداء وحقد. من وجهة نظر الروس والشيوعيين، فإن الاشتراكية الديمقراطية عدو لدود، وللإنصاف هم يعترفون بهذا دائماً. حتى هكذا قضايا خلافية كتشكيل اتحاد غربي غير متصلة بالموضوع هنا. حتى لو لم يكن لنا تأثير في أوروبا ولم نحاول التدخل، تظل هناك مصلحة للحكومة الروسية في إفشال حكومة العمال البريطانية إن استطاعت. السبب واضح جداً. الاشتراكية الديمقراطية بخلاف الرأسمالية توفر بديلاً عن الشيوعية، ويمكنها أن تنجح بمستوى كبير في أن تبين أخيراً أن الاشتراكية ممكنة بدون قوات الشرطة السرية والترحيل الجماعي وهلم جرا-عندها يتلاشى مبرر الديكتاتورية. إن العلاقات السيئة مسبقاً مع روسيا ملزمة بالتدهور مع حكومة عمالية في المنصب. أشار مراقبون مختلفون إلى هذا في وقت الانتخابات العامة، لكن لا أتذكر أن التريبيون فعلت هذا آنذاك وفيما بعد. ألم يكن لأن الأسهل والشعبي أكثر أن نشجع الوهم الواسع الانتشار بأن "حكومة من اليسار تستطيع أن تكون على علاقات أفضل مع روسيا، وأن الشيوعية نفس الشيء مثل الرأسمالية، ثم حين لا تكون الأشياء بتلك الطريقة نسجل دهشة مؤلمة ونبحث عن كبس فداء؟".

وأنا أتساءل ماذا وراء عداء التريبيون الدائم للأمركة؟ في التريبيون أستطيع تذكر ثلاث إشارات مؤدبة إلى أمريكا خلال السنة الماضية (واحدة إشارة إلى هنري والاس) وحبل كامل من الإهانات الصغيرة. لقد تلقيت رسالة من طلاب في جامعة أمريكية للتو يسألونني إن كنت أستطيع تفسير سبب اعتقاد التريبيون بضرورة ازدراء أمريكا. ما الذي سأقوله لهؤلاء الناس؟ سأقول لهم الحقيقة التي أعتقدها -أي أن عداء التريبيون للأمركة ليس صادقاً ولكنه محاولة لمجاراة آخر صرعات الرأي. أن تكون معادياً لأمريكا الآن، أن تصرخ وتصيح مع الرعاع. طبعاً إنهم مجرد رعاع ثانويين، لكن صوتهم عالٍ جدا. رغم وجود مشاعر غير طيبة

نتيجة لوجود القوات الأمريكية، أنا لا أعتقد أن الغالبية العظمى من الشعب في هذه البلاد معادون لأمريكا سياسياً، وبالتأكيد هم ليسوا كذلك ثقافياً. لكن المثقفين الأدبيين-السياسيين لا يخافون من رأي الجماهير عادة، وإنما من الرأي السائد داخل مجموعتهم الخاصة بهم. في أي لحظة هناك دائماً عقيدة تقليدية وصياح ببغائي يجب أن يكرر، والعقيدة الراهنة في أنشط قسم من اليسار هي العداء للأمركة. أعتقد أن جزءاً من السبب (أنا أفكر ببعض ملاحظات في مصنف السيد جي دي اتش كول، دليل الرجل الذكي إلى عالم ما بعد الحرب) فكرة أننا لو استطعنا قطع روابطنا مع الولايات المتحدة، فربما ننجح في البقاء على الحياد في حالة نشوب حرب بين روسيا وأمريكا. كيف لأي أحد أن يصدق هذا بعد النظر إلى الخريطة وتذكر ما حدث للدول المحايدة في الحرب الأخيرة، أنا لا أعرف. هناك أيضاً الفكرة الأنانية الأخرى بأن الأمريكان ليسوا أعداءنا حقيقة، ومن غير المحتمل أن يبدأوا بإسقاط قنابلهم الذرية علينا أو يتركوننا نموت من الجوع. ولذلك نستطيع أخذ خياراتنا بأمان معهم إن كان ذلك مفيداً. لكن العقيدة موجودة هناك في كل الأحوال. للتكلم لصالح أمريكا، لتتذكر بأن الأمريكان ساعدونا في عام ١٩٤٠ حين كان الروس يمدون الألمان بالنفط ويدفعون أحزابهم الشيوعية لتخريب مسعى الحرب ويصنفوا الناس بـ "الرجعيين". أنا أشك أن التريبيون حين تنضم وتشارك في الجوقة، فذلك من خشيتها من هذا الوسم أكثر مما هو قناعة صادقة لديها.

إن كان المرء سيكتب عن سياسة خارجية، فهناك سؤال بالتأكيد يجب أن يجاب عليه بوضوح: "إن كان عليك أن تختار بين روسيا وأمريكا، فأيهما ستختار؟" لن يكفي إعطاء الجواب المراوغ المعتاد "أنا أرفض أن أختار" في النهاية قد يفرض الاختيار علينا. لم نعد أقوياء بما يكفي للوقوف لوحدنا، وإن فشلنا في تكوين اتحاد أوروبي غربي، سوف نكره على المدى الطويل أن نخضع سياستنا إلى تلك أو غيرها من القوى العظمى. وعلى الرغم من كل الثرثرة الحالية، فإن كل واحد منا يعرف في قرارة نفسه أننا يجب أن نختار أمريكا. في اعتقادي، القسم الأعظم من الجماهير سيأخذ خياره غريزياً. بالتأكيد هناك أقلية صغيرة ستختار الطريق الآخر. السيد زيلايكوس مثلاً واحد منهم. أعتقد أنه مخطئ، لكنه يوضح موقفه على الأقل. أنا أعرف جيداً ما هو موقف التريبيون أيضاً. لكن هل أفصحت التريبيون عنه بوضوح قط؟

كم نحن خاضعون في هذه البلاد إلى الاستبداد الفكري الذي تمارسه الأقليات والذي يمكن رؤيته من تركيبة الصحافة. يعتقد الشخص الذي يحكم على بريطانيا من خلال صحافتها أن حزب المحافظين أقوى حزب دائماً وحزب الليبراليين الثاني والشيوعيين الثالث وحزب العمال غير موجود. إن الحزب الجماهيري الحقيقي الوحيد ليس لديه صحيفة يومية خاصة به لا ينازعه بها أحد وليس له أي مؤيد موثوق وسط الأسبوعيات السياسية. أفترض أن التريبيون خرجت بتصريح بسيط عن المبادئ المتضمنة في قراراتها الفردية- في تأييدها للتجنيد الإلزامي مثلاً. هل ستسير ضد الكيان الرئيسي لحزب العمال؟ أشك بذلك. لكن ليتها تذهب ضد الأقلية المجارية للموضة التي تجعل الأشياء بغيضة للصحفي السياسي. هؤلاء الناس لديهم تقنية نظامية في تشويه السمعة والسخرية -مفردات اختصاصية كاملة مصممة لتظهر أن كل من لا يكرر الشعارات والآراء المكررة مجنون ومثير للسخرية. السيد زيلايكوس مثلاً يتهم التريبيون بكونها "عدوة مسعورة للروس" (أو "عدوة مسعورة للشيوعية"). الكلمة الرئيسية هنا هي "مسعور" الكلمات الأخرى المستخدمة في هذا السياق تخلو من التعبير ومخبولة "مريض بالكره" (عبارة النيوريبيلك) وممسوس. النتيجة إن عبرت من وقت لآخر عن نفور معتدل من معسكرات العمل الشاق أو من انتخابات المرشح الواحد، فأنت إما مجنون أو مدفوع بأسوأ الدوافع. بنفس الطريقة حين سئل أحد المراسلين هنري والاس لماذا أصدر نسخاً مزيفة من خطاباته إلى الصحافة، رد عليه "إذاً أنت واحد من الذين يطالبون بصخب بالحرب مع روسيا؟" لم يجب هذا الرد على السؤال، لكنه أخاف أغلب الناس وأسكتهم. أو هناك نوع ألطف من السخرية يتكون في التظاهر بأن الرأي العقلاني لا يتميز من التحامل القديم السخيف. إن لم تحب الشيوعية فأنت تهاجم الحمر وتؤمن بالأعمال الوحشية البلشفية وبتأميم النساء وبذهب موسكو وهلم جرا؛ وبالمثل حين كانت الكاثوليكية هي الرائجة بين الإنتلجنسيا الإنكليزية كما الشيوعية اليوم، فإن كل من يقول إن الكنيسة الكاثوليكية منظمة فاسدة وشريرة وليست صديقة للديمقراطية، يتهم فوراً بأنه بلغ أسوأ حماقات المنظمات الرافضة للبابوية، وينظر تحت سريره خشية أن يختبئ يسوع هناك، ويصدق القصص عن الأطفال الهياكل العظمية المستخرجين من

أرضيات أديرة الراهبات وكل البقية. لكن قلة من الناس تتمسك برأيها، وأعتقد أن من السليم القول إن الكنيسة الكاثوليكية أقل حداثة الآن مما كانت عليه آنذاك.

أخيراً ما أهمية أن يُسخر منك؟ إن الجمهور الكبير لن يفهم الدعابة عادة في كل الأحوال، وإن عبرت عن مبادئك بوضوح وتمسكت بها، سيعود الناس إليك أخيراً. ليس هناك شك حول ممن تخاف التريبيون. إنها تخاف من الشيوعيين ورفاق السفر ورفاق رفاق السفر، لهذا السبب تقوم بهذه المراوغات اللانهائية: فقرة من احتجاج حين يقتل أحد أصدقائنا - صمت حين يقتل ذلك المرء وشجب لهذه الانتخابات المزورة واستحسان مشروط لذلك المرء وهلم جرا. النتيجة، رأيت في الصحف الأمريكية أكثر من مرة عبارة " جماعة فوت-زيلايكوس". طبعاً فوت وزيلايكوس ليسا حليفين لكنهما يبدوان هكذا من الخارج. في الوقت الراهن هل هذا النوع من الأشياء يستميل الناس الذين يستهدفهم؟ هل هو يستميل السيد زيلايكوس مثلاً؟ لقد عومل بلطف مميز من قبل التريبيون. سمح له بزرع أعمدة مراسلته مثل عشبة ضارة خالدة، وحين راجعت التريبيون كتاباً له قبل فترة قليلة، بحثت عبثاً في تلك المراجعة عن أي تصريح صريح عن هويته والمصالح التي يخدمها، فوجدت بدلاً من ذلك إيحاء بأنه ربما كان متحمساً بإفراط وأنه معتاد على محاججة خاصة -وهذا كله متوازن بمديح حيثما أمكن ومعنون بعنوان ودي"الداعية المقاتل" لكن هل السيد زيلايكوس ممتن؟ على العكس، بعد بضعة أسابيع فقط استدار بدون أي استفزاز ووجه ركلة مؤلمة. من الصعب لومه بها أنه يعرف جيداً أن التريبيون ليست في صفه ولا تحبه فعلاً. لكن بينما هو مستعد وراغب في توضيح هذا، لم تفعل التريبيون هذا بالرغم من الهجمات الجانبية العرضية. أنا لا أزعم أن السيد زيلايكوس صادق، لكنه مخلص على الأقل. نحن نعرف أين يقف وهو يفضل أن يضرب أعداءه بدلاً من أصدقائه. طبعاً صحيح أنه يقول ما هو آمن وحداثي الآن، لكنني أتصور أنه يتمسك بمبادئه إذا تبدل المدّ. كتبت في الفترة بين أكتوبر ١٩٤٧ ويناير ١٩٤٨ مايكل فوت عضو برلمان. بواسطة تي آر فيفيل مرآة الحاضر بقلم كوني زيلايكوس ٦ يونيو/ حزيران ١٩٤٧.

مراجعة: صورة لشخص يعادي السامية، بقلم جان بول سارتر، ترجمه من الفرنسية إيريك دو موني

من الواضح أن عداء السامية موضوع يحتاج إلى دراسة جادة، لكنها غير محتملة في المستقبل القريب كما يبدو، والمشكلة أنه طالما يعتبر عداء السامية عبارة عن انحراف شائن وجريمة تقريباً، فإن كل متعلم يسمع بالكلمة سوف يزعم أنه محصن ضدها؛ ما يجعل الكتب حول العداء للسامية مجرد مناورات تطرح قذى في عيون الناس الآخرين. إن كتاب السيد سارتر ليس استثناء، وربما ليس أفضل، لأنه كتب في ١٩٤٤ في الفترة المضطربة وتبرير الذات وصيد بائعي الأوطان التي تلت التحرير. في البداية يخبرنا السيد سارتر أن معاداة السامية ليس لها أساس منطقي: في النهاية لن تتواجد في مجتمع لاطبقي، وفي الوقت الراهن يمكن محاربتها إلى حد ما بالتعليم والدعاية. هذه الاستنتاجات يصعب أن تستحق التصريح بها لذاتها فقط، ووسطها هناك نقاش حقيقي قليل للموضوع رغم النشاط العقلي الكثير، ولكن ليس هناك دليل وبرهان حقيقي يستحق الذكر. يخبرنا أن معاداة السامية غير معروفة تقريباً وسط الطبقة العاملة. إنها مرض البرجوازية، والأهم مرض ذلك الكبش الذي تقع عليه كل ذنوبنا "البرجوازية الصغيرة"، وضمن البرجوازية، ونادراً ما توجد بين العلماء والمهندسين. إنها ميزة غريبة لأناس يفكرون بالقومية بشكل ثقافة موروثة وملكية بشكل أرض. لم يناقش السيد سارتر لماذا يختار هؤلاء الناس اليهود وليس ضحية أخرى إلا في مكان واحد، حين يقدم النظرية العتيقة الملتبسة بأن اليهود مكروهون لأنهم يعتبرون مسؤولين عن صلب المسيح. لم يبذل أي محاولة لربط معاداة السامية بظواهر مترابطة بشكل واضح كالتحامل اللوني مثلاً. جزء مما هو خطأ في مقاربة السيد سارتر، مشار إليه بعنوانه. "إلـ" معادي للسامية، يبدو أنه يدلل عليه في الكتاب كله، فهو دائماً نفس نوع الشخص الذي يمكن تمييزه بلمحة سريعة على حد تعبيرك، وهو ناشط ويعمل طول الوقت. في الواقع لا يحتاج المرء إلا

إلى قليل من الملاحظة ليرى أن العداء للسامية منتشر بشكل مفرط، وليس مقتصراً على طبقة واحدة، والأهم أنه في الحالات الأسوأ يكون متقطعاً.

لكن هذه الوقائع لا تستقيم مع نظرة السيد سارتر الذرية للمجتمع. لا يوجد -سارتر يقترب من القول- شيء مثل هذا ككائن بشري، وهناك فقط أصناف مختلفة من الناس مثل "الـ" عامل و"الـ" البرجوازي، كلها مصنفة بنفس طريقة تصنيف الحشرات. واحد آخر من هذه المخلوقات الشبيهة بالحشرات هو "الـ" يهودي، الذي كما يبدو يمكن أن يميز بمظهره البدني. صحيح أنه هناك نوعان من اليهود "اليهودي الأصلي" الذي يريد أن يبقى يهودياً، و"اليهودي غير الأصلي" الذي يجب أن يكون مشابهاً للآخرين، لكن اليهودي من كلا النوعين ليس كائناً بشرياً آخر. هو مخطئ في هذه المرحلة من التاريخ إن حاول أن يشبه نفسه بالآخرين، ونحن مخطئون إن حاولنا أن نتجاهل أصله العرقي. يجب أن يكون مقبولاً في الجماعة الوطنية، ليس كرجل إنكليزي عادي أو فرنسي أو أياً كان، وإنما كيهودي.

سنبين أن موقفه نفسه قريب بشكل خطير من معاداة السامية. التحامل العرقي من أي نوع عصاب، ويشك إن كان الجدال يزيده أو يقلله، لكن النتيجة الصافية لكتاب من هذا النوع إن كان لها تأثير، فهو على الأرجح يزيد من انتشار عداء السامية أكثر من قبل. الخطوة الأولى نحو دراسة جدية لمعاداة السامية، هي أن نتوقف من اعتبارها جريمة. في الوقت الحالي كلما كان الحديث عن اليهودي أو المعادي للسامية كنوع من حيوان مختلف عن أنفسنا أقل، كان أفضل.

أوبزيرفر ٧ نوفمبر/ تشرين ثاني ١٩٤٨.

من خلال مرآة، روزيلي

أثارت المقالة الجديدة التي نشرتها التريبيون لمراسلها في فيينا (حين كتب مراسل التريبيون في فيينا تقريراً عن الظروف المروعة في المدينة، ووصف السلوك الرهيب لبعض من القوات الروسية المحتلة بصدق تام، احتج قراء كثيرون ضد ما أسموه "تشويه سمعة" الجيش الأحمر) فيضاً من الرسائل الغاضبة، بالإضافة إلى أنها وصفته بالأحمق والكاذب، ووجهت إليه تهماً أخرى يمكن اعتبارها ذات طبيعة روتينية، وحملت أيضاً تضميناً جدياً بأن عليه أن يبقى صامتاً حتى لو كان يتكلم الحقيقة. هو نفسه رد رداً مختصراً في التريبيون، لكن القضية المعنية هامة جداً وتستحق مناقشة أطول وأشمل.

حين يكون ألف وباء في تعارض ضد بعضهما، فإن كلاً من يهاجم أو ينتقد ألف سيتهم بمساعدة ودعم باء، وموضوعياً وفي التحليل قصير الأجل يسهل الأشياء لباء، لذلك يقول المؤيدون لألف اخرس ولا تنتقد: أو على الأقل انتقد بشكل "بنّاء" ويعنون دائماً عملياً انتقد بشكل محابٍ، لذلك هذا ليس سوى خطوة قصيرة للإثبات بأن مهمة وواجب الصحفي الأسمى هي إخماد الحقائق المعروفة وتشويهها.

الآن لو قسم أحد العالم إلى ألف وباء، وافترض أن ألف يمثل التقدم وباء الرجعية، يصبح عدم الكشف عن أي حقيقة تضر بألف أمراً قابلاً للجدل. لكن قبل الأخذ بهذا الادعاء، يجب أن يدرك المرء إلى أين يقوده هذا. ماذا نقصد بالرجعية؟ أفترض أننا نتفق أن ألمانيا النازية تمثل الرجعية في أسوأ أشكالها أو أحده. حسناً، إن الذين أعطوا جلّ مؤنهم لمروجي النازية أثناء الحرب في هذه البلاد، هم بالضبط مِن يقولون لنا إن انتقاد الاتحاد السوفييتي "موضوعياً" هو تأييد للفاشين. أنا لا أشير إلى الشيوعيين أثناء مرحلة معاداتهم للحرب: أنا أشير إلى اليسار ككل. عموماً حصلت الإذاعة النازية على مواد من الصحافة اليسارية أكثر مما حصلت عليه من اليمين، ولولاها لكان ذلك صعباً، لأن نقد المؤسسات البريطانية موجود بشكل رئيسي في الصحافة اليسارية. كان كل إفشاء عن الأحياء الفقيرة القذرة واللامساواة الاجتماعية وكل هجوم على قادة حزب التوري وكل شجب للإمبريالية البريطانية، هدية لغوبلز. وليس

بالضرورة أن يكون للهدية التافهة بالنسبة إلى الدعاية الألمانية حول "البلوتوقراطية البريطانية" (حكومة الأثرياء) تأثير على البلدان المحايدة خصوصاً في القسم المبكر من الحرب.

هذان مثالان عن نوع المصدر الذي كان مروجو دعاية المحور يأخذون منهما موادهم المعتمدة. نشر اليابانيون في إحدى مجلاتهم الناطقة بالإنكليزية في الصين كتاب بيرفولت **انحدار الإمبراطورية البريطانية وسقوطها** على حلقات-بيرفولت إن لم يكن شيوعياً بالفعل، فقد كان مؤيداً متحمساً للسوفييت- وتضمن الكتاب عرضياً بعض التبجح عن اليابانيين أنفسهم، لكن من وجهة النظر اليابانية لم يكن هذا مهماً بما أن الهدف الرئيسي للكتاب كان معادياً لبريطانيا. في الوقت نفسه بثت الإذاعة الألمانية نسخاً مختصرة من كتاب اعتبره الألمان مؤذياً للهيبة البريطانية. بثوا كتاب أي ام فورستر **رحلة إلى الهند** من بين كتب أخرى. وحسب علمي لم يلجأوا حتى إلى الاقتباسات المضللة، لأن الكتاب كان صادقاً جوهرياً وكتب ليخدم هدف الدعاية النازية.

حسب رأي بليك: الحقيقة التي تقال بقصد سيء تهزم كل الأكاذيب التي تستطيع اختراعها. وكما قال بليك: الحقيقة التي تقال بنية سيئة تهزم كل الأكاذيب التي تستطيع اختراعها.

إن كل واحد رأى تصريحاته تعود إليه من إذاعة المحور، سيشعر بقوة هذا. في الحقيقة كل من كتب دفاعاً عن قضايا غير شعبية أو كان شاهداً لأحداث مسببة للجدل، يعرف الإغراء المخيف لتشويه الحقائق وطمسها، لأن أي تصريح صادق سيحتوي إفشاءات يمكن للخصم المجرد من الضمير استغلالها. لكن ما يجب على المرء الاهتمام به هي الآثار طويلة المدى. هل تستطيع الأكاذيب خدمة قضية التقدم أم لا على المدى الطويل؟ القراء الذين هاجموا مراسل التريبيون في فيينا بعنف شديد، اتهموه بالكذب لكنهم أيضاً عبروا ضمناً عن أن تلك الوقائع التي قدمها يجب ألا تنشر حتى لو كانت صحيحة. ١٠٠ ألف حالة اغتصاب في فيينا ليست إعلاناً جيداً بالنسبة إلى النظام السوفييتي الحاكم: لذلك حتى لو حصلت، فلا تذكروها. كما أن العلاقات الأنغلوروسية يحتمل أن تزدهر إن جرى التعتيم على الحقائق المزعجة.

المشكلة إن كذبت على الناس، يكون رد فعلهم أعنف حين تتسرب الحقيقة وتنكشف، كما يحدث عادة في النهاية. هذا مثال عن الدعاية غير الصادقة تعود إلى الوكر لتجثم وتقيم. الكثير من الشعب الإنكليزي الخيرين استقوا من صحف اليسار صورة مستحسنة بإفراط لحزب

المؤتمر الهندي، فهم لم يؤمنوا بأنه محق، وإنها تخيلوه نوعاً من منظمة يسارية ذات أهداف ديمقراطية وأممية. هؤلاء الناس إن واجهوا فجأة قومياً هندياً حقيقياً بشحمه ولحمه، سينقلبون إلى مواقف بليمب. شاهدت هذا يحصل عدة مرات. والأمر كذلك مع الدعاية المؤيدة للسوفييت، فهؤلاء الذين ابتلعوها كاملة هم دائماً في خطر تحول مفاجئ، ينبذون فيه فكرة الاشتراكية برمتها. بهذه الطريقة وبطريقة أخرى يجب أن أقول إن الأثر الصافي للدعاية الشيوعية والقريبة من الشيوعية، كان ببساطة إعاقة قضية الاشتراكية، رغم أنها ربها ساعدت مؤقتاً السياسة الخارجية الروسية.

هناك دائماً المبررات الممتازة والوعظية لحجب الحقيقة، وهذه الأسباب تقدم بنفس الكلمات تقريباً من قبل المؤيدين لأسباب متنوعة كثيرة. لي كتابات منعت من النشر خشية ألا يحبها الروس، وكتابات أخرى منعت من النشر لأنها تهاجم الإمبريالية البريطانية ويمكن أن يقتبسها الأمريكيون المعادون لبريطانيا. لقد أخبرونا الآن أن أي انتقاد صريح لنظام ستالين الحاكم "سيزيد الشكوك الروسية"، لكن منذ سبع سنوات فقط كانوا يخبروننا أن أي انتقاد صريح للنظام النازي الحاكم سيزيد شكوك هتلر (وفي بعض الحالات من قبل الجرائد نفسها). في وقت متأخر من ١٩٤١ صرحت بعض الصحف الكاثوليكية أن حضور حزب العمال في الحكومة البريطانية زاد شكوك فرانكو وجعله يميل أكثر نحو دول المحور. عند النظر والعودة إلى الوراء، نرى لو أن الشعبين البريطاني والأمريكي أدركا في عام ١٩٣٣ ماذا يمثل هتلر، لربما كان تفادي الحرب ممكناً. وبالمثل إن أول خطوة نحو علاقات أنغلوروسية محترمة هي إسقاط الأوهام. في المبدأ أغلب الناس سيوافقون على هذا: لكن إسقاط الأوهام يعني نشر الحقائق، والحقائق غير مسرة.

إن حجة أن المرء يجب ألا يتكلم بصراحة ووضوح لأنه "سيكون لعبة بيد" هذا الشرير أو ذاك كاذبة، ولا يستخدمها الناس إلا حين تناسبهم. كما أشرت، فإن هؤلاء القلقين من التلاعب بأيدي التوريين كانوا الأقل قلقاً حول التلاعب بأيدي النازيين. الكاثوليك الذين يقولون "لا تضايقوا فرانكو، لأن هذا سيساعد هتلر" كانوا يساعدون هتلر بشكل أو بآخر لسنين مسبقاً. تحت هذه الحجة يمكن دائماً القصد في القيام بدعاية لمصلحة قطاعية مفردة ما وإسكات النقاد بترهيبهم واتهامهم بأنهم رجعيون "موضوعياً". إنها مناورة مغرية، وأنا

استخدمتها أكثر من مرة، لكنها غير شريفة. أعتقد أن المرء لن يستخدمها لو تذكر أن فوائد الكذب قصيرة دائماً. لهذا يبدو إخماد الحقائق وتلوينها واجباً إيجابياً في أكثر الأحوال! ولكن لا يحدث التقدم الحقيقي إلا من خلال زيادة التنوير الذي يعني الهدم المستمر للخرافات.

في الوقت الحالي، هناك إجلال أخرق غريب لقيم الليبرالية يتجلى في رسائل خصوم حرية التعبير المتكررة للتريبيون، وفي النتيجة: هؤلاء الناس الذين يقولون: "لا تنتقدوا وتكشفوا عن الحقائق المزعجة وغير اللائقة ولا تكونوا لعبة بأيدي الأعداء، مازالوا هم أنفسهم الذين يهاجمون سياسة التريبيون بكل العنف المتوفر لديهم. ألم يخطر لهم أن رسائلهم لن تنشر أبداً لو طبقت المبادئ التي يدافعون عنها.

التريبيون ٢٣ نوفمبر ١٩٤٥.

مراجعة للديمقراطي على طاولة العشاء لكولم بورغان

إن النرجسية دافع سوي عند الروائيين، وهذا يشمل بعضاً من أفضلهم. أن تتصرف بصرامة وجرأة في لحظات الخطر وتصحح الظلم وتكون شخصية مهيمنة وتتمرن على إفتان الجنس الآخر وتجلد الأعداء الشخصيين -هذه الأشياء تنجز على الورق بطريقة أسهل من الحياة الحقيقية. وإن الرواية التي لا تحتوي في مكان أو آخر منها على صورة لمؤلفها يتنكر بخفة كبطل أو قديس أو شهيد، هي رواية نادرة وغير عادية. يلاحظ هذا في الروايات الحوارية (العامية) بشكل خاص التي ينتمي إليها كتاب السيد بورغان. كان السيد بورغان متأثراً بتشيسترتون من دون أن يقلده بشكل فعلي، ولشخصيته الرئيسية مقدرة شبيهة بالأب براون بالاستفادة من الحجة وفي تطويق نفسه بحمقى وأوغاد وظيفتهم تقديم ملاحظاته ودعاباته البارعة. الفعل -أو بالأحرى سلسلة النقاشات التي يتألف منها الكتاب- تحدث في فندق خاص. الـ "أنا" في القصة تصفه كديمقراطي ويبدو كاثوليكياً أيضاً: يتقاسم طاولة العشاء معه شيوعي يهودي ومدير مدرسة له آراء تقدمية وقومي هندي ورجل أعمال وشاعر وصاحبة الفندق. الأسماء الثلاثة الأولى أدوات وثانويون بصراحة. من الجانب الآخر سمح لرجل الأعمال أن يبدي ومضات من الفطنة والمنطق، بينما كان الشاعر شخصية مبهمة يميل أحياناً إلى الوقوف مع الراوي. أما صاحبة الفندق فهي أنثى تشيسترتونية أنموذجية كونها تخلو من المنطق، لكنها تملك حكمة لا تتجاوز حكمة الذكر. بما أن الجدال يدور حول قضايا المؤسسات الحرة مقابل تلك التي تتحكم بها الدولة وتمديد سن ترك المدرسة، يستطيع القارئ المتمرس التنبؤ بمقدار كبير مما يقوله كل واحد من المتجادلين. مع ذلك حين يقارن المرء كتابه مع ما سبقه من الكتب منذ عشر أو عشرين سنة، لا يستطيع تفادي الدهشة من التراجع الذي أجبرت عليه النوعية المحافظة-استخدام هذه الكلمة بمعناها الواسع. السيد بورغان يدافع عن الرأسمالية وينفق براعة كبيرة في إظهار أن فرص بريطانيا في استرداد حصتها من الأسواق العالمية مع اقتصاد "حر" كانت أفضل من تأميم الصناعات. هو لا يتظاهر مثل تشيسترتون

بإمكانية العودة إلى العصور الوسطى، وأن الكتل الكبرى من الناس تتوق إلى ذلك. حتى إنه يدافع عن الإنتاج الكبير ويقبل بمبدأ الضمان الاجتماعي، لكنه يعارضه حين يكون إجبارياً. كما يعارض النظام التعليمي الموحد ورفع سن ترك المدرسة، لكنه من الجانب الآخر يريد إنفاق أموال أكثر على مدارس الأطفال، ولا يقول كما قال مفكرون مثله قبل قليل، بأن يكون للوالدين الحق بتعليم أو عدم تعليم أولادهم. في النتيجة، الكتاب معركة تراجعية -دفاعاً عن الماضي، لكنه ملهم بشعور أنه لم يبق الكثير للدفاع عنه والمحادثات يتبعها الأنموذج المعتاد: الشيوعي مخلوق بارد الدم يجر التلميحات إلى روسيا السوفييتية في كل جملة. مدير المدرسة متبجح. الهندي كتلة هائلة من الترفع الغامض والمظالم الخيالية حتى، رجل الأعمال عنيد وبراغماتي في خطه، مخدوع بمواعظ كاهن كانتربيري. بالنسبة إلى الراوي فهو أنموذج للفطنة والتعلم والعقلانية والتسامح والحس العام، وإن فشل أخيراً في تحويل الآخرين إلى اعتناق آراءه، فذلك بسبب عقولهم التي أفسدها مسبقاً التعليم الحديث.

إن المشكلة مع كل هذا النوع من الكتب هي النكد الدائم الناشئ من عدم امتلاك برنامج عملي وتقديمه. ربما كان السيد بورغان مدركاً لاستحالة العودة إلى الرأسمالية المتسامحة، كما أدرك تشيسترتون في لحظات استحالة العودة إلى الملكية الفلاحية. وعلى الأرجح أنه أدرك أيضاً عدم جدوى إخبار الناس بأن التعليم الإلزامي والضمان الاجتماعي الإلزامي والتحكم بالاستشارات وتوجيه العمل، يؤدي إلى العبودية بما أن الكتلة العظمى من الناس تفضل كثيراً العبودية على البديل.

إن العالم على الأرجح يسير في اتجاه محدد لا يحبه هو، لكنه عاجز عن التفكير باتجاه آخر يستطيع حث العالم فعلياً على السير فيه. لهذا يأخذ الخط الدفاعي السهل، وذلك في الإشارة إلى سخافات وفظاعات الفكر "المتقدم"، لكنه بهذه الوسائل لن يجعل كلاً من لا يتفق معه يفكر مرتين بالشيوعية والأنثوية (نظرية المساواة بين الجنسين) والإلحاد والسلمية (رفض الحرب) أو أي مدرسة فكرية أخرى لا يحبها السيد بورغان.

الأوبزيرفر ١٠فبراير/ شباط ١٩٤٦.

جورج غيسينغ

يعتقد جورج غيسينغ وروايات جورج غيسينغ، أن العصر الحالي أفضل من سابقه بكثير. لو ظل حياً لكان أصغر عمراً من برنارد شو، ومع ذلك فإن لندن التي كتب عنها تبدو أقدم من لندن التي كتب عنها ديكنز. إنها لندن المطوقة بالضباب، لندن الثمانينات المضاءة بمصابيح الغاز، مدينة المتزمتين الثملين التي تدنت فيها الثياب والهندسة المعمارية والأثاث ووصلت إلى حضيض القبح والتي كان فيها من العادي لعائلة من الطبقة العاملة مؤلفة من عشرة أشخاص أن تسكن في غرفة واحدة. بالمجمل غيسينغ لا يكتب عن أسوأ أعماق الفقر. لكن نادراً ما تستطيع أن تقرأ وصفه لحياة الفئات الدنيا من الطبقة الوسطى بالصدق الواضح لكآبتهم، من دون الشعور بأننا تقدمنا بشكل ملحوظ عن عالم المعاطف السود الذي يحكمه المال الذي كان موجوداً منذ ستين عاماً فقط.

كل شيء من أعمال غيسينغ -باستثناء كتاب أو اثنين كتبهما في أواخر حياته- يتضمن مقاطع لا تنسى. وكل من يتعرف عليه لأول مرة، قد يفعل أسوأ من البدء في **سنة الويبيل**. من المؤسف على كل حال أن يستهلك ورق لإعادة طبع اثنين من أعماله الثانوية (سنة اليوبيل والدوامة) في الوقت الذي باتت فيه الكتب التي ينبغي أن تذكر به عصية المنال تماماً منذ سنين. النساء الغريبات مثلاً كتاب نفذ من السوق تماماً. أنا أملك نسخة من إحدى الطبعات الرخيصة الرديئة الصغيرة بغلاف أحمر التي ازدهرت قبل حرب ١٩١٤ لكنها النسخة التي رأيتها أو سمعت بها قط. **شارع غراب جديد** نيو غرب ستريت، تحفة غيسينغ لم أنجح في شرائها قط، حين قرأتها كانت نسخاً ملوثة بالحساء مستعارة من مكتبات الإعارة العامة: والأمر هكذا مع ديموس، **العالم السفلي** ومع كتاب أو اثنين آخرين. بقدر ما أعرف فقط **الأوراق الخصوصية لهنري راكروفت**، الكتاب الذي عن ديكنز، و **صباح حياة** لم يطبعا مؤخراً أبداً. على كل حال، الاثنان اللذان أعيد طبعهما الآن يستحقان القراءة وخصوصاً في **سنة اليوبيل** وهو الأقذر لذلك الأميز. في مقدمته يلاحظ السيد ويليام بولمر "روايات غيسينغ عموماً تدور حول المال والنساء" والآنسة مايفانوي إيفانز تقول شيئاً مماثلاً جداً في

تقديم الدوامة. أعتقد أن المرء يستطيع توسيع التعريف ويقول إن روايات غيسينغ احتجاج ضد شكل من تعذيب الذات الذي يمر باسم الحشمة والاستقامة والمحترمية. كان غيسينغ رجلاً مولعاً بالكتب وربما متحضر زيادة يعشق الأشياء العتيقة، وجد نفسه محجوزاً في بلاد باردة دخانية بروتستانتية حيث من المستحيل أن تكون مرتاحاً دون حشوة سميكة من المال بينك وبين العالم الخارجي. يكمن خلف غيظه وتبرمه رأي يرى أن الكثير من الأشياء المرعبة في آخر إنكلترا الفيكتورية لم يكن ضرورياً. السخام والغباء والقبح والمجاعة الجنسية والفسق المختلس والسوقية وأنواع السلوك الرديئة والنقد اللاذع -هذه أشياء كانت غير ضرورية، بما أن البيوريتانية (التزمت) التي كانت هذه الأشياء بقايا منها، لم تعد تحافظ على تركيبة المجتمع. الناس الذين كانوا سعداء نوعاً ما، اختاروا أن يكونوا تعساء - من دون أن يصبحوا أقل كفاءة- بابتداع محرمات لا معنى لها ليرهبوا أنفسهم بها. كان المال شيئاً بغيضاً ومزعجاً لأنك تجوع من دونه؛ كان الأهم إذا لم تكن تملك قدراً كبيراً منه -٣٠٠ باوند سنوياً- فلن يسمح المجتمع لك أن تعيش بشكل لبق وهادئ. النساء كن مزعجات وبغيضات، لأنهن كن يؤمن بالمحرمات أكثر من الرجال حتى، ولازلن مستعبدات من قبل المحترمية حتى ينتهكنها. المال والنساء كانا الأداتين اللتين انتقم بهما المجتمع لنفسه من الشجعان والأذكياء. كان على غيسينغ أن يرغب في مال أكثر قليلاً لنفسه ولبعض الآخرين، لكنه لم يكن مهتماً كثيراً فيما يجب أن نسميه الآن عدالة اجتماعية. لم يعجب كثيراً بالطبقة العاملة ولم يؤمن بالديمقراطية. أراد ألا يتكلم لمصلحة الجماهير وإنما للإنسان الاستثنائي، الإنسان الحساس العزول وسط برابرة. في النساء الغريبات ليس هناك شخصية رئيسية واحدة حياتها لم تتدمر بسبب المال القليل جداً الذي لديها، أو في الحصول عليه في مرحلة متأخرة جداً من حياتها، أو بضغط التقاليد الاجتماعية السخيفة تماماً التي لا يمكن مخالفتها. امرأة عانس هرمة تتوج حياة عقيمة بالإدمان على الشراب؛ فتاة جميلة تتزوج رجلاً بعمر والدها، مدير مدرسة مكافح يؤجل الزواج من حبيبته حتى يصبحا في وسط عمريهما ويذبلان، رجل فرح وطيب يضايق حتى الموت من قبل زوجته؛ رجل ذكي بشكل استثنائي ونشيط جداً يضيع فرصته في زواج جسور وينتكس إلى العبث؛ في كل حالة، يكمن السبب النهائي للكارثة في الانصياع إلى مجموعة القواعد الاجتماعية المقبولة أو في عدم امتلاك مال كاف للتغلب عليه بالحيلة. حياة لها صباح، رجل

موهوب يقاسي الخراب والموت، لأن من المستحيل أن يتنقل في بلدة كبيرة من دون أن يضع قبعة على رأسه. طارت قبعته من النافذة حين كان مسافراً في القطار، ولأنه لا يملك مالاً كافياً لشراء واحدة أخرى، يختلس بعضاً من مال رب عمله، ما يجلب عليه سلسلة من الكوارث. هذا مثال جذاب عن التغيير في وجهة النظر التي تستطيع فجأة أن تجعل شيئاً ممنوعاً قوياً جداً يبدو سخيفاً. اليوم، إن استنبطت وسيلة تضيع فيها بنطالك، يمكنك اختلاس المال بدلاً من التنقل في سروالك الداخلي. في "الثمانينات" كان يفترض بالحاجة الملحة أن تكون مساوية في قوتها لحالة القبعة. حتى قبل ثلاثين أو أربعين سنة، كان الرجال الحاسرو الرؤوس يواجهون بصرخات الاستهزاء في الشارع. ثم وبلا سبب واضح أصبح عدم ارتداء القبعة محترماً، واليوم المأساة الخصوصية التي يصفها غيسينغ -مقبولة تماماً في سياقها- تكون مستحيلة تماماً.

الأكثر إثارة للإعجاب من كتب غيسينغ هو شارع غراب جديد. بالنسبة إلى كاتب محترف هو كتاب مزعج ومفسد للأخلاق، لأنه يعالج من بين أشياء أخرى المرض المهني المفزع جداً، العقم. لا شك أن عدد الكتاب الذين فقدوا قدرتهم على الكتابة فجأة ليس كبيراً، لكنها نكبة قد تحدث لأي أحد في أي لحظة مثل العجز الجنسي. غيسينغ يربطه طبعاً بمواضيع مألوفة -المال وضغط منظومة القواعد الاجتماعية وغباء النساء. إيدوين ريردون، روائي صغير-هجر عمله ككاتب في محل لتوه بعد أن حقق نجاحاً بالمصادفة برواية واحدة-يتزوج شابة فاتنة وذكية بشكل واضح، بدخل صغير خاص بها. هنا، وفي مكان أو اثنين، يقوم غيسينغ بما يسمى الآن ملاحظة غريبة أنه من الصعب لرجل مثقف غير غني أن يتزوج. ريردون ينجح في ذلك، لكن صديقه الأقل نجاحاً، الذي يسكن في علية ويساعد نفسه بدروس خصوصية ذات أجر زهيد قبل بالعزوبية كشيء مسلم به وطبيعي. لو نجح في إيجاد زوجة لنفسه كما أخبرنا، ستكون فتاة غير مثقفة من الأحياء الفقيرة. النساء النقيات والحساسات لن يجابهن الفقر. وهنا يلاحظ المرء مرة أخرى الاختلاف الكبير بين ذلك اليوم ويومنا نحن. لا شك أن غيسينغ محق في إدراج هذا في كتبه بأن النساء الذكيات حيوانات نادرة جداً، وإذا أراد المرء أن يتزوج من امرأة ذكية وجميلة يكون الخيار محصوراً أكثر، حسب قاعدة حسابية مشهورة؛ مثل السماح أن تختار فقط من بين النساء المهقاوات والشولاءات منهن. لكن ماذا تبين من معالجة غيسينغ لبطلته البغيضة وأخريات غيرها من نسائه، في زمنه،

أن فكرة العزوبية والنقاء وحتى الذكاء في حالة المرأة كان لا ينفصل عن فكرة المنزلة الاجتماعية الأعلى والبيئات المادية الباهظة. نوع المرأة التي يريد الكاتب أن يتزوجها كان أيضاً نوع المرأة التي ستنكمش إلى العيش في علية. حين كتب شارع جديد كادح ربما كان ذلك صحيحاً، ويمكن القول إنه ليس صحيحاً اليوم في اعتقادي. حالما تزوج ريردون أصبح واضحاً أن زوجته كانت مجرد متعجرفة، من نوع النساء اللواتي تكون "الأذواق الجمالية" عندهن ليست أكثر من غطاء للتنافس الاجتماعي. بزواجها من روائي ظنت أنها تتزوج من شخص سيصبح مشهوراً بسرعة وسيسقط المجد المنعكس عليها نفسها. ريردون رجل مولع بالدراسة، منكمش على نفسه غير فعال، أنموذجي لأبطال غيسينغ. لقد علق بشرك عالم مدع مترف يعرف أنه لن يقدر أبداً أن يحفظ نفسه فيه وتخونه قوته على الفور تقريباً. زوجته طبعاً ليس لديها أدنى فهم لما يعنيه إبداع أدبي. هناك مقطع رهيب -رهيب على الأقل، لكل واحد يكسب رزقه من الكتابة- تحسب فيه عدد الصفحات التي يمكن كتابتها في اليوم الواحد، ومن ثم عدد الروايات التي يتوقع من زوجها أن يكتبها في سنة -مع التفكير أنها فعلاً ليست مهنة مجهدة. الآن ريدرون أصابه الخرس. يوماً تلو الآخر يجلس إلى مكتبه؛ لا يحدث شيء ولا يخرج شيء. أخيراً، في حالة من الذعر يصنع قطعة من الهراء؛ قبل به ناشره متردداً لأن كتاب ريردون السابق كان ناجحاً. منذ ذلك فصاعداً بات عاجزاً عن إنتاج أي شيء يبدو أنه قد ينشر. لقد انتهى. الشيء المخيب أنه لو كان يستطيع العودة إلى مهنته ككاتب وعزوبيته، لكان ذلك جيداً. الصحفي القاسي والبليد الذي تتزوجه أرملة ريردون، تلخصه بدقة بالقول إنه نوع الرجل الذي أن ترك لنفسه سيكتب كتاباً جيداً تماماً كل سنتين. لكن طبعاً لم يترك لحاله. لا يستطيع العودة إلى مهنته القديمة ولا يستطيع أن يستسهل العيش على نقود زوجته: الرأي العام الذي يعمل ويؤثر من خلال زوجته، ينهكه إلى حالة من العجز الجنسي وأخيراً إلى المقبرة. أغلب الشخصيات الأدبية الأخرى في الكتاب ليست أفضل حظاً، والمشاكل التي تزعجهم تشبه كثيراً مشاكل اليوم. لكن على الأقل من غير المحتمل أن الكارثة الرئيسية للكتاب ستحدث الآن بنفس الطريقة أو لنفس تلك الأسباب. لو جعلت زوجة ريدرون الحياة تطاق من أجل زوجها، لكانت أقل حماقة، وكانت الوساوس التي تنتابه أقل حول تنزهها في الخارج لوحدها. امرأة من أنموذج مماثل تظهر في الدوامة بشخص ألما فوثنغهام.

بالمقارنة هناك الآنسات فريتشيز الثلاث في **سنة اليوبيل** اللواتي يمثلن أدنى الطبقة الوسطى الصاعدة-طبقة حسب غيسينغ كانت تحصل المال والقوة اللتين لم تكن مهيأة لاستخدامها- واللواتي كن فظات، ومشاكسات وسليطات وغير أخلاقيات بشكل مدهش تماماً. من الوهلة الأولى تبدو نساء غبسينغ "الشبيهة بالسيدة" و"غير الشبيهة بالسيدة" مختلفات وحتى كنوعين متعاكسين من الحيوانات، وهذا يبدو يبطل شجبه الضمني للجنس الأنثوي عموماً. لكن الحلقة الواصلة بينهما أنهن كلهن محدودات التفكير والأفق بشكل بائس. حتى الذكيات والنشيطات منهن، مثل رودا في **النساء الغريبات** (عينة ممتعة من النيو ومان) لا يستطعن التفكير في العموميات ولا يستطعن التخلص من المعايير الجاهزة المبتذلة. يبدو أن غيسينغ يشعر في فؤاده أن النساء مخلوقات أدنى بالفطرة. يريدهن أن يتثقفن أكثر، لكن من جانب آخر لا يريدهن أن يمتلكن الحرية التي سيسئن استخدامها بالتأكيد. في المجمل أفضل النساء في كتبه هن الخجولات الذليلات ربات البيوت. هناك كتب كثيرة لغيسينغ لم أقرأها أبداً، لأنني لم أستطع الحصول عليها، وتشمل للأسف **ولد في المنفى** التي قال عنها بعض الناس إنها أفضل كتبه. لكن من قوة **شارع غراب جديد** و**ديموس** و**النساء الغريبات** أنا مستعد لأقول إن إنكلترا أنتجت قلة قليلة من الروائيين الأفضل. هذا ربما يبدو مثل بيان متهور حتى يتوقف المرء ليفكر ملياً ما المقصود بالرواية. كلمة "رواية" تستخدم عادة لتغطي أي نوع من القصص تقريباً-**الثعلب الذهبي** و**آنا كارينينا** و**دون كيشوت** و**المرتجل** و**مدام بوفاري** و**مناجم الملك سليمان** أو أي شيء آخر تحبه -ولكنها أيضاً لها معنى أضيق تعني فيه شيئاً قلما يوجد من قبل القرن التاسع عشر وازدهر بشكل أساسي في روسيا وفرنسا. الرواية بهذا المعنى قصة تحاول أن تصف كائنات بشرية معقولة و-بدون استخدام تكنيك المذهب الطبيعي بالضرورة- لتظهرها تعمل وتتصرف بدوافع يومية وليس فقط أن تقاسي جلدات سيور مغامرات غير محتملة. الرواية الحقيقية، بالالتزام بهذا التعريف، ستحتوي أيضاً على الأقل شخصيتين وربما أكثر، توصفان من الداخل وبنفس المستوى من الاحتمالية -التي بالنتيجة تقصي الروايات المكتوبة في الشخص الأول. إن قبل المرء بهذا التعريف، يبدو ظاهراً أن الرواية ليست شكلاً فنياً تفوقت فيه إنكلترا. الكتاب الذين صنفوا عادة كـ"روائيين عظام" لديهم طريق ليبدوا إما ليسوا روائيين حقيقيين أو ليسوا إنكليز.

لم يكن غيسينغ كاتب حكايات عن المتشردين أو محاكاة ساخرة أو مسرحيات هزلية أو كراسات سياسية: كان مهتماً بكائنات بشرية فردية. والحقيقة أنه استطاع التعامل بتعاطف مع مجموعات مختلفة كثيرة من الدوافع، وصنع قصة معقولة من التصادم بينها جعلته استثنائياً بين الكتاب الإنكليز.

بالتأكيد ليس هناك الكثير مما يسمى عادة بالجمال والغنائية الشعرية في الأوضاع والشخوص التي اختار تخيلها، وأقل منه كذلك في بنية كتابته. نثره في الحقيقة مقرف غالباً. هذان مثالان اثنان:

ليس بالحصانة بمقدور تفكيرها أن يعود نفسه على الشرود في مناطق محرمة مهما كان تصميمها قوياً لتبقى جسدياً بعيداً. "الدوامة"

عدم كفاءة النساء الإنكليزيات غير المثقفات في كل يتعلق بملابسهن وزينتهن، حقيقة لا تقبل الشرح المفصل (في سنة اليوبيل)

على كل حال هو لم يرتكب الأخطاء المهمة فعلاً. كان قصده واضحاً دائماً، هو لم "يكتب من أجل التأثير". هو يعرف المحافظة على التوازن بين السرد والحوار وكيف يجعل الحوار يبدو مرجحاً، بينما لا يباين بحدة شديدة مع النثر الذي يطوقه. غلطة أخطر من أسلوبه غير الأنيق في الكتابة هي صغر مداه في التجربة. لم يطلع إلا على بضع طبقات من المجتمع. وبالرغم من فهمه القوي لضغط الظروف على الشخصية، لا يبدو أن لديه إدراكاً قوياً بالقوى السياسية والاقتصادية. بطريقة معتدلة وجهة نظره رجعية، من انعدام البصيرة أكثر من المشاعر السيئة. لأنه أجبر على العيش وسطهم، اعتبر الطبقة العاملة همجيين. وفي قوله هكذا كان مجرد كائن صادق فكرياً؛ لم يرَ أنهم كانوا قادرين على أن يكونوا متحضرين إن أعطوا فرصاً أفضل قليلاً. لكن أخيراً ما يطلبه المرء من الروائي ليس النبوءة وجزء من سحر غيسينغ، إنه ينتمي بشكل واضح إلى عصره، رغم أن عصره عامله بطريقة سيئة.

الكاتب الإنكليزي الأقرب لغيسينغ يبدو أنه معاصره أو شبه معاصره مارك رذرفورد. لو جدول المرء صفاتهما البارزة، يبدو الرجلان مختلفين جداً. كان مارك رذرفورد كاتباً أقل خصباً من غيسينغ وكان أقل وضوحاً كروائي، كتب نثراً أفضل بكثير، كتبه تنتمي بشكل أقل تميزاً

إلى أي عصر محدد. وكان في وجهة نظره مصلحاً اجتماعياً والأهم هو بيوريتاني (متزمت). مع ذلك هناك شبه دائم، ربما يفسر بحقيقة أن كلا الرجلين ينقصهما تلك اللعنة التي تصيب الكتاب الإنكليز "إحساس بالفكاهة". قدر محدد من الكآبة وجو من العزلة مشترك عندهما. هناك طبعاً مقاطع هزلية في كتب غيسينغ، لكنه غير مهتم أساسا بالحصول على الضحك - الأهم، ليس لديه باعث نحو المحاكاة الساخرة. يعامل شخصياته الرئيسية بجدية تقريباً وبمحاولة في التعاطف على الأقل. أي رواية ستحتوي بشكل حتمي على شخصيات ثانوية، هي مجرد شخصيات غريبة مضحكة أو تلاحظ في روح معادية صرفة، لكن هناك شيئاً مثل النزاهة، وغيسينغ أبرع فيها من الأكثرية العظمى من الكتاب الإنكليز. لديه اشمئزاز عميق من قبح وخلاء وقسوة المجتمع الذي عاش فيه، لكنه كان مهتماً بوصفه بدلاً من تغييره. ليس في كتبه ما يمكن أي أحد من أن يشير إليه كوغد وحتى حين يكون هناك وغد لا يعاقب. في معالجته للقضايا الجنسية، يكون غيسينغ صريحاً بشكل مدهش، بالنظر إلى الزمن الذي كان يكتب فيه. لا يعني هذا أنه يكتب قصصاً إباحية أو يعبر عن موافقته على الاتصال الجنسي غير الشرعي، لكن ببساطة هو راغب في مواجهة الحقائق. القانون غير المكتوب للأدب القصصي الإنكليزي، القانون أن البطل والبطلة أيضاً في الرواية يجب أن يكونا عذراوين حين يتزوجان، قد أهمل في كتبه لأول مرة منذ فيلدينغ. كأغلب الكتاب الإنكليز الذين أتوا بعد منتصف القرن التاسع عشر، لم يستطع غيسينغ أن يتخيل أي قدر مرغوب سوى أن يكون كاتباً أو جنتلمان الفراغ. الانقسام الثنائي بين المثقفين وضئيلي الثقافة موجود مسبقاً، والشخص القادر على كتابة رواية وفورة لن يقدر أن يتصور نفسه راضياً تماماً بحياة رجل أعمال أو جندي أو سياسي أو ما شابه. غيسينغ لم يرد بشكل مدرك أن يكون نوع الكاتب الذي كان عليه حتى. مثله الأعلى، بدل المثل السوداوي، أن يملك دخلاً متوسطاً ويعيش في بيت صغير مريح في الريف، بفضل أن يكون غير متزوج حيث يمكنه الانغماس في الكتب خصوصاً الروائع الإغريقية واللاتينية. كان يمكن أن يحقق هذا المثل لو لم ينجح في إدخال نفسه إلى السجن مباشرة بعد الفوز بمنحة أكسفورد الدراسية: كما حدث، أمضى حياته فيما بدا له عملاً مبتذلاً. وحين وصل إلى النقطة التي استطاع التوقف عن الكتابة ضد الوقت أخيراً، مات على الفور تقريباً بعمر خمس وأربعين سنة فقط. موته كما وصفه جي اتش ويلز في كتابه تجربة في

سيرة ذاتية كان قطعة من حياته. العشرون رواية التي كتبها التي أنتجت بين ١٨٨٠ و١٩٠٠ عصرت منه أثناء صراعه نحو فراغ لم يستمتع به أبداً والذي لم يكن يستخدم لمنفعة جيدة لو أنه حازه: لأنه من الصعب التصديق أن مزاجه مهيأ لحياة بحث أكاديمي. ربما الجذب الطبيعي لمواهبه كان قد شده نحو كتابة الروايات عاجلاً أو آجلاً. لو لم، يجب أن نكون شاكرين لجزء الحماقة الشبابية التي حرفته بعيداً عن سيرة طبقة وسطى مريحة، وأجبرته على أن يصبح مؤرخاً للسوقية والفساد والفشل.

مراجعة الضابط البروسي
وقصص أخرى لدي اتش لورانس

يجب ألا تكون المراجعات النقدية من ذكريات شخصية، لكن ربما يجدر بي أن أسجل كيف تعرفت فيها على أعمال دي اتش لورانس لأول مرة، فقد حدث أن قرأته قبل أن أسمع به، والصفات التي أثرت بي ربما كانت الجوهرية منها.

في ١٩١٩ دخلت إلى مكتب مدير مدرستي لغرض، وعندما لم أجده التقطت مجلة ذات غلاف أزرق كانت على الطاولة. كنت في السادسة عشرة ومنغمس في الشعر الجورجي. كانت فكرتي عن القصيدة الجيدة قصيدة روبرت بروك "غرانتشيستر". حالما فتحت المجلة، غمرتني قصيدة تصف امرأة واقفة في المطبخ تراقب زوجها الذي كان يقترب عبر الحقول. في الطريق أخرج أرنباً من المصيدة وقتله. ثم دخل وألقى بالأرنب على الطاولة، وكانت رائحة فراء الأرنب النتن بيديه، لكنها بلعت هذا منه وتأثرت بـ "جمال الطبيعة" الذي شعر به لورانس بعمق، والذي كان قادراً على أن يفتحه ويغلقه مثل صنبور أكثر من اللقاء الجنسي وخصوصاً البيتين (يشيران إلى زهرة):

بعدئذ ستكشف عن صدرها الساطع/ وتهب قطرة عسلها لعشيقها.

لكنني فشلت أن لاحظ اسم المؤلف أو حتى المجلة التي يفترض أنها الإنكليش ريفيو.

بعد أربع أو خمس سنوات، وكنت لاأزال لم أسمع بلورانس، حصلت على مجلد من القصص القصيرة طبعته بنغوان الآن. أثر بي بعمق كل من "الضابط البروسي" و"شوكة في اللحم". لم يكن الذي جذبني بقوة أكثر من رعب لورانس وكرهه للانضباط العسكري، هو فهمه لطبيعته. أخبرني شيء ما أنه لم يكن جندياً أبداً، ومع ذلك استطاع أن يعرض نفسه في جو جيش، جيش ألماني بالضبط. تصورت أنه كوّن هذا من مراقبته لبضعة جنود ألمان يتمشون في حامية إحدى البلدات. من قصة أخرى "الجورب الأبيض" (أيضاً في هذه المجموعة لكن أعتقد أنني قرأتها لاحقاً) استنتجت المغزى وهو أن النساء يتصرفن بشكل أفضل لو تلقين

لكمة على الفك من حين إلى آخر. من الواضح وجود أشياء أكثر من هذا عند لورانس، لكن هذه التأثيرات الأولى تركت في نفسي صورة حقيقة عامة له. كان في الأساس شاعراً غنائياً ولديه حماس منفلت "للطبيعة" أي سطح الأرض التي كانت إحدى صفاته الرئيسية، لكنها لوحظت أقل من انشغاله بالجنس بكثير. وفوق كل هذا لديه قوة في فهم أو التظاهر بفهم أناس مختلقين عن نفسه كالمزارعين وحراس الطرائد ورجال الدين والجنود-ويمكن إضافة عمال المناجم. ورغم أن لورانس عمل في الحفرة في عمر الثالثة عشرة، إلا أنه من الواضح لم يكن عامل منجم أنموذجي. قصصه نوع من قصيدة غنائية، تنتج بمجرد النظر إلى كائن بشري غريب مبهم، وفجأة يكتشف رؤية تخيلية مكثفة لحياته الداخلية. كما أن صحة هذه الرؤى شيء قابل للنقاش. مثل بعض الكتاب الروس من القرن التاسع عشر، دائماً تقريباً يبدو لورانس يتفادى مشكلة الروائي بجعل كل شخصياته حساسة بالتساوي. كل الناس في قصصه حتى العدائي تجاههم، يبدون يجربون نفس العواطف، كل واحد يستطيع التواصل مع أي واحد آخر. والعوائق الطبقية، بالشكل الذي نعرفها فيه، ملغاة تقريباً. مع ذلك يبدو أنه يمتلك قدرة غير عادية على معرفة الشيء بشكل تخيلي ما لم يستطع معرفته بالمراقبة. في مكان ما في أحد كتبه يلاحظ أنه عندما تطلق النار على حيوان بري، فإن العملية ليست مثل عند الإطلاق على هدف. أنت لا تنظر إلى العابر بموازاة المشاهد: أنت تسدد بحركة غريزية لكل الجسد، كما لو أن رادتك ستقود الطلقة إلى الأمام. هذا صحيح تماماً، وأنا لا أعتقد أن لورانس أطلق النار قط على حيوان بري. أو تأمل منظر الموت في نهاية "إنكلترا إنكلترتي" (التي ليست في هذه المجموعة لسوء الحظ). لورانس لم يكن أبداً في ظروف مشابهة لتلك التي يصفها. لديه فقط رؤية خاصة به لمشاعر الجنود تحت النار. ربما هي حقيقة يجربها المرء وربما لا؛ لكنها على الأقل حقيقية عاطفياً، ولذلك مقنعة. مع بضع استثناءات فإن روايات لورانس من الحجم الطبيعي معترف بها عموماً وصعب هضمها. في القصص القصيرة ليست أخطاؤه ذات أهمية كبيرة، لأن القصة القصيرة يمكن أن تكون غنائية صرفة، بينما الرواية تضع في حسابها الاحتمالية ويجب أن تبنى بدم بارد. في الضابط البروسي هناك قصة طويلة نوعاً ما جيدة بشكل رائع اسمها "بنات الكاهن". كاهن إنجليكاني من أنموذج الطبقة الوسطى العادية، وضع في وضع يائس في قرية تعدين، حيث هو وعائلته شبه جياع على معاش صغير جداً وحيث ليس

له أي وظيفة، جماعة التعدين ليسوا بحاجة إليه ولم يتعاطفوا معه. في العائلة المفقرة الأنموذجية من الطبقة الوسطى التي تربى فيها الأطفال بوعي كاذب بالتفوق الاجتماعي، يرمى عليهم مثل كرة وقيد. تنشأ المشكلة المعتادة: كيف ستتزوج البنات؟ الابنة الكبرى تحظى بفرصة زواج من رجل دين ثري نسبياً. صدف أن كان قزماً يعاني من مرض داخلي وهو مخلوق غير إنساني تماماً، أشبه بطفل بغيض نضج قبل أوانه وأصبح رجلاً. لقد فعلت الشيء الصحيح بمعايير أغلب العائلة: لقد تزوجت من جنتلمان. الابنة الأصغر، التي لم يهمها التكبر، تلقي بهيبة العائلة جانباً وتتزوج من عامل منجم شاب سليم البنيان. يتضح أن هذه القصة فيها شبه قريب من عشيق الليدي تشاترلي. لكن برأيي إنها أفضل بكثير وأكثر إقناعاً من الرواية، لأن الحافز المتخيل الوحيد قوياً بما يكفي ليمدها بالحياة. ربما راقب لورانس في مكان ما أو آخر ابنة كاهن كانت تعاني من سوء تغذية، وعازفة أرغن مضطهدة تفني شبابها وفكرت برؤيا مفاجئة عن فرارها إلى عالم الطبقة العاملة الدافئ؛ حيث الأزواج متوفرين بكثرة. إنه موضوع مناسب لقصة قصيرة، لكن حين تمده إلى طول رواية تنشأ صعوبات أمام لورانس وهو غير كفؤ لها. في قصة أخرى في هذا الكتاب "ظلال الربيع" هناك حارس طرائد يقدم كمخلوق طبيعي بري، النقيض للمثقف الواعي. مثل هذه الأشكال تظهر مرة تلو أخرى في كتب لورانس، وأعتقد أنه من الصحيح القول إنها مقنعة أكثر في القصص القصيرة؛ حيث ليس علينا أن نعرف عنهم أكثر مما نعرفه عنهم في الروايات (مثلاً، عشيق الليدي تشاترلي أو المرأة التي رحلت بعيداً رود أواي) لكي تهيأ للفعل، يجب أن تقدم بأفكار معقدة تدمر منزلتها كحيوان صرف. ارحل رود أواي، قصة أخرى "رائحة الأقحوان" تتعامل مع عامل منجم في حادث حفرة. هو سكير، وحتى لحظة موته لم ترد زوجته شيئاً أكثر من التخلص منه. فقط حين كانت تغسل جسده الميت، رأت كما لو كان لأول مرة كم هو جميل. ذاك هو النوع من الشيء الذي يستطيع لورانس فعله. وفي الفقرة الأولى من القصة هناك مثال رائع عن قدرته على الوصف البصري. لكن لا يمكن للمرء أن يجعل من هكذا حدث رواية بالحجم الطبيعي ولا من سلسلة من هكذا أحداث من دون مكونات نثرية أخرى.

تريبيون ١٦ نوفمبر ١٩٤٥.

أدب الكراريس

لا يستطيع المرء مراجعة خمسة عشر كراساً يتألف واحدها من ألف كلمة كما يجب وانتقيت ذلك العدد، لأنها تمثل فيما بينها اصطفاء لثمان نزعات من أصل تسع في أدب الكراريس الراهن. (النزعة المفقودة هي السلمية- رفض حمل السلاح: ليس في متناول يدي كراسة سلمية حديثة) جدولتها تحت عناوين مفصولة مع تعليق قصير قبل محاولة شرح بعض ميزاتها في انتعاش أدب الكراريس خلال السنوات الأخيرة.

١- **المعادية لليسار والأعضاء السريون النازيون؛** عالم الجنود الجديد. (عنوان فرعي، كراس ضد المنشقين كتب في مخيم؛ هذا يضرب رفيعي الثقافة بعنف ويثبت أن الرجل العادي لا يريد العبارة الأساسية للاشتراكية: إن الأذكياء لن يتعلموا أبداً الابتهاج بأشياء بسيطة. غولانكز في أرض العجائب الألمانية (فانسيتارتايت). نظام عالمي أم خراب عالمي. ٦ (ضد التخطيط؛ جي اتش كول مدمر).

٢- **محافظون؛** آمر القاذفة يستمر. ٧ دي. (أنموذج جيد، الكراس الرسمي).

٣- **الديمقراطيون الاشتراكيون؛** قضية النمسا. ٦ دي. (نشرته حركة التحرر النمساوية).

٤- **الشيوعيون؛** أزيلوا عملاء هتلر. ٢ دي (عنوان فرعي، كشف للفوضى التروتسكية المنظمة في بريطانيا، أكذوبة بكل استثنائي).

٥- **التروتسكيون والفوضويون؛** ثورة كرونشتادت ٢ دي (كراسة فوضوية غالبها هجوم على تروتسكي).

٦- **الراديكاليون غير الحزبيين؛** ما هو العيب الذي يعاني منه الجيش؟ ٢دي (هوريكان بوك، وثيقة ذات معلومات جيدة ومكتوبة بشكل جيد ضد البليمبس). جيمس بلونت ٦ دي المخيف الطيب، أسست على الافتراض المبرر أن معظم الشعب الإنكليزي لم يسمع بعد بالفاشية. عراك العمالقة. غير مسعرة، ربما ٦ دي نوع ممتع من الأدب، الحب للروس غير الشيوعيين.

٧- **الدينيون**، رسالة إلى كاهن ريفي ٢ دي كراريس فابيان، (إنجليكاني يساري) مقاتلون إلى الأبد ٦ دي (بوشهان مصححة).

٨- **المجانين**، قدر بريطانيا الانتصار أو لن تظل الاستقامة الأخلاقية في الجانب المدافع ٦ دي.(إسرائيل البريطانية مزينة بإفراط). متى تغزو روسيا فلسطين ١ اس إسرائيل البريطانية المؤلف ايه جيه فيريس، بي ايه كتب سلاسل طويلة من الكراريس عن مواضيع القرابات، بعضها حظي بمبيعات ضخمة. كراسته حين تقصف روسيا ألمانيا نشرت في عام ١٩٤٠ بيع منها ٦٠ ألف نسخة. قصة هتلر وبرنامجه لفتح إنكلترا لـ "سيفيس بريتانيكوس سوم" ١ اس (مقطع عينة: شيء عظيم أن تلعب اللعبة وتعرف أن ذلك الواحد يعلبها. ثم حين يأتي اليوم تسحب تلك البقايا وتطلق الصافرات لآخر مرة): "الهداف العظيم سيأتي ليكتب ضد اسمك، ليس إن كنت فزت أم خسرت وإنما كيف لعبت اللعبة"

هذه القلة القليلة التي ذكرتها مجرد نقطة في محيط من أدب الكراسات، ومن أجل إعطاء أنموذج دقيق ضمنت أعداداً كثيرة يحب القارئ العادي السماع بها. أي استنتاجات يمكن استخراجها من هذا المثال الصغير؟ الحقيقة المشوقة، التي ليس من السهل تعليلها، أن تأليف الكراريس انتعش على صعيد واسع منذ عام ١٩٣٥ وتنامى بهذا الشكل بدون أن ينتج أي قيمة حقيقية. مجموعتي التي صنعتها في الست سنوات الماضية، تصل إلى مئات كثيرة، لكنها لا تشكل بأي شكل عشرة بالمئة من النتاج الكلي. بعض من هذه الكراريس فاز بمبيعات هائلة خصوصاً الدينية- الوطنية مثل كراريس السيد فيريس وكراريس بي ايه والكراريس الفضائحية مثل وصية هتلر الأخيرة وميثاقه، التي بيع منها ملايين كثيرة كما قيل. الكراريس السياسية المباشرة تباع أحياناً بأعداد كبيرة، لكن انتشار وتوزيع أي كراسة تعبر عن "خط الحزب" (أي حزب) قد يكون الرقم كاذب. بتفحص مجموعتي وجدتها كلها هراء عملياً وليست مشوقة إلا بمسرد المراجع المثبتة. رغم ذلك صنفت الكراريس الحالية تحت تسعة عناوين، ويمكن تقليلها إلى مدرستين رئيسيتين، أخيراً يمكن وصفها عموماً بخط الحزب وعلم التنجيم. هناك هراء استبدادي وهراء البارانويا (جنون الاضطهاد) لكن في كل من الحالتين مجرد هراء. حتى الكراريس الفابية الحسنة الاطلاع هي بلادة مفرطة بالنظر إليها كمادة للقراءة. أنشط الكراريس دائماً هي الكراريس غير الحزبية، ومثال جيد عنها **باركهم كلهم** التي يجب أن تعتبر كراسة رغم

أنها تكلف شلناً ونصف الشلن. سبب سوء الكراريس المعاصرة مذهل نوعاً ما، هو أن الكراسة يجب أن تكون الشكل الأدبي في عصر كعصرنا. نحن نعيش في زمن تتزايد فيه الانفعالات السياسية وتتضاءل قنوات التعبير الحر ويتواجد الكذب المنظم بمقياس لم يعرف من قبل. سد الثقوب في تاريخ الكراسات هو الشكل المثالي. مع ذلك فإن الكراريس النشطة قليلة جداً، والتفسير الوحيد الذي أستطيع تقديمه- تفسيراً أعرج- أن تجارة النشر والصحف الأدبية لم تتجشم عناء جعل الجمهور القارئ مدركاً للكراريس. إحدى صعوبات جمع الكراريس أنها لا تنشر بأي طريقة نظامية، ولا يمكن الحصول عليها حتى في مكتبات المتاحف، ونادراً ما يعلن عنها وقلما تراجع. الكاتب الجيد الذي لديه شيء يريد قوله بحماس -وجوهر تأليف الكراريس هو أن يكون لديك شيء تريد أن تقوله الآن، إلى أكبر عدد ممكن من الناس- سيتردد بأن يرميه في شكل كراسة، لأنه لن يعرف كيف سينشرها، وسيشك إن كان الناس الذين أراد أن يصلهم سيقرؤونها. ربما يخفف فكرته إلى مقالة صحيفة أو يزيدها ويضمها إلى كتاب. في النتيجة، من المؤكد أن العدد الأكبر من الكراريس تكتب إما بواسطة مجانين وحيدين ينشرون على حسابهم أو ينتمي إلى عالم الأديان غريبة الأطوار أو تنشر من قبل الأحزاب السياسية. الطريقة العادية لنشر كراسة هي من خلال حزب سياسي، والحزب سيتعامل معها دون أي "انحراف"- ولهذا أي قيمة أدبية- يجب أن تقصى. كان هناك عدد قليل من الكراسات الجيدة في السنوات الحديثة نوعاً ما. كراسة دي إتش لورانس الفن الإباحي والفحش، كانت واحدة، وبوتوكي دي مونتوك غطرسة وعنف واحدة أخرى، وبعض من مقالات ويندهام لويس في ذا إنيمي تأتي ضمن هذا العنوان. في الوقت الراهن العلامة الأقوى الباعثة للأمل هي ظهور الكراسة اليسارية غير الحزبية، مثل ذا هريكين بوكس. إذاً نتاجات هذا النوع كانت موضوع اهتمام من الصحافة كالروايات وكتب الشعر، شيء ما يفترض أن يعمل بخصوص إعادة الكراسة إلى انتباه جمهورها الصحيح ومستوى النوع برمته سيرتفع. حين يفكر المرء كم هو مرن شكل الكراسة يكون وكم الحاجة ماسة لتوثيق أحداث زمننا، هذا شيء يكون مطلوباً ومرغوباً.

نيوستيتمان ونيشن

٩ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٣

الذي توثق فيه أحداث زمننا الأخيرة.

مراجعة السيف والمنجل

يوجد سلاح وحيد لا يستطيع أعداؤنا استخدامه ضدنا، ألا وهو اللغة الإنكليزية. هناك عدد من اللغات ينطق بها عدد أكبر من الناس، لكن ليس هناك لغة أخرى تزعم أنها لغة عالمية وشائعة. إن المدراء اليابانيون في الفيليبين والمفوضون الصينيون والقوميون الهنود في برلين، كلهم مجبرون على القيام بأعمالهم باللغة الإنكليزية، لذلك بالرغم من أن رواية السيد أناند تظل ممتعة بفضل مزاياها الخاصة بها، إلا أنه لو كتبها كاتب إنكليزي يستحيل أن تقرأها دون أن تتذكر في كل بضع صفحات أنها شذوذ فكري. إن نمو الأدب الهندي المكتوب باللغة الإنكليزية ظاهرة غريبة، وسيكون لها أثر هام على عالم ما بعد الحرب إن لم يكن على نتيجتها نفسها.

إن الرواية نفسها محاكاة لرواية **القرية** ورواية **عبر المياه السوداء**. الصبي السيخي الذي حارب في فرنسا وأمضى سنوات سجيناً في ألمانيا يعود إلى وطنه، ليجد نفسه ضحية خداع، ولم يحصل على المكافأة التي تخيل أنه كان يقاتل من أجلها. وتعالج بقية الرواية حركة الفلاحين وبدايات الحزب الشيوعي الهندي. الآن، إن أي كتاب عن الهند يكتبه هندي في هذا الوقت من شبه المستحيل أن يتجنب قصة الشكوى والمظلمة. ولاحظت أن السيد أناند قد ورط نفسه فيها وصفه بشكل خاطئ مرارته. في الحقيقة نقص المرارة النسبي في الكتاب طريقة ملتوية لإظهار الضمير الإنكليزي السيئ تجاه الهند. ما الذي تتوقع أن تجده في رواية لها نفس الموضوع لكاتب إنكليزي؟ نكران مازوشي لعرقه وجنسه وسلسلة من الكاريكاتورات للمجتمع الأنغلوهندي بحياة النادي التي لا تطاق والويسكي إلخ. لكن في المشهد كما يراه الهندي، قلما يدخله الإنكليزي. هم دائماً مجرد شر دائم، شيء مسلم به تقريباً، مثل المناخ، ولكن الهدف النهائي هو التخلص من الحكم البريطاني تقريباً ثم نسيانه وسط صراعات داخلية ضروسة بين الثوار أنفسهم. نادراً ما تظهر الشخصيات الإنكليزية في القصة -تذكر أن في الهند هناك شخص أبيض واحد مقابل كل ألف. لا يمكن القول إنهم يعاملون بطريقة أسوأ من الشخصيات الأخرى ولا يقابلون بتعاطف أيضاً، فرسم الشخصيات فظ وقاطع بالمجمل (نعطي مثالاً واحداً، وصف رأس السيد غاندي بأنه يشبه يقطينة أرجوانية نيئة)

والكتاب مملوء بالكآبة الهندية والمشاهد المنحطة القبيحة التي تهين العين كل الوقت في البلدان المفقرة في الشرق. رغم أنها تنتهي بملاحظة متفائلة نسبياً، فإن هذه الرواية لا تكسر القاعدة في أن الكتب التي تكتب عن الهند توقع الكآبة على النفس. ربما يجب عليها أن تكون هكذا. بمعزل تام عن علامة الاستفهام التي تثيرها في الضمير الإنكليزي، تبقى مشكلة الهند الجوهرية، الفقر بلا حلّ. إلى أي مدى يتناسب الأدب الهندي المكتوب باللغة الإنكليزية مع موضوعه الأساسي، هذا غير مؤكد. لكن عند قراءة كتاب السيد أناند وأحمد علي وآخرين كثيرين، من الصعب ألا تشعر هذه المرة بلهجة أخرى مشابهة للهجة الايرلندية- الإنكليزية بازدياد. اقتباس واحد يفي للإيضاح:

"مدركاً مسؤوليته عن المغامرات الفاشلة التي قادهم إليها، انحنى لالو وتحفز لرفع الأجساد الميتة بيدين مرتجفتين. انطلقت رائحة الجسد المتفسخ في منخريه من جثة شاندرا، وكانت يداه ملطختين بدم عنق نادو. جلس وتخيل أن الرائحة هبة كريهة لبكتريا متعفنة من خضرة الغابة التي أتوا منها. لكنه حين انحنى نحو الأسفل مرة أخرى، لم يكن هناك خداع، وبان أنها رائحة الجثة النتنة. وبسرعة أدرك، على الرغم من أن دم نادو كان حاراً الآن، أنه سيبرد قريباً وتتعفن الجثة لو حملت وقطعت الطريق إلى الله آباد.

توجد نكهة غير إنكليزية في عبارة "انطلقت إلى منخريه"، ومع ذلك إنها عمل رجل لم يكن مرتاحاً باللغة الإنكليزية فقط، وإنما اختار التفكير بها أيضاً. مما يطرح السؤال عن مستقبل الأدب الأنغلوهندي. في الوقت الحاضر، اللغة الإنكليزية لغة التجارة والأعمال في الهند: خمسة ملايين هندي ضليعون باللغة الإنكليزية وملايين أكثر يتكلمون نسخة ممذوقة منها، وهناك صحافة هندية هائلة باللغة الإنكليزية، والمجلة الإنكليزية المخصصة للشعر يحررها هنود. وسطياً يكتب الهنود الإنكليزية ويلفظونها.

يعرف من يتعامل مع الدعاية أن تبدلاً مفاجئاً في المشهد الهندي حدث فور دخول اليابانيين الحرب. العديد من المثقفين الهنود وربما أكثرهم يؤيدون اليابانيين في عواطفهم، ويرون أن بريطانيا هي العدو، أما الصين فلا تعني لهم شيئاً، والاتحاد السوفييتي كلام كاذب ومداهنة فقط. لكن هل ترغب الإنتلجنسيا الهندية المعادية لبريطانيا فعلاً أن ترى الصين مستعبدة دائماً والاتحاد السوفييتي مدمراً وأوروبا معسكر اعتقال نازي؟ كلا. هذا ليس عادلاً.

إنها مجرد وطنية الشعوب المهزومة التي تكون انتقامية بالضرورة وقصيرة النظر. لو ناقشت هذه المسألة مع هندي، ستحصل على جواب كهذا: نصفي اشتراكي ولكن نصفي الآخر وطني. أعرف ما تعنيه الفاشية وأعرف جيداً أنني يجب أن أقف في صفكم، لكنني أكره شعبكم كثيراً، وإن استطعنا التخلص منه، فلا يهمني ما يحدث لهم بعد ذلك. هناك لحظات أريد فيها أن أرى الصين واليابان والهند تتحد معاً وتدمر الحضارة الغربية، ليس في آسيا فقط، بل في أوروبا. هذا الرأي واسع الانتشار وسط الشعوب الملونة وجذوره العاطفية واضحة، تخفيه الأقنعة وتخترقه الرؤية بسهولة، لكنه موجود ويحتوي على خطر كبير علينا وعلى العالم. الرد الوحيد على الإشفاق على الذات والكره العرقي الشائعين وسط الهنود، هو أن نشير ونوضح أن الآخرين بالإضافة إلى الهنود مضطهدين. الرد الوحيد على الشعور القومي هو الاشتراكية الدولية (الأممية) وتواصل الهنود وكل الآسيويين مع الأدب الاشتراكي والفكر الاشتراكي عن طريق اللغة الإنكليزية. كقاعدة عامة: إن الهنود معادون صادقون للفاشية بالتناسب مع غربنتهم. هذا هو السبب الذي جعلني أصف اللغة الإنكليزية بأنها سلاح حربي في بداية المراجعة. إنها قمع لأفكار ورؤية الفاشية القاتلة للحياة. لا يحبنا السيد أناند كثيراً جداً وبعض زملائه يكرهوننا جداً، لكن طالما يعبرون عن كرههم بالإنكليزية، فهم في نوع من التحالف معنا، ومازالت التسوية المحتشمة النهائية مع الهنود، الذين أخطأنا بحقهم وساعدناهم، ممكنة أيضاً.

هورايزن يوليو/تموز ١٩٤٢.

طبول تحت النوافذ
بقلم شون أوكيسي

قال دبليو بي ييتس إن الكلب لا يثني على براغيثه، لكن هذا القول يتناقض نوعاً ما مع المكانة الخاصة في هذه البلاد التي يتمتع بها الكتاب القوميون الايرلنديون. ولو أخذنا في الاعتبار تاريخ العلاقات الأنغلوايرلندية، فلن يفاجئنا وجود ايرلنديين عملهم الحياتي هو الإساءة إلى إنكلترا. لكن ما يستدعي الملاحظة والتعليق، هو أنهم يقدرون على النظر إلى الشعب الإنكليزي من أجل الدعم، وفي بعض الحالات يجب أن يعيش أشخاص من أمثال السيد أوكيسي نفسه في البلاد التي هي موضوع كرههم. هذا هو المجلد الثالث من سيرة السيد أوكيسي الذي يغطي الفترة من عام ١٩١٠ إلى ١٩١٦ كما يبدو. بالقدر الذي يمكن فهمه واستخراجه من كتل من الكتابة الطنانة، فإن الموضوع الرئيسي للكتاب قيم وممتع. السيد أوكيسي الابن الأصغر لعائلة بروتستانتية معدمة وفقيرة، عمل سنوات في أعمال عضلية، وانخرط بقوة بنفس الوقت في الحركة القومية والحركات الثقافية المتنوعة التي اختلطت معها، مات عدد من إخوته وأخواته في ظروف من الفقر الكالح الذي سيكون عذراً لعداوة والاستياء ضد الاحتلال الإنكليزي. كان صديقاً للاركين وكونولي والكونتيسة ماركيفيكس وعدد آخر من الشخصيات القيادية السياسية، وكان له رأي مهم وموقع متقدم في ثورة عيد الفصح لعام ١٩١٦.

لكن الأسلوب الغائم الذي كتب فيه الكتاب، جعل من الصعب تحديد الوقائع أو الترتيب الزمني للأحداث. الكتاب يكتب بضمير المفرد الغائب (شون فعل هذا وشون فعل ذاك)، مما يعطي أثراً لا يطاق من النرجسية. كما أن أقساماً كبيرة من الكتاب كتبت بتقليد مبسط لأسلوب يقظة فينيغان لجويس، الذي يكون أحياناً هزلاً خفياً، لكنه لا ينفع من أجل السرد القصصي أبداً. في كل الأحوال إن الصفة المميزة للسيد أوكيسي هي القومية الرومانسية التي ينجح في توحيدها مع الشيوعية. هذا الكتاب لا يتضمن أي إشارة واحدة حرفية إلى

إنكلترا بأنها غير معادية أو محتقرة. من جانب آخر لا توجد هناك صفحة واحدة لا تتضمن مقاطع كالمقطع التالي:

كاثلين هوليهان، بقدميها الحافيتين، تغني من أجل كبريائها الذي عاد ثانية بعد أن كاد أن يموت. بعباءة ممزقة وشعر منكوش تغني، تنفض الرماد من شعرها وتسهل التجاعيد الكبيرة في ثوبها؛ تغني عن رجال احتشدوا في القتال مستعدين في قلوبهم وبأيديهم للزحف مع الراية والبوق والمزمار إلى الموت من أجل وطنهم الأم.

أو مرة أخرى:

كاثلين ابنة هوليهان، تمشي صلبة وراسخة الآن، تورد على خدها المتغطرس. تسمع الهمس والدمدمة في قلوب الناس. عشاقها يتجمعون حولها، لأن الأشياء تغيرت، تغيرت تماماً: "لقد ولد جمال رهيب"

لو بدل المرء "بريطانيا" بدل "كاثلين هوليهان" في هذه المقاطع والأخرى التي تشبهها (كاثلين ني هوليهان تظهر عرضياً مرات كثيرة في كل فصل)، سترى من النظرة الأولى بسبب تنمقها ومباهاتها. لكن لماذا يجب التسامح مع أسوأ الغلو في الوطنية والعنصرية تطرفاً حين تأتي من رجل ايرلندي؟ لماذا القول "بلادي صح أو خطأ" يستحق التوبيخ حين تطبق على إنكلترا وتستحق الاحترام حين تطبق على ايرلندا؟ (أو على الهند بهذا الخصوص)؟ لأنه ليس هناك شك أن بعض مثل هكذا تقاليد تتواجد وأن "الرأي" المستنير في إنكلترا يستطيع أن يقبل حتى القومية الأشد صخباً طالما أنها ليست قومية بريطانية. قصائد مثل "احكم بريطانيا!" أو "أنتم بحارة إنكلترا" سوف تؤخذ على محمل الجد إن أدخل المرء في الأماكن المناسبة اسم بلد أجنبي ما، كما يستطيع المرء أن يرى من الاحترام الممنوح لشعراء حرب فرنسيين وروس شتى اليوم. النقطة التي تذهب إليها ايرلندا حتى الآن أن السبب الأساسي ربما يكون ضمير إنكلترا السيء. من الصعب أن نعترض على القومية الايرلندية من دون التظاهر بالتغاضي قروناً عن الطغيان الإنكليزي والاستغلال. بشكل خاص الحادث الذي ينتهي به كتاب السيد أوكيسي، ملخص إعدام حوالي عشرين أو ثلاثين ثائراً، الذين عوملوا كأسرى حرب، كان خطأ وجريمة. لذلك أي

شيء قيل عنه يجب أن يمر بقبول ومن دون اعتراض. وقصيدة ييتس عن الموضوع التي شكلت نوعاً من موضوع أغنية لكتاب السيد أوكيسي، يجب أن تقبل بلا نقد كقصيدة عظيمة. فعلياً إنها ليست من قصائد ييتس الأفضل. لكن كيف لرجل إنكليزي مدرك لخطأ بلاده في هذا الجانب وفي مناسبات كثيرة، أن يقول شيئاً من هذا النوع؟ لهذا يتشوه الحكم الأدبي بالتعاطف السياسي، ويتمكن السيد أوكيسي وأمثاله من البقاء شبه منيعين ضد النقد. لنراجع موقفنا، لأنه لا يوجد مبرر حقيقي. لماذا لا تجعلنا مذابح كرومويل نخطئ بالكتاب السيئ أو التافه وبالكتاب الجيد.

الأوبزيرفر ٢٨ أكتوبر/تشرين أول ١٩٤٥.

مراجعة العين الكونية لهنري ميلر

من المؤسف ألا يستطيع أي واحد من الناشرين تجميع شجاعته ويصدر طبعة أخرى من **مدار السرطان**. إذ يمكنه تعويض خسائره بعد سنة بنشر كتاب بعنوان **ما رأيته أنا في السجن** أو شيء بهذا المعنى، لتصل بضع نسخ من النص الممنوع إلى الشعب، قبل أن يحرق جلاد الشعب، أو أياً يكن الذي مهنته حرق الكتب الممنوعة في هذه البلاد، الطبعة كلها في الوقت الفاصل. عكساً للتوقعات يفترض أن يكون **مدار السرطان** أندر كتاب معاصر - لكن قيل إن هناك طبعة مقرصنة يجري تداولها في أمريكا منذ سنتين أو ثلاث -حتى **ربيع أسود** لا يمكن الحصول عليه بسهولة. تطبع أقسام من كتابات هنري ميلر في كل مكان، لكن الأجزاء التي تستحق تبقى صعبة المنال، لهذا يجب على المرء الاعتماد على الذاكرة كي ينتقده. وبما أن الشخص الذي يقرأ النقد قد لا يحظى بفرصة قراءة الكتب أبداً، فإن العملية برمتها مثل أخذ شخص أعمى ليرى عرضاً للألعاب النارية.

تشمل المختارات الحالية القصة القصيرة **"ماكس"** (ربما مسودة مؤقتة أكثر من كونها قصة) ومسودة السيرة الذاتية الممتازة **"عبر ديبي - نيوهافن"** وثلاثة فصول من **ربيع أسود** أثخن فيها قلم الرقيب، وسيناريو لفيلم سريالي، وعدد من مقالات نقدية وشظايا. يختتم الكتاب بملاحظة عن سيرة ذاتية صادقة موجزة تنتهي بهذا الشكل:

أريد أن يقرأني أناس أقل وأقل، وليس لدي أي اهتمام بحياة الجماهير وبنوايا الحكومات الموجودة في العالم. أتمنى وأؤمن أن كل العالم المتمدن سيمسح تماماً في المائة سنة القادمة، وأعتقد أن الإنسان يستطيع أن يحيا وبطريقة أفضل وأوسع من دون "حضارة".

لنقارن **"عبر نيوهافن-ديبي"** والجزء الصغير من **هاملت**، كتاب الرسائل الضخم الذي كتبه ميلر بالتعاون مع مايكل فرانكل، لنحصل على فكرة جيدة عن الذي يستطيع ميلر فعله والذي لا يستطيعه. **"عبر نيوهافن - ديبي"** قطعة صادقة ومؤثرة من الكتابة، تروي

محاولة غير ناجحة للقيام بزيارة قصيرة إلى إنكلترا في ١٩٣٥. يكتشف موظفو الهجرة أنه لا يملك سوى كمية قليلة جداً من المال في جيوبه، فيرمي على الفور في زنزانة شرطة المحكمة بشكل مهين ويعيدونه في اليوم التالي عبر القنال. لقد تم الشيء كله بأقصى الغباء والوقاحة. الشخص الوحيد الذي أظهر بصيصاً من اللياقة والاحتشام في كل القضية، هو موظف الشرطة الذي كلف بحراسة ميلر خلال الليل. نشر الكتاب الذي وردت فيه هذه المسودة في ١٩٣٨ وأتذكر أنني قرأته بعد ميونيخ، وأشعرني هذا الحدث الصغير بخزي أكثر من بلادي، رغم أن تسوية ميونيخ لم تكن الشيء الذي يدعو إلى الفخر. ليس لأن الموظفين البريطانيين في نيوهافن تصرفوا أسوأ بكثير مما يفعله هذا النوع من الأشخاص في كل مكان. لكن بشكل ما الشيء برمته كان محزناً. اثنان من الموظفين البيروقراطيين يمسكان بفنان ويبيت تحت رحمتهما، وخليط الحقد والمكر والغباء الذي عاملاه به، يجعل المرء يتساءل ما فائدة كل هذا الحديث عن الديمقراطية وحرية الصحافة وما شابه.

إن "**عبر نيوهافن-ديبي**" من نفس مزاج **مدار السرطان**. لقد عاش ميلر حياة غير آمنة رزية لأربعين سنة أو أكثر، وكانت لديه موهبتان بارزتان ربما يرجعان إلى منشأ وضيع. الأولى عوز تام للخجل العادي، والأخرى مقدرته على كتابة نثر موزون منمق وجريء لم تره اللغة الإنكليزية في العشرين سنة الماضية. من ناحية أخرى ليس لديه القدرة على الانضباط الذاتي أو الإحساس بالمسؤولية، وربما ليس لديه خيال واسع مقارنة بنزوته. لذلك كان معداً ليكون كاتب سيرة ذاتية. وحين تستجر المادة من حياته السابقة وتنتهي، يكون عطاؤه عرضة للجفاف.

بعد **ربيع أسود** كان من المتوقع لميلر أن ينحدر إلى نوع من الشعوذة. وفي الواقع كان قدر كبير من كتابته اللاحقة مجرد طرق على الطبل الكبير -إحداث ضجيج من الفراغ. ليقرأ أي واحد مقالين في هذا الكتاب، "عالم الموت" (نقد لبروست وجويس) و"رسالة مفتوحة إلى السرياليين في كل مكان". في سبعين صفحة تقريباً كم هو قليل الذي قاله وكم هو مذهل تأثيره. اللافت في الواقع هو نجاح العبارة التي لا معنى لها تقريباً "عالم الموت" لتكون نغمة مميزة. إحدى خدع ميلر هو استخدامه الدائم للغة رؤيوية (شبيه بسفر الرؤيا من حيث الغموض) ليرش كل صفحة بعبارات مثل "التدفق الكوني"، "الفتنة القمرية" و"الفراغات بين النجوم" أو مع جمل مثل "المدار الذي أسافر فوقه قادني أبعد وأبعد عن

الشمس الميتة التي ولدتني" الجملة الثانية في المقال الذي عن بروست وجويس: "مهما حدث في الأدب منذ دستويفسكي فقد حدث في الجانب الآخر من الموت" أي هراء هذا حين تتأمله! الكلمات الرئيسية في هذا النوع من الكتابة هي "الموت" و"الولادة" و"الشمس" و"القمر" و"الرحم" و"الكوني" و"الفاجعة" وباستخدامه الطليق لها، تبدو أتفه العبارات فاتنة وتصويرية في حين أن خلوها التام من المعنى يعطي جواً من الغموض والعمق. حتى عنوان الكتاب "العين الكونية"، لا يعني شيئاً، لكنه يبدو كما لو أنه يجب أن يعني شيئاً فعلاً.

حين يستخرج المرء آراء ميلر من تحت اللغة المزخرفة جداً، يجد أغلبها مبتذلاً ورجعياً، وتنحدر إلى نوع من التصوف العدمي. هو ينكر اهتمامه بالسياسة -في بداية هذا الكتاب يعلن أنه "أصبح إلهاً" و"لا يبالي إطلاقاً بمصير العالم"- لكنه في الواقع يطلق بيانات سياسية بشكل دائم تشمل تعميمات عنصرية واهية عن "الروح الفرنسية" و"الروح الألمانية" إلخ. هو سلمي متطرف، ومن جهة أخرى لديه توق للعنف، بشرط أن يحدث في مكان آخر، ويعتقد أن الحياة رائعة، لكنه يتمنى ويتوقع أن يرى كل شيء ينسف ويمزق قريباً. ويتحدث كثيراً عن "الرجال العظماء" و"أرستقراطيي الشجاعة والقوة" يرفض أن يهتم بالفرق بين الفاشية والشيوعية، لأن "المجتمع مكون من الأفراد" وقد أصبح هذا موقفاً ورأياً مألوفاً الآن، وسيكون رأياً محترماً لو حُمل إلى نتيجته المنطقية التي تعني البقاء سلبياً في وجه الحرب والثورة والفاشية أو أي شيء آخر. في الواقع هؤلاء الذين يتكلمون بنفس النغمة، كما ميلر، يحرصون دائماً على أن يبقوا داخل حماية المجتمع البرجوازي الديمقراطي. وفي الوقت نفسه ينكرون مسؤوليتهم تجاهه: من الجانب الآخر حين يكون أخذ الخيار الحقيقي إجبارياً، لن ينجو الموقف الأكثر هدوءاً أبداً. إن موقف ميلر في العمق موقف فرداني ساذج لا يعترف بأي واجبات تجاه أي أحد آخر - في كل الأحوال لا واجبات تجاه المجتمع ككل- ولا يشعر حتى بالحاجة لأن يكون متناسقاً مع آرائه. إن الكثير من كتاباته اللاحقة مجرد تصريح عن هذه الحقيقة بكلمات مدوية أكثر.

طالما ظل ميلر مجرد شخص منبوذ ومشرد، لديه تجارب مزعجة مع رجال الشرطة وصاحبات الملكيات والزوجات وجامعي الديون والعاهرات ورؤساء التحرير وأمثالهم، فإن

موقفه غير المسؤول لا يشكل ضرراً- وفي الحقيقة هو أفضل موقف كأساس لكتاب مثل **مدار السرطان**. إن الشيء العظيم حول **مدار السرطان** هو خلوه من الأخلاق. لكن إن كنت ستتفوه بأحكام عن الرب والكون والحرب والثورة وهتلر والماركسية واليهود، فإن ماركة ميلر الخاصة بالأمانة الفكرية ليست كافية، لذلك إما أن يبتعد المرء عن السياسة بصدق أو يجب أن يعترف أن السياسة هي علم الممكن. هنا وهناك في كتابات ميلر اللاحقة، تجد لوحاً من سيرة ذاتية متواضعة، ومثال على ذلك "**عبر نيوهافن - ديبي**". وهناك مقاطع مشابهة حتى في كتاب **هاملت** غير المقروء- ثم يظهر السحر القديم مرة أخرى. إن موهبة ميلر الحقيقية تكمن في قدرته على وصف الجانب السفلي من الحياة، لكنه يحتاج إلى سوء حظ يحثه على استخدامها. على كل يبدو أن حياته في كاليفورنيا أثناء السنوات الخمس أو الست الماضية، لم تكن كلها ورطات ومآزق، وربما في واحد من هذه الأيام يتوقف عن كتابة جمل فارغة عن الموت والكون، ويرجع إلى فعل الشيء الذي يناسبه حقيقة. لكن يجب عليه أن يكف عن "كونه إلهاً، لأن الكتاب الجيد الوحيد الذي كتبه الرب هو العهد القديم.

مراجعة استشهاد رجل
بقلم وينوود ريد

إذا أجبر المرء على كتابة تاريخ للعالم، فهل الأفضل له أن يدون الحوادث الصحيحة التي يستطيع اكتشافها، أم أن يفبرك الأمر برمته؟ الجواب ليس بديهياً كما يبدو. يجب على كل من يكتب تاريخ أي فترة زمنية واسعة بالضرورة، فرض أنموذج على الأحداث، أو أن عليه أن يكتشف أنموذجاً على الأقل ونظرية عامة صحيحة من أجل ذلك الهدف، أو حتى فهماً غريزياً للاحتمالية، فقد يكون ذلك أكثر نفعاً من جبل من المعرفة. إن التاريخ المركب بشكل تخيلي، لا يمكن أن يكون صحيحاً بخصوص أي حدث، لكنه يقترب من الحقيقة الجوهرية أكثر من مجرد جمع وتأليف أسماء وتواريخ ليس فيها عبارة واحدة يثبت بأنها غير صحيحة.

يشعر المرء بهذا بقوة في التحفة الغربية التي لم تكرم، كتاب وينوود ريد **استشهاد الإنسان**. لا يعني هذا طبعاً أن ريد يفبرك تاريخه. في الواقع هو بطريقة ما يعيد تأكيد قيمة المعرفة التجريبية بمواجهة التقاليد والسلطة، بما أن هدفه الرئيسي مهاجمة المعتقدات الدينية الراهنة، كانت طريقته لفعل هذا الإصرار على الحوادث المعروفة بما فيها نصوص من العهد القديم، يفضل المؤمنون الأرثوذكس نسيانها. وكان مستعداً للاستيلاء على كتل كبيرة من المعلومات من أخصائيين في حقول متنوعة. وأشار في مقدمته للكتاب إلى بعض مصادره، وأقر بوضوح أن "ليس هناك أي شيء في هذا العمل أستطيع الزعم بأنه لي. أنا لم آخذ الوقائع والأفكار فقط، وإنما العبارات والفقرات أيضاً من كتاب آخرين" ومع ذلك فإن كتابه جوهرياً، هو عمل من الخيال، وليس مجرد سجل للأحداث. هو لم يبدأ بفكرة تصورها مسبقاً للأنموذج التاريخي، وإنما من خلال قراءاته ورحلاته أعتقد أنه اكتشف الأنموذج، وبعد أن وجده سقطت التفاصيل في أمكنتها. الكتاب نوع من رؤية أو ملحمة ألهمه بها مفهوم التقدم. الإنسان هو بروميثيوس: لقد سرق النار وعوقب بشكل فظيع بسبب ذلك، لكنه في النهاية سوف يطرد الآلهة من السماء ويبدأ حكم العقل.

على الرغم من كتابته الواضحة والقوية، فإن **استشهاد الإنسان** كتاب لم يرتب بشكل جيد. إنه مقسم بشكل فظ إلى أربعة أجزاء رئيسية معنونة بالحرب والدين والحرية والعقل، التي يفترض أنها تلخص المراحل الأساسية للتطور الإنساني. والقسم الرابع يلخص جزئياً ويختصر ما قيل سابقاً، ويميل إلى عدم التناسب، طبعاً كما يفترض بأي محاولة لتاريخ شامل دائماً. من شبه المستحيل للأوروبي أن يتصور "العالم" على أنه أطراف البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، من دون أن تدخل الهند أو الصين في مخطط ريد للأشياء، ولا تدخل فيه إنكلترا أو روسيا أو أمريكا الجنوبية. إن مركز العالم كما يراه هو مصر وبلدان الشرق الأوسط، ويتعامل مع إمبراطوريات العبودية في العصور القديمة وظهور الأديان السامية بأفضل أسلوب لديه. لنأخذ هذا المقطع الأنموذجي:

لقد عاشت روما على مبدئها الرئيسي حتى أحدق الخراب بوجهها. إن الصناعة هي المصدر الوحيد الحقيقي للثروة، ولم تكن هناك في روما صناعة. مع الوقت اكتظ طريق أوستيا بالعربات وسائقي البغال التي تحمل للمدينة العظيمة الحرير والتوابل من الشرق والرخام من آسيا الوسطى والأخشاب من الأطلس والذرة من أفريقيا ومصر؛ ولم تخرج العربات منها سوى بأحمال من الروث. تلك كانت حمولتها في العودة.

في الصفات المختلطة لهذا المقطع -سخريته والتظاهر بالمعرفة الأكيدة وإصراره على أهمية العمليات الاقتصادية بالإضافة إلى الاحتفاظ بالأسلوب التصويري- يستطيع المرء أن يرى سبب جاذبية ريد الشعبية كما أعتقد. شعر الناس لمرة أنهم يحصلون على التاريخ من شخص يعرف كل الأحداث، ومع ذلك لم يكن أستاذاً جامعياً -ليس طفيلياً من الطبقات العليا والكنيسة الرسمية. ريد ليس فيه شبه بـ "المؤرخ الاقتصادي" الجاف والصارم جداً. الجانب الرومانتيكي الاحتفالي في التاريخ -الأشرعة المنتفخة للسفن الفينيقية والدروع النحاسية للجنود الرومانيين والفرسان والقلاع والمباريات الرياضية والأسماء الطنانة: قيصر والإسكندر وهنبعل ونبوخذ نصر وشارلمان- كل هذا حاضر في عمله، لكن بتحيز جديد، كما لو أنه يقول طوال الوقت: "انظروا إليه بهذا الشكل". صفة بارزة للكتاب هي معالجته البارعة للوقت. لقد جعل التاريخ يتدفق وينساب: عصور عظيمة لخصت في فقرة واحدة، واندمج المصريون بالفرس والفرس بالإغريق والإغريق بالرومان، واختفت البربرية في

الإقطاعية والإقطاعية في الرأسمالية. فبهذه الطريقة يراه المرء يتدفق ويمر مثل منظر بانورامي مع تجريده من مبادئه الجوهرية وحجز لونه والكثير من تفاصيله أيضاً.

يشير السيد جيه ام روبرتسن في المقدمة التي كتبها لطبعة ثنكر لايبراري أن استشهاد الإنسان جدير ولافت فوراً:

بسبب أثره المستمر على جيلين اثنين من القراء، ونجاحه الثابت في وجه عداء لدود وازدرائي من الصحافة الأدبية، وشق طريقه من سنة نشره من دون كلمة واحدة من الاستحسان الأدبي، أو إعلان واحد من الناشر، ظل يباع لأكثر من ست سنوات طبعة تلو أخرى وصولاً إلى الوقت الحاضر.

هذا الكتاب كأنه تاريخ غير رسمي. كان ريد يستهدف المتحررين والناس الذين لا ترعبهم الحقيقة. لكن كتابه كان شعبياً في جوهره، ويرفض تقريباً من صفحاته الأولى قيم المجتمع البرجوازي. يخمن المرء أن جاذبيته العميقة بالإضافة إلى سبب عداء الصحافة له، ربما يكمن في تفسيره الإنسانوي للمسيحية. حين نشر الكتاب في ١٨٧٢ كان أخذ هذا الخط يحتاج إلى شجاعة. لكنه يظل كتاباً ثورياً لمدة أربعين أو خمسين سنة تالية. أتذكر جيداً تأثيره علي حين قرأت وصف ريد للنبي العبري الأنموذجي ورأيت الكلمات "حالما استلم مهمته توقف عن الاغتسال" شعرت بعمق أن "هذا الرجل في صفنا". ثم تابعت قراءة تفحص ريد لشخصية المسيح. كانت تجربة شافية بشكل غريب. هنا شخص لا يقبل بأن المسيح هو ابن الرب ولا كمعلم أخلاقي عظيم كما كانت الموضة في ذلك الوقت، وبدلاً من ذلك قدّمه مجرد كائن بشري عرضة للخطأ مثل أي شخص آخر- بالمجمل شخصية نبيلة لكن بأخطاء فادحة، وينحدر من خط طويل من المتعصبين اليهود المتشابهين جداً. قال ريد إنه لم ترتبط به أساطير وثنية متنوعة تنتمي إلى أوزيريس وأبولو إلا بعد قرن من وفاته.

هل كان هذا تفسيراً صحيحاً؟ أنا لم أكن أعرف آنذاك ولا أعرف الآن. ينبغي للمرء أن يكون متخصصاً ليدلي برأيه. لكن على الأقل رواية ريد لحياة المسيح يمكن أن تكون صحيحة، بينما النسخة التي أقحمت عليّ من قبل مدير مدرستي تهين البديهة والحس العام. ريد كان كاتباً متحرراً، وبدا يتكلم كرجل لرجل، يحول التاريخ إلى أنموذج مفهوم وواضح ليس فيه حاجة للمعجزات. لقد كان بالغاً وناضجاً حتى لو كان مخطئاً.

رغم أن فكرة التقدم هي من ألهم بالكتاب، ورغم أنه أثر على الحركة اليسارية لأكثر من جيلين، ينبغي على المرء ألا يعتبر شهادة الإنسان كتاباً اشتراكياً. لقد تأثر ريد كثيراً جداً بنظرية داروين حول صراع البقاء، أما وجهة نظره فهي رجعية بوضوح في بعض الطرق. هو يفصح بشكل صريح عن جحوده بالاشتراكية ومقتنع بآثار المنافسة التجارية القيمة، ويعتقد أن الإمبريالية يجب أن تنال التشجيع، ويعتبر الشرقيين أدنى منزلة بالفطرة والطبيعة، كما أنه أيضاً يعبث بفكرة خطرة عن وجود درجات مختلفة من الحقيقة، وأن الاعتقاد الخاطئ يجب ألا يسفه إن كان ذا قيمة اجتماعية. ويقول أشياء غبية جداً -يقول مثلاً إن الشيوعية إذا توطدت قد تتصلب إلى نظام طبقي. وكانت هذه الملاحظة ثاقبة في ١٨٧١ - ويرى بوضوح أن المساواة الإنسانية لا يمكن أن تتحقق إلا عند مستوى عالٍ من الحضارة الميكانيكية. أهدافه من النوع الذي يقبل بها أغلب الاشتراكيين، لكن موقفه نحو المجتمع القائم ليس كذلك. هو نوع من حليف غير دائم للحركة الاشتراكية، ويقاتل على الجبهة الدينية بشكل رئيسي. بالتأكيد كثيرون من قراء الطبقة العاملة لم يتفقوا معه في بعض الاستنتاجات، ومع ذلك يشعرون أن لديهم صديقاً جيداً في هذا العالم، انقلب ضد القساوة واستطاع أن يجعل الماضي ليس مفهوماً وواضحاً فقط بل حياً أيضاً.

التريبيون ١٥ مارس/ آذار ١٩٤٦.

كلفة الأدب

(يجيب جورج أورويل على استبيان "كلفة الأدب" في هورايزن، سبتمبر/ أيلول/ ١٩٤٥ سئل فيه كتاب كثيرون:

١ - كم يحتاج الكاتب من المال برأيك ليعيش ويبقى حياً؟

٢- هل تعتقد أن الكاتب الجاد يستطيع كسب هذا المبلغ من كتابته، وإن كان كذلك فكيف؟

٣- إن كان لا، فما هي المهنة الثانية المناسبة له برأيك؟

٤- هل تحويل طاقة الكاتب إلى وظائف كما تعتقد يضر بالأدب أم يثريه؟

٥- هل تعتقد أن الدولة أو أي مؤسسة أخرى يجب أن تعمل أكثر من أجل الكتاب؟

٦- هل أنت راض عن حلك للمشكلة؟ هل عندك أي نصيحة تعطيها للشباب الذين يتمنون كسب عيشهم بواسطة الكتابة؟

١ - في القيمة الشرائية الحالية للنقود، أعتقد أن عشرة جنيهات أسبوعياً بعد دفع ضريبة الدخل هو الحد الأدنى لرجل متزوج، وربما ست جنيهات للشخص غير المتزوج. أفضل دخل للكاتب في القيمة الحالية للنقود حوالي ألف جنيه في السنة. بذلك المبلغ يمكنه العيش براحة معقولة ليس فيها مضايقات من الدائنين، ولا يُجبر على تقديم عمل مبتذل من دون أن يشعر بأنه انتقل إلى الطبقة ذات الامتيازات. لا أعتقد أن المرء يستطيع أن يتوقع بإنصاف من الكاتب أن يبذل أقصى الجهد بدخل فرد من الطبقة العاملة. ضرورته الأولى التي لا يستغني عنها كالأدوات بالنسبة إلى النجار، هي غرفة مريحة مدفأة بشكل جيد يتأكد ألا يقاطعه أحد ويعيقه فيها، وهذا لا يبدو كثيراً. لكن لو حسب المرء ما يعنيه هذا بمصطلحات الترتيبات المنزلية، فسيعني كسب أموال أكثر. إن عمل الكاتب يتم في البيت وإن تركه يحدث للمصادفة سيخضع إلى مقاطعة دائمة. ليحمي نفسه من المقاطعة، يكلفه هذا مالاً بشكل مباشر أو غير مباشر. ثم إن الكتاب يحتاجون إلى كتب ودوريات بأعداد كبيرة، وهذه تحتاج إلى مكان وأثاث

لتضبير الأوراق، كما يصرف الكتاب الكثير على المراسلات ويحتاجون إلى معونة سكرتارية بدوام جزئي، ويستفيد أغلبهم من السفر والعيش فيما يعتبرونه بيئة متعاطفة وأكل وشرب الأشياء التي يحبونها أكثر، وأن يقدروا على أخذ أصدقائهم ليتناولوا معهم الطعام خارج البيت أو استضافتهم للإقامة معهم. مثالياً، أحب أن يحظى كل إنسان بنفس الدخل، شرط أن يكون دخلاً عالياً نوعاً ما: لكن طالما هناك تمييز وفرق مفروض، أعتقد أن مكانة الكاتب يجب أن تكون في وسط القوس، ما يعني في المعايير الحالية ألف جنيه في السنة.

٢- كلا. علمت أن بضع مئات من الناس في بريطانيا العظمى على الأكثر يكسبون عيشهم من كتابة الكتب فقط، وأغلب هؤلاء من كتاب القصص البوليسية إلخ. بطريقة ما إن تجنب المتاجرة بالمواهب بالنسبة إلى أناس مثل ايثيل ام ديل أسهل مما يكون الأمر لكاتب وقور وجدي.

٣- لو أمكن ترتيب الوظيفة بشكل لا تستهلك كل وقته، أعتقد أن مهنة الكاتب الثانية يجب أن تكون شيئاً غير-أدبي، والأفضل لو كانت شيئاً مناسباً لطبيعته ومزاجه. ويمكنني أن أتخيل أن يقوم موظف البنك أو وكيل التأمين مثلاً بعد أن يذهب إلى البيت بعمل جدي في أمسياته. لكن بذل الجهد يكون صعباً جداً إن بدد المرء مسبقاً طاقاته على عمل نصف إبداعي كالتعليم والبث الإذاعي أو تأليف دعاية لكيانات مثل المركز الثقافي البريطاني.

٤- بشرط ألا يكون وقت المرء وطاقته مستنفدة، أعتقد أنها تفيده. أخيراً يجب على المرء أن يقوم بنوع من التواصل مع العالم العادي، وإلا عمن سيكتب؟

٥- الشيء الوحيد الذي تستطيع الدولة فعله بشكل مفيد أن تحول مقداراً أكبر من المال العام لشراء كتب للمكتبات العامة. إن كان علينا أن نكون في اشتراكية كاملة، من الواضح عندئذ أن يكون الكاتب مدعوماً من الدولة، ويجب أن يوضع مع الجماعات التي تتقاضى أجراً أفضل. لكن طالما نعيش في اقتصاد مثل اقتصادنا الحالي، فيه مقدار كبير من المشروع الحكومي لكن أيضاً مناطق واسعة من الرأسمالية الخاصة، فإن التعامل الأقل للكاتب مع الدولة أو كيان منظم آخر أفضل له ولعمله. هناك خيوط ثابتة مرتبطة بكل نوع من الرعاية المنظمة. من جانب آخر، فإن النوع القديم من الرعاية الخاصة، التي يكون الكاتب بالنتيجة معتمداً كلياً

على فرد ثري ما، غير مرغوبة بشكل واضح. بالتأكيد، إن الراعي الأفضل والأقل تطلباً هو الجمهور الكبير.

لسوء الحظ، إن الجمهور البريطاني لن يصرف نقوداً على الكتب في الوقت الحاضر، رغم أنه بات يقرأ أكثر فأكثر، وارتفع معدل ذوقه كثيراً جداً في العشرين سنة الأخيرة. في الوقت الحاضر، أعتقد أن المواطن البريطاني المتوسط يصرف جنيهاً واحداً على الكتب سنوياً، بينما يصرف خمسة وعشرين جنيهاً للحصول على التبغ والكحول معاً. بواسطة الرسوم والضرائب يمكن جعله يصرف أكثر من دون أن يعرف- كما حدث أثناء سنوات الحرب حين صرف أكثر بكثير من المعتاد على الراديو بسبب العون التي تحصل عليه البي بي سي من الخزانة. إذا أمكن حث الحكومة على تخصيص مبالغ أكبر لشراء الكتب دون الاستيلاء على كل تجارة الكتب وتحويلها إلى آلة دعائية، أعتقد أن موقع الكاتب سيكون مريحاً ويستفيد الأدب أيضاً.

٦- شخصياً أنا راضٍ بمعنى مالي، لأنني كنت محظوظاً على الأقل خلال السنوات القليلة الأخيرة. كان علي أن أصارع بشكل يائس في البداية، ولو استمعت إلى ما قاله الناس لي، فلن أصبح كاتباً أبداً. حتى لوقت حديث تماماً كلما كتبت أي شيء آخذه بجدية، يجب أن تكون هناك جهود شاقة، أحياناً بواسطة أشخاص نافذين لمنعه من الطباعة. بالنسبة إلى كاتب صغير يشعر بامتلاك شيء فيه، فإن النصيحة الوحيدة التي أستطيع أن أقدمها إليه هي ألا يأخذ بأي نصيحة.

مالياً، طبعاً، هناك أفكار مفيدة أستطيع تقديمها، لكنها بلا فائدة أيضاً إن لم يملك المرء نوعاً من الموهبة. إن أراد المرء أن يعيش من خلال وضع كلمات على الورق فقط، فالبي بي سي أو شركات الأفلام وأمثالها مفيدة له بشكل معقول. لكن أن أراد أن يكون كاتباً قبل كل شيء، سيتقدم وينجح إن أدرك موقعه منذ البداية. عندئذ يمكن القول إن المرء في مجتمعنا حيوان جرى التسامح معه، لكنه لم ينل التشجيع -شيء مثل عصفور المنزل.

هورايزن، سبتمبر/ أيلول ١٩٤٦؛ الفكر البريطاني الراهن، بريتش كرينت ثوت عدد ١، ١٩٤٧.

ملاحظات حول تعريف الثقافة

لـ تي. إس. إليوت

يرى السيد ت.إس. إليوت في كتابه **ملاحظات نحو تعريف الثقافة**، أن المجتمع المتحضر يحتاج إلى نظام طبقي كجزء من أساسه. هو لا يتكلم إلا بشكل سلبي طبعاً، ولا يزعم أن هنالك طريقة أخرى يمكن أن تخلق فيها حضارة سامية، ويصر أن هكذا حضارة من غير المحتمل أن تزدهر بغياب ظروف محددة أحدها الفروق الطبقية.

هذا يفتتح مشهداً كئيباً. فمن المؤكد أن الفروق الطبقية من النوع القديم الهاجع من جانب ومن جانب آخر لدى إليوت حالة مثبتة بديهياً على الأقل.

جوهر حجته أن أعلى مستويات الثقافة لم تبلغها سوى مجموعات صغيرة من الناس -إما مجموعات اجتماعية أو مجموعات مناطقية- استطاعت أن تحسن تقاليدها لدرجة الكمال على مدى فترات طويلة من الزمن. إن العائلة هي المؤثر الثقافي الأهم، ويكون الولاء العائلي في أقصى قوته عندما يرى غالبية الناس من البديهي أن يعيشوا الحياة في المستوى الاجتماعي الذي ولدوا فيه. إضافة إلى هذا نحن لا نعرف كيف هو شكل المجتمع الطبقي، لأننا لا نملك سوابق نعتمد عليها. والذي نعرفه فقط هو أن الطبقات ستظل تستبدل بـ "النخب" طالما تظل الوظائف تتنوع وتتوسع وتختلف، مصطلح يستعيره إليوت بنفور واضح من الراحل كارل مانهايم. النخب ستخطط وتنظم وتدير: يشك السيد إليوت بشكل مبرر إن كانت تستطيع أن تصبح الحارسة والناقلة للثقافة، كما كانت طبقات اجتماعية معينة في الماضي.

يصر السيد إليوت كعادته دائماً أن التقاليد لا تعني عبادة الماضي، بل على العكس التقاليد تكون حية فقط حين تكبر. تستطيع الطبقة أن تحافظ على الثقافة لأنها هي نفسها شيء عضوي ومتبدل. لكن هنا يفقد السيد إليوت ما يعتبر أقوى حجة لديه، وهي أن المجتمع اللاطبقي الذي تديره النخب قد يتحجر بسرعة، لأن حكامه يقدرون أن يختاروا خلفاءهم ويميلون دائماً إلى اختيار أناس يشبهونهم. المؤسسات الوراثية -كما يناقش السيد إليوت-

تتميز بكونها متقلبة وغير مستقرة. يجب أن تكون هكذا، لأن السلطة تحول دائماً إلى أناس إما يعجزون عن الاحتفاظ بها، أو يستخدمونها لأغراض لم يقصدها أسلافهم. من المستحيل أن يدوم أي كيان وراثي وقتاً طويلاً جداً وبتغيير طفيف كمنظمة متبناة كالكنيسة الكاثوليكية مثلاً، وعلى الأقل يمكن التفكير بمنظمة متبناة واستبدادية أخرى وهي الحزب الشيوعي الروسي، الذي سيكون له نفس التاريخ. وإن تحجر إلى طبقة كما يعتقد بعض المراقبين أنه فعل مسبقاً، عندئذ سيتبدل ويتطور كما تفعل الطبقات دائماً، لكن إن استمر في اختيار أعضائه من كل طبقات المجتمع ثم مرنهم ودربهم على العقلية المرغوبة، يمكنه أن يحافظ على شكله من دون تغيير من جيل إلى جيل. في المجتمعات الأرستقراطية، يكون الأرستقراطي الشاذ شخصاً مألوفاً، لكن المفوض (قوميسار) الشاذ نقيض بالتعريف. رغم أن السيد إليوت لا يستفيد من هذه الحجة، هو يجادل أنه حتى الخصومة بين الطبقات يمكن أن تثمر عن نتائج جيدة للمجتمع ككل. هذا ربما صحيح مرة أخرى. مع هذا يظل في المرء خلال كل هذا الكتاب شعور بوجود خطأ ما وأنه مدرك لهذا الخطأ. حقيقة أن الامتياز الطبقي مثل العبودية، لم يعد الدفاع عنها ممكناً. هي تتعارض مع افتراضات أخلاقية محددة، يبدو أن السيد إليوت يشارك فيها، مع أنه فكرياً ربما يكون مع خلاف معها. في كل الكتاب موقفه دفاعي بشكل واضح. حين يؤمن الناس بالفروق الطبقية، فليس من الضروري المصالحة والتوفيق بينها وبين العدالة الاجتماعية أو الكفاءة. تفوق وتميز الطبقات الحاكمة يعتبر بديهياً، وعلى أي حال النظام القائم يكون ما قدره الرب ورسمه. الأبكم المغمور ميلتون كان حالة حزينة لكنها غير قابلة للعلاج في هذا الجانب من القبر.

على كل حال، هذا ليس ما يقوله السيد إليوت، فكما يقول هو يود أن يرى في الوجود الطبقات والنخب كليهما. يجب على الإنسان العادي أن يعش حياة في مستواه الاجتماعي المقدر له مسبقاً، لكن من جانب آخر يجب أن يكون الرجل المناسب قادراً على أن يجد طريقه إلى الوظيفة المناسبة. في قوله هذا يبدو أنه يتخلى عن كل قضيته. فلو كانت الفروق الطبقية مرغوبة بحد ذاتها، إذاً فإن إضاعة المواهب أو عدم الكفاءة في المناصب العليا، غير مهمة نسبياً. بدلاً من أن يوجه الفرد غير المنسجم اجتماعياً إلى الأعلى أو الأسفل، عليه أن يتعلم أن يكون قانعاً وراضياً بمركزه الخاص به. لا يقول السيد إليوت هذا: في الحقيقة، قلة قليلة جداً

من الناس في زمننا يقولونها. ستبدو مزعجة أخلاقياً. ربما لذلك لا يؤمن السيد إليوت بالفروق الطبقية كما آمن بها أجدادنا. استحسانه لها سلبي فقط. يعني أنه لا يستطيع أن يرى كيف يمكن لأي حضارة جديرة بالبقاء حية في مجتمع فروقه ناشئة عن خلفية اجتماعية أو عن منشأ جغرافي. من الصعب الرد بأي رد إيجابي على هذا. بالنسبة إلى كل المظاهر تختفي الفروق الاجتماعية القديمة في كل مكان لتهدم أساسها الاقتصادي. قد تظهر طبقات جديدة ومحتملة ضمن مشهد مجتمع لاطبقي، يفترض إليوت أنه سيكون مجتمعاً لا ثقافة له. قد يكون محقاً، لكن يبدو تشاؤمه في بعض النقاط مبالغاً به. يقول: "نحن لا نستطيع أن نؤكد ببعض الثقة أن فترتنا نحن فترة انحدار؛ إن معايير الثقافة أدنى مما كانت عليه قبل خمسين سنة، والدليل على هذا الانحدار واضح في كل قسم من النشاط الإنساني"

يبدو هذا صحيحاً حين يفكر المرء بأفلام هوليوود أو القنبلة الذرية، لكنه أقل صحة إن فكر المرء بملابس ١٨٩٨ وهندسته المعمارية أو شكل الحياة في ذلك التاريخ للعامل العاطل عن العمل في إيست ايند في لندن. بأي حال كما يعترف إليوت نفسه في البداية، نحن لا نستطيع عكس الوجهة الحالية بعمل متعمد. الحضارات لا تصنع كالسلع، بل تنمو من تلقاء ذاتها. هل كثير علينا أن نأمل بأن يفرز المجتمع اللاطبقي ثقافة خاصة به؟ وقبل شطب عصرنا كشيء محكوم بالهلاك نهائياً، ألا يجدر أن نتذكر أن ماثيو أرنولد وسويفت وشكسبير- لنرجع القصة إلى ثلاثة قرون للوراء فقط- كانوا بالتساوي متأكدين من أنهم عاشوا في فترة انحدار.

أوبزيرفر ٢٨ نوفمبر، تشرين الثاني ١٩٤٨.

مراجعة لب القضية
غراهام غرين

إن حصة كبيرة من الروايات المميزة في العقود القليلة الأخيرة، كتبها كاثوليكيون، حتى إنها وصفت بالروايات الكاثوليكية. أحد أسباب هذا أن الصراع ليس فقط بين هذا العالم والعالم الآخر، وإنما بين القداسة والجودة، الذي هو موضوع خصب لم يستطع الكاتب العادي غير المصدق الاستفادة منه. استخدمه غراهام غرين بنجاح مرة، في **السلطة والمجد**، ومرة مع نجاح مقلقل في **صخرة برايتون**. إن كتابه الأخير **لب القضية**، بتعبير أدبي، ليس واحداً من أفضل أعماله، ويعطي الانطباع بأنه بني بشكل ميكانيكي، والصراع المألوف فيه بدأ مثل معادلة جبرية من دون أي محاولة في الاحتمالية السيكولوجية. إليكم موجز القصة:

الزمن في العام ١٩٤٢ والمكان في مستعمرة بريطانية في أفريقيا الغربية، لم تسمَّ، لكنها ربما تكون ساحل العاج. الرائد سكوبي، نائب مفوض الشرطة ومتحول إلى الكاثوليكية، يجد رسالة تحمل عنواناً ألمانيا مخبأة في قمرة قبطان سفينة برتغالية. تبين أن الرسالة خاصة ولا ضرر منها إطلاقاً، لكن طبعاً واجب سكوبي أن يسلمها للسلطة الأعلى كانت الشفقة التي يشعر بها نحو القبطان البرتغالي كبيرة بالنسبة إليه، فيتلف الرسالة ولا يأتي على ذكرها. سكوبي كما شرح لنا، رجل ذو ضمير حي جداً، فهو لا يشرب الكحول ولا يقبل الرشوة ولا يحتفظ بخليلات زنجيات أو يتساهل مع الحيل البيروقراطية، وهو في الحقيقة مكروه من كل الأطراف بسبب استقامته مثل العادل استرايدس. تساهله نحو القبطان البرتغالي كانت هفوته الأولى. بعدها أصبحت حياته نوعاً من خرافة عن موضوع "أوه شبكة متشابكة التي نسجناها"، وكانت طيبته هي التي تقوده إلى الضلال في كل حالة. مدفوعاً بالشفقة في البداية، تصبح له علاقة غرامية مع فتاة أنقذها من سفينة نسفت بطوربيد. يستمر بالعلاقة بدافع من شعوره بالواجب، فالفتاة ستتمزق إلى أشلاء أخلاقياً إن تخلى عنها؛ لهذا يكذب على زوجته بشأنها ليوفر عليها آلام الغيرة. بما أنه نوى أن يستمر

في زناه، فلم يذهب إلى الاعتراف. ولكي يهدئ شكوك زوجته يخبرها أنه راحل. هذا يورطه في الفعل الرهيب حقيقة، فكان يأخذ القربان المقدس وهو في حالة الخطيئة القاتلة. في هذا الوقت، هناك تعقيدات أخرى كلها سببت بنفس الطريقة، فيقرر سكوبي أخيراً أن الطريقة الوحيدة للخروج هي من خلال خطيئة الانتحار التي لا تغتفر. يجب ألا يسمح لأحد آخر بأن يقاسي بسبب موته؛ لهذا يجب أن يبدو انتحاره كأنه حادث. كما يحدث، يخطئ في أحد التفاصيل وتصبح حقيقة ارتكابه لجريمة الانتحار معروفة. ينتهي الكتاب بتلميح قس كاثوليكي بأرثوذوكسية شكاكة أن سكوبي ربما لن يحكم عليه باللعنة. لكن سكوبي لم يعلل نفسه بأمل كهذا. لقد ابيضّ كله وتيبست شفته العليا ورحل إلى ما اعتقد بشكل مؤكد أنه اللعنة بسبب انعدام الحشمة والنبل.

أنا لم أسخر من حبكة الكتاب. فقد ظل سخيفاً ومضحكاً تماماً كما أشرت حتى حين أُلبس بتفاصيل واقعية. الشيء الأكثر خطأ وبشكل واضح فيها هو دوافع سكوبي، فهي لم تفسر أفعاله بشكل كافٍ وملائم حتى لو صدقها المرء. سؤال آخر يظهر: لماذا كان مكان هذه الرواية في غرب أفريقيا؟ باستثناء إحدى الشخصيات، وهو تاجر سوري، كل الشيء كان يمكن أن يحدث في ضاحية من ضواحي لندن. الوجود الأفريقي لا يذكر إلا كخلفية أحياناً، والشيء الذي كان يجب أن يكون في ذهن سكوبي طوال الوقت -العداء بين البيض والسود والصراع ضد الحركة الوطنية المحلية- لم يذكر إطلاقاً. في الحقيقة، رغم أننا اطلعنا على أفكاره بتفصيل كبير، فهو نادراً ما بدا يفكر بخصوص عمله، وبعدئذ بالتفاصيل التافهة منه فقط، ولم يفكر بالحرب أبداً، رغم أن التاريخ كان عام ١٩٤٢ كل ما اهتم به هو تقدمه نحو اللعنة. عدم احتمالية هذا يعرض على خلفية كولونيالية، لكنها لااحتمالية حاضرة في صخرة برايتون ايضاً، وذلك ملزم أن ينتج عن فرض مخاوف لاهوتية على أناس بسطاء في أي مكان. الفكرة المركزية للكتاب أنه أفضل وأسمى روحياً أن تكون كاثوليكياً آثماً من أن تكون وثنياً فاضلاً. غراهام غرين سيوقع ربما بيان المريخي (ماريشان) الذي صدر بخصوص ليون بلوي، "ليس هناك سوى حزن واحد- ألا تكون قديساً" قول بيغاي مقتبس على صفحة العنوان ليعني أن الآثم "في صميم المسيحية" يعرف عن المسيحية أكثر مما يعرفه أي أحد آخر ما عدا القديس.

مثل هذه الأقاويل كلها تحتوي أو يمكن تحميلها الاقتراح المشؤوم بأن الحشمة الإنسانية العادية ليست ذات قيمة، وأن إثم أي امرئ ليس أسوأ من أي إثم آخر. بالإضافة إلى ذلك، من المستحيل ألا تشعر بنوع من التكبر في موقف السيد غرين، هنا وفي كتب أخرى غيره كتبت من وجهة نظر كاثوليكية صريحة. يظهر غرين أنه يشارك في الفكرة التي ترى أن هناك شيئاً ممتازاً في اللعن؛ الجحيم نوع من نادٍ ليلي من نوادي الطبقة العليا، مدخل مخصص للكاثوليك فقط، بما أن الآخرين غير الكاثوليك أجهل من أن يعتبروا مذنبين، مثل البهائم التي تنفق. لقد أخبرونا بحرص أن الكاثوليك ليسوا أفضل من أي أحد آخر وربما يملكون ميلاً ليكونوا أسوأ حتى بما أن إغراءاتهم أكبر. في روايات كاثوليكية حديثة، في كل من فرنسا وإنكلترا، الموضة في الحقيقة أن تتضمن قساوسة سيئين أو على الأقل غير ملائمين، كتغيير من الأب براون. (أتخيل أن أحد أهداف الكتاب الكاثوليكيين الإنكليز الشبان ألا يشبهوا تشيسترتون). لكن كل الوقت- ثمل، فاسق، مجرم أو ملعون تماماً- يحتفظ الكاثوليك بتفوقهم بما أنهم وحدهم يعرفون معنى الخير والشر. عرضياً، أفترض في لب القضية، وفي أغلب كتب غرين الأخرى، أن لا أحد خارج الكنيسة الكاثوليكية يملك أقصى المعرفة الأولية للعقيدة المسيحية. هذا الإعجاب الذي يصل إلى حد العبادة بالآثم المبرأ يبدو لي تافهاً وربما يكمن تحته إيمان ضعيف، لأن الناس حين يؤمنون بالجحيم لا يكونون مولعين بأخذ أوضاع على شفيره. إن محاولة إلباس التخمينات اللاهوتية باللحم والدم، ينتج سخافات سيكولوجية. في السلطة والمجد، الصراع بين القيم الدنيوية وقيم الآخرة مقنع، لأنه لا يحدث داخل شخص واحد. من الجانب الآخر هناك القس، مخلوق مسكين فقير، لكنه جعل بطلاً بإيمانه بالقوى الإعجازية؛ من الجانب الآخر هناك الملازم، يمثل العدالة الإنسانية والتقدم المادي وهو أيضاً شخصية بطل بطريقته. يستطيع كل منهما احترام الآخر ربما، لكنهما لا يفهمان بعضهما. القس في أي حال ليس لديه أفكار معقدة. في صخرة برايتون من جانب آخر الوضع المركزي لا يصدق بما أنه يفترض مقدماً أن أغبى شخص يمكن أن يكون قادراً على رقة فكرية عظيمة، بمجرد أن يتربى على الكاثوليكية. بينكي، عضو عصابة مضمار السباق، هو من النوع الشيطاني، بينما صديقته ضيقة الأفق تفهم وحتى تعرف الفرق بين

الصنفين "الصح" و"الخطأ" في سلسلة تيريزا لموriاك، الصرع الروحي لا ينتهك الاحتمالية، لأنه لم يزعم أن تيريزا شخص طبيعي وعادي. إنها روح مختارة، تسعى وراء الخلاص منذ فترة طويلة من خلال مسار صعب مثل مريض ممدد على أريكة طبيب نفساني. لنأخذ مثالاً معاكساً، إيفلين واو زيارة أخرى لبرايدزهيد، بالرغم من اللااحتماليات، التي يمكن ملاحظتها جزئياً لكون الكتاب كتب بالشخص الأول، تنجح لأن الوضع نفسه وضع عادي وطبيعي. الشخصيات الكاثوليكية تتخبط وترتطم ضد المشاكل التي تقابلها في حياة واقعية؛ ولا تنتقل فجأة إلى مستوى فكري مختلف فور تورط معتقداتها الدينية. سكوبي شخصية لا تصدق، لأن نصفيه الاثنين لا يتوافقان معاً. لو كان قادراً على الوصول إلى نوع الفوضى التي وصفت، لكان دخل فيها قبل ذلك بسنين. لو أنه شعر فعلاً أن الزنى خطيئة مميتة لتوقف عن ارتكابها؛ إن استمر فيها، لأوقظه شعوره بالإثم. لو آمن بالجحيم، فلن يخاطر في الذهاب إليه لمجرد أن يوفر مشاعر امرأتين عصابيتين. ويمكن للمرء أن يضيف أنه لو كان نوع الرجل الذي أخبرنا الكاتب عنه – رجل ميزته الشخصية الرئيسية رعبه من أن يسبب الألم- فلن يكون ضابطاً في شرطة استعمارية. هناك احتمالات أخرى بعضها ينشأ من طريقة السيد غرين في معالجته لعلاقة الغرام. كل روائي لديه تقاليده الخاصة به، وكما في رواية أي ام فوستر هناك ميل قوي للشخصيات أن تموت فجأة من دون سبب كافٍ، كذلك في رواية غراهام غرين هناك ميل للناس أن يذهبوا إلى السرير معاً من دون ابتهاج ورغبة واضحة من كلا الطرفين تقريباً. في أحوال كثيرة هذا معقول نوعاً ما، لكن في لب القضية أثره أن يضعف دافعاً ينبغي أن يكون قوياً لأغراض في القصة. مرة أخرى هناك الخطأ المعتاد الذي لا مفر منه في جعل كل واحد رفيع الثقافة جداً. ليس الميجور (الرائد) سكوبي عالم لاهوت. زوجته، التي صورت كغبية تماماً، تقرأ الشعر، بينما المفتش الذي أرسله فيلق الأمن الميداني ليتجسس على سكوبي، يكتب الشعر أيضاً. هنا يقف المرء بمواجهة حقيقة أنه ليس من السهل على الكتاب الحديثين تخيل العمليات العقلية لأي شخص ليس كاتباً. يحزن المرء حين يتذكر الروعة التي كتب فيها من مكان آخر في أفريقيا. كان على السيد غرين أن يكتب هذا الكتاب من تجاربه الأفريقية في زمن الحرب. واقعة أن يكون مكان وزمان

الكتاب في أفريقيا، بينما الفعل يحدث كله تقريباً داخل جالية بيضاء صغيرة جداً، يعطي جواً من التفاهة. لكن على المرء ألا يفرط في الانتقاد. من المسر رؤية السيد غرين يبدأ ثانية بعد صمت طويل، وفي إنكلترا ما بعد الحرب قدرة رائعة لروائي أن يكتب رواية. في أي حال لم يكن السيد غرين مشوشاً دائماً تفسده العادات التي اكتسبها أثناء الحرب كالكثيرين جداً غيره. لكن يأمل المرء أن يكون لكتابه القادم موضوعاً مختلفاً، أو إن لم يكن ذلك، أن يتذكر على الأقل أن إدراك غرور الأشياء الدنيوية، رغم أنها قد تكون كافية للدخول إلى النعيم، ليس معدات كافية لكتابة رواية.

نيويوركر ١٧ يوليو/ تموز ١٩٤٨.

صباح عظيم
لأوزبيرت سيتويل

بسبب سنوات الحرب المتتالية التي ترتفع عالياً كسلسلة هضاب بيننا وبين الماضي، تصبح السيرة الذاتية نوعاً من المتاجرة بالكتب الأثرية. لا يحتاج المرء إلا أن يكون فوق الأربعين من العمر ليتذكر الأشياء البعيدة جداً عن عصرنا الحالي مثل دروع الحماية أو أحزمة العفة. علّق أناس كثيرون بحنين على حقيقة أنه قبل عام ١٩١٤ يمكنك السفر إلى أي بلد في العالم ما عدا روسيا من دون جواز سفر. لكن ما لفت انتباهي في استعادة الماضي وأدهشني حتى، أنه كان بإمكانك في تلك الأيام أن تدخل إلى محل دراجات هوائية -محل دراجات عادي وليس محل بيع وتصليح أسلحة- وتشتري مسدساً وخرطوشاً من دون أن يسألك أحد. من الواضح أن ذلك لن يكون الجو الذي سنراه مرة أخرى. وحين يكتب السير أوزبيرت سيتويل عن عالم "ما قبل ١٩١٤" بندم ظاهر لا يمكن وصف عواطفه بالرجعية. تتضمن الرجعية محاولة استعادة الماضي، ولو كانت هناك إمكانية تخيل إرجاع العالم إلى أنموذج عام ١٩٣٨ فلن يكون هناك شك في استعادة العصر الإدواردي أكثر من إحياء الالبغانيزية (طائفة إصلاحية تعارض الكنيسة- التسمية نسبة إلى مدينة البي الفرنسية).

لا نعني أن سنوات السير أوزبيرت الأولى كانت خالية من الهموم تماماً، كما يفترض بقراء مجلديه الأولين من سيرته أن يلاحظوا. كان والده السير جورج سيتويل رجل متعباً في أي نوع للتعامل معه: عبقرية معمارية ضائعة، بدد مبالغ مالية خيالية في مخططات معمارية مهووسة بالعظمة، امتدت إلى تبديل المنظر الطبيعي وبناء بحيرات اصطناعية ماؤها يسيل في مناجم الفحم في الأسفل. وسبب دعاوي قضائية لا نهاية لها -كل هذه الوقت يعتبر شلن واحد في الأسبوع كافياً لمصروف صبي في التاسعة عشرة من العمر ويرفض حتى إنقاذ زوجته من براثن مقرض نقود. الهندسة المعمارية لوحدها، هدفه الرئيسي في الحياة -ليس من خبث صريح وإنما كنوع من الهزل العملي- كان أن يجبر كل واحد مرتبط به على فعل كل ما لا يحب. دفع أوزبيرت الذي اشتهر ببغضه للخيول، إلى فوج الخيالة، ثم فرّ إلى حرس الرمانات اليدوية، ثم

حين بدا سعيداً جداً في الحرس، وجد وظيفة في مكتب تاون كلارك في سكاربورو، بعد تلقيه دروساً في تحسين الخط في عمر العشرين. أنقذته الحرب من هذا، لكن شقيقه وشقيقته عوملا بالمثل. رغم ذلك، فإن السنين القليلة الأخيرة قبل الحرب كانت سعيدة وعوضته عن وضعه الشاذ كابن رجل ثري، هو محق ربما في الشعور بأن الحياة الإنكليزية كانت مبهجة ومسرة آنذاك ولن تستعاد أبداً.

الحياة في الحرس كانت ممتعة، لأنها تعني أن تكون في لندن التي تعني بدورها المسارح والموسيقى والمعارض الفنية. أخ أوزبيرت الضباط كانوا متحضرين ومتسامحين، وحتى العقيد الكولونيل سامحه للجلوس في مقهى مع جاكوب إبستين الذي كان في لباس جندي عادي. كان عصر شاليبان والباليه الروسي وانتعاش اهتمام جدي بالموسيقا والرسم في إنكلترا.

كان أيضاً عصر الراغ والتانغو و"الكنوتات -الكسالى الأثرياء" والقوارب السكنية والتنانير المقيدة ونثر الثروة ذهاباً وإياباً بشكل لم يعرفه العالم منذ الإمبراطورية الرومانية المبكرة. لقد تدمرت البيوريتانية الفيكتورية أخيراً، كانت النقود تنهمر من كل صوب وحدب، والشعور بالذنب الذي هو الآن شكل لا ينفصل عن موقع متميز، لم يتطور بعد. بارني بارناتو والسير ويليام وايتلي اعتبرا أنموذجين يقلدان، ونال التظاهر بالغنى الإطراء وليس الغنى فقط. الحياة في لندن كانت جولة لا تنتهي من التسلية بشكل غير مسبوق، ولا يمكن تخيله الآن: فرقة موسيقية واحدة في بيت واحد لم يعد كافياً، يجب أن يكون هناك اثنتان أو حتى ثلاثة. مراوح كهربائية تدور بسرعة على قمم من كتل هائلة من الجليد، مطمورة في صفوف من الشجيرات الكوبية، مثل القوارب الكبيرة التي تغادر إلى سيانيرا. لم تكن هناك عروض للزهور كهذه قط... لم تر أوروبا قط هكذا أكوام من الخوخ والتين والدراق والفراولة في كل المواسم، تجلب من خيم زجاجية ينطلق منها البخار. تنتصب قناني الشمبانيا مكدسة على المائدة... كالضيوف، فقط الفقراء من أي عرق ممنوعين. حتى الأجانب يمكنهم الدخول إن كانوا أغنياء. كان هناك أيضاً حياة البيوت الريفية مع جماعاتها من الخدم. أوزبيرت، معادٍ للخيول، كان رجل صيد، لكنه استمتع بحملات إطلاق النار والأسهم رغم أو ربما بسبب حقيقة أنه لم ينجح في قتل أي شيء أبداً، وبأحاديثه مع حارس الطرائد العجوز النكد المزاج، أنموذج رجل انقرض الآن -النوع الذي يقبل أي وضع من العبودية وضمن

ذلك الإطار قادر على التمتع باستقلال كبير. طبعاً إن حدث ولم تكن تنتمي إلى عالم الشمبانيا وبيوت الفراولة الحارة (البلاستيكية) فإن الحياة قبل ١٩١٤ فيها معيقات خطيرة. حتى في هذا اليوم وبعد حربين مميتتين فإن العمال اليدويين في كل أرجاء العالم أفضل بالمعنى البدني مما كانوا عليه آنذاك. لكن هل يظل هذا صحيحاً بعد حرب ثالثة ستدار بالقنابل الذرية هذه المرة؟ أو حتى بعد خمسين سنة من تآكل التربة وتبديد موارد الوقود العالمية؟ قبل ١٩١٤ كان الناس يملكون ميزة لا تقدر بثمن في عدم معرفتهم متى تأتي الحرب وإن عرفوا فلن يتنبأوا كيف ستكون. السير أوزبورت لا يدعي أكثر من أن الحياة في تلك الأيام كانت متعة للأقلية ذات الامتيازات، ومثل كل من قرأ قبل القصف يعرف ويدرك تماماً كل سوقية العصر وغرابته. يبدو موقفه السياسي حسب ما يتضمنه هذا الكتاب موقفاً ليبرالياً معتدلاً. يقول: "في تلك الأيام كان الأغنياء محترمين كثيراً ويشتمون بشكل جائر كما يحدث الآن، لكنه في صيف عام ١٩١٤ الذهبي استمتع بالغنى وهو صادق في قوله هذا. توجد الآن فكرة واسعة الانتشار، وهي أن مشاعر الحنين للماضي شريرة بشكل متأصل. ينبغي على المرء ظاهرياً أن يعيش في حاضر مستمر وإلغاء متواصل للذاكرة، وإن فكر المرء بالماضي، يجب أن يكون لكي يشكر الرب أننا أفضل بكثير مما كنا فيه. هذا يبدو لي نوعاً من جراحة تجميلية للفكر، الدافع خلفها رعب متكبر من الهرم والكبر. ينبغي على المرء أن يدرك أن الكائن البشري لا يستطيع الاستمرار في التطور بشكل غير محدود، وأن الكاتب بالخصوص يتخلص من ميراثه إن أنكر تجربته في حياته المبكرة. أن نتذكر ذلك الفردوس المفقود "قبل الحرب" -أي قبل الحرب الأخرى، فذلك عقبة خطيرة في طرق كثيرة، وهذا ميزة في طرق أخرى. لكل جيل تجربته الخاصة وحكمته الخاصة به، ورغم ذلك هناك شيء كالتقدم الفكري، لذلك تكون أفكار عصر ما أقل سخافة من تلك التي سبقته أحياناً -لكن يمكن للمرء أن يكتب كتاباً جيداً بالالتصاق برؤيته المكتسبة المبكرة أكثر من محاولة عقيمة في "استمر في". إن الشيء العظيم هو أن تكون في عصرك وتكون صادقاً حول أصولك الاجتماعية. في ثلاثينيات القرن العشرين رأينا جيلاً أدبياً كاملاً أو على الأقل الأفراد الأبرز من جيل يدعون إما أنهم بروليتاريون أو يطلقون العنان في طقوس علنية عامة من كره الذات لأنهم لم يكونوا بروليتاريين. حتى لو حافظوا على هذا الموقف (اليوم، عدد مذهل منهم إما فروا إلى أمريكا أو وجدوا أنفسهم في

وظائف في البي بي سي أو البريتش كانسيل)، ذلك غباء لأن أصلهم البرجوازي لم يكن شيئاً يمكن تبديله. من فضائل السير أوزبيرت أنه لم يتظاهر أن يكون شيئاً آخر غير نفسه: فرد من الطبقات العليا مع موقف المرتاح واللاهي الذي يظهر في أسلوبه في الكتابة والذي لا يمكن أن يكون إلا نتاج تربيته ونشأته المترفة. من المحتمل، بقدر ما تخدمه ذاكرته، يدوّن الأشياء التي يحبها والتي يكرهها بدقة، الذي يحتاج دائماً إلى شجاعة أخلاقية. كم سيكون الأمر سهلاً للكتابة عن إيتون أو حرس رماة الرمانات بروح من تفوق ساخر، مع تضمين ذلك من فترة الشباب المبكرة أنه كان حامل عواطف مستنيرة، والتي هي في الحقيقة لا يحملها شخص وضع في مكان مريح قبل جيل. أو كم من السهل من الجانب الآخر لتقف مدافعاً وتحاول أن تثبت مظالم ولامساواة العالم الذي نشأت وكبرت فيه. هو لم يقم بأي من الأمرين، وفي النتيجة فإن هذه المجلدات الثلاثة (**يد يسرى، يد يمنى والشجرة القرمزية وصباح عظيم**)، رغم أن المدى الذي تغطيه ضيق جداً، يجب أن تكون من بين أفضل كتب السيرة في عصرنا.

ادلفي، يوليو/سبتمبر ١٩٤٨.

قصة بورما
بقلم تينيسون جيسي

إن تاريخ بورما عبارة عن أسطورة حتى القرن الحادي عشر، ويبقى ضبابيا حتى منتصف القرن الثامن عشر حين هزم البورميون أخيراً السكان الأصليين للبلاد، التالاينغ. ليس المراد من كتاب الآنسة تينيسون جيسي أن يكون تأريخاً للأحداث أصلاً، فهي تنزلق فوق الفترة المبكرة وتهملها وتركز على النقاط المهمة والفارقة في التاريخ الحديث لبورما -ضم بورما العليا في عام ١٨٨٥ وتعتقد أن الأخطاء التي ارتكبت بعدئذ كانت مسؤولة عن فشل البريطانيين في بناء إدارة سليمة وشعبية، ولهذا يلامون من أجل انهيار عام ١٩٤٢.

ربما لم يقع اللوم على السلوك البريطاني في بورما، كما حاولت الآنسة تينيسون أن تبين، لكن من الأكيد لو لم يخسر البورميون استقلالهم لصالح البريطانيين، فإنهم كانوا سيخسرونه إلى قوة أخرى، ربما فرنسا. جغرافيا بورما بلاد معزولة، وبقي أهلها لقرون كثيرة يجهلون العالم الخارجي تماماً. والغريب أنهم في عام ١٨٢٠ تقريباً فكروا في إرسال جيش بورمي لغزو الهند وجلب الحاكم العام مقيداً والتقدم واحتلال لندن إن دعت الضرورة. بعد أن جرى ضم بورما السفلى، كانت بورما العليا ستلحق بها عاجلاً أو آجلاً حتماً، ولكن رغم ذلك ارتكب الملك ثيباو السكير وزوجته سوبايالات كل خطأ استطاعا فعله. لقد تعرض التجار البريطانيون والهنود إلى إهانات بطرق لا تحتمل، وكانت مذابح ثيباو السياسية الدورية لرعاياه- احتفل بوصوله إلى العرش بإعدام إخوته الثمانين تقريباً -ترعب حتى البريطانيين المعادين للإمبريالية. حين حدث الغزو أخيراً تبدد جيش ثيباو النظامي من دون قتال، على الرغم من العصابات التي ظلت تحارب سنيناً بعد ذلك.

تعتقد الآنسة تينيسون جيسي أن الخطأ الكبير الفادح كان إلغاء النظام الملكي. كان من الضروري خلع ثيباو من العرش، ولكن كان من الضروري تنصيب أمير آخر على العرش بدلاً منه. كما حدث، لقد تدمر رمز السيادة الذي اعتاد عليه البورميون لقرون، وأضعفت

كثيراً سلطة الكهنوت بشكل غير مباشر والتي تعتمد عليها الحياة الأخلاقية للبلاد. تمزق النظام القديم وأرهقت بورما بنظام قانوني وإداري وتعليمي كان غريباً بالنسبة إلى البلاد، ولم يتجذر فيها. ونتيجة لذلك ازدهرت الجريمة، وامتهن الكهنوت السياسة، وتحولت الجامعات إلى إنتلجنسيا عاطلة عن العمل، وأصبحت عمود الحركة القومية. وكانت كل الصفوف الدنيا من الإدارة فاسدة بشكل عصي على الشفاء. في الوقت نفسه بقيت بورما متخلفة جداً في طرق كثيرة، وعملياً بقيت كل تجارة الجملة بيد البريطانيين أو الهنود والصينيين، وحتى القوات المسلحة كانت من شعوب غير بورمية. ازدادت حدة الاستياء طبعاً، ورغم أن الغزاة اليابانيين لم ينالوا تأييداً فعالاً كبيراً، فلم يكن الولاء لنظام الحكم البريطاني عاملاً في الوضع بالقدر الذي يهم البورمي. يشارك الآنسة تينيسون جيسي آراءها عدد آخر من المتعاطفين مع بورما. إنها ترى ضمناً: أن الأفضل لو شجعت بورما على الخروج من العصور الوسطى ببطء شديد، وذلك يعني قبل كل شيء أن تحاول الحفاظ على الدين البوذي في كل نقائه. تحت هذا يكمن الاعتقاد أننا لو لم نفرض المؤسسات الغربية بالقوة على بورما، لما ظهرت حركة قومية معادية لبريطانيا أبداً. هذا يبدو موضع شك. لقد كان الشعور القومي الذي لم يكن له أن يكون إلا معادياً لبريطانيا بسبب الظروف محتماً، وكان سيتطور بمسار أو بآخر. وكان الوعد في تحدي البلاد قد أعطى الدعاية اليابانية كثيراً من جاذبيتها. يبدو أن الآنسة تينيسون جيسي قد قللت من أهمية القومية الآسيوية والشعور اللوني، وقد قدرت عدد الطابور الخامس في بورما خلال حملة عام ١٩٤٢ بخمسة آلاف، وهذا بخس واضح وخطير. هذا الكتاب مسح شعبي مفيد بشرط أن يتذكر القارئ أنه كتب من وجهة نظر ما يمكن تسميته إمبريالية خيرة. وفي الوقت الذي كانت فيه رقيقة نحو البورميين، كانت بلا شك محسنة جداً نحو البريطانيين.

أوبزيرفر، ٢٤ فبراير/ شباط ١٩٤٦.

اكتشاف أوروبا من جديد

حين كنت صبياً صغيراً علمونا مادة التاريخ -بشكل رديء جداً، طبعاً ككل واحد في إنكلترا تقريباً- كنت أعتبر التاريخ نوعاً من لفيفة ورقية مع خطوط سوداء سميكة مسطرة فوقها على فواصل، وكل واحد من هذه الخطوط يحدد نهاية ما سمي "فترة"، وكنا نميل إلى الفهم أن ما يأتي فيها بعد مختلف تماماً عما سبقه. إنه أشبه بساعة تدق. فمثلاً في عام ١٤٩٩ أنت تظل في العصور الوسطى مع فرسان في دروع كالأطباق يهجمون على بعضهم البعض برماح طويلة، ثم فجأة تدق الساعة ١٥٠٠ فتكون في شيء سمي بعصر النهضة كل شخص فيه لبس طوق الرقبة وصدرة ضيقة ومنشغل بسرقة سفن الكنوز على البر الإسباني. هناك خط آخر أسود وسميك جداً رسم في سنة ١٧٠٠ بعده كان القرن الثامن عشر وتوقف الناس فجأة عن كونهم فرساناً وبيوريتانيين، ليصبحوا سادة مهذبين أنيقين بشكل مفرط في سراويل للركبة وقبعات مثلثية يضعون المساحيق على شعورهم ويأخذون السعوط ويتحدثون في جمل موزونة بدقة، تبدو متكلفة لأنهم يلفظون حرف السين كحرف الفاء، وذلك لسبب لم أفهمه. التاريخ كله كان مثل ذلك في ذهني - سلسلة من فترات مختلفة تماماً تتغير فجأة وبسرعة في نهاية قرن أو في كل الأحوال في تاريخ محدد بوضوح.

هذه الانتقالات المفاجئة السريعة لا تحدث الآن في الواقع، فكل عصر يستمر في العيش ضمن العصر الذي يليه - يجب أن يكون الأمر هكذا لوجود حيوات إنسانية لا تحصى تجسر كل فجوة، ومع ذلك هناك أشياء كالفترات. نحن نشعر أن عصرنا يختلف بعمق عن الفترة الفيكتورية المبكرة مثلاً، وسيشعر شكاك من القرن الثامن عشر مثل جيبون بنفسه وسط متوحشين لو أقحمته فجأة في العصور الوسطى. بين الفينة والأخرى يحدث شيء ما -لا شك أنه يعزى إلى التغييرات في التقنيات الصناعية، رغم عدم وضوح الرابط دائماً- وكل روح وإيقاع تغيرات الحياة فيكتسب الناس نظرة جديدة تعكس نفسها في تصرفاتهم السياسية وسلوكهم وهندستهم المعمارية وأدبهم وكل شيء آخر. لم يستطع أحد اليوم أن يكتب مثل قصيدة غراي "مرثاة في فناء كنيسة ريفية" مثلاً، ولم يستطع أحد أن يكتب غنائيات شكسبير في عصر غراي.

هذه الأشياء تنتمي إلى فترات مختلفة، ولكن تلك الخطوط السوداء فوق صحة التاريخ وهم طبعاً، فهناك أوقات كان فيها الانتقال سريعاً جداً، شيء سريع بما يكفي لأن يكون ميسراً لإعطائه تاريخاً دقيقاً بوضوح. يستطيع المرء أن يقول من دون تبسيط بأنه مفرط فادح، "في تلك السنة بدأ ذلك الأسلوب الأدبي" ولو سئلنا عن نقطة بداية الأدب الحديث- وحقيقة أننا لا نزال نسميه "حديث"، يبين أن تلك الفترة بالخصوص لم تكتمل بعد - سوف أضعها في عام ١٩١٧ في السنة التي نشر فيها إليوت قصيدته "بروفروك". وبأي حال فإن ذلك التاريخ ليس أكثر من خمس سنوات من النهاية. من المؤكد أن المناخ الأدبي تبدل في حوالي نهاية الحرب الأخيرة، وأصبح الكاتب الأنموذجي شخصاً مختلفاً تماماً، وبدت تتواجد أفضل الكتب في الفترة التالية في عالم مختلف عن أفضل الكتب قبل أربع أو خمس سنوات فقط.

لنوضح ما أقصده، أسألك أن تقارن في ذهنك بين قصيدتين ليس بينهما أي رابط لكنهما تكفيان لغرض المقارنة، لأن كل واحدة منهما أنموذجية تماماً عن فترتها. قارن إحدى قصائد إليوت المميزة المبكرة مع قصيدة لروبرت بروك مثلاً، الذي كان، يجب أن أقول الشاعر الفائز بأكبر قدر من الإعجاب في السنوات التي سبقت عام ١٩١٤. ربما القصائد الوطنية هي أكثر من يمثل قصائد بروك، كتبت في الأيام الأولى من الحرب. قصيدة جيدة السونيتة البداية: إن كنت سأموت، فكر بهذا مني فقط: بأن هناك ركناً ما في حقل أجنبي/ ذلك الركن سيبقي إنكلترا إلى الأبد.

الآن أقرأ جنباً إلى جنب مع قصائد إليوت السوينية، مثلاً، "سويني وسط طيور العندليب" - كما تعرف

دوائر القمر العاصفة/ تنزلق غرباً باتجاه ريفر بليت

وكما أقول، ليس هناك أي رابط بين هاتين القصيدتين في الموضوع أو أي شيء آخر لكن من الممكن المقارنة بينهما بطريقة ما، لأن كلاً منهما ممثلة لفترتها الزمنية، وكل واحدة تبدو قصيدة جيدة حين كتبت. الثانية لاتزال تبدو قصيدة جيدة الآن.

ليس الأسلوب فقط بل كل الروح والنظرة الضمنية للحياة والممتلكات الروحية الشخصية الثقافية لهاتين القصيدتين تختلف بشكل عميق جداً. هناك هاوية ضخمة بين الشاب الإنكليزي مع خلفية مدرسية وجامعية الذي يخرج متحمساً ليموت من أجل بلاده

ورأسه مترع بالأزقة الإنكليزية والزهور البرية، وبين الأميركي العالمي المتضائل الذي يرى بنظرة خاطفة الأبدية في مطعم حقير نوعاً ما في الحي اللاتيني في باريس. قد تكون مجرد فرق فردي، لكن المغزى أنك وقعت على نفس النوع من الفرق، فرق يثير نفس التشابهات لو قرأت جنباً إلى جنب أي كاتبين مميزين من الفترتين. الأمر نفسه مع الروائيين كما الشعراء - جويس ولورانس وهكسلي ويندهام لويس من جانب، ويلز بينيت وغلاسورثي من الجانب الآخر مثلاً. الكتاب الأجدد أقل خصباً بشكل هائل من الآخرين وأكثر تشكيكاً واهتماماً بالأسلوب وأقل تفاؤلاً وبشكل العام أقل ثقة بنظرتهم إلى الحياة. لكن أكثر من ذلك، فأنت تشعر طول الوقت أن خلفيتهم الثقافية والفنية مختلفة أكثر مما حين تقارن كاتباً فرنسياً من القرن التاسع عشر مثل فلوبير مع كاتب إنكليزي من القرن التاسع عشر مثل ديكنز. الرجل الفرنسي يبدو أرفع ثقافة بشكل هائل من الرجل الإنكليزي، لكنه ليس كاتباً أفضل بالضرورة بسبب ذلك. لكن دعوني أعود إلى الوراء قليلاً، وأفكر ملياً كيف كان الأدب الإنكليزي في الأيام السابقة لعام ١٩١٤.

عمالقة ذلك الزمن كانوا توماس هاردي رغم توقفه عن كتابة الروايات قبل بعض الوقت من ذلك، وشو ويلز وبينيت وكيبلينغ وغلاسورثي، وجوزيف كونراد المختلف إلى حد ما عن الآخرين بكونه غير إنكليزي إنما بولوني اختار أن يكتب بالإنكليزية. هناك ايه أي هاوسمان (غلام الخراف الإنكليزية) وشعراء جورجيون متعددون وروبرت بروك وآخرون. هناك أيضاً عدد لا يحصى من الكتاب الهزليين السير جيمس باري ودبليو دبليو جاكوبز وباري بين وكثيرين غيرهم. لو قرأت كل هؤلاء الكتاب الذين ذكرتهم، فلن تخرج بصورة مضللة للعقل الإنكليزي قبل عام ١٩١٤. هناك نزعات أدبية أخرى فاعلة، هناك كتاب ايرلنديون مختلفون مثلاً من وريد مختلف وأقرب إلى زمننا بكثير، وهناك الروائي الأميركي هنري جيمس. لكن التيار الرئيسي كان التيار الذي أشرت إليه. لكن ما هو القاسم المشترك بين كتاب متباعدين جداً كأفراد مثل برنارد شو وايه أي هاوسمان أو توماس هاردي واتش جي ويلز؟ أظن أن الحقيقة الأساسية حول كل الكتاب الإنكليز في ذلك الوقت، هو جهلهم التام بأي شيء خارج المشهد الإنكليزي المعاصر لهم. بعضهم ككتاب أفضل من غيرهم، وبعضهم كانوا واعين سياسياً، وبعضهم الآخر لم يكونوا كذلك، لكنهم يتساوون بأن التأثير الأوروبي لم

يلمسهم. هذا صحيح حتى لروائيين مثل بينيت وغلاسورثي الذي استمد بإحساس سطحي من النماذج الفرنسية والروسية. كل هؤلاء الكتاب لديهم خلفية حياة الطبقة الوسطى الإنكليزية العادية المحترمة، وإيمان شبه واع بأن هذه الحياة ستستمر إلى الأبد وتزداد إنسانية وتنوراً باستمرار. كان بعضهم متشائماً في نظرته مثل هاردي وهاوسمان، لكنهم كلهم آمنوا على الأقل بأن ما سمي بالتقدم سيكون مرغوباً إن كان ممكناً. يترافق مع نقص رقة الشعور الفني أيضاً شيء- كلهم اهتموا بالماضي وخصوصاً الماضي البعيد. من النادر أن تجد كاتباً من ذاك الوقت لديه ما نعتبره الآن إحساساً بالتاريخ. حتى توماس هاردي حين حاول كتابة دراما ضخمة مبنية على الحروب النابليونية -**السلالة الحاكمة**، كما سماها- رآها كلها من زاوية كتاب مدرسي وطني. كما كانوا كلهم غير مهتمين بالماضي جمالياً؛ فقد كتب أرنولد بينيت مثلاً، مقداراً كبيراً من النقد الأدبي، ومن الواضح أنه عجز تقريباً عن رؤية أي قيمة في أي كتاب من قبل القرن التاسع عشر. وفي الواقع لم يكن لديه أي اهتمام بأي كاتب سوى معاصريه، ورأى برنارد شو أن أغلب الماضي مجرد فوضى ينبغي أن يطمس باسم التقدم وعلم الصحة والكفاءة وغيرها. أما اتش جي ويلز، رغم أنه كتب تاريخاً للعالم في وقت لاحق، فقد نظر إلى الماضي بنفس النوع من التقزز المدهش كما ينظر الإنسان المتمدن إلى قبيلة من أكلة لحوم البشر. كل هؤلاء الناس سواء أحبوا عصرهم أم لا، فقد اعتبروه أفضل من سابقه على الأقل، وسلموا بالمعايير الأدبية لزمنهم. إن أساس كل هجمات برنارد شو على شكسبير، إنه لم يكن عضواً متنوراً من الجمعية الفابية. لو قيل لأي واحد من هؤلاء الكتاب إن الكتاب الذين سيأتون بعدهم مباشرة سيرجعون إلى الشعراء الإنكليز في القرنين السادس عشر والسابع عشر وإلى الشعراء الفرنسيين في منتصف القرن التاسع عشر وإلى فلاسفة العصور الوسطى، فإنهم سيعتبرونهم نوعاً من هواة الفن.

لكن الآن انظر إلى الكتاب الذين بدؤوا بجذب الاهتمام -بعضهم بدأ الكتابة أبكر قليلاً، طبعاً- بعد الحرب الأخيرة فوراً: جويس وإليوت وباوند وهكسلي ولورانس ويندهام لويس. انطباعك الأول عنهم مقارنة بالآخرين -هذا صحيح مع لورانس- أن شيئاً ما قد خرق. بداية، فكرة التقدم رفضت وأهملت. لم يعودوا يؤمنون بأن الناس يتحسنون أكثر فأكثر عبر بتحقيقهم تخفيضاً بنسبة الوفيات وتحكم أكبر بمعدل الولادات وأنابيب مياه أفضل

وطيارات أكثر وسيارات أسرع. كانوا كلهم تقريباً تواقين إلى الماضي البعيد أو فترة ما من الماضي من أترووريا القديمة للكاتب دي اتش لورانس فصاعداً. وكانوا رجعيين سياسياً، أو في أفضل حال غير مكترثين بالسياسة. لم يهتم أحد منهم البتة بالإصلاحات الزائفة المتنوعة التي بدت هامة لسابقيهم مثل حق اقتراع النساء وإصلاح ضبط معاقرة الخمر وضبط الولادات ومنع المعاملة الوحشية للحيوانات. كلهم أكثر وداً أو أقل عداء من الجيل الذي سبقهم نحو الكنائس المسيحية. كلهم تقريباً بدوا ناشطين فنياً بطريقة لم يعرفها أي كاتب إنكليزي منذ انبعاث الرومانتيكية.

لا أحد يستطيع توضيح ما أقوله بالشكل الأمثل بواسطة مثال فردي، أي، بمقارنة كتب بارزة من نوع متشابه في الفترتين. كمثال أول قارن قصص اتش جي ويلز القصيرة -هناك عدد كبير منها جمع معاً بعنوان بلاد العميان- مع قصص دي اتش لورانس القصيرة كالتي في إنكلترا إنكلترتي والضابط البروسي.

هذه مقارنة ليست ظالمة، بما أن كل من هؤلاء الكتاب كان في أفضل أحواله أو قريباً من الأفضل في القصة القصيرة، وكان كل منهم يجرب نسخة جديدة من الحياة التي كان لها تأثير عظيم على شباب جيله. الموضوع الرئيسي الجوهري لقصص جي اتش ويلز، هو الاكتشاف العلمي أولاً وبعده وتقليد من هو أفضل منك، والمآسي الهزلية للحياة الإنكليزية المعاصرة، خصوصاً حياة فقراء الطبقة الوسطى. "رسالته" الأساسية، سأستخدم تعبيراً لا أحبه، أن العلم يستطيع حل كل ما ورثته الإنسانية، لكن الإنسان في الوقت الحاضر أعمى ليرى إمكانية قدراته. التناوب بين المواضيع اليوتوباوية الطموحة وبين الكوميديا الخفيفة، في دبليو دبليو جاكوبز، واضح جداً في عمل ويلز. هو يكتب عن رحلات إلى القمر وإلى قاع البحر، ويكتب أيضاً عن أصحاب محلات صغيرة يتهربون من الإفلاس ويقاتلون ليبقوا مبتهجين في ظروف صعبة في تقليد بغيض خاص بالبلدات الريفية. الرابط الواصل هو إيمان ويلز بالعلم. هو يقول دائماً، لو اكتسب هؤلاء الحانوتويين الصغار نظرة علمية فقط، لانتهت مشاكلهم. وطبعاً هو يؤمن بأن هذا سوف يحدث، ربما في المستقبل القريب. بضعة ملايين أخرى من الجنيهات للبحث العلمي وبضعة أجيال أخرى من المثقفين علمياً وبضع خرافات أخرى ترمى في سلة النفايات وتتم المهمة. الآن لو عدت إلى قصص لورانس، فانك لن تجد هذا

الإيمان في العلم- بدلاً منه العداوة نحوه، إذاً أي شيء- ولن تجد أي اهتمام واضح في المستقبل، بالتأكيد ليس في المستقبل المعقلن المفرط بالمتعة الذي عالجه ويلز. أنت لا تجد الفكرة حتى بأن أصحاب الحوانيت الصغيرة أو أي ضحية أخرى لمجتمعنا ستكون أفضل إن اكتسبت تعليماً أفضل. ما تجده هو تضمين ملح بأن الإنسان ضيع حق بكورته حين بات متحضراً. الموضوع الأساسي الرئيسي لكل كتب لورانس تقريباً، هو فشل الناس المعاصرين، وخصوصاً في البلدان الناطقة باللغة الإنكليزية بأن يعيشوا حياتهم بطريقة عميقة وشديدة كافية. بالطبع هو يركز أولاً على حياتهم الجنسية. وحقيقة أن أغلب كتب لورانس تتركز حول الجنس، لكنه لم يطالب كما يظن أحياناً بالمزيد مما يسميه الناس الحرية الجنسية. خاب أمله تماماً حول ذلك، ويكره ما سمي تكلف المثقفين البوهيميين، بقدر ما كره نزعة التزمت لدى الطبقة الوسطى. ما يقوله بسيط تماماً، وهو أن الرجال العصريين ليسوا أحياء تماماً، سواء أخفقوا عبر معاييرهم الضيقة جداً أو عبر عدم امتلاكهم لأي معيار. بالتسليم أنهم يستطيعون أن يحيوا تماماً، فإنه لم يكترث كثيراً بأي نظام اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي يعيشون في ظله. هو يأخذ التركيبة الموجودة للمجتمع مع فروقه الطبقية وهلم جرا، تلك المسلم بها في قصصه، من دون أن يبدي أي رغبة ملحة في تغييرها. كل ما يطلبه أن الناس سوف يعيشون ببساطة أكثر وأقرب إلى الأرض مع إحساس بسحر الأشياء مثل الحياة النباتية والنار والماء والجنس والدم، أكثر مما يستطيعون في عالم من السيليوليد والإسمنت المسلح؛ حيث لا تتوقف الفونوغرافات عن العزف. هو يتخيل -وهو مخطئ على الأرجح- أن الشعوب الهمجية أو البدائية عاشت بقوة أكبر من الناس المتحضرين، ويبني صورة إنسان أسطوري غير بعيد عن كونه المتوحش النبيل مرة أخرى. أخيراً هو يسقط هذه الفضائل على الأتروريين، الشعب القديم الذي عاش في إيطاليا قبل الرومان، والذين لا نعرف عنهم شيئاً في الحقيقة. من وجهة نظر ويلز، كل هذا الهجر للعلم والتقدم والرغبة الفعلية في العودة إلى البداءة، مجرد هرطقة وهراء. ومع ذلك يجب الاعتراف أن نظرة لورانس إلى الحياة سواء كانت صحيحة أو منحرفة، فهي على الأقل خطوة متقدمة على عبادة العلم عند اتش جي ويلز أو النزعة التقدمية الفابية الضحلة عند كتاب مثل برنارد شو. إنها متقدمة بمعنى أنها ناتجة عن إدراك زيف الموقف الآخر، وليس من التقصير والفشل في مضاهاته. جزئياً ذلك كان أثر حرب ١٩١٤-١٩١٨ التي نجحت في

فضح العلم والتقدم والإنسان المتحضر وإفراغهم. لقد انتهى التقدم أخيراً بأكبر مجزرة في التاريخ. العلم شيء اخترع الطائرات القاذفة والغازات السامة والإنسان المتحضر، كما تبين، كان مستعداً ليتصرف بشكل أسوأ من أي همجي عند الاضطرار. لكن سخط لورانس على الحضارة الآلية الحديثة سيكون نفسه بلا شك، حتى لو لم تحدث حرب ١٩١٤-١٩١٨.

الآن أريد أن أجري مقارنة أخرى بين رواية جويس العظيمة **يوليسيس**، وبين الرواية الكبيرة جداً المتسلسلة **قصة فورسايت البطولية** لجون غلاسورثي. هذه المرة هي ليست مقارنة عادلة، في الواقع هي مقارنة بين كتاب جيد وكتاب رديء، وهي أيضاً غير صحيحة في الترتيب الزمني، لأن الأجزاء الأخيرة من **قصة فورسايت البطولية** كتبت في عشرينات القرن العشرين. لكن الأجزاء التي من المرجح أن يتذكرها أي أحد كانت في حوالي ١٩١٠ وهدف المقارنة لازم، لأن كل من جويس وغلاسورثي يبذلان الجهود لتغطية لوحة هائلة ويضمان عهداً كاملاً بروحه وتاريخه الاجتماعي بين غلافي كتاب واحد. **رجل الملكية** ربما لا تبدو لنا الآن كنقد اجتماعي عميق للمجتمع، لكنها بدت هكذا لمعاصريها، كما يمكنك أن ترى الموضوع الذي كتبت حوله.

كتب جويس رواية **يوليسيس** في السنوات السبع بين ١٩١٤ و١٩٢١، لاغياً ورك اوي كل سنوات الحرب، التي ربما لم يعرها أدنى اهتمام وكسب رزقاً بائساً كمعلم للغات في إيطاليا وسويسرا. كان مستعداً تماماً أن يعمل سبع سنوات في فقر شديد وغموض تام لكي يكمل كتابه العظيم على الورق. لكن ما هو المهم جداً وملح بالنسبة إليه الذي يعبر عنه؟ أجزاء من يوليسيس ليست مفهومة بسهولة، لكن من الكتاب ككل تحصل على انطباعين رئيسين. الأول أن جويس مهتم إلى حد الهاجس بالأسلوب، وكان هذا أحد الميزات الرئيسية للأدب الحديث، لكنه أصبح مؤخراً نقيصة. تجد تطوراً موازياً في فنون البلاستيك، رسامون ونحاتون حتى، باتوا أكثر اهتماماً بالمادة التي يشتغلون فيها، في علامات الفرشاة على اللوحة مثلاً على حساب تصميمها، عداك عن موضوعها الأساسي. جويس اهتم بالكلمات فقط، الأصوات ومرافقات الكلمات اسزسيشنز، حتى أنموذج الكلمات على الورق، بطريقة لم تكن الحالة مع أي جيل سابق من الكتاب، إلى حد ما باستثناء الكاتب الإنكليزي- البريطاني جوزيف كونراد. مع جويس تعود إلى مفهوم أسلوب الكتابة المرهفة، ربما حتى إلى المقاطع الأرجوانية.

كاتب مثل برنارد شو، من الجانب الآخر، كان سيقول في الحقيقة إن الاستخدام الوحيد للكلمات هو أن تعبر عن معاني دقيقة بأقصر ما يمكن. وبمعزل عن هذا الهاجس الأسلوبوي الموضوع الأساسي الآخر ليوليسيس هو القذارة سكوالور، حتى خلو الحياة الحديثة من أي معنى بعد انتصار الآلة وانهيار الإيمان الديني. جويس- رجل ايرلندي، تذكر، والجدير بالملاحظة أن أفضل الكتاب الإنكليز أثناء عشرينات القرن العشرين كانوا من غير الإنكليز في حالات كثير ة- ككاثوليكي فقد إيمانه لكنه أبقى الإطار العقلي الذي اكتسبه في طفولته الكاثوليكية وصباه. يوليسيس، وهي رواية طويلة جداً، وصف لأحداث يوم واحد، كما يرى بعيون وكيل تجاري يهودي متنقل رث الثياب. في الوقت الذي ظهر فيه الكتاب، كانت هناك ضجة احتجاج كبيرة، واتهم جويس باستغلال البخل متعمداً، لكن في الحقيقة، بأخذ ما تبدو عليه الحياة الإنسانية اليومية بعين الاعتبار حين تتأملها بالتفصيل، لا يبدو أنه بالغ في القذارة أو سخافة أحداث اليوم. ما تحس به خلال العمل كله، هو القناعة التي لم يستطع جويس النجاة منها، أن كل العالم الحديث الذي يصفه يخلو من أي معنى الآن، وأن تعاليم الكنيسة لم تعد موثوقة بعد. إنه يتوق إلى إيمان ديني قاتل ضده جيلان أو ثلاثة سبقوه باسم الحرية الدينية. لكن أخيراً، فإن الاهتمام الرئيسي للكتاب فني. نسبة ضخمة جداً منه تتألف من مختارات أدبية أو محاكاة تهكمية-محاكاة لكل شيء من الأساطير الايرلندية في العصر البرونزي إلى تقارير الصحف المعاصرة. ويستطيع المرء أن يرى أن جويس مثل كل الكتاب المميزين في عصره، لم يستمد من الكتاب الإنكليز في القرن التاسع عشر أي شيء، وإنما من أوروبا ومن الماضي الأبعد. قسم من ذهنه في العصر البرونزي، وقسم آخر في إنكلترا إليزابيث، أما القرن العشرون بعاداته الصحية وسياراته، فلم يجذبه بشكل خاص.

لننظر الآن ثانية إلى كتاب غلاسورثي، **قصة فورسايت البطولية**، وسترى كم مداه ضيق بالمقارنة. قلت مسبقاً إن المقارنة غير عادلة. وفي الحقيقة من وجهة نظر أدبية، هو كتاب سخيف، لكنه يفي بكونه إيضاحاً بمعنى أن المراد من كلا الكتابين إعطاء صورة شاملة للمجتمع القائم. حسناً، الشيء الذي يدهش المرء حول غلاسورثي، أنه كان عاجزاً تماماً عن أن ينقل ذهنه إلى خارج المجتمع البرجوازي الثري الذي يهاجمه، رغم محاولته أن يكون مهاجماً للمعتقدات، فهو يعتبر كل قيمه من المسلمات مع تعديلات خفيفة فقط. كل الخطأ الذي

يتخيله أن الكائنات البشرية غير إنسانية جداً ومغرمة بالنقود جداً، لكن بشكل قليل وليست حساسة جمالياً بما يكفي. حين يشرع بوصف ما الأنموذج المرغوب للكائن البشري بتصوره، يتبين أنه مجرد نسخة خيرة مهذبة من صاحب سندات من أعلى الطبقة الوسطى، نفس نوع الشخص الذي كان يرتاد صالات العرض الفنية في إيطاليا في تلك الأيام ويتبرع لجمعية منع القسوة على الحيوانات بقوة. وهذه الحقيقة- حقيقة أن غلاسورثي لا يكن أي كره عميق للنماذج الاجتماعية التي يعتقد أنه يهاجمها- يعطيك الدليل على ضعفه بأنه يفتقر إلى أي احتكاك مع أي شيء خارج المجتمع الإنكليزي المعاصر الذي ظن أنه لا يحبه لكنه جزء منه. إنه المال والأمان وطوق البوارج الذي فصله (المجتمع الإنكليزي) عن أوروبا الذي كان كثيراً جداً عليه. في صميم قلبه هو يحتقر الأجانب بقدر ما يحتقر أي رجل أعمال أمي في مانشستر. المشاعر التي ترافقك مع جويس أو إليوت أو حتى لورانس، أنهم قرؤوا كل التاريخ الإنساني ووضعوه داخل رؤوسهم، واستطاعوا النظر إلى الخارج من مكانهم وزمنهم الخاص بهم نحو أوروبا والماضي، الشيء الذي لا يمكن أن تجده لدى غلاسورثي أو أي كاتب إنكليزي مميز في الفترة قبل عام ١٩١٤.

أخيراً، هذه مقارنة مختصرة أخرى. قارن أي من كتب اتش جي ويلز اليوتوبية مثلاً **يوتوبيا حديثة أو الحلم أو رجال كالآلهة، مع عالم جديد شجاع** لألدوس هكسلي. مرة أخرى نفس التباين، التباين بين الواثق بإفراط وبين المثبط، بين الإنسان الذي يعتقد بسذاجة بالتقدم، والإنسان الذي صدف أن ولد بعد ذلك وعاش ليرى أن التقدم كما جرى تخيله في الأيام التي سبقت الطائرة خداع وأشبه بالرجعية.

التفسير الواضح لهذا الاختلاف الحاد بين الكتاب المسيطرين قبل وبعد حرب ١٩١٤-١٩١٨ هو الحرب نفسها. بعض من هذا التطور كان سيحدث بأي حال، لأن الحضارة المادية الحديثة كشفت عن عجزها وعدم كفايتها. لكن الحرب سرعت العملية، جزئياً، بإظهار كم هي ضحلة القشرة الخارجية للحضارة، وجزئياً بجعل إنكلترا أقل ازدهاراً، وبالتالي أقل عزلة. بعد ١٩١٨ لا يمكنك العيش في هكذا عالم ضيق ومبطن، كما عشت حين كانت بريطانيا لا تحكم الأمواج وإنما الأسواق أيضاً. إحدى نتائج التاريخ المروع للعشرين سنة الأخيرة، أنها جعلت قدراً كبيراً من الأدب القديم يبدو أكثر حداثة. الكثير مما حدث في ألمانيا

منذ صعود هتلر، ربما كان سيخرج مباشرة من مجلدات جيبون اللاحقة انحطاط وسقوط الإمبرطورية الرومانية. مؤخراً رأيت مسرحية شكسبير الملك جون تمثل -المرة الأولى التي أراها لأنها مسرحية لم تمثل كثيراً. حين قرأتها، بدت لي قديمة ومهجورة، شيء نبش من كتاب للتاريخ وليس لها أي علاقة بزمننا. حسناً، حين رأيتها تمثل، بمؤامراتها وخياناتها ومعاهدات عدم الاعتداء وباعة أوطانهم والناس الذين يبدلون تحالفاتهم في معمعان المعركة، بدت لي حديثة بشكل استثنائي، وحدث الشيء نفسه في التطور الأدبي بين ١٩١٠ و١٩٢٠ فقد أفرز الطبع السائد للعصر حقيقة جديدة لكل أنواع المواضيع الرئيسية التي بدت قديمة وصبيانية حين حول برنارد شو وفابييه -هكذا ظنوا- العالم إلى نوع من مدينة جنائن عملاقة، وبدت فجأة مواضيع مثل الانتقام والوطنية والنفي والاضطهاد والكره العرقي والإيمان الديني والولاء وعبادة القائد، حقيقة مرة أخرى، فبدا تامرلين وجنكيز خان شخصين موثوقين وميكيافيلي مفكراً وقوراً بعكس ما كانوا في ١٩١٠ نحن خرجنا من حالة ركود وعدنا إلى التاريخ. لا أكن أي إعجاب مفرط لكتاب أوائل عشرينات القرن العشرين، الكتاب الذين منهم إليوت وجويس أسماء رئيسية. هؤلاء الذين اتبعوهم توجب عليهم أن يبطلوا الكثير مما فعلوه. انصرافهم عن مفهوم ضحل للتقدم دفعهم سياسياً في الاتجاه الخاطئ. وليس صدفة أن يصرخ إيزرا باوند الآن بعدائه للسامية مثلاً على راديو روما. لكن يجب على المرء أن يسلم أن كتاباتهم أكثر نضجاً الآن وذات مدى رؤية أوسع مما ساد قبلهم مباشرة. لقد كسروا الدائرة الثقافية التي تواجدت فيها إنكلترا لما يقارب القرن من الزمن. أعادوا تأسيس اتصال مع أوروبا، وأعادوا الإحساس بالتاريخ وبإمكانية التراجيديا. على ذلك الأساس اتكأ كل الأدب الإنكليزي اللاحق ذو الاهتمام التافه والتطور الذي أعاده إليوت وآخرون غيره في السنوات الختامية من الحرب الأخيرة لم يتخذ مساره بعد.

نشر لأول مرة: المستمع، أذيع على
خدمة البي بي سي لما وراء البحار
في ١٠ مارس/ آذار ١٩٤٢.

الديمقراطية في الجيش البريطاني

لم ينطق دوق ويلينغتون بأكثر من الحقيقة ربما، حين وصف الجيش البريطاني بـ"غثاء الأرض، وأن عناصره تطوعوا من أجل الشراب، لكن هذا الرأي لم يلق أي صدى من الإنكليز غير العسكريين، إلا بعد مائة سنة تقريباً من ذلك.

لقد بدلت الثورة الفرنسية والمفهوم الجديد "للحرب الوطنية" شخصية أغلب الجيوش القارية، لكن إنكلترا كانت في وضع استثنائي من المناعة من الغزو بكونها كانت تُحكم من قبل برجوازية غير عسكرية خلال أغلب القرن التاسع عشر. ونتيجة لهذا بقي جيشها كما في الماضي عبارة عن قوة احترافية صغيرة معزولة عن بقية الأمة. نتج عن رعب الحرب في الستينيات جيش المتطوعين الذي تطور لاحقاً إلى جيش إقليمي، ولكن لم يكن هناك حديث جدي عن الخدمة العسكرية الكونية حتى قبل الحرب الكبرى ببضع سنوات.

حتى أواخر القرن التاسع عشر، كان العدد الكلي للجنود الذي وصل في زمن الحرب إلى ربع مليون رجل، وعلى الأرجح أن كل معركة كبرى برية من بلينهايم إلى ولووس خاضتها بريطانيا بجنود أجانب بشكل رئيسي.

في القرن التاسع عشر، كان الجندي الإنكليزي عادة عامل مزرعة أو بروليتارياً من الأحياء الفقيرة دفعه الجوع لينضم إلى صفوف الجيش لمدة أقلها سبع سنوات وأحياناً واحد وعشرين سنة، وتعود على حياة الثكنات والتدريب الذي لا نهاية له، وعلى انضباط صارم غبي وعقوبات بدنية مهينة. وكان من المستحيل عملياً بالنسبة إليه أن يتزوج أو يمارس حقه الدستوري في التصويت حتى بعد توسيعه. يستطيع في حاميات المدن الهندية ركل "الزنوج" والإفلات من العقوبة، ولكنه كان مكروهاً ومحتقراً من قبل السكان العاديين في الوطن باستثناء زمن الحرب حين يكتشف خلال فترة قصيرة أنه بطل. من الواضح أن هكذا رجل كان يخدم علاقاته في طبقته وكان مرتزقاً أساساً، ويعتمد احترامه لذاته على مفهومه لنفسه ليس كعامل أو مواطن، بل مجرد حيوان مقاتل.

منذ الحرب تحسنت ظروف الحياة في الجيش وتطور مفهوم الانضباط والنظام وبات أذكى، لكن الجيش البريطاني احتفظ بخصوصيته- حجم صغير والخدمة تطوعية والتأكيد على الإخلاص للفوج، فكل فوج له اسمه الخاص وليس مجرد رقم كما في أغلب الجيوش، وتاريخه ونكهته وعاداته الخاصة إلخ إلخ، ونتج عن هذا أن عانى الجيش كله من التكبر والتفاخر الذي لم يكن يصدق تقريباً حتى يراه المرء ويختبره عن قرب. هناك درجة من الغيرة تصل إلى درجة الاختلاف الطبقي بين ضباط الفوج (الذكي) وضباط فوج المشاة العادي والأكثر فوج الجيش الهندي، وكان من أثر ذلك أنه غلبت على الجيش النظرة "غير السياسية" الضيقة للمرتزقة بسهولة، بالإضافة إلى كون الجيش البريطاني متخماً بالضباط قليلي الاحتكاك الطبقي، وبهذا جعل الطبقات الدنيا على اتصال أقل بالأفكار "المنحرفة والتخريبية".

لكن الشيء الأهم من كل القوى الأخرى، هو الرأي الرجعي حول الجندي العادي في خدمته في ماوراء البحار. يخدم فوج المشاة كوارترد عادة خارج البلاد لمدة ثمانية عشر سنة على التالي، وينتقل من مكان إلى آخر كل أربع أو خمس سنوات. لهذا فإن أكثر الجنود يقضون مدة خدمتهم في الهند وأفريقيا والصين إلخ. هم يتواجدون هناك فقط لقمع وكبح السكان العدوانيين، وهذه الحقيقة يجلبونها معهم إلى الوطن بطرق غير قابلة للخطأ. العلاقات مع السكان "الأصليين" سيئة بشكل ثابت تقريباً، والجنود وليس الضباط هم الأهداف الواضحة للشعور العدائي لبريطانيا. من الطبيعي أن يثأروا وينتقموا وكقاعدة هم يطورون موقفاً تجاه "الزنوج" أكثر وحشية من موقف الضباط أو رجال الأعمال. في بورما كنت أندهش باستمرار من أن الجنود العاديين كانوا الشريحة المكروهة الأكثر من الجالية البيضاء، وبالحكم عليهم من سلوكهم هم يستحقون هذا الكره بالتأكيد. حتى في مكان قريب مثل جبل طارق، هم يمشون في الشوارع في اختيال وزهو موجه ضد السكان الإسبان الأصليين. وعملياً بعض من هذه المواقف ضروري بلا ريب؛ لا يمكنك أن تقمع رعية إمبراطورية بجنود مفسدين بأفكار التضامن الطبقي. أغلب الأعمال القذرة للإمبراطورية الفرنسية مثلاً لا يقوم بها المجندون الفرنسيون وإنما الزنوج الأميون الجهلة والفيلق الأجنبي، فيلق بأكمله من المرتزقة حصراً.

نلخص ما سبق: على الرغم من التقدم التقني الذي لا يسمح للضابط المحترف أن يكون هادئاً كأبله كما اعتاد أن يكون، وبالرغم من حقيقة أن الجندي العادي يعامل الآن ككائن

إنساني بطريقة أكثر قليلاً مما سبق، يبقى الجيش البريطاني جوهرياً نفس الآلة التي كانت قبل خمسين سنة مضت. لو عدنا إلى الوراء قليلاً لاعترف أي اشتراكي بهذا من دون جدال. لكن حدث أن نكون في لحظة ظهر فيها هتلر وأرعب القادة الرسميين لليسار، ودفعهم إلى موقف غير بعيد من الشوفينية (الغلو في الوطنية). عدد كبير من معلقي وخبراء الجناح اليساري يثيرون المشاعر علناً تقريباً من أجل الحرب. من دون مناقشة هذا الموضوع أخيراً يمكن الإشارة أن الحزب اليساري ضمن مجتمع رأسمالي يصبح حزب حرب مستسلماً ومنهزماً مسبقاً، لأنه يطالب بسياسة لا يمكن أن تنفذ إلا من قبل خصومه.

قادة العمال يدركون هذا بشكل متقطع -شاهد مراوغاتهم في موضوع التجنيد الإجباري. لهذا يختلط مع صيحات "الجبهة الراسخة والقوية" و"الهيبة البريطانية!" إلخ خط متناقض تماماً من الحديث فحواه أن "هذه المرة ستكون الأشياء مختلفة" والعسكرة لن تعني العسكرة، والكولونيل بليمب لن يعود الكولونيل بليمب. وفي صحف الجناح اليساري العاطفية تراوح وتتكرر عبارة "دقرطة الجيش" التي يستحق مضمونها التأمل والتفكير.

"دقرطة الجيش" إن كانت تعني أي شيء، فهو التخلص من هيمنة طبقة واحدة وتقديم شكل أقل ميكانيكية من الانضباط. في الجيش البريطاني هذا سيعني إعادة بناء شاملة وتامة تحرم الجيش من كفاءته لمدة خمس أو عشر سنوات. مثل هذه العملية ممكنة بتردد حين كانت الإمبراطورية البريطانية موجودة وقائمة وعملية، لا يمكن حتى تخيلها، بينما يكون الهدف المتزامن هو "إيقاف هتلر". ماذا سيحدث أثناء السنتين التاليتين؛ بحرب أم بلا حرب، فمن المؤكد أن القوات المسلحة سوف تتوسع بشكل كبير جداً، وسوف تأخذ الوحدات الجديدة لونها الجديد من الجيش المحترف الموجود كما في الحرب الكبرى، وسوف يكون نفس الجيش، لكنه أكبر، وسوف تسحب قطاعات أشد فقراً من الطبقة الوسطى لتكون مخزوناً للضباط، لكن الفئة العسكرية المحترفة ستحتفظ بسيطرتها. أما بالنسبة إلى الميليشيات الجديدة، فمن الخطأ تماماً تخيل أنها ستكون نواة "الجيش الديمقراطي" الذي ستبدأ فيه كل الطبقات من الصفر. من الأسلم التكهن أنه حتى لو لم تكن هناك محاباة طبقية (كما سيكون على الأرجح) فإن جنود الميليشيات من الأصل البرجوازي سوف يرقون أولاً. وقد أشار هور-بيليشا وآخرون كثيراً إلى هذا مسبقاً في عدد من الخطابات. والحقيقة التي لم يقدرها الاشتراكيون

دائماً، هي أن كل البرجوازية في إنكلترا معسكرة إلى حد ما. تقريباً كل صبي ذهب إلى مدرسة خاصة مرّ واجتاز التدريب العسكري الخاص بالضباط (نظرياً هو تطوع لكنه عملياً إلزامي) ويجب ألا ينظر إلى هذا التدريب باحتقار، رغم أنه يتم بين عمري الثالثة عشرة والثامنة عشرة.

في الحقيقة، فإن عنصر المليشيا الذي اجتاز التدريب العسكري سوف ينطلق خلال بضعة شهور ولديه أفضلية على الآخرين. في كل الأحوال، إن التدريب العسكري هو مجرد خبرة تهدف جزئياً إلى التأثير على الرأي في الخارج، وجزئياً تعويد الشعب الإنكليزي على فكرة التجنيد الإجباري. ما إن تبلى الأشياء الجديدة، تخترع طريقة ما لإقصاء البروليتاريين من مناصب القيادة.

ربما جعلت طبيعة الحرب الحديثة "دقرطة الجيش" متناقضة في معانيها؛ فالجيش الفرنسي مثلاً المؤسس على الخدمة العسكرية العامة، ليس أكثر ديمقراطية من الجيش البريطاني، ويهيمن عليه أيضاً الضباط المحترفون وأصحاب الخدمة الطويلة من صف الضباط. والضابط الفرنسي أكثر "بروسية" في وجهة نظره من نظيره البريطاني. كانت ميلشيا الحكومة الإسبانية خلال الستة أشهر الأولى من الحرب -والسنة الأولى في كاتالونيا -جيشاً ديمقراطياً حقيقياً، لكنها كانت أيضاً أنموذج جيش بدائي جداً غير قادر إلا على العمليات الدفاعية. في تلك الحالة بالخصوص ربما يكون للاستراتيجية الدفاعية المقرونة بالدعاية، فرصة أفضل في النصر من الطرق المتبناة عرضياً، لكن لو أردت كفاءة عسكرية بالمعنى العادي، فليس هناك مفر من الجندي المحترف.

وطالما الجندي المحترف هو من يتحكم ويسيطر، فسوف يرى ويعتبر أن عملية دقرطة الجيش غير ممكنة. وما هو صحيح داخل القوات المسلحة، صحيح على الأمة ككل. فكل زيادة في قوة الماكينة العسكرية، تعني قوة أكبر لقوات رد الفعل. من الممكن أن بعضاً من المتعصبين القوميين في الجناح اليساري يمثلون بعيون مفتوحة، فإن كانوا كذلك يجب عليهم أن يكونوا مدركين أن رواية النيوزكرونيكل حول "الدفاع عن الديمقراطية" تقودك مباشرة بعيداً عن الديمقراطية، حتى في مفهوم القرن التاسع عشر الضيق للحزب السياسي واستقلال التجارة والنقابات وحرية الكلام والصحافة.

المتسولون في لندن

أي زائر لمدينة لندن لا بد أنه لاحظ العدد الكبير من المتسولين في الشوارع. يمكنك أن ترى هؤلاء التعساء المقعدين أو العميان في كل أرجاء العاصمة. ويمكنك القول إنهم جزء من المشهد. وفي بعض المناطق يمكن أن ترى في كل ثلاثة أو أربعة ياردات شخصاً مريضاً في أسمال ممزقة يقف عند حافة الطريق يحمل صينية فيها أعواد ثقاب يتظاهر ببيعها، وآخرون يغنون أغنية شعبية ما بصوت كئيب ومضجر، وآخرون غيرهم يصدرون أصواتاً متنافرة مع أي أداة موسيقية قديمة. كلهم متسولون بدون استثناء، فقدوا أسباب رزقهم بسبب البطالة، والآن باتوا يلتمسون الصدقة من المارة بطريقة شبه صريحة.

كم عددهم في لندن؟ لا أحد يعرف بالضبط، ربما بضعة آلاف، وربما يصل العدد إلى عشرة آلاف في أسوأ قسم من السنة. بأي حال، من المرجح أن هناك متسولاً واحداً من كل أربعمائة ساكن لندني يعيش على حساب الثلاثمائة وتسع وتسعين الآخرين. بعض من هؤلاء المشردين البائسين يعاني من أذيات صناعية، وآخرون ذهبت سنوات من حياتهم في الحرب التي كان يفترض بها أن "تنهي الحروب" بدلاً من تعلم مهنة مربحة، ووجدوا حين عادوا إلى الوطن أن وطنهم الممنون كافأهم على خدماتهم بعدم تقديم أي شيء لهم سوى الخيار بين موت بطيء من خلال الجوع أو التسول. ليس لديهم تأمين بطالة أو إن كان لديهم، فإن فترة الستة وعشرين أسبوعاً التي أقرها القانون التي يستطيعون فيها سحب إعانة البطالة تنقضي قبل أن يجدوا عملاً. في هذه الجمعية الخيرية حيث يفرك كبار السن أكتافهم مع شبان تجاوزوا سن المراهقة بقليل، هناك عدد قليل جداً من النساء نسبياً. يختلف المتسولون مثل المشردين الذين وصفتهم في مقالتي الماضية، بشكل هائل في أصولهم وفي شخصياتهم وفي المهن التي اشتغلوا بها في أوقات أكثر ازدهاراً، لكنهم يتشابهون كلهم في أسمالهم البالية ومسحة البؤس الثابتة عليهم. قبل أن نتوسع في تفحص الطريقة التي يعتاش فيها متسولو لندن على العامة، يجب أن نكون واضحين من وضعهم الغريب والشاذ فيما يتصل بالسلطات.

لندن تغص بالناس الذين إعالتهم الوحيدة هي الصدقة الخاصة. هناك آلاف الناس الذين يتسولون النقود، مع أن التسول ممنوع في المدن الكبرى في الإمبراطورية البريطانية تحت طائلة السجن. كيف يحدث أن يخرق آلاف الناس قانون الأرض كل يوم ويفلتون من العقاب؟

الجواب في الحقيقة أن أسهل شيء في العالم هو مراوغة القانون. إن تطلب نقوداً بشكل صريح أو طعاماً أو ثياباً هو جريمة، لكن من جانب آخر من المشروع والقانوني أن تبيع أي شيء أو تتظاهر بذلك أو تزعج الإخوة المواطنين بالتظاهر في تسليتهم وإمتاعهم. هذه هي غرائب القانون الإنكليزي الذي يتحدى بديهيات المنطق.

دعونا نرَ كيف يمكن التملص من القانون.

أولاً: الموسيقى

يشكل المغنون وأتباعهم من عازفي المزمار أو آلة ترومبون فيلقاً واحداً، أما هؤلاء الذين لا يستطيعون عزف أي آلة فيدورون الحاكي في الشوارع أو على عربة يد، لكن العدد الأكبر من موسيقيي هذه الشوارع هم من عازفي الأورغان. "الأورغان البيانو" آلة موسيقية بحجم البيانو العادي المنتصب تقريباً يُحمَل على عربة تُجر باليدين. لتعزف عليه عليك أن تدير المقبض. هناك عدد هائل من عازفي الأورغان في لندن. وفي الواقع هناك عدد كبير جداً لدرجة يستحيل عليك تقريباً الإفلات من ضجيجهم في بعض المناطق. يمكنك أن تجد شيطاناً مسكيناً يعزف مشغل صندوق الموسيقى في كل ناصية شارع. الموسيقى الكئيبة التي تنتمي إلى لندن بشكل خاص رثائية إلى أقصى درجة.

يجب ألا نخلط أثناء المرور بين عازفي الأورغان وبين الفنانين الأصليين الذين يبذلون كل جهدهم لتسلية وإمتاع رفاقهم. هم متسولون ببساطة بكل ما للكلمة من معنى، وموسيقاهم المرعبة نتيجة إيماءة آلية صرفة، والقصد الوحيد منها هو أن يبقوا على الجانب الصحيح من القانون.

بلوتهم الحقيقية أنهم موضوع استغلال مباشر. توجد في لندن عشرات الشركات المتخصصة في تصنيع الأورغان البيانو الذي يُستأجر بخمسة عشر شلناً في الأسبوع، وهو آلة موسيقية تدوم لعشر سنوات بالمعدل. وصانع الآلة يجني ربحاً كبيراً أكثر من الذي يمكن أن يدفع "الموسيقي" الشارع البائس. يجر المسكين آلته من العاشرة صباحاً حتى الثامنة أو

التاسعة ليلاً. بعد أن يدفع أجرة الأورغان البيانو، فكل ما يتبقى له جنيه استرليني واحد في نهاية الأسبوع. يمكنه أن يربح أكثر إن استطاع أن يعمل لوحده، لكن هذا مستحيل لأنه يحتاج إلى مساعد "ليمرر القبعة على المتفرجين" بينما هو يدير المقبض. إن العامة لا يتسامحون معهم إلا بحقد وضغينة، وإن لم يصروا على تمرير القبعة، فلن يدفعوا لهم. لهذا فإن كل واحد من موسيقيي الشوارع بلا استثناء مجبر أن يضم إليه مساعداً يتقاسم معه المكاسب. هم يفضلون العزف في مقاهي ومطاعم شعبية يتجمعون في الخارج في مواعيد الطعام. أحدهم يعزف آلة أو يغني في الشارع، بينما الآخر يجمع النقود. طبعاً هذا ممكن فقط في مناطق الطبقة العاملة، لأن رجال الشرطة لا يسمحون بالتسول إطلاقاً في المناطق الأغنى، حتى ولو كان بشكل مقنع. في النتيجة، يعيش متسولو لندن بشكل رئيسي على حساب الفقراء.

دعونا نعود إلى عازف الأورغان.

هو يعمل كما رأينا تسع أو عشر ساعات في اليوم، يجر آلته التي تزن ستمائة كيلوغرام من مقهى إلى آخر ويتوقف أمام كل واحد وقتاً كافياً يعزف فيه لحناً. من الصعب تخيل وجود وعيش رتيب بشكل مفرط ليكسب بعد ستة أيام من الجهد المرهق في كل حالات الطقس جنيهاً بائساً واحداً، وهناك ألف واحد في لندن مثله.

يجب على المتسول كما قلنا أن يتظاهر بأنه تاجر أو فنان كي يتجنب الوقوع في شر القانون... تظاهر بائس لا يخدع أحداً. لقد نظرنا إلى عمل موسيقي الشارع للتو، دعونا نعود إلى "فنان الرصيف" أرصفة لندن مصنوعة عادة من الحجر اللوحي الواسع؛ حيث رجلنا مع عيدان ألوانه يرسم صور الأشخاص والحياة الساكنة والمناظر الطبيعية الملونة. أعتقد أن هؤلاء "الفنانين" الذين مثل هذا غير موجودين في أي مكان آخر في أوروبا ويفترض أنهم يعملون مثلما يفعل الموسيقيون ليسلوا العامة، لهذا بممارستهم "مهنتم" هم تقنياً لا يخرقون القانون.

فنان الرصيف هو في هذه المنطقة من الساعة التاسعة صباحاً حتى الغروب. يبدأ برسم ثلاث أو أربع صور بسرعة كبيرة تظهر الملك أو رئيس الوزراء أو منظراً ثلجياً أو ربما فاكهة أو زهوراً إلخ، ثم يجلس على الأرض يستجدي النقود. أحياناً مثل عازف الأورغان يعتمد على مساعدة صديق ليمرر القبعة حالما يتوقف حشد كافٍ للتفرج، ويمكن القول إنه كلما بدا أشد تعاسة

استجر عطفاً أكثر. لهذا هو يمضي أيامه مقرفصاً على الحجر البارد القاسي؛ فالكرسي سواء كان بلا مسند أو من النوع الذي يطوى، يجعله يبدو "غنياً" وهذا سيضر بنجاحه.

من الواضح أن المتسول يجب أن يكون عالماً نفسياً. كما يمكنك أن تتخيل جيداً الصور على أنها أي شيء باستثناء أن تكون تحفاً فنية وبعضها تخجل طفل بعمر العشر سنوات. بعض من فناني هذه الأرصفة الذين لم يتعلموا أن يرسموا أكثر من موضوع واحد، يستمرون في إنتاجه لمدة سنين. حياة هؤلاء المساكين جرداء وفارغة كحياة موسيقي الشوارع. هذا النداء يمكن أن يجلب لهم أحياناً ثلاثة أو أربعة جنيهات أسبوعياً، لكن يجب أن نحسب المشاكل. من المستحيل مثلاً أن ترسم على الرصيف حين تكون حجارة الرصيف مبللة، وفي النتيجة بأخذ المعدل السنوي، فإن المكاسب الأسبوعية لا تتعدى جنيهاً واحداً. فنانو الشوارع بكسوتهم الرثة وتغذيتهم الرديئة الذين يمضون أياماً كاملة معرضين للبرد والريح، يقعون ضحية عاجلاً أو آجلاً للروماتيزم أو السل الرئوي الذي يزيلهم ويقضي عليهم أخيراً.

دعونا نعود إلى هؤلاء الذين يبيعون أو يتظاهرون ببيع أعواد الثقاب وأربطة الأحذية وعطر الخزامى..إلخ في الشوارع. بائع أعواد الثقاب يشتري أعواده بثلاثة وعشرين سنتيماً (نصف بنس) للعلبة الواحدة، وسعر التجزئة يجب أن يتجاوز الخمسين سنتيماً (بنس). قد يعتقد المرء أنه هامش مفيد. ربما كان هكذا في الوهلة الأولى، لكن يجب أن نتذكر أنه لكي تكسب خمسة عشر فرنكاً "نصف كراون" في اليوم وهو الحد الأدنى لتعيش في لندن، يجب أن تبيع ستين صندوقاً. من الواضح أن هذا مستحيل، وباعتنا مثل موسيقي الشوارع وفناني الأرصفة مجرد متسولين متنكرين وقدرهم أنحس من الآخرين. في الطقس الجيد والرديء يجب أن يقفوا بلا حراك لستة أيام كاملة على حافة الطريق يبيعون بضائعهم بصوت كئيب. ليس هناك مهنة أغبى وأحط من ذلك. لا أحد يشتري أعواد ثقابهم أو أشرطة أحذيتهم أو عطرهم، لكن بين الحين والآخر يشفق عليهم أحد المارة ويرمي بقطعة نقدية في الصينية الصغيرة التي يضعونها حول رقابهم لعرض البضاعة عليها. ستون ساعة في الأسبوع من هذا الكدح المخبل لا تجلب أكثر من مئة فرنك "ستة عشر شلناً" مبلغ كافٍ لتجنب المجاعة المميتة فقط. هناك أيضاً الذين يتسولون بشكل علني. هم أندر قليلاً لأنه عاجلاً أو آجلاً

سوف يتم إمساكهم ويتعرفون على سجون جلالته. مع ذلك هناك استثناء للضرير الذي يحظى بمناعة تامة بنوع من الاتفاق الضمني.

الآن وقد ألقينا نظرة على أشكال التسول المتنوعة في لندن، دعونا ننظر إلى حياة هؤلاء المجبرين على العيش على الصدقة والإحسان. هناك الكثير من المتسولين متزوجين وأحياناً مسؤولين عن أطفال على الأقل. بأي معجزة سيلبون احتياجاتهم؟ لا يجرؤ المرء على طرح هذا السؤال. أولاً ماذا عن السكن؟

الرجل الأعزب لديه أفضلية هنا، لأنه يستطيع دفع أربعة فرنكات (ثمانية بنسات) لليلة الواحدة مقابل سرير في أحد بيوت السكن الشائعة التي تتكاثر في المناطق المزدحمة بالسكان، لكن الرجل المتزوج من الجانب الآخر يجب أن يستأجر غرفته إن رغب في أن يعيش مع زوجته، وهذا يكلفه أكثر. وفي الواقع أن ينام كلا الجنسين تحت سقف واحد أمر مخالف للقانون. بيوت الإيجار حتى في المهاجع المنفصلة وكما رأينا، فإن سلطات لندن لا تخاطر بقضية الأخلاق.

يتغذى المتسولون على الخبز والسمن النباتي والشاي ونادراً ما يشربون البيرة أو شراباً كحولياً آخر، لأن لتر البيرة الواحدة تكلف ستة فرنكات (ستة بنسات للباينت) في لندن. لهذا فالشاي هو منبههم الوحيد ويشربونه في كل ساعات النهار والليل كلما تمكنوا من توفير ذلك. مثل المشردين، يتحدث متسولو لندن مع بعضهم بلغة خاصة ونوع من العامية المملوءة بعبارات غريبة أغلبها تدل على تعاملاتهم مع رجال الشرطة، وهم يراعون قواعد التعامل والآداب بينهم. كل واحد يملك بقعة محجوزة على الرصيف لا يحاول أي أحد آخر سرقتها. لا يشغل أي عازف أورغان أو فنان رصيف منطقته إلا إن كانت تبعد ثلاثين متراً على الأقل عن أقرب منطقة إليه، وقد أسسوا قواعد نادراً ما تكسر. يستطيع رجل الشرطة أمرهم بالانتقال حين يحب ذلك، ولكنه لا يستطيع أن يقبض عليهم إن أراد. إن اعتقد أن لوحة فنان الرصيف غير محتشمة، وإن غامر عازف أورغ ودخل في طريق منطقة "أنيقة" ممنوعة فيها الموسيقى، يطرده ممثل القانون والنظام بسرعة، والويل للمتسول الذي لا يرحل، فالسجن في انتظاره بتهمة إعاقة رجل شرطة أثناء تأدية الواجب.

أحياناً يغرق واحد من هؤلاء المساكين الفقراء أكثر. ربما يكون مريضاً ولا يستطيع أن يخرج ليكسب أربعة فرنكات يحتاجها لدفع أجرة سرير لقضاء ليلته. الآن مالكو بيوت الإيجار لا يتعاملون بالدين أبداً، لهذا يجب عليه أن يدفع أربعة فرنكات كل ليلة أو يروض نفسه على النوم في العراء. قضاء الليل في العراء في لندن ليس فيه ما يجذب خصوصاً للفقير البائس ذي الأسهال والسيئ التغذية. بالإضافة إلى ذلك فإن النوم في العراء مسموح به في شارع واحد فقط من شوارع لندن. تستطيع إن رغبت التجول ذهاباً وإياباً في كل الشوارع التي تحبها خلال الليل والجلوس على الدرج أو عند حافة الشارع أو أي مكان آخر، لكن من غير المسموح لك أن تنام هناك. إذا وجدك رجل الشرطة في نوبته نائماً، فمن واجبه أن يوقظك، والسبب أنهم وجدوا أن الرجل النائم يستسلم للبرد بسهولة أكثر من الرجل المستيقظ، وإنكلترا لا تستطيع أن تترك أحداً من أبنائها يموت في الشارع. لهذا أنت حر في قضاء ليلتك في الشارع بشرط أن تكون ليلة بلا نوم. لكن كما قلت هناك طريق واحد يسمح للمشردين النوم فيه، والغريب أنه جسر التايمز غير البعيد عن مبنى البرلمان. هنا توجد بضع مناضد حديدية يأتي إليها ستون أو سبعون شخصاً للنوم يمثلون أدنى درجات الفقر المدقع الموجود في العاصمة، والبرد قارس جداً في الخارج بجانب النهر، وثيابهم الرثة الممزقة لا تحميهم من قسوة البرد، لهذا يلفون أنفسهم بالجرائد القديمة بما أنهم لا يملكون البطانيات.

إن المقاعد غير المريحة وهواء الليلة المجمدة لا تشجع على النوم، ومع هذا ينجح هؤلاء المساكين البؤساء المنهكون جداً رغم كل شيء في النوم ساعة أو اثنتين، ويتكئون على بعضهم البعض. بعضهم لم يعرف منذ عقود سريراً آخر سوى هذه المناضد التي على الجسر. نحن ننصح هؤلاء الزوار القادمين إلى إنكلترا الذين يودون رؤية الجانب المعكوس من ازدهارنا الظاهري أن يهبوا وينظروا إلى هؤلاء الذين اعتادوا على النوم على الجسر في ثيابهم الممزقة القذرة وأجسادهم التي أنهكها المرض ووجوههم غير الحليقة، إنهم تأنيب حي للبرلمان الذي يستلقون في ظله.

إيريك بلير، لو بروغريس سيفيك،
١٢ يناير ١٩٢٩.
ترجمته للإنكليزية جانيت وإيان ويلسون.

يوم في حياة متشرد

أولاً من هو المتشرد؟

المتشرد جنس بشري إنكليزي محلي أصلي، وهذه هي صفاته المميزة: ليس لديه مال ويلبس الأسمال من الثياب ويمشي حوالي عشرين كيلومتراً يومياً ولا ينام ليلتين متتاليتين في المكان نفسه. باختصار هو متجول يعيش على الإحسان والصدقة، يطوف في المكان مشياً على الأقدام يوم بعد آخر لمدة سنين، يقطع إنكلترا من أولها إلى آخرها مرات كثيرة في تجواله. ليس لديه وظيفة أو بيت أو عائلة أو ممتلكات في العالم، باستثناء أسمال بالية تغطي جسده الهزيل، ويعيش على حساب المجتمع.

لا أحد يعرف كم يبلغ عدد المشردين، وكم يشكلون من السكان. ثلاثون ألفاً؟ خمسون ألفاً؟ ربما مائة ألف في إنكلترا وويلز حين يكون وضع البطالة سيئاً بشكل خاص. إن المشرد لا يتجول بدافع تسلية نفسه أو لأنه ورث الغريزة البدوية من أسلافه، ولكنه يحاول أولاً وأخيراً تجنب الجوع حتى الموت. ليس من الصعب أن نفهم السبب؛ المتشرد عاطل عن العمل كنتيجة لحالة الاقتصاد الإنكليزي. لهذا كي يبقى حياً يجب عليه يلجأ إلى الصدقات الخاصة والعامة. لتساعده السلطات أوجدت (ملاجئ أو إصلاحيات) يجد فيها المعدم طعاماً ومأوى. تبعد هذه الأماكن عن بعضها البعض عشرين كيلومتراً تقريباً، ولا يستطيع المتشرد أن يمكث في مسمار (ملجأ) واحد أكثر من مرة واحدة في الشهر. لهذا الترحال اللانهائي للمتشردين إن أرادوا أن يأكلوا ويناموا تحت سقف فوق رؤوسهم، يجب عليهم أن يبحثوا ويسعوا إلى مكان جديد للنوم كل ليلة. وهذا هو تفسير بقاء ووجود المتشردين. الآن دعونا نرى أي نوع من الحياة يعيشون. يكفي أن ننظر إلى يوم واحد، فالأيام متشابهة كلها، لأن هؤلاء التعساء من سكان بلد من أغنى بلدان العالم.

دعونا نأخذ واحداً منهم وهو يخرج من المسمار في حوالي الساعة العاشرة صباحاً.

هو يبعد عشرين كيلومتراً عن الملجأ التالي. يحتاج إلى خمس ساعات لقطع تلك المسافة مشياً، وسيصل إلى وجهته في حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر. لن يرتاح كثيراً على الطريق،

لأن رجال الشرطة الذين ينظرون إلى المشردين بعين الشك والريبة سوف يبعدونه على عجل عن أي بلدة أو قرية يمكنه محاولة التوقف فيها. لهذا السبب لن يتلكأ رجلنا ويبقى على الطريق. وكما قلنا يصل إلى المسمار في حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر. لكن المسمار لا يفتح حتى الساعة السادسة مساء. ثلاث ساعات مملة يجب أن يمضيها في صحبة المشردين الآخرين الذين ينتظرون مسبقاً. هذا القطيع من الكائنات البشرية الهزيلة وغير الحليقة والقذرة والرثة، يكبر دقيقة بعد أخرى. وخلال وهلة يكون هناك مائة رجل عاطل عن العمل يمثلون كل المهن والحرف تقريباً. عمال التعدين والذين يغزلون القطن وضحايا البطالة المتأججة في شمال إنكلترا، يشكلون الأغلبية، لكن المهن المُمثلة تحتاج إلى مهارة أو غيرها.

أعمارهم؟ من السادسة عشرة إلى السبعين. جنسهم؟ هناك امرأتان في كل خمسين مشرداً.

تنتشر في المكان ثرثرة وكلمات لا معنى لها. بعض الرجال ضعفاء جداً وعجزة، لذلك يتساءل المرء كيف استطاعوا المشي عشرين كيلومتراً؟ تلفت انتباهك ثيابهم كشيء غريب برثاثتها وقذارتها المقززة، وتذكرك وجوههم بوجه حيوان بري ما، ربما ليس حيواناً خطيراً، ولكنه حيوان أصبح متوحشاً فوراً وجباناً بسبب انعدام الراحة والعناية.

ينتظرون هناك؛ حيث يستلقون على العشب أو يقرفصون على التراب. أشجعهم يطوفون خلسة حول محل جزار أو مخبز، على أمل أن يكتشف فضلة طعام، لكن هذا عملاً خطيراً، لأن التسول ضد القانون في إنكلترا. لهذا أغلبهم يكونون قانعين في البقاء متراخين يتبادلون كلمات غامضة ولهجات غريبة ولغة المشردين الخاصة بهم المملوءة بكلمات تصويرية غريبة وعبارات لا يمكن إيجادها في أي قاموس، وهم ينحدرون من كل أرجاء إنكلترا وويلز، ويحكون لبعضهم البعض مغامراتهم، ويتناقشون بلا أمل كبير حول احتمال أن يجدوا عملاً على الطريق. الكثيرون منهم التقوا من قبل في أحد الملاجئ في الطرف الآخر من البلاد، لأن مساراتهم تتقاطع مرة تلو أخرى في تجوالهم الذي لا نهاية له.

هذه الملاجئ مجرد فنادق ونزل بائسة، يتجمع فيها الرحالة الإنكليز لبضع ساعات قبل أن يتبعثروا مرة أخرى في كل الاتجاهات. كل المشردين يدخنون. وبما أن التدخين ممنوع في المسمار، فهم يستغلون ساعات انتظارهم في التدخين. يتألف تبغهم بشكل أساسي من أعقاب السجائر التي يلتقطونها من الشارع، ثم يلفونه في ورق أو يحشونه في غلايين قديمة. حين

يحصل المشرد على بعض المال مقابل عمل قام به أو تسوله على الطريق، فإن أول فكرة تخطر له أن يشتري تبغاً، لكن على الأغلب يجب عليه أن يتعامل ويقنع بأعقاب السجائر التي يلتقطها من الرصيف أو الطريق. إن المسهار لا يقدم له سوى الطعام والمنامة: أما البقية من ثياب وتبغ إلخ، فعليه أن يلجأ إلى نفسه.

الآن توشك بوابات المسهار أن تفتح. يقف المشردون ويصطفون في رتل بجانب جدار بناء ضخم عبارة عن مكعب أصفر قذر من القرميد مبني في ضاحية نائية، يمكن أن تظنه خطأً بأنه سجن. بعد بضع دقائق أخرى تفتح بوابات ثقيلة على مصاريعها ويدخل قطيع الكائنات البشرية. إن التشابه بين هذه الملاجئ والسجن لافت جداً بمجرد أن تدخل عبر البوابات. في وسط ساحة فارغة مطوقة بجدران قرميدية عالية، ينتصب البناء الرئيسي الذي يحتوي على زنازين (حجرات صغيرة) عارية الجدران وحمام ومكاتب إدارية وغرفة صغيرة جداً مفروشة بمناضد توزيع بسيطة تقوم بدور غرفة طعام. كل شيء قبيح ومشؤوم كما تحب أن تتخيل. جو السجن يمكن أن تجده في كل مكان من المسهار. الموظفون الذين يلبسون الزي يتنمرون على المشردين ويدفعونهم هنا وهناك، ولا ينسون تذكيرهم أنهم تخلوا عن كل حقوقهم وكل حريتهم بمجرد دخولهم إلى الملجأ. يُكتب اسم المشرد ومهنته في سجل. بعد ذلك يجبر على الاستحمام، وتؤخذ منه ثيابه وممتلكاته الشخصية. ثم يعطى قميصاً قطنياً خشناً من قمصان الملجأ ليقضي ليلته وينام فيه. إن حدث وكان لديه نقود، فإنها تصادر، لكن إن اعترف بأكثر من فرنكين (أربعة بنسات) فلن يسمح له بدخول المسهار، وعليه أن يجد سريراً في مكان آخر. كنتيجة، يبذل هؤلاء المشردون-ليس هناك الكثير منهم- الذين لديهم أكثر من فرنكين جهداً كي يخبئوا نقودهم في مقدمة أحذيتهم، ويتأكدوا بأنها لن تلاحظ وتكتشف، لأن هذا احتيال يعاقب عليه القانون بالسجن.

بعد الحمام، يستلم المشرد الذي أُخذت ثيابه منه عشاءه: نصف رطل من الخبز مع القليل من السمن النباتي ونصف لتر من الشاي. إن الخبز المصنوع من أجل المشردين بغيض جداً. إنه رمادي اللون وبائت دائماً وله مذاق كريه يجعل المرء يفكر أن طحينه المصنوع منه أتى من قمح فاسد. حتى الشاي سيئ بأقصى ما يمكنه ذلك، لكن المشردين يشربونه بابتهاج، لأنه يريحهم بعد جهد النهار. تبتلع الوجبة الصادة للشهية في خمس دقائق، وبعد ذلك يؤمر المشردون بالدخول إلى الزنازين حيث يقضون الليلة.

الحجيرات عبارة عن زنازين سجن من القرميد أو الحجارة، أبعادها اثنا عشر قدماً بستة. لا يوجد فيها ضوء اصطناعي - مصدر الضوء الوحيد نافذة مسدودة بقضبان ضيقة في مكان عالٍ جداً في الجدار وفتحة تجسس في الباب تسمح للحراس بمراقبة النزلاء. أحياناً تحتوي الزنزانة على سرير، ولكن عادة ينام المشردون على الأرض مع ثلاث بطانيات فقط كفراش وغطاء. لا تجد وسائد عادة، ولهذا السبب يسمح للنزلاء البؤساء أن يحتفظوا بمعاطفهم ليلفوها على شكل وسائد يضعونها تحت رؤوسهم. عادة تكون الغرفة باردة بشكل فظيع، ونتيجة الاستعمال الطويل للبطانيات، فقد أصبحت رقيقة جداً، لذلك لا توفر أي حماية ضد قسوة البرد. حالما يدخل المشردون حجراتهم، تغلق الأبواب بإحكام من الخارج: لن تفتح حتى الساعة السابعة تماماً في صباح اليوم التالي. هناك نزيلان في كل حجرة عادة. مطوقين في سجنهم الصغير لاثنتي عشرة ساعة مملة ولا شيء يحميهم من البرد سوى قميص قطني وثلاث بطانيات رقيقة، يعاني التعساء المساكين بوحشية من البرد ونقص أدنى درجات الراحة. الأماكن موبوءة بالبق دائماً تقريباً، ويكون المشرد ضحية للحشرات. وبعد أن أنهكت أطرافه من التجوال، يمضي ساعات وساعات يتقلب عبثاً منتظراً النوم، وإن نجح في النوم لبضع ثوانٍ، يوقظه ثانية إزعاج النوم على أرض قاسية.

المشردون الماكرون الكبار في السن الذين يعيشون على هذه الحال منذ عشرين أو خمسة عشر عاماً وأصبحوا فلاسفة بالنتيجة، يمضون لياليهم بالحديث. يستريحون ساعة أو اثنتين في اليوم التالي في حقل تحت سياج؛ حيث يجدون ترحيباً أحرّ من المسمار. لكن المشردين الأصغر سناً الذين لم يتمرسوا ويعتادوا على الروتين، فيصارعون ويئنون في الظلام، وينتظرون بفارغ الصبر الصباح ليجلب لهم الخلاص.

ومع ذلك، فحين يسطع ضوء الشمس أخيراً في سجنهم، يتأملون في كآبة ويأس مشهد يوم آخر مثل سابقه تماماً. أخيراً تفتح الزنازين. إنه موعد زيارة الطبيب-في الواقع لا يطلق سراح المشردين حتى يتم هذا التصرف الشكلي. يتأخر الطبيب عادة ويجب أن ينتظره المشردون من أجل الفحص وهم مصطفون وشبه عراة في الممر. بعد ذلك يمكن للمرء أن يكوّن فكرة عن حالتهم البدنية.

يا لها من وجوه! ويا لها من أجساد!

الكثيرون منهم عبارة عن تشوهات خلقية منذ الولادة. العديد منهم يعانون من فتوق ويرتدون أحزمة الفتوق. تقريباً كل واحد لديه أقدام مشوهة مغطاة بالتقرحات نتيجة التشرد الطويل في أحذيتهم غير الملائمة. الكبار في السن عبارة عن عظم وجلد فقط. عضلات الجميع متدلية. إنه المنظر البائس للرجال الذين لم يتناولوا وجبة دسمة من أول السنة إلى آخرها. ملامحهم الهزيلة وتجاعيدهم المبكرة وذقونهم غير الحليقة وكل شيء حولهم يحكي ويكشف عن طعام غير كافٍ ونقص في النوم. والآن جاء الطبيب. فحصه سريع وسطحي. الغرض منه أخيراً أن يكتشف إن كانت علامات الجدري ظاهرة على أحد المشردين. يلقي الطبيب نظرات سريعة على كل المتشردين بالدور بسرعة من رأسهم إلى أقدامهم ومن الأمام والخلف. الآن أغلبهم يعانون من مرض ما أو آخر. بعضهم يعانون من عته تام تقريباً وغير قادرين على العناية بأنفسهم. مع ذلك سوف يطلق سراحهم طالما لا تظهر عليهم علامات الجدري المخيفة. لا تكترث السلطات إن كانوا في صحة جيدة أم سيئة، طالما هم لا يعانون من مرض معدٍ.

بعد فحص الطبيب، يرتدي المشردون ملابسهم ثانية. ثم في ضوء النهار البارد تحظى بنظرة جيدة على ثياب البؤساء المساكين التي يرتدونها لتحميهم من المناخ الإنكليزي المدمر.

إن قطع الثياب المتباينة هذه -أغلبها تسولوها من باب إلى آخر- لا تصلح حتى إلى سلة القمامة. ثياب غريبة وغير ملائمة وهي إما طويلة جداً أو قصيرة جداً أو كبيرة جداً أو صغيرة جداً، وغرابتها تجعلك تضحك في أي ظرف آخر. هنا تشعر بشفقة هائلة على مناظرهم. لقد أُصلحت ورتقت بأقصى ما يمكن بكل أنواع الرقع، ويقوم الخيط بعمل الأزرار والثياب الداخلية. هي مجرد مزق قذرة وثقوب متماسكة معاً بفضل القذارة. بعضهم ليس لديه ثياب داخلية، والكثيرون منهم ليس لديهم جوارب، لهذا يلفون أصابع أقدامهم بخرق، ثم يدسون أقدامهم العارية في أحذية أصبحت جلودها قاسية من الشمس والمطر، وفقدت كل ليونتها.

إن مراقبة المشردين وهم يستعدون، هي منظر مرعب.

ما إن يلبسوا ثيابهم حتى يستلم المشردون فطورهم الذي يشبه عشاء ليلتهم السابقة، ثم يصطفون كالجنود في ساحة المسمار؛ حيث يكلفهم الحراس بأعمال. بعضهم سيغسل الأرض،

وآخرون يقطعون الحطب ويكسرون الفحم، ويقومون بمهن متنوعة حتى الساعة العاشرة، حين تعطى إشارة الرحيل.

تعاد لهم ملكياتهم الشخصية التي صودرت في المساء السابق. يضاف إلى هذا نصف رطل من الخبز وقطعة من الجبن من أجل وجبة منتصف النهار، أو أحياناً وبشكل أقل غالباً تعطى لهم بطاقة يمكن صرفها في مقاهٍ محددة على طول الطريق من أجل خبز وشاي بقيمة ثلاثة فرنكات (ستة بنسات).

بعد الساعة العاشرة بقليل، تفتح بوابات المسار لتحرر مجموعة من الرجال المعوزين البؤساء القذرين الذين سيتبعثرون في كل أرجاء الريف. كل واحد منهم سيتجه إلى مسار جديد؛ حيث سيعامل بنفس الطريقة تماماً. ولمدة أشهر وسنوات وعقود، ربما لن يعرف المشردون طريقة أخرى للعيش.

في الختام، يجب أن نلاحظ أن الطعام الذي يعطى لكل متشرد يتألف بمجمله من سبعمائة وخمسين غراماً (رطلين) من الخبز مع قليل من السمن النباتي والجبن وباينت من الشاي يومياً. وهذا طعام غير كافٍ لرجل يجب أن يقطع عشرين كيلومتراً مشياً على الأقدام يومياً. لكي يكمل طعامه وينال ثياباً وتبغاً وآلاف الأشياء الأخرى التي يحتاجها، يجب على المشرد أن يتسول حين لا يستطيع إيجاد عمل (ونادراً ما يجد عملاً)- يتسول أو يسرق. الآن، إن التسول عمل ضد القانون في إنكلترا، وأصبح الكثير من المشردين معتادين على سجون جلالته بسبب التسول.

إنها دائرة الشر؛ إذا لم يتسول المشرد يموت من الجوع، وإن تسول ينتهك القانون. حياة هؤلاء المشردين مهينة ومدمرة للأخلاق. خلال زمن قصير تجعل الشخص الفاعل والنشيط غير صالح للعمل والتوظيف وطفيلياً. إضافة إلى ذلك، إنها حياة رتيبة بشكل مفرط. المتعة الوحيدة للمشرد أن يرزق ببضع شلنات بصورة غير متوقعة، وهذا يعطيه فرصة أن يأكل حتى يملأ بطنه، أو أن يشرب حتى يثمل. والمشرد ليس له أي علاقة مع النساء، لأن النساء المشردات قليلات جداً، وبالنسبة لأخواتهن الأفضل حظاً يعتبر التشرد موضوع احتقار، لهذا فإن اللواط رذيلة ليست مجهولة لهؤلاء المتجولين الأبديين.

أخيراً، إن المشرد لم يرتكب أي جريمة، وهو ببساطة ضحية البطالة ومحكوم عليه أن يعيش في بؤس أكبر من أقسى أشكال العبودية. وحين يفكر في قدره التعيس الذي يشاركه فيه آلاف الرجال في إنكلترا، فإن النتيجة الواضحة هي لو أن المجتمع يعامله بعطف أكبر ويضعه في السجن لبقية أيامه حيث يستمتع براحة نسبية على الأقل.

أي ايه بلير. نشرت لأول مرة في بروغريس سيفيك
٥ يناير/ كانون الثاني ١٩٢٩
ترجمتها من الفرنسية جانيت بيرسيفال وإيان ويلسون.

"ظلام في الظهيرة"

"ظلام في الظهيرة" (١٩٤٠) تصور محاكمات موسكو الاستعراضية و"التطهير الكبير" للبلاشفة القدماء الذي قام به ستالين. في مراجعته النقدية للستيتهان، مدح أورويل كيسلر "لمعرفته الداخلية بأساليب الحكم الاستبدادي الشمولي": "الناس العوام" يجادلون رجل المباحث الحزبي إيفانوف الذي "لا يستطيع أن يفهم أن "الانحراف عن المذهب أو العقيدة" جريمة بحد ذاته- لذلك يجب أن تُخترع جرائم من النوع الذي يستطيعون فهمه كجريمة القتل أو تخريب القطارات وهلم جرا" كثيرون يرون اعتراف روباتشيف عبارة عن تأثير مباشر على وينستون سميث.

استغل أورويل مراجعته كفرصة لمعاقبة صحافة اليسار في بريطانيا على رفضها التكلم بصوت عالٍ، وبيان قوي جداً صدر بعد سنتين من رفض كينغزلي مارتن نشر رسائله من إسبانيا، خشية أن يبدو ناقداً لستالين وبالتالي الاشتراكية: "المخيف بخصوص هذه المحاكمات، ليس كونها حدثت -لأنه من الواضح أن مثل هذه الأشياء ضرورية في المجتمع الاستبدادي- وإنما تلهف المثقفين الغربيين إلى تبريرها"

يفترض بارثر كيسلر أن يعرف شيئاً ما عن السجون، لأنه قضى حصة محترمة من السنين الأربع الماضية هناك. أولاً فترة طويلة تمطى فيها في واحد من حصون فرانكو مع صوت فرق الإعدام يرن من خلال الجدران عشرين مرة أو ثلاثين في اليوم الواحد. ثم أمضى سنة تقريباً بعد ذلك معتقلاً في فرنسا، ثم فرّ إلى إنكلترا، واعتقل مجددا في بينتونفيل -ومن هناك أطلق سراحه بلا شروط. لا حاجة للقول إنه لم يتهم بأي جريمة محددة في أي حالة من الحالات. الآن، فوق مناطق متزايدة من الأرض، يسجن المرء ليس بسبب ما فعله، وإنما للدقة الأكبر بسبب ما يشتبه به أن يفعله. لكن السيد كيسلر يستطيع أن يهنئ نفسه، لأنه وقع في أيدي الهواة فقط، إذ لو سجنته إنكلترا فستطلق سراحه ثانية في كل الأحوال، ولن تجبره مسبقاً بأن يعترف بتسميم الخراف وارتكاب أعمال تخريب على خطوط السكك الحديدية، والتآمر على اغتيال الملك.

إن روايته الحالية هي ثمرة تجاربه وحكاية السجن الذي تعرض له، واعتراف واحد من قدماء البلاشفة، وموته الذي هو صورة مركبة تحمل شبهاً بحالتي بوخارين وتروتسكي، والحوادث فيها تتبع المسار العادي. روباتشوف واحد من آخر الناجين من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، يُعتقل ويُتهم بجرائم لا تصدق. يُنكر كل شيء ويُعذب ثم يُقتل بطلقة في رقبته من الخلف. تنتهي القصة بفتاة صغيرة استأجر روباتشوف غرفة في بيتها سابقاً وهي تتساءل إن كانت ستبلغ الشرطة السرية عن والدها كطريقة لتأمين الطابق (البيت) لنفسها وزوجها المستقبلي. لكن اهتمام الرواية التام تقريباً يتركز حول الصراع الثقافي بين ثلاثة رجال: روباتشوف نفسه واثنين من موظفي الاستخبارات الروسية هما إيفانوف وجليتكين، اللذين يتعاملان بقضيته. إيفانوف ينتمي إلى نفس الجيل الذي ينتمي إليه روباتشوف، يُصفى ويُعدم فجأة ومن دون محاكمة وسط إجراءات القضية. أما جليتكين فينتمي إلى الجيل الجديد الذي كبر منذ الثورة في عزلة تامة عن العالم الخارجي وعن الماضي أيضاً. إنه "رجل الحزب الخير" والأنموذج المثالي تقريباً للحاكي البشري. إيفانوف لا يصدق فعلياً أن روباتشوف ارتكب الأعمال المنافية للعقل التي اتهم بها. الحجة التي يستخدمها كي يحثه على الاعتراف، هي الخدمة الأخيرة المطلوبة منه من قبل الحزب، ويقول: الناس العاديون لا يستطيعون أن يدركوا أن "الانحراف عن العقيدة" جريمة بحد ذاته، لذلك يجب أن تُخترع جرائم من النوع التي يستطيعون فهمه كجريمة القتل أو تخريب القطارات وهلم جرا. يستخدم جليتكين الحجة نفسها، لكن موقفه مختلف نوعاً ما، ولم يكن مؤكدا إن كان يصدق أن روباتشوف كان مذنباً أم لا. وبدقة أكبر ليس هناك فرق وتمييز بين الذنب والبراءة موجود في عقله. الشكل الوحيد من النقد الذي يقدر أن يتخيله هو جريمة القتل. كما يرى الأمور أي واحد يفكر بفكرة غير محترمة عن ستالين، سيحاول كشيء طبيعي أن يغتاله. لذلك رغم أن محاولة الاغتيال لم تنفذ، إلا أنه يمكن اعتبارها تمت وموجودة مثل منتج لم يسحب بالنسبة إلى خط الإنتاج. إن قوة جليتكين تكمن في القطع التام مع الماضي الذي يتركه، ليس بلا شفقة فقط، وإنما بلا خيال أو معرفة مزعجة وغير ملائمة. ومن جانب آخر كانت نقطة ضعف البلاشفة القدماء، في أنهم ظلوا أوروبيين في صميمهم وأقرب إلى المجتمع الذي أطاحوا به، منهم إلى الجيل الجديد من المسوخ الذي خلقوه.

حين يستسلم روباتشوف ويعترف، لا يكون هذا بسبب التعذيب -فقد عانى أسوأ من ذلك على أيدي النازيين من دون أن يعترف- وإنما بسبب خواء داخلي تام. "سألت نفسي" يقول في محاكمته بنفس كلمات بوخارين تقريباً، "من أجل ماذا أنا أقاتل؟" من أجل ماذا في الحقيقة. إن أي حق للاحتجاج ضد التعذيب أو السجون السرية هو كذب منظم، وهكذا خسر رهانه منذ وقت طويل. هو يعرف أن ما يحدث الآن هو نتيجة لأفعاله هو- حتى إنه يشعر بنوع من الإعجاب بجليتكين كنوع أدنى من البشر، وكونه ضرورياً ليقود الثورة ويوجهها في مرحلتها الحالية. محاكمات موسكو كانت منظراً رهيباً، لكن لو تذكر المرء ماذا وكيف كان تاريخ البلاشفة القدماء، فسيصعب عليه التأسف عليهم كأفراد، إذ إنهم أخذوا السيف وماتوا بالسيف كما سيفعل ستالين أيضاً، إلا إذا مات مبكراً وقبل أوانه مثل لينين.

هذا الكتاب رائع كرواية وقطعة من الأدب الرائع، وربما أنفس تفسير "لاعترافات" موسكو من قبل شخص لديه معرفة داخلية بالأساليب الاستبدادية. إن ما يخيف بخصوص هذه المحاكمات، ليس حقيقة أنها وقعت - لأن مثل هذه الأشياء ضروري في المجتمع الاستبدادي الشمولي- ولكن المخيف هو تلهف المثقفين الغربيين إلى تبريرها. مراسلو الصحف الليبرالية أعلنوا بوضوح "أنهم راضون تماماً" باعتراف رجال جروا إلى الضوء بعد سنين من السجن الانعزالي، كما أنتج محامٍ بارز نظرية مفادها أن خسارة حق الاستئناف كان فرصة كبيرة للمتهم! إن الحالات المتزامنة في إسبانيا التي لفقت فيها نفس الاتهامات تماماً لكنها لم تحرز اعترافات، قُمعت وغُطيت أو كذبت الصحافة اليسارية حولها. كان من الواضح طبعاً أن المتهم في القضايا القانونية الروسية تعرض للتعذيب وهدد بالتعذيب، لكن التفسير ربما كان أعقد من ذلك. يعتقد السيد كيسلر مثل سوفارين أن "مصلحة الحزب" كانت الحجة الحاسمة؛ إن كتابه في الواقع أشبه بكراس موسع عن كابوس في الاتحاد السوفييتي، وقطعة من كتابة تعتبر تقدماً بارزاً وفذاً على عمله السابق.

٤ يناير ١٩٤١.

كيف تستغل أمة - الإمبراطورية البريطانية في بورما

بعد تتبع المشاكل الحديثة في الهند، طلبنا من السيد أي ايه بلير المساهم في مجلتنا والذي ظهر تقصيه حول "مأزق العامل البريطاني" على صفحاتنا، أن يخبرنا شيئاً عن الاضطراب المختمر الهائج في شبه القارة منذ سنين، والذي يهدد في الامتداد إلى الهند الصينية. السيد أي ايه بلير الذي عاش في بورما لعدة سنوات، كتب لنا المقالة المشوقة التالية، التي تبين الأساليب التي تستخدمها الإمبراطورية البريطانية لحلب وتجفيف مستعمراتها الآسيوية.

تقع بورما بين الهند والصين، وتنتمي إثنولوجياً إلى الهند الصينية، ومساحتها تساوي ثلاثة أضعاف مساحة إنكلترا وويلز، وعدد سكانها حوالي أربعة عشر مليوناً، منهم تسعة ملايين بورمي، أما البقية فتتألف من عدد لا يحصى من القبائل المنغولية التي هاجرت في فترات مختلفة من سهول آسيا الوسطى المتصحرة، ومن هنود وصلوا بعد الاحتلال الإنكليزي. إن ديانة البورميين هي الديانة البوذية. أما رجال القبائل فيعبدون آلهة وثنية متنوعة. ولكي تستطيع التكلم بلغة الناس الذين يعيشون في بورما ومن هذه الأصول المختلفة، عليك أن تتعلم مائة وعشرين لغة ولهجة مختلفة. إن كثافة السكان في هذه البلاد عشر كثافتهم في إنكلترا، وهي واحدة من أغنى بلدان العالم. إنها غنية بمواردها الطبيعية التي بدأ استغلالها للتو، هناك القصدير والتنغستن والشب والياقوت، وهذه هي الأقل من بين مواردها المعدنية. في هذه اللحظة هي تنتج خمسة بالمائة من بترول العالم، واحتياطها أكبر من أن ينفد. لكن أكبر مصدر للثروة والذي يطعم من ثمانين إلى تسعين بالمائة من السكان، هو حقول الأرز. يزرع الرز في كل مكان في حوض ايراوادي الذي يجري عبر بورما ويخترقها من الشمال إلى الجنوب. في الجنوب في الدلتا الهائل حيث يجلب ايراوادي أطناناً من طين الطمي كل سنة، توجد تربة خصبة بشكل ممتاز. غلال الحصاد المميزة بنوعيتها وكميتها تمكن بورما من تصدير الرز إلى الهند وأوروبا وحتى أميركا. إضافة إلى ذلك، إن اختلاف درجات الحرارة أقل من المألوف وأقل حدة من الهند. بفضل هطول الأمطار الغزيرة وخصوصاً في الجنوب، لا يحل الجفاف،

والحرارة لا تكون شديدة جداً أبداً. المناخ ككل يمكن اعتباره واحداً من أكثر المناخات الصحية الموجودة في المناطق الاستوائية. إن أضفنا أن الريف البورمي جميل بشكل استثنائي بأنهار عريضة وجبال عالية وغابات خضراء دائمة وورود ملونة ساطعة وفواكه غريبة، فإن عبارة "فردوس أرضي" تخطر في الذهن بشكل طبيعي. لهذا من غير المفاجئ أن تحاول إنكلترا منذ زمن بعيد أن تتملكها، فقد استولى الإنكليز على مساحة واسعة من الأراضي في عام ١٨٢٠ وتكررت هذه العملية في عام ١٨٥٢ وأخيراً في عام ١٨٨٢ رفرف علم الاتحاد يونيون جاك فوق كل البلاد تقريباً. بعض المناطق الجبلية في الشمال التي تسكنها قبائل همجية، نجت من براثن القبضة البريطانية إلى الآن، لكن الاحتمال الأكبر أنها ستواجه نفس المصير الذي واجهته البلاد كلها بفضل عملية عرفت تلطيفاً باسم "اختراق سلمي" التي تعني بإنكليزية صريحة "ضمّ سلمي"

في هذه المقالة لن أسعى إلى مدح أو ذم هذا الظهور للإمبريالية البريطانية؛ دعونا نلاحظ ببساطة أنها نتيجة منطقية لأي سياسة إمبريالية. وسيكون من المفيد أكثر أن نتفحص الجوانب الجيدة والسيئة للإدارة الإمبريالية البريطانية في بورما من منظور اقتصادي وسياسي.

لنعد أولاً إلى السياسة.

إن حكومة المناطق الهندية التي تحت سيطرة الإمبراطورية البريطانية، هي حكومة استبدادية بالضرورة، لأن التهديد بالقوة فقط يمكن أن يخضع سكاناً يعدون ملايين كثيرة من الرعايا. لكن هذا الحكم الاستبدادي مستتر ويختبئ وراء قناع من الديمقراطية. المبدأ الكبير للإنكليز في حكم عرق شرقي هو "لا تفعل شيئاً أبداً باستخدام أوروبي عندما يستطيع رجل شرقي القيام بذلك" بعبارة أخرى تبقى السلطة العليا مع المسؤولين البريطانيين، أما الموظفون المدنيون الصغار الذين عليهم أن ينفذوا الإدارة اليومية والذين يجب عليهم أن يكونوا في احتكاك مباشر مع الناس أثناء تأدية واجباتهم، فيتم تجنيدهم من السكان المحليين. ففي بورما مثلاً أدنى درجة من القضاة وكل رجال الشرطة حتى رتبة مفتش (ضابط شرطة) وأعضاء الخدمة البريدية والموظفون الحكوميون وزعماء القرى، هم بورميون. مؤخراً لتهدئة الرأي الشعبي ووضع نهاية للهياج القومي الذي بدأ يسبب القلق، قرر القبول بترشيح السكان الأصليين المتعلمين لبعض المناصب الهامة. نظام توظيف السكان الأصليين كموظفين

مدنيين فيه ثلاث فوائد. أولاً، يقبل السكان المحليون بأجور أقل من الأوروبيين. ثانياً، لديهم فكرة أفضل عن الأشياء التي يفكر فيها زملاؤهم من أبناء بلدهم، وهذا يساعد على تسوية المشاحنات القانونية بسهولة أكبر. ثالثاً، من مصلحتهم أن يظهروا ولاءهم لحكومة تقدم لهم سبل العيش. وهكذا يحافظ على السلام بضمان تعاون وثيق بين الطبقات المتعلمة وشبه المتعلمة؛ حيث قد ينتج الاستياء قادة تمرد، لكن مع ذلك يسيطر البريطانيون على البلاد. طبعاً بورما مثل أي واحدة من المناطق الهندية، لديها برلمان -مظهر الديمقراطية دائماً- لكن في الواقع هو برلمان سلطته قليلة جداً. ليس هناك شيء مهم ضمن سلطاته القضائية. أغلب أعضائه مجرد دمى بيد الحكومة، تستخدمهم فقط لتعطيل أي وثيقة تبدو غير ملائمة في مهدها. بالإضافة إلى ذلك هناك حاكم لكل منطقة يعينه الإنكليز وتحت تصرفه فيتو مطلق مثل فيتو رئيس الولايات المتحدة، يعارض فيه أي اقتراح يغضبه، لكن مع ذلك فإن الحكومة البريطانية كما بينا، هي حكومة استبدادية في أساسها، وغير محبوبة بأي شكل من الأشكال.

الإنكليز يشقون الطرقات والأقنية -لمصلحتهم طبعاً، لكن البورميين يستفيدون منها- ويبنون المستشفيات ويفتحون المدارس ويحرصون على استتباب الأمن والنظام. أخيراً، فإن البورميين مجرد فلاحين يشتغلون بحراثة الأرض، ولم يصلوا بعد إلى درجة التطور الثقافي التي تجعلهم قوميين. قريتهم هي عالمهم، وطالما يتركون بحالهم في حراثة حقولهم، فهم لا يهتمون إن كان سادتهم من السود أو البيض.

كدليل على هذه اللامبالاة السياسية من جانب الشعب في بورما حقيقة، أن القوات البريطانية العسكرية الوحيدة في البلاد هي عبارة عن كتيبتين إنكليزيتين من المشاة، وحوالي عشرة كتائب مشاة من الهنود والشرطة المحمولة. وبهذا، فإن اثني عشر ألف رجل مسلح أغلبهم من الهنود يكفون لإخضاع سكان عددهم أربعة عشر مليون نسمة.

أخطر أعداء الحكومة هم الشبان من الطبقات المتعلمة. إذا كانت هذه الطبقات كثيرة وكانت متعلمة جداً، فيمكنها رفع راية ثورية. لكنها ليست كذلك. السبب أولاً كما رأينا أن أغلب البورميين فلاحون. ثانياً، أن الحكومة البريطانية قلما تتجشم العناء لتعطي الناس تعليماً مختصراً لا فائدة منه تقريباً يكفي فقط لإنتاج سعاة وموظفين مدنين من مراتب دنيا، وكتبة محامين صغار وعمال ياقات بيضاء آخرين. هناك حرص على تجنب التدريب التقني

والصناعي. هذه القاعدة المتبعة في كل أرجاء الهند تهدف إلى إيقاف الهند من أن تصبح بلاداً صناعية قادرة على منافسة إنكلترا. صحيح القول بشكل عام: إن أي بورمي متعلم فعلياً تعلم في إنكلترا، وينتمي في النتيجة إلى طبقة صغيرة من الأثرياء. لهذا لعدم وجود طبقات متعلمة، فإن الرأي العام الذي يمكن أن يدفع من أجل تمرد ضد إنكلترا، غير موجود.

دعونا الآن نتأمل المسألة الاقتصادية. هنا مرة أخرى نجد أن البورمي عموماً جاهل جداً ليكوّن فهماً واضحاً للطريقة التي يعاملون بها، وبالتالي جاهل جداً لإظهار أدنى درجة من الامتعاض. بالإضافة إلى ذلك، فإنهم إلى الآن يعانون من ضرر اقتصادي كبير. صحيح أن البريطانيين استولوا على المناجم وآبار النفط، وصحيح أنهم يسيطرون على الإنتاج، وصحيح أن كل أنواع الوسطاء والسماسرة وأصحاب المطاحن والخبراء قد جنوا ثروات هائلة من الرز من دون أن يحصل المنتج -أي الفلاح- على شيء منها. صحيح أيضاً أن رجال الأعمال الذي أثروا بسرعة والذين جمعوا رأسمالهم من الرز والنفط إلخ، لا يساهمون كما يجب لما فيه مصلحة البلاد، وأموالهم بدلاً من أن تضخم مصادر الدخول المحلية على شكل ضرائب، ترسل إلى خارج البلاد وتصرف في إنكلترا. إن كنا صادقين تماماً، فإن البريطانيين يسلبون ويسرقون بورما بلا حياء إطلاقاً. لكن يجب أن نؤكد أن البورميين قلما يلاحظون ذلك الآن. بلادهم غنية جداً، وسكانهم مبعثرون جداً، وحاجاتهم مثل كل المشرقيين خفيفة جداً، وهم غير مدركين بأنهم يتعرضون للاستغلال.

الفلاح الذي يحرث رقعته من الأرض يعيش تقريباً كما فعل أسلافه في زمن ماركو بولو. إن رغب، فيمكنه شراء أرض بكر بسعر معقول. هو بالتأكيد يحيا حياة قاسية، لكنه بالمجمل خالٍ من الهموم والجوع والبطالة، وهي كلمات لا معنى لها بالنسبة إليه. هناك عمل وطعام لكل شخص، فلماذا القلق غير الضروري؟

لكن في هذه النقطة الهامة، سيبدأ البورمي المعاناة حين ينحدر قسم كبير من غنى البلاد. على الرغم من أن بورما تطورت إلى حد ما منذ الحرب، إلا أن الفلاح أفقر مما كان قبل عشرين سنة، وقد بدأ يشعر بثقل حمل الضريبة التي لا تعوضها زيادة غلة مواسمه، وأجور العامل لا تتناسب مع تكلفة المعيشة.

إن السبب الذي جعل الحكومة البريطانية تسمح بالدخول الحر إلى بورما لقطعان حقيقية من الهنود الذين أتوا من أرض يموتون فيها من الجوع حرفياً، لكي يعملوا مقابل لا شيء تقريباً، وكنتيجة يكونون منافسين مخيفين للبورميين. أضف هذا إلى ارتفاع النمو السكاني السريع. ففي الإحصاء الأخير سجل السكان زيادة قدرها عشرة ملايين على الأقل في عشر سنوات. ومن السهل أن نرى عاجلاً أو آجلاً وكما يحدث في كل البلدان المكتظة بالسكان، أن يجرد البورميون من ملكية أراضيهم وينحدروا إلى أنصاف عبيد في خدمة الرأسمالية، ويجبروا أن يتحملوا البطالة، وسوف يكتشفون عندئذ الشيء الذي نادراً ما شكوا فيه اليوم بأن آبار النفط والمناجم وصناعة الطحين وبيع وحراثة الأرز، كلها يتحكم بها البريطانيون.

إن السياسة البريطانية في بورما هي نفس سياستها في الهند. صناعياً أُبقيت الهند على جهلها عمداً. هي لا تنتج سوى الحاجات الأساسية المصنوعة يدوياً. حين لا يستطيع الهنود صنع السيارة أو البندقية أو ساعة الجدار أو المصباح الكهربائي إلخ، ولا يستطيعون بناء سفينة تبحر في المحيطات، وفي الوقت نفسه حين يتعلمون في تعاملاتهم مع الغربيين الاعتماد على سلع محددة مصنوعة بالآلة، فإن منتجات المصانع الإنكليزية ستجد منفذاً ومخرجاً مهماً في بلاد عاجزة عن تصنيعها بنفسها. إن المنافسة الأجنبية منعت بعقبة لا تقهر من رسوم جمركية تحريمية، ولهذا فإن أصحاب المصانع الإنكليزية الذين لا يخشون من أي ضرر، يسيطرون على الأسواق ويحصدون أرباحاً فادحة. نحن قلنا إن البورميين لم يعانوا بعد كثيراً جداً، لكن هذا لأنهم بقوا إجمالاً أمة زراعية. ولكن مع ذلك ككل الشرقيين، فقد خلق الاحتكاك مع الأوروبيين الطلب غير المعروف لآبائهم على منتجات الصناعة الحديثة، وفي النتيجة يسرق البريطانيون بورما والبورميين بطريقتين:

أولاً؛ هم ينهبون مواردهم وثرواتهم الطبيعية، ثانياً؛ يمنحون أنفسهم حقاً حصرياً في بيع المنتجات المصنعة التي تحتاجها بورما الآن. وبهذا يجذبون البورميين إلى نظام الرأسمالية الصناعية من دون أي أمل بأن يصبحوا صناعيين رأسماليين هم أنفسهم. بالإضافة إلى ذلك، فإن البورميين مثل كل الشعوب الهندية، يبقون تحت حكم الإمبراطورية البريطانية لاعتبارات عسكرية صرفة، لأنهم في النتيجة غير قادرين على بناء السفن وتصنيع البنادق أو أي أسلحة أخرى ضرورية للحرب الحديثة. وكما تبين الظروف، إذا تخلى الإنكليز عن الهند، ستكون

النتيجة الوحيدة هي تبديل السيد. سوف تتعرض البلاد للغزو، وتستغل بواسطة قوة أخرى ما. ترتكز السيطرة البريطانية على الهند أساساً، على تبادل الحماية العسكرية مقابل احتكار تجاري، لكن كما حاولنا أن نظهر، فإن الصفقة هي لمصلحة الإنكليز الذين تصل درجة سيطرتهم إلى كل الميادين.

نلخص ما قلناه: إن حصلت بورما على فائدة ما من الإنكليز، فيجب عليها أن تدفع ثمناً باهظاً مقابل ذلك. حتى الآن، الإنكليز أحجموا عن اضطهاد السكان الأصليين كثيراً لعدم وجود ضرورة إلى ذلك. لايزال البورميون في بداية فترة انتقالية ستبدلهم من فلاحين زراعيين إلى عمال في خدمة السلعة الصناعية. يمكن أن يقارن وضعهم مع وضع أي شعب من أوروبا القرن الثامن عشر ما عدا الرأسمال ومواد البناء والمعرفة والقوة الضرورية من أجل التجارة والصناعة التي تنتمي حصراً إلى الأجانب. لهذا هم تحت حماية استبدادية تدافع عنهم من أجل غايات خاصة بها، وستهجرهم وتتخلى عنهم بلا أي تردد إن انتهت فائدتهم لها.

إن العلاقة مع الإمبراطورية البريطانية هي علاقة العبد بالسيد.

هل السيد جيد أم سيئ؟ هذه ليست المشكلة: دعونا نقول ببساطة إن هذه السيطرة استبدادية، وبتعبير صريح مصلحة شخصية. حتى لو لم يكن للبورميين سبب كافٍ للتذمر حتى الآن، فإن اليوم سيأتي حين تكون ثروات البلاد الغنية غير كافية للسكان الذين يزدادون بشكل مستمر. عندئذ سيكونون قادرين أن يفهموا كيف تظهر الرأسمالية امتنانها لهؤلاء الذين تدين بوجودها وبقائها لهم.

اي ايه بلير. نشرت في لو بروغريس سيفيك
٤ مايو/ أيار عام ١٩٢٩
ترجمها للإنكليزية جانيت بيرسيفال وايان ويلسون.

قطف حشيشة الدينار

"إجازة بمرتب، أنت سيد نفسك كل الوقت الذي تكون فيه هناك، ثم تدفع أجرة نقلك في الذهاب والإياب، وتعود بخمسة جنيهات في جيبك"، أنا اقتبس كلمات اثنين من قاطفي الحشيشة الخبراء، يذهبان إلى مقاطعة كنت في كل موسم منذ أن كانا طفلين، وينبغي أنهما يعرفان أفضل. لكن في الواقع إن قطف حشيشة الدينار أبعد ما يكون عن الإجازة. ومن حيث الأجور، لا توجد وظيفة أو عمل أسوأ منه.

أنا لا أقصد بهذا أن قطف الحشيشة مهنة كريهة بحد ذاتها، فهي تتطلب ساعات طويلة، لكنها عمل صحي في الهواء الطلق، وأي شخص قادر جسدياً، يستطيع العمل فيها. العملية بسيطة جداً. إن النباتات المتسلقة الطويلة مع عناقيد الحشيشة عليها في حزم، مثل عناقيد العنب، معلقة فوق أعمدة أو أسلاك. وكل ما يجب على القاطفين فعله، هو أن يقتلعوها ويجردوا الحشيشة ويضعوها في صندوق ويحافظوا عليها نظيفة بأقصى ما يمكن من الأوراق. السوق الشائكة تجرح راحات الأيدي وتقطعها، في الصباح الباكر، قبل أن يفتح الجرح ثانية، وهو عمل مؤلم، حيث يتعرض القاطف لإزعاج أيضاً مع قمل النبات الذي يملأ الحشيشة، ويزحف على عنق المرء ومنه إلى أجزاء جسمه. لكن عدا ذلك، فليس هناك إزعاج. يمكن للمرء أن يتمشى ويدخن وهو يعمل. وفي الأيام الحارة، ليس هناك مكان ممتع أكثر من الممرات الظليلة بين نباتات الحشيشة مع رائحتها اللاذعة- رائحة منعشة بشكل لا يوصف، مثل ريح تهب من محيطات من البيرة الباردة. ولو استطاع المرء كسب عيشه فيها، سيكون ذلك شيئاً شبه مثالي.

لسوء الحظ، إن معدل الأجرة منخفض جداً، لذلك من المستحيل أن يكسب القاطف جنيهاً واحداً أسبوعياً. وفي سنة ماطرة مثل سنة ١٩٣١ يكسب خمسة عشر شلناً. يتم عمل قطف الحشيشة بنظام القطعة؛ إذ يدفع للقاطفين على البوشل. في المزرعة التي عملت فيها هذه السنة، وككل المزارع في مقاطعة كنت، كان الحساب شلناً من أجل ستة بوشلات- أي كانوا يدفعون لنا بنسين لكل بوشل نقطفه. تغل النباتات الجيدة نصف بوشل من الحشيشة،

ويستطيع القاطف الجيد تجريد بتة كاملة في عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة؛ هذا يؤدي أن القاطف الخبير في الظروف المثالية، يمكن أن يكسب ثلاثين شلناً في أسبوع عمل مدته ستين ساعة. لكن لعدد من الأسباب، فإن هذه الشروط المثالية غير موجودة. لنبدأ بالحشيشة التي تتنوع في نوعيتها بشكل هائل؛ ففي بعض الكروم تكون كبيرة مثل الأجاص الصغير، وفي كروم أخرى لا تكون أكبر من حبة البندق؛ والكروم الرديئة يستغرق تجريدها وقتاً أطول من الجيدة- أطول كقاعدة، لأن الأغصان الدنيا متشابكة أكثر -وعادة خمس منها لا تعطي بوشلاً واحداً. أيضاً هناك فترات تأخير مألوفة في العمل، إما في التبديل من حقل إلى آخر، أو بسبب الأمطار، وتضيع ساعة أو اثنتان بهذه الطريقة يومياً، ولا يُدفع للقاطفين تعويض عن الوقت الضائع. وأخيراً، إن السبب الأكبر للخسارة يكمن في عدم وجود قياس عادل. تقاس الحشيشة بسلال البوشل ذات قياس معياري، لكن يجب أن نذكر أن الحشيشة ليست مثل التفاح أو البطاطا، يمكن للمرء أن يقول إن البوشل هو بوشل وينتهي الأمر. إن الحشيشة أشياء طرية وقابلة للضغط مثل الإسفنج. ومن السهل جداً لأي وزان أن يضغط البوشل ويسحقه ويحوله إلى ربع بوشل إن أراد. كل قاطفي الحشيشة يغنون- حين يأتي للقياس والوزن/ هو لا يعرف أبداً أين يقف/ ايه ايه ادخل في الصندوق وخذ النصيب اللعين!

تفرغ الحشيشة من الصندوق، وتوضع في أكياس يزن واحدها مائة باوند حين تكتمل كما يفترض، ويحملها رجل واحد عادة، لكن غالباً ما تحتاج إلى رجلين للإمساك بكيس مملوء حين يعتبره الوزان ثقيلاً.

مع ظروف العمل هذه، أنا وصديق لي كسبنا في شهر سبتمبر، أيلول هذا حوالي تسعة شلنات في الأسبوع لكل منا. كنا جدداً في هذه الصنعة، لكن القاطفين الخبراء أنتجوا أكثر قليلاً. أفضل القاطفين في زمرتنا والأفضل في كل المخيم، هي عائلة من الغجر مؤلفة من خمسة أشخاص بالغين وطفل؛ هؤلاء الناس يمضون عشر ساعات في اليوم في حقل الحشيشة، وكسبوا عشر جنيهات في ثلاثة أسابيع. بحذف الطفل من الحساب (علماً أن كل الأطفال في الواقع في حقل الحشيشة يعملون) كان المعدل ثلاثة عشر شلناً وأربعة بنسات في الأسبوع الواحد. هناك مزارع مختلفة قريبة؛ حيث يكون جدول الحساب ثمانية أو تسع بوشلات بشلن واحد؛ إذ يكون من الصعب كسب حتى اثني عشر شلن في الأسبوع الواحد. بالإضافة إلى

هذه الأجور المميتة من الجوع، يجب على جاني الحشيشة أن يتأقلم مع القوانين التي تقلله إلى عبد. أحد القوانين مثلاً، يمكّن المزارع من طرد عماله تحت أي عذر كان، وبذلك تتم مصادرة ربع ماهم المكتسب، كما يخفض مال القاطف إن استقال من عمله. لا عجب أن أغلب العمال الزراعيين الجوالين يعملون عشرة أشهر في السنة فقط، بسبب السفر على الطريق والنوم في الملاجئ بين الوظائف والأعمال.

بالنسبة إلى المكان الذي يعيش فيه قاطفو الحشيشة، هناك الآن قبيلة كاملة من موظفي الحكومة يراقبونه. ومن المفترض أنه أفضل مما كان سابقاً. إن الوضع الذي كان عليه في الأيام السابقة صعب تخيله، وحتى الآن إن كوخ قاطف الحشيشة العادي أسوأ من الإسطبل. (أقول هذا عن عمد: في مزرعتنا أنا وصديقي مع اثنين آخرين، نمنا في كوخ صغير جداً، أبعاده عشرة أقدام مع نافذتين من دون زجاج، ونصف دزينة من الفتحات تدخل منها الريح والمطر، وليس هناك أثاث باستثناء كومة من القش: المرحاض كان على بعد مائتي ياردة، وحنفية الماء على نفس المسافة. بعض هذه الأكواخ يجب أن يقتسمها ثمانية رجال -لكن ذلك في أي حال يخفف البرد الذي يكون قاسياً في ليالي شهر أيلول/ سبتمبر، حين لا يكون لديك فراش وبطانيات، وإنما كيس مهمل من القش. وطبعاً هناك كل أنواع منغصات حياة المخيم؛ ليست مشقات خطيرة ولكنها كافية لتضمن أننا حين لا نكون في العمل أو نياماً، فإننا نكون إما نحضر الماء، أو نحاول أن نشعل النار بعيدان مبللة.

أعتقد أننا نتفق كلنا على أن هذه ظروف سيئة للأجر والمعاملة بكل معنى الكلمة. مع ذلك، فإن الشيء الغريب هو عدم وجود نقص في جناة الثمار. والأغرب أن الأشخاص أنفسهم يعودون إلى حقول الحشيشة سنة بعد سنة. إن الذي يبقي المهنة مستمرة، ربما حقيقة أن الكوكنيون يستمتعون بالرحلة إلى الريف، بالرغم من الأجر السيئ، وبالرغم من المشقة والإزعاج. وحين ينتهي الموسم يكون القاطفون مسرورين من قلبهم للعودة إلى لندن؛ حيث لا تجبر على النوم على القش؛ وحيث تستطيع وضع بنس في الغاز بدلاً من حطب الوقود، ويكون ولويرث عند ناصية الشارع. ويظل جني حشيشة الدينار في صنف الأشياء التي تعتبر متعة عظيمة حين ينتهي موسمها. إنها تصور في أذهان القاطفين أجازة، رغم أنهم يعملون بمشقة طوال الوقت، ويخرجون خالي الوفاض تقريباً في النهاية. وبالإضافة إلى هذا، يوجد

نظام العمل بالقطعة الذي يخفي معدل الأجر المتدني، لأن "ستة بوشلات بشلن واحد يبدو أكثر من خمسة عشر شلناً في الأسبوع الواحد". وهناك بيئة الأزمان الطيبة قبل عشر سنوات حين كانت الحشيشة غالية، واستطاع المزارعون أن يدفعوا نصف شلن للبوشل الواحد؛ هذا يبقي الحكايات حية عن "العودة إلى البيت مع خمس جنيهات في جيبك". بأي مقياس، ومهما كان السبب، فليست هناك صعوبة في جعل الناس يقومون بالعمل. لهذا على المرء ألا يتذمر كثيراً وبصوت مرتفع حول الظروف في حقول حشيشة الدينار. لكن إذا قارن المرء الأجر والمعاملة مع العمل المقدم، عندها يكون قاطف الحشيشة أسوأ من رجل الإعلانات الذي يعلق الإعلان في رقبته.

إيريك بلير. النيوستيتمان أند نيشن
١٧ أكتوبر/ تشرين أول ١٩٣١.

أورويل عن النظام الملكي

الحرية هي أن تقول للناس ما لا يحبوا أن يسمعوه.

لا شيء أصعب من التأكد إن كانت العاطفة المؤيدة للنظام الملكي مازالت حقيقة في إنكلترا أم لا. فكل الذي قيل في كلا الجانبين ملون بتفكير رغبوي. ورأيي أن الملكية، أقصد الملكية الشعبية، كانت عاملاً قوياً في الحياة الإنكليزية حتى موت جورج الخامس، الذي ظل شخصية أبوية، إظهاراً للفضائل العائلية الإنكليزية طالما كان مقبولاً كملك (وكما كانت فكتوريا ملكة). كان اليوبيل الفضي عام ١٩٣٥ في جنوب إنكلترا في أي حال انفجاراً محزناً للعاطفة الشعبية العفوية والأصيلة، وقد فوجئت السلطة والمسؤولون ومددت الاحتفالات أسبوعاً إضافياً، بينما كان الرجل العجوز المسكين الذي رمم على عجل بعد إصابته بذات الرئة والمحتضر، ينقل ذهاباً وإياباً عبر شوارع أحياء الفقراء التي علقوا فيها أعلاماً من تلقاء أنفسهم وكتبوا على الجدران "يعيش الملك ويسقط ملاكو الأراضي" على طول الطريق. أعتقد أن تنازل إدوارد الثامن عن العرش وجّه صفعة للملكية، ربما لن تشفى منها. إن الشجار بسبب التنازل عن العرش الذي كان عنيفاً حين استمر، قد قسّم الفرق السياسية الموجودة كما يمكن أن يرى من حقيقة أن أبطال إدوارد الصاخبين كانوا تشرشل وموسلي واتش جي ويلز. وبعبارة أشمل وأوضح، كان الأغنياء ضد إدوارد، وكانت الطبقات العاملة متعاطفة معه. لقد وعد عمال المناجم العاطلين عن العمل بأنه سيفعل شيئاً ما لمصلحتهم، وكان ذلك جريمة في عيون الأغنياء. ومن جانب آخر، ربما شعر عمال المناجم والعاطلون عن العمل الآخرين أنه خذلهم بالتنازل عن العرش من أجل امرأة. يعتقد بعض المراقبين القاريين أنه تم التخلص من إدوارد بسبب صداقته ومزاملته للقادة النازيين وتأثره بالكرومويلية. لكن النتيجة الصافية لكل القضية كانت ربما إضعاف الشعور بالطهارة الملكية التي تشكلت بحذر منذ عام ١٨٨٠ وصاعداً، وأوضحت للشعب العجز الشخصي، وأظهرت أن العاطفة الملكية للطبقات العليا التي أعلن عنها كثيراً، كانت مجرد احتيال. وعلى الأقل يجب أن أقول إن إعادة العائلة الملكية كما كانت في عهد جورج الخامس، تحتاج إلى حكم طويل آخر وملك مع نوع من السحر.

إن وظيفة الملك تكمن في تعزيز الاستقرار، وأن يكون نوعاً من المرتكز في المجتمع غير الديمقراطي، واضحة طبعاً، ولكنه أيضاً لديه ويستطيع أن يكون لديه وظيفة العمل كصمام أمان للعواطف الخطيرة. قال لي صحفي فرنسي مرة أن الملكية كانت واحدة من الأشياء التي أنقذت بريطانيا من الفاشية. إن الذي قصده هو أن الناس العصريين لا يستطيعون في الظاهر أن يعيشوا ويتقدموا من دون طبول ورايات ومواكب ولاء وعروض عسكرية، ومن الأفضل أن يربطوا عبادتهم للقائد بشخصية ما ليس لديها أي سلطة حقيقية. في الحكم الديكتاتوري، فإن السلطة والقوة والمجد تخصّ نفس الشخص. في إنكلترا تعود السلطة الحقيقية إلى الرجال غير الجذابين بالقبعات السوداء المستديرة: المخلوق الذي يركب في عربة مطلية بالذهب خلف جنود في دروع، هو في الحقيقة تمثال من الشمع. وطالما يوجد هذا الفصل في الوظيفة والدور، فلا يمكن أن يصل إلى السلطة هتلر آخر أو ستالين. إن البلدان الأوروبية التي تفادت الفاشية بنجاح كبير، كانت بلداناً ملكية دستورية. على ما يبدو إن العائلة الملكية الثابتة والتي تعتبر من المسلمات، ستفهم مركزها الخاص، وستنتج شخصيات قوية ذات طموحات سياسية. هذه الأمور أنجزت في بريطانيا والبلدان المنخفضة واسكندنافيا، لكن ليس في إسبانيا أو رومانيا مثلاً. إن برزت هذه الحقائق إلى الجناح اليميني سيغضب جداً، وهذا لأنه لم يتفحص طبيعة مشاعره الخاصة به نحو ستالين. أنا لا أدافع عن المؤسسة الملكية في المعنى المطلق، لكن أعتقد أنه ربما يكون لها أثر مناعي في عصر مثل عصرنا، وبالتأكيد تسبب ضرراً أقل من وجود ما يسمى بالأرستقراطية (حكم النبلاء). وأنا أيدت دائماً تقريباً أن تقوم حكومة عمالية بإلغاء الألقاب والإبقاء على العائلة الملكية.

وفي نفس السنة كتب في مقالته الطويلة "الشعب الإنكليزي":

في الأوقات العادية فقط، تكون الطبقات الأغنى هي المؤيدة للملك ظاهرياً: في وست ايند في لندن مثلاً يقف الناس باستعداد من أجل "أطال الله عمر الملك" في نهاية عرض فيلم، بينما في الأحياء الأفقر يمشي الناس ويخرجون. لكن العاطفة التي أظهرت من أجل جورج الخامس في اليوبيل الفضي، كانت صادقة وأصيلة بشكل واضح، ويمكن أن ترى فيها البقاء أو تجدد الفكرة القديمة كقدم التاريخ، فكرة أن يكون الملك وعامة الناس في تحالف ضد الطبقات العليا.

مراجعة معطف متعدد الألوان

مقالات عرضية بقلم هربرت ريد

هذه المقالات والمراجعات النقدية في هذا المجلد من الحجم المتوسط الذي يغطي مواضيع كثيرة مثل الفوضوية وكتب الحرب وتولوز لوتريك وبول كلي وإيريك جيل وهافلوك إيليس وأسلوب النثر ولورانس العرب وجيرارد مانلي هوبكنز والواقعية الاشتراكية وجورج سيتسبيري وفيرلين وستاندال ومقدمة وردسوورث وفاوست مارلو والرسم الصيني وسلفادور دالي وكيركغارد وهنري جيمس. هؤلاء الذين سميتهم، يشكلون ربع المواضيع التي ناقشها روبرت ريد فقط زمن الواضح أن هكذا كتاب لا يمكن معالجته بألف كلمة أو خمسمائة. أنا أفضل أن أركز بشكل رئيسي على نقطة واحدة -الصدام بين معتقدات ريد السياسية ونظريته الجمالية. لكن تعدد المواضيع وتنوعها نقطة بحد ذاتها ويجب ملاحظتها. حتى لو اعتبر المرء ريد مجرد ناقد للرسم، فإن مدى اهتماماته وتعاطفه واسع جداً، وانفتاحه وتسامحه كان قوته وضعفه ككاتب. ريد فوضوي وفوضوي من النوع العنيد؛ هو يعترف أن المجتمع المثالي لا يمكن أن يتحقق في هذه اللحظة، لكنه يرفض أن يرضى بشيء أقل من ذلك، أو أن يتخلى عن الاعتقاد بأن الإنسان يمكن أن يبلغ درجة الكمال. هو يقبل بعصر الآلة، ويدافع لأسباب جمالية عن منتجات الآلة. في بعض مقالاته في هذا الكتاب، أبرزها "الفن والاكتفاء الذاتي" ومقال عن إيريك غيل، يبدو مرواغاً وغير مباشر قليلاً، لكن على العموم هو يؤكد أن الشكل الجمالي للمجتمع ينسجم مع مستوى عالٍ من التطور التقني.

بأي حال، إن فكرة الشروع المتعمد في الكتابة عن الفوضوية، يتضمن لامركزية السلطة وتبسيطاً كونياً للحياة. الكينونات غير البشرية كالمدينة الحديثة مثلاً ستختفي. لكن الفوضوية لا تتضمن بالضرورة عودة إلى الحرف اليدوية والصحة سانيتيشن في الهواء الطلق. ليس هناك تناقض بين الفوضوية والطاقة الكهربائية، والفوضوية والنقل الجوي، والفوضوية وتقسيم

العمل، والفوضوية والفعالية الاقتصادية. بما أن المجموعات الفعالة سوف تعمل من أجل المنفعة المشتركة وليس من أجل أناس آخرين أو من أجل تدمير مشترك، فإن مقياس الفعالية سيكون الشهية لعيش كامل.

التعميم غامض المحتوى في الجملة الأخيرة يتملص من السؤال الهائل: كيف يمكن التوفيق بين الحرية والتنظيم والإدارة؟ إن حسب المرء الاحتمالات، فإنه سيقاد إلى الاستنتاج أن الفوضوية تتضمن مستوى متدنياً من العيش. ليس من الضروري أن تتضمن عالماً جائعاً أو غير مريح، لكنها تستثني وتقصي أسلوب الحياة الذي فيه مكيفات الهواء والمطلي بالكروم والذي يعج بالآلات، والذي يعتبر الآن مرغوباً ومنوراً. العمليات المشمولة في صنع الطائرة مثلاً معقدة جداً لدرجة أنها غير ممكنة إلا في مجتمع ممركز ومخطط مع كل الجهاز القمعي الذي يتضمنه. إذا لم يكن هناك تغيير لا يمكن التنبؤ به في الطبيعة البشرية، فإن الحرية والفعالية يظلان في اتجاهين متعاكسين بالضرورة. ريد لن يعترف بهذا، ولن يعترف أخيراً أن الآلة أحبطت الغرائز المبدعة وأفسدت الشعور الجمالي. في الواقع هو يأخذ ما يبدو مثل متعة منحرفة في مدح الأشياء التي تنتج ميكانيكياً وجماعياً كشيء ضد إنجاز الحرفي الفرد:

الجمالي الجديد يجب أن يؤسس على العامل الجديد الأساسي في الحضارة الحديثة -الإنتاج الآلي واسع النطاق. تشمل طريقة الإنتاج صفات محددة تناقض الفكرة المقبولة للجمال- يشار إليها عموماً بكلمة النمطية. النمطية بحد ذاتها ليست مسألة جمالية. إن كان الشيء جميلاً، فأنت لا تقلل ذلك الجمال بإعادة إنتاجه.... المنتجات الآلية النمطية نسخ دقيقة لبعضها البعض، وإن كانت إحداها جميلة ستكون البقية جميلة..... يمكننا أن نعترف أن أشكالاً معينة من التعبير الشخصي ليست مناسبة للإنتاج الميكانيكي كأشياء نمطية، لكننا نطالب بأن الإرادة المبدعة للفنان تستطيع ويجب أن تتكيف مع الظروف الجديدة. نحن نلفت الانتباه إلى أنموذج معين من الفن الحديث (فن تجريدي غير تصويري أو فن بناء) الذي بينما يظل تعبيراً شخصياً جداً للفنانين الأفراد الذين أنتجوه، يكون الأنموذج الأصلي لفن الآل. مثل هذا الإهمال يمكن أن يعاد إنتاجه من دون خسارة أي من صفاته الجمالية.

عند النظرة الأولى، يبدو هذا منطقياً، والاعتراضات التي يحتمل أن تثار ضده تبدو مفرطة بالعاطفة و الزخرفة المنمقة. لكنني أختبرها فقط بأمثلة ملموسة. "إن كان الشيء جميل، فجماله لن يقل بسبب إعادة إنتاجه"، أعتقد أنه كان حاجب ايدا المظلل جميلاً. (إن كنت غير مهتم بتلك القصيدة بشكل خاص، فاستبدلها بقصيدة أخرى تهتم بها) حسناً، هل تحب أن تسمعها تقرأ خمسة آلاف مرة بصوت عالٍ بشكل متكرر؟ هل ستظل جميلة في نهاية هذه العملية؟ على العكس، إنها ستبدو أبشع مجموعة كلمات وجدت قط. أي شكل أو صوت أو لون أو رائحة يصبح قبيحاً وبغيضاً جراء التكرار الكثير، لأن التكرار ينهك الأحاسيس التي يجذبها الجمال. يتكلم ريد كثيراً عن الجمال، كما لو كان نوعاً من شيء أفلاطوني مطلق موجود في مكان ما أو آخر بحد ذاته، ولا يعتمد بأي شكل على الإعجاب والتقدير البشري. إن أخذ المرء هذه الرؤية يجب أن يفترض أن قيمة الصورة مثلاً تكمن في الصورة نفسها، وأن الطريقة التي أنتجت فيها غير لازمة وغير مهمة. يمكن أن تنتج بواسطة آلة أو مثل صور سريالية معينة بالصدفة. لكن ماذا عن الكتب؟ من الممكن تصور أن الكتب يمكن أن تكتب بواسطة الآلة، ومن السهل جداً تخيل قصائد تنتج جزئياً بوسائل تصادفية -بواسطة أداة مماثلة إلى المشكال مثلاً. وإن كانت قصائد "جيدة" أنا لا أفهم كيف استطاع ريد أن يعارض مراراً هكذا عملية. إنه وضع غريب لفوضوي يحشر فيه فوضوي. لكن ريد ليس ثابتاً ومتساوقاً في قبوله للآلة. في هذا الكتاب نجده يمدح جمال تصميم السيارة الحديثة، ونجده يبرز أن الجماهير في البلدان الصناعية وصلوا إلى حالة من "المرض العقلي" بأعمال مميتة وبيئة لا حيوية فيها. نجده يكتب متعاطفاً عن بول كلي وبن نيكلسون وعن روسكين وولتر دولا مار. نجده يقول "شخصياً أنا ضد التكلف والفخامة في الفن" ونجده يمدح الأهرامات. أي واحد راجعه وانتقده ريد، يعرف أنه ناقد أكثر من حنون. مدى تعاطفه كما أشرت سابقاً واسع جداً، وربما أكثر من واسع. الشيء الوحيد الذي لا يحبه بشكل شديد هو النزعة المحافظة، وبعبارة أدق الأكدمة. هو دائماً إلى جانب الصغار في السن ضد الكبار. هو يفضل الرسم التجريدي وإبريق الشاي الانسيابي، لأن المحافظين الجماليين لا يحبونها: هو يفضل الفوضوية ويؤيدها، لأن المحافظين السياسيين بمن فيهم اليسار الرسمي لا يحبونها، وهذا يقوده إلى تناقض يبقى بلا حل. من الصعب المبالغة في تمجيد ريد بأنه كان بسيطاً وفي متناول الجماهير وبطل قضايا

قديمة. أعتقد أنه لم يفعل أحد في عصرنا أكثر من أن يشجع الشعراء الشباب ويبقي الشعب البريطاني على اطلاع بالتطورات الفنية في أوروبا، وليس لأحد ذي موقف رصين الشجاعة للتكلم بصوت عالٍ ضد الهوس بروسيا (روسومانيا) في السنين العشر الأخيرة. ربما هو خطأ للفنان من أي نوع وحتى الناقد، أن يحاول "الاستمرار" أبعد من نقطة معينة. هذا لا يعني أن على المرء أن يقبل بالافتراض الأكاديمي العادي بأن الأدب والفن وصلا إلى نهايتهما منذ خمسين سنة مضت. من الواضح أنه يجب على الشباب ومتوسطي العمر أن يحاولوا أن يقدّروا ويحترموا بعضهم البعض. ولكن على المرء أيضاً أن يعترف أن حكم المرء الجمالي لا يكون صحيحاً وسارياً تماماً إلا بين تاريخين محددين بوضوح. هذا لا يعني القبول بإضاعة ميزة وفرصة أن المرء يستمد من كونه ولد في زمن خاص به. وسط الناس الأحياء الآن، هناك خطان قاسيان بشكل حاد. خط بين هؤلاء الذين يستطيعون، وهؤلاء الذين لا يستطيعون تذكر الفترة قبل عام ١٩١٤، والخط الآخر بين هؤلاء الذين بلغوا سن الرشد قبل عام ١٩٣٣ وهؤلاء الذين لم يبلغوه. بتساوي الأشياء الأخرى من هو المرجح أكثر ليملك رؤية أصح في هذه اللحظة، أهو شخص في العشرين من عمره أم شخص في الخمسين؟ لا نستطيع القول، لكن في بعض النقاط ربما تقرر الذرية. كل جيل يتخيل نفسه أنه أكثر ذكاء من الجيل الذي أتى قبله وأكثر حكمة من الجيل الذي يأتي بعده. هذا وهم، ويجب أن يعرفه المرء بحد ذاته، لكن على المرء أيضاً أن يخلص لنظرته الخاصة إلى العالم حتى لو بدا تقليدياً وقديماً، لأن النظرة إلى العالم تنبع من التجارب التي لا يملكها الجيل الأصغر عمراً، وأن التخلي عنها هي قتل لجذور المرء الفكرية والثقافية. إن طبقت الاختبار البسيط على ريد "كم كان التزامه وإخلاصه؟" سأجد أنه لم يترك أي عمل نقدي من أعماله انطباعاً عميقاً عليّ مثلما فعلت مقاطع معينة من كتاباته عن طفولته وحفنة من قصائد. في هذه النقطة، أنا أتذكر وأستدعي بشكل خاص مقطعاً يصف صنع خردق كبير من الرصاص في قالب كرة صغيرة، ومتعة العمل لم تكن في فائدة الرصاصة، وإنما في الرصاص الفضي الطلقة المصكوكة حديثاً، وقصيدة كتبت في وقت مبكر من هذه الحرب، "التجربة المعاكسة". في هذه وفي كتابات مماثلة، يتكلم ريد بصوت عالٍ عن تجربته: هو لا يحاول أن يكون منفتحاً أو معاصراً أو عالمياً أو إيثارياً وخيراً. ريد فوضوي، في النظرية الجمالية هو متأورب (أوروبي)، لكن في أصوله هو

يوركشايري -أي أنه عضو من قبيلة صغيرة ريفية خرقاء يؤمن أعضاؤها سراً بأن الشعوب الأخرى على الأرض أدنى منهم وأقل مرتبة ومنزلة. أعتقد أن عمله الأفضل يأتي من خصلة يوركشايرية فيه. أنا لا أنتقد نشاطاته وفعاليته النقدية بقسوة. كان لها تأثير ممدن، وسيكون من الجحود عدم الاعتراف بها. لكن عكساً لكتاباته عن سيرته الذاتية وإلى بعض من قصائده ومقاطع معينة من كراساته السياسية، فإن عمله النقدي الصرف أكثر من منفتح وأكثر من خيري وأكثر من متمدن وأكثر من متلهف ليبقى معاصراً للفكر الحديث ومواكباً له، ويبقى على اتصال مع كل الحركات في الوقت نفسه، بدلاً من أن يعبر بشكل حماسي عما يدور في ذهنه عن الأشياء التي يحب والتي لا يحب بقدر ما يفعل أي كاتب آخر.

بويتري كوارترلي، شتاء ١٩٤٥.

مقدمة إلى موقع بيغي هاربر
بقلم ليونارد ميريك

مات ليونارد ميريك في عام ١٩٣٩ لكن خلال القسم الأخير من حياته، لم يكتب أو بأي حال ينشر سوى القصص القصيرة، باستثناء كتاب واحد مبكر بات منسياً اليوم، موسى البنفسجي. رواياته من الحجم الطبيعي تنتمي كلها إلى الفترة بين ١٩٠٠ و١٩١٤ هناك حوالي دزينة منها، ومستواها العام عالٍ، رغم أنه يمكنك بسهولة تامة انتقاء ست منها بأنها أفضل وتستحق طبعة جديدة أخرى، إلا أنه ليس من السهل تضييق الخيار إلى مجلد واحد.

لدى ميريك الغرابة أن خلفية قصصه بشكل ثابت تقريباً عن الفنون، رغم كونه كاتباً لا يتمتع بثقافة عالية. من بين رواياته من الحجم الطبيعي، فإن الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة قصة "محبو الدنيا"، وهي قصة انتحال شخصية وخداع مؤسسة على قضية تيتشبورن ومنظر رجل واحد، وهي استثناء جزئي لأن الشخصية المركزية محامٍ. وإلا فإن الناس الذين يكتب عنهم عادة روائيون وشعراء ورسامون والأميز من الكل ممثلون. إن كان هناك شيء واحد فوق كل البقية يستحق ميريك أن يذكر بسببه، فهو صورته المقنعة بشكل استثنائي وغير الساحرة لحياة المسرح؛ وهذا ربما يبرر إعادة نشر وضع بيغي هاربر بدلاً من سينيثيا أو محبي الدنيا اللتين تعتبران جيدتين بالتساوي في طريقتهما المختلفة.

يمكن تقسيم كتب ميريك إلى صنفين اثنين، بالرغم من أنها كلها عن الكتاب أو الفنانين. الصنف الأول وهو لسوء الحظ المشهور به، هو كتبه الباريسية التي أغلبها قصص قصيرة مثل كرسي على الجادة (الطريق المشجر). تصف هذه القصص نوعاً من البوهيمية التي لم يجربها ميريك من الداخل، والتي لا توجد في شكل مشكوك فيه، والجو الذي تحاول أن تنتجه هو جو تريلباي، وفي أسوئها جو دبليو جيه لوك في **مغامرات استرايد بوجول المتعة**. أما حين يصف ميريك مغامراته كما فعل في بعض فصول سينيثيا مثلاً، فإن القصة مختلفة تماماً. التصويرية تختفي ويدخل في مكانها ذلك الشيء المرعب الذي يفهمه هو جيداً، الفقر المدقع ضد خلفية من النبالة. روايات ميريك الرثة النبيلة هو الروايات التي تهم: أفضلها عدا تلك

التي ذكرناها آنفاً، الرجل الذي كان طيباً وبيت لينش والأصحاب الغريبو الأطوار. كونراد في البحث عن شبابه واحد من أنجح كتب ميريك، يتعامل جزئياً مع حياة المسرح، لكنه يختلف عن الكتب الأخرى بأن الفقر لم يكن موضوعاً رئيسياً فيه. المال دائماً موضوع فاتن، بشرط توريط مبالغ صغيرة منه فقط. المجاعة البهيمية ليست ممتعة ومشوقة، ولا الصفقات التي تتضمن ملايين الجنيهات، لكن الممثل العاطل عن العمل الذي يرهن سلسال ساعة جيبه ويتساءل إن كانت الساعة ستتبع السلسال الأسبوع التالي -ذلك ممتع ومشوق. لكن كتب ميريك لا تهتم فقط بصعوبة كسب الرزق. موضوعه الإذلال الذي يشعر به الشخص الحساس والصادق حين يجبر على الاحتكاك مع أناس عندهم المعايير تجارية. كريستوفر تاتهام، بطل بيغي هاربر يكتب ميلودراما تحقق نجاحاً مدوياً، بينما الكوميديات التي وضع فيها عمله الحقيقي تمزقت وبليت في رحلتها من وكيل إلى آخر. إنه تفصيل مشوق - يذكر أنه، أخيراً وبعد كل شيء، قد ارتفعت مكانة رجل الأدب أثناء السنوات الثلاثين أو الأربعين الماضية- إن المبلغ الذي يستلمه تاتهام لميلودرامته المؤلفة من خمسة فصول، هو خمسة عشر جنيهاً! لكن أجره القليل والمبخوس أقل أهمية اجتماعياً من عزله. حتى وقت متأخر جداً، هو لم يحظ بفرصة التواصل والاحتكاك بأي طريقة مع أناس يشبهونه. أمه المتكبرة السخيفة وخاله الثري "المترابط بالحجل"، أقل من يفهما وجهة نظره من مدير الممثلين السوقي الذي يشتري ميلودرامته. الارتباط الغبي الذي يدخله هو النتيجة المباشرة لعزلته. حين يلتقي ببيغي هاربر أول مرة في عمر الواحد والعشرين تقريباً، هو ربما لا يعرف -ولم يحظ أبداً بالفرصة ليكتشف- أنه توجد نساء جذابات وذكيات معاً. لم يكن له مكان في المجتمع، إلا بعد أن نجح وازدهر. عالم عائلته التجاري البليد والغبي وعالم شركات السياحة الحقير السوقي، كلاهما عدائيان نحوه، ولحسن الحظ أن العالم الأول أو الآخر لم يبتلعه.

ميريك ليس "كاتباً يضمر هدفاً وغرضاً" عن وعي وبشكل علني بأي حال. إن الروح التجارية والنزعة المادية للحضارة الناطقة بالإنكليزية شيء يهاجمه ميريك، لأنه يعتقد أن هذا شيء غير قابل للتغيير مثل المناخ الإنكليزي. وتوجد هناك الكثير من القيم المقبولة لعصره لم يشكك بها حتى. بشكل خاص هو يسلم كأمر بديهي في كل مكان بتفوق "الجنتلمان" السيد على "الشخص الذي يعوزه التهذيب" وتفوق "اللهجة الجيدة" على اللهجة الشعبية الكوكنية. وفي أغلب كتبه

هناك مقاطع، لو أنها تكتب اليوم لوصفت بالتكبر. في الواقع ميريك ليس كاتباً متكبراً -لو كان كتب ربما عن الناس الأثرياء وذوي الألقاب بدلاً من التركيز على الأنيق- الرث لكنه أصدق من يخفي ويقنع أفضلياته الغريزية. هو يشعر بقوة أن آداب المعاشرة والمشاعر الرقيقة، أشياء مهمة، وأن واحداً من أسوأ أشكال الفقر رعباً، هو أن تتلقى الأوامر من أناس تنشئتهم سيئة وطبيعتهم جلفة. مشهد صغير جميل في بيغي هاربر يوضح نوع العبودية التي يجب على رجل مثقف في شركة سياحية من الصنف المتدني التأقلم معها. كلمة "تهديد" خطرت في نص المسرحية التي تدربوا عليها، ومدير المسرح الجاهل يصر على أنها يجب أن تلفظ "تهديد"

"ما هي تلك -ماذا تسمونها؟ تهديد؟ جرذان، ذلك الباقي على قيد الحياة" هو يستمتع بوضوح باكتشافه لكلمة "باقي على قيد الحياة اكستانت" التي يعتقد أنها مرادف أكاديمي لكلمة "مهجور وقديم". ينظر حوله بحثاً عن تاتهام. ويسأل "أليست كلمة تهديد هي كلمة حي أو موجود؟" يرد عليه تاتهام "تماماً". بيغي هاربر مثل أغلب كتب ميريك -(الاستثناء البارز هو الرجل الذي كان طيباً)- "نهايته سعيدة" لكنه يتضمن خلال الكتاب كله، ذلك أن الاحتشام والذكاء عقبتان خطيرتان. في سينيثيا، وهي قصة عن روائي والصدام بين الصدق والاستقامة والخبز والزبدة (أساسيات العيش) مؤلم أكثر حتى. سينيثيا كتاب ليس من السخف أن يذكر بنفس الجملة كما كتاب جورج غيسينغ **شارع غراب الجديد** (يرمز إلى عالم أو صنف من الصحفيين والكتاب المفقرين -المترجم) لكن موضوعه واحد من المواضيع التي عالجها كتاب كثيرون. الشيء الخاص والاستثنائي أن ميريك استطاع أن يفعل الذي عجز أن يفعله أي واحد غيره، وهو إعادة إنتاج جو الحياة المسرحية من الفئة المتدنية: رائحة مكياج المسرح والسمك ورقائق البطاطا والتنافس القذر، ورحلات أيام الآحاد غير المريحة، وجرّ الحقائب عبر الشوارع الخلفية في البلدات غير المألوفة، والمساكن الاحترافية التي يشرف عليها، وغرف النوم الضيقة "ماما" ومغاسلها المتداعية، والمرحاض المحمول الأبيض الكالح تحت السرير. هل ذكر ميريك المرحاض المحمول الذي يوضع تحت السرير قط؟ على الأرجح كلا: (المرء يبدو أنه يتخيل) والمشي الطويل المجهد ذهاباً وإياباً في الستراند بأحذية نعالها مهترئة، ووكلاء المكاتب؛ حيث تجلس نسوة في عباءات مصبوغة، ينتظرن دورهن، ومجموعة من قصاصات الصحف المهجورة، والمدير الذي يهرب في وسط الرحلة مع كل الإيرادات. رغم أن ميريك كان كاتب

قصص قصيرة ناجح بعض الشيء وخصوصاً عند اقتراب نهاية حياته، فإن رواياته ذات الحجم الطبيعي لم تبع أبداً في هذه البلاد. في عام ١٩١٨ أصدرت ميسرس هودر وستاوتن طبعة موحدة لأعماله مع مقدمات كتبها اتش جي ويلز وجي كي تشيسترتون ودبلي ودي هاولز وكتاب مشهورون آخرون أعجبوا به وشعروا أنه لم يوف حقه الذي يستحقه.

مقدمة بيغي هارير كتبها السير آرثر بينيرو. لكن الطبعة الموحدة لم تكن ناجحة أكثر مما كانته الطبعات السابقة -حقيقة مربكة جداً، لأنه خلال حياته بيعت كتب ميريك بشكل جيد نسبياً في الولايات المتحدة. التفسير الواضح لعدم شعبيته، هو أنه اختار أن يكتب عن فنانين، بينما الجمهور الكبير، كما لاحظ هو كثيراً، سيقرأ عاجلاً أو آجلاً عن السياسيين ورجال الأعمال؛ أيضاً إن كتبه هي ما يسميها المرء "رمادية" أو "كئيبة" أو "شبيهة بالحياة الحقيقة أكثر من اللازم" صحيح تماماً أن غالبية كتب ميريك بعيدة عن كونها قصصاً مبهجة وسعيدة. لقد كتبت باستهتار ومن أجل الحفاظ على الشكل الكوميدي، ولها "نهاية سعيدة" عادة، لكن مزاجها الضمني مزاج مرّ. لكن يظل من غير الواضح لماذا يجب أن يكون ميريك مشهوراً أكثر في أمريكا. يفترض أن الجمهور الأمريكي لا يميل إلى الوقوف إلى جانب الفنان ضد المجتمع أكثر من الجمهور البريطاني، ولم يقم ميريك بأي تنازلات خاصة للقراء الأمريكيين، لأن الموضوع الرئيسي لأغلب كتبه وكل جوها إنكليزي بقوة. ربما، من وجهة نظر أمريكية، الإنجلزة كانت فتنة غريبة ودخيلة، بينما نوع الفقر والفشل الذي كان يصفه ميريك لم يكن النوع الذي يخشاه الأمريكيون تماماً. بأي حال، رفض ميريك الثابت أن يرى بطانات فضية حيث لا توجد، يفترض أن له علاقة بعدم شعبيته. ربما من الهام أن يكون كتابه كونراد في بحثه عن شبابه، الذي بطله ثري، أنجح كتبه تقريباً. ربما من وجهة النظر الأمريكية، أن الإنكليزية كانت فتنة غريبة، بينما الفقر والفشل الذي كان يصفه ميريك لم يكن النوع الذي يخشاه الأمريكيون. بأي حال، رفض ميريك الثابت ليرى بطانات فضية حيث لم يوجد أحدها، يجب أن يكون له علاقة بعدم شعبيته. ربما من المهم أن بطل كونراد في بحث عن شبابه ثري، كان الأكثر نجاحاً من بين كتبه. الآن، إن الخوف من الفقر عاطفة أقل إلحاحاً والطلب على قصص السعادة أقل إلحاحاً، هو يبدو فات موعد انبعاثه عن الأحياء.

مراجعة لكتاب إف ايه هايك
الطريق إلى العبودية
وكتاب كي زيلياكوس مرآة الماضي

هذا الكتابان معاً يقدمان مبررات للفزع. أولهما دفاع بليغ عن الرأسمالية المتساهلة، والآخر شجب أعنف لها. يغطي الكتابان نفس الدافع إلى حد ما، وكلاهما يقتبسان نفس المستندات غالباً، ويبدآن بنفس المقدمة؛ حيث أن كلاً منهما يسلم بأن الحضارة الغربية تعتمد على قداسة وطهارة الفرد، لكن كل كاتب مقتنع أن السياسة الأخرى تؤدي مباشرة إلى الرق، والشيء المرعب أن كليهما قد يكون صحيحاً....

بين هذين الكتابين تتلخص ورطتنا الحالية. الرأسمالية تؤدي إلى طوابير الصدقات وفوضى السوق والحرب. الجماعية (ملكية الدولة لوسائل الإنتاج) تؤدي إلى معسكرات الاعتقال وعبادة القادة والحرب. ليس هناك مخرج من هذا، إلا حين يستطيع الاقتصاد المخطط الاتحاد بطريقة ما مع حرية العقل، ولا يمكن أن يحدث هذا، إلا إذا أعيد مفهوم الصح والخطأ إلى السياسة. لقد أدرك كل من هذين الكاتبين هذا تقريباً، لكن بما أنهما لا يستطيعان أن يظهرا أي طريقة عملية قابلة للتطبيق لإحداث ذلك، فإن الأثر الموحد لكتابيهما محزن ومثير للكآبة.

أوبزيرفر ١٩٤٤.

ذنب الحرب

عند قراءة "ذنب الحرب"، الذي تردد صداه في أعمدة المراسلة في الصحف، تلاحظ الدهشة التي اكتشف الناس بها أن الحرب ليست جريمة. بدا هتلر أنه لم يفعل شيئاً يستوجب رفع دعوى بحقه. لم يغتصب أحد ولم ينهب أي شيء بيديه، ولم يجلد أي أحد، ولم يدفن أي رجل جريح حي، ولم يقذف أي طفل في الجو ويتلقفه بالحربة، ولم يغطس أي راهبة بالنفط ويلمسها بشموع الكنيسة- في الواقع هو لم يفعل أياً من الأشياء التي نسبها إليه أعداؤه القوميون في زمن الحرب. هو أحدث حرباً عالمية فقط، كلفت عشرين مليون حياة قبل أن تنتهي. وليس في ذلك أي شيء غير قانوني. كيف يمكن أن يكون، حين تدل الشرعية على القوة ضمناً وليس هناك قوة مع السلطة لتجاوز الحدود الوطنية؟

في المحاكمات الأخيرة في خاركوف، جرت محاولات لتثبيت مسؤولية الجرائم الثانوية على هتلر وهيملر والبقية، وبيّن مجرد ضرورة القيام بهذا، أن ذنب هتلر ليس واضحاً بذاته. جريمته -كما تضمنت- لم تكن بناء جيش بهدف شن حرب عدوانية، وإنما لإعطاء الأمر لذلك الجيش كي يعذب الأسرى. وبهذا فإن الفرق بين العمل الوحشي وشن حرب، شيء منطقي ومشروع. العمل الوحشي يعني عملاً إرهابياً ليس له أي هدف عسكري حقيقي. يجب على المرء أن يقبل بهذا الفرق إن قبل بالحرب، وهو ما يفعله أي شخص في الواقع العملي، ولكن في عالم يعتبر قتل مدني فرد عملاً خاطئاً وإلقاء آلاف الأطنان من المواد المتفجرة على مناطق مأهولة بالسكان عملاً صحيحاً، يجعلني أتساءل إن لم تكن هذه الأرض التي نعيش عليها سوى صندوق تخزين يستفيد منه كوكب آخر.

التريبيون ٣١ ديسمبر كانون أول ١٩٤٣

مجرد خردة لكن من يستطيع أن يقاومها؟

ما هو أجمل دكان خردة في لندن هو مسألة ذوق أو شيء خلافي، لكني أستطيع أن أدلكم إلى بعض الدكاكين الممتازة في مناطق غرينيتش الأكثر قذارة وفي إيزلنغتون قرب الإينجل وفي هولواي في بادينغتون وفي المنطقة الخلفية على طريق إيدجوير. باستثناء اثنين قرب اللورد وحتى تلك التي في قسم من شارع حدث أن ناله العفن والفساد - لم أر قط دكان خردة يستحق نظرة ثانية فيما يسمى حياً "جيداً"

يختلف دكان الخردة عن دكان الأثريات (الأنتيكات) ولا يمكن الخلط بينهما. دكان الأنتيكات نظيف وبضاعته مرتبة بطريقة جذابة ومسعرة بضعف قيمتها، وبمجرد أن تكون داخل المحل، فستجبر على شراء شيء ما عادة.

دكان الخردة فيه طبقة رقيقة من الغبار على الواجهة، ومخزونه يتضمن حرفياً أي شيء لا يفنى أو يفسد، ومالكه الذي يكون نائماً عادة في غرفة صغيرة في الخلف، لا يبدي أي تشوق للبيع. كما أن أجمل كنوزه لا تكتشف أبداً من النظرة الأولى، إذ يجب أن يعرف ويحدد من بين أطباق الخيزران التي تكون على حامل، ويعرض عليها الكعك وأغطية أطباق ماركة بريطانية وساعات الجيب والكتب المطوية صفحاتها من الزوايا، وأواني شرب الخمر التي بلا سدادات، وبيض النعام، وآلات الطباعة التي انقرضت صناعتها، والطيور المحشية (المصبرة) ومجموعات المفاتيح، والنظارات التي بلا عدسات، والمسامير والصواميل، وشاشات معدنية توضع أمام فتحة الموقد لتمسك بالشرر، وأصداف محار من المحيط الهندي، وجرار النزنجبي الصيني، وصور لقطيع هايلاند.

بعض الأشياء التي تبحث عنها في دكان الخردة هي بروشات دبابيس زينة من العصر الفيكتوري وقلادات العقيق وأشباه الأحجار الكريمة.

ربما هناك خمسة أشياء قبيحة بشكل شنيع من ستة، لكن هناك أشياء جميلة جداً أيضاً بينها. هناك أشياء رصعت بالفضة أو بذهب مزيف على الأغلب، سبيكة ساحرة لم تعد تصنع لسبب ما. أشياء أخرى تستحق البحث...... علب العطوس التي على أغطيتها صور، والأباريق

المطلية بمادة لماعة، والمسدسات التي تلقم من فوهتها صنعت في عام ١٨٣٠ وسفن في قوارير هذه لا تزال تصنع، لكن القديمة هي الأفضل دائماً بسبب شكل القناني الأنيق واللون الأخضر الأنيق للزجاج، وزجاج الثريات. وهناك صناديق الموسيقى ولوحات الخيول النحاسية، وقرون أبواق البارود النحاسية، ولوحات الخيول النحاسية وأباريق اليوبيل الفضي (لسبب ما أنتج يوبيل ١٨٨٧ تذكارات مرضية أكثر من اليوبيل الذي حدث بعد عشر سنين) وثقالات الورق الزجاجية مع صور في القعر.

هناك أشياء أخرى التي فيها قطعة من الياقوت المغلف بالزجاج، لكن أسعارها باهظة بشكل خيالي دائماً. أو يمكن أن تصادف كتاب خردة مملوء بأطباق على النمط الفيكتوري، وزهوراً مضغوطة أو حتى إن كنت محظوظاً بشكل استثنائي فستجد كتاب خردة الأخ الكبير، شاشة خردة.

شاشات الخردة نادرة جداً في هذه الأيام -هي مجرد شاشات من خشب أو قماش مع خردة ملونة مقطعة وملصقة فوقها بطريقة تجعل الصورة متناسقة. أفضلها صنعت في عام ١٨٨٠ تقريباً، لكن إن اشتريت واحدة من محل خردة، فمن المؤكد أن تكون عاطلة، والسحر الكبير الناتج عن ملكية مثل هذه الشاشة، يكمن في أنك تلصق القطع وترتبها بنفسك.

يمكنك استعمال نسخ ملونة من المجلات الفنية وكروت عيد الميلاد والملصقات والإعلانات وأغلفة الكتب وحتى كروت السجائر. هناك دائماً متسع لقطعة من الخردة، وبوضعها بحذر أي شيء يمكن أن يبدو ملائماً ومنسجماً.

وهكذا في ركن من شاشة الخردة خاصتي، وجد لوحة لاعبي الورق لسيزان مع قارورة سوداء بينهم، في منظر في أحد شوارع فلورنسا في القرون الوسطى. بينما على الطرف الآخر من الشارع، إحدى لوحات غوجين لسكان جزر البحر الجنوبي يجلسون بجانب بحيرة إنكليزية؛ حيث سيدة بأكمام مثلثية الشكل تجذف قارباً. كلها تبدو في انسجام مثالي معاً.

كل هذه الأشياء تحفٌ، ولكن المرء يجد أشياء نافعة في محل الخردة أيضاً.

في دكان في كينتش تاون، منذ أن قصفت بغارة جوية، اشتريتُ حربة بارودة فرنسية قديمة بستة بنسات، استخدمتها كمذكي نار لمدة أربع سنوات. وخلال السنين القليلة الماضية كان

دكان الخردة المكان الوحيد الذي تستطيع أن تجد فيه أدوات نجارة معينة - كالمسحاج مثلاً، أو أشياء مفيدة كهذه، كنازع سدادات الفلين ومفاتيح الساعات ودواليب عربات الأطفال.

في بعض الدكاكين، يمكن أن تجد مفاتيح تفتح أي قفل، ومجلات أخرى متخصصة بالصور، لذلك حين تحتاج إلى إطار تجده. أنا وجدت دائماً أن أرخص طريقة لشراء إطار، هي شراء صورة ثم رميها من الإطار.

لكن جاذبية دكان الخردة لا تكمن في الصفقات الناجحة التي تعقدها فقط ولا حتى في القيمة الجمالية التي - في تقدير سخي - ربما تمتلك خمسة بالمائة. جاذبيته تكمن في غراب الزرع الموجود في داخل كل واحد منا والغريزة التي تجعل الطفل يجمع المسامير النحاسية ونوابض الساعات والرخام الزجاجي من قناني الليمون. أنت تحصل على المتعة من دكان أنت لست مجبراً على شراء أي شيء منه ولا حتى الرغبة بشرائه.

أعرف دكاناً في توتنهام كورت رود، حيث لم أر قط ولسنوات كثيرة أي شيء لم يكن قبيحاً بشكل مهين، ودكان آخر ليس بعيداً عن بيكر ستريت؛ حيث يوجد فيه شيء مغرٍ دائماً. الدكان الأول يجذبني بنفس القوة التي يجذبني فيها الدكان الثاني.

دكان آخر في منطقة تشوك فارم لا يبيع سوى أجزاء متفرقة ونفاية من المعادن القديمة. وأتذكر منذ وقت بعيد جداً نفس الأدوات البالية ومواسير الرصاص المرمية في صياني ونفس مدافئ الغاز تتفسخ في المدخل. لم أشتر أي شيء قط من هناك، ولم أر قط شيئاً فكرت في شرائه. مع هذا يستحيل علي أن أمر بذلك الطريق من دون أن أعبر الشارع وألقي نظرة جيدة في الدكان.

مقال السبت، إيفنينغ ستاندارد، ٥ يناير ١٩٤٦.

مراجعة الطريقة البريطانية في الحرب
بقلم بي اتش لندل هارت

هذه المجموعة من المقالات المنشورة والمنقحة، التي كتبت منذ عام ١٩٣٢ وما بعد، هي بشكل رئيسي تاريخ لتطور الجيش البريطاني في السنوات التي بين الحربين. لكن في الفصول الافتتاحية تحتوي مسحاً ونظرة عامة إلى "الإستراتيجية بريطانية التقليدية الكبرى"، وهي القسم الأكثر تشويقاً وإثارة في الكتاب والأكثر أهمية حتى هذه اللحظة. المعركة من أجل المكننة تمّ الفوز بها على أي حال على الورق، لكن الجدال والخلاف حول الجبهة الثانية مازال محتدماً، ونظريات الكابتن لندل وثيقة الصلة جداً بها.

ما هي "الاستراتيجية التقليدية" التي هجرناها، والتي يشير الكابتن لندن ضمناً إلى أننا يجب أن نعود إليها؟ باختصار، استراتيجية الهجوم غير المباشر والأهداف المحدودة. مورست بنجاح عظيم في حروب النهب البريطانية في القرن الثامن عشر، ولم تسقط إلى العقد الذي كان قبل عام ١٩١٤ حين دخلت بريطانيا في تحالف مرهق مع فرنسا. تكنيكها تجاري في جوهره. أنت تهاجم عدوك بشكل أساسي بواسطة الحصار والقرصنة وغارات المغاوير المحمولة بحراً. تتجنب جيشاً ضخماً، وتترك القتال الأرضي بأقصى ما يمكن للحلفاء القاريين الذين يبقونها مستعرة ومتواصلة بواسطة المساعدات المالية. بينما حلفاؤك يقومون بالقتال عنك، أنت تغنم وتأسر تجارة عدوك البحرية وتحتل مستعمراته البعيدة عن المركز. في أول لحظة مناسبة تعقد صلحاً إما بإبقاء الأراضي التي اغتنمتها أو استخدامها كأوراق مساومة. هذه كانت في الواقع استراتيجية بريطانيا المميزة لمدة مائتي سنة، ومصطلح **بريطانية الغدارة** كان مبرراً تماماً بقدر تلك الدرجة التي كان فيها سلوك الدول الأخرى مشابهاً أخلاقياً. حروب القرن الثامن عشر تشن بروح مرتزقة جدد، لذلك تكون العملية معكوسة وتبدو "أيديولوجية" للأجيال القادمة أكثر بالنسبة إلى الناس الذين خاضوها وقاتلوا فيها. لكن في أي حال، فإن استراتيجية "الأهداف

المحدودة" من غير المحتمل أن تكون ناجحة، إلا إذا كنت راغباً ومستعداً لأن تخون حلفاءك كلما كان فعل ذلك مفيداً ومجدياً لك.

في ١٩١٤-١٩١٨ كما هو معروف جيداً، نحن قطعنا مع ماضينا، وأخضعنا استراتيجيتنا إلى استراتيجية حليف خسر مليون قتيل. تعليقاً على هذا يقول ليندل هارت: "لم أستطع أن أجد في ظروف الحرب تفسيراً مرضياً لتغييرنا......... ولم يظهر كما يبدو أي سبب أساسي للتغيير كسياسة تاريخية. لهذا يميل المرء إلى اعتبارها تغييراً في الشكل - في شكل الفكر العسكري الذي أحدثه كلوزويتز. كلوزويتز هو العبقري الشرير للفكر العسكري. علم أو يفترض أنه علم أن الاستراتيجية الملائمة أن تهاجم أقوى عدو لك، وأن لا شيء يحل إلا بالقتال والمعارك، وأن "الدم هو ثمن النصر". مفتونة بهذا النظرية، جعلت بريطانيا بحريتها سلاحاً مساعداً وفرعياً، وأمسكت بسيف لامع مصنوع في القارة. الآن هناك شيء مزعج في تتبع أثر التغيير التاريخي لمنظر فرد، لأن النظرية لا تتطور وتنتشر حتى تساعدها ظروف مادية. لو توقفت بريطانيا عن كونها **بريطانيا الغدارة** لمدة أربع سنوات، لكان هناك مبررات أعمق من ارتباط السير هنري ويلسون مع هيئة الأركان الفرنسية. بداية، من المشكوك فيه جداً إن كانت استراتيجيتنا "التقليدية" لاتزال شغالة وتعمل أم لا. في الماضي اعتمدت استراتيجيتنا على توازن القوى الذي أصبح محفوفاً بالمخاطر كثيراً منذ عام ١٨٧٠ وصاعداً وعلى مزايا جغرافية قللتها التطورات التقنية الحديثة. بعد عام ١٨٥٠ لم تعد بريطانيا القوة البحرية الوحيدة، بالإضافة إلى تقلص مجال الحرب البحرية ككل. بهجر الشراع أصبحت الأساطيل أقل قدرة على الحركة، وكان الوصول إلى البحار الداخلية متعذراً بعد اختراع الألغام البحرية، وفقد الحصار قوته بسبب علم البدائل ومكننة الزراعة. بعد صعود ألمانيا الحديثة بات من الصعب لنا أن نستغني عن الحلفاء الأوروبيين، وأحد الأشياء التي يقدر الحلفاء الإصرار عليها، أن عليك أن تقوم بحصتك العادلة من القتال. المساعدات المالية ليس لها معنى حين تشمل الحرب الجهود الشاملة لكل أمة مولعة بالقتال.

العيب الحقيقي لهذه المقالات المحفزة، يكمن في عدم استعداد الكابتن ليندل هارت للاعتراف بأن الحرب تبدل طابعها وهويتها. استراتيجية "الأهداف المحدودة" تتضمن أن

عدوك نفس نوع الشخص مثلك أنت؛ أنت تريد أن تهزمه وتتفوق عليه، لكن ليس من الواجب عليك لسلامتك أن تبيده أو حتى في أطوار لاحقة أن تتدخل في سياسته الداخلية. هذه الظروف كانت متواجدة في القرن الثامن عشر وحتى في أطوار لاحقة من الحروب النابليونية، لكنها اختفت في عالم الذرة الذي نعيش فيه الآن. في عام ١٩٣٢ أو في تاريخ قريب كان الكابتن ليندل هارت قادراً على أن يقول "هل كان هناك قط شيء كحرب مطلقة منذ أن توقفت الأمم عن إبادة المهزوم أو استعباده؟". المشكلة أنها لم تتوقف. العبودية التي بدت شيئاً نائياً كأكل لحوم البشر في عام ١٩٣٢ تعود بشكل مرئي في عام ١٩٤٢ وفي هكذا ظروف يستحيل أن تستخدم الأسلوب القديم لحرب مربحة محدودة هدفها فقط "حماية المصالح البريطانية" وعقد صلح في أول لحظة مواتية. كما قال موسوليني بصدق، لا يمكن أن تتعايش الديمقراطية والديكتاتورية جنباً إلى جنب. حقيقة غريبة لم ينتبه إليها أحد: في الحرب الحالية، شنت بريطانيا حتى الآن نوع الحرب الذي يؤيده الكابتن ليندل هارت. نحن لم نقاتل حملة قارية كبيرة المقاس، نحن استهلكنا حليفاً تلو الآخر وكسبنا أراضي أكثر بكثير وأغنى من تلك التي خسرناها. مع ذلك لا الكابتن ليندل هارت ولا أي أحد آخر يجادل بأن الحرب سارت بشكل جيد بالنسبة إلينا. لا أحد يؤيد أننا يجب أن نمسح المستعمرات الفرنسية والإيطالية الباقية، ثم نتفاوض من أجل سلام مع ألمانيا، لأن حتى الشخص الجاهل يرى أن هكذا سلام لن يكون نهائياً. بقاؤنا يعتمد على تدمير النظام السياسي الألماني الحالي الذي يتضمن تدمير الجيش الألماني. من الصعب ألا تشعر أن كلوزويتز كان محقاً في تعليمه أنه "يجب أن تركز ضد العدو الرئيسي الذي يجب أن يطاح به أولاً" وأن "القوات المسلحة تشكل الهدف الحقيقي" على الأقل في أي حرب تكون فيها قضية أيديولوجية أصيلة.

إلى درجة ما، تكون نظريات الكابتن ليندل هارت التكتيكية منفصلة عن نظرياته الاستراتيجية. وهنا بررت الأحداث كل نبوءاته بشكل جيد. لا يوجد كاتب عسكري في زمننا فعل أكثر من إنارة الرأي العام. لكن حربه المبررة مع البليمبس ربما طغت على أحكامه. الناس الذين سخروا من المكننة ولازالوا يعملون بقوة لتقليل التدريب العسكري إلى روتين من النباح والدوس بالأقدام، هم يؤيدون أيضاً الجيوش الضخمة والهجمات

الجبهية وحمل الحراب وبشكل عام سفك الدماء الذي لا معنى له. مشمئزاً من مشهد باسشينداِيلي، يبدو الكابتن ليندل هارت يعتقد أن الحروب يمكن الفوز بها في الوضع الدفاعي أو بدون قتال -و في الواقع إن حرباً بنصف انتصار، أفضل من حرب بانتصار كامل. ذلك يبقى جيداً فقط حين يفكر عدوك بنفس الطريقة التي تفكر فيها، حالة اختفت حين لم تعد الأرستقراطية تحكم أوروبا.

نيوستيتمان أند نيشن

٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٢

كلا ليس واحداً

لا لمثل هذه الحرية - مراجعة نقدية لمقالة أليكس كمفورت- ادلفي أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤١

قال السيد موراي منذ سنوات إن أعمال أفضل الكتاب الحديثين جويس وإليوت وأمثالهما، تثبت ببساطة استحالة الفن العظيم في زمن كالزمن الحاضر. ومنذ ذلك الحين تقدمنا إلى الأمام إلى فترة أصبح فيها أي نوع من الفرح في الكتابة وأي فكرة كهذه كرواية قصة من أجل غرض التسلية الصرفة، مستحيلاً أيضاً. وفي الوقت الحاضر باتت كل الكتابة دعاية. لذلك إذا عاملت رواية السيد كمفورت ككراسة، فأنا أفعل ما فعله هو مسبقاً. إنها رواية جيدة حسب الروايات اليوم، لكن الحافز لكتابتها لم يكن مما يعتبره كل من ترولوب وبلزاك وحتى تولستوي حافزاً روائياً. لقد كُتبت لتقترح "رسالة" السلمية (رفض العنف)، وكان يجب عليها أن تناسب هذه الرسالة، لذلك ابتدعت الحوادث الرئيسية. وأعتقد أيضاً أنه لدي المبرر في الافتراض بأنها رواية سيرة ذاتية، ليس بمعنى أن الأحداث الموصوفة فيها حدثت فعلياً، وإنما بمعنى أن المؤلف يتماثل مع البطل ويظنه يستحق التعاطف، ويتفق معه بالعواطف والآراء التي يعبر عنها.

هذا موجز القصة. طبيب ألماني شاب كان في نقاهة لمدة سنتين في سويسرا. يعود إلى كولونيا قبل ميونيخ بقليل، ليجد أن زوجته كانت تساعد مقاومي الحرب للفرار من البلاد، وأنها في خطر وشيك من اعتقالها. يفران هو وهي إلى هولندا في الوقت المناسب، وينجوان من المذبحة التي تلت اغتيال فوم راث، ويصلان بالصدفة إلى إنكلترا بعد أن أصيب بجرح خطير على الطريق. بعد تعافيه ينجح في الحصول على تعيين بوظيفة في مستشفى، لكن مع اندلاع الحرب يجلب ليمثل أمام القضاء، ويوضع في الفئة باء من الأجانب، والسبب هو تصريحه بأنه لن يقاتل ضد النازيين، لاعتقاده أن الأفضل "قهر هتلر ودحره بواسطة الحب"، ولكنه حين سئل لماذا لم يبق في ألمانيا وانتصر على هتلر بواسطة الحب هناك، اعترف بأنه لا يملك إجابة. في

الرعب الذي تلا غزو البلدان المنخفضة، يعتقل لبضع دقائق بعد أن ولدت زوجته طفلاً، ويبقى في معسكر اعتقال وقتاً طويلاً؛ حيث لم يستطع الاتصال مع زوجته؛ وحيث ظروف القذارة والازدحام إلخ إلخ سيئة كما أي شيء في ألمانيا. أخيراً يرحل إلى "اراندورا ستار" (أعطيت اسماً آخر طبعاً) ويغرق في البحر وينقذ ويوضع في مخيم آخر أفضل نوعاً ما. حين يطلق سراحه أخيراً ويتواصل مع زوجته، يجد أنها محتجزة في مخيم آخر، وأن الطفل مات فيه بسبب الإهمال وسوء التغذية. ينتهي الكتاب بالزوجين يتطلعان إلى الإبحار إلى أمريكا، ويأملان ألا تنتشر حمى الحرب في هذا الوقت إلى هناك أيضاً.

تأمل واقعة أو اثنتين تشكلان أساس تركيبة المجتمع الحديث، ومن الضروري تجاهلهما، إذا كنا سنقبل بالرسالة السلمية بلا نقد.

(أ) ترتكز الحضارة أساساً على القسر. إن الذي يحفظ تماسك المجتمع ليس رجل الأمن، وإنما الإرادة الطيبة لعوام الناس العاديين، ولكن الإرادة الطيبة تكون بلا سلطة أو قوة إذا لم يكن رجل الأمن هناك لدعمها. أي حكومة ترفض استخدام العنف في دفاعها الذاتي، تنتهي مباشرة تقريباً من الوجود، لأنه يمكن لأي أحد من الرجال أو حتى أي فرد أن يطيح بها، وذلك أقل الوساوس.

موضوعياً، أي امرئ ليس في صف رجل الأمن هو في صف المجرم، والعكس صحيح أيضاً. بالقدر الذي تعيق فيه السلمية البريطانية جهود الحرب في بريطانيا، فإنها تقف في صف النازيين، وكذلك السلمية الألمانية إن وجدت، فهي في صف بريطانيا والاتحاد السوفييتي. وبما أن السلميين لديهم حرية أكثر في العمل في البلدان التي نجا فيها القليل من الديمقراطية، فإن السلمية تستطيع فيها أن تعمل بفعالية ضد الديمقراطية بشكل أكبر مما تفعله لمصلحتها.

موضوعياً، إن السلمي مؤيد للنازيين.

(ب) بما أن القسر لا يمكن التخلص منه أبداً، فإن الفرق الوحيد يكمن في درجات العنف. خلال العشرين سنة الأخيرة، كان هناك عنف وعسكرة داخل العالم الناطق باللغة الإنكليزية، أقل مما كان في خارجه. كما أن كره الحرب الذي يميز شخصية الشعوب الناطقة بالإنكليزية بلا شك، هو انعكاس لوضعهم المفضل، وأن السلمية قوة مهمة فقط في الأماكن

التي يشعر فيها الناس بالأمان الشديد، وبشكل أساسي في البلدان البحرية. حتى في مثل هذه الأماكن، فإن سلمية أدر الخد الآخر، لا تزدهر إلا وسط الطبقة الأكثر غنى وازدهاراً أو وسط عمال نجوا بطريقة ما من طبقتهم. الطبقة العاملة الحقيقية، رغم أنها تكره الحرب ولديها مناعة ضد التعصب القومي (الشوفينية)، فهي ليست سلمية أبداً، لأن حياتها علمتها شيئاً مختلفاً. لكي تنبذ العنف، فمن الضروري ألا يكون لك تجربة فيه. إذا تذكر المرء الحقائق الآنفة، يستطيع كما أعتقد أن يرى الأحداث في رواية السيد كمفورت في منظور حقيقي أكثر. القضية تكمن في أن تضع مشاعرك الشخصية جانباً، وتحاول أن ترى إلى أين تؤدي أفعال المرء فعلياً ومن أين نبعت دوافعه أخيراً. البطل باحث - أخصائي في علم الأمراض، ولم يكن محظوظاً بشكل خاص، وكانت لديه رئة فيها خلل نتيجة الحصار البريطاني المستمر في عام ١٩١٩. وبما أنه فرد من أفراد الطبقة الوسطى ويقوم بعمل اختاره بنفسه، فهو واحد من بضعة ملايين من البشر المميزين الذين يعيشون على انحطاط وتفسخ البقية. هو يريد أن يبدأ بعمله، ويريد أن يكون خارج منال الطغيان والاستبداد النازي، لكنه لن يعمل ويقاتل ضد النازيين بأي شكل آخر غير الهروب بعيداً عنهم. بعد أن وصل إلى إنكلترا، يرتعب من أن يعيدوه إلى ألمانيا، لكنه يرفض أن يشارك في أي جهد بدني لمنع النازيين من الدخول إلى إنكلترا. أمله الكبير أن يصل إلى أمريكا مع ثلاثة آلاف ميل من الماء بينه وبين النازيين. سوف لن يصل إلى هناك إذا لم تحمه السفن والطائرات البريطانية على الطريق، وبعد أن يصل إلى هناك سيعيش هناك تحت حماية السفن والطائرات الأمريكية بدلاً من البريطانية. إن كان محظوظاً، سيكون قادراً أن يستمر في عمله كعالم أمراض، وفي الوقت نفسه يحافظ على موقفه المتمثل بالتفوق الأخلاقي على الرجال الذي جعلوا عمله ممكناً وتحت كل شيء سيظل هناك موقفه كباحث وكشخص مميز يعيش أخيراً على الأرباح والحصص التي سوف تنتهي فوراً، إذا لم تُنتزع بالتهديد بالعنف.

أنا لا أعتقد أن هذا ملخص غير عادل لكتاب السيد كمفورت، وأعتقد أن الحقيقة اللازمة هي أن هذه قصة طبيب ألماني كتبها رجل إنكليزي. الحجة الموجودة ضمنياً في كل العمل والمبينة بشكل صريح أحياناً، هي أنه ليس هناك فرق تقريباً بين بريطانيا وألمانيا؛ فهناك اضطهاد سياسي بنفس الدرجة في كلا البلدين، وهؤلاء الذين يقاتلون ضد النازيين دائماً يصبحون نازيين هم أنفسهم، وسيكون مقنعاً أكثر لو جاء من ألماني. هناك ربما ستون ألف

لاجئ ألماني في هذه البلاد، وسيكون هناك مئات الآلاف الآخرين إذا لم نمنعهم من الدخول بحقارة. لماذا يأتون إلى هنا إذا لم يكن هناك فعلياً أي فرق في الجو الاجتماعي بين البلدين الاثنين؟ وكم عدد الذين طلبوا العودة منهم؟ هم "صوتوا بأقدامهم" كما قال لينين، وكما أشرت آنفا فإن اللطف المقارن للحضارة الناطقة بالإنكليزية، يعود سببه إلى المال والأمن، لكن هذا لا يعني أنه لا يوجد أي فرق. لكن لنعترف ونسلم بوجود اختلاف محدد، وأن هوية الفائز بالحرب تهمنا كثيراً، وأن تسقط حجة السلمية القصيرة المدى المعتادة على الأرض. لا يمكنك أن تكون مؤيداً للنازية بشكل صريح من دون الادعاء بأنك سلمي -وهي حجة قوية جداً للنازيين، لكن ليس هناك عدد كبير من الناس لديهم الشجاعة للتلفظ بها- لكنك تستطيع التظاهر بأن النازية والديمقراطية توأمان متشابهان (تويدلدوم وتويدلدي) لو تظاهرت بأن الرعب من عمليات التطهير في يونيو/ حزيران شُطبت وألغيت برعب مماثل من إنكلترا. في الواقع لقد جرى هذا بواسطة انتقاء ومبالغة. إن السيد كمفورت في الحقيقة يدعي أن "الحجة الصلبة" أنموذجية. عذاب وآلام هذا الطبيب الألماني في بلد يسمى بالديمقراطي، رهيبة جداً ويقول ضمناً ـ لكي يمسح ويلغي أثر التبرير الأخلاقي للصراع ضد الفاشية. لكن يجب على المرء أن يُبقي على إحساس بالتناسب. قبل الصراخ بأن ألفين من أسرى الحرب لا يملكون إلا ثمانية عشر سطلاً للمرحاض، يمكنه أن يتذكر أيضاً ماذا حدث خلال السنوات القليلة الأخيرة في بولندا وفي إسبانيا وفي تشيكوسلوفاكيا إلخ إلخ. إن اقترب المرء كثيراً جداً من صيغة أن "هؤلاء الذين يقاتلون ضد الفاشية يصبحون فاشيين هم أنفسهم"، فإنه سيُقاد إلى التزييف والتشويه. ليس صحيحاً مثلاً كما يقول السيد كمفورت ضمناً وجود هوس منتشر من الجواسيس وتحامل ضد الأجانب يزداد بتصاعد زخم الحرب. إن الشعور ضد الأجانب الذي كان أحد العوامل التي جعلت اعتقال اللاجئين ممكناً، اختفى بالتدريج، ويسمح الآن للألمان والإيطاليين بوظائف كانت محظورة عليهم لو كانوا في زمن السلم. ليس صحيحاً، كما يقول بوضوح، أن الفرق الوحيد بين الاضطهاد في إنكلترا وفي ألمانيا، لا أحد يسمع به في إنكلترا. وليس صحيحاً أن الشر في حياتنا يعود إلى الحرب أو الاستعداد للحرب. هو يقول "أنا أعرف أن الشعب الإنكليزي يحب الألمان ولم يكن سعيداً أبداً منذ وضع ثقته في إعادة التسلح". هل كانوا (الشعب) سعداء بشكل بارز من قبل؟ أليست الحقيقة هي نقيض

ذلك، وأن إعادة التسلح قللت البطالة وجعلت الشعب الإنكليزي أسعد نوعاً ما؟ من خلال مراقبتي، يجب أن أقول إن الحرب عموماً جعلت إنكلترا أسعد، وهذه ليست حجة لصالح الحرب، لكنها ببساطة تخبرنا شيئاً ما عن طبيعة السلام المزعوم.

إن القضية القصيرة الأمد العادية للسلمية في الزعم بأنك تستطيع أن تحبط النازيين بأفضل شكل بألا تقاومهم، لا يمكن أن تدوم وتبقى. إذا لم تقاتل النازيين، فأنت تساعدهم، ويجب عليك أن تعترف بذلك. لأن القضية الطويلة الأجل للسلمية، يمكن أن توضح وتفهم. يمكنك القول: "نعم أنا أعرف أنني أساعد هتلر وأريد أن أساعده. دعوه يهزم بريطانيا والاتحاد السوفيتي وأمريكا. دعوا النازيين يحكمون العالم؛ في النهاية سوف يتطورون إلى شيء مختلف". هذا موقف لا يمكن الدفاع عنه أبداً، ويتطلع إلى التاريخ البشري، وأبعد من مدة حياتنا. إن الذي يتعذر الدفاع عنه هو فكرة أن كل شيء في الحديقة سيكون جميلاً الآن لو أوقفنا القتال الشرير فقط، ولكي تدافع وترد هو بالضبط ما يريده النازيون منا أن نفعله. ممن يخشى هتلر أكثر، من اتحاد التعهد بالسلام أم من سلاح الجو الملكي؟ أيهما سبب تخريباً أكثر؟ هل هو يحاول أن يجلب أمريكا إلى الحرب أم يبعدها ويبقيها خارجها؟ هل سيحزن كثيراً إن توقف الروس عن القتال غداً؟ وأخيراً، لقد بين تاريخ العشر سنوات الأخيرة أن هتلر لديه فكرة ظريفة وذكية لمصالحه الخاصة.

إن الفكرة بأنك تستطيع أن تهزم العنف بالاستسلام له، هي ببساطة فرار من الواقع. كما قلت هي ممكنة فقط للناس الذين يملكون المال والبنادق والحقيقة. لكن لماذا يريدون القيام بهذا الفرار بأي حال؟ لأنهم يكرهون العنف بصدق، وهم لا يريدون أن يعترفوا بأنه متمم للمجتمع الحديث، وأن مشاعرهم المرهفة ومواقفهم النبيلة كلها ثمرة الظلم المدعوم بالقوة. لا يريدون أن يعلموا من أين تأتي دخولهم. تحت هذا يكمن الواقع الصعب الذي يصعب جداً على بعض الناس مواجهته بأن الخلاص الفردي ليس ممكناً، وأن الخيار أمام البشر - كقاعدة- ليس خياراً بين الخير والشر وإنما بين شرين. يمكن أن تدع النازيين يحكمون العالم؛ ذلك شر؛ أو يمكنك الإطاحة بهم بالحرب، وهذا شر أيضاً. ليس هناك خيار آخر أمامكم، ومهما اخترتم، فلن تخرجوا بأيدٍ نظيفة. يبدو لي أن النص من أجل زمننا ليس "الويل لمن يأتي الشر من خلاله"، بل النص الذي أخذت منه عنوان هذه المقالة "ليس هناك أحد صالح ومستقيم

أخلاقياً، كلا لا أحد"، وكلنا لمس الملعب، كلنا نموت بالسيف. نحن لا نملك الفرصة في زمن كهذا لنقول "غداً نستطيع أن نكون أخياراً" ذلك هراء. ليس لدينا غير فرصة اختيار الشر الأقل والعمل من أجل تأسيس مجتمع جديد تكون الحشمة العامة فيه ممكنة مرة أخرى. ليس هناك شيء كالحيادية في هذه الحرب. كل سكان العالم متورطون فيها. من سكان الأسكيمو إلى الاندامانيين (جزر في أرخبيل البنغال). وبما أن المرء يجب أن يساعد بشكل محتوم هذا الطرف أو ذاك، فمن الأفضل له أن يعرف ماذا يفعل وأن يحسب التكلفة. رجال مثل دارلان ولافال يمتلكون الشجاعة بأي شكل، فقد أخذوا خيارهم وأعلنوه صراحة وعلى المكشوف، ويقولون إن النظام الجديد "يجب أن يسحق إنكلترا". في أي حال يظهر السيد موري أحياناً وهو يفكر مثلهم وبنفس الطريقة، فهو يقول إن النازيين "يقومون بأعمال الرب القذرة" (هم بالتأكيد قاموا بمهام قذرة بشكل استثنائي حين هاجموا روسيا) ونحن يجب أن نكون حريصين "خشية ألا يكون قتالنا ضد هتلر قتال ضد الرب". هذه ليست مشاعر وآراء سلمية، لأننا لو نقلناها إلى نتيجتها المنطقية، فإنها لا تتضمن الاستسلام لهتلر فقط وإنما مساعدته في حروبه القادمة المتنوعة. وهي آراء مباشرة وشجاعة على الأقل. أنا نفسي لا أرى هتلر كمخلص للإنسانية، ولا حتى المخلص اللاواعي، لكن هناك حجة قوية للتفكير بأنه هكذا وأقوى بكثير مما يتخيله أغلب الناس في إنكلترا. ليست هناك حجة لشجب هتلر، وفي الوقت نفسه تنظر باحتقار إلى الناس الذين يحمونك من براثنه فعلياً. ذلك ببساطة شكل مختلف رفيع الثقافة للنفاق البريطاني ونتاج لرأسمالية متعفنة، وشيء بسببه يحتقرنا الأوروبيون الذين يفهمون طبيعة رجل الأمن وإيراد الحصة الإضافية بشكل مبرر وعادل.

ادلفي، أكتوبر ١٩٤١.

بلوغ اليابسة، بقلم نيفيل شوت
ونيل كرنتشر، بقلم آلبرت كوهين

يقال عموماً إن كل كائن بشري مادة لكتاب جيد. وبالقياس عليه يصح القول إن كل كتلة من الحجر تحتوي تمثالاً، وربما الأقرب إلى القصد أن كل من يقدر على حمل قلم يستطيع أن يكتب رواية جيدة من النوع المتواضع، إن نجح في فترة ما من حياته أن ينجو من المجتمع الأدبي. ليس هناك نقص في الكتاب البارعين في الوقت الحاضر، لكن المشكلة أن هؤلاء الكتاب مفصولون عن الحياة في زمنهم، لدرجة أنهم عاجزون عن الكتابة عن الناس العاديين. تملك الرواية "المميزة" فناناً أو شبه فنان كبطل فيها دائماً تقريباً، لكن هناك تجربة واحدة لكل الكائنات البشرية على السواء تقريباً، ألا وهي الحرب. ولدى "المثقف" فرصة في رؤية حرب عن كثب، لن يرى مثلها قط على الأبواب، لأنه لن يرى أبداً مثلاً إفلاس الأسهم أو التأمين البحري، وبالتالي ستكون هناك كتب جيدة عن الحرب شائعة إلى حد ما. إن الحرب الحالية بسبب طبيعتها الفريدة، لم تنتج أدبها الخاص بها بعد، لكن **بلوغ اليابسة** للسيد نيفيل شوت هي البداية. إنها قصة مقنعة ومباشرة، وسأبقي عيني مفتوحتين من أجل كتب السيد شوت في المستقبل.

ما يجعلها مشوقة، أنها تظهر الغرابة الجوهرية للحرب كمزيج من البطولة والخسة. تدور القصة كلها حول الغيرة بين البحرية وسلاح الجو بخصوص السيطرة على الفرقة الساحلية. البطل طيار شاب يُتهم بقصف غواصة بريطانية وإغراقها. هو لم يفعل هذا في الواقع، لكنه وجد نفسه مداناً من قبل هيئة التحقيق المؤلفة من ضباط بحرية متحاملين ضده. يُبرئ لاحقاً بطرق ملتوية وسلسلة من الظروف المقنعة بشكل غريب. حلقة الوصل الرئيسية فيها مزحة قذرة حول مانعات الحمل. تبين الطريقة التي يتناولها المؤلف فيها، أفضلية أن يعيش إنسان مفكر في ظروف متساوية مع رجال لا يفكرون. الطيار الشاب غير مثقف أبداً. هواياته الحصول على محطات صعبة في اللاسلكي وتركيب سفن ألعاب يشتري قطعها المصنعة مسبقاً؛ ينجح في مغازلة نادلة في بار يتزوجها أخيراً. وهناك فصول كاملة من نوع المحادثة التي يسمعها المرء مراراً وتكراراً في بهو الحانات مملوءة بمعانٍ مزدوجة و"أوه ألست مرعباً!" لكن

المؤلف لا يعالج أياً من هذا بشكل ساخر، وهو يفهم وجهة نظر الطيار الشاب، لأنه في وقت من حياته كما يفترض شاركه هذه التجربة، ويستطيع الوقوف داخله وخارجه أيضاً، ويدرك أنه بطولي وطفولي أيضاً وكفؤ وساذج أيضاً. النتيجة قصة بسيطة وجيدة تخلو من البراعة بشكل سائغ، وأحياناً مثيرة بصدق.

نيل كرانتشر من الجانب الآخر، هي واحدة من أكثر الروايات الطنانة التي قرأتها لزمن طويل. إنها ضخمة وقصة مضحكة بشكل متعمد عن يهود شبه معاقين في جزيرة سيفالونيا اليونانية أولاً، ثم في سويسرا لاحقاً. المميز فيها بشكل رئيسي طولها وقرف مقاطعها الداعرة. حالما وصلت إلى أول هذه، قلبت على الغلاف المغبر الذي فيه دعاية الكتاب، وأنا أعرف جيداً أي صفة سأجدها وواثق تماماً بأنها هناك- "رابليازيان". من الغريب أن هذه الكلمة تستخدم بشكل ثابت كمصطلح للمديح. يقال لنا دائماً بما أن الأدب الإباحي يستحق الشجب "المزاج الرابليازياني الحماسي" (يعني الانشغال بالمرحاض) صحيح ومناسب تماماً. بعيداً عن كونه "سليماً وبصحة جيدة" كما يزعم دائماً، فهو كاتب منحرف ومريض بشكل استثنائي وحالة من أجل التحليل النفسي. لكن الأشخاص الذين يحبون حياة متزمتة، لديهم عقول قذرة، ورابلياس لديه سمعة سرية ضخمة في العهود الفيكتورية. لو قرأ رئيس الشماسة غرانتلي خلسة لنال بقشيشاً، ولأصبح العازب في قصائد براونينغ "نسخة قليلة من رابلياس". ربما الطريقة الوحيدة في جعله محترماً، هي أن نحافظ أن هناك شيئاً ما "عادي" و"حماسي" في كوبروفيليا، والأسطورة عاشت لتدخل في عصر فيه قلة من الناس ألقوا نظرة عاجلة إلى مقاطعه القذرة. في كل الأحوال "رابليازيان" وصف صحيح لنيل كرانتشر. إن كنت تحب دراسة الغائط، فهذا هو الكتاب المناسب لك؛ إن لم تكن كذلك، سأدير الدفة بعيداً عنه، بسبب المقاطع الطويلة المتعمدة التي تجعل أي شخص عادي مريضاً جسدياً.

نيوستيسمان ونيونيش

٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٠.

السلمية (معارضة العنف) والحرب
جدال بين دي اس سافاج وجورج وودكوك
وأليكس كمفورت وجورج أورويل

(دي اس سافاج شاعر تشمل أعماله النقدية المبدأ الشخصي وهاملت والقراصنة).

تعليقات موجزة على رسالة أورويل إلى مجلة لندن عدد مارس/ أبريل (آذار/ نيسان).

من الرائج في هذه الأيام أن تساوي بين الفاشية وألمانيا. يجب علينا أن نقاتل الفاشية، لذلك يجب أن نقاتل ألمانيا. قال السيد أورويل: "القسم الأعظم من الإنتلجنسيا.... لا يشعر بالرعب من الفاشية التي نحن الجيل الأكبر سناً نشعر بها"، أيضاً "لا يوجد جواب حقيقي للتهمة بأن السلمية (رفض العنف) هي موضوعياً تأييد للفاشية" جواب: الفاشية ليست قوة محصورة بأي أمة. نستطيع الحصول عليها هنا كما في أي مكان آخر. العلامات المميزة للفاشية هي: تقليص حريات الأفراد والأقليات، وإلغاء القيم الخاصة، واستبدال حياة الدولة والقيم الشعبية (الشعور الوطني)، وفرض خارجي للانضباط (تسلط العسكر)، وانتشار القيم الجماعية والعقلية الجماعية، وتزييف النشاط الثقافي تحت ضغط الدولة. هذه هي كل ميول بريطانيا في الوقت الحالي. السلمي يعارض كل واحدة من هذه، ويجب أن يوصف بأنه الخصم الصادق الوحيد للفاشية.

لا تدعوا الأسماء تضللنا. الفاشية قادرة تماماً على تسمية نفسها ديمقراطية أو حتى اشتراكية. إن حقيقتها التي تحت الاسم هي المهم. تتطلب الحرب تنظيماً ديكتاتورياً للمجتمع. نظمت ألمانيا نفسها على هذا الأساس قبل أن تبدأ بالحرب. بريطانيا تجد نفسها الآن مجبرة أن تقوم بنفس الإجراءات بعد تورطها بالحرب. ألمانيا تسمي نفسها اشتراكية قومية. نحن نسميها الديمقراطية. النتيجة نفسها.

دعونا نفترض أن السيد أورويل يضمر أنه "مؤيد للألمان موضوعياً". (إن كان هكذا فمصطلحاته الرخوة دلالة بالتأكيد على تفكير مهلهل جداً) من "الموضوعي"؟... هل السيد

أورويل مشايع لجانب واحد خاص في الصراع؟ بناء على هذا النوع من التفكير والحجج، يكون السلمي الألماني أو الألماني "مؤيداً موضوعياً لبريطانيا" هذا صبياني. يفترض السيد أورويل أن السلمي يشاركه ميوله ونوازعه الشوفينية. على العكس، نحن نعتبر الحرب كارثة على الإنسانية. من سيقول إن النصر البريطاني سيكون أقل كارثية من النصر الألماني؟ لقد كان آخر نصر بريطاني لا معنى له تماماً.

السيد أورويل في كل كتاباته الأخيرة حول الموضوع، يظهر عجزاً تاماً لفهم الطبيعة الحقيقية للسلمية. دعوني أحاول في بضع كلمات أن أنوّره.

السيد أورويل نفسه "سياسي" مع نظرة سياسية للأشياء. هو يرى بالتالي السلمية كظاهرة سياسية أولاً وقبل كل شيء، وذلك ليست ما هي عليه، فهي أولاً وأساساً ظاهرة أخلاقية. إن الحركات السياسية تؤسس على برنامج وتنظيم. مع السلمية، فإن البرنامج والتنظيم ثانويان تماماً. تنبثق السلمية من الضمير، أي من داخل الكائن البشري الفرد. يقول أورويل إن "بيس نيوز تتبع تقليدها القديم في معارضة الحرب لأسباب متنافرة مختلفة". هناك بالتأكيد أسباب لا تحصى لماذا يجب أن تعارض الحرب. لكن السبب الرئيسي هو الطبيعة الشيطانية للحرب الحديثة مع ارتداداتها الشيطانية على الشخصية الإنسانية والقيم. الفساد والتجويف المكتشف في مقاضاة هذه الحرب خسيس جداً تعجز الكلمات عن وصفه. بالتأكيد أنا سأقبل بحصتي من المسؤولية، لكني لن أقاتل في حرب لأطيل عمر الفساد والتجويف.

ربما يجب أن أحاول أن أعطي تعبيراً لما يشعر به الكثيرون من السلميين بخصوص علاقة ألمانيا بأنفسنا، بما أن أورويل يذكر هذه النقطة. لا حاجة للقول: لم نر أي حب للفاشية، وموقفنا التام واحد من المقاومة الشخصية لكل أنواع الفاشية، لأنها تفرض علينا بشكل ملموس. (بينما يبتلع أورويل التجاوزات المادية الملموسة، ويلوح بذراعيه إلى بعبع بعيد). ليس فقط أننا لن نقاتل أو نساعد في الحرب، بل إن "المثقفين" وسطنا سيحقرون أنفسهم في تسوية عقلية مع الحكومة. أورويل لا يحب المثقفين الفرنسيين الذين يلعقون فتات هتلر، لكن ما هو الاختلاف بينهم وبين مثقفينا الذين يلعقون فتات تشرشل؟ على كل حال "نحن الذين لا نؤمن بأي دفاع عن الديمقراطية" نميل إلى تفضيل ألمانيا على بريطانيا، ولا نشعر بالرعب من الفاشية الذي نشعر به نحن الجيل الأكبر سناً. "أنا أستطيع التكلمّ عن نفسي فقط، لكن بالتأكيد "الدفاع عن

الديمقراطية" يخدمه جيداً دفاع المرء عن حرياته الحقيقية الخاصة به، وليس بمساواة الديمقراطية ببريطانيا والسماح لكل ديمقراطية أن تُدمر لكي نقاتل بشكل أفضل من أجل بريطانيا"، وأورويل لا يحتاج إلى أحد يخبره ما هي بريطانيا الآن وماذا تكون كما يفترض.

أنا لست مفتوناً "بديمقراطية" بريطانيا، وخصوصاً بعد أن باتت تتلاشى تدريجياً تحت ضغط الحرب. بالتأكيد أنا لن أقاتل وأقتل من أجل هكذا وهمٍ خادع. أنا لست معجباً كبيراً بذلك الدور الذي لعبته "بلادي" في الأحداث العالمية. أنا أعتبر أن بريطانيا روحياً فقدت كل معناها، فربما كانت تمثل شيئاً في الماضي، لكن من يستطيع التظاهر أن فكرة "بريطانيا" الآن تعتبر مهمة لأي شيء في العالم؟ هذه ليست كلبية (تشاؤمية). أنا أشعر بالتعاطف مع بلادي بمعنى عميق، وأريدها أن تستعيد معناها وروحها إن كان ذلك ممكناً: لكن إفراغ بليون طن من القنابل على ألمانيا، لن يساعد هذا التقدم إلى الأمام ولو بوصة واحدة. على الرغم من أن بريطانيا أمة مريضة، إلا أن التظاهر "بأنها وجدت روحها" يتواجد في بعض الأحياء الذين تورطوا في الحرب، ومن هذا يجمع المرء أن المرض تمثل بتشامبرلاين وإيجاد الروح في تشرشل. لسوء الحظ، فإن التغييرات العميقة لا تحدث بهذه السهولة. إنكلترا لا تريد ولا تعرف حتى من أجل ماذا تقاتل ومن تقاتل. السلميون "المناصرون" لهتلر الذين يشير إليهم أورويل، هم ببساطة اعتراف منا بأن هتلر وألمانيا فيها ديناميكية تاريخية حقيقية نحن لا نملكها. بينما بقية الأمة قانعة وتنزل اللعن والخزي والعار على رأس هتلر، فيما نحن نعتبر هذا كشيء سطحي. هتلر لا يستلزم الإدانة، وإنما الفهم. هذا لا يعني أننا نحبه أو ندافع عنه. أنا شخصياً لا أكترث البتة بهتلر. هو على كل حال "حقيقي" أكثر من تشامبرلاين وتشرشل وكريبس إلخ في كونه وسيلة نقل لقوى تاريخية خام، بينما هم عبارة عن دمى محشوة وتماثيل من الشمع يعيشون في الوهم. نحن لا نتوق إلى نصر ألماني ولن نرفع إصبعاً لمساعدة كل من بريطانيا أو ألمانيا على "الفوز"، لكن ستكون هناك عدالة عميقة. لكنني أشعر بالرعب في نصر ألماني. (في الواقع أي حاكم سيجدنا زبائن غير مناسبين لا يقل أحدنا عن الآخر).

الآن ماذا عن موقع السيد أورويل وموقع أمثاله من الناس؟ أود أن أسأله أن يفكر ملياً أولاً بالرفقة التي يلازمها. من هم قادته وزعماؤه؟ ما هو النظام الاجتماعي الفعلي الذي يقاتل للدفاع عنه؟ ما هي الآمال التي لديه ليحرف جدول التاريخ المتدفق في الطريق التي يريده أن

يذهب؟ الكلمات الشجاعة والتفكير المشوش لا يستطيعان إخفاء حقيقة أن السيد أورويل وكل المؤيدين الآخرين للحرب من أقطاب الشحن البحري وملاكي الفحم والبروليتاريين وأساتذة الجامعات وصحافيي أيام الآحاد وقادة النقابات وأصحاب المقامات الرفيعة في الكنائس والأوغاد والرجال الشرفاء، جرفهم التاريخ معه ولم يوجهوه، وسيودع مثلهم مع فتات آخر في المكان الذي يقرره التاريخ وليس في المكان الذي يفكر فيه. إن السيد أورويل كما أعتقد رجل استقامة ورجل صدق. لكن ذلك لا يعوض عن سطحيته. وهل نستطيع أن نوفر السطحية في أي وقت كهذا على الأقل؟

١١ مايو/ أيار ١٩٤٢.

دراي درايتون، إنكلترا.

(جورج وودكوك: فوضوي ورئيس تحرير "ناو" ١٩٤٠-١٩٤٧ ومؤلف ويليام غادوين، الفوضوية والروح الشفافة. في الوقت الحالي هو أستاذ للغة الإنكليزية في جامعة بريتش كولومبيا منذ ١٩٥٩ ومحرر كانديان ليترتشر. بعد هذه المناظرة تراسل هو وأورويل وبقيا صديقين حتى وفاة أورويل).

لندن. رسالة إلى مجلة ناو التي أنا رئيس تحريرها.

يوحي أورويل أن هذه الصحيفة لها ميل ونزعة فاشية، ويسمي اثنين من المساهمين هوف روس ويليامسن ودوق بيدفورد ليثبت ادعاءه. في الواقع ناو أسست في وقت مبكر من الحرب كمجلة تنشر المادة الأدبية وأيضاً كمنتدى للكتابة الخلافية التي لا تستطيع أن تجد نشراً تحت ظروف زمن الحرب. ليس كل الكتاب يعارضون الحرب، ومن الخمسين مشاركاً الشاذين إلى الأرقام السبعة، اثنان فقط هما اللذان يسميهما أورويل اشتهرا بميول فاشية. لا أحد من هذين الرجلين ساهم بأكثر من مقال واحد للمجلة. بقية الكتاب تتضمن فوضويين وستالينيين وتروتسكيين وسلميين ومعتدلين النيو ستيتمان. جوليان هكسلي وهربرت ريد اثنان من أشهر المشاركين الذين من الصعب اتهامهم بالفاشية!

الإشارة إلى مقال جوليان سيمون غير عادل برأيي. أورويل لم يعط فكرة عن موضوعه، ولم يقتبس جملة واحدة ليثبت تأكيده بأنه "فاشي مبهم"! لا أحد في إنكلترا باستثناء أورويل وربما الستالينيين، يفكر بالإيحاء بأن جوليان سيمون لديه أي ميول فاشية، بل على العكس كان

معادياً للفاشية بشكل ثابت ومتسق. والمقال المذكور الذي يهاجم فيه افتقار ناو السابق لخط سياسي محدد ماركسي في ميوله.

أنا لا أنوي الدفاع عن هوغ روس ويليامسن أو دوق بيدفورد، لكني سأذكر أن لا أحد منهما ينتمي إلى بي يو اف (اتحاد الفاشيين البريطانيين) وأن حزب الشعب لم يكن حزباً فاشياً رغم احتوائه على فاشيين سابقين، ومن أعضائه سلميون اشتراكيون كثيرون مثل بين غرين الذي سبب حبسه الجائر ومعاملته السيئة في السجن فضيحة كبرى. سأشير أيضاً إن كنا سنكشف الماضي، بأن أورويل نفسه لم ينجح بشكل جيد جداً. الرفيق أورويل الموظف السابق في الإمبريالية البريطانية (التي تعلم منها الفاشيون كل ما يعرفونه) في تلك المناطق من الشرق الأقصى حيث الشمس تغيب دائماً على العلم البريطاني الوسخ! الرفيق أورويل، رفيق سفر سابق للسلميين ومشارك مواظب في أدلفي السلمية -التي يهاجمها الآن! الرفيق أورويل يساري متطرف سابق ونصير لحزب العمال المستقل ومدافع عن الفوضويين (راجع الحنين إلى كتالونيا)! والآن الرفيق أورويل يعود إلى ولاءاته الإمبريالية القديمة ويعمل في محطة البي بي سي، ويدير دعاية بريطانية فيها لخداع الجماهير الهندية! يبدو أن أورويل نفسه يظهر إلى درجة مدهشة تشابك ميول الجناح اليساري والسلمي والرجعي التي يتهم بها الآخرين!

إشارة إلى ناو، سوف أذكر أن هذه المجلة قد هجرت مركزها كمنبر مستقل وأصبحت المجلة الثقافية للحركة الفوضوية البريطانية. ربما يعتبر السيد أورويل هذا دليلاً لثالوثه الباطني القومجي المتكبر.

أخيراً سأشير إلى غلطتين في رسالة أورويل. الكراسة الفوضوية التي أشار إليها هي بعنوان الأسطورة الروسية، ورئيس تحرير أدلفي خلال القسم الأول من الحرب، لم يكن جون ميدلتون موراي، وإنما الراحل ماكس بلومان.

١٩ مايو/ أيار ١٩٤٢.

ريتشموند، إنكلترا

أليكس كمفورت

(أليكس كمفورت شاعر وروائي وكاتب كراريس وعالم أحياء طبي).

أرى أن السيد أورويل صياد مثقفين ثانية في صفحاتكم هذه المرة، وأنه اكتشف أن كل كاتب تحت الثلاثين تقريباً في هذه البلاد كانت قدماه مسبقاً على منحدر الفاشية المزعزع أو على الأقل للتوصل إلى تسوية. يبدو أنني من نوع "سلمي صرف من الخد الآخر" وقطعة تأبين جنابينية، أنا سعيد أنني لم أفقدها، وأنني أستحق ضربة على الردف لزمالتي مع شخص سيء السمعة مثل دوق بيدفورد، و-غير المؤذي تماماً- روس وليامسن. المشكلة أن بعض من قرائكم الأمريكيين قد لا يدركون مكانة أورويل في هذه البلاد، ويأخذون تعليقه على محمل الجد. نحن كلنا نحبه هنا، لكن مقياس تأليفه للكراريس هبط مؤخراً، ونحن نعرفه كمبشر لمذهب الشجاعة البدنية كرصيد لمثقفي الجناح اليساري وهلم جرا. أعتقد أننا كلنا نتفق أنه غير مطلع تماماً أوت اف تاتش على أي كتابة تحت الثلاثين سنة من العمر، كما أن ظهوره العامين الأخيرين توبيخ محزن لكتابي ليس هكذا حرية، و"رسالة لندن" هذه توحي أنه مازال لم يدرك لماذا أغلب شعراء الثلاثينات سلميون أو ماذا ستستلزم سلميتهم إن وصل هتلر إلى هنا.

ينعتنا السيد أورويل "بمؤيدي الفاشية الموضوعين" أعتقد أنه يعني أننا تركنا عداء الفاشية يحدث ولم نكترث. إن قلنا له إننا نحن الذين امتلكنا العزم الوحيد على إنقاذ الثقافة الفنية الإنكليزية حين وصل الارتطام، وأننا الناس الوحيدون المحتمل منهم أن يستمروا بالتمسك بالقيم المعادية للفاشية بشكل صادق، فإنه لن يقتنع. لكن ربما هو سيسلم أن نصر هتلر الأعظم الذي لا يمكن تعويضه علينا هنا، كان إقناعه للشعب الإنكليزي بأن الطريقة الوحيدة للتفوق على الفاشية هي تقليدها. هو يضعنا في معضلة لا يمكن دحضها عملياً، إلا بالفرار منها..... "إن أنا فزت فسيكون لديكم فاشية سياسية منصرة: إن أردتم أن تهزموني، فيجب عليكم أن تمثلوا أكبر قدر تستطيعونه من فلسفتها، ولذلك من المحتوم أن أفوز في كلا الحالتين" بناءً عليه، فقد بدأنا نحشو بشكل محموم في حياتنا الوطنية كل أجزاء الممارسة الفاشية الثانوية التي لم تشمل الأساليب الاشتراكية بكبت الصحافة "لأننا في حرب شاملة" وجعل جنودنا يفقؤون مرارتهم بينما تقصفهم مكبرات الصوت بالدعاية لأن الجيش الألماني يتألف من ياهو (أجلاف) أكفاء. الشعب هو الوحيد الذي قال لكي تهزم الفاشية على المرء (أ) أن يحاول أن يفهمها و(ب) أن يرفض القبول بمعتقداتها. يبدو كما لو أن السيد أورويل

وأصدقاءه المولعين بالحرب، لم يكونوا مؤيدين موضوعيين، وإنما مؤيدون بناؤون لكل الجهاز الفلسفي الكامل الذي يمقتونه تماماً بصدق.

ما هو الدور الذي يجب على الفنان أن يقوم به في المناطق المحتلة كما يتخيله السيد أورويل؟ يجب عليه أن يحتج بكل قوته أينما وكلما استطاع ضد هكذا شرور كما يراها -لكن هل يستطيع أن يفعل هذا بشكل مفيد أكثر بالقبول المؤقت بالوضع القائم، أم بمناوشة في غابة ايبينغ مع جيب مملوء بالقنابل اليدوية؟ أعتقد أن الكتاب الإنكليز يجلون وسوف يتبعون حين تأتي الفرصة، أنموذج الاستقامة الذي وضعه جايد. نحن سوف نؤتمن بوظيفة إنقاذ بقايا بنية القيم الحضارية من هتلر أو من جانب آخر من تشرشل وثاقبي مثانته بلادر بريكرز. الرجال الذين مثل أورويل والذين كان يمكن أن يساعدوا ولم يفعلوا، ينعتوننا بالفاشيين، ويرقصون حول دمار كاتدرائية مونستر. نحن نفضل ألا ننضم إليهم، وإذا وجدنا أنفسنا في متابعة واجبنا أننا ملزمون أن ننشر في نفس الصحيفة كما الشيطان نفسه ورفضنا الآخرون بأدب كأرثوذكس، فسوف نملك وخزات ضمير قليلة جداً.

برينت وود، إنكلترا

١٨ مايو/ أيار ١٩٤٢.

جورج أورويل:

بما أنني لا أعتقد أنكم تريدون ملء العدد كله من بي ار بجدالات حقيرة مستوردة من وراء الأطلنطي، فسوف أكوم الرسائل المختلفة التي أرسلتموها إلي معاً (من السادة سافاج وودكوك وكمفورت) بما أن القضية المركزية لجميعها واحدة. لكن يجب بعد ذلك أن أتعامل بشكل منفصل مع بعض نقاط الواقع الذي أثارته الرسائل المختلفة.

السلمية. السلمية تأييد للفاشية بشكل موضوعي. هذا هو المنطق والفطرة السليمة. إن أعقت جهود الحرب في طرف ما، فأنت أتوماتيكياً تساعد الطرف الآخر. ليس هناك أي طريق حقيقي آخر للبقاء خارج حرب مثل الحرب الحالية. عملياً، "إن الشخص الذي ليس معي هو ضدي". فكرة أنك تستطيع أن تبقى بمعزل عن الصراع ومتسامياً عليه، بينما تعيش على طعام خاطر الجنود البريطانيون بأرواحهم ليجلبونه لك، هو وهم برجوازي تغذى على

المال والأمان. إن ملاحظات السيد سافيج أنه "وفقاً لهذا الأنموذج من الحجج سيكون السلمي الألماني أو الياباني مؤيداً لبريطانيا موضوعياً" سيكون كذلك بالطبع! لهذا السبب فإن نشاطات السلميين غير مسموح بها في تلك البلدان (في اثنين منها يمكن أن تكون العقوبة قطع الرأس) بينما الألمان واليابانيون يفعلون كل ما بوسعهم لتشجيع انتشار السلمية في الأراضي البريطانية والأمريكية. حتى إن الألمان أطلقوا إذاعة "الحرية" الكاذبة التي تخدم دعاية سلمية مستحيل تمييزها عن إذاعة البي بي يو. كلاهما تنشر السلمية في روسيا أيضاً إن استطاعتا، لكن في تلك الحالة لديهما أطفال أقسى تتعاملان معهم. إن الدعاية السلمية تستطيع أن تكون فعالة فقط ضد تلك البلدان، حيث يوجد هناك قدر محدد من حرية التعبير لازال مسموحاً به، بعبارة أخرى إنها تساعد الأنظمة الاستبدادية الشمولية. أنا لست مهتماً بالسلمية كـ "ظاهرة أخلاقية". إذا تخيل السيد سافيج وآخرون أن المرء يستطيع "قهر" الجيش الألماني بالاستلقاء على الظهر، فدعهم يستمرون في تخيلهم ذلك، لكن دعهم أيضاً يتساءلون بين الفينة والأخرى إن كان هذا وهم ناتج عن الشعور بالأمان أم لا، ومن المال الكثير جداً وجهل بسيط بالطريقة التي تحدث بها الأشياء فعلياً. لكوني موظفاً مدنياً سابقاً في الهند، فعندما أسمع أن غاندي مثال لنجاح اللاعنف، يجعلني هذا أقهقه وأضحك بصوت عالٍ.

طيلة السنوات العشرين الماضية، تم الاعتراف بشكل ساخر في الدوائر الأنغلوهندية أن غاندي كان مفيداً جداً للحكومة البريطانية. وهكذا سيكون لليابانيين إن وصلوا إلى هناك. الحكومات الاستبدادية تستطيع تتحمل "قوة أخلاقية" حتى تعود الأبقار إلى البيت؛ ما تخشى منه هو القوة المادية. لكن رغم عدم اهتمامي الكبير بـ "نظرية" السلمية، فأنا مهتم بالعمليات النفسية التي بدأ بها السلميون برعب مزعوم من العنف وانتهوا بنزعة وميل واضح بافتتانهم بنجاح وقوة النازية. حتى السلميون الذين لا يعترفون بأي من هكذا افتتان، بدأوا يزعمون أن النصر النازي مرغوب في حد ذاته. في الرسالة التي أرسلتموها إلي، يعتبر السيد كمفورت أن الفنان في المناطق المحتلة مؤقتاً ينبغي أن "يحتج ضد هكذا شرور كما يراها"، لكنه يعتبر أن هذا يتم فعله بأحسن شكل "بالقبول المؤقت بالوضع القائم" (مثل ديات أو بيرغيري مثلاً؟). قبل بضعة أسابيع كان يتمنى نصراً نازياً بسبب التأثير المحفز الذي سيمارسه على الفنون:

حسب ما أرى، ليس لأي علاج يقل عن الهزيمة العسكرية الكاملة، أي فرصة في إعادة توطيد الاستقرار العام للأدب وللرجل الذي في الشارع. يستطيع المرء تخيل المحنة الأعظم والتحقيق المفاجئ الأعظم لدفق من العمل الخيالي والتطهير المفاجئ الأعظم للشعر، من التفسير المعزول للحرب كفاجعة بالنسبة إلى تحقيق المأساة الحقيقة والتخيلية للإنسان. حين يكون لدينا مدخل إلى أدب سنوات الحرب مرة أخرى في فرنسا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا، فأنا واثق بأن ذلك هو ما سوف نجده. (من رسالة إلى هورايزن).

تغاضيت عن الجهل المحمي بالمال القادر على الإيمان بأن الحياة الأدبية لاتزال مستمرة في بولونيا مثلاً، والقول إن تصريحات كهذه تبرر لي القول إن سلميينا الإنكليز ينزعون ويميلون باتجاه مناصرة الفاشية. لكنني أعارض ذلك على وجه الخصوص. ما أعترض عليه هو الجبن الثقافي للناس المؤيدين بشكل موضوعي وإلى حد ما عاطفي للفاشية، والذين لا يكترثون في قول هذا ويحتمون خلف الصيغة التالية "أنا معادٍ للفاشية مثل كل الآخرين، لكن...". نتيجة هذا هي أن ما يسمى بالدعاية السلمية مضللة ومقززة فكرياً كالدعاية الحربية، وتركز مثل دعاية الحرب على تقديم حالة مسبقاً والتعتيم على وجهة نظر الخصم وتحاشي الأسئلة المربكة. الخط المتبع هو "هؤلاء الذين يقاتلون ضد الفاشية يصبحون فاشيين هم أنفسهم. ولكي تتملص من الاعتراضات الواضحة تماماً التي يمكن إثارتها على هذا، تستخدم الخدع الدعائية التالية:

١- عمليات التحول إلى الفاشية التي تحدث في بريطانيا نتيجة للحرب مبالغ فيها بشكل منظم.

٢- إن السجل الحقيقي للفاشية خصوصاً في تاريخها السابق للحرب، تم تجاهله أو سُخر منه كـ "دعاية"، كما جرى التهرب من نقاش الشكل الذي سيكون عليه العالم إن انتصرت دول المحور.

٣- هؤلاء الذين يريدون أن يصارعوا ضد الفاشية، متهمون بكونهم مدافعين صادقين عن "الديمقراطية" الرأسمالية. لقد تم طمس حقيقة أن الأغنياء في كل مكان يميلون إلى تأييد الفاشية، والطبقة العاملة معادية للفاشية دائماً تقريباً.

٤- يتم التظاهر والزعم ضمناً بأن الحرب هي بين بريطانيا وألمانيا فقط، وتم تجنب ذكر روسيا أو الصين ومصيرهما إن سمح للفاشية بالفوز. (لن تجد كلمة واحدة عن روسيا أو الصين في الرسائل الثلاث التي أرسلت إلي).

الآن يجب أن أعالج نقطة أو نقطتين، إذا كنتم ستطبعون رسائل المتراسلين معكم بالكامل.

ماضيّ وحاضري: يحاول السيد وودكوك أن يكذبني ويشوه سمعتي بقوله (أ) إنني خدمت في الشرطة الإمبريالية الهندية (ب) إنني كتبت مقالات لدورية أدلفي وخالطت التروتسكيين في إسبانيا و(ج) أدرت دعاية بريطانية لأخدع الجماهير الهندية. بالنسبة لـ (أ) صحيح تماماً أنني خدمت لمدة خمس سنوات في الشرطة الهندية. وصحيح أيضاً أنني تخليت عن وظيفتي جزئياً لأنها لم تناسبني، وأساساً لأنني لم أرغب أن أكون موظفاً للإمبريالية لوقت أطول من ذلك. أنا ضد الإمبريالية، لأنني أعرف شيئاً عنها من الداخل. كل تاريخ هذا موجود في كتاباتي بما فيها رواية (أيام في بورما) أعتقد أنني أستطيع الزعم أنها كانت نوعاً من نبوءة لما حدث هذه السنة في بورما. (ب) طبعاً أنا كتبت لأدلفي، ولماذا لا أفعل؟ أنا كتبت مرة لمجلة نباتية، فهل ذلك جعلني شخصاً نباتياً؟ رافقت التروتسكيين في إسبانيا. كانت فرصة أن أخدم في ميليشيا البيوم (حزب العمال الماركسيين المتحدين) وليس غيرها، وقد اختلفت كثيراً مع خط البيوم، وأخبرت قادتهم ذلك بحرية، لكن حين اتهموا لاحقاً بمناصرتهم للفاشية دافعت عنهم بأقصى استطاعتي. كيف يتناقض هذا مع موقفي الحالي المعادي لهتلر؟ الجديد بالنسبة إلي هو أن التروتسكيين إما سلميين أو مؤيدين للفاشيين (ج) هل يعرف السيد وودكوك فعلاً نوع المادة التي كنت أضعها في نشرات البث الموجهة إلى الهند؟ هو لا يعرف - لكن سأكون سعيداً تماماً أن أخبره عنها. هو حريص ألا يذكر من هم الأشخاص الذين رافقوا هذه النشرات الإذاعية الهندية. واحد على سبيل المثال هو هربرت ريد الذي ذكره باستحسان. آخرون تي اس إليوت وإي إم فورستر وريجينالد رينولدز وستيفن سبيندر وجيه بي اس هولدين وتوم ونترينغهام. أغلب ضيوفنا المتحدثين هم من المثقفين اليساريين الهنود، من الليبراليين إلى التروتسكيين، بعضهم معادون جداً لبريطانيا. هم لا يفعلونها "لخداع الجماهير الهندية"، وإنما لأنهم يعرفون ماذا سيعني النصر الفاشي بالنسبة إلى فرص استقلال الهند. لماذا لا تحاول أن تكتشف ماذا أفعل قبل اتهامي؟

"السيد أورويل صياد مفكرين ثانية"(السيد كمفورت). أنا لم أهاجم أبداً "المثقفين" أو الإنتلجنسيا بالمجمل. استخدمت كثيراً من الحبر، وأرهقت نفسي بالهجوم على الزمر الأدبية المتعاقبة التي لوثت هذه البلاد، ليس لأنها كانت فكرية، وإنما بالضبط لأنهم لم يكونوا ما أقصده بالمفكرين الحقيقيين. حياة الزمرة خمس سنوات تقريباً، وأنا أكتب منذ وقت كان كافياً لأرى مجيء ثلاثة منهم وذهاب اثنين: الزمرة الكاثوليكية والعصابة الستالينية والعصابة السلمية الحالية أو كما يلقبون أحياناً والعصابة الفاشية. قضيتي ضدهم كلهم هي أنهم يكتبون دعاية كاذبة عقلياً، ويحطون من قدر النقد الأدبي إلى نفاق مخزٍ. لكن حتى مع هذه المدارس المختلفة، سأميز بين الأفراد. لن أفكر أبداً في الجمع بين كريستوفر داوسن مع أرنولد لون أو مالروكس مع بالمي دوت أو ماكس بلاومان مع دوق بيدفورد. حتى أعمال واحد من الأفراد يمكن أن يتواجد في مستويات مختلفة جداً مثلاً، السيد كمفورت نفسه كتب قصيدة أثمنها كثيراً (الجزيرة المرجانية في العقل) وأتمنى لو يكتب الكثير منها بدلاً من كراسات دعائية ميتة بلبوس روايات. لكن هذه الرسالة التي اختارها ليرسلها لك قضية مختلفة. بدلاً من الرد على ما قلته، حاول أن يجعل جمهوراً أنا لست معروفاً جيداً من قبله، يتحيز ضدي بتحريف خطي العام والسخرية من مكانتي في إنكلترا. (الكاتب لا يحكم عليه من خلال مكانته وإنما من خلال أعماله) ذلك يتساوى مع دعاية "السلام" التي تتجنب ذكر غزو هتلر لروسيا، وهي ليس ما أعنيه بالأمانة الفكرية. لأنني أنظر إلى وظيفة الإنتلجنسيا بجدية، لذلك أنا لا أحب الساخرين والمشهرين والعبارات الببغائية وحك الظهر المربح مالياً والمزدهر في العالم الأدبي الإنكليزي وربما في عالمكم أيضاً.

١٢ يوليو ١٩٤٢ لندن إنكلترا.
البارتيزان ريفيو- سبتمبر/ أكتوبر ١٩٤٢.

حالات التنبؤ بالفاشية

إن إعادة طبع رواية جاك لندن **العقب الحديدية** جلبت ضمن متناول العوام كتاباً كان مطلوباً كثيراً خلال سنوات العدوان الفاشي. كغيره من كتب جاك لندن، قُرأ الكتاب بشكل واسع في ألمانيا، وحظي بسمعة كبيرة بكونه تنبؤاً دقيقاً وصحيحاً بقدوم هتلر. في الحقيقة الكتاب ليس كذلك. إنه حكاية الاضطهاد الرأسمالي، وكُتب في زمن لم يكن التكهن فيه بالأشياء المتنوعة التي جعلت الفاشية ممكنة- مثل الانبعاث المروع للقومية- أمراً سهلاً.

لكن المكان الذي أظهر فيه جاك لندن بصيرة خاصة، كان في إدراكه أن الانتقال إلى الاشتراكية لن يحدث بشكل آلي أو حتى بشكل سهل. الطبقة الرأسمالية لن "تفنى بسبب تناقضاتها" مثل زهرة تموت في نهاية الموسم. الطبقة الرأسمالية ذكية بما يكفي لترى ما يحدث وتطمس خلافاتها الخاصة بها والهجمات المعاكسة ضد العمال، وتعرف أن الصراع الناتج سيكون الأكثر دموية والمجرد من المبادئ الأخلاقية الذي لم يعرفه العالم قط. من الجدير مقارنة **العقب الحديدية** مع رواية خيالية أخرى عن المستقبل، والتي كُتبت في وقت أسبق، والتي يدين بسببها بشيء ما إلى اتش جي ويلز **النائم يستيقظ**. بفعل هذا يستطيع المرء أن يرى كل من قصور جاك لندن وميزته أيضاً التي تمتع بها بكونه ليس مثل ويلز إنساناً متحضراً تماماً. كتاب العقب الحديدية أقل بشكل هائل. لقد كتب بطريقة خرقاء، ويظهر أي فهم للاحتمالات العلمية، والبطل نوع من الحاكي البشري الذي يختفي الآن حتى من الكراريس الاشتراكية. لكن بسبب عرقه الخاص به في الهمجية، استطاع لندن أن يفهم ما لم يستطع ويلز فهمه، وذلك الذي لا تطيقه المجتمعات المتعبة.

كل من قرأ **النائم يستيقظ** يتذكرها. إنها رؤية لعالم مبهرج فاسد مشؤوم تقسى فيه المجتمع وتحول إلى نظام طبقة، والعمال أرقاء وعبيد بشكل دائم. إنه أيضاً عالم من دون هدف، فيه الطبقات العليا التي يكدح من أجلها العمال غدارة وكلبية ورقيقة تماماً. ليس هناك وعي لأي هدف في الحياة، ولا شيء فيه مماثل لحماس الثوري أو الشهيد الديني.

في عالم جديد شجاع لهاكسلي، نوع من محاكاة ساخرة للمدينة الفاضلة الويلزية. وهذه النزعات تكون مضخمة بشكل هائل. هنا يُدفع المبدأ المتعي إلى أقصاه، والعالم كله تحول إلى واحد من فنادق الريفيرا. رغم أن عالم جديد شجاع كاريكاتير ساخر رائع للحاضر (حاضر عام ١٩٣٠) فربما يلقي الضوء على المستقبل. إن مجتمعاً من هذا النوع، لن يدوم أكثر من جيلين اثنين، لأن الطبقة الحاكمة التي تفكر بالدرجة الأولى بلغة "الوقت الممتع"، ستفقد حيويتها سريعاً. يجب أن تمتلك الطبقة الحاكمة منظومة أخلاقية صارمة وإيماناً شبه ديني بنفسها وجاذبية أيضاً. كان جاك لندن مدركاً، ورغم أنه وصف طبقة البلوتوقراطيين الذين ظلوا يحكمون العالم لسبعة قرون بالمسوخ غير البشرية، إلا أنه لم يصفهم بالكسالى العاطلين أو المنغمسين بالشهوات. كانوا يستطيعون الحفاظ على منصبهم، فقط لأنهم يؤمنون بصدق أن الحضارة تعتمد عليهم. ولذلك وبطريقة مختلفة هم شجعان وقادرون ومخلصون، مثل الثوار الذين يعارضونهم.

قبل جاك لندن بالاستنتاجات الماركسية بطريقة ثقافية، وتخيل أن "التناقضات" الرأسمالية وفائض القيمة الزائدة غير المستهلك وهلم جرا، سوف تستمر حتى بعد أن ينظم الرأسماليون أنفسهم في كيان مشترك واحد، لكنه مزاجياً كان مختلفاً جداً عن أغلبية الماركسيين. بحبه للعنف وقوته البدنية وإيمانه بـ"الأرستقراطية الطبيعية" وعبادته للحيوانية وتمجيده للبدائي، كان لديه في داخله ما يمكن تسميته بنزعة فاشية، وهذا ساعده على الأرجح أن يفهم كيف ستتصرف الطبقة المالكة حين تُهدد بشكل جدي.

هنا تماماً حيث يفشل فيه الاشتراكيون الماركسيون عادة. كان تفسيرهم للتاريخ ميكانيكياً، لذلك فشلوا في التنبؤ بأخطار كانت واضحة لأناس لم يسمعوا أبداً بماركس. يُثار أحياناً ضد ماركس أنه فشل في التنبؤ بظهور الفاشية. أنا لا أعرف إن تنبأ بها أم لا- في ذلك التاريخ كان يستطيع أن يقوم بهذا بشروط عامة جداً فقط، لكن من المؤكد على أي حال أن أتباعه فشلوا بأن يروا أي خطر في الفاشية، حتى كانوا أنفسهم على بوابة معسكرات الاعتقال. سنة أو سنتان بعد صعود هتلر إلى السلطة، كانت الماركسية الرسمية مازالت تصرح بأن هتلر ليس له أهمية، وأن "الفاشية الاجتماعية" (أي الديمقراطية) كانت العدو الحقيقي. لم يكن جاك لندن يرتكب هذا الخطأ على الأرجح، وكانت غرائزه ستحذره بأن هتلر كان خطيراً، وعرف أن

القوانين الاقتصادية لا تعمل بنفس الطريقة التي يعمل بها قانون الجاذبية، وأنها يمكن أن تعاق لفترات طويلة بأشخاص مثل هتلر، يؤمنون بقدرهم الخاص بهم.

العقب الحديدية و**النائم يستيقظ** كلاهما كُتبا من وجهة نظر شعبية. **عالم جديد شجاع**، رغم أنها أساساً هجوم على المتعية، فهي أيضاً ضمناً هجوم على الديكتاتورية والشمولية والطبقة الحاكمة. من المشوق أن نقارن بينها وبين يوتوبيا أقل شهرة تعامل الصراع الطبقي من وجهة نظر الطبقة العليا أو بالأحرى الطبقة الوسطى، هي **العصبة السرية** لإرنست براماه.

كُتبت **العصبة السرية** في عام ١٩٠٧ حين بدأ نمو الحركة العمالية يخيف ويرعب الطبقة الوسطى، التي تخيلت بشكل خاطئ أنها مهددة من الأسفل وليس من الأعلى. كتنبؤ سياسي، هي تافهة، لكنها ذات أهمية عظيمة، بسبب الضوء الذي تلقيه على عقلية الطبقة الوسطى المصارعة.

يتخيل المؤلف حركة عمالية تستلم السلطة مع غالبية ضخمة، لدرجة من المستحيل إزاحتها. لكن العمال لا يُدخلون اقتصاداً اشتراكياً كاملاً، وإنما يستمرون فقط بإدارة وتشغيل الرأسمالية لمنفعتهم الخاصة، برفع مستمر للأجور، وخلق جيش هائل من البيروقراطيين، وتنقل الطبقات العليا إلى خارج الوجود. لذلك "تتلف" البلاد بالطريقة المألوفة، إضافة إلى ذلك تتصرف حكومة العمال في سياستها الخارجية مثل الحكومة الوطنية بين عامي ١٩٣١ و١٩٣٩. تثور ضد هذا مؤامرة سرية تقوم بها الطبقات الوسطى والعليا، وكانت طريقة ثورتهم حاذقة جداً، بشرط أن ينظر المرء إلى الرأسمالية كشيء داخلي: إنه أسلوب من إضراب المستهلكين. خلال فترة سنتين يخزن المتآمرون من الطبقة العليا زيت الوقود، ويحولون المعامل التي تحرق الفحم إلى معامل تحرق الزيت، ثم فجأة تقاطع الصناعة الرئيسية في بريطانيا، وهي صناعة الفحم، لذلك يواجه أصحاب المناجم وضعاً لا يستطيعون فيه بيع الفحم لسنتين، فتكون هناك بطالة واسعة وعوز ينتهي بحرب أهلية فيها (ثلاثون سنة قبل الجنرال فرانكو!) تتلقى فيها الطبقات العليا مساعدة أجنبية. وبعد انتصارها تلغي النقابات العمالية، وتؤسس نظام حكم غير برلماني قوي - بعبارة أخرى نظام حكم يجب أن نصفه الآن بالفاشي. نغمة الكتاب لطيفة بقدر ما استطاعت أن تكون في ذلك التاريخ، لكن النزعة الفكرية جلية.

لماذا يجد كاتب محترم ولطيف مثل إرنست براماه سحق البروليتاريا عبارة عن رؤية ممتعة ومسرة؟ ببساطة إنه رد الفعل الطبقة المصارعة التي تشعر نفسها مهددة في مركزها الاقتصادي بالقوة والشدة التي تهدد نظام إدارتها وأسلوب عيشها. يرى المرء نفس العداء الاجتماعي الصرف للطبقة العاملة عند كاتب أسبق، ومن وزن أكبر بكثير، هو جورج غيسينغ. لقد علم كل من الزمن وهتلر الطبقات الوسطى الكثير، وربما لن تتحالف مرة أخرى مع مضطهديها ضد حلفائها الطبيعيين، لكن أن تفعل أو لا، فذلك يعتمد جزئياً على الكيفية التي تُعامل بها. كما لغباء الدعاية الاشتراكية مع تغريرها الدائم بـ"البرجوازية الصغيرة" الكثير للإجابة على ذلك.

التريبيون ١٢ يوليو/تموز ١٩٤٠.

مراجعة نقدية لجاري متسول
بقلم ليونيل فيلدن

لو قارنت الإعلانات التجارية مع الدعاية سياسية، فإن الشيء الوحيد الذي سيلفت انتباهك هو الاستقامة الفكرية النسبي. يعرف مروج الإعلان إلى ما يسعى إليه على الأقل – أي النقود؛ بينما المروج الدعائي عصابي، إن لم يكن صحفياً مأجوراً لا روح فيه، فيعمل بدافع حقد شخصي وتوق فعلي إلى نقيض الشيء الذي يدافع عنه تماماً. الهدف المزعوم والظاهر من كتاب السيد فيلدن، هو تقديم قضية استقلال الهند. عمله يفشل في تلك النتيجة، ولا أرى سبباً كبيراً للظن أنه يرغب في أي شيء من هذا النوع، لأنه لو عمل أحد من أجل استقلال الهند بصدق، فما المرجح الذي سيفعله؟

من الواضح أنه سيبدأ بتحديد القوى المحتملة التي ستقف إلى جانبه، ثم بعد ذلك يفكر بدم بارد مثل أي مروج معاجين أسنان، بأفضل طريقة لجذب تلك القوى. هذه ليست مقاربة السيد فيلدن. تدرك عدداً من الدوافع في كتابه، لكن الواضح بشكل فوري هو الرغبة في افتعال صراعات مختلفة مع الحكومة الهندية وإذاعة الهند وأقسام من الصحافة البريطانية. في الواقع هو يحشد عدداً من الوقائع عن الهند، ثم قبيل النهاية يكتب صفحتين من الاقتراحات البناءة، لكن القسم الأعظم من كتابه مجرد تذمر وهجوم غير متصل بالموضوع على الحكم البريطاني، مخلوط بفورة سائح حماسية عن تفوق الحضارة الهندية. على الصفحة البيضاء في أول الكتاب، يحدث الجو الرفاقي الذي يهدف إليه كل المروجين الدعائيين، يوقع رسالته المغرضة "وسط البرابرة الأوروبيين"، ثم بعد بضع صفحات، يقدم هندي خيالي يشجب الحضارة الغربية بكل حدة عانساً في التاسعة والثلاثين من العمر تشجب جنس الذكور:

..... هندي فخور بتقاليده الخاصة ويعتبر الأوروبيين برابرة يحاربون باستمرار ويستخدمون القوة للسيطرة على الشعوب المسالمة، ويفكرون في المقام الأول بالمشاريع الكبيرة والويسكي والجسور، وشعب تطور حديثاً نسبياً، ويضعون مبالغ على أنابيب المياه والسمكرة، ونجحوا في نشر مرض السل والمرض التناسلي في كل أنحاء العالم...... هو يقول ذلك ليجلس في الماء الذي

اغتسلت فيه بدلاً من الاستحمام في مياه جارية. هو ليس نظيفاً، بل قذراً ومثيراً للاشمئزاز، وسيظهر وأنا أوافقه تماماً أن الإنكليز قذرون وأمة نتنة مقارنة بالهنود. ويجزم وأنا لست متأكداً أبداً أنه مخطئ بأن استخدام الشوك والملاعق والسكاكين نصف المغسولة من قبل أناس مختلفين من أجل الطعام، عمل بربري مقزز حين يقارن مع التلاعب الرائع بالطعام بواسطة أصابع الهنود. كما أنه واثق بأن الغرفة الهندية مع جدرانها العارية وسجادها الجميل، أفضل بشكل مطلق من الفوضى الأوروبية ذات المقاعد والطاولات غير المريحة. إلخ. إلخ. إلخ.

إن الكتاب كله مكتوب بهذه المسحة تقريباً. يتكرر التذمر نفسه، وتظهر ملاحظة هستيرية في كل بضع صفحات. وأينما تمكن من إقحام مقارنة يقحمها، وتكون النتيجة دائماً هي أن الشرق جيد والغرب سيء. الآن قبل التوقف للسؤال عن الخدمة التي يقدمها هذا النوع من التفكير إلى قضية الحرية في الهند، دعونا نجري تجربة تستحق التوقف عندها. دعوني أعيد كتابة هذا النص كما ينطق به رجل إنكليزي يتكلم فيه عن حضارته الخاصة به بصورة حادة كلهجة الهندي الذي يقدمه فيلدمان. من المهم أن نلاحظ أن ما يقوله ليس أكثر خداعاً أو غير ذي صلة مما اقتبسته آنفاً:

.. رجل إنكليزي فخور بشدة بتقاليده الخاصة به، ويعتبر الهنود سلالة مخنثة يومئون مثل السعادين وقساة مع النساء ويتحدثون باستمرار عن النقود؛ كشعب قبلوا أن مسؤوليتهم أن يحتقروا العلم الغربي، وبالتالي يتعفنون في الملاريا ودودة الأنغلستوما... سيقول إن الاغتسال في مياه جارية في المناخ الحار له فوائده، لكن في المناخ البارد يستحم كل الشرقيين، إما كما نغتسل أو مثل حال الكثير من القبائل الهندية التي تعيش في التلال -لا يستحمون أبداً؛ سوف يظهر وسأتفق معه تماماً أنه لا يوجد أوروبي غربي يستطيع المشي عبر القرى الهندية ولا يتمنى استئصال أعضائه التي تصدر رائحة مسبقاً، كما أنه سيجزم وأنا لست متأكدا أبداً بأنه مخطئ بأن الأكل بأصابعك الأربعة عادة بربرية، إذ إنه لا يمكن أن يتم بدون إصدار أصوات مثيرة للقرف، وأنه واثق ومتأكد من أن الغرفة الإنكليزية بمقاعدها المريحة ورفوفها الدافئة، أفضل بشكل مطلق من الداخل الهندي العاري؛ حيث مجرد الجلوس من دون مسند لظهرك يسبب لك فراغاً في العقل.. إلخ إلخ.

تبرز نقطتان هنا. أولاً ليس هناك إنكليزي يكتب مثل ذلك. لا شك أن هناك أناساً كثيرين يفكرون بمثل هذه الأفكار وحتى يتفوهون بها خلف الأدوار المغلقة، لكن لكي تجد أي شيء من النوع المطبوع، عليك أن تعود إلى عشر سنوات إلى الوراء. ثانياً إنه يستحق السؤال، ماذا سيكون تأثير هذا المقطع على الهنود الذين يأخذون الأمر بشكل جدي؟ سيشعرون بالإهانة وسيتضايقون. حسناً أليس من الممكن أن يكون لمقاطع كالمقطع الذي اقتبسته من السيد فيلدن تأثير مماثل على القارئ البريطاني؟ ليس هناك أحد يحب أن يسمع عاداته وتقاليده تهان. هذه ليس فكرة تافهة، لأن الكتب التي تكتب عن الهند لها أهمية خاصة الآن. ليس هناك حل سياسي في الأفق، لا يستطيع الهنود نيل حريتهم، والحكومة البريطانية لن تعطيها لهم، وكل الممكن فعله الآن هو دفع الرأي العام العالمي في هذه البلاد وأمريكا في الاتجاه الصحيح. لكن لن يتم ذلك بمجرد دعاية معادية للأوروبيين. رأيت قومياً هندياً مشهوراً منذ سنة بعد فشل مهمة الكريبس، يخطب في اجتماع صغير، يشرح أسباب رفض عرض كريبس. لقد كان فرصة ثمينة لوجود عدد من مراسلي الصحف الأمريكية الذين لو تناولوها باهتمام فسينقلون لأمريكا وصفاً متعاطفاً مع قضية حزب المؤتمر. لقد جاؤوا إلى هنا بعقول منفتحة. في أقل من عشر دقائق، حولهم الهندي إلى مؤيدين متحمسين للحكومة البريطانية، لأنه بدلاً من الالتزام بموضوعه انطلق بخطاب غاضب معادٍ للبريطانيين، ارتكز بوضوح على عقدة الحقد والدونية، وهذا ما لا يرتكبه مروج معجون الأسنان. لكن الآن يحاول مروج المعجون بيع المعجون، وليس ليدير ظهره للبليمب (الرجعي القومي) الذي طرده من عربة الدرجة الأولى قبل خمسة عشر عاماً.

لكن كتاب السيد فيلدن يثير قضايا أوسع من المشكلة السياسية الفورية، فهو يدعم الشرق ضد الغرب، على أساس أن الشرق متدين ومولع بالفن وغير مبالٍ بالتقدم، بينما الغرب مادي وعلمي وسوقي وعدواني. إن الجريمة البريطانية الكبرى أنها فرضت التصنيع على الهند (إن الجريمة البريطانية خلال الثلاثين سنة الأخيرة في الحقيقة أنها فرضت العكس) ينظر الغرب إلى العمل غاية بحد ذاته، وفي الوقت نفسه مهووس بمستوى عالٍ من المعيشة (من الجدير أن نلاحظ أن السيد فيلدن معادٍ للمجتمع ومعادٍ للروس ويحتقر الطبقة العاملة الإنكليزية) بينما لا تريد الهند سوى أن تعيش ببساطة الأسلاف في عالم يخلو من الآلة. يجب أن تكون الهند مستقلة، وفي الوقت

نفسه يجب أن تكون غير صناعية، كما اقترح في مواضع كثيرة أن تكون الهند محايدة في الحرب الحالية. بالإضافة إلى ذلك إن بطل السيد فيلدن هو غاندي الذي لم يقل شيئاً عن خلفيته المالية "لدي فكرة أن أسطورة غاندي يمكن أن تكون إلهاماً مشتعلاً للملايين في الشرق وربما لهؤلاء الذين في الغرب. لكن في الوقت الحالي الشرق هو من يوفر التربة المثمرة، لأن الشرق لم ينبطح أمام العجل الذهبي. وقد يكون للشرق الفرصة مرة أخرى، كي يظهر للبشرية أن السعادة الإنسانية لا تعتمد على ذلك الشكل الخاص من العبادة، وأن غزو المادية غزو حربي أيضاً". يظهر غاندي مرات كثيرة في الكتاب، ويلعب نفس دور "فرانك" في أدب البوشمان.

والآن، أنا لا أعرف إن كان غاندي سيكون أو لا يكون إلهاماً مضيئاً في السنوات القادمة. حين يفكر المرء في المخلوقات التي بجلتها البشرية، فإن هذا على وجه الخصوص لا يبدو غير محتمل. لكن القول بأن الهند "ينبغي" أن تكون مستقلة وغير صناعية ومحايدة في الحرب الحالية، عبارة عن سخافة. إن نسي المرء تفاصيل الصراع السياسي، ونظر إلى الحقائق الاستراتيجية، سيرى حقيقتين في صراع ظاهري: الأولى من غير المرجح للهند أن تكون مستقلة بالمعنى الذي فيه بريطانيا وألمانيا مستقلتين اليوم. الثانية: إن رغبة الهند في الاستقلال حقيقة واقعية، ولا يمكن الحديث عن إزالتها من الوجود.

في عالم تتواجد فيه السيادة الوطنية، لا تستطيع الهند أن تكون دولة مستقلة، لأنها غير قادرة على الدفاع عن نفسها. وكلما ظلت البقرة والنول اللذان يتخيلهما فيلدن أكثر، ظل هذا صحيح أكثر. إن ما يسمى استقلالاً الآن، يعني القدرة على تصنيع الطائرات بأعداد كبيرة. ليس هناك سوى خمس دول مستقلة بشكل حقيقي، وإذا استمرت التوجهات الحالية، فلن يبقى غير ثلاث. في النظرة البعيدة المدى، من الواضح أن للهند فرصة ضئيلة في عالم سياسة القوة، بينما في النظرة القريبة، من الواضح أن الخطوة الضرورية الأولى نحو حرية الهند هي انتصار التحالف. وإلى أن يتحقق هذا، سيظل استقلال الهند خطوة قصيرة وغير مؤكدة، لكن البدائل تؤدي إلى استمرار الخضوع. إن انهزمنا، سوف تستولي اليابان أو ألمانيا على الهند، وتنتهي الحكاية. إن تكون هناك تسوية سلمية (يبدو فيلدن يلمح إلى أنها مرغوبة أحياناً) فلن تكون فرص الهند أفضل، لأننا في هذه الظروف سنتمسك بأي أراضٍ استحوذنا عليها أو لم نخسرها. التسوية السلمية تكون دائماً سلاماً "تمسك بما تستطيع".

يقدم السيد فيلدن هنديه الخيالي، ليقترح أن اليابان ستترك الهند بحالها إن كانت حيادية؛ أشك إن قال أي قومي هندي شيئاً غبياً كهذا. الفكرة الأخرى الأكثر شعبية في دوائر اليسار، بأن الهند تستطيع الدفاع عن نفسها لوحدها أفضل مما لو ساعدناها، هي فكرة سخيفة. لو أن الهنود متطورين عسكرياً لطردونا منذ زمن بعيد. الإكثار من اقتباس الأنموذج الصيني مضلل جداً هنا. إن غزو الهند والانتصار عليها، أسهل بكثير من الصين، وذلك بسبب مواصلاتها الأفضل على الأقل. على أي حال، إن المقاومة الصينية تعتمد على مساعدة الدول الصناعية المتطورة، وكانت ستنهار لولاها. يجب أن نستنتج من هذا أن قدر الهند ومصيرها مرتبط بمصير بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية في السنوات القليلة المقبلة، وقد يختلف الأمر إن استطاع الروس إطلاق يدهم بحرية في الغرب، أو أصبحت الصين قوة عسكرية عظمى، لكن هذا يستلزم هزيمة تامة لدول المحور، ويشير بعيداً عن الحيادية التي يظنها السيد فيلدن جذابة. إن الفكرة التي اقترحها غاندي نفسه بأنه لو وصلت اليابان فيمكن التعامل معهم بالتخريب و"عدم التعاون"، هي مجرد وهم، ولم يظهر غاندي أي علامات قوية في الإيمان بها. تلك الطرق لن تربك البريطانيين جداً، ولن تترك أي بصمة على اليابانيين. أخيراً ورغم كل شيء، أين غاندي الكوري؟

لكن ضد هذا تكمن حقيقة القومية الهندية، التي لن يتم التخلص منها بواسطة هراء وثائق البرلمان التي ترسم سياسة الحكومة أو ببضع عبارات من ماركس. وهي قومية من النوع العاطفي والرومانسي وحتى الشوفيني. عبارات مثل "تراب وطننا المقدس" التي تبدو مضحكة في بريطانيا، تأتي للهندي بشكل طبيعي. حين كان اليابانيون على وشك غزو الهند، استخدم نهرو هذه العبارة "من يموت لو تحيا الهند؟" وهكذا أكمل الدولاب دورة تامة والهنود يتمردون-يقتبس كيبلينغ. والوطنية في هذا المستوى تعمل لصالح الفاشية بشكل مباشر. قلة قليلة من الهنود لم تجذبهم فكرة أن تكون الهند حرة. حتى هؤلاء الذين يقدمون الكلام فقط للإقطاعيين، يريدون عادة اتحاداً مشرقياً، وفكروا في التحالف ضد الغرب. ليس لفكرة الصراع الطبقي سوى جاذبية قليلة في أي مكان في آسيا، ولا تثير كل من روسيا والصين الكثير من الولاء للهند. لا يرى سوى حفنة من الهنود فقط أن سيطرة النازية على أوروبا تؤثر على مصيرهم بأي شكل. في البلدان الآسيوية الأصغر، كان قوميو "بلادي محقة أو مخطئة" بالضبط من ذهب إلى اليابانيين - خطوة لم تكن كلها بسبب الجهل ربما.

لكن تبرز هنا نقطة لم يتطرق إليها السيد فيلدن وهي: نحن لا نعرف إلى أي حد تكون الوطنية الهندية نتاج اضطهادنا نحن. كل الأمم الشرقية باستثناء اليابان كانت في حالة خضوع تقريباً وهستريا (هرع) وقصر نظر، وربما كانت الحركات القومية نتيجة ذلك. ربما يكون الإدراك بأن السيادة الوطنية عدوة للحرية الوطنية، أسهل بكثير حين لا يحكمك أجانب.

ليس مؤكداً أن الأمر هكذا، بما أن أشد القوميين في الأمم المشرقية هي اليابان، وهي الوحيدة التي لم تخضع وتهزم أبداً، لكن يمكن القول على الأقل إن لم يكن الحل بمحاذاة هذه الخطوط، فلن يكن هناك حل. إما أن تستسلم سياسة القوة إلى الاحتشام الشائع، أو على العالم أن يسقط بشكل لولبي في كابوس استطعنا أن نرى لمحات عاتمة منه. والخطوة الضرورية الأولى قبل أن نستطيع التحدث عن اتحاد عالمي معقول وموثوق، هي أن تترجل بريطانيا وتنزل عن ظهر الهند. هذا هو العمل الرئيسي المحتشم الممكن في هذه اللحظة. ستكون الإجراءات التمهيدية الفورية: إلغاء منصب نائب الملك ووزارة الهند وإطلاق سراح سجناء حزب المؤتمر والتصريح باستقلال الهند رسمياً، أما البقية فهي مجرد تفاصيل. (ستكون النتيجة المباشرة طبعاً حلفاً عسكرياً أثناء فترة الحرب، ومن غير المحتمل أن تكون هناك أي صعوبة في ضمان هذا. قلة قليلة جداً من الهنود المتطرفين تريد أن تحكمهم اليابان أو ألمانيا. [ملاحظة المؤلف]).

لكن كيف يمكننا أن نجعل شيئاً كهذا يحدث؟ لو حدث في هذا الوقت، فلا يمكن أن يكون إلا عملاً طوعياً. إن استقلال الهند ليس له رصيد باستثناء الرأي العام في بريطانيا وأميركا، وهو مجرد رصيد كامن. اليابان وألمانيا والحكومة البريطانية كلها في جانب، وأصدقاء الهند المحتملون الصين والاتحاد السوفييتي يقاتلان من أجل حياتيهما، ولا يملكان سوى قوة مساومة قليلة. يبقى الشعبان البريطاني والأمريكي اللذان في موقع يمكنهما فيه أن يضغطا على حكومتيهما، إذا رأيا مبرراً لفعل هذا. في زمن مهمة كريبس مثلاً، كان سهلاً جداً على الرأي العام في هذه البلاد أن يجبر الحكومة على تقديم عرض مناسب، وقد تتكرر فرص مماثلة. بالمناسبة، يبذل السيد فيلدين أقصى جهده ليلقي الشكوك على استقامة كريبس الشخصية، ويترك الأمر يبدو أن لجنة المؤتمر الفاعلة كانت بالإجماع ضد قبول مقترحات كريبس. ولكن الوضع لم يكن كذلك. في الواقع انتزع كريبس أفضل الشروط التي استطاع الحصول عليها من الحكومة، ولكي يحصل على أفضل منها، كان عليه أن يحشد الرأي العام

بشكل فاعل وذكي خلفه. لذلك كانت المهمة الأولى -إقناع الناس العادين في هذه البلاد. جعلهم يرون أن الهند مهمة، وأن الهند عوملت بشكل مخزٍ وتستحق التعويض. لكنك لن تفعل ذلك بتحقيرهم. الهنود ككل يدركون هذا أفضل من المدافعين عنهم، أي الإنكليز. أخيراً ما هو التأثير المرجو من كتاب يسيء إلى كل مؤسسة إنكليزية ويبتهج بـ "حكمة الشرق" مثل معلم مدرسة أمريكية قديم في جولة إرشادية، ويخلط حججاً من أجل حرية الهند وحججاً من أجل الاستسلام لهتلر؟ في أفضل أحواله، لن يهدي إلا المهتدين وربما يرتد بضع من هؤلاء. إن التأثير الخالص يجب أن يكون تقوية الإمبريالية البريطانية، رغم أن دوافعه ربما أكثر تعقيداً مما قد يتضمنه هذا.

إن كتاب السيد فيلدين في ظاهره دعوة إلى "الروحانية" في مواجهة "المادية"، فهو من جهة تبجيل وتقديس لكل ما هو شرقي، ومن جهة أخرى كره للغرب عموماً ولبريطانيا خصوصاً، وكره للآلة وتشكيك بروسيا وازدراء لمفهوم الطبقة العاملة الاشتراكية. يضاف الكل إلى فوضوية الردهات -دعوة إلى الحياة البسيطة مؤسسة على إيرادات الأسهم. رفض الآلة مؤسس دائماً على قبول ضمني بالآلة، حقيقة يرمز إليها غاندي حين يلعب بنوله في دار أحد مليونيري القطن. لكن غاندي يدخل في الصورة بطريقة أخرى. من اللافت أن غاندي والسيد فيلدين لهما موقف ملتبس جداً نحو الحرب الحالية. رغم سمعته المتباينة بكونه سلمياً "صرفاً" وعميلاً يابانياً، ففي الحقيقة أدلى بتصريحات متضاربة كثيرة جداً عن الحرب لدرجة يصعب تتبعها. في لحظة يكون "تأييده الأخلاقي" للحلفاء، وفي لحظة أخرى يسحبه، وفي لحظة يعتقد أن الأفضل التصالح مع اليابانيين، وفي أخرى يرغب في مقاومتهم بوسائل غير عنيفة-على حساب، كما تعتقد ملايين كثيرة من الأرواح- وفي لحظة أخرى يحث بريطانيا على أن تشن حرباً في الغرب وتترك الهند تُغزى، وفي أخرى "ليس لديه رغبة للضرر بقضية الحلفاء، ويصرح بأنه لا يريد من قوات الحلفاء أن تغادر الهند. آراء السيد فيلدن أقل تعقيداً، لكن تساويها في الغموض. لم يصرح في أي مكان إن كان يتمنى أن يهزم المحور أم لا. هو يلح مراراً أن انتصار الحلفاء لن يؤدي إلى نتيجة جيدة، وفي الوقت نفسه يتنصل من "الانهزامية" حتى إنه يلح بأن حياد الهند سيكون مفيداً لنا بالمعنى العسكري، بمعنى أننا نستطيع أن نقاتل بشكل أفضل حين لا تكون الهند عهدة ومسؤولية. هذا يعني أنه يريد تسوية أو سلاماً

تفاوضياً، لكنه يفشل في قول هذا. ولا أشك أن هذا هو ما يريده. لكن الغريب جداً هو الحل الإمبريالي. لا يريد المهدئون دائماً لا الهزيمة ولا النصر الحاسم، وإنما يريدون تسوية مع القوى الإمبريالية الأخرى، ويعرفون دائماً كيف يستغلون غباء الحرب كذريعة.

كان أغلب الإمبرياليين الأذكياء يفضلون تسوية مع الفاشيين في السنين الماضية، حتى لو تنازلوا عن شيء كثير لتحقيق ذلك، لأنهم رأوا أن هذا هو الطريق الوحيد لإنقاذ الإمبريالية. ولا يخشى بعضهم من التلميح الكبير بهذا حتى الآن. ولو دفعنا الحرب إلى نهاية مهلكة، إما تضيع الإمبراطورية البريطانية أو تصبح ديمقراطية أو ترهن لأميركا، لكنها من جانب آخر يمكنها أن تنجو وتبقى في شيء مثل شكلها الحالي إن كانت هناك قوى إمبريالية متخمة لها مصلحة في الحفاظ على النظام العالمي. لو توصلنا إلى تفاهم مع ألمانيا واليابان، قد نقلل ممتلكاتنا وحيازاتنا (حتى ذلك غير مؤكد: لم يهتم بحقيقة أن بريطانيا وأميركا قد كسبتا أكثر مما خسرتا من الأراضي التابعة لهما في هذه الحرب) لكن يمكننا أن نعزز ونثبت ما نملكه مسبقاً. سينقسم العالم إلى ثلاث أو أربع قوى إمبريالية كبرى، ليس لديها أي دافع للتنازع في الوقت الحالي. ستكون ألمانيا موجودة لتحييد روسيا، وستكون اليابان موجودة لتمنع الصين من التطور. بفضل هذا النظام العالمي، ستظل الهند خاضعة إلى الأبد. والأكثر من هذا، يشك أن تجري تسوية سلمية بغير هذا الشكل. لهذا سيبدو أن فوضوية الردهات ليست شيئاً حميداً أخيراً. موضوعياً، إنها تطالب فقط بأسوأ ما يريده المهدئون، موضوعياً هي نوع لإثارة سخط الأصدقاء المحتملين للهند في هذه البلاد. ألا يحمل هذا شبهاً بسيرة غاندي الذي أبعد الجمهور البريطاني بتطرفه وساعد الحكومة البريطانية باعتداله؟ الاستحالة والرجعية دائماً في حلف عادة، لكنه حلف ليس متعمداً طبعاً.

إن النفاق شيء نادر جداً، والنذالة الحقيقية ربما صعبة كالفضيلة. نحن نعيش في عالم تتغير فيه النقائض باستمرار مع بعضها البعض، عالم يجد فيه السلميون أنفسهم يبجلون هتلر، ويصبح الاشتراكيون قوميين، ويكون الوطنيون خونة وبائعي أوطان، ويصلي البوذيون من أجل نجاح الجيش الياباني، ويأخذ سوق الأسهم دورة في الصعود حين تكون المرحلة الروسية عدوانية. إن دوافع الناس تكون واضحة جداً حين تُرى من الخارج، لكنها لا تكون واضحة لأنفسهم. المشاهد التي تخيلها الماركسيون التي فيها يجلس الرجال الأغنياء الشريرون في غرف

سرية ويدبرون المكائد لسرقة العمال، لم تحدث في الحياة الحقيقية. السرقة تحدث، لكن مرتكبيها هم المسرنمون. الآن واحد من أجمل الأسلحة التي يطورها الأغنياء ضد الفقراء دائماً هي "الروحانية" إن استطعت إقناع الرجل العامل بأن يصدق أن رغبته الحقيقية في مستوى حياتي محترم هي "المادية"، فإنك تهزمه أينما تريد. ولو استطعت أيضاً إقناع الهندي بأن يبقى "روحانياً" بدلاً من الانضمام إلى أشياء سوقية مثل نقابات العمال، فيمكنك أن تضمن أنه سيبقى حمالاً (كولياً) دائماً. إن السيد فيلدين ناقم من "مادية" الطبقة العاملة الغربية التي يتهمها بأنها أسوأ من الأغنياء في هذا الصدد، فهي لا تريد الراديوهات فقط، وإنما السيارات ومعاطف الفراء أيضاً. الرد الواضح أن هذه الآراء المغرقة بالعاطفية، لا تأتي صادقة من شخص في موقع مريح ويحظى بامتيازات. لكن ذلك مجرد رد وليس تشخيصاً، لأن مشكلة الطبقة المثقفة الساخطة، لن تكون مشكلة أبداً إن اشتملت على عدم الأمانة والتضليل العادي.

في السنوات العشرين الأخيرة أعطت الحضارة الغربية المثقف الأمان من دون مسؤولية. وفي إنكلترا خصوصاً علمته وثقفته بمذهب الشكوكية، وأرسته بشكل ثابت لا يتحرك في الطبقة ذات الامتيازات، وكان في موقع شاب يعيش على هبة وحصة من أب يكرهه. النتيجة، هي شعور عميق بالذنب والامتعاض غير متحد برغبة صادقة في الفرار. لكن يجب أن يكون هناك فرار نفسي ما وشكل ما من تبرير الذات، والقومية المحولة أو المنقولة هي واحدة من أكثر أشكال الفرار، والتبرير إرضاء. ففي أثناء ثلاثينات القرن العشرين كان التحول العادي إلى روسيا السوفيتية، لكن هناك بدائل أخرى، ومن اللافت أن السلمية والفوضوية قبل الستالينية تنتشران بين الشباب الآن، فهذه العقائد تملك ميزة بأنها تهدف إلى المستحيل، ولذلك تطالب بالقليل جداً في الواقع. لو أضفت لمسة من التصوف الشرقي والنشوة البوشمانية على غاندي، ستمتلك أي شيء يحتاجه المثقف الساخط، ويمكن الاستمتاع بحياة الجنتلمان الإنكليزي والمواقف الأخلاقية للقديس في الوقت نفسه. بمجرد تحويل ولائك من إنكلترا إلى الهند (كانت العادة روسيا سابقاً)، تستطيع أن تنغمس حتى الامتلاء في كل العواطف الشوفينية التي كان من المستحيل أنك عرفت وأدركت ماذا كانت وما هي عليه. باسم السلمية تستطيع أن تعقد تسوية مع هتلر، وباسم الروحانية تستطيع الحفاظ على مالك. ليس مصادفة أن هؤلاء الذين يرغبون في نهاية غير حاسمة للحرب، يميلون إلى تمجيد الشرق

كعدو للغرب. الحقائق الواقعية لا تهم كثيراً. حقيقة، إن أمم الشرق أظهرت نفسها بأنها تحب الحرب على الأقل ومتعطشة للدم كالأمم الغربية، وذلك بعيد جداً من نبذ النزعة الصناعية التي يتبناها الشرق بأسرع ما يستطيع- هذا غير ذي صلة بالموضوع، بما أن المطلوب هو الإيمان الخرافي بالشرق المسالم والمتدين والبطرياركي الذي سيُحرض ويثور ضد الغرب الجشع المادي. حالما ترفض النزعة الصناعية ومن ثم الاشتراكية، فأنت في المنطقة المحرمة؛ حيث يوحد النازيون والفاشيون قواهم. يوجد في الواقع نوع من حقيقة رؤيوية في رواية الراديو الألماني، بأن تعاليم هتلر وغاندي هما الشيء نفسه. يدرك المرء هذا حين يرى ميدلتون موراي يكيل المديح للغزو الياباني للصين، وحين يقترح جيرالد هيرد تأسيس النظام الطائفي الهندي في أوروبا في نفس الوقت الذي يتخلى فيه الهندوس أنفسهم عنه. سوف نسمع الكثير عن تفوق الحضارة الشرقية في السنين القليلة القادمة. في الوقت الحالي هذا كتاب ضار يمكن أن تصفق له الصحافة اليسارية، ويرحب به اليمين الأكثر ثقافة لأسباب مختلفة تماماً.

هورايزون أيلول/ سبتمبر ١٩٤٣
بارتيزان ريفيو شتاء ١٩٤٤.

دفاعاً عن الرواية

ليس هناك حاجة للإشارة في هذه اللحظة بأن مقام الرواية متدن جداً الآن، لذلك فإن كلمات "أنا لم أقرأ روايات" التي كانت تنطق منذ عشر سنين عموماً بإشارة من الاعتذار، باتت تنطق الآن بافتخار متعمد. صحيح أنه مازال هناك قلة من الروائيين المعاصرين أو شبه المعاصرين الذين تعتبر الفئة المثقفة قراءتهم جائزة؛ لكن المغزى أن الرواية العادية الجيدة -الرديئة تم تجاهلها عادة بينما كتب الشعر العادية الجيدة- الرديئة وكتب النقد لازالت تؤخذ على محمل الجد. هذا يعني لو أنك تكتب روايات، فأنت تنال جمهوراً ذكياً بشكل آلي أقل مما تنال لو اخترت شكلاً آخر. هناك سببان واضحان تماماً جعلا من المستحيل أن تكتب الرواية الجيدة. حتى الآن الرواية تتلف بشكل مرئي، وستتلف بشكل أسرع إن كان لدى أغلب الروائيين أي فكرة عن من يقرأ كتبهم. من السهل الجدال طبعاً (راجع مثلاً مقال بيلوك الحقود بشكل غير سوي) أن الرواية شكل خسيس من الفن، وأن مصيرها المحتوم غير مهم. أشك إن كان ذلك الرأي يستحق التفنيد حتى. على كل حال، أنا أعتبر من المسلم به أن الرواية تستحق الإنقاذ، ولكي تنقذها يجب أن تقنع الناس المثقفين أن يأخذوها بجدية. لذلك من الجدير أن نحلل واحداً من أسباب كثيرة -في رأيي. السبب الرئيس -هبوط هيبة الرواية.

المشكلة في الرواية هو صراخها من الوجود. اسأل أي شخص مفكر لماذا هو "لا يقرأ الرواية أبداً"، وستجد عادة في العمق أن السبب الهراء المثير للاشمئزاز الذي يكتبه النقاد الأدبيون الذين يعرفون بالكتاب. ليست هناك حاجة لإضافة الأمثلة. سأقدم عينة واحدة فقط في عدد الأسبوع الماضي من السنداي تايمز: "إن استطعت أن تقرأ هذا الكتاب ولم تصرخ بالبهجة، فإن روحك ميتة". ذاك أو مثيله يكتب الآن عن كل رواية تنشر، كما ترى من دراسة المقتطفات على الدعايات المعرفة بالكتب. لكل واحد يأخذ السنداي تايمز على محمل الجد، فإن الحياة يجب أن تكون صراعاً طويلاً للحاق والوصول. تقدم الروايات لك بمعدل خمس عشرة واحدة يومياً، وكل واحدة منها تحفة لا تنسى وضياعها يهدد روحك بالخطر. هذا

يصعب اختيار كتاب في المكتبة، وينبغي أن تشعر بالذنب حين تفشل في الصراخ بالبهجة. لكن في الواقع لا يُخدع أي مهتم بهذا النوع من الشيء. والخزي الذي سقطت فيه مراجعة الرواية امتد إلى الروايات نفسها. حين كل الروايات تقحم عليك مثل كلمات نابغة، فمن الطبيعي تماماً أن تفترض أنها كلها هراء. ضمن الفئة المثقفة الأدبية هذا الافتراض مسلم به الآن. أن تعترف بأنك تحب الروايات الآن، يعادل تقريباً الاعتراف بأنك تتوق إلى عصير جوز الهند البارد، أو تفضل روبرت بروك على جيرارد مانيلي هوبكينز.

هذا كله واضح. إن الذي أفكر فيه أقل وضوحاً، وهو الطريقة التي ظهر فيها الوضع الحالي. الوجه الأول منها أن انحدار الكتاب بسيط جداً وخداع كلبي. زد يكتب كتاباً، وواي ينشره، وإكس يراجعه في أسبوعية دبليو. إن كانت المراجعة النقدية رديئة، فإن واي سيزيل إعلانه وينقله إلى صحيفة أخرى، ولهذا على إكس أن يُسلم "تحفة لا تنسى" أو يُطرد من العمل. جوهرياً ذلك هو الوضع. ومراجعة الرواية النقدية سقطت إلى عمقه الحالي بشكل رئيسي لأن كل مراجع ناقد لديه ناشر أو ناشرون يضايقونه بالوكالة. لكن الشيء ليس فظاً جداً كما يبدو عليه، لأن الأطراف المتنوعة التي على علاقة بالاحتيال لا تعمل معاً بشكل مقصود، وهم دُفعوا في وظيفتهم الحالية بالقوة وضد إرادتهم.

بدايةً، ينبغي على المرء أن يفترض كما يتم غالباً (راجع مثلاً عمود متسكع الشواطئ كثير الوقوع) أن الروائي يستمتع وحتى أنه بطريقة ما مسؤول عن المراجعات النقدية التي ينالها. لا أحد يحب أن يقال له إنه كتب فتنة نابضة من الهيام ستدوم بعمر اللغة الإنكليزية، لكن طبعاً من المخيب للآمال ألا يقال لك ذلك، لأن الروائيين كلهم يقال لهم الشيء نفسه. وأن تشطب، يعني أن كتابك لن يباع. المراجعة النقدية المبتذلة في الحقيقة نوع من الضرورة التجارية، مثل الدعاية المعرفة عن الكتاب على الغلاف الورقي الخارجي، عبارة عن مجرد امتداد. لكن حتى المراجع النقدي المبتذل لا يلام على الهراء الذي يكتبه، ففي ظروفه الخاصة لا يستطيع أن يكتب غير ذلك. لأنه حتى لو لم تكن هناك مسألة رشوة مباشرة أو غير مباشرة، فلا يمكن أن يكون هناك نقد روائي جيد، طالما يفترض أن كل رواية تستحق مراجعة نقدية.

تنال الدوريات كومها الأسبوعي من الكتب، وترسل دزينة منها إلى المراجع النقدي المأجور إكس الذي له زوجة وعائلة وعليه أن يكسب هذا الجنيه، ولا حاجة لذكر النصف

كراون لكل مجلد يحصل عليه من بيع نسخ مراجعته. هناك سببان لماذا من المستحيل تماماً لإكس أن يقول الحقيقة عن الكتب التي يحصل عليها. أولاً، إن الفرص أن أحد عشر كتاباً من الاثني عشر ستفشل في إثارة أوهى شرارة من الاهتمام فيه. إنها ليست أكثر من الرديئة المألوفة، وهي مجرد كتب حيادية ميتة وبلا مغزى. لو لم يدفع له المال ليفعل هذا، فإنه لن يقرأ سطراً واحداً من أي كتاب منها. وفي كل حالة تقريباً ستكون المراجعة النقدية الصادقة الوحيدة التي يستطيع أن يكتبها: "هذا الكتاب لم يلهمني بأي فكرة". لكن هل هناك واحد يدفع لك المال إن كتبت ذلك النوع من الشيء؟ كلا بوضوح. كبداية لذلك، إكس في الوضع الخائن بأن عليه أن يصنع ثلاثمئة كلمة مثلاً عن كتاب لا يعني له أي شيء، ويفعلها عادة بإعطاء خلاصة مختصرة للحبكة (عرضياً يكشف السر للمؤلف بأنه لم يقرأ الكتاب) ويكتب بضع إطراءات قيمتها بسبب ريائها مثل ابتسامة العاهرة.

لكن هناك شراً أسوأ من هذا بكثير. لا يتوقع من إكس أن يقول ما هو موضوع الكتاب فقط، وإنما أن يعطي رأيه إن كان كتاباً جيداً أو رديئاً. بما أن إكس يستطيع أن يحمل قلماً، فهو على الأرجح ليس أحمق إلى الدرجة التي يتخيل فيها أن **الحورية المخلصة** هي أروع مأساة كتبت قط، وبالمثل إن روائييه المفضلين إن كان يكترث بالروايات قط، هم ستاندال أو ديكنز أو جين أوستن أو دي اتش لورانس أو دستويفسكي -أو شخص ما أفضل بشكل لا يقاس من الدفق العادي من الروائيين المعاصرين. لذلك يجب عليه أن يبدأ بتخفيض معاييره بشكل هائل. كما أشرت في مكان آخر، أن يطبق معيار لائق للدفق العادي من الروائيين مثل وزن برغوث على ميزان النابض المخصص للفيلة. على ميزان كهذا سيفشل البرغوث في التسجيل؛ يفترض أنك بدأت ببناء ميزان آخر يكشف حقيقة وجود براغيث كبيرة وأخرى صغيرة، وهذا تقريباً ما يفعله إكس. لا فائدة من القول الرتيب عن كتاب وراء آخر "هذا الكتاب تافه"، لأنه لن يدفع لك أحد مرة أخرى لقاء كتابة هذا الشيء. يجب على إكس أن يكتشف شيئاً ليس تافهاً وحسناً بشكل متكرر أو يطرد. هذا يعني تخفيض معاييره إلى عمق يكون فيه مثلاً **طريق نسر** للكاتب ايثل ام ديلل كتاباً جيداً تماماً. على سلم القيم يجعل **طريق نسر** كتاباً جيداً و**الحورية المخلصة** كتاباً ممتازاً و**رجل الملكية** - ماذا؟ حكاية خافقة من

الشغف وتحفة رائعة تحطم الروح وملحمة لا تنسى ستدوم بدوام اللغة الإنكليزية وهلم جرا. (وبالنسبة إلى أي كتاب جيد حقيقة، فإنه سيفجر ميزان الحرارة). بعد الافتراض أن كل الروايات جيدة، فإن المراجع النقدي يكون مدفوعاً إلى الأعلى دائماً على سلم من الصفات لا ذروة له. تستطيع رؤية مراجع وراء آخر سائرين بنفس الطريق، وخلال ستين من البدء بنوايا صادقة مقبولة من أي مقياس، يعلن بصرخات مجنونة أن ليلة قرمزية للآنسة برباره بيدورثي هي التحفة الأكثر روعة ونشاطاً وإثارة للعواطف والتي لا تنسى أبداً إلخ إلخ. ليس هناك أي مهرب منها بعد أن ترتكب الخطيئة الأولى بالتظاهر أن كتاباً رديئاً هو كتاب جيد. لكن المرء لا يستطيع أن يكتب المراجعات النقدية للروايات كوسيلة للعيش من دون ارتكاب هذه الخطيئة. والآن كل قارئ ذكي يبتعد عن القرف ويحتقر الروايات بسبب هذا النوع من الواجب الطنان. لهذا من الممكن أن تفلت رواية ذات قيمة حقيقية من الملاحظة، فقط لأنها مدحت بنفس الهراء. وهذه حقيقة غريبة.

اقترح أناس كثيرون أنه سيكون من الأصلح لو لم تُكتب مراجعات نقدية لأي رواية إطلاقاً، لكن الاقتراح عقيم ولن يحدث شيء من هذا النوع. ليس هناك صحيفة تستطيع التخلي عن إعلانات ناشريها، ولذلك يدرك الناشرون الأكثر ذكاءً أنهم سيكونون أسوأ إن ألغيت المراجعة النقدية المعرفة بالكتاب ولا يستطيعون وضع نهاية لها لنفس السبب الذي لا تستطيع الأمم فيه نزع الأسلحة -لأنه لا أحد يريد أن يكون الأول الذي يبدأ. ستستمر لوقت طويل مراجعات أغلفة الكتب، وسوف تزداد سوءاً، والعلاج الوحيد هو استنباط طريقة ما لتجاهل المراجعات وإهمالها، لكن هذا لا يمكن أن يحدث، إلا إذا كان هناك في مكان ما مراجعة نقدية محترمة للرواية تعمل عمل معيار ومقياس للمقارنة. هذا يعني الحاجة إلى مجلة دورية واحدة فقط (واحدة ستكفي في البداية) تجعل من مراجعة الرواية حقل تخصصها، وترفض أخذ أي ملاحظة من التفاهة، والتي يكون المراجعون النقديون فيها مراجعين وليسوا دمى تتكلم من بطونها وتقعقع بفكوكها حين يشد الناشر الخيط.

يمكن الرد على ذلك، بأن هناك مثل تلك الدوريات مسبقاً. هناك عدد من المجلات الرفيعة مثلاً تراجع فيها الرواية، وما يوجد منها ذكي وليس شهادة كاذبة. نعم، لكن النقطة أن الدوريات التي من ذلك النوع لم تجعل من مراجعة الرواية تخصصاً لها، وبالتأكيد لم تبتعد

وتنأى بنفسها عن النتاج القصصي الراهن. هذه الدوريات تنتمي إلى عالم الثقافة الرفيع، العالم الذي افترض فيه مسبقاً أن روايات كهذه محتقرة. لكن الرواية شكل فني محبوب، ومن العبث مقاربتها بافتراض معياري تدقيقي بأن الأدب لعبة حك الظهر (مخالب داخلة أو مخالب خارجة حسب الظروف) بين زمرة صغيرة جداً من رفيعي الثقافة. الروائي هو قصاص أولاً، والإنسان قد يكون قصاصاً جيداً جداً (راجع ترولوب أو تشارلز ريد أو السيد سومرست موم مثلاً) بدون أن تكون "مثقفاً" بالمعنى الضيق. سنوياً تنشر خمسة آلاف رواية، ورالف ستراوس يناشدك أن تقرأها كلها. الكرايتريون ربما تفضل أن تلاحظ وتكتب عن دزينة، لكن بين الدزينة والخمسة آلاف، ربما يكون هناك مئة أو مائتين أو حتى خمسمئة تملك قيمة حقيقية، يجب أن يركز عليها أي ناقد يهتم بالرواية.

لكن الضرورة الأولى هي طريقة ما للتصنيف؛ فهناك أعداد كبيرة جداً من الروايات ينبغي ألا يتم ذكرها أبداً (تخيل مثلاً الآثار البغيضة على النقد إن جرت مراجعة رزينة لكل سلسلة من **بيغز بيبر**!) لكن حتى الروايات التي تستحق الذكر تنتمي إلى تصنيفات مختلفة تماماً. **رافلز** كتاب جيد، وكذلك **جزيرة الدكتور مونرو** وكذلك **منزل بارم الريفي** وهكذا **مكبث**؛ لكنها جيدة بمستويات مختلفة جداً، وبالمثل إن أتى **الشتاء والمحبوب** و**الاشتراكي غير الاجتماعي** و**درع ساق السير لانسلوت** كلها كتب رديئة، لكن في مستويات مختلفة من "السوء". هذه هي الحقيقة التي جعل المراجع النقدي المأجور مهنته الخاصة أن يخفيها. ينبغي أن يكون من الممكن استنباط نظام صارم لتصنيف الروايات إلى أصناف، ألف وباء وجيم وهلم جرا، لكن إن امتدح المراجع النقدي كتاباً أم لعنه، ستعرف على الأقل مدى الجدية التي أخذه فيها. بالنسبة إلى المراجعين النقديين، يجب أن يكونوا أناساً يهتمون بفن الرواية (وذلك يعني ربما ألا يكونوا رفيعي الثقافة أو قليلي الثقافة أو متوسطي الثقافة، وإنما مرني الثقافة) أناس يهتمون بالتكنيك ويهتمون أكثر باكتشاف الموضوع الذي يدور حوله الكتاب. هناك الكثير من مثل هؤلاء الناس في الوجود؛ بعض من أسوأ المراجعين النقديين، رغم أنهم ماض نتمنى رجوعه، بدؤوا مثل ذلك، كما يمكنك أن ترى ذلك بالنظر إلى أعمالهم السابقة. عرضياً، سيكون شيئاً جيداً لو تمت مراجعات نقدية أكثر من قبل الهواة. إنسان

ما ليس كاتباً متمرساً لكنه قرأ كتاباً أثر عليه بعمق، وهو مستعد كي يخبرك عن موضوعه أكثر من محترف ضجر كفؤ. لهذا السبب، يكون المراجعون النقديون الأميركيون رغم كل غبائهم أفضل من نظرائهم الإنكليز؛ إنهم هواة أكثر، يعني جديين أكثر.

أعتقد أنه بهذه الطريقة التي أشرت إليها، يمكن استرجاع مقام وهيبة الرواية. الحاجة الأساسية صحيفة تواكب القصص الراهن، ولكن ترفض أن تهبط في مستوياتها. يجب أن تكون صحيفة خفية، لأن الناشرين لن يعلنوا فيها؛ ولكن من جهة أخرى بمجرد أن يكتشفوا وجود مديح ومديح حقيقي في مكان ما؛ سيكونون جاهزين لاقتباسه على دعاياتهم المعرفة بالكتاب. حتى لو كانت جريدة خفية جداً، ربما تسبب رفع مستوى مراجعة الرواية، لأن الهراء الذي في صحف الأحد يستمر لعدم وجود أي شيء يعاكسه. لكن حتى إذا استمر مراجعو الدعاية المعرفة بالكتاب كما في السابق بالضبط، فلن يهم ذلك طالما توجد هناك رواية محترمة أيضاً. لأنه كما وعد الرب بأنه سيدمر سودوم إن أمكن إيجاد عشرة رجال صالحين هناك، فكذلك لن تحتقر الرواية تماماً طالما كان معروفاً أن هناك حفنة من مراجعي الرواية النقديين في مكان ما أو آخر لم يصابوا بالجنون.

في الوقت الحالي، إن اهتممت بالروايات، والأكثر إن كنت تكتبها، فإن المنظر محزن في إفراطه. كلمة "رواية" تستدعي "التعريف بالكتاب" و"النابغة" و"رالف ستراوس" بشكل آلي، مثلما تستدعي كلمة "فرخة" "صلصلة الخبز" الناس الأذكياء يتحاشون الروايات بشكل غريزي تقريباً، وفي النتيجة ينهار الروائيون. أما المبتدئون الذين "لديهم ما يقولونه" فيحولون تفضيلهم إلى أي شكل آخر. الانحطاط الذي يجب أن يتلو واضحاً. انظر مثلاً إلى الراويات القصيرة التي تباع بأربع بنسات التي تراها مكومة على طاولة محل قرطاسية رخيص. هذه الأشياء هي الذرية المتفسخة للرواية التي تحمل نفس العلاقة إلى مانون ليسكوت وديفيد كوبرفيلد كعلاقة الكلب بالذئب. على الأرجح لن تختلف الرواية العادية كثيراً عن الرواية القصيرة الرخيصة التي تباع بأربع سنتات في الأمد القريب، وستظهر في ملازم ذات السبعة سنتات أو الستة من دون شك وسط تبجح أبواق الناشرين. أناس متباينون تنبؤوا بأن الرواية محكومة بالاختفاء في المستقبل القريب. أنا لا أعتقد أنها سوف تتلاشى لأسباب يستغرق عرضها زمناً طويلاً لكنها واضحة جداً. الاحتمال الأكبر إذا لم

تستطع العقول الأدبية الأفضل أن تغرى بالعودة إليها، أن تبقى حية بشكل ميكانيكي محتقر ومنحط بشكل يائس مثل شواهد القبور الحديثة أو عرض وجودي.

١-جيرارد غولد، في زمن مراجع نقدي مؤثر للرواية يعمل من أجل الأوبزيرفر

٢-رالف سيراوس، ١٨٨٢-١٩٥٠ مراجع قصصي رئيسي يعمل للسنداي تايمز من ١٨٨٢ حتى موته.

نشرت لأول مرة في نيو إنكليش ويكلي-١٢ تشرين الثاني/ نوفمبر و١٩ عام ١٩٣٦ المقالات المختارة، الصحافة ورسائل جورج أورويل. ١٩٦٨.

اعترافات مراجع كتب

في غرفة نوم باردة، لكنها خانقة متسخة بأعقاب السجائر وأكواب الشاي نصف الفارغة، جلس رجل يرتدي عباءة نوم مهترئة أكلها العث وراء طاولة مخلوعة الأوصال، وهو يحاول إيجاد مكان لآلة الطباعة وسط أكوام من الأوراق المغبرة التي تطوقها. لم يستطع رمي الأوراق والتخلص منها في سلة النفايات، لأنها ممتلئة وطافحة مسبقاً، بالإضافة إلى ذلك قد يكون هناك وسط الرسائل التي لم يردّ عليها والفواتير التي لم تدفع، شيك بجنيهين، هو شبه متأكد أنه نسي أن يصرفه في البنك. وهناك أيضاً رسائل عليها عناوين، يجب أن يدخلها في دفتر عناوينه. لقد ضيع دفتر عناوينه، وفكرة البحث عنه أو عن أي شيء في الحقيقة يمليه بدوافع انتحارية حادة.

هو في الخامسة والثلاثين من عمره، لكنه يبدو في الخمسين. أصلع ولديه أوردة دموية متوسعة، ويضع نظارة كان سيلبسها لو لم تكن ضائعة بشكل مزمن. حين تسير الأشياء بشكل عادي معه، فهو يعاني من سوء التغذية، وإن ابتسم له الحظ حديثاً، سيكون يعاني من آثار سكر. في الوقت الراهن، الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً. وبناء على جدوله، يفترض أنه باشر في العمل منذ ساعتين قبل الآن. لكن حتى لو كانت لديه أي محاولة جادة للمباشرة، فسيحبطه رنين الهاتف المستمر تقريباً، وصرخات الطفل الصغير، وقعقعة مثقب كهربائي في الشارع، وصوت أحذية دائنيه الثقيلة، وهم يصعدون الدرج ويهبطونه. أحدث مقاطعة لعمله، كان وصول البريد الثاني وفيه دوريتان، وطلب دفع ضريبة طبعت بالخط الأحمر.

ليس هناك حاجة للقول إن هذا الشخص كاتب. قد يكون شاعراً أو روائياً أو كاتب نصوص سينمائية أو مقالات إذاعية، لأن كل رجال الأدب يتشابهون كثيراً، لكن دعنا نقل إنه مراجع كتب. هناك ظرف منتفخ شبه مخفي وسط الأوراق، يحتوي على خمسة مجلدات، أرسله إليه المحرر، مع ملاحظة يقترح فيها "ينبغي أن تبدو مسرة ومنسجمة". وصلت المجلدات منذ أربعة أيام، لكن شللاً أخلاقياً منع المراجع لمدة ثمان وأربعين ساعة من فتح المغلف. يوم أمس، وفي لحظة تصميم، مزق شريط المغلف، ووجد المجلدات الخمسة، وهي: فلسطين على مفرق

طرق، تاريخ موجز للديمقراطية الأوروبية (هذا لوحده ٦٨٠ صفحة ويزن أربعة أرطال)، العادات القبلية في شرق أفريقيا البرتغالية، ورواية بعنوان الأبهج هو الاستلقاء، ربما وضعت في المغلف بالخطأ. مراجعته -لنقل ٨٠٠ كلمة- يجب أن تذهب قبل منتصف يوم غد.

ثلاثة من هذه الكتب تعالج مواضيع يجهلها جداً، ويجب عليه أن يقرأ خمسين صفحة على الأقل، ليتجنب ارتكاب غلطة بلهاء تفشي سره، ليس للمؤلف فقط (الذي يعرف كل ما يتعلق بعادات مراجعي الكتب طبعاً) وإنما للقارئ العادي. بحدود الساعة الرابعة بعد الظهر، سيخرج الكتب من الأوراق التي لفت بها، لكنه ظل يعاني من عجز عصبي على فتحها. مشهد أن يقرأها وحتى رائحة الورق، أثرا عليه مثل مشهد أكل حلوى باردة من الأرز المطحون بزيت الخردل castor. كما أن اللافت أكثر أن نسخته يجب أن تصل إلى المكتب قبيل الوقت المحدد. لكن بطريقة أو أخرى، كانت تصل دائماً في الوقت المحدد. في الساعة التاسعة سيصفو ذهنه نسبياً، وحتى ساعات الليل الأخيرة سيظل جالساً في غرفة يزداد بردها وكثافة دخان السجائر فيها، وسيتخطى ويحذف كخبير في كتاب تلو آخر، ويضع في آخره تعليقاً يقول "يا الله، ما هذا الهراء!".

في الصباح، وبعينين دامعتين وذقن غير حليقة، يحملق في صفحة بيضاء فارغة من الورق لساعة أو اثنتين، إلى أن يخيفه مؤشر ساعة الجدار المتوعد ويجبره على العمل. عندئذ يبدأ النهش فيها. كل العبارات المبتذلة – "كتاب يجب ألا يفوت أحداً"، "شيء جدير أن يذكر في كل صفحة"، "الفصول التي تعالج كذا وكذا، ذات قدر خاص من القيمة"- ستقفز إلى مكانها مثل برادة الحديد التي تنصاع للمغناطيس. وتنتهي المراجعة وبالطول الصحيح تماماً، ويظل لديه من الوقت ثلاث دقائق إضافية.

في هذه الأثناء تصل بالبريد لفة كبيرة من الكتب غير المتجانسة والمنفرة للشهية. وهكذا تسير الأمور. ومع ذلك، بأي آمال بدأ هذا المخلوق المضطهد وذو الأعصاب المحطمة سيرته المهنية قبل بضع سنوات!

هل أبدو مبالغاً؟ أنا أسأل أي مراجع كتب دائم أو أي مراجع، يراجع مئة كتاب في السنة، إن كان ينكر وهو صادق، أن شخصيته وعاداته ليست كالتي وصفت. على أي حال، كل كاتب، هو ذلك النوع من الأشخاص إلى حد ما، لكن مراجعة الكتب المطولة والعشوائية

مهنة ناكرة للجميل ومثيرة للسخط ومضنية بشكل استثنائي تماماً. فهي لا تقتصر على كيل المديح للقهامة، لكنها تشمل -كما سأبين بعد لحظة- ابتكار ردود أفعال تجاه كتب ليس لدى أحد أي شعور عفوي أياً كان نوعه نحوها. مراجع الكتب، رغم تخمته، ربما مهتم بالكتب كمحترف. ومن الكتب الألف التي تظهر سنوياً، يحتمل أن يكون هناك خمسون أو مئة منها يستمتع في الكتابة عنها. وإن كان من أحد الكسبة الكبار ربما يضع يده على عشرة أو عشرين منها، ولكن على الأرجح سيضع يده على اثنين أو ثلاثة. بقية عمله، مهما كان منجزاً بما يمليه ضميره، عبارة عن دجل في جوهره. هو يهرق روحه الأبدية في مصرف للمياه، باينت واحد في المرة الواحدة.

أغلب المراجعين يقدمون وصفاً غير وافٍ ومضلل للكتاب الذي يعالجونه. منذ الحرب باتت مقدرة الناشرين على لي أذناب المحررين الأدبيين أقل، واستحضار أنشودة المديح لكل كتاب ينتجونه، لكن من جانب آخر هبطت المعايير بسبب نقص الفراغ المخصص والعوائق الأخرى. بسبب النتائج اقترح الناس أن الحل يكمن في الحصول على مراجعة الكتاب المأجورين. الكتب ذات المواضيع الاختصاصية، ينبغي أن يعالجها خبراء. ومن ناحية أخرى، فإن قسماً كبيراً من المراجعات وخصوصاً الروايات، يمكن أن ينجزها الهواة. تقريباً كل كتاب يمكن أن يثير شعوراً عاطفياً، حتى ولو كان كرهاً عاطفياً عند بعض القراء أو غيرهم، الذين لديهم بالتأكيد أفكار أكثر قيمة من تلك التي لدى الخبراء الضجرين. لكن لسوء الحظ، فكل محرر يعرف أن تنظيم ذلك النوع من الأشياء صعب جداً. عملياً يجد المحرر نفسه دائماً يرجع إلى فريقه من الكتاب المأجورين- النظاميين كما يسميهم.

أي واحدة من هذه قابلة للعلاج، طالما أن المسلم به أن كل كتاب ينشر يستحق مراجعة. من المستحيل تقريباً أن تذكر كتباً بالجملة من دون المبالغة الضخمة في مدح أكثرها. لا يكتشف المرء مدى رداءة أكثرها، حتى يصبح لديه نوع من العلاقة الاحترافية مع الكتب. سيكون النقد الصادق والموضوعي الوحيد لتسع حالات من أصل عشرة "إن هذا الكتاب لا قيمة له"، بينما سيكون رد فعل المراجع نفسه "هذا الكتاب لم يشوقني بأي حال من الأحوال، ولن أكتب عنه أي شيء، إلا إذا دفع لي المال لقاء ذلك". لكن العوام لن يدفعوا المال لقراءة هذا النوع من الشيء. لماذا يجب عليهم ذلك؟ هم يريدون نوعاً من دليل للكتب التي طلب

منهم قراءتها، ويريدون كذلك نوعاً من التقييم. لكن بمجرد ذكر القيم تنهار المعايير. فلو قال أحد- وكل مراجع كتب يقول هذا النوع من الشيء تقريباً مرة في الأسبوع الواحد على الأقل- إن الملك لير مسرحية جيدة، وإن الرجال الأربعة العادلون رواية جرائم مثيرة، أي معنى بقي هناك لكلمة "جيد"؟

التدبير الأفضل كما يتبدى لي دائماً- هو ببساطة تجاهل القسم الأعظم من الكتب وتقديم مراجعات طويلة -ألف كلمة كحد أدنى – للكتب التي تبدو جديرة. ملاحظات من سطر واحد أو اثنين عن كتاب وشيك الظهور قد يكون مفيداً، لكن المراجعة متوسطة الطول – ٦٠٠ كلمة فيمكن أن تكون بلا قيمة حتى لو أراد المراجع بصدق أن يكتبها. نظامياً هو لا يريد أن يكتبها. الإنتاج لمدة أسابيع متتالية للنتف، يقلله إلى الشكل المحطم في ثوب النوم الذي وصفته في بداية هذه المقالة. لكن لكل شخص في هذا العالم أحد آخر يستطيع ازدراءه. ويجب علي أن أقول، ومن خلال تجربتي في المهنتين، إن مراجع الكتب أفضل حالاً من الناقد السينمائي الذي لا يستطيع إنجاز عمله في البيت حتى، بل يجب عليه أن يحضر العرض التجاري في الساعة الحادية عشرة صباحاً مع استثناء بارز واحد أو اثنين، ومتوقع منه أن يبيع احترامه وشرفه مقابل كأس من الشيري الرديء.

أمام أنفك

أفادت تقارير حديثة كثيرة، أنه من المستحيل على الأغلب إن لم يكن تماماً لنا، أن نستخرج القدر الذي نحتاجه من الفحم للوطن ولأغراض التصدير، وذلك لاستحالة إغراء عدد كافٍ من عمال المناجم للبقاء في الحفر. قدرت إحصائية، رأيتها الأسبوع الماضي، الضياع السنوي في عمال المناجم بـ ٦٠ ألف عامل واستيعاب عمال جدد بـ ١٠ آلاف. وفي الوقت نفسه مع هذا – وأحياناً في العمود نفسه وفي الجريدة نفسها- تجد هناك تقارير تفيد بعدم وجود رغبة في استخدام البولونيين والألمان، لأن هذا قد يؤدي إلى بطالة في صناعة الفحم. لا تأتي الإفادتان من المصدر نفسه دائماً، لكن بالتأكيد هناك عدد كبير من الناس يقدرون على إبقاء هاتين الفكرتين المتناقضتين تماماً في رؤوسهم في لحظة واحدة. هذا مجرد مثال واحد عن عادة ذهنية منتشرة بشكل واسع. برنارد شو في المقدمة إلى أندروكوليس والأسد، يقتبس الفصل الأول من إنجيل ماثيو (متّى) الذي يبدأ بالبرهنة أن نسب عيسى ووالد عيسى ينحدر من إبراهيم كمثال. في الآية الأولى يوصف عيسى بـ "ابن داوود، ابن إبراهيم،" ثم تتبع السلالة في الآيات الخمسة عشرة التالية: ثم، في الآية التالية ولكن الوحيدة، يشرح أن عيسى لم ينحدر من إبراهيم كأمر بديهي، بما أنه لم يكن ابن يوسف. يقول شو إن هذا لا يمثل أي صعوبة بالنسبة إلى المؤمن الديني، ويذكر كحالة مماثلة من الاستهتار في الطرف الشرقي من لندن لأنصار تيكبورن كليمانت، الذي أعلن أن الرجل العامل البريطاني خدع وسلب من حقوقه. طبياً، أعتقد أن هذه الطريقة في التفكير تسمى شيزوفرينيا: وهي القدرة على اعتناق معتقدين اثنين كل منهما يلغي الآخر ويبطله في الوقت نفسه. وترتبط بها بقوة وتتحالف القدرة على تجاهل الوقائع الواضحة والراسخة التي يجب أن تواجه عاجلاً أو آجلاً. وهذه الرذائل تزدهر في تفكيرنا السياسي خاصة. دعني أقدم بضعة مواضيع من القبعة كنماذج. ليس بين بعضها البعض أي علاقة عضوية: وهي مجرد حالات أُخذت بشكل عشوائي من وقائع صريحة وجلية، تجنبها أناس يدركون أنها وقائع في قسم آخر من عقلهم.

هونغ كونغ:

منذ سنين كثيرة يدرك كل من لديه معرفة بأحوال الشرق الأقصى، أن وضعنا في هونغ كونغ يتعذر الدفاع عنه، وأننا يجب أن نخسرها بمجرد أن تبدأ حرب رئيسية. لكن هذه المعرفة كانت لا تحتمل. واستمرت الحكومات الواحدة تلو الأخرى في التشبث بهونغ كونغ بدلاً من إعادتها إلى الصين. وزجت بقوات جديدة فيها قبل بضعة أسابيع من بدء الهجوم الياباني، مع التأكد من أنهم سوف يؤسرون بلا أي فائدة. جاءت الحرب، وسقطت هونغ كونغ فوراً -كما كان يعرف كل واحد منذ البداية أنها ستسقط.

التجنيد الإجباري: قبل الحرب بسنوات كثيرة، كان كل الناس المتنورين تقريباً يفضلون التصدي لألمانيا ومواجهتها: وكانت أغلبيتهم أيضاً ضد امتلاك ما يكفي من العدة والعتاد العسكري كي يكون هذا الموقف مؤثراً وفعالاً. أنا أعرف جيداً الحجج التي وضعت مسبقاً دفاعاً عن هذا الموقف؛ بعضها مبرر لكن في أغلبها كانت أعذاراً جدلية تماماً. إلى وقت متأخر من عام ١٩٣٩، صوّت حزب العمال ضد التجنيد الإلزامي، خطوة ربما لعبت دورها الرئيسي في المعاهدة الروسية الألمانية، وبالتأكيد كانت لها نتيجة كارثية على الروح المعنوية في فرنسا. ثم أتى عام ١٩٤٠ بعد ذلك، وكدنا نفنى بسبب افتقارنا إلى جيش كبير كفؤ وفعال، جيش كان بإمكاننا أن نمتلكه، فقط لو أننا فرضنا التجنيد الإلزامي قبل ثلاث سنوات من ذلك.

معدل الولادات: قبل عشرين أو خمس وعشرين سنة، اعتبر منع الحمل والتنوير مترادفين تقريباً. إلى هذا اليوم، غالبية الناس يجادلون ويحاججون -الحجة يعبر عنها بشكل متعدد، لكنها تختصر إلى الشيء نفسه تقريباً دائماً- أن العائلات الكبيرة مستحيلة لأسباب اقتصادية. في الوقت نفسه، من المعروف على نطاق واسع أن معدل الولادات يكون في أعلى مستوياته في الأمم التي يتدنى فيها المستوى المعاشي، وفي مجتمعنا، فإن المستوى الأعلى للولادات يوجد بين الجماعات ذات الأجور الأسوأ. وقدمت حجج بأن السكان القليلي العدد يعني بطالة أقل وراحة أكثر، بينما في الجانب الآخر ثبت جيداً أن تناقص عدد السكان وهرمهم يواجه بمشاكل اقتصادية كارثية عصية على الحل. ليست الأرقام غير مؤكدة بالضرورة، لكن من المحتمل تماماً أن يزيد عدد السكان في سبعين سنة فقط ١١ مليون نسمة، أكثر من نصفهم سيكونون من المحالين إلى التقاعد بسبب العمر. بما أن أكثر الناس لا يريدون عائلات كبيرة

لأسباب مركبة، فيمكن أن تتواجد الوقائع المخيفة، المعروفة وغير المعروفة، في مكان أو آخر في وعيهم في الوقت نفسه.

منظمة الأمم المتحدة: لكي يكون لها أي فعالية من أي نوع، يجب أن تكون المنظمة العالمية قادرة على أن تهيمن على الدول الكبيرة إضافة إلى الدول الصغيرة. يجب أن يكون لها القدرة والسلطة على التفتيش على التسلح والحد منه، ما يعني أن يكون لموظفيها حق الوصول إلى كل بوصة مربعة في كل بلد من البلدان. ويجب أن يكون تحت تصرفها قوة مسلحة أكبر من أي قوة مسلحة أخرى، ولا تكون مسؤولة إلا أمام المنظمة نفسها. لا يبدو على الدولتين العظميين أو الثلاث، أن تظاهرت بالموافقة على أي واحد من هذه الشروط حتى، كما أنها نظمت دستور الأمم المتحدة كي لا يمكن حتى مناقشة تصرفاتها وأعمالها. بعبارة أخرى، فائدة منظمة الأمم المتحدة كوسيلة للسلام العالمي، هي صفر. هذا كان واضحاً قبل أن بدأت تؤدي وظيفتها كما هو الآن. مع ذلك، منذ بضعة شهور فقط، اعتقد الملايين من الناس المطلعين جيداً أنها سوف تكون عملية ناجحة. ليس هناك فائدة من مضاعفة عدد الأمثلة. الهدف أننا كلنا قادرون على أن نؤمن بأشياء نعرف أنها غير صحيحة وغير حقيقية. ومن ثم حين يثبت أنها خاطئة أخيراً، نحرف الوقائع بكل وقاحة، لنبين أننا كنا على صواب. عقلياً، من الممكن أن تستمر هذه العملية إلى وقت غير محدد: الفحص الوحيد لها أن الاعتقاد الزائف سوف يصطدم بالواقع الصلب عاجلاً أو آجلاً في ساحة قتال عادة.

حين ينظر المرء إلى الشيزوفرينيا السائدة والمسيطرة في المجتمعات الديمقراطية: الأكاذيب التي قيلت لأغراض انتخابية، والسكوت عن القضايا الرئيسية وأعمال التحريف التي تقوم بها الصحافة، يميل المرء إلى الاعتقاد بأن في البلدان الشمولية الاستبدادية دجل واحتيال أقل ومواجهة أكبر للوقائع. هناك على الأقل الجماعات الحاكمة لا تعتمد على التأييد الشعبي، وتستطيع التفوه بالحقيقة بشكل فج ووحشي. استطاع غورينغ أن يقول "البنادق قبل الزبدة" بينما أجبر خصومه الديمقراطيون أن يلفوا نفس الفكرة بمئات من كلمات النفاق والرياء.

لكن فعلياً، تجنب الواقع والحقيقة نفسه في كل مكان وله العقابيل نفسها تقريباً. لقد تعلم الشعب الروسي منذ سنين أنه أفضل من أي شعب آخر، وأظهرت الملصقاتُ الدعائيةُ العائلاتَ الروسيةَ تجلس أمام وجبات وافرة، بينما بروليتاريو البلدان الأخرى يموتون من

الجوع في البواليع. وفي ذلك الوقت كان العمال في البلدان الغربية أفضل من العمال الروس بكثير، لذلك فإن عدم التواصل بين المواطنين السوفييت والدخلاء، كان المبدأ المرشد للسياسة. بعد ذلك ونتيجة للحرب، نفذ ملايين الروس العاديون إلى داخل أوروبا، وحين يعادون إلى وطنهم، سوف يتم دفع ثمن تجاهل الحقيقة الجديدة في احتكاكات وخلافات من أنواع متعددة. لقد خسر الألمان واليابانيون الحرب إلى حد كبير، لأن حكامهم كانوا غير قادرين على رؤية الوقائع الحقيقية، التي كانت واضحة لكل عين نزيهة.

لكي ترى ماذا يوجد أمام أنفك، تحتاج إلى صراع مستمر. أحد الأشياء التي تساعدك، هو أن تدوّن يومياتك أو تدوّن على الأقل آراءك بخصوص الأحداث الهامة. شيء آخر، حين تسفه الأحداث معتقداً سخيفاً ما، ربما ينسى المرء ببساطة أنه كان يؤمن به يوماً ما. التنبؤات السياسية تكون خاطئة عادة، لكن حتى عندما ينجح المرء في واحدة، من الممكن جداً أن يكتشف لماذا كان مصيباً. على العموم، لا يكون المرء مصيباً، إلا عندما تتطابق الرغبة أو الخوف مع الواقع والحقيقة. إذا أدرك المرء هذا، فلا يستطيع طبعاً أن يتخلص من مشاعره الذاتية، وإنما يستطيع أيضاً إلى حد ما أن يعزلها عن تفكيره ويتكهن بدم بارد بواسطة كتاب حساب. في الحياة الخاصة، أغلب الناس واقعيون نوعاً ما. حين يحسب المرء ميزانيته الأسبوعية، فإن مجموع اثنين زائد اثنين يساوي أربعة بشكل ثابت ودائم. السياسة من الجانب الآخر نوع من عالم دون ذري وغير إقليدي، حيث من السهل تماماً أن يكون الجزء أكبر من الكل أو أن يكون شيئان اثنان في نفس المكان في وقت واحد. لهذا فإن التناقضات والسخافات المنافية للعقل التي عرضتها أعلاه، يعزى أثرها إلى إيمان سري خفي بأن آراء المرء السياسية، ليست مثل الميزانية الأسبوعية، يجب ألا تختبر على محك الحقيقة الصلبة.

التريبيون، ٢٢ مارس/ آذار ١٩٤٦.

السياسة واللغة الإنكليزية

يقر أغلب الناس القلقين بأن اللغة الإنكليزية تسير في طريق سيئ. ويعتقد عموماً أننا لا نستطيع بعمل مقصود أن نفعل أي شيء لها. حضارتنا متفسخة ولغتنا -هكذا يدور النقاش- يجب أن تشترك بشكل محتوم في الانهيار العام. يتلو ذلك أن أي صراع ضد إساءة استعمال اللغة، هو لفظة مهجورة عاطفية مثل تفضيل الشموع على التيار الكهربائي أو المركبات ذات العجلتين على الطائرات. تحت هذا يكمن اعتقاد شبه واعٍ بأن اللغة نمو طبيعي وليست أداة نشكلها من أجل أغراضنا.

من الواضح الآن أن انحدار اللغة، يجب أن تكون له أسباب سياسية واقتصادية، وليس لمجرد التأثير السيئ لهذا الكاتب أو ذاك. لكن النتيجة يمكن أن تصبح سبباً، وتعزز السبب الأصلي، وتنتج نفس الأثر بشكل مكثف، وهكذا إلى الأبد. يمكن للإنسان أن يتعود على الشرب لشعوره بفشله، ثم يفشل بشكل تام أكثر لأنه يشرب. وهذا مشابه لما يحدث للغة الإنكليزية، فهي تصبح قبيحة وغير دقيقة، لأن أفكارنا حمقاء وقذرة، وفي الوقت نفسه، فإن لغتنا سهلت علينا امتلاك أفكار حمقاء. المغزى أن العملية قابلة للعكس. اللغة الإنكليزية الحديثة وخصوصاً الإنكليزية المكتوبة تغص بالعادات السيئة التي تنتشر بالتقليد، والتي يمكن تفاديها إن كان المرء راغباً في تحمل عناء ذلك. فلو تخلص المرء من هذه العادات، لاستطاع التفكير بوضوح، والتفكير بوضوح خطوة ضرورية أولى نحو تجدد وانبعاث سياسي. لذلك فإن القتال ضد اللغة الإنكليزية السيئة ليس تافهاً وليس الاهتمام الحصري للكتاب المحترفين. سأعود إلى هذا على الفور، وأتمنى في ذاك الوقت أن يصبح ما قلته أكثر وضوحاً. في الوقت الحالي هذه خمسة عينات من اللغة الإنكليزية كما تكتب عادة الآن.

لم أختر المقاطع الخمسة لأنها سيئة بشكل استثنائي، ويمكنني اقتباس مقاطع أسوأ منها لو كنت انتقيت – وإنما لأنها توضح العديد من النقائص العقلية التي نعاني منها. إنها أدنى من المستوى المتوسط، لكنها نماذج تمثيلية جداً. رقمتها لكي أستطيع الإشارة إليها عند الضرورة:

(١) في الواقع، أنا لست واثقاً إن كان من غير الصحيح أم لا القول إن ميلتون الذي بدا لا يشبه شيلي القرن السابع عشر، لم يصبح نتيجة تجربة أشد مرارة في كل سنة وأشد غرابة من مؤسس تلك الطائفة اليسوعية التي ليس فيها ما يغريه إلى تحملها. الأستاذ الجامعي هارولد لاكسي (مقال في حرية التعبير).

(٢) أولاً وقبل كل شيء، لا نستطيع أن نتصرف باستهتار مع مجموعة أصيلة من العبارات الاصطلاحية التي تقضي بتراصفات فاضحة من الألفاظ، كاستخدام فعل زائد ظرف أو حرف جر أو الاثنين معاً بدلاً من فعل مؤلف من كلمة واحدة. الأستاذ الجامعي لانسيلوت هوغبن (انترغلوسا).

(٣) من الجانب الأول لدينا الشخصية الحرة، وهي بالتعريف ليست عصابية، لأنه ليس لديها صراع أو حلم، ورغباتها كما هي عليه صريحة، لأنها هي ما يضعها الاستحسان والقبول القانوني والعرفي في مقدمة الوعي وأنموذج قانوني عرفي آخر سيغير عددها وشدتها (الرغبات)؛ هناك القليل فيها ما هو طبيعي، ولا يمكن إنقاصه، أو الخطير ثقافياً. لكن من جانب آخر، فإن الرابط الاجتماعي نفسه لا شيء سوى انعكاس متبادل لهذه الاستقامات الآمنة ذاتياً. تذكروا تعريف الحب. أليس هذا الصورة عينها لأكاديمي صغير؟ أين يوجد مكان في هذه الصالة من المرايا لكل من الشخصية أو الإخاء. مقال عن علم النفس في بوليتكس (نيويورك).

(٤) كل "نخبة" نوادي السادة وكل ربابنة الفاشية المسعورين، اتحدوا في كره مشترك للاشتراكية ورعب وحشي من صعود مدّ حركة الجماهير الثورية، وحولوا هذا إلى أعمال تحريض وأعمال حرق متعمدة شنيعة وأساطير قروسطية من الآبار المسممة لتشرعن تدميرهم للمنظمات البروليتارية، وأعمال لإثارة البرجوازية الصغيرة الهائجة إلى حماسة شوفينية لصالح القتال ضد الطريق الثوري للخروج من الأزمة. كراسة شيوعية.

(٥) إن كانت هناك روح جديدة سوف تسكب في هذه البلاد القديمة، فسيكون إصلاح وحيد شائك ومثير للنزاع يجب معالجته وهو أنسنة البي بي سي وكلفنتها (الإثارة بصدمات كهربائية). الجبن هنا سينم عن تقرح النفس وضمورها. قلب بريطانيا يمكن أن يظل (لي) يدق بنبضة سليمة وقوية مثلاً، لكن زئير الأسد البريطاني في الوقت الحالي مثل البتوم في

مسرحية شكسبير حلم ليلة منتصف الصيف- ناعم مثل أي حمامة خلقت للتو. بريطانيا جديدة رجولية لا تستطيع أن تستمر إلى الأبد منتهكة بعيون أو بالأحرى بآذان العالم بسبب التراخي الواهن لقصر لانغهام المتنكر بشكل صفيق كـ "إنكليزي معياري" حين يسمع صوت بريطانيا في الساعة التاسعة وتسمع حروف ايتشات تسقط بشكل واضح، هو أفضل بكثير وأقل غرابة وسخفاً من النهيق الحالي المتزمت الطنان المكبوت المدرسي لصبايا بريئات خجولات مموءات. رسالة في تريبيون.

كل واحد من هذه المقاطع فيه أخطاؤه الخاصة به، لكن بمعزل عن القبح الذي يمكن تفاديه، هناك صفتان مشتركتان فيها كلها. الصفة الأولى ابتذال التخيل (اللغة المجازية) والصفة الأخرى انعدام الدقة. الكاتب إما لديه معنى ولا يستطيع التعبير عنه، أو أنه يقول شيئاً آخر عن غير قصد أو غير مبال تماماً إن كانت كلماته ذات معنى أم لا. هذا الخليط من الغموض والعجز المحض، هو الميزة الأوضح للنثر الإنكليزي الحديث وخصوصاً الكتابة السياسية بكل أنواعها. حالما تثار مواضيع محددة، يذوب الملموس إلى المجرد، ولا يبدو أن أحداً قادر على التفكير بتعابير أخرى لم تكرر وتبتذل: يتألف النثر من القليل من الكلمات المختارة من أجل معانيها، ومن الكثير من العبارات التي ربطت معاً مثل أجزاء قن دجاج مصنع مسبقاً. سأكتب قائمة بملاحظات وأمثلة متعددة من الخدع، يتنقل البناء النثري بواسطتها ويراوغ:

استعارات ميتة. تساعد الاستعارة المخترعة حديثاً الفكرة باستدعاء صورة بصرية، بينما من الجانب الآخر الاستعارة "الميتة" تقنيا مثل (**تصميم حديدي**) ارتدت وتراجعت فعلياً لتكون كلمة عادية، وبالتالي يمكن استعمالها عموماً من دون فقدان أي حيوية. لكن بين هذين النوعين هناك مخزون هائل من الاستعارات البالية التي فقدت كل قوتها الإيحائية، وتستخدم لمجرد أنها تنقذ الناس من عناء ابتداع عبارات بأنفسهم. أمثلة: يعمل الشيء بطريقة مختلفة ليكون أكثر إمتاعاً - يدافع ويؤيد بقوة- الالتزام بالقول والعمل بأمر السلطة- يعامل الآخرين معاملة سيئة- يحافظون على توحدهم عند المصاعب- لعبة بيد- لديه رأي شخصي قوي يريد تحقيقه- كل الأشياء مصدر ربح وفائدة محتملة- الصيد في مياه عكرة- الشيء الذي له الأولوية- كعب آخيل نقطة ضعف في الشخصية، تغريدة البجعة أو الإنجاز الأخير قبل الموت أو التقاعد- مرتع للسوء.

تستخدم الكثير من هذه العبارات من دون معرفة معانيها (مثل ما هو صدع؟) والاستعارات المتنافرة المختلطة والمشوشة غالباً علامة أكيدة عن عدم اهتمام الكاتب فيما يقوله. بعض الاستعارات الذائعة الآن حرفت عن معناها الأصلي من دون أن يعي تلك الحقيقة هؤلاء الذين يستخدمونها مثلاً، الالتزام بالقول والعمل بأمر السلطة تكتب أحياناً يجر الخط. مثال آخر عبارة المطرقة والسندان تستخدم دائماً الآن مع معنى ضمني أن السندان سينال الأسوأ من الأمر، أما في الحياة الحقيقية فإن السندان هو الذي يكسر المطرقة وليس العكس أبداً: الكاتب الذي أوقف التفكير فيما يقوله سيكون واعياً لهذا ويتفادى تحريف العبارة.

المشغل أو الفروع الزائفة اللفظية (كلمات وعبارات تستخدم في الكتابة لتضخيم المعنى ليبدو أطول) هذه توفر عناء انتقاء أفعال مناسبة وأسماء وفي الوقت نفسه تبطن كل جملة بألفاظ زائدة تعطي مظهراً من التناسق. عبارات مميزة: يجعله غير فعال، يناضل ضد، يثبت كحقيقة، يتصل مع، يخضع لـ يسبب، يحدث، يمكنه من اغتنام، له تأثير، يلعب دوراً رئيسياً في، يدرك باللمس، يستسلم أو يخضع، ينجح، يظهر نزعة، يخدم غرضاً.

الفكرة الأساسية هي حذف الأفعال البسيطة. بدلاً من كلمة واحدة مثل يكسر أو يوقف أو يفسد أو يصلح أو يقتل، (بريك، ستوب، سبويل، ميند، كيل) يصبح الفعل عبارة مكونة من اسم أو صفة مثبت إلى فعل ذي هدف عام جنرال بيربوز، مثل يثبت أو يخدم أو يشكل أو يلعب أو يتخلى (بروف، سيرف، فورم، بلي، ريندر). بالإضافة إلى ذلك، تستخدم صيغة المبني للمجهول بدلاً من المبني للمعلوم حيثما أمكن، كما تستخدم تراكيب اسمية بدلاً من المصدر (باي اكزامينيشن اف بدلاً من باي اكزامينينغ). صنف الأفعال التي تشكل بواسطة السوابق واللواحق التي تضاف إلى الأفعال مثل (ايز و دي) وإعطاء العبارات التافهة مظهر العمق بواسطة تشكيل النفي بواسطة (نات أو ان). استبدال حروف الجر والعطف البسيطة بعبارات مثل فيما يتعلق، فيما يخص، الحقيقة التي، بفضل، باعتبار، لمصلحة، بفرض أن (وذ ريسبيكت تو)،(هافينغ ريغارد تو، ذا فاكت ذات، باي دينت اف، أن فيو اف، أن ذا انتريست اف، اون ذا هايبوسيس ذات،) كما تنقذ نهايات الجمل من السقوط والانحدار *انتي كلايمكس* بملاحظات عادية طنانة مثل المرغوب جداً، لا يمكن حذفه من الحساب، تطور يجب توقعه في

المستقبل القريب، يستحق اهتماماً جدياً، (غريتلي تو بي ديزيارد، كان نتب ي ليفت أوف أكاونت، تحقيق نتيجة مرضية وهلم جرا).

الأسلوب الطنان. كلمات مثل **ظاهرة، عنصر، فرد، موضوعي، محدد، فعال، عملي، أساس، أولي، يرقي، يؤلف، يظهر، يستثمر، ينتفع من، يتخلص من، يصفي،** تستخدم لتزين كلام بسيطاً وتعطي جواً من النزاهة العلمية لآراء وأحكام منحازة. صفات مثل، **ذو أهمية رئيسية، ملحمي، تاريخي، لا ينسى، مبتهج بالنصر، دهري، محتوم، عنيد، حقيقي،** تستخدم لتبجل عملية السياسة الدولية القذرة، تهدف كتابة تلك الكلمات إلى تمجيد الحرب وترتدي عادة لوناً مهجوراً، كلماتها المميزة: **دنيا، عرش، مركبة، قبضة مدرعة، رمح ثلاثي الشعب، سيف، درع، ترس، راية، جزمة عسكرية، بوق.** كلمات أجنبية وتعابير مثل نهاية مميتة، حليف أعمى، نظام حكم قديم،.... لتعطي جواً من الثقافة والأناقة. ماعدا الاختصارات المفيدة بعبارة أخرى، مثلاً، إلخ، ليس هناك حاجة حقيقية لمئات العبارات الأجنبية المستخدمة الآن في اللغة الإنكليزية. كتاب رديئون وخصوصاً كتاب علميون وسياسيون وعلماء اجتماع مهووسون دائماً تقريباً بفكرة أن كلمات اللغة اللاتينية واللغة الإغريقية أفخم من الكلمات الساكسونية، والكلمات غير الضرورية مثل يرسل، يتحسن، يتنبأ، دخيل، مستأصل من جذوره، سري، سب اكواس، ومئات من غيرها، تنتشر باستمرار على حساب مقابلاتها الأنغلوساكسونية. [ملاحظة ١، في الأسفل] اللغة الاصطلاحية المبهمة خاصة بالكتابة الماركسية (**ضبع، جلاد، آكل لحوم البشر، البرجوازية الصغيرة، هؤلاء الأرستقراطيون، متزلف، فلنكي، كلب مسعور، الحرس الأبيض،** إلخ) تتألف في أغلبها من كلمات وعبارات مترجمة عن الروسية والألمانية والفرنسية؛ لكن الطريقة العادية لصياغة كلمة جديدة، هو أن تستخدم جذراً لاتينياً أو إغريقياً مع لاحقة ملائمة وتشكيل والايز عند الضرورة. من الأسهل بكثير تشكيل كلمات من هذا النوع (ديريجنالايز، اميرميسابل، اكستراماريتال، نانفراغمينتاري وهلم جرا...) من التفكير بكلمات إنكليزية تغطي المعنى. النتيجة، عموماً، زيادة في القذارة والغموض.

[ملاحظة: مثال توضيحي عن هذا، هو الطريقة التي طردت فيها أسماء الزهور بالإنكليزية التي ظلت تستعمل حتى وقت قريب بأسماء لاتينية. سنابدراغون أصبح

انتيريهنيوم (أنف العجل) وفورغيت مي نات أصبح مايوسوتيس (أذن الفأر) إلخ. من الصعب أن نرى أي مبرر عملي لهذا التبديل في الشكل: هو ربما بسبب ابتعاد غريزي عن الكلمات الوطنية وشعور غامض أن الكلمة الإغريقية كلمة علمية- حاشية المؤلف).

كلمات ليس لها معنى. في أنواع معينة من الكتابة وخصوصاً في النقد الفني والنقد الأدبي، من العادي أن تصادف مقاطع طويلة ينعدم فيها المعنى تماماً تقريباً. [لاحظ، في الأسفل] كلمات مثل **رومانسي**، **بلاستيكي**، **قيم**، **إنساني**، **ميت**، **طبيعي**، **حيوية**، المستخدمة في النقد الفني، خالية من المعنى تماماً، بمعنى أنها لا تشير إلى أي شيء مكتشف فقط، وإنها من الصعب توقع أن تفعل ذلك من قبل القارئ. حين يكتب ناقد: "الميزة البارزة لعمل السيد س هو نوعيته المفعمة بالحياة"، بينها يكتب آخر: "الشيء اللافت بشكل فوري عن عمل السيد س سكونه الغريب". يقبل القارئ هذا كاختلاف بسيط في الآراء إن كانت كلمتي أسود وأبيض مستخدمتين بدلاً من الكلمتين الرطينتين **ميت** و**حي**. وسيرى على الفور أن اللغة استخدمت بطريقة خاطئة. كلمات سياسية كثيرة يساء استخدامها بشكل مماثل. كلمة فاشية ليس لها معنى الآن، إلا حين تدل على "شيء غير مرغوب". كلمات ديمقراطية، اشتراكية، حرية، وطني، واقعي، عدالة، لكل واحدة منها معان مختلفة كثيرة لا يمكن التوفيق بينها. ففي حالة كلمة ديمقراطية مثلاً، ليس عدم وجود تعريف لها متفق عليه فقط، بل حتى المحاولة لإنشاء تعريف تلقى مقاومة من كل الأطراف. نشعر في كل الأمكنة والأحوال تقريباً أننا حين ننعت بلاداً بأنها بلاد ديمقراطية، فنحن نمتدحها: وبالتالي المدافعون عن أي نوع من الأنظمة الحاكمة يدعون أنه ديمقراطي، وقد يتوقفون عن استخدام الكلمة إن ربطت بأي معنى وحيد. كلمات من هذا النوع، تستخدم غالباً بطريقة كاذبة بشكل متعمد. أي أن الشخص الذي يستخدمها لديه تعريفه الخاص به، لكنه يسمح لقارئه بالظن أنه يقصد شيئاً مختلفاً تماماً. تصريحات مثل **المارشال بيتان كان وطنياً حقيقياً** أو **الصحافة السوفييتية هي أكثر صحافة حرة في العالم** أو **الكنيسة الكاثوليكية تعارض الاضطهاد**، تصنع عادة بقصد الخداع دائماً تقريباً. كلمات أخرى تستخدم بمعان متغيرة، وفي أغلب الحالات بشكل مضلل تقريباً: **طبقة**، **شمولي استبدادي**، **علم**، **تقدمي**، **بورجوازي رجعي**، **مساواة**.

[ملاحظة: مثال: "سلوى الإدراك الكوني والصورة الذهنية الشمولية الويتمانية في مداها على نحو غريب والنقيض الدقيق تقريباً للإكراه الجمالي، يستمر في استحضار ذلك الجو من التلميح المرتعش التراكمي إلى سرمدية قاسية ساكنة بشكل عنيد... راي غاردينر يحرز نقطة بالتسديد على قلب الهدف. لو أنهم ليسوا بسطاء جداً، وعبر هذا الحزن المستكين يتدفق أكثر من الاستسلام والاستقالة السطحية اللذيذة المؤلمة (فصلية شعرية) حاشية المؤلف].

بعد أن عملت هذه القائمة من أعمال الغش والتحريف، دعوني أعطِ مثالاً آخر عن هذا النوع من الكتابة التي يقودون إليها. هذه المرة يجب أن تكون بطبيعتها كتابة تخيلية. سأقوم بترجمة مقطع من اللغة الإنكليزية الجيدة إلى اللغة الإنكليزية الحديثة من الصنف الأسوأ. هنا شعر مشهور من كتاب العهد القديم الذي كتبه سليمان.

عدت ورأيت تحت الشمس أن السباق ليس لخفيف الحركة والسريع، ولا المعركة للقوي ولا الخبز للعاقل ولا حتى الغنى لرجال الفهم والذكاء ولا حتى الحظوة لرجال البراعة، لكن الزمن والحظ يحدث.

ها هي في اللغة الإنكليزية الحديثة:

إن الاهتمام الموضوعي بالظواهر المعاصرة، يفرض الاستنتاج بأن النجاح أو الفشل في الأنشطة التنافسية لا يظهر ميلاً ليكون متكافئاً مع المقدرة الفطرية. ولكن هناك عنصراً هاماً لا يمكن التنبؤ به، يجب أن يؤخذ في الحسبان بشكل ثابت.

هذه محاكاة هزلية لكنها ليست فظة جداً. عرض (٣) في الأعلى مثلاً يحتوي عدة لصوقات من نفس نوع الإنكليزية. سوف يتبين أنني لم أقم بترجمة كاملة. إن بداية ونهاية الجملة تتبعان المعنى الأصلي عن كثب، لكن في الوسط فإن الإيضاحات الملموسة-عرق، معركة، خبز- تنحل وتتفكك إلى عبارة مبهمة "نجاح أو فشل في نشاطات تنافسية". هذا يجب أن يكون هكذا، لأنه لا يوجد كاتب من النوع الذي أدرسه قادر على استخدام عبارة مثل "اهتمام موضوعي بالظواهر المعاصرة"- يستطيع أن يجدول أفكاره بتلك الطريقة الدقيقة المفصلة. إن النزعة الكاملة للنثر الحديث هي الابتعاد عن التماسك والصلابة. الآن حلل هاتين الجملتين بدقة أكبر. الأولى تحتوي على ٤٩ كلمة و٦٠ مقطعاً لفظياً، وكل كلماتها من كلمات الحياة

اليومية؛ والجملة الثانية تحتوي على ٣٨ كلمة من ٩٠ مقطعاً لفظياً، ١٨ من كلماتها من جذور لاتينية وواحدة من جذور إغريقية. الجمل الأولى تحتوي على ست صور حية ومشرقة وعبارة واحدة فقط "الزمن والحظ" يمكن اعتبارها مبهمة. الثانية لا تحتوي على أي عبارة جديدة لافتة، وعلى الرغم من مقاطعها اللفظية التسعين، فإنها لا تعطي سوى نسخة مختصرة للمعنى المتضمن في الأولى. مع ذلك ومن دون أي شك فإن الجملة الثانية هي التي تتجذر وتفوز في اللغة الإنكليزية الحديثة. أنا لا أريد أن أبالغ. هذا النوع من الكتابة لم يصبح كونياً وشاملاً بعد. إظهار للبساطة سيخطر هنا وهناك في أسوأ صفحة مكتوبة. لكن لو أُمرتُ أنا أو أمرتَ أنت بأن نكتب بضعة سطور عن الشك واللايقين في المصائر والحظوظ الإنسانية، فسنقترب إلى جملتي التخيلية أكثر من الجملة التي من كتاب العهد القديم الذي كتبه سليمان.

حاولت أن أبين أن الكتابة الحديثة في أسوئها لا تتألف من انتقاء كلمات من أجل معانيها فقط وابتداع صور لكي تجعل المعنى أوضح، وإنما تتألف من لصق أشرطة طويلة من كلمات رتبت من قبل شخص آخر مسبقاً وجعل النتائج تبدو صالحة للتقديم بفضل احتيال محض. هذه الطريقة في الكتابة جذابة لأنها سهلة. هي أسهل وأسرع حتى بمجرد أن تتعود على قول **في رأيي هو افتراض غير مبرر** بدلاً من القول أنا أعتقد. إن استخدمت عبارات جاهزة مسبقاً، فلن تضطر إلى البحث عن الكلمات، وإنما لن تضطر إلى إرباك نفسك بتناغم جملك أيضاً بما أن هذه العبارات مرتبة عموماً لتكون رخيمة تقريباً. حين تؤلف في استعجال –حين تملي على كاتب الاختزال مثلاً أو تلقي خطاباً عاماً– من الطبيعي أن تسقط في الأسلوب اللاتيني الطنان. اقتباسات مختصرة مثل **اعتبار ينبغي أن ننجح في تذكره أو استنتاج كلنا نوافق عليه بالإجماع بطيب خاطر**، سوف يوفر الكثير من الجمل ومن السقوط بصوت ارتطام. باستخدام استعارات بالية وتشبيهات ومصطلحات توفر جهداً عقلياً على حساب ترك معناك غامضاً ليس لقارئك فقط بل ولنفسك أيضاً. هذا هو المغزى من الاستعارات المختلطة. الهدف الوحيد هو استدعاء صورة بصرية. حين تتصادم هذه الصور– كما في **الأخطبوط الفاشي غنى أغنيته الأخيرة، الجزمة العسكرية رميت في القدر** المذيب– يفهم وبشكل أكيد أن الكاتب لا يرى صورة عقلية للأشياء التي يسميها؛ بتعبير آخر هو لا يفكر في الحقيقة. انظر ثانية إلى الأمثلة التي أعطيتها في بداية هذا المقال. الأستاذ

الجامعي لاسكي (١) يستخدم خمس أدوات نفي في ٥٣ كلمة. واحدة من هذه غير ضرورية تحول كامل المقطع إلى كلام لا معنى له، بالإضافة إلى ذلك هناك الانزلاق إلى التنافر بدلاً من التشابه مما يزيد التفاهة، وهناك قطع عديدة من الخرق يمكن تجنبها تزيد من الغموض العام. الأستاذ الجامعي هوغبين (٢) يتصرف بطيش في مجموعة من الأشياء القادرة على كتابة وصفات، ويستهجن العبارة العادية، يتحمل ويعارض التفتيش عن كلمة رديئة جداً في المعجم ويرى ما تعنيه. (٣) إن أخذ المرء موقفاً قاسياً تجاهها فهي بلا معنى: ربما يستطيع المرء أن يستنتج المعنى المقصود بقراءة المقال كله. في (٤) الكاتب يعرف تقريباً ما يريد قوله، لكن تكديس العبارات البالية خنقه مثل أوراق الشاي التي تسد المغسلة. في (٥) الكلمات والمعاني افترقت عن بعضها -هي تكره شيئاً وتريد أن تعبر عن التضامن مع آخر- لكنها ليست مهتمة بتفاصيل ما تقوله. إن الكاتب المدقق في كل جملة يكتبها يسأل نفسه على الأقل أربعة أسئلة: ما الذي أحاول قوله؟ ما هي الكلمات التي تعبر عنه؟ ما هي الصور أو المصطلحات التي تجعله أكثر وضوحاً؟ هل هذه الصورة نضرة بما يكفي لتترك أثراً؟ وربما يسأل نفسه سؤالين آخرين: هل أستطيع اختصارها أكثر؟ هل قلت أي شيء قبيح يمكن تفاديه؟ لكن ليس عليك تحمل كل هذا العناء. يمكنك تجنبه بفتح ذهنك وترك العبارات المسبقة الجاهزة تأتي محتشدة وتدخل فيه. سوف تبني جملك لك وتفكر عنك حتى بمدى محدد، وعند الحاجة سوف تنجز الخدمة الهامة في حجب معانيك جزئياً حتى عن نفسك، وعند هذه النقطة يتضح الرابط الخاص بين السياسة وانحطاط اللغة.

في زمننا، إن القول بأن الكتابة السياسية كتابة رديئة صحيح وعلى نطاق واسع، ولو كان غير صحيح لوجدنا عموماً أن الكاتب متمرد بشكل ما يعبر عن رأيه الشخصي وليس عن "خط الحزب". الأرثوذكسية (المعتقد) مهما كان لونها تتطلب كما يبدو أسلوباً ميتاً مقلداً. إن اللهجات العامية السياسية الموجودة في الكراسات والمقالات الرئيسية والبيانات السياسية الرسمية والتقارير الحكومية البيضاء وخطابات ما دون الأمناء العامين، تتنوع من حزب إلى آخر طبعاً، لكنها تتشابه كلها بأن المرء لا يجد فيها أبداً خطاباً نضراً حيوياً من جهد الشخص. حين يراقب المرء كاتباً فاشلاً متعباً على الرصيف يكرر بشكل آلي العبارات المألوفة- فظاعات وحشية، عقب حديدية، حكم استبدادي ملطخ بالدم، حرروا شعوب

العالم، قفوا متراصين، ينتاب المرء شعور غريب بأنه لا يراقب كائناً بشرياً حياً وإنما نوع دمية: شعور يصبح فجأة أقوى في لحظات حين يمسك الضوء بنظارة المتكلم ويحولها إلى قرصين أجوفين لبست خلفهما عينان، كما يبدو، وهذا ليس خيالياً تماماً، لأن المتكلم الذي يستخدم ذلك النوع من الأسلوب التعبيري قطع شوطاً طويلاً في تحويل نفسه إلى آلة. تخرج الضوضاء المناسبة من حنجرته، لكن دماغه غير متورط بالعملية كما لو أنه كان يختار كلماته لنفسه. إذا كان الخطاب الذي يعمل به خطاباً اعتاد على عمله المرة تلو الأخرى، فهو غير مدرك تقريباً لما يقوله، كما يفعل المرء حين يتلفظ بالردود في الكنيسة، وهذه الحالة المضعفة والمقللة للوعي إن لم تكن لازمة، فهي على أي حال مفضلة للامتثال السياسي والتطابق.

الخطاب السياسي والكتابة السياسية في عصرنا، هما الدفاع عن الشيء الذي يتعذر الدفاع عنه. أشياء مثل استمرار الحكم البريطاني في الهند، وأعمال التطهير الروسية، والترحيل وإسقاط القنابل الذرية على اليابان، لا يمكن الدفاع عنها بالفعل، إلا بالحجج التي يصعب على أغلب الناس مواجهتها لشدة وحشيتها، والتي لا تتوافق مع الأهداف المعلنة للأحزاب السياسية، وبالتالي يجب أن تتألف اللغة السياسية بشكل أساس من عبارات تلطيفية ومغالطات وغموض غائم. القرى العزلاء التي تقصف بالقنابل من الجو، والسكان الذين يطردون إلى الريف، ورشّ قطعان الماشية بالرشاشات، والأكواخ التي تضرم فيها النيران برصاص حارق: هذا يسمى **تهدئة**. ملايين الفلاحين الذين يُسرقون من مزارعهم ويُرسلون مشياً بطرقات طويلة بمتاع لا يزيد عما يستطيعون حمله: هذا يسمى **نقل السكان من مكان إلى آخر- ترانسفير أو تصحيح الحدود والتخوم**. يسجن الناس لسنوات من دون محاكمة، أو يعدمون بإطلاق الرصاص على رقابهم من الخلف، أو يرسلون إلى الموت من الإسقربوط في مخيمات من الخشب في القطب الشمالي: هذا يدعى **التخلص من العناصر غير الجديرة بالثقة**. مثل هذا الأسلوب التعبيري، مطلوب إن أراد المرء تسمية الأشياء من دون استدعاء صورة ذهنية لها. تأمل للحظة أستاذاً جامعياً إنكليزياً مرتاحاً يدافع عن نظام الحكم الشمولي الروسي. هو لا يستطيع القول بصراحة وبشكل كامل "أنا أؤمن بقتل خصومك حين تستطيع الحصول على نتائج جيدة بفعل ذلك". ربما لذلك سيقول شيئاً مثل هذا:

في الوقت الذي نسلم فيه بشكل إرادي أن نظام الحكم السوفييتي يظهر ملامح محددة، يميل الإنسانويون إلى استنكارها. يجب علينا في اعتقادي أيضاً أن نوافق على أن تقليص البعض من حق المعارضة السياسية، حالة مصاحبة لا يمكن تفاديها في الفترات الانتقالية، وأن الصرامة التي طلب من الشعب الروسي تحملها، كانت مبررة تماماً في عالم من الإنجازات العظيمة الملموسة.

الأسلوب الطنان نفسه نوع من تلطيف التعبير. كمية كبيرة من الكلمات اللاتينية تسقط على الحقائق مثل الثلج الناعم، وتلطخ الحدود وتغطي كل التفاصيل. إن العدو الكبير للغة الواضحة، هو عدم الإخلاص. حين تكون هناك فجوة بين الأهداف الحقيقية والمعلنة، يلجأ المرء، كما لو كان بالغريزة، إلى كلمات طويلة واصطلاحات مضنية مثل حبار يبخ الحبر. في عصرنا، ليس هناك أشياء مثل "ابتعاد عن السياسة". إن القضايا كلها قضايا سياسية، والسياسة نفسها كتلة كبيرة من الأكاذيب والمراوغات والكره والفصام. حين يكون الجو العام سيئاً، فعلى اللغة أن تعاني. عليّ أن أتوقع -هذا تخمين ليس لديّ معرفة علمية لإثباته- أن اللغات الألمانية والروسية والإيطالية، قد تلفت كلها في السنوات العشر أو الخمس عشرة الأخيرة نتيجة للديكتاتورية.

لكن إن أفسد الفكر اللغة، فإن اللغة تستطيع إفساد الفكر أيضاً. الاستخدام الرديء يستطيع الانتشار بالتقاليد والمحاكاة، حتى بين الناس الذين يعرفون ويجب أن يعرفوا أفضل. اللغة الممذوقة التي أناقشها ملائمة جداً في بعض الأشكال. عبارات مثل افتراض ليس لا يمكن تبريره، يترك كثيراً ليكون مرغوباً، لا يخدم أي غرض جيد، اعتبار يجدر أن نتذكره هو إغراءات مستمرة ورزمة من حبوب الأسبرين في المتناول دائماً. راجع هذا المقال وبالتأكيد ستجد أنني ارتكبت الأخطاء ذاتها التي اعترضت عليها مرة تلو المرة. في بريد صباح هذا اليوم استلمت كراسة تتحدث عن الظروف في ألمانيا. أخبرني المؤلف أنه "شعر بالإكراه" على كتابتها. فتحتها عشوائياً، وهذه الجملة الأولى التي رأيتها: [الحلفاء] لديهم فرصة ليس فقط في إنجاز تحول جذري في بنية ألمانيا الاجتماعية والسياسية بطريقة تتفادى ردة فعل قومية في ألمانيا نفسها، وإنما في الوقت نفسه إرساء الأسس لأوروبا متحدة ومتعاونة. أنتم ترون أنه "شعر بالإكراه"، ويفترض أن لديه شيئاً جديداً يقوله-ومع هذا كانت كلماته مثل خيول الفرسان

التي تستجيب للبوق بتجميع نفسها ذاتياً بالشكل الكئيب المألوف. إن غزو عقل شخص بعبارات جاهزة مثل (يرسي الأسس لـ وينجز تحولاً جذرياً) لا يستطيع المرء منعها، إلا إن كان متيقظاً ضدها دائماً، وكل عبارة من هذه وأمثالها تخدر قسماً من عقل المرء.

قلت إن انحطاط لغتنا قابل للشفاء على الأرجح. هؤلاء الذين ينكرون سيحاججون، إن هم قدموا برهاناً أبداً، أن اللغة تعكس الظروف الاجتماعية فقط، وأننا لا نستطيع التأثير على تطورها بالعبث المباشر بالكلمات والتراكيب. يمكن أن يكون هذا صحيحاً من حيث نبرة اللغة وروحها، لكنه ليس صحيحاً بتفصيلاته. إن الكلمات والعبارات السخيفة تختفي غالباً، ليس من خلال عملية تطورية، وإنما بعمل مقصود من الأقلية. مثالان حديثان **يسبر كل جادة ولا يترك حجراً لم يقلب** اللذان قتلا بسخريات قلة من الصحفيين. هناك قائمة طويلة من الاستعارات الفاسدة التي يمكن التخلص منها لو رغب عدد كافٍ من الناس في المهمة، ويمكن أيضاً السخرية من تشكيل الإضافات الأمامية والخلفية [ملاحظة: يستطيع المرء شفاء نفسه من تشكيل نت "ان" بتذكر هذه الجملة. كلب ليس غير أسود كان يطارد أرنباً ليس غير صغير عبر حقل ليس غير أخضر. (حاشية المؤلف)] لتقليل كمية اللغتين اللاتينية والإغريقية في الجملة العادية وطرد العبارات الأجنبية والكلمات العلمية الشاردة عموماً لجعل الطنانة عتيقة. لكن كل هذه نقاط ثانوية. إن الدفاع عن اللغة الإنكليزية يتضمن أكثر من هذا، وربما من الأفضل البدء بقول ما لا يتضمنه.

بداية، إن الأمر لا علاقة له باستعمال الألفاظ المهجورة وإنقاذ الكلمات المهجورة وأساليب التعبير، أو مع تشييد "إنكليزية معيارية" لا يجب الحياد عنها على العكس، إنه يتعلق خصوصاً بالتخلص من وهجر كل كلمة أو مصطلح فقد فائدته. لا علاقة للأمر باستخدام قواعد صرفية ونحوية صحيحة ليس لها أهمية، طالما يوضح المرء معناه، أو بتجنب المصطلحات الأميركية، أو بامتلاك ما سمي بـ "أسلوب نثري جيد". ومن جانب آخر، لا يتعلق الأمر بالتبسيط المزيف، ومحاولة جعل اللغة الإنكليزية المكتوبة عامية، ولا حتى تفضيل الكلمة الساكسونية على الكلمة اللاتينية، حتى لو تضمنت استخدام أقل وأقصر الكلمات التي تغطي المعنى. المطلوب الأهم أن تدع المعنى يختار الكلمة، وليس العكس. في النثر، فإن أسوأ ما يمكن أن يفعله المرء بالكلمات هو أن يستسلم لها. حين تفكر في شيء مادي، فأنت

تفكر من دون كلمات. ثم إن أردت أن تصف الشيء الذي تصورته، فستفتش حتى تجد الكلمات الصحيحة والدقيقة التي تبدو مناسبة له. وحين تفكر في شي مجرد، فأنت تميل أكثر إلى استخدام كلمات من البداية. وإذا لم تبذل جهداً واعياً لمنعها، ستأتي اللهجة الموجودة مندفعة وتقوم بالمهمة عنك على حساب الضبابية، أو حتى تغيير المعنى الذي تقصده. من الأفضل ربما أن تؤجل استخدام الكلمات إلى أطول ما يمكن، وتحصل على المعنى الذي تقصده واضحاً، مثلما تستطيع ذلك بواسطة الصور أو الإحساسات. بعد ذلك تستطيع اختيار -وليس القبول فقط- العبارات التي تنقل المعنى بأفضل شكل، ومن ثم تتحول وتقرر ما هي الانطباعات التي يمكن أن تحدثها كلماتك على شخص آخر. المحاولة الأخيرة للعقل استئصال كل الصور الباهتة أو المشوشة وكل العبارات المصنعة مسبقاً والتكرار غير الضروري والاحتيال والغموض عموماً. لكن غالباً ما يشكك المرء في أثر كلمة أو عبارة، ويحتاج إلى قوانين يعتمد عليها حين تفشل الغريزة. أعتقد أن القوانين التالية ستغطي أغلب الحالات:

(١) لا تستخدم استعارة أو تشبيهاً أو صورة بلاغية أخرى اعتدت على رؤيتها مستخدمة في النشر والطباعة.

(٢) لا تستخدم أبداً كلمة طويلة، حيث تفي القصيرة بالغرض.

(٣) إن كان ممكناً صياغة كلمة جيدة، افعل ذلك دائماً.

(٤) لا تستخدم أبداً المبني للمجهول، حيث يمكنك استخدام المبني للمعلوم.

(٥) لا تستخدم أبداً عبارة أجنبية أو كلمة علمية أو كلمة مبهمة أعجمية، إن كان باستطاعتك التفكير بمرادف من الإنكليزية العادية.

(٦) اكسر أي من هذه القوانين، بدلاً من قول أي شيء غير فصيح.

هذه القوانين تبدو أولية وهي كذلك، لكنها تتطلب تغييراً عميقاً في الموقف عند كل من اعتاد على الكتابة بالأسلوب الدارج الآن. يلتزم المرء بها كلها، ويظل يكتب بلغة إنكليزية رديئة، لكنه لا يستطيع أن يكتب الهراء الذي اقتبسته في العينات الخمس في بداية المقال.

أنا لم آخذ بعين الاعتبار هنا الاستخدام الأدبي للغة، وإنما اللغة كأداة للتعبير وليست لحجب أو لمنع الفكر. ستيوارت تشيز وآخرون اقتربوا من الادعاء بأن الكلمات المجردة كلها

بلا معنى، واستخدموا هذا ذريعة لتأييد نوع من التصوف السياسي. حين لا تعرف ما هي الفاشية، فكيف ستناضل ضد الفاشية؟ لا يمكن للمرء تصديق هكذا سخافات، لكن ينبغي عليه أن يدرك أن الفوضى السياسية متصلة بانحلال اللغة وفسادها، وأن المرء يستطيع إحداث بعض التحسينات بالبدء في الهدف اللفظي. إن بسطت إنكليزيتك، ستتحرر من أسوأ حماقات الأرثوذكسية. لا تستطيع التكلم بأي واحدة من اللهجات المحلية الضرورية، وحين تبدي ملاحظة غبية، فإن غباءها سيكون واضحاً حتى لك أنت. إن اللغة السياسية، وهذا يصح على كل الأحزاب السياسية مع بعض الاختلاف من المحافظين إلى الفوضويين، صممت لجعل الأكاذيب تبدو صادقة والجريمة محترمة، ولتعطي مظهراً من الصلابة للريح الصرفة. لا يستطيع المرء تغيير هذا كله في لحظة، لكن على الأقل يستطيع تغيير عاداته الشخصية، ومن حين إلى آخر يستطيع حتى إذا سخر بصوت عالٍ أن يرسل بعض العبارات البالية والعقيمة – البعض مثل جزمة عسكرية طويلة أو كعب آخيل أو مرتع أو خليط أو إثبات اختبار أو حمضي أو جحيم حقيقي أو كوم آخر من النفاية اللفظية– إلى سلة الفضلات حيث تنتمي.

محادثة مع سلمي
(شخص لا يؤمن بالحرب)

في ليلة من عام ١٩٤٠ حين أُطلق وابل من النيران فوق لندن لأول مرة، كنت في ساحة البيكاديلي حين فتحت المدافع أفواهها، فهربت إلى داخل مقهى للالتجاء فيه. بين الحشد في الداخل، يوجد شاب وسيم وأنيق في حوالي الخامسة والعشرين من عمره، كان يقوم ببعض الإزعاج بنسخة من بيس نيوز كان يفرضها على انتباه كل واحد على الطاولات المجاورة. تبادلت الحديث معه، وسارت المحادثة على هذا الشكل:

الشاب: أقول لك سوف تنتهي قبل حلول عيد الميلاد. وستتم تسوية سلمية كما هو واضح. أنا أعلق إيماني بالسير صامويل هوري. أعترف أن صحبته مهينة، لكن يظل هوري إلى جانبنا. طالما هوري في مدريد يظل هناك أمل بالخيانة دائماً.

أورويل: ماذا عن تلك التحضيرات التي تجري ضد الغزو - الأكشاك التي تشبه شكل حبة الدواء التي يبنيها في كل مكان متطوعو الدفاع المحلي وهلم جرا؟

الشاب: أوه، ذلك يعني أنهم يستعدون لتحطيم الطبقة العاملة حين يصل الألمان إلى هنا. أعتقد أن البعض منهم قد يكونون حمقى جداً ويحاولون المقاومة، لكن تشرشل والألمان لن يطول الأمر بينهما حتى يهدئوهم. لا تقلق، ستنتهي الأمور قريباً.

أورويل: هل تريد حقيقة أن ترى أطفالك يتربون كنازيين؟

الشاب: هراء! هل تعتقد أن الألمان سيشجعون الفاشية في هذه البلاد؟ هم لا يريدون أن ينتجوا سلالة من المحاربين تقاتل ضدهم. سيكون الهدف تحويلهم إلى عبيد، لهذا السبب أنا سلمي - أرفض حمل السلاح. سيشجعون أناساً مثلي.

أورويل: ويطلقون النار على أناس مثلي؟

الشاب: سيكون ذلك سيئاً جداً.

أورويل: لكن لماذا أنت تواق جداً لتبقى حياً؟

الشاب: لكي أستطيع الاستمرار والتقدم في عملي طبعاً.

تبين من المحادثة أن الشاب كان رساماً -إن كان ذلك جيداً أو سيئاً، فأنا لا أعرف، لكن في كل الأحوال هو مهتم بإخلاص بالرسم ومستعد تماماً لمواجهة الفقر في السعي وراءه. ربما يكون الرسام أفضل مما يكونه الكاتب أو الصحفي تحت احتلال ألماني. لكن يظل ما قاله يحتوي على فكرة خاطئة خطيرة جداً تنتشر كثيراً الآن في البلدان التي لم توطد الديكتاتورية نفسها فيها.

الاعتقاد أنه بإمكانك أن تكون حراً من داخلك تحت حكومة ديكتاتورية، هي فكرة خاطئة، يواسي عدد كبير من الناس أنفسهم بها. الآن بشكل أو بآخر تترقى الديكتاتورية بشكل مرئي في كل جزء من العالم. في الخارج في الشوارع تجأر مكبرات الصوت وترفرف الأعلام من أسقف البيوت، ورجال الأمن ببنادقهم الرشاشة يطوفون الشوارع ذهاباً وإياباً، ووجه القائد بعرض أربعة أقدام يحملق من كل لوحة إعلانات جدارية ضخمة، لكن في العليات يستطيع أعداء نظام الحكم السريين تسجيل أفكارهم بحرية تامة -تلك هي الفكرة تقريباً. ويعتقد كثير من الناس تحت هذه الفكرة الغامضة، أن هذا هو ما يحدث في ألمانيا وفي البلدان الديكتاتورية الأخرى الآن.

لماذا هذه الفكرة زائفة؟ أنا تغاضيت عن حقيقة أن الديكتاتوريات الحديثة لن تترك في الواقع المنافذ التي تركتها الحكومات الاستبدادية المطلقة التي من الطراز القديم، بالإضافة إلى إضعاف الرغبة في الحرية الفكرية بسبب الأساليب الاستبدادية في التربية. إن التخيل بأن الكائن البشري فرد مستقل بذاته، هو خطأ كبير. إن الحرية السرية التي تستطيع بتصورك الاستمتاع بها في ظل حكومة استبدادية، هي مجرد هراء، لأن أفكارنا ليست خاصتنا تماماً. إن الفلاسفة والكتاب والفنانون وحتى العلماء لا يحتاجون فقط إلى تشجيع وجمهور، وإنما إلى التحفيز المستمر والثابت من الناس الآخرين. من شبه المستحيل أن تفكر من دون حديث. لو عاش ديفو في جزيرة مهجورة حقيقة، لما استطاع أن يكتب روبنسون كروزو، ولا أراد أن يفعل ذلك حقيقة. احذف الحرية من الكلام، فستجف القدرات الإبداعية. لو وصل الألمان إلى إنكلترا فعلاً، لوجد رفيقي في مقهى الرويال بأن رسمه سيتلف قريباً حتى لو تركه الجستابو بحاله. وحين يرفع الغطاء عن أوروبا، أعتقد أن أحد الأشياء التي ستفاجئنا، هي اكتشافنا الكم القليل من الكتابة الجديدة من أي نوع – حتى أشياء مثل المذكرات– التي كانت تنتج في السر تحت ظل الحكام المطلقين.

لماذا لا يؤمن الاشتراكيون بالمرح

التفكير بعيد الميلاد يثير لياً التفكير بتشارلز ديكنز، وذلك لسببين وجيهين؛ أولاً لأن ديكنز من الكتاب الإنكليز القليلين الذين كتبوا عن عيد الميلاد. فعيد الميلاد أكثر الأعياد الإنكليزية شعبية، ومع ذلك لم ينتج إلا قليل من الأدب بشكل يثير الدهشة، فهناك ترانيم مصدر أغلبها العصور الوسطى، وحفنة صغيرة من القصائد لروبرت بريدجز وتي اس إليوت وبعض الآخرين غيرهم، لكن ليس هناك سوى القليل غيرها. ثانياً لأن ديكنز استثنائي وفريد تقريباً وسط كتاب حديثين في القدرة على إعطاء صورة مقنعة للسعادة.

تعامل ديكنز بنجاح مع عيد الميلاد مرتين، في فصل من **أوراق بيكويك**، وفي **ترنيمة عيد الميلاد**. قرأت القصة الأخيرة للينين وهو على فراش احتضاره، وحسب ما جاء عن زوجته، وجد أن "عاطفيتها البرجوازية" لا تطاق تماماً. الآن لينين محق بمعنى ما: لكنه لو كان في وضع صحي أفضل، لربما لاحظ أن في القصة مضامين اجتماعية مشوقة. بداية، مهما كان ديكنز غليظاً في الصورة التي رسمها، ومهما كان "رثاء" تايني تيم مقززاً، فإن عائلة كراتشيت تعطي الانطباع بإمتاع أنفسهم ويبدون سعداء، كما يبدو سكان وليام موريس في **أخبار من اللامكان** غير سعداء. بالإضافة إلى أن إدراك ديكنز بأن سعادتهم نابعة أساسا من التباين، هو واحد من أسرار قوته. هم بروح عالية، لأنهم امتلكوا لمرة واحدة فقط ما يكفيهم من الطعام. الذئب عند الباب لكنه يلوح بذيله. بخار حلويات عيد الميلاد تندفع فوق خلفية من مكاتب الرهن والعمل المعرق، وبمعنى مزدوج فإن شبح سكروج يقف بجانب طاولة العشاء. حتى أن بوب راتشيت أراد أن يشرب نخب سكروج، وهذا ما رفضته السيدة كراتشيت بحق. آل كراتشيت قادرون على الاستمتاع بعيد الميلاد تماماً، لأنه يأتي مرة واحدة في السنة. سعادتهم مقنعة، فقط لأنها وصفت بالناقصة.

من جانب آخر، فإن كل الجهود لوصف السعادة الدائمة كانت فاشلة. شاعت اليوتوبيات (عرضياً الكلمة المصاغة يوتوبيا لا تعني "المكان الجيد" بل "المكان غير الموجود" فقط) في

الأدب في السنوات الثلاثمئة أو الأربعمئة الماضية، لكن حتى "المفضلة" منها بلا طعم دائماً، وتنقصها الحيوية عادة أيضاً.

بالتأكيد، إن أشهر اليوتوبيات الحديثة، هي يوتوبيات اتش جي ويلز، وقد عبر تماماً عن رؤيته للمستقبل في كتابين كتبهما في أوائل العشرينيات، هما: **حلم ورجال كالآلهة**. هنا لديك صورة للعالم كما يجب أن يراه ويلز أو يعتقد أنه يجب أن يراه. إنه عالم أفكاره الجوهرية في الانغماس المتسامح بالمتعة والغرابة العلمية. عالم تلاشت منه كل أنواع الشرور والشقاء التي نعاني منها الآن، وزال الجهل والحرب والفقر والقذارة والمرض والإحباط والجوع والخوف والعمل الشاق والخرافة كلها، وبالتالي من المستحيل أن ننكر أن هذا النوع من العالم هو الذي نرجوه. كلنا نريد إلغاء الأشياء التي ألغاها ويلز، ولكن هل هناك أحد يريد فعلياً العيش في يوتوبيا ويلز؟ على العكس من ذلك، لم يصبح العيش في ذلك العالم ولا الاستيقاظ في حديقة صحية في الضواحي تعج بالمعلمات العاريات، حافزاً سياسياً مقصوداً في الحقيقة. إن كتاب مثل **عالم جديد شجاع** تعبير عن الخوف الفعلي بأن يؤمن الإنسان الحديث بالمجتمع المتعي المعقلن الذي ضمن قدرته على الخلق. قال كاتب كاثوليكي حديثاً إن اليوتوبيات أصبحت الآن محتملة تقنياً، وبالتالي بات تفاديها مشكلة خطيرة. لا نستطيع أن نكتب هذا كملاحظة بسيطة، فقط لأن أحد مصادر الحركة الفاشية هو الرغبة في تفادي عالم معقلن جداً ومريح جداً.

إن كل اليوتوبيات "المستحسنة" تبدو متشابهة في افتراض الكمال، لكنها ظلت عاجزة عن تقديم السعادة. **أخبار من اللامكان** نوع من نسخة فاضلة متكلفة من اليوتوبيا الويلزية. الكل كرماء وعاقلون، وكل الأثاث يأتي من محل الحرية، لكن الانطباع المتروك خلفها نوع من الكآبة المذقة. والمثير أكثر أن جوناثان سويفت الذي اعتبر من أعظم الكتاب الخياليين على الإطلاق، لم ينجح في بناء يوتوبيا "مستحسنة" أكثر مما قدم الآخرون.

ربما تكون الأجزاء الأولى من **رحلات غوليفار** الهجمة الأشد تخريباً على المجتمع الإنساني من كل ما كتب على الإطلاق حتى الآن. كل كلمة منها وثيقة الصلة بالحاضر؛ في أماكن تحتوي على تفاصيل دقيقة لتنبؤات بأشكال الرعب السياسي في عصرنا، لكن الأماكن التي فشل فيها سويفت، هي محاولته في وصف سلالة من الكائنات أعجبته. ففي الجزء الأخير يرينا الهوينم بالمقارنة مع الياهو المقززين، وهم عبارة عن خيول ذكية خالية من العيوب الإنسانية.

الآن هذه الخيول بكل ميزتها السامية وحسها العام الذي لا يخطئ، ظلت مخلوقات كئيبة بشكل لافت مثل قاطني اليوتوبيات الأخرى المتنوعة الذين لم يهتموا إلا في تحاشي الجلبة. يعيش الهوينم حياة هادئة خاضعة "معقولة" خالية من المنازعات والفوضى أو القلق من أي نوع، وحتى من "الرغبة العاطفية" التي تشمل الحب الجسدي؛ فهم يختارون أزواجهم على مبادئ تتعلق بتحسين النسل، ويتحاشون الإفراط في الحب، ويبدون سعداء في الموت حين يأتي وقتهم. لقد بين سويفت في الأجزاء الأولى من الكتاب إلى أين تؤدي بالإنسان حماقته ونذالته، لكن بإقصاء الحماقة والنذالة، فكل ما يبقى معه ظاهرياً هو نوع فاتر من الوجود لا يستحق العيش. ولم تكن محاولات وصف أشكال من السعادة العالمية بالتأكيد أنجح. إن الفردوس هو إخفاق عظيم مثل اليوتوبيا، وجهنم تحتل مكاناً محترماً في الأدب، ووصفت دوماً بدقة وإقناع أكبر.

من المألوف أن الفردوس المسيحي كما صور عادة، لا يجذب أحداً. كل الكتاب المسيحيين تقريباً تعاملوا مع الفردوس إما بشكل صريح على أنه لا يوصف، أو يستحضر صورة غامضة للذهب والأحجار الكريمة وغناء لا نهاية له من التراتيل. صحيح أن هذا ألهم ببعض من أفضل القصائد في العالم: جدرانك من العقيق الأبيض ومتاريسك ماسات وبواباتك من اللؤلؤ الشرقي الحقيقي تفوق الثراء والندرة! لكنها لم تستطع أن تصف حالة واحدة أراد الإنسان العادي بحماس أن يكون فيها. الكثير من القساوسة الذين أرادوا إحياء العادات السالفة وكثير من الكهنة اليسوعيين (لاحظ العظة المروعة في رواية جيمس جويس صورة الفنان مثلاً) أخافوا رعاياهم وأخرجوهم من جلودهم بصورهم الكلامية عن الجحيم. لكن حالما يأتي الأمر إلى الفردوس، فهناك سقوط وتراجع مفاجئ إلى كلمات مثل "النشوة" و"البهجة" مع محاولة صغيرة للقول مم يتكونان. ربما قطعة الكتابة الأكثر حيوية عن هذا الموضوع، هو المقطع الشهير الذي يشرح فيه تريتوليان أن إحدى متع الفردوس الرئيسية هي التفرج على تعذيب الملعونين.

إن النسخ الوثنية للفردوس أفضل قليلاً بالمجمل. يشعر المرء أنه شفق دائم في حقول إيلزية. الأوليمب حيث عاش الآلهة مع شرابهم وعطرهم وحورياتهم وهيبياتهم "المومسات الخالدات" كما وصفهن دي اتش لورانس، ربما يكون مريحاً وعائلياً أكثر من الفردوس

المسيحي، لكنك لا تفضل البقاء هناك طويلاً. بالنسبة إلى الفردوس الإسلامي بحورياته السبع والسبعين لكل رجل واحد اللواتي يطالبن بصخب في الملاطفة بنفس الوقت، فهو ليس سوى كابوس كما يفترض. ولم يقدر الروحانيون رغم تطمينهم الدائم لنا بأن "كل شيء براق وجميل"، على وصف أي نشاط في العالم الآخر يجده الشخص العاقل مقبولاً وفاتناً.

الحال نفسه مع محاولات وصف السعادة الكاملة التي ليست يوتوباوية أو من العالم الآخر، وإنما مجرد سعادة حسية، فهي تعطي دائماً الانطباع بالخلاء والسوقية أو كليهما. في بداية البتول يصف فولتير حياة تشارلز التاسع مع خليلته آغنيس سوريل، فيقول هما "سعيدان دائماً" ومم تتألف سعادتهما؟ من جولة لا تنتهي من المآدب والشراب والصيد والجماع. من لا يشمئز من هذا الوجود بعد بضعة أسابيع؟ يصف رابلياس الأرواح السعيدة التي تستمتع بوقت جيد في العالم الآخر لتعويضها عن الوقت الرديء الذي قضته في هذا العالم. الوصف أغنية لا يمكن ترجمتها إلا بشكل تقريبي: "للوثب وللرقص وللخداع ولشرب النبيذ الأبيض والأحمر وللتبطل طول اليوم ماعدا عد التيجان الذهبية" كم تبدو مملة أخيراً! خلو الفكرة بمجملها من "وقت ممتع" أبدي مبين بجلاء في صورة بيريوغل أرض الكسالى، حيث ثلاثة من البليدين البدينين جداً يستلقون نائمين، الرأس على الرأس، مع بيض مقلي وأفخاذ مشوية من لحم الخنزير تأتي لتؤكل من تلقاء ذاتها.

يبدو أن الكائنات البشرية ربما غير قادرة على وصف أو تخيل سعادة من دون شروط المقارنة. لهذا السبب يختلف مفهوم الفردوس أو اليوتوبيا من عصر إلى آخر. في المجتمع قبل الصناعي، وصف الفردوس كمكان للراحة اللانهائية، وكان مبلطاً بالذهب، لأن تجربة الإنسان العادي كانت العمل الشاق والفقر. أما حوريات الفردوس الإسلامي فتعكس مجتمعاً متعدد الزوجات؛ حيث تختفي أغلب النساء في أجنحة حريم الأثرياء. لكن هذه الصور من "النشوة الأبدية" كانت تخفق دائماً، لأن النشوة أصبحت أبدية (يعتقد أن الأبدية زمن لانهائي) وتوقف تأثير التباين. انبثقت بعض التقاليد التي تجسدت في أدبنا أولاً من الظروف المادية التي لم تعد موجودة الآن، كعبادة الربيع مثلاً. لم يكن الربيع يعني في العصور الوسطى مجرد طيور سنونو وزهور برية، بل كان يعني النباتات الخضراء والحليب واللحم الطازج بعد عدة شهور من العيش على لحم الخنزير المملح في أكواخ بلا نوافذ تعج بالدخان.

كانت أغاني الربيع مرحة، لا تفعل أي شيء سوى الأكل وشرب الأنخاب الطيبة وشكر الرب على السنة البهيجة؛ حيث اللحم رخيص والمجاعات نادرة والغلمان الشهوانيون وكل من معهم يتجولون هنا وهناك بمرح كبير! لأن هناك شيء تمرح من أجله. انتهى الشتاء، هذا هو الشيء العظيم، وعيد الميلاد نفسه عيد سابق للمسيحية، ربما بدأ لضرورة وجود انفجارات عرضية من الإفراط بالأكل والشرب لإيجاد راحة من الشتاء الشمالي الذي لا يطاق.

لقد سبب عجز البشرية عن تخيل السعادة إلا في شكل خلاص من جهد أو ألم للاشتراكيين مشكلة خطيرة. يستطيع ديكنز وصف العائلة المعدمة وهي تلتهم إوزة مشوية بنهم، ويستطيع إظهار أفرادها سعداء، بينما يبدو ساكنو العوالم المثالية من الجانب الآخر لا يملكون المرح العفوي وينفرون منه عادة أيضاً. لكن من الواضح أننا لا نهدف إلى نوع العالم الذي وصفه ديكنز أو أي عالم كان قادراً على تخيله ربما. إن هدف الاشتراكي ليس مجتمعاً يصبح فيه كل شيء في النهاية، فالسادة الشيوخ الكرماء اللطفاء يمنحون الديوك الرومية. ما هو هدفنا نحن إن لم يكن مجتمعاً تصبح فيه "الصدقة" غير ضرورية؟ نحن نريد عالماً فيه سكورج مع إيرادات أسهمه، وتايني تيم مع ساقه المصابة بالسل شيئاً غير وارد بتاتاً؟ سأخاطر بقول شيء لن يوافق عليه محررو صحيفة التريبيون، وهو أن الهدف الحقيقي للاشتراكية ليس السعادة، فالسعادة حتى الآن منتج جانبي، وبسبب كل ما نعرف ربما تظل كذلك دائماً. إن الهدف الحقيقي للاشتراكية هو الإخوة الإنسانية. هذا هو الانطباع الذي لم يعبر عنه عادة، أو لم يعبر عنه بصوت مسموع. يستهلك الناس حياتهم في صراعات سياسية محزنة ومزعجة، أو يتسببوا بقتل أنفسهم في حروب أهلية، أو يعرضوا أنفسهم للتعذيب في سجون سرية للجستابو، ليس ليوطدوا فردوساً بتدفئة مركزية وتكييف هواء وإضاءة كهربائية، وإنما لأنهم يريدون عالماً يحب فيه البشر بعضهم بعضاً بدلاً من الاحتيال على بعضهم البعض وقتل بعضهم البعض، ويريدون ذلك العالم كخطوة أولى. إلى أين سيذهبون من هناك، ذلك ليس محدداً، لكنهم يحاولون التكهن بتفصيل يشوش القضية فقط.

أجبر الاشتراكيون على التعامل مع التنبؤ، ولكن بمعانيه الواسعة. يجبر المرء على التوق إلى أهداف لا يراها إلا غامضة جداً. مع ذلك ليس لدى العالم خبرة السلام، ولن تكون لديه أبداً، إلا إذا تواجد الهمجي النبيل. يريد العالم شيئاً يدرك بشكل غامض إمكانية إيجاده، لكن لا

يستطيع تحديده بدقة. في عيد الميلاد هذا هناك آلاف الناس الذين ينزفون حتى الموت في الثلوج الروسية ويغرقون في المياه الجليدية أو ينسفون بعضهم بعضاً إلى مزق على جزر سبخية في المحيط الهادي، وأطفال مشردون ينبشون من أجل طعام وسط حطام المدن الألمانية. إن جعل هذا النوع من الشيء مستحيلاً، هو هدف جيد، لكن القول بالتفصيل عن الشكل الذي سيكون عليه العالم المسالم، هي مسألة مختلفة.

إن كل خالقي اليوتوبيات تقريباً يشبهون الرجل الذي يعاني من ألم في أسنانه، ويعتقد أن السعادة تتكون من عدم معاناة ألم الأسنان. أرادوا أن ينتجوا مجتمعاً مثالياً لانهائياً لشيء قيمته في كونه مؤقتاً. كل من يحاول تخيل الكمال، يكشف ببساطة عن خلوه نفسه. هذا هو الحال حتى مع كاتب عظيم مثل سويفت الذي استطاع أن ينتقد مطراناً أو سياسياً ببراعة كبيرة، لكنه حين حاول أن يخلق رجلاً خارقاً، تركنا في انطباع كان آخر ما يقصده بأن لدى الياهو المتعفنين احتمالية للتطور أكثر من الهوينم المتنورين.

معنى قصيدة

سوف أبدأ باقتباس قصيدة اسمها "فيليكس راندال" للشاعر الإنكليزي المشهور جيرارد مانيلي هوبكنز -كان قساً رومانياً كاثوليكياً مات عام ١٨٩٣.

آه هل مات فيليكس راندال البيطار إذاً؟ انتهت خدماتي كلها
من راقب شكله الرجولي القوي والوسيم والجسور
يهزل ويهزل حتى وقت تاه العقل فيه
وتقوت وكبرت أربعة اعتلالات هناك تتنافس كلها؟

هدّه المرض وكسره. جدف وشتم في الأول لنفاد صبره لكنه أصلح
بمسحه في الزيت وكل ما يلزم؛ كأن قلباً سماوياً بدأ قبل بضعة شهور،
منذ أن قدمت له عفونا الحلو والفدية.
آه أخيراً أراحه الرب الذي كان يغضبه دائماً طيلة دربه!

يحببنا المريض بهذا المنظر، والمنظر محبب لنا أيضاً.
لساني علمك الراحة والسلوان، ولمستي أطفأت دموعك
دموعك مست قلبي يا بني المسكين فيليكس راندال

كم بعيد ترويك وحذرك الآن عن كل سنواتك المرحة الصاخبة
حين في دكان الحدادة الكالح العشوائي كنت القوي بين أندادك
صنعت لحصان العربة الرمادي الكبير خفه الساطع الضارب!

قصيدة يطلق عليها الناس اسم قصيدة "صعبة" -لدي مبرر لاختيار قصيدة صعبة- لكن لا شك أن المسار العام للمعنى واضح تماماً. فيليكس راندال حداد - بيطار. الشاعر

الذي يكون قسه عرفه في ربيع عمره كرجل ضخم وقوي، ثم رآه يحتضر بعد أن أنهكه المرض والبكاء على سريره مثل طفل. هذا كل ما يظهر في القصيدة، لكن لنعد إلى السبب الذي اخترت من أجله متعمداً هذه القصيدة الغامضة، والتي يمكن وصفها بالقصيدة النمطية المتكلفة. هوبكينز هو من يسميه الناس بكاتب الكتّاب، يكتب بأسلوب غريب جداً وملتوٍ- ربما يكون أسلوبياً رديئاً أو إن تقليده رديء بالتأكيد. ليس من السهل فهمه أبداً، لكنه جذاب للأشخاص المحترفين المهتمين بنقاط من التكنيك. لذا تجد في أي نقد لهوبكنز أن التأكيد يتركز حول استعماله للغة، أما موضوع القصيدة فنادراً ما يلامس. وفي أي نقد شعري طبعاً، من الطبيعي أن تحكم بواسطة الأذن -لأن الكلمات في الشعر- أصوات الكلمات وتداعياتها وتناغم الصوت وتداعياته، بحيث يمكن لكلمتين أو ثلاث أن تحدث منظومة -تهم كما هو واضح أكثر مما تفعله في النثر، ولن يبقى أي مبرر للكتابة بالشكل العروضي. ومع هوبكنز بشكل خاص فإن غرابة لغته والجمال المدهش لبعض التأثيرات الصوتية التي ينجح في إحداثها، تطغى على كل شيء غيرها.

أفضل ميزة أو الميزة الأهم الخاصة كما يمكن تسميتها، هي التزامن اللفظي. إن الكلمة التي تربط القصيدة كلها وتعطيها أخيراً جواً من الجلالة، هي شعور بكونها مأساوية بدلاً من مثيرة للشفقة، هي تلك الكلمة الأخيرة "خف" التي خطرت ببال هوبكنز، لأنها صدف ولها نفس إيقاع كلمة راندال. ربما علي أن أضيف أن لكلمة صندل تأثير على القارئ الإنكليزي أكثر من تأثيرها على القارئ الشرقي الذي يرى الصندل يومياً وربما يلبسه. أما الصندل بالنسبة إلينا فهو شيء غريب ويتداعى مع الإغريق والرومان أساساً. حين يصف هوبكنز حذوة حصان العربة بصندل، فإنه يحول الحصان فجأة إلى حيوان أسطوري رائع، شيء مثل حيوان بشير. ويفرض هذا التأثير بإيقاع ممتاز في السطر الأخير.... الذي هو عبارة عن تفعيلة سداسية من نفس البحر الشعري الذي كتب به هومر وفيرجيل. بتركيب معين من أصوات وتداعياتها، نجح في رفع موت قروي عادي إلى مستوى مأساة.

لكن ذلك الأثر المأساوي لا يمكن أن يتواجد في الخلاء، وإنما على تركيبة معينة من المقاطع اللفظية. لا يمكن للمرء أن يعتبر القصيدة مجرد قالب من الكلمات على الورق كنوع من الفسيفساء. القصيدة مؤثرة بفضل مضمونها العاطفي الذي لن يكون هناك لولا معتقدات

هوبكنز وفلسفته كما كانت. إنها قصيدة من كاثوليكي أولاً وقبل كل شيء، وثانياً من رجل يعيش في لحظة محددة من الزمن، القسم الأخير من القرن التاسع عشر، حين كان الأسلوب الإنكليزي الزراعي في الحياة يتلاشى -تجمع القرية السكسونية القديمة- كان يندثر نهائياً. الشعور في كل القصيدة مسيحي. هي عن الموت، والموقف من الموت، ليس لكونه شيئاً مرحباً به أو شيئاً يجب أن يقابل بعدم اكتراث سلبي ما أمكن، وإنما هو شيء مأساوي بشكل عميق يجب تجربيه وتحمله. أعتقد أنه لو توفر للمسيحي الفرصة في حياة أبدية على الأرض لرفضها، لكنه يظل يشعر أن الموت محزن بعمق. الآن، هذا الشعور يشترط استخدام هوبكنز للكلمات. لو لم تكن من أجل علاقته الخاصة كقس، ربما لم تخطر بباله أن يخاطب الحداد الميت بكلمة "ولدي"، ولما استطاع أن يخلق العبارة التي اقتبستها "كل سنواتك المرحة الصاخبة" لولا رؤيته المسيحية بضرورة الموت وحزنه. لكن كما قلت، فإن القصيدة مشروطة أيضاً بحقيقة أن هوبكنز عاش في النهاية الأخيرة من القرن التاسع عشر. لقد عاش في تجمعات ريفية تشبه وبشكل مميز تلك التي في عصور الساكسون، وحين بدؤوا لتوهم في التفسخ تحت تأثير السكة الحديدية، استطاع أن يرى أنموذجاً مثل فيلكس راندال، حرفي القرية الصغيرة المستقلة من منظور كمنظور المرء الذي لا يرى الشيء إلا حين يتلاشى أمامه. هو يستطيع الإعجاب به مثلاً، لأن كاتباً قبل هذه الفترة ربما لم يستطع أن يفعل. وذلك هو السبب في أن الكلام عن عمله استطاع أن يستنبط عبارات مثل "الكير الكالح المرمي عشوائياً" و"القوي وسط الأنداد"

لكن المرء يعود إلى الاعتبار التقني بأن موضوعاً من هذا النوع ساعده كثيراً أسلوب هوبكنز الخاص والغريب. اللغة الإنكليزية خليط من لغات عديدة، لكن الرئيسية منها هي: السكسونية والفرنسية النورمانية. ولايزال هناك تمييز طبقي بينهما في المناطق الريفية حتى هذا اليوم. إن لغة هوبكنز الخاصة به ساكسونية جداً، فهو يميل إلى ربط عدة كلمات إنكليزية مع بعضها، بدلاً من استخدام كلمة واحدة لاتينية طويلة، كما يفعل أغلب الناس حين يريدون التعبير عن فكرة معقدة، وهو يشتق عمداً من الشعراء الإنكليز الأوائل، الشعراء الذين أتوا قبل تشوسر. يستخدم في هذه القصيدة عدة كلمات عامية.... إن إعادة خلقه جو القرية الإنكليزية، لن ينتمي إليه لولا دراسته التقنية الصرفة التي أجراها في وقت أبكر من حياته عن

الشعراء السكسونيين. ترى القصيدة على أنها تركيب لكنها أكثر من تركيب، نوع من النمو معاً -لمفردات خاصة ونظرة دينية واجتماعية خاصة. اندمجت الاثنتان معاً بشكل لا ينفصل، والكل أعظم من الأجزاء.

حاولت أن أحلل هذه القصيدة في أقصر فترة ممكنة، لكن لا شيء مما قلته يستطيع أن يشرح أو يطمس المتعة التي أخذتها منها. هذا غير قابل للتفسير، ولكونه غير قابل للتفسير، فالنقد جدير. يستطيع رجال العلم دراسة تطور حياة زهرة، أو يستطيعون أن يفصلوها إلى عناصرها المركبة، لكن هل يستطيع أي عالم أن يقول لك إن تلك الزهرة لا تصبح أقل روعة أو أكثر روعة إن عرفت كل شيء عنها.

حديث بثته البي بي سي - خدمة ماوراء البحار-١٤ مايو/ أيار ١٩٤١؛ نشرته ذا ليسنر ١٢ يونيو/ حزيران ١٩٤١.

مراجعة لبيرنت نورتون وإيست كوكر والإنقاذ الجاف للأديب تي إس إليوت

لم يترك عمل إليوت الأخير سوى القليل من الأثر العميق عليّ. هذا اعتراف بشيء ناقص في نفسي، لكنه ليس كما يبدو من النظرة الأولى مبرراً للسكوت من دون قول شيء أكثر من ذلك، لأن التغيير في رد فعلي ربما يشير إلى تغيير خارجي جدير بالاستقصاء. أنا أحفظ كمية معتبرة من أعمال إليوت المبكرة عن ظهر قلب. لم أجلس وأتعلمها، ولكنها لصقت في ذهني مثل أي مقطع شعري يمكنه أن يفعل ذلك.... ويمكنني أحياناً أن أتذكر قصيدة (من ثلاثين إلى أربعين بيتٌ) كلها بعد قراءة واحدة فقط. إن عمل الذاكرة هو عمل إعادة بناء. أما بالنسبة إلى القصائد الثلاث الأخيرة، فأعتقد أنني قرأت كل واحدة منها مرتين أو ثلاث منذ نشرها، ولم أتذكر شيئاً منها فعلياً؟ "لقد انطمر الزمن والجرس في ذلك اليوم تحت نقطة الركود في عالم يدور. مياه شاسعة من طيور النو وخنازير البحر ونتف من المقطع الذي بدأ "أوه، ظلام ظلام ظلام كلهم ذهبوا إلى داخل الظلام. كلهم ذهبوا إلى داخل الظلام" ولم أحسب عبارة "في نهايتي بدايتي" لأنها اقتباس. هذا كل ما علق برأسي تلقائياً. لا أحد يستطيع أخذ هذا كإثبات أن بيرنت نورتون والبقية أسوأ من كل القصائد السابقة التي يستظهرها المرء، إذ يمكن اعتبارها إثباتاً للعكس بأن الذي يستقر في الذهن ويبقى بسهولة كبيرة من تلقاء نفسه هو الواضح والمبتذل حتى. لكن من الواضح أن شيئاً ما رحل وتياراً ما انطفأ! الشعر الأخير لا يحتوي الشعر السابق، حتى لو زعمنا بأنه تحسين عليه. أعتقد أنه يحق للمرء أن يفسر هذا بأنه انحدار في الموضوع الذي يتناوله إليوت. قبل الذهاب بعيداً، سأقتطع للمقارنة مقطعين متقاربين جداً في المعنى. الأول يتضمن مقطعاً من الإنقاذ الجاف:

والحرية فعل صحيح في الماضي والمستقبل أيضاً/ بالنسبة إلى أغلبنا لم يتحقق هذا الهدف هنا أبداً/ نحن الذين لا ننهزم لأننا نستمر في المحاولة/ نحن قنعنا أخيراً/ أن نكوصنا المؤقت يغذي- (ليس بعيداً جداً عن شجرة الطقوس)- الحياة في التربة الهامة.

وهذا مقطع اقتطفته من قصيدة أسبق بكثير:

براعم النرجس البري بدلات من كرات/ حدقت من مقلتي عينيه/ عرف أن الفكرة تمسكت بقوة بأطراف ميتة/ شدت شهواتها وترفها/ عرف ألم نقي العظام/ وقشعريرة الهيكل العظمي/ لا يوجد اتصال ممكن مع الجسد/ يهدئ الحمى التي في العظم.

يحمل المقطعان وجه مقارنة بما أنهما يعالجان نفس الموضوع أي الموت. الأول يتبع بمقطع أطول يشرحه أولاً، والمهم أن البحث العلمي هراء وخرافة صبيانية بنفس مستوى قراءة الحظ، ثم إن الناس الوحيدين الذين يحتمل منهم أن يفهموا الكون، هم القديسون، أما البقية منا فقد بخسوا قدرهم إلى "التخمين والتلميح" الموضوع الختامي الرئيسي (الاستسلام). هناك معنى في الحياة وفي الموت أيضاً، لكن لسوء الحظ نحن لا نعرف ما هو، لكنه يوقظ زعفرانات واقع، وجوده يفترض به أن يكون مواساة وراحة لنا حين نرفع الزعفران عالياً، أو مهما يكن الذي ينمو ويكبر تحت شجرة الطقوس في مقابر الكنائس الريفية. والآن انظر إلى المقطع الثاني الذي اقتطعته، رغم أنه ينسب إلى شخص آخر ربما يعبر عما شعر به إليوت نحو الموت في ذلك الوقت في أمزجة معينة على الأقل. هو لا يعلن الاستسلام، بل على العكس هو يعلن الموقف الوثني تجاه الموت والإيمان بالعالم الآخر كمكان مظلم غامض مملوء بالأشباح التي تصرخ حاسدة الأحياء، والاعتقاد أن الحياة مهما كانت سيئة، فإن الموت أسوأ. هذا الفهم للموت، يبدو أنه عام منذ الأزمنة القديمة، وعام الآن أيضاً. "ألم نقي العظام وقشعريرة الهيكل العظمي" وقصيدة هوراس الشهيرة ايهيو فوغاكيس، وأفكار بلوم التي لم يتفوه بها أثناء جنازة بادي ديغنام تشبه بعضها تماماً تقريباً. طالما ينظر الإنسان إلى نفسه كفرد، فيجب أن يكون موقفه من الموت استياء بسيطاً، مهما كان هذا الموقف غير مقنع. إن كان الشعور به كثيفاً، فقد ينتج عنه أدب أكثر جودة مما يرجى من الإيمان الديني الذي لا يُشعر به إطلاقاً، وهو مجرد قبول ضد البذرة العاطفية. وبقدر ما تذهب إليه المقارنة، يثبت المقطعان اللذان اخترتهما هذا كما يبدوان لي. لا أظن أن هناك شكاً بأن الشعر في المقطع الثاني أفضل وأسمى بما لا يقبل الشك، وأشد توتراً للمشاعر، بالرغم من الأثر القليل من المحاكاة الساخرة فيه.

ما الذي تدور حوله هذه القصائد الثلاث بيرنت نورتون والبقية؟

ليس من السهل القول عما تدور حوله، لكن ما يظهر على السطح أنها حول مناطق في إنكلترا وأميركا للسيد إليوت علاقات أسلاف وأجداد معها. اختلط معها تأمل كئيب لطبيعة الحياة وهدفها، مع استنتاج غير محدد ذكرته آنفاً. للحياة معنى، لكنه ليس معنى يشعر المرء بالميل كي يزداد غنائية نحوه. يوجد إيمان، لكن لا يوجد أمل كثير ولا حماس بالتأكيد. إن موضوع قصائد إليوت المبكرة مختلف جداً عن هذا. لم تكن مفعمة بالأمل، لكنها لم تكن كئيبة أو مثيرة للكآبة. إن أراد المرء التعامل في المتضادات، يمكن القول إن القصائد اللاحقة إيمان كئيب، والقصائد المبكرة يأس متوهج. لقد تأسست على مأزق الرجل الحديث الذي يئس من الحياة، ولا يريد أن يموت، وفوق كل هذا تعبر القصائد عن رعب المثقف المتحضر جداً في مواجهة القبح والخلاء الروحي لعصر الآلة.

تبدل الموضوع الرئيسي من "غير بعيد جداً عن شجرة الطقوس" إلى "حشود باكية باكية" أو "ربما الأظافر المكسرة للأيدي المتسخة". هذه القصائد يجب أن تشجب كقصائد "منحطة"، ولم يتوقف الهجوم حين ظهرت لأول مرة إلا عندما أدرك أن ميول إليوت السياسية والاجتماعية "رجعية"، وكان هناك إحساس بإمكانية تبرير تهمة "منحطة".

من الواضح أن هذه القصائد كانت النتاج النهائي من تقليد ثقافي وقصائد لا تخاطب إلا الجيل الثالث المثقف من رانتير (الذي يأتي دخله من إيراد السندات) والناس القادرين على الشعور والانتقاد، ولكنهم لم يعودوا قادرين على الفعل. أي إم فورستر أثنى على بروفروك في أول ظهور لها، لأنها "تغنت بالناس الذين كانوا غير فعالين وضعفاء" ولأنها كانت "بريئة من الروح الشعبية" هذا كان أثناء الحرب الأولى حين كانت الروح الشعبية متقدة أكثر مما هي عليها الآن. إن الصفات النوعية لأي مجتمع لكي يدوم أطول من جيل واحد عملياً، يجب أن تعزز وتقوي الصناعة والشجاعة والوطنية والازدهار والتوفير وحب الأهل للذرية والنسل، والتي من الواضح أنه لا مكان لها في قصائد إليوت المبكرة. لا مكان هناك إلا لمثل وقيم رينتير (الذي يسحب إيراده من السندات) وقيم الناس الذين يعجزون عن القتال أو حتى التكاثر بسبب تحضرهم المفرط. لكن ذلك هو الثمن الذي يجب دفعه لكتابة قصيدة تستحق القراءة.

إن الذي شعر به الناس الحساسون، هو مزاج الكسل والتراخي والسخرية والكفر والاشمئزاز، وليس الحماس القوي المطلوب من تابعي الفرسان والمربرات. من الرائج القول إن

المهم في الشعر هو الكلمات فقط، أما المعنى فغير لازم. لكن في الواقع كل قصيدة تحتوي على معنى نثري، وحين تكون القصيدة جيدة يكون معناها هو المعنى الذي رغب الشاعر بقوة أن يعبر عنه. كل الفنون عبارة عن دعاية إلى حد ما. "بروفروك" تعبير عن العبث، لكنها أيضاً قصيدة ذات حيوية وقوة رائعة، تبلغ أوجها في نوع من الانفجار الصاروخي في المقاطع الختامية:

رأيتهم يركبون البحر على الأمواج/ يتسلقون الشعر الأبيض للموجات العاصفة المرتدة/ حين تعصف الريح بالماء وتقذفه أبيض وأسود؟ تسكعنا في حجرات البحر/ بجانب حوريات البحر المكللات بالعشب البحري الأحمر والبني/ إلى أن أيقظتنا أصوات بشرية وغرقنا في الماء.

لا يوجد شيء مثل هذا في القصائد المتأخرة، علماً أن يأس رينتير الذي تأسست عليه هذه الأبيات قد أسقط عمداً. لكن المشكلة هي أن العبث المقصود شيء للصغار فقط. لا يستطيع المرء أن يستمر "باليأس من الحياة" حتى يصل إلى عمر متقدم وناضج. لا يستطيع المرء أن يستمر في "التفسخ والانحطاط" بما أن الانحطاط يعني السقوط، ولا يمكننا القول إن المرء سقط، إلا إذا كان سيصل إلى القاع قريباً جداً. عاجلاً أو آجلاً فالمرء ملزم بأن يتبنى موقفاً إيجابياً نحو الحياة والمجتمع. سيكون من المجحف القول إن كل شاعر في زمننا يجب إما أن يموت صغيراً أو يدخل الكنيسة الكاثوليكية أو ينضم إلى الحزب الشيوعي، لكن في الحقيقة فإن النجاة والفرار من الشعور بالعبث هو عبر تلك الخطوط. توجد هناك حالات أخرى من الموت بالإضافة إلى الموت البدني، وهناك طوائف وعقائد أخرى بالإضافة إلى الكنيسة الكاثوليكية والحزب الشيوعي، لكن يبقى من الصحيح أنه بعد عمر محدد، يجب على المرء إما أن يتوقف عن الكتابة أو أن يكرس نفسه لغرض وهدف ما غير فني وجمالي البتة. مثل هذا التكريس، يعني بالضرورة قطعاً مع الماضي:

كل محاولة هي بداية جديدة بالكامل ونوع مختلف من الفشل/ لأن المرء تعلم فقط أن يقهر الكلمات/ بالنسبة إلى الشيء الذي لم يعد أحد يتكلم عنه أو الطريقة التي/ فيها لم يعد المرء ميالاً إلى قوله. ولهذا كل مغامرة/ تكون بداية جديدة، غارة على الممتنع عن التعبير/ بمعدات بالية دائماً تتلف وتفسد/ في الفوضى العامة من غموض الشعور/ فرق غير منضبطة من العاطفة.

كان فرار إليوت فراراً من الفردانية إلى الكنيسة، الكنيسة الإنجليكانية كما حدث. يجب على المرء ألا يفترض أن البيتانية (نسبة إلى بيتان) الكئيبة التي استسلم لها الآن كما يبدو أنه كانت نتيجة محتومة لتحوله واعتناقه المذهب الجديد. الحركة الكاثوليكية لا تفرض أي "خط" سياسي على أتباعها، وكان الميل الرجعي المساوي الفاشي ظاهراً دائماً في عمله، وخصوصاً كتاباته النثرية. نظرياً لا يزال ممكناً أن يكون مؤمناً أرثوذوكسياً متديناً من دون أن يكون معطلاً ثقافياً في العملية، لكن هذا ليس سهلاً وعملياً. الكتب التي يكتبها المؤمنون الأرثوذوكس تظهر عادة نفس النظرة العمياء المحدودة والضيقة، مثل كتب الستالينيين الأرثوذكس أو الآخرين غير المتحررين عقلياً. السبب هو أن الكنائس المسيحية مازالت تطالب بالموافقة على العقائد التي لا يؤمن بها أحد بشكل جدي. الحالة الأكثر وضوحاً هي خلود الروح. "الإثباتات" المختلفة عن خلود الروح التي يمكن للمدافع المسيحي تقديمها، ليس لها أهمية من الناحية النفسية. ما يهم نفسياً أنه نادراً ما يشعر أي أحد أن نفسه خالدة. قد يكون العالم الآخر "مصدقاً به" بمعنى ما، لكن ليس بنفس الواقعية والصدق ولو من بعيد في عقول الناس كما في بضعة قرون سلفت. قارن مثلاً الغمغمة الكئيبة لهذه القصائد الثلاثة مع "القدس وطني السعيد" المقارنة ليست حمقاء البتة. في الحالة الثانية لديك رجل العالم الآخر حقيقي بالنسبة إليه كالعالم الأول هذا. صحيح أن رؤيته له سوقية بشكل لا يصدق- تدريب جوقة في محل مجوهرات-لكنه يؤمن فيما يقوله، وإيمانه يعطي حيوية لكلماته. في الحالة الأخرى لديك رجل لا يشعر في الواقع بإيمانه، لكنه يذعن له لأسباب معقدة. إنه لا يعطيه بحد ذاته أي دافع أدبي جديد. في مرحلة محددة يشعر بالحاجة إلى "هدف" ويريد "هدفاً" هدفاً رجعياً وليس تقدمياً؛ الملجأ المتاح الفوري هو الكنيسة التي تطالب أعضاءها بسخافات ثقافية، لهذا يصبح عمله مستمراً حول هذه السخافات ومحاولة جعلها مقبولة لنفسه. لا تملك الكنيسة أي صورة بلاغية حية وأي مفردة جديدة تقدمها:

الراحة هي الصلاة ومراعاة القوانين والانضباط والفكر والعمل.

ربما ما نحتاج إليه هو الصلاة ومراعاة القوانين إلخ، لكنك لن تؤلف بيتاً من الشعر برصف تلك الكلمات مع بعضها. يتكلم السيد إليوت أيضاً عن الصراع الذي لا يحتمل مع الكلمات والمعاني، أما الشعر فغير مهم. أنا لا أعرف لكن يجب أن أتخيل أن ذلك الصراع مع

الكلمات والمعاني يجب أن يبدو أصغر، والشعر يجب أن يبدو مسألة أهم إن استطاع أن يجد طريقه إلى عقيدة ما لا تبدأ بإجبار المرء على الإيمان بالذي لا يصدق.

لا يمكن القول إن تطور السيد إليوت كان يجب أن يكون شيئاً آخر أكثر مما كان عليه. كل الكتاب الجيدين تطوروا في حياتهم، وكان الاتجاه العام لتطورهم ثابتاً. من السخف أن نهاجم أورويل كما فعل بعض النقاد اليساريين، لكونه "رجعياً"، وأن نتخيل أنه كان يجب أن يستخدم مواهبه في قضية الديمقراطية والاشتراكية. من الواضح أن الشكوكية بالديمقراطية وعدم الإيمان بـ "التقدم" جزآن مكملان له، ومن دونهما لم يكن يستطيع أن يكتب سطراً واحداً من أعماله. لكن من القابل للأخذ والرد أنه من الأفضل لو ذهب أكثر في الاتجاه المتضمن في بيانه الشهير "الأنغلو- كاثوليكي والملكي". لم يكن بمقدوره التطور إلى اشتراكي، لكن كان يمكن أن يتطور إلى آخر المدافعين عن الأرستقراطية.

لا الإقطاعية ولا الفاشية بالضرورة مميتتان للشعراء كما يكونا لكتاب النثر. إن الشيء المميت فعلياً لكليهما، هو النزعة المحافظة من النوع الحديث الواهن. على الأقل يمكن التخيل لو أن إليوت اتبع النزعة المعادية للديمقراطية والمعادية لتحسن الإنسان التي في نفسه، لربما كان قد ضرب عرقاً مشابهاً لعرقه المبكر. لكن البيتانية السلبية التي تحول أعينها عن الماضي وتقبل بالهزيمة وتمحي السعادة الأرضية كشيء مستحيل، تغمغم بشأن الصلاة والتوبة، وتعتقد أن رؤية الحياة كـ "أنموذج لحشرات حية في أحشاء نساء كانتربيري" هو تقدم روحي- ذاك بالتأكيد هو الطريق المفعم بالأمل الأقل الذي يمكن للشاعر أن يسلكه.

بويتري لندن- أكتوبر/ نوفمبر ١٩٤٢

مراجعة العدو الاستبدادي - بوركيناو

رغم أن هذا الكتاب ليس من أفضل أعمال الدكتور بوركيناو، إلا أنه يحتوي على دراسة جيدة لطبيعة النظام الاستبدادي، وفي الحقيقة من الضروري أن تقرأ في هذه اللحظة. نحن لن نناضل ضد الفاشية إن لم نكن راغبين ومستعدين لفهمها، وهذا ما فشل فيه كل من اليمنيين واليساريين بشكل واضح، طبعاً لأنهم لم يجسروا على ذلك. كانت فرضيتهما حتى توقيع الاتفاقية الروسية الألمانية، أن النظام النازي ثوري. إن الاشتراكية القومية رأسمالية مكشوفة ببساطة، وهتلر كان دمية، وتايسين يشد الخيوط -تلك النظرية الرسمية المثبتة في كراس للسيد جون ستاركي والمقبولة ضمناً من التايمز.

صدقها كل من البليمبز وأعضاء نادي الكتاب اليساري على السواء بسذاجة بالكامل، وثبتنا اهتمامها بتجاهل الوقائع الحقيقية. من الطبيعي جداً أن تريد الطبقات المالكة التصديق بأن هتلر سيحميها من البلشفية، وطبيعي جداً أن يكره الاشتراكيون الاعتراف بأن الرجل الذي قتل رفاقهم كان اشتراكياً. لهذا كرست جهود مسعورة من كلا الطرفين لنفي التشابه اللافت والمتزايد بين نظامي الحكم الألماني والروسي. ثم كانت اتفاقية هتلر وستالين صدمة. فجأة كان كل من غثاء الأرض وجزار العمال الملطخ بالدم (كما وصف كل منهما الأخر) يسيران معاً، فصداقتهما "تقوت بالدم" كما قال ستالين مبتهجاً. بعدها أصبحت فرضية ستاركي وبليمبز نظرية يتعذر الدفاع عنها. إن الاشتراكية القومية شكل من أشكال الاشتراكية، وثورية بالتأكيد، وستسحق صاحب الملكية كما سحقت العامل. انطلق كلا النظامين من نهايتين متعاكستين ويدوران بسرعة نحو نفس النظام -شكل من الجماعية الأوليغاركية. في الوقت الراهن ألمانيا هي من يتحرك نحو روسيا، وليس العكس، لذلك فإن الحديث عن تحول ألمانيا إلى دولة بلشفية إن سقط هتلر، هو محض هراء. ألمانيا ستكون بلشفية بسبب هتلر وليس رغماً عنه.

السؤال الذي يطرح نفسه فعلياً، ليس كيف استطاع النازيون أن يبدأوا كمنقذين للعالم من البلشفية، وانتهى بهم الأمر كبلاشفة، وإنما كيف استطاعوا أن يفعلوها من دون

أن يخسروا سلطتهم أو ثقتهم بالنفس. يشير الدكتور بوركيناو إلى سببين؛ الأول اقتصادي والثاني نفسي. كان هدف النازيين منذ البداية تحويل ألمانيا إلى آلة حرب، لكن الدولة الفقيرة خصوصاً التي تشن حرباً شاملة أو تعدّ لها، يجب أن تكون اشتراكية بمعنى ما. حين تستولي الدولة على الصناعة، يقلّ مركز الرأسمالي المالك إلى مجرد مدير. وحين تكون البضائع الاستهلاكية نادرة تخضع لنظام حصص صارم لدرجة لا يستطيع الفرد فيه صرف دخل كبير حتى لو استطاع كسبه، حينئذ تتواجد التركيبة الاشتراكية مسبقاً بالإضافة إلى مساواة شيوعية الحرب المزعجة. في قضية الاكتفاء، وجد النازيون أنفسهم يصادرون ويؤممون ويدمرون الناس الذي خططوا لحمايتهم، وذلك لم يقلقهم، لأن هدفهم كان السلطة وليس أي شكل خاص بالمجتمع. إنهم مستعدون ليكونوا حمراً كما هم بيض، شرط أن يظلوا في القمة. إن كانت الخطوة الأولى سحق الاشتراكيين تحت نغمة الشعارات المعادية للماركسية، فهذا جيد وممتاز، فلنسحق الاشتراكيين. وإن كانت الخطوة الثانية سحق الرأسماليين على نغمة الشعارات الماركسية، فهذا جيد وممتاز، فلنسحق الرأسماليين. إنها مصارعة حرة، ليس فيها قاعدة سوى الفوز. منذ عام ١٩٢٨ أبدت روسيا انقلابات مشابهة نزعت دائماً إلى إبقاء الزمرة الحاكمة في السلطة. بالنسبة إلى حملات الكره التي تطلق عنانها الأنظمة الشمولية بلا توقف، هي أصيلة أثناء دوامها، لكن ضرورات اللحظة هي من تمليها ببساطة. اليهود والبولونيون والتروتسكيون والإنكليز والفرنسيون والتشيك والديمقراطيون والفاشيون والماركسيون- أو أي واحد تقريباً، يمكن أن يصور بأنه عدو الشعب رقم واحد، ويمكن تحويل الكره في أي اتجاه في غمضة عين مثل نافخ لهب السمكري. إن الدكتور بوركيناو أقل قبولاً بخصوص المظاهر الاستراتيجية للحرب. إنه متفائل جداً بخصوص الموقف الإيطالي المحتمل، وبخصوص التأثيرات العسكرية المحتملة للاتفاقية الروسية الألمانية، وبخصوص تضامن الجبهة الداخلية، والأهم بخصوص قوة الحكومة الحالية للفوز بالحرب والفوز بالسلام. أساساً، كما يرى ويشير، إن ما يجب علينا فعله هو ترتيب بيتنا الداخلي، كي نحول شكلاً من الجماعية أكثر إنسانية وحرية إلى نوع وتشكيلة من التطهير والرقابة. يمكننا فعل ذلك بسرعة، لكننا بحاجة إلى إيمان صادق وقناعة بأن الحكومة تفعلها.

أتمنى لو يكتب الدكتور بوركيناو كتاباً أطول وأفضل حول ذات الموضوع تقريباً. الكتاب الحالي، رغم المقاطع الذكية والممتازة، يبدو أنه كتب بعجالة وفيه أخطاء في الترتيب. مع ذلك يبقى الدكتور بوركيناو واحداً من أثمن الهدايا التي قدمها هتلر لإنكلترا. في فترة كانت كل الكتب عن السياسة الراهنة تقريباً مجرد أكاذيب أو حماقات أو كليهما، يظل كتابه واحداً من الأصوات العاقلة المسموعة في الأرض، وقد يستمر طويلاً.

ملاحظات على الطريق

بعد قراءة كتاب السيد مالكولم مغريدج الرائع والمثير للكآبة، الثلاثينيات، تذكرت خدعة قاسية لعبتها مرة على دبور كان يرضع مربى من طبقي فقطعته إلى نصفين. لم يكترث، وتابع وجبته، بينما جرى سيل بالغ الصغر من المربى من مريه المنفصل. لم يدرك الشيء المرعب الذي حدث له، إلى أن حاول أن يطير. الشيء نفسه يحدث مع الرجل الحديث. الشيء الذي فصل روحه، وكانت هناك فترة -عشرين سنة ربما- لم يلاحظ ذلك خلالها.

كان من الضروري بلا ريب أن تُفصل الروح. الاعتقاد الديني بالشكل الذي عرفناه وجب أن يهجر. في القرن التاسع عشر، كان في جوهره أكذوبة مسبقاً وأداة شبه واعية لإبقاء الغني غنياً والفقير فقيراً. كان على الفقراء أن يقنعوا بفقرهم، لأن كل شيء سيعوض لهم في عالم ما بعد القبر الذي صُور دائماً على أنه منتصف الطريق بين حدائق كيو ومحل المجوهرات. عشرة آلاف في السنة لي وجنيهان في الأسبوع لك، ورغم ذلك كلنا أبناء الرب. وسرت في نسيج المجتمع الرأسمالي كله كذبة مماثلة، كانت ضرورية بشكل مطلق للخداع والسرقة.

وبناء عليه، كانت هناك فترة طويلة، كان كل شخص عاقل تقريباً خلالها متمرداً بمعنى ما، وعادة متمرداً غير مسؤول تماماً. الأدب في جله كان أدب ثورة وتفسخ. جيبون وفولتير وروسو وشيلي وبايرون وديكنز وستندال وصامويل بتلر وإبسن وزولا وفلوبير وشو وجويس -كلهم مدمرون بطريقة أو بأخرى وهدامون ومخربون. لمائتي عام نشرنا ونشرنا ونشرنا في الغصن الذي كنا نجلس عليه. وفي النهاية وبشكل أسرع مما تم التنبؤ به وأشد فجأة كوفئت جهودنا وسقطنا إلى الأسفل. لكن لسوء الحظ كان هناك خطأ صغير. الشيء الذي في القاع لم يكن فراشاً من الزهور، وإنما كان مبولة مملوءة بأسلاك شائكة.

كان الأمر كما لو أننا انزلقنا وعدنا إلى العصر الحجري في فترة السنوات العشر، وعادت إلى الظهور فجأة ثانية أنواع إنسانية انقرضت منذ قرون مثل الدرويش الراقص وشيخ السلابين والمحقق العظيم، وهم ليسوا كنزلاء مصحات ومجانين، وإنما كسادة للعالم، إذ لم تكف المكننة

والاقتصاد الجمعي على ما يبدو، اللذان أديا لوحدهما إلى الكابوس الذي نحن نعيشه الآن: حرب لانهاية لها ونقص تغذية لانهاية له بسبب الحرب، وشعوب من عبيد يكدحون خلف الأسلاك، ونساء جررن إلى المقصلة وهن يزعقن، وأقبية فلينية مخططة ينسف الجلاد فيها أدمغتكم برصاص من الخلف. لهذا يبدو أن بتر الروح ليس مجرد عملية جراحية بسيطة مثل استئصال الزائدة الدودية، فالجرح له ميل إلى التعفن.

فحوى كتاب السيد مغريدج محتوى في نصين من كتاب العهد القديم: "تفاهة التفاهات" يقول المبشر "كل شيء غرور، واخشوا الرب واحفظوا وصاياه: لأن هذا هو واجب الإنسان كله". إنها وجهة نظر حظيت بانتشار واسع مؤخراً وسط أناس كانوا يسخرون منها منذ بضع سنوات فقط. نحن نعيش في كابوس لأننا بالضبط حاولنا أن نشيد فردوساً أرضياً. لقد آمنا بـ "التقدم" ووثقنا بالقيادة البشرية، وأعطينا لقيصر الأشياء التي تعود للرب -ذلك هو الخط الفكري تقريباً.

لسوء الحظ، لم يظهر السيد مغريدج أي علامة عن إيمانه بالرب، أو يبدو أنه سلم كأمر بديهي على الأقل بتلاشي هذا الإيمان من العقل الإنساني. ليس هناك شك كبير بأنه محق هناك. وإن افترض عدم وجود قانون يمكن أن يظل فعالاً إلى الأبد سوى القانون فوق الطبيعي، فسيتضح ما يتلو ذلك. ليس هناك حكمة إلا في مخافة الرب، لكن لا أحد يخشى الرب، لذلك ليست هناك حكمة. يصغر التاريخ الإنساني نفسه إلى ظهور وأفول الحضارات المادية وأبراج بابل واحداً تلو الآخر، ما يجعلنا متـأكدين مما ينتظرنا في تلك الحالة. حروب ومزيد من الحروب أيضاً وثورات وثورات مضادة، هتالرة وهتالرة كبار -وهكذا نزولاً نحو الهاوية التي مجرد التفكير فيها يثير الفزع، لكنني أشك إن كان السيد مغريدج قد استمتع بهذا المشهد.

لا بد أنني كنت في حوالي الثلاثين حين تكهن السيد هيلاري بيلوك، في كتابه **دولة الرق** بدقة مذهلة بالأشياء التي تحدث الآن، لكن لسوء الحظ ليس لديه علاج يقدمه. لم يستطع تخيل شيء بين العبودية والعودة إلى الملكية الصغيرة التي من الواضح أنها لن تحدث ولا تستطيع أن تحدث في الحقيقة. وهناك خلاف "صغير" الآن في تفادي المجتمع الجمعي التعاوني (الاشتراكي). والسؤال الوحيد هو هل كان سيتأسس على التعاون الإرادي أم على

البنادق الرشاشة؟ فشلت مملكة الرب بالتأكيد، فهي أسلوب قديم، لكن من الجانب الآخر فشلت "الواقعية الماركسية" أيضاً بغض النظر عما قد تنجز مادياً. على ما يبدو لا يوجد بديل سوى الشيء الذي حذرنا ضده بشكل جدي السيد مغريدج والسيد اف ايه فويت والآخرون الذين يفكرون مثلهما: "مملكة الأرض" المثيرة جداً للسخرية، هي مفهوم مجتمع يعرف الرجال فيه أنهم فانون، ورغم ذلك راغبون في التصرف كإخوة.

الإخوة تتضمن أباً مشتركاً. لذلك نوقش كثيراً أن البشر لن يستطيعوا أبداً تطوير الشعور المجتمعي إذا لم يؤمنوا بالرب. الجواب هو أن أغلبهم طوروه بطريقة شبه شعورية مسبقاً. إن الإنسان ليس فرداً وإنما خلية في جسد أزلي وهو مدرك لهذا بشكل مبهم. لا توجد طريقة أخرى لتفسير سبب موت الرجال في المعارك. ومن الهراء القول إنهم يفعلون ذلك لأنهم مدفوعين بالقوة إلى ذلك فقط، فلو وجب قسر كل الجيوش، لما كان خوض أي حرب أمراً ممكناً. الرجال يموتون في المعركة -ليسوا مسرورين طبعاً لكن طوعاً في أي حال بسبب مجردات تُسمى "الشرف" و"الواجب" و"الوطنية" وهلم جرا.

كل ما يعنيه ذلك حقيقة، هو أنهم مدركون لكائن حي ما أكبر بكثير من أنفسهم يمتد إلى المستقبل والماضي ويشعرون ضمنه بأنهم خالدون. "من يمت إن عاشت إنكلترا؟" تبدو كلاماً طناناً، لكن لو بُدلت "إنكلترا" بما تفضل لأمكنك أن ترى أنه يعبر عن واحد من الدوافع الأساسية للسلوك الإنساني. يضحي الناس بأنفسهم من أجل جماعات متشظية - الأمة أو العرق أو العقيدة أو الطبقة-ولا يدركون أنهم ليسوا أفراداً إلا في اللحظة التي يواجهون فيها الرصاص. يمكن نقل الزيادة الخفيفة جداً في الوعي وإحساسهم بالولاء للإنسانية نفسها التي ليست فكرة مجردة.

كان كتاب السيد ألدوس هكسلي **عالم جديد وشجاع** كاريكاتيراً جيداً لليوتوبيا المتعية، الشيء الذي بدا ممكناً وحتى وشيكاً قبل ظهور هتلر، لكن ليس له أي علاقة بالمستقبل الحقيقي. ما نتحرك نحوه الآن هو شيء أشبه بمحكمة التفتيش الإسبانية، وربما أسوأ بفضل الراديو والشرطة السرية. إن الفرصة في تفاديه قليلة، إلا إذا استطعنا إعادة الإيمان بالإخوة الإنسانية التي لا تحتاج إلى "عالم تال" تستمد معناها منه. إنه هو الذي يرشد الناس الأبرياء

مثل كاهن كانتربيري إلى التخيل بأنهم اكتشفوا المسيحية الحقيقة في روسيا السوفيتية. لا شك أنهم ليسوا سوى ضحايا مغفلين للدعاية، لكن الذي يجعلهم راغبين جداً بأن يُخدعوا، هي معرفتهم أن مملكة الرب يجب أن تُجلب إلى سطح الأرض بشكل أو بآخر. لسنا مضطرين لأن نكون أولاد الرب حتى لو لم يعد لرب كتاب الصلاة وجود.

الناس الذين نسفوا حضارتنا أنفسهم، كانوا مدركين أحياناً أن قول ماركس الشهير "الدين آفيون الشعب" قد انتزع من سياقه عادة وأعطي معنى مصقولاً لكنه مختلف عن المعنى الذي أعطاه ماركس له. لم يقل ماركس في أي حال في ذلك المقام أن الدين مجرد مخدر سُلم من الأعلى، بل إنه شيء ابتدعه الناس لأنفسهم لسد حاجة اعترف هو بأنها كانت حقيقية. "الدين هو حسرة الروح في عالم لا روح فيه. الدين آفيون الشعب". ماذا قال سوى أن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده وأن الكره ليس كافياً، وأن عالماً يستحق العيش فيه لا يمكن أن يؤسس على "الواقعية" والبنادق الرشاشة؟ لو تكهن بحجم تأثيره الفكري الكبير لربما قال ذلك مراراً وبصوت أعلى.

نشرت لأول مرة: تايم أند تايد

٣٠ آذار/ مارس و٦ نيسان/ أبريل ١٩٤٠.

ملاحظة حول السيرة الذاتية

لقد ولدتُ في موتيهاري البنغالية عام ١٩٠٣ وكنت الابن الثاني لعائلة أنغلوهندية. تعلمت في إيتون من ١٩١٧ إلى ١٩٢١ لأنني كنت محظوظاً في الفوز بمنحة دراسية، لكنني لم أقم بأي عمل هناك ولم أتعلم سوى القليل جداً، وأنا لا أشعر أن إيتون كان لها أي تأثير تشكيلي كبير على حياتي.

من عام ١٩٢٢ إلى ١٩٢٧ خدمت في الشرطة الإمبريالية الهندية في بورما. تركت هذه الوظيفة، لأن المناخ دمر صحتي جزئياً وجزئياً الأفكار الغامضة التي كانت لدي عن كتابة الكتب، لكن بالدرجة الأولى لأنني لم أستطع أن استمر وقتاً أطول في خدمة الإمبريالية التي بتّ أعتبرها ككل خدعة وابتزاز. حين عدت إلى أوروبا، عشت لمدة سنة ونصف تقريباً في باريس أكتب الروايات والقصص القصيرة التي لم يرغب أحد في نشرها. بعد أن نفدت نقودي، مررت بعدة سنوات من الفقر القاسي عملت خلالها كغاسل أطباق ومعلم خصوصي ومعلم في مدارس خاصة من بين أشياء أخرى، كما عملت أيضاً بوقت جزئي مساعداً في مكتبة في لندن، وهي وظيفة كانت ممتعة بحد ذاتها، لكن سلبيتها أنها أجبرتني على العيش في لندن، وهو ما كنت أكرهه. في عام ١٩٣٥ استطعتُ أن أعيش على ما كنت أكسبه من الكتابة. وفي نهاية تلك السنة انتقلت إلى الريف، وأسست مخزناً صغيراً عاماً لكنه لم يكن مجدياً ويسدد تكاليفه، لكنه علمني أشياء عن التجارة ستكون مفيدة إن قمت بأي مشروع في ذلك الاتجاه مرة ثانية. تزوجت في صيف عام ١٩٣٦. في نهاية السنة ذهبت إلى إسبانيا لأشارك في الحرب الأهلية ولحقت زوجتي بي بعد ذلك بوقت قليل. خدمت أربعة أشهر على جبهة أراغون مع ميليشيا البيوم (حزب عمالي من اتحاد الماركسيين) وقد جرحت جرحاً بليغاً، لكن لحسن الحظ لم تكن له مضاعفات خطيرة. منذ ذلك الوقت باستثناء قضائي شتاء واحداً في المغرب، يمكنني أن أقول بصدق إنني لم أقم بأي عمل سوى كتابة الكتب وتربية الدجاج وزرع الخضار.

ما رأيته في إسبانيا وما رأيته فيها بعد من الأعمال الداخلية للأحزاب السياسية اليسارية، سبّب لي رعباً من السياسة. كنت لوقت قصير عضواً من حزب العمال المستقل، لكني تركته في بداية الحرب الحالية، لأنني اعتبرت أنهم كانوا يتحدثون بكلام أحمق ويقترحون خطأً سياسياً لا يفيد إلا في تسهيل الأشياء لصالح هتلر. في العاطفة والوجدان والفكر أنا "يساري"، لكني أؤمن أن الكاتب يبقى صادقاً فقط إن بقي متحرراً من كل الصفات والوسومات الحزبية.

الكتّاب الذين أبالي بهم كثيراً ولم أضجر منهم أبداً هم: شكسبير وسويفت وفيلدينغ وديكنز وتشارلز ريد وصامويل بتلر وزولا وفلوبير. ومن بين الكتاب الحديثين جيمس جويس وتي إس إليوت ودي اتش لورانس. لكن أعتقد أن الكاتب الحديث الذي أثر عليّ أكثر من غيره هو سومرست موم، الذي يعجبني بشكل هائل بسبب مقدرته وقوته على سرد القصة بشكل مباشر ومن دون تكلف وزخرفة. خارج عملي، فإن الشيء الذي أهتم به جداً هو العمل في حديقة البيت وخصوصاً زراعة الخضار. أحب الطبخ الإنكليزي والبيرة الإنكليزية والنبيذ الفرنسي الأحمر والنبيذ الإسباني الأبيض والشاي الهندي والتبغ الثقيل والقوي ونار مواقد الفحم وضوء الشموع والمقاعد المريحة. أكره المدن الكبيرة والضجيج والسيارات والراديو والطعام المعلب والتدفئة المركزية و"الأثاث" الحديث. ذوق زوجتي يشبه ذوقي تماماً تقريباً. صحتي بائسة، لكنها لم تمنعني أبداً من عمل أي شيء أردت عمله حتى الآن، باستثناء القتال في الحرب الحالية. ينبغي أن أذكر على الرغم من كون هذا السرد والوصف الذي قدمته عن نفسي صحيحاً، إلا أن جورج أورويل ليس اسمي الحقيقي.

أنا لا أكتب رواية في هذه اللحظة، وذلك بسبب الاضطرابات التي تعود إلى الحرب بشكل رئيسي. لكن أنا أخطط لرواية طويلة مؤلفة من ثلاثة أجزاء وسأسميها إما الأسد ووحيد القرن أو السريع والميت، وأتمنى أن أنتج القسم الأول منها في وقت ما من عام ١٩٤١.

المنشورات:

بائس ومتشرد في باريس ولندن ١٩٣٣

أيام في بورما (نشرت في أمريكا قبل أن تنشر بشكل معدل قليلاً في إنكلترا ١٩٣٤).

ابنة القس ١٩٣٥.

لتبقى الزنبقة ترفرف ١٩٣٦.

الطريق إلى رصيف ويغان ١٩٣٧

الحنين إلى كاتالونيا ١٩٣٨

الصعود إلى الهواء ١٩٣٩.

داخل الحوت ١٩٤٠

كتبت في ١٧ أبريل نيسان ١٩٤٠ لمؤلفي ذا تونتيث سنتشري: ستانلي جيه كونتيز واتس هايكرافت ودبليو اتش ويلسون.

مذكرة داخلية للبي بي سي

من: إيريك بلير، القسم الهندي/ الموضوع: تعليق إخباري أسبوعي/ إلى: مدير الخدمة الشرقية/ سري – ١٥ أكتوبر تشرين أول ١٩٤٢.

بخصوص الاقتراح بأنني يجب أن أبث المراجعة النقدية الإخبارية الأسبوعية (إلى الهند) باللغة الإنكليزية باسمي أقصد جورج أورويل. المتحدثون الأربعة الذين يقومون بهذا في الوقت الحاضر بالتناوب، متعاقدون حتى السابع من نوفمبر/ تشرين الثاني، بعد ذلك أنا سأتولى المهمة. لكن هناك نقطة أو اثنتان أفضل أن احددهما بوضوح مسبقاً.

إن أذعت البرنامج باسم جورج أورويل، فأنا أبيع وأخون سمعتي الأدبية لأن اهتمام الهند ينشأ رئيسياً من كتب ذات ميول معادية للإمبريالية، بعضها كانت ممنوعة في الهند. إن قدمت النشرات التي تظهر أنها تصادق وتقر بلا تحفظ سياسة الحكومة البريطانية، فأنا سوف أحذف فوراً كـ "خائن آخر". ويجب على الأرجح أن أخسر جمهوري المحتمل وسط قطاع الطلبة على الأقل. أنا لا أفكر في سمعتي الشخصية، لكن من الواضح أننا يجب أن نبطل هدفنا من هذه النشرات الإذاعية إن لم أستطع أن أحمي وضعي كشخص مستقل وكـ "معلق" حكومي تقريباً. لذلك أود أن أكون متأكداً مسبقاً من أنني أستطيع أن أتمتع بحرية تعبير معقولة. أعتقد أن هذه التعقيبات الأسبوعية لا يكون لها أي قيمة إلا إذا استطعت أن أجعلها من وجهة نظر معادية للفاشية، وليس من وجهة نظر إمبريالية، وأن أتحاشى ذكر مواضيع لا أستطيع أن أتفق عليها حسب ما يمليه عليّ ضميري مع سياسة الحكومة الراهنة.

أنا لا أعتقد أن هذا سيسبب أي مشكلة، بما أن الصعوبة الرئيسية بخصوص السياسة الداخلية الهندية نادراً ما تذكر في تعليقاتنا الإخبارية الأسبوعية. هذه التعليقات تتبع دائماً خطاً "يسارياً" وفي الحقيقة تحتوي القليل جداً الذي أنا لن أوقع عليه باسمي. لكن أستطيع تخيل الأوضاع الناشئة التي يجب أن أقول فيها إنني لا أستطيع أن أقدم تعليقاً لذاك الأسبوع بصدق، لهذا أحب أن يكون الوضع محدداً مقدماً.

ملاحظة: انضم أورويل للعمل في البي بي سي في صيف ١٩٤١.

مراجعة نقدية: خطة ريلي
للكاتب لورانس وولف

خطة ريلي لإعادة الإسكان التي نوقشت كثيراً، هي بحد ذاتها جهد للتخلص من الأرض البور والضجيج والكدح والعزلة المعتادة في أي بلدة عادية أو منطقة مبانٍ، من دون التضحية بالتواصل الثقافي، أو رغبة الإنسان العادي المتوسط بأن يكون له "بيته الخاص به".

هذا الكتاب الذي كتبه مؤيد متحمس للخطة، يطور مضامينها الاجتماعية والنفسية. السير تشارلز ريلي الذي يعترف أنه أصلاً لم يتنبأ بالنتائج البعيدة التي استنتجها تابعه -في الحقيقة لديه قليل من مسحة رجل ركب حصاناً صغيراً فتبين انه كان وحيد قرن- يساهم في المقدمة. في خطة ريلي، أكثرية البيوت لم تُبنَ بمحاذاة طرق وإنما حول مناطق خضراء. "وحدة" ريلي تتألف من ٢٥٠ بيتاً مجمعة في خمس أو ست مناطق خضراء: أغلب المناطق الخضراء بيضاوية الشكل، وعدد من البيوت التي تحيط بها سوف تتفاوت من ٣٠ إلى ٦٠ بيتاً. كل وحدة لها مركز جماعي خاص بها ومدرسة حضانة ومركز تسوق ومطعم وخدمات وجبات ومستقلة لدرجة لن تمر عبرها أي طرق مرور رئيسية. تمتد البيوت حول المناطق الخضراء في صفوف طويلة من البيوت: خلف كل بيت توجد حديقة صغيرة، لكن الباب الأمامي يؤدي مباشرة إلى المنطقة الخضراء. تتم تدفئة البيوت "بتدفئة مناطقية"، ويوجد ماء حار دائم، وتتم إزالة النفايات بواسطة امتصاصها. بعض البيوت أو الطوابق لها مطابخ، وبعضها ليس له. إن كنت تفضل العيش في بيت ليس فيه مطبخ، فيمكن أن تُسلم لك كل وجباتك من مركز الوجبات في أوعية حافظة للحرارة تترك على درجة الباب مثل الحليب، أما الصحون المتسخة فتزيلها نفس الوكالة. يمكن أن تبنى بلدة من عدد كبير من "وحدات" ريلي، طالما هناك حاجة ومتسع لها. طبعاً، إن أي بلدة كبيرة سيكون لها تسوق مركزي ومناطق إدارية، لكن الفكرة الرئيسية من الخطة، هي أن تفصل البلدة إلى تجمعات مستقلة ذاتياً وعملياً، قرى تعداد سكان كل واحدة منها ١٠٠٠ نسمة.

لنفترض أنه يمكن تنفيذها فعلياً -وحسب السيد وولف، هذه طريقة لإعادة الإسكان أرخص وأسرع من الطرق العادية- مزايا الخطة واضحة. الشرط المناسب لبيوت الحضانة النهارية في متناول اليد، و"تدفئة المناطقية" والقدرة على الحصول على وجبات رخيصة في مركز التجمع متى تريدها، وغياب الضجيج والقلق من السير (بمدن بهذا التخطيط لن يكون هناك خطر على الأطفال الشاردين على طرق السيارات) سوف يزاح عبء عمل غير ضروري عن كاهل ربات البيوت. العيش حول المنطقة الخضراء سيعزز بالتأكيد الاختلاط، وتفصيله المهم بأن كل واحد من مراكز التجمع سيخدم فقط ١٠٠٠ شخص، ويفترض أن كلهم يعرفون بعضهم البعض بالشكل. الفراغات الخضراء والمنافذ السهلة لأراضي الملاعب وغياب الدخان والماء الجاري الحار الدائم، كلها ستعوض عن الصحة والنظافة، وسيكبر الأطفال في مجتمع مستقر وثابت يعيش فيه أشخاص آخرون من نفس العمر. ربما ضمن السيد وولف حقوقه في الادعاء بأنه في هكذا تجمعات سيكون هناك كدح أقل وأمراض أقل وجهل أقل وزواجات أبكر ومعدلات ولادات أعلى واضطرابات عصبية أقل، مما نعاني منه في الوقت الحاضر. ومع ذلك-!

يستخدم السيد وولف خطة ريلي، فهي مناسبة وفرصة لهجوم لا يتوقف تقريباً على ما يسميه "الانعزالية": لا تعني الفوضى والحياة التي تخلو من الهدف في المدن الكبرى فقط، وإنما كل البيئة التقليدية الإنكليزية في امتلاك بيتك الخاص بك وعدم الاختلاط مع الناس والتورط في الشؤون العامة. هو ربما محق في القول إن هذا زاد في السنوات الأخيرة، وبالتأكيد هو محق في القول إن ملكية البيوت تثيرها جمعيات التعمير (قبل الحرب كان أربعة ملايين شخص يملكون أو يشترون بيوتهم) وتشجعها. إن العيش في وحدات عائلية صغيرة مع بضع تسهيلات مشتركة، يزيد بشكل طبيعي كدح العمل المنزلي للمرأة متوسطة العمر العادية التي في الثلاثين، بفضل جهد تحضير ست أو سبع وجبات في اليوم في مطبخ غير ملائم والاعتناء بطفلين مثلاً. يواصل السيد وولف بناء صورة لبريطانيا، توحي بأنها ستكون البلاد المرهقة بالعمل الإضافي والمبتلية بالفقر والجريمة والمصابة بالمرض الأكثر تحت الشمس. الذي لم يقله إن أغلب التغيير الاجتماعي في القرن الحالي، كان في الاتجاه الذي يدافع عنه هو.

الحياة في بريطانيا أكثر "انعزالية" مما كانت عليه، لكنها أيضاً مريحة أكثر وأقل جهداً. مقارنة بالوضع قبل ثلاثين سنة، فإن الناس أكثر وأثقل وزناً ويعيشون فترة أطول، ويعملون

ساعات عمل أقصر، ويأكلون طعاماً أكثر، ويصرفون أكثر على التسلية واللهو، ويملكون تسهيلات منزلية وجدها آباؤهم أشياء لا يمكن تخيلها. بأغلب المقاييس التي يطبقها السيد وولف، فإن الكتلة الكبيرة من الناس كانت أغنى وأسعد في عام ١٩٣٩ مما كانوا عليه في عام ١٩٠٩، ورغم أن الحرب قللت الدخل القومي "الحقيقي"، إلا أنها تميل إلى إنتاج مساواة أكبر. هذه الحقائق معروفة لكل واحد تعود ذاكرته إلى ما يكفي من الماضي، لكن يمكن التحقق من ذلك بواسطة الأرقام. كتاب للدراسة جنباً إلى جنب مع كتاب وولف هو **حالة الشعب البريطاني من ١٩١١-٤٥** بقلم مارك آدامز الذي نشر حديثاً بواسطة غولانكس. هذا يبين بشكل جلي التحسن الجسدي الذي حدث. ويبين أيضاً بقدر ما يستطيع المرء الاستنتاج من أرقامه، أننا لم نربِّ أي مبرر أسعد أو أوعى للعيش. الانحدار في معدل الولادات الذي يتذمر السيد وولف عن حق منه، توافق مع ارتفاع في المقاييس المادية. كتاب **الرصد الجماهيري** الحديث عن بريطانيا ومعدل الولادات فيها، يظهر أن الظاهرتين متصلتان مباشرة.

من الملاحظ أن المحتاج إلى تغيير الميل المتواجد، هو نمو شعور بالهدف، وليس من المؤكد أن هذا سيحدث فقط، لأن الناس انتقلوا من بيوتهم المعزولة قديمة الطراز واستقروا في مستعمرات توفر العمل المهدور؛ حيث سيفقدون الكثير جداً من خصوصيتهم. طبعاً، يزعم السيد وولف أن ليس لديه رغبة في تفكيك العائلة، لكن ابتكارات مختلفة يفضلها تميل لإحداث تلك النتيجة. هو متحمس بشكل رائع بخصوص البيوت التي ليس فيها مطابخ و"إلغاء أدوات المطبخ المشوشة والمكلفة". يقول إن العائلة التي تتخلى عن مطبخها "يكون لديها بيت جذاب أكثر ومريح أكثر". الطعام يُسلم في حاوية حافظة للحرارة "شكلها مثل حقيبة تحفظ المكونات ساخنة لعدة ساعات حتى في الجو البارد وحتى لو تركت على عتبة الباب". عندما تشعر بالجوع، ما عليك إلا أن تفتح الباب وتجد الطعام أمامك. ولم يوضح إن كنت تستطيع أن تختار أي وجبة ستتناول، لكن يفترض أنك لا تستطيع. أنت طبعاً تستخدم أواني طبخ أناس آخرين طوال الوقت، لكن هذا لا يهم لأنها تعقم بين الفترات.

ربما من غير الضروري التفكير ملياً بالاعتراضات على هذا النوع من الشيء. الأكثر أهمية واتصالاً بالموضوع، هو أن كل واحد، بمن فيهم ربات البيوت المجهدات بعمل إضافي

اللواتي يشفق عليهن السيد وولف، سوف يتراجعن وينكصن من هكذا مشهد. بالمقارنة، فإن عدداً قليلاً جداً من الناس كما بيّن استطلاع غالوب، يريدون بيوتهم بتدفئة مركزية حتى. وعلاوة على ذلك، ففي الوقت الراهن إن الهاجس الرئيسي هو أن تبنى البيوت وألا نضحي بأي بيت مازال صالحاً للسكن.

لكن عاجلاً أو آجلاً، ستكون إعادة تخطيط كل المناطق ممكنة، ومن ثم سيكون من الضروري أن نقرر نهائياً إن كان الأسلوب القديم للبيوت والطريقة القديمة لتنظيم البيوت سوف تبقى أم لا. المسألة لم تقرر وتناقش بالشكل اللائق. يجب على الناس أن يعتمدوا على غرائزهم التي ربما انحرفت وتشوهت جزئياً. هم يريدون أن يعيشوا قرب أماكن عملهم، لكنهم يريدون أن يعيشوا في بيوت وليس في شقق وبيوت طابقية. يريدون دور حضانة نهارية وعيادات رعاية اجتماعية، لكنهم يريدون أيضاً الخصوصية. يريدون أن يوفروا العمل، لكنهم يريدون أن يطبخوا وجباتهم الخاصة بهم، وألا يأكلوا وجبات اختارها لهم أناس آخرون وأوصلوها إليهم بحاويات تحفظ الحرارة.

غريزة عميقة تحذرهم ألا يدمروا العائلة التي هي الملاذ الوحيد في العالم الحديث من الدولة، لكن قوات عصر الآلة تقوم طول الوقت بتدمير العائلة ببطء. لهذا هم يدركون ذلك بينما تهلك حضارتنا، ومع ذلك يتمسكون بشكل غير عاقل بهكذا شظايا منها مثل العتبة المبيضة والموقد المفتوح.

حتى في خطة ريلي، فإن قدراً كبيراً من الثقافة القديمة بشكل كنيسة تنجو في كل وحدة: وللحكم من خلال الرسومات التخطيطية في هذا الكتاب، يجب أن تكون الكنائس بالأسلوب القوطي. سؤال لم يطرحه السيد وولف وقلما سأله أي أحد: لماذا نحن ولأي مبرر نقود الخروج من هذا؟ وأي نوع من حياة نريد أن نعيشه؟ لكن حتى نجد إجابة على هذا السؤال، سوف لن نحل مشكلة الإسكان، وربما نجعل أن المرجح أن تحلها لنا القنابل النووية.

التريبيون ٢٥ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٦.

الأدب واليسار

"حين يظهر رجل ذو عبقرية حقيقية في العالم، يمكنك معرفته من هذه العلامة التي لا تخطئ، وهي أن يتآمر ضده كل الأغبياء" هكذا كتب جوناثان سويفت قبل مائتي عام من نشر يوليسيس.

لو راجعت أي كتيب رياضي أو أي كتاب سنوي، ستجد صفحات كثيرة مكرسة لصيد الثعالب والأرانب، ولن تجد كلمة عن صيد الأشخاص رفيعي الثقافة. مع ذلك هذه رياضة الرياضة البريطانية المميزة أكثر من غيرها في موسم يدوم طوال العام، ويستمتع بها الأغنياء والفقراء على السواء، بلا تعقيدات من الشعور الطبقي أو الانحياز السياسي.

لذلك يجب أن يلاحظ أن اليسار ليس محباً ومشجعاً في موقفه من "رفيعي الثقافة" أكثر من اليمين نحو أي كاتب أو فنان يجري تجارب في التكنيك. إن كلمة "رفيع الثقافة" ليست شتيمة في الديلي ووركر وبنتش فقط، وإنما تعني بالضبط هؤلاء الكتاب الذين تُظهر أعمالهم الأصالة وقوة التحمل والبقاء، وهم الذين انتقاهم المنظرون الماركسيون للهجوم. أستطيع أن أسمي قائمة طويلة من الأمثلة، لكنني أفكر بجويس وييتس ولورانس، وإليوت بشكل خاص الذين شجبته وأدانته الصحافة اليسارية أتوماتيكياً وميكانيكياً، كما فعل النقاد بكيبلينغ قبل بضع سنين مضت، وكانوا يبتهجون بشدة بتحف منسية من نادي الكتاب اليساري.

لو سألت "عضو حزب طيب" (وهذا يصح على أي حزب يساري) ما الذي يعترض عليه في إليوت، ستحصل على جواب مصغر كهذا. إليوت رجعي (هو يعلن عن نفسه بأنه ملكي وأنغلوكاثوليكي إلخ) وهو أيضاً "مثقف برجوازي" لا صلة له مع الناس العاديين، لذلك هو كاتب سيئ. يتضمن هذا الكلام فوضى غير واعية من الأفكار التي تبطل كل النقد السياسي الأدبي.

أن تكره سياسة الكاتب شيء، وأن تكره الكاتب لأنه يجبرك على التفكير شيء آخر، وليس بالضرورة أن يكون متنافراً مع الأول. لكن حالما تبدأ الحديث عن الكتاب "الجيدين"

و"السيئين" فأنت ضمناً تلجأ إلى عرف أدبي، وبالتالي تنجر إلى مجموعة مختلفة تماماً من القيم. من أجل ماذا يكون الكاتب "جيداً"؟ هل كان شكسبير "جيداً"؟ أغلب الناس سيوافقون أنه كان كذلك. لكن شكسبير قد يكون رجعياً في ميوله حتى في معايير زمنه، وهو كاتب صعب أيضاً، ويُشك إن كان سهل الفهم بالنسبة إلى الرجل العادي. إذاً ماذا سيحل بفكرة حظر إليوت بكونه ملكياً أنغلوكاثوليكياً اعتاد على اقتباس اللغة اللاتينية؟

لم يكن النقد الأدبي اليساري مخطئاً حول أهمية الإصرار على الموضوع، وربما لم يكن مخطئاً في المطالبة بأن يكون الأدب أولاً وقبل كل شيء دعاية، آخذين في الاعتبار العصر الذي نعيش فيه. يكمن خطؤه في استخدام الأحكام الأدبية الواضحة لغايات سياسية. لنأخذ مثالاً فجاً؛ أي شيوعي يتجرأ على الاعتراف علناً بأن تروتسكي كاتب أفضل من ستالين -كما هو كذلك طبعاً؟ القول إن "سين كاتب موهوب، لكنه عدو سياسي، وسأبذل أقصى جهد لإسكاته" مضر جداً. حتى لو انتهيت بإسكاته ببندقية رشاشة، فأنت لم ترتكب إثماً ضد العقل والذكاء. الإثم المميت أن تقول "سين عدو سياسي، لذلك هو كاتب سيئ". ولو قال أي أحد بأن هذا النوع من الشيء لم يحدث، فأنا أجيب فقط: فتشوا في صفحات الصحافة الأدبية اليسارية من ذا نيوزكرونيكل إلى ذا ليبور مونثلي، وشاهدوا، ماذا تجدون؟

ليست هناك معلومات حول حجم ما خسرته الحركة الاشتراكية بإبعادها الإنتلجنسيا الأدبية. لكنها أبعدتها ونفرتها بالخلط بين الكراريس والأدب جزئياً، وجزئياً بعدم ترك متسع للثقافة الإنسانية. يستطيع الكاتب أن يصوت لحزب العمال بسهولة كأي شخص آخر، لكن من الصعب جداً عليه أن يشارك في الحركة الاشتراكية ككاتب. لكن منظر الكتب المدرب والسياسي العملي سيحتقرانه "كمثقف برجوازي" ولن يضيعا الفرصة لقول هذا له، وسيكون لهما نفس الموقف نحو أعماله مثل موقف سمسار لعبة الغولف. أمية السياسيين ميزة خاصة لعصرنا -كما قالها جي ام تريفيليان "في القرن السابع عشر اقتبس رجال البرلمان الإنجيل، وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر اقتبسوا الأعمال الكلاسيكية (الآداب الإغريقية والرومانية) أما في القرن العشرين فلم يقتبسوا شيئاً" واللازمة الطبيعية لذلك هي العجز [السياسي] للكتاب. في السنوات التي تلت الحرب، كان أفضل الكتاب الإنكليز رجعيين في ميولهم، رغم أن أغلبهم لم يأخذوا أي دور مباشر في السياسة. بعدهم في عام ١٩٣٠ تقريباً أتى جيل من

الكتاب الذين حاولوا جاهدين أن يكونوا مفيدين بشكل نشط في الحركة اليسارية، فانضم عدد منهم إلى الحزب الشيوعي، ولقيوا نفس الاستقبال الذي كانوا سيلقونه لو انضموا إلى حزب المحافظين. أي تمت معاملتهم في البداية برعاية وريبة، ثم تبين أنهم لم أو لن يستطيعوا أن يحولوا أنفسهم إلى آلات تسجيل ناطقة، فطردوهم بالقوة. تراجع أغلبهم إلى الفردانية. لا شك أنهم ظلوا يصوتون للعمال، لكن مواهبهم خسرتها الحركة. أما التطور الأكثر شؤماً، فقد جاء بعدهم، وهو جيل من الكتاب الذين كانوا خارج الحركة الاشتراكية منذ البداية من دون أن يكونوا غير سياسيين أبداً. إن الأكثر موهبة من الكتاب الصغار الذين بدأوا الآن سيرهم هم السلميون (الرافضون للعنف) وقلة منهم لديهم ميول فاشية حتى. لا يعني لأي واحد منهم سحر الحركة الاشتراكية شيئاً، وصراع السنوات العشر ضد الفاشية، يبدو لهم بلا معنى ومملاً، ويقولون هذا بشكل صريح. يمكن أن يفسر المرء هذا بعدة طرق، لكن الموقف الازدرائي لليسار من "المثقفين البرجوازيين" جزء من السبب على الأرجح.

يروي جلبرت موراي في مكان ما أنه كان يحاضر عن شكسبير لجمعية اشتراكية، وفي النهاية سأل إن كان للحضور أسئلة، فتلقى سؤالا وحيداً: "هل كان شكسبير رأسمالياً؟" الشيء المحزن في هذه القصة، أنها قد تكون صحيحة. تتبع ولاحظ مضامينها، فربما تحصل على لمحة من السبب الذي دعا سيلين (كاتب فرنسي) إلى كتابة (اعتراف بالخطأ) وجعل أودين يراقب صرته في أميركا. (اتهم أودين بالجبن بهروبه إلى أمريكا أثناء الحرب).

التريبيون ٤ يونيو/ حزيران ١٩٤٣.

رسالة إلى محرر تايم أند تايد

سيدي

من شبه المؤكد أن إنكلترا ستتعرض إلى غزو في الأيام والأسابيع القليلة القادمة، من قبل قوات محمولة بحراً على الأرجح. في وقت كهذا يجب أن يكون الشعار: سلّحوا الشعب. لست كفؤاً للتعامل مع أسئلة أكبر عن صد الغزو، لكن الحملة في فرنسا والحرب الأهلية الأخيرة في إسبانيا وضحتا حقيقتين اثنتين. الأولى؛ حين يكون السكان المدنيون عزلاً، لا يستطيع المظليون والدراجون والدبابات الضالة القيام بدمار مخيف فحسب، بل يجبرون قطعات كبيرة من الجنود النظاميين الذين يفترض بهم صد العدو الأساسي على التراجع والانسحاب إلى الداخل. الحقيقة الثانية؛ اتضح من الحرب الإسبانية أن فوائد تسليح المدنيين تفوق خطر وضع السلاح في الأيدي الخطأ. أظهرت الانتخابات الفرعية منذ بدء الحرب، أن أقلية قليلة جداً من الشعب الإنكليزي غير متعاطفة، وأغلب هؤلاء عرفوا وحددوا.

سلّحوا الشعب: عبارة غامضة بحد ذاتها، وأنا لا أعرف طبعاً ما هي الأسلحة المتوفرة للتوزيع الفوري، لكن هناك أشياء كثيرة على أي حال يجب فعلها الآن خلال الثلاثة أيام التالية:

١ - القنابل اليدوية: إنها السلاح الوحيد الذي يمكن تصنيعه بسرعة وسهولة وهو الأكثر نفعاً. مئات الآلاف من الرجال في إنكلترا اعتادوا على استعمال القنابل اليدوية، ومستعدون جيداً لتعليم الآخرين. لقيد قيل إنها مفيدة ضد الدبابات، وستكون ضرورية إن نجح مظليو العدو في تثبيت أنفسهم في بلدات كبيرة. لدي رؤية ممتازة في قتال الشوارع في برشلونة، في أيار ١٩٣٧ أقنعتني أن الرشاشات تستطيع شل حياة مدينة كبيرة، ولأن الطلقة لا تخترق حجارة الجدران العادية، يمكن تفجيرها بالمدفعية، لكن ليس ممكناً دائماً أن تجلب مدفعاً وتحمله. من جهة أخرى تبين من قتال الشوارع السابق في إسبانيا، أنه يمكن طرد الرجال المسلحين من الأبنية الحجرية بالقنابل اليدوية أو بأصابع الديناميت، حتى إن استخدمت بالشكل الصحيح.

٢ - بنادق الرش: هناك حديث عن تسليح بعض جماعات الدفاع الوطني الطوعي بهذه البنادق. قد يكون هذا ضرورياً إن احتاج جنود الجيش النظامي إلى كل البنادق وبنادق برن.

في تلك الحالة يجب أن يتم التوزيع الآن، ويجب أن تصادر كل الأسلحة فوراً من محلات صنع الأسلحة. راجت أحاديث عن تنفيذ ذلك، لكن في الواقع لا تزال واجهات محلات الأسلحة تعرض صفوفاً من البنادق، وهي خطر حقيقي؛ إذ يمكن أن تتعرض هذه المحلات إلى غارات بسهولة، كما يجب أن تشرح قدرات ونقائص بندقية (مع الخردق البعيد المدى القاتل حتى ستين ياردة) للجمهور بواسطة الراديو.

٣- سد الحقول بوجه هبوط الطائرات: هناك حديث كثير، لكن لم يتم فعل سوى القليل وبشكل عشوائي، لأن الأمر ترك للجهد التطوعي أي للناس الذين ليس لديهم الوقت أو القدرة على مصادرة المواد اللازمة. في بلاد صغيرة مأهولة جداً بالسكان مثل إنكلترا، نستطيع خلال بضعة أيام أن نجعل من المستحيل لأي طائرة أن تهبط في مكان عدا المطارات. كل ما نحتاجه هو العمل. لذلك يجب أن يمتلك المسؤولون المحليون السلطات لتجنيد العمل ومصادرة المواد التي يحتاجونها.

٤- طلي أسماء الأماكن العامة بالدهان. لقد تم ذلك بإشارات الطرق، لكن لا تزال هناك واجهات المحلات وعربات الحرفيين التي تحمل أسماء مناطقهم. يجب أن تمتلك السلطات القوة لفرض طلائها على الفور، ويجب أن يشمل أسماء مخامر الجعة في المقاهي العامة. أغلب هذه الأماكن محصور في منطقة صغيرة والألمان دقيقون تماماً في هذا.

٥- محطات اللاسلكي. يجب أن يكون لكل مركز قيادة من قوات الدفاع المحلي التطوعي محطة استقبال لاسلكية خاصة به، يمكنها تلقي الأوامر في حالات الضرورة. من الخطأ المميت الاتكال على الهاتف في الحالات الطارئة. بالنسبة إلى الأسلحة، يجب ألا تتردد الحكومة في مصادرة ما تحتاجه منها.

كل هذه الإجراءات يمكن تنفيذها في غضون أيام قليلة. وفي الوقت الراهن نكرر القول سلّحوا الشعب، على أمل أن تزداد الأصوات التي تتبنى ذلك. للمرة الأولى منذ عقود، لدينا حكومة ذات مخيلة (في ١٠ مايو/ أيار سقطت حكومة تشامبرلاين، وأصبح ونستون تشرشل رئيساً للوزراء على رأس حكومة ائتلافية) وهناك فرصة على الأقل أن تصغي.

دفاعاً عن الطبخ الإنكليزي

لقد سمعنا حديثاً كثيراً في السنين الأخيرة عن الرغبة في جذب سياح أجانب إلى هذه البلاد. من المعروف جيداً أن أسوأ خطأين لإنكلترا من وجهة نظر السائح الأجنبي، هما أيام الآحاد الكئيبة وصعوبة شراء الشراب.

وهذا الخطآن يعودان إلى الأقليات المعصبة التي ستحتاج إلى الكثير من القمع الذي يشمل تشريعات قاسية. لكن هناك نقطة واحدة يمكن للرأي العام أن يحدث تغيير للأفضل فيها: أقصد الطبخ.

يقال عموماً حتى من الإنكليز أنفسهم، إن الطبخ الإنكليزي هو الأسوأ في العالم. ويفترض ألا يكون غير كفؤ فقط، وإنما تقليدياً أيضاً، حتى إنني قرأت مؤخراً في كتاب لمؤلف فرنسي التعليق التالي: "أفضل طبخ الإنكليزي طبعاً هو مجرد طبخ فرنسي".

الآن، هذا ليس صحيحاً بشكل واضح، لأن أي شخص عاش في الخارج طويلاً يعرف أن هناك حشداً كاملاً من الأطعمة الشهية يستحيل تماماً الحصول عليها خارج البلدان الناطقة باللغة الإنكليزية. لا شك أنه يمكن الإضافة إلى القائمة، لكن هذه بعض من الأشياء التي بحثت عنها بنفسي في بلدان أجنبية، وفشلت أن أجدها.

أولاً وقبل كل شيء، هناك سمك الرنجة المدخن والمملح وحلويات يوركشاير وقشدة ديفونشاير والفطائر الرقيقة والكعك المسطح المستدير. ثم قائمة بالحلويات التي ستكون لامتناهية إن ذكرتها بالكامل: سوف أنتقي وأذكر بالخصوص حلويات عيد الميلاد، كعكة دبس السكر وزلابية التفاح. ثم قائمة الكعك التي تساويها تقريباً في الطول: مثلاً كعكة الخوخ السمراء (كالتي اعتدتم الحصول عليها من بوزارد قبل الحرب) وكعك الزعفران والكعك المحلى الصغير. وهناك أيضاً أنواع لا تحصى من البسكويت التي توجد طبعاً في مكان آخر، لكن من المعترف به عموماً أن الأنواع الأفضل والأكثر هشاشة توجد في إنكلترا.

يوجد هناك طرق مختلفة لطبخ البطاطا خاصة وفريدة في بلادنا. في أي مكان آخر ترى بطاطا مشوية تحت مفصل لحم، وهي أفضل طريقة طبخ من أي طريقة أخرى؟ أو كعك البطاطا اللذيذ الذي تجده في شمال إنكلترا؟ أن تطبخ البطاطا الجديدة بالطريقة الإنكليزية- أي تسلقها مع النعناع ثم تقدمها مع قليل من الزبدة المذابة والسمنة النباتية الصناعية- أفضل بكثير من قليها كما يحدث في أغلب البلدان.

ثم هناك الصلصات المتنوعة الخاصة بإنكلترا. مثلاً صلصة الخبز وصلصة الفجل الحار وصلصة النعناع وصلصة التفاح، ولن نذكر جيليه الزبيب الأحمر الممتازة مع لحم الضأن ولحم الأرنب البري أيضاً، ونملك كميات وافرة من أنواع المخللات الحلوة المتنوعة، أكثر من أغلب البلدان على ما يبدو.

ماذا بقي أيضاً؟ خارج هذه الجزر لم أر قط قلب خروف وكبده، ما عدا واحد خرج من علبة قصدير أو قريدس دوبلن أو مربيات أكسفورد أو الأنواع الكثيرة من المربيات (مربى الكوسا وجيليه (هلام) العليق مثلاً) أو النقانق من نفس النوع الموجود عندنا.

توجد هناك أنواع من الجبن الإنكليزي أيضاً. لا توجد أنواع كثيرة منه، لكن أتصور أن جبن ستيلتون هو أفضل جبن من نوعه في العالم، وجبن وينزلديل غير بعيد عنه من حيث الجودة، كما أن التفاح الإنكليزي جيد بشكل بارز وخصوصاً تفاح كوكس أورانج بيبين.

وأخيراً أود أن أقحم كلمة عن الخبز الإنكليزي. كل الخبز جيد من الأرغفة اليهودية الهائلة التي بنكهة بذور الكراوي، إلى خبز الجاودر الروسي الذي بلون دبس السكر الأسود. هل هناك شيء بجودة الجزء الطري من قشرة رغيف الكوخ الإنكليزي (متى سنرى أرغفة مطبخ مرة جديدة؟) أنا لا أعرف.

لا شك أن بعض من الأشياء التي ذكرتها آنفاً يمكن الحصول عليها في أوروبا القارية، مثلما يمكن الحصول على الفودكا أو حساء عش الطائر في لندن. لكن كلها أصيلة وبلدية، وحرفياً لم يسمع بها في مناطق شاسعة.

في جنوب بروكسل لا أتصور أنك ستنجح في الحصول على نقانق الشحم الحيواني سويت بودينغ. في اللغة الفرنسية لا توجد كلمة تترجم بدقة "شحم حيواني". الفرنسيون أيضاً لا يستعملون النعناع أبداً في الطبخ، ولا يستخدمون الزبيب الأسود إلا كأساس للشراب.

سوف يتبن أننا لا نملك أي سبب يجعلنا نخجل من طبخنا من حيث الأصالة والابتكار أو من حيث المكونات، ولكن مع ذلك يجب أن نعترف بوجود عقبة ومشكلة خطيرة من وجهة نظر الزائر الأجنبي، وهي أنك لن تجد عملياً طبخاً إنكليزياً جيداً خارج بيت خاص وشخصي. إن كنت تريد مثلاً شريحة غنية جيدة من حلوى يوركشاير، فإن الاحتمال الأكبر أن تجدها في بيت إنكليزي فقير جداً، وليس في مطعم حيث يأكل الزائر بالضرورة أغلب وجباته.

في الحقيقة من الصعب أن تجد مطاعم إنكليزية بشكل مميز تبيع طعاماً جيداً. الحانات كقاعدة لا تبيع طعاماً جيداً أبداً باستثناء رقائق البطاطا والسندويش الذي لا طعم له. المطاعم الغالية والفنادق أغلبها تقلد الطبخ الفرنسي، وتكتب قوائم طعامها باللغة الفرنسية، لكن إن أردت وجبة جيدة رخيصة، فإنك ستنجذب بشكل طبيعي نحو مطعم إغريقي أو إيطالي أو صيني.

من غير المحتمل أن ننجح في جذب السياح، بينما ينظر إلى إنكلترا كبلاد ذات طعام سيء، ولا يمكن فهمها بالقانون. في الوقت الحاضر لا يستطيع المرء أن يفعل الكثير من أجل هذا، لكن عاجلاً أو آجلاً سينتهي تخصيص الطعام، ومن ثم ستكون اللحظة المناسبة لإحياء طبخنا الوطني وإنعاشه. إنه ليس قانوناً طبيعياً أن كل مطعم في إنكلترا يجب أن يكون إما أجنبياً أو سيئاً، والخطوة الأولى نحو التحسن، ستكون رهناً بالشعب البريطاني نفسه.

إيفنينغ ستاندارد ١٥ ديسمبر/كانون أول ١٩٤٥.

قصف المدنيين - التريبيون

تلقيت عدداً من الرسائل، بعضها عنيف تماماً، تهاجمني على ملاحظاتي على كراسة الآنسة فيرا بريتين المعادية للقصف. هناك نقطتان تحتاجان إلى تعليق أوسع كما يبدو:

أولاً، هناك التهمة التي أصبحت شائعة أننا نحن من بدأ القصف، أي أن بريطانيا أول دولة مارست قصفاً ممنهجاً على المدنيين. يستطيع كل واحد ادعاء هذا مع أخذ تاريخ السنوات العشر الماضية في الاعتبار. أول عمل في الحرب الراهنة -بعض ساعات لو أتذكر بشكل صحيح قبل أن يمر إعلان الحرب- كان قصف الألمان لوارسو. قصف الألمان المدينة بكثافة بالقنابل والقذائف، لدرجة كما قال البولونيون استعر في المدينة ٧٠٠ حريق في وقت واحد. صوروا فيلماً عن دمار وارسو بعنوان "معمودية النار" وأرسلوه إلى كل أرجاء العالم بدافع إرهاب المحايدين. قبل سنوات كثيرة من هذا، قصف فيلق النسر الذي أرسله هتلر إلى إسبانيا المدن الواحدة تلو الأخرى. "الغارات الصامتة" على برشلونة عام ١٩٣٨ قتلت آلافاً كثيرة من الناس في يومين اثنين. قبل هذا قصف الإيطاليون الإثيوبيين العزل تماماً، وفاخروا بمآثرهم كشيء ممتع بشكل صارخ. كتب برونو موسوليني مقالة في جريدة وصف فيها الإثيوبيين المقصوفين "كانوا ينفتحون بسبب الانفجار مثل الوردة"، وقال إنه كان "الأشد إمتاعاً"، وكان اليابانيون منذ عام ١٩٣١ وبشكل مكثف منذ ١٩٣٧ يقصفون المدن الصينية المكتظة؛ حيث لم يكن فيها أنظمة الوقاية من الغارات الجوية، عداك عن مدافع ايه ايه المضادة للطائرات أو طائرات مقاتلة. أنا لا أجادل بأن أسودين اثنين يساويان أبيض واحداً، ولا أن السجل البريطاني سجل جيد على وجه الخصوص. في عدد من "الحروب الصغيرة" منذ ١٩٢٠ فصاعداً أسقط سلاح الجو الملكي ار ايه اف قنابله على الأفغان والهنود والعرب الذين ليس لديهم أي قوة على الرد. لكن من غير الصحيح القول إن القصف الواسع النطاق للبلدات المكتظة بالناس مع الهدف في نشر الرعب، هو اختراع بريطاني. من بدأ هذا العمل هي الدول الفاشية، وطالما كانت الحرب تسير على هواهم، فقد اعترفوا بأهدافهم بوضوح. الشيء الآخر الذي يحتاج إلى التعامل معه هو الصيحة الببغائية المتكررة عن "قتل النساء والأطفال". أشرت

سابقاً إلى ذلك، لكن الأمر يحتاج إلى التكرار بشكل أكيد أنه قد يكون قتل مقطع عرضي من الناس أفضل من قتل الشبان فقط. إن كانت الأرقام التي نشرها الألمان صحيحة بأننا قتلنا مليون ومائتي ألف مدني في غاراتنا، فتلك الخسارة ربما أضرت العرق الألماني، أقل من خسارته المماثلة على الجبهة الروسية أو في أفريقيا وإيطاليا. أي أمة في حالة حرب، ستبذل أقصى ما في وسعها لحماية أطفالها. وعدد الأطفال الذين قتلوا في الغارات، ربما لا يتطابق مع نسبتهم المئوية من عدد السكان العام. لا يمكن حماية النساء بنفس الدرجة، لكن الصرخة ضد قتل النساء، إن قبلتَ بالقتل إجمالاً، عبارة عن مجرد رومانسية مفرطة. لماذا قتل المرأة أسوأ من قتل الرجل؟ الحجة المقدمة عادة أن قتل النساء قتل للولادة، بينما يمكن الاستغناء عن الرجال بسهولة. لكن هذه فكرة خاطئة مبنية على فكرة أن الكائنات البشرية تستطيع التكاثر مثل الحيوانات. الفكرة خلفها أنه بما أن رجلاً واحداً قادر أن يخصب عدداً كبيراً من النساء كما يخصب كبش الجائزة آلاف النعاج، فإن خسارة حياة ذكر واحد غير مهمة نسبياً. لكن الكائنات البشرية ليست قطيعاً. حين تترك المذبحة التي تسببها الحرب فائضاً من النساء، فإن الأغلبية الهائلة من تلك النسوة لن يحملن أطفالاً. إن حياة الذكور مهمة جداً بيولوجياً كحياة النساء. في الحرب الأخيرة خسرت الإمبراطورية البريطانية مليون رجل تقريباً ثلاثة أرباعهم أتوا من هذه الجزر، وأغلبهم كانت أعمارهم أقل من ثلاثين سنة. ولو كان لكل واحد منهم طفل واحد لكان لدينا سبعمائة وخمسون ألف شخص زيادة في عمر العشرين تقريباً. فرنسا التي كانت خسارتها أكثر وأثقل، لن تشفى من مذبحة الحرب الأخيرة، ويشك إن كانت بريطانيا قد تعافت تماماً أيضاً. نحن لا نستطيع حساب الخسائر في الأرواح للحرب الحالية بعد، لكن الحرب الأخيرة قتلت من عشرة إلى عشرين مليون شاب. لو أنها أديرت كما ستدار الحرب التي تلتها مع قنابل طائرة وصواريخ وأسلحة بعيدة المدى تقتل الكبار والصغار والأصحاء والمرضى والذكور والإناث من غير تحيز، فربما كان الضرر على الحضارة الأوروبية أقل مما كان. عكساً لما يظنه الأشخاص الذين راسلوني، ليس لدي حماس للغارات الجوية سواء كانت غاراتنا أو غارات عدونا. مثل الكثير من الناس في هذه البلاد، أنا مللت من القنابل بالتأكيد، لكنني أعارض الرياء في قبول القوة كوسيلة، بينما نصرخ ضد هذا السلاح المفرد أو ذاك أو نشجب حرباً، بينما نريد الاحتفاظ بنوع المجتمع الذي يجعل من الحرب قدراً محتوماً.

صور وحشية - تريبيون

لديّ صورة مقرفة مسبقاً بشكل استثنائي من ذا ستار في عددها الصادر ٢٩ أغسطس/آب، لامرأتين شبه عاريتين مع رؤوس حليقة وصلبان معقوفة على وجهيهما، اقتيدتا في شوارع باريس وسط متفرجين مكشرين بابتسامات عريضة. ذا ستار- أنا لا أنتقد ذا ستار، لأن أغلب الصحف حذت حذوها- تعيد إنتاج هذه الصورة باستحسان واضح.

أنا لا ألوم الفرنسيين على عمل هذا الشيء. لقد قضوا أربع سنوات من المعاناة، وأستطيع تصور ماهية مشاعرهم تجاه المتعاونين مع العدو. لكن هذه قصة مختلفة حين تحاول الصحف في هذه البلاد إقناع قرائها أن حلق رؤوس النسوة فعل حسن. حالما رأيت صورة ذا ستار فكرت "أين رأيت شيئاً كهذا من قبل؟" ثم تذكرت. منذ عشر سنين تقريباً حين بدأ النظام النازي يعرض صوراً مشابهة ليهود مذلولين اقتيدوا في شوارع المدن الألمانية حيث عرضوا في الصحافة البريطانية- لكن مع الاختلاف التالي أنه في تلك المناسبة لم نكن نتوقع استحسانها. حديثاً نشرت جريدة أخرى صوراً لجثث متدلية لألمان شنقهم الروس في خاركوف، وأخبرت قراءها أن هذه الإعدامات قد صورت كأفلام وأن الشعب سيتمكن من مشاهدتها في المسارح الجديدة. أتساءل إن كانوا سيسمحون بدخول الأطفال؟

هناك قول لنيتشه اقتبسته آنفاً لكنه جدير بالاقتباس ثانية: من يقاتل التنانين فترة طويلة جداً يصبح تنيناً بدوره؛ أو إن حدقت طويلاً جداً في الهاوية فستحدق الهاوية بك. "طويلاً جداً" في هذا السياق يجب أن تعتبر مرادفاً لـ "بعد أن يهزم التنين"

مراجعة لكتاب اف ايه هايك
الطريق إلى العبودية
وكتاب كي زيلياكوس مرآة الماضي

هذا الكتابان معاً يقدمان مبررات للفزع. أولهما دفاع بليغ عن الرأسمالية المتساهلة، والآخر شجب أعنف لها. يغطي الكتابان نفس الدافع إلى حد ما، وكلاهما يقتبسان نفس المستندات غالباً، ويبدآن بنفس المقدمة؛ حيث أن كل منهما يسلم بأن الحضارة الغربية تعتمد على قداسة وطهارة الفرد، لكن كل كاتب مقتنع أن السياسة الأخرى تؤدي مباشرة إلى الرق، والشيء المرعب أن كليهما قد يكون صحيحاً....

بين هذين الكتابين، تتلخص ورطتنا الحالية. الرأسمالية تؤدي إلى طوابير الصدقات وفوضى السوق والحرب. الجماعية تؤدي إلى معسكرات الاعتقال وعبادة القادة والحرب. ليس هناك مخرج من هذا، إلا حين يستطيع الاقتصاد المخطط الاتحاد بطريقة ما مع حرية العقل، ولا يمكن أن يحدث هذا إلا إذا أعيد مفهوم الصح والخطأ إلى السياسة. لقد أدرك كل من هذين الكاتبين هذا تقريباً، لكن بما أنهما لا يستطيعان أن يظهرا أي طريقة قابلة للتطبيق عملياً لإحداث ذلك، فإن الأثر الموحد لكتابيهما محزن ومثير للكآبة.

أوبزيرفر ١٩٤٤.

قادة قبيحون - تريبيون

أثناء تفحص صور قائمة الشرف للسنة الجديدة، صعقتُ بالقبح الاستثنائي للوجوه المعروضة هناك وسوقيتها. يبدو أنها القاعدة تقريباً أن نوع الشخص الذي يكسب الحق في تسمية نفسه لورد بيرسي دي فالكونتاورز، يجب أن يبدو مثل جابي ضرائب متفخ في أفضل أحواله أو جابي ضرائب مع قرحة اثني عشرية في أسوأ حالاتها. لكن بلادنا ليست الوحيدة في هذا. أي واحد يكون صانعاً جيداً مع مقص ولصوق، يستطيع أن يؤلف كتاباً جيداً بعنوان حكامنا، ويتألف ببساطة من صور منشورة للأشخاص العظام في الأرض. خطرت لي الفكرة أول مرة عندما رأيت بعض "الصور الفوتوغرافية الثابتة" على عمود صور يلقي خطاباً ويبدو أشبه بنسناس على عصا أكثر مما تعتقد أن يكون لأي واحد لم يكن يفعلها عمداً.

حين تجمع كل مجموعتك من الفوهررات والفعليين والراغبين، ستلاحظ أن صفات كثيرة تتكرر في كل القائمة. بداية، كلهم من كبار السن. بالرغم من النفاق الذي يدفع للشباب في كل مكان، لا يوجد أي شخص في منصب مسيطر بصدق يقل عمره عن الخمسين سنة. ثانياً هم كلهم تقريباً من الحجم الأصغر من العادي. ديكتاتور أطول من خمسة أقدام وست بوصات ندرة عظيمة جداً. وثالثاً يوجد هناك هذا القبح العام تقريباً والغريب تماماً أحياناً. ستضمّ المجموعة صوراً لسترايخر يفجر وعاء دموياً، وأسياد الحرب اليابانيين يجسدون شخصية القردة، وموسوليني بلغده الرديء، وديغول الذي بلا ذقن، وتشرشل بذراعيه القصيرتين السميتين، وغاندي بأنفه الطويل الخبيث وأذنيه الضخمتين الخفاشيتين، وتوغو المتباهي بأسنانه الذهبية الاثنتين والثلاثين. ومقابل كل واحد منهم للمقارنة ستكون هناك صورة لإنسان عادي من البلاد المعنية. مقابل هتلر بحار صغير من غواصة ألمانية، ومقابل توغو فلاح ياباني من النمط القديم، وهلم جرا.

قنابل آلية - التريبيون

لاحظت من التذمر واسع الانتشار أن الطائرات الألمانية التي بلا طيار "تبدو غير طبيعية جداً" (القنبلة التي يسقطها طيار حي طبيعية تماماً كما يبدو) فبعض الصحفيين شجبوا الهجوم البربري وغير الإنساني والعشوائي على المدنيين.

بعد كل ما فعلناه بالألمان في الستين الماضيتين، هذا يبدو سمجاً قليلاً لكنه الرد الإنساني على كل سلاح جديد، وقد شجب الغاز السام والبندقية الآلية والغواصة وحتى القوس النشاب بالمثل في أيامها، وكل سلاح يبدو غير منصف وجائر حتى تتبناه بنفسك. لكني لن أرفض أن الطائرة بلا طيار أو القنابل الطائرة أو مهما كان اسمها الصحيح، شيء بغيض بشكل استثنائي، لأنها بخلاف كل القذائف الأخرى تعطيك الوقت لتفكر. ما هو رد فعلك الأول حين تسمع صوت أزيز تلك الطائرة؟ بالتأكيد إنه الأمل بألا يتوقف ذلك الضجيج. أنت تأمل أن تسقط على شخص آخر. وهكذا أيضاً حين تتفادى قذيفة أو قنبلة عادية –لكن في هذه الحالة أنت لا تملك سوى خمس ثوانٍ لتجد ملجأ، وليس لديك الوقت لتفكر بأنانية الكائن البشري التي لا قرار لها.

مقتطفات من دفتر ملاحظات
مخطوط باليد

[خلال السنة الأخيرة من حياته، احتفظ أورويل بدفتر ملاحظات، دوّن فيه ملاحظات عن قصة قصيرة طويلة "قصة غرفة التدخين"، وبعض من مقالات عن جوزيف كونراد وإيفلين واو، استخدمها كمذكرات عرضية، اخترنا منها التالي. قبل ٢١ مارس/ آذار ١٩٤٩ لم يؤرخ أي بند من البنود].

ربما هناك بعض الحقيقة في ملاحظة بيتان في الوقت الذي أصبح فيه حاكم فرنسا، بأن هزيمة فرنسا كانت جزئياً بسبب معدل الولادات المتدني. في العائلات الصغيرة لا يستطيع السكان المدنيون النظر إلى مقتل أبنائهم بلا تحيز، وموقف الجندي متأثر ربما بكونه تعلم أن يفكر بنفسه أكثر من كونه فرداً، وأهم من كونه مجبراً أن يصارع من أجل البقاء في عائلة جائعة من خمسة أو عشرة أطفال.

أحد الفروق الكبيرة بين الفيكتوريين وبيننا، هو أنهم نظروا إلى الشخص الراشد البالغ واعتبروه أهم من الطفل. في عائلة في أحوال كثيرة مؤلفة من اثني عشر فرداً، كان من المحتوم تقريباً أن يموت واحد أو اثنان في طفولتها. وعلى الرغم من كون هذه الوفيات حزينة طبعاً، كانوا ينسونها بعد وقت قصير جداً، بما أن هناك دائماً أطفالاً أكثر قادمين. في كنيسة القديس جون قرب اللوردز هناك ألواح تذكارية كثيرة لأغنياء من الهند الشرقية إلخ، مع عمود معتاد من الأكاذيب في مديح الرجل المتوفى، ثم سطر أو اثنان عن "ساره أرملة المذكور آنفاً". ومن ثم ربما سطر آخر يقول إن أطفالاً من ذكر واحد وأنثيين اثنتين أو كلام بهذا المعنى دفنوا في نفس السرداب. لم تُعط أسماء. وفي حالة واحدة تقرأ النقش التالي: اثنان أو ثلاثة أطفال. قبل الوقت الذي تنصب فيه حجرة الشاهدة يُنسى كم عدد الذين ماتوا.

في الوقت الحاضر، إن موت الطفل أسوأ شيء يتخيله أغلب الناس. إذا لم يكن للمرء سوى طفل واحد، سيكون من شبه المستحيل عليه أن يسترد رشده بعد فقدان ذلك الطفل. سيسودّ عالمه بشكل دائم. حتى منذ جيلين اثنين أشك إن كان للناس هذا الشعور. قارن جود

الغامض في الحادث المنافي للعقل؛ حيث الطفل الأكبر يشنق الطفلين الاثنين الأصغر منه ثم يشنق نفسه. جود وسو محزونان طبعاً، لكنهما لا يبدو أنهما شعرا أن حياتيهما يجب أن تنتهيا بعد هكذا حادث. سو (اعتقد هاردي أنها شخصية لا تطاق، لكني أعتقد أنه كان ساخراً في هذا المكان) يقول بعد وهلة إنها تدرك لماذا كان على الأطفال أن يموتوا: ليجعلها ذلك امرأة أفضل وليساعدها كي تبدأ حياتها من جديد. لم يخطر ببالها أن الأطفال كانوا مخلوقات أكثر أهمية من نفسها، وأنه بالمقارنة مع موتهم لا شيء يمكن أن يحدث لها الآن، سيكون ذا مغزى كبيراً. قرأت مؤخراً في الجريدة أنه في شنغهاي (المملوءة باللاجئين الآن) أصبح الأطفال المهجورون شيئاً شائعاً على الأرصفة، لدرجة أن لا أحد يلاحظهم. في النهاية أعتقد أن جسد الطفل الميت أصبح مجرد قطعة نفاية يداس عليها. مع ذلك كل هؤلاء الأطفال بدأوا ولديهم الأمل أن ينالوا الحب والحماية، مع القناعة التي يستطيع أن يراها المرء حتى في الطفل الصغير جداً، أن العالم مكان ممتاز ويوجد فيه وفرة من الأوقات الجيدة بانتظاره.

سؤال: هل أنت نفسك ثانية لو أنك مشيت إلى البيت ومشيت فوق أجساد أطفال مهجورين ولم تسعف أياً منهم؟ (حتى كي تحرص ألا تدوس على واحد منهم كنوع من الرياء). يقول مالكولم مارغريدج إن أي واحد عاش في آسيا، فعل هذا الشيء مسبقاً. ربما ليس صحيحاً تماماً إلى درجة أنني حين عشت أنا وهو في آسيا كنا شباناً، وقلما كنا نلاحظ الأطفال الصغار أو ننتبه إلى وجودهم. الآن في العام (١٩٤٩) مرت ١٦ سنة على نشر كتابي الأول وحوالي ٢١ سنة منذ أن بدأت بنشر مقالاتي في المجلات. خلال ذلك الوقت لم يكن هناك حرفياً يوم واحد لم أشعر فيه أنني كنت أتبطل وأنني كنت متأخراً في المهمة الراهنة، وأن نتاجي الإجمالي صغيراً بشكل هزيل. حتى في الفترات التي كنت أعمل فيها عشر ساعات في اليوم على كتاب أو أكتب أربع مقالات أو خمس في الأسبوع الواحد، لم أكن قادراً قط على أن أبتعد عن هذا الشعور العصابي، بأنني كنت أضيع وقتي. أنا لم أستطع أن أحصل على أي إحساس بالإنجاز نابع من العمل الجاري فعلياً، لأنه يسير أبطأ مما نويت دائماً. وفي أي حال كنت أشعر أن الكتاب أو حتى المقالة لا يعتبر موجوداً حتى يكون منجزاً ومنتهياً. لكن حالما يكون الكتاب منتهياً، أبدأ فعلياً من اليوم التالي بالقلق، لأن الكتاب التالي لم يبدأ وأنا مهووس بالخوف ألا يكون هناك كتاب آخر أبداً -لذلك كان دافعي منهكاً دائماً. لو نظرت إلى الماضي

وأحصيت الكمية الفعلية التي كتبتها، عندئذ أرى أن نتاجي كان محترماً، لكن هذا لا يطمئنني، لأنه ببساطة يعطيني الشعور أنني كنت كادحاً ومجداً سابقاً، وتلك كانت خصوبة خسرتها الآن. مؤخراً كنت أقرأ في مكان ما أو آخر عن تاجر تحف إيطالي حاول أن يبيع صليباً من القرن السابع عشر إلى جيه بي مورغان. لم يكن من النظرة الأولى عملاً ممتعاً بشكل خاص. لكن تبين أن النقطة الرئيسة كانت أنه بعد أن قطع الصليب وُجد في داخله خنجر مخفي. يا له من رمز مثالي عن الدين المسيحي.

مع وضد روايات تروى بضمير في الشخص الأول (أنا).

في الحقيقة، أن تكتب رواية في الشخص الأول، مثل إعطاء نفسك جرعة مع بعض المنبه، لكنها مؤذية جداً وعقار إدماني جداً. الإغراء أن تفعلها كبير جداً، لكن في كل مرحلة من الأحداث تعرف جيداً تماماً أنك تفعل شيئاً خطأ وغبياً. على كل حال هناك فائدتان كبيرتان:

١- في الشخص الأول يستطيع المرء دائماً أن يكمل كتابة الكتاب فعلياً وبسرعة نوعاً ما، لأن استخدام الـ (أنا) يبدو أنه يتخلص من الخجل والشعور بالعجز الذي يمنع المرء من التمكن من البدء بشكل جيد. وفي الشخص الأول يستطيع المرء دائماً أن يصل إلى مكان ما قريب من المفهوم الذي بدأ فيه المرء.

٢- في الشخص الأول يمكن أن تجعل أي شيء يبدو معقولاً. أولاً لأنك مهما تكتب، فسيبدو ذلك معقولاً للمؤلف، ولأنك تستطيع أن تحلم حلم يقظة بنفسك بأنك تعمل بأي شكل، بينما مغامرات الشخص الثالث يجب أن تكون محتملة نسبياً. يجد القارئ مرة أخرى أي شيء يقال في الشخص الأول معقولاً، لأنه إما أنه يُشبّه نفسه مع "أنا" القصة، أو لأن "أنا" ما تتحدث إليه يقبلها كشخص حقيقي.

السلبيات والعوائق

١- لا يمكن فصل القاص عن المؤلف أبداً. من المستحيل أن تتجنب نسب أفكار المرء له أحياناً، ولأن المؤلف يجب أن يعلق أحياناً وحتى في الرواية، فإن تعليق المرء الخاص به يصبح بشكل لا مفر منه تعليقات القاص (التي لن تكون هكذا في رواية الشخص الثالث) على الأقل القاص يجب أن يمتلك أسلوب القاص النثري (مثال آمال كبيرة الذي ليس كتاب سيرة ذاتية).

٢- إذا جرى الالتزام بالترتيب بشكل صارم، فإن أحداث القصة تُرى فقط عبر وعي الشخص الأول. لكي تكتشف ماذا يحدث فيجب أن تعرف كيف يقوم القاص باختلاس السمع ويعمل مخبر هاوٍ، أو أن يجعل من الضروري على الناس أن يفعلوا أشياء بشكل جماعي لا يفعلونها في الحياة الواقعية إلا بشكل فردي. إذا كان يجب أن تكتشف أفكار الشخصيات الأخرى، عندئذ يجب عليها أن تتحدث بحرية أكثر مما يفعل أي شخص حقيقي، وإلا يجب على القاص أن يقول شيئاً يرقى إلى ذلك "أستطيع أن أفهم بما كان يفكر بالضبط" إلخ إلخ (قارن مشهداً مخيفاً في إيفلين واو زيارة ثانية لبرايدزهيد) لكن عموماً رواية الـ "أنا" ببساطة هي قصة شخص واحد -شخصية ثلاثية الأبعاد وسط رسوم كاريكاتورية، ولذلك لا يمكن أن تكون رواية حقيقية.

٣- مدى المشاعر أضيق بكثير بما أن هناك أنواع كثيرة من الإغراء التي تستطيع خلقها لمصلحة الآخرين وليس لنفسك.

من أجل مقالة عن إيفلين واو.

منافع ألا تكون جزءاً من الحركة بغض النظر عما إذا كانت الحركة في الاتجاه الصحيح أم لا.

لكن المضار في اعتناق آراء زائفة (لا يمكن الدفاع عنها).

الحركة (أودن إلخ).

القوى الدافعة عند واو هي التكبر والكاثوليكية.

حتى الكتب الأولى لم تكن ضد الدين أو ضد الأخلاق بشكل واضح.

لكن لاحظ التكبر المتواصل الظاهر والمتزايد على المستوى الاجتماعي، لكنه يتركز دائماً حول فكرة الاستمرارية والأرستقراطية والبيت الريفي. لاحظ أن كل واحد هو متكبر، لكن وفاء واو هو إلى شكل من المجتمع لم يعد قابلاً للحياة، ويجب أن يكون مدركاً له.

آراء عن إدغار آلان بو لا يمكن الدفاع عنها.

الكاثوليكية. لاحظ أن الكاتب الكاثوليكي لا يجب أن يكون محافظاً بالمعنى السياسي. ميز غراهام غرين. ميزة للروائي بكونه كاثوليكياً -موضوع التصادم بين نوعين من الخير. حلل زيارة ثانية لبرايدزهيد. (لاحظ أخطاء بسبب كونها كتبت بالشخص الأول) موقف متحيز متعمد. ليس بيوريتاني (تطهيري). قساوسة وليست كائنات فوق بشرية. موضع حقيقي -

سكر وثمل سيبستيان وعناد العائلة لمعالجة هذا على حساب ارتكاب إثم. لاحظ أن هذا رحيل حقيقي من الموقف الإنساني المتحضر الذي لا يقبل التسوية.

لكن. المشهد الأخير يرسم فيه الرجل الفاقد الوعي إشارة الصليب. لاحظ أن الطبقة الخارجية يجب أن تتكسر عاجلاً أو آجلاً أخيراً. المرء لا يستطيع حقيقة أن يكون كاثوليكياً وراشداً ناضجاً في الوقت نفسه.

استنتاج. واو روائي جيد كما يمكن للروائي أن يكون (أي كما يكون الروائيون اليوم) لكنه يعتنق آراء لا يمكن الدفاع عنها.

٢١ مارس ١٩٤٩.

الروتين هنا (مصحة كرانهام) يختلف تماماً عن ذاك الذي في مستشفى هيرمايرز. على الرغم من أن كل واحد في هيرمايرز كان لطيفا جداً ومراعياً لي- بشكل مدهش تماماً، هكذا في الواقع- لا يستطيع المرء تفادي الشعور في كل دقيقة بالاختلاف في نسيج الحياة حين يوفي المرء بوعده الخاص به.

أقوى اختلاف ملحوظ هنا، هو أنها أهدأ بكثير من المستشفى، وأن كل شيء يتم بطريقة متروية أكثر. أنا أعيش في ما يسمى بشاليه، واحد من صف متواصل من بيوت خشبية مع أبواب زجاجية، وأبعاد كل شاليه ١٥ بـ ١٢ (قدماً). توجد أنابيب مياه حارة وحوض استحمام وخزانة بأدراج وخزانة ثياب، بالإضافة إلى السرير المعتاد والطاولات إلخ. في الخارج شرفة ذات سقف زجاجي. كل شيء يجلب باليد - ليس هناك أي من العربات المقعقعة المقيتة التي لا ينفك المرء يسمعها في المستشفيات، وليس هناك ضجيج الراديوهات الكبير- كل المرضى عندهم سماعات رأس (هنا هذه تولّف دائماً على البي بي سي). (في هيرمايرز، عادة إلى الخفيف). إن الصوت المتواصل هو صوت الطيور.

في عام ١٩٤٣ حين كنت أعمل للبي بي سي، كانت واحدة من "الرسائل الإخبارية" التي كنت مسؤولاً عنها، ماراثية. هذه الرسائل الإخبارية- فعلياً عبارة عن تعليقات إخبارية تصدر مرة أو مرتين في الأسبوع بلغات ثانوية، من المستحيل أن تبث بها يومياً -كانت تؤلف بواسطة شخص ما في البي بي سي ثم يترجمها متحدث بتلك اللغة، ويذيعها لهم تحت إشراف رقيب هو عادة موظف في البي بي سي. واجهنا صعوبة مع الرسالة الإخبارية الماراثية أيضاً، لأن الهنود من

ذلك العرق حين يعيشون في إنكلترا يفقدون فوراً تقريباً سيطرتهم على لغتهم الأصلية. لهذا رغم وجود عدد من الطلاب الماراثيين في إنكلترا، فليس هناك الكثيرون المناسبون للعمل كمذيعين. في عام ١٩٤٣ كان يقوم بالوظيفة رجل صغير الجسم يدعى كوثاري، وهو كروي الشكل تماماً تقريباً. كان شيوعياً كما أعتقد، ومن المؤكد أنه قومي متطرف، لكنه كان موثوقاً تماماً، لأنه كان ضد النازية ومؤيداً للحلفاء. فجأة، فإن "كلية" الكيان الغريب (حقيقة أنا أفكر في ام أي ٥) التي كان عليها الموافقة على كل المذيعين، حصلت على الحقيقة أن كوثاري كان في السجن بسبب جريمة سياسية ما حين كان طالباً. وعلى الفور منع كوثاري من التكلم على الهواء، لأنه لم يكن يسمح لأحد كان في السجن بالعمل كمذيع. بصعوبة عثرنا على شاب آخر اسمه جاثا، وكل شيء سار على ما يرام لبعض الوقت. ثم بعد هذا استمر الوضع لبضعة أشهر، إلى أن أتت مساعدتي الماراثية لزيارتي، واكتشفت بسرية شديدة أن جاثا لم يكن يكتب النشرات الإذاعية. لقد نسي جزئياً لغته الخاصة به، ومع ذلك استطاع أن يذيع الرسالة الإخبارية بعد أن تُكتب، إلا أنه لم يستطع أن يترجمها. كان كوثاري يعمل الترجمة، وهو وجاثا يتقاسمان الأجرة. شعرت أن من واجبي أن أخبر مرؤوسي الدكتور روشبروك-ويليامز حول هذا. وبما أنه سيكون من الصعب إيجاد مذيع ماراثي آخر، فقد قرر أننا يجب أن نغمض أعيننا على ما يحدث. لهذا استمر الترتيب، ولم نعرف أي شيء رسمي عنه.

يبدو لي أن هذا كان قليلاً من الهند نُقل إلى بريطانيا، لكن اللمسة الهندية التامة كانت أن الآنسة شيتيل احتفظت بمعلوماتها لعدة أشهر قبل الإفصاح عنها.

جور فادح وتضليل في كثير من النقد لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي بسبب فشل السماح بحجم تلك البلدان. سخافة واضحة أن تقارن سكاناً متجانسين قليلي العدد كسكان بريطانيا مثلاً محشورين في منطقة صغيرة، مع دولة متعددة الأعراق ممتدة على طول قارة. من الواضح أن المرء لا يستطيع مقارنة الظروف في بريطانيا بشكل معقول مع تلك التي في سيبيريا مثلاً. يمكن للمرء أن يقارن سيبيريا مع كندا أو تركستان مع شمال الهند أو لينينغراد مع أدنبره. الشيء نفسه مع الولايات المتحدة. الناس في بريطانيا متزمتون جداً بخصوص معاملة الزنوج، لكن قارن مع الظروف التي في جنوب أفريقيا. بالتأكيد نحن في بريطانيا ليس لدينا سيطرة على جنوب أفريقيا، ولا الناس في الولايات الشمالية لديهم سيطرة على ما يحدث

في ألاباما. في الوقت الراهن نحن نستفيد بشكل غير مباشر مما يحدث في جنوب أفريقيا وفي جامايكا وفي مالايا إلخ. لكن هذه الأماكن مفصولة عنا بالماء. على هذه الواقعة الأخيرة تأسس النفاق الجوهري للحركة العمالية البريطانية.

١٧ أبريل نيسان

أثر غريب هنا في المصحة، في أحد الفصح يكون عند الناس في هذا الصف من الشاليهات (الأغلى) ضيوف على الأغلب، فتسمع أصوات أعداد كبيرة من الطبقة العليا الإنكليزية. لقد أمضيت سنتين تقريباً بعيداً عن أصواتهم، ولم أسمعهم سوى مرة أو مرتين في الفترة الواحدة. واعتادت أذناي أكثر فأكثر على أصوات أفراد أدنى الطبقة العاملة الوسطى الاسكتلندية. في مستشفى هيرمايرز مثلاً أنا حرفياً لم أسمع لهجة "مهذبة" إلا عندما يكون لدي زائر. كما لو كنت أسمع هذه الأصوات لأول مرة. ويا لها من أصوات! نوع من التخمة والثقة بالنفس البلهاء وعبارات الاستخفاف والضحك حول لا شيء، وقبل كل شيء نوع من الثقل والغنى متحدان مع أشخاص حقودين، يشعر المرء غريزياً من دون حتى أن يكون قادراً على رؤيتهم، أنهم أعداء لكل شيء ذكي أو حساس أو جميل. لا عجب أن كل واحد يكرهنا بهذا الشكل.

النقاد الكبار آكلو لحوم البشر يترصدون في المياه العميقة للمجلات النقدية الربعية الأمريكية.

أكبر الخسائر التي ترزح تحتها وتعاني منها الحركة اليسارية: أنها كانت قادماً جديداً إلى المسرح السياسي، وعليها أن تبني نفسها من العدم، وعليها أن تخلق تابعاً لها بنشر الأكاذيب. حين يكون حزب يساري ما في السلطة، فإن خصمه الأخطر دائماً يكوّن دعايته الماضية الخاصة به.

النعومة الكبيرة والمتزايدة دائماً للحياة العصرية والترف.

ارتفاع في معيار الشجاعة البدنية وتحسن في الصحة والبنية الجسدية، وتبديل مستمر للأرقام القياسية الرياضية.

سؤال. كيف يمكن تسوية الخلاف؟

إن كل واحد في الخمسين من عمره، يكون له الكرامة والاعتبار الذي يستحقه.

الملحق الأول
كتب لجورج أورويل
أو كتب تحتوي مساهمة منه

بائس ومتشرد في باريس ولندن، لندن ١٩٣٣ نيويورك ١٩٣٣.

أيام في بورما، نيويورك، ١٩٣٤، لندن ١٩٣٥.

ابنه القس، لندن ١٩٣٥، نيويورك ١٩٣٦.

لتبق الزنبقة ترفرف، لندن ١٩٣٦، نيويورك ١٩٦٥.

الطريق إلى رصيف ويغان، لندن ١٩٣٧، نيويورك ١٩٥٨.

الحنين إلى كاتالونيا لندن ١٩٣٨، نيويورك ١٩٥٢

الصعود إلى الهواء، لندن ١٩٣٩، نيويورك ١٩٥٠

داخل الحوت، لندن ١٩٤٠.

الأسد ووحيد القرن، لندن ١٩٤١.

خيانة اليسار، فيكتور غولانكس وجورج أورويل وجون ستاركي وآخرون، لندن ١٩٤٢.

نصر أم مصالح مكتسبة؟ جي دي اتشك ول وجورج أورويل وآخرون لندن ١٩٤٢

حديث إلى الهند، تحرير ومقدمة لجورج أورويل، لندن ١٩٤٣

مزرعة الحيوان، لندن ١٩٤٥، نيويورك ١٩٤٦.

مقالات نقدية، لندن ١٩٤٦ (عنوان أمريكي) ديكنز ودالي وآخرون، نيويورك ١٩٤٦.

جيمس بيرنهام والثورة الإدارية، لندن ١٩٤٦ (كراسة)

حب الحياة وقصص أخرى لجاك لندن. مقدمة لجورج أورويل، ١٩٤٦

الشعب الإنكليزي، لندن ١٩٤٧

كتّاب الكراريس البريطانيين، المجلد الأول تحرير جورج أورويل وريغنولد رينولدز.

مقدمة لجورج أورويل ١٩٤٩ نيويورك ١٩٤٩

ألف وتسعمئة وأربع وثمانون، لندن ١٩٤٩ نيويورك ١٩٤٩.

مجموعات له بعد وفاته

قتل فيل، لندن ١٩٥٠، نيويورك ١٩٥٠.

هكذا كانت المتع، نيويورك ١٩٥٣

إنكلترا إنكلترتكم، لندن ١٩٥٣.

مجموعة أدبية مختارة لأورويل، تحرير ريتشارد اتش روفر، نيويورك ١٩٥٦.

مقالات مختارة، لندن ١٩٦١

الملحق الثاني
الجدول الزمني

.١٩٤٥

بعد ثمانية عشر شهراً من الرفض والنكسات، نشرت دار نشر سيكر أند وربيرغ **مزرعة الحيوان** في ١٧ أغسطس/ آب.

من ١٠ إلى ٢٢ سبتمبر/ أيلول، قام أورويل بزيارته الأولى إلى جورا في الهيدريدز، وبقي في بيت صغير مع أرض مستأجرة. عند عودته إلى شقته ٢٧ بي في كانونبيري سكوير في ايزلينغتون، استأنف الكتابة مرة أخرى للتريبيون والأوبزيرفر بانتظام ومانشستر إيفنينغ نيوز.

على الرغم من توقع أصدقاء أورويل أن يتخلى عن ابنه المتبنى بعد موت زوجته إيلين بلير في مارس/ آذار، رفض أورويل أن يفترق عن الطفل، وكلف ممرضة الأطفال غوين أوشونيسي بالعناية به ثم جويس بريتشارد وبعدها دورين كوب حتى الصيف، وفي الأشهر الاثني عشر التالية سوزان واتسون التي كان لديها طفل صغير، وأصبحت ربة بيت أورويل. أمضى ريتشارد بلير عيد الميلاد مع آرثر كيسلر وزوجته ماميان في بيتهما في نورث ويلز.

.١٩٤٦

نشرت دار سيكر أند وربيرغ كتاب **مقالات نقدية** في ١٤ فبراير/ شباط، ونشرت دار رينال أند هيتشكوك الكتاب بعنوان **ديكنز ودالي وآخرون** في نيويورك في ٢٩ أبريل/ نيسان. من منتصف أبريل توقف أورويل عن الكتابة الصحفية لمدة ستة أشهر وحتى نهاية يوليو/ تموز أخذ استراحة تامة من الكتابة.

في ٣ أيار ماتت أخته الكبرى مارجوري داكين بمرض كلوي في عمر الثامنة والأربعين. بعد حضور جنازتها في نوتنغهام ببضعة أيام، انطلق أورويل شمالاً من لندن، ومكث أسبوعاً مع جورج كوب وزوجته دورين في بيتهما في بيغار، غير بعيد عن أدنبره. وصل في ٢٣ مايو/ أيار إلى بارنهيل ومكث في بيت استأجره في جورا ليجد بعض الهدوء بعيداً عن الكتابة

الصحفية والتلفون إلخ، وبدأ بكتابة الكتب مرة ثانية ووضعها بالترتيب. أتت أخته أفريل بلير في ٣١ مايو/ أيار لتساعده. وفي بداية يوليو/ تموز ذهب إلى لندن وأحضر الصغير ريتشارد وسوزان واتسون التي لم تقم طويلاً. منذ ذلك الوقت أصبحت أخته أفريل مدبرة منزل أورويل، التي تعتني بريتشارد الصغير أيضاً.

في ٢٦ أغسطس/ آب، نشرت هاركورت بريس روايته **مزرعة الحيوان** ونُشرت في نيويورك أيضاً بكونها اختيار نادي كتاب الشهر الأمريكي في طبعة بيع منها أكثر من نصف مليون نسخة، وحررته من مخاوفه المالية لأول مرة في حياته. في أوائل أغسطس/ آب بدأ العمل في روايته **ألف وتسعمائة واربع وثمانون**. عاد إلى كانونبيري سكوير في ١٣ أكتوبر/ تشرين أول. في نوفمبر/ تشرين ثاني تخلى عن عموده لمراجعة الكتب في المانشستر إيفنينغ نيوز، وقام بمساهمته الأخيرة للخمسة عشر شهراً التالية للأوبزيرفر. بدأ الكتابة الأسبوعية مرة ثانية للتريبيون حتى **"كما يرضيني"**، وكانت آخر قطعة كتبها لها في ٤ أبريل/ نيسان ١٩٤٧. في توفمبر/ تشرين ثاني، نشر بول إيليك حب الحياة وقصص أخرى لجاك لندن، فكتب أورويل المقدمة في نوفمبر/ تشرين ثاني ١٩٤٥ في ٢٩ ديسمبر/ كانون أول، ذهب إلى جورا ليزرع أشجار فاكهة وشجيرات ورد، وعاد إلى كانونبيري سكوير في ٨ يناير/ كانون ثاني.

.١٩٤٧

في ١١ أبريل/ نيسان وصل إلى جورا مع الصغير ريتشارد وأفريل بلير. في الأسبوع الذي سبق مغادرة لندن، كان أورويل مريضاً في الفراش، وحتى منتصف شهر مايو/ أيار لم يكن بصحة تمكنه من العمل خارج البيت.

من أبريل/ نيسان، وبمعزل عن خمسة عشر مراجعة نقدية للأوبزيرفر بين فبراير ١٩٤٨ وفبراير ١٩٤٩ لم يقم أورويل إلا بالكتابة الصحفية المنتظمة، كما كتب مقالات منفردة ومراجعات نقدية لمجلات أمريكية تدفع أجوراً جيدة، ومراجعات نقدية مثل النيويوركر أو النيويورك تايمز، أو مجلات الأقليات مثل بوليتكس أند لترز، التي شعر أنها بحاجة إلى التشجيع والدعم. في ٣١ مايو/ أيار كتب "هكذا كانت المتع"

وصل السير ريتشارد ريس صديق أورويل المقرب من بارنهيل في أوائل يونيو/ حزيران وبقي حتى نهاية سبتمبر/ أيلول. في نفس الشهر تخلى أورويل عن الستورز البيت الصغير الذي استأجره في ولنغتون في هيرتفوردشاير منذ ١٩٣٦ لأنه عزم الآن أن يجعل من جورا بيته الصيفي، ويحتفظ بـ ٢٧ ب كانونبيري سكوير كبيت مؤقت في لندن.

في أكتوبر/ تشرين أول حضّر **الصعود إلى الهواء**، وظهر المجلد الأول في طبعة موحدة لأعماله تعهدت بها دار سيكر أند وربيرغ. في نوفمبر/ تشرين ثاني، أتى بيل دون، وهو شاب اسكتلندي سرح من الجيش حديثاً، ليعيش في بارنهيل، بعد أن دخل في شراكة مع السير ريتشارد ريس ليحرثها لأورويل.

اعتلت صحة أورويل بشكل متزايد بسبب التهاب رئتيه خلال شهر سبتمبر/ أيلول وأكتوبر/ تشرين أول، لكن في هذا الوقت أجبر على أن يلزم سريره في آخر أكتوبر/ تشرين أول، وأنهى المسودة الأولى من ألف وتسعمائة وأربع وثمانون. شخّص أخصائي أمراض صدرية حالة أورويل بإصابته بالسل في رئته اليسرى. وقبل عيد الميلاد بخمسة أيام دخل أورويل مستشفى هيرمايرز في إيست كيلبرايد قرب غلاسغو.

١٩٤٨

في النصف الثاني من يناير/ كانون ثاني، شعر بتحسن صحته بشكل يكفي للقيام بعمل قليل في مراجعة الكتب. في مارس/ آذار كتب "الكتاب واللوثايان" للبوليتكس أند لترز. وفي أبريل/ نيسان صحح مسودات ليعيد طباعة أيام في بورما. في ١٣ مايو/ أيار نشرت الصعود إلى الهواء في طبعتها الموحدة. استجاب أورويل بشكل جيد تماماً إلى خطة علاجية بالستريبتومايسين لمدة شهرين، بدأت في فبراير/ شباط، وبدأ بالمسودة الثانية من ألف وتسعمائة وأربع وثمانون، وكتب مقالة "صحافة الجناح اليساري في بريطانيا" لعدد يونيو/ حزيران من البروغريسيف (ماديسون، ويسسكونسون). في هذا الوقت تقريباً كتب "جورج غيسينغ" لبوليتكس أند لترز.

في ٢٨ يوليو/ تموز عاد إلى بارنهيل، لكن في سبتمبر/ أيلول بدأت صحته بالانتكاس. أجّل الذهاب من أجل العلاج لكي ينهي ألف وتسعمائة وأربع وثمانون التي أكملها في

نوفمبر/ تشرين ثاني، ثم طبعها بنفسه وأرسل النسخ في ٤ ديسمبر/ كانون أول. خلال الخريف كتب "أفكار عن غاندي" للبارتيزان ريفيو. في ١٥ نوفمبر/ تشرين ثاني نشر آلان وينغيت المجلد الأول من كتّاب الكراريس البريطانيين الذي كتب أورويل مقدمته في ربيع ١٩٤٧. في ديسمبر/ كانون أول تخلى عن شقته في كانونبيري سكوير.

خلال نوفمبر/ تشرين ثاني وديسمبر/ كانون أول تدهورت صحة أورويل، وبات صعباً عليه الخروج من البيت. وفي ٦ يناير/ كانون ثاني اشتد السل عليه كثيراً، فدخل إلى مصحة كوستولد في كرانهام في غلوسسترشاير.

.١٩٤٩

في يناير/ كانون ثاني ظهرت أيام في بورما كمجلد ثانٍ في طبعة موحدة. في منتصف فبراير/ شباط شعر أورويل بتحسن صحي، فوافق أن يكتب مراجعة نقدية من ٥٠٠٠ كلمة عن إيفلين واو، لكنه بدأها ولم يكملها أبداً. في مارس/ آذار صحح مسودات ألف وتسعمائة واربع وثمانون. أصيب بانتكاسة صحية، لكنه نجح في أن ينهي المراجعة، ووعد بكتابة مراجعة ساعتهم الأجمل لونستون تشرشل، وأرسلها في ٩ أبريل/ نيسان إلى النيوليدر (نيويورك) وظهرت فيها يوم ١٤ مايو/ أيار ١٩٤٩. هذه كانت آخر مراجعة نقدية أو مقالة يكتبها. في أبريل/ نيسان كانت لديه خطط لكتابة رواية بدأ بها عام ١٩٤٥ لكنه لم يكن بوضع صحي جيد ليكتبها. خلال السنة كتب موجزاً وكتب أربع صفحات لقصة قصيرة اسمها "قصة غرفة التدخين"، وبدأ يكتب ملاحظات لمقال طويل عن جوزيف كونراد.

في حزيران نشر سيكر أند وربيرغ رواية ألف وتسعمائة واربع وثمانون ونشرها في نيويورك ماركورت، بريس. في يوليو/تموز اختارها نادي كتاب الشهر الأمريكي. في أغسطس/ آب بدأ أورويل يخطط كتاباً لمقالات يعيد طبعها.

في الثالث من سبتمبر/ أيلول مرض بشدة ثانية، فنقل أورويل إلى مستشفى الكلية الجامعي في لندن. في ١٣ أكتوبر/ تشرين أول تزوج من سونيا براونويل مساعدة رئيس التحرير في الهورايزن، والتي التقى بها في عام ١٩٤٥

.١٩٥٠

في ٢١ يناير/ كانون ثاني قبل أن يسافر إلى مصحة سويسرية ببضعة أيام، توفي أورويل بسبب إصابته بالسل الرئوي. كان في السادسة والأربعين من عمره. دفن في مدفن كنيسة أول سينتس، في ساتون كورتناي في بيركشاير.

إيان إنغوس.

مذكرة الحرب

كما يرضيني (فترات من ١٩٤٣ إلى ١٩٤٧)

٣ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٣

المشهد في محل لبيع التبغ. جنديان أميركيان يتنقلان حول طاولة المحل، أحدهما يحاول مغازلة المرأتين الشابتين اللتين تديران المحل رغماً عنهما، والثاني في مرحلة تعرف بـ "السكر القتالي" يدخل أورويل بحثاً عن أعواد ثقاب. حاول الجندي المحب للقتال بذل جهد للوقوف منتصباً على قدميه.

الجندي: أين هو، البريطاني الخائن. أسمعت ذلك؟ بريطاني خائن. لا تثق ببريطاني أبداً. لا يمكن الوثوق بالبريطاني.

أورويل: لا تستطيع الثقة بهم في ماذا؟

"أين هو؟ تسقط بريطانيا. يسقط البريطانيون. لا يمكنك فعل أي شيء بخصوص ذلك؟ إذاً أنت تستطيع- حسناً افعلها". (يبرز وجهه إلى الخارج مثل قط على سور حديقة).

بائع التبغ: "سوف يبرحك ضرباً إن لم تخرس".

الجندي: "أين هو، تسقط بريطانيا" (يتهاوى على طاولة المحل مرة أخرى. يرفع البائع رأسه برقة عن الميزان).

هذا النوع من الشيء ليس استثنائياً. حتى لو تجنبت البكاديلي بحشودها الهائجة من السكارى والمومسات، فمن الصعب أن تذهب إلى أي مكان في لندن، من دون أن ينتابك الشعور بأن بريطانيا أرض محتلة الآن. هناك الإجماع بالرأي بأن الجنود الأمريكيين المحتشمين الذين يتصرفون بأخلاق لائقة، هم الزنوج فقط. من جانب آخر، إن شكاوى الأمريكيين مبررة- بشكل خاص شكاواهم من الأطفال الذين يلحقونهم في الليل والنهار وهم يتسولون الحلوى.

هل هذا النوع من الشيء مهم؟ الجواب، أنه قد يكون مهماً حين تكون العلاقات الأنغلوأمريكية متأرجحة وغير واضحة، وحين تكون القوى التي مازالت جبارة في هذه البلاد

وتريد تفاهماً مع اليابان، تكون قادرة مرة أخرى أن تظهر إلى العلن. في هكذا لحظات، يمكن أن يعتبر التحامل والتحيز شيئاً هاماً. قبل الحرب، كان هناك شعور معادٍ للأمريكيين في هذه البلاد. ويعود تاريخه إلى وصول الجنود الأمريكيين. وفاقم هذا الوضع سوءاً، الاتفاق الضمني على عدم مناقشة هذا الأمر في الصحافة.

على ما يبدو إن سياستنا الثابتة في هذه الحرب، هي ألا ننتقد حلفاءنا، ولا نرد على انتقاداتهم لنا. وفي النتيجة، حدثت أشياء قادرة على أن تسبب أسوأ نوع من المشاكل عاجلاً أو آجلاً. مثال: الاتفاق الذي يقضي بعدم مثول كل الجنود الأمريكيين في هذه البلاد أمام المحاكم البريطانية حين يرتكبون جرائم ضد المواطنين البريطانيين -عملياً هذه "حقوق إضافية للجنود". لا يعرف البريطانيون بوجود هذا الاتفاق، ولم تتحدث عنه الصحف، وامتنعت من التعليق عليه، ولم تُطلع الناس ليدركوا مدى الشعور المعادي لبريطانيا في الولايات المتحدة أيضاً. ولأن الناس استمدوا صورة أمريكا من الأفلام التي أعدت بعناية للسوق البريطانية، فلم تكن لديهم أية فكرة من نوع الشيء الذي تربى الأمريكيون على تصديقه والاعتقاد فيه حولنا. ليكتشفوا فجأة، مثلاً، أن الأمريكي العادي يعتقد أن الولايات المتحدة تحملت خسائر في الأرواح أكثر من بريطانيا في الحرب الأخيرة، وكان ذلك صدمة بالنسبة إليهم، وصدمة من النوع الذي يسبب شجاراً عنيفاً. ولم تبحث وتناقش بشكل مناسب أبداً صعوبات أساسية، مثل حقيقة أن راتب الجندي الأمريكي يعادل خمسة أضعاف راتب الجندي البريطاني. ليس هناك شخص عاقل يريد إثارة وتأجيج الغيرة الأنغلوأمريكية. على العكس، لأن المرء يريد فعلاً علاقة طيبة بين الدولتين، لذلك يريد كلاماً بسيطاً وواضحاً. سياستنا الرسمية التملقية غير مجدية في أمريكا، بينما في هذه البلاد يسمح لاستياءات خطيرة بأن تتقيح تحت السطح.

منذ أن ازدهر تأليف الكراريس في عام ١٩٣٥، كنت جامعاً دائماً لكراريس سياسية ودينية وغيرها، وأنصح كل من يصادفها ولديه شلن زيادة، بشراء م.س. ١٩٤٦ بقلم روبين موم، الذي نشرته مطبعة ورفاكتس. إنه أنموذج جيد لتلك المدرسة الأدبية الصغيرة المتنامية، المدرسة الراديكالية غير الحزبية. يصف فحواه المؤسسة في بريطانيا بأنها ديكتاتورية فاشية، بدأت في عام ١٩٤٤، يرأسها جنرال ناجح مأخوذ من أنموذج حي (برأيي). وجدتُ

الكراس ممتعاً، لأنه يعطيك مفهوم رجل الطبقة الوسطى العادي للفاشية، والأهم الأسباب التي تمكنها من النجاح. يبين مظهر الكراس (مقارنة بالكراريس الأخرى المشابهة التي في مجموعتي) المدى البعيد الذي قطعه رجل الطبقة الوسطى العادي منذ عام ١٩٣٩، في الوقت الذي مازالت فيه الاشتراكية تعني تقاسم المال وما يحدث في أوروبا ليس من شأننا.

من كتب هذا؟

بينما كنا نمشي فوق قضبان أقبية دروري لين، صعدت أبشع رائحة نتنة، ومازلت أتذكر شيئاً واحداً بشكل خاص حتى هذا اليوم. دفع رجل شبه مكسو نافذة مكسورة تحتنا ونحن نمرّ، فثارت في تلك اللحظة هبة قوية من العفن، مكوّنة من غازات تولدت من القذارة والهواء الذي استنشق وزفر وأعيد استنشاقه مئة مرة، مشحونة بروائح المرض وقذارة شخصية لا يمكن تسميتها. لذلك ترنحتُ وملتُ إلى البالوعة، مع إحساس مفاجئ بالغثيان، لم أستطع التغلب عليه...... لم أعرف، حتى بت في اتصال مباشر معهم، كم هي المسافة البعيدة جداً التي تفصل الطبقات التي تسكن في قاع المدن الكبرى، عن تلك الطبقات التي فوقها، وكم أفرادها بعيدون تماماً عن الحوافز التي تؤثر على الكائنات البشرية العادية، وكم هو العمق الشديد الذي غرقوا فيه والذي لا يصله شعاع من الشمس أو النجوم، تغمرهم الأنانية المتولدة بشكل طبيعي من الصراع المستمر من أجل البقاء والحرب المتواصلة مع المجتمع. وكانت الفكرة التي تروعني وتحضرني أيام الآحاد دائماً وتنتابني في أوقات أخرى، أن هناك رجالاً ونساء وأطفالاً يعيشون في انحطاط بهيمي، وحين يموتون يأخذ مكانهم آخرون. فبدت لي حضارتنا لا شيء سوى غشاوة رقيقة أو قشرة تتوضع فوق حفرة لا قرار لها. وتساءلت كثيراً إن كانت تلك الحفرة لن تمزق هذه القشرة وتبيدنا كلنا.

ستعرفون على أي حال أن هذا جاء من كاتب من القرن التاسع عشر. وفي الواقع هو مقطع من رواية التحرر لمارك رذرفورد. (مارك رذرفورد اسمه الحقيقي هال وايت، كتب هذا الكتاب كسيرة ذاتية زائفة). بمعزل عن النثر، يمكنك تميز هذا كشيء قادم من القرن التاسع عشر في وصف قذارة أحياء الفقراء التي لا تطاق. ولكن الصفة المميزة الأكبر، هي تلك

الفكرة بوجود كتلة كبيرة كاملة من السكان انحطت وفسدت، لدرجة باتت فيها أبعد من التواصل والاسترداد.

لقد اتفق معظم كتاب القرن التاسع عشر على هذا حتى ديكنز. إن القسم الكبير من طبقة عمال المدن الذين دمرتهم النزعة الصناعية، هم عبارة عن مجرد همجيين ومتوحشين، وأن الثورة ليست الشيء المرجو والمأمول، وتعني ببساطة إغراق الحضارة في مستنقع من أنصاف البشر. في هذه الرواية (هي واحدة من أفضل الروايات في اللغة الإنكليزية) يصف مارك رذرفورد افتتاح نوع من عمل أو مستوطنة قرب دروري لين، الهدف منها "جذب دروري لين بالتدريج لكي تأتي وتُنقذ". لا حاجة إلى القول إن هذا العمل قد فشل، لأن دروري لم تكن تريد أن تنقذ بالمعنى الديني فقط، وإنما لا تريد أن تتحضر أيضاً. وكان كل ما نجح في فعله مارك رذرفورد وصديقه وغيرهما، هو تقديم ملجأ لعدد قليل من سكان المناطق الذين لا ينتمون إلى بيئاتهم، أما العدد الأكبر منهم، فكان خارج الحل والعون.

كان مارك رذرفورد يكتب عن السبعينيات، ولاحظ في حاشية مؤرخة في ١٨٨٤ أن "الاشتراكية وتأميم الأرض ومشاريع أخرى" التي ظهرت الآن، ربما تعطي بصيص أمل، لكنه يعتقد رغم ذلك أن حالة الطبقة العاملة ستزداد سوءاً، ولن تتحسن بمرور الوقت. كان هذا الاعتقاد طبيعياً (ويبدو أن حتى ماركس أعتقد بذلك)؛ إذ كان من الصعب في ذاك الزمن التنبؤ بالزيادة الهائلة في إنتاجية العمل، واعتبر مارك رذرفورد ومعاصروه أن مثل هذا التحسن في مستوى المعيشة مستحيل تماماً.

لاتزال أحياء لندن الفقيرة سيئة كفاية، لكنها لا شيء مقارنة بأمثالها في القرن التاسع عشر، فقد ولّت الأيام التي كانت فيها أربع عائلات تقطن في غرفة واحدة، وولت الأيام التي كان فيها سفاح القربى وقتل الأطفال أمراً مسلماً به، والأهم أنه ولت الأيام التي بدا فيها إلغاء طبقة كاملة من السكان كهمجيين غير قابلين للاسترداد أمراً طبيعياً. إن أشد شخص حي من المحافظين تكبّراً، لن يكتب عن الطبقة العاملة ما كتبه مارك رذرفورد، علماً أن مارك رذرفورد - مثل ديكنز وشاركه موقفه- كان راديكالياً! لقد حدث التقدم، ويحدث رغم صعوبة تصديق ذلك في هذا العصر، عصر معسكرات الاعتقال والقنابل الكبيرة الجميلة.

١٧ كانون الأول/ ديسمبر

وصلت رسائل كثيرة جداً تهاجمني بسبب ملاحظات لي عن الجنود الأميركيين في هذه البلاد، لهذا يجب عليّ أن أعود إلى هذا الموضوع.

خلافاً لأغلب ما يظنه الذين راسلوني بأنني كنت أحاول إثارة المشاكل بيننا وبين حلفائنا، فلم يملأني الغل والحقد على الولايات المتحدة أيضاً. أنا أقل من معظم الشعب الإنكليزي في عدائه للأمريكيين في هذه اللحظة. ما أقوله وما أكرره، هو أن سياستنا بعدم انتقاد حلفائنا، وعدم الرد على انتقادهم لنا (نحن لا نرد على الروس أيضاً ولا حتى على الصينيين) خطأ، ومن المحتمل أن يبطل هدفها على المدى الطويل. وبقدر ما تصل إليه العلاقات الأنغلوأمريكية، هناك مصاعب بأمس الحاجة إلى كشفها للعلن، والتي لم يرد ذكرها في الصحافة البريطانية أبداً.

١- شعور العداء لأمريكا في بريطانية. قبل الحرب كان شعور العداء لأمريكا شيء يخص الطبقة الوسطى والطبقة العليا، ربما ناتجاً عن غيرة إمبريالية وتجارية، تقنعت بكره اللهجة الأمريكية وغيره. أما الطبقة العاملة البعيدة جداً من العداء لأميركا، فقد تأمركت بسرعة في خطابها بواسطة الأفلام وأغاني الجاز. الآن، بالرغم مما يقوله الذين راسلوني، لا أسمع سوى القليل جداً من الكلمات الطيبة بحق الأمريكيين في أي مكان. وهذا بوضوح نتيجة وصول الجنود الأمريكيين. وزاد الطين بلة حقيقة، أن الحملة المتوسطية ولأسباب متنوعة، صورت كبرنامج استعراضي أمريكي، بينما أغلب الخسائر في الأرواح يتكبدها البريطانيون. (راجع ملاحظات فيليب جوردان في مفكرة تونس). أنا لا أقول إن التحامل الشعبي الإنكليزي مبرر دائماً: أنا أقول إنه موجود.

٢- شعور العداء لبريطانيا في أمريكا. يجب أن نواجه حقيقة أن أعداداً كبيرة من الأمريكيين تربوا على كرهنا واحتقارنا. هناك شريحة واسعة من الصحافة نبرتها الرئيسية معادية لبريطانيا، وعدد لا يحصى من الصحف التي تهاجم بريطانيا بطريقة متقطعة. بالإضافة إلى ذلك، هناك سخرية منظمة لما يفترض أنه عادات بريطانية وسلوك على المسارح ومجلات الرسوم الهزلية والمجلات الرخيصة، تصور الرجل الإنكليزي الأنموذجي كحمار وكأبله بلا ذقن مع لقب ونظارة أحادية العدسة وعادة القول "هاو، هاو". لقد صدقت هذه الأسطورة

من قبل أمريكيين مسؤولين كالروائي ثيودور دريسر مثلاً، الذي قال في خطبة جماهيرية إن "البريطانيين متعجرفون أرستقراطيون خيالة، ومن المألوف على المسارح الأمريكية ألا يسمح للإنكليزي بلعب أي دور مفضل أكثر من الدور المسموح به للزنجي، الذي لا يتعدى دوره شخصاً مثيراً للسخرية. مع ذلك، وإلى أن حدثت بيرل هاربور، عقدت صناعة السينما الأمريكية اتفاقاً مع الحكومة اليابانية بألا تقدم أي شخصية يابانية بصورة سلبية. أنا لا ألوم الأمريكيين بسبب هذا كله. تملك الصحافة المعادية لبريطانيا قوى تجارية جبارة خلفها، بالإضافة إلى النزاعات القديمة التي كانت بريطانيا في معظمها على خطأ. بالنسبة إلى الشعور العدائي تجاه بريطانيا، جزئياً، نحن نجلبه على أنفسنا بتصدير أسوأ عيناتنا. لكن ما أريد التأكيد عليه، أن هذه التيارات المعادية لبريطانيا في الولايات المتحدة قوية جداً، وأن الصحافة البريطانية فشلت باستمرار في لفت الانتباه إليها. لم يكن هناك أبداً في إنكلترا ما يدعى بالصحافة المعادية لأمريكا: ومنذ الحرب صار هناك رفض ثابت للرد على النقد، وفرضت رقابة يقظة على الراديو لقص أي شيء قد يعترض عليه الأمريكيون. في النتيجة لم يدرك الكثير من الإنكليز كيف يُنظر إليهم وكيف يُحترمون، وحين اكتشفوا ذلك صُدموا جداً.

٣- أجر الجنود. مرت سنتان تقريباً على وصول القوات الأمريكية الأولى إلى هذه البلاد، ونادراً ما رأيت جنوداً بريطانيين وأمريكيين معاً. من الواضح تماماً أن السبب الرئيسي لهذا هو الفرق في المرتب. لا تستطيع أن تبني علاقات صداقة قوية فعلية مع شخص دخله يعادل خمسة أضعاف دخلك. مالياً، الجيش الأمريكي كله من الطبقة الوسطى. في المعركة ربما هذا غير مهم، لكنه في فترة التدريب يجعل من المستحيل تقريباً أن يتصادق الجندي البريطاني والجندي الأمريكي. إن كنت لا تريد علاقات صداقة بين الجيش البريطاني والجيش الأمريكي، فذلك حسن وجيد. لكن إن أردت، فيجب عليك إما أن تدفع للجندي البريطاني عشر شلنات في اليوم، أو أن تجعل الجندي الأمريكي يصرف فائض مرتبه في أمريكا. أنا لا أدعي معرفة أي البديلين هو الصحيح.

إحدى الطرق للشعور بأنك معصوم، هو ألا تحتفظ بمفكرة. عند الرجوع إلى المفكرة التي كتبتها في ١٩٤٠ و١٩٤١ وجدت أنني كنت أخطئ عادة حين كان الخطأ محتملاً، ومع ذلك لم

أكن مخطئاً جداً كالخبراء العسكريين. خبراء من شتى أنواع المدارس، كانوا يخبروننا أن خط ماجينو منيع وأن المعاهدة الروسية الألمانية وضعت نهاية لتوسع هتلر باتجاه الشرق. وفي أوائل ١٩٤٠ أخبرونا أن أيام حرب الدبابات انتهت. وفي أواسط ١٩٤٠ أخبرونا أن الألمان سيغزون بريطانيا على الفور. وفي منتصف عام ١٩٤١ أخبرونا أن الجيش الأحمر سينهار في ستة أسابيع. وفي ديسمبر/ كانون أول ١٩٤١ أخبرونا أن اليابان ستنهار بعد تسعين يوماً. وفي تموز/ يوليو ١٩٤٢ أخبرونا أن مصر ستضيع وهلم جرا، ومن دون تحديد تقريباً.

أين الرجال الذين أخبرونا بتلك الأشياء الآن؟ لا يزالون في وظائفهم يستجرون مرتبات ضخمة، وبدلاً من البارجة التي لا تغرق، لدينا الخبير العسكري الذي لا يغرق.

ارتفعت أسعار الكتب مثل غيرها من الأشياء، لكنني عثرت قبل الأمس على نسخة من قاموس ليمبرير الأصلي، الذي يحكي عن الناس القدماء وأسمائهم ومهنهم ومراتبهم بستة بنسات فقط. فتحته عشوائياً، وعثرت على سيرة لاياس محظية البلاط الشهيرة، ابنة خليلة السيبايدس:

"هي بدأت أولاً تبيع جسدها مقابل عشرة آلاف دراخما، ويشهد على مفاتنها الشخصية عدد هائل من الأمراء والنبلاء والفلاسفة والخطباء والعوام الذين غازلوها.... زار ديموستينيز مدينة كورنث من أجل لاياس، لكن المومس أخبرته أن الإذن إلى سريرها يجب أن يُشترى بمبلغ يعادل مائتي جنيه من النقد الإنكليزي، فغادر الخطيب، ولاحظ أنه لن يشتري التوبة بهذا المبلغ الباهظ.... لقد سخرت من تقشف الفلاسفة ومن ضعف هؤلاء الذين ادعوا أنهم ترفعوا عن عواطفهم وهواهم، حين لاحظت أن الفلاسفة لم يكونوا فوق بقية البشر، لأنها وجدتهم على بابها كثيراً ومراراً مثل بقية أهالي أثينا".

هناك الكثير من نفس النوع. على كل حال انتهت السيرة بدرس أخلاقي جيد، لأن "النساء الأخريات الغيورات من مفاتنها وسحرها اغتلنها في معبد فينوس حوالي ٣٤٠ قبل الميلاد". هذا من ٢٢٨٣ سنة مضت، وأتساءل كم عدد القاطنين الحاليين الذين تُكتب سيرهم، ويبقون جديرين بأن يُقرأ عنهم في العام ٤٢٢٦ بعد الميلاد.

٢٤ ديسمبر/ كانون أول ١٩٤٣

عند قراءة كتاب مايكل روبرتس عن تي أي هلم، تذكرت مرة أخرى الخطأ الخطير الذي ارتكبته الحركة الاشتراكية في تجاهل ما يمكن تسميته بمدرسة الكتاب الرجعيين الجدد. هناك عدد كبير من هؤلاء الكتاب: هم متميزون فكرياً ومؤثرون بطريقة هادئة، ونقدهم لليسار مضر أكثر من أي شيء يصدر عن عصبة الفردانيين أو مكتب المحافظين المركزي.

قتل تي أي هولم في الحرب الأخيرة، وترك أعمالاً قليلة كاملة خلفه، لكن الأفكار التي صاغها بقسوة، كان لها تأثير عظيم وخصوصاً على الكتاب الكثيرين الذين تجمعوا حول الكرايتريون في العشرينيات والثلاثينيات. ويدين له بشيء كل من ويندهام لويس وتي إس إليوت وألدوس هكسلي ومالكولم مغريدج وإيفلين واو وغراهام غرين. لكن الأكثر أهمية من تأثيره الشخصي هو الحركة الفكرية التي كان ينتمي إليها، حركة يمكن وصفها من دون تحيز بحركة إحياء التشاؤمية، التي ربما أفضل ممثل حي لها هو الماريشال بيتان. لكن للتشاؤمية الجديدة متسبين أكثر غرابة من تلك. فهي لا ترتبط بالكاثوليكية والنزعة المحافظة والفاشية وإنما بالسلامية (رافضي حمل السلاح) وخصوصاً فرع كاليفورنيا والفوضوية أيضاً. يجدر أن نشير إلى أن تي أي هلم، المحافظ الإنكليزي سليل أعلى الطبقة الوسطى صاحب القبعة المستديرة السوداء، كان معجباً وتابعاً إلى حد ما للنقابي الفوضوي جورجوس سوريل.

الشيء المشترك بين هؤلاء الناس، أن كان التبشير الحزين لبيتان بـ "نظام الهزيمة" أو شجب سوريل لليبرالية أو هز بيردياييف رأسه فوق الثورة الروسية أو "تسديد متسكع الشواطئ" ركلات جانبية لبيفريدج في الاكسبريس أو دفاع هكسلي عن اللامقاومة خلف مدافع الأسطول الأمريكي، هو رفضهم الإيمان في إمكانية التحسين الجوهري للمجتمع الإنساني. فالإنسان غير قابل للكمال، والتغييرات السياسية لا يمكن أن تثمر عن أي نتيجة، والتقدم عبارة عن وهم. إن الرابط بين هذه المعتقد والرجعية السياسية واضح طبعاً، وعالم الآخرة هو العذر الأفضل لدى الرجل الغني. "لا يمكن أن يتحسن البشر بقرار من البرلمان، لذا يمكنني الاستمرار بسحب إيراداتي من الأسهم". لم يقل أحد هذا بهذه الفجاجة، لكن فكر هؤلاء الناس بموازاة تلك الخطوط: حتى الذين مثل مايكل روبيرتس وهلم نفسه يعترفون أن تحسين المجتمع الأرضي القابل للتخيل قليل جداً جداً.

يكمن خطر تجاهل التشاؤميين الجدد، في أنهم كانوا مصيبين في نقطة ما. طالما يفكر الشخص في فترات قصيرة، فمن الحكمة ألا يضع الكثير من الأمل على المستقبل. أثبتت خطط التحسين الإنساني فشلها عادة، ولدى المتشائم فرص للقول "أخبرتكم هكذا" أكثر بكثير من المتفائل. وعموماً كان أنبياء الهلاك أصدق وأكثر صواباً من هؤلاء الذين تخيلوا بأن التعليم الشامل وتصويت النساء وعصبة الأمم وأمثالها، سيحقق خطوة حقيقية إلى الأمام.

إن الرد الحقيقي هو فصل الاشتراكية عن الطوباوية. تتألف كل دفاعات التشاؤميين الجدد في تنصيب رجل من القش وطرحه صريعاً على الأرض. رجل القش يدعى الكمال البشري. اتهم الاشتراكيون بأنهم صدقوا أن المجتمع يمكن أن يكون –وسيكون بالفعل بعد تأسيس الاشتراكية – مثاليا تماماً، وأن التقدم حتمي أيضاً. إن فضح زيف مثل هذه المعتقدات مهمة سهلة ومربحة طبعاً.

الرد الذي يجب أن يعلو صوته أكثر من العادة أن الاشتراكية ليست مثالية وكاملة وربما ليست متعية. لا يدعي الاشتراكيون أنهم قادرون على جعل العالم كاملاً ومثالياً: هم يدعون أنهم قادرون على جعله أفضل. أي اشتراكي عاقل سوف يسلم للكاثوليكي ويوافقه أنه حين يُصحح الظلم الاقتصادي، فإن المشكلة الأساسية للإنسان تظل مكانته في الكون. لكن ما يدعيه الاشتراكي هو أن تلك المشكلة لا يمكن أن تعالج، طالما ظلت مخاوف الكائن البشري اقتصادية بالضرورة. الآن وفي الوقت الحالي، يتواجد التشاؤميون الجدد هناك ويتحصنون جيداً في صحافة كل بلد في العالم، ولهم تأثير أكبر، ويكسبون أنصاراً جدداً من الشبان، أكثر مما نرغب في الاعتراف به.

من مذكرة تونس لفيليب جوردان

كنا نناقش مستقبل ألمانيا، فقال جون (ستاركي) لأمريكي حاضر "أنتم لا تريدون بالتأكيد سلاماً قرطاجياً، أليس كذلك؟" قال صديقنا الأمريكي ببطء كبير لكن بوقار "أنا لا أتذكر أننا عانينا مشاكل كثيرة من القرطاجيين منذ ذلك الحين إلى الآن". وأبهجني قوله.

لم يبهجني ذلك. يفترض الرد على الأمريكي بالقول التالي: "كلا، لكننا عانينا مشاكل كثيرة من الرومان". وهناك ردود أكثر وأقوى من هذا. إن الناس الذين يتحدثون بالسلام

القرطاجي، لا يدركون أن هذا النوع من السلام ليس عملياً في عصرنا. بعد دحرك لعدوك عليك أن تختار (إن لم تكن تريد حرباً أخرى بعد جيل واحد) بين إبادته وإفنائه وبين معاملته معاملة كريمة. إن الخيار الأول شيئاً تخيلياً جذاباً ومرغوباً، لكنه غير ممكن. صحيح تماماً أن قرطاج دمرت بكل معنى الكلمة وسويت أبنيتها وبيوتها بالأرض وذبح كل سكانها. مثل هذه الأشياء كانت تحدث في الأزمنة القديمة الغابرة. لكن السكان المتورطين كانوا قليلين جداً. أنا أتساءل إن كان الأمريكي يعرف كم عدد الناس الذين كانوا موجودين داخل أسوار قرطاج حين سلبت ونهبت أخيراً. حسب أقرب مصدر ومرجع في متناول يدي، كانوا خمسة آلاف شخص. ما هي أفضل طريقة لقتل سبعين مليون ألماني؟ سم الفئران؟ يجب أن نبقي هذا في أذهاننا حين يصبح شعار "اجعلوا ألمانيا تدفع" صيحة حرب مرة ثانية.

لاحظ السيد أي كي تشيسترتون في هجومه عليّ في ويكلي ريفيو لأنني هاجمت دوغلاس ريد قائلاً إن بديهية "بلادي تبقى بلادي سواء كانت محقة أو مخطئة" ليس لها مكان في فلسفة أورويل على ما يبدو. وأعلن أيضاً أننا كلنا "نؤمن بأن بريطانيا ستفوز مهما كان ظرفها وفي أي حرب أخرى تتورط فيها".

العبارة الفعالة هي أي حرب أخرى. هناك الكثير منا الذين يدافعون عن بلادنا من دون الاكتراث بنوع الحكومة إن بدا أننا في خطر غزو فعلي. لكن "أي حرب" مسألة أخرى. ماذا عن حرب البوير مثلاً؟ هناك كسرة صغيرة متقنة من السخرية التاريخية هنا. إن السيد أي كي تشيسترتون ابن أخ جي كي تشيسترتون الذي عارض بشجاعة حرب البوير، والذي قال مرة إن عبارتي "بلادي سواء كانت محقة أو مخطئة تظل بلادي" و"أمي ثملة أم صاحية هي أمي" على نفس المستوى الأخلاقي.

التريبيون ٣١ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٣

عند قراءة نقاشات "ذنب الحرب" التي ترددت في أعمدة المراسلة في الصحف، لاحظت الدهشة التي اكتشف بها كثير من الناس أن الحرب ليست جريمة، وأن هتلر لم يفعل أي شيء يستوجب الادعاء عليه ومقاضاته، فهو لم يغتصب أحداً، ولم يحمل بيديه قطعة منهوبة، وشخصياً

لم يجلد سجيناً أو يدفن رجلاً حياً ويرمي طفلاً في الهواء ويشكه بحربته، ولم يغرق راهبة بالبترول ويشعلها بشموع الكنيسة- في الحقيقة هو لم يفعل أياً من الأشياء التي يفتخر وطنيو العدو بفعلها في زمن الحرب، وإنما شارك فقط في حرب عالمية تجاوزت كلفتها حياة عشرين مليون شخص قبل أن تنتهي، وليس هناك شيء غير قانوني وشرعي في ذلك، وكيف يمكن أن يكون حين تتضمن الشرعية السلطة، ولا توجد سلطة لها القوة على تجاوز الحدود القومية؟

كانت هناك محاولة في المحاكمات الأخيرة في خاركوف لتثبيت المسؤولية على هتلر وهيملر والبقية عن جرائمهم الثانوية، لكن الذي جرى في الحقيقة بيّن أن ذنب هتلر لم يكن بديهياً. لم تكن جريمته لأنه بنى جيشاً بهدف حرب عدوانية، وإنما لأنه أعطى تعليماته لذلك الجيش لتعذيب الأسرى. وبقدر ما، يكون الفرق بين عمل وحشي وعمل حربي فعالاً وقانونياً. العمل الوحشي يعني عملاً إرهابياً ليس له هدف عسكري حقيقي. على المرء أن يقبل بهكذا فروق إن قبل بالحرب كلها، وهو ما يفعله عملياً كل شخص. بالرغم من ذلك، فإن عالماً تقتل فيه فرداً مدنياً واحداً يعتبر عملاً خاطئاً، وأن تسقط ألف طن من المواد الشديدة الانفجار على منطقة سكنية يعتبر جائزاً وصحيحاً، يجعلني أتساءل أحياناً إن كانت أرضنا هذه ليست مستودعاً من المخبلين يستخدمها كوكب آخر.

حين تحملني الحافلة ٥٣ في الذهاب والإياب، ويكون هناك نور كافٍ، لا أمر أبداً بكنيسة القديس جون الصغيرة، وأعبر الطريق من اللوردز من دون أن أشعر بغصة مؤلمة. إنها كنيسة ريجنسي، واحدة من الكنائس القليلة جداً لتلك الفترة. وحين تمر بذلك الطريق يجدر بك أن تذهب إلى الداخل وتلقي نظرة على داخلها الدافئ الودود، وتقرأ عبارات التأبين الباهرة للأشخاص المهمين من الهند الشرقية، الذين دفنوا هناك. لكن واجهتها التي تعتبر واحدة من أكثر الواجهات فتنة وسحراً في لندن، تدمرت بشكل كامل بنصب تذكاري لحرب شنيعة ينتصب أمامها، وهذه قاعدة ثابتة في لندن كما يبدو: أينما تجد منظراً محترماً -بالصدفة- سدّه بأقبح تمثال تجده. ولسوء الحظ لم نعانِ من أي نقص في البرونز يكفي لكي نصهر تلك الأشياء.

لو تسلقتَ قمة التلة في غرينتش بارك، ستشعر برعشة خفيفة، لأنك تقف فوق خط الطول صفر، وتستطيع تفحص أقبح بناء في لندن، مرصد غرينتش. بعد ذلك، انظر من أعلى

التلة باتجاه التايمز، لتجد تحتك تحفة ورن ومستشفى غرينتش (الكلية البحرية الآن) وبناء كلاسيكي رائع آخر يعرف بدار الملكة، ويرى المهندسون المعماريون المسؤولون عن تلك اللخبطة الممتدة المشوهة عند قمة التلة لديهم هذين البنائين الاثنين في كل لحظة تبنى فيها قرميدة.

كما لاحظ السيد أوزبيرت سيتويل في زمن "غارات باديكار"- كيف تخيل السذج الألمان أننا نحن البريطانيين يمكن أن يروعنا تدمير نصبنا وآثارنا القديمة! وكأن خراب القنابل الألمانية يساوي الأشياء التي فعلناها نحن بأنفسنا!

أرى أن السيد برنارد شو، من بين آخرين غيره، يريد أن يعيد كتابة المقطع الشعري الثاني من النشيد الوطني. ونسخة السيد شو تحتفظ بالإشارة إلى الرب والملك كمرجعية، لكنها أممية بشكل غامض في وجدانها. هذا يبدو سخيفاً. ألا يكون لديك نشيد وطني، يبدو أمراً منطقياً. لكن إن كان لديك واحد، فيجب أن تكون وظيفته بالضرورة إبراز أننا أخيار وطيبون، وأن أعداءنا أشرار وسيئون. بالإضافة إلى ذلك، يريد السيد شو أن يحذف الأبيات القيمة التي يتضمنها النشيد فقط. كل الأدوات النحاسية والطبول الكبيرة في العالم لا تستطيع أن تبدل "أطال الرب عمر الملك" وتحوله إلى لحن جميل. لكن في المناسبات النادرة جداً حين يغنى بأكمله، تنبعث الحياة في بيتين شعريين اثنين: أربكْ سياساتهم/ أحبطْ خططهم اللئيمة!

في الواقع، أنا كنت أتخيل دائماً أن البيت الشعري الثاني قد حذف بسبب شك غامض من جانب التوريين بأنه يشير إليهم.

مكسب آخر بتسع بنسات: ألواح ورقية مرتبة زمنياً، تعرض كل حدث لافت منذ خلق العالم إلى الوقت الحاضر. طبعه جيه دي ديويك، شارع ادلرزغيت في عام ١٨٠١.

بحثت عن تاريخ خلق العالم ببعض الاهتمام، ووجدت أنه كان في السنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد، و"يفترض أنه حدث في فصل الخريف". وفي موضع آخر من الكتاب أُعطي تاريخاً أدق في سبتمبر/ أيلول سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد.

عند الاقتراب من نهاية الكتاب، هناك صفحات بيضاء يستطيع القارئ متابعة التدوين الزمني لوحده. أياً كان المرء الذي امتلك هذا الكتاب، فإنه لم يأخذه على محمل الجد، لكن واحدة من المدونات الأخيرة: "الخميس ٤ مايو/ أيار. أعلن السلام هنا. توضيح عام". كان ذلك سلام اميان (مدينة فرنسية وقعت فيها معاهدة سلام بين إنكلترا وفرنسا) وهذا ينذرنا ألا نكون متسرعين جداً في شروحنا وإيضاحاتنا حين تأتي الهدن.

التريبيون ٧ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٤

عند تفحص صور قائمة الشرف للسنة الجديدة، اندهشتُ (كالعادة) من القبح الاستثنائي للوجوه المعروضة وسوقيتها. يبدو أن القاعدة تقريباً أن نوع الشخص الذي يكسب حق تسمية نفسه اللورد بيرسي دي فالكونتاورز، يجب أن يبدو على الأقل في أفضل الحالات، مثل صاحب حانة متخم، أو مثل جابي ضرائب مع قرحة اثنا عشرية في أسوأ حالاتها. لكن بلادنا ليست الوحيدة في هذا، أي شخص ماهر في استخدام المقص واللاصق، يمكن أن يجمع كتاباً ممتازاً بعنوان حكامنا مكوناً من مجرد صور منشورة لعظماء أهل الأرض. خطرت لي الفكرة أول مرة حين رأيت ملصقاً "الصور فوتوغرافية ساكنة" لبيفربروك وهو يلقي خطاباً، ويبدو كنسناس على عصا أكثر مما تتصور أن هذا ممكن لشخص لم يفعل ذلك متعمداً.

حين تلمّ مجموعتك من الفوهررات الفعليين والراغبين، ستلاحظ أن صفات معينة تتكرر خلال القائمة كلها. أولاً إنهم كلهم كبار في السن. وبالرغم من الوعود الكاذبة والرياء المقدم للشباب في كل مكان، فلا يوجد شخص في مركز سيطرة حقيقية يقل عمره عن الخمسين سنة. ثانياً قلما يتجاوز طول الطاغية الخمسة أقدام والست بوصات إلا في حالات نادرة جداً. ثالثاً هناك القبح العام تقريباً والقبح الغريب أحياناً. ستحتوي المجموعة على صور لسترايخر وهو يفجر وعاء دموياً، وأسياد حرب يابانيين يجسدون شخصيات البابون (نوع من القردة)، وموسوليني مع لغده الحقير، وديغول الذي بلا ذقن، وتشرشل القصير البدين بذراعيه القصيرتين، وغاندي بأنفه الطويل الماكر وأذنيه الخفاشيتين الكبيرتين، وتوجو الذي يظهر أسنانه الذهبية الاثنتين والثلاثين. وللمقارنة مقابل كل واحد منهم هناك صورة لكائن بشري عادي من البلاد المعنية. بحار صغير من غواصة ألمانية مقابل هتلر، وفلاح ياباني من الأنموذج القديم مقابل توجو، وهلم جرا.

ولنعد إلى قائمة الشرف. حين تتذكر أن بقية العالم كله أسقطتها، يبدو من الغريب أن نرى هذا الهراء مازال مستمراً في إنكلترا البلد الذي ماتت فيه الأرستقراطية منذ مئات السنين، واختفى التمييز العرقي الذي تأسست عليه فكرة الأرستقراطية من إنكلترا قبل نهاية العصور الوسطى، وتلاشت فكرة "الدم الأزرق" كقيمة نفيسة بحد ذاته، واستقلال النقود في عصر إليزابيث. منذ ذلك الوقت أصبحنا بلوتوقراطية صريحة، ومع ذلك مازلنا نقوم بمحاولات متشنجة لنلبس أنفسنا ألواناً من الإقطاعية.

فكر في مكتب ابتكار الشعارات ومنحه وهو يزوّر الأصول والتواريخ ويبتكر تصاميم ورموز شعار النبالة بحوريات الماء ووحيدي قرن رابضة تدير رؤوسها إلى الخلف، وأشباه ذلك لمدراء شركات في قبعات مستديرة سوداء وبناطيل مخططة! ما أحبه أكثر، هو التدرج الدقيق الذي توزع فيه الألقاب دائماً في تناسب مباشر مع مقدار الأذى والضرر الذي ارتكب- أملاك وأراضي البارونية للشركات الكبيرة، ولقب البارونية للجراحين الحداثيين، ورتبة الفروسية لأساتذة الجامعات المروضين. لكن هل يتخيل هؤلاء الناس أنهم بتسمية أنفسهم لوردات وفرساناً وهلم جرا، أصبحوا يمتلكون شيئاً مشتركاً ومشابهاً لأرستقراطية العصور الوسطى؟ هل يشعر السير ولتر سيترابن مثلاً أنه نفس نوع الشخص مثل كلايد رولاند، أو يتخيل اللورد نوفيلد أننا سنحسبه فارساً صليبياً يرتدي درعاً؟

مع ذلك، فإن لقضية قائمة الشرف هذه مظهر عملي واحد صارم، وهو أن اللقب اسم مستعار من الدرجة الأولى. يستطيع السيد إكس عملياً أن يلغي ماضيه بتحويل نفسه إلى اللورد واي. بعض المناصب الكهنوتية التي أوجدت أثناء هذه الحرب، لم يكن يمكن لتحدث من دون مثل هذا القناع. كما قالها توم باين: "هؤلاء الناس يبدلون أسماءهم كثيراً جداً، لذلك فإن التعرف عليهم وتمييزهم صعب، كالتعرف على اللصوص وتمييزهم.

أكتبُ هذا المقال على صوت مثقب كهربائي. إنهم يثقبون حفراً في جدران ملجأ سطحي، ويزيلون قرميداً في فواصل نظامية. لماذا؟ لأن الملجأ مهدد بخطر السقوط، ومن الضروري دعمه بطبقة من الإسمنت.

يشك إن كانت هذه الملاجئ السطحية ذات فائدة كبيرة. إنها توفر حماية ضد الشظايا والانفجار، لكنها حماية ليست أكثر من تلك التي تجدها في بيت عادي. والمرة الوحيدة التي رأيت فيها قنبلة تسقط قريباً من أحدها شرحته وأزالته من الأرض ببراعة، كما لو أن ذلك حدث بواسطة سكين. على كل أن النقطة الحقيقية في الزمن الذي بنيت فيه هذه الملاجئ، هي أنه كان من المعروف أنها ستنهار بعد سنة أو اثنتين. وأشار إلى هذا عدد لا يحصى من الناس، لكن لم يحدث شيء، فقد استمر البناء المهمل، وحصل شخص ما على العقد قبل غيره. بالتأكيد بعد سنة أو سنتين سوف يُبرأ المتنبئون. بدأت قذائف المورتر بالتساقط من خلال الجدران، وأصبح من الضروري تغليف الملاجئ بالإسمنت. ومرة أخرى شخص ما -وربما نفس الشخص- يفوز بالعقد قبل غيره. أنا لا أعرف في أي قسم من البلاد استخدمت هذه الملاجئ فعلياً أثناء الغارات الجوية، لكن في القسم الذي أعيش فيه في لندن، لم يكن هناك أي شك بأنها لم تستخدم أبداً، فقد ظلت مغلقة باستمرار في الواقع خشية أن تستخدم لـ "أغراض غير مناسبة". لكن هناك شيئاً واحداً يمكن أن تكون مفيدة له كما تخيلوا، وهو أنها ستكون حصناً صغيراً في قتال الشوارع. وعلى العموم، لقد بُنيت في الشوارع الأكثر فقراً. سأضحك كثيراً إن أتى الوقت وكان المسؤولون الكبار وأصحاب المناصب العليا عاجزين عن سحق الجمهور الذي زودوه بآلاف الرشاشات عن تهور وطيش مسبقاً.

١٤ يناير عام ١٩٤٤.

يبدو أن عادة تجميع المجلات والدوريات وتنضيدها في كتب قد انتهت، وهذا يدعو إلى الأسف، لأن الإصدار السنوي لأغبى مجلة تظل قراءته ممتعة أكثر من غالبية الكتب. أنا لا أعتقد أنني ونفقت بصفقة أفضل من المجلدات العشر من الكورترلي ريفيو التي تبدأ منذ عام ١٨٠٩، فقد اشتريتها بشلنين في مزاد علني في بيت مزرعة، وأعداد سنة كاملة من مجلة كورنهيل حين كان ترولوب أو ثاكري رئيس تحريرها -لقد نسيت- بستة بنسات، وصفقة موفقة أخرى، هي مجلدات غريبة من مجلة الجنتلمان من منتصف الستينيات بثلاثة بنسات لكل مجلد، وأمضي وقتاً سعيداً مع تشامبرز بيبر فور ذا بيبل التي ازدهرت في الخمسينات، وكتاب لسوء الحظ رأيته لكنني لم أشتره -مجلد للاثينيوم في أوائل العشرينيات حين كان يحررها ميدلتون موراي، وكان وتي إس إليوت وإي أم فورستر وغيرهما يفرضون تأثيرهم على

الجمهور الكبير. أنا لا أعرف لماذا لا يقوم أحد بفعل هذا في هذه الأيام. ولكي تحصل على أعداد مجلة مجمعة في كتاب، يكلفك ذلك أقل من شراء رواية. ويمكنك أن تقوم بالمهمة لوحدك، إن وفرت لهذا الغرض الوقت المسائي والمواد الصحيحة.

إن الفتنة العظيمة لتلك المجلات، هي في الكمال الذي "تؤرخ" فيه. في انهماكها في شؤون اللحظة تخبر المرء عن الأنماط السياسية الرائجة والميول التي نادراً ما تذكر في أكثر كتب التاريخ الشائعة. من الممتع مثلاً أن تدرس في مجلات معاصرة للحدث ذعر الحرب في سنوات الستينيات الأولى حين أعتقد الجميع من كل الأطراف أن بريطانيا على وشك أن تُغزى، وشكل المتطوعون ونشر الاستراتيجيون الهواة خرائط تبين المسارات التي بواسطتها ستتجمع الجيوش الفرنسية على لندن، والمواطنون المسالمون يختبئون في قنوات الري، بينما رصاص نوادي البنادق (المكافئ للحرس الوطني اليوم) يتردد في كل الاتجاهات.

كان الخطأ الذي ارتكبه كل المراقبين البريطانيين في ذلك الوقت، هو أنهم لم يلاحظوا أن ألمانيا كانت خطيرة. لقد افترضوا أن الخطر الوحيد سيأتي من فرنسا التي استهلكت مواردها كقوة عسكرية وليس لديها أي مبرر كان للتنازع مع بريطانيا. وأنا أعتقد أن القراء العرضيين في المستقبل الذين يغوصون في جرائدنا ومجلاتنا، سيلاحظون ضلالاً مماثلاً في الابتعاد عن الديمقراطية وإعجاباً صريحاً بالديكتاتورية استولى على الطبقة المثقفة البريطانية في حوالي عام ١٩٤٠.

حديثا، بالعودة إلى أعداد من هورايزن، عثرتُ على مقال طويل عن كتاب الثورة الإدارية لجيمس بيرنهام، قبلت فيه نظرية بيرنهام الرئيسية من دون تدقيق وتفحص، وهي مثلت كما زعم أناس كثيرون التكهن الأذكى في عصرنا، والتي تأسست فعلياً على الاعتقاد بمناعة الجيش الألماني ضد الهزيمة، ولكن الأحداث نسفتها ومزقتها إرباً.

٢١ يناير / كانون الثاني عام ١٩٤٤.

أنبني متراسل لكوني "سلبياً" و"أهاجم الأشياء دائماً". الحقيقة أننا نعيش في زمن ليست فيه أسباب الفرح كثيرة. لكنني أمدح الأشياء حين يتوفر منها ما يدعو للمديح، وأحب أن أكتب هنا بضعة أسطر -يجب أن تكون استدراكية، لسوء الحظ -في مديح مشتل ولزويرث للزهور.

في الأيام الطيبة حين لا شيء في ويلزويرث، كان يكلف أكثر من نصف شلن، كان واحداً من خطوطهم شجيرات الورد. كانت دائماً نبتات صغيرة في العمر جداً لكنها كانت تزهر في سنتها الثانية، ولا أعتقد أن واحدة منها ماتت على يدي. اهتمامها الرئيسي أنها لم تكن أبداً أو كانت نادراً ما أدعوه على اللصاقات الموجودة عليها. اشتريت واحدة لدوروثي بيركنز، وتبين أنها زهرة بيضاء صغيرة ذات قلب أصفر، واحدة من أجمل النباتات المتعرشة التي رأيتها في حياتي. زهرة البوليانثا (نوع من النرجسيات) وصفت بأنها صفراء، وتبين أنها حمراء غامقة. شجيرة أخرى، اشتريتها على أنها مثل الإبرتين، لكنها كانت بحجم مضاعف وأعطت كميات هائلة مذهلة من الأزهار. هذه الزهور لديها كل تشويق حزمة التشويق، وهناك فرصة دائماً بأن تعثر على تشكيلة جديدة، لك كامل الحق في أن تسميها بجون سميث أو شيئاً من هذا النوع.

الأسبوع الماضي مررت بكوخ كنت أعيش فيه قبل الحرب. الزهرة البيضاء الصغيرة، ليست أكبر من مقلاع (نقيفة) الصبي الصغير حين زرعتها، كبرت إلى شجيرة ضخمة قوية، الإبرتين أو ما يشبهها كانت تخنق نصف السياج في غيمة من الأزهار القرنفلية. لقد زرعت الاثنين في عام ١٩٣٦. وفكرت "كل ذلك بنصف شلن!". لا أعرف كم تعمر شجيرة الزهر؛ أفترض أن معدل حياتها عشر سنين. وخلال ذلك الوقت، فإن الورد المتعرش يكون في أزهى حالاته لمدة شهر أو ستة أسابيع كل سنة، بينما شجيرة الزهر تزهر وتتوقف ثم تزهر وتتوقف لمدة أربعة أشهر على الأقل. كل ذلك بنصف شلن-الثمن، قبل الحرب، لعشرة بلايرز (نوع من السجائر) أو باينت ونصف من البيرة أو اشتراك لمدة أسبوع في الديلي ووركر أو عشرين دقيقة من الهواء المستهلك في السينما.

٢٨ يناير ١٩٤٤.

أنا أرى أن السيد سوريش فياديا الصحفي الهندي الذي يعيش في إنكلترا، قد اعتقل لرفضه الخدمة العسكرية. هذه ليست القضية الأولى من نوعها، وإن كانت ستكون الأخيرة، فلأنه لم يعد هناك هنود آخرون بعمر الخدمة العسكرية للتضحية بهم.

كل واحد يعرف من دون أن يخبره أحد، الوجوه القضائية لقضية فياديا، وليست لدي الرغبة في الحديث عنها، لكن أحب أن ألفت الانتباه إلى الوجه المنطقي الذي ترفض الحكومة البريطانية التفكير فيه بقوة وباستمرار. باستثناء البحارة الذين يأتون ويذهبون وحفنة من

الجنود الذين لايزالون هنا، ربما هناك ألفان من الهنود في هذه البلاد من كل الأعمار. بتطبيق التجنيد الإلزامي قد يزيد عدد الجنود بضعة أفراد، وبإجبار الحكومة للأقليات التي "تعارض"، يمكن أن يتضخم سكان السجون البريطانية بأعداد مضاعفة جداً. هذه هي النتيجة الصافية من وجهة نظر الخدمة العسكرية.

لكن لسوء الحظ هذا ليس كل شيء. بسلوك من هذا النوع أنت تعادي الجالية الهندية كلها في بريطانيا -لأنه لا يوجد أي هندي مهما كانت آراؤه يعترف بأن لبريطانيا الحق أن تعلن الحرب لمصلحة الهند أو تفرض الخدمة العسكرية الإلزامية على الهنود. إن كل ما يحدث في الجالية الهندية هنا، له ارتدادات فورية في الهند ونتائج مهمة أخرى في الخارج. إن التضحية بهندي واحد مقاوم للحرب، يسبب ضرراً أكبر من التضحية بعشرة آلاف بريطاني. يبدو أنه ثمن باهظ ندفعه من أجل إرضاء مشاعر البليمبز بأنهم قبضوا على "أحمر" آخر في براثنهم. أنا لا أتوقع أن يفهم البليمبز وجهة نظر فياديا، لكنهم يفهمون حقاً، بعد كل تجربتهم، أن تحويل الناس إلى شهداء لا يجدي.

بعث لي أحد القراء رسالة يدافع فيها عن إيزرا باوند، الكاتب الأمريكي الذي نقل ولاءه إلى موسوليني قبل سنوات من الحرب، وكان بوقاً دعائياً لراديو روما. جوهر ادعائه أن باوند لم يبع نفسه من أجل المال أولاً، وأننا يجب أن نتغاضى عن الآراء السياسية للشاعر الحقيقي ثانياً.

الآن طبعاً، لم يبع باوند نفسه من أجل المال فقط. ولم يفعل أي كاتب مثل ذلك أبداً. كل من يبتغي المال أولاً سوف يختار مهنة مربحة أكثر. لكنني أعتقد أن باوند ربما باع نفسه من أجل المنزلة الاجتماعية جزئياً والإطراء والأستاذية. إنه يضمر كرهاً ضغيناً لكل من بريطانيا وأمريكا؛ حيث شعر أن موهبته لم تعط حقها من التقدير. ومن الواضح أنه أعتقد بوجود مؤامرة ضده في كل البلدان الناطقة بالإنكليزية. بعد ذلك، كانت هناك حوادث شائنة كثيرة، تكشفت فيها معرفة باوند الزائفة، والتي وجد أنها لا تغتفر بلا شك. في منتصف الثلاثينيات، كان باوند يكيل المديح "للرئيس-البوس" موسوليني في عدد من الصحف الإنكليزية، بما فيها ربعية موسلي بريتش يونيون (التي كان فيدكون كويزلينغ مساهماً فيها). وفي زمن الحرب الإثيوبية كان باوند معادياً صاخباً للإثيوبيين. في عام ١٩٣٨ أعطاه الإيطاليون مقعداً في

واحدة من جامعاتهم، وبعد بعض الوقت من اندلاع الحرب، نال الجنسية الإيطالية. إن كان شاعر كهذا يجب أن يُسامَح عن آرائه السياسية، فهذه مسألة مختلفة. من الواضح أنه يجب ألا يقول المرء "سين يتفق معي: لذلك فهو كاتب جيد". وبالنسبة إلى السنوات العشر الأخيرة تألف النقد الأدبي الصادق بشكل واسع من مقارعة ذلك الرأي. شخصياً أنا معجب بكتاب كثيرين (سيلين مثلاً) ذهبوا إلى الفاشيين، وأعارض بقوة الآراء السياسية لكثيرين آخرين بقوة. لكن للشخص الحق يتوقع حشمة عادية من الشاعر. أنا لم أسمع أبداً ما يبثه باوند، لكنني أقرأ عادة تقارير مرصد البي بي سي، وكانت مثيرة للاشمئزاز فكرياً وأخلاقياً. إن معاداة السامية مثلاً ببساطة ليست عقيدة شخص ناضج. الناس الذين مارسوا ذلك النوع من الشيء يجب أن يتحملوا العواقب. لكنني أتفق مع مراسلنا في رجائه بألا تمسك السلطات الأمريكية باوند وتعدمه بالرصاص، كما هددت أن تفعل، لأن ذلك سوف يرسخ شهرته بشكل كامل لمدة مئة عام ربما، قبل أن يستطيع أحد ما أن يحدد بنزاهة إن كانت قصائد باوند المثيرة جداً للجدل جيدة أم ليست جيدة.

في الليلة قبل الماضية، أخبرتني نادلة أنك لو صببت البيرة في قدح رطب، فإنها ستهمد بسرعة أكبر، وأضافت لو غطست شاربك في بيرتك فستهمد أيضاً. قبلتُ هذا فوراً ودون سؤال آخر، وفي الواقع حالما وصلت إلى البيت، قلمت شاربي الذي نسيت أن أقلمه منذ أيام.

لاحقاً، خطر لي أن هذا يمكن أن يكون إحدى الخرافات القابلة للحياة، لأن فيها نكهة الحقائق العلمية. في دفتر لديّ سلسلة طويلة من الأفكار الخادعة التي تعلمتها في طفولتي، وهي في كل حالة منها ليست كحكايا العجائز وإنما كحقيقة علمية. لا أستطيع تقديم كل القائمة، لكن هذا بعض من المفضل منها:

-إن البجعة تستطيع كسر ساقك بضربة واحدة من جناحها.

-إن جرحت نفسك بين الإبهام والسبابة ستصاب بالكزاز.

-الزجاج المسحوق سام.

-إن غسلت يديك بالماء الذي سلق فيه البيض، فستصاب بالثآليل.

-تهتاج الثيران برؤية اللون الأحمر.

-يعمل الكبريت كمقوٍ، حين تضعه في الماء الذي يشربه الكلب.

وهلم جرا. تقريباً كل واحد يحمل واحداً من هذه المعتقدات أو آخر إلى حياته كبالغ وراشد. قابلت شخصاً يزيد عمره عن الثلاثين مازال محتفظاً بالاعتقاد الثاني الذي أدرجته آنفاً. بالنسبة إلى الاعتقاد الثالث، فهو واسع الانتشار جداً، لذلك في الهند مثلاً يحاول الناس دائماً تسميم بعضهم البعض بالزجاج المسحوق، مع نتائج مخيبة للآمال.

أتمنى الآن لو أنني قرأت الإنكليزية الأساسية، بدلاً من اللغات المصطنعة قبل وبعد مراجعة الكتاب الصغير الممتع الذي أطلق فيه البروفسور لانسلوت هوغبن لغته المصطنعة إنترغلوسا، لكنت في تلك الحالة قد أدركت كيف كان البروفسور هوغبن شهماً نحو مخترعي اللغات العالمية المنافسة. إن الجدالات بخصوص المواضيع الجدية، تكون بعيدة عن الأدب والكياسة غالباً. يفترض بأتباع وأنصار الجدل الستاليني- التروتسكي أنهم لاحظوا أن النغمة غير الودية تميل إلى التسلل إلى داخله، وحين انقضت كل من التيبلت وتشيرتش تايمز على بعضهما البعض، لم تكن الضربات فوق الحزام دائماً. ومن أجل قذارة قتالية صرفة، يتطلب العداء بين مخترعي اللغات العالمية المختلفة الكثير من الضرب.

قد تنشر التريبيون قريباً مقالة أو أكثر عن اللغة الإنكليزية الأساسية المبسطة. إن جرى تبني أية لغة كلغة ثانية عالمية، فمن غير المحتمل كثيراً أن تكون لغة مصنعة. ومن اللغات الطبيعية الموجودة، تحظى اللغة الإنكليزية بالفرصة الأفضل، لكن ليس بالشكل الأساسي البيسك بالضرورة. بدأ الرأي العام يستيقظ ويعي الحاجة إلى لغة عالمية، رغم المفاهيم الخيالية التي مازالت موجودة. فمثلاً هناك عدد كبير من الناس يتخيلون أن هدف المؤيدين والمدافعين عن اللغة العالمية، هو إخماد اللغات الطبيعية، وهو شيء لم يقله أحد بشكل جدي أبداً.

في الوقت الحاضر، وبالرغم من الاعتراف المتزايد بهذه الحاجة، يزداد العالم قومية وتطرفاً في لغته، وهذا ناتج جزئياً عن سياسة متعمدة (حوالي نصف دزينة من اللغات الموجودة دُفعت في طريق إمبريالي في أجزاء مختلفة من العالم) وجزئياً إلى الخلع الذي سببته الحرب. مازالت

الصعوبات في التجارة والسفر والتواصل بين العلماء والتشاور والجهد الضائع في تعلم اللغات الأجنبية مستمرة. في حياتي تعلمت سبع لغات أجنبية، منها لغتان ميتتان، ولم أبق إلا على واحدة من السبع، وهذه حالة عادية. أي فرد من قومية صغيرة كالدانمركي أو الهولندي مثلاً، عليه أن يتعلم ثلاث لغات بشكل أكيد إن أراد أن يكون مثقفاً. من الواضح أن هذا الوضع يمكن تحسينه، ولكن الصعوبة الكبيرة هي أن نقرر أية لغة يجب اختيارها وتبنيها كلغة عالمية، وسيكون هناك شجار قبيح قبل أن تحلّ تلك الصعوبة، كما يعرف ذلك كل شخص ألقى نظرة سريعة وفكر في هذا الموضوع.

التريبيون ٤ شباط/ فبراير ١٩٤٤.

حين سجن السير ولتر رالي في برج لندن، شغل نفسه في كتابة تاريخ العالم. أتم المجلد الأول، وكان يعمل في الثاني حين نشب شجار بين بعض العمال قُتل فيه أحدهم تحت نافذة الزنزانة. لم يقدر السير ولتر أبداً أن يكتشف السبب الذي دار حوله الشجار، رغم الاستجوابات الكؤودة. وحقيقة فهو رأى الحدث فعلياً، وبناء عليه كما قيل- وإن لم تكن القصة حقيقية ينبغي لها أن تكون كذلك بالتأكيد- أحرق ما كتب وتخلى عن مشروعه.

تذكرت هذه القصة مرات كثيرة لا أعرف عددها في السنوات العشر الماضية، وكنت دائماً مع فكرة أن راليف ربما كان مخطئاً. فمع أخذ صعوبات البحث في ذلك الوقت في الاعتبار والصعوبة الخاصة في القيام ببحث في داخل السجن، كان من المحتمل له أن يكتب تاريخاً للعالم له بعض الشبه بالمسار الحقيقي للأحداث. حتى وقت قريب فإن الأحداث الرئيسية التي دُونت في كتب التاريخ هي أحداث حدثت على الأرجح، فصحيح أن معركة هاستينغز جرت في عام ١٠٦٦ وأن كولومبوس اكتشف أمريكا، وأن هنري الثامن كان له ست زوجات وهكذا. لقد كانت هناك درجة معينة من الصدق طالما كان هناك اعتراف بأن الحادثة ربما تكون صحيحة، حتى لو لم تكن تحبها. وإلى وقت متأخر قبيل الحرب الأخيرة، كان ممكناً للموسوعة البريطانية مثلاً أن تجمع موادها حول الحملات العسكرية المتنوعة من مصادر ألمانية. واعتبرت بعض من الوقائع كأرقام المفقودين والجرحى مثلاً حيادية، وقبلت جوهرياً من الجميع. لكن الآن لم يعد مثل هذا الشيء ممكناً، وليس هناك أي شبه بين النسخ النازية

وغير النازية عن الحرب الحالية، وأي نسخ منها ستدخل إلى كتب التاريخ، لن تقرره الطرق المثبتة وإنما ساحة القتال.

أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، شعرت بقوة أن التاريخ الحقيقي لهذه الحرب لم ولن يكتب أبداً، فليس هناك أرقام دقيقة أو سرود وروايات موضوعية واضحة لما كان يحدث. وشعرت أنه حتى في ١٩٣٧ حين كانت الحكومة الإسبانية موجودة، فإن الأكاذيب التي روجتها الزمر الجمهورية عن بعضها البعض وعن العدو، كانت قليلة نسبياً؛ فكيف ستكون الحالة الآن؟ حتى لو أُطيح بفرانكو، فأي نوع من السجلات سيعتمد عليه مؤرخ المستقبل؟ وإذا كان فرانكو أو من يشبهه في السلطة، فإن تاريخ الحرب سيتألف بشكل كبير من "وقائع" يعرف ملايين الأشخاص الأحياء الآن أنها أكاذيب. إحدى هذه الوقائع مثلاً وجود جيش روسي كبير في إسبانيا. يوجد هناك أوفر دليل عن عدم وجود مثل هذا الجيش، لكن إن بقي فرانكو في السلطة وإن بقيت الفاشية عموماً، فسيدخل الجيش الروسي كتب التاريخ، وسيصدق تلاميذ المستقبل ذلك.

هذا النوع من الأشياء يحدث طول الوقت. من بين ملايين الأمثلة المتوفرة، سأختار واحداً اتفق أنه قابل للإثبات. خلال جزء من عامي ١٩٤١ و ١٩٤٢ حين كان اللوفتفافا (سلاح الجو الألماني -المترجم) منشغلاً في روسيا، أبهج الراديو الألماني مستمعيه في الوطن بقصص عن غارات جوية مدمرة على لندن. الآن نحن نعرف أن تلك الغارات لم تحدث. لكن ما فائدة معرفتنا لو أن الألمان هزموا بريطانيا؟ بالنسبة إلى أغراض المؤرخ المستقبلي، هل حدثت تلك الغارات أم لم تحدث؟ الجواب: إن نجا هتلر وبقي حياً، فإنها حدثت؛ وإن سقط فهي لم تحدث. وهكذا مع عدد لا يحصى من الأحداث الأخرى في السنوات العشر أو العشرين الماضية. هل أسقط عدد كبير من الطائرات الألمانية في معركة بريطانيا؟ هل رحبت أوروبا بالنظام الجديد؟ لن تحصل في أي حالة على جواب واحد مقبول عالمياً بأنه صحيح: في كل حالة ستحصل على عدد من الأجوبة، يجري تبني أحدها أخيراً نتيجة لصراع مادي. إن التاريخ يكتبه الفائزون.

في التحليل الأخير، مطلبنا الوحيد من النصر أننا لو فزنا في الحرب، فسنروي حولها أكاذيب بشكل أقل من أعدائنا. الشيء المخيف حقاً عن الأنظمة الشمولية، ليس لأنها ترتكب أعمالاً وحشية فقط، وإنما لأنها تهاجم مفهوم الحقيقة الموضوعية. إنها تطالب بالسيطرة على

الماضي بالإضافة إلى المستقبل. بالرغم من كل الأكاذيب والادعاء بالاستقامة الأخلاقية التي تشجعهما تلك الحرب، فأنا لا أعتقد بصدق أننا تستطيع القول إن تلك العادة في التفكير تنمو وتتزايد في بريطانيا. بالرغم من كل المنغصات، يجب علي القول إن الصحافة أكثر حرية مما كانت عليه قبل الحرب، وأعرف من خلال تجربتي الخاصة أنك تستطيع الآن نشر أشياء لم تستطع نشرها قبل عشر سنوات. ربما تعرض مقاومو الحرب لمعاملة قاسية في هذه الحرب أقل من الحرب السابقة، وكان التعبير عن الرأي العام أكثر أماناً بالتأكيد. وبناء عليه، فهناك بعض الأمل أن تنجو عادة التفكير الليبرالية التي ترى الحقيقة كشيء خارج عن الذات وشيء يجب أن يُكتشف، وليس شيئاً تستطيع تلفيقه وأنت تمر بمحاذاته. لكن مازلت لا أحسد المؤرخ المستقبلي على وظيفته. أليس تعليقاً غريباً على زمننا أننا حتى خسائر الحرب الحالية لا يمكن تقديرها ولو ضمن ملايين كثيرة؟

إن إعلان هيئة التجارة بأنها توشك أن تبطل منع ثنيات نهايات البناطيل، هو إعلان خياط يرحب بهذا على أنه القسط الأول من الحرية التي نقاتل من أجلها.

إن كنا نقاتل فعلاً من أجل نهايات البناطيل المثنية، فيجب أن أكون ميالاً إلى تأييد المحور. الثنية ليس لها أي وظيفة سوى أنها تجمع التراب والغبار ولا أي فضيلة سوى أنك حين تنظفها تجد ستة بنسات فيها عادة، لكن تحت صيحة ذلك الخياط المبتهجة تكمن فكرة أخرى، وهي أنه بعد مدة قصيرة سوف تنتهي ألمانيا، وستنتهي نصف الحرب، وسوف تسهل عملية توزيع الغذاء بالحصص، وسيعود التباهي بالثياب إلى سابق عهده مرة أخرى. أنا لا أشارك بهذا الأمل. كلما تمكننا من وقف إخضاع الطعام للحصص بشكل أسرع، كلما زاد سرورنا ورضانا أكثر. ولكن أحب أن أرى استمرار إخضاع الثياب لنظام الحصص حتى يلتهم العث آخر سترة عشاء، وحتى يتخلص المقاولون من قبعاتهم العالية. أنا لا أمانع أن أرى كل الأمة في بزات الحرب المصبوغة لمدة خمس سنوات، إن أمكن بهذه الوسيلة القضاء على واحدة من النقاط الرئيسية التي تولد التكبر. إخضاع الثياب لنظام الحصص لم يُفهم بروح ديمقراطية، لكن مع ذلك له تأثير ديمقراطي. إن لم يكن الفقراء في ثياب أفضل، فعلى الأقل يكون الأغنياء في ثياب أشد رثاثة. ولأنه لم يحدث تغيير بنيوي حقيقي في مجتمعنا، فإن عملية المساواة الميكانيكية الناتجة عن الندرة أفضل من لا شيء.

١١ فبراير/ شباط ١٩٤٤

هناك نشاطان صحفيان دائماً يجلبان لك الرد السريع. الأول مهاجمة الكاثوليك، والآخر الدفاع عن اليهود. حدث مؤخراً أن راجعتُ بعض الكتب التي تعالج اضطهاد اليهود في أوروبا العصور الوسطى والحديثة. جلبت المراجعة لي كمّ من الرسائل المعادية للسامية التي تركتني أفكر للمرة الألف أن هذه المشكلة يتهرب منها حتى الذين تهمهم بشكل مباشر.

الشيء المقلق والمزعج في هذه الرسائل، أنها لا تأتي من مجانين. أنا لا أعترض جداً على الشخص الذي يؤمن ببروتوكولات زعماء صهيون، ولا حتى ضابط الجيش المصروف من الخدمة الذي لم تعامله الحكومة بإنصاف، فتأجج غضباً من رؤية "غرباء" يمنحون أفضل الوظائف. لكن بالإضافة إلى هذه النماذج، هناك رجل الأعمال الصغير أو المهني المقتنع بشكل راسخ بأن اليهود جلبوا كل المشاكل علينا بأساليب سرية تجارية وانعدام تام للروح الشعبية. هؤلاء الناس الذين يكتبون رسائل حصيفة ومتناسقة، ينكرون أي إيمان بالعنصرية، ويدعمون كل ما يقولونه بأمثلة غزيرة. يعترفون بوجود "يهود طيبين" وعادة يصرحون (هتلر يقول نفس الشيء في كتابه كفاحي) أنهم لم يبادروا بأي شعور عدائي نحو اليهود، لكنهم أجبروا عليه بعد ملاحظتهم للكيفية التي يتصرف بها اليهود.

إن ضعف موقف الجناح اليساري نحو معادة السامية، هو مقاربتها من زاوية قومية. من الواضح أن التهم التي كيلت لليهود ليست صحيحة، ولا يمكن أن تكون كذلك، جزئياً لأنها باطلة وجزئياً لأنه لا يوجد هناك شعب واحد يمكن أن يكون لديه مثل هذا الاحتكار للشر. لكن الإشارة إلى هذا فقط ببساطة لا يفيد. نظرة الجناح اليساري الرسمية لمعاداة السامية، أنها شيء "أثارته" الطبقات الحاكمة كي تحول الانتباه وتبعده عن الشرور الحقيقية للمجتمع. اليهود في الواقع كباش فداء. هذا صحيح من دون شك، لكنه بلا فائدة تماماً كحجة. لا يتخلص المرء من اعتقاد بإظهاره بأنه غير منطقي. ومن خلال تجربتي لا يفيد التحدث عن اضطهاد اليهود في ألمانيا أيضاً. إن كان لدى إنسان أقل نزعة نحو معاداة السامية، هكذا أشياء ترتد من ضميره مثل حبات السنبلة من الخوذة الفولاذية. الحجة الأفضل من الكل، إن كانت الحجج ذات أي فائدة، ستكون في الإشارة إلى أن الجرائم المزعومة لليهود ممكنة، فقط لأننا نعيش في مجتمع يكافئ الجريمة. لو كان كل اليهود محتالين، فلنتعامل معهم بترتيب نظامنا

الاقتصادي بشكل لا يمكّن المحتالين من النجاح والازدهار. لكن ما فائدة قول هذا الشيء لإنسان يعتقد مثلما يعتقد بركن من أركان الإيمان بأن اليهود يسيطرون على السوق السوداء، ويشقون طريقهم إلى مقدمة الطوابير، ويتهربون من الخدمة العسكرية؟

يمكننا القيام بتحقيق مفصل في أسباب معاداة السامية، ويجب ألا يفسد مقدماً بافتراض أن تلك الأسباب اقتصادية برمتها. مهما كانت نظرية كبش الفداء صحيحة في التعبير العام، فهي لا تفسر لماذا اليهود وليس أقلية أخرى، من تعرض للمضايقة والسخرية، ولا توضح لماذا هم كبش فداء. شيء مثل قضية دريفوس مثلاً، لا يترجم بسهولة إلى عبارات اقتصادية. بالقدر الذي يهم بريطانيا، الأشياء الأهم التي يجب اكتشافها، هي ما التهم التي كيلت لليهود بالضبط، وهل معاداة السامية في ازدياد حقيقة (ربما نقصت خلال الثلاثين سنة الأخيرة) وإلى أي مدى تفاقمت بتدفق اللاجئين منذ حوالي ١٩٣٨.

يجب ألا يفترض المرء أن أسباب معاداة السامية اقتصادية بطريقة فجة ومباشرة (بطالة، غيرة تجارية، إلخ) ولا يجب الافتراض أن الناس "الحساسين" منيعون عليها. لقد ازدهرت خصوصاً وسط رجال الأدب مثلاً. من دون أن أنهض عن هذه الطاولة لاستشارة كتاب، أستطيع التفكير في مقاطع من أعمال فيلون وشكسبير وسموليت وثاكري وإتش جي ويلز وألدوس هكسلي وتي إس إليوت وكثيرين غيرهم، الذين يمكن تسميتهم بمعادين للسامية، لو أنها كتبت منذ أن أتى هتلر إلى السلطة. غازل كل من بيلوك وتشيسترتون معاداة السامية، وقبلها تقريباً كتاب آخرون مازلنا نحترمهم في شكلها النازي. من الواضح أن العصاب (الاضطراب العصبي الوظيفي) يكمن في العمق، وهو بالضبط ما يكرهه الناس، وحين يقولون إنهم يكرهون كياناً غير موجود يسمى "اليهود"، يظل غير مؤكد، والخوف من اكتشاف مدى انتشار معاداة السامية أيضاً يعيق استقصاءها بشكل جدي.

هذه الأبيات مقتبسة من سيرة أنثوني ترولوب الذاتية:

حين باين-نايت تيست صدرت على المدينة/ بضع أبيات من الشعر الإغريقي أقصيت جانباً/ قُطعت إلى مزق وحُولت إلى خليط؛/ وقُذف بها إلى النار مثل نفاية مقيتة؛/ باختصار

لقد ذُبحت ذبحاً بدلاً من أن تُشرح وتُقطع/ واكتشفت كميات زائفة كثيرة/ بعد أن ارتفع الدخان من الجمر المطفأ/ اكتشفنا أن -الأبيات الشعرية كانت لبندار!

لم يوضح ترولوب من هو مؤلف هذه الأبيات، ويسرني جداً لو أخبرنيَ أحد القراء الذي يعرفون. لكني اقتبستها من أجل ذاتها فقط- من أجل التحذير الرهيب للنقاد الأدبيين التي تحتويه- ومن أجل لفت الانتباه إلى كتاب ترولوب السيرة الذاتية الذي هو كتاب فاتن جداً، رغم انه أو لأنه مهتم كثيراً بالنقود.

إن الجدل مستمر في مجلة تايم أند تايد حول أطلس جيه إف هورابن عن جغرافية الحرب شيء يذكر بأن الخرائط أشياء مخادعة ويجب أن ينظر إليها كما ينظر إلى الصور والإحصائيات.

أنا لست مهتماً بالمظهر القاصر للقومية بأن كل أمة تلون نفسها بالأحمر على الخارطة، هناك أيضاً ميل أن تجعل نفسك أكبر مما تكون، وهذا ممكن من دون تزوير بما أن أي عرض للأرض كشيء مسطح ومنبسط يشوه جزءاً أو آخر منها. خلال "حملة" التجارة الحرة الإمبراطورية كانت هناك خرائط جدارية ملونة مجانية توزع للمدارس بشكل كبير، صممت على منظور جديد وقزمت الاتحاد السوفييتي، وفي الوقت نفسه بالغت في حجم الهند وأفريقيا. بعد ذلك أصبح هناك خرائط اثنية وسياسية أكبر مكافئة للدعاية. خلال الحرب الإسبانية، قسّمتِ الخرائطُ الإمبراطورية التي كانت تثبت في القرى الإسبانية العالمَ إلى دول اشتراكية ديمقراطية ودول فاشية. من هذه يمكن أن تتعلم أن الهند كانت مصنفة ديمقراطية، بينما مدغشقر والهند الصينية (هذه كانت فترة حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا) مصنفة اشتراكية.

ربما ساهمت الحرب في تحسين جغرافيتنا. الناس الذين كانوا يعتقدون قبل خمس سنوات أن كلمة كرواتيين تتناغم مع الماعز، ويستنتجون فرقاً مضللاً بين مينسك وبينسك، يستطيعون الآن معرفة في أي بحر يصب نهر الفولغا، ويشيرون من دون بحث كثير عن أماكن الغودالانكل أو البوثيدوانغ. مئات الآلاف إن لم يكن الملايين من الشعب الإنكليزي، يستطيعون الآن لفظ كلمة دنبروبيتروفسك. لكن جعل قراءة الخريطة شيئاً شعبياً تطلب حرباً كاملة. إلى وقت متأخر في زمن حملة وافل على مصر، قابلت امرأة كانت تعتقد أن إيطاليا

متحدة مع أفريقيا. وفي عام ١٩٣٨ حين كنت مغادراً إلى المغرب، بعض الناس في قريتي - قرية بسيطة جداً بالتأكيد ولكنها لا تبعد عن العاصمة أكثر من خمسين ميلاً- سألوني إن كان من الضروري عبور البحر للوصول إلى هناك. إن سألت أي حلقة من الناس (أحب أن أفعل هذا مع أعضاء مجلس العموم) أن يرسموا لك خريطة لأوروبا من ذاكرتهم، ستحصل على بعض النتائج المدهشة. أي حكومة تهتم بالتعليم فعلاً، سترى أن خريطة للكرة الأرضية التي تعتبر ندرة ثمينة في الوقت الحاضر، كانت في متناول أي طفل في المدرسة. من دون فكرة ما عن أي بلاد تجاور أي بلاد وأي الطرق أسرع من مكان ما إلى مكان آخر، ومن أي مكان بعيد عن الشاطئ يمكن أن تقصف السفينة، وأي مكان لا يمكن ذلك، من الصعب أن نرى أي فائدة تجنيها آراء المواطن العادي في السياسة الخارجية.

التريبيون ٢٥ شباط/ فبراير ١٩٤٤.

قصة قصيرة في مجلة هوم كومبانيون أند فاميلي جيرنال بعنوان مرحباً حبيبتي، تروي مغامرات فتاة شابة اسمها لوسي فالوز، تعمل في مقسم للمكالمات الهاتفية البعيدة. لقد ضحت بالأشياء التي تحبها، وظلت في بذلة نظامية لتحصل على هذه الوظيفة، لكنها وجدتها مملة وخالية من الأحداث. "عدد كبير من الناس يستخدمون المكالمات البعيدة لمجرد الثرثرة مع بعضهم البعض..... ضجرتْ ولم تعد تحتمل، وشعرتْ أنها خادمة لأناس أنانيين".

لكن كما تخمنون، ربما امتلأت وظيفة لوسي بالنشاط والحيوية، وفي وقت قصير وجدت نفسها في خضم مغامرات مثيرة، شملت غرق غواصة وأسر جماعة ألمانية تخريبية، ورحلة طويلة بالسيارة مع ضابط بحرية وسيم له "صوت متهدج". هكذا هي حياة مقسم الهاتف.

في نهاية القصة، هناك ملاحظة صغيرة: "كل واحد من قرائنا الشباب مهتم بالعمل في مقسم المكالمات الهاتفية البعيدة (كالعمل الذي كانت تقوم به لوسي فالوز) يجب أن يتقدم بطلب إلى موجه هيئة العاملين، إل تي آر، لندن الذي سيخبرهم حين تتاح الفرصة".

أنا لا أعرف إن كان هذا إعلاناً يُرجى منه نجاح كبير. لكن أشك إن كانت الفتيات المستهدفات من ذاك العمر، سيصدقن أن أسر غواصة يدخل كثيراً في حياة عمال المقاسم الهاتفية. لكني لاحظت باهتمام العلاقة المتبادلة المباشرة بين حكومة توظف الإعلان وبين قطعة

من القصص التجاري. قبل الحرب، كانت إمارة البحر مثلاً تضع إعلاناتها في صحف المغامرات الخاصة بالصبيان، التي كانت المكان الطبيعي لوضعها. ولكن حسب علمي، لم تكن تكتب القصص بناء على الطلب. ربما لم تكلف بذلك حتى الآن. والاحتمال الأرجح أن الدوائر المعنية تضع عينها على الصحف الأسبوعية (عرضياً أود التفكير في شخصية ببنطال مقلم، المكتب العام للبريد تقرأ "مرحباً حبيبي" كجزء من واجباتها اليومية) وتقحم في إعلان حين تبدو القصة أنها تشكل طعماً جذاباً. لكن من ذلك إلى تكليف القصص الفعلي لكي تكتب حول الايه تي إس وجيش أرض النساء أو أي كيان في حاجة للمجندين، فهذا مجرد خطوة قصيرة فقط. ويستطيع المرء على الأغلب أن يسمع الأصوات المثقفة المتعبة من وزارة الإعلام تقول:

مرحباً! مرحباً! هل ذاك أنت يا طوني؟ أو مرحباً. انتبه لقد حصلت على نص مكتوب آخر من أجلك يا طوني، "تذكرة إلى الفردوس". إنها جابية حافلة هذه المرة. هم لن يدخلوا في الأمر. أعتقد أن البنطال لا يصلح أو شيء ما. حسناً بأي حال، يقول بيتر "اجعل النص مثيراً جنسياً لكنه نظيف نوعاً ما- أنت تعرف. لا شيء خارج الزواج. نريد المادة قبل يوم الثلاثاء. خمسة عشر ألف كلمة. تستطيع اختيار البطل. أنا أفضل نوع الرجل المحب للخلاء الذي يحبه كل الفتيان والصبيان الصغار -أنت تعرف. أو طويل جداً مع فم حساس، لا يهم فعلاً. لكن بالغ وشدد على الجنس، يقول بيتر"

هناك شيء يشبه هذا يحدث مع مقالات إذاعية وأفلام وثائقية، لكن حتى الآن لا يوجد هناك أي رابط مباشر بين الأدب القصصي وبين الدعاية. يبدو أن ذلك الإعلان الذي بطول نصف بوصة في الهوم كومبانيون، يحدد معالم مرحلة صغيرة أخرى في عملية "التنسيق" التي تحدث لكل الفنون الآن بالتدريج.

عند مراجعة مقدمة تشيسترتون التي كتبها لرواية أزمنة صعبة في طبعة إيفريمان (بشكل عرضي إن مقدمة تشيسترتون عن ديكنز أفضل شيء كتبه في حياته) لاحظت التصريح الكاسح أنموذجياً: "لا توجد أفكار جديدة الآن". يزعم تشيسترتون هنا أن الأفكار التي بعثت الثورة الفرنسية، لم تكن جديدة، وإنما هي إحياء لعقائد ازدهرت في وقت أسبق ثم

هجرت. لكن الادعاء بـ "عدم وجود أفكار جديدة تحت الشمس" واحد من الحجج المعروفة عن الرجعيين الأذكياء، والتي استخدمها المدافعون الكاثوليك بوجه خاص بشكل آلي. إن كل ما تستطيع قوله أو التفكير فيه، قيل وجرى التفكير فيه من قبل. وكل نظرية سياسية من الليبرالية إلى التروتسكية، هي عبارة عن تطوير لبدعة من بدع الكنيسة القديمة. وكل نظام فلسفي ينبع من الإغريق أساساً وكل نظرية علمية (إن كنا نصدق الصحافة الكاثوليكية الشعبية) كان روجر بيكون وآخرون في القرن التاسع عشر قد عرفوها مسبقاً. زيادة على ذلك، يزعم بعض المفكرين الهنود أن العلم التطبيقي والطائرات والراديو وكل حقائب الخدع، كانت معروفة للهندوس القدماء الذين أسقطوها لكونها غير جديرة باهتمامهم، وليس النظريات العلمية فقط.

ليس من الصعب أن نرى أن هذه الفكرة متجذرة في الخوف من التقدم. إن لم يكن هناك جديد تحت الشمس، وإن عاد الماضي بشكل أو بآخر، فسيكون المستقبل مألوفاً حين يأتي. على أي حال، الذي لن يأتي أبداً- بما أنه لم يحدث من قبل قط- هو ذلك الشيء المكروه والمفزع أي العالم الذي فيه كائنات بشرية متساوية وحرة. إن الفكرة المريحة للمفكرين الرجعيين، هي الفكرة التي ترى الكون حلقياً مدوراً تحدث فيه نفس سلسلة الأحداث وتتكرر مرة تلو أخرى. في هكذا كون، فإن كل تقدم ظاهر نحو الديمقراطية، يعني ببساطة أن عصر الاستبداد والامتياز القادم بات أقرب قليلاً. من الواضح أن هذا الاعتقاد خرافي، لكنه واسع الانتشار وشائع بين الفاشيين وشبه الفاشيين.

هناك أفكار جديدة في الواقع. الفكرة بأن الحضارة المتقدمة لا تحتاج أن تستند على العبودية مثلاً، هي فكرة جديدة نسبياً، وهي أحدث بكثير من الدين المسيحي. لكن حتى لو كان قول تشيسترتون المأثور صحيحاً، فإنه يصح فقط بمعنى أن هناك تمثالاً في كل كتلة من الحجارة. قد لا تتغير الأفكار، لكن التأكيد يتنقل باستمرار. يمكن الزعم مثلاً أن الجزء الأهم من نظرية ماركس محتوى في القول: "أين تكون ثروتك يكون قلبك أيضا"، لكن أية قوة لهذا القول قبل أن يطوره ماركس؟ ومن اكترث به؟ ومن الذي استنتج منه- ما تضمنه فعلاً- بأن القوانين والأديان والأنظمة الأخلاقية عبارة عن بنية فوقية بنيت فوق علاقات الملكية القائمة؟ حسب الإنجيل، كان المسيح من نطق بالنص، لكن ماركس هو من أعاده إلى الحياة. ومنذ أن

فعل هذا باتت دوافع القساوسة والقضاة وأساتذة علم الأخلاق والمليونيريين في كرههم الشديد له، موضع شبهة -لماذا يكرهونه بهذا القدر الكبير.

٣ مارس/ آذار ١٩٤٤

منذ بضعة أسابيع، كتبت إحدى قارئات التريبيون محتجة ضد مراجعة نقدية بقلم تشارلز هامبليت، اعترضت فيها على ملاحظاته حول القديسة تيريزا، وعن جوزيف كوبرتينو القديس الذي طار حول كاتدرائية حاملاً مطراناً على ظهره. كتبتُ رداً دفاعاً عن السيد هامبليت، وتلقيتُ رسالة أشد نقمة في المقابل. تثير هذه الرسالة عدداً من النقاط الهامة جداً التي تستحق واحدة منها النقاش على الأقل، كما تبدو لي. قد لا تبدو الصلة بين طيران القديسين والحركة الاشتراكية واضحة جداً من النظرة الأولى، لكن أعتقد أن بمقدوري أن أبين أن الحالة الضبابية الحالية للعقيدة المسيحية، لها مضامين خطيرة لم يواجهها أي من المسيحيين أو الاشتراكيين.

إن جوهر الرسالة ليس مهماً إن كانت القديسة والآخرون طاروا في الهواء أو لم يفعلوا: المهم أن "رؤية القديسة تيريزا للعالم غيرت مجرى التاريخ". سأسلم بهذا. بما أنني عشت في بلد شرقي، فقد طورتُ لامبالاة معينة تجاه المعجزات، وأعرف جيداً أن العيش في الأوهام أو حتى الجنون التام، ينسجم تماماً مع ما يسمى على نحو فضفاض بالعبقري. وليام بليك مثلاً كان مجنوناً برأيي، وجان دارك كانت على الأرجح مجنونة، ونيوتن كان يعتقد بعلم التنجيم وسترندبيرغ يعتقد بالسحر، ومع ذلك فإن معجزات القديسين هي مسألة ثانوية. يظهر من الرسالة أيضاً أن أكثر المبادئ مركزية في الدين المسيحي، يجب ألا تُقبل بمعانيها الحرفية. فلا يهم مثلاً إن كان المسيح قد وُجد أم لا، فشخصية المسيح (إن كان أسطورة أم رجلاً أم إلهاً. فهذا غير مهم) تجاوزت كل البقية، لذلك أتمنى فقط أن ينظر كل واحد إلى ذلك قبل أن يرفض تلك النسخة من الحياة. لذلك ربما كان المسيح أسطورة أو مجرد كائن بشري، أو ربما كان الوصف الذي أعطته له العقائد المسيحية صحيحاً. وهكذا وصلنا إلى هذا الوضع: يجب على التريبيون ألا تسخر من الدين المسيحي. أما وجود المسيح الذي احترق عدد لا يحصى من الناس بسبب رفضهم الإيمان به، فمسألة لامبالاة.

الآن، هل هذه عقيدة أرثوذوكسية؟ انطباعي أنها ليست كذلك. أستطيع التفكير في مقاطع من كتابات المدافعين الكاثوليكيين المشهورين كالأب وودلوك والأب رونالد نوكس اللذين بيّنا بأوضح العبارات أن العقيدة المسيحية تعني ما يبدو أنها تعنيه، ولا تقبل بمعنى مجازي واهن. وأشار الأب نوكس بالتحديد إلى الفكرة التي لا ترى أهمية إن كان المسيح قد وجد فعلياً أم لا بأنها فكرة "رهيبة" لكن ما تقوله مراسلتي، ردده الكثيرون من المفكرين الكاثوليكيين. لو تحدثت إلى مسيحي مهتم سواء كان كاثوليكياً أم إنجليكانياً، ستجد نفسك غالباً محط تهكم بسبب جهلك الكبير إن كنت تعتقد بأن هناك من أخذ مبادئ الكنيسة بشكل حرفي. سيقال لك إن هذه المبادئ معنى مختلف، أبسط من أن تفهمه أنت. إن خلود الروح لا يعني أنك أنت جون سميث ستبقى واعياً بعد أن تموت. إن انبعاث الجسد لا يعني أن جسد جون سميث سيبعث حقاً وهلم جرا. وبالتالي فإن المفكر الكاثوليكي قادر لأغراض جدلية أن يلعب نوعاً من لعبة خفة، يكرر فيها بنود العقيدة بنفس العبارات التي استخدمها أجداده تماماً، وفي الوقت نفسه يدافع عن نفسه ضد تهمة الاعتقاد بالخرافات، معللاً ذلك بأنه يتكلم بشكل رمزي. يظل جوهر ادعائه، بالرغم من عدم إيمانه بالحياة بعد الموت بأي شكل، نفي أي تغيير في المعتقد المسيحي بما أن أسلافنا لم يؤمنوا فعلياً به أيضاً. في الوقت الحالي يتم التعتيم على حقيقة هامة تقوض واحدة من دعائم الحضارة الغربية.

أنا لا أعرف رسمياً إن كان هناك أي تغيير في العقيدة المسيحية. الأب نوكس ومراسلتي يبدوان في خلاف حول هذا. لكن ما أعرفه جيداً أن الإيمان بالبقاء بعد الموت- البقاء الفردي لجون سميث الذي يظل يشعر بنفسه بأنه جون سميث- أصبح أقل انتشاراً بشكل هائل مما كان، وعلى الأرجح ضعف وسط المسيحيين المترهبنين أيضاً. أما الناس الآخرون عادة، فلا يفكرون حتى بإمكانية أن يكون صحيحاً. لكن أجدادنا بقدر ما نعرف، آمنوا بذلك، وإن لم يكن القصد من كل ما كتبوه هو تضليلنا، فقد آمنوا به بطريقة ملموسة حرفية مفرطة، ورأوا أن الحياة على الأرض كانت فترة قصيرة من التحضير لحياة أهم بكثير بعد القبر. لكن تلك الفكرة اختفت أو تختفي من دون أن تواجه نتائجها وعواقبها.

تأسست الحضارة الغربية جزئياً بخلاف بعض الحضارات المشرقية، على الإيمان بالخلود الفردي. ولو نظر المرء إلى الدين المسيحي من الخارج، فسيظهر له أن هذا الاعتقاد أكثر أهمية

من الإيمان بالرب، ويصعب فصله عن المفهوم الغربي للخير والشر. وليس هناك شك بأن الإعجاب الحديث بعبادة القوة، مرتبط بشعور الإنسان الحديث أن الحياة هنا والآن، هي الحياة الموجودة الوحيدة. لو أن الموت يضع نهاية لكل شيء، لأصبح الاعتقاد أصعب بفكرة أنك في السليم والصحيح حتى لو هزمت. إن رجال الدولة والأمم والنظريات، قضايا يُحكم عليها بشكل حتمي بواسطة اختبار النجاح المادي. بافتراض أن المرء يستطيع فصل الظاهرتين، أود القول إن اضمحلال الإيمان بالخلود الفردي، كان هاماً بقدر ظهور حضارة الآلة. إن لحضارة الآلة إمكانيات رهيبة، كما فكرت ملياً بها في الليلة قبل الفائتة حين انطلقت المدافع المضادة للطائرات: لكن الشيء الآخر له إمكانيات أخرى أيضاً، ولا يمكن القول إن الحركة الاشتراكية أعطتها الاهتمام الكافي.

أنا لا أريد عودة الإيمان بالحياة بعد الموت. وفي كل الأحوال من غير المحتمل له أن يعود. ما أشير إليه هو أن اختفاءه ترك ثقباً كبيراً، وأننا يجب أن ننتبه إلى هذه الحقيقة. أن الإنسان الذي تربى لآلاف السنين على فكرة أن الفرد ينجو ويبقى حياً، يجب أن يبذل جهداً نفسياً ضخماً كي يعتاد على فكرة أن الفرد يموت ويفنى، فمن غير المحتمل منه أن ينقذ الحضارة إن لم يستطع استنباط وتطوير نظام للخير والشر مستقل عن الجنة وجهنم. تقدم الماركسية هذا بالفعل، لكنها لم تُبسط لتصبح في متناول الجمهور العادي أبداً. اكتفى الاشتراكيون بالإشارة إلى أننا سنكون أكثر سعادة بالمعنى المادي فور تشييد الاشتراكية، وأن كل المشاكل تسقط حين تكون المعدة ممتلئة. لكن الحقيقة هي العكس: حين تكون المعدة فارغة، فإن مشكلة المرء الوحيدة هي معدته الفارغة، وحين نتخلص من الكدح والاستغلال، عندئذ نبدأ فعلياً بالتساؤل عن مصير الإنسان والعلة من وجوده. لا يستطيع المرء تخيل صورة جديرة للمستقبل، إلا أن أدرك كم فقدنا بسبب انحلال المسيحية. يبدو قلة فقط من الاشتراكيين أدركت هذا. إن المثقفين الكاثوليك المتمسكين بحرفية العقيدة وقوانينها وبنفس الوقت يقرؤون فيها معاني لم تملكها أبداً ويسخرون من أي شخص بسيط يفترض أن آباء الكنيسة كانوا يعنون ما يقولونه، يرفعون ببساطة ستائر دخانية لإخفاء كفرهم عن أنفسهم.

تلقيت خبر إعادة ظهور مجلة كورنهيل بسرور بالغ بعد أربع سنوات من الغياب. بمعزل عن المقالات -هناك مقالة جيدة عن ماياكوفسكي بقلم موريس بورا، ومقالة أخرى بقلم ريموند مورتيمر عن بورغهام وماكاولي- هناك ملاحظات ممتعة بقلم رئيس التحرير حول التاريخ المبكر لكورنهيل. إحدى الحقائق أنها أظهرت حجم وغنى الجمهور الفيكتوري العادي والمبالغ المالية الضخمة التي كسبها الأدباء في تلك الأيام. لقد بيعت ١٢٠ ألف نسخة من العدد الأول من كورنهيل، ودفعت لترولوب ٢٠٠٠ جنيه مقابل مسلسل -طلب مقابله ٣٠٠٠ جنيه- وطلبت آخر من جورج إليوت بمبلغ ١٠٠٠٠ جنيه. باستثناء القيل جداً من الأدباء الذين نجحوا في الدخول إلى عالم السينما، فإن هذه المبالغ لا تصدق ولا يتخيلها أحد في وقتنا الحالي. يفترض أن تكون كاتباً من الطراز الأول لتدخل إلى طبقة الـ ٢٠٠٠ جنيه. أما بالنسبة إلى الـ ١٠٠٠٠ فلكي تحصل عليها مقابل كتاب واحد، عليك أن تكون شخصاً مثل إيدغار رايس بوروز. تعتبر الرواية ناجحة وممتازة في زمننا الحالي، إن جلبت لمؤلفها ٥٠٠ جنيه -مبلغ يكسبه المحامي الناجح في يوم واحد. إن انحدار الكتاب ليس جديداً كما يتخيل "متسكع الشواطئ" وأعداء آخرون من السلالة الأدبية.

١٠ مارس/ آذار عام ١٩٤٤.

عند قراءتي لكتاب ديريك ليون حياة تولستوي، وكتاب الآنسة غلاديس ستوري عن ديكنز، وكتاب هاري ليفن عن جيمس جويس، والسيرة الذاتية (لم تنشر بعد في هذه البلاد) للرسام السريالي سلفادور دالي في الوقت نفسه، دُهشت بقوة غير عادية بالأفضلية والفائدة التي يستمدها الفنان من ولادته ونشأته في مجتمع سليم نسبياً.

حين قرأت الحرب والسلام لأول مرة، أفترض أنني كنت في العشرين، عمر لا يخاف فيه المرء من الروايات الطويلة، وشكوتي الوحيدة -مع هذا الكتاب (ثلاثة مجلدات ضخمة)- بطول أربع روايات حديثة- أنه لا يواصل بالطول الكافي. بدا لي أن نيكولاس وناتاشا روستوف وبيير بيزوكوف ودينيسوف والبقية الآخرين، أشخاص يواصل المرء القراءة عنهم بابتهاج إلى الأبد. والحقيقة أن أفراد الأرستقراطية الروسية الصغيرة في ذلك الوقت مع جسارة أفرادها وبساطتهم وملذاتهم الريفية وعلاقات حبهم العاصفة والعائلات الضخمة، كانوا أشخاصاً ساحرين جداً. هكذا مجتمع لا يمكن تسميته بشكل صحيح عادلاً أو تقدمياً. حقيقة

أنه تأسس على قنانة حقيقية، جعلت تولستوي مرتبكاً حتى في صباه. وحتى الأرستقراطي المتنور- يفترض أنهم مثله- كان سيجد صعوبة في اعتبار الفلاحين كنفس جنس الحيوانات مثله هو. تولستوي نفسه لم يكف عن ضرب خدمه حتى بلغ سن الرشد.

مارس مالك الأرض نوعاً من حق السيد الإقطاعي على الفلاحين في ممتلكاته. لتولستوي ولد غير شرعي واحد على الأقل، وكان أخوه غير الشقيق، من زواج غير متكافئ، هو حوذي العائلة. ومع ذلك لا يشعر المرء تجاه هؤلاء الروس السذج كثيري النسل بنفس الاحتقار الذي يشعره نحو الغثاء العالمي المتكلف المتحرر من الأحقاد القومية والمحلية الذي أعطى دالي سبل عيشه. فضلهم المنقذ أنهم ريفيون بسطاء لم يسمعوا قط بينزرداين، ولم يطلوا أظافرهم. وتولستوي الذي تاب مؤخراً عن آثامه في فترة شبابه بطريقه جهرية أعلى من أغلب الناس، يفترض أنه استمد قوته -قوته الإبداعية بالإضافة إلى قوته العضلية الضخمة- من تلك الخلفية الخام الصحية التي فيها يصطاد المرء دجاجة الأرض في المستنقعات، والفتيات يعتبرن أنفسهن محظوظات إن ذهبن إلى ثلاث حفلات رقص في السنة.

إحدى الثغرات في ديكنز، أنه لم يكتب شيئاً حتى ولو بروح ساخرة عن الحياة الريفية، ولم يتظاهر بمعرفة أي شيء عن الزراعة حتى. هناك بعض الأوصاف الهزلية للصيد بالبنادق في أوراق بيكويك. لكن ديكنز كراديكالي من الطبقة الوسطى، غير قادر على وصف هكذا تسلية بصورة متعاطفة. إنه يرى الرياضات خارج البيت (كالصيد وصيد السمك إلخ) في المقام الأول، عبارة عن ممارسة لمظاهر الغرور التي كانت موجودة مسبقاً في إنكلترا آنذاك. الأسيجة والنزعة الصناعية والفروق الشاسعة في الثروة وعبادة التدرج والأيل الأحمر، اتحدت كلها لطرد جماهير الشعب الإنكليزي من الأرض، وجعل غريزة الصيد التي هي ربما عالمية تقريباً في كل البشر تبدو مجرد طقس وصنم للارستقراطية. ربما أفضل شيء في الحرب والسلام، هو وصف صيد الذئب. في النهاية كلب الفلاح يسبق كلاب النبلاء وينال من الذئب، وتجد ناتاشا فيما بعد أن الرقص في كوخ الفلاح أمر طبيعي.

أن ترى هكذا مشاهد في إنكلترا، فعليك أن تعود إلى مئة أو مئتي سنة، إلى زمن لم يكن فيه الفارق في المكانة، يعني أي فرق كبير جداً في العادات. لقد هيمن على إنكلترا ديكنز لوحة إعلانات "من يتعدون على أملاك وأراضي الغير ستتم مقاضاتهم". حين يفكر المرء في موقف

الجناح اليساري المقبول في الصيد بالبنادق وأشباهه، فالغريب أنه يعكس أن لينين وستالين وتروتسكي كانوا كلهم رياضيين رائعين في زمنهم، وأنهم كانوا ينتمون إلى بلاد واسعة فارغة ليس فيها ربط ضروري بين الرياضة والغرور، ولم يكن فيها الفصل بين الريف والمدينة كاملاً أبداً. هذا المجتمع الذي يأخذ أي روائي معاصر مادته منه أكثر شحاً وأقل جمالاً وابتهاجاً من مجتمع تولستوي. وبفهمه لهذا كان واحداً من علامات الموهبة. لو جعل جويس الناس في أهالي دبلن أقل قرفاً مما هم عليه، لكان قد زيّف الحقائق. لكن الأفضلية الطبيعية تكمن مع تولستوي: مع جعل الأشياء الأخرى متساوية، من لا يفضل أن يكتب عن بيير وناتاشا بدلاً من الكتابة عن إغواءات ماكرة في البيوت التي تقدم المنامة والطعام أو رجال أعمال ثملين كاثوليكيين يحتفلون بـ "الاعتزال للصلاة والهدوء"؟

يقدم السيد هاري ليفين في كتابه، بعض التفاصيل القليلة المتعلقة بسيرة جيمس جويس، لكنه لم يستطع أن يخبرنا الكثير عن السنة الأخيرة من حياته، وكل ما نعرفه أنه هرب عبر الحدود إلى سويسرا حين دخل النازيون إلى فرنسا، ومات في بيته القديم في زيوريخ بعد سنة، حتى أنه لم يذكر لنا بشكل مؤكد المكان الذي كان فيه أولاده حتى.

لم يستطع النقاد الأكاديميون أن يقاوموا فرصة الهجوم على جثمان جويس وانتقاده. نشرت التايمز نعياً صغيراً ووضيعاً وحذراً له، ومن ثم رفضت نشر رسالة الاحتجاج التي كتبها رغم أنها (التايمز) لم تفتقر المساحة أبداً من أجل رسائل حول المضارب والوقواق الأول. هذا ينسجم مع التقليد الإنكليزي الجليل بوجوب مدح الميت، إلا إذا حدث وكان فناناً. دع سياسياً يموت ليقف ألد أعدائه على أرض البرلمان ويتلفظ بأكاذيب ورعة على شرفه؛ أما الكاتب أو الفنان، فيجب أن يُحتقر على الأقل. اتحدت الصحف كلها لتهين دي إتش لورانس (كان الوصف المعتاد "إباحي") في اللحظة التي مات فيها. وكان على جويس ألا يترقب سوى عبارات النعي المتكبرة. انهيار فرنسا والحاجة إلى الفرار من الجستابو مثل مشبوه سياسي، كانت مسألة مختلفة. وحين تنتهي الحرب سنكتشف رأي جويس فيها. كان جويس مبعد بشكل متعمد من النزعة المادية المحافظة الإنكليزية-الايرلندية. ايرلندا تبرأت منه، وإنكلترا وأمريكا لم تتحملاه. قوبلت كتبه بالرفض ولم تنشر، وأتلفت من قبل ناشرين

رعاديد، ومنعت حين ظهرت، وتقرصنت مع تستر وتشجيع من السلطات. وفي أي حال، تمّ تجاهلها بشكل كبير، إلى أن نشر كتابه يوليسيس. لقد تعرض لظلم حقيقي، وكان يشعر بشكل مفرط بهذا الظلم. لكن كان هدفه أيضاً أن يكون فناناً "طاهراً"، "فوق العراك" وغير مكترث بالسياسة. لقد كتب يوليسيس في سويسرا، ولديه جواز سفر نمساوي ومعاش تقاعدي بريطاني خلال حرب ١٩١٤-١٩١٨ التي حاول بأقصى ما يمكن ألا يعيرها أي اهتمام. لكن الحرب الحالية، كما اكتشف جويس، ليست من النوع الذي يمكن تجاهله، وأجبرته على التفكير كما أعتقد بأن الخيار السياسي ضروري وأن الغباء حتى أفضل من الديكتاتورية.

لقد أوضح هتلر وأصدقاؤه شيئاً واحداً، وهو الزمن الجيد الذي استمتع به المفكرون والمثقفون في السنوات المئة الأخيرة. أخيراً وبعد كل شيء، كيف يقارن اضطهاد كل من جويس ولورانس ويتمان وبودلير وحتى أوسكار وايلد، بالشيء الذي يحدث للمفكرين والمثقفين الليبراليين في كل أرجاء أوروبا منذ أن وصل هتلر إلى السلطة؟ ترك جويس ايرلندا مشمئزاً:

لم يجبر على الهرب من أجل حياته، كما فعل حين تدحرجت دبابات البانزر في قلب باريس. منعت الحكومة البريطانية يوليسيس في حينه عندما ظهر الكتاب، ورفع المنع بعد خمس عشرة سنة. والأهم ربما أنها ساعدت جويس على البقاء حياً، بينما كان يكتب الكتاب. وبعد ذلك استطاع جويس بفضل كرم معجب مجهول الاسم أن يعيش حياة متحضرة في باريس لمدة عشرين سنة تقريباً، وأن يعمل بغير انقطاع في كتابه يقظة فينيغان، وكان محاطاً بدائرة من المريدين، بينما فِرقٌ مُجِدّة من الخبراء تترجم يوليسيس ليس إلى اللغات الأوروبية المتنوعة، وإنما إلى اللغة اليابانية أيضاً. بين ١٩٠٠ و١٩٢٠ عرف الجوع والإهمال: لكن إجمالاً فإن حياته تبدو جيدة نوعاً ما، لو نظر إليها المرء من داخل معسكر اعتقال ألماني.

لو استطاع النازيون إلقاء القبض على جويس، ماذا كانوا سيفعلون به؟ نحن لا نعرف. ربما كانوا بذلوا جهوداً للظفر به إلى جانبهم وإضافته إلى حقيبتهم المؤلفة من رجال الأدب "المهتدين". لكن يفترض أنه سيرى أنهم لم يفككوا المجتمع الذي اعتاد عليه فقط، وإنما كانوا الأعداء الألداء لكل شيء قدّره واحترمه. إن المعركة التي أرادها أن تكون "فوق" ورطته

بشكل مباشر أخيراً، وأعتقد أنه أجبر نفسه قبل النهاية أن ينطق بتعليق غير محايد على هتلر - ولكونه أتى من جويس يفترض أن يكون لاذعاً جداً- يهجع الآن في زيوريخ وسيكون متاحاً بعد الحرب.

١٧ مارس/ آذار عام ١٩٤٤

من دون قوة على تنفيذ أحكامي، لكن بسيادة ككل سيادات حكومات المنفى التي تلتجئ الآن في أقسام متفرقة من العالم، أعلن حكم الإعدام على الكلمات والعبارات التالية:

عقب آخيل- جزمة عسكرية -ذو رأس كالهدرة -يمتطي نعلاً مزوداً بمسامير -طعنة في الظهر -البرجوازية الصغيرة -جيفة نتنة - يصفي -عقب حديدية -مضطهد ملوث بالدم - خيانة كلبية -الخادم له زي خاص (المتزلف) -خادم في البيت -كلب مسعور -ابن آوى - ضبع -حمام دم.

لا شك أن هذه القائمة، يجب أن تزداد من حين إلى آخر، لكنها تكفي لغرضنا. تحتوي على مجموعة جيدة من المجازات والعبارات الأجنبية المترجمة بشكل رديء، والتي راجت في الأدب الماركسي في السنوات الماضية. هناك طبعاً الكثير من الإفساد للغة الإنكليزية بالإضافة إلى تلك. هناك اللغة الإنكليزية الرسمية أو البنطال المخطط ولغة البرلمان ونقاشات البرلمان (في لحظاتها المحتشمة) ونشرات أخبار البي بي سي، وهناك العلماء والاقتصاديون بتفضيلهم الغريزي لكلمات مثل "لا ينصح بها" و"عدم التقسيم إلى مناطق"، وهناك العامية الأمريكية التي تميل رغم كل جاذبيتها إلى إفقار اللغة على المدى الطويل، وهناك القذارة العامة للكلام الإنكليزي الحديث بحروفه الصوتية المنحطة (في كل منطقة لندن تجبر على استخدام الإشارة لتميز بين "ثلاثة بنسات" و"ثلاثة بنسات ونصف") والميل إلى المبادلة بين الفعل والاسم. لكن أنا مهتم هنا في نوع واحد من الإنكليزية الرديئة، الإنكليزية الماركسية التي يمكن دراستها في الديلي ووركر وذا ليبور مونثلي وذا نيو ليدر وصحف مماثلة.

إن الكثير من العبارات المستخدمة في الأدب السياسي، مجرد عبارات ملطفة لأشياء بغيضة أو خدع بلاغية. "يصفي" مثلاً (أو "يزيل") كلمة مؤدبة عن "يقتل" و"الواقعية" تعني "الكذب" عادة. لكن الأسلوب الماركسي في التعبير غريب في كون أغلبه يتألف من ترجمات.

تأتي (مفرداته) من عبارات ألمانية أو روسية تم إقرارها في دولة تلو أخرى من دون محاولة إيجاد مرادفات مناسبة. هذه مثلاً قطعة من كتابة ماركسية -صدف أن كانت خطاباً موجهاً إلى جيوش الحلفاء من مواطني بانتليرا: يتقدم مواطنو بانتليرا بالتقدير والعرفان للقوات الأنغلوأمريكية، من أجل السرعة التي حررتهم بها من نير الحكم الشيطاني المصاب بجنون العظمة، الذي لم يقنع بامتصاص أفضل قدرات الإيطاليين الحقيقيين لمدة عشرين سنة مثل أخطبوط رهيب، والذي يحول إيطاليا الآن إلى كتلة كبيرة من الخراب والبؤس من أجل دافع واحد -فقط المنفعة الشخصية المجنونة لرؤسائها الذين يخفون تحت قناع مكشوف من الوطنية الجوفاء المزعومة أحط الرغبات الحسية، ويتآمرون مع القراصنة الألمان، ويفقسون أدنى وأحط أنانية وأسوأ معاملة طول الوقت بكلبية ثائرة، ويدوسون على دماء آلاف الإيطاليين. يفترض أن هذا الطهي القذر من الكلمات ترجمة من اللغة الإيطالية، لكن المغزى ألا يعرف المرء أنه كذلك. قد يكون ترجمة من أي لغة أوروبية أخرى أو ربما من الديلي ووركر مباشرة بأسلوب كتابة دولي صادق. صفته المميزة هو الاستخدام اللانهائي لاستعارات مجازية جاهزة. وبنفس الروح، حين كانت الغواصات الإيطالية تُغرق السفن التي تأخذ أسلحة إلى إسبانيا الجمهورية، حثت الديلي وركر البحرية البريطانية "كي تمسح الكلاب المسعورة من البحار". من الواضح أن الناس القادرين على استخدام مثل هذه العبارات نسيوا أن للكلمات معاني.

أخبرني صديق روسي أن اللغة الروسية أغنى من الإنكليزية في مصطلحات الشتم، لذلك لا يمكن ترجمة القدح الروسي بدقة دائماً. حين أشار مولوتوف إلى الألمان بـ "آكلي لحوم البشر" ربما استخدم كلمة بدت طبيعية في الروسية والتي (آكلو لحوم البشر) كلمة فظة قريبة منها. لكن شيوعيينا المحليين أخذوا أكثر من سلسلة كاملة من هذه العبارات المترجمة بشكل فج من الابريكور ومصادر أخرى مشابهة، وبحكم قوة العادة باتوا يعتقدون أنها تعابيرَ إنكليزية حقيقية. مفردات الشتم الشيوعية (المطبقة على الفاشيين أو الاشتراكيين حسب "خط" اللحظة) تشمل كلمات مثل ضبع وجيفة وخادم وقرصان وجلاد ومصاص دماء وكلب مسعور وسفاح ومجرم. إن كانت هذه الترجمات من الدرجة الأولى أو الثانية أو الثالثة، فهي ليست بأي شكل من الكلمات التي يستخدمها الشخص الإنكليزي بشكل طبيعي ليعبر فيها عن استهجانه. تستخدم اللغة من هذا النوع بعد مبالاة مدهشة لمعانيها. اسأل صحفياً ما هي

الجزمة العسكرية، وستجد أنه لا يعرف، ومع ذلك يستمر في التحدث عن الجزمة العسكرية. أو ما هو المقصود بـ يمتطي نعلاً بمسامير؟ عدد قليل جداً من الناس يعرفون هذه أيضاً. من أجل ذلك، في تجربتي، قلة قليلة من الاشتراكيين يعرفون معنى كلمة "بروليتاري"

يمكنك رؤية مثال جيد للغة الماركسية في أسوأ حالاتها في كلمات "خادم تابع" و"ساقط". كانت روسيا قبل الثورة بلداً إقطاعياً فيها جماعات من الخدم الرجال العاطلين عن العمل، كانت جزءاً من التركيبة الاجتماعية؛ في ذلك السياق "متزلف" ككلمة شتم لها معنى. في إنكلترا، المشهد الاجتماعي مختلف تماماً. باستثناء الوظائف العامة، آخر مرة رأيت فيها خادماً في زي الخدم كانت في عام ١٩٢١. وفي الواقع، في الكلام العادي، كلمة "خادم" أضحت مهملة منذ التسعينيات، وكلمة (خادم تابع) منذ قرن. مع ذلك ينقب عن هذه وكلمات أخرى غير ملائمة مثلها لأغراض تخدم تأليف الكراريس. النتيجة، أسلوب كتابي علاقته بكتابة الإنكليزية الحقيقية كعلاقة أحجية الصورة المقطعة برسم لوحة فنية. إنها مجرد مسألة تركيب عدد من القطع الجاهزة معاً. فقط تحدث عن الجزم العسكرية ذات الرؤوس المتعددة، وتمتطي نعالاً خشنة فوق ضباع ملوثة بالدماء، فأنت صحيح ودقيق. للإثبات، راجع أي كراس أصدره الحزب الشيوعي -أو أي حزب سياسي آخر.

٢٤ مارس/ آذار ١٩٤٤.

السؤال: ما هي الفاشية؟ ربما يكون الأهم من بين كل الأسئلة التي لم تتم الإجابة عليها في عصرنا.

وجهت إحدى منظمات المسح الاجتماعية في أمريكا هذا السؤال إلى مئة شخص مختلفين، وحصلت على إجابات تفاوتت من "ديمقراطية صرفة" إلى "شيطنة محضة". ولو سألت شخصاً مفكراً عادياً في هذه البلاد أن يعرف الفاشية، سيرد بالإشارة إلى نظامي الحكم في ألمانيا وإيطاليا. لكن هذا غير مقبول جداً، لأن الدول الفاشية تختلف عن بعضها البعض كثيراً في البنية والأيديولوجيا.

ليس من السهل مثلاً أن تضع ألمانيا واليابان في نفس الإطار، ويصبح الأمر أصعب مع بعض البلدان الصغيرة التي توصف بالفاشية. يفترض عادة مثلاً أن الفاشية يلازمها ولع

بالحروب وتزدهر في جو من هستيريا الحرب، ولا تستطيع حل مشاكلها الاقتصادية إلا بواسطة التحضير للحرب أو بفتوحات أجنبية. لكن هذا ليس صحيحاً، وبشكل واضح مع البرتغال أو ديكتاتوريات متنوعة في أمريكا الجنوبية مثلاً. أو مرة أخرى، إن إحدى العلامات المميزة هي فاشية عداء السامية كما يفترض، لكن بعض الحركات الفاشية ليست معادية للسامية. لم تقدر مناظرات ثقافية ترددت لسنوات.... في مجلات أمريكية أن تحدد إن كانت الفاشية شكلاً من أشكال الرأسمالية أم لا. لكن يظل الأمر حين نطبق مصطلح "فاشية" على ألمانيا أو اليابان أو إيطاليا موسوليني، نحن نعرف ما نقصد تماماً. لقد فقدت تلك الكلمة آخر ذرة من معنى في السياسة الداخلية. فلو دققت في الصحافة، ستجد أنه لا توجد مجموعة من الناس تقريباً -وبالتأكيد حزب سياسي أو هيئة منظمة من أي نوع- لم تُتهم بالفاشية خلال السنين العشر الأخيرة. لا أتكلم هنا عن المعنى الحرفي لمصطلح الفاشية، وإنما عما رأيته مطبوعاً. رأيت كلمات "فاشي في تعاطفه" أو "ميل فاشي" أو فقط "فاشي" تطبق بكل جدية على الجماعات البشرية التالية:

المحافظون: اعتبر كل المحافظين المهدئين وغير المهدئين مؤيدين للفاشية بشكل غير موضوعي. اعتبر الحكم البريطاني في الهند والمستعمرات لا يختلف إطلاقاً عن النازية. صنفت منظمات يمكن وصفها بالوطنية ومن الأنموذج التقليدي بـ "الفاشية السرية" أو "ذات نزعة فاشية". أمثلة على ذلك، الكشافة الصبيان وشرطة المدن والمخابرات العسكرية والفيلق البريطاني. عبارة رئيسية: "المدارس الحكومية أماكن لتفريخ للفاشية".

الاشتراكيون: المدافعون عن الأسلوب القديم للرأسمالية (مثل السير إيرنست بين) يستمرون في القول إن الاشتراكية والفاشية شيء واحد. يقول بعض الصحفيين الكاثوليكيين إن الاشتراكيين كانوا المتواطئين الرئيسيين في البلدان التي احتلتها النازية. نفس الاتهام صادر من زاوية مختلفة من قبل الحزب الشيوعي خلال أطواره اليسارية المتطرفة. في فترة ١٩٣٠-٣٥ كانت الديلي ووركر تشير إلى حزب العمال بالفاشيين العمال. وتردد هذا بواسطة متطرفين يساريين آخرين كالفوضويين مثلاً. بعض القوميين الهنود اعتبروا النقابات الحرفية البريطانية منظمات فاشية.

الشيوعيون: مدرسة فكرية مهمة (مثل راوستشينغ وبيتر دروكر وجيمس بيرنهام وإف إيه فويت) رفضوا الإقرار بأي فرق بين نظام الحكم النازي ونظام الحكم السوفيتي، ورأوا أن

كل الفاشيين والشيوعيين يهدفون تقريباً إلى الشيء نفسه، وإلى حد ما هم نفس الأشخاص حتى. قادة في التايمز (قبل الحرب) أشاروا إلى الاتحاد السوفييتي بـ "بلد فاشي". مرة أخرى من زاوية مختلفة ردد الفوضويون والتروتسكيون هذا.

التروتسكيون: اتهم الشيوعيون التروتسكيين بأنهم منظمة فاشية سرية على جدول الرواتب النازي. ساد هذا الاعتقاد خلال فترة الجبهة الشعبية. في أطوارهم اليمينية المتطرفة، مال الاشتراكيون إلى تطبيق نفس التهمة على كل الزمر التي على يسارهم، مثل الكومنويلث أو حزب العمل المستقل.

الكاثوليكيون: خارج صفوفها، تعتبر الكنيسة الكاثوليكية عموماً تقريباً مناصرة للفاشية بشكل موضوعي وذاتي.

السلميون-مقاومو الحرب: لم يتهم السلميون وآخرون غيرهم بتسهيل الأشياء للمحور، وإنما بتأثرهم بمشاعر مناصرة للفاشية.

مؤيدو الحرب: ترتكز حجة مؤيدو الحرب عادة على الزعم بأن الإمبريالية البريطانية أسوأ من النازية، وينزعون إلى تطبيق مصطلح الفاشية على أي واحد يرغب بنصر عسكري. مؤيدو ميثاق الشعب اقتربوا من الادعاء أن الرغبة في مقاومة الغزو النازي علامة عن التعاطف مع النازية. اتهم الحرس الوطني كمنظمة إرهابية فور ظهوره. بالإضافة إلى أن كل اليسار يميل إلى المساواة بين العسكرة والفاشية. الجنود العسكريون الواعون سياسياً يشيرون دائماً تقريباً إلى ضباطهم بـ "ذوي ميول فاشية" أو "فاشيين بالفطرة". تعتبر المدارس القتالية وابصق ولَمّع وتحية الضباط علامات عن نزعات فاشية. اتهم جيش التجنيد الإلزامي وجيش المحترفين كظواهر فاشية.

القوميون: اعتبرت القومية عموماً فاشية بالأصل، لكن هذا لم يطبق إلا على حركات قومية يستهجنها المتكلم. وصفت القومية العربية والقومية البولندية والقومية الفنلندية وحزب المؤتمر الهندي والعصبة الإسلامية والصهيونية وأي أر إيه (الجيش الايرلندي الجمهوري -المترجم) بالفاشية، لكن ليس من قبل الناس أنفسهم.

يتبين أن كلمة "فاشية" كما استعملت، تخلو من المعنى تماماً تقريباً. وتستخدم في المحادثة طبعاً بطيش أكبر من الطباعة. ولقد سمعتها تطبق على المزارعين، وأصحاب المتاجر، والضمان

الاجتماعي، والعقوبة البدنية، وصيد الثعالب، ومصارعة الثيران، ولجنة ١٩٢٢، ولجنة ١٩٤١، وكيبلينغ، وغاندي، وشيانغ كاي شيك، واللواط، ونشرات بريستلي، ونزل الشباب، وعلم التنجيم، والنساء، والكلاب، وأخرى لا أعرفها.

لكن تحت كل هذه اللخبطة، يكمن هناك معنى خفي. بداية، من الواضح وجود اختلافات عظيمة جداً بعضها سهل تبيانه، ولكن صعب شرحه، بين أنظمة الحكم التي تكنى بالفاشية وتلك التي تكنى بالديمقراطية. ثانياً، إن كانت "فاشيستي" تعني "متعاطف مع هتلر"، فإن بعض من الاتهامات التي جدولتها آنفاً مبررة بشكل واضح أكثر من غيرها بكثير. ثالثاً، حتى الأشخاص الذين يرمون بتهور كلمة "فاشستي" في كل حدب وصوب، يربطونها بمعنى عاطفي ما فهم يقصدون بالفاشية. لنتكلم بصراحة، شيء وحشي ومجرد من الضمير ومتغطرس وظلامي وضد الليبرالية والطبقة العاملة. باستثناء عدد صغير نسبياً من المتعاطفين مع الفاشية، فإن كل شخص إنكليزي تقريباً يقبل بكلمة "متنمر" مرادفة لـ "فاشيستي". هذا أقرب تعريف لهذه الكلمة التي أسيء استعمالها كثيراً.

لكن الفاشية نظام سياسي واقتصادي أيضاً. لماذا لا يكون لدينا تعريف واضح ومقبول عموماً لها؟ واأسفاه! لن يكون لدينا واحد -ليس بعد في أي حال. سبب طول الأمر أكثر من اللازم، لأنه من المستحيل تعريف الفاشية بشكل كافٍ ومرضٍ من دون اعترافات لا يرغب الفاشيون أنفسهم والمحافظون والاشتراكيون من أي لون الإدلاء بها. كل ما يمكن للمرء فعله الآن كما يجري عادة، هو الحذر من امتهان الكلمة إلى مستوى الشتيمة.

٣١ مارس/ آذار عام ١٩٤٤.

في اليوم السابق، حضرت مؤتمراً صحفياً لرجل فرنسي وصل حديثاً وصف بـ "القانوني البارز"- لم يستطع أن يفصح عن اسمه أو أي تخصصات أخرى، لأن عائلته تعيش فرنسا، عبر في المؤتمر عن وجهة النظر الفرنسية حول عملية إعدام بوشيو التي تمت حديثاً. اندهشتُ حين لاحظتُ أنه كان مدافعاً بشكل واضح، واعتبر أن إعدام بوشيو بالرصاص عمل يحتاج إلى قدر جيد من التبرير في عيون البريطانيين والأمريكيين. كانت نقطته الأساسية أن بوشيو لم يعدم لأسباب سياسية، وإنما بسبب الجريمة العادية، وهي "التعاون مع العدو" التي كانت تعاقب بالإعدام دوماً حسب القانون الفرنسي.

سأله مراسل أمريكي السؤال التالي: "هل التعاون مع العدو يكون بالتساوي جريمة في حال كان الفاعل موظفاً صغيراً، مفتش شرطة مثلاً؟". أجاب الفرنسي "مثل بعضهما بالتأكيد" بما أنه جاء من فرنسا للتو، فقد كان ينطق بالرأي الفرنسي، لكن يستطيع المرء أن يفترض أن المتعاونين الأهم والأكثر نشاطاً فقط هم الذين يحكم عليهم بالإعدام، كما أن أي مذبحة كبيرة إن حدثت حقيقة ستكون على الأغلب معاقبة الجاني بالجاني. وهناك دليل كبير بأن قطاعات واسعة من السكان الفرنسيين كانوا مؤيدين للألمان تقريباً في عام ١٩٤٠ ولم يبدلوا آراءهم إلا عندما اكتشفوا حقيقة الألمان.

أنا لا أريد لأشخاص مثل بوشيو أن ينجو ويفلتوا من العقاب، وقد أعدم عدد قليل جداً من باعة الأوطان الخفيين منهم واحد أو اثنان من العرب أيضاً. وهذا العمل من الانتقام من الخونة ومن أسرى الأعداء بمجمله يطرح أسئلة استراتيجية وأخلاقية أيضاً. النقطة أنه لو أعدمنا عدداً كبيراً من الخونة والواشين الصغار الآن، فلن تبقى لدينا القابلية للتعامل مع الخونة الكبار حين يأتي الوقت. من الصعب التصديق أنه يمكن سحق الأنظمة الفاشية تماماً من دون قتل الأفراد المسؤولين بعدد من بضع مئات أو آلاف منهم حتى في كل بلد من البلدان، لكن يمكن أن يحدث وينجو كل الأشخاص المذنبين في النهاية، وذلك لأن الرأي العام ببساطة اشمأز مسبقاً من محاكمات مرائية زائفة وإعدامات وحشية بدم بارد.

وبالتالي هذا ما حدث في الحرب الأخيرة. من هو الشخص الذي كان حياً في تلك السنين ولا يتذكر الكره الجنوني للقيصر الذي ترعرع في هذه البلاد؟ وكان مثل هتلر في هذه الحرب، هو السبب لكل أمراضنا ومآسينا، ولم يشك أحد بأنه سيعدم حالما يلقون القبض عليه. وكان السؤال الوحيد بأي طريقة سيفعلون ذلك. وكتبت مقالات في المجلات عن الطرق المتنافسة لإعدامه، ودرست بعناية من غليه بالزيت أو سحله وتقطيعه إلى أرباع وخلع أطرافه على دولاب. وغصّت معارض الأكاديمية الملكية بالصور المجازية للسوقية التي لا تصدق التي تظهر القيصر مرمياً في الجحيم. وماذا نتج عنها في النهاية؟ اعتزل القيصر وانكفأ إلى هولندا، وعاش اثنين وعشرين سنة أخرى كواحد من أغنى رجال أوروبا (رغم أنه كان يحتضر من السرطان في عام ١٩١٥).

وهذا ما سيحدث لكل "مجرمي الحرب" أيضاً. بعد كل التهديدات والوعود التي أُطلقت، لم يُحاكم مجرمو الحرب: لأكون دقيقاً، جرت محاكمة دزينة من الأشخاص الذين حكم عليهم بالسجن، ثم أطلق سراحهم سريعاً. إن الفشل في سحق الطبقة العسكرية الألمانية، يعود طبعاً إلى السياسة المتعمدة لقادة الحلفاء الذين ارتعبوا من ثورة في ألمانيا، ساعد في جعلها ممكنة تغير مشاعر الناس العاديين الذين لم يعد يريدون الانتقام حين بات في مقدورهم ذلك. وباتت الأعمال الوحشية في بلجيكيا والآنسة كافيل وقباطنة الغواصة الذين أغرقوا سفن المسافرين من دون إنذار والذين نجوا من الرشاشات، كلها في طي النسيان. لقد قُتل عشرة ملايين رجل بريء، ولم يرغب أحد بأن يتبعهم بقتل بضعة آلاف من الأشخاص المذنبين.

إن كنا سنعدم الفاشين وخونة الوطن الذين يحدث أن يقعوا في أيدينا، ليس مهماً بحد ذاته، ولكن المهم ألا يكون الانتقام و"العقاب" قسماً من سياستنا أو من أحلام يقظتنا حتى. حالياً، إحدى الصور المهدئة من هذه الحرب، أن الكره في هذه البلاد كان ومازال قليلاً جداً، وليس هناك شيء من العنصرية غير المنطقية التي وجدت في المرة السابقة. فمثلاً، ليس هناك ذريعة وادعاء بأن لكل الألمان وجوه كوجوه الخنازير، كما لم تنتشر كلمة "هون" نفسها على نطاق شعبي حتى، ولم يتعرض الألمان الذين في هذه البلاد وأغلبهم لاجئون إلى أي معاملة سيئة، ولم يُضطهدوا ويُقمعوا بشكل خسيس كما حصل في المرة الماضية. في الحرب الماضية، كان التحدث إلى ألماني في الشارع شيئاً خطراً جداً، كما أغلق الغوغاء محلات أصحاب الأفران الصغيرة ومزيني الشعر الألمان البائسين، ولم تعد الموسيقى الألمانية مفضلة ومحبوبة، حتى أن سلالة الدهشند كادت تختفي، فلم يعد هناك أحد يريد امتلاك "كلب ألماني". وكان للموقف البريطاني الضعيف في الفترة المبكرة من إعادة التسلح الألماني، علاقة مباشرة بحماقات سنوات الحرب تلك.

إن الكره أساساً مستحيل للسياسة، والغريب تماماً أنه يمكن أن يؤدي إلى رقة مفرطة أو قسوة مفرطة بالتساوي. في حرب ١٩١٤-١٩١٨ جُهز الشعب البريطاني وعُبئ بشعور من الكره المسعور الشائن، وتغذى على أكاذيب منافية للعقل عن صلب أطفال بلجيكيين وعن مصانع ألمانية تحول الجثث فيها إلى سمن صناعي: ثم بعد ذلك وفور توقف الحرب، عانوا من نفور طبيعي كان الأقوى، لأن الجنود عادوا إلى الوطن كما يفعل الجنود عادة، بإعجاب قوي بالعدو.

كانت النتيجة رد فعل مؤيداً للألمان، بدأ في عام ١٩٢٠ واستمر إلى أن استولى هتلر على السلطة ومكّن نفسه. خلال تلك السنين كان كل الرأي "المستنير" (راجع عدد من الديلي هيرالد قبل عام ١٩٢٩ مثلاً) يعتبر من المسلم به أن ألمانيا لا تتحمل المسؤولية عن الحرب. وذهب كل من تريتشكي وبيرنهاردي والرابطة الجرمانية والأسطورة النوردية والتباهي الصريح بـ " دير تاغ" الذي كان الألمان يصنعونه منذ عام ١٩٠٠ وصاعداً- أدراج الرياح. لقد كانت معاهدة فرساي أكبر عمل شائن شهده العالم: بضعة أشخاص فقط سمعوا ببريست-ليتوفسك، وكان هذا كله ثمن عربدة السنوات الأربع تلك من الكذب والكره.

كل من حاول أن يوقظ الرأي العام أثناء سنوات العدوان الفاشي من عام ١٩٣٩ وما بعد، يعرف كيف ستكون نتائج دعاية الكره تلك. أصبح ينظر إلى الأعمال الوحشية كمرادف لكلمة "أكاذيب"، لكن القصص عن معسكرات الاعتقال الألمانية، كانت قصصاً وحشية: لذلك كانت أكاذيب -هكذا استنتج الرجل العادي. حاول اليساريون أن يفهموا الجمهور أن الفاشية رعب لا يوصف، وأنهم كانوا يقاتلون ضد دعايتهم في الخمس عشرة سنة الماضية.

لهذا السبب -رغم أنني لن أوفر مخلوقاً مثل بوشيو حتى لو استطعت- أنا لا أكون سعيداً عندما أرى محاكمات "مجرمي الحرب" وخصوصاً حين يكونون من المجرمين الصغار جداً، وحين يسمح للشهود بإلقاء خطابات سياسية ملتهبة، وأكون أقل سعادة حين أرى اليسار يضم نفسه إلى خطط تهدف إلى تقسيم ألمانيا وتجنيد ملايين الألمان في عصابات العمل القسري، وفرض تعويضات تجعل من تعويضات فرساي تبدو مثل ثمن تذكرة حافلة. كل هذه الأحلام الانتقامية مثل تلك في ١٩١٤-١٩١٨ سوف تجعل من الصعب وجود سياسة واقعية لفترة ما بعد الحرب. لو فكرت في شروط "جعل ألمانيا تدفع"، ستجد نفسك على الأرجح تمدح هتلر في عام ١٩٥٠ إن الذي يهم هو النتائج، وإحدى النتائج التي نريدها من هذه الحرب أن نكون مطمئنين وواثقين من أن ألمانيا لن تشن حرباً أخرى. لكنني لست متأكداً تماماً أيها أفضل: أن يحدث هذا وينجز بالقسوة أم بالكرم، لكنني متأكد تماماً أن كلاً منهما سيكون أصعب إن سمحنا لأنفسنا أن نتأثر بالكره.

التريبيون، ١٤ نيسان/ أبريل ١٩٤٤.

كرست صحيفة الكومنويلث عدة فقرات من عددها الصادر في شهر أبريل/ نيسان لمشكلة هبوط معدل الولادات في بريطانيا. إن الكثير مما قالته صحيح، لكنها أسقطت الملاحظات التالية:

أسرع العلماء بالإشارة إلى موانع الحمل وأخطاء التغذية وعدم الخصوبة والأنانية وانعدام الأمن الاقتصادي.. إلخ، كأسباب رئيسية للانحدار. لكن الوقائع لا تؤيدها. في ألمانيا النازية؛ حيث حبوب منع الحمل غير شرعية، وصل معدل الولادات إلى رقم قياسي في الانخفاض، بينما في الاتحاد السوفييتي؛ حيث لا توجد مثل هذه القيود والسكان صريحون وصادقون...... فإن التكاثر، كما ساعدت تجربة بيكام على إثباته، يُحفز في بيئة تميزها الألفة والتعاون...... حين تستعيد الحياة معناها وغرضها، تستمر عجلة التكاثر في الطنين، وتصبح الحياة مغامرة وتجربة مثيرة مرة أخرى بدلاً من كونها عبثاً، لن نسمع بعد اليوم بنقص في الأطفال.

ليس من المناسب للجمهور معاملة مواضيع هامة جداً بهذه الطريقة المتهورة. بداية: تستنتج من المقطع المذكور أعلاه أن هتلر خفض معدل الولادات في ألمانيا. على العكس لقد رفعه إلى مستويات غير مسبوقة أثناء جمهورية فيمار. قبل الحرب، كان المعدل فوق المستوى المكتمل لأول مرة في سنوات كثيرة. بدأ الهبوط الكارثي في معدل الولادات في ألمانيا في عام ١٩٤٢ وهذا يعود جزئياً كما يفترض إلى أن عدد كبير من الذكور الألمان كانوا بعيدين عن الوطن. الأرقام غير متاحة الآن، لكن معدل الولادات في روسيا هبط أيضاً بالتأكيد في الفترة نفسها.

وسوف تستنتج أيضاً أن تاريخ معدل الولادات العالي في روسيا يعود إلى بداية الثورة، لكنه كان مرتفعاً في زمن القياصرة أيضاً. وليس هناك ذكر أيضاً للبلدان التي معدل الولادات فيها بأقصى مستوياته كالهند والصين واليابان (التي خلفهما بقليل). هل من الصائب القول إن حياة الفلاح الهندي "مغامرة وتجربة مثيرة وليست عبثاً"؟

الشيء الوحيد الذي يمكن قوله بدرجة شبه كاملة من اليقين حول هذا الموضوع، إن معدل الولادات المرتفع يتماشى مع مستوى عيش منخفض، والعكس صحيح. وإن كانت هناك استثناءات حقيقية، فهي قليلة جداً، وإلا فإن القضية معقدة جداً. من الهام والحاسم أن

نتعلم عن الموضوع أقصى ما نستطيع، لأنه سيكون هناك هبوط كارثي في عدد سكاننا إذا لم ينعكس الاتجاه الحالي في غضون عشرين سنة كحد أقصى. لا يجب أن نفترض كما يفعل بعض الناس، أن هذا مستحيل، لأن مثل هذه التغيرات في الاتجاه والنزعة حدثت من قبل. يثبت الخبراء الآن أن عدد سكاننا سيكون بضعة ملايين في نهاية هذا القرن، لكنهم أثبتوا أيضاً في عام ١٨٧٠ أننا في عام ١٩٤٠ سيكون عدد السكان ١٠٠ مليون نسمة. لكي نصل إلى مستوى الاكتمال مرة أخرى، يجب ألا يأخذ معدل ولادتنا مثل هذه التقلبات الصاعدة المثيرة كمعدل الولادات التركية مثلاً، بعد أن استولى مصطفى كمال على السلطة. لكن الضرورة الأولى أن نكتشف سبب هبوط وارتفاع عدد السكان، وأن الادعاء بأن معدل الولادات المرتفع هو منتج جانبي للاشتراكية، افتراض يجافي العلم تماماً مثل القبول بكل ما يقوله القساوسة الرومان الكاثوليك الذين لا أولاد لديهم، حول هذا الموضع.

حين قرأت الأحداث في مجلس العموم الأسبوع قبل الماضي، تذكرتُ حادثة صغيرة شهدتها بعيني منذ أكثر من عشرين سنة.

كانت مباراة كريكت في قرية. كابتن الطرف الأول كان إقطاعياً محلياً، وبالإضافة إلى كونه غنياً جداً كان تافهاً وطفولياً، بدا له الفوز بهذه المباراة أمراً هاماً جداً. كان كل الذين يلعبون في صفه تقريباً من المستأجرين عنده. كان فريق الإقطاعي خاسراً، وكان هو نفسه خارج اللعب ويجلس في الخيمة. صدفة ضرب أحد اللاعبين ويكته (ثلاث عصي تعتبر هدفاً) بنفس الوقت الذي دخلت فيه الكرة في يدي حارس الويكت. "ذلك لم يخرج" قال الإقطاعي فوراً، وتابع التحدث مع الشخص الذي بجانبه. قرر الحكم أنه "خرج"، وكان اللاعب في وسط طريقه عائداً إلى الخيمة قبل أن يدرك الإقطاعي ما كان يحدث. لكنه فجأة لمح اللاعب العائد، فتلون وجهه بظلال كثيرة حمراء.

"ماذا!" صاح "لقد أعطاه الخروج؟ هراء! طبعاً هو لم يخرج!". ثم وقف بعد ذلك وصرّ قبضته وصرخ بالحكم: "مرحباً، لماذا أعطيت ذلك الرجل الخروج؟ هو لم يخرج أبداً!"

توقف لاعب الكرة. تردد الحكم، ثم استدعى ضارب الكرة إلى الويكت، واستمر اللعب.

كنت مجرد ولد في ذلك الوقت، وبدا هذا الحادث أكثر شيء صادم رأيته في حياتي. لكن الآن وبعد أن تقسينا كثيراً مع مرور الوقت، سيكون رد فعلي مجرد سؤال إن كان الحكم من مستأجري الإقطاعي أيضاً.

في هجوم علي وعلى السيد سي ايه سميث في مالفيرن تورش، بسبب ملاحظات متنوعة عن الدين المسيحي، تأجج السيد سيدني دارك غضباً لأنني قلت إن الاعتقاد في الخلود الشخصي أصابه البلاء والعفن، وقال: "أنا أراهن لو أن غالوب أجرى استفتاء للرأي، فسيعترف خمسة وسبعون بالمئة (من سكان بريطانيا) باعتقاد غامض في البقاء". وفي مكان آخر وخلال نفس الأسبوع، جعلها السيد دارك خمس وثمانين بالمئة.

اكتشفت أنه من النادر جداً الآن أن تلتقي بأحد مهما كانت خلفيته، ويعترف باعتقاده في الخلود الشخصي. ومع ذلك مازلت أعتقد أنك لو سألت كل واحد هذا السؤال ووضعت قلماً وورقة بيديه، لقبل عدد كبير (أنا لست حراً جداً مع نسبتي المئوية مثل السيد دارك) بإمكانية أن يكون هناك "شيء بعد الموت". إن النقطة التي يفقدها السيد دارك، تكمن في أن الاعتقاد لم تعد له الواقعية التي كانت لدى أجدادنا، وأنا لم أقابل أحداً أبداً أعطاني الانطباع في إيمانه بالعالم الآخر بقوة كإيمانه بوجود أستراليا مثلاً. إن الإيمان بالعالم الآخر، لا يؤثر على السلوك، كما كان له أن يفعل لو كان حقيقياً. كم ستبدو حياتنا تافهة في ذلك الوجود اللانهائي بعد الموت الذي نتطلع إليه! أغلب المسيحيين يعترفون بإيمانهم بجهنم، لكن هل قابلت قط مسيحياً بدا خائفاً من جهنم كما يخاف من مرض السرطان؟ حتى المسيحيون الورعون جداً سيسخرون من جهنم، لكنهم لا يسخرون من الجذام أو من طياري آر أي إف (القوة الجوية الملكية) بوجوههم المحترقة: الموضوع مؤلم جداً. هنا تقفز في ذهني قصيدة صغيرة من ثمانية أبيات للراحل جي كي تشيسترتون:

ما يدعو للأسف أن بوبا باع روحه

التي جعلته يئز من الاحتراق عند الإفطار

النقود كانت مفيدة ولا تزال كذلك عموماً

ما يدعو للأسف أن بويا باع روحه

حين كان عليه أن يتماسك ويواصل مثل البارون ديك ول

ولا يرحل بسرعة حين كان الثمن متدنياً

ما يدعو للأسف أن بويا باع روحه

التي جعلته يئز من الاحتراق عند الإفطار.

ليت تشيسترتون ككاثوليكي قال إنه يؤمن بجهنم. لو كان جاره احترق حتى الموت، لما كتب قصيدة ساخرة عنه، لكنه استطاع أن يسخر من شخص يئز ويتقلى منذ ملايين السنين. أقول إن هكذا إيمان ليس له واقعية، وأنه عملة زائفة مثل النقود في بنوك بتلر الموسيقية.

٢١ أبريل/ نيسان

في رسالة نشرت هذا الأسبوع في التريبيون، هاجمني أحدهم بعنف لأنني قلت إن البي بي سي مصدر أنباء أفضل من الصحف اليومية، ولهذا تحترم من قبل الجمهور. ولمح قائلاً بأنني لم أسمع أبداً العمال العاديين يصيحون "أخرِس ذلك المغفل!" حين تقدم نشرة الأخبار.

على العكس، لقد سمعت هذا كثيراً ورأيت أكثر زبائن الحانة يواصلون اللعب ورمي سهامهم والاستماع إلى موسيقاهم وغيره من دون أي تخفيف للضجيج، حين تبدأ نشرة الأخبار. لم أدعِ أن كل شخص يحب البي بي سي أو يرى أنها ممتعة أو ناضجة أو ديمقراطية أو تقدمية. لقد قلت إن الناس يعتبرونها مصدراً دقيقاً وصحيحاً نسبياً للأخبار. لقد عرفت مراراً أشخاصاً حين يرون بعض الشكوك في خبر من الأخبار، ينتظرون تأكيده من الراديو قبل تصديقه، كما أن عمليات المسح الاجتماعي تبين الشيء نفسه -أي أن احترام الصحف الإخبارية انحدر مقارنة بالراديو.

وأنا أكرر ما قلته آنفاً من خلال تجربتي مع البي بي سي، إنها صادقة نسبياً، والأهم أن لها موقفاً مسؤولاً تجاه الأخبار، ولا تنشر الأكاذيب لمجرد أنها "حافلة بالأخبار". إن التصريحات الكاذبة تبث طبعاً، وأي شخص يستطيع تقديم الأمثلة على ذلك. لكن في أغلب الحالات هذا يعود إلى خطأ أصلي وخطايا البي بي سي في تجنب أي شيء خلافي أكثر بكثير من خطايا الدعاية المباشرة. وأخيراً- نقطة هامة لم يذكرها صاحب الرسالة- سمعتها الخارجية

عالية بالمقارنة. اسأل أي لاجئ من أوروبا أي عن الإذاعة الأكثر صدقاً من الإذاعات المتحاربة وفي آسيا كذلك وحتى في الهند، حيث السكان عدائيين جداً ولا يستمعون إلى الدعاية البريطانية، وقلما يصغون إلى برنامج تسلية بريطاني، يستمعون إلى أخبار البي بي سي، لأنهم يعتقدون أنها تداني الحقيقة.

حتى لو مررت البي بي سي الأكاذيب البريطانية الرسمية، فهي تبذل بعض الجهد لتغربل الأكاذيب الأخرى. أغلب الصحف مثلاً استمرت في النشر من دون أي تساؤل بخصوص تصديق المزاعم الأمريكية بإغراق الأسطول الياباني بأكمله مرات كثيرة. البي بي سي على حد علمي، كشفت عن موقف مبكر من الشك تجاه هذا وتجاه مصادر غير موثوقة معينة أخرى. في أكثر من مرة، عرفت جريدة تنشر نبأ- وأخبار غير سارة لبريطانيا- من دون أي مرجع آخر أكثر من الإذاعة الألمانية، لأنه "خبر حافل بالأحداث" ويدر الكثير من المكاسب.

إن رأيت شيئاً كاذباً بشكل واضح في صحيفة وهاتفتهم لتسأل "من أين حصلتم على هذا الخبر؟" سوف تصرف عادة بالصيغة التالية: "أخشى أن السيد فلان ليس في المكتب". لو ألححتَ، ستجد أن الخبر بلا أساس، لكنه يبدو خبراً جيداً. وحين يتعلق الأمر بالتشهير يندهش الصحفي العادي ويملأه الازدراء إن اهتم أي شخص بدقة وصحة الأسماء والتواريخ والأرقام والتفاصيل الأخرى. إن أي صحافي يومي يخبرك أن واحداً من أهم أسرار مهنته، هو الخدعة بجعل الأمر يبدو أن هناك خبراً حين لا يكون هناك خبر.

من غير الممكن أن يحدث ويكون الرومانسيون من النوع الأكثر تطرفاً وعاطفية، لا ينتمون إلى الأمة التي يبجلونها. القادة الذين أسسوا جاذبيتهم على الحزب أو أرض الأجداد، كانوا أجانب بالكامل أو أتوا من بلدان محاذية من إمبراطوريات عظمى. أمثلة جلية على ذلك أن هتلر نمساوي ونابليون كورسيكي. لكن هناك آخرين كثيرين غيرهما. الرجل الذي يمكن القول إنه مؤسس الوطنية البريطانية المغالى بها كان ديزرائيلي وهو يهودي إسباني، واللورد بيفربروك الذي حاول حث الإنكليز المعارضين أن يصفوا أنفسهم بريطانيين هو من أصل كندي. لقد شيدت الإمبراطورية البريطانية إلى حد كبير بأيدي الرجال الايرلنديين والاسكتلنديين وأشد قوميينا عناداً وأغلب إمبرياليينا من الالستريين (ايرلندا الشمالية). حتى تشرشل النصير الملهم للوطنية الرومانتيكية في عصرنا نصف أمريكي. ليس رجال الحرب

فقط، وإنما منظرو القومية أيضاً جلهم أجانب. الرابطة الجرمانية مثلاً التي أخذ منها النازيون الكثير من أفكارهم، كان جلّها من نتاج رجال ليسوا ألماناً: مثلاً هاوستون تشامبرلاين إنكليزي وغوبيناو فرنسي. روديارد كيبلينغ كان إنكليزياً، لكن من النوع المشكوك فيه. انحدر من خلفية أنغلوهندية غير عادية (والده القيم على متحف بومباي) قضى طفولته المبكرة في الهند وكان ذا قامة صغيرة وبشرة داكنة سببت له شكوكاً مغلوطة عن امتلاكه لدم آسيوي. قلت دائماً لو كان لدينا هتلر في هذه البلاد، فسيكون ايرلندياً شمالياً، أو من جنوب أفريقيا أو مالطياً أو أوراسياً أو أمريكياً -لكن ليس إنكليزياً في كل الأحوال.

في نهاية شهر مايو/ أيار من عام ١٩٤٠، منعت ملصقات معينة لتوفير الورق، لكن عدد من الصحف استمر في عرض ملصقات لبعض الوقت بعد ذلك. عند الاستعلام، وجد أن هذه الصحف كانت تبيع الملصقات القديمة، وتمكنت من استخدام عناوين مثل "فرق من البانزر عادت بسرعة" و"الجيش الفرنسي صامد بقوة" مرة تلو الأخرى. بعد ذلك أتت الفترة التي زوّد باعة الورق ملصقاتهم بلوح وقطعة طبشور وفي أيديهم أصبح الملصق شيئاً صادقاً وواقعياً. إنه يدل على شيء موجود فعلياً في الصحيفة التي سوف تشتريها، وعادة ينتقي الأخبار الحقيقية وليس قطعة هراء حسي مثير. باعة الورق الذين لم يعرفوا عادة أي طريق يذهب حول العاصمة، ليس لديهم فكرة عن ماهية الخبر وعن إحساسهم بالمسؤولية نحو الجمهور أفضل من أصحاب عملهم المليونيرين.

يعتبر مراسلنا أن الجمهور والصحفيين وليس الملاكين هم من يجب أن يلاموا عن سخف الصحف الإنكليزية. وهو يقول ضمناً إنك لا تستطيع أن تصنع صحيفة ذكية تربح، لأن الجمهور يريد شيئاً تافهاً. أنا لست متأكداً إن كان الأمر هكذا. في الوقت الحالي أغلب التوافه تتلاشى وكم توزيع الصحف لم ينحدر. لكني أوافق -وأنا قلت هكذا- أن الصحفيين يقتسمون الملامة. لقد عمل الصحفيون بشكل كبير وبعيون مفتوحة على السماح لمهنتهم أن تكون مهينة، بينما إلقاء اللوم على شخص مثل نورثكليف لأنه يريد ربح المال بأسرع طريقة، هو مثل إلقاء اللوم على حيوان الظربان بسبب رائحته النتنة.

أحد ألغاز اللغة الإنكليزية، هو لماذا تستعير كلمات وعبارات أجنبية دائماً رغم امتلاكها لأكبر عدد من المفردات في الوجود. أين المغزى مثلاً في قول طريق مسدود باللغة الفرنسية، حين تقصد نفس العبارة الموجودة باللغة الإنكليزية؟ عبارات فرنسية أخرى غير ضرورية نهائياً مثل سعادة العيش وحب الذات وجهاً لوجه. هناك العشرات منها. استعارات غير ضرورية أخرى تأتي من اللاتينية (لكن توجد اختصارات مفيدة كاختصار أي ومثلاً) ومنذ الحرب ابتلينا بوباء الكلمات الألمانية مثل مجال حيوي ونظرة عالمية وفرقة دبابات بانزر وغيرها، التي ترمى هنا وهناك بحرية كبيرة. في كل حالة هناك مرادف إنكليزي مسبقاً موجود أو يمكن ارتجاله بسهولة. هناك أيضاً ميل لاغتنام عبارات عامية أمريكية من دون فهم معانيها كتعبير "نزع لحاء الشجرة الخطأ" مثلاً الذي يستخدم على نطاق واسع، لكن الاستعلام يبين أن أغلب الناس لا يعرفون مصدره ولا ماذا يعني بالضبط.

أحياناً من الضروري استعارة كلمة أجنبية، لكن في تلك الحالة يجب أن نجعل لفظها إنكليزياً، كما اعتاد أجدادنا أن يفعلوا، لأنه ما الحكمة في تلويث كلامنا بشظايا من ألفاظ أجنبية مزعجة جداً لكل واحد لم يتعلم تلك اللغة بالذات؟

ولماذا لا يستخدم أغلبنا كلمة ذات أصل إنكليزي إن استطعنا إيجاد كلمة إغريقية مصنعة؟ يرى المرء مثالاً جيداً عن هذا، فيما الاختفاء السريع لأسماء الزهور الإنكليزية. وهناك أسماء أخرى تختفي لصالح أسماء إغريقية لا لون لها من كتب علم النبات المدرسية. من الأفضل ألا نستمر طويلاً جداً في هذا الموضوع، لأنني آخر مرة ذكرت فيها الزهور في هذا العمود، كتبتْ لي سيدة ناقمة قائلة إن الزهور برجوازية. لكن لا أظن أنه نذير خير لمستقبل اللغة الإنكليزية أن "ماريغولد - القطيفة" يجب أن تسقط لصالح "كاليندولا"، و"شيدار بينك- قرنفل" الصغير السائغ يخسر اسمه ويصبح مجرد "دايانثوس كاسيوس".

التريبيون ٢٨ نيسان/ أبريل ١٩٤٤

في ليلة من عام ١٩٤٠ حين أطلق وابل من نيران المدفعية المضادة للطيران فوق لندن لأول مرة، كنت في ساحة البيكاديلي حين فتحت المدافع أفواهها، فهربت إلى داخل مقهى والتجأت فيه. بين الحشد في الداخل، شاب وسيم وأنيق في الخامسة والعشرين من عمره تقريباً، وكان

يقوم ببعض الإزعاج بنسخة من بيس نيوز بفرضها على انتباه كل واحد في الطاولات المجاورة. تبادلت الحديث معه، وسارت المحادثة على هذا الشكل:

الشاب: أقول لك سوف تنتهي قبل حلول عيد الميلاد، وستتم تسوية سلمية كما هو واضح. أنا أعلق إيماني بالسير صامويل هور. أعترف أن صحبته مهينة، لكن يظل هور إلى جانبنا. طالما هور في مدريد، يظل هناك أمل في الخيانة دائماً.

أورويل: ماذا عن تلك التحضيرات التي تجري ضد الغزو- المعاقل الصغيرة التي يبنيها في كل مكان متطوعو الدفاع المحلي وهلم جرا؟

الشاب: أوه، ذلك يعني أنهم يستعدون لتحطيم الطبقة العاملة حين يصل الألمان إلى هنا. أعتقد أن البعض منهم قد يكونون حمقى جداً، ويحاولون المقاومة، لكن تشرشل والألمان لن يطول الأمر بينهما حتى يسووا أمرهم. لا تقلق ستنتهي الأمور قريباً.

أورويل: هل تريد حقيقة أن ترى أطفالك يتربون كنازيين؟

الشاب: هراء! هل تعتقد أن الألمان سيشجعون الفاشية في هذه البلاد؟ هم لا يريدون أن ينتجوا سلالة من المحاربين تقاتل ضدهم. سيكون الهدف تحويلهم إلى عبيد، لهذا السبب أنا سلامي- أرفض حمل السلاح. سيشجعون أناساً مثلي.

أورويل: ويطلقون النار على أناس مثلي؟

الشاب: سيكون ذلك سيئاً جداً.

أورويل: لكن لماذا أنت تواق جداً لتبقى حياً؟

الشاب: لكي أستطيع الاستمرار والتقدم في عملي طبعاً.

تبين من المحادثة أن الشاب كان رساماً -إن كان ذلك جيداً أو سيئاً، فأنا لا أعرف، لكن في كل الأحوال هو مهتم بإخلاص في الرسم ومستعد تماماً لمواجهة الفقر في السعي وراءه. ربما يكون الرسام أفضل مما يكونه الكاتب أو الصحفي تحت احتلال ألماني، لكن يظل ما قاله يحتوي على فكرة خاطئة خطيرة جداً، تنتشر كثيراً الآن في البلدان التي لم تتوطد الديكتاتورية فيها.

إن الاعتقاد بأنك تستطيع أن تكون حراً من داخلك تحت حكومة ديكتاتورية، هي فكرة خاطئة ووهم، وهناك عدد كبير من الناس يواسون أنفسهم بهذه الفكرة، بعد أن ترقت

الديكتاتورية وتعززت بشكل واضح في كل جزء من العالم. في الخارج في الشوارع تجأر مكبرات الصوت وترفرف الأعلام من أسطح البيوت، ويطوف رجال الأمن ببنادقهم الرشاشة في الشوارع ذهاباً وإياباً، ويطلّ وجه القائد بعرض أربعة أقدام من كل لوحة إعلانات جدارية ضخمة. لكن في العليات يستطيع أعداء نظام الحكم السريين تسجيل أفكارهم بحرية تامة -تلك هي الفكرة تقريباً، ويعتقد كثير من الناس بسبب هذه الفكرة الغامضة، أن هذا هو ما يحدث في ألمانيا وفي البلدان الديكتاتورية الأخرى الآن.

لماذا هذه الفكرة فكرة زائفة؟ أنا سأتجاهل حقيقة أن الديكتاتوريات الحديثة لن تترك المنافذ التي تركتها الحكومات الاستبدادية المطلقة من الطراز القديم، بالإضافة إلى إضعاف الرغبة في الحرية الفكرية بسبب الأساليب الاستبدادية في التربية. إن الخطأ الأكبر، هو التخيل بأن الكائن البشري فرد مستقل بذاته. إن الحرية السرية التي تستطيع الاستمتاع بها في تصورك في ظل حكومة استبدادية، مجرد هراء، لأن أفكارنا ليست خاصتنا تماماً. إن الفلاسفة والكتاب والفنانين وحتى العلماء، لا يحتاجون إلى تشجيع وجمهور فقط، وإنما إلى تحفيز مستمر وثابت من الناس الآخرين. من شبه المستحيل أن تفكر من دون حديث. لو عاش ديفو في جزيرة مهجورة لما استطاع أن يكتب روبنسون كروزو، ولا رغب في فعل ذلك حقيقة. احذف الحرية من الكلام، لتجد أن القدرات الإبداعية قد جفت. لو وصل الألمان إلى إنكلترا فعلاً، لوجد رفيقي في مقهى الرويال أن رسمه سيتلف قريباً حتى لو تركه الجستابو بحاله. وحين يُرفع الغطاء عن أوروبا، أعتقد أن أحد الأشياء التي ستفاجئنا، هو اكتشافنا هي درجة تفاهة الكتابة من أي نوع- حتى أشياء مثل المذكرات- التي ستنتج في السر تحت ظل الحكام المطلقين.

سمح السيد باسيل أنريكو، رئيس محكمة لندن الشرقية للأحداث، لنفسه بالتعليق على موضوع الفتاة العصرية، وقال إن الصبيان الإنكليز "ممتازون ورائعون"، لكن الأمر مختلف مع الفتيات:

نادراً ما يصادف المرء صبياً سيئاً حقيقياً. يبدو أن الحرب أثرت على الفتيات أكثر من الصبيان....... يذهب الأطفال (الصبيان والبنات-المترجم) إلى السينما الآن عدة مرات في الأسبوع الواحد، ويرون ما يتخيلون أنه الحياة البهيجة الأمريكية، بينما هو في الواقع طعن

وتشهير على تلك البلاد. هم أيضاً يعانون من آثار الاستماع عبر الميكروفون إلى الضجيج الأجش الراقص الذي يسمى موسيقى...... الفتيات بعمر الرابعة عشرة يلبسن ويتحدثن مثل الفتيات اللواتي في الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، ويضعن نفس القذارة والوحل على وجوههن.

أتساءل إن كان السيد إنريكو يعرف (أ) أنه من قبل الحرب كان من المعتاد نسب جريمة الحدث إلى الأنموذج الشرير في الفن السينمائي، و(باء) أن الفتاة العصرية هي نفسها تماماً منذ ألفي سنة؟

إحدى أكبر حالات الفشل في التاريخ الإنساني، كانت المحاولة الأبدية لمنع النساء من طلي وجوهن بمواد الزينة والأصباغ. شجب فلاسفة الإمبراطورية الرومانية تفاهة المرأة العصرية بنفس العبارات تقريباً التي تُشجب بها اليوم. في القرن الخامس عشر شجبت الكنيسة العادة الملعونة في نتف حواجب العيون. البوريتان الإنكليز والبلاشفة والنازيون كلهم حاولوا أن يعيقوا مستحضرات التجميل من دون أن ينجحوا. في إنكلترا في العصر الفيكتوري، اعتبرت الحمرة شيئاً شائناً، لذلك كانت تباع تحت اسم آخر، لكن ظلت تستخدم.

شُجبت أنماط كثيرة من الكساء من فستان طوق الرقبة المكشكش في العصر الإليزابيثي، إلى تنورة العصر الإدواردي الضيقة، من منابر الوعظ في الكنائس من دون نتيجة. في عشرينات القرن العشرين حين كانت التنانير بأقصر شكل لها، أصدر البابا مرسوماً يمنع دخول النساء اللابسات بشكل غير محتشم إلى الكنائس الكاثوليكية، لكن الأزياء النسائية ظلت ولم تتأثر بذلك. عرضت "المرأة المثالية" في نظر هتلر: أنموذج مبسط جداً في معطف واقٍ من المطر في كل أرجاء ألمانيا وكثير من أجزاء العالم الأخرى، لكنها لم تلهم سوى القليل جداً من المقلدات. أنا أتكهن أن الفتيات الإنكليزيات سوف يستمرنّ في "وضع القذارة والوحل على وجوههن" رغم أنف السيد إنريكو. حتى في السجون كما قيل إن السجينات يحمرن شفاههن بصبغة يستخرجنها من مغلفات مكتب البريد التي توضع فيها الرسائل.

لكن لماذا تستخدم النساء مواد التجميل، هي مسألة مختلفة. لكن يبدو لي الأمر مشكوكاً به إن كانت الجاذبية الجنسية هي الهدف الرئيسي. من غير المعتاد أن تقابل رجلاً لا يعتبر طلاء أظافر الأصابع باللون الأحمر عادة مقززة، لكن مئات آلاف النساء يستمرن في فعلها رغم

ذلك. في الوقت الحالي قد يواسي السيد إنريكو أن يعرف رغم أن المكياج يستمر ويواصل، وأنه أقل اتساعاً وإتقاناً مما كان عليه في الأيام التي كانت فيه الجميلات الفكتوريات "يطلين" وجوهن بالمينا، أو حين كان من العادي تبديل شكل ومحيط الخدود بواسطة "السمكريين"، كما وصفت ذلك قصيدة سويفت "عن حورية جميلة شابة تستعد للنوم".

التريبيون ٥ أيار/ مايو ١٩٤٤.

لكل من يريد أن يضحك جيداً، أنصحه بكتاب نشر منذ عشر سنوات، لم أنجح في الحصول عليه إلا مؤخراً؛ إنه كتاب النقد العملي لآي ايه ريتشاردز.

يصف الكتاب تجربة قام بها مع أو ربما يجب أن يقول على طلابه الإنكليز في كامبريدج، رغم أن غالبه مهتم بالمبادئ العامة للنقد الأدبي. شارك في التجربة متطوعون متنوعون، ليسوا طلاباً في الواقع، وإنما من المهتمين بالأدب الإنكليزي. قُدمت لهم ثلاث عشرة قصيدة، وطُلب منهم انتقادها من دون أن يكشف عن مؤلفي القصائد، ولم تكن معروفة جيداً بما يكفي لتمييزها بنظرة من قبل القارئ العادي. لذلك أمامك عينات من النقد الأدبي لم يصعبها ويعقدها التكبر العادي.

يجب ألا يترفع المرء جداً، ولا حاجة لأن يكون كذلك، لأن الكتاب مرتب جداً لدرجة يمكنك تطبيق التجربة لوحدك. القصائد غير موقعة، وكلها من نهايتها، وأسماء المؤلفين في صفحة مطوية يجب ألا تنظر إليها إلا فيما بعد. سأقول إنني لم أحدد فوراً سوى اثنين من مؤلفي القصائد، أحدهما كنت أعرفه مسبقاً، ولكني ارتكبت خطأين شنيعين، رغم أني حددت تاريخ أغلب القصائد المتبقية ضمن بضعة عقود. في الحالة الأولى نسبت لشيلي قصيدة كتبت في عشرينيات القرن العشرين. لكن تظل بعض من التعليقات المسجلة بقلم ريتشاردز مذهلة، فهي تبين أن كثيراً من الناس الذين يصفون أنفسهم عشاقاً للشعر، ليس لديهم أية فكرة للتمييز بين قصيدة جيدة وأخرى رديئة، أكثر مما لدى كلب عن علم الحساب.

مثلاً، نالت قطعة من الكلام المنمق الطنان المزور تماماً بقلم ألفريد نويس، الكثير من المديح، وقارنه أحد النقاد بكيتس. وحظيت قصيدة غنائية وجدانية من قوافٍ خشنة من قسيس، لوودباين ويلي بتعليق جيد من الصحافة. لكن من جانب آخر، لاقت سونيتة لجون

دون قبولاً بارداً. لم يدون ريتشاردز سوى ثلاثة انتقادات محببة وعشرة انتقادات باردة أو معادية. قال أحد الكتاب بازدراء إن القصيدة "يمكن أن تكون ترتيلة جيدة"، بينما لاحظ آخر "لا أستطيع أن أجد أي رد فعل آخر سوى الاشمئزاز" كان جون دون في ذلك الوقت في أوج شهرته، ولاشك أن أغلب الناس الذين شاركوا بهذه التجربة، كانوا يخرون على وجوههم عند ذكر اسمه. قصيدة دي إتش لورانس "البيانو" نالت الكثير من السخرية، رغم أنها امتدحت من قبل أقلية. وهكذا أيضاً مع قصيدة قصيرة لجيرارد مانلي هوبكينز، قال عنها أحد الكتاب "أسوأ قصيدة قرأتها في حياتي"، بينما نقدها كاتب آخر بعبارة بيش-بوش (صوت يعبر عن الازدراء- المترجم).

على أي حال، قبل لوم هؤلاء الطلاب الشباب على حكمهم الرديء، لنتذكر أنه حين ينشر أحد مدونة للقرن التاسع عشر ليست مزيفة بشكل مقنع، كان الناقد الكهل السير إدموند غوس وقيّم مكتبة مجلس اللوردات، ينخدع بها على الفور. وهناك أيضاً قضية نقاد الفن الباريسيين، نسيت من أي مدرسة، الذين عبروا بحماس عن بهجتهم بلوحة، اكتشف فيما بعد أنها رسمت بواسطة حمار ربطت بذيله فرشاة رسم.

تحت عنوان "**نحن نهلك الطيور التي تنقذنا**"، لاحظت نيوز كرونيكل أن "الطيور المفيدة تعاني من الجهل الإنساني. هناك اضطهاد أحمق للكيسترل (نوع من الصقور) وبومة مخازن الحبوب. أفضل جنسين من الطيور المفيدة لنا"

لسوء الحظ أنه ليس بسبب الجهل حتى، تقتل أغلب الطيور الجارحة من أجل عدو إنكلترا طائر التدرج. بخلاف الحجل، التدرج لا يزدهر في إنكلترا، بالإضافة إلى الغابات المهملة وقوانين الصيد الشريرة المسؤولة عنها كل الطيور والحيوانات، التي يشك بأنها تأكل بيضه أو أفراخه تزال تماماً بشكل منظم. قبل الحرب، قرب قريتي في هيرتفوردشير، كنت أمرّ بسياج طويل؛ حيث يحتفظ حارس طرائد بحافظة اللحوم خاصته. تتدلى من الأسلاك جثث القواقم وابن عرس والجرذان والقنافذ وأبو زريق والبوم والصقور، وكلها مخلوقات مفيدة للزراعة. القاقم يبعد الأرانب، وابن عرس يأكل الفئران، وكذلك تفعل الصقور والبواشق، والبوم يأكل الفئران والجرذان أيضاً. لقد أحصي أن بوم المخازن يبيد ما بين ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠

جرذ وفأر في السنة، ومع ذلك تقتل من أجل طير غير نافع وصفه روديارد كيبلينغ بشكل صحيح "لورد الكثيرين في كل مقاطعة".

التريبيون ١٢ أيار/ مايو ١٩٤٤

بعد قراءة كمية من الكتب "التقدمية" المتفائلة قليلاً، فوجئت بالطريقة الآلية التي يستمر الناس فيها بتكرار عبارات محددة درجت قبل عام ١٩١٤. العبارتان المفضلتان جداً هما "إلغاء المسافة" و"اختفاء الحدود"، ولا أعرف كم مرة رأيت العبارات "الطائرة والراديو ألغيا المسافة" و"كل أجزاء العالم الآن تعتمد على بعضها البعض".

إن أثر الاختراعات الحديثة زاد من النزعة القومية فعلياً، ما جعل السفر أصعب بكثير، وقلص وسائط التواصل بين بلاد والبلدان الأخرى، وجعل أجزاء العالم أقل اعتماداً على بعضها، وليس أكثر في الغذاء والبضائع المصنعة. هذا ليس نتيجة للحرب، فالميول نفسها كانت تعمل عملها منذ عام ١٩١٨ لكنها تكثفت بعد الكساد العالمي.

لنأخذ السفر فقط كمثال. في القرن التاسع عشر، لم يكن هناك أي قيود على السفر تقريباً، على الرغم من أن بعض من أجزاء العالم لم تكتشف، وإلى عام ١٩١٤ لم تكن بحاجة إلى جواز سفر للسفر إلى أي بلاد ما عدا روسيا. المهاجر الأوروبي الذي يستطيع توفير بضع جنيهات للرحلة، يبحر ببساطة إلى أمريكا أو أستراليا، وحين يصل لا يتعرض لأي سؤال. وفي القرن الثامن عشر، كان من العادي تماماً والآمن السفر إلى بلاد هي في حالة حرب مع بلادك.

لكن في زمننا، أصبح السفر أصعب بشكل ثابت. إعداد قائمة بالأجزاء التي يتعذر الوصول إليها من العالم قبل أن تنشب الحرب، هو عمل جدير بالتعب.

أولاً وقبل كل شيء، كل آسيا الوسطى، آسيا السوفييتية، لم يدخلها أي أجنبي في السنوات الكثيرة الماضية، باستثناء قلة قليلة من الشيوعيين الموثوقين. والتيبت بلاد مغلقة منذ عام ١٩١٢ بفضل الحسد الأنغلوروسي، وسينكيانغ التي هي نظرياً جزء من الصين، كان الوصول إليها متعذراً بالمثل. كل الإمبراطورية اليابانية باستثناء اليابان نفسها، كانت مسدودة أمام الأجانب عملياً. حتى الهند أصبحت غير متاحة منذ ١٩١٨ جوازات السفر تُرفض حتى للرعايا البريطانيين - وأحياناً للهنود أيضاً.

حتى في أوروبا كانت قيود السفر تضيق. من الصعب جداً أن تدخل إلى بريطانيا إلا لزيارة قصيرة، كما اكتشف الكثير من اللاجئين البائسين المعادين للفاشية. التأشيرات إلى الاتحاد السوفييتي تصدر بشكل شحيح منذ عام ١٩٣٥ وما بعد. كل البلدان الفاشية مسدودة أمام كل من له سجل معادٍ للفاشية. مناطق مختلفة لا يمكن عبورها إلا إذا تعهدت بألا تخرج من القطار. الحدود كلها مطوقة بالأسلاك الشائكة والبنادق الآلية والخفراء الجوالين الذين يضعون أقنعة الغاز غالباً.

لقد جفت الهجرة منذ القرن التاسع عشر عملياً. بذلت كل بلدان لعالم الجديد أقصى جهدها لمنع المهاجر من الدخول إلا إذا جلب مبالغ محترمة من المال معه. توقفت الهجرة اليابانية والصينية إلى الأمريكيتين تماماً. أُجبر يهود أوروبا على البقاء ليذبحوا، لأنهم لم يجدوا مكاناً يذهبون إليه، بينما في حالة مذابح القيصر قبل أربعين سنة، كانوا قادرين على الفرار في كل الاتجاهات. في وجه هذا كله أشعر بالإحباط والخيبة حين يقول أي أحد إن وسائل السفر الحديثة عززت التواصل بين البلدان المختلفة.

التواصل الفكري تناقص أيضاً منذ زمن طويل. القول إن الراديو وضع الناس على اتصال مع البلدان الأجنبية، غير منطقي وهراء، وإن فعل شيئاً فهو العكس. ليس هناك شخص عادي يستمع إلى إذاعة أجنبية قط، ولو أظهر عدد كبير من الناس علامات عن فعلهم ذلك في أي بلاد، لمنعتهم الحكومة، إما بعقوبات شديدة أو بمصادرة أجهزة الموجة القصيرة أو بنصب محطات تشويش. النتيجة أن كل إذاعة قومية هي نوع من عالم استبدادي بنفسه، تنهق بدعاية ليلاً ونهاراً لأناس لا يستطيعون سماع شيء آخر غيرها. في الوقت الحالي، تتناقص عالمية الأدب أكثر فأكثر. أغلب البلدان الاستبدادية تمنع الصحف الأجنبية، ولا تسمح بدخول سوى عدد صغير من الكتب الأجنبية الخاضعة لرقابة يقظة، وأحياناً تُصدر بنسخ مشوهة. الرسائل التي تنتقل من بلاد إلى أخرى، يتم العبث بها عادة في الطريق. وفي السنوات العشر الماضية، أعيدت كتابة كتب التاريخ في بلدان كثيرة بشروط قومية أكثر بكثير من قبل، لذلك سيتربى الأطفال على صورة زائفة للعالم الخارجي بأقصى ما يمكن.

إن التوجه المستمر نحو الاكتفاء الاقتصادي الذاتي (''السيادة المطلقة'') المستمر منذ ١٩٣٠ تقريباً والذي كثفته الحرب، ربما ينعكس سيره أو لا ينعكس. جعل بلدان مثل الهند وأمريكا

الجنوبية بلداناً صناعية، يزيد من قوتها الشرائية. ولذلك ينبغي نظرياً أن يكون مفيداً للتجارة العالمية. لكن الذي لم يفهمه الذين يقولون بابتهاج إن "كل أجزاء العالم تعتمد على بعضها البعض"، هو أنها لم تعد تعتمد على بعضها البعض أبداً. في عصر يمكن فيه صنع الصوف من الحليب، والمطاط من النفط، وزرع القمح في الدائرة القطبية الشمالية، ويكون الايتبرين بديلاً كافياً عن الكينين، وأقراص فيتامين سي بديلا مقبولاً عن الفاكهة، لم تعد المستوردات مسألة مهمة جداً. أي مساحة كبيرة تستطيع أن تعزل نفسها بشكل كامل، أكثر بكثير من الزمن الذي زحف فيه جيش نابليون الضخم إلى موسكو مرتدياً المعاطف البريطانية رغم الحظر. طالما ظل العالم يتجه نحو النزعة القومية والاستبدادية، فإن التقدم العلمي يساعده على ذلك.

هذه بعض الأسعار الحالية:

ساعة منبه سويسرية صغيرة سعرها قبل الحرب أقل بـ ٥٪ أو ١٠٪ من السعر الحالي: ٣ جنيه و ١٥ بنساً. آلة طباعة مستعملة، سعرها قبل الحرب ١٢ جنيهاً، السعر الحالي ٣٠ جنيهاً. فرشاة فرك صغيرة من نوعية رديئة من ألياف جوز الهند، سعرها قبل الحرب ٣ بنسات، السعر الحالي شلن و٩ بنسات. ولاعة غاز سعرها قبل الحرب أقل بواحد بالمئة تقريباً، السعر الحالي ٥ شلنات و٩ بنسات.

يمكنني الاستشهاد بأسعار أخرى مماثلة. من الجدير بالملاحظة مثلاً، الساعة المذكورة أعلاه يفترض أنها مصنعة قبل الحرب بالسعر القديم. لكن في المجمل، أسوأ ارتفاع حدث في البضائع المستخدمة-مثل المقاعد والطاولات والساعات وعربات اليد والدراجات الهوائية وملاءات الأسرة. عند الاستعلام، وجدت أن هناك قانوناً الآن ضد بيع البضائع المستخدمة بثمن فاحش. هذا يفترض أن يريحني كثيراً، مثلما يرتاح المتهمون بأمر المثول أمام المحكمة، أو الحمالون الهنود حين يعلمون أن الرعايا البريطانيين متساوون أمام القانون.

في كتاب حملة سيدان لهوبر، هناك وصف للمقابلة التي حاول فيها الجنرال ويمبفين إحراز أفضل الشروط الممكنة للجيش الفرنسي المهزوم. فقال: "لفائدتكم من وجهة نظر

سياسية، أن تمنحونا شروطاً مشرفة... إن السلام المؤسس على شروط تشبع كبرياء الجيش، سيكون متيناً. أما الإجراءات الصارمة والقاسية، فستثير الانفعالات والعواطف الرديئة، وربما تــسـبـب حرباً لانهاية لها بين فرنسا وبروسيا"

يقاطعه بسمارك المستشار الحديدي، وكلماته مدونة في مذكراته:

قلت له يمكننا أن نبني على تقدير أمير وعرفانه، وليس على تقدير وعرفان شعب بالتأكيد، وعلى الأقل على عرفان الشعب الفرنسي. بما أن المؤسسات والظروف ليست ثابتة ومستمرة في فرنسا؛ والحكومات والسلالات الحاكمة تتغير باستمرار، والمرء غير مجبر على تنفيذ وعد أجبره الآخر على التعهد به......؛ وفي الوضع الذي آلت إليه الأشياء، فمن الحماقة ألا نستفيد تماماً من نجاحنا.

يعتقد أن العبادة الحديثة "للواقعية" بدأت مع بسمارك عموماً. لقد اعتبر ذلك الخطاب الأبله "واقعياً" بشكل مهيب آنذاك، وسيكون هكذا الآن. إن ما قاله ويمبفين بالرغم من أنه كان يحاول أن يساوم من أجل شروط أفضل، كان صحيحاً تماماً. لو تصرف الألمان بكرم عادي (أي بمقاييس الزمن) لكان من المستحيل تحريض روح الانتقام في فرنسا. ماذا كان بسمارك سيقول، لو قيل له إن الشروط القاسية الآن ستعني هزيمة مريعة بعد ثمان وأربعين سنة؟ لا يوجد شك كبير في الجواب: كان سيقول إن الشروط يجب أن تكون أقسى. هكذا هي "الواقعية" -وبنفس المبدأ يرد الطبيب بمضاعفة الجرعة حين يزيد الدواء المرض على المريض.

التريبيون ١٩ أيار/ مايو ١٩٤٤.

إن كراسة الآنسة فيرا بريتين، **بذور الفوضى**، عبارة عن هجوم بليغ على القصف العشوائي أو "الطمس"، فبسبب غارات الآر أي إف (سلاح الجو الملكي -المترجم): "آلاف الأشخاص الأبرياء العزل في المدن الألمانية والإيطالية والمدن التي تحتلها ألمانيا، تعرضوا لأشكال من الموت المعذب والأذى، مشابهة لأسوأ أشكال التعذيب في العصور الوسطى" وقد أظهر مناوئون للقصف مشهورون كالجنرال فرانكو والفريق فولر مثلاً، تأييدهم لهذا، لكن الآنسة بريتين لا تأخذ بوجهة نظر رافضي حمل السلاح (السلميين)، فهي راغبة ومتشوقة لكسب الحرب ظاهرياً، وتتمنى منا أن نلتزم بالوسائل "المشروعة" للحرب،

لكنها تخشى من أن يشوه قصف المدنيين سمعتنا في عيون الأجيال القادمة. كراستها هذه، أصدرتها لجنة تقييد القصف التي أصدرت عناوين مماثلة أخرى.

لا يوجد عاقل ينظر إلى القصف أو أي عملية حربية أخرى إلا بالاشمئزاز، ومن جانب آخر ليس هناك شخص محتشم يهتم البتة برأي الأجيال القادمة. لكن، في الوقت نفسه، هناك شيء كريه جداً في قبول الحرب كوسيلة، ويريد الكل تفادي المسؤولية عن معالمها البربرية الأشد وضوحاً. إن السلمية ورفض حمل السلاح موقف ممكن الدفاع عنه بشرط الاستعداد لتحمل العواقب، لكن الحديث عن "تقييد" أو "أنسنة" الحرب، هو مجرد خداع مؤسس على حقيقة أن الكائن البشري العادي لم يهتم أبداً بالتدقيق في الشعارات.

الشعارات المستخدمة في هذا الصدد، هي "قتل المدنيين"، "ذبح للنساء والأطفال" و"تدمير تراثنا الثقافي". إن القصف الجوي يفترض ضمناً أن يسبب هذا النوع من الشيء، أكثر من الحرب البرية.

حين تنعم النظر عن قرب أكثر، فإن السؤال الأول الذي يواجهك هو: لماذا يعتبر قتل المدنيين أسوأ من قتل الجنود؟ من الواضح أن المرء يجب ألا يقتل الأطفال إن أمكن تفادي ذلك بأي وسيلة، لكن في كراسات الدعاية فقط، كل قنبلة تسقط تقع على مدرسة أو دار أيتام. إن القنبلة تقتل شريحة من السكان من دون انتقاء تفضيلي، وعادة أول من يتم إخلاؤهم هم الأطفال والأمهات الحوامل، أما الشبان فأغلبهم يكون بعيداً في الجيش. وربما يكون العدد الكبير غير المتناسب من ضحايا القصف من متوسطي الأعمار (قتلت القنابل الألمانية حتى هذا التاريخ من ستة آلاف إلى سبعة آلاف طفل في هذه البلاد، وباعتقادي هذا رقم أقل من العدد الذي يُقتل في حوادث الطرق في نفس الفترة). من الجانب الآخر، فإن الحرب "النظامية" أو "المشروعة" تنتقي وتذبح كل الشبان الذكور الأصحاء والشجعان من السكان. في كل مرة تغرق فيها غواصة ألمانية وترسو في قاع المحيط، يختنق خمسون شاباً من ذوي البنية البدنية الرائعة وقوة التحمل والشجاعة. مع ذلك يكرر الأشخاص الذين يرفعون أيديهم عالياً بارتياح ورضى لنفس الكلمات مثل قصف "المدنيين" وعبارات مثل "نحن نكسب معركة الأطلسي" لكن لا يعلم سوى الرب كم عدد الأشخاص الذين قتلتهم

غاراتنا الجوية على ألمانيا والبلدان المحتلة، وكم ستقتل. لكن يمكنك أن تثق تماماً أنها لن تقترب أبداً من المذبحة التي حدثت وتحدث على الجبهة الروسية.

لا يمكن تجنب الحرب في هذه المرحلة من التاريخ. وبما أنها يجب أن تحدث، فإن قتل المدنيين بالإضافة إلى الشبان، لا يبدو لي شيئاً سيئاً. كتبت في عام ١٩٣٧: "أحياناً يريحني الاعتقاد بأن الطائرات تبدل ظروف الحرب. حين تأتي الحرب العظمى التالية، ربما نرى ذلك المنظر غير المسبوق في التاريخ لوطني متطرف مع ثقب رصاصة فيه". لم نر ذلك بعد (هو ربما تناقض في التعبير) لكن على أي حال لقد تم اقتسام ألم وعذاب هذه الحرب بشكل متساوٍ أكثر من الحرب السابقة، وتحطمت حصانة المدنيين، وهي إحدى الأشياء التي جعلت الحرب ممكنة. وأنا غير آسف على ذلك بخلاف الآنسة بريتين، ولا أشعر أن الحرب تكون "مؤنسنة" باقتصار الذبح على الشبان، وتصبح "بربرية" حين يُقتل كبار السن أيضاً.

أما بالنسبة إلى الاتفاقات الدولية "لتقييد" الحرب، فإن الالتزام بها لن يتم حين يكون خرقها مجزياً. قبل الحرب الأخيرة بوقت طويل، اتفقت الأمم على عدم استخدام الغاز، لكنها استخدمته كلها على السواء، وامتنعت هذه المرة فقط، لأن الغاز غير فعال نسبياً في حرب من الحركة، واستخدامه ضد السكان المدنيين سيثير بالتأكيد انتقامات من نفس النوع. أما ضد عدو لا يستطيع الرد كالأثيوبيين مثلاً، فقد استخدم وبسرعة كافية. من الأفضل الاعتراف بأن الحرب بربرية بطبيعتها، وإن رأينا أنفسنا كالهمجيين، فإن بعض التحسن ممكن أو أن تصوره ممكن على الأقل.

عينة من مراسلات التريبيون

إلى رئيس تحرير تريبيون الجديد المأجور لليهود -لندن

يهود في الجيش البولوني. أنت تهاجم حلفاءنا البولونيين البواسل دائماً، لأنهم يعرفون كيف يعاملون الوباء اليهودي، ويعرفون أيضاً كيف يتعاملون مع كل رؤساء التحرير المأجورين لصالح اليهود والصحف الشيوعية. نحن نعرف أنك على جدول رواتب الليبدز (اليهود) والسوفييت. أنت صديق لأعداء بريطانيا! يوم الحساب اقترب. احذر. سيباد كل اليهود الخنازير بالطريقة الهتلرية -الطريقة الوحيدة للتخلص من الليبدز. افنوا يهوذا.

طبعت بآلة ريمينغتون (خاتم بريد إس دبليو) والذي في ذهني تفصيل مشوق، هذه نسخة كربونية عنه.

أي عارف بالطباعة، يعرف أنه ليس هناك تأكيد أو برهان أو دليل صلب، يقنع كاتب هذا الرسالة بأن التريبيون ليست صحيفة شيوعية، وليست على جدول رواتب الحكومة الروسية. إحدى مزايا الفاشيين الغربية -أنا أتكلم عن الفاشيين الهواة: أفترض أن الجستابو أذكى- هي فشلهم في إدراك أن الأحزاب اليسارية تتميز عن بعضها البعض، ولا تستهدف نفس الشيء بأي شكل، ويعتقدون دائماً أنها كلها عصابة واحدة أياً كانت مظاهرها الخارجية. في الرقم واحد تأتي البريتش يونيون كورترلي التابعة لموسلي التي هي بجانبي (تحتوي بالصدفة على مقال لشخص مهم هو الميجور فيدكون كويسلينغ) ولاحظت أن حتى ويندهام لويس يتكلم عن ستالين وتروتسكي، كما لو أنهما شخصان متساويان. إن أرنولد لون في بروفته الإسبانية، يوحي فعلياً كما يبدو بأن تروتسكي أسس الأممية الرابعة بأوامر من ستالين.

بنفس الطريقة تماماً ومن خلال تجربتي، لن يصدق سوى قلة قليلة من الشيوعيين أن التروتسكيين ليسوا على جدول رواتب هتلر. حاولت أحياناً أن أجرب وأشير إلى أنه لو أن التروتسكيين كانوا على جداول هتلر أو غيره، لكانوا حصلوا على بعض المال من حين إلى آخر. لكن لا فائدة، هذا لم يسجل، وهكذا هو الأمر مع دسائس اليهود، أو الاعتقاد الذي انتشر على نطاق واسع بين القوميين الهنود، من أن كل الإنكليز مهما كان لونهم السياسي في مؤامرة سرية مع بعضهم بعض. أما الأغرب فهو الاعتقاد بأن الماسونيين عبارة عن منظمة ثورية. في هذه البلاد سيكون الاعتقاد بهكذا شيء من البوفالو. منذ أقل من جيل إن لم يكن الآن، هناك راهبات كاثوليكيات يعتقدن أن الشيطان يظهر شخصياً في الاجتماعات الماسونية مرتدياً ثياب السهرة مع ثقب في سرواله ليخرج منه ذيله. إن هذا النوع من الشيء يهاجم أي أحد بشكل أو بآخر كما يبدو، ومن الواضح أنه يستجيب لحاجة نفسية غامضة خاصة بزمننا.

التريبيون ٢٦ أيار/ مايو ١٩٤٤.

كنت أتحدث مع جندي أمريكي شاب قبل الأمس، وأخبرني -كما فعل الكثيرون غيره- أن الشعور المعادي لبريطانيا عام تماماً في الجيش الأمريكي. لقد حل في هذه البلاد حديثاً فقط، وحين خرج من القارب، سأل فرد من الشرطة العسكرية على رصيف الميناء "كيف حال إنكلترا؟"

رد الشرطي العسكري: "الفتيات هنا يخرجن ويتمشين مع الزنوج، ويطلقن عليهم الهنود الأمريكيين".

هذه هي الحقيقة البارزة عن إنكلترا من وجهة نظر الشرطي العسكري. في الوقت نفسه، أخبرني صديقي أن الشعور العدائي للبريطانيين ليس عنيفاً، وليس هناك سبب محدد بشكل واضح للشكوى. ربما قسم كبير منه تبرير للقلق الذي يشعر به أغلب الناس بكونهم بعيدين عن الوطن. لكن موضوع الشعور العدائي تجاه بريطانيا في الولايات المتحدة برمته، بحاجة ماسة إلى التقصي. وقد أعطي مثل عداء السامية سلسلة كاملة من التفسيرات المتناقضة، وقد يكون كعداء السامية مرة أخرى بديلاً نفسياً عن شيء آخر. ما القضية الأخرى التي تحتاج إلى تفحص.

في الوقت الحالي هناك إدارة واحدة للعلاقات الأنغلوأمريكية تعمل جداً كما يبدو. أُعلن منذ أشهر عن زواج عشرين ألف فتاة إنكليزية من جنود وبحارة أميركيين، ثم زاد العدد بعد ذلك. بعض من الفتيات تلقين تعليماً عن حياتهن في بلاد جديدة في "مدرسة لعرائس جنود الولايات المتحدة" نظمها الصليب الأحمر الأمريكي. هنا يتعلمن تفاصيل عملية عن أنماط السلوك والعادات والتقاليد الأمريكية، وربما يعالجن من الوهم الواسع الانتشار أيضاً بأن كل أمريكي يملك سيارة، وكل بيت أمريكي فيه حمام وثلاجة وغسالة كهربائية.

احتوى عدد مايو/ أيار من صحيفة ماتريمونال بوست أند فاشينابل ماريج، على إعلانات لـ ١٩١ رجلاً يبحثون عن عرائس، وأكثر من ٢٠٠ امرأة يبحثن عن أزواج. باتت الإعلانات من هذا النوع تظهر بكثرة في سلسلة من المجلات منذ الستينيات أو قبل، وهي متشابهة جداً تقريباً. مثلاً:

أعزب عمره ٢٥ سنة، طوله ٦ أقدام وبوصة واحدة، نحيل، مغرم بالحراثة والحيوانات والأطفال والسينما إلخ، يود لقاء سيدة عمرها من ٢٧ إلى ٣٥ تحب الزهور والطبيعة والأطفال، يجب أن تكون طويلة ومتوسطة البنية ومن كنيسة إنكلترا.

إن القسم الأكبر من الإعلانات مثل هذا، لكن أحياناً تقحم ملاحظة غير عادية مثلاً:

أنا في ٢٩، ٥ أقدام وبوصة، إنكليزي، بنية ضخمة، لطيف، هادئ، اهتمامات ثقافية متنوعة، خلفية أخلاقية صارمة، تقدمي، خلاق، ميول أدبية. تاجر في الطوابع النادرة، الدخل متغير لكنه كاف. سباح ماهر، درّاج، فأفأة خفيفة أحياناً. من غير شروط. يبحث عن الندرة التالية، فتاة متعلمة، أنيسة، متكيفة، سلسلة على العين والأذن، تحت ٣٠، من طراز السكرتيرات أو مشابه، مغامرة عقلياً، منيعة ضد المرتزقة والبواعث الاجتماعية، إحساس مشرق بالفكاهة الصادقة، شريكة عمل موثوقة، رأس المال غير مهم، الشخصية حيوية ومهمة.

الشيء اللافت والذي يظل كذلك في هذه الإعلانات، أن كل المتقدمين بالطلبات تقريباً مؤهلون بشكل ملحوظ. ليس أغلبهم متحررين وأذكياء ويحبون الحياة المنزلية فقط: بل هم موسيقيون، مخلصون وصادقون وحنونون مع إحساس رائع بالفكاهة، وفي حالة النساء شكل جيد: في غالبية الحالات هم في وضع مالي جيد أيضاً. حين تفكر بمدى السهولة القاتلة التي يجري بها الزواج، فلن تتخيل أن عازباً في الـ ٣٦ من عمره، "شعر أسود وملامح وبشرة شقراء وقوام نحيل، طول ٦ أقدام، مثقف جيداً ومراع للآخرين، مرح ومزاج متوقد، دخل ١٠٠٠ جنيه سنوياً ورأسمال، يحتاج أن يجد لنفسه عروساً من خلال أعمدة جريدة. والشيء نفسه ينطبق على "امرأة شابة مغامرة"، آراء يسارية، نظرة حديثة مع شكل مليء تماماً لكنه حسن، شعر مجعد ملون، عيون زرقاء-رمادية، بشرة شقراء، لون طبيعي، صحة جيدة بشكل استثنائي، مهتمة بالموسيقى والفن والأدب والسينما والمسرح ومغرمة بالمشي وقيادة الدراجة الهوائية والتنس والتزلج والتجذيف". لماذا تضطر هذه الماسة المثالية للإعلان؟

يجب أن نشير إلى أن ماتريمونيال بوست صادقة وتدقق بحرص على المعلنين لديها.

هذه الأشياء توضح حقيقة العزلة المروعة للأشخاص الذين يعيشون في البلدات الكبيرة. الناس يلتقون في العمل ثم يتفرقون في بيوت مفصولة ومتباعدة جداً. أن تعرف أسماء الأشخاص الذين في البيت الملاصق لبيتك، هو شيء استثنائي ونادر في أي مكان في لندن الداخلية.

منذ سنة سكنت في بيت لفترة في بورتوبيلو رود. هذا حي أنيق بالكاد، لكن صاحبة البيت كانت وصيفة لنسوة من ذوات الألقاب وكانت معتدة بنفسها. في أحد الأيام تعطل الباب الخارجي وانحبسنا أنا وصاحبة المنزل وزوجها خارج البيت، وكان واضحاً أننا يجب أن

ندخل من نافذة علوية. وبما أن جارنا يعمل بمهنة البناء، اقترحت أن نستعير سلماً منه. بدت صاحبة البيت متضايقة نوعاً ما، وقالت أخيراً:

"لا أميل إلى فعل ذلك. إننا لا نعرفه كما ترى. نحن هنا من أربع عشرة سنة، وقد حرصنا دائماً ألا نعرف الجارين اللذين على طرفي بيتنا. لن ينفع، ليس في حي كهذا. لو بدأت الحديث إليهم مرة سيتخطون الرسميات معك، كما ترى"

لهذا اضطررنا لاستعارة سلم من شخص قريب لزوجها، وحمله مسافة ميل بجهد كبير ومشقة.

التريبيون ٢ يونيو/ حزيران ١٩٤٤.

مقتطف من الراديو الإيطالي، يصف الحياة في لندن في منتصف عام ١٩٤٢ تقريباً:

(خمسة شلنات ثمن البيضة الواحدة، وجنيه استرليني واحد من أجل كيلوغرام من البطاطا، واختفى الرز حتى من السوق السوداء، وأصبحت البازلاء امتيازاً للمليونيرين. لا يوجد سكر في السوق، وحتى لو وجدت كميات صغيرة، فهي موجودة بأسعار خيالية).

يوماً ما سيكون هناك تحقيق علمي حريص كبير عن مدى تصديق الدعاية. مثلاً، ما هو أثر خبر مثل الخبر المذكور أعلاه وهو أنموذجي من الراديو الفاشي؟ ينبغي على الإيطالي الذي يأخذه على محمل الجد أن يفترض أن بريطانيا على وشك الانهيار خلال أسابيع قليلة. وبعد فشل حدوث الانهيار، يُتوقع منه أن يفقد ثقته في السلطات التي خدعته. لكن من المؤكد أن هذا لن يكون رد فعله. في كل الأحوال، يستطيع الناس أن يبقوا لفترات طويلة جداً غير قلقين بواسطة أكاذيب جلية، إما لأنهم نسوا ما كان يُقال من يوم إلى آخر، أو لأنهم تحت قصف مستمر من الدعاية، لذلك أصبحوا مخدرين عن المسألة برمتها.

يبدو من الواضح أن قول الحقيقة يفلح حين تسوء الأشياء، لكن من غير المؤكد أبداً أنها تفلح لتتناسق مع دعايتك. أعيقت الدعاية البريطانية إلى حد كبير بجهودها كي لا تناقض ذاتها. إذ من المستحيل تقريباً مثلاً أن تناقش قضية اللون بطريقة تسر البوير والهنود، أما الألمان فلا يقلقهم البتة شيء كهذا. إنهم يقولون لكل واحد ما يظنون أنه يرغب في سماعه، مفترضين وربما عن صواب أنه ليس هناك من يهتم بمشاكل غيره، حتى إن محطات إذاعاتهم المتنوعة تهاجم بعضها بعضاً أحياناً.

إحدى المحطات التي استهدفت فاشيي الطبقة الوسطى أحياناً، كانت تحذر مستمعيها ضد تحدي اليسار العمالي-الزائف، بحجة أن الأخير كانت تموله موسكو.

شيء آخر سيتعامل معه التحقيق والتحليل - إن حدث- هو الصفات السحرية للأسماء. كل الكائنات البشرية تقريباً تشعر أن شيئاً ما يصبح مختلفاً، إن أطلقت عليه اسماً مختلفاً. لهذا حين اندلعت الحرب الإسبانية، أنتجت محطة البي بي سي اسم "المتمردين" لأتباع فرانكو، مما غطى حقيقتهم كمتمردين حين بدا التمرد محترماً. أثناء الحرب الإثيوبية، سمي هيلي سيلاسي بالإمبراطور من قبل أصدقائه، وبالنجاشي من قبل أعدائه. يستاء الكاثوليكيون بشدة حين يسمون بالروم الكاثوليك؟ التروتسكيون يدعون أنفسهم بلاشفة لينينيين، لكنهم يرفضون هذا النعت من قبل خصومهم. البلدان التي حررت نفسها من المحتل الأجنبي أو مرت بثورات قومية، غيرت أسماءها بشكل ثابت تقريباً، وبات لبعضها سلسلة كاملة من الأسماء، لكل واحد منها مضمون مختلف. لذلك سمي اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية بـ روسيا، أو يو إس إس آر يعتبر (حيادياً أو اختصاراً) وروسيا السوفيتية (صديق) والاتحاد السوفييتي (صديق جداً). والحقيقة الغريبة أن بلادنا تكنى بستة أسماء، والاسم الوحيد الذي لا يطأ على أصابع أحد هو الاسم القديم جداً والمضحك قليلاً "البيون".

عند الخوض في مواد مسابقة القصة القصيرة، اندهشت مرة أخرى بالعجز الذي تعاني منه القصص القصيرة، كونها فصلت بطول متساوٍ. في الماضي كانت أطوال القصص القصيرة العظيمة تتراوح بين ١٥٠٠ كلمة و٢٠٠٠٠ كلمة، فأغلب قصص موباسان مثلاً قصيرة جداً، لكن تحفتيه "اجتماع الحاشية" و"منزل مدام تيلير" طويلتان بلا جدال. وكذلك تتنوع قصص بالمثل، وربما تعتبر كل من قصة دي إتش لورانس "إنكلترا، إنكلترتي" وقصة جويس "الميت" وقصة كونراد "شباب" وقصص كثيرة لهنري جيمس، طويلة جداً لأي دورية إنكليزية حديثة. لهذا بالتأكيد قصة مثل قصة أفراح كارمن ستكون كذلك، فهي تنتمي إلى صنف "القصص القصيرة" التي ماتت في هذا القرن بسبب عدم وجود متسع لها، لأنها طويلة جداً بالنسبة إلى المجلات وقصيرة جداً لنشرها في كتب. يمكنك طبعاً أن تنشر كتاباً يحتوي على بضع قصص قصيرة، لكن هذا لا يتم غالباً، لأن هذه الكتب لا تباع أبداً في الأوقات العادية.

لو استطعنا أن نعود إلى مجلات القرن التاسع عشر الضخمة التي فيها متسع للقصص من أي طول، لساعد ذلك بالتأكيد على رد الاعتبار للقصة القصيرة. لكن المشكلة أن مجلات إنكلترا الحديثة الشهرية والربعية من كافة التوجهات، فكرية ولا تدفع. حتى كرايتيريون التي تعتبر أفضل جريدة أدبية لدينا، ظلت تخسر المال لمدة ستة عشر عاماً قبل أن تلفظ أنفاسها.

لماذا؟ لأن الناس لم يعودوا يرغبون بتبديد السبعة شلنات ونصف التي تكلفها. لن يدفع الناس ذلك المبلغ الكبير على مجرد مجلة، لكن لماذا يدفعون نفس المبلغ ثمناً لرواية ليست أضخم من كرايتيريون وأقل قيمة؟ لأنهم لا يدفعون ثمن الرواية مباشرة. الشخص المتوسط لا يشتري كتاباً جديداً أبداً باستثناء طبعات بنغوان ربما. لكنه يفعل ذلك من دون معرفة حين يشتري عدداً وافراً من الكتب بدفع بنسين لمكتبات الإعارة. لو استطعت أن تأخذ مجلة أدبية من المكتبة كما تأخذ كتاباً، لأصبحت هذه المجلات مشاريع تجارية، ولاستطاعت أن تكبر حجمها وتدفع أجوراً أفضل للمشاركين في تحريرها. إن ما يبقي المؤلفين وناشري الكتب على قيد الحياة هو إعارة الكتب وليس شراءها، وليس هناك مبرر وجيه لعدم امتداد نظام مكتبات الإعارة ليشمل المجلات. أعد المجلة الشهرية أو اجعل الجريدة الأسبوعية أثخن بربع بوصة، عندئذ يمكنك أن تسترد القصة القصيرة. وبالمناسبة ربما تصبح مراجعة الكتاب النقدية التي تضاءلت إلى ملخص ميكانيكي بسبب انعدام المتسع، عملاً فنياً مرة أخرى كما كانت في أيام الأدنبره والكوارترلي.

بعد قراءة ماتريمونيال بوست الأسبوع الماضي، بحثت في كتاب المؤرخ هيرودوتوس (طبعة بنغوان) عن مقطع أتذكره بشكل غامض، عن عادات الزواج عند البابليين. هذا هو:

مرة في السنة، في كل قرية يجمعن العذارى اللواتي في سن الزواج معاً في مكان واحد، ويقف الرجال حولهن بشكل دائرة، ثم ينادي المنادي على الآنسات الواحدة تلو الأخرى ويعرضهن للبيع. يبدأ بالأجمل. حين تباع مقابل مبلغ غير صغير من المال، يعرض للبيع الواحدة التي تليها جمالاً..... كانت العادة حين ينتهي المنادي من الآنسات الجميلات، أنه يجب عليه أن ينادي أقبح فتاة ويعرضها على الرجال سائلاً من يقبل أن يأخذها بأقل مهر،

والرجل الذي يعرض أصغر مبلغ تخصص له. كانت المهور تموّل من المال المدفوع ثمناً للآنسات الجميلات. وهكذا تتقاسم الآنسات الأجمل مهورهن مع الآنسات الأقبح.

يبدو أن هذه العادة نجحت جداً، وتحمس هيرودوتوس جداً لها، وأضاف لكنها بطلت في حوالي السنة ٤٥٠ قبل الميلاد كغيرها من العادات الجيدة.

التريبيون ٩ يونيو / حزيران ١٩٤٤

مقالة آرثر كيسلر الجديدة في التريبيون (٢٨ أبريل/ نيسان ١٩٤٤)، كتب كيسلر مقالة على شكل رسالة إلى عريف شاب كتب له يطلب نصيحة حول مراجعات الكتب النقدية التي يمكن اعتبارها أدلة موثوقة. أبرز كيسلر المعايير الكئيبة للنقد السائد في أغلب الصحف.

جعلتني مقالة آرثر كيسلر الجديدة في التريبيون، أتساءل إن كانت ضجة الكتاب ستنهض ثانية في نشاطها القديم بعد الحرب حين يكون الورق وافراً، وتكون هناك أشياء أخرى تنفق النقود عليها.

يجب أن يعيش الناشرون مثل أي أحد آخر، ولا تستطيع لومهم على إعلانهم عن بضائعهم. لكن الصورة المخزية للحياة الأدبية قبل الحرب كانت الضبابية في التمييز بين الإعلان عن البضائع وبين النقد. كان عدد من المراجعين المزعومين، وخصوصاً الأكثر شهرة، مجرد كتّاب دعاية. بدأ الإعلان "الصارخ" في وقت ما في عشرينات القرن العشرين، عندما أخذت المنافسة حيزاً أكبر واستخدمت أقصى عدد ممكن من صيغ التفضيل، وأصبحت أشرس، برز ناشرو الإعلانات كمصدر هام للدخل بالنسبة إلى كثير من الصحف. كانت الصفحات الأدبية في صحف مشهورة كثيرة، مملوكة عملياً من قبل حفنة من الناشرين الذين لهم عملاء زرعوا في كل الوظائف الهامة. يطلق هؤلاء الخسيسون مديحهم ويكررون كلمات مثل- "تحفة" و"متألقة" و"لا تنسى" وهلم جرا، مثل بيانوهات آلية كثيرة. إن الكتاب القادم من الناشرين الصحيحين، لا يحظى بمراجعة نقدية محابية فقط، وإنما يوضع على القائمة "المزكاة" التي يقصها مستعيرو الكتب المجدون ويأخذونها إلى المكتبة في اليوم التالي.

لو نشرت كتباً في دور نشر مختلفة عديدة، ستتعلم سريعاً كم هو قوي ضغط الإعلانات. كتاب قادم من ناشر كبير يصرف مبالغ كبيرة على الإعلانات، يحصل على خمسين أو سبعين

مراجعة نقدية: كتاب من ناشر صغير، ربما لا ينال سوى عشرين مراجعة فقط. أعرف حالة عن ناشر لاهوتي وضع في رأسه لسبب ما أن ينشر رواية. صرف مبلغاً كبيراً من المال على الإعلان عنها. حصلت على أربع مراجعات نقدية في كل إنكلترا، وكانت المراجعة الطويلة الوحيدة في صحيفة عن السيارات اغتنمت الفرصة لتبرز أن قسم البلاد الموصوف في الرواية مكان جيد لنزهة بالسيارة. لم يكن هذا الرجل في الضجة، ومن غير المحتمل لإعلاناته أن تصبح مصدراً نظامياً لدخل الصحف الأدبية، ولهذا تجاهلته.

حتى الصحف الأدبية حسنة السمعة، لا تستطيع تحمل إهمال إعلاناتها تماماً. من المعتاد تماماً أن ترسل كتاباً إلى مراجع نقدي مع صيغة كهذه: "راجع هذا الكتاب إن أبدى أي فائدة وإن لم يكن كذلك فأعده. نحن لا نرى أن طبع مراجعات نقدية فاشلة، شيء يستحق العناء".

طبعاً، إن الشخص الذي يحصل على الجنيه أو ما يقاربه لقاء المراجعة النقدية التي تعني له أجرة البيت لأسبوع قادم، سيتمنع عن إرجاع الكتاب من دون مراجعة، وسيعتمد على إيجاد شيء ما يمدحه، مهما كان رأيه الشخصي في الكتاب.

في أمريكا حتى التظاهر بأن المراجعين المبتذلين يقرؤون الكتب التي يقبضون مالاً لقاء نقدها، هُجر جزئياً. يرسل الناشرون أو بعض الناشرين مع نسخ المراجعة، موجزاً صغيراً يملي على المراجع ما يجب أن يقوله. مرة في حالة عن إحدى رواياتي، أخطؤوا في تهجئة اسم إحدى الشخصيات، وظهر نفس الخطأ الهجائي في مراجعة نقدية تلو أخرى. لم يلق الناقد المزعوم نظرة سريعة على الكتاب الذي رفعه أغلبهم إلى السماء.

عبارة استخدمت كثيراً في الدوائر السياسية في هذه البلاد، هي "لعبة بأيدٍ". إنها نوع من تعويذة أو رقية لإسكات الحقائق المضايقة. حين يقال لك إنك لعبة بيد عدو شرير ما، فاعرف أن واجبك أن تصمت فوراً.

مثلاً، لو قلت أي شيء ضار عن الإمبريالية البريطانية، فأنت لعبة بيد الدكتور غوبلز. إن انتقدت ستالين، فأنت لعبة بيد التيبلت أو الديلي تيلغراف. إن انتقدت تشيانغ كاي-شيك، فأنت لعبة في يد وانغ شين غوي وهلم جرا، بلا نهاية.

إن هذه التهمة صحيحة موضوعياً في الغالب. من الصعب دائماً أن تهاجم جماعة أو فريقاً لدرجة النزاع من دون أن تساعد الآخر مؤقتاً. التوريون المتطرفون يستولون على أي شيء معادٍ للروس، ولا يهتمون إن أتى هذا الهجوم من مصادر تروتسكية، وليس من مصادر يمينية. الإمبرياليون الأمريكيون الذين يتقدمون للهجوم خلف ستارة دخانية من الروائيين، يبحثون دائماً عن أي تفصيل ضار بسمعة الإمبراطورية البريطانية. ولو كتبت أي شيء صادق عن أحياء لندن الفقيرة، فستسمعه على الأرجح معاداً على الراديو النازي بعد أسبوع. لكن ماذا يتوقع منك أن تفعل بعد ذلك؟ هل تتظاهر بعدم وجود أحياء فقيرة؟

يستطيع كل واحد له أي علاقة بالدعاية والإعلان، أن يتذكر مناسبات دُفع فيها ليكذب بشأن مسألة هامة حيوية، لأن قول الحقيقة سيعطي ذخيرة حربية للعدو. أثناء الحرب الأهلية الإسبانية مثلاً، لم تُدرس الانشقاقات في جانب الكومة وتنتقد بشكل مناسب أبداً في صحف اليسار، رغم أنها شملت نقاطاً أساسية مبدئية. فقد قالت تلك الصحف للناس إن نقاش الصراع بين الشيوعيين والفوضويين، سوف يعطي الديلي ميل الفرصة لتقول إن الحمر كلهم كانوا يذبحون بعضهم البعض. وكانت النتيجة الوحيدة أن قضية اليسار ككل أضعفت. ربما أضاعت الديلي ميل القليل من قصص الرعب، لأن الناس أمسكوا ألسنتهم ولم يتكلموا، لكن ظلت هناك دروس هامة جداً لم نتعلمها نعاني منها حتى هذا اليوم.

التريبيون ١٦ يونيو/ حزيران ١٩٤٤.

سئلت مرات عديدة شفوياً وكتابياً لماذا لا أستفيد من هذا العمود للانقضاض على براينز تروست (هيئة خبراء - المترجم). (براينز تروست كان برنامجاً مشهوراً للبي بي سي، يرأسه الدكتور جود رئيس قسم علم النفس والفلسفة في كلية بيربيك في لندن مع هيئة من "الخبراء" الذين يردون على الأسئلة التي يطرحها المستمعون). "بحق المسيح اهجم على جود وانتقده نقداً لاذعاً" قال أحد القراء. الآن أنا لا أنكر أن براينز تروست شيء مرعب جداً، وموضوعياً أنا ضد براينز تروست، بمعنى أني أطفئ الراديو دائماً فور بدء ظهور البرنامج. إن التظاهر الزائف بأن الشيء كله عفوي وغير خاضع للرقابة، بالإضافة إلى التجنب الدائم لأي موضوع جدي والتركيز على أسئلة من نوع "لماذا تكون آذان الأطفال بارزة إلى الخارج؟" والحماسة الـ........ والأصوات المثيرة للغضب المتكرر وفكرة المذبعين

الهواة غير المؤهلين الذين يُدفع لهم عشرة شلنات أو خمسة عشر في الدقيقة ليقولوا «ار-ار-ار"، كلها أشياء يصعب تحملها، لكنني لا أشعر ضد هذا البرنامج بنفس سخط الكثيرين من معارفي، والسبب جدير بالتعليل.

في هذا الوقت ازداد ضجر الجمهور من براينز تروست، لكنه ظل لفترة طويلة برنامجاً محبوباً بشكل حقيقي. لم يكن يُسمع في إنكلترا فقط، وإنما في أجزاء أخرى من العالم. وتبنت أسلوبه جماعات نقاش لا تحصى في الجيش والدفاع المدني. كان فكرة "ناجحة" كما يقول المثل، وليس صعباً رؤية السبب. كان براينز تروست خطوة متقدمة عظيمة بمعايير نقاش الصحف والراديو السائدة في هذه البلاد حتى عام ١٩٤٠، وأظهر على الأقل سعيه وتوجهه إلى التعبير الحر والجدية الفكرية، ولكنه أخيراً أجبر أن يظل صامتاً حول "السياسة والدين". يمكنك اختيار حقائق مشوقة عن "حساء فراخ الطيور، أو عادات خنازير البحر، أو قصاصات من التاريخ أو معرفة سطحية متناثرة من الفلسفة". وكان أقل عبثاً بوضوح من برامج الراديو العادية. وعموماً هو مثل التنوير. ولهذا رحبت به ملايين المستمعين في كل الأحوال لمدة سنة أو اثنتين.

ولهذا السبب اشمأز منه البليمب ومازالوا. براينز تروست موضوع هجمات لا تنتهي من مثقفي اليمين من أنموذج جي أم يونغ- أي بي هيربرت، والسيد دوغلاس ريد أيضاً. وحين أسست هيئة خبراء منافسة بقيادة فريق من رجال الدين، خرج البليمب وقالوا إنهم أفضل بكثير من جود وشركاه. إن هؤلاء الناس يرون براينز تروست رمزاً لحرية الفكر، ويدركون أن برامجهم مهما تكن سخيفة، فهي تهدف إلى جعل الناس يفكرون. أنت أو أنا ربما لا نرى في البي بي سي منظمة تخريبية خطرة، لكنها تعتبر هكذا في بعض المناطق، وهناك محاولات دائمة للتدخل في برامجها. قد يُعرف المرء من أعدائه إلى حد معين. إن الكره الذي نظر به كل الناس من ذوي الفكر اليميني إلى براينز تروست -وجماعات النقاش العامة والخاصة أيضاً- كان منذ البداية علامة على وجود شيء جيد فيه. لهذا السبب أنا لا أشعر بدافع قوي لانتقاد الدكتور جود الذي نال حصته العادلة من الانتقادات في كل الأحوال. أقول بدلاً من ذلك: هل فكرتم قط كيف سيكون براينز تروست، لو كان لورد إيتون والسيد هارولد نيكلسون والسيد ألفريد نوياس أعضاءه الدائمين.

لا يستطيع المرء شراء مجلات من خارج البلاد في هذه الأيام، لكنني أنصح كل من له صديق في نيويورك أن يحاول الحصول على نسخة من المجلة الشهرية الجديدة بوليتكس، التي يحررها الناقد الأدبي الماركسي دوايت مكدونالد. أنا لا أتفق مع سياسة هذه المجلة المعادية للحرب (ليس من وجهة نظر رفض حمل السلاح) لكنني معجب بجمعها بين التحليل السياسي الرفيع والنقد الأدبي الذكي. من المحزن أن أضطر للاعتراف بأننا لا نملك مجلات شهرية أو فصلية تضاهي المجلات الأمريكية -هناك مجلات أخرى كثيرة من نوع بوليتكس. نحن لانزال فريسة لفكرة نصف شعورية، بأن من لديه إحساسات فنية وجمالية، يجب أن يكون واحداً من التروي. لكن التفوق الحالي للمجلات الأمريكية، يعود سببه جزئياً للحرب. إن الصحيفة الوحيدة في هذه البلاد التي تشبه البوليتكس أكثر من غيرها كما أعتقد، هي ذا نيو ليدر. عليك فقط أن تقارن الشكل وأسلوب الكتابة وتدرج المواضيع والمستوى الفكري للصحيفتين، لترى ماذا يعنيه العيش في بلاد مازال فيها وقت الفراغ ولب الخشب.

التريبيون ٢٣ يونيو/ حزيران ١٩٤٤.

في الأسبوع قبل الفائت، نشرت التريبيون مقالة في الذكرى المئوية لجيرارد مانلي هويكنز، وبعدها مباشرة ذكرني عدد من أميركان نيشن عثرت عليه صدفة، بأن عام ١٩٤٤ يصادف الذكرى المئوية لكاتب أكثر شهرة- أناتولي فرانس.

حين مات أناتولي فرانس قبل عشرين سنة، عانى صيته من تلك السقطات المفاجئة التي يتعرض لها بشكل خاص الكتّاب الواسعو الثقافة الذين يعمرون طويلاً بشكل يكفي ليصبحوا محبوبين. في فرنسا، حسب العرف الفرنسي الساحر، شُنت هجمات شخصية شريرة عليه، بينما كان يحتضر وبعد أن مات فوراً. هجوم ضغين حقود بشكل خاص كتبه بيير دريو لا روشيل، ليصبح بعد ذلك متعاوناً ومتآمراً مع النازيين. في إنكلترا أيضاً اكتُشف أن أناتولي فرانس لم يكن جيداً. بعد بضع سنوات من هذا، أكد لي رجل شاب مرتبط بصحيفة أسبوعية (قابلته في باريس فيما بعد ووجدت أنه لا يستطيع شراء تذكرة ترام بدون مساعدة) أن أناتولي فرانس "كتب بلغة فرنسية رديئة جداً"، وأن فرانس كان كاتباً سوقياً ومنتحلاً ومقلداً، وهذا ما يراه كل واحد الآن. في الوقت نفسه تقريباً، حصلت اكتشافات مماثلة حول برنارد شو

ولايتون ستاركي: لكن الغريب جداً أن الكتاب الثلاثة ظلوا مقروئين حتى الآن، بينما بات أغلب الذين حطوا من قدرهم في طي النسيان.

أنا لا أعرف إن كان النفور من أناتولي فرانس نفوراً أدبياً أصيلاً والى أي مدى. لقد بولغ في مديحه بالتأكيد، والمرء يضجر أحياناً من كاتب متكلف جداً وداعر بشكل متعمد. لكن الذي لا يرقى إليه الشك أنه هوجم لأنه واحد من الشخصيات الرمزية في الصراع السياسي-الأدبي العنيف الذي تأجج منذ مئة سنة أو أكثر. رجال الكهنوت والرجعيون كرهوه بنفس الطريقة التي كرهوا فيها زولا تماماً. أناتولي فرانس دافع عن دريفوس، وهذا احتاج إلى شجاعة عظيمة، وعرّى جان دارك، وكتب تاريخاً هزلياً لفرنسا، والأهم أنه لم يفوت فرصة في السخرية من الكنيسة. كان أناتولي فرانس يمثل كل ما يمقته رجال الكهنوت والمطالبين بالانتقام الذين وعظوا وبشروا في البداية بألا يسمح للبوش (الألمان -المترجم) أن يشفوا ويعودوا إلى وضعهم السابق أبداً، وبعد ذلك لعقوا الدهان الأسود من حذاء هتلر.

لا أعرف إن كانت أهم كتب أناتول فرانس المميزة ككتابه **مشواة رينيه بيداك** مثلاً، جديرة بقراءة ثانية في هذا الوقت، فكل ما فيها موجود في فولتير حقيقة، لكنها قصة مختلفة مع الروايات الأربع التي تتعامل مع المسيو بيرغريت. فهي تعطيك أثمن صورة للمجتمع الفرنسي في التسعينات وخلفية قضية دريفوس، بالإضافة إلى كونها مسلية جداً. هناك أيضاً "**كرينكوبيلي**"، واحدة من أفضل القصص القصيرة التي قرأتها في حياتي، وكانت مصادفة هجمة مدمرة على القانون والنظام.

يجب على المرء حقيقة ألا يصنف أناتول فرانس كاشتراكي، رغم أنه تمكن من التكلم بصوت عال عن الطبقة العاملة في قصة مثل "كرينكيوبيلي"، ورغم أن طبعِات رخيصة لأعماله حظيت بدعاية في الصحف الشيوعية. لقد رغب بأن يساعد الاشتراكية، وأن يلقي محاضرات عنها في الصالات المقفرة حتى، وعرف أنها ضرورية وحتمية، لكن يُشك إن كان أرادها شخصياً. قال مرة: إن العالم سيحصل على راحة من مجيء الاشتراكية، تشبه الراحة التي ينالها رجل مريض من التقلب في السرير. في الأزمات كان مستعداً لتصنيف نفسه مع الطبقة العاملة، لكن فكرة المستقبل الطوباوي أحزنته، كما يُرى من كتابه **الحجارة البيضاء**. وهناك نزعة تشاؤمية أعمق حتى في كتابه عن الثورة الفرنسية **الربات عطشات**. لم يكن مزاجياً اشتراكياً فقط بل راديكالياً

أيضاً. في هذا الوقت ربما هذا هو الأندر من الاثنين. إن راديكاليته وشغفه للحرية والأمانة الفكرية، هي التي أعطت لونها الخاص لرواياته الأربع عن مسيو بيرغريه.

لم أفهم أبداً لماذا تسمح النيوز كرونيكل ذات السياسة القرنفلية الشاحبة جداً -القريبة من لون عجينة الروبيان لكنها تظل قرنفلية- للكاثوليكي الرومي المحترف تيموثي شاي (دي بي ويندهام لويس) أن يستمر في تخريبه اليومي في عموده الهزلي. إن رفيقه الكاثوليكي "متسكع الشواطئ" (جيه بي مورتون) يشعر بتمام الراحة في لورد بيفربروك إكسبريس.

عند النظر إلى العشرين سنة الماضية، كان هذان الاثنان يقومان بعملهما، ومن الصعب أن تجد قضية رجعية لم يمجداها - بيلسوديسكي وموسوليني والتهدئة والانتقاد وفرانكو والرقابة الأدبية؛ لقد وجدا كلمات جيدة لكل شيء يرفضها الشخص المحترم بشكل غريزي، وأدارا دعاية لا تنتهي ضد الاشتراكية وعصبة الأمم والبحث العلمي، واستمرا في حملة التعسف ضد كل كاتب جدير بالقراءة من جويس فصاعداً، وكانا معادين للألمان بشكل شرير حتى ظهر هتلر، ففتر عداءهم للألمان بطريقة لافتة. وفي هذه اللحظة، من البديهي أن يكون الهدف المميز لكرههما هو بيفريدج.

من الخطأ اعتبار هذين الاثنين مجرد ممثلين هزليين بسيطين. إن كل كلمة كتباها أريدَ منها أن تكون دعاية كاثوليكية، وبعض من المتدينين يقدرون أعمالهما كثيراً جداً في هذا الاتجاه. إن خطهما العام مألوف لكل من قرأ تشيسترتون ومن شابهه من الكتاب، فنغمة خطهما الجوهرية هي تشويه سمعة إنكلترا والبلدان البروتستانتية عموماً، وهذا ضروري من وجهة النظر الكاثوليكية. يشعر الكاثوليكي والمدافع منهم على الأقل أن عليه أن يدعي بتفوق وتميز البلدان الكاثوليكية والعصور الوسطى على الحاضر، مثلما يشعر الشيوعي أن من واجبه أن يؤيد الاتحاد السوفييتي في كل الظروف. لهذا يسخر "متسكع الشواطئ" و"تيموثي شاي" بشكل لا ينقطع من كل مؤسسة إنكليزية -الشاي والكريكت ووردزوورث وشارلي شابلن والعطف على الحيوانات ونيلسون وكرومويل وأي شيء مماثل. وهو السبب أيضاً في محاولات تيموثي شاي إعادة كتابة التاريخ الإنكليزي وزمجرات الكره التي فلتت منه وهو يتفكر في هزيمة الأسطول الحربي الإسباني. (كيف علق في أحشائه ذلك الأسطول الحربي الإسباني! كما لو أن هناك من يهتم بذلك الأمر في

هذا العصر) ولهذا-حتى تلك السخرية اللانهائية من الروائيين، لم يبرع الكاثوليك برمتهم في الراوية، لكونها شكلاً أدبياً من فترة ما بعد الإصلاح الديني أساساً.

من وجهة نظر أدبية أو سياسية، فإن هذين الاثنين مجرد بقايا على طبق تشيسترتون. كانت نظرة تشيسترتون للحياة زائفة في بعض أشكالها، فقد أعاقه جهل ضخم، لكنه امتلك الشجاعة على الأقل، وكان مستعداً لمهاجمة الأغنياء والجبارين، ما أضر بسيرته المهنية. لكن غرابة كل من "متسكع الشواطئ" و "تيموثي شاي" أنهما لم يجازفا بشعبيتهما، وكانت استراتيجيتهما غير مباشرة دائماً. لهذا إن أردت أن تهاجم مبدأ حرية التعبير، فافعل ذلك بالسخرية من براينز تروست كما لو كان مثالاً أنموذجياً. دكتور جود لن ينتقم! حتى أعمق قناعاتهم تُلف في تخزين بارد حين تصبح خطيرة. قبل ذلك في الحرب حين كان فعل هذا آمناً، كتب "متسكع الشواطئ" كراسات شريرة معادية للروس، أما في هذه الأيام فلا تظهر أي ملاحظة معادية للروس في عموده. لكنها ستظهر ثانية إن هبطت المشاعر الشعبية المؤيدة للروس. أنا متشوق لأرى إن كان كل من "متسكع الشواطئ" أو "تيموثي شاي" سيردان على ملاحظاتي. إن حدث هذا، فسيكون الشاهد الأول المسجل لكليهما بأنهما يهاجمان كل من يحتمل منه أن يرد الضربة وينتقم. (هما لن يفعلا ذلك أبداً).

التريبيون ٣٠ يونيو/ حزيران ١٩٤٤.

ألاحظ بمعزل عن التذمر واسع الانتشار حول الطائرات الألمانية التي بلا طيار، بأنها "تبدو غير طبيعية أبداً" (القنبلة التي يسقطها طيار حي طبيعية تماماً كما يبدو) بعض الصحفيين أيضاً يشجبونها ويصفونها بالبربرية وغير الإنسانية، وبأنها "هجمة عشوائية على المدنيين"

بعد ما فعلناه بالألمان خلال السنتين الماضيتين، يبدو هذا كثيراً نوعاً ما، لكنه الاستجابة الإنسانية العادية لكل سلاح جديد. الغاز السام والبندقية الآلية والغواصة والبارود وحتى النشابية، كانت تستنكر بالمثل في زمنها. كل سلاح جديد يبدو جائراً حتى تتأقلم عليه. لكنني لا أنكر أن الطائرات بلا طيار والقنابل الطائرة أو مهما يكن اسمها الصحيح، هي شيء بغيض بشكل استثنائي، لأنها بعكس كل القذائف الأخرى، تعطيك الوقت لتفكر. ما هو رد فعلك الأول حين تسمع ذلك الضجيج المتصاعد الرتيب؟ بلا شك هو الأمل بألا يتوقف الضجيج. أنت تريد أن تسمع القنبلة تمر من فوق رأسك بأمان وتتلاشى بعيداً قبل أن ينطفئ المحرك.

بعبارة أخرى، أنت ترجو أن تسقط على شخص آخر. وهكذا أيضاً حين تتفادى قذيفة مدفع أو قنبلة عادية -لكن في تلك الحالة ليس لديك سوى خمس ثوان لتتصرف، وليس لديك الوقت لتفكر بأنانية الكائن البشري التي لا نهاية لها.

ليست مصادفة أن يكون القومجيون من النوع الرومانتيكي والمتطرف جداً، لا ينتمون إلى الأمة التي بجلوها، فقد كان القادة الذين تأسست جاذبيتهم على الحزب أو أرض الأجداد أجانب بالكامل، أو أنهم أتوا من بلدان محاذية لإمبراطوريات عظمى. ومن الأمثلة الجلية على ذلك، أن هتلر نمساوي ونابليون كورسيكي، وهناك آخرون كثيرون غيرهما. وكان الرجل الذي يمكن القول عنه إنه مؤسس الشوفينية البريطانية المغالية كان ديزرائيلي، وهو يهودي إسباني، وكان اللورد بيفربروك الذي حاول حث المعارضين الإنكليز ليصفوا أنفسهم بالبريتونز كندياً. لقد شيدت الإمبراطورية البريطانية إلى حد كبير بأيدي الرجال الايرلنديين والاسكتلنديين، وكان أشد قومجيينا عناداً وإمبرياليينا أغلبهم من الالستريين (ايرلندا الشمالية)، حتى تشرشل النصير الملهم للوطنية الرومانتيكية في عصرنا، كان نصف أمريكي. لكن ليس رجال الحرب فقط، وإنما منظرو القومية جلهم أجانب أيضاً. الرابطة الجرمانية مثلاً التي أخذ النازيون منها الكثير من أفكارهم، كان جلها من نتاج رجال ليسوا ألماناً: فمثلاً كان هاوستون تشامبرلاين إنكليزياً وغوبيناو فرنسياً. كان روديارد كيبلينغ إنكليزياً، لكن من النوع المشكوك فيه، فقد انحدر من خلفية أنغلوهندية غير عادية (والده القيّم على متحف بومباي) وقضى طفولته المبكرة في الهند، وكان ذا قامة صغيرة وبشرة داكنة، سببت له شكوكاً مغلوطة عن امتلاكه دماً آسيوياً. قلت دائماً لو كان لدينا هتلر في هذه البلاد، فسيكون ايرلنديا شمالياً أو من جنوب أفريقيا أو مالطياً أو أوراسياً أو أمريكياً -لكن ليس إنكليزياً في كل الأحوال.

قيل إن ستة ملايين كتاب دمرتها الحملة الجوية لعام ١٩٤٠ من ضمنها ألف عنوان فريد لا يعوض. أغلبها لم يكن خسارة ربما، لكن المرعب أن تجد كمّ الأعمال الأدبية القياسية الكثيرة التي نفدت تماماً الآن. الورق من أجل أكبر كرش مرعبة، كما يمكنك أن ترى من مجرد نظرة سريعة إلى داخل أي واجهة مكتبة، بأن كل الطبعات المكررة كإيفري مان مثلاً، فجوات

ضخمة في قوائمها. حتى عمل مشهور كمعجم ويبستر مثلاً لم يعد الحصول عليه ممكناً، إلا إن عثرت صدفة على نسخة مستعملة. في العام الماضي كان عليّ بث برنامج إذاعي عن جاك لندن. حين بدأت بتجميع المادة، وجدت أن الكتب التي أردتها أكثر من غيرها من كتبه، تلاشت تماماً، وحتى مكتبة لندن لم تستطع إنتاجها. ولكي أحصل عليها كان عليّ الذهاب إلى غرفة المطالعة في المتحف البريطاني الذي لم يكن منفذاً سهلاً في تلك الأيام. وهذا يبدو كارثة، لأن جاك لندن واحد من الكتاب الوسط من حيث الجودة الذين ربما نسيت أعماله تماماً، إلا إذا تجشم العناء أحد ما لإحيائها. حتى **العقب الحديدية** التي كانت ندرة مميزة لبضع سنين، لم تُعد طباعتها، إلا عندما جعل منها صعود هتلر إلى السلطة موضوعاً راهناً.........

التريبيون ٧ يوليو/ تموز ١٩٤٤.

حين دمر الخليفة عمر مكتبات الإسكندرية، ظلت الحمامات العامة دافئة لمدة ثمانية عشر يوماً بالمخطوطات المحترقة، وهلك عدد كبير من تراجيديات يوريبيديس وغيرها بشكل لا يسترد كما قيل. عندما قرأت عن هذا وأنا صبي، أتذكر أنني استحسنتُ الأمر بحماس كبير، وكان الأمر بالنسبة إلي التخلص من استخراج معاني عدد كبير جداً من الكلمات من المعجم. أنا في الواحد والأربعين من العمر، ويفترض بعمري الكبير أنني تعلمت في زمن لا يمكن فيه تفادي اللاتينية واليونانية إلا بصعوبة كبيرة، بينما لم تكن "الإنكليزية" موضوعاً مدرسياً على الإطلاق.

تلاشى التعليم التقليدي أخيراً، لكن يوجد حتى الآن أشخاص كبار في السن يجبرون على تعلم الأعمال الباقية الكاملة لإسخيلوس وسوفوكليس ويوربيديس وأريستوفانيس وفيرجيل وهوراس وغيرهم من المؤلفين اللاتينيين والإغريق، أكثر بكثير مما يقرؤون تحف القرن الثامن عشر الإنكليزية. يبدي الناس ولاء كلامياً لفيلدينغ والبقية طبعاً، لكنهم لا يقرؤونهم. ويمكنك أن تكتشف من خلال استعلامات قليلة وسط أصدقائك كم شخصاً قرؤوا توم جونز مثلاً؟ وليسوا كثيرين الذين قرؤوا الكتب الحديثة من رحلات غوليفار حتى. حظي **روبنسون كروزو** بنوع من الشعبية في نسخ رياض أطفال، لكن الكتاب ككل معروف قليلاً، لدرجة أن قلة قليلة مطلعة تعرف بوجود الجزء الثاني (الرحلة عبر تارتاري). أتصور أن أعمال سوموليت هي الأقل قراءة من الكل، وقد حذفت الحبكة المركزية لمسرحية شو **بجماليون** من بيرغرين بيكل، ولم يشر أحد غيري إلى هذا في الطبعة كما أعتقد، مما يوحي أن قليلاً من

الأشخاص قرؤوا الكتاب. لكن الأغرب من كل ذلك، أن سموليت بقدر ما أعرف، لم يحصل على تشجيع أو تأييد القوميين الاسكتلنديين المتيقظين جداً الذين طالبوا بأن بايرون منهم. إن سموليت بالإضافة إلى كونه واحداً من أفضل الروائيين الذين أنتجتهم العروق الناطقة بالإنكليزية، كان اسكتلندياً، وصرح بذلك علناً في وقت يضر بسيرته ومهنته.

الحياة في العالم المتمدن

(العائلة تتناول الشاي)

أزيز-أزيز-أزيز!

"هل هناك جرس إنذار يرن؟"

"كلا، هو خال تماماً"

"ظننت أن هناك جرس إنذار يرن"

أزيز-أزيز-أزيز!

هناك آخر من تلك الأشياء قادم

لا بأس أنه على بعد أميال

أزيز-أزيز-أزيز!

احذر! ها هو يأتي! إنه تحت الطاولة! أسرعوا!

أزيز-أزيز-أزيز!

لا بأس إنه يضعف ويبهت.

أزيز-أزيز-أزيز!

إنه يعود!

يبدون في نوع من حلقة دائرية ويعودون ثانية. حصلوا على شيء في أعقابهم جعلهم يفعلونها. مثل قنبلة ضخمة مجنحة.

أزيز-أزيز-أزيز!

"يا يسوع! إنها ضربة فوق رؤوسنا!"

صمت مميت.

"الآن انخفض للأسفل. أبقِ رأسك منخفضاً جيداً. نعمة كبيرة أن الطفل ليس هنا!

"انظر إلى القط! هو مرعوب أيضاً"

"طبعاً الحيوانات تعرف. تستطيع أن تشعر بالاهتزازات"

دوي!

"الأمر على ما يرام، قلت لك إنها على بعد أميال"

(يستمر الشاي)

أرى أن اللورد وينترتون، كتب في إيفنينغ ستاندارد، يتكلم عن "التكتم اللافت (الذي لم يفرض بأمر قضائي أو قانون) الذي أظهره كل من البرلمان والصحافة في هذه الحرب، لتجنب تهديد الأمن القومي للخط، وأضاف أنه "فاز بإعجاب العالم المتمدن".

لا تلاحظ الصحافة البريطانية هذا التكتم الطوعي، إلا في زمن الحرب فقط. إن أحد الأشياء الأكثر غرابة عن إنكلترا، هو عدم وجود رقابة رسمية تقريباً، ومع ذلك لا يصل أي شيء هجومي فعلاً إلى الطباعة ضد الطبقة الحاكمة على الأقل في أي مكان يحتمل أن يقرأه عدد كبير من الناس. إذاً الأمر "لم ينضج" لذكر شيء أو آخر، فهو لن يذكر. تلخص أبيات هيلاري بيلوك الموقف (كما أعتقد):

لا أمل لك أن ترشو أو تحرف

الحمد للرب! الصحفي البريطاني

يرى فقط ما يفعله الإنسان

غير مرتش! لا توجد فرصة لذلك

لا رشاوى أو تهديدات أو عقوبات –تكفي مجرد إيماءة أو غمزة ويتمّ الشيء. مثال مشهور، قضية التنازل عن الحق. قبل أسابيع تفشت الفضيحة رسمياً، عشرات أو مئات الآلاف من

الناس سمعوا كل شيء عن السيدة سيمبسون، ومع ذلك لم تصدر كلمة واحدة من الصحافة ولا حتى في ديلي ووركر، رغم أن الصحف الأمريكية والأوروبية جعلت من القصة موضوعها المثير. لكن مع ذلك ليس هناك منع رسمي محدد في اعتقادي: مجرد "طلب" رسمي، وكان هناك اتفاق عام أن نشر الخبر قبل أوانه "لن يفيد". وأستطيع أن أذكر أمثلة أخرى من قصص الأخبار الجيدة التي فشلت أن ترى النور، رغم عدم وجود أي عقوبة لنشرها.

في هذا الوقت، يمتد هذا النوع من الرقابة المقنعة إلى الكتب أيضاً. لا تملي (الإم أو إي- وزارة الإعلام) طبعاً خطاً حزبياً أو تصدر فهرساً للحذف. هي "توصي" فقط الناشرين أن يأخذوا المخطوطات إلى وزارة الإعلام، وبدورها "تقترح" أن هذا أو ذاك غير مرغوب أو في غير أوانه أو "لا يخدم غرضاً جيداً". ورغم ذلك ليس هناك منع محدد أو بيان واضح، يبين أن هذا أو ذاك يجب ألا يطبع، سياسة رسمية لم يجر انتهاكها أبداً. كلاب السيرك تقفز حين يفرقع المدرب بسوطه، لكن الكلب المدرب جيداً هو الذي يقوم بشقلبته حين لا يكون هناك سوط. وتلك هي الحالة التي وصلنا إليها في هذه البلاد بفضل الثلاثمائة سنة من العيش معاً من دون حرب أهلية واحدة.

إليكم مسألة صغيرة تستخدم أحياناً كاختبار ذكاء:

مشى رجل مسافة أربعة أميال عن بيته باتجاه الجنوب، وقتل دباً رمياً بالرصاص. ثم مشى ميلين آخرين باتجاه الغرب، ثم مشى أربعة أميال باتجاه الشمال، وعاد إلى بيته ثانية. ما لون الدب؟

النقطة المشوقة حسب ملاحظتي- أن الرجال يرون جواب هذه المسألة عادة، لكن النساء لا يفعلن.

التريبيون ١٤ يوليو/ تموز ١٩٤٤.

استلمت عدداً من الرسائل، بعضها عنيف يهاجمني بسبب ملاحظاتي عن كراسة الآنسة فير بريتين المعادية للقصف. هناك نقطتان تحتاجان إلى تعليق أكبر كما يبدو.

الأولى، هي التهمة التي أصبحت شائعة تماماً، أننا "نحن بدأناه" أي أن بريطانيا كانت الدولة الأولى في ممارسة قصف منظم للمدنيين. كيف يمكن لأي واحد أن يدعي بهذا، وفي

الذهن تاريخ العشر سنوات الماضية، شيء أبعد من تصوري. كان العمل الأول في الحرب الحالية - قبل أن يمر إعلان حرب ببضع ساعات، إن كنت أتذكر بشكل صحيح - القصف الألماني لوارسو. قصف الألمان المدينة بالقنابل والقذائف بكثافة شديدة، لدرجة كما جاء عن البولونيين شبّ فيها ٧٠٠ حريق دفعة واحدة، ثم أنتجوا فيلماً عن دمار وارسو أطلقوا عيه اسم "تعميد حريق"، وأرسلوا نسخاً منه إلى كل أرجاء العالم، بهدف ترويع الحياديين. قبل هذا بسنوات عديدة، قصف فيلق النسر الذي أرسله هتلر إلى إسبانيا المدن الإسبانية الواحدة تلو الأخرى. قتلت "الغارات الصامتة" على برشلونة في عام ١٩٣٨ ألوفاً كثيرة من الناس في غضون يومين. قبل ذلك، قصف الإيطاليون الإثيوبيين العزل تماماً، وفاخروا بأعمالهم البطولية كشيء مضحك إلى حد بعيد. كتب برنو موسوليني مقالة صحفية، وصف فيها الإثيوبيين الذين قُصفوا "يتفجرون ويتفتتون مثل زهرة"، وقال بأن ذلك كان "الأكثر إمتاعاً". واستمر اليابانيون منذ ١٩٣١ وبشكل مكثف منذ ١٩٣٧، بقصف المدن الصينية المزدحمة بالسكان، التي لا يوجد فيها أي نظام وقاية من الغارات الجوية، ولا مدافع مضادة للطائرات المقاتلة.

أنا لا أحاول أن أبرهن على أن أسود وأسود يساويان أبيض، ولا أن السجل البريطاني سجل جيد بشكل خاص. ففي عدد من "الحروب الصغرى" منذ عام ١٩٢٠ فصاعداً، أسقط سلاح الجو البريطاني قنابله على الأفغان والهنود والعرب الذين يفتقرون إلى قوة الرد والانتقام. لكن غير صحيح القول إن القصف على صعيد واسع لمناطق البلدات المزدحمة بالسكان، بهدف إحداث ذعر، هو اختراع بريطاني. الدول الفاشية هي من بدأت هذه الممارسة، وطالما ظلت الحرب الجوية لمصلحتهم، فإنهم يصرحون بأهدافهم بوضوح تام.

الشيء الآخر الذي يحتاج إلى معالجة، هو البكاء البيغائي عن "قتل النساء والأطفال" أشرت إلى هذا سابقاًن لكن من الواضح أن الأمر يحتاج إلى تكرار: ربما من الأفضل قتل شريحة مختلطة من السكان بدلاً من قتل الشبان. إن كانت الأرقام التي ينشرها الألمان صحيحة، وأننا قتلنا مليون ومائتي ألف مدني في غاراتنا، فإن خسارة الأرواح أضرت العرق الألماني بشكل أقل من مثيلتها على الجبهة الروسية أو في أفريقيا وإيطاليا.

إن أية أمة في حالة حرب، تبذل أقصى ما تستطيع لحماية أطفالها. وعدد الأطفال الذين قتلوا في الغارات الجوية، ربما لا يتوافق مع نسبتهم المئوية من عدد السكان العام. لا يمكن حماية

النساء بنفس الدرجة، لكن الاحتجاج العنيف ضد قتل النساء، إن قبلتم بالقتل إطلاقاً، هو مجرد عاطفية مبتذلة. لماذا يعتبر قتل المرأة أسوأ من قتل الرجل؟ الحجة المقدمة عادة في قتل النساء أنك تقتل الولادات بينما يمكن توفير الرجال بسهولة. لكن هذه فكرة خاطئة تبين أن الكائنات البشرية يمكن أن تتكاثر مثل الحيوانات. الفكرة التي خلفها هي بما أن رجلاً واحداً قادر على تلقيح عدد كبير من النساء كما يستطيع الكبش تلقيح آلاف النعاج، فإن خسارة حياة الذكر غير مهمة بالمقارنة. لكن البشر ليسوا قطيعاً. حين تترك المجزرة التي تسببها الحرب فائضاً من النسوة، فإن الأغلبية الضخمة من تلك النسوة لن يحملن بأطفال. حياة الرجال مهمة بيولوجياً مثل حياة النساء، وبالدرجة نفسها تقريباً.

خسرت الإمبراطورية البريطانية في الحرب الأخيرة مليون رجل، ثلاثة أرباعهم تقريباً من هذه الجزر، ويفترض أن يكون أغلبهم الآن دون الثلاثين من عمرهم. ولو كان لكل واحد من هؤلاء الشبان طفل واحد، لكان لدينا الآن ٧٥٠ ألف نسمة زيادة بعمر العشرين تقريباً. فرنسا التي خسرت خسارة أثقل وأكبر بكثير، لن تتعافى من مذبحة الحرب الأخيرة أبداً، ويشك أن تتعافى بريطانيا منها تماماً أيضاً. لا نستطيع إحصاء خسائر الأرواح في الحرب الحالية، لكن الحرب الأخيرة قتلت من عشرة ملايين إلى عشرين مليون شاب. ولو أنها جرت بالطريقة التي ستجري بها الحرب التالية بالقنابل الطائرة والصواريخ والأسلحة بعيدة المدى الأخرى التي تقتل الكبير والصغير والسليم والمريض والذكر والأنثى من غير تحيز، لكان ضررها على الحضارة الأوروبية أقل نوعاً ما مما فعلت.

خلافاً لما يعتقده بعض المراسلين، أنا لست متحمساً للغارات الجوية سواء غاراتنا أو غارات العدو، ومثل الكثيرين من الناس في هذه البلاد، ضقتُ ذرعاً من القنابل بالتأكيد، لكنني أعترض على الرياء في قبول القوة كوسيلة، بينما نصرخ ضد هذا السلاح الخاص أو ذاك، أو نشجب الحرب، بينما نريد الحفاظ على نوع المجتمع الذي يجعل الحرب حتمية.

لاحظت في مفكرتي لعام ١٩٤٠ توقعاً بأن الإعلانات التجارية ستختفي من الجدران خلال سنة واحدة، وبدا لي هذا محتملاً في ذلك الوقت. وبعد سنة أو سنتين بدا الاختفاء يحدث فعلياً، لكن ببطء أكبر مما توقعت. كانت الإعلانات التجارية تنكمش في العدد والحجم،

لتأخذ إعلانات الوزارات المتنوعة مكانها أكثر فأكثر على الجدران وفي الصحف. يمكن القول في الحكم من هذا العرض لوحده، إن الروح التجارية كانت في انحدار بالتأكيد. لكن في الستين الأخيرتين حققت الإعلانات التجارية بكل سخافتها وتكبرها عودة ثابتة. في السنوات الأخيرة، أرى أن الأشد عدوانية من كل الإعلانات التجارية البريطانية، هي إعلانات روز لايم جوس، مع فكرة "الزير الصغير" وحوار بي جي ودهاوس الخاص بها.

أخشى أنك لا تراني في أفضل حالاتي هذا الصباح يا جينكس. كانت هناك حفلة صاخبة في الليلة الماضية. سيدك الصغير نظر إلى النبيذ حين كان أحمر وإلى الويسكي حين كان أصفر. سأستعمل العبارة السوقية. رأسي ثقيل، ماذا تتوقع من الطبيب أن يصف لي يا جينكس؟

لو تجرأت يا سيدي، فإن قدحاً من ماء الصودا مع دفقة من عصير الليمون روز، سيحقق النتيجة المرادة. هيا هاته يا جينكس! أنت دليلي دائماً وفيلسوفي وصديقي إلخ إلخ إلخ.

حين تتأمل ستجد أن هذا الإعلان يظهر في كل برنامج مسرحي مثلاً ليكون لكل مرتاد للمسارح حياة وهمية سرية يظن نفسه شاباً عصرياً مع خدم مخلصين كبار فيها، يا له من مشهد تغيير اجتماعي عنيف يتقهقر بشكل ملحوظ.

هناك أيضاً الإعلانات عن مقويات الشعر، التي تخبرك كيف حصلت دافني على ترقية في القوة الجوية الاحتياطية النسوية، بفضل أناقة ولمعان شعرها. لكن هذه الإعلانات مضللة وداعرة أيضاً، لأنني لم أمرّ بمجموعة من الضباط في القوة الجوية الاحتياطية النسوية أو الخدمة البحرية الملكية النسوية، من دون أن أفكر ملياً في أن الترقية في كل الأحوال في الخدمة النسوية، لا علاقة لها بتعبيرات الوجه لوكس -بالجمال.

كما أشاء ٢١ يوليو/ تموز ١٩٤٤.

وجدت نسخة من مذكرات صموئيل بتلر الطبعة الكاملة من السلسلة الأولى التي نشرها جوناثان كيب عام ١٩٢١ عمرها عشرون سنة، وتعرضت لعدة مواسم من المطر في بورما، لكنها على أي حال موجودة وحية، وهذا جيد، لأن هذا آخر كتاب من الكتب المشهورة التي لم يعد شراؤها متاحاً. في وقت لاحق أصدر جوناثان كيب نسخة مختصرة في مكتبة المسافر، لكنها كانت غير مرضية. والسلسلة الثانية التي نشرت عام ١٩٣٤ لم تحتوِ على قيمة كبيرة. إنها

السلسلة الأولى التي تجد فيها قصة مقابلة بتلر مع مسؤول تركي في الدردنيل، وتجد أسلوبه في شراء البيض الجديد، ومحاولاته لتصوير مطران أصابه دوار البحر، وتفاهات مماثلة أخرى لها قيمة أكبر من أعماله الرئيسية.

إن فكرة بتلر الرئيسية، تبدو إما غير مهمة أو أنها تعاني من تأكيد خاطئ. باستثناء علماء علم الأحياء، من يهتم الآن إن كانت نظرية داروين في التطور أو نسخة لاماركيان التي يؤيدها بتلر، هي الصحيحة؟ إن قضية التطور برمتها تبدو أقل أهمية وخطورة مما تبدو عليه، لأننا بخلاف الفيكتوريين لا نشعر إن كنا ننحدر من أصل حيواني، فهذا شيء مهين للكرامة البشرية. ومن جانب آخر يسخر بتلر ويستهزئ كثيراً من أشياء تبدو لنا في غاية الأهمية. مثلاً:

يجب ألا نبحث عن الاختلافات الرئيسية والفرعية في العرق البشري بين الزنوج والشراكسة والماليزيين وسكان أمريكا الأصليين، وإنما بين الأغنياء والفقراء. إن الاختلاف في التكوين البدني بين هذين الجنسين، أكبر مما هو بين النماذج والأنواع البشرية المزعومة. يستطيع الرجل الغني أن يذهب من نيوزيلندا إلى إنكلترا متى أحب، والرجل الفقير ممنوع حمله إلى أبعد من حدود ضيقة. لم يستطع الغني أو الفقير رؤية فلسفة الشيء أو يعترف أن من يستطيع أن يضيف جزءاً غير ضروري على واحد من قوارب بي أن أو على هويته، هو منظم أكثر من الذي لا يستطيع.

هناك مقاطع لا تحصى مشابهة في عمل بتلر، يمكنك أن تفسرها بسهولة بمعنى ماركسي، لكن النقطة أن بتلر نفسه لم يفعل ذلك. أخيراً فإن وجهة نظره محافظة، على الرغم من هجومه الناجح على المعتقد المسيحي ومؤسسة العائلة. الفقر مهين، ولذلك احرص ألا تكون فقيراً- هذا هو رد فعله. من هنا تأتي النهاية غير المحتملة وغير المرضية لكتابه **طريق كل البشر** الذي يتناقض بشكل غريب مع واقعية الأجزاء السابقة.

رغم أنه نصف بالٍ، إلا أنه أفضل بكثير من معاصريه الجديين مثل ميريديث وكارليل، لأنه لم يفقد القدرة على استخدام عينيه، ووجد المتعة في الأشياء الصغيرة، وكتب بشكل جيد بالمعنى التقني الضيق. حين يقارن المرء نثر بتلر مع نثر ميرديث المشوه ونثر ستيفنسون المتصنع، يرى الأفضلية الهائلة المكتسبة من عدم محاولة أن تبدو حاذقاً وذكياً. إن أفكار بتلر حول الموضوع تستحق الاقتباس:

أنا لم أعرف كاتباً بذل جهوداً كبيرة على أسلوبه وكان مقروءاً في الوقت نفسه. ينبغي على الإنسان أن يتحمل عناءً كبيراً كي يكتب بشكل واضح ومختصر وعذب، لكنه سيكتب ثلاث جمل أو أربع أكثر، وإن عمل أكثر من ذلك، فهذا أسوأ من عدم إعادة الكتابة إطلاقاً. سيتكبد عناء كبيراً ليرى أنه لم يكرر نفسه ويرتب مادته بالطريقة الأفضل لكي يفهمه القارئ، ويحذف الكلمات غير الضرورية، ويتجنب المادة غير اللازمة للموضوع. لكن في كل حالة لن يفكر بأسلوبه، وإنما بما يناسب قارئه..... أود أن أؤكد أنني لم أكترث أبداً بأسلوبي الكتابي، ولم أفكر فيه إطلاقاً، ولم أعرف ولم أرد أن أعرف إن كان أسلوباً أو لم يكن، كما أعتقد وأتمنى أن يكون أسلوباً صريحاً وصادقاً ومستقيماً. لا أستطيع أن أتخيل كيف يستطيع الرجل التفكير بأسلوبه من دون أن يخسر نفسه وقراءه. ويضيف بتلر بشكل مميز خاص على أي حال، أنه بذل جهوداً كبيرة لتحسين خط يده.

حجة ينبغي أن يستعد الاشتراكيون لمواجهتها، بما أنها تطرح بشكل دائم من قبل المدافعين المسيحيين والمتشائمين الجدد من أمثال جيمس بيرنهام، وهي عدم قابلية "الطبيعة البشرية" للتغيير. يُتهم الاشتراكيون - أعتقد بلا مبرر- في اعتقادهم بأن الإنسان قابل للتحسن، وعندئذ يشار إلى أن التاريخ البشري في الحقيقة تاريخ حكاية طويلة من الطمع واللصوصية والاضطهاد. وقيل إن الإنسان يحاول دائماً أن يقهر جاره ويتفوق عليه ويأخذ أكثر من نصيبه بأقصى ما يستطيع من الملكية لنفسه وعائلته. إن الإنسان آثم ومذنب بطبيعته، ولا يمكن أن تجعله فاضلاً بمرسوم برلماني. لذلك يبقى المجتمع اللاطبقي مستحيلاً إلى الأبد على الرغم من إمكانية التحكم بالاستغلال الاقتصادي إلى حد.

إن الرد المناسب كما يبدو لي، أن هذه الحجة تنتمي إلى العصر الحجري، وأنها تفترض مسبقاً أن السلع المادية ستظل في حالة شحّ وندرة دائماً. إن قوة الجوع لدى الكائنات البشرية، تمثل مشكلة خطيرة في الحقيقة، لكن ليس هناك مبرر للاعتقاد أن الطمع في الثروة صفة إنسانية مميزة دائمة. نحن أنانيون في المسائل الاقتصادية، لأننا نعيش في رعب من الفقر، لكن حين لا تكون السلعة نادرة، لن يحاول أي أحد أن يأخذ أكثر من حاجته منها. إن المليونير والمتسول كلاهما قانعان بالهواء الذي يتنفسانه فقط. لنأخذ الماء مثلاً أيضاً. في هذه البلاد نحن لا نخشى

من نقص في الماء، ولدينا الكثير منه، وبالتالي من النادر أن يدخل الماء في شعورنا. لكن في البلدان الجافة كبلدان شمال أفريقيا، يسبب نقص المياه الكثير من الحسد والغيرة والكره والجرائم المرعبة. وهكذا الحال مع بقية السلع الأخرى، فلو جعلت كثيرة، ويمكن أن يكون هذا سهلاً، فلن يبقى مبرر للتفكير بأن غرائز الكائن البشري المكتسبة المفترضة لن تتكاثر بعد جيلين اثنين. وأخيراً، إن كانت الطبيعة البشرية لا تتبدل أبداً، فلماذا لم نعد نمارس عادة أكل لحوم البشر ولا نريد ذلك حتى؟

لغز عقلي آخر

اعتاد رجل أعمال الذهاب إلى بيته في قطار الضواحي الذي يغادر لندن في السابعة والنصف. وفي مساء أحد الأيام أوقفه الحارس الليلي الذي جاء من أجل نوبته وقال: "المعذرة يا سيدي، أنصحك ألا تسافر بقطارك المعتاد الليلة. حلمت ليلة أمس بتحطم القطار ومقتل نصف الناس الذين كانوا فيه. ربما تعتقد أنني شخص أؤمن بالخرافات، ولكن الحلم كان قوياً ونشطاً جداً لدرجة لم أستطع إلا أن أعتبره إنذاراً.

تأثر رجل الأعمال بما يكفي، وانتظر، ثم استقل القطار الذي تلى قطاره المعتاد، وحين فتح الجريدة في صباح اليوم التالي رأى وبشكل مؤكد أن القطار تحطم وقتل فيه أشخاص كثيرون. في المساء أرسل بطلب الحارس الليلي وقال له:

"أريد أن أشكرك لأنك حذرتني ليلة أمس. أعتبرك أنقذت حياتي، وفي المقابل أحب أن أقدم إليك هدية من ثلاثين جنيهاً، وأن أخبرك أيضاً أنك مفصول من العمل. لديك مهلة أسبوع بدءاً من اليوم.

هذا فعل عقوق، لكن رجل الأعمال كان صارماً في عقوقه. لماذا؟

كما أشاء ٢٨ يوليو/ تموز ١٩٤٤.

منذ بضع سنوات، في سياق مقالة عن مجلات الصبيان الأسبوعية، كتبتُ بعض الملاحظات العابرة عن صحف النساء- أقصد الصحف التي ببنسين من أنموذج بيغس بيبر والتي تسمى عادة "كتب الحب"، وجلب لي من بين رسائل كثيرة رسالة طويلة من امرأة

ساهمت وعملت للاكي ستار والغولدن ستار وبيغز بيبر وسيكريتس وذا أوراكل وعدد من الصحف المشابهة. كانت نقطتها الرئيسية أنني كنت مخطئاً في القول إن هذه الصحف تهدف إلى خلق وهم الثروة. قصصها من نوع سندريلا، ولا تستغل "حافز أنها تزوجت من رئيس عملها". أضافت المتراسلة:

ذكرت البطالة - بشكل متكرر... الإعانة الحكومية والنقابة لم تذكرا إطلاقاً. ربما تكون متأثرة بحقيقة أن أكبر الناشرين لهذه المجلات النسائية دور غير نقابية. لا يسمح للمرء أبداً بانتقاد النظام أو أن يظهر الصراع الطبقي كما هو في الواقع، وكلمة اشتراكي لم تذكر أبداً. - كل هذا صحيح تماماً. لكن ربما يكون من الممتع أن نضيف أن الشعور الطبقي ليس غائباً تماماً. الأغنياء يصورون دائماً كصانعي مال بخلاء قساة وكسالى. الزير الغني والكسول يخطط دائماً للزواج من دون خاتم، وتصور الصبية ينقذها عامل المرآب. الرجال من دون سيارات "سيئون" عادة، والرجال الذين في البدلات باهظة الكلفة والمفصلة جيداً دائماً محتالون. إن المثل الأعلى والهدف من هذه القصص، ليس دخلاً يساوي زوجة مدير بنك، وإنما حياة تعتبر جيدة. الحياة مع زوج عطوف مستقيم أخلاقياً مع أطفال و"كوخ صغير" لقضاء العطل. القصص مشروطة لتظهر أن الحياة الشحيحة ليست سيئة جداً فعلا، طالما أنت سعيد وصادق ومخلص، وأن الغنى يجلب المشاكل والأصدقاء المزيفين. الفقراء يعطون قيماً أخلاقية يتوقون للوصول إليها.

توجد تعليقات كثيرة، يمكن أن أدونها هنا، لكنني اخترت أن أهتم بنقطة التفوق الأخلاقي بكونك فقيراً، مع عدم ذكر النقابات والاشتراكية. ليس هناك شك بأن هذا سياسة متعمدة. في صحيفة نسائية واحدة، قرأت قصة تعالج إضراباً في منجم فحم، وحتى في هذا السياق لم تذكر النقابات المهنية. حين دخلت جمهوريات الاتحاد السوفيتي الاشتراكية الحرب، اغتنمت على الفور واحدة من هذه الصحف، ونشرت قصة متسلسلة بعنوان "عشيقها السوفيتي"، لكن يمكننا التأكد أن الماركسية لم تدخل فيها بشكل كبير جداً.

في الحقيقة، إن هذا العمل بخصوص التفوق الأخلاقي للفقراء، واحد من أشد الأشكال المهلكة للهروب من الواقع الذي طورته الطبقة الحاكمة. يمكن أن تداس وتتعرض للنصب والاحتيال، لكنك في عيون الرب أنت متفوق على مضطهديك، وكذلك يمكنك الاستمتاع

بوجود خيالي بواسطة الأفلام والمجلات، تنتصر فيه على الأشخاص الذين هزموك في الحياة الواقعية. إن كل أشكال الفن مصممة لتجذب أكبر عدد من الناس، ولم يسمع أبداً بتفوق الرجل الغني على الرجل الفقير. الرجل الغني سيء عادة ومكائده تفشل دائماً. الرجل الفقير الطيب يهزم الرجل الغني السيئ، وهي صيغة مقبولة. ولو كان العكس لشعرنا بوجود شيء خاطئ جداً في مكان ما. هذا بارز في الأفلام والمجلات الرخيصة، وربما يكون أكثر بروزاً في الأفلام الصامتة القديمة. إن الغالبية العظمى من الناس التي تشاهد الأفلام هي من الفقراء، لهذا تكون سياسة الفيلم أن تجعل من الفقير بطلاً. أساطين السينما وسادة الصحافة وأمثالهم، يكومون قدراً كبيراً من ثرواتهم بالإشارة إلى كون الثروة شريرة.

إن صيغة الرجل الفقير الطيب يهزم الرجل الغني السيئ، هي نسخة أشد مكراً من "فطيرة في السماء" (الوعد الفارغ) وتهذيب للصراع الطبقي. طالما تستطيع أن تحلم بأنك رجل الكاراج القوي والمجد الذي يوجه لصانع المال لكمة على الفك، يمكنك نسيان الوقائع الحقيقية. هذه خدعة أذكى من الوهم بالثروة، لكن الغريب جداً أن الواقع يدخل في الصحف في مجلات النساء هذه، ليس من خلال القصص، وإنما من خلال أعمدة المراسلة خصوصاً في الصحف التي تقدم نصائح طبية مجانية. هنا يمكنك أن تقرأ حكايات مزعجة عن "سيقان سيئة" و"بواسير" و"أم التسعة" و"المصابة بالإمساك دائماً". مقارنة هذه الرسائل بقصص الحب المتلاصقة جنباً إلى جنب، تبين الدور الكبير الذي تلعبه أحلام اليقظة في الحياة العصرية.

لقد قرأت للتو رواية كيفن كيسلر **المجالدون** التي تصف تمرد العبيد بقيادة سبارتاكوس عام ٧٠ ق.م. إنها ليست أفضل أعماله، وبأي حال إن أي رواية تصف تمرد العبيد في الأزمنة القديمة، ستعاني من كونها ستخضع لمقارنة مع سالامبو العظيمة للكاتب فولتير عن تمرد المرتزقة القرطاجيين. لكنها ذكرتني بعدد العبيد القليل جداً الذين نعرف عنهم أي شيء. أنا نفسي أعرف أسماء ثلاثة عبيد فقط: سبارتاكوس نفسه، والخرافي إيسوب الذي كان عبداً كما يفترض، والفيلسوف أبكتيتوس الذي كان أحد العبيد المتعلمين والذي أحب الحكام الأثرياء الرومان أن يملكوهم وسط حاشيتهم. كل الآخرين ليسوا أسماء حتى. نحن لا نعرف مثلاً أو على الأقل أنا لا أعرف اسم واحد من عشرات آلاف الكائنات البشرية التي بنت الأهرامات. أعتقد أن سبارتاكوس هو العبد الأكثر شهرة في كل الأزمنة. إن الحضارة استندت على

العبودية لأكثر من خمسة آلاف سنة، وحتى عندما ينجو ويحيا اسم عبد واحد، فهذا لأنه لم ينصع إلى الأمر القضائي "لا تقاوم الشر"، لكنه أثار تمرداً عنيفاً. أعتقد أن هناك مغزى من هذا للسلميين الذين ينبذون الحرب.

نشرنا في الأسبوع الماضي جزءاً من رسالة عن قصيدة معادية للحرب بعنوان "رؤيا أوباديا هورنبروك" مع التعليق "أنا متفاجئ بأنكم نشرتموها". أنا مثل مراسلنا، أختلف مع أوباديا هورنبروك، لكن هذا ليس سبباً كافياً لعدم نشر ما كتب. لكل جريدة سياسة، وفي أقسامها السياسية تفرض هذه السياسة وتقصي السياسات الأخرى، وهذا الفعل ليس غباء. لكن هدف الصحيفة الأدبية قضية أخرى. حتى هناك لا توجد صحيفة تعطي مكاناً فيها لهجوم مباشر على ما تؤيده وتناصره. نحن لن ننشر مقالة تمتدح معاداة السامية مثلاً، لكن بمنح الموافقة الضرورية الدنيا، فإن القيمة الأدبية هي الشيء المهم. بالإضافة إلى ذلك، إن كانت الحرب حول شيء ما، فهي لصالح حرية الفكر. يجب عليّ أن أكون آخر من يدعي التفوق الأخلاقي على أعدائنا، وهناك حجة قوية بأن الإمبريالية البريطانية أسوأ من النازية. لكن يبقى الاختلاف الذي لم يفسر، بأنك في بريطانيا حر نسبياً بأن تقول وتنشر. حتى في أشد البقع سواداً في الإمبراطورية البريطانية كالهند مثلاً، هناك حرية تعبير أكبر من أي دولة استبدادية شمولية. أنا أريد أن يبقى هذا صحيحاً وحقيقياً، وبين الفينة والأخرى إعطاء الآراء غير الشكلية فرصة استماع. وأعتقد أننا نساعدها على هذا.

التريبيون ٤ أغسطس/ آب ١٩٤٤

بذكر القصف المشبع، أضاف مراسل صحفي اختلفَ معي بشدة وكان من السلميين الرافضين لحمل السلاح بأي شكل، ثم اعترف وقال "يجب أن يُهزم الهون". لكنه اعترض على الأساليب البربرية التي نستخدمها الآن فقط.

الآن يبدو لي أنك تسبب ضرراً أقل بإسقاط القنابل على الناس من تسميتهم بـ "الهون". من الواضح أن المرء لا يريد أن يسبب الموت والجروح إن استطاع تجنب ذلك، لكن لا أستطيع أن أشعر أن مجرد القتل حاسم وحيوي. سوف نموت بعد أقل من مئة سنة وأغلبنا بالرعب القذر المعروف بـ "الموت الطبيعي". الشيء الشرير حقاً أن تتصرف بطريقة تصبح فيها الحياة المسالمة مستحيلة. الحرب تؤذي نسيج الحضارة، ليس بالتدمير الذي تسببه (التأثير الجوهري للحرب

يمكن أن يزيد القدرة الإنتاجية للعالم كله) أو بذبح الكائنات البشرية حتى، وإنما بإثارة الكره والخداع. أنت لا تخطئ بحق عدوك في أعماقك بإطلاق النار عليه، لكن من خلال كرهه وابتداع الأكاذيب عنه وتربية الأطفال على تصديقها والمطالبة بشرط سلام جائر يسبب المزيد من الحروب المحتملة، أنت لا تهلك جيلاً واحداً وإنما الإنسانية نفسها.

من خلال المشاهدة، فإن الأشخاص الذين أصيبوا بأقل درجة من هستريا الحرب، هم الجنود المقاتلون. أنهم أقل ميلاً من كل الناس إلى كره العدو وبلع الدعاية الكاذبة أو المطالبة بسلام انتقامي. لدى كل الجنود تقريباً -وهذا ينطبق على الجنود المحترفين في وقت السلم حتى- موقف عقلاني نحو الحرب. هم يدركون أنها مثيرة للاشمئزاز وأنها ربما تكون ضرورية. هذا أصعب على المدني، لأن الموقف المتسق للجندي ناتج جزئياً عن الإنهاك الصرف والنتائج الواقعية للخطر والاحتكاك المستمر مع آلته العسكرية. لدى المدني الشبعان عاطفة فائضة أكثر، وهو ميال إلى استهلاكها في كره شخص أو آخر -العدو ولو كان ببغاء، وحليفه إن كان من الرافضين لحمل السلاح. لكن عقلية الحرب شيء يمكن الصراع ضده وقهره، مثلما يمكن التغلب على الخوف من الرصاص. المشكلة أن كلاً من اتحاد ضمان السلام وجمعية لن تتكرر ثانية أبداً لا يعرفان عقلية الحرب حين يريانها. في الوقت الحالي، فإن الحقيقة المتمثلة بأن هذه الألقاب الحربية المهينة مثل "الهون" لم تجذب الجمهور الكبير، تبدو لي فألاً حسناً.

إن الذي بدا لي دائماً واحداً من أشد الأفعال الصادمة في الحرب الأخيرة، هو فعل لم يستهدف قتل أحد، بل على العكس ربما أنقذ أرواحاً كثيرة. قبل إطلاق هجومهم الكبير على كابوريتو، أمطر الألمان الجيش الإيطالي بنشرات دعائية اشتراكية مزيفة، زعموا فيها أن الجنود الألمان مستعدون لقتل ضباطهم والتآخي مع رفاقهم الإيطاليين إلخ إلخ. خدع عدد من الإيطاليين الذين أتوا ليتآخوا مع الألمان، فحُولوا إلى أسرى- وكما أعتقد سخروا منهم بسبب سذاجتهم. سمعت دفاعاً عن هذا العمل، بأنه طريقة ذكية وإنسانية جداً لشن الحرب- إن كان هدفك الوحيد هو أن تنقذ أكبر قدر من الأشخاص، ومع ذلك فإن خدعة مثل تلك تؤذي جذور التضامن الإنساني بطريقة يعجز أي عمل عنيف عن إحداثها.

أرى أن الحواجز تعود- الخشبية فقط، لكنها تظل حواجز- في ساحة تلو الأخرى في لندن. لكي يتمكن المقيمون الشرعيون الاستفادة من مفاتيحهم ثانية، ويمكن إبعاد أطفال الفقراء في الخارج.

حين أزيلت الحواجز التي حول المنتزهات العامة والساحات، كان الهدف جزئياً تكويم الخردة، لكنها ظلت أيضاً إيماءة ديمقراطية. المزيد من المساحات الخضراء مفتوحة للعامة الآن، ويمكنك البقاء في المنتزهات في كل الساعات، بدلاً من أن تُطارد وتُطرد في أوقات الإغلاق من قبل حراس قساة. واكتشف أيضاً أن هذه الحواجز لم تكن ضرورية فقط، وإنما بشعة بشكل شنيع. تحسنت المنتزهات بفضل فتحها واكتسبت منظراً ودياً ريفياً تقريباً لم تعرفه من قبل، ولو تلاشت الحواجز بشكل دائم، فسيتلو التحسن السابق تحسن آخر. جنينات كئيبة من أشجار الغار وجنبة الرباط -نباتات غير ملائمة لإنكلترا ومغبرة دائماً في كل الأحوال في لندن- كان يمكن نكشها واستبدالها بأسرة من الزهور. لكن المتنفذين نجحوا في تفادي هذا الإصلاح مثل الكثير غيره. وفي كل مكان انتصبت سياجات الأوتدة الخشبية، عداك عن الهدر في الجهد وفي الخشب.

حين كنت في الحرس الوطني، كنا نقول إن العلامة السيئة حين يطبق الجلد بالسوط الذي لم يحدث بعد، لكن كل الأعراض الاجتماعية الثانوية تشير إلى نفس الاتجاه، أما العلامة الأسوأ من الكل التي يجب علينا توقع حدوثها في الحال تقريباً في اعتقادي- إذا فاز التوريون في الانتخابات العامة- الظهور الجديد للقبعات العالية في شوارع لندن التي لن يلبسها المقاولون أو رسل البنوك. نأمل أن ننتقد ونحلل قبل أن يطول الأمد -وفي الوقت الراهن أنتهز الفرصة للفت الانتباه إلى- كتاب غير عادي اسمه شارع برانش للمؤلفة لماريا بانيث، وهي عاملة متطوعة أو كانت تعمل في نادٍ للأطفال، وكتابها يكشف الظروف الهمجية التي مازال أطفال لندن يتربون فيها، لكن ليس واضحاً تماماً إن كانت هذه الظروف ناتجة عن الحرب. أود أن أقرأ سرداً رسمياً لأثر الحرب على الأطفال. لقد أخلي مئات الآلاف من أطفال المدن إلى مناطق ريفية وانقطع الكثيرون منهم عن التعليم لشهور دفعة واحدة، ومرّ آخرون منهم بتجارب مرعبة مع القنابل (في وقت سابق من الحرب، فتاة صغيرة في الثامنة أخليت إلى قرية هيرتفوردشاير، أكدت لي أنها قصفت سبع مرات) ونام قسم آخر منهم في ملاجئ أنبوبية

أحياناً لمدة سنة متواصلة تقريباً. أود أن أعرف مدى تأقلم أطفال المدن مع حياة الريف- إن كانوا تربوا على الاهتمام بالطيور والحيوانات، أم أنهم تاقوا للعودة إلى دور السينما- وإن كان هناك أي زيادة مهمة في جرائم الأحداث. إن الأطفال الذين وصفتهم السيدة بانيث يبدون مثل عصابات أكثر من "أطفال جامحين"، وهم منتج جانبي للثورة الروسية.

في الماضي في القرن الثامن عشر، حين كان الموسلين الهندي أحد عجائب العالم، أرسل ملك هندي رسلاً إلى بلاط لويس الخامس عشر للتفاوض حول اتفاق تجاري، وكانوا يدركون أن للنساء في أوروبا نفوذاً سياسياً عظيماً، وجلب الرسل لهن معهم بالة من الموسلين النفيس، وأعطيت لهم تعليمات بتقديمه إلى خليلة لويس. لسوء الحظ لم تكن معلوماتهم حديثة: مشاعر لويس غير المستقرة انحرفت، وقدم الموسلين إلى خليلة نبذها مسبقاً. كانت المهمة فاشلة، وقطعت أعناق الرسل حين عادوا إلى الوطن.

لا أعرف إن كان لهذه القصة مغزى، لكن حين أرى نوع الناس الذين تحب وزارة خارجيتنا جمعهم والاجتماع بهم، أتذكرها دائماً تقريباً.

التريبيون ١١ أغسطس/ آب ١٩٤٤

منذ بضعة أيام، كتب لي شخص من غرب أفريقيا يخبرني أن إحدى صالات الرقص في لندن نصبت "عائقاً لونياً"، لكي ترضي الجنود الأمريكيين الذين شكلوا قسماً من زبائنها. محادثة هاتفية مع إدارة صالة الرقص أتت لنا بالأجوبة: أ) إن "الحاجز اللوني" ملغى و(ب) إنه لم يفرض أبداً. لكنني أعتقد أن لتهمة مخبرنا نوع من الأساس. كانت هناك حوادث مماثلة أخرى مؤخراً. مثلاً خلال الأسبوع الماضي أبرزت دعوة قضائية أنه لم يسمح للزنوج الهنود الغربيين العاملين في هذه البلاد بالدخول إلى أماكن التسلية وهم يلبسون الزي الرسمي للحرس الوطني. وهناك أمثلة كثيرة عن طرد هنود وزنوج وآخرين من الفنادق على أساس أننا "لا نقبل الناس الملونين"

من الهام جداً أن نكون يقظين ضد هذا النوع من الشيء، وأن نثير أكبر هياج شعبي ممكن كلما حدث، لأنه واحد من المسائل التي تحقق إثارة الضجة شيئاً فيها. لا يوجد هناك عجز وعدم أهلية قانونية ضد الناس الملونين في هذه البلاد، والأكثر أن الشعور اللوني الشعبي قليل

جداً. (هذا ليس بسبب أي قيمة موروثة في الشعب البريطاني كما بين سلوكنا في الهند، وإنما لأن بريطانيا نفسها ليست فيها مشكلة اللون).

تنشأ المشكلة بنفس الطريقة دائماً. فندق أو مطعم أو أي شيء آخر يرتاده الناس الذين يملكون المال لإنفاقه، ويعترضون على الاختلاط بالهنود أو الزنوج. يجبرون المالك أنه إذا لم يفرض حاجز اللون، فسيذهبون إلى مكان آخر. قد يكونون أقلية صغيرة وقد لا يتفق المالك معهم، لكن تصعب عليه خسارته لزبائن جيدين، لهذا يفرض حاجز اللون. هذا النوع من الشيء لا يمكن أن يحدث حين يكون الرأي يقظاً وحين تُعطى سمعة كريهة ضد أي مؤسسة يُهان فيها الناس الملونون. أي واحد يعرف أي مثال يمكن إثباته عن التميز اللوني يجب فضحه دائماً، وإلا فإن النسبة المئوية الصغيرة جداً للمتكبرين اللونيين الموجودين بيننا، يمكن أن يسببوا ضرراً لا نهاية له، ويعطوا للشعب البريطاني صيتاً سيئاً لا يستحقه في المجمل. في عشرينيات القرن العشرين، حين كان السواح الأمريكيون جزءاً كبيراً من المشهد في باريس مثل أكشاك التبغ والمبولات القصديرية، بدأت تظهر بدايات الحاجز اللوني في فرنسا أيضاً. الأمريكيون ينفقون المال مثل الماء، ومالكو المطاعم وأشباههم لا يتحملون خسارة تجاهلهم. في مساء ما في حفلة رقص في مقهى مشهور جداً، اعترض بعض الأمريكيين على حضور زنجي كان هناك مع امرأة مصرية. بعد اعتراضات واهنة، استسلم مالك المقهى وطرد الزنجي.

في صباح اليوم التالي، كانت هناك ضوضاء فظيعة، وحمل المالك ليقف أمام وزير حكومي وهدد بالمقاضاة. تبين أن الزنجي كان سفير هاييتي. الناس من هذا النوع يمكنهم الحصول عادة على الإرضاء، لكن أغلبنا ليس لديهم الحظ الطيب ليكونوا سفراء، والهندي العادي أو الزنجي أو الصيني لا يمكن أن يكون محمياً ضد إهانة قذرة، إلا إذا كان الناس العاديون مستعدين أن يجهدوا أنفسهم للوقوف في صفه.

التريبيون ١٨ أغسطس/ آب ١٩٤٤

على ذكر ملاحظاتي عن وضع الحواجز حول ساحات لندن، كتب أحد المراسلين: "هل الساحات التي أشرت إليها ملكية عامة أم خاصة؟ إن كانت خاصة، فأظن أن ملاحظاتك تدافع بلغة جلية عن شيء لا يقل عن السرقة، ويجب أن تصنف مثل ذلك"

إن كانت إعادة أرض إنكلترا إلى شعب إنكلترا سرقة، فأنا سعيد بتسميتها سرقة. في حماسه للدفاع عن الملكية الخاصة، لم يتوقف مراسلنا ليتأمل كيف وضع هؤلاء الملاكون المزعومون أيديهم عليها. فهم ببساطة استولوا عليها بالقوة، ثم استأجروا محامين ليزودهم بصكوك الملكية بعد ذلك. في حالة تسييج الأراضي المشاع التي استمرت منذ ١٦٠٠ إلى ١٨٥٠ لم يكن لدى مغتصبي الأرض العذر بكونهم فاتحين أجانب حتى، فقد كانوا يأخذون بصراحة تامة الإرث من أبناء بلدهم من دون أي ذريعة عدا أنهم امتلكوا القوة لفعل ذلك.

ما عدا القلة القليلة الباقية من الأرض المشاع والطرق العامة وأراضي الائتمان الوطني وعدد محدد من المتنزهات العامة وشواطئ البحر، فإن كل بوصة مربعة من إنكلترا مملوكة من قبل بضعة آلاف من العائلات. هؤلاء الناس نافعون مثل الدودة الشريطية. من المرغوب أن يمتلك الناس بيوتهم السكنية، وربما مرغوب أن يمتلك المزارع أرضاً بالقدر الذي يستطيع زراعتها. أما مالك الأراضي في مناطق المدن، فليس له وظيفة أو مبرر لوجوده. إنه مجرد شخص اكتشف طريقة في استغلال الشعب من دون أن يعطي أي شيء بالمقابل، وهو من يتسبب برفع الإيجارات ويُصعّب تخطيط المدن أكثر ويُبعد الأطفال عن المساحات الخضراء. وهذا كل ما يفعله حرفياً لكي يستجر دخله. إن إزالة الحواجز في الساحات، هي الخطوة الأولى ضده. إنها خطوة صغيرة جداً، لكنها هامة مثل التحرك الحالي لاستعادة الاستعراضات المسيجة. ظلت الساحات مفتوحة لثلاث سنوات تقريباً وتطأ مروجها المقدسة أقدام أطفال الطبقة العاملة. وهذا منظر يجعل ساحبي الأسهم يصرون على أسنانهم الاصطناعية. إن كانت تلك سرقة، فكل ما أستطيع قوله هو: طوبى لها من سرقة.

لاحظتُ أن هناك حديثاً جدياً مرة أخرى عن محاولة جذب السياح إلى هذه البلاد بعد الحرب. وقيل إن هذا سيجلب سيلاً مرحباً به من العملة الأجنبية. لكن من الآمن تماماً التنبؤ بأن تلك المحاولة ستكون فاشلة. عداك عن المصاعب الكثيرة الأخرى، فإن قوانين منح الرخص والأسعار الزائفة للشراب، كافية لإبعاد الأجانب. لماذا سيزور الناس الذين اعتادوا على شراء باينت النبيذ بستة بنسات، بلاداً يكلف فيها باينت الجعة شلناً؟ لكن حتى هذه الأسعار أقل ترويعاً للأجانب من القوانين المجنونة التي تسمح لك بشراء قدح من البيرة في

الساعة العاشرة والنصف، بينما تمنعك من شرائه في الساعة العاشرة وخمس وعشرين دقيقة، والتي فعلت ما بوسعها لتحويل الحانات إلى محلات سكر بإقصاء الأطفال منها.

نحن مضطهدون جداً مقارنة مع أغلب الشعوب الأخرى، فحتى الناس البعيدون عن كونهم "معتدلين في الشرب" لا يتخيلون جدياً إمكانية تغيير قوانين رخصنا. كلما اقترحت أن يسمح لحاناتنا البقاء مفتوحة في فترة بعد الظهر أو لنقل حتى منتصف الليل، أحصل على نفس الرد دائماً. وأول الأشخاص الذين يعترضون هم أصحاب الحانات الذين لا يريدون أن يفتحوا حاناتهم مدة اثنتي عشر ساعة في اليوم. يفترض الناس أن القانون يجب أن ينظم ساعات الفتح سواء كانت طويلة أو قصيرة حتى بالنسبة إلى مشروع الرجل الواحد. في فرنسا وبلدان أخرى متنوعة، يفتح صاحب المقهى ويغلق في الشكل الذي يناسبه. يستطيع البقاء فاتحاً مقهاه طيلة الأربع وعشرين ساعة إن أراد. ومن الجانب الآخر إن أحب أن يغلق ويسافر لمدة أسبوع يمكنه أن يفعل ذلك أيضاً. أما في إنكلترا فليس لدينا مثل هذه الحرية منذ مئة سنة تقريباً، والناس غير قادرين على تخيلها إلا بصعوبة.

يجب على إنكلترا أن تكون بلاداً قادرة على جذب السياح. لديها الكثير من المناظر الطبيعية الجميلة والمناخ الهادئ والقرى الجذابة التي لا تحصى، وكنائس من القرون الوسطى، والجعة الجيدة والمواد الغذائية ذات الطعم الطبيعي الممتاز. لو تستطيع المشي حيثما تشاء بدلاً من أن تطوقك الأسلاك الشائكة وألا يواجه المتعدون على أملاك الغير الهيئات القضائية، وألا يسمح للبنائين المضاربين بتخريب المناظر الممتعة ضمن عشرة أميال من البلدات الكبيرة، ولو تستطيع الحصول على شراب في الوقت الذي تريد وبالثمن العادي، ولو أن وجبة الطعام الصالحة للأكل في نزل ريفي تصبح تجربة عادية، ولو يتوقف يوم الأحد عن أن يكون يوم بؤس بشكل مصطنع؛ عندها يمكن توقع قدوم الزوار الأجانب إلى هنا. لكن لو كانت هذه الأشياء صحيحة، فلن تظل إنكلترا إنكلترا، وأتخيل أننا يجب أن نجد طريقة ما في الحصول على عملة أجنبية تتوافق أكثر مع شخصيتنا القومية.

بالرغم من حملتي ضد الجزمة العسكرية الثقيلة -التي لا أديرها لوحدي- ألاحظ أن الجزم العسكرية الثقيلة شائعة كما هي دائماً في أعمدة الصحف. حتى في مقالات الصفحات الأولى

في الإيفنينغ ستاندارد، صادفت العديد منها مؤخراً. لكنني لا أزال من دون أي معلومة واضحة عن أي جزمة هي. إنها نوع من الحذاء عالي الساق تلبسه حين تريد أن تتصرف بطريقة استبدادية: ذلك بقدر ما يعرفه أي واحد.

لاحظت وآخرون غيري أن الحرب حين تدخل إلى المقالات الرئيسية، تصبح عرضة لأن تخاض بأسلحة قديمة الطراز بشكل لافت، ولا تظهر الطائرات والدبابات إلا في المناسبات. لكن حين يجب لفت الانتباه إلى الموقف البطولي، فلا يظهر من الأسلحة سوى السيف ("لن نغمد السيف حتى" إلخ إلخ) والرمح والدرع والترس والرمح المشعب والمركبة رباعية العجلات والبوق فقط، وكلها أسلحة قديمة وبالية بشكل عضال (فالمركبة مثلاً لم تستعمل بشكل مؤثر منذ سنة ٥٠ ميلادية) وحتى الغرض من بعضها أصبح منسياً. ما هو الترس مثلاً؟ إحدى المدارس الفكرية تصر أنه درع مستدير صغير، لكن مدرسة أخرى تعتقد أنه نوع من حزام. البوق بوق كما أعتقد لكن أغلب الناس يتخيلون أن "نداء البوق" لا يعني سوى الضجيج العالي. أشار أحد التقارير عن مشاهدة القداس الأولى يتحدث عن تتويج جورج السادس، أن ما يسمى بـ "مناسبات وطنية" تسبب دائماً زلة في لغة مهجورة. فمثلاً، حين قامت "سفينة الدولة" بالظهور كان لها قيدوم وخوذة بدلاً من القوس والعجلة كما في السفن الحديثة. بقدر ما يطبق على الحرب، فإن الحافز لاستخدام هذا النوع من اللغة هو الرغبة في لطافة التعبير، فعبارة "نحن لن نغمد السيف" تبدو أكثر احتراماً من عبارة "نحن سنظل نسقط قنابل ضخمة شديدة الانفجار" رغم أنهما في النتيجة تعنيان الشيء عينه.

إحدى الحجج لصالح الإنكليزية الأساسية في البقاء جنباً إلى جنب مع الإنكليزية المعيارية، أنها يمكن أن تكون المصحح لخطب رجال الدولة والمعلقين على الشؤون العامة. حين تترجم العبارات الطنانة إلى اللغة الأساسية، تفرّغ بطريقة مذهلة عادة. مثلاً، قدمت لخبير في اللغة الأساسية الجملة "هو لم يعرف إلا القليل عن القدر الكامن الذي كان يترصده". في اللغة الأساسية تصبح "هو كان بعيداً من التأكد مما سيحدث" قيل لي: في اللغة الأساسية لا يمكنك أن تشكل عبارة خالية من المعنى من دون أن تظهر بأنها خالية من المعنى- وهذا يكفي ليفسر سبب اعتراض الكثير جداً من المدرسين والمحررين والسياسيين والنقاد الأدبيين عليها.

التريبيون ٢٥ أغسطس/ آب ١٩٤٤

أرسلت إلي الجمعية الهندية-البورمية مقداراً جيداً من المادة التي عالجت الحملة البورمية، والجمعية هيئة غير رسمية تمثل التجمعات الأوروبية في تلك البلدان، وتدعم سياسة "معتدلة" مبنية على مقترحات كريبس.

تشتكي الجمعية الهندية-البورمية بإنصاف من أن بورما خدمت بشكل سيء فوق العادة في طريقة الإعلان عنها. ليس لأن الرأي العام لم يكن له أي اهتمام في بورما رغم أهميتها الواضحة من وجهات نظر كثيرة فقط، بل لأن السلطات لم تنجح في إنتاج كتيب جذاب يخبر الناس ما هي مشاكل بورما وما هي علاقتها بمشاكلنا حتى. كانت التقارير الصحفية عن القتال في بورما من ١٩٤٢ فصاعداً غير تثقيفية وخصوصاً من وجهة النظر السياسية. حالما بدأ الهجوم الياباني، تبنت الصحف ومحطة البي بي سي عادة الإشارة إلى كل سكان بورما بـ "البورميين"، حتى أن الاسم طبق على شعوب شبه همجية ومتميزة تماماً في أقصى الشمال. هذا غير دقيق وليس مثل تسمية السويدي الإيطالي فقط، وإنما يحجب حقيقة أن الياباني يجد دعمه وسط البورمي الحقيقي، لأن أغلب الأقليات مؤيدة لبريطانيا. في الحملة الحالية أثناء أخذ الأسرى، لم توضح تقارير الصحف إن كانوا يابانيين أو أنصارهم من البورميين والهنود- وهي نقطة في غاية الأهمية.

كانت كل الكتب تقريباً التي نشرت عن حملة ١٩٤٢ مضللة. أنا أعرف ماذا أتحدث، لأنني كتبت مراجعات نقدية لأغلبها. لقد كُتبت إما بواسطة صحفيين أمريكيين من دون معرفة محلية وبتحيز ضخم معادٍ لبريطانيا، أو بواسطة مسؤولين بريطانيين مجندين للدفاع وتواقين للتغطية على كل شيء يضر بالسمعة. في الواقع تعرض المسؤولون البريطانيون ورجال الجيش للوم بسبب الكثير الذي لم يكن خطأهم، وكان منظر الحملة البورمية التي قادها اليساريون في هذه البلاد مشوهاً مثل تلك التي قادها البليمبز. تنشأ هذه المشكلة لعدم وجود جهد رسمي للإعلان عن الحقيقة. فحسب معرفتي هناك مخطوطات تعطي معلومات قيمة، لكنها لا تجد ناشرين لأسباب تجارية.

أستطيع تقديم أمثلة. في ١٩٤٢ بورمي شاب كان عضواً في ثاكين حزب (قومي متطرف) تآمر مع اليابانيين، وهرب إلى الهند بعد أن غير رأيه بخصوص اليابانيين، حين رأى كيف كان

حكمهم. كتب كتاباً قصيراً، نشر في الهند تحت عنوان ما الذي حدث في بورما، وكان حقيقياً وموثوقاً في معظمه. الحكومة الهندية بطريقتها المهملة أرسلت نسختين إلى إنكلترا. حاولتُ أن أحث ناشرين مختلفين لإعادة إصداره، لكنني فشلت في كل مرة: كلهم أعطوا نفس السبب- لا يستحق إضاعة الورق على موضوع لا يهتم به الجمهور الكبير. لاحقاً، جلب الميجور إنريكيز الذي نشر كتب رحلات عن بورما، إلى إنكلترا مفكرة تغطي الحملة البورمية وتقهقرها إلى الهند. كانت وثيقة كاشفة جداً -في أماكن كاشفة بشكل شائن، لكنها عانت نفس المصير كالكتاب الآخر. الآن أنا أقرأ مخطوطاً آخر، يعطي خلفية قيمة عن تاريخ بورما وظروفها الاقتصادية وأنظمة تملك الأراضي فيها وهلم جرا. لكنني أراهن أنه لن ينشر أيضاً إلى أن ينتهي النقص في الورق.

إن كان الورق والمال غير مستعدين لكتب من هذا النوع -كتب ربما تكشف السر لكنها تساعد على إبطال الأكاذيب التي لفقها المتعاطفون مع دول المحور- إذاً يجب ألا تفاجأ الحكومة إن لم يعرف الجمهور شيئاً عن بورما وكان لامبالياً. وما ينسحب على بورما ينسحب على العشرات من المواضيع المهمة الأخرى المهملة.

في الوقت الراهن أقدم اقتراحاً. أينما ظهرت وثيقة غير رائجة تجارياً، لكنها تكون مفيدة على الأرجح للمؤرخين في المستقبل، يجب أن تخضع للجنة يقوم المتحف البريطاني بتعينها مثلاً. إن اعتبرها أعضاء اللجنة قيمة تاريخياً، فيجب أن تكون لهم السلطة لطبع عدة نسخ منها وتخزينها لاستخدام الباحثين. في الوقت الحاضر المخطوط الذي يرفضه الناشرون التجاريون، ينتهي به المطاف في سلة النفايات تقريباً. فكم عملاً يبغي تصحيح الأكاذيب المقبولة فُني وأُبيد بهذه الطريقة!

١ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٤

ليست وظيفتي الأساسية مناقشة تفاصيل السياسة المعاصرة، لكن هناك شيئاً يصيح عالياً يجب قوله. ولأن ليس هناك أحد آخر يفعل هذا كما يبدو، أريد أن أحتج ضد الموقف الخسيس والجبان الذي تبنته الصحافة البريطانية تجاه الثورة الحديثة في وارسو.

حالما تفشت أنباء الثورة، تبنت صحيفة ذا نيوز كرونيكلز وقريباتها موقفاً مستنكراً بشكل واضح. تركتنا إحداها بانطباع بأن البولونيين يستحقون أن تجلد مؤخراتهم على الفعل الذي

حرضتهم عليه إذاعات الحلفاء منذ سنوات، وأنهم لم يحصلوا على أي مساعدة من الخارج، ولا يستحقون ذلك. اقترحت بعض الصحف بتردد أن الإنكليز والأمريكان الذين يبعدون ألف ميل، يمكنهم إسقاط الأسلحة والمؤن لهم، ولم يقترح أحد حسب علمي أن الروس الذين لا يبعدون عنهم أكثر من عشرين ميلاً، يمكنهم أن يفعلوا ذلك. وشككت صحيفة نيوستيتمان في عددها الصادر في ١٨ أغسطس/ آب في إمكانية مساعدة جيدة من الجو في هكذا ظروف. وألقت كل صحف اليسار تقريباً اللوم على حكومة لندن اللاجئة التي أمرت أتباعها ليثوروا قبل أن تنضج الظروف، ويكون الجيش الأحمر على الأبواب. وقد بدأ هذا الخط الفكري الأسبوع الماضي، في رسالة إلى التريبيون من السيد جي. باركلوف. رمى بالتهم الواضحة التالية:

١-لم تكن ثورة وارسو "ثورة شعبية عفوية"، وإنما "بدأت بأوامر من الحكومة البولونية المزعومة في لندن"

٢-أعطي الأمر بالثورة "من دون استشارة الحكومة البريطانية أو السوفيتية" و"لم تقم أية محاولة للتنسيق مع أعمال الحلفاء القتالية"

٣-إن المقاومة البولونية ليست متحدة حول حكومة لندن أكثر من توحد المقاومة اليونانية حول الملك اليوناني جورج. (أكد هذا الاستخدام المتكرر لكلمات مثل: اللاجئة والمزعومة إلخ، التي طبقت على حكومة لندن).

٤-عجلت حكومة لندن بالثورة، لكي تستولي على وارسو حين يصل الروس، ففي تلك الحالة "يتحسن موقف حكومة اللجوء". حكومة لندن "مستعدة لتخون قضية الشعب البولوني، لتدعم مدة ولاياتها المقلقلة في المنصب"

لم يقدم أي دليل لهذه التهم، رغم أن الأولى والثانية من النوع الذي يمكن إثباته على أنه صحيح. أخمن أن الثانية صحيحة والأولى صحيحة جزئياً. الثالثة تسفه الاثنتين الأوليين. إن لم تكن حكومة لندن مقبولة من الشعب في وارسو، فلماذا قام بعصيان يائس بأمر منها؟ بإلقاء اللوم على سوسنكوفسكي والبقية بخصوص الثورة، أنت تفترض آلياً أنهم هم من يبحث عنهم الشعب البولوني كمرشد ودليل له. هذا التناقض الواضح تكرر في صحيفة تلو أخرى، من دون أن يشير إليه شخص واحد يمتلك الاستقامة والصدق. إن استعمال عبارات مثل

لاجئة، عبارة عن خدعة بلاغية. إن كان بولونيو لندن لاجئين، فكل لجنة التحرير الوطنية البولونية كذلك، بالإضافة إلى كل الحكومات "الحرة" لكل البلدان المحتلة. لماذا يعتبر المرء لاجئاً حين يلجأ إلى لندن، ولا يعتبر كذلك حين يلجأ إلى موسكو؟

التهمة الرابعة تتساوى أخلاقياً مع اقتراح أوزرفاتور رومانو أن الروس أخروا هجومهم على وارسو لكي يقتل أكبر عدد ممكن من أفراد المقاومة. إنها التأكيد غير المثبت وغير القابل للإثبات لمروج دعائي ليست لديه الرغبة في ترسيخ الحقيقة، ويريد تلويث خصمه بأقصى ما يستطيع. وكل ما قرأته عن هذه المسألة في الصحافة -ماعدا بعض الصحف الغامضة جداً وبعض الملاحظات في التريبيون والإيكونوميست والإيفنينغ ستاندارد- بنفس مستوى رسالة السيد باركلوف.

الآن، أنا لا أعرف شيئاً من الشؤون البولونية، ولو كان لدي السلطة لذلك، فلن أتدخل بين الحكومة البولونية (في لندن) ولجنة التحرير الوطنية (في موسكو). إن الذي يهمني هو موقف الإنتلجنسيا البريطانية التي لا تستطيع أن ترفع صوتاً واحداً منها ليشكك بها تؤمن به أنه سياسة روسية، مهما كان الاتجاه الذي تأخذه. وفي هذه الحالة لديها الخسة غير المسبوقة لتلمح إلى وجوب عدم إرسال قاذفاتنا لمساعدة رفاقنا الذين يقاتلون في وارسو. إن الأكثرية الهائلة من اليساريين الذين صدقوا بسذاجة السياسة التي روجتها ذا نيوز كرونيكلز، لا يعرفون عن بولونيا أكثر مما أعرف، وكل ما يعرفونه أن الروس يعترضون على حكومة لندن، ونصبوا منظمة منافسة، وذلك يسوي المسألة بالقدر الذي يهمهم. ولو أسقط ستالين لجنة التحرير واعترف بحكومة لندن، فستحتشد كل الإنتلجنسيا البريطانية وراءه مثل جمهرة من الببغاوات. إن موقفهم تجاه السياسة الخارجية الروسية، ليس "هل هذه السياسة صحيحة أم خاطئة؟ وهذا الموقف مدافع عنه ومحمي على أساس القوة على الأقل.

الروس أقوياء في أوروبا الشرقية، ونحن لسنا كذلك: لهذا يجب ألا نعارضهم. هذا يتضمن المبدأ، الغريب بطبيعته عن الاشتراكية، يجب ألا تحتج ضد شر لا تستطيع منعه.

أنا لا أستطيع أن أناقش هنا لماذا طورت الإنتلجنسيا البريطانية مع بضع استثناءات ولاء قومياً نحو الاتحاد السوفييتي، وتجاهلت انتقاد سياساته. وعلى أي حال لقد ناقشتها في مكان آخر. لكني أحب أن أختم باعتبارين يستحقان التفكير ملياً:

الأول، رسالة إلى صحفيي الجناح اليساري والمثقفين عموماً: "تذكروا أن الخداع والكذب والجبن يجب أن يُدفع ثمنه دائماً. لا تتخيلوا أنكم تستطيعون أن تجعلوا من أنفسكم مروجين دعائيين متملقين لنظام الحكم السوفييتي لسنوات، ثم فجأة تعودون إلى الحشمة العقلية. ساقطة مرة، ساقطة دائماً.

الثاني، لا شيء مهم في العالم اليوم أكثر من الصداقة الأنغلوروسية والتعاون، وذلك لن يتحقق من دون خطاب صريح وواضح. إن الطريقة الأفضل للتوصل إلى اتفاق مع أمة أجنبية، ليس في الامتناع عن انتقاد سياساتها إلى درجة ترك شعبك في الظلام عنها. في الوقت الحاضر، إن موقف الصحافة البريطانية كلها تقريباً وضيع جداً، لدرجة أن لدى الناس العاديين أقل فكرة لما يحدث، وقد يسلموا لسياسات سيرفضونها في مدة خمس سنوات. بطريقة مضللة علمنا أن شروط السلام الروسية أقوى من شروط فرساي مع تقسيم ألمانيا وتعويضات فلكية وعمل قسري على نطاق هائل. لم تُنتقد هذه المقترحات عملياً، بل إن أغلب الكتاب المبتذلين وحتى المأجورين في صحافة اليسار مجّدوها وهللوا لها، وكانت النتيجة أن الإنسان المتوسط ليس لديه فكرة عن فداحة ما تم اقتراحه. ولا أعرف حين يأتي الوقت إن كان الروس يريدون حقاً أن يطبقوا هذه الشروط أم لا. أخمن أنهم لا يريدون ذلك. لكن الذي لا أعرفه، هو لو تم عمل أي شيء من هذا، فربما لن يؤيده الجمهور البريطاني والأمريكي بعد أن خمدت عاطفة الحرب. إن أية تسوية سلمية ظالمة بشكل واضح، ستجعل الشعب البريطاني يتعاطف بشكل غير عقلاني مع الضحايا. إن الصداقة الأنغلوروسية تعتمد على وجود سياسة يتفق عليها الطرفان، وهذا مستحيل من دون نقاش حر ونقد صادق الآن. لا يمكن أن يكون هناك تحالف أساسه "ستالين مصيب دائماً"، وإن الخطوة الأولى نحو تحالف حقيقي، هي في إسقاط الأوهام.

أخيراً، كلمة للناس الذين سيكتبون لي رسائل عن هذا الموضوع. هل لي أن ألفت انتباهكم إلى عنوان هذا العمود، وأذكّر كل واحد منكم أن محرري التريبيون ليسوا موافقين على كل ما أقوله، لكنهم يطبقون إيمانهم بحرية التعبير؟

التريبيون ٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٤٤.

يحتوي كتاب السير أوزبرت سيتويل، رسالة إلى ولدي، كمية مدهشة من القدح بالنسبة إلى حجمه المكون من ٣٢ صفحة. أتخيل أن القدح أو الأحرى سمو الناس الذي وجه ضدهم، دفع السير أوزبرت إلى تغيير ناشره. ومن بين المقاطع غير العادلة أحياناً والتافهة أحياناً أخرى، نجح بقول بعض الأشياء الناقدة الذكية عن موقع الفنان في مجتمع مركزي حديث. هذه بعض المقتطفات كمثال:

يجب على الفنان الحقيقي أن يقاتل دائماً، لكنه سيكون صراعاً أشد وأقوى بالنسبة إليك وإلى الفنانين الآخرين من جيلك مما سبقه من صراعات. فهذه المرة سيجد الرجل العامل عناية أفضل وستتملقه الصحافة وترشوه خطط بيفريج، لأنه يمتلك أغلبية أصوات الاقتراع، لكن أنت من سيكترث بك ويقدرك ومن سيتعشم عناء الدفاع عن قضية الكاتب الصغير أو الرسام أو النحات أو الموسيقي؟ وأي إلهام ستقدمه حين يكون المسرح والباليه وصالات الموسيقى مخربة، ولن يكون هناك فنانون بارعون لعدة عقود من السنين بسبب انقطاع التدريب؟ والأهم ألا تقلل من أهمية كمية عداء الناس المتأصل وقوته الذي يضمرونه لك، وهؤلاء ليسوا الرجال العمال الذين لم يحصلوا على تعليم عالٍ وينظرون إلى الفنون ببرود، وليس لديه أفكار مسبقة، وليسوا أيضاً النبلاء المتبقين القلة، وإنما هم الجيش الكبير بين الطبقات الوسطى السمينة والرجال الصغار. وهنا علي أن أشير إلى الموظف المدني كعدو........ في أفضل الأحوال ستكون مسحوقاً بين أقلية فاشية صغيرة لكنها جبارة من مخرجي ومديري الفنون ومبتزي المتاحف وخياطي الملابس النسائية المتأنقين المقهقهين الذين يكتبون عن الفن والأدب، وبين الدونات (الذين -لكي أنصفهم- سيساعدونك إن كتبت كما يأمرونك)- والبقية الهائلة التي لن تهتم أو بالأحرى ستكون مسرورة إن رأتك تموت جوعاً. لأننا نحن الإنكليز فريدون في كوننا أمة تنتج الفن، لكننا لسنا عاشقين له. في الماضي كان الفن يعتمد على رعاة ونصراء أغنياء جداً، لكن المجتمع الذي شكلوه لم يبنَ ثانية أو يؤهل، وإن مجرد اسم عاشق الفن ينضح برائحة كريهة..... الامتيازات التي بحوزتك اليوم كفنان، هي امتيازات إسماعيل -يد كل رجل ضدك- لذلك تذكر أن المنبوذين يجب ألا يخافوا أبداً.

هذه ليست آرائي. إنها آراء محافظ ذكي يبخس فضائل الديمقراطية وينسب إلى الإقطاعية ميزات محددة تعود حقيقة إلى الرأسمالية. فمثلاً، من الخطأ أن تحنّ إلى راعٍ ونصير أرستقراطي، فالراعي يمكن أن يكون سيداً قاسياً مثل البي بي سي، ولا يدفع لك مرتبك بانتظام. لقد قاسى فرانسوا فيلون كما أعتقد وقتاً صعباً كأي شاعر في عصرنا، وكان رجل الأدب الذي يموت جوعاً في علية من صفات القرن الثامن عشر المميزة. في أفضل الأحوال في عصر من الرعاة والنصراء، عليك أن تضيع الوقت والموهبة في مداهنات مقززة كما فعل شكسبير. في الواقع إن نظر المرء إلى الفنان على أنه فرد مثل إسماعيل -مستقل لا يدين بشيء للمجتمع، فإن العصر الذهبي للفنان كان العصر الرأسمالي. لقد نجا الفنان آنذاك من الراعي، ولكنه بات أسيراً للبيروقراطي. استطاع الكاتب والموسيقي والممثل وربما حتى الرسام- كسب رزقهم بعيداً عن الجمهور الكبير الذي لم يكن متأكداً مما يريد ويأخذ ما يُعطى له. لقد ظل الفنان في الحقيقة قادراً لمدة مائة على كسب رزقه بإهانة الجمهور بشكل صريح، كما تظهر سير كل من فلوبير وتولستوي ودي إتش لورانس وحتى ديكنز مثلاً.

لكن رغم كل هذا، هناك شي كثير في الذي يقوله السير أوزبرت، فهو أن الرأسمالية الحرة (عدم التدخل) ماتت والوضع المستقل للفنان يجب أن يختفي معها بالضرورة. يجب على الفنان أن يصبح إما هاوياً في وقته فراغه، أو موظفاً. حين ترى ماذا حدث للفنون في البلدان ذات الأنظمة الشمولية، وحين ترى الشيء ذاته يحدث هنا بطريقة مقنعة أكثر بواسطة وزارة الإعلام ومحطة البي بي سي وشركات الأفلام - منظمات لا تشتري الكتاب الشباب الواعدين فقط وإنما تخصيهم وتحولهم إلى نوع من عملية الحزام الناقل- وهذه بشائر غير مشجعة. مع هذا يظل صحيحاً أن الرأسمالية التي كانت بطرق كثيرة لطيفة مع الفنان والمثقف عموماً، هلكت ولم يعد إنقاذها مجدياً. لهذا أنت تصل إلى هذين الواقعين المتناقضين: ١- لا يمكن تنظيم المجتمع بشكل يراعي مصلحة الفنانين ٢-من دون الفنانين تموت الحضارة. أنا لم أرَ أي حل لهذه الورطة أبداً (ولكن يجب أن يكون هناك حل) وهي لم تناقش كثيراً بشكل صادق أيضاً.

لدي أمامي صورة مثيرة للاشمئزاز بشكل استثنائي من صحيفة الستار بتاريخ ٢٩ أغسطس/ آب لامرأتين شبه عاريتين حلق شعر رأسيهما، وعلى وجهيهما رسم صلبان

معقوفة، اقتيدتا عبر شوارع باريس وسط متفرجين مكشرين. أنا لا أنتقد صحيفة الستار فقط، لأن أغلب الصحف تصرفت ونسخت هذه الصورة باستحسان ظاهر.

لا ألوم الفرنسيين على فعل هذا النوع من العمل. لقد مروا بأربع سنوات من العذاب، وأستطيع تخيل مشاعرهم تجاه المتعاونين مع المحتل، لكن القصة تختلف حين تحاول الصحف في هذه البلاد إقناع قرائها أن حلق رؤوس النسوة فعل مهذب وجميل. فكرت حين رأيت هذه الصورة في الستار "أين رأيت شيئاً كهذا من قبل؟"، ثم تذكرت: قبل عشر سنوات فقط حين بدأ النظام النازي بأولى خطواته، ظهرت صور مشابهة جداً في الصحف البريطانية ليهود مذلولين اقتيدوا عبر شوارع المدن الألمانية -لكن الاختلاف أن استحساننا لم يكن متوقعاً في تلك المناسبة.

نشرت الصحف حديثاً صور جثث متدلية لألمان شنقهم الروس في خاركوف، وأخبرت قراءها بحرص أن هذه الإعدامات صورت في أفلام، وأن الجمهور يستطيع مشاهدتها في المسارح الجديدة. (أتساءل إن يكن يسمح بحضور الأطفال).

هناك اقتباس لنيتشه استشهدت به من قبل، لكنه يستحق الاقتباس مرة أخرى:

من يحارب التنانين طويلاً يصبح تنيناً.

وإن حدقت في الهاوية طويلاً، ستحدق الهاوية بك.

ربما تعني "وقتاً طويلاً" في هذا السياق "بعد أن يهزم التنين".

١٥ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٤

في أواخر عام ١٩٣٦ مررت بمدينة باريس في طريقي إلى إسبانيا، وكان عليّ أن أزور شخصاً لم أكن أعرف عنوانه، ففكرت أن أسرع طريقة للوصول هي أن أستقل سيارة أجرة. لم يكن السائق يعرف العنوان أيضاً. على كل حال انطلقنا في الشارع، وسألت أقرب رجل شرطة، فتبين أن العنوان الذي كنت أبحث عنه لم يكن يبعد أكثر من مئة ياردة، لهذا قللت من مكانة السائق لأنني قدرت أجرته بما يعادل ثلاث بنسات بالعملة الإنكليزية.

هاج السائق من الغضب، وبدأ يتهمني بصوت هادر وبأقصى السوقية بأنني "فعلت هذا متعمداً" اعترضت بأنني لم أكن أعرف أين يقع المكان، وأنني لو كنت أعرف لما أخذت

سيارة أجرة، لكنه رد عليّ صائحاً "أنت تعرفه جيداً!". كان رجلاً عجوزاً أشيب ضخماً قصيراً وبشاربين رماديين أشعثين ووجه ذي طبيعة شريرة غير عادية. في النهاية فقدت السيطرة على نفسي، وعاد لي تمكني من الفرنسية في هياجي، فصرخت به "أتظن أنك عجوز وكبير جداً بالنسبة إلي وأني لن أهشم لك وجهك. لا تكن واثقاً من ذلك!" تراجع إلى السيارة مزمجراً يملأه حبه للشجار رغم سنواته الستين.

بعدئذ أتت لحظة دفع الأجرة. أخرجت ورقة من فئة العشرة فرنكات، فصاح حالما رأى النقود "ليس لديّ فكة. اذهب واصرفها بنفسك!".

"أين يمكنني الحصول على مكان صرافة؟".

"كيف لي أن أعرف؟ هذا شأنك".

لهذا اضطررت إلى عبور الشارع لأجد محل بائع تبغ وأحصل على فكة. حين رجعت أعطيت السائق الأجرة التي يستحقها تماماً، وأخبرته بعد سلوكه هذا أنني لا أرى أي مبرر لإعطائه أي شيء زائد، وافترقنا بعد تبادل عدد من الشتائم.

تركني هذا الشجار القذر غاضباً بشكل عنيف في لحظتها، وبعد قليل من الوقت شعرت بالحزن والقرف وفكرت: "لماذا يتصرف الناس بذلك الشكل؟". لكني رحلت إلى إسبانيا في تلك الليلة. كان القطار بطيئاً يعج بالتشيك والألمان والفرنسيين الذين كانوا ملتزمين بنفس المهمة. في القطار كله يصل إلى مسمعك عبارة واحدة تتكرر مرة تلو أخرى (إلى هناك) بلهجات كل اللغات الأوروبية. كانت عربتي ذات الدرجة الثالثة مملوءة بألمان صغار جداً يعانون من نقص في التغذية بشعورهم الفاتحة في بذلات رسمية رديئة بشكل لا يصدق- أول بديل قماش أراه- كانوا يندفعون بسرعة إلى الخارج في كل مكان توقف، ليشتروا زجاجات الخمر الرخيصة، ثم خروا نائمين في شكل هرمي على أرض العربة. بعد نصف الطريق تقريباً، نزل المسافرون العاديون. ربما ظل هناك بضعة صحفيين بسيطين مثلي أنا، لكن القطار عملياً كان قطار جنود والريف يعرفه. في الصباح عندما زحفنا عبر جنوب فرنسا، كان كل فلاح يعمل في الأرض يلتفت نحونا ويقف منتصباً بوقار ويؤدي التحية المعادية للفاشية. لقد كانوا مثل حرس شرف يحيون القطار في كل ميل وميل.

بينما كنت أراقب هذا، خطرَ بذهني سائق سيارة الأجرة العجوز. رأيت الآن السبب الذي جعله هجومياً جداً من دون ضرورة. كنا في عام ١٩٣٦ سنة الإضرابات الكبيرة وحكومة بلوم مازالت في السلطة. الشعور الثوري الذي اجتاح فرنسا، أثر على أناس مثل سائق الأجرة، مثلما أثر على عمال المصانع. بلهجتي الإنكليزية بدوت له كرمز للسياح الكسولين الأجانب الذين يبذلون أقصى جهدهم لتحويل فرنسا إلى شيء وسط بين المتحف والماخور. في نظره السائح الإنكليزي يعني بورجوازي. كان ينتقم قليلاً من الطفيليين الذين كانوا أسياده عادة. وأدهشني أن دوافع الجيش المؤلف من عناصر أجنبية مختلفة الذي ملأ القطار والفلاحين بقبضاتهم المرفوعة في الخارج في الحقول ودافعي الخاص بي في الذهاب إلى إسبانيا ودافع سائق سيارة الأجرة العجوز، كانت نفسها تماماً أساساً.

إن التصريح الرسمي عن القذائف الطائرة، حتى لو أخذ مع التصريح السابق الذي أدلى به تشرشل، ليس كاشفاً جداً، لأنه لم يعط أرقاماً واضحة عن عدد الناس الذين تأثروا بها، وكل ما أخبرونا به أن لندن تقصف وسطياً بثلاثين قنبلة يومياً. وبحسب تقديري الشخصي المبني ببساطة على حوادث شهدتها بأم عيني، أن كل قنبلة طائرة تضرب لندن، تحول ثلاثين بيتاً فيها إلى مكان غير قابل للسكن، وتتسبب بتشريد خمسة آلاف شخص يومياً. لهذا وصل بهذا المعدل عدد الأشخاص الذين قصفت بيوتهم وأُخرجوا منها في الأشهر الثلاثة الأخيرة ثلاثة أرباع المليون شخص.

قيل إن لاعبي البلياردو الماهرين يدهنون عصيهم بالطبشور قبل أن يقوموا بالضربة، أما اللاعبون الرديئون فيفعلون ذلك بعد الضربة. وبنفس الطريقة لو تحضرنا واستعدينا لكل نوع من الغارات الجوية قبل أن تحدث وليس بعد أن تحدث، كنا حققنا نجاحاً ممتازاً في هذه الحرب. قبل اندلاع الحرب بوقت قصير أخبرني مسؤول عاد من مؤتمر ما مع مسؤولين آخرين في لندن، أن السلطات استعدت لتكون خسائر الغارات الجوية ٢٠٠ ألف شخص في الأسبوع الأول، فصنعت أعداداً هائلة من التوابيت الكرتونية الهشة، وحفرت قبور جماعية كثيرة. وكان هناك أيضاً تحضيرات خاصة لزيادة كبيرة جداً في حالات الاختلال العقلي. لكن تبين بعدئذ أن الخسائر في الأرواح والأضرار قليلة جداً نسبياً، وانحدرت كما أعتقد حالات

الاختلال العقلي. أما من الجانب الآخر فقد فشلت السلطات في التنبؤ بأن الناس المقصوفين سيكونون مشردين وبلا بيوت وبحاجة إلى الطعام والكساء والملجأ والمال، كما فشلت السلطات التي تنبأت بالقنابل الحارقة في إدراك الحاجة إلى مصدر مائي بديل بعد أن فجرت القنابل المصادر الرئيسية.

في حدود العام ١٩٤٢ كنا مستعدين كلنا من أجل غارات ١٩٤٠. كانت هناك زيادة في الملاجئ، وامتلأت لندن بخزانات المياه التي كانت ستنقذ مبانيها التاريخية إن ظلت موجودة حين تحدث الحرائق. ومن ثم أتت القذيفة الطائرة التي كانت تنسف ثلاثة أو أربعة بيوت من الوجود، وتحويل عدد كبير منها إلى أماكن غير قابلة للسكن، ولكنها تترك داخلها سليما تقريباً في الوقت نفسه. وبهذا سببت صدعاً آخر غير متوقع -تخزين الأثاث- فالأثاث من البيت المقصوف يُنقذ دائماً تقريباً، لكن إيجاد أماكن لوضعه وجهد نقله، كان يفوق قدرة السلطات المحلية. وعموماً كان يجب أن يتم التخلص منه في بيوت غير محمية؛ حيث تخربها الرطوبة إن لم تتعرض للنهب.

أهم المعلومات في خطاب دونكان ساندي، كانت تلك التي تعاملت مع إجراءات الحلفاء المضادة، فقد أوضح مثلاً أن الألمان أطلقوا ٨ آلاف قذيفة طائرة أو حوالي ٨ آلاف طن من المواد المتفجرة. أما نحن فأسقطنا ١٠٠ ألف طن من القنابل على القواعد العسكرية، بالإضافة إلى خسارة ٤٥٠ طائرة وإطلاق ملايين القذائف المضادة للطائرات. لا يسع المرء إلا أن يقوم ببعض الحسابات في هذا التاريخ، فيبدو له أن للقذائف الطائرة مستقبل كبير أمامها في الحروب القادمة، ويجب التذكير بأن المدفعية لم تحقق إلا نجاحاً جزئياً في المعارك.

٦ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٤

أقتبس بعد الإذن مقاطع من رسالة تعليمية لمتراسلة معي تلقتها من مدرسة صحفية مشهورة. يجب أن أشرح أنها حين باشرت "مقررها التعليمي" سألها المعلم أن تقدم الحد الأدنى من المعلومات حول خلفيتها وتجربتها، ثم طلب منها أن تكتب عينة من مقالتين عن موضوع مشوق بالنسبة إليها. وباعتبارها زوجة عامل منجم، فقد اختارت أن تكتب عن عملية استخراج الفحم. سوف أقتبس قسماً من الرسالة التعليمية:

لقد قرأت التمرينين بعناية واهتمام. كان يجب أن يكون لديك الكثير الذي تكتبي عنه: لكن احذري أن يكون لديك نحلة في قلنسوتك. إن عمال المناجم ليسوا الوحيدين الذين يقومون بعمل شاق. ماذا عن ضباط البحرية الذين يكسبون أجراً أقل من عامل المنجم- الذين يجب أن يمضوا ثلاثة أو أربعة أيام بعيداً عن البيت والعائلة في المناطق الجليدية الباردة أو الاستوائية الحارة؟ وماذا عن الناس المتقاعدين الكثيرين الذين يعيشون على راتب تقاعدي قليل جداً أو منحة الذين قلصت ضريبة الدخل أجرهم السابق البالغ جنيهين أو ثلاثة إلى النصف؟ كلنا نبذل التضحيات في هذه الحرب- وما يسمى بالطبقات العليا قاست من ضربة قاسية في الحقيقة.

متراسلتي التي وافقت مقدماً على ما يبدو أن تدفع ١١ جنيهاً مقابل هذا المقرر، أرسلت رسالة إلي، وطرحتُ فيها السؤال التالي: هل أعتقد أن معلمها كان يحاول التأثير عليها ليعطي لكتاباتها نزعة سياسية مقبولة؟ هل كانت محاولة منه أن تعبر في كتابتها كما يفعل الشخص الاشتراكي؟

أنا أعتقد هذا طبعاً، لكن المعنى الضمني لهذه الرسالة أسوأ من ذلك. هذه ليست مؤامرة رأسمالية لتخدير العمال. كاتبة تلك الرسالة القذرة ليست متآمرة شريرة، لكنها مجرد حمار (يجب أن أقول أتان تماشياً مع الأسلوب) لم تتأثر بسنين من القصف والحرمان. ما تظهره الرسالة، هي عادات التفكير التي لا تقهر والضارة لفترة ما قبل الحرب. تفترض الكاتبة كما يتبين- أن الهدف الوحيد للصحافة هو أن تداعب النقود في جيوب رجال الأعمال المتعبين، وأن أفضل طريقة لفعل هذا أن تتجنب قول الحقائق المزعجة عن مجتمع الزمن الحالي. إن الجمهور القارئ كما تفكر (أو يفكر) لا يجب أن يُدفع إلى التفكير: لذلك لا تجعلهم يفكرون. أنتم وراء الكعكة الكبرى (بيغ دوف) وليس أي اعتبار آخر.

إن أي شخص له علاقة بمقررات الصحافة المستقلة أو اقترب منها كدراسة كتاب الكاتب الميت الآن وكتاب الكاتب والفنان السنوي مثلاً، سيميز نغمة الرسالة: "تذكر أن مهمتك أن تسلي" "لا يوجد أي قارئ يزعج نفسه بعد يوم عمل صعب بقراءة قائمة بآلام ومصاعب شخص آخر" و"أنصحك بعدم الكتابة عن الأشياء الخلافية، فهي أشياء يصعب بيعها" سأتغاضى عن حقيقة أن هذه النصيحة مضللة حتى من وجهة نظر تجارية. إن المهم

والمغزى هو الادعاء التالي: لم يتغير أي شيء أبداً، وأن الشعب سيكون ويجب أن يكون نفس الرعاع من البلهاء الذين لا يريدون سوى أن يظلوا مخدرين ومضللين فقط، وأنه ليس هناك شخص عاقل يجلس خلف آلة طباعة لا يهدف إلا إلى إنتاج هراء قابل للبيع.

حين بدأت بالكتابة منذ خمسة عشر عاماً، لم يفلح أناس كثيرون في الحصول على ١١ جنيهاً مني مقابل نصيحة مماثلة تقريباً لما اقتبسته آنفاً قدموها لي. وكما تبين أن الناس لم يريدوا أن يسمعوا عن أشياء "مزعجة" مثل البطالة ومقالات على مواضيع "خلافية يصعب بيعها". إن العالم البديل للصحفي المستقل، عالم غرف الجلوس والنوم المفروشة، وآلات الطباعة المستأجرة والظروف المعنونة بعنوان المرسل تهيمن عليه تماماً نظرية "مهمتك أن تسلي". لكن في ذلك الزمن كانت هناك بعض الأعذار. أولاً كانت هناك بطالة واسعة الانتشار، وكانت كل جريدة ومجلة مطوقة بحشود من الهواة الذين يصارعون بشكل جنوني من أجل كسب جنيهات غريبة.

بالإضافة إلى أن الصحافة كانت أسخف بشكل لا يقارن مما عليه الآن. وكان هناك بعض الحقيقة في الزعم أن محرري الصحف لا ينشرون المساهمات "الكئيبة". إن نظرت إلى الكتابة ببساطة وفقط كطريقة لكسب المال، فإن أفضل خط هو المادة المبهجة والمفرحة إذاً. إن المحزن أن ترى العالم توقف بالنسبة إلى مدرسة الصحافة، فالقنابل لم تنجز شيئاً. في الواقع، حين قرأت تلك الرسالة، انتابني نفس الشعور بأن عالم ما قبل الحرب عاد علينا، كما شعرت قبل برهة مضت حين كنت أراقب شخصاً من خلال نافذة حجرات في المعبد باهتمام كبير ومتعة واضحة، يقوم بتلميع قبعة رسمية.

من غير الضروري القول إن رحلات القطارات الطويلة ليست ممتعة في هذه الأيام، وإن شركات السكك الحديدية لا تتحمل مسؤولية القدر الجيد من الإزعاج والمشقة التي يجب أن يتحملها الناس. إن الخطأ ليس خطأ تلك الشركات بوجود حركة مرور هائلة ذهاباً وإياباً للمدنيين في وقت تحتكر فيه القوات المسلحة أغلب الأعمدة الأسطوانية (رولينغ ستوك)، وليس لأن عربة سكة الحديد الإنكليزية تصنع بهدف ظاهر بإضاعة أكبر قدر ممكن من الفسحة والفراغ. لكن الرحلات التي تستلزم الوقوف لست ساعات أو ثمانية في ممرات مزدحمة، يمكن التخفيف من إزعاجها ومشقتها بإصلاحات قليلة جداً.

بداية، إن هراء الدرجة الأولى يجب أن يلغى نهائياً. ثانياً، أية امرأة تحمل طفلاً صغيراً، يجب أن تكون لها أولوية الجلوس. ثالثاً، يجب أن تبقى غرف الانتظار مفتوحة في الليل. رابعاً، إن تعذرَ التقيد بجداول المواعيد المواقيت، فيجب تزويد الموظفين والبوابين بالمعلومات الصحيحة وليس كما يحدث الآن، يخبرونك أنك يجب أن تبدل حين لا تريد ذلك والعكس صحيح. أيضاً- شيء سيء جداً في زمن السلم، لكنه أسوأ في هذه اللحظة -لماذا لا توجد هناك طريقة رخيصة لنقل الأمتعة في البلدات الكبيرة؟ تأخذ سيارة أجرة. وافترض أنك لا تملك أجرة السيارة، ماذا تفعل عند ذلك؟ على الأغلب ستستعير عربة يد أو توازن صندوق الملابس على عربة أطفال؟ لماذا لا توجد عربات رخيصة لنقل الأمتعة، مثل وجود حافلات لنقل المسافرين البشر؟ أو لماذا لا يجعل من الممكن حمل الأمتعة على سكة الحديد؟

هذا المساء حين أفرغت كينغ كروس جماعة أخرى من النازحين العادين، رأيت رجلاً وامرأة بدا عليهما الإنهاك من رحلة طويلة، يحاولان الركوب في حافلة. المرأة حملت طفلاً يصرخ وتمسكت بيدها الأخرى بطفل في السادسة من عمره؛ كان الرجل يحمل حقيبة مكسورة ربطت بحبل وسرير طفل أكبر. رفضت الحافلات الواحدة تلو الأخرى أن تحملهم. طبعاً لا توجد حافلة يمكنها حمل سرير طفل نقّال على متنها. كيف يتوقع ذلك منها؟ لكن من جانب آخر، كيف سيصل هؤلاء الناس إلى بيوتهم؟ انتهى الأمر بأن ركبت المرأة مع الطفلين في إحدى الحافلات بينما مشى الرجل في أثرها حاملاً السرير النقّال. كل ما أعرفه أنه يجب أن يقطع خمسة أميال حتى يصل إلى وجهته.

في زمن الحرب، يجب على المرء أن يتوقع هذا النوع من الشيء. لكن المغزى لو أن هؤلاء الناس قاموا بنفس الرحلة، محملين بالمثل، في زمن السلم، ستظل ورطتهم نفسها تماماً. لأن:

المطر تمطره السماء كل يوم/ على قاطع الأشجار العادل والظالم/ لكن الأكثر على العادل لأن/ الظالم يملك المظلة المناسبة.

إن مجتمعنا معدّ ومرتب لكي يكون في مقدورك شراء وسائل الرفاهية والترف إن كنت تمتلك النقود، فهذا هو الدور المناط بالنقود أخيراً، وهو معدّ أيضاً إن كنت لا تملك المال أن تقوم في كل ساعة من اليوم بأعمال مهينة حقيرة وإزعاجات غير ضرورية -كالعودة إلى البيت مشياً مع حقيبة سفر تقطع أصابع يدك عندما يوصلك إلى هناك نصف شلن فقط في خمس دقائق.

التريبيون ١٣ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٤.

حديثاً، أُخبرت بالقصة التالية، ولديّ كل المبررات للتصديق بأنها حقيقية.

من بين الأسرى الألمان الذي أُسروا في فرنسا، يوجد عدد معين من الروس. في وقت سابق أُسر اثنان لم يكونا يتكلمان الروسية أو أي لغة أخرى معروفة لآسريهم أو لرفاقهم السجناء، ولا يستطيعان التحدث إلا مع بعضهما فقط. أحضر أستاذ جامعي في اللغات السلافية من أكسفورد، فلم يفهم شيئاً مما كانا يقولانه، ثم صدف أن سمعهما يتحدثان رقيب خدم في جبهات الهند، وعرف لغتهما التي كان يتكلمها بشكل قليل. كانت لغة التيبيت! وبعد بعض الاستجواب، نجح في استخلاص قصتهما.

قبل بضع سنوات تاها فوق الحدود إلى الاتحاد السوفييتي، وجُندا إلزامياً في كتيبة من العمال، وبعد ذلك أُرسلا إلى غرب روسيا حين اندلعت الحرب مع ألمانيا. أُسرا من قبل الألمان، وأرسلا إلى شمال أفريقيا؛ ثم بعد ذلك أرسلا إلى فرنسا، ومن ثم تحولا إلى وحدة مقاتلة حين فتحت الجبهة الثانية، وأسرهما البريطانيون. كل ذلك الوقت لم يقدرا على التكلم مع أي أحد، إلا مع بعضهما، ولم تكن لديهما أية فكرة لما كان يحدث أو من كان يقاتل من.

كانت القصة ستكتمل بشكل بارع لو أنهما جندا في الجيش البريطاني، وأرسلا لقتال اليابانيين، وينتهي بهما المطاف في آسيا الوسطى قريباً جداً من قريتهم الأصلية، لكنهما تظل محيرة بسبب ما تدور حوله.

أرسل إلي صحفي هندي قصاصة من مقابلة مع برنارد شو. يقول شو شيئاً منطقياً أو شيئين، ويؤكد أن قادة الهيئة التشريعية العليا كان يجب ألا يُعتقلوا، لكنها على العموم كانت عرضاً مقززاً. هذه بعض الأمثلة:

سؤال: لو كنت زعيماً وطنياً للهند، كيف ستتعامل مع البريطانيين؟ ماذا ستكون وسائلك لإنجاز استقلال الهند؟

جواب: أرجوك لا تفترض وضعاً لن يحدث أبداً. إنجاز استقلال الهند ليس من شأني.

سؤال: ما هي الطريقة الأكثر فعالية لإخراج البريطانيين من الهند برأيك؟ ما الذي يجب أن يفعله الهنود؟

جواب: جعل الإنكليز فائضين عن الحاجة، وذلك بقيام الهنود بعملهم بشكل أفضل أو جعلهم مشابهين للهنود بواسطة الإخصاب المهجن. الأطفال البريطانيون لا يزدهرون في الهند.

أي نوع من الأجوبة تلك التي تعطي لشعب يرزح تحت ضيم وشكاوي مبررة هائلة؟ يرفض شو أيضاً أن يرسل تهانيه لغاندي في عيد الميلاد، على أساس أن هذا عمل لم يقم به أبداً، وينصح الشعب الهندي ألا يتضايق إن أنكرت بريطانيا الدَّين الضخم الذي كومته الهند في هذه البلاد أثناء الحرب. أتساءل أي انطباع تعطيه هذه المقابلة لبعض الشباب الطلاب الهنود الذين أمضوا ستتين في السجن، ولم يسمعوا إلا بشكل مبهم ببرنارد شو كواحد من المفكرين البارزين "التقدميين"؟ هل يكون الأمر مفاجئاً لو كان حتى الهنود الهادئين جداً عرضة لشك متكرر بأن "كل الإنكليز متشابهون؟"

كتاب السير روبرت سيتويل الصغير (رسالة إلى ولدي، راجع كما أشاء ٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٤٤) وملاحظاتي عليه، قدم مقداراً كبيراً غير عادي من الرسائل المتبادلة، وبعض النقاط التي أثيرت بحاجة إلى تعقيب آخر.

أحد المراسلين حلّ المشكلة برمتها، من خلال التأكيد على أن المجتمع يستطيع أن يتحسن تماماً من دون فنانين، ويمكنه أيضاً المضي قدماً من دون علماء ومهندسين وأطباء وبنائي الآجر ومصلحي الطرق -في الوقت الحالي. حتى يمكنه المضي قدماً من دون حصاد العام التالي، بشرط أن يكون مفهوماً أن كل واحد سيجوع حتى الموت في مدة اثني عشر شهراً.

هذه الفكرة، التي انتشرت بعض الشيء وشجعها أناس يفترض بهم أن يعرفوا أفضل، تعيد قول المشكلة في شكل جديد. إن ما يفعله الفنان ليس من الضروري أن يكون فورياً وواضحاً بنفس الطريقة التي يفعل بها موزع الحليب أو عامل المنجم. باستثناء المجتمع المثالي الذي لم يتم التوصل إليه بعد، أو في عصور مشوشة جداً ومزدهرة مثل العصر الذي انتهى للتو، هذا يعني عملياً أن الفنان يجب أن يملك نوعاً من الراعي -طبقة حاكمة أو الكنيسة أو الدولة أو الحزب السياسي. والسؤال "أيها أفضل" يعني "أي منها يتدخل في شؤونك أقل؟".

أشار مرسلون آخرون إلى أن للفنان حلاً واحداً، بأن يكون له سبل رزق بديلة. "من المعقول تماماً" يقول السيد بي فيليبس برابس، أن يكتب ويكرس نفسه للاشتراكية، وفي الوقت نفسه أن يرضى برعاية إذاعة البي البي سي أو الإم أو أي (وزارة الإعلام) أو رانك (جه آرثر رانك لإنتاج الأفلام) أو السي أي أم ايه (مجلس تشجيع الموسيقى والفنون)..... الطريق الوحيد للخروج من هذا، هو شكل ثانوي ما من بيع المواهب بدوام نصفي. والصعوبة هنا هي أن مهنة الكتابة أو أي فن آخر تأخذ الكثير من الوقت والطاقة، كما أن المهمة التي يحصل عليها الكاتب في زمن الحرب إن لم يكن في الجيش (أو حتى لو كان- لأن هناك علاقات عامة دائماً) لها علاقة بالدعاية عادة وهي بحد ذاتها نوع من الكتابة. إن تأليف كراسة دعاية أو مقال إذاعي، يحتاج إلى جهد بقدر جهد كتابة شيء تؤمن به، مع اختلاف أن المتتج المنجز يكون عديم القيمة. أستطيع تقديم لائحة كاملة من كتاب الوعود أو التمثيليات الذين يعصرون الآن كالبرتقال في وظيفة رسمية ما أو أخرى. صحيح أنها في أغلب الحالات مهمة تطوعية. يريدون الفوز بالحرب، ويعرفون أن على كل واحد أن يضحي بشيء. لكن تظل النتائج نفسها. سيخرجون من الحرب بلا شيء للتباهي بجهودهم ولا حتى بالتجربة المحزنة التي يحصل عليها الجندي مقابل معاناته البدنية.

لو كان على الكاتب أن تكون له مهنة بديلة، فمن الأفضل ألا تكون لها أي علاقة بالكتابة. كان ترولوبي أحد الحاملين لمهنتين الناجحين، فكان ينتج ألفي كلمة بين الساعة السابعة والتاسعة صباحاً قبل أن يغادر إلى عمله في مكتب البريد. لكن ترولوب كان رجلاً استثنائياً، وكان يصطاد لثلاثة أيام بالأسبوع ويلعب الورق حتى منصف الليل عادة. وأشك إن كان أداؤه لواجباته الرسمية بجهده. أشار مرسل آخر أن التمييز بين الفنان والإنسان العادي سيتلاشى في المجتمع الاشتراكي الحقيقي على الأرجح، لكن مثل هذا المجتمع لم يتواجد بعد. وزعم آخرون أن رعاية الدولة ضمانة ضد الجوع، وهي أفضل من الضمانة الخاصة، لكنها تبدو لي استعداداً كبيراً للتغاضي عن الرقابة التي يتضمنها هذا. كان الخط المعتاد أن يكون الفنان عضواً مسؤولاً في تجمع، أفضل من أن يكون فردانياً فوضوياً. إذاً القضية ليست بين "التعبير عن الذات" غير المسؤول وبين الانضباط، وإنما بين الحقيقة والأكاذيب. لا يعترض الفنانون كثيراً جداً على الانضباط الجمالي. سيصمم المهندسون المعماريون المسارح والكنائس عن طيب

خاطر بالتساوي، وسيتحول الكتّاب من رواية الثلاث مجلدات إلى رواية المجلد الواحد أو من المسرحية إلى الفيلم حسب الطلب. لكن النقطة أن هذا العصر عصر سياسي. يكتب الكاتب بشكل محتم -وهذا ينطبق بشكل أقل مباشرة على كل أشكال الفن- حول الأحداث المعاصرة، ودافعه أن ينقل ما يعتقد أنه الحقيقة. لكن ليس هناك حكومة أو منظمة كبيرة تدفع ثمناً من أجل الحقيقة. لنأخذ مثالاً بسيطاً: هل تستطيع أن تتخيل أن تقوم الحكومة البريطانية بتكليف أي أم فورستر ليكتب رحلة إلى الهند؟ استطاع أن يكتبها فقط لأنه لم يكن متكلاً على مساعدة الدولة. ضاعف هذا المثال بمليون وسترى الخطر المتضمن -ليس في الحقيقة، في اقتصاد ممركز كهذا وإنما في سيرنا المستمر نحو عصر جمعي اشتراكي من دون أن نتذكر أن ثمن الحرية يقظة واحتراس أبدي.

٢٠ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٤.

بعد قراءة كتاب عن العميد وينغيت الذي قتل في وقت مبكر من هذا العام في بورما، لاحظت باهتمام أن جنوده من "الصينيين الهنود" الذين زحف بهم عبر بورما العليا في عام ١٩٤٣ لم يكونوا يلبسون خوذ الريش المعتادة الخرقاء المنافية للذوق، وإنما قبعات متدلية مثل تلك التي تلبسها أفواج غوركا. وهذا يظهر نقطة صغيرة، لكنه ذو معنى اجتماعي مهم. فقبل عشرين سنة أو عشر سنوات، كان ذلك مستحيلاً، وكان كل واحد تقريباً وأي طبيب معهم سيتنبأ بموت أعداد كبيرة من هؤلاء الناس من ضربة الشمس.

لقد تبنى الأوروبيون في الهند موقفاً خرافياً، حتى وقت قريب، من السكتة الدماغية التي تسببها الحرارة أو ضربة الشمس كما تسمى عادة. واعتقدوا أنها شيء خطير على الأوروبيين وليس على الآسيويين. حين كنت في بورما، تأكدت أن الشمس الهندية، حتى في أبرد حالاتها، لها قدرة مميتة بشكل خاص، ولا يمكن الاحتماء منها إلا بارتداء خوذة من الفلين ولب الثمر. "السكان الأصليون" جماجمهم أسمك، لا يحتاجون إلى هذه الخوذ، لكن بالنسبة إلى الأوروبي حتى قبعة اللباد المضاعفة ليست حماية موثوقة.

لكن لماذا تكون الشمس في بورما، حتى في يوم بارد، خطراً مميتاً أكثر منها في إنكلترا؟ لأننا أقرب إلى خط الاستواء وأشعة الشمس عمودية أكثر. هذا أدهشني، لأن أشعة الشمس

عمودية عند الظهر فقط. ماذا عن الصباح الباكر؟ إنها كذلك تماماً، قيل لي إن أشعتها تكون على أشدها. لكن ماذا عن الفصل الماطر، حين لا يرى المرء الشمس لعدة أيام متوالية في كل مرة بشكل متكرر؟ ثم أخبرني كل المتمرسين المحنكين القدماء أن أتمسك "بالتوبي" (الخوذة المصنوعة من لب الشجر تسمى توبي) في كل الأوقات. الأشعة المميتة ترشح عبر الغيمة بالمثل، وفي يوم فاتر أنت في خطر نسيانها. انزع قبعتك (توبي) في العراء للحظة واحدة وربما تصبح ميتاً. بعض الناس، لم يقنعوا بالفلين ولب الشجر، يؤمنون في فضائل النسيج الصوفي الأحمر ويلصقون رقعاً صغيرة تُخاط على قمصانهم فوق الفقرة العلوية. الجالية الأوراسية، متلهفة لتأكيد أصلها الأبيض، اعتادت مع الوقت أن تلبس توبيات أكبر وأسمك من تلك القبعات التي يلبسها البريطانيون.

عدم إيماني في كل هذا، يعود تاريخه إلى اليوم الذي طارت فيه قبعتي عن رأسي وحملها النهر بعيداً، وصرت أمشي حاسر الرأس كل اليوم من دون أي آثار سيئة. ولكن حقائق أخرى كانت تتعارض مع الاعتقاد السائد. بداية مع بعض الأوروبيين (مثلاً بحارة يعملون في تجهيزات السفن) يعملون حاسري الرؤوس في الشمس. أيضاً، حين تحدث ضربات شمس (لأنها تحدث)، لم يبدُ أن سببها يعود إلى مناسبة خلع الضحية فيها قبعته عن رأسه. وكانت تحدث للآسيويين كما تحدث للأوروبيين. وقيل إنها أكثر شيوعاً وسط وقّادي السفن التي تعمل بالفحم التي كانت خاضعة لحرارة شديدة وليس لأشعة الشمس. كانت الضربة الحاسمة، هي الاكتشاف بأن التوبي التي يفترض أنها الحماية الوحيدة ضد الشمس الهندية، هي اختراع حديث تماماً. لم يعرف الأوروبيون الأوائل شيئاً عنها. باختصار، الأمر برمته هراء.

لكن لماذا اختلق البريطانيون في الهند هذه البدعة عن ضربة الشمس؟ بسبب التأكيد اللانهائي على الاختلافات بين "السكان الأصليين" و"بينك"، وهذا واحد من الدعامات الضرورية للإمبريالية. لا يمكنك أن تحكم سلالة تابعة، خصوصاً حين تكون أقلية صغيرة، إلا إن اعتقدت بصدق أنك أفضل وأرفع منها عرقياً، ويساعدك في هذا الصدد إذا استطعت أن تعتقد أن السلالة مختلفة بيولوجياً. هناك عدد كبير جداً من الطرق اعتاد الأوروبيون في الهند الإيمان بها من دون دليل وإثبات، بأن أجساد الآسيويين مختلفة عن أجسادهم. واعتقدوا بوجود اختلافات تشريحية هامة بينهم حتى. لكن هذا الهراء عن كون الأوروبيين يتعرضون

لضربة الشمس والمشرقيون لا يتعرضون لها، كانت الخرافة الأشد احتراماً من بين الكل. الجمجمة الرقيقة كانت علامة التفوق العرقي، وقبعة لب الشجر كانت رمزاً للإمبريالية.

لهذا يبدو لي انطلاق رجال وينغيت من بريطانيين وبورميين وهنود على السواء بقبعات عادية من اللباد، هي علامة على تبدل الأزمنة. هم عانوا من الزحار والملاريا والطفيليات والعوالق والقمل والأفاعي والياباني، لكن أعتقد أنه لم تسجل ضربة شمس واحدة. والأهم من كل ما سبق، يبدو أنه لم يكن هناك أي اعتراض رسمي وشعور أن ترك التوبي (القبعة) كان ضربة بارعة لهيبة البيض ومقامهم.

في كراسة السيد ستانلي (انوين) التي نشرت في بيس أند وور، بعض الحقائق الممتعة عن كميات الورق التي خصصتها الحكومة لأغراض متنوعة. هذه بعض الأرقام:

الصحف: ٢٥٠ ألف طن. مكتب القرطاسية التابع لوزارة الداخلية ١٠٠ ألف طن. الدوريات: ٥٠ ألف طن تقريباً. الكتب: ٢٢ ألف طن.

اللافت أن وزارة الحرب تحصل على ٢٥ ألف طن على الأقل من حصة مكتب القرطاسية أو أكثر من كل ما تحصل عليه تجارة الكتب مجتمعة.

أنا لم أشهد بعيني شخصياً، لكن أستطيع تخيل ضياع الورق الذي يحدث في وزارة الحرب والوزارات الأخرى. أنا أعرف ما يحدث في البي بي سي. هل تصدق أن كل برنامج إذاعي يبث على الهواء مثلاً حتى المحادثة العرضية التي يتبادلها الكوميديون، تطبع منه ست نسخ على الأقل وأحيانا خمس عشرة نسخة؟ ويضبر كل هذا الهراء منذ سنوات في مكان ما في أرشيف هائل، وفي الوقت نفسه إن الورق المخصص للكتب قليل جداً، وحتى الكتاب "الأثر الأدبي المهم" عرضة لأن تنفد طبعاته، وأن الكثير من المدارس تعاني من نقص في الكتب المدرسية، وأن الكتّاب الجدد ليس لديهم أي فرصة في البدء، وحتى الكتاب الراسخون يجب عليهم أن يتوقعوا فجوة من سنة أو سنتين بين إنهاء الكتاب ورؤيته منشوراً. ولهذا ابتلعت أمريكا تجارة تصدير الكتب الإنكليزية.

هذا الجزء من كراسة السيد انوين قصة محزنة. يكتب بغضب مبرر عن الموقف المزدري نحو الكتب الذي أبدته الحكومات الأخرى. لكن في الحقيقة، فإن الإنكليز بشكل عام ليس

لديهم توقير للكتب، رغم أنهم أفضل من الأمريكان في هذا المجال. في البلدان الصغيرة مثل هولندا وفنلندا، كان استهلاك الفرد للورق هو الأعلى. أليس من المهين أن تعرف أن مدينة نائية مثل ريكيافيك أقامت منذ بضع سنوات قليلة قبل الحرب معرضاً للكتب البريطانية أفضل من أي مدينة إنكليزية تساويها في الحجم؟

٢٧ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٤.

قبل أسبوع أو اثنين، وبعد قراءة كتاب السيد سي إس لويس **ما وراء الشخصية** الذي يتألف من سلسلة من النشرات الإذاعية عن علم اللاهوت، الذي أعيد طبعه حديثاً، عرفت من الدعاية المعرفة المكتوبة على الغلاف أن الناقد الذي يجب عليه أن يعرف ويعرف في الحقيقة بشكل أفضل شبهه بكتاب سابق **أحرف شيطانية** وبكتاب **تقدم الحاج**. أنا لم أتردد بمقارنة إنجاز السيد لويس في **تقدم الحاج** حيث كانت كلماته المقتبسة. هذا مثال من الكتاب الأخير وهو تمثيلي تماماً:

حسناً حتى على المستوى الإنساني، هناك نوعان من التظاهر والادعاء. هناك نوع سيئ حيث يكون التظاهر بدلاً من الشيء الحقيقي، مثلما حين يتظاهر رجل بمساعدتك بدلاً من أن يساعدك فعلياً. حين لا تحس بشعور ودي خاص لكنك تعرف أن عليك أن تشعر، فإن أفضل شيء تستطيع فعله في الغالب أن تتظاهر بسلوك ودي، وتتصرف كما لو أنك كنت رجلاً أفضل بكثير مما أنت عليه في الحقيقة. وبعد بضع دقائق كما لاحظنا كلنا، ستشعر أنك فعلياً وديّ أكثر مما كنت. لهذا السبب فإن ألعاب الأطفال مهمة جداً. فهم يتظاهرون طول القوت بأنهم جنود لاعبون بالغون ويشدون عضلاتهم ويقوون فطنتهم ودهاءهم طول الوقت، لكي يساعدهم التظاهر بأنهم كبار وبالغون.

الكتاب كله مثل هذا، وأعتقد أن أغلبنا يتردد طويلاً قبل مساواة السيد لويس مع بونيان. يجب على المرء أن يدرك أن هذه المقالات بثت في الراديو، ثم أعيد طبعها، لكن حتى على الهواء ليس من الضروري إهانة جمهورك الإذاعي بعبارات ودية مثل "أنت تعرف" و"انتبه" أو بعبارات إدواردية دارجة مثل "بشكل شنيع"، "وبشكل ممتاز جداً" و"خصوصاً" و"وقاحة بغيضة" وهلم جرا. إن الفكرة بالطبع هي في أن تقنع القارئ المرتاب أو المستمع، بأن المرء يستطيع أن يكون مسيحياً و"رجلاً طيباً جداً" في الوقت نفسه. أنا لا أتخيل أن

المحاولة ستنجح كثيراً، وأن يجعل القطن الطبي الذي تحشو به البي بي سي أفواه مستمعيها أي نقاش حقيقي للمشاكل اللاهوتية مستحيلاً، حتى لو كان من وجهة نظر أرثوذكسية. لكن رواج السيد لويس الآن والوقت الذي أعطي له على الهواء والمديح المبالغ به، هي أعراض سيئة تستحق لفت النظر إليها.

سيلاحظ طلاب علم الدفاع الديني الشعبي مبكراً في الكتاب مساعداً وصديقاً لكل الأشخاص الذين يظهرون كل بضع سنوات بدين مبسط مجاز خاص بهم، وتلميحات شتى بأن الشك شيء قديم وعتيق وهلم جرا، وسيتذكرون أن رونالد نوكس قال الشيء ذاته قبل خمس عشرة سنة، وآر إتش بينسون قبل ذلك بعشرين أو ثلاثين سنة، وسيعرفون بأي برج حمام يجب أن يوضع السيد لويس.

هناك نوع كتاب استوطن وانتشر بشكل واسع في إنكلترا لمدة ستين عاماً، وهو كتاب ديني سخيف ذكي، استمر من حيث المبدأ ليس بتهديد غير المؤمن بالجحيم، وإنما بإظهاره أبله مخالفاً للمنطق وعاجزاً عن التفكير الواضح وجاهلاً، وأن كل ما يقوله قيل وفُند سابقاً. أعتقد أن هذه المدرسة الأدبية بدأت مع الجمهورية الجديدة لدبليو إتش مالوك، التي كتبت كما يفترض في ١٨٠٠ تقريباً، وكان لها صف طويل من الممارسين -آر إتش بينسون وتشيسترتون والأب نوكس ومتسكع الشواطئ وآخرون أغلبهم من الكاثوليك، لكن بعضهم من الإنجليكان كالدكتور سيريل إلينغتون والسيد لويس نفسه (كما أشك).

خط الهجوم نفسه دائماً. كل بدعة قيلت وروجت من قبل (مع التلميح بأنها فندت من قبل) وعلم اللاهوت لا يفهمه سوى علماء اللاهوت (مع التلميح بأنك يجب أن تترك تفكيرك للقساوسة). بهذه الخطوط يستطيع المرء طبعاً أن يجد الكثير من التسلية في "تصحيح التفكير الرخو"، والإشارة إلى أن فلاناً وفلاناً يقولان ما قاله بيلاجيوس في عام ٤٠٠ ميلادية (أو أي زمن كان) واستعملوا كلمة "تحول" (تحول الخبز والنبيذ في القربان إلى جسد المسيح ودمه- المترجم) بالمعنى الخطأ. هذه هي الأهداف الخاصة لهؤلاء الناس تي إتش كسلي وإتش جي ويلز وبرتراند راسل والبروفسور جود وآخرين، الذين ارتبطوا في العقل الشعبي بالعلم والعقلانية، الذين لم يجدوا صعوبة كبيرة في تدميرهم -علماً أني ألاحظ أن أغلب المدمرين لا يزالون هناك، بينما بدأ أغلب المدافعين المسيحيين أنفسهم في الذبول.

إن المبرر الوحيد للتأييد المفرط الذي يجده هؤلاء الناس في الصحافة دائماً، هو ولاءاتهم السياسية الرجعية بشكل ثابت، حتى أن بعضهم كان معجباً بالفاشية طالما كان ذلك آمناً. لهذا السبب قمت بلفت الانتباه إلى السيد سي إس لويس وأحاديثه الإذاعية الصغيرة الودودة التي سيكون منها الكثير بلا شك، وهي في الحقيقة ليست غير سياسية كما قُصد لها أن تبدو، بل إنها حركة مطوقة ومجهضة في الهجوم المضاد الكبير على اليسار الذي كان يديره إيه بي هربرت وجي أم يونغ وألفريد نويس وآخرون طوال السنتين الماضيتين.

لاحظتُ أن السيد ميدلتون موري في كتابه آدم وحواء يعتبر الهياج ضد إطلاق سراح موسلي من الاعتقال، علامة على نمو النظام الشمولي أو العادة الذهنية الاستبدادية في هذه البلاد. يقول إن عامة الشعب لاتزال تمقت النظام الشمولي، لكنه يضيف في حاشية لاحقة أن فعل موسلي هزّ هذا الرأي إلى حد ما. أتساءل إن كان مصيباً أم لا في قوله. ظاهرياً إن المظاهرات ضد إطلاق سراح موسلي، علامة سيئة جداً، وتعني عملياً أن الناس كانوا هائجين ضد الأمر بالمثول أمام المحكمة. في عام ١٩٤٠ كان اعتقال موسلي وسجنه عملاً صحيحاً تماماً، وبرأيي كان من الأنسب إعدامه لو وطأ الألمان أرض بريطانيا. حين تكون القضية قضية وجود الأمن القومي، لا تستطيع أية حكومة التمسك بحرفية القانون: وإلا فإن كل خائن محتمل للوطن، ليس عليه إلا أن يتحاشى ارتكاب الجرائم التي تعرضه للمقاضاة، ويستطيع البقاء حراً وجاهزاً، ويذهب إلى العدو ويعمل كقائد في الحزب النازي فور وصول العدو. لكن الوضع في عام ١٩٤٣ كان مختلفاً تماماً. لقد مر خطر غزو ألماني جدي، وموسلي (رغم أنه من المحتمل أن يعود ويتراجع في تاريخ مستقبلي) مجرد سياسي فاشل سخيف مصاب بتوسع في أوعيته الدموية. إن استمرار حبسه من دون محاكمة، كان انتهاكاً لكل مبدأ نقاتل من أجله كما يفترض.

هناك شعور شعبي قوي ضد إطلاق سراح موسلي، ولكن ليس لأسباب شريرة كالتي يشير إليها السيد موري ضمناً في رأيي. إن التعليق الأكثر تكرراً الذي يسمعه المرء "لقد فعلوها لأنه رجل ثري"، وهذه طريقة مبسطة للقول "امتياز طبقي يتعزز مرة أخرى". من المبتذل أن يسرق منا بالتدريج التقدم السياسي الذي يبدو أننا حققناه في عام ١٩٤٠ مرة أخرى. لكن الغريب أن الإنسان العادي يرى هذا يحدث ولا يستطيع مقاتلته: يبدو أنه ليس

هناك مكان للتحكم والسيطرة. بطريقة ما، السياسة توقفت. لم تعد هناك انتخابات عامة، والناخب يدرك عجزه عن التأثير على رئيس أو عضو البرلمان، والبرلمان ليس له أية سلطة على الحكومة. ربما لا تحب الأشياء التي تحدث، لكن ماذا يمكنك أن تفعل لها بالضبط؟ ليس هناك فعل مادي ملموس يمكنك الاحتجاج ضده بشكل منطقي.

لكن بين الحين والآخر، يحدث شيء ما عبارة عن علامة واضحة للنزعة العامة -شيء يمكن أن يتبلور حوله الاستياء الموجود. "اسجنوا موسلي" صيحة جيدة لاستجماع القوة. كان موسلي في الحقيقة رمزاً، مثلما لايزال بيفريدج ومثلما كان كريبس في عام ١٩٤٢. أنا لا أعتقد أن موري يجب أن يقلق حول مضامين هذا الحدث، فعلى الرغم من كل الذي حدث، فشل أي رأي ديكتاتوري من التقدم والقبول وسط الناس العاديين في هذه البلاد.

٣ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٤.

بدأت بنغوين نشر الكتب باللغة الفرنسية الآن، وهي ذات شكل لطيف وبسعر نصف كراون. ومن بين تلك التي ظهرت، هي الأجزاء الأخيرة من جورنال أندريه جيد التي تغطي سنة واحدة من الاحتلال الألماني. حين ألقيت نظرة سريعة على **الآلهة عطشى** للعجوز المفضل أناتول فرانس (إنها رواية عن حكم الإرهاب أثناء الثورة الفرنسية)، خطرت الفكرة لي: ما هي المقاطع التي يستطيع المرء اختيارها كأثر أدبي هام من كتابة تصف عمليات الإعدام! يفترض أن هناك المئات منه مبعثرة في الأدب و-لمبرر أعتقد أنني أستطيع تخمينه- يفترض أنها كتبت بشكل أفضل من الكتب التي تصف المعارك.

من بين الأمثلة التي أتذكرها في هذه اللحظة، وصف ثاكري لشنق كورفوازير، وإعدام المجالدين في سالامبو، والمشهد الأخير من قصة مدينتين، وجزء من رسالة أو مفكرة لبايرون تصف الإعدام بالمقصلة، وقطع رأسي نبيلين اسكتلنديين بعد تمرد عام ١٧٤٥ الذي وصفه هوراس والوب كما أعتقد. هناك فصل رائع جداً يصف عملية إعدام بالمقصلة في أولد وايفز تيل لأرنولد بينت، وفي واحدة مرعبة من روايات زولا (تلك التي عن ساكر كور) ثم هناك قصة جاك لندن القصيرة الشيناغو ووصف أفلاطون لموت سقراط -لكن يستطيع المرء توسيع القائمة بشكل لا حدود له، ويجب أن يكون هناك أيضاً عدد كبير من الأمثلة في الشعر، أتذكر

منها الآن القصائد الغنائية الشعبية القديمة عن الشنق مثلاً، التي تدين لها بشيء ما قصيدة كيلينغ "داني بيفر".

الشيء اللافت جداً، أنه ليس هناك كاتب واحد -أو أنا لا أتذكر- كتب عن عملية إعدام باستحسان. السمة الغالبة دائماً هي الرعب. إن المجتمع لا يستطيع على ما يبدو التقدم والتعايش من دون عقوبة الإعدام -لأن ترك بعض الناس أحياء هو أمر غير آمن ببساطة - ومع ذلك حين تأتي الفرصة، فلا يوجد أحد يشعر أنه من الصحيح والعدل قتل إنسان آخر بدم بارد. رأيت رجلاً يشنق مرة واحدة. ليس هناك شك أن كل شخص مهتم يعرف أن الإعدام سيكون عملاً مفزعاً وغير طبيعي. أعتقد أن الأمر دائماً نفسه -السجن كله والحراس والسجناء على السواء يضطربون ويحزنون حين تكون هناك عملية إعدام. ربما حقيقة أن عقوبة الإعدام مقبولة كشيء ضروري، ومع ذلك يشعر الناس بأنها خطأ، هي التي تعطي للأوصاف الكثيرة جداً لعمليات الإعدام جوها المأساوي. لقد كتب هذه الأوصاف أشخاص شاهدوا الإعدام وشعروا أنه تجربة فظيعة ومفهومة جزئياً فقط يريدون تسجيلها؛ بينما أدب المعارك كتبه أشخاص على الأغلب لم يسمعوا قط بندقية تُطلِق، ويفكرون في المعركة كنوع من مباراة بكرة القدم لا يتأذى أحد فيها.

ربما من التسرع قليلاً القول إنه لم يكتب أحد عن الإعدام باستحسان، حين يفكر المرء بالطريقة التي تتلمظ بها صحفنا فوق عمليات قتل خونة الوطن البائسين بدم بارد في فرنسا وفي كل مكان آخر. أتذكر، في إحدى الصحف، سلسلة كاملة من الصور تظهر إعدام كاروسو الرئيس السابق لشرطة روما. ترى الجسد الضخم البدين مفرشخاً على كرسي وظهره بمواجهة الفرقة التي ستطلق النار، ثم غيمة الدخان المتصاعدة من سبطانات البنادق، والجسد يهبط من الجانبين. المحرر الذي رأى من المناسب نشر هذا، ظن أن الإعدام نبأ سار كما اعتقد، لكنه لم يكن عليه أن يشاهد الفعل الحقيقي بعد ذلك. أظن أنني أستطيع تخيل مشاعر الرجل الذي التقط الصور وفريق الإعدام.

إلى عشاق المعرفة غير المفيدة (وأنا أعرف هناك الكثير منهم، من عدد الرسائل التي تصلني دائماً حين أثير أية قضية من هذا النوع) أقدم مشكلة صغيرة غريبة ناشئة عن طبعة حديثة للبيلكان لكتاب إنكلترا شكسبير. كاتب اسمه فاينيس موريسون، طاف في إنكلترا في عام

١٦٠٧ يصف البطيخ الذي يزرع وينمو بحرية. أندرو مارفيل، في قصيدة شهيرة جداً كتبت بعد خمسين سنة من ذلك، يشير إلى البطيخ أيضاً. كلا المرجعين أظهرا أن البطيخ كان ينمو في العراء. وبالفعل كان يفترض بالبطيخ أن يفعل هذا لو أنه زرع قط ونما. كان المستنبت اختراعاً حديثاً في عام ١٦٠٠ وكانت البيوت البلاستيكية نادرة إن وجدت. من الصعب أن تزرع تحت زجاج بسبب سعرها. يتكلم فاينيس موريسون عن زراعة العنب أيضاً بكميات كبيرة لصنع النبيذ. هل من الممكن أن مناخنا تبدل بشكل جوهري في السنوات الثلاثمائة الأخيرة؟ أم هل كان المسمى بطيخاً هو يقطين في الواقع؟

١٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٤.

منذ أسابيع مضت، وصفتُ مجلة ذا رايتر بعدم اكتراث "بالميتة"، خلال بعض ملاحظات لي عن مدارس الصحافة. تلقيت رسالة نتيجة ذلك من مالكيها الذين أرفقوا بالرسالة عدد تشرين الثاني/ نوفمبر من المجلة وطالبوني بسحب تصريحي. سحبته على الفور. لاتزال ذا رايتر حية، وتبدو لي كما هي دائماً، رغم أنها غيرت تصميمها وشكلها الذي عرفته. وأعتقد أن هذه النسخة العينة تستحق تفحص الضوء الذي تلقيه على مدارس الصحافة وكل تجارة استخراج أجور من صحفيين مستقلين كادحين.

المقالات من الأنموذج المعتاد، "تقنية الحبكة" بواسطة وليام باغلي إلخ، لكنني مهتم أكثر بالإعلانات التي تشغل أكثر من ربع المساحة. أغلبها من أشخاص يدعون أنهم قادرون على أن يعلموك كيف تكسب نقوداً من الكتابة. عدد مذهل يتعهد بتزويدك بحبكات جاهزة. هذه بضع عينات منها:

حبكات من دون دموع. تعلم طريقتي. أبسط طريقة على الإطلاق. تعاد النقود إن لم تكن راضياً. ٥ شلنات. البريد مجاني.

طريقة لا تنضب للحبكات للصحافة النسائية، خمسة شلنات وثلاث د. تعطيك براعة حقيقية. عشرة أيام ابروفال.

حبكات: حبكاتنا بدأت بالتسلسل وكلها جاهزة للمقال بأطوال لكل سلسلة. إعادة القولبة غير ضرورية -ماعدا الكسوة بالكلمات الضرورية. كل الأنماط متوفرة.

حبكات في مشاهد حية وقوية. بأسطر افتتاحية مدهشة من أجل استعمال حقيقي في القصص. محادثات أنموذجية تتضمن لهجة أصيلة....... قصيرة قصيرة، ٥ شلنات، قصة قصيرة ٦ شلنات، طويلة كاملة مع نهايات موترة حابسة للأنفاس ٥ شلنات و٦ د. مسلسل: رواية، رواية قصيرة (فصل فصل) مقدمة ملائمة، اقتباسات نثرية أو شعرية إن كانت هناك رغبة ١٥ شلناً و٦ د. جنيه.

هناك الكثير غيرها. شخص ما يسمى السيد مارتن ولتر يدعي أنه قلل بناء القصة إلى علم دقيق، وطور أخيراً صيغة الحبكة التي بنيت بناء عليها قصصه وقصص طلابه في كل أرجاء العالم. إن كنت تتوق إلى كتابة القصة الأدبية أو القصة الشعبية أو أن تنتج قصصاً لأي سوق قائم، تذكر أن صيغة السيد ولتر وحدها من تكشف لك ما هي الحبكة وكيف تنتج واحدة منها. الكلفة لا تكلفك سوى جنيه واحد. ثم هناك "قافلة صحفيي الشوارع الجاهزين لمراجعة وتنقيح مخطوطاتك بـ ٢ شلن و٦ د لكل ألف كلمة. كما أننا لا ننسى الشعراء أيضاً.

تحيات وترحيب

هل أنتم أيها الشعراء تهملون الطلب الكبير لما بعد الحرب للعاطفة والوجدان؟

هل أنتم متخصصون، وهل تعرفون ما المطلوب والضروري؟

مقرر بطاقة ترحيب التعليمي الشهير لايدا ريبين موجود للطلاب المقبولين المستعدين للعمل المجهد. كتابها عاطفة وبطاقة ترحيب ناشرين، نشر بـ ٣ شلنات وبنس ٦ د، يمكن الحصول عليه من، إلخ إلخ.

أنا لا أرغب في قول أي شيء هجومي ومهين، لكن لكل شخص ينزع لأن يستجيب لهذا النوع من الإعلانات المقتبسة آنفاً، أقدم هذه الفكرة. إن كان هؤلاء الناس يعرفون فعلاً كيف يجنون المال من الكتابة، لماذا لا يفعلون ذلك بدلاً من بيع سرهم بخمسة شلنات للسر الواحد؟ بمعزل عن أي اعتبار آخر، هم سيربون حشوداً من المنافسين لأنفسهم. هذا العدد من ذا رايتر يحتوي على ثلاثين إعلاناً تقريباً من هذا الطابع وذا رايتر نفسها، بالإضافة إلى أنها تعطي نصائح في مقالاتها وتدير مكتبها الأدبي الخاص بها، حيث تنتقد المخطوطات من قبل خبراء معروفين بكلفة كذا للألف كلمة. لو حصل كل واحد من هؤلاء المعلمين المتنوعين

على عشرة طلاب ناجحين في الأسبوع، فإنهم سيطلقون في السوق حوالي خمسة عشر ألف كاتب ناجح في السنة! أيضاً أليس غريباً ألا تذكر أسماء (صحفيي الشارع الرشيقين-فليت ستريت جورناليست) والمؤلفين المعترف بهم والروائيين المشهورين الذين يعلمون هذه المقررات التعليمية أو يكتبون الشهادات لهم، أو حتى إن ذكرت أسماؤهم لا يكونون أبداً أشخاصاً رأيت أعمالهم المنشورة في أي مكان؟ إن عرض برنارد شو أو جيه بي بريستلي أن يعلماك كيف تكسب مالاً من الكتابة، ربما تشعر بوجود شيء فيها. لكن من الذي يشتري قارورة من محيي الشعر من رجل أصلع؟ إن كانت ذا ريتر تريد المزيد من بعض الشهرة المجانية، فسوف تنالها، لكنني أخمن أن هذا العمل سيستمر.

إحدى الطرق المفضلة لتزييف علم التاريخ الآن، هي تبديل التأريخ. موريس ثوريز، الشيوعي الفرنسي عفت عنه الحكومة الفرنسية (كان يخضع لعقوبة الفرار من الجيش). فيما يتصل بهذا، لاحظت إحدى صحف لندن أن ثوريز "سيكون قادراً الآن على أن يعود من موسكو، حيث كان يعيش منفياً في السنوات الست الماضية".

على العكس، كان له في موسكو خمس سنوات بأقصى تقدير، كما يدرك جيداً محرر هذه الصحيفة. ثوريز الذي عبر عن تلهفه للدفاع عن فرنسا ضد الألمان منذ عدة سنوات مضت، والذي استدعي إلى الجيش منذ اندلاع الحرب في عام ١٩٣٩ وفشل في تسجيل ظهور، ظهر في موسكو في وقت لاحق.

لكن لماذا تبديل التأريخ؟ لكي يبدو فرار ثوريز من الجندية، إن فر، وقع قبل سنة من الحرب، وليس بعد أن بدأ القتال. هذا مجرد عمل واحد في الجهد العام الرامي إلى تبرئة وتبييض سلوك الفرنسيين وشيوعيين خلال فترة المعاهدة الروسية الألمانية. أستطيع أن أسمي أعمال تزوير أخرى في السنوات الأخيرة. أحياناً تستطيع أن تعطي حدثاً لوناً مختلفاً تماماً بتغيير التأريخ لبضعة أسابيع فقط. لكن الأمر لا يهم طالما كلنا نبقي عيوننا مفتوحة وننظر إليه. إن الأكاذيب لن تزحف إلى خارج الصحف وتدخل إلى كتب التاريخ.

مراسل ينقصه غريزة التنافس، أرسل نسخة من مبادئ أو أهواء، كراسة بستة بنسات بقلم كينيث بيكثورن، عضو البرلمان المحافظ، مع نصيحة (وضع خطاً أحمر تحتها): "تُحرق بعد أن تُقرأ"

لم أفكر أنا في حرقها. وذهبت فوراً إلى أرشيفي. لكنني أوافق أنها قطعة أدبية مقززة، وأن سلسلة الكراسات كلها (كتيبات ساينبوست، بواسطة مؤلفين مثل جي أم يونغ ودوغلاس وودراف والكابتن ال دي غامانز) علامة سيئة. إن السيد بيكثورن واحد من أذكى أعضاء البرلمان التوريين الصغار (صغار في الدائر السياسية تعني تحت عمر الستين) وفي هذه الكراسة يحاول أن يقدم التورية في ضوء محبب وديمقراطي، وفي الوقت نفسه يقذف بضربات مضللة صغيرة على اليسار. انظر إلى هذا مثلاً من أجل تحريف وتشويه نظرية الماركسية:

ليس هناك شخص واحد يقول إن العوامل الاقتصادية تحكم العالم، يصدق ذلك عن نفسه. لو كان كارل ماركس مهتماً اقتصادياً أكثر منه سياسياً لاستطاع فعل شيء أفضل لنفسه، بدلاً من قبول عطف الرأسمالي إنجلز وبيع مقالاته إلى صحف أمريكية أحياناً.

وسط الناس الجاهلين، هذا يعني أن الماركسية تعتبر الكسب الفردي هو القوة الدافعة في التاريخ. إن ماركس لم يقل هذا فقط، بل قال عكسه تماماً. كثير من الكراسات عبارة عن هجوم على فكرة الأممية، وتدعمها ملاحظات كتلك: "ليس هناك رجل دولة بريطاني واحد يجب أن يشعر أنه مخول أن ينفق الدم البريطاني من أجل تعزيز شيء أهم وأسمى من المصالح البريطانية". لحسن الحظ يكتب السيد بيكثورن بطريقة سيئة جداً لتكون له جاذبية واسعة، لكن بعض كتاب الكراسات الآخرين في هذه السلسلة أرفع بالمقارنة. كان حزب التوري يعرف دائماً بـ "الحزب الغبي". لكن معلقي وخبراء هذه الجماعة، لديهم نخبة جيدة من الأدمغة وسطهم. وحين يزداد التوريون ذكاء، يحين الوقت كي تتلمس ساعة يدك وتعدّ الفكة الصغيرة في جيبك.

٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٤.

كانت هناك شكاوى لا تعد ولا تحصى مؤخراً حول توحش أصحاب الحوانيت وفظاظتهم. أنا شخصياً أعتقد وأنا مصيب، أن أصحاب الحوانيت يشعرون بمتعة سادية حين يخبرونك أنهم لا يخزنون الشيء الذي تطلبه. أن تذهب لتبحث عن شيء نادر مثل مشط أو علبة ملمع أحذية، هي تجربة بائسة. إنها تعني الجرجرة من متجر إلى آخر والحصول على

سلسلة من إجابات النفي المقتضبة والجافة أو العدائية. لكن حتى التجارة الروتينية لشراء حصص الطعام والخبز، جعلت صعبة بأقصى ما يمكن بالنسبة إلى الناس المنشغلين. كيف لامرأة أن تقوم بالتسوق المنزلي إن كانت تعمل حتى الساعة السادسة يومياً، بينما أغلب المتاجر تغلق أبوابها في الساعة الخامسة؟ تستطيع فعل ذلك فقط بالقتال حول مناضد المحلات المكتظة أثناء الساعة المخصصة لتناول وجبة الغداء. لكن الزجر الذي يقابلن به حين يطلبن مادة شحيحة في السوق، هو ما يخشاه أغلبهن. أغلب أصحاب الحوانيت يعتبرون الزبون نوعاً من متسول، وبشعورهم هذا هم يمنون عليه ببيعه أي شيء. وهناك شكاوى أخرى عادلة - مثلاً- طلب ثمن باهظ على السلع غير الخاضعة للسيطرة كالأثاث المستعمل مثلاً، والحيلة المثيرة للغضب، الأكثر شيوعاً الآن في عرض مواد في واجهة المحل، ليست للبيع.

قبل إلقاء اللوم على الحانوتي عن كل هذا، هناك عدة أشياء يجب أن يتذكرها المرء. بداية، إن حدة الطبع والسلوك السيئ في ازدياد في كل مكان. ليس عليك ألا أن تراقب الناس الأسوياء الذين يعانون طويلاً، مثل مفتشي التذاكر في الحافلات، كي تدرك هذا. إنه عصاب سببته الحرب. لكن بالإضافة إلى ذلك، فإن الكثير من أصحاب الحوانيت الصغيرة المستقلين (في تجربتي هي تعامل بطريقة مؤدبة أكثر بكثير من الحوانيت الكبيرة) هم أناس لديهم شكوى منطقية ضد المجتمع. بعضهم مستخدمون بأجر سيئ عند شركات الجملة، وآخرون سحقتهم ببطء منافسة المتاجر المتسلسلة، وفي أكثر الأحيان تعاملهم السلطات المحلية بأكبر قدر من عدم مراعاة مشاعرهم. أحياناً نظام إعادة الإسكان يسرق من الحانوتي نصف زبائنه في ضربة واحدة. في زمن الحرب هذا يمكن أن يحدث وبطريقة أكثر قسوة، بسبب القصف والتجنيد الإجباري. وللحرب إزعاجات خاصة لأصحاب الحوانيت. نظام التقنين والحصص يضع كمية كبيرة من العمل الإضافي على كاهل البقالين والجزارين إلخ، ومن المزعج جداً أن تسأل طوال اليوم عن مواد وسلع لم تحصل عليها وليست لديك.

لكن أخيراً، وبعد كل شيء، الحقيقة الأساسية هي أن كل من مساعد الحانوتي وأصحاب الحوانيت المستقلين مضطهدون في الأوقات العادية. يعيشون على نغمة "أن الزبون على حق دائماً". في أوقات السلم في المجتمع الرأسمالي، يحاول كل واحد أن يبيع سلعاً حيث ليس هناك مال كاف أبداً لشرائها، بينما في زمن الحرب، فإن المال متوفر بكثرة والسلع نادرة. علب

الكبريت وأمواس الحلاقة ومصابيح البطاريات وساعات المنبه ورضاعات الأطفال الصغار وزجاجات الرضاعة، عبارة عن ندرة ثمينة، والرجل الذي يمتلكها كائن جبار، يجب عليك أن تكون قبعتك في يدك حين تدنو منه. لا أعتقد أن المرء يستطيع لوم الحانوتي بسبب الانتقام القليل مما يعانيه حين يكون الوضع معكوساً مؤقتاً. لكنني أوافق وبقوة على أن سلوك بعضهم مثير للغثيان، وحين يعامل المرء بأكثر من العجرفة العادية، يكون من واجب الشعب ألا يذهب إلى ذلك المتجر مرة أخرى.

عند تفحص نسخة من أولد مور الماناك رزنامة المغربي العجوز القديمة، تذكرت المتعة التي أحصل عليها في صباي من الرد على الإعلانات. زد طولك، اكسب خمسة أرطال في أسبوع في وقت فراغك، عادة السكر يمكن قهرها في ثلاثة أيام، أحزمة كهربائية، مظهرات الصدر وعلاجات للسمنة، الأرق، تورم إبهام القدم، أنوف حمراء، الفأفأة، الخجل، البواسير، السيقان السيئة، الأقدام المسطحة والصلع- كل الأشياء المحببة هناك تقريباً. بعض من هذه الإعلانات ظلت دون أن تتبدل نهائياً لأكثر من ثلاثين سنة.

أتصور أنك لا تستطيع أن تحصل على منفعة كبيرة من أي من هذه الأدوية السرية، لكنك تحصل على متعة كبيرة في الرد على الإعلانات. وبعد ذلك تجرهم ويخسرون الكثير من الطوابع في إرسال لفائف متتالية من الشهادات، ثم تتركهم فجأة في غضبهم. منذ سنوات كثيرة رددتُ على إعلان من وينفريد غريس هارتلاند (كان الإعلان يحمل صورة فوتوغرافية لها -امرأة متألقة تشبه كائناً خرافياً (سلف) يعني طويلة ورشيقة ادعت بقدرتها على علاج البدانة). في الرد على رسالتي، افترضت أنني امرأة- أدهشني هذا في ذلك الوقت، لكن أدرك الآن أن المغفلين الذين هم ضحايا هذه الإعلانات أغلبهم من الإناث. حثتني على المجيء وزيارتها فوراً وكتبت لي: "تعالي قبل أن تطلبي كنزاتك الصيفية، لأنه بعد أن تأخذي علاجي، سيتبدل شكلك حتى إنك لن تعرفيه". كانت تصرّ بشكل خاص على أنني يجب أن أزورها شخصياً، وأعطت عنواناً في مكان في لندن دوكس. استمر هذا لوقت طويل، خلاله انخفض الأجر تدريجياً من جنيهين إلى نصف كراون، ثم أنهيت المسألة عندما كتبت لها إنني شفيت من البدانة بواسطة وكالة منافسة.

بعد سنوات من ذلك، صادفت نسخة من قائمة تحذيرية كانت تصدرها ذا تروث من وقت إلى آخر، تحذر الشعب من المحتالين والغشاشين. وكشفت أنه ليس هناك شخص باسم وينفرد غريس هارتلاند، هذا الاحتيال كان يديره محتالان أمريكيان هاري سويت وديف ليتل. الغريب أنهما كانا متشوقين لزيارة شخصية. وفي الحقيقة لقد تساءلت إن كان هاري سويت وديف ليتل كانا فعلاً منشغلين في شحن البضائع المرسلة إلى نساء بدينات إلى أجنحة الحريم في اسطنبول.

كل واحد لديه قائمة بكتب يقصد دائماً أن يقرأها، وبين الحين والآخر يقرأ المرء واحداً منها. واحد قطعته من قائمة حديثة كان لجورج بورن بعنوان مذكرات من سوري لابورار. لقد أصبت منه بقليل من الإحباط بسبب الرجل الذي تدور عنه، رغم أنها قصة حقيقية، لأن الرجل لم يكن عاملاً عادياً. لقد كان عامل مزرعة، لكنه أصبح بستانياً مضارباً، وعلاقته بجورج بورن كانت علاقة عبد بسيد. رغم ذلك، فهناك بعض التفاصيل الرائعة فيها، وتعطي صورة حقيقية للنهاية القذرة القاسية التي تكافأ بها حياة كاملة من العمل الصعب في الأرض. كتب الكتاب منذ أكثر من ثلاثين سنة، لكن الأشياء لم تتبدل بشكل جوهري. قبل الحرب مباشرة، في قريتي أنا في هرتفوردشاير، أنهى رجلان عجوزان أيامهما بطريقة البؤس المكشوف نفسه الذي وصفه جورج بورن. كتاب آخر قرأته حديثاً أو بالأحرى أعدت قراءته، هو حماقات وخداع الروحانية، أصدرته جمعية الطباعة العقلانية راشيناليست بريس سوسيتي منذ عشرين سنة تقريباً. هذا كتاب ربما يكون الحصول عليه ليس سهلاً، لكنني أزكي بالتساوي كتاب السيد بيتشفورد-روبيرتس عن الموضوع نفسه. الحقيقة الممتعة التي يبرزها هذان الكتابان المتشابهان، هي عدد العلماء الذين خدعوا بالروحانية.

تشمل القائمة السير وليام كروكيس والبيولوجي والاس ولومبروزو وعالم الفلك فلاماريون (بدل رأيه فيما بعد) والسير أوليفر لودج وقافلة كاملة من أساتذة الجامعات الألمان والإيطاليين. هؤلاء الناس ليسوا نخبة العالم العلمي الأولى ربما، لكن لن تجد مثلاً شعراء في أعداد مشابهة تقع ضحية للوسطاء. يعتقد أن إليزابيث باريت براونينغ فتنت بوسيط مشهور، لكن براونينغ نفسه رأى من خلاله لمحة وكتب قصيدة انتقادية قاسية عنه (سلج الوسيط). المهم، إن الناس الذين لم يتحولوا إلى الروحانية أبداً، هم المشعوذون.

١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٤.

توفر في تو (قيل لي إنني أستطيع الآن ذكرها في الطباعة طالما أنتم تسمونها في تو، ولا تصفها بشكل دقيق) مثال آخر عن تناقض الطبيعة البشرية. يشكو الناس من القوة غير المتوقعة التي تنفجر فيها هذه الأشياء. "الصيغة المعتادة: ليست سيئة جداً إن وفرت لك إنذاراً بسيطاً". هناك ميل للحديث بتشوق عن أيام في ون. القذيفة الطائرة القديمة الطيبة التي كانت تعطيك الوقت لتختبئ تحت الطاولة إلخ، بينما في الواقع حين تتساقط القذائف الطائرة، كان موضوع الشكوى هو فترة الانتظار غير المريح قبل أن تنفجر. بعض الناس راضون جداً. أنا شخصياً لست عاشقاً لفي تو، وخصوصاً في اللحظة التي يكون فيها البيت يهتز بسبب انفجار جديد، لكن ما يحزنني بخصوص هذه الأشياء، هي الطريقة التي تجعل الناس يتكلمون فيها عن الحرب التالية. أسمع إشارات متشائمة إلى "المرة القادمة" والملاحظة: "أعتقد أنهم قادرون على إطلاقها عبر الإطلنطي آنذاك" في كل مرة تنفجر فيها واحدة. لكن لو سألت من سيقاتل من حين تندلع هذه الحرب المتوقعة، فإنك لا تحصل على جواب واضح. إنها حرب في معناها المجرد -الفكرة بأن الكائنات البشرية تستطيع التصرف بشكل سليم ومعقول دائماً، قد تلاشت بشكل ظاهر من ذكريات الكثير من الناس.

موريس بارينغ في كتابه عن الأدب الروسي، الذي نشر في عام ١٩٠٧ وكان الوسيط لتقديم عدد كبير من الناس في هذه البلاد إلى الروائيين الروس العظام، لاحظ أن الكتب الإنكليزية كانت مشهورة في روسيا أيضاً. من بين المفضلات يذكر **مذكرة شخص نكرة** (التي أعادت إيفريمان لايبراري طبعها بالمناسبة). كنت أتساءل دائماً كيف تبدو مفكرة شخص نكرة في الترجمة الروسية. وبالفعل ارتبت قليلاً أن الروس ربما استمتعوا بها لأنها كانت مثل كتب تشيخوف حين ترجمت. لكنها بطريقة ما كتاب جيد إن أردت الحصول على صورة للحياة الإنكليزية، رغم أنها كتبت في الثمانينات، وفيها رائحة قوية جداً لتلك الفترة. تشارلز بوتر رجل إنكليزي حقيقي في دماثته المحلية الأصلية وبلاهته القوية. الشيء الممتع أن تتبع أصول هذه الكتاب. من أين نشأ؟ من شبه المؤكد، أعتقد من دون كيشوت، وهو في الواقع نسخة حديثة بثوب إنكليزي منه. بوتر رجل مستقيم ومغامر حتى، يعاني من نكبات تسببها حماقته دائماً ومحاط بقبيلة من أمثال سانشو بانزا. لكن بمعزل عن اعتدال

الأشياء التي تحدث له بالمقارنة ـ يرى المرء في نهايتي الكتابين اختلافاً هائلاً بين عصر سيرفانتس وعصرنا.

في النهاية يشفق آك غروسميث على المسكين بوتر. ويتصحح كل شيء، أو كل شيء تقريباً، وفي النهاية هناك أثر من العاطفية الزائدة التي لا تنسجم مع بقية الكتاب. الحقيقة التي يكشف عنها الكتاب، هي أننا لا نستطيع أن نظل نشعر بأن التسبب بالألم للآخرين مجرد شيء مضحك وممتع. لاحظ نيتشه في مكان ما أن العنصر المثير للشفقة في دون كيشوت ربما يكون اكتشافاً حديثاً. وبالمثل تماماً لم يقصد سيرفانتس أن يبدو دون كيشوت مثيراً للشفقة -ربما قصد فقط أن يكون مضحكاً، وأراد من الكتاب أن يكون دعابة عالية حين تحطمت أسنان العجوز المسكين بحجرة مقلاع (نقيفة). مهما كان هذا مع دون كيشوت، فأنا متأكد أن ذلك كان صحيحاً مع فالستاف كشخصية مثيرة للشفقة وهزلية أيضاً. إنه مجرد كيس ملاكمة للقدر، نوع من بيلي بنتر مع موهبة لغوية. الشيء الذي يبدو لنا محزناً جداً، هو اتكال فالستاف العاجز على نصيره البغيض برينس هاري، الذي وصفه جون مانسفيلد بشكل مناسب "بهيمة سمينة مقززة". ليس هناك علامة أو في أي حال علامة واضحة، أن شكسبير يرى أي شيء مثير للشفقة أو مهيناً في مثل هذه العلاقة.

قل ما تحب، إن الأشياء تتبدل. منذ بضع سنوات كنت أعبر جسر هنغرفورد مع سيدة في الستين من عمرها أو أقل ربما. كان المد منحسراً، وحين نظرنا إلى القاع المكون من وحل سائل قذر، لاحظتْ قائلة: "حين كنت فتاة صغيرة، كنا نرمي البنسات في قنابر الوحل هناك".

خدعتها وسألت ماذا كانت قنابر الوحل. شرحت لي أن المستولين المحترفين المعرفين بمدلاركس في تلك الأيام كانوا يجلسون تحت الجسر ينتظرون الناس أن يرموا لهم البنسات. كانت البنسات تطمر نفسها عميقاً في الوحل ويغوص المتسولون، رأسهم في الأول، ويستعيدونها. كان يعتبر منظراً مسلياً جداً.

هل هناك أحد يهين نفسه بتلك الطريقة في الوقت الحاضر؟ وكم عدد الناس الذين يستمتعون في التفرج على ذلك الآن؟

قبل اغتياله بوقت قليل، أكمل تروتسكي كتاب حياة ستالين. قد يعتبره المرء أنه لم يكن كتاباً غير منحاز تماماً، لكن من الواضح أن سيرة ستالين بقلم تروتسكي -أو من أجل ذلك الأمر، سيرة تروتسكي بقلم ستالين- سيكون رابحاً من وجهة نظر البيع. شركة نشر أمريكية مشهورة ستصدر الكتاب. طبع الكتاب -هذه هي النقطة التي كنت أنتظر للتأكد منها قبل ذكر هذه المسألة في ملاحظاتي- ووزعت نسخ المراجعات النقدية حين دخلت الولايات المتحدة الحرب. سُحب الكتاب مباشرة، وطُلب من النقاد الأدبيين أن يتعاونوا في "تجنب أي تعليق مهما كان بخصوص السيرة وتأجيلها".

لقد تعاونوا على أكمل وجه. مرت القضية من دون ذكر في الصحافة الأمريكية حسب علمي، ولم تذكر أبداً في الصحافة البريطانية، علماً أن الوقائع كانت معروفة جيداً وتستحق بشكل واضح فقرة أو اثنتين.

نظراً لأن دخول أمريكا في الحرب جعل الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي حليفين، أظن أن سحب الكتاب كان فعلاً مفهوماً ومنطقياً إن لم يكن رائعاً بشكل خاص. المقزز هو الرغبة العامة لكبت ومنع أي ذكر له. قبل ذلك بقليل حضرت اجتماعاً لنادي الكتاب ـ عقد للاحتفال بالذكرى المئوية الثالثة للايروباغيتيكا، كراسة ميلتون الشهيرة عن حرية الصحافة. كان هناك خطابات لا تحصى، تؤكد على أهمية الحفاظ على الحرية الفكرية حتى في زمن الحرب. إن كنت أتذكر، عبارة ميلتون عن الخطيئة غير العادية لـ "قتل" كتاب، طبعت على وريقات النادي من أجل تلك المناسبة. لكني لم أسمع أية إشارة إلى هذه الجريمة الخاصة، التي وقائعها معروفة بلا شك لأكثر الناس الموجودين هناك.

هذا سؤال صغير آخر محير للعقل. المقطع التالي هو مقطع اقتبس كثيراً من الفصل الرابع من مسرحية شكسبير التراجيدية **تيمون الأثيني**: لا تأت إلي مرة أخرى، لكن قل للأثينيين،/ إن تيمون بنى قصره الأبدي/ على حافة المد المالح الرملية/ الذي سيغمره الطمي الهائج/ بزبده المزخرف مرة في اليوم.

يحتوي المقطع على ثلاثة أخطاء؛ ما هي؟

٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٤.

لقد كنت جامع كراريس مجداً منذ سنين وقارئاً دائماً لكل أنواع الأدب السياسي. الشيء الذي يلفت نظري أكثر فأكثر ويلفت انتباه عدد كبير آخر من الناس أيضاً- هو رداءة وخداع الجدل السياسي في زمننا. أنا لا أقصد أن الجدالات السياسية لاذعة فقط. يجب أن تكون كذلك حين تكون عن مواضيع جدية. أقصد أن لا أحد يشعر أن خصمه يستحق استماعاً عادلاً منه، أو أن الحقيقة الموضوعية مهمة طالما أنت تستطيع تسجيل نقطة نقاشية أنيقة. حين أنظر إلى مجموعتي من الكراريس -محافظة أو شيوعية أو كاثوليكية أو تروتسكية أو سلامية أو فوضوية أي أياً كانت تبدو لي، فإن أغلبها لها نفس الجو العقلي رغم تنوع نقاط التوكيد. لا أحد يبحث عن الحقيقة، كل واحد يضع مقدماً "حجة مقنعة" مع إهمال تام للعدل والدقة. وأغلب الحقائق الواضحة الصريحة، يمكن تجاهلها من قبل هؤلاء الذين لا يريدون رؤيتها. نفس خدع الدعاية الموجودة في كل مكان وتصنيفها يتطلب كثيراً من صفحات هذه الجريدة، لكنني هنا ألفت الانتباه إلى عادة جدالية واحدة منتشرة كثيراً- إهمال دوافع الخصم.

لقد علمونا أن أفعال الناس الموضوعية هي التي تهم فقط، وأن مشاعرهم الشخصية لا أهمية لها. السلاميون (الذي لا يؤمنون بالعنف)، بإعاقتهم لجهود الحرب، يساعدون النازيين "موضوعياً"، ولذلك حقيقة أنهم يجب أن يكونوا معادين شخصياً للفاشية، غير لازمة أو متصلة بالموضوع. نفس الحجة تطبق على التروتسكية، يوصف التروتسكويون من قبل الشيوعيين على الأقل بأنهم عملاء نشطين ومتعمدين لهتلر، لكن حين تظهر الأسباب الكثيرة الواضحة التي تكذب هذا الاتهام، فإن الخط الموضوعي للحديث يعود إلى الواجهة عادة مرة أخرى.

هذا ليس كذباً فقط، إنه يحمل عقاباً قاسياً معه أيضاً. إن أهملت دوافع الناس، يصبح التنبؤ بأفعالهم أكثر صعوبة. لأنه هناك مناسبات يستطيع فيها حتى الشخص المضلل أن يرى نتائج ما يفعله. هذا مثال بسيط لكنه توضيحي تماماً. شخص سلامي يعمل بوظيفة توفر له منفذاً للوصول إلى معلومات عسكرية هامة، وتقرب منه عميل ألماني سري. في تلك الظروف تحدث مشاعره الشخصية فرقاً كبيراً. إن كان مؤيداً للنازيين بشكل شخصي، سيبيع بلاده، وإن لم يكن، فلن يفعل. وتظهر دائماً أوضاع مماثلة جوهرياً، لكنها أقل إثارة.

في رأيي، بضعة أشخاص من السلاميين مؤيدين للنازية من داخلهم وأحزاب يسارية متطرفة، سوف تحتوي بشكل حتمي على جواسيس ألمان. الشيء المهم أن نكتشف أيهم الأفراد الشرفاء والمخلصين، وأيهم ليسوا كذلك والاتهام المبطن المعتاد يصعب هذا أكثر. جو الكره الذي تدار به المناظرات يعمي الناس عن الأخذ بالاعتبار في هذا النوع. لتعترف أن الخصم يمكن أن يكون صادقاً وذكياً، هو شعور لا يحتمل. من المرضي أكثر ومباشرة أن تصرخ إنه غبي أو وغد أو كلاهما، بدلاً من أن تكتشف هويته الحقيقية وطبيعته. هذه العادة العقلية، من بين أشياء أخرى، جعلت التنبؤ السياسي في زمننا عملاً فاشلاً بشكل لافت.

نشرت الوريقة التالية، ومررها لي أحد معارفي في حانة:

يعيش الايرلندي!

أول جندي يقتل يابانياً كان مايك مورفي/ أول طيار أمريكي يغرق سفينة حربية يابانية كان كولن كيلي/ أول عائلة أمريكية تفقد خمسة من أبنائها في معركة واحدة سميت سفينة حربية باسمهم، كانوا من آل سوليفان/ أول أمريكي يسقط طائرة يابانية كان دوتش أو هارا/ أول خفير من خفر السواحل يكتشف ويحدد جاسوساً ألمانياً كان جون كونلان/ أول أمريكي ابن عاهرة يحصل على أربعة أطواق جديدة من هيئة حصص الطعام كان آبي غولدشتاين.

أصل هذا الشيء يجب أن يكون ايرلندياً، لكن الاحتمال الأكبر أنه أمريكي. ليس هناك شيء يشير إلى مكان طبعه، لكنه ربما أتى من حانوت طباعة تابع لمنظمة أمريكية في هذه البلاد. إن ظهر أي بيان آخر من هذا النوع، أكون مهتماً لسماعه.

هذا العدد من التريبيون يتضمن رسالة من السيد مارتن ولتر، موجه المؤسسة البريطانية لعلم كتابة القصص المحدودة، التي يتشكى فيها أنني طعنت في سمعته. يقول (ألف) إنه لم يطالب بإنقاص كتابة القصص إلى مجرد علم. (باء) إن عدداً من الكتاب الناجحين أنتجوا بواسطة أساليبه التعليمية. و(جيم) يسأل إن كانت التريبيون تقبل إعلانات تعتقد أنها زائفة.

بما يخص (ألف)، فقد ادعت المؤسسة أن هذه المشاكل (لكتابة القصص) حلها مارتن ولتر الذي، كان مقتنعاً بالنظرية التي ترى أن الفن هو علم في جوهره، وحلل ٥ آلاف قصة. وأخيراً استنبط صيغة حبكة صممت بناء عليها كل قصصه وقصص طلابه في كل أنحاء العالم. "لقد أثبت أن طبيعة الحبكة علمية تماماً" تصريحات من هذا النوع تبعثرت في كل كتيبات السيد ولتر وإعلاناته. إن لم يكن هذا مطالبة بتقليل الكتابة القصصية إلى مجرد علم، فماذا تكون بحق الشيطان؟

بالنسبة إلى (باء): من هم هؤلاء الكتاب الناجحون الذين أطلقهم السيد ولتر على العالم؟ دعنا نسمع أسماءهم وأسماء أعمالهم المنشورة لنعرف أين نحن بعد ذلك.

بالنسبة إلى (جيم): يجب على الدوريات ألا تقبل الإعلانات التي لها مظهر كونها محتلة، لكنها لا تستطيع غربلة كل شيء مقدماً. ماذا يجب أن يفعل مثلاً بإعلانات الناشرين، التي يدعي كل منها أن كل كتاباً سمي من أعلى قيمة ممكنة؟ إن الأهم في هذا الارتباط أن الدوريات يجب ألا تدع أعمدة محرريها تتأثر بإعلاناتها. التريبيون حريصة جداً على ألا تفعل ذلك- إنها لم تعمل بحجة السيد ولتر نفسه مثلاً.

ربما يهم السيد ولتر أن يعرف أنني يجب ألا أشير إليه إن لم يكن قد أرفقَ الإعلان الذي أدخله في وقت مضى، مع بعض النسخ المجانية من كتيبه (الذي شمل صياغة الحبكة) والاقتراح أنني يجب أن أذكرها في عمودي. كان هذا الذي لفت انتباهي إليه. الآن أنا أشرت إليه وذكرته، ويبدو أنه لم يحب ذلك.

أجوبة مسألة الأسبوع الأخير. هناك ثلاثة أخطاء:

(أ). "الذي" في حالة الرفع بدلاً من "الذي" في حالة النصب.

(ب). دفن تيمون تحت إشارة المد العالي. يجب أن يحجبه البحر مرتين في اليوم، وليس مرة واحدة، لأن هناك مدّين عاليين في كل أربع وعشرين ساعة.

(ج) إنه لن يحجبه إطلاقاً بما أنه ليس هناك مدّ محسوس في البحر الأبيض المتوسط.

٢٩ ديسمبر ١٩٤٤

أنا مدين لمقال للسيد دوايت ماكدونالد في البوليتكس في عددها الصادر في سبتمبر/ أيلول، ومدين لشهرية النيويورك لنشرها مقاطع من كتاب بعنوان **اقتل أو ستقتل**، وهو كتيب تعليمي عن القتال المباشر للميجور ريكس ابلغيت.

هذا الكتاب الذي نشر بشكل شبه رسمي، لا يعطي معلومات شاملة ومكثفة عن الطعن بالسكين والخنق وأشكال متنوعة من الرعب التي جدولت تحت عنوان "القتال من دون سلاح" فقط، وإنما يصف المدارس القتالية التي تدرب الجنود على القتال من بيت إلى بيت. هذه بعض التوجيهات كمثال:

قبل الدخول إلى النفق، يعرض المدرب تمثالاً لعرض الملابس، يستخدم الطالب السكين عليه. وبينما يتقدم الطالب ويباشر من الهدف رقم واحد إلى الهدف رقم أربعة، تُعزف ترنيمة "منظر تعذيب الجستابو" أو "اللعن الإيطالي" من مكبرات الصوت....... الهدف رقم تسعة يكون في الظلام، وحين يدخل الطالب هذه الحجيرة تعزف ترنيمة "اغتصاب جاب" بينما يعيد المدرب حشو مسدس الطالب بالطلقات، تعزف ترنيمة "نل من ابن القحبة الأمريكي". حين يجتاز المدرب والطالب الستارة ويدخلان إلى الحجيرة التالية، يواجههما تمثال مضاء بنور أخضر، يجب ألا يطلق الطالب النار عليه، لكن عملياً كلهم يفعلون ذلك.

يعلق السيد ماكدونالد: "هناك مشكلة ممتعة في تنفيذ المقرر التعليمي. رغم أن الكاتب لم يوضح ذلك بشكل مباشر، يبدو أن هناك خطر من أن ينهار منع الطالب تماماً، وأنه سيطلق النار على المدرب الذي يرافقه أو يطعنه....... لهذا ينصح المدرب أن يبقى في وضع يستطيع فيه مسك يد الطالب التي تحمل البندقية وانتزاعها منه "في أية لحظة". وبعد أن تُطعن التماثيل الثلاثة في طريقه "تؤخذ السكين من الطالب منعاً للحوادث" وأخيراً: "لا يوجد مكان في المسار يسود فيه الظلام التام يكون فيه المعلم والمدرب قريباً من الطالب".

أنا أعتقد أن مقررات قتالية مماثلة في الجيش البريطاني أوقفت الآن أو خففت، لكن يجدر التذكر أن شيئاً كهذا محتوم إن أراد المرء كفاءة عسكرية. إن عدم وجود أيديولوجيا أو وعي في امتلاك "شيء تقاتل من أجله" هو البديل التام عنه. إن العمل المتعمد في جعل الملايين من الكائنات البشرية وحوشاً، جزء من ثمن المجتمع في شكله الحالي. لقد كان اليابانيون خبراء في

هذا النوع من الشيء منذ مئات السنين. في الماضي كان أولاد الأرستقراطيين يؤخذون في مرحلة مبكرة من العمر، ليشاهدوا عمليات الإعدام. وإذا أظهر أي صبي علامة غثيان، يجعلونه يبلع كميات كبيرة من الرز الملطخ بلون الدم.

إن عوام الناس الإنكليز ليسوا عشاقاً كباراً للمجد العسكري، وأنا أشرت في مكان آخر إلى أنه حين تفوز قصيدة عن معركة وتحظى بشعبية عريضة، تكون عن كارثة عادة وليس عن نصر. لكن قبل يوم أمس حين كررت هذا في سياق ما، خطرت ببالي الأغنية المحبوبة سابقاً - قد تصبح محبوبة مرة أخرى إن اهتمت بتسجيلها إحدى شركات الأسطوانات- "الأدميرال بينباو". هذه الأغنية الشوفينية نوعاً ما تبدو تتناقض مع نظريتي، لكنني أعتقد أنها تدين ببعض شعبيتها إلى كونها تمتلك وجهة نظر حرب طبقية كانت مفهومة في ذلك الوقت.

الأدميرال بينبو حين كان يقاتل ضد الفرنسيين، تخلى عنه قباطنته التابعون له فجأة، وتُرك يقاتل ضد فرص صعبة. كما صاغتها الأغنية:

قال كربي لويد "نحن سنهرب، نحن سنهرب"/ قال كربي لويد "نحن سنهرب؛/ لأنني لن أهتم بأي عار/ ولا خسارة مكاني/ ولكنني لن أواجه العدو،/ ولا بنادقه ولا بنادقه. نحن سنهرب".

لهذا ترك بينباو ليقاتل لوحده، لكنه يُقتل رغم انتصاره. هناك وصف ملطخ بالدم وعنيف لموته، لكنه صادق وأصيل:

خسر الشجاع بينباو ساقيه بزخة من الطلقات، بزخة من الطلقات،/ خسر الشجاع بينباو ساقيه بزخة من الطلقات؛/ الشجاع بينباو خسر ساقيه/ ورجانا وهو على ساقيه المبتورتين،/ واصلوا القتال يا أولادي الإنكليز،/ هذا هو قدرنا، هذا هو قدرنا.

ضمد الطبيب الجراح جراحه، بينباو يصيح، بينباو يصيح/ ضمد الطبيب الجراح جراحه، بينباو يصيح/ ضعوا المهد بسرعة/ على المكان المخصص للضباط على ظهر السفينة/ لكي أواجه العدو/ حتى أموت، حتى أموت/

المغزى أن بينباو كان بحاراً عادياً ظهر من بين صفوف الجنود. لقد بدأ سيرته كصبي قمرة. وقباطنته يفترض أنهم فروا من القتال لأنهم لم يريدوا أن يروا قائداً من عوام الشعب

يفوز بنصر. أنا أتساءل إن كانت هذه البيئة وهذا التقليد، هو من جعل بينباو بطلاً شعبياً محبوباً، وجعل اسمه يكرم ويذكر ليس في الأغاني الشعبية البسيطة فقط، وإنما على لافتات المقاهي والحانات الشعبية التي لا تحصى؟

أعتقد أنه لا يوجد أي تسجيل لهذه الأغنية، لكن -كما اكتشفت حين كنت أعمل في البي البي سي، وأردت أن أستخدم قطعاً مشابهة كسد فراغ لخمس دقائق- أنها كانت الوحيدة فقط من سلسلة الأغاني الشعبية والأغاني الفولكلورية التي لم يتم تسجيلها. وأعتقد حتى لوقت حديث أنه ليس هناك تسجل "لتوم بولينغ" أو "للغرينسليفز" أيضاً، أي كلمات الأغاني وموسيقاها. أغان أخرى فشلت في العثور عليها: "كوخ سقف بقش بشكل جيد" و"غرين يزيد المهجات" و"أو" و"بدد ندى الصباح" و"تعالوا أيها الصبيان والفتيات". أغنيات مشهورة أخرى سجلت في نسخ مبتورة وغنيت عادة من قبل مغنين محترفين بطريقة روتينية ميكانيكية مبتذلة، لدرجة تبدو لك فيها أن رائحة الويسكي ودخان السجائر تصدر من الأسطوانة. ومجموعة الأناشيد المسجلة فقيرة جداً أيضاً. لا تستطيع أن تحصل في اعتقادي على "الجوقة والعذراء" أو "مثل مصابيح فضية في ضريح بعيد" أو "غوص ولازوريس" وغيرها من المفضلات القديمة. من جانب آخر إن أردت أسطوانة لـ "دحرج البرميل" أو "بومبيز أي ديزي"، إلخ، ستجد عدداً كبيراً من التسجيلات بأداءات مختلفة تختار منها.

عبر مراسل التريبيون في ١٥ ديسمبر/ كانون أول عن "رعبه واشمئزازه" حين سمع باستخدام القوات الهندية ضد اليونانيين، وقارن هذا بعمل فرانكو عندما استخدم القوات المغربية ضد الجمهورية الإسبانية.

أعتقد أنه من المهم أن هذه الرنجة الحمراء القديمة يجب ألا تجرجر عبر الممر (المقصود أن المقارنة غير صحيحة -المترجم). بداية أن الجنود الهنود ليسوا مثل مغاربة فرانكوا بتاتاً. لقد أرسل زعماء العشائر المغاربة الرجعيون الذين تربطهم بفرانكو نفس العلاقة التي تربط أمراء الهند بحزب المحافظين، أولادهم بهدف متعمد لسحق الديمقراطية. إن الجنود الهنود مرتزقة يخدمون البريطانيين كتقليد عائلي أو كوظيفة، لكن مؤخراً بدأ قسم منهم يعتبر نفسه جيشاً

هندياً أو نواة قوات مسلحة للهند المستقلة مستقبلاً، ومن غير المحتمل أن يكون لوجودهم في أثينا أي مغزى سياسي، وربما بالصدفة فقط كانوا القوات المتوفرة الأقرب.

لكن بالإضافة إلى ذلك، من فائق الأهمية ألا يكون للاشتراكيين أي تعامل مع التحامل اللوني. في عدد من المناسبات -احتلال الرور عام ١٩٢٣ والحرب الأهلية الإسبانية مثلاً- علت صيحة "استخدام القوات الملونة" كما لو أن القتل برصاص هندي أو زنجي أسوأ من القتل بنار أوروبي. جريمتنا في اليونان أننا تدخلنا في شؤونها الداخلية: لون الجنود الذين ينفذون الأوامر غير هام. في قضية احتلال الرور، ربما كان الاحتجاج ضد استخدام الجنود السنغاليين مبرراً/ فربما اعتبره الألمان زيادة في إذلالهم، وربما استخدم الفرنسيون جنوداً سوداً لهذا الغرض بالذات. لكن مشاعر كهذه ليست عامة وشاملة في أوروبا، وأشك بوجود أي تمييز ضد الجنود الهنود الذين يتمتعون بسلوك حسن صريح. كان على مراسلنا أن يشير في قضية من هذا النوع، إلى أنه من الدناءة والخسة استغلال جنود المستعمرات الجاهلين سياسياً الذين لا يفهمون المهمة القذرة التي زجوا فيها. لكن على الأقل لا تدعونا نهين الهنود بالتلميح بأن وجودهم في أثينا مزعج وعدواني أكثر من وجود البريطانيين.

٥ يناير/ كانون ثاني ١٩٤٥

كنت أنظر في كتاب مجلد من الكورترلي ريفيو لسنة ١٨١٠، الذي كان السنة الثانية من وجود الكورترلي كما أظن.

لم يكن عام ١٨١٠ الفترة الأشد سواداً من وجهة النظر البريطانية، فترة الحرب النابليونية، لكنها كانت الأشد سواداً تقريباً، وربما يوازي عام ١٩٤١ في الحرب الحالية. كانت بريطانيا معزولة تماماً، تجارتها مسدودة وممنوعة في كل ميناء أوروبي بقرارات وأحكام من برلين. إيطاليا وإسبانيا والدانمرك وسويسرا والبلدان المنخفضة أُجبرت على الخضوع كلها. النمسا كانت في تحالف مع فرنسا. روسيا كانت أيضاً في اتفاقية مضطربة مع فرنسا، لكن كان من المعروف أن نابليون نوى أن يغزو روسيا قريباً. الولايات المتحدة، التي لم تكن في الحرب بعد، كانت معادية لبريطانيا بشكل علني. لم يكن هناك أي سبب منظور للأمل باستثناء الثورة في إسبانيا، التي أعطت بريطانيا مرة أخرى موطئ قدم في القارة، وفتحت بلدان أمريكا الجنوبية للتجارة

البريطانية. لذلك من الممتع أن نلاحظ نغمة الصوت التي تكلمت بها الكورترلي ريفيو- الصحيفة المحافظة التي تؤيد الحرب بقوة- عن فرنسا وعن نابليون في هذه اللحظة اليائسة.

هذه هي الكورترلي عن ميول الشعب الفرنسي المزعومة لشن الحروب. إنها تنشر مراجعة نقدية لكراس للسيد والش الأمريكي العائد لتوه من فرنسا: نحن نرتاب من الأعمال المستمرة ذات الميول العسكرية التي ينسبها السيد والش إلى الشعب الفرنسي. من دون الشك في الصورة القوية والنشطة التي استمدها من الابتهاج المثار وسط سكان باريس القذرين والمجوعين عند خبر كل انتصار جديد لجيوشهم، يمكننا أن نلاحظ أن هكذا ابتهاج هو الحالة المصاحبة المعتادة لمثل هذه الأحداث في كل مكان؛ وأن إرضاء الغرور القومي يكون شيئاً ما، وأن المهرجانات التي يجلبها النصر معه ربما توفر تسلية ممتعة للتعساء الذين يخلون من أي إحساس بالطموح. اعتقادنا في الواقع أن تلك المشاعر في الحاضر مقتصرة تقريباً على صدر الفاتح العظيم، وتلك التي وسط رعاياه، يمكننا القول وسط ضباطه وجيوشه، الرغبة الكونية هي من أجل السلام.

قارن هذا مع الكلام الذي تفوه به اللورد فلنسيتارت، أو في الحقيقة في القسم الأكبر من الصحافة. نفس المقالة تحتوي على الكثير، لكن الشيء الذي وجدته مثيراً للإعجاب أكثر من غيره، أن عدد الكورترلي الصادر هذه السنة يحتوي مراجعات نقدية كثيرة للكتب الفرنسية التي نشرت حديثاً- تقديم الاحترام لعبقرية نابليون العسكرية- وهي مراجعات نقدية جادة ودقيقة لا تختلف في نغمتها عن بقية مقالاتها. هناك مثلاً مقالة بحدود ٩٠٠ كلمة عن منشور لكيان فرنسي معروف باسم سوسيتي دي اكرويل. العلماء الفرنسيون غاي-لوساك، لابلاس والبقية منهم، عوملوا بأقصى الاحترام وأعطوا لقب "مسيو" في كل مرة. من قراءة المقالة، يكون من المستحيل أن تكتشف أنه كانت هناك حرب مستعرة.

هل تستطيع أن تتخيل الكتب الألمانية الحالية التي تراجع في الصحافة البريطانية خلال الحرب الحالية؟ كلا. لا أعتقد أنك تستطيع. أنا لا أتذكر في الحقيقة سماع اسم كتاب واحد نشر في ألمانيا خلال الحرب. وإن ذكر كتاب ألماني معاصر في الصحافة، سيكون بالتأكيد محرفاً بطريقة ما. بتصفح المراجعات النقدية للكتب الفرنسية في الكورترلي، لم ألحظ أي تسلل دعائي إلا في الكتب السياسية المباشرة، وحتى عندئذ تكون معتدلة جداً بمعاييرنا. بالنسبة إلى الفن

والأدب والعلم، تؤخذ في عين الاعتبار طبيعتها العالمية كأمر بديهي. ومع ذلك، أعتقد أن بريطانيا كانت تقاتل من أجل البقاء في الحرب النابليونية بشكل مؤكد كما في هذه الحرب، ومقارنة للسكان الذين تورطوا، كانت الحرب أقل دموية وإنهاكاً بكثير.

كنت أقرأ ببعض الاهتمام عائلة فيرتشايلد التي كتبت في عام ١٨١٣ وكانت الكتاب القياسي للأطفال لخمسين سنة أو أكثر. لسوء الحظ لا أمتلك سوى المجلد الأول في حالته حيث لم يحذف منه شيء، وحتى تلك النسخ المتنوعة بريتي بريتي، ومع كل ما اقتطع منها التي صدرت في السنوات الحديثة- هناك ما يكفي من الفضول.

نغمة الكتاب يشار إليها بشكل كافٍ بالجملة: "بابا" قالت لوسي (بالمناسبة عمر لوسي تسع سنوات)، "هل يمكنك أن تقرأ لنا بعض الشعر عن بشر يملكون قلوباً سيئة؟ وطبعاً بابا كان راغباً جداً، فأنشد الأبيات التالية التي حفظها عن ظهر قلب بشكل صحيح. أو هنا السيدة فيرتشايلد تحكي للأطفال كيف عصت الأوامر حين كانت طفلة وقطفت حبات كرز برفقة الفتاة الخادمة:

استسلمت ناني لأمها لتجلد، وحبست في غرفة مظلمة، وبقيت عدة أيام على الخبز والماء. وفي نهاية الأيام الثلاثة، أرسلت عماتي بطلبي وتحدثن معي مطولاً.

"لقد انتهكتِ الوصية الرابعة"، قالت العمة بينيلوب "وهي: تذكر أن يبقى يوم السبت مقدساً": وانتهكتِ الوصية الخامسة وهي "كن فخراً لوالديك"...... وانتهكتِ الوصية الثامنة أيضاً وهي "لا تسرق" وأضافت العمة غريس أيضاً "الخزي والعار من تسلق الأشجار مع رفقة منحطة بعد كل الرعاية والآلام التي تحملناها والسلوك المهذب الذي ربيناكِ عليه".

الكتاب كله من هذا الشكل، مع صلاة طويلة في نهاية كل فصل، وتراتيل لا تحصى، وأشعار من الإنجيل انتثرت في كل النص. لكن ميزته الرئيسية، هي العقابات المخيفة من السماء التي تهبط على الأطفال كلما أساؤوا لأنفسهم بسلوكهم. إن تأرجحوا في الأرجوحة من دون إذن يسقطون ويكسرون عدداً من أسنانهم، وإن نسوا أداء صلاتهم يسقطون في الجرن

القذر الذي يشرب منه الخنزير؛ سرقة بضع خوخات تعاقب بهجمة ذات رئة ونجاة صعبة من الموت. في مناسبة ما وجد السيد فيرتشايلد أطفاله يتشاجرون. بعد الجلد المعتاد أخذهم في مشـية طويلة ليروا الجسد المتعفن لقاتل معلق بمشنقة- نتيجة، كما أشار، شجار بين الإخوة.

ميزة ممتعة غريبة في الكتاب، وهي أن أطفال فيرتشايلد الذي تربوا على هذه المبادئ القاسية، يبدون غير جديرين بالثقة بشكل استثنائي. حالما يدير والداهما ظهريهما يتصرفون بشكل سيئ، ما يوحي بأن الجلد والخبز والماء ليست علاجاً صحيحاً وكافياً أخيراً. بالمناسبة، يجدر بنا أن نذكر أن المؤلفة، السيدة شيروود، ربت عدة أطفال، وفي أي مقياس فهم لم يموتوا تحت خدماتها.

١٢ يناير/ كانون ثاني ١٩٤٥.

كتب أحد المراسلين في وقت ما في الماضي، يسأل إن كنت زرت معرض التماثيل المصنوعة من الشمع التي تظهر الأعمال الوحشية الألمانية، التي وضعت للعرض في لندن منذ أكثر من سنة. لقد أعلن عنها في الخارج بعناوين مثل: رعب من معسكرات العمل القسري. تعال إلى الداخل وشاهد أعمال التعذيب النازية الحقيقية. جلد وصلب وغرف غاز إلخ. قسم تسلية الأطفال من دون تكلفة إضافية.

ذهبت ورأيت هذا المعرض منذ زمن بعيد، وأود أن أحذر الزوار المحتملين من أنه مخيب جداً للآمال. بداية، هناك الكثير من الأشكال ليست بحجمها الحقيقي، وأشك أن بعضها ليست حتى تماثيل شمع حقيقية، وإنما مجرد دمى خياطين ربطت بها رؤوس جديدة. ثانياً، أعمال التعذيب ليست مخيفة بالشكل الذي توقعته بسبب الملصقات الخارجية. المعرض برمته حقير وميت ومحزن. لكن أصحاب المعرض يبذلون أقصى جهدهم كما أعتقد، والعناوين مشوقة بصراحة تامة في جاذبيتها للسادية والمازوشية. قبل الحرب، إن كنت متعصباً للمصارعة المجهدة، أو كتبت رسائل إلى عضو البرلمان الذي يمثلك تحتج فيها على إلغاء الجلد، أو ارتدت مكتبات الكتب المستعملة بحثاً عن كتب مثل متع غرفة التعذيب، فأنت تعرض نفسك إلى شكوك بغيضة. لكن الآن، يمكنك أن تتمرغ في أكثر الأوصاف المقززة للتعذيب والمذابح، ليس من دون أي إحساس بالذنب فقط، وإنما مع شعور أنك تنجز عملاً سياسياً يستحق الثناء.

أنا لا أقترح أن القصص عن الأعمال الوحشية النازية غير صحيحة وحقيقية. أنا أعتقد إلى حد كبير أنها حقيقية وصحيحة. لقد حدثت أعمال الرعب في معسكرات العمل القسري الألمانية قبل الحرب، وليس هناك أي مبرر لإيقافها منذ ذلك الوقت. لكنها لعبت دوراً كبيراً، لأنها أعطت الصحف عذراً وحجة للصور الإباحية الداعرة. نشرت صحف هذا الصباح تقرير الجيش البريطاني الرسمي عن الأعمال الوحشية النازية. حرصت الصحف أن تخبرك بجلد النساء بالسوط وهن عاريات، وأحياناً يشددون على هذا التفصيل بواسطة عنوان. الصحفيون المسؤولون يعرفون جيداً ماذا يفعلون. يعرفون أن عدداً لا يحصى من الناس يشعرون ببهجة سادية في التفكير بالتعذيب وخصوصاً تعذيب النساء، ويستثمرون هذا العصاب واسع الانتشار. ليس هناك وخز ضمير، لأن هذه الأعمال يرتكبها العدو، والمتعة التي يحصل عليها المرء منها يمكن أن تكون مقززة كالاستهجان. ويستطيع المرء الحصول على متعة مماثلة جداً من الأعمال البربرية التي يرتكبها جانبنا نحن طالما تعتبر عقاباً عادلاً للأشرار.

نحن لم نفهم فعلياً مغزى العروض الرومانية للمجالدين بعد، لكننا يمكننا فعل ذلك لو توفرت الذريعة الضرورية. مثلاً، لو أعلن أن قادة الحرب المجرمين سيقدَّمون طعاماً للأسود أو تدوسهم الفيلة حتى الموت في استاد ويمبلي، أتصور أن المشهد سيحضره الكثيرون جداً ويلاقي إقبالاً جيداً.

ألفت الانتباه إلى مقالة بعنوان "الحقيقة حول ميخايلوفيتش؟" (بالمناسبة المؤلف يكتب للتريبيون أيضاً) في وورلد ريفيو الحالية. تعالج المقالة الحملة في الصحافة البريطانية ومحطة البي بي سي لوسم ميهايلوفتش كعميل ألماني.

آراء ياغوسلاف السياسية معقدة جداً، وأنا لا أدعي أنني خبير فيها. وكل ما أعرفه أن الجانب البريطاني والروسي أيضاً يعتبران إسقاط ميهايلوفتش ودعم تيتو أمراً صحيحاً تماماً. لكن الذي أمتعني هو جاهزية الصحف البريطانية الحسنة السمعة بمجرد صدور هذا القرار على التواطؤ في ما يرقى إلى التزوير، لتكذب الرجل التي كانت تعامله قبل بضعة شهور. ليس هناك شك بأن هذا ما حدث. يعطي مؤلف المقالة تفاصيل واحد من الأمثلة الكثيرة التي قمعت فيها الحقائق المادية في أكثر الطرق صفاقة، مدعوماً بأقوى دليل ليظهر أن

ميخايلوفيتش ليس عميلاً ألمانياً، أكثرية الصحف رفضت ببساطة نشرها، بينما ظلت تكرر تهم الخيانة كما من قبل تماماً.

لاحظت في العدد نفسه من وورلد ريفيو، أن السيد إدوارد هولتون يقول مستنكراً نوعاً ما إن "مدينة أثينا الصغيرة تمتلك صحفاً يومية أكثر من لندن". كل ما أستطيع قوله هو هنيئاً لأهالي أثينا حين يكون هناك أعداد أكثر من الصحف فقط تعبر عن كل الميول، يكون هناك فرصة للوصول إلى الحقيقة. بعد إحصاء الصحف المسائية، ليس لدى لندن سوى اثنتي عشرة صحيفة، وهي تغطي كل جنوب إنكلترا وتخترق الشمال حتى غلاسكو. حين تعتمد كلها الكذبة نفسها، ليس هناك صحافة أقلية لتقوم بدور الفاحص والضابط. في فرنسا قبل الحرب، كانت الصحافة فاسدة وفضائحية، لكنك يمكن أن تبحث وتجد أخبارا منها أكثر مما تجده في الصحافة البريطانية، لأن كل عصبة سياسية لديها صحيتها، وكل وجهة نظر تحظى بفرصة السمع. يدهشني أن كانت أثينا تحافظ على تعددية صحفها تحت نوع الحكومة التي ننوي فرضها.

١٩ يناير/كانون الثاني ١٩٤٥

حكم الأسبوع الماضي على الصحفي الفرنسي هنري بيرو بالإعدام – استبدل الإعدام لاحقا بالسجن المؤبد– بسبب التعاون مع الألمان. كان بيرو يساهم في الصحيفة الفاشية غرينغوار، التي في سنواتها الأخيرة أصبحت الجريدة المقززة الأكثر التي يمكن تخيلها. لم أغضب في حياتي قط من أي شيء في الصحافة، مثلما حدث بسبب رسومها الكاريكاتيرية عندما تدفق اللاجئون الإسبان البؤساء إلى فرنسا، وكانت رشاشات الطائرات الإيطالية تقصفهم في كل الطريق. صور الإسبان كموكب من رجال خسيسين أنذال، كل واحد منهم يدفع عربة يدوية محملة بالجواهر وأكياس الذهب. شنت غرينغوار احتجاجا مستمرا من قمع الحزب الشيوعي الفرنسي، لكنها كانت شرسة بالتساوي ضد ألطف سياسيي اليسار أيضاً.

يستطيع المرء أخذ فكرة عن المستوى الأخلاقي الذي تدير به الجدل السياسي، من حقيقة أنها نشرت مرة رسما كاريكاتيريا يظهر ليون بلوم في السرير مع أخته. أعمدة الدعاية كانت مملوءة بكل أنواع الإعلانات عن المستبصرين ويكتب عن الفن الإباحي. هذه القطعة من النفاية توزع ٥٠٠ ألف نسخة كما قيل.

في زمن الحرب الإثيوبية، كتب بيرو مقالة عنيفة مؤيدة للطليان صرح فيها "أنا أكره إنكلترا" وأعطى مبرراته لفعلته. المهم أن الألمان استفادوا من هذا الأنموذج من الناس الذين لم يتستروا على تعاطفهم مع الفاشيين لمدة سنوات سابقاً في الدعاية الصحفية في فرنسا. منذ سنة أو سنتين، نشر السيد ريمون مورتيمر مقالات مماثلة كثيرة في مجلات أمريكية. حين يجمع المرء هذه القطع منها، يصبح من الواضح أن الطبقة المثقفة الأدبية الفرنسية أحسنت التصرف بشكل مفرط تحت الاحتلال الألماني. أتمنى أن أكون متأكداً لو أن الطبقة المثقفة الأدبية الإنكليزية تتصرف بصورة متساوية إن أصبح النازيون عندنا هنا. لكن صحيح إن ابتلت بريطانيا أيضاً، سيكون الوضع ميؤساً منه، ويكون إغراء القبول بالنظام الجديد أقوى.

أعتقد أنني أدين باعتذار بسيط إلى القرن العشرين. فبما يتصل بملاحظاتي حول الكورترلي ريفيو في العام 1810 – التي أشرت فيها إلى أن الكتب الفرنسية حظيت بمراجعات نقدية مؤيدة في إنكلترا في أوج الحرب مع فرنسا – كتب لي اثنان من المتراسلين يخبراني أن المنشورات العلمية الألمانية في الحرب الحالية، تحظى بمعاملة عادلة في الصحافة العلمية في هذه البلاد. لهذا ربما لسنا برابرة أخيراً.

لكن ما زلت أشعر أن أسلافنا كانوا أفضل في بقائهم عقلاء في زمن الحروب أكثر منا. لو مشيت من فليت ستريت إلى السد ايمباتكمينت، الأجدى لو دخلت إلى مكتب صحفية الأوبزيرفر وألقيت نظرة على شيء محفوظ في غرفة الانتظار. إنه صفحة مؤطرة من الأوبزيرفر (التي هي أقدم من صحفنا) ليوم محدد في شهر يونيو – حزيران عام 1815 مظهرها يشبه كثيراً صحيفة حديثة، لكن الطباعة أسوأ قليلاً وخمسة أعمدة فقط على الصفحة. أكبر الحروف المستخدمة لا يتعدى ربع الإنش ارتفاعاً. العمود الأول خصص "للبلاط والمجتمع"، ثم تتلوه عدة أعمدة من الإعلانات، أغلبها عن غرف للإيجار. بعد المنتصف نحو العمود الأخير عبارة عن عنوان معركة دموية في فلاندرز. هزيمة ماحقة للثورة الكورسيكية. هذا هو الخبر الأول من واترلو!

"اليوم هناك ثمانون شخصاً فقط في المملكة المتحدة بدخل يزيد على الستة آلاف جنيه في السنة". (السيد كوينتين هوغ، عضو برلمان. في كراسته الأزمنة التي نعيش فيها).

هناك حوالي الثمانين طريقة في اللغتين الإنكليزية والأمريكية للتعبير عن الشكوكية -مثلاً، أوه غارن، يا للسخف، هل أنت متأكد، مستحيل، أوه لا أعتقد. لكن الجواب المناسب تماماً لملاحظة مثل التي اقتبست آنفاً، هو لكن أعتقد.

قرأت مؤخراً سيرة إدغار والاس التي كتبتها مارغريت لين منذ بضع سنوات. إنها قصة "كوخ خشبي بالنسبة إلى البيت الأبيض" لوغ كابين تو ايت هاوس -حجرة خشبية لبيت أبيض وفي مضمونها تعليق مرعب على عصرنا. تبدأ بكل صعوبة ممكنة- طفل غير شرعي، يربيه والدان مزيفان فقيران جداً في حي قذر من أحياء الفقراء، يشق والاس طريقه، ويتطور بمقدرته وحبه للمغامرة والعمل الجاد فقط. في سنواته اللاحقة كان ينتج ثمانية كتب في السنة الواحدة بالإضافة إلى المسرحيات ونصوص الراديو والكثير من المقالات الصحفية. لم يفكر في تأليف كتاب طويل في أقل من أسبوع. لم يمارس أية رياضة. كان يعمل خلف شاشة زجاجية في غرفة حارة جداً ويشتري كميات كبيرة من الشاي المحلى، ومات متأثر بإصابته بمرض السكر في السابعة والخمسين من عمره.

من الواضح من بعض أكثر كتبه طموحا، أن والاس أخذ عمله على محمل الجد، لكن هدفه الرئيسي كان ربح المال ونجح فيه. قبيل نهاية حياته كان يكسب حوالي خمسين ألف جنيه في السنة. لكنها كانت ذهب جن (مال لا فائدة منه). بالإضافة إلى خسارة مال بتمويل المسارح وتربية عدد من خيول السباق التي لم تربح أبداً، أنفق والاس مبالغ خيالية على بيوته الكثيرة؛ حيث يحتفظ بطاقم من عشرين خادماً. عندما مات فجأة في هوليوود، تبين أن ديونه وصلت إلى ١٤١ ألف جنيه، بينما كانت أرصدته السائلة صفراً عملياً. لكن أسعار كتبه كانت كبيرة، لذلك ارتفعت عوائده من الكتب إلى ست وعشرين ألف جنيه في السنتين التاليتين لموته.

الشيء الغريب أن هذا الضائع بشكل واضح- حياة الجلوس المتواصل تقريباً في غرفة فاسدة الهواء، وتغطية أكرات من الورق بهراء مميت- هو ما يدعى أو كان يجب أن يدعى قبل بضع سنوات "قصة ملهمة" فعل والاس كل كتب الـ "غيت أون أور غيت آوت، من

سمايلز سيلف هيلب فصاعداً، أخبرتكم.... والعالم أعطاه نوع المكافأت التي كان سيطلبها، بعد موته وفي حياته أيضاً. حين جلب جثمانه إلى الوطن، حمل على متن السفينة بيرينغاريا....... وضعوا فوقه العلم البريطاني يونيون جاك، وغطوه بالزهور. تمدد لوحده في البهو الفارغ تحت حمل أكاليل الزهر، لم يذهب أبداً في رحلة رتبت في هكذا منزلة رفيعة ووقار. حين زحفت السفينة في مياه ساوثامبتون، كان علمها يرفرف عند منتصف الصاري وأعلام ساوثامبتون انزلقت ونكست بلطف تحية له. أجراس شارع فليت قرعت، وكانت ويندهام مظلمة.

كل ذلك، والخمسون ألف جنيه في السنة أيضاً! هم أعطوا والاس أيضاً صفيحة معدنية على الجدار في لودجيت سيركوس، والغريب أن لندن تستطيع أن تحتفل بذكرى والاس في شارع فليت وباري في كينسينغتون غاردينز، لكنها لم تقتنع بعد بإعطاء بليك تكريماً في لامبيث.

٢٦ يناير/ كانون ثاني ١٩٤٥.

في الليلة قبل الماضية، حضرت اجتماعاً حاشداً لمنظمة تسمى العصبة من أجل الحرية الأوروبية. ورغم أنها منظمة لكل الأحزاب، لم يكن هناك سوى عضو برلماني عمالي واحد على المنصة. ويمكن القول في اعتقادي إن الجناح المعادي للروس من حزب التوري يسيطر عليها.

أنا أؤيد الحرية الأوروبية جداً، لكن يسعدني أكثر حين تقترن بالحرية في كل مكان –في الهند مثلاً. كان الناس الذين على المنصة مهتمين بمعارك الروس في بولندا وبلدان البلطيق إلخ، وهجر مبادئ ميثاق الأطلنطي التي تتضمنه تلك المعارك (الأعمال). أكثر من نصف الذي قالوه كان مبرراً، لكن الغريب كفاية أنهم كانوا تواقين تقريباً للدفاع عن إجبارنا لليونان، وتواقين في الوقت نفسه إلى شحب الإجبار الروسي لبولندا. فيكتور رايكس عضو البرلمان التوري الرجعي القادر والصريح، ألقى خطاباً يجب أن أعتبره خطاباً جيداً إن أرجعته فقط إلى بولندا ويوغسلافيا. لكن بعد التعامل مع هذين البلدين استمر في التكلم عن اليونان، ثم فجأة أصبح الأسود أبيض والأبيض أسود. لم تكن هناك أصوات استهجان أو اعتراضات من المستمعين الكثيرين جداً –لم يكن هناك أحد استطاع أن يرى أن فرض حكومات خائنة على شعوب معارضة ورافضة، شيء غير مرغوب بالتساوي أياً كان الفاعل.

من الصعب الاعتقاد أن أناساً مثل هذا، مهتمون فعلاً بالحرية السياسية لذاتها. هم مهتمون فقط لأن بريطانيا لم تحصل على قطعة كبيرة جداً في الصفقة القذرة التي يبدو أنها أجبرت عليها في طهران. بعد اللقاء، تحدثت مع صحفي له اتصالات أشمل وأوسع مع أشخاص ذوي نفوذ وسلطة أكثر مما لي. قال إنه يعتقد أن السياسة البريطانية ربما تتبدل وتأخذ منحى عنيفاً معادياً للروس قريباً، ومن السهل جداً التلاعب بالرأي العام في ذلك الاتجاه إن كان ضرورياً. أنا لا أعتقد أنه كان محقاً لعدة أسباب، لكن تبين أنه كان على صواب، ثم أخيراً كان خطؤنا وليس خطأ خصومنا.

لم يتوقع أحد أن ينشر حزب التوري وصحافته التنوير. المشكلة أنه من سنوات مضت كان من المستحيل استخلاص صورة ناضجة للسياسة الأجنبية من صحافة اليسار أيضاً. حين يتعلق الأمر بمواضيع مثل بولندا وبلدان البلطيق ويوغسلافيا أو اليونان، فأي فرق هناك بين الصحافة المحبة للروس وصحافة التوري المتطرف؟

الأول، هو ببساطة الآخر واقف على رأسه. تعطي النيوز كرونيكل العناوين الكبيرة للقتال في اليونان لكنها تطوي الخبر عن "القوة التي استخدمت" ضد جيش الوطن البولوني بأحرف طباعية صغيرة في أسفل العمود. الديلي ووركر تستنكر الديكتاتورية في أثينا، الكاثوليكية هيرالد تستهجن الديكتاتورية التي في بلغراد. ليس هناك واحد يستطيع أن يقول -على الأقل لا أحد لديه الفرصة ليقول في صحيفة ذات توزيع كبير- إن هذه اللعبة القذرة من عوالم النفوذ وبائعي الأوطان وأعمال التطهير العرقي والترحيل وانتخابات الحزب الواحد واستفتاءات المئة بالمئة، هي مثل بعضها أخلاقياً إن فعلناها نحن أو الروس أو النازيون. حتى في حالة العودة الصراحة إلى البربرية كاستخدام الرهائن مثلاً، لا نشعر بالاستنكار إلا إن كان العدو من فعل ذلك وليس نحن.

وبأي نتيجة؟ حسناً، نتيجة واحدة أنها تصبح أسهل لتضليل الرأي العام. التوريون قادرون على إحداث الفضائح حين يريدون، لأن اليسار يرفض التحدث عن مواضيع محددة بطريقة ناضجة. الحرب الروسية الفنلندية في عام ١٩٤٠ مثال على ذلك. أنا لا أدافع عن العمل العسكري الروسي في فنلندا، لكنه لم يكن شريراً بشكل استثنائي. كان مجرد نفس الشيء الذي فعلناه نحن حين استولينا على مدغشقر. خبر كان سيصدم الجمهور. وفي الحقيقة يمكن

أن يتطور إلى غضب شديد خطير، لأنه تعلم بشكل زائف لسنوات أن السياسة الخارجية الروسية كانت مختلفة أخلاقياً عن البلدان الأخرى.

وصدمني وأنا أستمع إلى السيد راكيز في الليلة قبل الماضية، لو أن التوريين اختاروا أن يكشفوا السر حول لجنة لوبلين والماريشال تيتو وتابعيه الأقرباء، سيكون هناك -شكراً للرقابة الذاتية المطولة على اليسار- الكثير من الأسرار التي ستفضح.

لكن الدجل والخداع السياسي له جانبه الهزلي. لذلك لم يترأس ذلك الاجتماع الذي عقدته العصبة من أجل الحرية الأوروبية شخص أقل من دوقة اثول. منذ سبع سنوات فقط كانت الدوقة- "الدوقة الحمراء" كما كانت تلقب بمحبة- كانت هي المدللة للديلي ووركر وأقرضت الثقل الهام من سلطتها إلى كل كذبة تفوه بها الشيوعيون في تلك الفترة. الآن إنها تقاتل ضد المسخ الذي ساعدت على خلقه. أنا متأكد من أنها وأصدقاءها الشيوعيين السابقين سيرون أي مغزى أخلاقياً في هذا.

أريد أن أصحح الخطأ الذي ارتكبته في هذا العمود في الأسبوع الماضي. يبدو أن هناك لوحة تعريف معدنية لويليام بليك، وهي في مكان قرب كنيسة القديس جورج في لامبيث. فتشت عن واحدة في تلك المنطقة ولم أجدها. اعتذاري للشركة ذات المسؤولية المحدودة.

إن اهتم المرء بالحفاظ على اللغة الإنكليزية، فهناك نقطة يجب أن يقرر المرء إن كانت جديرة بإثارة صراع حين تبدل كلمة معناها. بعض الكلمات أبعد من الاسترداد. لا يستطيع المرء كما أتخيل أن يسترد "وقح" إلى معناها الأصلي أو "صحيفة" أو "يهلك القسم الأعظم" لكن ماذا عن استعمال "يستدل" بدلاً من "يدل ضمناً" (هو لم يقل حقاً أنا كذاب، لكنه استدل عليها) التي ترسخت منذ سنوات؟ ألا يجب أن يحتج المرء على هذا؟ أو على المرء أن يذعن حين تتعرض معاني كلمات محددة للتضييق الاعتباطي؟ أمثلة "خليع" (تقريباً تؤخذ بمعنى غير أخلاقي جنسياً) و"ينتقد" (تؤخذ دائماً بمعنى ينتقد بشكل ضار وسلبي). من المدهش هو ذلك العدد الكبير من الكلمات التي أصبحت معانيها جنسية صرفة،

وذلك يعود جزئياً إلى حاجة تلطيف التعبير. الاستخدام الثابت لمثل هذه العبارات "العلاقة الحميمة حدثت مرتين"، عملياً نفت المعنى الأصلي لكلمة "الألفة والمودة". وقد تم تحريف دزينة من الكلمات الأخرى بنفس الطريقة.

من الواضح أن هذا الشيء ينبغي أن يمنع إن كان ذلك ممكناً، لكن من غير المؤكد أن يستطيع المرء فعل أي شيء بالصراع ضد الاستخدام الراهن. مجيء الكلمات وذهابها عملية غريبة لا نعرف قوانينها. في عام ١٩٤٠ كلمة "والب ضربة عنيفة" التي كانت تعني بيرة غير حادة، أصبحت متداولة في كل أرجاء لندن فجأة. لم أسمع بها قط حتى ذلك التاريخ، ولم تبدُ كلمة جديدة، ولكنها ظلت كلمة غريبة لربع مدينة لندن. ثم انتشرت فجأة في كل الأرجاء. والآن تلاشت تماماً مرة أخرى كما يبدو. الكلمات تستطيع أن تحيا مجدداً أيضاً لسبب غير واضح بعد بقائها هاجعة لمئات السنين ككلمة (عربة سيارة مثلاً) التي لم تكن متداولة في إنكلترا أبداً إلا في الشعر الكلاسيكي الطنان، لكنها انبعثت إلى الحياة في العام ١٩٠٠ لتصف السيارة التي اخترعت حديثاً.

لذلك ربما الانحطاط الذي يحدث للغتنا بشكل مؤكد هو عملية لا يستطيع المرء كبحها بعمل متعمد. لكني أحب أن أرى القيام بالمحاولة. وكبداية أحب أن أرى بضع عشرات من الصحافيين يعلنون الحرب على بعض الاستخدامات السيئة الواضحة -مثلاً، الفعل المقزز "يتصل، يحتك"، أو العادة الأمريكية في ربط حرف جر غير ضروري لكل فعل- وأرى أنه كان باستطاعتهم قتلها بجهودهم المشتركة.

٢ فبراير/ شباط ١٩٤٥. نشرت أول مرة بالتريبيون ١٩٤٣.

لقد أعدت قراءة كتابي المفضل القديم في صباي، **المنعطف الأخضر** للكاتب أولي لوكاويي للتو الذي كان اسماً مستعاراً للميجور سوينتون (الجنرال سوينتون لاحقاً) الذي كان -كما أعتقد- واحداً من الأشخاص العديدين الذين نسب إليهم فضل اختراع الدبابة. كتبت قصص هذا الكتاب في عام ١٩٠٨ تقريباً، وكانت تنبؤات لجندي محترف ذكي تعلم الدروس من حرب البوير ومن الحرب الروسية اليابانية. ومن الممتع أن نقارنها مع ما حدث فعلياً في السنوات القليلة الأخيرة.

إحدى القصص كتبت في وقت مبكر من عام ١٩٠٧ (في تاريخ لم تطر فيه أي طائرة عن الأرض لأكثر من بضع ثوان)، قصة أخرى في نفس السنة تتعامل مع الغزو الألماني لإنكلترا، واهتممتُ بشكل خاص حين لاحظتُ أن الألمان لقبوا بـ "الهون" مسبقاً في هذه القصة. كنت أميل إلى نسب استعمال كلمة "هون" للألمان إلى كيلينغ الذي استخدمها بالتأكيد في القصيدة التي نشرها أثناء الأسبوع الأول من الحرب الأخيرة.

على الرغم من جهود صحف كثيرة، لم تدرج وتنتشر كلمة "هون" أبداً، لكن لدينا الكثير من الألقاب المهينة. يستطيع المرء أن يكتب دراسة ثمينة عن استخدام الأسماء التي تفترض الخلاف والنعوت وتأثيرها في تعتيم المناظرات والجدالات السياسية. إنه يظهر الحقيقة الغريبة بأنك لو قبلت بأن تطبق على نفسك اسماً قصد منه أن يكون إهانة، قد ينتهي بخسارته طبيعته المهينة. هذا يبدو أنه ما يحدث للقب "تروتسكي" الذي أصبح قريباً من أن يكون إطراء ومدحاً. وكذلك الحال مع "كونشي (من يرفض الخدمة العسكرية لأسباب شخصية تتعلق بالضمير -المترجم) أثناء الحرب الأخيرة. مثال آخر "بريتشر -بريطاني". استخدمت هذه الكلمة لسنوات كتعبير عن الازدراء في الصحافة الأمريكية المبغضة للإنكليز. لاحقاً، نورثكليف وآخرون فتشوا عن بديل لكلمة "إنغليشمان" يجب أن يكون فيها نكهة شوفينية وإمبريالية، ووجدوا "بريتشر" جاهزة وفي متناولهم واستولوا عليها. منذ ذلك الحين باتت للكلمة هالة مميزة من الوطنية القذرة، والشخص اللطيف الذي يخبرك "أن ما يحتاجه السكان الأصليون هي يد قوية" ويخبرك أيضاً أنه "فخور لكونه بريتشر" -وهذا مساوٍ تقريباً لصيني قومجي يصف نفسه بـ "تشينك".

تلقيت ورقة من لجنة أصدقاء السلام، تقول إن كان المخطط الراهن هو نقل كل البولنديين من المناطق ليتولى أمرهم الاتحاد السوفييتي وبالمقارنة، إن نقل الألمان من أجزاء ألمانيا لتتولى أمرهم بولندا، ووضع هذا المخطط قيد التنفيذ، فإن هذا "سيتضمن انتقال لا يقل عن سبعة ملايين شخص".

بعض التقديرات في اعتقادي أكثر من هذا، لكن دعنا نفترض أنها ستكون سبعة ملايين. هذا مماثل لاستئصال كل سكان أستراليا من جذورهم وزرعهم في مكان آخر، أو استئصال كل

سكان اسكتلندا وايرلندا معاً. أنا لست خبيراً في النقل أو الإسكان، وأود أن أسمع من شخص مؤهل للتقدير أفضل مني (أ) كم حافلة وعربة ستشارك في نقل هؤلاء الملايين السبعة من الناس بالإضافة إلى مواشيهم ومعدات مزارعهم وبضائعهم البيتية، أو (باء) كم منهم سوف يموت من شدة الجوع والتعرض للعوامل الجوية إن شحنوا من دون مواشيهم.. إلخ.

أتصور أن الإجابة على (أ) ستبين أن هذه الجريمة الشنيعة الهائلة، لا يمكن تنفيذها، لكن يمكن أن تبدأ بفوضى وعذاب وزرع كره عنيد عصي على المصالحة نتيجة لهذا. في الوقت الحالي، يجب أن يحضر الشعب البريطاني، ليفهم وبأكبر قدر ممكن من التفاصيل الملموسة ما نوع السياسات التي يلزمهم بها رجال دولتهم.

هزّ البيت انفجار غير بعيد جداً، وقعقعت النوافذ في إطاراتها. وفي الغرفة التالية استيقظ صف ١٩٤٦ وأطلق صيحة أو اثنتين. كلما يحدث هذا أجد نفسي أفكر: "هل من الممكن أن يستمر البشر بهذا الجنون لفترة طويلة أكثر من ذلك؟". انتم تعرفون الجواب طبعاً. في الواقع، الصعوبة في هذه الأيام أن تجد شخصاً واحداً يعتقد أنه لن تكون هناك حرب أخرى في المستقبل القريب.

أعتقد أن ألمانيا سوف تندحر هذا العام، وحين يتم إخراج ألمانيا من الطريق، لن تقدر اليابان الصمود أمام القوى الموحدة لبريطانيا والولايات المتحدة، ثم يكون سلام الإنهاك مع حروب ثانوية غير رسمية تنشب في كل مكان، وربما يدوم السلام المزعوم لعقود من الزمن. لكن بعد ذلك يتشكل العالم حقيقة، وتصبح الحرب دائمة. مسبقاً وواضح تماماً مع إذعاننا كلنا تقريباً، أن العالم ينقسم إلى دولتين عظميين أو ثلاث، تكهن بها جيمس بيرنهام في كتابه الثورة الإدارية. لا يستطيع المرء رسم حدودها الدقيقة بعد، لكنه يستطيع أن يرى تقريباً المناطق التي تشملها كل واحدة منها. وإذا استقر العالم على هذا الأنموذج، فمن المحتمل لهذه الدول الضخمة أن تكون في حالة حرب دائمة مع بعضها البعض، لكنها لن تكون بالضرورة حرباً شديدة جداً أو دامية، وستكون مشاكلها الاقتصادية والسيكولوجية أبسط بكثير حين تظل الطائرات القاذفة النفاثة تئز باستمرار ذهاباً وإياباً.

إن وطدت هاتان الدولتان أو الثلاثة نفسها كدول عظمى، ستكون كل واحدة منها أكبر من أن تهزم، ولن تكون تحت أي حاجة للمتاجرة مع بعضها البعض أيضاً، وستكون في وضع

تمنع فيه كل اتصال بين مواطنيها. وخلال عشر سنوات أو أكثر من ذاك، ستقتطع مناطق واسعة من الأرض من بعضها البعض، على الرغم من كونها فنياً في حالة سلم.

منذ أشهر مضت، أشرت في هذا العمود إلى أن الاختراعات العلمية الحديثة تميل إلى منع التواصل الدولي أكثر من زيادته، مما جلب لي الكثير من الرسائل الغاضبة من القراء، لكن لم يقدر أي منهم أن يبين أن ما قلته كان زائفاً، وردوا أنه لو كان لدينا اشتراكية فلن تحرف الطائرة والراديو.. إلخ إلى استخدامات خاطئة. صحيح جداً، لكن بما أنه ليس لدينا اشتراكية، فالطائرة أساساً شيء لإسقاط القنابل والراديو أساساً شيء لتمجيد القومية. حتى قبل الحرب، كان هناك تواصل بين سكان الأرض أقل بشكل هائل مما كان عليه قبل ثلاثين سنة، والتعليم كان فاسداً، والتاريخ أعيدت كتابته، وحرية الفكر قمعت إلى درجة لم تحلم بها العصور السابقة. وليس هناك أي علامة مهما كانت عن انعكاس هذه الميول وانقلابها إلى الضد.

ربما أنا متشائم. لكن في كافة الأحوال، فإن تلك الأفكار التي تقلق ذهني (وتقلق ذهن كثير من الناس الآخرين أيضاً كما أعتقد) في كل مرة يدوي فيها انفجار قنبلة في (في١ في ٢ قنابل ألمانية- المترجم) عبر السديم.

عثرت على قصة صغيرة في كتاب.

تلقى شخص دعوة للخروج لصيد الأسود، فهتف قائلاً: "أنا لم أفقد أي أسد!".

٩ فبراير/ شباط ١٩٤٥.

كلما أغسل دفعة من الأواني الفخارية، أتعجب من ضيق مخيلة البشر الذين استطاعوا السفر تحت البحر والطيران عبر الغيوم، ولم يعرفوا بعد كيف يتخلصون من العمل الشاق والقذر المضيع للوقت من حياتهم اليومية. لو دخلت إلى غرفة العصر البرونزي في المتحف البريطاني (حين يفتح مرة أخرى) ستلاحظ أن بعض أدواتنا المنزلية تبدلت خلال ثلاثة آلاف عام.

المقلاة مثلاً أو المشط هي نفس الشيء الذي كانته حين كان الإغريق يحاصرون طروادة. في نفس الفترة تقدمنا من السفينة الراشحة إلى الباخرة ذات الـ ٥٠ ألف طن، ومن العربة التي تجرها الثيران إلى الطائرة.

صحيح أنه في البيت الحديث الموفر للوقت الذي تسكنه نسبة مئوية صغيرة جداً من الكائنات البشرية، يأخذ عمل مثل غسيل الأطباق وقتاً أقل مما كان في الماضي. مع رقائق الصابون، ووفرة الماء الحار وحوامل الأطباق والمطبخ ذي الإنارة الجيدة و-ما تملكه البيوت القليلة جداً في إنكلترا- والطريقة السهلة للتخلص من النفاية، بات من الممكن تحمل الأمر أكثر مما كان حين كانت تنظف الأطباق النحاسية بالرمل في مغاطس حجرية ينفذ الماء منها على ضوء شمعة. لكن بعض الأعمال المحددة (تنظيف المقلاة التي يطبخ فيها السمك مثلاً) مقززة بالأصل، وكل مسألة العبث بخصوص مماسح الصحون وأحواض الماء الحار بدائية بشكل لا يصدق. في هذه اللحظة فإن صف الشقق السكنية الذي أعيش فيه غير صالح للسكن جزئياً: ليس بسبب أعمال العدو القتالية، وإنما بسبب تكدس وتراكم الثلوج جعل الماء ينهمر عبر السطوح ويسقط معه الجص من السقوف. واعتبر من المسلم به أن هذه الكارثة ستحدث كل مرة تسقط فيها كميات استثنائية من الثلوج. لم يكن هناك ماء في الحنفيات لمدة ثلاثة أيام بسبب تجمد الأنابيب: هذا أيضاً عادي، وتجربة سنوية على الأغلب. والصحف أعلنت للتو أن عدد الأنابيب التي انفجرت هائل جداً، لذلك لن تكتمل عملية إصلاحها حتى نهاية عام ١٩٤٥- عندما -كما أفترض- يكون هناك صقيع كبير آخر وتنفجر مرة أخرى. لو أن أسالينا في شن الحروب جارت سرعتنا في تدبير منازلنا، لكنا على حافة اكتشاف البارود.

نعود إلى غسيل الأطباق ثانية، مثل الكنس والفرك وتنفيض الغبار، إنها مهنة غير ابتكارية مدمرة للحياة. لا تستطيع أن تجعل منها فناً كما تستطيع في الطبخ أو البستنة. ماذا يجب العمل بخصوصها إذاً؟ حسناً أن كل مشكلة العمل المنزلي لها ثلاثة حلول. الحل الأول أن نبسط طريقتنا في العيش بشكل كبير جداً. والحل الثاني أن نفترض أن أسلافنا فعلوه، وهو أن الحياة على الأرض بائسة بالأصل، وأنه من الطبيعي تماماً للمرأة العادية أن تكون كادحة ومعتلة الصحة في عمر الثلاثين؛ والحل الأخير أن نكرس قدراً من العقل والذكاء لعقلنة شؤون بيوتنا من الداخل مساوياً للقدر الذي كرسناه للنقل والاتصالات.

إن كنا سنختار البديل الثالث. إن فكر المرء من منظور تجنب العناء ونظم بيته بشكل لا يرحم كما ينظم آلة من الممكن أن نتخيل بيوتاً وشققاً تكون مريحة وتتطلب القليل جداً من

العمل. تدفئة مركزية وأنابيب للنفاية واستهلاك مناسب للدخان وغرف ليس فيها زوايا وأسرة مدفّأة بالكهرباء والتخلص من السجاد. كل هذا يصنع فرقاً كبيراً، لكن بالنسبة إلى غسل الأطباق، فأنا لا أرى حلاً باستثناء فعل ذلك بشكل مشاعي مشترك مثل مغسلة الثياب. كل صباح تقف عربة البلدية عند باب بيتك وتحمل صندوقاً من الأطباق القذرة وتسلمك صندوقاً من الأطباق النظيفة (معلمة بالأحرف الأولى من اسمك طبعاً) بدلاً منها. سيكون تنظيم هذا أصعب من خدمة حفاضات الأطفال اليومية التي كانت تنفذ قبل الحرب. ورغم أن ذلك يعني أن يكون بعض الناس غاسلي أطباق بوظيفة كاملة كما يعمل بعض الناس الآن في مغاسل ثياب في وظيفة بوقت كامل، إلا أن التوفير الكامل والنهائي في العمل والوقود سيكون هائلاً. البدائل أن تستمر العمل بمماسح أطباق ملوثة بالشحم أو أن نأكل من أوانٍ ورقية.

ضوء جانبي على عادات نقاد الكتب

في وقت سابق، كلفتُ بكتابة مقال لكتاب سنوي لن أسميه، تجمع فيه صور وقصاصات من الجرائد. في آخر لحظة (حين استلمت النقود، يسعدني أن أقول) قرر الناشر منع نشر مقالي. في هذا الوقت كان الكتاب في مرحلة التجليد. قطع المقال من كل نسخة، لكن من أجل سبب تقني، كان من المستحيل إزالة اسمي من قائمة المساهمين على صفحة العنوان.

ثم بعد ذلك، تلقيت عدداً من قصاصات الصحف التي تشير إلى هذا الكتاب. في كل حالة ذكر اسمي مع المساهمين، ولم يلاحظ أي ناقد أن المساهمة التي أشير بأنها لي ليست موجودة فعلياً هناك.

الآن، بعد أن سُخر من "اكتشف كل جادة" و"لا تترك أي حجر من دون أن تقلبه" وبطلت من الوجود تقريباً، أعتقد أنه حان الوقت لبدء حملة ضد بعض الاستعارات البالية وغير المفيدة الأخرى التي تلوث لغتنا.

ثلاث استعارات يمكننا التخلص منها وهي "تشاجر مع، اختلف مع، تنازع مع" و"عمل الشيء بطريقة مختلفة ليكون أكثر تشويقاً" و"يؤيد ويدافع عن شخص بقوة" لقد أصبحت

هذه التعابير المتشابهة ميتة ولا حياة فيها، لدرجة أن الناس باتوا لا يتذكرون معناها الأصلي حتى في حالات كثيرة. ما المقصود بـ "رينغينغ ذا تشينجز" مثلاً؟ ربما كان لها علاقة بأجراس الكنيسة مرة، لكن المرء ليس متأكداً إلا بعد الرجوع إلى المعجم. "يؤيد ويدافع عن شخص بقوة" ربما مشتقة من لعبة العصا الواحدة المهجورة. حين تنتقل عبارة بعيداً عن معناها الأصلي كهذه - قيمتها كاستعارة- أي قدرتها على تقديم إيضاح قوي- تتلاشى. ليس هناك أي معنى كان في كتابة "إكس رفع الهراوات من أجل واي". يجب أن يقول بدلاً من ذلك "إكس دافع عن واي" أو فكر باستعارة جديدة تجعل معناك أنشط وأقوى بشكل أصيل.

في بعض الحالات، فصلت هذه التعابير المستهلكة عن معناها الأصلي بواسطة الخطأ في التهجئة. مثال "إبحار بسيط" (إبحار طائرة). والتعبير "اصطف، أطاع الأوامر" أصبحت الآن تهجى في أحوال كثيرة "اسحب الخط" الناس القادرون على هذا النوع من الشيء، لا يربطون بوضوح أي معنى محدد بالكلمات التي يستخدمونها.

أتساءل إن كان الناس يقرؤون بريت هارت في هذه الأيام. لا أعرف لماذا، لكن بعضاً من مقاطع قصيدته "الجمعية فوق ستانيسلاوس" كانت تدور في بالي في الساعة الماضية. تصف القصيدة اجتماعاً لجمعية الآثار انتهى بفوضى:

رفع ابنر كبير الملائكة نقطة نظام، عندما باغتته قطعة حجر رملي حمراء قديمة في بطنه؛/ وابتسم ابتسامة باهتة وتلوى على الأرض،/ ولم يعد يهتم بالإجراءات اللاحقة لما مضى.

ربما من سوء حظ سمعة بريت هارت، أن قصيدتيه الساخرتين جداً، واحدة تدور حول التحامل اللوني والأخرى عن التكبر الطبقي. لكن هناك عدداً يستحق القراءة ثانية، ومنها قصيدتان جديتان: خصوصاً "ديكنز في معسكر" القصيدة الجديدة شبه المنسية تقريباً التي كتبها بريت بعد وفاة ديكنز، والتي كانت عن أرق إجلال ناله قط.

١٦ فبراير/ شباط ١٩٤٥.

تلقيتُ نسخة من بيان عن مستقبل بورما الأسبوع الماضي، أصدرته جمعية بورما، وهي منظمة تشمل أغلب المقيمين البورميين في هذه البلاد. أنا لست متأكداً من درجة تمثيلها،

لكنها على الأرجح تعبر عن رغبات الأغلبية من البورميين الواعين سياسياً. لأسباب سأحاول توضيحها في الحال، كان البيان الذي صدر للتو وثيقة هامة. لخص بأقصى قدر ممكن ليعبر عن المطالب التالية:

أ- العفو عن البورميين الذين تعاونوا مع اليابانيين أثناء الاحتلال. ب- بيان من الحكومة البريطانية في تاريخ محدد تحصل فيه بورما على وضعية السيادة. الفترة، إن أمكن، يجب أن تكون أقل عن ستة أسابيع. يجب أن يدعى الشعب البورمي إلى تجمع دستوري في الوقت الفاصل. ج- عدم وجود فترة مؤقتة فاصلة من "الحكم المباشر". د- يجب أن تكون للشعب البورمي حصة أعظم في التطور الاقتصادي لبلادهم. ت-يجب على الحكومة البريطانية أن تدلي ببيان فوري وجلي عن نواياها تجاه بورما.

الشيء اللافت حول هذه المطالب، هو تواضعها. ليس هناك حزب سياسي ذو نفس قومي أو أي أمل بأن تكون له جماهير مؤيدة، يمكن أن يطلب أقل من ذلك. لكن لماذا يقلل هؤلاء الناس مطالبهم إلى هذه الدرجة المتدينة؟ حسناً، أعتقد أنه يمكن للمرء أن يخمن سببين اثنين. أولاً، إن تجربة الاحتلال الياباني، ربما جعلت من وضعية السيادة تبدو هدفاً مغرياً أكثر مما كان يبدو قبل ثلاث سنين. لكن الأهم- إن طالبوا بهذا الشكل القليل، ربما بسبب أنهم كانوا يتوقعون أن يقدم لهم أقل من ذلك حتى. وعليّ أن أخمن أنهم توقعوا الصح. في الحقيقة، من أكثر الاقتراحات المجدولة آنفاً، فقط الأول المحتمل له أن ينفذ.

لم تدلِ الحكومة أبداً بأي تصريح واضح حول مستقبل بورما، لكن كانت هناك إشاعات أنه حين يطرد اليابانيون من البلاد هناك عودة إلى "الحكم المباشر" وهي تسمية محتشمة للديكتاتورية العسكرية. وما الذي يحدث سياسياً في بورما في هذه اللحظة؟ نحن ببساطة لا نعرف: ليس هناك كلمة واحدة في أية جريدة عن الطريقة التي تدار بها الأراضي التي فتحت ثانية. لنفهم معنى هذا، فعلى المرء أن ينظر إلى خريطة بورما. منذ سنة كانت بورما في الحقيقة بأيدي اليابانيين، وكان الحلفاء يقاتلون في أراضٍ بور تسكنها قبائل بدائية متفرقة لم يحتك بها أحد، وكانت مؤيدة لبريطانيا. تغلغلوا الآن إلى قلب بورما، وسقطت كما يجب بعض البلدات الهامة ومراكز الإدارة في أيديهم، ويجب أن يكون عدة ملايين من البورميين تحت العلم

البريطاني مرة أخرى. لم يخبرونا حتى الآن بأية معلومة عن شكل الإدارة التي ستقام هناك. هل من المفاجئ أن كل بورمي مفكر خاف من الأسوأ؟

من الهام جداً والحيوي إشراك الشعب البريطاني إن أمكن في هذه المسألة. ولأن عيوننا كانت مثبتة على أوروبا، نسينا أن النهاية الأخرى من العالم هناك سلسلة كاملة من البلدان تنتظر التحرير، وفي كل حالة تقريباً هناك أمل بشيء أفضل من مجرد تغيير الفاتحين. ربما تكون بورما أول أرض تابعة لبريطانيا يعاد فتحها، وستكون حالة اختبار: اختبار أهم من اليونان أو بلجيكا، ليس لأن فيها عدد أكبر من الناس فقط، وإنما لأنها مسؤولية بريطانية بالكامل تقريباً. ستكون كارثة مخيفة إن تركنا تشرشل وأميري وشركاه بسبب اللامبالاة والجهل يدبرون تسوية رجعية ما، تجعلنا نخسر صداقة الشعب البورمي إلى الأبد.

بعد الخلاص من اليابانيين بسنة أو سنتين، ستكون بورما في مزاج متفتح ومتقبل للأفكار الجديدة، أكثر مما كانت عليه في السنوات العشر الماضية. ثم تلي ذلك لحظة القيام بإيماءة كريمة. أنا لا أعرف إن كان وضع السيادة دومينون ستيتس ستكون الحل الممكن الأفضل. لكن القطاع الواعي سياسياً من البورميين يطالبون بوضع السيادة. ومن الخطأ الرهيب السماح للتوريين أن يرفضوه في محاولة يائسة لإعادة الماضي. ويجب أن يكون هناك موعد مربوط به، لكن ليس موعداً بعيداً جداً. إن ظل هؤلاء الناس داخل الكومنويلث البريطاني أو خارجه، فإن الشيء الذي يهم على المدى الطويل هو أننا يجب أن نفوز بصداقتهم- ونستطيع ذلك إن لم نخدعهم في لحظة الأزمة. حين تأتي اللحظة من أجل تقرير مستقبل بورما، لن يدير البورميون المفكرون أعينهم نحو تشرشل. هم سينظرون إلينا، الحركة العمالية، ليروا إن كان حديثنا عن الديمقراطية وحق تقرير المصير والمساواة العرقية وغيرها، فيه أي شيء من الحقيقة. أنا لا أعرف إن كان في قدرتنا أن نفرض تسوية محترمة على الحكومة، لكنني أعرف أننا سنضر أنفسنا بشكل يتعذر إصلاحه، إن لم نطالب ونحتج ونتضامن حولها ـ كما فعلنا في حالة اليونان.

حين سئل: "ما هو الحيوان الأكثر حكمة؟" رد ياباني "هو الحيوان الذي لم يكتشفه الإنسان بعد".

رأيت في كتاب للتو بياناً بأن عدد الفقمات الرمادية، وهي النوع الموجود حول الشواطئ البريطانية، عشرة آلاف فقط. أتصور أن هناك عدداً قليلاً جداً منها، لأنها تعرضت للقتل مثل الكثير من الحيوانات التي بالغت في ثقتها بالإنسان. حيوان الفقمة حيوان وديع تماماً ويبدو لي فضولياً جداً. يلحق بالقارب لمسافة أميال، وأحياناً يتبعك أنت حين تمشي على الشاطئ. ليس هناك أي مبرر وجيه لقتله. جلدها ليس مفيداً للفراء، ولا تسبب أي ضرر سوى أنها تأكل كمية محددة من السمك.

إنها تتكاثر على جزر غير مأهولة على الأغلب. دعونا نأمل أن بعض الجزر تظل غير مأهولة لكي تنجو هذه البهائم التعيسة من الانقراض نهائياً. على كل، نحن لسنا نوع الذباحين الدائمين للحيوانات النادرة الذي كنا عليه من قبل. جنسان من الطيور، الواق وأبو ملعقة، انقرضا منذ سنين كثيرة، ونجحا أن يعودا ثانية ويستوطنا في بريطانيا. وقد شُجعا على أن يتكاثرا في بعض الأماكن. قبل ثلاثين سنة، أي واق يتجرأ أن يظهر منقاره في هذه البلاد سيطلق عليه النار ويُحشى فوراً.

قيل إن لدى الجستابو فرقاً من النقاد الأدبيين، وظيفتهم أن يحددوا بواسطة مقارنة أسلوبية مؤلفي الكراريس مجهولة المصدر. كنت أفكر دائماً أن هذه هي بالضبط الوظيفة التي أحب أن أعمل بها لو أنها كانت من أجل قضية أفضل....

كما أشاء ١٩٤٦

تريبيون ٨ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٦.

أرسل إلي شخص نسخة من مجلة أمريكية عن الموضة، لن أذكر اسمها. تتألف من ٣٢٥ صفحة من القطع الربعي الضخم، خصصت منها أقل من ١٥ صفحة لمقالات عن السياسة والأدب.. إلخ. تتألف البقية بالكامل من صور مع نص صغير يتسلق حول حوافها: صور لثياب حفلات الرقص، ومعاطف من فرو المنك، وسراويل نسائية داخلية قصيرة، وسراويل نسائية وحمالات صدر، وجوارب حريرية، وأخفاف، وعطور، وأحمر شفاه، وطلاء مزين للأظافر- وطبعاً تلبسها أو تستخدمها نساء جميلات بشكل لا يصدق. لا أعرف كم رسماً أو

صورة لنساء ظهرن في كل المجلد، لكن هناك ٤٥ منها جميلة جداً في الخمسين صفحة الأولى ـ ولا يستطيع المرء إحصاءها إلا بشكل تقريبي.

أحد الأشياء اللافتة حين ينظر المرء إلى هذه الصور، هو أسلوب الجمال المستنفد المهجن والمنحط حتى، الذي يبدو أننا نصارع لتحقيقه. كل تلك النسوة تقريباً مطولات بشكل ضخم. أنموذج مصري قديم من الوجوه الهزيلة النحيلة تبدو مهيمنة: أوراك ضيقة عموماً، أياد نحيلة ليست للإمساك مثل أيادي سحلية. من الواضح أنه أنموذج بدني، لأنه يظهر كثيراً في الصور والرسوم أيضاً. شيء آخر لافت هو الأسلوب النثري للإعلانات، وهو خليط غير عادي من وفرة وجيزة وأحياناً مع رطانة فنية معبرة جداً. ترمى كلمات مثل سلوك دمث، مكتمل العادات، تطابق كفافي، قفا قفاز، ثوب نسائي من قطعتين يكشف عن الظهر، اختيال رشيق.. إلخ، بتوقع تام وواضح بأن القارئ سيفهمها من مجرد لمحة.

وميض لون شيمر شين جديد يضع يديه ورأسه في دوامة "مكشوف وناهد بشكل جميل" "ميلكين فليس جلبت جزة خروف خفيفة ريشية لحفظ هرتها دافئة!" "آخرون يرونك عبر ستار من الجمال الصرف، ويتساءلون لماذا!"، "ضبط لطيف للتقوسات في حزام سروال شريطي". "هتاف لثوب يعتمد على قماش سلس في مظهره" "فجأة يرتفع شكلك.... بشكل فاتن برشاقة حزام السروال الداخلي" "النظر إليه فاتن وارتداء هذا الليدي دوف أشد فتنة بأطراف أكمامه المطرزة ووسطه البارز"، "قماش خفيف ولدن ولكن يظهر التقوسات بشكل رائع"، "يقولب نهديك في خطوط أنثوية فاخرة" إلخ إلخ.

بحث كؤود في المجلة، يكشف تلميحين حذرين اثنين للشعر الرمادي، لكن لو أن هناك ذِكراً مباشر للبدانة أو وسط العمر في أي مكان، فأنا لم أجده. ولم تذكر الولادة أو الموت أيضاً: ولا العمل/ باستثناء بضع وصفات طهي لأطباق إفطار. الجنس الذكري يدخل بشكل مباشر أو غير مباشر في إعلان واحد من أصل عشرين، وصور كلاب وهررة تظهر هنا وهناك. في صورتين فقط، من الصور الثلاث مئة تقريباً، تصور طفلاً. على الغلاف الأمامي توجد صورة ملونة للأنثى الرائعة المألوفة تقف على كرسي، بينما رجل أشيب يضع نظارة يبدو محطماً في قميص بأكمام يجثو عند قدميها، يعمل شيئاً عند حافة تنورتها. لو نظر المرء عن قرب لوجد أنه

على وشك أن يأخذ قياساً بمقياس ياردات. لكن لنظرة عرضية، يبدو كما لو أنه يقبل حاشية الثوب -ليست صورة رمزية للحضارة الأمريكية أو على الأقل لجانب هام منها.

أحد النماذج المشوقة عن عنادنا في مواجهة الوقائع وجهوزيتنا للقيام بإيماءات معروف مسبقاً بأنها غير مفيدة، هو الحملة الحالية لمنع الموت على الطرق.

صرحت الصحف أن حالات الموت على الطرق في شهر سبتمبر/ أيلول هبطت إلى ٨٠ حالة تقريباً مقارنة مع سبتمبر/ أيلول الماضي. هذا حسن جداً، لكن هذا التحسن ربما لا يستمر. وفي كل الأحوال لن يكون متدرجاً -وفي الوقت الحالي يعرف كل شخص أنك لا تستطيع حل المشكلة طالما ظل النظام المروري على الحالة التي هو فيها. إن حوادث السير تحدث، لأن المركبات والمشاة يتحركون في كل الاتجاهات وفي كل السرعات، من ثلاثة أميال في الساعة إلى ستين أو سبعين ميلاً على الطرق الضيقة غير الملائمة والمليئة بالزوايا غير الظاهرة والمحاطة بالبيوت السكنية. إن أردت أن تمنع الموت على الطرقات حقاً، فعليك أن تضع خطة جديدة لنظام الطرق كله، بطريقة تجعل التصادمات مستحيلة. فكر بما يعنيه هذا (سوف يشمل مثلاً هدم لندن كلها وإعادة بنائها). ويمكنك أن ترى أن ذلك أكبر من طاقة أية أمة في هذه اللحظة. عدا ذلك، لا تستطيع سوى أخذ إجراءات مخففة في جوهرها، لجعل الناس أكثر حذراً.

لكن الإجراء المخفف الوحيد الذي يشكل فرقاً، هو إنقاص قاس في السرعة. قلِّص السرعة القصوى إلى اثني عشر ميلاً في الساعة في كل المناطق العمرانية، وستقل الغالبية الواسعة من الحوادث. لكن هذا "مستحيل" كما يؤكد لك الكل. لماذا هو مستحيل؟ حسناً، سيكون مضايقاً بشكل لا يحتمل، وسيعني أن كل رحلة سوف تستغرق من الوقت ضعفين أو ثلاثة أضعاف الوقت الذي تستغرقه في الوقت الحالي. بالإضافة إلى أنه لا يمكنك أن تجعل الناس يراعون مثل هذه السرعة القصوى. أي سائق سيقود بسرعة اثني عشر ميلاً في الساعة، وهو يعرف أن محركه يمكنه السير بسرعة خمسين؟ وليس من السهل أيضاً أن تبقي سيارة حديثة في سرعة الاثني عشر ميلاً في الساعة، وتبقي ناقل الحركة على تدريجة عالية -وهلم جرا، كلها تضيف إلى الإعلان أن السفر البطيء لا يطاق بطبيعته.

بعبارة أخرى، نحن نثمّن السرعة أكثر مما نثمّن الحياة الإنسانية. إذاً لماذا نقول هكذا، بدلاً من القيام بواحدة من تلك الحملات المرائية كل بضع سنوات (في الوقت الحالي حملة "امنعوا الموت على الطرقات" -منذ بضع سنوات قليلة، كانت الحملة "تعلم اجتياز الحاجز الذي بجانب الطريق") مع معرفة تامة أنه طالما ظلت طرقاتنا كما هي عليه وحافظنا على السرعة الحالية، فإن المجزرة يجب أن تستمر.

إضاءة جانبية عن تقنين الخبز. جاري في اسكتلندا هذا الصيف هو مزارع صغير انشغل في عمل هائل في إصلاح مزرعة أهملت لسنوات كثيرة من دون أي معين له سوى أخته. ليس لديه سوى حصان واحد، ولا يملك سوى أقدم الآلات البدائية التي لا تشمل الحصادة. خلال هذا الصيف، لم يعمل أقل من أربع عشرة ساعة في اليوم على مدى ستة أيام في الأسبوع. حين بدئ بتوزيع حصص الخبز سجل على حصة إضافية، ليكتشف أنه ليس مؤهلاً لحصة عامل زراعي كاملة! رغم أنه يستحق الحصول على خبز أكثر من العامل الجالس. المبرر؟ في القانون هو ليس عاملاً زراعياً! بما أنه يعمل لنفسه، فهو يصنف كمزارع، ويفترض أنه يأكل خبزاً أقل مما يفعل لو كان يعمل عند شخص آخر مقابل أجر.

التريبيون ١٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٦

في الوقت الذي أتت فيه الغيوم التي أغلبها أكبر وأقذر من يد رجل، وعصفت في الأفق السياسي، برزت حقيقة واحدة تكررت المرة تلو الأخرى، وهي أن أغلب مشاكل الحكومة الحالية والمستقبلية، ناشئة عن فشلها في نشر دعاية عن نفسها بالشكل اللائق والصحيح.

لا يُبلغ الناس بوضوح كاف بماذا يحدث ولماذا وما هو المتوقع أن يحدث في المستقبل، لذلك كانت كل المصائب الكبيرة أو الصغيرة تفاجئ الشعب، وتجلب الحكومة على نفسها عدم الاحترام، بفعل الأشياء التي يفترض أن تفعلها أي حكومة مهما كان لونها في الظروف نفسها.

خذ مسألة واحدة تناولتها الصحافة كثيراً مؤخراً، لكنها لم تقلب بالشكل المناسب: هجرة العمل الأجنبي إلى هذه البلاد. شاهدنا حديثاً احتجاجاً هائلاً في مؤتمر هيئة النقابات العمالية ضد السماح للبولونيين في العمل في مكانين بحاجة ماسة للعمل فيهما- المناجم والأرض.

لن أفعل وأقلل من أهمية هذا على أنه شيء "أثاره" المتعاطفون الشيوعيون، أو تبريره بالقول إن اللاجئين البولونيين كلهم فاشيون "يتبخترون" وهم يرتدون نظارات أحادية العدسة ويحملون حقائب يد جلدية. السؤال: هل سيكون موقف النقابات العمالية البريطانية أكثر ودية، لو لم تكن قضية فاشيين مزعومين، وإنما قضية ضحايا الفاشية المعترف بهم؟

فمثلاً، هناك مئات الآلاف من اليهود الذين لا وطن لهم، يحاولون الآن باستقتال الوصول إلى فلسطين. لا شك أن الكثيرين منهم سينجح أخيراً، لكن سيفشل آخرون. ما رأيكم بدعوة مئة ألف لاجئ يهودي للاستيطان في هذه البلاد؟ أو ماذا عن الأشخاص الذين اقترب عددهم من المليون، والذين طردوا من أماكنهم وشردوا ووضعوا في مخيمات في كل أرجاء ألمانيا بلا مستقبل أو مكان يذهبون إليه؟ لقد رفضت الولايات المتحدة والأراضي الخاضعة للسيادة البريطانية مسبقاً قبولهم بأعداد كبيرة. لماذا لا تحل مشكلتهم بمنحهم الجنسية البريطانية؟

من السهل تصور رد الشخص البريطاني العادي. حتى قبل الحرب وفي أوج أعمال الاضطهاد النازية، لم يكن هناك تأييد شعبي لفكرة السماح بدخول أعداد كبيرة من المهاجرين اليهود إلى هذه البلاد، كما لم يكن هناك تحرك قوي لقبول مئات آلاف الإسبانيين الذين فروا إلى فرنسا وسجنوا خلف أسلاك شائكة فيها.

بخصوص تلك المسألة، كان هناك القليل من الاحتجاج ضد اعتقال اللاجئين البائسين الألمان في عام ١٩٤٠ كانت أكثر التعليقات التي سمعتها في ذلك الوقت "ماذا يريدون من مجيئهم إلى هنا؟" و"إنهم يسعون إلى وظائفنا فقط".

في الحقيقة، إن وجود شعور شعبي قوي في هذه البلاد ضد الهجرة الأجنبية، ناتج عن الرهاب من الأجانب جزئياً، وجزئياً من الخشية من تخفيض في الأجور، لكن قبل كل شيء من الفكرة البالية بأن بريطانيا مأهولة بسكان بأكثر من طاقتها، وأن المزيد منهم يعني المزيد من البطالة.

في الواقع وبعيداً من أن هناك عمالاً أكثر من الوظائف، لدينا نقص عمالي خطير يسببه استمرار التجنيد الإلزامي، وسوف يسوء أكثر، ولن يتحسن بسبب هرم السكان.

لا يزال معدل الولادات في الوقت الراهن منخفضاً بشكل مخيف، ومئات الآلاف الكثيرة من النسوة اللواتي في سن الزواج، ليس لديهن فرصة الحصول على أزواج. لكن إلى أي حد هذه الحقائق معروفة أو مفهومة؟

في النهاية، يُشك إن كنا نستطيع حل مشاكلنا من دون تشجيع الهجرة من أوروبا. حاولت الحكومة مسبقاً بطريقة مترددة، أن تقوم بهذا، ولم تقابل إلا بعدوانية جاهلة، لأن الشعب لم يبلغ بالحقائق المتصلة بالموضوع مسبقاً. وهكذا أيضاً مع الأشياء غير المرغوبة الأخرى التي لا تحصى والتي يجب القيام بها من حين إلى آخر.

لكن الخطوة الأكثر إلحاحاً، ليست تحضير الرأي العام لحالات طارئة خاصة، وإنما رفع مستوى الفهم السياسي العام أولاً، والأهم فهم وقبول الحقيقة التي لم تُدرك بشكل مناسب، بأن الازدهار البريطاني يعتمد كثيراً على عوامل خارج بريطانية.

إن قيام الحكومة بمشروع الدعاية لنفسها وشرح نفسها، ليس سهلاً على حكومة عمالية تواجهها صحافة أغلبها معادية في الصميم. مع ذلك، فهناك طرق اتصال مع الشعب، وربما على السيد اتلي وزملائه أن يولوا اهتماماً أكبر بالراديو الناقل، الذي لم يأخذه على محمل الجد سوى قلة قليلة جداً من السياسيين.

هناك سؤال قد يبدو تافهاً ومثيراً للاشمئزاز من النظرة الأولى، لكنني أحب أن أرى إجابة له. أية طريقة اتبعت في أعمال شنق مجرمي الحرب، التي لا تعد، والتي وقعت في كل أرجاء أوروبا خلال السنوات القليلة الماضية- هل هي الطريقة القديمة في الخنق أم الحديثة أم الطريقة الإنسانية نسبياً التي يفترض فيها كسر عنق الضحية في طقة واحدة؟

قبل مئة سنة أو أكثر، كان الناس يشنقون بسحبهم إلى الأعلى وتركهم يرفسون ويصارعون حتى الموت، وقد يستغرق ذلك ربع ساعة تقريباً. ولاحقا أُدخلت السقطة التي تجعل الموت فورياً نظرياً، لكنها لم تكن تنجح دائماً.

في السنوات الأخيرة، ظهرت نزعة العودة إلى الخنق. لم أرَ الفيلم الإخباري عن شنق مجرمي الحرب الألمان في خاركوف، لكن أظهر تصويره في الصحافة البريطانية أن الطريقة التي استخدمت كانت الطريقة القديمة، وكذلك كان الأمر مع الإعدامات في بلدان البلقان.

كانت تقارير الصحف عن أعمال شنق نوريمبيرغ غامضة، وشاع حديث عن السقطة، لكن شاع أيضاً حديث عن أن الرجال المحكومين استغرقوا من عشرة دقائق إلى عشرين دقيقة حتى ماتوا.

أن يظل الشنق شكلاً مقبولاً لعقوبة الإعدام في هذه البلاد، ليس علامة جيدة. الشنق طريقة بربرية غير فعالة في القتل، وهناك حقيقة واحدة حوله على الأقل -معروفة على نطاق واسع باعتقادي- وهي حقيقة فاحشة جداً وغير قابلة للنشر تقريباً.

لكن حتى وقت قريب، كنا نشعر بقلق حول الموضوع، وكنا ننفذ أعمال الشنق في السر. حقاً كان الإعدام العلني قبل الحرب شيئاً من الماضي في كل البلدان المتحضرة تقريباً، لكن يبدو أنه يعود الآن على الأقل في الجرائم السياسية. نحن لم نطبقه ثانية في بلادنا بعد، لكننا نشارك بدرجة ثانية في مشاهدة الأفلام الإخبارية.

يستغرب المرء حين يعود إلى قبل عشر سنين من الآن، ويرى أن إلغاء عقوبة الإعدام كانت واحدة من الأشياء التي أيدها كل الناس المتنورين كشيء طبيعي مثل إصلاح الطلاق أو استقلال الهند. أما الآن فعلامة التنوير من جانب آخر، ليست في قبول عمليات الإعدام فقط، وإنما في الصراخ عالياً والاحتجاج لأنها ليست كثيرة.

لذلك، يبدو لي من الأهمية أن نعرف إن كان الخنق يعتبر عملاً عادياً. إن تعلم الناس أن يحدقوا برضى وإعجاب ليس بالموت فقط وإنما في شكل مرعب من التعذيب أيضاً، فهذا يشير إلى دورة أخرى في المسار الحلزوني المنحدر الذي سلكناه منذ عام ١٩٣٣.

مطلوب اقتباس.

قال تشيخوف على لسان إحدى قصصه التي نسيت اسمها معلقاً: "كما يقول شكسبير (سعيد من يكون صغيراً في شبابه)". لم أستطع أن أجد هذا البيت الشعري أبداً، ولا يبدو عليه أنه من شعر شكسبير. ربما ترجمه المترجم من اللغة الروسية من دون أن يرجع إلى الأصل. هل يستطيع أحدكم أن يخبرني أين ورد هذا الاقتباس؟

٢٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٦

في النقاشات الراهنة للجنة الملكية التي ستحقق في الصحف، يتركز الحديث دائماً عن التأثير المهين الذي يمارسه الملاكون والمعلنون. لم يقل مراراً إن الأمة تحصل على الصحف التي تستحقها، وباعتراف الجميع أن هذا ليس الحقيقة كلها. حين يكون الجزء الأكبر من الصحافة مملوكاً من قبل حفنة من الناس، لا تبقى هناك خيارات كثيرة أمام المرء. وحقيقة أن الجرائد

خلال الحرب أصبحت أكثر ذكاء مؤقتاً من دون أن تخسر توزيعها، توحي أن الذوق الشعبي ليس بالسوء الذي يبدو عليه. كما أن صحفنا ليست بنفس المستوى، بعضها أذكى من الآخر وبعضها أكثر شعبية من بعضها الآخر، وحين تدرس العلاقة بين الذكاء والشعبية، فماذا تجد؟

في الأسفل وضعت صحفنا الوطنية اليومية التسعة الهامة في عمودين. في العمود الأول رتبتُ الصحف حسب الذكاء بناء على مقدرتي على الحكم: في العمود الآخر رتبتُ الصحف حسب الشعبية التي تقاس بكمية التوزيع. أنا لا أقصد بالذكاء حسب آرائي الخاصة. أنا أقصد الاستعداد لتقديم الخبر بشكل موضوعي وإعطاء الشهرة للأشياء المهمة فعلياً، ومناقشة القضايا الجدية حتى حين تكون غامضة ومملة، وتأييد السياسات المتماسكة والمفهومة والواضحة. بالنسبة إلى التوزيع، ربما أخطأت في تحديد مكان جريدة أو اثنتين، باعتباري لا أملك إحصائيات وأرقاماً حديثة، لكن قائمتي الأولى لن تكون بعيدة جداً.

الذكاء: ١- مانشستر غارديان. ٢- التايمز. ٣- التلغراف. ٤- نيوز كرونيكلز. ٥- الهيرالد. ٦- الميل. ٧- الميرور. ٨- الإكسبريس. ٩- الغرافيك.

الشعبية: ١- الإكسبريس. ٢- الهيرالد. ٣- الميرور. ٤- نيوز كرونيكلز. ٥- الميل. ٦- الغرافيكز. ٧- التلغراف. ٨- التايمز. ٩- مانشستر غارديان.

سيتبين أن القائمة الثانية تقريباً وليس تماماً، هي القائمة الأولى مقلوبة رأساً على عقب، لأن الحياة ليست بهذه الأناقة. وحتى لو لم أرتب هذه القائمة في الترتيب الصحيح تماماً، فستظل العلاقة صحيحة. الصحيفة التي تتمتع بأفضل سمعة في الصدق المانشستر غارديان، وهي الصحيفة التي لا تُقرأ حتى من قبل هؤلاء الذين تعجبهم. يتذمر الناس أنها "بليدة جداً". من جانب آخر، فإن عدداً لا يحصى من الناس يقرؤون الديلي -بينما يقولون صراحة إنهم "لا يصدقون كلمة واحدة منها".

في هذه الظروف، من الصعب أن تتنبأ بتغيير جذري حتى لو أزيح النوع الخاص من الضغط الذي يمارسه الملاكون والمعلنون. الذي يهم هو أنه في إنكلترا نحن نمتلك حرية قضائية من الصحافة التي تمكن المرء من التعبير عن آرائه الحقيقية بلا خوف في الصحف ذات التوزيع القليل نسبياً. من المهم والحيوي أن نحافظ ونتمسك بذلك. لكن اللجنة الملكية، تستطيع أن تجعل التوزيع الكبير للصحف أفضل مما هو عليه بكثير مهما تلاعبت بوسائل

التحكم والضبط. سنمتلك صحافة صادقة شعبية جادة خين يطالب بها الرأي العام بشكل فعال. حتى ذلك الحين، إن لم تشوه الأنباء بواسطة رجال الأعمال، فسوف تشوه من قبل البيروقراطيين الذين هم أفضل بدرجة واحدة فقط.

جحيم مناجم الذهب والمبارزات والسكر والقمار: يكتشف المرء فيها ثقة كامنة في المستقبل وإحساس بالحرية والفرص. كانت أمريكا القرن التاسع عشر بلاداً غنية وفارغة، تقع خارج التيار الرئيسي للأحداث العالمية، ولم يتكون فيها بعد كل من الكابوسين المزعجين لكل رجل معاصر: كابوس البطالة وكابوس تدخل الدولة. كانت هناك فروق اجتماعية واضحة أكثر مما هو موجود في هذه الأيام وفقر (في نساء صغيرات، كانت العائلة في إحدى المرات بحاجة إلى المال لدرجة أن إحدى الفتيات باعت شعرها للحلاق) لكن لم يكن هناك كما اليوم شعور مسيطر تماماً بالعجز. كان هناك متسع للجميع، وإن اشتغلت يمكن التأكد من أنك ستعيش وتصبح غنياً أيضاً: هذا ما كان يؤمن به الجميع، وما يعتبره القسم الأعظم من السكان على أنه صحيح وحقيقي. بعبارة أخري كانت حضارة أمريكا القرن التاسع عشر حضارة رأسمالية في أفضل أشكالها، لكن بعد الحرب الأهلية بقليل بدأ التدهور المحتوم. ورغم ذلك ظلت الحياة في أمريكا لعدة عقود أفضل بكثير من الحياة في أوروبا، فهناك أحداث وتلون وتنوع وفرص أكثر -وتجد في كتب وأغاني تلك الفترة نوعاً من الانفتاح والطبيعة البسيطة. لهذا أعتقد أن شعبية أطفال هيلين وغيرها من الأدب الخفيف، مكن الطفل الإنكليزي منذ ثلاثين أو أربعين سنة أن يكبر بمعرفة نظرية بالراكون والسناجب وسناجب صيدناني الأمريكية المخططة والغوفر والفئران الجبلية وأشجار جوز الهند والبطيخ وشظايا أخرى من المشهد الأمريكي.

٢٩ نوفمبر/ تشرين ثاني ١٩٤٦.

هذا تحليل للصفحة الأولى من جريدتي الصباحية في يوم عادي غير حافل بالأحداث من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩٤٦.

يذهب العنوان الكبير إلى اجتماع للأمم المتحدة، يقدم فيه الاتحاد السوفييتي مطالبه من أجل استعلام عن قوة القوات الأنغلوأمريكية في البلدان المعادية سابقاً والمتحالفة. من الواضح أن هذا سيتبعه طلب لتفتيش القوات داخل الاتحاد السوفييتي، ومن السهل التنبؤ أن

النقاش الناتج لن يؤدي إلى أي شيء، سوى اتهامات مضادة وهيبة نصر لهذا الطرف أو ذاك من دون إحراز أي تقدم، ولا حتى محاولة لأي تقدم نحو الاتفاق الدولي الصحيح والحقيقي.

القتال في اليونان يزداد خطورة. المعارضة الدستورية تتأرجح أكثر فأكثر نحو دعم المتمردين، بينما الحكومة لاتزال تزعم أن المتمردين المزعومين في الحقيقة عبارة عن عصابات تقوى بعمليات عسكرية من عبر الحدود.

هناك تأجيل آخر في دعوة الجمعية التأسيسية الهندية (هذا العمود له حاشية: حمام دم في الهند: الصفحة الثانية)، السيد غاندي جوّع نفسه ووصل إلى حالة مسببة للقلق.

إضراب الفحم الأمريكي يستمر، ومن المحتمل أن يكون له نتائج كارثية على مخزون القمح العالمي. بسبب إضرابات حديثة أخرى، ألغت الولايات المتحدة تسليم مليوني طن من الفولاذ إلى بريطانيا، مما سيعقد مشكلة الإسكان في بريطانيا أكثر. هناك أيضاً تباطؤ غير رسمي في الحركة على سكة الحديد الكبرى الغربية.

انفجار قنبلة أخرى في القدس مع عدد من القتلى والمصابين. وهناك أيضاً أخبار عن كوارث ثانوية لا مفر منها، كتحطم طائرة واحتمال حدوث فيضانات في كل أرجاء إنكلترا، وتصادم سفن في ميرسي، مع خسارة ظاهرة لمئة رأس من الماشية، التي أعتقد أنها توفر حصة أسبوعية من اللحم لـ ٤٠ ألف شخص تقريباً.

ليس هناك أخبار جيدة بلا ريب إطلاقاً على الصفحة الأولى. هناك مواد كارتفاع في الصادرات البريطانية خلال شهر أكتوبر/ تشرين أول، الذي يبدو جيداً لكنه قد ينقلب إلى سيئ لو كان للمرء معرفة كافية لتفسيره. هناك أيضاً تصريح بسيط عن القوى المحتلة في ألمانيا "ربما" تصل إلى اتفاق أفضل قريباً. لكن هذا ليس أكثر من تعبير عن أمنية ورعة غير مدعومة بدليل.

أنا أكرر أن هذه الصفحة المليئة بالكوارث، هي مجرد سجل يومي حين لا يحدث الكثير: وبالمصادفة يظهر في جريدة تحاول أن تجمل الأشياء.

حين يتأمل المرء كيف جرت الأمور منذ عام ١٩٣٠ ليس من السهل عليه الإيمان في بقاء الحضارة ونجاتها. أنا لا أقصد من هذا أن الشيء الوحيد الذي يجب أن نفعله، هو أن نتوسل السياسة العملية، وأن ننكفئ إلى مكان ناء، ونركز على الخلاص الفردي أو على بناء مجتمعات

مكتفية ذاتياً ضد اليوم الذي تفعل فيه القنبلة الذرية فعلها. أرى أن المرء يجب أن يتابع الصراع السياسي، كما يجب على الطبيب إنقاذ حياة مريض سيموت على الأرجح. لكنني أقترح أننا لن نصل إلى أي مكان إن لم ندرك أن السلوك السياسي غير منطقي أساساً، وأن العالم يعاني من نوع من مرض عقلي يجب أن يشخص قبل معالجته. النقطة المهمة أن كل المصائب تقريباً التي تحدث لنا غير ضرورية أبداً. إن المسلم به بشكل عام ومشترك، هو أن الكائنات البشرية تريد أن تكون مرتاحة. حسناً، الآن في مقدورنا أن نكون مرتاحين كما لم يكن أسلافنا. قد ترد الطبيعة بزلزال أو إعصار، لكنها هزمت بشكل كبير. وفي اللحظة التي توجد فيه وفرة من كل شيء لكل واحد، يجب أن تستهلك كل طاقتنا في محاولة اغتصاب أراضٍ غنية وأسواق ومواد خام من بعضنا البعض. وفي اللحظة التي يمكن فيها توزيع الثروة عموماً لدرجة لا تحتاج أي حكومة أن تخشى من معارضة خطيرة، يعلن أن الحرية السياسية يجب أن تكون مستحيلة ونصف العالم يصبح محكوماً من قبل قوات الشرطة السرية. تماماً في اللحظة التي تنهار فيها الخرافة وتصبح النظرة المنطقية نحو الكون عملية، يحرم ويرفض حق المرء في التفكير بأفكاره الخاصة كما لم يحدث من قبل قط. الواقع أن الكائنات البشرية تبدأ بمقاتلة بعضها البعض جدياً حين لم يعد هناك ما تتقاتل من أجله.

ليس من السهل إيجاد تفسير اقتصادي مباشر لسلوك الناس الذين يحكمون العالم الآن. تبدو الرغبة الصرفة في السلطة مهيمنة أكثر بكثير من الرغبة في الثروة. لقد تمت الإشارة إلى هذا كثيراً، لكن الغريب جداً يبدو أن الرغبة في السلطة اعتبرت من المسلمات البديهية كغريزة طبيعية وسائدة في كل العصور مثل الرغبة في الطعام. في الواقع إنها لم تعد طبيعية، بمعنى كونها ضرورة بيولوجية أكثر من السكر أو القمار. ووصلت إلى مستويات جديدة من الجنون في عصرنا في رأيي ليصبح السؤال: ما هي الصفة الخاصة في حياتنا الحديثة التي تجعل الحافز الإنساني الرئيسي هو دافع التنمر على الآخرين؟ إن استطعنا الإجابة على هذا السؤال الذي نادراً ما طرح أو تويع- ربما يكون هناك أخبار جيدة على الصفحة الأولى من جريدتكم الصباحية بين الحين والآخر.

على كل، من الممكن دائماً رغم المظاهر أن العصر الذي نعيش فيه ليس أسوأ من العصور الأخرى التي سبقته، وربما لا يختلف كثيراً حتى. على الأقل هذه الإمكانية تخطر لي عندما أفكر في مثل هندي ترجمه لي أحد أصدقائي:

في أبريل/ نيسان ولد ابن آوى،/ في يونيو/ حزيران امتلأت الأنهار التي تتغذى على المطر وانتفخت:/ قال "لم أشاهد أبداً في كل حياتي/ مثل هذا الفيضان العظيم/ .

أعتقد أن النقص في الساعات الجدارية واليدوية، ليس ذنب أحد. لكن هل من الضروري أن نترك أسعارها ترتفع بشكل حاد كما حدث في السنة أو السنتين الماضيتين؟

في وقت مبكر من هذا العام، رأيت ساعة يد عسكرية سابقاً معروضة في خزانة عرض بسعر قليل أقل من ٤ جنيهات للواحدة. بعد أسبوع أو اثنين من ذلك نجحت في شراء واحدة منها بـ ٥ جنيهات. مؤخراً يبدو أن السعر ارتفع إلى ٨ جنيهات. قبل سنة أو سنتين، كانت ساعة المنبه التي كان لا يمكن شراؤها من دون رخصة، تباع بـ ١٦ شلناً. هذا كان السعر المنظم وأعتقد أنه لا يمثل الخسارة الفعلية لصاحب المصنع. في اليوم قبل السابق رأيت ساعات مماثلة تماماً بـ ٤٥ شلناً -قفزة ١٨٠٪. هل يمكن التخيل أن سعر التكلفة ازداد بالمثل؟

عرضياً، بـ ٤٥ شلناً تستطيع إن كنت على الهاتف، أن ترتب مع عامل المقسم أن يهاتفك كل صباح لمدة ١٨ شهراً تقريباً، وهي مدة أطول من حياة ساعة المنبه الوسطية.

تحت عنوان "عودة اليهود إلى فلسطين"، سجل صامويل بتلر في دفتر ملاحظاته:

زارني رجل الأسبوع الماضي، واقترح بشكل جدي أنه يجب أن أكتب كتاباً عن فكرة خطرت لأحد أصدقائه اليهود الذي يعيش في نيو بوند ستريت.......... لو أنني أساعد فقط لأصبحت عودة اليهود إلى فلسطين مؤكدة وسهلة. لم يكن هناك أي قلق حول اليهود المساكين، وهو يعرف كيف يستردهم في أي وقت، ولكن الصعوبة تكمن مع آل روتشيلد وآل أوبينهايم وأمثالهم، ومع مساعدتي يمكن إنجاز الأمر. أخشى أنني كنت فظاً جداً أن أنحط لأدخل في المخطط الذي على الأرض، والذي لم أهتم به بتاتاً إن عاد آل روتشيلد وآل أوبنهايم إلى فلسطين أو لم يعودوا. كان هذا عقبة، ثم حاول بعد ذلك أن يجعلني أهتم، وفي تلك النقطة تخلصت منه طبعاً.

كتب هذا في عام ١٨٨٣. ومن كان يتنبأ أنه بعد ستين سنة تقريباً سيحاول كل يهود أوروبا تقريباً العودة إلى فلسطين من تلقاء أنفسهم، بينما يحاول كل واحد آخر تقريباً منعهم؟

التريبيون ٦ ديسمبر/ كانون أول ١٩٤٦.

باستمتاع عظيم قرأت للمرة الثانية تريلباي رواية جورج دو مورييه المحبوبة عن حق، وهي واحدة من أفضل نماذج الأدب "جيد الرديء" الذي ضيعت الشعوب الناطقة بالإنكليزية إنتاجه. تريلباي محاكاة لثاكري، وهي محاكاة جيدة جداً ومقروءة بشكل ممتاز- اعتبرها برنارد شو -إن كنت أتذكر على نحو صحيح- أفضل من ثاكري بطرق كثيرة- لكن بالنسبة إلي أن الشيء الأكثر متعة فيها هي الانطباعات المختلفة التي يستنتجها المرء من قراءتها أولاً قبل سيرة هتلر ثم بعدها.

الشيء الذي يصدم المرء في العين في قراءة تريلباي هو معاداته للسامية. أعتقد أن عدداً قليلاً جداً من الناس يقرؤون الكتاب الآن، إلا أن قصته المركزية معروفة على نطاق واسع، فقد أصبح اسم سفنغالي أنموذجاً جيداً وكلمة متداولة مثل شارلوك هولمز. سفنغالي موسيقي يهودي -ليس مؤلفاً موسيقياً وإنما عازف بيانو لامع ومدرس موسيقى تدخل ضمن تأثيره فتاة ايرلندية يتيمة، أنموذج للرسم، لها صوت رائع لكنها لا تميز النغمات. بعد تنويمها مغناطيسياً في أحد الأيام لمعالجتها من هجمة ألم عصبي، يكتشف أن تعليمها الغناء بشكل متناغم وسليم، ممكن حين تكون منومة.

بعد ذلك، يمضيان عامين تقريباً في السفر من عاصمة أوروبية إلى أخرى. تغني الفتاة كل ليلة لعدد ضخم ومنتشٍ من الجمهور من دون أن تعرف أبداً في حياتها وهي مستيقظة أنها مغنية. تأتي النهاية حين يموت سفنغالي فجأة في وسط الحفلة الموسيقية، فتنهار تريلباي وتتعالى صيحات الاستهجان من الجمهور المستاء من العرض. تلك هي القصة الرئيسية، لكن هناك شيئاً أكثر من هذا طبعاً، يشمل علاقة حب حزينة وثلاثة رسامين إنكليز محتشمين شكلوا نقيضاً لخسة سفنغالي.

ليس هناك من شك بأن الكتاب معادٍ للسامية. بالإضافة إلى حقيقة أن غرور سفنغالي وغدره وأنانيته وقذارته الشخصية وهلم جرا مرتبط دائماً بحقيقة كونه يهودياً. هناك صور

توضيحية أيضاً، فدوموريه المعروف برسومه في البنتش أكثر من كتاباته، زيّن كتابه بها، جعل من سفنغالي كاريكاتيراً شريراً للأنموذج التقليدي، لكن الأكثر تشويقاً هو انحراف معاداة السامية في ذلك الوقت-١٨٩٥ فترة قضية دريفوس- واختلافها عن حالها في وقتنا الحاضر.

أولاً: يرى دوموريه بوضوح وجود نوعين من اليهود: اليهود الطيبون واليهود السيئون، وهناك اختلاف عرقي بينهم. هنا يدخل باقتضاب يهودي آخر في القصة، غلوريولي، الذي يمتلك كل الفضائل والصفات الجيدة التي يفتقر إليها سفنغالي. غلوريولي "واحد من السفارديم" -من أصل إسباني، بينما سفنغالي المنحدر من بولندا الألمانية يهودي عبري إسرائيلي شرقي. ثانياً: يعتقد دوموريه أن الحصول على دفقة من الدم اليهودي ميزة. نعرف أن البطل بيلي الصغير ربما لديه بعض من دم يهودي، فهناك مسحة منه في ملامحه، و"لحسن حظ العالم وحظنا خصوصاً أن أكثرنا لديهم في أوردتهم الحد الأدنى على الأقل من ذلك السائل الثمين". من الواضح أن هذا ليس الشكل النازي من عداء السامية.

ومع ذلك، فإن نبرة الإشارات إلى سفنغالي ازدرائية بصورة غير مقصودة تقريباً. وحقيقة أن دوموريه اختار يهودياً للعب هذا الدور، شيء له مغزاه. إن سفنغالي الذي لا يستطيع أن يغني ويفعل ذلك بواسطة رئتي تريلباي، يمثل ذلك الأنموذج المشهور، المرؤوس الذكي الذي يقوم بدور المخطط والعقل لشخص بارز.

الغريب هو كيف اعترف دو موريه بإرادته أن سفنغالي موهوباً أكثر من الإنكليزيين الثلاثة، وحتى من بيلي الصغير الذي صُور بشكل غير مقنع كفنان لامع. سفنغالي لديه "نبوغ"، بينما لدى الآخرين "شخصية"، و"الشخصية" هي المهم. إنه موقف الطالب المناوب (المتقدم) لاعب الركبي نحو "التلميذ المستجد" ذي النظارة. وربما كان هذا هو الموقف العادي نحو اليهود في ذلك الوقت. هم كانوا أدنى منزلة بشكل طبيعي، لكنهم كانوا أكثر ذكاء وحساسية وولعاً بالفن منا طبعاً، لأن هذه الصفات ذات أهمية ثانوية. في الوقت الحاضر إن الإنكليز أقل ثقة بأنفسهم وأقل ثقة بأن الغباء يفوز في النهاية، وأن الشكل السائد من عداء السامية تبدل نحو الأفضل، لكن ليس كله.

في عدد التريبيون في الأسبوع الماضي، لاحظ السيد جوليان سايمونز -عن حق كما أعتقد- أن روايات ألدوس هكسلي الأخيرة أدنى منزلة بكثير من رواياته الأولى، لكن كان عليه أن يضيف أن هذا النوع من الانحدار عادي في الكتاب التخيليين، وأنه يمر من دون أن يُلاحظ حين يكون الكاتب محمولاً بزخم كتبه الأولى. فمثلاً نحن نثمّن إتش جي ويلز ونقدّره عالياً من أجل تونو - بونغاي والسيد بولي وآلة الزمن إلخ. ولو توقف عن الكتابة في عام ١٩٢٠ لظلت سمعته عالية: لو عرفناه فقط من الكتب التي كتبها بعد ذلك التاريخ، لكان رأينا فيه أدنى. إن الروائي ليس أكثر من ملاكم أو راقص باليه لا يدوم إلى الأبد. لديه باعث أولي مناسب لثلاثة أو أربعة كتب، وربما حتى دزينة، ثم يستنزف ذاته عاجلاً أو آجلاً. من الواضح أن المرء لا يستطيع أن يضع أي قانون صارم، لكن في حالات كثيرة يدوم الباعث الإبداعي لخمسة عشر عاماً تقريباً: عند كتاب النثر هذه السنوات الخمس عشرة تكون ربما بين الـ ٣٠ والـ ٤٥ تقريباً. صحيح أن لدى قلة من الكتاب حياة إصدار أطول بكثير، واستطاعوا الاستمرار في التطور وهم في وسط العمر أو أكبر حتى، لكن هؤلاء عادة (مثل: ييتس وإليوت وهاري وتولستوي) كانوا يقومون بتغيير مفاجئ وعنيف في أسلوبهم أو موضوعهم الرئيسي أو كليهما، وربما يميلون إلى رفض أعمالهم السابقة حتى.

كتّاب كثيرون وربما أغلبهم يجب عليهم أن يتوقفوا عن الكتابة حين يصلون إلى منتصف العمر، لكن مجتمعنا لسوء الحظ لا يدعهم يتوقفون. أغلبهم لا يعرف طريقة أخرى لكسب رزقهم، كما أن الكتابة وكل ما تحمله من صراع وتنافس وتملق وشعور المرء بأنه شبه شخصية عامة، عبارة عن عادة إدمانية. في العالم العاقل، فإن الكاتب بعد أن يقول قوله يشتغل في مهنة أخرى، لكنه في المجتمع التنافسي يشعر كالسياسي بأن التقاعد هو الموت، لهذا يستمر طويلاً بعد أن ينفد باعثه. وكقاعدة كلما قل وعيه بأنه يقلد نفسه، كلما زادت الفظاظة التي يفعل بها ذلك.

في وقت مبكر من هذا العام، قابلتُ ناشراً أمريكياً أخبرني أن شركته تعرضت لدعوى قضائية لتسعة أشهر، وخرجت منها منتصرة جزئياً، لكنها خسرت مالاً لأنها اتهمت بطباعة كلمة من أربعة أحرف نستخدمها كل يوم في اسم المفعول عموماً.

الولايات المتحدة متقدمة عادة عن بريطانيا ببضع سنوات في هذه المسائل، إذ يمكنك طبع كلمة "ق-" بأكملها في الكتب الأمريكية في الوقت الذي يجب أن تظهر فيه في الكتب الإنكليزية على شكل "ق-". حديثاً أصبح ممكناً في إنكلترا طبع الكلمة بأكملها في الكتب، لكن الدوريات لا تزال تستخدم القاف والشارطة. منذ خمس أو ست سنوات طبعت الكلمة في مجلة شهرية مشهورة، لكن الذعر كان عظيماً، لذلك كان على هيئة التحرير القلقة أن تطمس الكلمة يدوياً.

بالنسبة إلى الكلمة الأخرى، كلمة الأحرف الأربع، لا تزال غير قابلة للطبع في الدوريات في هذه البلاد، لكن في الكتب يمكن أن تمثل بالحرف الأول والشارطة. في الولايات المتحدة تم الوصول إلى هذه النقطة منذ عشر سنوات. في السنة الماضية جربت طباعة الكلمة المقصودة كلها، فحظر على الكتاب، وبعد تسعة أشهر من التقاضي رفع الحظر السنة الماضية. لكن العملية أنجزت خطوة مهمة إلى الأمام، إذ صدر قانون يسمح بطباعة الحرف الأول والحرف الأخير من الكلمة بين نجمتين، مشيراً بوضوح إلى أنها من أربعة حروف. هذا يؤكد بشكل منطقي أن الكلمة كاملة ستطبع في غضون بضع سنوات.

وهكذا يستمر التقدم -وهو تقدم حقيقي برأيي، لأنه لو استطاعت كلماتنا "السيئة" التي لا تزيد عن نصف دزينة أن تنزل من جدار المرحاض على الصفحة المطبوعة، لفقدت صفتها السحرية، وأضحت عادة السب المهينة لأفكارك والمضعفة للغتك أقل شيوعاً.

التريبيون - ١٣ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٦

حين يقرأ المرء تقارير مؤتمرات منظمة الأمم المتحدة أو المفاوضات الدولية من أي نوع، فمن الصعب ألا يذكره هذا بـ "لا أتاك" وألعاب حربية مماثلة أخرى اعتاد الأطفال على لعبها بقطع من الورق المقوى، تمثل بوارج وطائرات وهلم جرا، كل واحدة منها لها قيمة ثابتة، ويمكن أن تجابه بطريقة ما معروفة. في الواقع، قد يخترع المرء لعبة جديدة تسمى أونو (الأحرف الأولى من منظمة الأمم المتحدة باللغة الإنكليزية -المترجم) لتلعب في البيوت المتنورة التي لا يريد الوالدان فيها لأطفالهما أن يتربوا على وجهة نظرة عسكرية.

تسمى القطع في هذه اللعبة: العرض والزحف والصيغة والكتلة المعثرة والمأزق والورطة وعنق الزجاجة والدائرة الشريرة. هدف اللعبة أن تصل إلى صيغة. ورغم تنوع التفاصيل، فإن

الشكل العام للعبة نفسه دائماً. أولاً يتجمع اللاعبون، فيستهل أحدهم اللعبة بالعرض، فيرد عليه آخر بالكتلة المعثرة التي من دونها لا تتطور اللعبة. تتحول الكتلة المعثرة عندها إلى عنق زجاجة أو على الأغلب إلى ورطة أو دائرة شر. إن حدثت ورطة واحدة مع دائرة شر واحدة في الوقت نفسه، ينتج عنهما مأزق قد يستمر لأسابيع. عندها أحد ما يلعب الزحف. الزحف يمكن من إنتاج صيغة، وبإيجاد الصيغة يمكن للاعبين الذهاب إلى بيوتهم تاركين كل شيء كما كان في البداية.

في لحظة الكتابة، تغطت الصفحة الأولى من جريدتي الصباحية بطفح قرنفلي من التفاؤل. بدا أن كل شيء سيكون على ما يرام أخيراً. سيوافق الروس على تفتيش الأسلحة، وسيدول الأمريكيون القنبلة الذرية. في صفحة أخرى من نفس الجريدة، هناك تقارير عن الأحداث في اليونان التي ارتفعت إلى حالة حرب بين مجموعتي القوى اللتين كانتا حميمتين جداً في نيويورك.

لكن بينما تستمر لعبة الورطات وأعناق الزجاجات، تُقام لعبة أخرى أكثر خطورة أيضاً تحكمها بديهتان اثنتان. الأولى ليس هناك سلام من دون تنازل عام عن السيادة: الأخرى ليس هناك بلاد تستطيع الدفاع عن سيادتها إن تنازلت عنها أبداً. إن ظل المرء يتذكر هاتين البديهتين، يستطيع عموماً رؤية الوقائع المتعلقة بالموضوع في الشؤون الدولية عبر الستارة الدخانية التي تغلفها بها الصحف. الآن الوقائع الرئيسية:

١- مهما يقول الروس، فإنهم لن يوافقوا على تفتيش حقيقي لأراضيهم من قبل مراقبين أجانب.

٢- مهما يقول الأمريكيون، فإنهم لن يفوتوا الطليعة التكنولوجية في التسلح.

٣- لا توجد هناك الآن بلاد في حالة تسمح لها بخوض حرب رئيسية شاملة.

هذه هي الأضداد الحقيقية في اللعبة في الوقت الحاضر، رغم أنها قد تُبطل لاحقاً، ويقترب المرء من الحقيقة أكثر بتذكرها بشكل ثابت، بدلاً من الابتهاج واليأس من الدجل اليومي للمؤتمرات.

التريبيون - ٢٠ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٦

هناك إعلان في صحيفة الأحد التي أقرأها، قد حدد بشكل صورة الأشياء الأربعة المطلوبة من أجل عيد ميلاد ناجح. في أعلى الصورة ديك رومي مشوي وفي أسفله حلويات عيد الميلاد، وتحتها طبق من الفطائر المقطعة، وتحت ذلك صفيحة من ليفر سولت (نوع من المسهل).

هي وصفة بسيطة للسعادة. أولاً وجبة الطعام ثم الترياق ثم وجبة أخرى. كان الرومان القدماء سادة كبار في هذه التقنية. على كل حال، بعد أن فتشت عن كلمة فوميتوريوم في معجم لاتيني، وجدت أخيراً أنها لا تعني المكان الذي تذهب إليه لتتخم وتصاب بالغثيان بعد وجبة طعام رئيسية. لذلك ربما هذه ليست صفة مميزة في كل بيت روماني كما يعتقد على نحو شائع.

يتضمن الإعلان المذكور آنفاً فكرة أن وجبة الطعام الجيدة تعني وجبة تتخم نفسك فيها. من حيث المبدأ أنا أوافق. أنا أضيف فقط بين هلالين: حين نتخم أنفسنا في عيد الميلاد هذا إن توفرت لنا الفرصة لنتخم أنفسنا، يجدر بنا أن نفكر بآلاف ملايين البشر الذين لن يكون بمقدورهم فعل الشيء عينه. إن عشاءات عيد ميلادنا ستكون أكثر أماناً على المدى البعيد إن استطعنا التأكد من أن كل شخص لديه عشاء ميلاده أيضاً. سأعود إلى ذلك في الحال.

إن الحافز المعقول الوحيد لعدم الإفراط في الطعام حتى التخمة في عيد الميلاد، هو الشعور بوجود شخص آخر يحتاج إلى الطعام أكثر منك. عيد ميلاد متقشف بشكل متعمد سيكون منافياً للعقل. المغزى التام لعيد الميلاد هو الانغماس في الملذات- عيد ربما ثبت تاريخه بشكل اعتباطي قبل ولادة المسيح بوقت طويل- الأطفال يعرفون هذا جيداً، فعيد الميلاد من وجهة نظرهم يوم من الاستمتاع المعتدل، لكنه بملذات قوية وهم مستعدون لدفع ثمنها بمقدار معين من الألم. الاستيقاظ في الساعة الرابعة صباحاً لتفتيش الجوارب، والشجارات على الدمى منذ الصباح، وهبات الروائح المثيرة للحم المفروم والبصل التي تنبعث من باب المطبخ، والمعركة مع الصحون الكبيرة الممتلئة بالديك الرومي، وانتزاع عظم الترقوة، وتعتيم النوافذ، ودخول حلوى البرقوق المتوهجة، والسرعة للتأكد أن كل واحد لديه قطعة على طبقه، والبراندي المضطرم، والذعر الخاطف حين يشاع أن بيبي ابتلع قطعة الثلاث بنسات، والخدر طيلة فترة ما بعد الظهر، وكعكة عيد الميلاد باللوز والحلوى السميكة، والتبرم في الصباح التالي، وزيت الخروع في السابع والعشرين من ديسمبر/ كانون الأول- إنها مسألة متغيرة، وهي بالتأكيد ليست مسرة بكل معنى الكلمة، لكنها جديرة بلحظاتها المثيرة جداً.

يصدم اللاكحوليون والنباتيون دائماً من هذا الموقف، فهم يرون أن الهدف المنطقي الوحيد هو تجنب الألم والبقاء حياً لأطول فترة ممكنة. إذا امتنعت عن شرب الكحول أو أكل اللحم أو أي كان، فمن المتوقع أن تعيش خمس سنوات إضافية، أما إذا أتخمت نفسك بالطعام والشراب،

فستدفع ثمن ذلك في ألم بدني حاد في اليوم التالي. هل من المؤكد أن ذلك يؤدي إلى القول بأن كل إفراط حتى لو حدث مرة واحدة في السنة كعيد الميلاد، يجب تفاديه كأمر بديهي؟

في الواقع ليس الأمر كذلك. قد يقرر المرء بمعرفة تامة لما يفعل. إن قضاء وقت جيد عرضياً يستحق الضرر الذي يحدثه على الكبد، لأن الصحة ليست الشيء الوحيد المهم، فهناك الصداقة وكرم الضيافة والكحول القوي وتغيير طريقة النظر إلى الأشياء التي يحصل عليها المرء بواسطة الأكل والشرب مع صحبة طيبة نافعة أيضاً. أشك إن كان حتى السكر التام يضر، بشرط أن يكون نادراً-لنقل مرتين في السنة. إن التجربة تشمل التوبة فيما بعد، وتحدث نوعاً من الراحة القصيرة من الروتين العقلي مثل عطلة نهاية الأسبوع في بلاد أجنبية، ربما تكون مفيدة.

في كل العصور، أدرك الرجال هذا، ويوجد إجماع واسع في الرأي يمتد إلى الماضي إلى أيام ما قبل الأبجدية، بأن الإفراط في الشراب والطعام عادة سيئة، بينما تناول الطعام والشراب والولائم والابتهاج عادة جيدة، حتى ولو شعر المرء أحياناً بالأسف على ذلك في الصباح التالي. ما أكثر الأدب الذي كتب عن الأكل والشرب وخصوصاً الشرب، وما أقل ذلك الأدب الجدير الذي قيل عن الجانب الآخرا مرتجلاً لا أستطيع تذكر قصيدة واحدة كتبت في مديح الماء أي باعتبار الماء شراباً. من الصعب تخيل ما يمكن أن يقوله المرء عنه. إنه يطفئ العطش: هذه نهاية القصة. أما بالنسبة إلى القصائد في مدح الخمر من الجانب الآخر، حتى التي نجت منها، فإنها تملأ رفاً من الكتب. بدأ الشعراء بالتوافد منذ اليوم الذي اكتشف فيه تخمير العنب لأول مرة. الويسكي والبراندي والمسكرات المقطرة الأخرى مُدحت ببلاغة أقل جزئياً، لأنها أتت بعده زمنياً. لكن البيرة نالت قدراً جيداً من الطباعة بدءاً من العصور الوسطى، قبل أن يتعلم أحد وضع حشيشة الدينار فيها. الغريب جداً أنني لا أستطيع تذكر قصيدة واحدة في مديح البيرة القوية الداكنة أو البيرة السوداء القوية التي هي أفضل من التنويعة المعبأة في زجاجات برأيي. يوجد وصف مقزز جداً في يوليسيس لرواقيد الجعة القوية الداكنة في دبلن، لكن هناك نوعاً من الإجلال غير المباشر للبيرة الداكنة في الواقع، لذلك فإن هذا الوصف رغم شهرته الواسعة، لم يفعل الكثير في منع الايرلنديين من مشروبهم المفضل.

أدب الأكل واسع أيضاً، لكن أغلبه نثر. لكنني لا أتذكر مقطعاً واحداً يضع الاهتمامات الحميوية أولاً عند كل الكتاب الذين استمتعوا بوصف الطعام من رابيلياس إلى ديكنز ومن

بيترونيوس إلى السيدة بيتون. دائماً تشعر أن الطعام غاية بحد ذاته. لم يكتب أحد نثراً بارزاً عن الفيتامينات أو أخطار الإفراط في البروتينات أو أهمية مضغ كل شيء اثنين وثلاثين مرة. عموماً يبدو أن هناك حملاً ثقيلاً وقوياً من الدلائل لصالح الإفراط في الأكل والشرب -بشرط أن يحدثا في مناسبات مميزة وليس بشكل متكرر جداً.

لكن هل ينبغي أن نفرط في الطعام والشراب في عيد الميلاد هذا؟ يجب ألا نفعل، ولا يجب أن يحظى أغلبنا بالفرصة. أنا أكتب في مديح عيد الميلاد، لكن في عيد ميلاد عام ١٩٤٧ أو ربما ١٩٤٨. إن العالم ككل ليس في حالة أعياد هذه السنة. بين الراين والباسيفيكي، لا يمكن أن يكون هناك عدد كبير جداً من الناس يحتاجون إلى المسهل. في الهند هناك -وكان دائماً- حوالي ١٠٠ مليون شخص يحصلون على وجبة واحدة في اليوم، وفي الصين الأحوال مثلها بلا شك. في ألمانيا والنمسا واليونان وأماكن أخرى، عشرات الملايين من الناس يحيون على حمية تحفظ أنفاسهم في أجسادهم، لكنها لا تترك أية قوة فيهم من أجل العمل. في كل أرجاء المناطق التي دمرتها الحرب من بروكسل إلى ستالينغراد، هناك ملايين أخرى لا تحصى من الناس يعيشون في أقبية البيوت المقصوفة بالقنابل وفي مخابئ في الغابات أو في أكواخ حقيرة خلف أسلاك شائكة. ليس مسراً جداً أن تقرأ في وقت واحد تقريباً أن حصة كبيرة من الديكة الرومية في عيد ميلادنا ستأتي من هنغاريا، وأن الكتاب والصحفيين الهنغاريين -يفترض أنهم ليسوا الشريحة الأسوأ أجراً في المجتمع- في عوز يائس، لدرجة يسعدهم أن يتلقوا هدايا من السكرين والثياب المهملة من المتعاطفين الإنكليز. في هكذا ظروف، لا نستطيع أن يكون لدينا عيد ميلاد لائق، حتى لو تواجدت المواد اللازمة له.

لكن سيكون لدينا عيد عاجلاً أو آجلاً في ١٩٤٧ أو ١٩٤٨ أو ربما حتى في ١٩٤٩ وحينئذ ربما لن تكون هناك أصوات النباتيين الكئيبة أو اللاكحوليين التي تنتقدنا على أشياء نقوم بها لتبطين معدنا. يحتفل المرء بوليمة لذاتها، وليس لأي منفعة مفترضة في تبطين لبطوننا. في الوقت الراهن عيد الميلاد هنا أو اقترب. سانتا كلوز يسوق رنته، وساعي البريد يتهادى من باب إلى آخر تحت كيسه المتنفخ ببطاقات أعياد الميلاد، والأسواق السوداء تنشط واستوردت بريطانيا أكثر من ٧ آلاف صندوق شحن من الهذال من فرنسا. لهذا أتمنى لكل واحد عيد ميلاد من الطراز القديم في عام ١٩٤٧، وفي الوقت الراهن نصف ديك رومي وثلاث مندرينات وقنينة من الويسكي، بثمن ليس أكثر من ضعف الثمن القانوني.

٢٧ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٦

في مكان ما أو آخر - أعتقد في مقدمته لكتاب القديس جون -يلاحظ برنارد شو أننا اليوم عرضة أسهل للخداع والخرافات مما كنا عليه في العصور الوسطى، ويقتبس مثالاً عن السذاجة العصرية في الاعتقاد المنتشر جداً بأن الأرض كروية. يقول شو إن الشخص العادي لا يستطيع أن يقدم دليلاً واحداً للاعتقاد بكروية الأرض. هو يقبل بهذه النظرية لأن فيها شيئاً يجذب إلى عقلية القرن العشرين.

إن شو يبالغ، لكن هناك شيئاً فيما يقوله، والسؤال يستحق المتابعة بسبب الضوء الذي يلقيه على المعرفة الحديثة. لماذا نصدق أن الأرض كروية؟ أنا لا أتكلم عن بضعة آلاف من الفلكيين والجغرافيين وهلم جرا، الذين يمكنهم إعطاء دليل عيني أو لديهم معرفة نظرية بالدليل، وإنما عن المواطن العادي الذي يقرأ الصحف مثلكم ومثلي.

بالنسبة إلى نظرية الأرض المسطحة، أعتقد أنني أستطيع تفنيدها. إن وقفت بجانب الشاطئ في يوم صحو، ترى صواري السفن غير المرئية ومداخنها تعبر على طول خطوط الأفق. هذه الظاهرة لا تفسر إلا بافتراض أن سطح الأرض مقوس. لكن هذا لا يؤدي أن الأرض كروية. تخيل نظرية أخرى تسمى نظرية الأرض البيضوية التي تزعم أن شكل الأرض مثل البيضة. ماذا أستطيع القول ضدها؟

ضد رجل بيضوية الأرض، فإن الورقة الأولى التي أستطيع أن ألعبها هي تشابه الشمس والقمر. رجل بيضوية الأرض يرد فوراً: أنا لا أعرف، من خلال رصدي ومراقبتي أن تلك الأجسام كروية. أنا أعرف فقط أنها مدورة وربما تكون أقراصاً مسطحة. أنا لا أعرف جواباً لهذا السؤال. بالإضافة إلى ذلك يتابع قائلاً: أي مبرر لدي للاعتقاد أن شكل الأرض يجب أن يكون مثل شكل الشمس والقمر؟ لا أستطيع الرد على هذا السؤال أيضاً.

في ورقتي الثانية هي ظل الأرض: حين تلقي بظلها على القمر أثناء الكسوف تبدو ظل شيء مدور. لكن كيف أعرف، يطالب رجل بيضوية الأرض أن كسوف القمر يسببه ظل الأرض؟ الرد هو أنا لا أعرف، لكننا أخذنا هذه المعلومة بشكل أعمى من مقالات الجرائد وكتيبات العلم.

بعد هزيمتي في المحاججة الثانوية، ألعبُ الآن ورقتي الرابحة ملكة البستوني: رأي الخبراء وعلماء المجمع الفلكي الملكي الذين يفترض أنهم يعرفون، أخبروني أن الأرض مدورة. يغطي رجل بيضوية الأرض الملكة بملكه. هل اختبرت تصريح المجمع الفلكي الملكي وهل أعرف حتى طريقة لاختباره؟ هنا أخرج الآس. نعم أنا أعرف اختبارا واحداً. يستطيع علماء الفلك التنبؤ بالكسوف، وهذا يوحي أن آراءهم عن النظام الشمسي صحيحة ومعقولة. لذلك هذا يبرر لي قبولي بما يقولونه عن شكل الأرض.

يرد رجل بيضوية الأرض -ما أعتقد أنه صحيح- إن قدماء المصريين، الذين اعتقدوا أن الشمس تدور حول الأرض، استطاعوا التكهن بالكسوف. لم يبق لي سوى ورقة واحدة: الملاحة. يستطيع الناس الإبحار بالسفن حول العالم ويصلون إلى الأماكن التي يتوجهون إليها، بحسابات تفترض أن الأرض كروية. أعتقد أن هذا يقضي على رجل بيضوية الأرض، لكن ربما يكون لديه بعض الرد والصد.

يتبين من مبرراتي للاعتقاد، أن فكرة أن الأرض كروية هي فكرة مقلقلة ومشكوك فيها. لكن هذه معلومة أولية بشكل استثنائي. في أغلب الأسئلة الأخرى، كان يجب أن أعتمد على الخبير بوقت سابق بكثير لهذا، ويجب أن أكون أقل قدرة على اختبار تصريحاته وتأكيداته. والقسم الأكبر من معرفتنا في هذا المستوى، لا تستند إلى التفكير المنطقي أو التجربة وإنما على السلطة والنفوذ. وكيف لها أن تكون غير ذلك، حين يكون مدى المعرفة واسعاً جداً كهذا، لدرجة أن الخبير نفسه يصبح جاهلاً فور انحرافه عن تخصصه الخاص به؟ أغلب الناس إن سئلوا ليثبتوا أن الأرض كروية، لن يهتموا بإنتاج الحجج الضعيفة التي أوجزتها آنفاً حتى. يبدؤون بالقول "كل واحد يعرف" أن الأرض كروية وإن ضغطت أكثر يغضبون. بطريقة ما فإن شو على حق. هذا عصر ساذج، وعبء المعرفة الذي علينا أن نحمله الآن، مسؤول جزئياً.

ربما تختلف الآراء حول قرار الحكم في قضية التشهير بالبروفيسور لاسكي. لكن حتى لو شعر المرء أن الحكم كان مبرراً تقنياً، فأعتقد أنه يجب أن نتذكر أن البروفيسور لاسكي اعتبر هذا الفعل في الحقيقة مصلحة وفائدة لحزب العمل. كان حادثاً في الانتخابات العامة – جواب، شعر أنه ضروري في وقته، على الدعاية المعادية للحمر من جانب الصحافة المحافظة.

لذلك سيكون من الإجحاف الشديد أن يترك ليدفع الكلف الثقيلة جداً لوحده. ربما أنا أذكّر كل واحد مرة أخرى أن تلك المساهمات يجب أن ترسل إلى مورغان فيليبس سكرتير حزب العمل، ترانسبورت هاوس.

ستؤدي قصية لاسكي على الأرجح إلى إثارة نقاشات أخرى عن تركيب هيئة المحلفين وخصوصاً هيئة المحلفين الخاصة، لكني كنت أتمنى لو كان لها أثر طارئ للفت انتباه الناس مرة أخرى إلى الحالة الراهنة لقانون التشهير.

أعتقد أن مهنة التشهير، مثل غيرها من المهن، مرّت بفترة خمود أثناء الحرب، لكن قبل بضعة سنين من ذلك كانت جلبة أعمال التشهير التافهة جلبة رئيسية وكابوساً للمحررين والناشرين والمؤلفين والصحفيين على السواء. صرح بعض الناس أن الأفضل لو ألغيت قوانين التشهير تماماً، أو على الأقل أصبحت أقل صرامة، لكي يكون للصحف الكثير من الحرية التي كانت لها في فرنسا قبل الحرب مثلاً. أنا لا أستطيع أن أوافق على هذا. إن الناس الأبرياء لهم الحق في الحماية ضد القذف وتشويه السمعة. لم تثر الضجة لأن القانون صارم بشكل مفرط، وإنما لأنه أصبح من الممكن أن يصيبك ضرر عن تشهير لم تعانِ بسببه أي خسارة مالية سابقاً.

إن الأكثر تضرراً، ليس الصحف الكبيرة التي تملك قافلة من المحامين الموكلين وتستطيع أن تدفع الأضرار، وإنما الناشرون والدوريات الصغيرة. أنا لا أعرف فقرات القانون الدقيقة، لكن من خلال مقابلات مع محامين مروعين كنت أقتنيها أحياناً قبل أن يذهب كتاب للطباعة، جمعت أنه من شبه المستحيل أن تخترع شخصية افتراضية قد لا تعتبر صورة عن الشخص الحقيقي. في النتيجة، إن عمل التشهير الابتزازي طريقة سهلة لجني المال من دون تعب. دور النشر والدوريات على الأكثر مؤمنة ضد التشهير إلى مبلغ محدد، مما يعني أنها ستدفع طلباً صغيراً بدلاً من خوض معركة. في إحدى القضايا، سمعت عن التواطؤ الذي مورس حتى. دبرَ ألف تشهيراً بحق باء وهدّد باء بمعركة، وتقاسم الاثنان العوائد.

يبدو لي أن الطريقة إلى تصحيح هذا، هي التأكيد على أن فعل التشهير لا يمكن أن يكون مربحاً. يجب ألا يدفع لقاء أي ضرر إلا إذا تبين أن هناك خسارة فعلية قد حدثت. من جانب آخر، حيث يثبت التشهير، يجب على الطرف المذنب أن يتراجع عن أقواله كتابياً، وهذا لا

يحدث عادة في الوقت الحاضر. إن الصحف الكبيرة ستكون خائفة أكثر بكثير من دفع أضرار بقيمة ١٠٠ ألف جنيه، لكن إن لم يكن هناك مدفوعات مالية، فسيختفي دافع أعمال الابتزاز.

أرسل إي متراسل نسخة من إحدى المجلات الهزلية الأمريكية التي أشرت إليها منذ بضعة أسابيع. القصتان الرئيستان اللتان في المجلة، هما عن مخلوق جميل يسمى هانغمان، الذي له وجه أخضر، ومثل الكثير جداً من شخصيات الرسوم الهزلية الأمريكية، يستطيع الطيران. على الصفحة الأمامية هناك صورة لمجنون يشبه القرد أو لقرد حقيقي ألبسوه ثياب إنسان، يخنق امرأة بشكل محسوس جداً، لدرجة أن لسانها برز إلى خارج فمها بطول أربع بوصات. مادة أخرى، ثعبان كبير جداً التف حول رقبة رجل ثم شنقه بتعليق نفسه فوق درابزون. رجل آخر يقفز من نافذة ناطحة سحاب ويصطدم بالرصيف بعنف. هناك الكثير الآخر من نفس النوع.

سألني المرسل إن كنت أعتقد أن هذا النوع من الشيء يجب أن يوضع بأيدي الأطفال، وأيضاً إن كنا نستطيع أن نجد شيئاً أفضل ننفق عليه نقودنا المتضائلة.

بالتأكيد أنا سأبعد هذه الأشياء عن أيدي الأطفال إن أمكن ذلك. لكن أنا لست موافقا على منع بيعها. السابقة خطيرة جداً. لكن في الوقت الحالي، هل نحن فعلاً نستخدم دولارات لدفع ثمن هذه النفاية المميتة؟ النقطة ليست غير مهمة تماماً، وأنا أحب أن أراها محلولة.

٣ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٧.

قبل ربع قرن تقريباً، كنت أسافر على متن باخرة إلى بورما. كانت باخرة مريحة ومترفة، ولكنها ليست كبيرة، وحين لا يكون المرء نائماً أو يلعب فإنه يكون يأكل عادة. كانت الوجبات من النوع المدهش الذي كانت شركات البواخر تتنافس في إنتاجه. وفي الأوقات الفاصلة بين الوجبات، هناك وجبات خفيفة مثل التفاح والمثلجات والبسكويت والحساء، كي لا يجد المرء نفسه خائراً من الجوع. بالإضافة إلى ذلك، فإن الحانات تفتح في الساعة العاشرة صباحاً. وبما أننا كنا في البحر، فقد كانت المشروبات الكحولية رخصية نسبياً.

إن أغلب العاملين على سفن هذا الخط هم من الهنود. وبالإضافة إلى الضباط والمضيفين، تحمل السفن ضباطاً أوروبيين صغاراً وظيفتهم إدارة الدفة. واحد من هؤلاء الضباط الصغار،

رغم أنه لم يتجاوز سن الأربعين كما أتوقع، كان واحداً من هؤلاء البحارة القديمين الذي يتوقع أن ترى الإوز ينمو على ظهره (بارناكلز). كان قصيراً قوياً أشبه بالقرد مع ذارعين ضخمين يغطيهما شعر ذهبي كثيف كالحصيرة. شارب أشقر ربما ينتمي إلى شارلمان يحجب فمه تماماً. كنت في العشرين من عمري فقط، وكنت خجلاً من وضعي الطفيلي كمجرد مسافر، ورأيت في البحارة الصغار وخصوصاً صاحب الشعر الأشقر كائنات شبه إلهية على قدم المساواة مع الضباط. لم يخطر لي أن أكلم أحدهم من دون أن يكلمني هو أولاً.

في أحد الأيام، لسبب ما، نهضت عن وجبة الغداء مبكراً. كان ظهر السفينة فارغاً إلا من الضابط ذي الشعر الأشقر، الذي كان يعدو مثل جرذ بمحاذاة الغرف التي على متن السفينة مع شيء تخفيه جزئياً يداه الضخمتان. كان لدي الوقت لأرى ماذا في يديه قبل أن يتجاوزني ويختفي في أحد المداخل. كان طبق فطائر سمك وفيه حلوى بالكريم مخبوزة ومأكول منها.

في لمحة، فهمت الوضع -في الحقيقة كان شعور الرجل بالذنب جلياً. كانت الحلوى بقايا من إحدى طاولات المسافرين، أعطاها له أحد المضيفين بشكل ممنوع ليلتهمها براحته. بعد أكثر من عشرين سنة مازلت أشعر بالصدمة والدهشة التي أصابتني في تلك اللحظة. ولم أفهم الحدث في كل أوجهه إلا بعد بعض الوقت: لكن هل أبدو مبالغاً حين أقول إن هذا الاكتشاف المفاجئ للفجوة بين الوظيفة والمكافأة- الاكتشاف بأن صاحب حرفة ماهر، يحمل أرواحنا كلنا بيديه، كان سعيداً بسرقة طعام من طاولة- علمني أكثر مما تعلمته من نصف دزينة من الكراسات الاشتراكية؟

خبر يتعلق بانشغال يوغسلافيا الآن في حملة تطهير ضد الكتاب والفنانين، جعلني أنظر مرة أخرى إلى التقارير عن أعمال التطهير الأدبية في الاتحاد السوفييتي، حين طرد زوشينكو وأخماتوفا وغيرهما من اتحاد الكتاب.

في إنكلترا لم يحدث هذا الشيء لنا بعد، لذلك نستطيع رؤيته بتحيز مؤكد. والغريب جداً وأنا أنظر مرة أخرى إلى تفاصيل ما حدث، أشعر بأسف من أجل المضطهدين أكثر مما أشعر نحو ضحاياهم. الرئيس بين المضايقين أندريه جدانوف الذي يعتبره البعض خليفة ستالين المحتمل. جدانوف رغم أنه أدار عمليات تطهير أدبية سابقاً، هو سياسي متفرغ -الحكم عليه

من خطاباته- معرفته بالأدب مثل معرفتي بعلم الايروديناميك. وهو لا يترك انطباعاً وفقاً لتعابيره بأنه رجل شرير أو مخادع. لقد صدم بارتداد وانشقاق بعض الكتاب السوفييت، ورأى ذلك خيانة غير مفهومة مثل تمرد عسكري في خضم معركة. إن الغرض من الأدب، هو تمجيد الاتحاد السوفييتي. وهذا يجب أن يكون واضحاً لكل شخص؟ لكن بدلاً من تنفيذ واجبهم البسيط والواضح، انحرف هؤلاء المضللون عن دروب الدعاية، وأنتجوا أعمالاً غير سياسية. وفي حالة زوشينكو سمحوا لملاحظة هجائية في التسلل إلى داخل كتاباتهم. شيء مؤلم جداً ومحير. كما لو أنك تكلف رجلاً بالعمل في مصنع ممتاز وحديث ومكيف وتعطيه أجراً عالياً وساعات عمل قصيرة ومطعماً متنقلاً جيداً وملاعب وشقة مريحة ومدرسة حضانة لأولاده وتأميناً اجتماعياً كاملاً وموسيقى وهو يعمل -لكنك تجد رجلاً جاحداً يرمي مفاتيح الربط في الآلة في يومه الأول.

ما يجعل الأمر برمته محزناً ومثيراً للشفقة، هو القبول العام-اعتراف صادق، بالنظر إلى أن المعلقين السوفييت ليسوا في عادة انتقاد بلادهم- بأن الأدب الروسي جملة ليس ما ينبغي له أن يكون. بما أن الاتحاد السوفييتي يمثل أرفع شكل قائم من الحضارة، فمن الواضح أنه يجب أن يقود العالم في الأدب كما يقوده في كل شيء آخر. يقول جدانوف: "بالتأكيد نظامنا الاشتراكي قادر على خلق الأدب الأكثر تقدماً، الذي سيترك وراءه وعلى مسافة كبيرة أفضل إبداعات العصور القديمة" (إزفيزتيا كما اقتبسته الصحيفة النيويوركية بوليتيكس) ويتمادى أكثر: "ثقافتنا ستقف على مستوى أعلى بما لا يقاس من الحضارة البرجوازية..... أليس واضحاً أن ثقافتنا لها الحق ألا تقوم بدور التلميذ والمقلد، وإنما على العكس، أن تعلم الآخرين الأخلاق الإنسانية العامة؟". ومع ذلك، فإن الشيء المتوقع منها لم يحدث بعد. تصدر التوجيهات، تمر القرارات بالإجماع، تكمم أفواه الكتاب المتمردين: ومع ذلك لسبب ما لم يظهر أدب نشيط وأصيل متفوق بشكل جلي على أدب البلدان الرأسمالية.

هذا كله حدث سابقاً وأكثر من مرة. لقد مرت حرية التعبير بصعود وهبوط في الاتحاد السوفييتي، لكن الميل العام كان يتجه نحو رقابة أضيق. الشيء الذي لم يفهمه السياسيون على ما يبدو، أنك لا تستطيع أن تنتج أدباً نشيطاً وقوياً بواسطة إرهاب كل شخص على الامتثال والخضوع والانسجام. قدرات الكاتب لن تعمل إذا لم يسمح له أن يقول ما يشعر به تقريباً.

تستطيع تدمير العفوية وإنتاج أدب تقليدي لكنه واهن، أو تستطيع أن تدع الناس يقولون ما يختارونه وتتحمل المخاطرة بأن ينطق بعضهم بالهرطقات. ليس هناك مخرج من هذه الورطة طالما ظلت الكتب تكتب بواسطة أفراد.

لهذا السبب أنا أشعر بحزن على المضايقين أكبر من حزني على الضحايا. ربما ارتاح زوشينكو وآخرون غيره على الأقل في فهم ما يحدث لهم: السياسيون الذي يغيرون عليهم ويضايقونهم يحاولون المستحيل فقط. يبدو القول "الاتحاد السوفييتي يستطيع البقاء والحياة من دون الأدب" بالنسبة إلى جدانوف وأمثاله معقولاً. لكن ذلك هو الذي لا يستطيعون قوله. هم لا يفهمون ما هو الأدب، لكنهم يعرفون أنه مهم وأن له قيمة اعتبارية، وأنه ضروري لأغراض الدعاية، وأنهم يحبون تشجيعه لو عرفوا كيف. لهذا هم يستمرون في أعمال التطهير وإصدار التوجيهات مثل سمكة تضرب أنفها بجدار الحوض مرة تلو أخرى، وأغبى من أن تدرك أن الزجاج والماء ليسا الشيء نفسه.

من أفكار الإمبراطور ماركوس أوريليوس:

في الصباح حين تستيقظ وأنت كاره، دع هذه الفكرة تكون حاضرة- أنا أستيقظ للعمل من أجل كائن بشري. لماذا إذاً أنا مستاء إن كنت سأقوم بعمل أشياء أنا أحيا وموجود من أجلها، ومن أجلها ولدت في هذا العالم؟ أم هل أنا خلقت لهذا، للاستلقاء على ملاءات السرير وتدفئة نفسي؟ لكن هذا مرضي أكثر -هل أنت موجود وتحيا للاستمتاع وليس للعمل أو الجهد أبداً؟ ألا ترى النباتات الصغيرة والطيور الصغيرة والنمل والعناكب والنحل تعمل معاً لتنظم أقسامها العديدة من الكون؟ وهل أنت كاره أن تقوم بعمل الكائن البشري، وألم تستعجل في فعل ذلك طبقاً لطبيعتك؟

إن طبع هذا الوعظ والحض الشهير بأحرف كبيرة وتعليقه على الجدار المقابل لسريرك هو خطة جيدة. وإن فشل ذلك، فهناك خطة جيدة أخرى، وهي أن تشتري ساعة منبه صوتها عالٍ وتضعها في موقع، ويجب عليك أن تخرج من سريرك وتلف حولها قطعاً كثيرة من الأثاث حتى تخرسها.

التريبيون ١٠ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٧.

علاقات الشخص مع جريدة أو مجلة ما متغيرة ومتقطعة أكثر مما تكون مع كائن بشري. من حين إلى آخر قد يصبغ الكائن البشري شعره أو يتحول إلى الكاثوليكية الرومانية، لكنه لا يستطيع تغيير نفسه بشكل جوهري، بينما تمر الدورية بسلسلة كاملة من الكينونات المتنوعة تحت الاسم نفسه. كانت التريبيون في حياتها القصيرة صحيفتين اثنتين مميزتين إن لم تكن ثلاث، واتصالاتي معها تنوعت بحدة. فقد بدأت، إن كنت أتذكر بشكل صحيح، بطرق وضرب على مفاصل الأصابع. لم أعلم بوجود التريبيون حتى عام ١٩٣٩ . بدأت في أوائل عام ١٩٣٧ لكن في الأشهر الثلاثين التي تخللت الفترة التي قبل اندلاع الحرب، أمضيت خمسة أشهر منها في المستشفى وثلاثة عشر شهراً خارج البلاد. ما لفت انتباهي أولاً في اعتقادي كان مراجعة نقدية غير ودية أبداً لواحدة من رواياتي. خلال الفترة بين ١٩٣٩ و١٩٤٢ كتبت ثلاثة أو أربعة كتب وأعيد طبعها. وأعتقد أنه من الصحيح أنني لم أحظَ أبداً بما يسمى مراجعة نقدية "جيدة" في التريبيون، حتى بعد أن أصبحت عضواً في هيئتها. (الحدثان غير مرتبطين). في وقت لاحق من شتاء عام ١٩٣٩ البارد، بدأت أكتب للتريبيون، لكن في البداية والغريب جداً من دون أن أراها بشكل منتظم أو أكون فكرة واضحة عن نوعها كصحيفة. ريموند بوستغيت الذي كان رئيس التحرير آنذاك، طلب مني أن أكتب مراجعات نقدية للروايات بين الحين والآخر. لم يدفع لي أجراً (حتى وقت متأخر، كان من غير العادي أن يدفع للمشاركين من الجناح اليساري) ولم أرَ الجريدة إلا في مناسبات نادرة حين كنت أذهب إلى لندن وأزور بوستغيت في مكتب مجرد من الأثاث ومغبر قرب سور لندن. تريبيون (حتى وقت متأخر كان الكل يسميها (ال) تريبيون) كانت تمر بظروف صعبة في ذلك الوقت. كانت جريدة الثلاثة بنسات، هدفها الأولي هم العمال الصناعيين، وتتبع تقريباً خط الجبهة الشعبية التي تحالفت مع نادي الكتاب اليساري والعصبة الاشتراكية. مع اندلاع الحرب، تعرضت لضربة قاسية، لأن الشيوعيين وأشباه الشيوعيين الذين كانوا من أشد مؤيديها، رفضوا الآن أن يساعدوا في توزيعها. بعضهم استمر في الكتابة لها، وعلى كل حال استمر النزاع العقيم بين "المؤيدين" و"المعارضين" للحرب باللعلعة على أعمدة الصحف، بينما كانت الجيوش الألمانية تتجمع وتحتشد من أجل هجمات الربيع. في وقت مبكر من عام ١٩٤٠ كان هناك اجتماع واسع في قاعة عامة، وكان

الغرض منه مناقشة مستقبل التريبيون وسياسة الجناح اليساري لحزب العمال. كالعادة في مثل هذه المناسبات، لم يقل شيء محدد جداً، وما أتذكره بشكل رئيسي هو فكرة سياسية مفيدة تلقيتها من مصدر داخلي. انتهت حملة النرويج بكارثة، ومشيت إلى القاعة ومررت بالملصقات الكئيبة. اثنان من أعضاء البرلمان لن أسميهما وصلا للتو من مبنى البرلمان.

"ما هي الفرصة الموجودة الناتجة عن هذه القضية للتخلص من تشامبرلاين؟" سألت.

"ليس هناك أمل. إنه صلب." قالا كلاهما. لا أتذكر التواريخ لكن أعتقد أنه يمكن أن تكون قبل خروج تشامبرلاين من رئاسة الوزراء بأسبوع أو بأسبوعين.

بعد ذلك، خرجت التريبيون من وعيي لستين اثنتين، فقد كنت مشغولاً في محاولة كسب الرزق وكتابة كتاب وسط القنابل والخلل العام. وكان الوقت المتوفر لدي يستهلكه الحرس الوطني الذي كان مازال قوة من الهواة، ويحتاج إلى كمية هائلة من العمل من أعضائه. حين أصبحت مدركاً للتريبيون مرة أخرى، كنت أعمل في القسم المشرقي في البي بي سي. إنها الآن صحيفة مختلفة تماماً ولها تركيبة مختلفة، وتكلف ستة بنسات، ومتوجهة نحو السياسة الخارجية بشكل رئيسي، وكانت تكسب جمهوراً جديداً بسرعة من الذين ينتمون إلى فقراء الطبقة الوسطى، وكانت مكانتها عند هيئة العاملين في البي بي سي لافتة جداً. في المكتبات؛ حيث ذهب المعلقون ليجهزوا أنفسهم، كانت واحدة من الدوريات المفضلة، ليس لأنها كانت تكتب من قبل أناس عرفوا شيئاً من مصادر موثوقة عن أوروبا فقط، وإنما لأنها كانت آنذاك الصحيفة الوحيدة التي انتقدت الحكومة. ربما "انتقدت" بأنها أكثر من معتدلة. لقد دخل السير ستافورد كريبس في الحكومة، وشخصية انيورين بيفان أعطت الصحيفة نغمتها وأسلوبها. في مناسبة واحدة كانت هناك هجمات عنيفة بشكل مذهل على تشرشل من قبل شخص سمى نفسه توماس رينزبورو. هذا اسم مزيف بوضوح، وأمضيت فترة بعد الظهر كلها أحاول أن أحدد مؤلف الكتابة من خلال الأسلوب، لأن النقاد الأدبيين الذين وظفهم الجستابو قيل إنهم كانوا يؤلفون كراسات مجهول اسم مؤلفها. أخيراً قررت أن توماس رينزبورو هو فيكتور غالانكس الذي قال لي: "هل تعرف من كتب مقالات رينزبورو في التريبيون؟ سمعت أنه دبليو" هذا جعلني أفخر بنفسي لكوني ذكياً جداً، لكن بعد يوم أو اثنين سمعت أننا نحن الاثنان كنا على خطأ.

خلال هذه الفترة، كنت أكتب للتريبيون بين الفينة والأخرى، لكن على فواصل طويلة لقلة وقتي وطاقتي. على كل حال، في نهاية عام ١٩٤٣ قررت أن أستقيل من وظيفتي في البي بي سي، وطلب مني أن أتولى رئاسة تحرير القسم الأدبي بدلاً من جون أتكينز الذي كان يتوقع التجنيد في الخدمة العسكرية. تابعت كوني محرراً أدبياً بالإضافة إلى كتابة عمود "كما يرضيني" حتى بداية عام ١٩٤٥. كان عملاً ممتعاً، لكنها ليست فترة أنظر إليها وأتذكرها بفخر. الحقيقة أنني لست ماهراً في التحرير. كنت أكره التخطيط المسبق وعندي عجز نفسي وبدني للرد على الرسائل. أغلب ذكرياتي الأساسية عن تلك الفترة، هي سحب درج هنا وآخر هناك لأجد كلاً منها محشواً برسائل ومخطوطات كان ينبغي التعامل معها قبل أسابيع. فكنت أغلقها ثانية بسرعة. أيضاً لدي ميل قاتل لقبول الكراريس التي أعرف جيداً أنها سيئة جداً ويتعذر طبعها ونشرها. يشك أن كان أي واحد لديه تجربة طويلة كصحفي حر ينبغي أن يصبح محرراً. إنه مثل أخذ مجرم من زنزانته وجعله حاكماً للسجن. لكنها تظل تجربة كما يقولون، ولديّ ذكريات دافئة لمكتبي الضيق الصغير الذي يطل على ساحة خلفية، والثلاثة الذين نتقاسمه انحشرنا في الزاوية حين تأتي الطائرة المحملة بالقنابل التي من دون طيار وتصعد عمودياً بسرعة فوقنا، بعد أن تصطدم القنبلة وتنفجر. في وقت مبكر من عام ١٩٤٥ ذهبت إلى باريس كمراسل للأوبزيرفر. للتريبيون مكانة وهيبة مذهلة في باريس والتي يعود تاريخها إلى ما قبل التحرير. من المستحيل شراؤها، والنسخ العشر التي تأتي للسفارة البريطانية أسبوعياً، لا يمكن أن تخرج خارج جدران البناء. مع ذلك كان الصحفيون الفرنسيون الذين التقيت بهم قد سمعوا بها وعرفوا أنها الصحيفة الوحيدة التي لم تؤيد الحكومة من دون حرج، ولم تعارض الحرب، ولم تبلع الأسطورة الروسية.

في ذلك الوقت، كان هناك -أحب أن أتأكد أنها مازالت موجودة- صحيفة أسبوعية اسمها ليبرتيس، كانت العدو النقيض للتريبيون تقريباً التي أنتجت سراً أثناء الاحتلال، وعلى نفس الآلات كما طبعت باريس زيتونغ. ليبرتيس التي كانت معارضة للغولين من جانب وللشيوعيين من جانب آخر، لم يكن لديها مال، وكانت توزعها مجموعات من المتطوعين على دراجات هوائية. في بعض الأسابيع كانت تشوهها الرقابة، وغالباً لا يبقى من المقال شيئاً سوى العنوان مثل "الحقيقة حول الهند الصينية" وعمود فارغ تماماً تحته. بعد أسبوع أو اثنين

من وصولي إلى باريس، أخذت إلى اجتماع شبه عام لمؤيدي ليبرتيس، ودهشت حين وجدت أن نصفهم تقريباً يعرفون كل شيء عن التريبيون. رجل عامل ضخم في سروال قماشي أسود جاء إليّ وهتف "أنت جورجس أورفيل!" وحطم عظام يدي تقريباً وحولها إلى هريسة. لقد سمع بي، لأن ليبرتيس كانت تترجم مقاطع من التريبيون عادة. أعتقد أن أحد المحررين كان يذهب إلى السفارة البريطانية كل أسبوع ويطلب رؤية نسخة. بدا لي الأمر مؤثراً أن يستطيع المرء اكتساب جمهور من دون معرفته وسط أناس يحبون هذا، بينما لم أصادف واحداً وسط قبيلة ضخمة من الصحفيين الأمريكيين في هوتيل سكرايب بلباسهم الموحد المبهرج ورواتبهم الضخمة قد سمع بصحيفة التريبيون. لستة شهور خلال صيف عام ١٩٤٦ تخليت عن كوني كاتباً في التريبيون، وأصبحت مجرد قارئ، ولا شك أنه من حين إلى آخر سوف أعمل نفس الشيء ثانية؛ لكني آمل أن تستمر رفقتي معها طويلاً، وأتمنى أن أكتب فيها مقالة في العام ١٩٥٧ في عيدها السنوي مرة أخرى. أنا لا أتمنى أن تكون التريبيون قد ذبحت كل منافسيها. لقد أخذت كل الضروب لتخلق عالماً، وإن استطاع المرء تحليل هذه الأشياء، سيكتشف أن حتى تقديم الخدمات هو هدف مفيد. يفترض أن أعرف أن التريبيون ليست كاملة ومثالية، فقد رأيتها من الداخل. لكني أعتقد أنها الصحيفة الأسبوعية الوحيدة الموجودة التي تبذل جهداً صادقاً لتكون تقدمية وإنسانية - أي لتجمع سياسة اشتراكية راديكالية مع احترام لحرية التعبير والموقف الحضاري نحو الأدب والفنون، وأعتقد أن شعبيتها النسبية وحتى بقاءها حية في شكلها الحالي منذ أكثر من خمس سنوات، هي علامة مشجعة.

١٧ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٧.

في عدد ذا ديلي هيرالد الصادر في الأول من يناير/ كانون الثاني عام ١٩٤٧ هناك عنوان: رجال يؤيدون هتلر هنا، وتحت هذا صورة لهنديين أعلن أنهما بريجال موكرجي وانجيت سينج ووصفا بأنهما جاءا من برلين. عمود الأخبار الذي تحت الصورة يتابع قائلاً إن "أربعة هنود ربما سيتم إعدامهم يقيمون في فندق لندن"، ثم يتابع ليصف جماعة الهنود الذين يبثون من الراديو الألماني أثناء الحرب بـ "المتعاونين". من الجدير الاقتراب أكثر من هذه التصريحات المتعددة.

بداية هناك خطآن على الأقل؛ أولهما خطير جداً. انجيت سينج لم يبث شيئاً على الراديو النازي، وإنما من محطات إيطالية فقط، بينما الرجل الذي وصف بريجال موكرجي هو هندي كان

في إنكلترا خلال فترة الحرب كلها ومعروف جيداً لي ولأناس كثيرين آخرين في لندن. لكن هذه الأغلاط حقيقة علامة عن موقف عقلي يظهر بوضوح أكثر في أسلوب التقرير ولغته.

ما هو الحق الذي يخولنا في وصف الهنود الذين بثوا على الراديو الألماني بـ "المتعاونين" مع العدو؟ كانوا مواطنين لدولة محتلة، يثأرون من سلطة احتلال بالطريقة التي بدت لهم أفضل. أنا لا أقول إن الطريقة التي اختاروها صحيحة. حتى من وجهة نظر ضيقة، تفترض أن استقلال الهند هو القضية المهمة الوحيدة، أعتقد أنهم كانوا مخطئين بشكل فادح، لأنه إن ربحت دول المحور الحرب -وأن جهودهم كان يجب أن تساعد المحور إلى حد ما- لن تستفيد الهند إلا باستبدال سيد قديم بسيد جديد أسوأ.

لكن الخط الذي أخذوه كان خطأً يمكن اعتباره بنية حسنة، ولا يمكن بأي عدل أو حتى بأي دقة وصفه بـ "التعاون". ترفق كلمة "تعاون" عادة مع بائع الوطن. تتضمن أولاً خيانة لبلاد المرء، وثانياً تعاون كامل مع الغازي، وثالثاً اتفاق أيديولوجي أو اتفاق جزئي على الأقل. لكن كيف ينطبق هذا على الهنود الذي وقفوا إلى جانب المحور؟ لم يكونوا خونة لبلادهم -على العكس، كانوا يعملون من أجل استقلالها كما اعتقدوا- ولم يعترفوا بأي التزام نحو بريطانيا. ولم يتعاونوا بنفس طريقة خائن الوطن.. إلخ. سمح الألمان لهم ببث وحدة قالوا فيها ما أحبوه واتبعوا في حالات كثيرة خطاً سياسياً مختلفاً تماماً عن خط المحور. في رأيي كانوا مخطئين ومؤذين، لكن في موقف أخلاقي وبما بتأثير ما فعلوه، كانوا مختلفين عن المرتدين العاديين.

في الوقت الراهن على المرء يفكر ملياً في أثر هذا النوع من الشيء في الهند. صحيح أم خطأ، هؤلاء الرجال سيرحب بهم كأبطال حين يصلون إلى وطنهم، وإهانة الصحافة البريطانية لهم لن يتم التغاضي عنها، ولا المعالجة القذرة للصور. يظهر عنوان "بريجال موكرجي" تحت وجه شخص مختلف كلياً. لا شك أن الصورة أخذت عند استقبال للهنود العائدين من اللجوء أقامه لهم رفاقهم وأبناء وطنهم في لندن، والمصور التقط صورة الرجل الخطأ بالخطأ. لكن أفترض أن الشخص المقصود كان وليام جويس. في تلك الحالة، ألا تعتقد أن الديلي هيرالد ستهتم كثيراً بأنها كانت تلتقط صورة لويليان جويس وليس لأحد آخر غيره- هكذا هي الفكرة الضمنية. وهذا يحدث ليس في الديلي غرافيك وإنما في جريدة العمل الوحيدة.

أتمنى من كل واحد يستطيع الحصول على نسخة، أن يلقي نظرة سريعة على كتاب فيكتور غولانكس الذي نشر حديثاً، في ألمانيا المظلمة جداً. إنه ليس كتاباً أدبياً، لكنه قطعة صحفية رائعة، قصد منها أن تصدم الجمهور في هذه البلاد بنوع من الشعور بالجوع والمرض والفوضى والإدارة السيئة المجنونة السائدة في المنطقة البريطانية. إن مهمة جعل الناس يشعرون بما يحدث خارج دائرتهم الصغيرة، هي إحدى مشاكل عصرنا الرئيسية. إن أخذنا في اعتبارنا أن الناس في هذه البلاد لا يملكون الوقت المريح، فإنك لا تستطيع ربما أن تلومهم لكونهم قساة حول العذاب في مكان آخر. لكن الشيء اللافت وغير العادي، هو المدى البعيد الذي نجحوا في البقاء فيه جاهلين بهذا العذاب. حكايات المجاعات والمدن المدمرة ومعسكرات العمل القسري والترحيل الجماعي واللاجئون المشردون واليهود المضطهدون- كل هذا قوبل بنوع من الاندهاش غير المبالى به، كما لو أن هذه الأشياء لم يسمع بها من قبل قط، لكن في الوقت نفسه لم تكن مشوقة بشكل خاص. أحدثت الصورتان المشهورتان لأولاد مثل الهياكل العظمية انطباعاً قليلاً جداً. مع مرور الوقت وتكدس الرعب، يبدو أن العقل يفرز نوعاً من جهل يحفظ الذات ويحتاج إلى صدمة أقسى وأشد لاختراقه، مثلما يصبح الجسد منيعاً ضد عقار، فيستلزم جرعات أكبر فأكبر.

يتألف نصف كتاب غولانكس من الصور، وقد عمل بحيطة حكيمة فشمل نفسه في عدد جيد منها. هذا يثبت على الأقل أن الصور صادقة وأصلية وتقطع دابر الاتهام الروتيني، وأنها جلبت من وكالة، وأن الأمر "دعاية". لكن أعتقد أن أفضل أداة في الكتاب بعد أوصاف لا تحصى لأناس يعيشون على "حساء البسكويت" والبطاطا والكرنب والحليب المقشود والقهوة البديلة، كانت تضمينه بعضاً من قوائم الطعام ووجبات العشاء. يقول غولانكس إنه كان يدس قائمة طعام واحدة في جيبه كلما كان باستطاعته ذلك، من دون أن يلاحظه أحد، وأنه طبع نصف دزينة منها. هذه هي الأولى منها:

مرق لحم في فناجين -سمك موسى مقلى بالزبدة/ بطاطا طازجة- شرائح لحم هولندية/ بطاطا مهروسة/ قرنبيط - جبن - قهوة.

هذه الأوصاف عن المجاعة في أوروبا، تبدو أنها ترتبط بفقرة بعنوان "تلميح هذا الأسبوع لمحبي الكلاب" قصصتها من الإيفنينغ ستاندارد قبل عيد الميلاد تماماً:

ربما يعاني كلبك شعور "عقابيل عيد الميلاد" إن كنت دللته بالكثير جداً من الأطعمة الشهية. يحب الكثيرون من أصحاب الكلاب السماح لكلابهم بتذوق طعم أي شيء، من دون مبالاة بحقيقة أن مواد كثيرة من أطعمة عيد الميلاد غير المناسبة للكلاب.

لن يكون هناك ضرر دائم، لكن إن بدا الكلب بليداً وفقد اللسان لونه وأصبح لتنفسه رائحة كريهة، ينصح بزيت الخروع.

راحة لمدة أربع وعشرون ساعة تتبع بحمية خفيفة لبضعة أيام، عادة تحدث شفاء سريعاً- ومن ثمان إلى اثنتي عشرة حبة من كربونات البسموث تعطى ثلاث مرات في اليوم. يجب أن يشجع الكلب على شرب ماء الشعير بدلاً من الماء العادي.

موقعة من قبل عضو في الجمعية الحيوانية.

عند مراجعة ما كتبته آنفاً، ألاحظ أنني استعملت عبارة "شخص مختلف كلياً". لأول مرة يخطر لي غباء هذا التعبير، كما لو أن هناك شخصاً مختلفاً جزئياً! سأحاول أن أحذف هذه العبارة "شخص مختلف جداً" و"شخص مختلف تماماً" من مفرداتي من الآن فصاعداً.

لكن هناك كلمة أخرى وعبارة تستحق بوضوح أن تذهب إلى كوم النفايات، لكنها تستخدم أحياناً لعدم وجود بديل مناسب كما يبدو. مثال كلمة "محدد مؤكد" نحن نقول مثلاً "بعد عمر محدد يتحول شعر المرء إلى اللون الرمادي" أو "سيكون هناك مقدار محدد من الثلج في شهر فبراير/ شباط". في كل هذه الجمل "محدد- مؤكد" تعني "غير محدد، غير مؤكد". لماذا علينا أن نستخدم هذه الكلمة في معنيين متعاكسين؟ ومع ذلك إن لم يقل أحد المتحذلقين "بعد عمر غير محدد" إلخ، لا يبدو أن هناك كلمة أخرى تغطي بالضبط المعنى المطلوب.

٢٤ يناير/ كانون الثاني١٩٤٧.

كنت أستمع مؤخراً إلى حديث بين رجلي أعمال صغيرين في فندق اسكتلندي. أحدهما رجل واعٍ ومهندم في الخامسة والأربعين من عمره تقريباً، له علاقة مع اتحاد أساتذة البناء. الآخر أكبر منه بكثير مع شعر أبيض ولهجة رحبة، كأنه صاحب متجر للبيع بالجملة. كان

يتلو صلاة المائدة قبل وجباته، شيء لم أر أحداً يفعله منذ سنين كثيرة. هما ينتميان إلى الجماعتين اللتين دخلهما ألفي جنيه في السنة وألف جنيه في السنة على التوالي.

كنا نجلس حول نار نصف متفحمة غير كافية، وبدأ الحديث بنقص الفحم. لم يكن هناك فحم، لأن عمال المناجم رفضوا استخراجه. لكن من جانب آخر، من المهم ألا ندع البولونيين يعملون في الحفر، لأن هذا سيؤدي إلى البطالة. كانت هناك بطالة قاسية في اسكوتلندا مسبقاً. لاحظ الرجل الأكبر سناً بارتياح تام أنه سعيد جداً- سعيد جداً بالحقيقة (في لهجته)- بفوز العمل في الانتخابات العامة. أي حكومة تفوز بعد الحرب ستواجه وقتاً صعباً، نتيجة لسنوات من التقنين والعجز في الإسكان والإضرابات غير الرسمية وهلم جرا، وسيدرك الجمهور العام حقيقة وعود الاشتراكيين، ويصوت للمحافظين في المرة القادمة.

بدأ الرجلان الحديث عن مشكلة الإسكان، وعادا مباشرة تقريباً إلى موضوع البولونيين المناسب لمزاجيهما. الرجل الأصغر عمراً باع بيته المؤلف من طابق في أدنبره حديثاً بربح جيد، وكان يحاول شراء بيت. كان مستعداً لدفع ٢٧٠٠ جنيه. وكان الرجل الآخر يحاول بيع بيته بـ ١٥٠٠ جنيه ويشتري بيتاً أصغر. لكن بدا من المستحيل شراء بيوت وبيع طوابق في هذه الأيام. كان البولونيون يشترونها كلها "ومن أين لهم المال؟ هذا لغز محير". كان البولونيون أيضاً يغزون المهنة الطبية. ولديهم مدارسهم الطبية في أدنبره أو غلاسغو (نسيت أيهما) وكانوا ينتجون أطباء بأعداد كبيرة جداً، بينما "صبياننا يستحيل عليهم شراء خبرات. ألم يعرف كل واحد أن لدى بريطانيا أطباء أكثر من الذين تستطيع استخدامهم؟ ليرجع البولونيون إلى بلادهم. هل نحن بحاجة إلى هجرة؟

لاحظ الرجل الأصغر سناً أنه شارك في قضايا كثيرة وجمعيات مدنية وحقق غاية منها كلها، من خلال اقتراح حلول تتمثل في ضرورة إعادة البولونيين إلى بلادهم. أضاف الأكبر سناً أن البولونيين كانوا "منحطين جداً في أخلاقهم". وكانوا مسؤولين عن الكثير الفسق السائد هذه الأيام. وختم بورع: "عاداتهم وسلوكهم ليست عاداتنا وسلوكنا" لم يذكرا أن البولونيين يشقون طريقهم إلى رأس الطوابير ويلبسون ثياباً ألوانها فاقعة، ويبدون الجبن والخوف أثناء الغارات الجوية. لكن لو كنت قدمت اقتراحاً بهذا الشأن، لكان مقبولاً ومرحباً به بالتأكيد.

لا يستطيع المرء فعل الكثير بخصوص هذا الأمر. إنه المكافئ المعاصر لمعاداة السامية في عام ١٩٤٧. كان الناس من النوع الذي وصفته، يدانون بجريمة أن السامية ضارة بالسمعة، ولهذا هم يبحثون عن كبش فداء في مكان آخر. لكن الكره العرقي والأوهام الجماهيرية التي هي جزء من أنموذج عصرنا، ربما تكون أقل سوءاً في آثارها إن لم يعززها الجهل. في السنوات التي قبل الحرب مثلاً، لو عرفت الحقائق حول اضطهاد اليهود في ألمانيا بشكل أفضل، لما كان الشعور الذاتي الشعبي ضد اليهود أقل، ولكانت المعاملة الفعلية للاجئين اليهود أفضل، وكان رفض السماح لدخول اللاجئين بأعداد كبيرة إلى داخل البلاد، سيوصف بالمخزي. مازال الرجل العادي يشعر بالضغينة ضد اللاجئين، لكن عملياً أنقذت أرواح أكثر.

وهكذا الأمر مع البولونيين. الشيء الذي يحزنني أكثر في المحادثة المذكورة، هي العبارة المتكررة: "دعهم يعودون إلى بلادهم". لو أنني قلت لهذين التاجرين: "أغلب هؤلاء الناس ليس لديهم بلاد يعودون إليها" فسيفتحان فميهما من الدهشة. لم تكن واحدة من الحقائق المتصلة بالموضوع معروفة لهما. لم يسمعا قط بالأشياء الكثيرة والمختلفة التي حدث لبولندا منذ عام ١٩٣٩، كما لم يعرفا أيضاً أن الزيادة في عدد السكان الكبيرة في بريطانيا هي خدعة، أو أن البطالة المحلية تستطيع أن تتواجد مع نقص عام في العمل. أعتقد أنه من الخطأ إعطاء مثل هؤلاء الناس العذر بسبب الجهل. لا تستطيع تغيير عواطفهما فعلياً، لكن تستطيع أن تجعلهما يفهمان ماذا يقولان عندما يطالبان بوجوب طرد اللاجئين المشردين الذين ليس لهم وطن من شواطئنا، والمعرفة ربما تجعلهما أقل حقداً.

في الأسبوع قبل الماضي، كان السيد هارولد نيكلسون يواسي نفسه في صحيفة السبيكتاتور بأقصى استطاعته، لأنه وصل إلى عمر الستين. كما يرى أن الرضى الإيجابي الوحيد في الكبر، هو أنك بعد نقطة محددة تستطيع التباهي بأنك رأيت أشياء، لن تتوفر الفرصة لأي أحد آخر أن يراها مرة أخرى. جعلني ذلك أتساءل بماذا يمكنني أن أتباهى في الرابعة والأربعين من عمري. لقد رأى السيد نيكلسون القيصر محاطاً بحراسه من القوقازيين الهائلين الضخمين يمجد النيفا. أنا لم أر ذلك، لكنني رأيت ماري لويد، شخصية شبه أسطورية، ورأيت ليتل تيتش -الذي لم يمت حتى عام ١٩٢٨ لكن يفترض أن تقاعد في الوقت نفسه، كما ماريا لويد

-ورأيت سلسلة كاملة من الرؤوس المتوجة ومشاهير آخرين من إدوارد السابع فصاعداً. لكن هناك مناسبتين فقط، شعرت بهما أنني كنت أرى شيئاً مهماً، وإحدى هاتين المناسبتين كانت الظروف، وليس الشخص المعني من جعلني أشعر بهذا.

كان واحد من هؤلاء المشاهير هو بيتان. كانت المناسبة هي جنازة فوش في عام ١٩٢٩. كان مقام بيتان الشخصي عظيماً جداً في فرنسا، وقد حظي بشرف لقب حامي فيردون. وأعتقد أنه هو من صاغ عبارة "لن يمروا"، كما أعطى لنفسه مكاناً في الموكب مع فسحة بياردات عديدة أمامه وخلفه. حين مر شامخاً في مشيته- شخصية طويلة ونحيلة وقامة منتصبة جداً، رغم أنه كان في السبعين من عمره تقريباً مع شاربين أبيضين كبيرين كاسحين مثل جناحي نورس- طار بيتان عبر الحشد الكبير. لقد أثر منظره بي كثيراً جداً، لذلك شعرت بشكل غامض أنه لايزال يملك نوعاً من مستقبل مميز أمامه، بالرغم من سنواته السبعين. الشخصية المشهورة الثانية هي الملكة ماري. في أحد الأيام كنت أمر بجانب ويندسور كاسل حين شعرت بنوع من صدمة كهربائية تسري في الشارع. كان الناس يرفعون قبعاتهم والجنود يقفون في حالة الاستعداد. ومن ثم قعقعة على حجارة الشارع، ومن هناك أتت عربة ضخمة مكشوفة بلون الخوخ يجرها أربعة خيول مع حوذييها. أعتقد أنها المرة الأولى والأخيرة في حياتي التي رأيت فيها حوذياً. على المقعد الخلفي، وظهره للعربة، جلس سائس آخر في وضع مستقيم ومتيبس، وذارعاه واحدة فوق الأخرى. السائس الذي جلس في الخلف كان يدعى النمر. لاحظت الملكة بصعوبة، تسمّرت عيناي على ذلك الشكل الغريب والقديم الذي في المؤخرة، ثابت لا يتحرك مثل تمثال من الشمع، مع بنطاله الأبيض القصير الذي بدا كما لو أنه صبّ في داخله، وعقدة الشريطة التي على قبعته الرسمية. حتى في ذلك التاريخ (١٩٢٠ تقريباً) أعطتني شعوراً رائعاً في النظر إلى الوراء عبر نافذة إلى داخل القرن التاسع عشر.

٣١ يناير /كانون الثاني ١٩٤٧

علاقات الشخص مع جريدة أو مجلة ما متغيرة ومتقطعة أكثر مما تكون مع كائن بشري. من حين إلى آخر قد يصبغ الكائن البشري شعره أو يتحول إلى الكاثوليكية الرومانية، لكنه لا يستطيع تغيير نفسه بشكل جوهري، بينما تمر الدورية بسلسلة كاملة من الكينونات المتنوعة تحت الاسم نفسه. كانت التريبيون في حياتها القصيرة صحيفتين اثنتين مميزتين إن لم تكن

ثلاث، واتصالاتي معها تنوعت بحدة. فقد بدأت، إن كنت أتذكر بشكل صحيح، بطرق وضرب على مفاصل الأصابع. لم أعلم بوجود التريبيون حتى عام ١٩٣٩. بدأت في أوائل عام ١٩٣٧ لكن في الأشهر الثلاثين التي تخللت الفترة التي قبل اندلاع الحرب، أمضيت خمسة أشهر منها في المستشفى وثلاثة عشر شهراً خارج البلاد. ما لفت انتباهي أولاً في اعتقادي كان مراجعة نقدية غير ودية أبداً لواحدة من رواياتي. خلال الفترة بين ١٩٣٩ و١٩٤٢ كتبت ثلاثة أو أربعة كتب وأعيد طبعها. وأعتقد أنه من الصحيح أنني لم أحظَ أبداً بما يسمى مراجعة نقدية "جيدة" في التريبيون، حتى بعد أن أصبحت عضواً في هيئتها. (الحدثان غير مرتبطين). في وقت لاحق من شتاء عام ١٩٣٩ البارد، بدأت أكتب للتريبيون، لكن في البداية والغريب جداً من دون أن أراها بشكل منتظم أو أكون فكرة واضحة عن نوعها كصحيفة. ريموند بوستغيت الذي كان رئيس التحرير آنذاك، طلب مني أن أكتب مراجعات نقدية للروايات بين الحين والآخر. لم يدفع لي أجراً (حتى وقت متأخر، كان من غير العادي أن يدفع للمشاركين من الجناح اليساري) ولم أرَ الجريدة إلا في مناسبات نادرة حين كنت أذهب إلى لندن وأزور بوستغيت في مكتب مجرد من الأثاث ومغبر قرب سور لندن. تريبيون (حتى وقت متأخر كان الكل يسميها (ال) تريبيون) كانت تمر بظروف صعبة في ذلك الوقت. كانت جريدة الثلاثة بنسات، هدفها الأولي هم العمال الصناعيين، وتتبع تقريباً خط الجبهة الشعبية التي تحالفت مع نادي الكتاب اليساري والعصبة الاشتراكية. مع اندلاع الحرب، تعرضت لضربة قاسية، لأن الشيوعيين وأشباه الشيوعيين الذين كانوا من أشد مؤيديها، رفضوا الآن أن يساعدوا في توزيعها. بعضهم استمر في الكتابة لها، وعلى كل حال استمر النزاع العقيم بين "المؤيدين" و"المعارضين" للحرب باللعلعة على أعمدة الصحف، بينما كانت الجيوش الألمانية تتجمع وتحتشد من أجل هجمات الربيع. في وقت مبكر من عام ١٩٤٠ كان هناك اجتماع واسع في قاعة عامة، وكان الغرض منه مناقشة مستقبل التريبيون وسياسة الجناح اليساري لحزب العمال. كالعادة في مثل هذه المناسبات، لم يقل شيء محدد جداً، وما أتذكره بشكل رئيسي هو فكرة سياسية مفيدة تلقيتها من مصدر داخلي. انتهت حملة النرويج بكارثة، ومشيت إلى القاعة ومررت بالملصقات الكئيبة. اثنان من أعضاء البرلمان لن أسميهما وصلا للتو من مبنى البرلمان.

"ما هي الفرصة الموجودة الناتجة عن هذه القضية للتخلص من شامبرلاين؟" سألت.

"ليس هناك أمل. إنه صلب." قالا كلاهما. لا أتذكر التواريخ لكن أعتقد أنه يمكن أن تكون قبل خروج تشامبرلاين من رئاسة الوزراء بأسبوع أو بأسبوعين.

بعد ذلك، خرجت التريبيون من وعيي لستين اثنين، فقد كنت مشغولاً في محاولة كسب الرزق وكتابة كتاب وسط القنابل والخلل العام. وكان الوقت المتوفر لدي يستهلكه الحرس الوطني الذي كان مازال قوة من الهواة، ويحتاج إلى كمية هائلة من العمل من أعضائه. حين أصبحت مدركاً للتريبيون مرة أخرى، كنت أعمل في القسم المشرقي في البي بي سي. إنها الآن صحيفة مختلفة تماماً ولها تركيبة مختلفة، وتكلف ستة بنسات، ومتوجهة نحو السياسة الخارجية بشكل رئيسي، وكانت تكسب جمهوراً جديداً بسرعة من الذين ينتمون إلى فقراء الطبقة الوسطى، وكانت مكانتها عند هيئة العاملين في البي بي سي لافتة جداً. في المكتبات؛ حيث ذهب المعلقون ليجهزوا أنفسهم، كانت واحدة من الدوريات المفضلة، ليس لأنها كانت تكتب من قبل أناس عرفوا شيئاً من مصادر موثوقة عن أوروبا فقط، وإنما لأنها كانت آنذاك الصحيفة الوحيدة التي انتقدت الحكومة. ربما "انتقدت" بأنها أكثر من معتدلة. لقد دخل السير ستافورد كريبس في الحكومة، وشخصية انيورين بيفان أعطت الصحيفة نغمتها وأسلوبها. في مناسبة واحدة كانت هناك هجمات عنيفة بشكل مذهل على تشرشل من قبل شخص سمى نفسه توماس رينزبورو. هذا اسم مزيف بوضوح، وأمضيت فترة بعد الظهر كلها أحاول أن أحدد مؤلف الكتابة من خلال الأسلوب، لأن النقاد الأدبيين الذين وظفهم الجستابو قيل إنهم كانوا يؤلفون كراسات مجهول اسم مؤلفها. أخيراً قررت أن توماس رينزبورو هو فيكتور غالانكس الذي قال لي: "هل تعرف من كتب مقالات رينزبورو في التريبيون؟ سمعت أنه دبليو". هذا جعلني أفخر بنفسي لكوني ذكياً جداً، لكن بعد يوم أو اثنين سمعت أننا نحن الاثنان كنا على خطأ.

خلال هذه الفترة، كنت أكتب للتريبيون بين الفينة والأخرى، لكن على فواصل طويلة لقلة وقتي وطاقتي. على كل حال، في نهاية عام ١٩٤٣ قررت أن أستقيل من وظيفتي في البي بي سي، وطلب مني أن أتولى رئاسة تحرير القسم الأدبي بدلاً من جون أتكينز الذي كان يتوقع التجنيد في الخدمة العسكرية. تابعت كوني محرراً أدبياً بالإضافة إلى كتابة عمود "كما

يرضيني" حتى بداية عام ١٩٤٥. كان عملاً ممتعاً، لكنها ليست فترة أنظر إليها وأتذكرها بفخر. الحقيقة أنني لست ماهراً في التحرير. كنت أكره التخطيط المسبق وعندي عجز نفسي وبدني للرد على الرسائل. أغلب ذكرياتي الأساسية عن تلك الفترة، هي سحب درج هنا وآخر هناك لأجد كلاً منها محشواً برسائل ومخطوطات كان ينبغي التعامل معها قبل أسابيع. فكنت أغلقها ثانية بسرعة. أيضاً لدي ميل قاتل لقبول الكراريس التي أعرف جيداً أنها سيئة جداً ويتعذر طبعها ونشرها. يشك أن كان أي واحد لديه تجربة طويلة كصحفي حر ينبغي أن يصبح محرراً. إنه مثل أخذ مجرمٍ من زنزانته وجعله حاكماً للسجن. لكنها تظل تجربة كما يقولون، ولديّ ذكريات دافئة لمكتبي الضيق الصغير الذي يطل على ساحة خلفية، والثلاثة الذين نتقاسمه انحشرنا في الزاوية حين تأتي الطائرة المحملة بالقنابل التي من دون طيار وتصعد عمودياً بسرعة فوقنا، بعد أن تصطدم القنبلة وتنفجر. في وقت مبكر من عام ١٩٤٥ ذهبت إلى باريس كمراسل للأوبزيرفر. للتريبيون مكانة وهيبة مذهلة في باريس والتي يعود تاريخها إلى ما قبل التحرير. من المستحيل شراؤها، والنسخ العشر التي تأتي للسفارة البريطانية أسبوعياً، لا يمكن أن تخرج خارج جدران البناء. مع ذلك كان الصحفيون الفرنسيون الذين التقيت بهم قد سمعوا بها وعرفوا أنها الصحيفة الوحيدة التي لم تؤيد الحكومة من دون حرج، ولم تعارض الحرب، ولم تبلع الأسطورة الروسية.

في ذلك الوقت، كان هناك -أحب أن أتأكد أنها مازالت موجودة- صحيفة أسبوعية اسمها ليبرتيس، كانت العدو النقيض للتريبيون تقريباً التي أنتجت سراً أثناء الاحتلال، وعلى نفس الآلات كما طبعت باريس زيتونغ. ليبرتيس التي كانت معارضة للغوليين من جانب وللشيوعيين من جانب آخر، لم يكن لديها مال، وكانت توزعها مجموعات من المتطوعين على دراجات هوائية. في بعض الأسابيع كانت تشوهها الرقابة، وغالباً لا يبقى من المقال شيئاً سوى العنوان مثل "الحقيقة حول الهند الصينية" وعمود فارغ تماماً تحته. بعد أسبوع أو اثنين من وصولي إلى باريس، أخذت إلى اجتماع شبه عام لمؤيدي ليبرتيس، ودهشت حين وجدت أن نصفهم تقريباً يعرفون كل شيء عن التريبيون. رجل عامل ضخم في سروال قماشي أسود جاء إليّ وهتف "أنت جورجس أورفيل!" وحطم عظام يدي تقريباً وحولها إلى هريسة. لقد سمع بي، لأن ليبرتيس كانت تترجم مقاطع من التريبيون عادة. أعتقد أن أحد المحررين كان

يذهب إلى السفارة البريطانية كل أسبوع ويطلب رؤية نسخة. بدا لي الأمر مؤثراً أن يستطيع المرء اكتساب جمهور من دون معرفته وسط أناس يحبون هذا، بينما لم أصادف واحداً وسط قبيلة ضخمة من الصحفيين الأمريكيين في هوتيل سكرايب بلباسهم الموحد المبهرج ورواتبهم الضخمة قد سمع بصحيفة التريبيون. لستة شهور خلال صيف عام ١٩٤٦ تخليت عن كوني كاتباً في التريبيون، وأصبحت مجرد قارئ، ولا شك أنه من حين إلى آخر سوف أعمل نفس الشيء ثانية؛ لكنني آمل أن تستمر رفقتي معها طويلاً، وأتمنى أن أكتب فيها مقالة في العام ١٩٥٧ في عيدها السنوي مرة أخرى. أنا لا أتمنى أن تكون التريبيون قد ذبحت كل منافسيها. لقد أخذت كل الضروب لتخلق عالماً، وإن استطاع المرء تحليل هذه الأشياء، سيكتشف أن حتى تقديم الخدمات هو هدف مفيد. يفترض أن أعرف أن التريبيون ليست كاملة ومثالية، فقد رأيتها من الداخل. لكنني أعتقد أنها الصحيفة الأسبوعية الوحيدة الموجودة التي تبذل جهداً صادقاً لتكون تقدمية وإنسانية - أي لتجمع سياسة اشتراكية راديكالية مع احترام لحرية التعبير والموقف الحضاري نحو الأدب والفنون، وأعتقد أن شعبيتها النسبية وحتى بقاءها حية في شكلها الحالي منذ أكثر من خمس سنوات، هي علامة مشجعة.

التريبيون ١ فبراير/ شباط ١٩٤٧.

مؤخراً كنت أفتش في كتاب السيد بيتر هونت رجل حول البيت، والذي نشرته بايلوت بريس قبل شهر أو شهرين.

إن الكتب التي تخبرك كيف تقوم بالتصليحات المنزلية وافرة، لكنني أعتقد أن هذا الكتاب أفضل ما رأيت. يجمع المؤلف تجربته بالطريقة الصعبة، وذلك بتولي بيت متداعٍ ومهجور تقريباً وجعله قابلاً للسكن بيديه. لهذا هو يركز على نوع من المصاعب التي تظهر فعلياً في الحياة الحقيقية، وليس مثل مؤلف كتاب آخر في حيازتي، يخبرك كيف تصلح ستارات فينسية بينما يتجاهل التركيبات الكهربائية. بحثت عن المصائب المنزلية التي أُجبرت على التعامل معها أثناء العام الماضي، ووجدتها كلها مذكورة باستثناء مشكلة الفئران التي من الصعب ربما أن تدرج تحت عنوان الديكور والتصليح. كتب الكتاب أيضاً بلغة بسيطة وفيه شروحات كافية وجيدة، ويأخذ في حسبانه صعوبة الحصول على الأدوات والمواد في الوقت الحالي.

لكني أعتقد أن هناك مكاناً لكتاب كبير جداً وشامل من هذا النوع، نوع من معجم أو موسوعة مع كل مهنة منزلية يمكن تخيلها مجدولة بعناوين حسب الترتيب الأبجدي. يمكنك أن تفتش عن عنوان حنفيات، كيف توقف التنقيط، أو عنوان ألواح الأرضيات، أسباب أصوات الصرير، بنفس الثقة في الحصول على الجواب الصحيح حين تبحث عن كعكة المادريا أو الخبز المحمص وفوقه الجبنة المذابة الايرلندية في كتاب الطبخ للسيدة بيتون. في الزمن الماضي كان ينظر إلى الرجل الهاوي الذي يقوم بأعمال مختلفة مع مطرقة مساميره وجيبه المملوء بالسدادات (بيشونات)، بأنه مجرد شخص غريب الأطوار وعنصر هزل بالنسبة إلى أصدقائه ومزعج بالنسبة إلى جماعته النسائية. لكن في هذه الأيام، إما أن تقوم بتصليحاتك المنزلية بنفسك أو هم يقومون بها لك. وأغلبنا لازال عاجزاً بشكل لافت. كم شخصاً تعرفه يستطيع استبدال الحبل الذي يرفع وينزل النافذة مثلاً؟

كما يبين السيد هونت، أن الكثير من أعمال السمكرة التي تجري الآن، ستكون غير ضرورية أو أسهل بكثير لو بنيت بيوتنا بطريقة عاقلة وذكية. حتى شيء كاحتراس بسيط مثل وضع علبة فواصم في أماكن سهلة، ستوفر الكثير من إزعاج العمل البائس في نصب رفوف يمكن أن يبسط بشكل كبير جداً من دون أي مواد إضافية أو تغيير جذري في الأساليب. سمعت إشاعات أن البيوت الجديدة التي تبنى الآن ستوضع فيها الأنابيب بمكان لا تتجمد فيه، لكن لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً بالتأكيد. سوف يكون عقبة في مكان ما، وسيحدث التجمد السنوي كالعادة. انفجارات الأنابيب جزء من الشتاء الإنكليزي، وهي ليست أقل من الفطائر الرقيقة والكستناء المشوية. وبلا شك لكان شكسبير ذكرها في الأغنية التي في نهاية جهود المعشوق الضائعة، لو كانت هناك أنابيب مياه في تلك الأيام.

من المبكر جداً الابتهاج والتهليل، لكن يجب أن أقول إن ظواهر التجمد الجديدة أصبحت أقل بغضاً وإزعاجاً من مثيلاتها في عام ١٩٤٠. في تلك المناسبة، لم يسقط الثلج، في تلك القرية التي عشت فيها، لمدة أكثر من أسبوع فقط، وكان من المستحيل الخروج منها، أو أن تصل إليها أي عربة طعام، لكن كل حنفية أو مضخة في القرية تجمدت بقسوة، لدرجة أننا بقينا عدة أيام بلا ماء ماعدا الثلج المذاب. الشيء الكريه في هذا، أن الثلج ملوث دائماً ماعدا بعد هطوله مباشرة. وقد لاحظت هذا حتى في القمم العالية لجبال الأطلس على بعد أميال من المساكن

البشرية. الثلج الأبدي الذي يبدو طاهراً وعذرياً جداً، هو في الحقيقة وسخ بشكل واضح حين تقترب منه.

في الوقت الذي عاد فيه السير ستافورد كريبس من الهند، سمعت تعليقاً بأن عرض كريبس لم يمتد ليشمل بورما، لأن البورميين كانوا سيقبلون به. أنا لا أعرف إن كان مثل هكذا اعتبار يدخل في أذهان تشرشل والبقية. بأي حال، أعتقد أن سياسين بورميين مسؤولين كانوا سيقبلون بالعرض، رغم أن بورما في تلك اللحظة كانت في سياق عملية اجتياح يابانية لها. أيضاً أعتقد أن عرض وضع الدمينيون (سلطة تعترف بالسيادة البريطانية -المترجم) كان سيقبل به بسرور لو قدمناه في عام ١٩٤٤ وحددنا تاريخاً. كما هو الحال، شكوك البورميين أثيرت وستنتهي ربما بالخروج من بورما بشروط هي الأقل فائدة لكلا البلدين. إن حدث ذلك، أحب أن أعتقد أن وضع الأقليات العرقية يمكن أن يضمن بشيء أفضل من الوعود. تبلغ أعدادهم من عشرة إلى عشرين بالمئة من السكان، ويمثلون أنواعاً مختلفة من المشكلة. أكبر مجموعة هم الكارين، مقاطعة عرقية. الكاشين وقبائل حدودية أخرى متخلفة جداً أكثر وتختلف أكثر عن البورميين في العادات والمظهر. لم يكونوا تحت الحكم البورمي. في الواقع، لم تكن مناطقهم محتلة إلا بصورة شكلية حتى من قبل البريطانيين. في الماضي كانوا قادرين على الحفاظ على استقلالهم، لكنهم على الأرجح لن يكونوا قادرين على أن يفعلوا ذلك بوجه الأسلحة الحديثة. الجماعة الكبيرة الأخرى، الشان، الذي يقربون عرقياً للسياميين، نعموا بآثار ضعيفة من الاستقلال الذاتي تحت الحكم البريطاني. الأقلية التي في أصعب وضع من كل الأقليات هم الهنود.

هناك أكثر من مليون منهم في بورما قبل الحرب. مئتا ألف منهم فروا إلى الهند في زمن الغزو الياباني -فعل يوضح بشكل أفضل من أن توضحه أي كلمات- وضعهم الحقيقي في البلاد.

أتذكر قبل عشرين سنة، قال لي كارين "أتمنى أن يبقى البريطانيون في بورما لمدة مائتي سنة" "لماذا؟"- "لأننا لا نتمنى أن يحكمنا البورميون" حتى في ذلك الوقت، فكرت أن هذا سيصبح مشكلة عاجلاً أو آجلاً. حقيقة أن قضية الأقليات مشكلة لا تحل طالما بقيت القومية قوة حقيقية. رغبة بعض الناس في بورما هي حكم ذاتي حقيقي، لكنه لن ينفذ بأي

طريقة آمنة، إلا إذا تدخلت سيادة بورما ككل. نفس المشكلة تظهر في مئة مكان آخر. هل يجب أن تستقل السودان عن بريطانيا؟ وهلم جرا. كلما اضطهد ألف باء، من الواضح للناس الطيبين أن باء يجب أن يكون مستقلاً، لكن عندها يظهر أن هناك جماعة أخرى هي جيم التي تكون متلهفة أن تستقل عن باء. السؤال دائماً هو كم يجب أن يكون حجم الأقلية قبل أن تستحق الحكم الذاتي. الأفضل التعامل مع كل حالة بفضائلها بطريقة فظة وجاهزة: عملياً، لا أحد متناسق في تفكيره حول هذا الموضوع، والأقليات التي تفوز بأكبر قدر من التعاطف، هي تلك التي تملك أفضل وسيلة إشهار ودعاية. من الذي هناك يناصر ويدافع بالتساوي عن اليهود والبايت والأندونيسيين والألمان المطرودين والسودانيين والمنبوذين الهنود والكافير الجنوب أفريقيين؟ التعاطف مع مجموعة ما يستلزم بشكل شبه ثابت قسوة تجاه أخرى.

حين أعادت بنغوان لايبراري نشر رواية إتش جي ويلز **جزيرة الدكتور مورو** بحثت لأرى إن كانت الزلات والأخطاء المطبعية التي تذكرتها في الطبعات السابقة قد تكررت فيها. من المؤكد أنها مازالت هناك. أحد هذه الأخطاء خطأ مطبعي غبي بشكل خاص من النوع الذي يجعل أغلب الكتاب يتضايقون جداً. في عام ١٩٤١ أشرت إلى إتش جي ويلز عن هذا، وسألته لماذا لم يزله. لقد استمر في طبعة تلو أخرى منذ عام ١٨٩٦. ولدهشتي، قال إنه تذكر الخطأ المطبعي لكنه لم يكترث به. لم يعد يهتم البتة بكتبه السابقة: لقد كتبت منذ زمن بعيد لدرجة لم يعد يشعر أنها جزء من نفسه. أنا لست متأكداً أبداً إن كنت سأعجب بهذا الموقف أم لا. من الرائع أن تكون متحرراً تماماً من الغرور الأدبي. ومع ذلك إن أي كاتب بمواهب ويلز لو كان لديه أي قدرة على النقد الذاتي أو الاحترام لسمعته وشهرته الخاصة به، لكان سينتج في خمسين سنة خمسة وتسعين كتاباً، ثلثيها لم يعد مقروءاً؟

٧ فبراير/ شباط ١٩٤٧.

مؤخراً كنت أفتش في كتاب السيد بيتر هونت **رجل حول البيت**، والذي نشرته بايلوت بريس قبل شهر أو شهرين.

إن الكتب التي تخبرك كيف تقوم بالتصليحات المنزلية وافرة، لكنني أعتقد أن هذا الكتاب أفضل ما رأيت. يجمع المؤلف تجربته بالطريقة الصعبة، وذلك بتولي بيت متداعٍ ومهجور

تقريباً وجعله قابلاً للسكن بيديه. لهذا هو يركز على نوع من المصاعب التي تظهر فعلياً في الحياة الحقيقة، وليس مثل مؤلف كتاب آخر في حيازتي، يخبرك كيف تصلح ستارات فينسية بينما يتجاهل التركيبات الكهربائية. بحثت عن المصائب المنزلية التي أُجبرت على التعامل معها أثناء العام الماضي، ووجدتها كلها مذكورة باستثناء مشكلة الفئران التي من الصعب ربما أن تدرج تحت عنوان الديكور والتصليح. كتب الكتاب أيضاً بلغة بسيطة وفيه شروحات كافية وجيدة، ويأخذ في حسبانه صعوبة الحصول على الأدوات والمواد في الوقت الحالي.

لكني أعتقد أن هناك مكاناً لكتاب كبير جداً وشامل من هذا النوع، نوع من معجم أو موسوعة مع كل مهنة منزلية يمكن تخيلها مجدولة بعناوين حسب الترتيب الأبجدي. يمكنك أن تفتش عن عنوان حنفيات، كيف توقف التنقيط، أو عنوان ألواح الأرضيات، أسباب أصوات الصرير، بنفس الثقة في الحصول على الجواب الصحيح حين تبحث عن كعكة المادريا أو الخبز المحمص وفوقه الجبنة المذابة الايرلندية في كتاب الطبخ للسيدة بيتون. في الزمن الماضي كان ينظر إلى الرجل الهاوي الذي يقوم بأعمال مختلفة مع مطرقة مساميره وجيبه المملوء بالسدادات (بيشونات)، بأنه مجرد شخص غريب الأطوار وعنصر هزل بالنسبة إلى أصدقائه ومزعج بالنسبة إلى جماعته النسائية. لكن في هذه الأيام، إما أن تقوم بتصليحاتك المنزلية بنفسك أو هم يقومون بها لك. وأغلبنا لازال عاجزاً بشكل لافت. كم شخصاً تعرفه يستطيع استبدال الحبل الذي يرفع وينزل النافذة مثلاً؟

كما يبين السيد هونت، أن الكثير من أعمال السمكرة التي تجري الآن، ستكون غير ضرورية أو أسهل بكثير لو بنيت بيوتنا بطريقة عاقلة وذكية. حتى شيء كاحتراس بسيط مثل وضع علبة فواصم في أماكن سهلة، ستوفر الكثير من إزعاج العمل البائس في نصب رفوف يمكن أن يبسط بشكل كبير جداً من دون أي مواد إضافية أو تغيير جذري في الأساليب. سمعت إشاعات أن البيوت الجديدة التي تبنى الآن ستوضع فيها الأنابيب بمكان لا تتجمد فيه، لكن لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً بالتأكيد. سوف يكون عقبة في مكان ما، وسيحدث التجمد السنوي كالعادة. انفجارات الأنابيب جزء من الشتاء الإنكليزي، وهي ليست أقل من الفطائر الرقيقة والكستناء المشوية. وبلا شك لكان شكسبير ذكرها في الأغنية التي في نهاية جهود المعشوق الضائعة، لو كانت هناك أنابيب مياه في تلك الأيام.

من المبكر جداً الابتهاج والتهليل، لكن يجب أن أقول إن ظواهر التجمد الجديدة أصبحت أقل بغضاً وإزعاجاً من مثيلاتها في عام ١٩٤٠. في تلك المناسبة، لم يسقط الثلج، في تلك القرية التي عشت فيها، لمدة أكثر من أسبوع فقط، وكان من المستحيل الخروج منها، أو أن تصل إليها أي عربة طعام، لكن كل حنفية أو مضخة في القرية تجمدت بقسوة، للدرجة أننا بقينا عدة أيام بلا ماء ماعدا الثلج المذاب. الشيء الكريه في هذا، أن الثلج ملوث دائماً ماعدا بعد هطوله مباشرة. وقد لاحظت هذا حتى في القمم العالية لجبال الأطلس على بعد أميال من المساكن البشرية. الثلج الأبدي الذي يبدو طاهراً وعذرياً جداً، هو في الحقيقة وسخ بشكل واضح حين تقترب منه.

في الوقت الذي عاد فيه السير ستافورد كريبس من الهند، سمعت تعليقاً بأن عرض كريبس لم يمتد ليشمل بورما، لأن البورميين كانوا سيقبلون به. أنا لا أعرف إن كان مثل هكذا اعتبار يدخل في أذهان تشرشل والبقية. بأي حال، أعتقد أن سياسين بورميين مسؤولين كانوا سيقبلون بالعرض، رغم أن بورما في تلك اللحظة كانت في سياق عملية اجتياح يابانية لها. أيضاً أعتقد أن عرض وضع الدمينيون (سلطة تعترف بالسيادة البريطانية – المترجم) كان سيقبل به بسرور لو قدمناه في عام ١٩٤٤ وحددنا تاريخاً. كما هو الحال، شكوك البورميين أثيرت وستنتهي ربما بالخروج من بورما بشروط هي الأقل فائدة لكلا البلدين. إن حدث ذلك، أحب أن أعتقد أن وضع الأقليات العرقية يمكن أن يضمن بشيء أفضل من الوعود. تبلغ أعدادهم من عشرة إلى عشرين بالمئة من السكان، ويمثلون أنواعاً مختلفة من المشكلة. أكبر مجموعة هم الكارين، مقاطعة عرقية. الكاشين وقبائل حدودية أخرى متخلفة جداً أكثر وتختلف أكثر عن البورميين في العادات والمظهر. لم يكونوا تحت الحكم البورمي. في الواقع، لم تكن مناطقهم محتلة إلا بصورة شكلية حتى من قبل البريطانيين. في الماضي كانوا قادرين على الحفاظ على استقلالهم، لكنهم على الأرجح لن يكونوا قادرين على أن يفعلوا ذلك بوجه الأسلحة الحديثة. الجماعة الكبيرة الأخرى، الشان، الذي يقربون عرقياً للسياميين، نعموا بآثار ضعيفة من الاستقلال الذاتي تحت الحكم البريطاني. الأقلية التي في أصعب وضع من كل الأقليات هم الهنود.

هناك أكثر من مليون منهم في بورما قبل الحرب. مئتا ألف منهم فروا إلى الهند في زمن الغزو الياباني -فعل يوضح بشكل أفضل من أن توضحه أي كلمات- وضعهم الحقيقي في البلاد.

أتذكر قبل عشرين سنة، قال لي كارين "أتمنى أن يبقى البريطانيون في بورما لمدة مائتي سنة" "لماذا؟"- "لأننا لا نتمنى أن يحكمنا البورميون". حتى في ذلك الوقت، فكرت أن هذا سيصبح مشكلة عاجلاً أو آجلاً. حقيقة أن قضية الأقليات مشكلة لا تحل طالما بقيت القومية قوة حقيقية. رغبة بعض الناس في بورما هي حكم ذاتي حقيقي، لكنه لن ينفذ بأي طريقة آمنة، إلا إذا تدخلت سيادة بورما ككل. نفس المشكلة تظهر في مئة مكان آخر. هل يجب أن تستقل السودان عن بريطانيا؟ وهلم جرا. كلما اضطهد ألف باء، من الواضح للناس الطيبين أن باء يجب أن يكون مستقلاً، لكن عندها يظهر أن هناك جماعة أخرى هي جيم التي تكون متلهفة أن تستقل عن باء. السؤال دائماً هو كم يجب أن يكون حجم الأقلية قبل أن تستحق الحكم الذاتي. الأفضل التعامل مع كل حالة بفضائلها بطريقة فظة وجاهزة: عملياً، لا أحد متناسق في تفكيره حول هذا الموضوع، والأقليات التي تفوز بأكبر قدر من التعاطف، هي تلك التي تملك أفضل وسيلة إشهار ودعاية. من الذي هناك يناصر ويدافع بالتساوي عن اليهود والبايت والأندونيسيين والألمان المطرودين والسودانيين والمنبوذين الهنود والكافير الجنوب أفريقيين؟ التعاطف مع مجموعة ما يستلزم بشكل شبه ثابت قسوة تجاه أخرى.

حين أعادت بنغوان لايبراري نشر رواية إتش جي ويلز **جزيرة الدكتور مورو** بحثت لأرى إن كانت الزلات والأخطاء المطبعية التي تذكرتها في الطبعات السابقة قد تكررت فيها. من المؤكد أنها مازالت هناك. أحد هذه الأخطاء خطأ مطبعي غبي بشكل خاص من النوع الذي يجعل أغلب الكتاب يتضايقون جداً. في عام ١٩٤١ أشرت إلى إتش جي ويلز عن هذا، وسألته لماذا لم يزله. لقد استمر في طبعة تلو أخرى منذ عام ١٨٩٦. ولدهشتي، قال إنه تذكر الخطأ المطبعي لكنه لم يكترث به. لم يعد يهتم البتة بكتبه السابقة: لقد كتبت منذ زمن بعيد لدرجة لم يعد يشعر أنها جزء من نفسه. أنا لست متأكداً أبداً إن كنت سأعجب بهذا الموقف أم لا. من الرائع أن تكون متحرراً تماماً من الغرور الأدبي. ومع ذلك إن أي كاتب بمواهب ويلز

لو كان لديه أي قدرة على النقد الذاتي أو الاحترام لسمعته وشهرته الخاصة به، لكان سينتج في خمسين سنة خمسة وتسعين كتاباً، ثلثيها لم يعد مقروءاً؟

١٤ فبراير شباط ١٩٤٧.

هذه مقتطفات من رسالة من قومجي اسكتلندي. حذفت كل ما يكشف عن هوية الكاتب. الإشارات المتكررة إلى بولندا هناك، لأن الرسالة تتعلق بوجود البولونيين المنفيين في اسكتلندا:

اكتشفت القوات البولونية الآن كم هو غير صحيح القول "إن كلمة الرجل الإنكليزي هي رباطه وتعهده" كان غزو بولندا مجرد عذر لقطاع الطرق الذين في قبعات سوداء عالية كي يهزموا منافسيهم الألمان واليابانيين بمساعدة الأمريكان البولونيين والاسكتلنديين والفرنسيين إلخ إلخ. وبالتأكيد لم يعد هناك بولوني واحد بعد الآن يصدق أي وعود إنكليزية. الآن، وبعد أن انتهت الحرب، أنتم يجب رميكم جانباً كالنفاية في اسكتلندا. إن كان هذا يؤدي إلى احتكاك بين البولونيين والاسكتلنديين، فسيكون ذلك أفضل بكثير. دعهم يقطعون حلوق بعضهم البعض، وبالتالي ستحل مشكلتان. عزيزتي إنكلترا الصغيرة اللطيفة! حان الوقت لكي يسقط البولونيون كل فكرة لديهم عن إنكلترا كمناصر ومحارب من أجل الحرية. انظروا إلى تاريخها وسجلها في اسكتلندا مثلاً. ورجاء لا تشيروا إلينا بـ "بريتونز". ليس هناك عرق كهذا. نحن اسكتلنديون، وهذا يكفينا ويناسبنا. الإنكليز بدلوا اسمهم إلى بريطانيين، لكن حتى لو بدل مجرم اسمه، فإنه يُعرف من بصمات أصابعه....... رجاء تغاضوا عن أي تصريح معادٍ للبولونيين في الـ - - -. إنه خرقة متملقة مؤيدة للإنكليز (كما يسميه مؤيدو موسكو). اسكتلندا جربتها في يالطا في عام ١٧٠٧ حين أنجز الذهب الإنكليزي ما عجزت عنه البنادق الإنكليزية. لكننا لن نقبل الهزيمة. بعد أكثر من مئتي سنة لانزال نقاتل من أجل بلادنا، ولن نعترف بالهزيمة مهما كانت الاحتمالات.

هناك الكثير في الرسالة، لكن هذا كافٍ. يلاحظ أن الكاتب يهاجم إنكلترا من وجهة نظر "يسارية"، لكن على أساس أن اسكتلندا وإنكلترا عدوتان كأمتين. لا أعرف إن كان من المناسب أن نقرأ نظرية عرقية داخل الرسالة، لكن الأكيد أن الكاتب يكرهنا بشدة كما يكره نازي مخلص يهودياً. إنه ليس كره الطبقة الرأسمالية أو أي شيء مثل ذلك، وإنما كره إنكلترا.

ورغم أن الواقعة لم تتحقق بشكلها الكامل، إلا أن هناك مقداراً مدركاً من هذا الشيء يتجول. رأيت بيانات وتصريحات مساوية في عنفها تقريباً في الطباعة.

يبدو أن الحركة القومية الاسكتلندية الجديدة جرى تجاهلها في إنكلترا. لنأخذ أقرب مثال في متناولنا، أنا لا أتذكر أنني رأيتها تذكر في التريبيون، باستثناء المراجعات النقدية للكتب أحياناً. صحيح أنها حركة صغيرة، ولكن يمكن أن تكبر لأن هناك أساس لها. في هذه البلاد، لا أعتقد أنها أدركت تماماً- أنا نفسي لم يكن لدي أي فكرة عنها حتى قبل بضع سنين- إن اسكتلندا لها قضية ضد إنكلترا. على أسس اقتصادية ربما ليست قضية قوية. في الماضي، بالتأكيد، نحن نهبنا اسكتلندا بشكل مخزٍ، لكن إن كان صحيحاً الآن أن إنكلترا ككل تستغل اسكتلندا ككل أم لا، وأن اسكتلندا ستكون أفضل إن حصلت على استقلال تام، هي قضية أخرى.

المغزى أن الكثيرين من الاسكتلنديين من أصحاب الرأي المعتدل، بدؤوا يفكرون بالحكم الذاتي ويشعرون أنهم أقحموا في وضع متدنٍ. لديهم قدر جيد من التبرير. في بعض المناطق، اسكتلندا بلاد شبه محتلة. لديك طبقة عليا إنكليزية أو متشبهة بالإنكليز وطبقة عاملة اسكتلندية تتكلم بلهجة مختلفة بوضوح أو حتى بلغة مختلفة في بعض الوقت. هذا نوع من الانقسام الطبقي أخطر من أي شيء متواجد الآن في إنكلترا. بسبب الظروف المواتية، قد يتطور بطريقة قبيحة. وحقيقة وجود حركة عمالية تقدمية في لندن، لن يشكل فرقاً كبيراً.

لا شك أن أمراض اسكتلندا الرئيسية، سوف تشفى بالتوازي مع أمراض إنكلترا. لكن في الوقت الراهن هناك أشياء يمكن فعلها لتغطي الوضع الثقافي. نقطة صغيرة لكنها ليست تافهة، هي اللغة. في مناطق التي تتكلم الغيلية، لا تعلم الغيلية في المدارس. أنا أتكلم من تجربة محدودة، لكن يجب أن أقول إن هذا هو بداية التسبب بالامتعاض. أيضاً، البي بي سي لا تبث سوى برنامجين أو ثلاث بالغيلية أسبوعياً، مدة الواحد نصف ساعة، وتعطيك انطباعاً بأنها برامج هواة، ومع هذا تسمع بتشوق. كم يكون سهلاً شراء رضى وود قليل ببث برنامج بالغيلية مرة في اليوم على الأقل.

سابقاً كان سيقال إنه من السخف إبقاء لغة قديمة كالغيلية مثلاً لا يتكلم بها سوى بضعة مئات آلاف من الناس. الآن أنا لست متأكداً جداً. بداية، إن شعر الناس بأنهم يمتلكون ثقافة خاصة يجب الحفاظ عليها، وأن اللغة جزء منها، يجب ألا توضع الصعوبات في طريقهم حين

يريدون أن يتعلمها أولادهم بشكل صحيح. يتكلم الناطقون بالغيلية الاسكتلندية لغة إنكليزية جميلة في اعتقادي، لأن الإنكليزية لغة أجنبية تقريباً، لا يستخدمونها لمدة أيام معاً أحياناً، وربما هم استفادوا ثقافياً بأنهم كانوا مطلعين على المعاجم والقواعد النحوية.

بأي مقياس، أعتقد أنه يجب أن ننتبه أكثر إلى حركات الانفصاليين الصغيرة، لكنها عنيفة التي تتواجد ضمن جزيرتنا. قد تبدو غير مهمة الآن. لكن البيان الشيوعي كان وثيقة مغمورة جداً مرة، وكان أعضاء الحزب النازي ستة حين انضم إليه هتلر.

لنبدل الموضوع قليلاً، هذا مقتطف من رسالة أخرى. إنها من شخص يعمل في تقطير الويسكي:

نحن آسفون لأننا أجبرنا على مضض أن نعيد شيكك، بسبب فشل السيد ستارتشي في إنجاز وعده في توفير شعير من أجل التقطير في اسكتلندا. لا نجرؤ أن نتعهد بأي عمل تجاري جديد........ حين تجد صعوبة في الحصول على جرعة شراب، ستكون السلوى أن تعرف أن السيد ستارتشي أرسل ٣٥ ألف طن من الشعير إلى ايرلندا المحايدة لأغراض تخميرها من أجل الجعة.

يجب أن يشعر الناس بالغضب الشديد حين يذكرون هذا النوع من الشيء في رسالة عمل تبدو رسالة دورية (ترسل لعدة أشخاص). هي ليست مهمة جداً، لأن مقطري الويسكي وحتى زبائنهم لا يشكلون أصواتاً انتخابية كثيرة. لكني أود أن أتأكد من أن الأشخاص الذين يبدون تعليقات كالتي وصلت إلى مسمعي في طابور أمام بقالية يوم أمس -"حكومتنا هم لا يحكمون على محل نقانق، هذا العدد لا يستطيع - كانوا قليلين جداً بالعدد كذلك.

سكيلتون شاعر ليس من السهل امتلاكه، وأنا لم أمتلك بعد نسخة كاملة من أعماله حتى الآن. حديثاً، في باقة اخترتها، بحثت وفشلت كي أجد قصيدة أتذكر أنني قرأتها منذ سنين مضت. كانت قصيدة مكتوبة بلغتين قسم بالإنكليزية وقسم باللاتينية- وكانت رثاء لموت شخص ما أو آخر. المقطع الوحيد الذي أتذكره:

سيبولتوس إيست وسط الطحالب -الأشخاص الضارين- ثياب الحداد/ الرب غفر له ذنوبه/ مع هي هو رامبيلو/ رامبوبولورم/ سايكيولا سايكيلورم.

لقد علقت بذهني لأنها تعبر عن وجهة نظر مستحيلة تماماً في عصرنا. في الوقت الحالي ليس هناك أحد حرفياً يستطيع أن يكتب عن الموت بتلك الطريقة المتفائلة. منذ ضعف الاعتقاد في الخلود الشخصي، لم يبدُ الموت شيئاً مضحكاً أبداً، وسيمر وقت طويل قبل أن يكون هكذا مرة أخرى. لهذا فإن اختفاء النقش المرح على الضريح، كان ميزة شائعة في المقابر الريفية. وسوف أدهش إن رأيت نقشاً هزلياً على ضريح يعود تاريخه إلى ما بعد عام ١٨٥٠. هناك واحد في كيو إن كنت أتذكر جيداً، ربما يكون في ذلك التاريخ تقريباً. حوالي نصف شاهدة الضريح مغطاة بمديح طويل من قبل زوج أثكل لزوجته الميتة. في أسفل الشاهدة نقش متأخر يقول: "الآن لقد رحل هو أيضاً".

واحد من أفضل النقوش على الأضرحة الإنكليزية، هو نقش لاندور عن درايس، اسم مستعار لشخص لا أعرفه. إنه ليس هزلياً تماماً لكنه مدنس جوهرياً. لو كنت امرأة، سيكون نقشي المفضل- أي أنه سيكون النقش الذي أحب أن يكون لي. يقول:

قف قريباً من المكان، ستايغان جلس/ لينقل مع درايس في قارب واحد/ أو شارون، لأنه ربما نسي/ أنه عجوز وهي ظل.

أن تكون تلك الكتابة من أجلك وعنك، هو شي يستحق الموت تقريباً.

٢١ فبراير/ شباط ١٩٤٧

نشرت المقالة في مانشستر إيفنينغ نيوز من أجل التريبيون.

للأسبوع الثالث والرابع من فبراير/ شباط عام ١٩٤٧، فإن المجلات النقدية الأسبوعية الوطنية وكثير من تجارة الصحف، أوقفت من النشر بأمر من الحكومة بسبب النقص الحاد في الوقود وانقطاعات الكهرباء الناتجة عن ذلك. للمساعدة أثناء الأزمة، عرضت كل من الأوبزيرفر ومانشستر إيفنينغ نيوز والديلي هيرالد على التريبيون استضافة أعمدتها. يشير أورويل إلى التعليق وخسارة التريبيون لدخلها في رسالته إلى دوايت مكدونالد في ٢٦ فبراير/ شباط عام ١٩٤٧. التالي العمود الذي يكتبه أورويل للتريبيون كل أسبوع:

إن الخبر الذي تكرر للمرة الثانية في الأشهر القليلة الأخيرة عن منع مسرحية من العرض، وقيام محطة البي بي سي ببثها (ربما يمكنها ذلك من كسب جمهور أكبر مما لو مثلت على المسرح) يثير مرة أخرى سخف القوانين التي تحكم الرقابة الأدبية في بريطانيا.

إن المسرحيات والأفلام هي الوحيدة التي يجب أن تخضع للرقابة قبل أن تظهر. بالنسبة إلى الكتب، فيمكنك طبع ما تحب وتتحمل خطر المقاضاة. وهكذا يمكن لمسرحيات منعت سابقاً مثل مسرحية غرانفيل باركر "ضياع" ومسرحية برنارد شو "مهنة السيدة وران"، أن تظهر على شكل كتاب فوراً من دون التعرض إلى خطر المقاضاة، ويباع بشكل أفضل مستغلاً الفضيحة التي حدثت مسبقاً. من الإنصاف القول إن كانت مسرحيات جيدة، المسرحيات الممنوعة ترى النور عادة عاجلاً أو أجلاً. حتى مسرحية "ضياع" التي تحدثت عن السياسة والجنس أيضاً، سوف يسمح لها بالظهور أخيراً، بعد أن كتبت، حين يتلاشى الحديث عن طبيعة الموضوع الذي أعطاه القدر الأكبر من قوتها.

إن المشكلة مع رقابة اللورد تشامبرلاين على المسرح، ليست لأنها تحدث، وإنما لأنها غبية بربرية يقوم بها بيروقراطيون يفتقرون إلى أي تعليم أدبي. إن وجب أن تكون هناك رقابة، فمن الأفضل أن تحدث مسبقاً لكي يعرف المؤلف أين يقف. إن منع الكتب نادر في بريطانيا، لكن المنع الذي يحدث اعتباطي تماماً عادة. "بئر العزلة" مثلاً منع، بينما ظهرت كتب أخرى لها نفس الموضوع بنفس الوقت ومرت من دون أن تُلاحظ.

إن الكتاب الذي يسقط ويمنع، هو الكتاب الذي يصدف أن يلفت انتباه موظف أمي. ربما نصف الروايات المنشورة الآن، كانت ستعاني نفس المصير لو صدف وأن وصلت إلى الأيدي الصحيحة. في الحقيقة -رغم أن الموتى يحترمون دائماً، أشك إن كان بترونيوس أو تشوسر أو رابيلياس أو شكسبير سينجون من تشويه الرقابة لو كان قضاتنا وشرطيونا قراء أكبر.

التريبيون ٢٨ فبراير/ شباط ١٩٤٧
نشرتها مانشستر إيفنينغ نيوز للتريبيون

يلاحظ المرء شيئاً واحداً في هذه الأيام حين أصبحت آلات الكتابة نادرة جداً، ألا وهو السوء المذهل لخط يد كل شخص تقريباً. لقد بات خط اليد الذي يسر النظر وتسهل قراءته،

شيئاً نادراً الآن. لإحداث تحسن، علينا أن نطور "أسلوباً" مقبولاً من الكتابة، كالذي كنا نملكه في الماضي وفقدناه الآن.

لقرون كثيرة في العصور الوسطى، كتب الناسخون المحترفون المخطوط المتقن والرائع، أو بالأحرى سلسلة من المخطوطات التي لا يستطيع أحد حي أن يضاهيها الآن. ثم انحدرت الكتابة باليد التي انتعشت في القرن التاسع عشر بعد اختراع قلم الحبر المعدني. كانت الكليشهات النحاسية أسلوب الطباعة المفضل بعدئذ، وكان أنيقاً ومقروءاً لكنه مليء بخطوط غير ضرورية، لم تناسب النزعة الحديثة في التخلص من الزخرفة أينما أمكن. ثم أصبح الزي الدارج هو تعليم الأطفال كتابة المخطوط بنتائج كارثية عادة. لتكتب مخطوطاً بأناقة حقيقية، عليك عملياً أن تتعلم الرسم، ويستحيل عليك أن تكتبه بسرعة الكتابة المتصلة. الكثير من الشبان والأحداث الآن يستخدمون تسوية صعبة بين المخطوط والكليشيه النحاسية. وفي الحقيقة هناك الكثير من البالغين والناس المتعلمين جداً الذين لم تتشكل أبداً كتابتهم اليدوية بشكل لائق.

من المشوق أن نعرف إن كان هناك أي ارتباط بين خط اليد الأنيق والمقدرة الأدبية. يجب أن أقول إن النماذج الحديثة التي أقدر على التفكير فيها، لا تثبت الكثير كما يبدو. الآنسة ريبيكا ويست لديها خط يد رائع، وأيضاً السيد ميدلتون موري، أما السير سيتويل والسيد ستيفن سبيندر والسيدة إيفلين واو فكتابتهم اليدوية- أقولها بأدب قدر الإمكان- ليست جيدة. البروفيسور لاسكي يكتب بخط جذاب، لكن قراءته صعبة. أرنولد بينيت كتب بخط جميل صغير جداً بذل مجهوداً كبيراً عليه. إتش جي ويلز لديه خط جذاب، لكنه غير مرتب. كتابة كارليل كانت رديئة، لدرجة أن أحد المنضدين ترك ايدنبره ليتخلص من وظيفة ترتيبها. السيد برنارد شو يكتب بخط صغير، لكنه واضح وأنيق جداً. وبالنسبة إلى خط أشهر وأجل روائي بين الروائيين الإنكليز الأحياء حين كنت في البي بي سي وكان لي الشرف في تقديمه على الهواء مرة واحدة في الشهر، فلم يكن هناك سوى سكرتير واحد في كل القسم يستطيع فك شفرة مخطوطاته. (الإشارة إلى خط يد أي أم فورستر).

٧ مارس / آذار ١٩٤٧.

منذ وقت مضى، سألني زائر أجنبي إن كنت أستطيع أن أرشح له مجموعة جيدة مختارة من المقتطفات الأدبية تمثل الشعر الإنكليزي. حين فكرت ملياً، وجدت أنني لا أستطيع أن أسمي

له أي مقتطف بدا لي مرضياً. طبعاً هناك عدد لا يحصى من المقتطفات الأدبية، لكن ليس هناك واحد منها حاول أن يغطي الأدب الإنكليزي كله، إلا بالغريف في كتابه "الكنز الذهبي"، وعمل آخر أشمل وأحدث هو "كتاب أكسفورد للشعر الإنكليزي"

أنا لا أنكر أن كتاب أكسفورد مفيد، وهناك قدر كبير جداً من المادة الجيدة فيه، وأن كل تلميذ يجب أن يمتلك نسخة منه لتعذر وجود الأفضل. لكن حين تنظر إلى الخمسين صفحة الأخيرة، تفكر مرتين بتزكية مثل هذا الكتاب لأجنبي ربما تخيل أنه يمثل الشعر الإنكليزي حقيقة. في الحقيقة، كل هذا القسم من الكتاب، توضيح حزين لما حدث لأساتذة الأدب حين كانوا يضطرون إلى إبداء رأي مستقل. حتى عام ١٨٥٠ تقريباً، لم يكن المرء يستطيع أن يفشل كثيراً في تجميع مجموعة مختارة من المقتطفات الأدبية، لأنها ستكون كل القصائد الأفضل التي بقيت حية. لكن حالما وصل السير آرثر كويلر كاوتش إلى معاصريه، هجره كل أثر ضئيل من الذوق.

يقف كتاب أكسفورد للشعر الإنكليزي تأليف آرثر كويلر كاوتش عند عام ١٩٠٠ ومن المعروف أن العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر كانت فترة فقيرة بالنسبة إلى الشعر. لكن يظل هناك شعراء في التسعينات. هناك إيرنست داوسن- "سينارا" ليست فكرتي عن القصيدة الجيدة، لكنني أفضلها على قصيدة هانلي "إنكلترا إنكلترتي"-وهناك هاردي الذي نشر قصيدته الأولى في عام ١٨٩٦. وهناك أيضاً هاوسمان الذي نشر "صبي الخراف الإنكليزية" في عام ١٨٩٦. وهناك هوبكنز أيضاً الذي لم يكن في عالم النشر أو كان بالكاد، لكن كان على السير آرثر كويلر كاوتش أن يعرف عنهم. لم يظهر أحد من هؤلاء في كتاب أكسفورد. ييتس الذي نشر لتوه قدراً كبيراً في ذلك التاريخ، يظهر بشكل مختصر، لكنه لم يقدم بأفضل قصائده، ولا كيبلينغ أيضاً الذي كتب قصيدة أو اثنتين كما أعتقد (كم هي بعيدة القديسة هيلانه) مثلاً التي تستحق أن تكون ضمن مختارات أدبية جديدة. ومن جانب آخر، انظر إلى تلك المادة التي تضمنها الكتاب! قصيدة الكليفتوني العجوز للسير هنري نيوهولت الذي يقف متخشباً على الجبهة الشمالية الغربية، قطع وطنية أخرى لهانلي وكيبلينغ، وصفحة بعد أخرى من الشعر الضعيف التقليدي السقيم لأندرو لانغ والسير وليام واتسون وايه سي بنسون وأليس ماينيل وآخرين غيرهم منسيين الآن. ماذا سيكون رأي المرء في مجموعة مقتطفات أدبية مختارة، تضع نيوبولت وإدموند غوسي في نفس المجلد مع شكسبير ووردزوورث وبليك؟

قد أكون جاهلاً. وهناك مقتطفات أدبية مختارة شاملة موجودة مسبقاً تغطي الأدباء من تشوسر إلى ديلان توماس ولا تشمل أي شيء تافه.

لكن إن لم يكن كذلك، فأعتقد أن الوقت قد حان لتأليف كتاب مقتطفات أدبية شامل أو أن يُحدّث كتاب أكسفورد بانتقاء جديد تماماً من الشعراء، بدءاً من تينيسون فصاعداً.

بعد تصفح ما كتبته، أرى أنني تكلمت بتكبر عن قصيدة داوسن "سينارا" أنا أعرف أنها قصيدة سيئة، لكنها سيئة بطريقة جيدة أو بطريقة سيئة جيدة. وأنا لا أرغب بالتظاهر أني لم أعجب بها أبداً. في الحقيقة لقد كانت واحدة من القصائد المفضلة في صباي. أقتبس التالي منها من الذاكرة:

لقد نسيت الكثير يا سينارا! ذهبت مع الريح،/ قذفت بالورود؟ رقصت مع الحشد الراقص بصخب/ لأنتزع سوسناتك الباهتة الضائعة من ذهني؛ لكنني كنت بائساً ومدمراً ومريضاً من شغف قديم،/ نعم، كل الوقت، لأن الرقصة كانت طويلة-/ أنا كنت مخلصاً لك يا سينارا! بطريقتي.

بالتأكيد هذه الأبيات تمتلك -إن لم تكن تستحق- على الأقل نفس السحر الذي ينتمي إلى زهرة إبرة الراعي القرنفلية أو إلى الشوكولا ذات القلب الطري الناعم.

١٤ مارس/ آذار ١٩٤٧

لم أقرأ أكثر من فقرة صحيفة واحدة عن نيو سبيلينغ (التهجئة الجديدة) لشخص قدم وثيقة في البرلمان، وإن كانت مثل أغلب الخطط الأخرى لعقلنة هجائنا، فأنا ضدها مقدماً، كما يكون أكثر الناس الآخرين في تصوري.

ربما أقوى مبرر لمقاومة التهجئة المعقلنة هو الكسل. كلنا تعلمنا أن نقرأ ونكتب مسبقاً، ولا نريد أن نفعل ذلك مرة أخرى من جديد. لكن هناك اعتراضات أخرى محترمة أكثر. بداية إن لم تفرض الخطة بشكل صارم، ستكون الفوضى الناتجة عن قبول بعض الصحف ودور النشر بها ورفض بعضها الآخر لها مرعبة. ثم إن أي شخص لم يتعلم أن يقرأ إلا بالطريقة الجديدة، سيجد صعوبة كبيرة حين يقرأ الكتب المطبوعة بالطريقة القديمة، لذلك يجب التعهد بتحمل الجهد الهائل لإعادة تهجئة كل أدب الماضي. وأيضاً لا يمكنك تبرير التهجئة تماماً، إن أعطيت

قيمة ثابتة لكل حرف. لكن هذا يعني لفظ قياسي لا يمكن إنجازه في هذه البلاد من دون شجار مروع. ماذا تعمل مثلاً بكلمات مثل "زبدة- بتر" أو "قدح- غلاس" اللتين تلفظان بطرق مختلفة في لندن ونيوكاسل؟ كلمات أخرى مثل "كانوا- وير" تلفظ بطريقتبن مختلفتين حسب ميول الفرد أو حسب السياق.

لكن أنا لا أريد أن أحكم مسبقاً على مخترعي التهجئة الجديدة. ربما فكروا مسبقاً بطريقة يلتفون بها على هذه الصعوبات. وبالتأكيد نظام تهجئتنا الحالي منافٍ للعقل والطبيعة، وهو عذاب للطلاب الأجانب بالتأكيد. هذا مثير للشفقة، لأن الإنكليزية مناسبة جيداً لتكون لغة عالمية ثانية إن كان هناك شيء كهذا. لديها انطلاقة واسعة فوق أي لغة طبيعية وانطلاقة هائلة فوق أي لغة مصنعة، وبمعزل عن التهجئة إن تعلمها سهل جداً. ألا يمكن عقلنتها بالتدريج، بضع كلمات في كل سنة؟ مسبقاً أسخف التهجئات تميل إلى الاندثار والموت بشكل غير رسمي، فكم شخصاً مثلاً يهجئون الآن "فواق- هايكب" على شكل "هايكف"؟

شيء آخر، أنا ضده مقدماً -لأنه سيطرح عاجلاً أو آجلاً بالضرورة- هو الهجر التام لنظامنا الحالي في الوزن والقياس.

من الواضح أنه يجب عليك أن تمتلك النظام المتري لأغراض محددة. العمل العلمي هو قيد الاستعمال منذ وقت طويل وتحتاجه الأدوات والآلات، خصوصاً إن أردت أن تصدرها. لكن هناك حجة قوية للحفاظ على القياسات القديمة من أجل استخدامها في الحياة اليومية. أحد الأسباب، هو أن النظام المتري لا يمتلك أو لم ينجح في توطيد عدد كبير من الوحدات التي يمكن تخيلها. لا توجد فعلياً مثلاً وحدة بين المتر الذي هو أكثر من الياردة والسنتمتر الذي هو أقل من البوصة. في الإنكليزية يستطيع المرء أن يصف شخصاً بكونه بطول خمسة أقدام وثلاث بوصات أو خمسة أقدام وتسع بوصات أو ستة أقدام وبوصة واحدة، وسامعك سيعرف بدقة ماذا تعني. لكنني لم أسمع قط رجلاً فرنسياً يقول "إن طوله مئة واثنان وأربعون سنتمتراً؛ فهذا لا ينقل أية صورة بصرية. وهكذا الأمر مع قياسات أخرى متنوعة. القصبة والفدان والباينت (نصف لتر) والكوارت (ربع غالون) والغالون (ثلاثة أرطال وثلاثة أرباع) والرطل الإنكليزي والحجر (ست كيلوات وثلث) والهندردويت (مئة رطل) كلها وحدات

نحن ألفناها وأحببناها وسنكون أفقر من دونها. فعلياً، في البلدان التي طبق فيها النظام المتري، قلة من المقاييس القديمة بقيت من أجل أغراض يومية رغم ثنيها عن ذلك رسمياً.

هناك الاعتبار الأدبي أيضاً الذي لا يمكن تركه خارج الحساب. أسماء الوحدات في النظام القديم كلمات قصيرة مألوفة أعارت نفسها للكلام القوي والنشيط. وضع ربع غالون في إناء يسع باينت، هو صورة جيدة لا يمكن التعبير عنها في النظام المتري. أيضاً أدب الماضي لا يتعامل إلا بالقياسات القديمة، ومقاطع كثيرة ستصبح إزعاجاً إن اضطر المرء إلى القيام بعملية حسابية، وهو يقرؤها كما يفعل المرء مع تلك الأبيات الشعرية المملة براوية روسية: بوصة النملة وميل النسر/ يجعلان الفلسفة العرجاء تبتسم: تخيل التحول إلى المليمتر!

كنت أقرأ للتو عن فريق ألماني من المعلمين والصحفيين ومندوبي نقابات عمال وآخرين كانوا في زيارة لهذه البلاد. اتضح أن النقابات ومنظمات أخرى أعطتهم رزم طعام، لكن الجمارك في هارويتش أخذتها منهم. لم يسمح لهم حتى أن يأخذوا إلى خارج البلاد طعام الـ ١٥ رطلاً الذي يسمح بها للأسرى العائدين من الحرب. الجريدة التي نقلت هذا الإعلان من دون سخرية ظاهرة بأن الألمان المذكورين كانوا هنا في "منهج عن الديمقراطية لمدة ستة أسابيع".

منذ بضعة أيام كانت لديّ مناسبة لأكتب شيئاً عن تعليم التاريخ في المدارس الخاصة، والمنظر التالي الذي كان متصلاً قليلاً بما أكتب، طاف في ذاكرتي. شاهدته منذ ما لا يقل عن خمس عشرة سنة.

"جونز!"

"نعم يا سيدي!"

"أسباب الثورة الفرنسية"

"بكل سرور يا سيدي، تعود الثورة الفرنسية إلى ثلاثة أسباب، تعاليم فولتير وروسو واضطهاد النبلاء بواسطة الشعب و-"

في هذه اللحظة برودة باهتة مثل العلامة الأولى المخدرة لمرض وقعت على جونز. أيمكن أنه أخطأ في مكان ما؟ وجه الأستاذ غامض ومبهم. عاد جونز بسرعة ورشاقة بذهنه إلى الكتاب الصغير غير الممتع مع الغلاف البني الرملي، صفحة كان يستظهرها يومياً. كان سيقسم أنه فهم الشيء كله بشكل صحيح. لكن في هذه اللحظة اكتشف جونز للمرة الأولى خداع الذاكرة البصرية. إن الصفحة كلها واضحة في عقله وشكل كل فقرة مدونة بدقة، لكن المشكلة لم يعرف الطريقة التي رتبت بها الكلمات. لقد كان متأكداً من أن السبب هو اضطهاد النبلاء من قبل الشعب، لكنه فكر بعد ذلك أن السبب قد يكون اضطهاد الشعب من قبل النبلاء. إنها قرعة. أخذ قراره بشكل يائس -الأفضل أن يتمسك بنسخته الأولى. بربر قائلاً:

"اضطهاد النبلاء من قبل الشعب و-"

"جونز!"

أتساءل هل ذاك النوع من الشيء مازال مستمراً؟

٢٨ مارس/ آذار ١٩٤٧.

كنت أقرأ باهتمام نشرة المراقبة الجماهيرية التي ظهرت بعد عشرة سنوات من بداية إنشاء هذه المنظمة. الغريب أنني أتذكر بأي عداء قوبلت به في البداية. لقد هوجمت بعنف في النيوستيتسمان مثلاً، حيث أعلن السيد ستونير أن المراقبة الجماهيرية الأنموذجية ستكون لها "أذنا فيل ومشية متبخترة وعينان مقرحتان دائماً من النظر من خلال ثقوب المفاتيح" أو كلمات بهذا المعنى. وكان هناك مهاجم آخر هو السيد ستيفن سبيندر. لكن بالمجمل المعارضة على هذا أو أي نوع من المسح الاجتماعي، تأتي من الناس ذوي الآراء المحافظة الذين يبدون غالباً ساخطين بصدق من فكرة اكتشاف ماذا الذي يفكر فيه الجمهور الكبير.

لو سألنا لماذا، سيجيبون دائماً أن ما يكتشف ليس ذو أهمية، وأن أي شخص ذكي يعرف دائماً ما هي الميول الرئيسية للرأي العام. حجة أخرى، وهي أن عمليات المسح الاجتماعي تدخل في الحرية الفردية، وأول خطوة نحو النظام الشمولي. أنشأت الديلي إكسبريس هذا الخط لعدد من السنين، وحاولت أن تسخر من وحدة المسح الاجتماعي الصغيرة التي أسستها وزارة الإعلام وتخرجها من الوجود بتلقيبها كوبرز سنوبرز (متلصصو كوبر). طبعاً خلف

الكثير من هذه المعارضة، يكمن خوف مبرر من إيجاد أن الرأي الجماهيري عن مواضيع كثيرة ليس محافظاً.

لكن يبدو أن بعض الناس يشعرون بصدق أن أمراً سيئاً للحكومة أن تعرف الكثير بما يفكر فيه الناس، كما يشعر الناس تماماً أنه نوع من الوقاحة حين تحاول الحكومة أن تثقف الرأي العام. فعلياً، لا يمكن أن يكون لديك ديمقراطية، إذا لم تعمل العمليتان الاثنتان. الديمقراطية ممكنة فقط حين يعرف المشرعون والإداريون ماذا تريد الجماهير، وماذا يمكن أن تفهمه بشكل مؤكد. إن اهتمت الحكومة الحالية أكثر بهذه النقطة الأخيرة، فإنهم سيقولون بعضاً من علنيتهم ودعايتهم بشكل مختلف. أصدرت المراقبة الجماهيرية تقريراً الأسبوع الماضي عن الورقة البيضاء حول الوضع الاقتصادي. وجدوا كالعادة أن الكلمات المجردة والعبارات التي قذفت هنا وهناك في تصريحات رسمية، لا تعني شيئاً للمواطنين العاديين الكثر. حتى أن بعض الناس أربكتهم كلمة "أرصدة أسيتس" وظنوا أن لها علاقة بكلمة "يساعد أسيست"!

تعطي نشرة منظمة المراقبة الجماهيرية بعض الوصف للطرق التي يستخدمها محققوها، لكنها لا تلمس النقطة المهمة جداً، وهي الطريقة التي تمول بها منظمات المسح الاجتماعي. تبدو منظمة المراقبة الجماهيرية أنها تحافظ على الاكتفاء الذاتي بنشر الكتب والقيام بوظائف محددة للحكومة أو لمنظمات تجارية. بعض من أفضل عمليات مسحها كتلك التي تتعامل مع معدل الولادات، نفذت لأجل نقابة خدمة الإعلانات. المشكلة مع هذه الوسيلة أن الموضوع لا يجري البحث فيه، إلا إذا اهتمت به منظمة ثرية. مثال واضح العداء للسامية، الذي لم يبحث فيه أبداً في اعتقادي أو بطريقة سطحية جداً. لكن عداء السامية هو شكل مختلف واحد فقط من مرض القومية الحديث الكبير. نحن نعرف القليل جداً عن الأسباب الحقيقة للقومية، وربما نستطيع أن نتخيل أننا على الطريق نحو علاجها إن عرفنا أكثر، لكن من هو المهتم كفاية ليوفر آلاف الجنيهات التي يكلفها المسح الشامل؟

في الأسابيع الماضية، كانت هناك مراسلات في صحيفة الأوبزيرفر، عن استمرار وجود "ابصق ولمع" في القوات المسلحة. في الإصدار الأخير هناك رسالة جيدة من متراسل وقعت

باسم "مجند إلزامي"، تصف كيف أجبر هو ورفاقه على إضاعة وقتهم في تلميع النحاس ودهن الخراطيم المطاطية بملمع الأحذية وكشط مقابض المكانس بأمواس الحلاقة وهلم جرا. وتابع المجند قائلاً: "حين ينفذ ضابط (رائد) قراءة روتينية للتعليمات الملكية بخصوص مرض تناسلي، لم يكن يتردد بإضافة: "ليس هناك ما تخجلون منه إن أصابكم المرض -الأمر طبيعي جداً. لكن تأكدوا أن تبلغوا من أجل العلاج فوراً" يجب أن أقول إن الأمر يبدو غريباً لي، وسط الحماقات الأخرى المذكورة، إن تعارض واحدً من الأشياء المعقولة القليلة جداً في نظام الجيش، كالموقف الصريح من مرض تناسلي. نحن لم نستطع أن نجتث الزهري والسيلان حتى تزال منهما وصمة الإثم والشر. حين طبق التجنيد الإلزامي الشامل في حرب ١٩١٤-١٩١٨ اكتشف -إن كنت أتذكر جيداً- أن نصف السكان تقريباً يعانون من مرض تناسلي ما، مما أرعب السلطات ودفعها إلى أخذ بعض الاحتياطات. أثناء سنوات الحرب، فتر الصراع ضد المرض التناسلي بقدر ما وصل إليه السكان المدنيون، واستمر الحال عما هو عليه بين المدنيين. كان هناك تدبير وقائي لمعالجة الذين أصيبوا بالمرض، لكن الاقتراح لتأسيس "مراكز للعلاج المبكر" كما في الجيش، قمعه البيوريتان -المتزمتون. ثم أتت حرب أخرى، مع زيادة في المرض التناسلي سببتها الحرب بالضرورة، وكانت هناك محاولة أخرى للتعامل مع المشكلة. كانت ملصقات ومنشورات وزارة الصحة خائفة، لكن حتى هذه كانت ستثير احتجاجاً قوياً من المتزمتين، لو لم تستدعِ ذلك الضرورة العسكرية.

لا تستطيع معالجة هذه الأمراض، طالما ينظر إليها بأنها عقوبات من الرب، في تصنيف مختلف تماماً عن الأمراض الأخرى. ومن الخداع القول إن "العيش النظيف هو العلاج الحقيقي الوحيد" أنت ملزم بالاتصال الجنسي غير الشرعي والبغاء في مجتمع مثل مجتمعنا، حيث ينضج الناس جنسياً في الخامسة عشرة تقريباً، ويثبطون من الزواج حتى يبلغوا العشرينات، وحيث التجنيد الإلزامي والحاجة إلى التعبئة من أجل العمل تفكك الحياة العائلية، وحيث الناس الشباب يعيشون في بلدات كبيرة، وليس لديهم طريقة نظامية في تشكيل علاقات شخصية ومعارف. من المستحيل حل المشكلة بجعل الناس أخلاقيين أكثر، لأنهم لن يكونوا كذلك ضمن أي وقت منظور. بالإضافة إلى أن الكثير من ضحايا المرض التناسلي هم أزواج وزوجات، لم يسلموا أنفسهم لأي فعل فاسق. الطريق المعقول الوحيد هو

أن نعترف أن الزهري والسيلان مجرد أمراض، يمكن منعها، وحتى شفاؤها، أكثر من أغلب الأمراض الأخرى، وأن الإصابة بها ليست عاراً. لا شك أن المتزمتين سيصرخون. لكن في فعل هذا، ربما يعترفون بدوافعهم الحقيقية، وعندها نقترب أكثر من القضاء على هذا الإثم.

في الخمس دقائق الأخيرة، كنت أحدق من النافذة في الساحة باحثاً عن علامات لفصل الربيع. توجد هناك بقعة متفرقة رقيقة في الغيوم مع أثر ضئيل من اللون الأزرق خلفها. وعلى شجرة جميز هناك بعض أشياء تبدو كأنها براعم. لكن مازلنا في فصل الشتاء. لكن ليس هناك ما يدعو إلى القلق! منذ يومين بعد بحث حريص في الهايد بارك، عثرت على شجرة زعرور بري كانت مزهرة بالتأكيد، وبعض الطيور لم تكن تشدو في الواقع، وإنما تصدر أصواتاً مثل فرقة موسيقية تضبط نغماتها. وأخيراً ها هو الربيع قادم. وكانت الإشاعات عن بداية عصر جليدي آخر قادم بلا أي أساس. بعد ثلاثة أسابيع فقط سوف نستمع إلى طائر الوقواق الذي يشدو عادة في الرابع عشر من أبريل/ نيسان. وثلاثة أسابيع أخرى بعد ذلك، سوف نتشمس تحت السماء الزرقاء، ونأكل المثلجات من عربات اليد، ونتخفف في تخزين وقود للشتاء القادم.

كم تبدو مناسبة القصائد القديمة جداً التي قيلت في مديح الربيع في السنين القليلة الأخيرة! إنها تملك معنى لم تملكه في الأيام التي لم يكن فيها نقص في الوقود. وكنت تستطيع الحصول على أي شيء تقريباً في أي وقت من السنة. من كل المقاطع التي تحتفل بالربيع المفضل منها، عندي مقطعان شعريان من بداية واحدة من أغاني روبن هود الشعبية وقد جددت تهجئتها:

حين ترى اللمعة والمروج نظيفة وواضحة/ والأوراق كبيرة وطويلة/ من المبهج المشي في الغابة الجميلة/ من أجل سماع أغنية الطيور الصغيرة. مرحاً وبهجة.

شدا الودويلي ولم يتوقف/ وهو يجلس فوق غصن الكحلية المزهر/ بصوت عالٍ جداً أيقظ روبن هود/ المستلقي في الغابة الخضراء.

لكن ما هو الودويلي بالضبط؟ لقد اقترح معجم أكسفورد أنه نقار الخشب الذي لم يكن طائراً مغرداً بارزاً، وأنا راغب ومهتم لأعرف إن كان مطابقاً أكثر لطائر آخر.

٤ أبريل/ نيسان ١٩٤٧.

بدأت اللجنة الملكية بخصوص الصحافة، العمل بعد تأخيرات غامضة. ويفترض إن لن تصل إلى أحكام محددة قبل أن يمضي وقت طويل ويمر وقت أطول، حتى تعمل ما هو ضروري على اكتشافاتها. رغم ذلك، يبدو لي أن الآن هو الوقت للبدء في مناقشة مشكلة الحفاظ على صحافة حرة في اقتصاد خاضع لسيطرة الدولة. لأنه إن لم نصبح مدركين للصعوبات قبل أن تكون فوقنا فعلياً، فإن الوضع النهائي للصحافة في هذه البلاد سيكون أسوأ مما يجب أن يكون بالضرورة.

خلال أزمة الوقود، لاحظت عند كثير من الناس إعلاناً عن سوء الحكومة، لتقابل في كل مرة بالجواب أن الحكومة الحالية ليس لها أي أداة تعبير تحت سيطرتها. هذا صحيح طبعاً. ثم قلت، "لماذا لا تستولي على الديلي - وتجعلها الجريدة الناطقة باسم الحكومة؟". كان هذا الاقتراح يقابل بالرعب دائماً. يبدو أن تأميم الصحف يعتبر "فاشية" بينما "حرية الصحافة" تتكون من السماح لبضعة مليونيريين أن يجبروا مئات الصحفيين على تزييف آرائهم. لكن سأهمل السؤال عن كم هي حرة الصحافة البريطانية في الوقت الحاضر. النقطة هي ماذا سيحدث أخيراً إن استمر التوجه الحالي نحو التأميم؟

عاجلاً أو آجلاً، كما يبدو لي، سوف يتم تأميم الصحافة بالتأكيد، طالما أنها لسان ناطق رئيسي. من الصعب جداً أن تستمر في الوجود كبقعة ضخمة من مشروع خاص، مثل نوع من ادخار خفي في وسط اقتصاد جماعي. لكن هل ذلك يعني أن كل قنوات التعبير ستكون أخيراً تحت سيطرة البيروقراطيين؟ بعض من هكذا شيء يمكن أن يحدث بسهولة تامة إن كان الناس الأكثر اهتماماً غير مبالين بقدرهم. يمكن للمرء أن يتخيل جيداً صحفاً ودوريات ومجلات وكتباً وأفلاماً وراديو وموسيقى ودراما كوّمت مع بعضها و"نسقت" تحت إرشاد وزارة فنون جميلة هائلة ما (أو أياً كان اسمها). إنه ليس استشرافاً ممتعاً، لكني أؤمن بإمكانية تفاديه إن أدرك الخطر مقدماً.

ما هو المقصود بحرية الصحافة؟ يجب أن أقول إن الصحافة حرة، حين يكون من السهل، وليس هذا غير قانوني، وصول آراء الأقلية إلى الطبع وتوزيعها للجمهور. إن إنكلترا محظوظة أكثر من أغلب البلدان في هذا الجانب. ومن الإنصاف القول إن ذلك يعود جزئياً إلى التنوع

الموجود في الصحافة التجارية الكبيرة. الصحف اليومية الكبرى، رغم أنها قليلة جداً، إلا أنها تحتوي على ظلال من الاختلاف، أكثر من الصحافة التي تسيطر عليها الحكومة. لكن يظل الحراس الرئيسيون لرأي الأقلية هي الصحف المستقلة الصغيرة الأسبوعية أو الشهرية ودور نشر الكتب.

فقط عبر تلك القنوات تستطيع أن تتأكد أن أي رأي لا يعبر عن تشهير أو تحريض على العنف، سيحصل على فرصة استماع. لذلك إن كانت الصحافة الكبيرة متأكدة من أنها ستؤمم بأي شكل، ألا يمكن وضع هذا المبدأ مقدماً: إن التأميم سيؤثر فقط على الكثير من الصحف، حين تصبح تحت عنوان "شركة كبيرة"، بينما تترك المشاريع التجارية الصغرى لحالها؟

من الواضح أن مالك سلسلة من مئات الصحف، هو رجل رأسمالي، وبالتالي هكذا يكون هو نفسه الناشر الصغير ورئيس تحرير مجلة شهرية ومالكها في الوقت نفسه. لكنك لست مجبراً على أن تعاملهم بالمثل، كما في إلغاء الملكيات الكبيرة للأراضي، فأنت لست ملزماً أن تسرق الملاك الصغير أو جنايني السوق. طالما تستطيع الأقلية التواجد والعيش وتعتمد على تواجد مستمر، حتى في حفرة أو بطريقة حرجة، ستكون الحرية الفردية محمية. لكن الخطوة الأولى هي الإدراك بأن التأميم حتمي، ونضع خططنا وفقاً لذلك. وإلا فإن الناس المهتمين الصحفيين والفنانين والممثلين إلخ، لن يملكوا قوة مساومة حين يأتي الوقت وتبلعهم وزارة الفنون الجميلة كلهم دفعة واحدة.

مؤخراً كنت أتحدث مع محرر صحيفة ذات توزيع كبير جداً، وقد أخبرني أنه ليس من السهل لجريدته أن تستمر على ربع مبيعاتها فقط. وهذا قد يستمر ليكون حقيقة حتى يتحسن وضع الصحيفة كما يقال، مما يعني العودة إلى حجم ما قبل الحرب بتكلفة أعظم بكثير. حتى ذلك الحين، ستكون الإعلانات مصدر الدخل الثانوي المهم الوحيد.

إن كان الوضع هكذا، فأعتقد أن كثيراً من الصحف التي استطاعت البقاء الآن من دون إعلانات -أليس هذا هو الوقت المناسب لدفعة شاملة ضد العلاجات المرخصة؟ قبل الحرب كان من المستحيل أن تهاجم الأدوية المرخصة بطريقة كبيرة، لأن الصحافة التي يفترض أنها تقوم بعملية الفضح، تعيش جزئياً من الإعلانات عنها.

كبداية، قد يكتشف ناشر مغامر مجلدين اثنين من ذلك الكتاب النادر والمسلي، علاجات سرية ويعيد طبعها. هذا أصدرته -إن كنت أتذكر الجمعية الطبية البريطانية بمصادقة أطباء- ظهر المجلد الأول في عام ١٩١٢ والثاني أثناء عشرينات القرن العشرين. يتألف المجلدان من قائمة من الأدوية الموجودة المحمية بعلامات تجارية مع بيان بحقوقها وتحليل لمحتوياتها وتقدير لكلفتها. كان هناك تعليق قليل جداً لم يكن ضرورياً في أغلب الحالات. أتذكر جيداً أن أحد "علاجات السل" بيع للجمهور بخمس وثلاثين شلناً للقارورة التي قدرت كلفتها بنصف بنس.

لم يكن لكلا المجلدين تأثير كبير على الجمهور. الصحافة، ولأسباب أشرت إليها آنفاً، تجاهلت كلا الإصدارين، وهما الآن نادران جداً، لذلك لم أر قط أية نسخة منهما منذ سنين. (عرضياً، إن كان لدى أي قارئ نسخة، فسأشتريها بكل سرور -خصوصاً المجلد الثاني الذي أظن أنه أكثر ندرة) لو أعيد إصداره ثانية، فسيحتاج الكتاب إلى تحديث، لأن الادعاء بشفاء أمراض محددة قد منعه القانون، بينما وصلت أنواع جديدة من النفاية إلى الأسواق. لكن الكثير من الأنواع القديمة لايزال هناك -هذه هي النقطة المهمة. هل من غير الممكن أن يزداد استهلاك الأدوية المرخصة، إن أعطي الناس فكرة أوضح عن طبيعة المادة وتكلفتها الحقيقية التي يتجرعونها في حلوقهم؟

قبل بضعة أسابيع، سأل مراسل في التريبيون: لماذا لا يسمح لنا أن نزرع ونعتني بتبغ خاص لاستخدامنا الشخصي، عملياً يمكنك فعل هذا كما أعتقد.

هناك قانون ضد ذلك، لكنه لم يطبق بشكل صارم وتام. أنا أعرف أشخاصاً زرعوا تبغهم الخاص بهم، وجهزوه في قطع مثل أي مادة تجارية. جربت بعضه مرة، ورأيته التبغ المثالي لغير المدخن. المشكلة مع التبغ الإنكليزي أنه خفيف جداً، لدرجة لا تستطيع تذوقه إلا بصعوبة. هذا ليس بسبب نقص الشمس كما أعتقد، وإنما لعجز ما في التربة. لكن أي تبغ أفضل من عدمه، وبضعة آلاف من الفدادين تخصص لزراعته في جنوب إنكلترا، قد يساعدنا في نقص السجائر المحتمل أن يحدث هذه السنة من دون استهلاك دولار واحد أو حرمان الدولة من أي ريع.

كنت أقرأ عن الإنكليزية المبسطة (أو بيتش لا مار) المستخدمة في جزر سليمان والنيو هيبريدز في جنوب المحيط الهادي. إنها اللغة المشتركة بين جزر كثيرة يتكلم سكانها لغات مختلفة أو لهجات. وبما أنها تمتلك مفردات قليلة جداً وينقصها أقسام من الكلام (أفعال،

أسماء، حروف جر إلخ) فقد اضطرت أن تستفيد من إطناب مدهش. تسمى الطائرة مثلاً بـ (لانيش "ينطلق" التي تعني حمامة طائرة كذلك). الكمان يوصف كالآتي: "علبة صغيرة تنتمي إلى الرجل الأبيض يحكّه بطنه ليلائم أن يغني رفيق طيب؟" هذا مقطع مما يبدو أنه لغة مبسطة رفيعة مقارنة بمقاطع أخرى. إنه يعلن عن تتويج الملك جورج السادس:

الملك جورج، هو مات. ابنه رقم واحد إدوارد، الآن يريد أن يلبس ثيابه. الابن رقم اثنان هو يحب. المطران ألقى خطاباً طويلاً عن الملك الجيد. قال: "هل أنت تعتني بالشعب بشكل جيد؟". الملك تحدث: "نعم". بعد ذلك، وقف المطران وموظفو الحكومة وأصحاب المتاجر والجنود ومدراء البنوك ورجال الشرطة كلهم وغنوا ونفخوا له البوق. انتهى.

توجد هناك لغات مبسطة مشابهة، أغلبها ليست سيئة جداً في أقسام أخرى من العالم. في بعض الحالات، فإن الناس الذين شكلوها أولاً كانوا متأثرين ربما بأن العرق التابع يجب أن يتكلم بشكل مثير للضحك. لكن هناك مناطق حيث اللغة المشتركة من النوع الذي لا غنى عنه، والتحريفات المستخدمة فعليا تجعل المرء يرى ما هو الكثير الذي يجب أن يقال من اللغة الأساسية.

كانت مقالة أورويل بعنوان كما أشاء، المؤرخة في الرابع من أبريل/ نيسان، هي الأخيرة لصحيفة التريبيون. في العاشر من أبريل/ نيسان غادر إلى جورا لكي يكمل روايته ألف وتسعمائة وثمانية وأربعون.

التريبيون ٢١ فبراير/ شباط ١٩٤٧.

نشرتها مانشستر إيفنينغ نيوز للتريبيون

للأسبوع الثالث والرابع من فبراير/ شباط عام ١٩٤٧، فإن المجلات النقدية الأسبوعية الوطنية وكثير من تجارة الصحف، أوقفت من النشر بأمر من الحكومة بسبب النقص الحاد في الوقود وانقطاعات الكهرباء الناتجة عن ذلك. للمساعدة أثناء الأزمة، عرضت كل من الأوبزيرفر ومانشستر إيفنينغ نيوز والديلي هيرالد على التريبيون استضافة أعمدتها. يشير أورويل إلى التعليق وخسارة التريبيون لدخلها في رسالته إلى دوايت مكدونالد في ٢٦ فبراير/ شباط عام ١٩٤٧ . التالي العمود الذي يكتبه أورويل للتريبيون كل أسبوع:

إن الخبر الذي تكرر للمرة الثانية في الأشهر القليلة الأخيرة عن منع مسرحية من العرض، وقيام محطة البي بي سي ببثها (ربما يمكنها ذلك من كسب جمهور أكبر مما لو مثلت على المسرح) يثير مرة أخرى سخف القوانين التي تحكم الرقابة الأدبية في بريطانيا.

إن المسرحيات والأفلام هي الوحيدة التي يجب أن تخضع للرقابة قبل أن تظهر. بالنسبة إلى الكتب، فيمكنك طبع ما تحب وتتحمل خطر المقاضاة. وهكذا يمكن لمسرحيات منعت سابقاً مثل مسرحية غرانفيل باركر "ضياع" ومسرحية برنارد شو "مهنة السيدة وران"، أن تظهر على شكل كتاب فوراً من دون التعرض إلى خطر المقاضاة، ويباع بشكل أفضل مستغلاً الفضيحة التي حدثت مسبقاً. من الإنصاف القول إن كانت مسرحيات جيدة، المسرحيات الممنوعة ترى النور عادة عاجلاً أو أجلاً. حتى مسرحية "ضياع" التي تحدثت عن السياسة والجنس أيضاً، سوف يسمح لها بالظهور أخيراً، بعد أن كتبت، حين يتلاشى الحديث عن طبيعة الموضوع الذي أعطاه القدر الأكبر من قوتها.

إن المشكلة مع رقابة اللورد تشامبرلاين على المسرح، ليست لأنها تحدث، وإنما لأنها غبية بربرية يقوم بها بيروقراطيون يفتقرون إلى أي تعليم أدبي. إن وجب أن تكون هناك رقابة، فمن الأفضل أن تحدث مسبقاً لكي يعرف المؤلف أين يقف. إن منع الكتب نادر في بريطانيا، لكن المنع الذي يحدث اعتباطي تماماً عادة. "بئر العزلة" مثلاً منع، بينما ظهرت كتب أخرى لها نفس الموضوع بنفس الوقت ومرت من دون أن تُلاحظ.

إن الكتاب الذي يسقط ويمنع، هو الكتاب الذي يصدف أن يلفت انتباه موظف أمي. ربما نصف الروايات المنشورة الآن، كانت ستعاني نفس المصير لو صدف وأن وصلت إلى الأيدي الصحيحة. في الحقيقة -رغم أن الموتى يحترمون دائماً، أشك إن كان بترونيوس أو تشوسر أو رابيلياس أو شكسبير سينجون من تشويه الرقابة لو كان قضاتنا وشرطيونا قراء أكبر.

١- "الأرض البور" لهارلي غرانفيل- بيكر(١٨٧٧-١٩٤٦) منعت من قبل اللورد تشامبرلاين في عام ١٩٠٧ لأن المسرحية، مأساة، تضمنت حالة إجهاض. [عادت ومثلت علانية في عام ١٩٣٦].

٢- مارغورايت راديف هال (١٨٨٠-١٩٤٣) روائية وشاعرة. نشرت عدة مجلدات شعرية، ١٩٠٦-١٥، ثم روايات وقصصاً، تشمل "آدم بريد" (١٩٢٦)، "نبع العزلة"

(١٩٢٨)، وسيد البيت" (١٩٣٢). فازت آدم بريد بجائزة جيمس تايت التذكارية، جائزة حياة أنثى سعيدة، وجائزة إيكلبيرغ النسائية الذهبية. سحبت نبع العزلة من إنكلترا في ٢٨ أغسطس/ آب ١٩٢٨ إثر فضيحة أثيرت بسبب تصويرها للسحاق. ثم أعيد نشرها فوراً في باريس، ونشرت في نيويورك، في عام ١٩٢٨، مع تعقيب بقلم هافلوك إيليس. نشرت الرواية في لندن (من دون تعقيب) في عام ١٩٤٩. رفيقة الآنسة هال، الليدي أونا فيسنزو تروبريدج، كتب حياة وممات راديف هال (١٩٦١).

مذكرة زمن الحرب

خلال السنوات الثلاث الأولى من الحرب، كتب أورويل مذكرات غطت فترتين:

الفترة الأولى من ٢٨ مايو/ أيار ١٩٤٠ إلى ٢٨ أغسطس/ آب ١٩٤١

الفترة الثانية من ١٤ مارس/ آذار ١٩٤٢ إلى ١٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٢.

٢٨ مايو/ أيار ١٩٤٠

هذا هو اليوم الأول الذي توقفت فيه ملصقات الصحف.... خصصت الستار نصف الصفحة الأولى منها (إحدى الصحف المسائية في لندن آنذاك) للاستسلام البلجيكي، والنصف الآخر لتأثير قبول البلجيكيين بشروط الاستسلام والملك معهم. هذا بسبب نقص في الورق على ما يفترض، رغم ذلك خصصت ست صفحات من صفحاتها المتبقية للسباق.

ليس هناك أخبار حقيقية في الأيام الماضية، ولم يستنتج سوى القليل عما يحدث فعلياً. الاحتمالاتِ كما يبدو كالتالي:

١-أن الفرنسيين على وشك شنّ هجوم مضاد من الجنوب. ٢-أنهم يرغبون ذلك، لكن القاذفات الألمانية جعلت من المستحيل حشد جيش. ٣- أن القوات التي في الشمال واثقة من قدرتها على الصمود، ورأت أنه من الأفضل أن تنتظر حتى يستهلك الهجوم الألماني نفسه. ٤- الوضع في الشمال ميئوس منه في الحقيقة، ولا تستطيع القوات هناك سوى القتال لشق طريقها نحو الجنوب، أو أن تقبل بشروط الاستسلام، أو أن تدمر تماماً، أو أن تهرب عن طريق البحر بخسائر فادحة خلال العملية. الخيار الرابع الآن هو الممكن الوحيد.

يتحدث الإيجاز الصحفي الفرنسي عن تقوية خط من سومي إلى ويسني، كما لو أن القوات التي انقطعت في الشمال لم تعد موجودة. لكنها فكرة مخيفة. أتمنى لو تتمزق القوة البريطانية المرسلة إلى فرنسا إرباً على أن تستسلم.

يتحدث الناس أكثر قليلاً عن الحرب، لكن كما هو الحال دائماً، لا تسمع إلا من قلة منهم يدلون بتعليقات عليها في الحانات إلخ. الليلة الفائتة ذهبتُ وزوجتي إلى الحانة لنستمع إلى

نشرة الأخبار المسائية، لكن النادلة لم تشغل جهاز الراديو إلا بعد أن طلبنا منها ذلك، ولم يصغ أحد من الحضور إلى الأخبار أبداً.

٢٩ مايو/ أيار

يجب على المرء أن يجمع معلومات رئيسية من خلال الإشارات والتلميحات في هذه الأيام. الشعور الوحيد ليلة البارحة أنه قبل أخبار المساء بُثّ حديث مفرح لدوف كوبر (سياسي محافظ ودبلوماسي بريطاني ومؤلف. بعد استقالته من منصبه اللورد الأول في إمارة البحر بسبب خلاف مع تشامبرلاين حول ميونيخ، أصبح القائد الصوري لليمين الوطني. عينه تشرشل وزيراً للإعلام في حكومة ١٩٤٠ كان محباً للفرنسيين دائماً، ثم أصبح سفيراً في فرنسا، وأعطته النرويج لقب فيسكونت. لقب أدنى من الكونت وأعلى من البارون).

تقول إيلين أن الناس في إدارة الرقابة عن المطبوعات حيث تعمل، يجمعون الصحف الحمراء كلها من دون تمييز، وينظرون إلى التريبيون على أنها من نفس صنف ذا ديلي ووركر أند أكشن التي منعت من التصدير مؤخراً، وأن أحد زملائها سألها "هل تعرفين هذه الجريدة، الديلي ووركر أند أكشن؟" (التريبيون الأسبوعية الاشتراكية- الديلي ووركر صحيفة الحزب الشيوعي- الديلي ووركر أند أكشن صحيفة اتحاد الفاشيين البريطانيين).

الحديث الآن يدور حول أن بيفربروك (المالك الوحيد للصحيفة الذي عينه تشرشل وزيراً لصناعة الطائرات) حصل على ألفي طائرة أخرى في الجو بشقّ النفس، وأن الغارات الجوية المحتملة، ستبدأ في غضون يومين، وأن خطة هتلر تكمن في استخدام آلاف القوارب السريعة التي تستطيع حمل... جماعات من الجنود المحمولين بحراً التي تستطيع الوصول إلى أماكن مناجم الفحم. وأن هناك نقصاً كبيراً في البنادق، وهذا من عدة مصادر. إن معنويات المشاة العاديين الألمان في الجبهة منخفضة بشكل يثير الشفقة. وإن وزارة الحربية لم تزود بمعلومات صحيحة وكافية في قضية النرويج، حتى ولو أن الليالي هناك قصيرة، ولم يتخيلوا أن القوات التي سترسو هناك في وضح النهار تحتاج إلى غطاء من الظلام.

٣٠ - أيار

الحملة البريطانية في فرنسا تتراجع في دونكيرك، ويستحيل معرفة عدد الهاربين أو حتى عدد الباقين هناك. ليلة أمس كان هناك حديث على الراديو لكولونيل (عقيد) عائد من بلجيكا، لكني

لم أسمعه لسوء الحظ، بينما إيلين سمعته. وأقحم المذيع كلاماً ليفهم الشعب أن الفرنسيين خذلوا الجيش (بعدم شن هجوم مضاد) ومن قبله السلطات العسكرية في الوطن، وذلك لسوء إمدادهم بالمعدات. ليس هناك كلمة في الصحافة تجرم الفرنسيين. وقد حذر دوف كوبر قبل ليلتين من هذا بشكل خاص في حديث إذاعي... تبدو خريطة اليوم وكأن القوة الفرنسية في بلجيكا تضحي بنفسها لتدع الحملة البريطانية في فرنسا تنجو بنفسها وتنسحب.

يقول بوركيناو (فرانس بوركيناو كاتب ولاجئ من ألمانيا الهتلرية مؤلف **قمرة الطائرة الإسبانية والشيوعي الأممي**) إن إنكلترا الآن في المرحلة الأولى من الثورة بالتأكيد. وعلق كونولي (كاتب وناقد وصديق العمر لأورويل ورئيس تحرير هورايزن) على هذا قائلاً إن هناك سفينة قادمة من الشمال الفرنسي وعلى متنها لاجئون وقلة من المسافرين العاديين. أغلب اللاجئين من الأطفال، وكانوا في حالة مزرية بعد أن تعرضوا لرصاص الرشاشات إلخ. من بين المسافرين هناك سيدة حاولت أن تقحم نفسها برأس الطابور لكي تصعد على السفينة، وحين أمرت بالتراجع، قالت باستياء: "هل تعرف من أكون؟" ردّ عليها الحارس: "لا يهمني من تكونين أيتها العاهرة القذرة. يمكنك أخذ مكانك في الطابور".

ليس هناك أي دليل على الاهتمام بالحرب حتى الآن، لكن الانتخابات الفرعية استجابت لنداءات الرجال.. إلخ، وأظهرت ماهية مشاعر الناس. يبدو من المستحيل لهم أن يفهموا الخطر الذي هم فيه، بالرغم من وجود سبب وجيه للظن أن غزو إنكلترا قد يحدث خلال الأيام القليلة القادمة، والصحف كلها تقول هذا. لن يفهموا شيئاً حتى تتساقط القنابل على رؤوسهم، يقول كونولي عندئذ سيرتعبون، لكني لا أظن ذلك.

٣١ مايو/ أيار

ذهبت لمشاهدة مسرحية دينيس غودين ليلة أمس **الفندق الآمن الثلاثية المخيفة**. النقطة المثيرة أن المسرحية قدمت في ١٩٤٠ إلا أنها لا تتضمن أية شارة مباشرة أو غير مباشرة للحرب. دهشت من قلة الرجال الذين تم استدعاؤهم إلى الجيش حتى الآن. كقاعدة عند النظر إلى الشارع، من المستحيل أن ترى فيه زياً عسكرياً.... نصبت أسلاك شائكة في نقاط استراتيجية كثيرة مثلاً بجانب تمثال تشارلز الأول في ساحة ترافيلغار.... سمعت من أطراف كثيرة عن نقص في البنادق، وأعتقد أن الأمر صحيح.

١ يونيو/ حزيران

ذهبت إلى واترلو وفيكتوريا، لأرى إن كنت سأحصل على أي أخبار عن إيريك لورانس، إيريك شقيق إيلين بلير، وكانت متعلقة به كثيراً. جراح قلب وصدر مشهور ورائد في الجيش الملكي البريطاني قتل في فالاندرز، بينما كان ينتظر الإخلاء من دونكيرك. أعلن موته في التايمز في الثامن من يونيو/ حزيران ١٩٤٠.

مستحيل تماماً طبعاً. الرجال الذين.... لديهم أوامر ألا يتحدثوا مع المدنيين وبإخلائهم بكل الأحوال من محطات القطار بأسرع ما يمكن. عملياً رأيت عدداً قليلاً جداً من الجنود، أقصد من الحملة البريطانية إلى فرنسا، وأعداداً أكبر من اللاجئين البلجيكيين والفرنسيين، وقلة من الجنود البلجيكيين أو الفرنسيين، وبعض البحارة، وقلة من رجال البحرية. بدا اللاجئون من صنف مساعدي الحانوتيين، وكانوا في وضع جيد مع كمية محددة من الممتلكات الشخصية. كان لدى إحدى العائلات ببغاء في قفص ضخم. إحدى اللاجئات امرأة كانت تبكي لأنها ارتبكت على ما يبدو من الحشد والغربة. حشد كبير ينتظر-ينتظر في فيكتوريا، ولكن الشرطة منعت المهاجرين والآخرين من الدخول إلى الشارع. ضابط من البحرية في لباسه العسكري كان في الماء، أسرع متوجهاً نحو الحافلة وهو يبتسم ويلمس خوذته ويدفعها إلى الجانب الآخر، حين صاحت به النسوة وربّتن على كتفه.

رأيت جماعة من مشاة البحرية يسيرون في مشية عسكرية عبر المحطة، لكي ينقلوا بالقطار إلى شاتهام، وذهلت بأبدانهم وقوامهم وخبطات أحذيتهم الهائلة والعربة الفاخرة للضباط، مما أعادني إلى عام ١٩١٤ حين بدا لي الجنود كعمالقة.

زعمت الصحف الصباحية على اختلافها أن أربعة أخماس أو ثلاثة أرباع المراكز القيادية للحملة البريطانية في فرنسا نقلت؛ قد تكون الصور مزيفة أو منتقاة، فهي تظهر الرجال في هيئة جيدة ومعداتهم غير متضررة.

٢ يونيو/ حزيران

يستحيل معرفة عدد الجنود البريطانيين في فرنسا الذين عادوا إلى الوطن فعلياً، لكن التقارير التي ظهرت في الصحف تقدر العدد بـ ١٥٠,٠٠٠ وأن العدد الذي تقدم إلى داخل بلجيكيا

أصلاً يقدر بـ ٣٠٠,٠٠٠. ليس هناك إشارة إلى عدد الجنود الفرنسيين الذين معهم. هناك تلميحات في عدد من الصحف أن هناك نية في إبقائهم في دونكيرك بدلاً من إخلائهم تماماً.

هذا يبدو مستحيلاً من دون تخصيص عدد كبير من الطائرات إلى تلك البقعة، لكن إذا تم نقل الـ ١٥٠,٠٠٠ فعلاً، فسيصبح بالإمكان نقل أعداد كبيرة أخرى. دخول إيطاليا في الحرب الآن متوقع في أي وقت بعد الرابع من يونيو/ حزيران، ويفترض بعرض سلام يعطيها الذريعة.. توقع عام أن تجري محاولة لغزو إنكلترا الآن، ولو لتحويل الاهتمام بينما تسعى ألمانيا وإيطاليا إلى القضاء على فرنسا..... احتمال أن يرسو في إيرلندا عدد كبير من الناس ومنهم دي فاليرا. هذه الفكرة لم تذكر إلا نادراً في الأيام القليلة الأخيرة، علماً أنها كانت واضحة منذ البداية.

حشود يوم الأحد التي تندفع إلى الأمام والخلف وعربات الأطفال ونوادي الدراجين والناس الذين يربضون كلابهم وزمر الشباب في زوايا الشوارع، كل هؤلاء لا تظهر على وجوههم أي علامة، أو يصل إلى مسامعك من أي واحد منهم أن هؤلاء الأشخاص يدركون أنهم قد يتعرضون إلى غزو خلال بضعة أسابيع، رغم أن الصحف اليوم أبلغتهم بذلك.

كانت الاستجابة إلى النداءات المتجددة لإخلاء الأطفال من لندن قليلة جداً، والواضح أن التعليل كالآتي: الغارات الجوية لم تحدث في المرة السابقة، لهذا لن تحدث هذه المرة. رغم ذلك، فإن هؤلاء الناس يتصرفون بشجاعة حين يأتي الوقت وطلب منهم أن يفعلوا ذلك.

تحليل أولي للإعلانات الصادرة اليوم في صحيفة ذا بيبل (صحيفة شعبية من صحف يوم الأحد) تتألف من ١٢ صفحة أي ٨٤ عموداً، وقد قسمت على الشكل الآتي: أطعمة ومشروبات خمسة أعمدة وثلاثة أرباع. أدوية تسعة أعمدة وثلث. تبغ عمود.... قمار عمودان وثلث. ملابس عمود ونصف. متفرقات ستة أعمدة وثلاثة أرباع.

من الإعلانات المخصصة للطعام والشراب ستة إعلانات لأشياء الترف غير الضرورية. من ٢٩ إعلاناً للأدوية هناك ١٩ منها لأشياء شبه مخادعة (شفاء الصلع إلخ) ومن النوع الابتزازي والمضر بالصحة "معدة طفلك تحتاج إلى...". من ١٤ إعلاناً للمتفرقات هناك ٤ من أجل الصابون، وواحد لمستحضرات التجميل، وواحد لمنتجع عطلات، واثنان حكوميان، وواحد كبير من أجل الادخار الوطني. ثلاثة إعلانات فقط عن الحرب.

٣ حزيران/ يونيو

رسالة من سيدة أكسفورد إلى الديلي تلغراف عن موضوع اقتصاديات الحرب (مارغوت اسكويث أرملة هربرت سكويث رئيس وزراء سابق. منحت لقب ايرلة أكسفورد واسكويث ١٩٢٥)

بعد أن هجرت أغلب البيوت في لندن، لم يبق سوى القليل من التسلية.... في كل الأحوال اضطر الناس للافتراق عن طباخيهم وسكنوا الفنادق. من الواضح أن هؤلاء الناس لا يعلمون أن ٩٩٪ من السكان مازالوا موجودين.

٦ حزيران/ يونيو

رجحت ومعي بوركيناو في ذلك، أن هجوم هتلر التالي سيكون على فرنسا وليس على إنكلترا، وتبين أن ذلك صحيح. بوركيناو يعتبر أن قضية دونكيرك أثبتت مرة وإلى الأبد أن الطيران لا يستطيع هزم السفن الحربية، إن كان لدى الأخيرة طيرانها الخاص بها. إذاً الأرقام التي أعطيت بدمار ست مدمرات، وفقدان خمسة وعشرين قارباً في إخلاء ما يقارب ثلاثمئة وخمسين ألفاً تبدو حقيقية. ولو ضاعفنا عدد السفن المفقودة، تظل الخسارة غير كبيرة من أجل عمل كبير، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الظروف كانت مناسبة للطيران. يعتقد بوركيناو أن خطة هتلر ستكون تحطيم فرنسا وهزمها، والمطالبة بأن يكون الأسطول الفرنسي جزءاً من شروط السلام. بعد ذلك قد يبدو غزو إنكلترا بجنود محمولين بقوارب معقولاً وعملياً.

إعلان ضخم في داخل إحدى الحافلات: إسعاف أولي في وقت الحرب ومن أجل الصحة والقوة والتحمل: علكة زيغلي.

٧ يونيو/ حزيران

على الرغم من الكبت الذي تتعرض له ملصقات الصحف اليوم، إلا أن المرء يرى باعة الصحف يعرضون نوعاً واحداً بشكل متكرر. يبدو أن الملصقات القديمة قد عادت إلى الحياة، واستخدمت ملصقات بعنوان مثل "غارات سلاح الجو الملكي على ألمانيا".

٨ يونيو/ حزيران

في وسط معركة مخيفة يقتل فيها آلاف الرجال يومياً كما أعتقد، يتكون لدى المرء انطباع بعدم وجود أي أخبار. صحف المساء مثل صحف الصباح، وصحف الصباح مثل صحف الليلة الفائتة، والراديو يكرر ما هو موجود في الصحف. ربما هناك حظر ومنع بدلاً من الكذب الصريح. يرى بوركيناو أن تأثير الراديو يجعل الحرب صادقة نسبياً، وأن الكذب في مستويات كبيرة هو الادعاءات الألمانية عن إغراق السفن البريطانية. إنها خيالية بالتأكيد. كتبت إحدى الصحف المسائية مؤخراً عن إعلانات وتصريحات ألمانية، وأشارت أن الألمان زعموا أنهم أغرقوا خلال عشرة أيام فقط خمس وعشرين سفينة إنكليزية كبيرة، أي أكثر مما نملك من تلك السفن بعشرة. قال لي ستيفن سبيدز مؤخراً: ألا تشعر أنك في وقت من السنين العشر الماضية كنت قادراً على التكهن بالأحداث بشكل أفضل مما فعل مجلس الوزراء؟ يجب أن أوافقه في هذا، لأننا لم تعمنا المصالح الطبقية من جهة مثال: أي شخص ليس له اهتمامات مالية يمكنه أن يرى بلمحة سريعة ذلك الخطر الاستراتيجي على إنكلترا في ترك ألمانيا وإيطاليا تسيطران على إسبانيا. بينما لم يدرك الكثيرون من الجناح اليميني والجنود المحترفين هذا الواقع الواضح جداً. لكني أشعر أن الأشخاص الذين يفهمون الوضع أفضل من المسميين بالخبراء، ليسوا في موقع سلطة للتكهن بأحداث بعينها وإنما.... في فهم نوع العالم الذي نعيش فيه. على أي حال لقد عرفت منذ عام ١٩٣١ أن المستقبل سيكون كارثياً، وقال سبيدر إنه عرف ذلك منذ عام ١٩٢٩. لم أقدر أن أحدد بالضبط ما هي الحروب والثورات التي ستحدث، لكني لم أتفاجأ بحدوثها. عرفت منذ عام ١٩٣٤ أن هناك حرباً قادمة بين إنكلترا وألمانيا. ومنذ عام ١٩٣٦ عرفت ذلك بشكل مؤكد تماماً. أشعر بها في بطني ولم تخدعني أبداً ثرثرة السلميين (الرافضين لحمل السلاح) من جهة، وأعضاء الجبهة الشعبية من جهة أخرى، أولئك الذين تظاهروا بالخوف من أن بريطانيا تحضر لحرب ضد روسيا. وكذلك لم تفاجئني أعمال الرعب تلك كالتطهير العرقي في روسيا، لأنني كنت أشعر دائماً -ليس بدقة وإنما بشيء مثل ذلك- بأنه كان ضمنياً في الحكم البلشفي. شعرت بأدبهم... من كان يصدق قبل سبعة سنين أن هناك أي مستقبل سياسي لونستون تشرشل؟

منذ سنة كان كريبس الصبي الشرير لحزب العمال الذي طرده ورفض الاستماع حتى إلى دفاعه، ومن الجانب الآخر هو الأحمر الخطير من وجهة نظر المحافظين. أما الآن فهو سفير في

موسكو، وقادت صحافة بيفربروك احتجاجاً ضد تعيينه، لكن إلى الآن من المستحيل القول إن كان الرجل الصحيح أم لا. إذا اقتنع الروس في الوقوف إلى جانبنا فهو كذلك، لكن إن ظلوا معادين لنا، فقد كان الأفضل لو كنا أرسلنا رجلاً لا يعجبه نظام الحكم الروسي.

(السير توماس كريبس (١٨٨٩-١٩٥٢) بدأ سيرته كمحامي ناجح، ثم أصبح عضو برلمان عن حزب العمل ١٩٣١. كانت له مشاكل كبيرة دائماً مع قيادة حزب العمل خلال الثلاثينيات. اعتبر عقلاً منظراً سياسياً لامعاً، بينما أكسبه انضباطه الشخصي الصارم وصلابة اشتراكيته الاحترام إن لم يكن المحبة. كان سفيراً في موسكو ١٩٤-١٩٤٢ ثم انضم إلى وزارة الحرب في فبراير/ شباط ١٩٤٢ ثم لورد نيفي سيل وزعيم مجلس العموم، وفي مارس - أبريل ذهب كموفد خاص إلى الهند. وفي أكتوبر/ تشرين أول في نفس السنة أصبح وزيراً لإنتاج الطائرات في حكومة العمال التي أتت بعد الحرب ١٩٤٧-١٩٥٠.

١٠ يونيو/ حزيران

سمعت للتو أن إيطاليا أعلنت الحرب، لكن الخبر ليس في الصحف...... قوات الحلفاء تنسحب من النرويج، المبرر المقدم أنه يمكن استخدامهم في مكان آخر. ونارفيك بعد أسرها تركت بلا فائدة للألمان. لكن في الحقيقة فإن نارفيك لن تكون ضرورية لهم حتى الشتاء، ولن تكون ذات فائدة كبيرة بأي حال، حين لم تعد النرويج حيادية. وأنا يجب ألا أظن أن الحلفاء لديهم قوات كافية في النرويج لتشكل فرقاً كبيراً. السبب الحقيقي هو ربما لكي لا نجبر على أن نخسر سفن حربية. في ظهر هذا اليوم تذكرت بحيوية كبيرة ذلك الحادث مع سائق تاكسي في باريس في عام ١٩٣٦، وكنت سأكتب شيئاً عنه في هذه المذكرة. لكن الآن أشعر بحزن شديد أنني لا أستطيع أن أكتبه. كل شيء يتفسخ. كتابة مراجعة نقدية لكتاب تجعلني أتضور من الألم في هكذا وقت، وحتى يغضبني أن تضييع الوقت هذا مازال مسموحاً به. المقابلة في وزارة الحرب يوم السبت قد تصل إلى شيء ما إن كنت ذكياً في تزييف ماضيّ الطبي. لو قبلت في الجيش، فأنا أعرف بالقياس مع الحرب الإسبانية أنني سأتوقف عن الاهتمام بالأحداث العامة. في الوقت الحالي أشعر كما شعرت عام ١٩٣٦ حين كان الفاشيون يتقدمون نحو مدريد، لكن بشكل أسوأ. لكني سأكتب عن سائق التاكسي في وقت ما.

١٢ يونيو/ حزيران

مشينا أنا وإيلين ليلة أمس عبر يوهو، لنرى إن كان الضرر الذي حصل في المحلات الإيطالية إلخ كان كما جاء في التقارير. يبدو أن هناك مبالغة في الصحف، لكننا رأينا متاجر تحطمت نوافذها. الغالبية أسرعوا ووسموا أنفسهم "بريطانيين". غيناري السمان الإيطالي كان مجصصاً المكان كله بإعلانات مطبوعة تقول "هذه المؤسسة بريطانية بالكامل" بيت السباغاتي متجر متخصص بالأطعمة الإيطالية أعاد تسمية نفسه "متجر الطعام البريطاني". متجر آخر أعلن نفسه سويسرياً، وحتى مطعم فرنسي صنف نفسه ببريطاني. الشيء الممتع أن كل هذه الإعلانات طبعت مسبقاً كما يجب، وكانت جاهزة.

هذه الهجمات على أصحاب المتاجر الإيطاليين غير المؤذين مثيرة للاشمئزاز، وهي ظاهرة مشوقة، لأن الشعب الإنكليزي- أقصد أناساً من النوع الذي يحتمل منه أن ينهب متاجر- لا يعير اهتماماً عفوياً في السياسة الخارجية كقاعدة. أنا لا أعتقد أنه كان هناك أي شيء من هذا النوع لامس جماهير الناس أثناء الحرب الإثيوبية والحرب الإسبانية. لم يكن هناك أي تحرك شعبي ضد المقيمين الألمان في إنكلترا حتى الشهر الماضي أو الشهرين الماضيين. إن الخسة الوحشية الوضيعة لإعلان موسوليني الحرب في تلك اللحظة، يجب أنها خلقت انطباعاً حتى على أشخاص نادراً ما قرؤوا جرائد كقاعدة.

١٣- يونيو/ حزيران

ذهبت أمس إلى مؤتمر جماعي لـ (متطوعي الدفاع المحلي، الذي أصبح لاحقاً الحرس الوطني) عقد في غرفة اللجنة في اللوردس (نادي ماريليبون للكريكت)......... وآخر مرة لي في اللوردس يجب أنها كانت في مباراة إيتون -هارو في عام ١٩٢١. في ذلك الوقت كنت أشعر أن الدخول إلى البافيلون من دون أن تكون عضواً في نادي ماريليبون للكريكت، يعادل التبول على مذبح الكنيسة. وفي سنوات لاحقة كونت فكرة غامضة أنه كان إثماً شرعياً يمكن أن أقاضى بسببه. ألاحظ أن أحد الملصقات المكرسة للرواد، هو عبارة عن قدم تدوس على الصليب المعقوف مع أسطورة "امشِ عليه" منتحلة كفكرة من ملصق حكومي من الحرب الإسبانية. طبعاً إنه بسيط وحوّل إلى رسم هزلي، لكن ظهوره بأي حال يبين أن الحكومة بدأت ترغب بالتعلم.

المرشح الشيوعي في انتخابات الباو الفرعية (دائرة انتخابية للطبقة العاملة في إيست ايند في لندن. جورج لانزبيري عضو في البرلمان وزعيم حزب العمال ونصير متحمس للسلمية) حصل على ٥٠٠ صوت. هذا سجل جديد، لكن أصحاب القمصان السود يحصلون دائماً تقريباً على أصوات أقل (في حالة واحدة حوالي ١٥٠). اللافت أكثر أن الباو مقعد لانزبيري يُتوقع أنه يحتوي على كثير من السلميين، لكن الاقتراع كل كان متدنياً جداً.

١٤ يونيو/ حزيران

الألمان في باريس بالتأكيد قبل يوم من الموعد المجدول. من المؤكد أن هتلر سيذهب إلى فرساي. لماذا لا يلغمونه ويفجرونه بينما هو هناك؟

القوات الإسبانية احتلت طنجة، ومن الواضح أنهم مع فكرة أن يسمحوا للإيطاليين باستخدامها كقاعدة. لقهر المغرب الإسبانية من المغرب الفرنسية، سيكون سهلاً في هذا التاريخ. ولفعل الشيء عينه في المستعمرات الإسبانية الأخرى وتنصيب نيجرين (جوان نيجرين رئيس وزراء الحكومة الإسبانية في آخر طور من الحرب الأهلية) أو واحد من نوعه كحكومة بديلة، سيكون ضربة قاسية لفرانكو. لكن حتى الحكومة البريطانية الحالية، لن تفكر بفعل شيء كهذا أبداً. المرء فقد القدرة تقريباً على تخيل أن تأخذ حكومات الحلفاء المبادرة. دائماً حين أمشي في محطات سكة الحديد التي تحت الأرض، تثير اشمئزازي الإعلانات والوجوه المحدقة السخيفة والألوان الصارخة والصراع العام المسعور لحث الناس على تضييع تعبهم ومادياتهم باستهلاك وسائل ترف عديمة الجدوى وعقاقير مضرة. كم من النفاية ستجرف هذه الحرب لو استطعنا فقط أن نتماسك خلال الصيف. الحرب ببساطة نقيض وعكس الحياة المتحضرة شعارها "أيها الشر لتكن أنت خيري"، والكثير جداً من الأشياء الجيدة في الحياة الحديثة، هي عبارة شرور في الواقع، لذلك يُشك بالنهاية -بعد أخذ كل الأمور في الاعتبار- إن كانت الحرب ضارة.

١٥- يونيو/ حزيران

خطر لي أن أتساءل إن كان سقوط باريس يعني نهاية مكتبة الباتروس (واحدة من أقدم دور النشر في باريس التي تصدر كتباً باللغة الإنكليزية للسوق القارية) كما أظن أنها ستفعل.

إن كان كذلك فسأخسر ٣٠ جنيهاً. يبدو شيئاً لا يصدق أن الناس مازالوا يعلقون أهمية على العقود الطويلة الأجل ورؤوس الأموال والأسهم وسياسات التأمين.. إلخ في ظروف كهذه. الشيء المعقول الذي يمكن القيام به أن تقترض نقوداً من اليمين والشمال لتشتري بضائع مادية صلبة. بعد برهة قصيرة، استفسرت (إيلين) عن شراء ماكينات الخياطة بالتقسيط، ووجدت أنهم عقدوا اتفاقات لأكثر من سنتين ونصف. بي دبليو (فيكتور ويليام (بيتر) واتسون شاب غني قرر بعد سفر كثير أن يكرس حياته للفنون في عام ١٩٣٩. وأسس هو وسيريل كونولوي مجلة هورايزن، ثم كان أحد المؤسسين لمعهد الفنون المعاصرة. كان معجباً بكتابات أورويل) روى أن يونيتي ميتفورد (يونيتي فالكيري ميتفورد الابنة الرابعة للورد الثاني ريزديل. أعجبت بهتلر منذ أن التقت به) بالإضافة إلى أنها حاولت أن تطلق النار على نفسها حين كانت في ألمانيا، كانت ستنجب طفلاً، ونتيجة لهذا هتف رجل صغير البنية ذو وجه متغضن نسيت اسمه وقال "الفوهرر لا يفعل شيئاً كهذا!".

١٦ يونيو/ حزيران

هذا الصباح أوضحت الصحف أن الولايات المتحدة لن تفعل شيئاً إلى ما بعد الانتخابات الرئاسية في كل الأحوال، أي أنها لن تعلن الحرب. وهو الأمر المهم في الحقيقة. فإذا لم تدخل الولايات المتحدة الحرب، لن يكون هناك سيطرة كافية على التجارة وعمل لتسريع إنتاج السلاح. في الحرب الأخيرة كانت هذه هي الحالة حتى عندما كانت الولايات المتحدة دولة محاربة. من المستحيل حتى الآن أن نقرر ماذا نفعل في حال غزا الألمان إنكلترا. الشيء الوحيد الذي لن أفعله هو الانسحاب بأي قياس إلى أبعد من إيرلندا، بفرض ذلك أن يكون محتملاً ومعقولاً. إذا كان الأسطول سلبياً وبدا أن الحرب سوف تستمر من أمريكا إلى المستعمرات التابعة لبريطانيا، عندها يجب على المرء أن يبقى حياً إن أمكن، وإن كان ضرورياً في معسكر اعتقال حتى. إذا كانت الولايات ستتعرض لغزو أيضاً، فليس هناك شيء لها سوى أن تستميت بالقتال. ويجب على المرء قبل كل شيء أن يموت وهو يقاتل ولديه الرضا والقناعة بقتل شخص آخر أولاً.

تحدثت أمس إلى (ام) أحد أعضاء متطوعي الدفاع المحلي في القطاع التابع لي، قلت إنه حين تمر الأزمة الحالية، سيكون هناك ثورة في الحزب المحافظ ضد تشرشل ومحاولة لإجبار

الأجور على النزول مرة أخرى إلخ. قال في تلك الحالة ستكون هناك ثورة "أو على الأقل هو يأمل ذلك". (ام) صاحب مصنع وأتخيل أنه ثري.

١٧ يونيو/ حزيران

استسلم الفرنسيون. تمكنا من التنبؤ بهذا من نشرة يوم أمس الإذاعية. وفي الواقع يفترض أن يكون ذلك متنبأ به منذ أن فشلوا في الدفاع عن باريس التي هي المكان الوحيد الذي كان من الممكن إيقاف الدبابات الألمانية فيه. استراتيجياً كل شيء تحول على الأسطول الفرنسي الذي ليس هناك أي خبر عنه حتى الآن.........

هناك هياج كبير اليوم حول استسلام فرنسا، والناس في كل مكان يناقشونه. خط عادي "نشكر الرب أنه لدينا أسطول بحري". جندي اسكتلندي بميداليات من الحرب الأخيرة شبه سكران ألقى خطاباً وطنياً في عربة المترو أحبه المسافرون قليلاً كما بدا. هناك هجمة على صحف المساء، لدرجة أنني قمت بأربع محاولات قبل أن أحصل على واحدة.

في الوقت الحاضر، حين أكتب مراجعة نقدية، أجلس إلى الآلة الكتابة وأطبعها مباشرة. حتى وقت قريب في الحقيقة ومنذ ستة شهور مضت، أنا لم أعمل هذا أبداً، وكنت أقول لنفسي إنني لا أستطيع أن أفعل ذلك. وعملياً كل الذي كتبته، كتبته مرتين على الأقل، وكتبي ككل كتبتها ثلاث مرات..... وهناك مقاطع منفردة كتبتها خمس مرات أو عشر، ليس لأنني فزت بتسهيلات، وإنما لأنني توقفت عن الاهتمام طالما العمل سيجتاز الفحص ويدر القليل من النقود. وسبب هذا الفساد والتدهور يعود إلى الحرب مباشرة.

حشد كبير في كندا هاوس حيث ذهبت لأستفسر لأن جي (أرملة لورانس) تفكر في إرسال طفلها إلى كندا. لم يسمحوا لأي أحد بين السادسة عشرة والستين أن يغادر باستثناء الأمهات. ومن الواضح أنهم يخشون من هجمة هجرة مسعورة.

٢٠ يونيو/ حزيران

ذهبنا إلى وزارة الـ...... لأرى أي خط يأخذون بخصوص الدفاع الوطني. سي الشخص المهم الآن هناك ضد خط "تسليح الشعب"، وقال إن مخاطره تفوق فوائده المحتملة. إن وجدت قوة ألمانية غازية مدنيين مسلحين، ربما ترتكب أعمال بربرية وتسبب الذعر بين الناس

جميعاً، وتجعل كل واحد تواقاً للاستسلام. وقال من الخطير أن نعتمد على أناس عاديين ليكونوا شجعان. واستشهد بحالة الشعب في غلاسغو حين لفت دبابة حول البلدة ففر الجميع بطريقة جبانة جداً. لكن كانت الظروف مختلفة، لأن الناس في تلك الحالة كانوا غير مسلحين، وكما في الصراع الداخلي دائماً يدركون أنهم يقاتلون والحبال حول رقابهم.... قال سي إنه يعتقد أن تشرشل رغم أنه رجل طيب إلى حد ما، كان غير قادر على فعل الشيء الضروري وتحويل هذه الحرب إلى حرب ثورية. ومن أجل ذلك السبب حمى تشامبرلاين وشركاه، وتردد في جلب الأمة كلها إلى قلب الصراع. أنا لا أعتقد طبعاً أن تشرشل يراها بنفس الألوان التي نراها نحن. ولا أعتقد أنه سيتأخر في أي خطوة (مثلاً المساواة في الدخول واستقلال الهند) يعتقد أنها ضرورية لكسب الحرب. طبعاً من المحتمل أن تنجز الجلسة السرية ما يكفي لإخراج تشامبرلاين وشركاه نهائياً. سألت سي هل هناك أي أمل بحدوث هذا برأيه ـ قال لا أمل إطلاقاً. لكن أتذكر اليوم الذي بدأ فيه البريطانيون بإخلاء نامسو (ميناء في النرويج يسيطر عليه البريطانيون) سألت بيفان وستراوس اللذين أتيا من البرلمان لتوهما هل هناك أي أمل لعزل تشامبرلاين من المنصب، فقالا لا أمل بتاتاً. مع ذلك، بعد أسبوع تقريباً شكلت الحكومة الجديدة. (انيورين بيفان ١٨٩٧-١٩٦٠، عضو برلمان عن حزب العمال ووزير صحة في حكومة ما بعد الحرب. أحد أعظم خطباء إنكلترا. أحبه اليسار وخشي منه اليمين وكرهه. استقال من حكومة العمال ١٩٥١ بسبب انشقاق سياسي، لكنه بقي عضواً في الحزب ورمزاً لطموحاته الاشتراكية. كمدير للتريبيون أعطى أورويل الحرية أن يكتب بالضبط ما يرضيه حتى حين كتب ضد سياسة حزب العمال. مثال ذلك: شجب أورويل النظام السوفييتي أثناء الأطوار الحاسمة من جهد الحرب الروسية البريطانية..(جي آر ستراوس، عضو برلمان عمالي، مدير التريبيون مع صديقه انيورين بيفان).

إن الاعتقاد في خيانة مباشرة في القيادة العليا واسع الانتشار الآن وكافٍ ليكون خطيراً......... شخصياً أعتقد أن مثل هذه الخيانة المتعمدة لا توجد إلا في عنصر مؤيد للفاشية من الأرستقراطية، وربما في قيادة الجيش. إن التخريب غير المتعمد والغباء الذي أوصلنا إلى هذا الوضع كالمعالجة البلهاء لإيطاليا وإسبانيا مثلاً، هي مسألة مختلفة طبعاً. آر إتش (رينار هيينستال) يقول إن الجنود من الرتب المتدنية الذين عادوا من دونكيرك وتكلم

معهم، اشتكوا من سلوك ضباطهم، وقالوا إن الضباط تراجعوا ورحلوا في سيارات وتركوهم في المأزق إلخ. هذا النوع من الشيء يقال دائماً بعد الهزيمة، وقد يكون صحيحاً أو لا يكون. يمكن للمرء التأكد من ذلك بدراسة قوائم الإصابات والخسائر عندما تنشر كاملة. لكن ليس سيئاً بالكامل أن يقال هذا الشيء بشرط ألا يؤدي إلى ذعر مفاجئ بسبب الحاجة المطلقة إلى جعل الشيء بكامله على أساس طبقي جديد. في الجيوش الجديدة فإن أناس الطبقة الوسطى ملزمون بأن يهيمنوا كضباط، وقد فعلوا ذلك بالميليشيات الإسبانية مثلاً، لكنها مسألة التخلص من أشباه الكولونيل بليمب (الرجعيين). الشيء نفسه مع متطوعي الدفاع الوطني. تحت ضغط الحاجة الملحة نحن سوف نتخلص من أشباه الكولونيل بليمب (الرجعيين) إن توفر لنا الوقت، لكن الوقت كل شيء.

فكرة خطرت لي يوم أمس: كيف يكون لدى إنكلترا هذا العدد الكبير من الكولونيلات المتقاعدين، وجيشها واحد من أصغر الجيوش في العالم؟ ألاحظ أن كل المثقفين "اليساريين" الذين ألتقي بهم يعتقدون أن هتلر إن وصل إلى هنا، فسوف يتجشم عناء قتل أشخاص مثلنا، وستكون لديه قوائم شاملة بغير المرغوب فيهم. ويقول سيريل كونولي: توجد حركة مستمرة للحصول على سجلاتنا الشرطية في اسكتلند يارد المهدم. بعض الأمل! الشرطة هم الناس الذين سيذهبون إلى هتلر، بمجرد أن يكونوا متأكدين من أنه فاز وانتصر.

حسناً لو استطعنا الصمود لبضعة أشهر، سنرى في ظرف سنة ميليشيا حمراء مركزها في الريتز، ولن يفاجئني أن أرى تشرشل أو لويد جورج على رأسهم. أفكر دائماً في جزري في الهيبريدز التي أعتقد أني لن أملكها أو أراها حتى. يقول كومبتون ماكنزي إن أغلب الجزر حتى الآن غير مسكونة (هناك ٥٠٠ جزيرة، ١٠ بالمئة منها فقط مسكونة في الأوقات العادية) وأغلبها فيها ماء وأرض قابلة للحراثة وماعز يعيش عليها. حسب آر إتش، فقد استأجرت امرأة جزيرة في هيبريديز لكي تتجنب الغارات الجوية، فكانت أول ضحية للغارات الجوية في الحرب؛ حيث أسقط سلاح الجو الملكي قنبلة هناك بالخطأ. جيد إن كان هذا صحيحاً.

أول غارة جوية لها عقابيل على بريطانيا العظمى، كانت في الليلة قبل الماضية. قتل أربعة عشر شخصاً، وأسقطت سبع طائرات ألمانية حسب زعمهم. نشرت الصحف صوراً لحطام ثلاث طائرات ألمانية، لهذا ربما كان الادعاء صحيحاً.

٢١ يونيو/ حزيران.

لا توجد أخبار حقيقية. أرى من صحف يوم أمس، أن تشيابي انتخب رئيساً لبلدية باريس تحت الضغط الألماني كما يفترض (جان تشيابي رئيس شرطة باريس مؤيد للفاشية ومسؤول عن إجراءات قمعية قاسية ضد اليسار). قيل الكثير عن ادعاء هتلر بأنه صديق الطبقات العاملة وعدو البلوتوقراطية إلخ. كان يوم أمس أول تدريب لفصيلتنا من متطوعي الدفاع الوطني. كانوا رائعين فعلاً؛ ثلاثة أو أربعة فقط من العدد الكلي (حوالي ٦٠ رجلاً) لم يكونوا جنوداً. بعض الضباط كانوا هناك، وأعتقد أنهم أتوا ليسخروا، ولكنهم كانوا متأثرين تماماً.

٢٢ حزيران/ يوليو

لا توجد أخبار حقيقية بعد حول الشروط الألمانية على فرنسا، لكنها ستكون "معقدة جداً" كما قالوا، وتحتاج إلى نقاش طويل. أعتقد أنه يمكن للمرء أن يفترض أن ما يحدث فعلاً، هو أن الألمان على جانب، وبيتان وشركاه على الجانب الآخر، يحاولون أن يتوصلوا إلى صيغة تحثّ القادة الفرنسيين في المستعمرات والبحرية على الاستسلام. فهتلر ليس له سلطة في الحقيقة على هؤلاء، إلا من خلال الحكومة الفرنسية......... أعتقد أننا كنا كلنا متعجلين في افتراضنا أن هتلر سيغزو الآن إنكلترا. وفي الواقع كان هذا متوقعاً بشكل عام، لدرجة أن المرء قد يستنتج من هذا أنه لن يفعلها.......... لو أنني كنت مكانه، لتقدمت عبر إسبانيا وسيطرت على جبل طارق، ثم هجمت على شمال أفريقيا ومصر. إن كان البريطانيون يملكون قوة مرنة، ولنقل ربع مليون رجل، فسيكون المسار الصحيح نقل هذه القوة إلى المغرب الفرنسية، ثم فجأة الاستيلاء على المغرب الإسبانية، ورفع العلم الجمهوري. المستعمرات الإسبانية الأخرى يمكن أن تمسح (تؤخذ) من دون عناء كبير. مشاكل كثيرة. للأسف لا أمل بحدوث شيء كهذا. الشيوعيون يتأرجحون ويتراجعون إلى موقف معادٍ للنازية. هذا الصباح حصلت على كراسة تشجب "خيانة" فرنسا من قبل بيتان وشركاه، رغم أن هؤلاء الأشخاص كانوا قبل أسبوع أو اثنين مؤيدين للألمان.

٢٤ يونيو/ حزيران

شروط الهدنة الألمانية أكثر وأصعب مما هو متوقع..... المشوق حول الأمر برمته، هو المدى الذي انهار فيه أنموذج الولاءات التقليدي والشرف. المفارقة المضحكة أن بيتان هو صاحب

العبارة (في فيردون) "لن يمروا"، والذي مازال حتى الآن شعاراً معادياً للفاشية. منذ عشرين سنة مضت، فإن أي فرنسي كان سيوقع مثل هذه الهدنة، كان سيعتبر يسارياً متطرفاً أو سلمياً متطرفاً، وحتى في ذلك الوقت ستكون هناك شكوك. الآن، الناس الذين يبدلون اصطفافهم عملياً في منتصف الحرب، هم المحبون للوطن المحترفون، بيتان ولافال وفلادين وشركاؤهم. يفترض أن الحرب كلها بدت مثل صراع داخلي مجنون، في لحظة يكون عدوك فيها ينتظر سفك دمك.... لذلك من المؤكد عملياً أن المسؤولين المؤثرين الكبار في إنكلترا يحضرون ويجهزون لبيع كامل مماثل. وبينما... اس.... ليس هناك أي يقين أنهم لن ينجحوا حتى من دون غزو إنكلترا. الشيء الوحيد الجيد في الموضوع كله، أن القاعدة (الطبقة الفقيرة) دحضت ادعاء هتلر بأنه صديق الإنسان الفقير. إن الناس الراغبين فعلاً في عقد صفقة معه، هم المصرفيون والجنرالات والأساقفة والملوك ورجال الصناعة الكبار إلخ..... هتلر هو القائد للهجوم المضاد الهائل للطبقة الرأسمالية التي شكلت نفسها في شركة واسعة، وفقدت امتيازاتها إلى حد ما في عملها هذا، لكنها مازالت تحتفظ بسلطتها فوق الطبقة العاملة. حين يصل الأمر إلى مقاومة هجوم كهذا، فإن أي واحد من الطبقة الرأسمالية يجب أن يكون خائناً أو شبه خائن، وسيبلع أشد الإهانات بدلاً من التصميم على خوض قتال حقيقي..... أينما ينظر المرء، إن كان إلى مظاهر استراتيجية واسعة أو إلى أصغر تفاصيل الدفاع الوطني، فإنه يرى أن أي صراع حقيقي يعني الثورة. إن تشرشل لا يستطيع أن يرى أو يقبل هذا بالتأكيد، لذلك يجب أن يذهب. إن كان سيذهب في الوقت المناسب لينقذ إنكلترا من غزو، فهذا يعتمد على السرعة التي يستطيع الناس عموماً فيها إدراك الأساسيات والأشياء الجوهرية.

استراتيجيا التحولات تعتمد على الصمود حتى الشتاء. حتى ذلك الوقت، مع جيوش احتلال في كل مكان وطعام سينفد تقريباً وصعوبة في إجبار شعوب البلاد المهزومة على العمل، يجب أن يكون هتلر في وضع حرج. سيكون من الممتع أن نرى إن كان سيعيد تأهيل الحزب الشيوعي الفرنسي المضطهد، ويحاول أن يستخدمه ضد الطبقة العاملة في شمال فرنسا، كما استخدم بيتان ضد طبقة البليمب (الرجعيين القوميين). إن حدث الغزو وفشل كل شيء، ستكون الأمور على ما يرام، وسيكون لدينا حكومة يسارية بالتأكيد وحركة واعية ضد الطبقة الحاكمة. أعتقد أن الناس يخطئون عندما يتخيلون أن روسيا ستكون أكثر ودية نحونا إن كان

لدينا حكومة ثورية. بعد إسبانيا أنا لا أستطيع منع شعوري بأن روسيا، أقصد ستالين، يجب أن تكون معادية لأية دولة تمر فعلاً بثورة. سوف يتحرك الروس في اتجاهات معاكسة. تبدأ الثورة بانتشار واسع لأفكار الحرية والمساواة إلخ، ثم يأتي نمو حكم القلة (أوليغاركية) التي تهتم بالتمسك بامتيازاتها مثل أي طبقة حاكمة. وهذه الأوليغاركية يجب أن تكون بالضرورة معادية للثورات في كل مكان، تلك الثورات التي ستثير بشكل محتم أفكار الحرية والمساواة. هذا الصباح أعلنت النيوز كرونيكلز أن تحية الرتب العليا قد أعيد تأسيسها من جديد في الجيش الأحمر. الجيش الثوري سيبدأ بإلغاء التحية. وهذه النقطة الصغيرة جداً دلالة على كل الوضع. الأوامر إلى متطوعي الدفاع المحلي أن تسلم كل المسدسات إلى الشرطة لأن هناك حاجة إليها في الجيش. التمسك بأسلحة لا فائدة منها مثل المسدسات حين يكون لدى الألمان بنادق نصف آلية شيء أنموذجي للجيش البريطاني، لكنني أعتقد أن السبب الحقيقي للأمر هو منع الأسلحة من أن تصل إلى الأيدي "الخطأ".

كلاهما أي وجي سيصران على أنني يجب أن أذهب إلى كندا إن ساءت الأحوال كثيراً، لكي أبقى حياً وأستمر في الدعاية. سوف أذهب إن كان لي دور ما، مثلاً إذا نُقلت الحكومة إلى كندا، وكان لدي نوع من وظيفة، لكن ليس كلاجئ ولا كصحفي مهجر يصرخ من مسافة آمنة. يوجد الكثيرون جداً من هؤلاء "المعادين للفاشية" مسبقاً. الأفضل أن أموت إن كان ضرورياً، وربما حتى كدعاية موت المرء قد يحقق وينجز أكثر من الذهاب إلى الخارج والعيش، كشخص غير مرغوب فيه تقريباً، على إحسان أناس آخرين. أنا لا أريد أن أموت. لدي الكثير جداً لأعيش من أجله، بالرغم من الصحة العليلة وعدم إنجابي لأطفال. كراسة حكومية أخرى هذا الصباح عن التعامل مع إصابات الغارات الجوية. الكتيبات تحسنت كثيراً في النغمة واللغة، والنشرات الإذاعية أفضل أيضاً، خصوصاً نشرات دوف كوبر التي في الواقع مثالية لأي واحد دون مستوى الخمس جنيهات أسبوعياً. ليس هناك شيء حتى الآن في الخطاب الشعبي الحقيقي، لا شيء يحرك الطبقة العاملة الأفقر، أو حتى شيء مفهوم مؤكد. أغلب الناس لا يدركون الانطباع القليل الذي تتركه الكلمات المجردة على الإنسان العادي. حين كان أكلاند يرسل بيانه الحماري "بيان الإنسان البسيط" الذي كتبه بنفسه ووقع على الخط المنقط باسم "رجال بسطاء" اختارهم، أخبرني أن لديه المسودة الأولى التي دققت من قبل مراقبين

جماهيريين جربوه على عمال ووجدوا أشد حالات سوء الفهم...... أول علامة هي أن الأشياء تحدث فعلاً في إنكلترا، ستكون اختفاء ذلك الصوت النفاج الأرستقراطي من الراديو. عند السهر في البارات العامة، لاحظت أن العمال لا يتنبهون إلى النشرات الإذاعية حين يدور خطاب شعبي. يزعم (اي) مع بعض الحقيقة كما أعتقد، أن الناس غير المتعلمين يحركهم غالباً الخطاب ذو اللغة الرزينة التي لا يفهمونها في الحقيقة، لكنهم يشعرون أنها مؤثرة. مثال على ذلك أن السيدة ايه متأثرة بخطابات تشرشل، رغم أنها لا تفهمها كلمة بكلمة.

٢٥ حزيران/ يونيو

كان هناك إنذار بغارة جوية حوالي الساعة الواحدة صباحاً. كان إنذاراً كاذباً فيما يخص لندن، لكن من الواضح أن هناك غارة حقيقية في مكان ما. نهضنا من أسرتنا ولبسنا ثيابنا، لكننا لم نكترث ولم نذهب إلى الملجأ. هذا ما فعله كل واحد، أي أنه نهض وتوقف للتحدث، مما بدا أمراً غبياً جداً. لكن يبدو من الطبيعي أن تنهض من السرير وتسمع صفارات الإنذار. ثم في غياب أصوات المدافع أو إثارة أخرى، يخجل المرء من الذهاب إلى الملجأ.

رأيت في إحدى صحف الأمس أن أقنعة الغاز صنعت في أمريكا، رغم ذلك يجب على الناس أن يدفعوا ثمنها. أقنعة الغاز لا فائدة لها بالنسبة إلى السكان المدنيين في إنكلترا، ومن المؤكد تقريباً كذلك في أمريكا. إصدارها رمز للتضامن الوطني والخطوة الأولى نحو لبس الزي الموحد........ حالما تبدأ الحرب فإن حمل أقنعة الغاز أو عدم حملها، يفترض مضامين سياسية واجتماعية. في الأيام القليلة الأولى، رفض أناس مثلي أن يحملوا القناع، ويفترض عموماً أن الذين لا يحملون أقنعة الغاز هم "يساريون" ثم خمدت العادة، وكان الافتراض أن الشخص الذي يحمل قناعاً كان من الأنموذج الحريص جداً، أنموذج ساكن الضواحي دافع الضريبة. مع الأخبار السيئة انتعشت العادة، وأظن أن عشرين بالمئة الآن يحملونها. لكن حتى الآن يظل الناس يحدقون بك قليلاً إن حملت قناعاً من دون أن تكون مرتدياً الزي العسكري. حتى حين تحدث الغارات الجوية الكبيرة، فقد فهم الجميع أن الألمان لن يستخدموا الغاز في الحقيقة. إن المدى الذي تحمل فيه الأقنعة سيكون مؤشراً جيداً للانطباع الذي تحدثه أخبار الحرب على الشعب. ذهبت بعد ظهر اليوم إلى مكتب التطويع لأسجل اسمي في كتائب الخدمة الوطنية. علي أن أذهب يوم الجمعة مرة أخرى من أجل الفحص

الطبي، لكن بالنسبة إلى الرجال من عمر ثلاثين إلى واحد وخمسين، أعتقد أن المعايير متدنية. الرجل الذي أخذ اسمي، والذي كان معتوهاً مألوفاً وجندياً قديماً مع ميداليات من الحرب الأخيرة، لا يستطيع أن يكتب إلا بالكاد، فأثناء كتابته بأحرف كبيرة، دوّنها بشكل معكوس أكثر من مرة.

٢٧ يونيو/ حزيران

في الليلة قبل الفائتة وأثناء إنذار الغارة الجوية، استيقظ عدد كبير من الناس في كل أرجاء لندن على إشارة زوال الخطر، واعتبروا ذلك إنذاراً، فذهبوا إلى الملاجئ وبقوا هناك حتى الصباح ينتظرون إشارة زوال الخطر. هذا بعد عشرة أشهر من الحرب. ويعرف الرب كم عدد تفسيرات الوقاية من الغارات الجوية. في الحقيقة إن عدم قيام الحكومة بحملة تجنيد هذه المرة، كان له تأثير مميت على الدعاية..... وكان الشيء اللافت، هو غياب أي ملصق دعائي من النوع العام يتعامل مع الصراع ضد الفاشية إلخ، وحبذا لو أن شخصاً واحداً يري وزارة الإعلام الملصقات التي استخدمت في الحرب الإسبانية أو حتى الملصقات الفرانكوية من أجل تلك المسألة. لكن كيف لهؤلاء الناس أن يوقظوا الأمة ضد الفاشية بينما هم شخصياً مؤيدون للفاشية ويتملقون موسوليني حتى اللحظة التي دخلت فيها إيطاليا الحرب؟ بتلر (ار ايه بتلر، سياسي من المحافظين، ومساعد وزير للشؤون الخارجية، ومستشار في الخزانة، ووزير خارجية في حكومة المحافظين لاحقاً) يجيب عن أسئلة حول الاحتلال الإسباني لطنجة ويقول إن حكومة إتش أم "قبلت كلمة" الحكومة الإسبانية، بأن الإسبان يقومون بهذا فقط لكي يحافظوا على حياد طنجة........ هذا بعد مظاهرات الكتائب في مدريد للاحتفال بغزو طنجة.... هذا الصباح نشرت صحف "نكرانا" أنّ هور (السير صامويل هور فيسكونت تيمبلوود، سياسي ومحامٍ من اليمين المتطرف، وفي هذا الوقت كان سفير بريطانيا في إسبانيا) في مدريد يسأل أسئلة عن هدنة. بعبارة أخرى هو يفعل هكذا. مجرد سؤال فقط – هل نستطيع التخلص من هؤلاء الأشخاص في الأسابيع القليلة القادمة قبل أن يفوت الأوان؟ إن خيانة الطبقة الحاكمة البريطانية غير المتعمدة، هي في النتيجة حرب طبقية واضحة جداً وتستحق الذكر. السؤال الصعب هو: إلى أي حد توجد الخيانة المتعمدة..... إل أم الذي يعرف أو على الأقل قابل كل الأشخاص، يقول باستثناءات فردية كتشرشل مثلاً إن كل الأرستقراطية

البريطانية فاسدة تماماً، وتفتقر إلى الوطنية العادية جداً، ولا تهتم في الحقيقة إلا بالمحافظة على مستويات حياتها الخاصة. يقول إنهم على وعي طبقي مكثف، ويعرفون بوضوح تماثل مصالحهم مع الناس الأغنياء في كل مكان. أحدث تكهنات إل أم (إل إتش مايرز، هو روائي ومؤلف القريب والبعيد) عن الحرب كانت صحيحة. لم يقل شيئاً طوال فصل الشتاء. إن إيطاليا ستُعامل باحترام كبير، ومن ثم تدخل ضدنا فجأة، وسيكون هدف الألمان فرض حكومة دمى على إنكلترا، يستطيع هتلر من خلالها حكم بريطانيا من دون أن يفهم الشعب ماذا يحدث....... النقطة الوحيدة التي كان فيها إل أم مخطئاً، هي أنه أفترض مثلي أن تستمر روسيا بالتعاون مع ألمانيا، حيث يبدو الآن أن هذا التعاون لن يحدث. لكن الروس ربما لم يتوقعوا أن ينهار فرانكو فجأة. إن استطاعوا إنجاز هذا التعاون، فسيقوم بيتان وشركاه بنفس الخيانة ضد روسيا كما فعلت روسيا سابقاً ضد إنكلترا. كان من المشوق أنه في زمن الاتفاقية الروسية الألمانية، افترض كل واحد تقريباً أن الاتفاقية كانت كلها في مصلحة روسيا، وأن ستالين قد "أوقف" هتلر بطريقة ما. لكن لو نظر المرء إلى الخريطة فقط، لرأى أن الأمر لم يكن كذلك.... إن الشيوعية والتطرف اليساري، هما الآن شكل من الاستمناء تماماً في أوروبا الغربية. الناس الذين ليس لديهم أي سلطة على الأحداث في الواقع، يواسون أنفسهم بالتظاهر بأنهم يتحكمون بالأحداث بطريقة ما. من وجهة نظر شيوعية، لا شيء يهم طالما هم يستطيعون إقناع أنفسهم بأن روسيا في القمة وبأفضل وضع. يبدو المشكوك فيه الآن إن كان الروس ربحوا من الاتفاقية أكثر من استراحة بسيطة، لكنهم فعلوها بشكل أفضل بكثير مما فعلناه نحن في ميونيخ. ربما إنكلترا والاتحاد السوفيتي تجبران على تحالف أخيراً. وهذا مثال مشوق عن هيمنة المصالح الحقيقية وتغلبها على أشد أنواع الكره الأيديولوجي.

النيو ليدر (مجلة ناطقة بلسان حزب العمال المستقل) تتحدث الآن عن "خيانة" بيتان وشركاه وعن "الصراع العمالي" ضد هتلر. يفترض أنهم سيؤيدون مقاومة "عمالية" إذا غزا هتلر إنكلترا. وبماذا سيقاتل العمال؟ بأسلحة. ومع ذلك مازال يطالب حزب العمال المستقل بصخب بأعمال تخريبية في معامل السلاح.

هؤلاء الناس في فنتازيا استمنائية تماماً، مشروطة بواقع أن لا شيء يفعلونه أو يقولونه، سيؤثر أبداً على الأحداث ولا حتى تحريك صدفة واحدة.

٢٨ يونيو/ حزيران

اكتأبت بشكل فظيع من الطريقة التي تحدث فيها الأشياء. ذهبت هذا الصباح من أجل نتيجة فحصي الطبي، وكانت سلبية، فعلامتي كانت سي، وهي علامة لا يأخذون أي رجل منها الآن إلى الفيالق...... الشيء المرعب هو ضيق مخيلة نظام لم يجد أية فائدة من رجل دون المستوى المعدل من اللياقة، لكنه ليس عاجزاً على الأقل. إن الجيش يحتاج إلى مقدار هائل من العمل المكتبي، الذي يقوم به أشخاص أغلبهم أصحاء تماماً ونصف متعلمين.......

يستطيع المرء أن يسامح الحكومة في فشلها لاستخدام وتشغيل الإنتلجنسيا (الطبقة المثقفة) الذين بالمجمل غير جديرين بالثقة سياسياً، فقد يقومون بمحاولة تعبئة قوة الأمة البشرية، ويحولون الناس من مهن الترف إلى العمل الإنتاجي. هذا لن يحدث ببساطة، مثلما يمكن للمرء أن يرى من خلال النظر إلى أي شارع.

دخل الروس بيسارابيا اليوم. لم يثر ذلك عملياً أي اهتمام. والملاحظات القليلة التي استطعت سماعها تستحسن ذلك باعتدال أو ليست عدائية على الأقل. قارن الغضب الشعبي الكثيف حول غزو فنلندا. أنا لا أعتقد أن الاختلاف يعود إلى الإدراك بأن فنلندا ورومانيا قضيتان مختلفتان، ولكن ربما هذا بسبب مضايقنا اليائسة وفكرة أن هذه الحركة ربما تربك هتلر- كما أعتقد أنها يجب أن تفعل، رغم أن الواضح هو من أمر بذلك.

٢٩ يونيو/ حزيران

اعترفت الحكومة البريطانية بديغول، لكن بطريقة ملتبسة، أي أنها لم تعلن أنها لن تعترف بحكومة بيتان.

شيء واحد مفعم بالأمل، وهو أن الصحافة إلى جانبنا، واحتفظت باستقلاليتها......
لكن هذا يتضمن صعوبة أن "حرية" الصحافة تعني فعلاً أنها تعتمد على مصالح شخصية، وبشكل كبير على تجارة الترف. الصحف التي ستقاوم الخيانة المباشرة، لا تستطيع أخذ خط قوي حول تقليص وسائل الترف حين تعيش على إعلانات الشوكولا والجوارب الحريرية.

٣٠ يونيو/ حزيران

في عصر هذا اليوم، كان هناك استعراض عسكري لمتطوعي الدفاع المحلي من كل "المنطقة" في ريجنت بارك، أي اثنتا عشر مفرزة تتألف كل واحدة منها من ستين رجلاً نظرياً (فعلياً أقل في الوقت الحاضر). هيمن الجنود القدامى على العرض، وسمح لمظهر الرجال الذين يتدربون في ثياب مدنية، أن يكون حاضراً دائماً وهو ليس سيئاً جداً، وربما كانت نسبة الطبقة العاملة فيهم ٢٥ بالمئة. وإن تواجدت تلك النسبة المئوية في منطقة ريجينت بارك، فيجب أن تكون أعلى بكثير في مناطق أخرى. ولكن لا أعرف بعد إن كانت هناك أي نزعة لتجنب جمع متطوعين للدفاع المحلي من المناطق الفقيرة جداً؛ حيث كل الإدارة والإشراف يفترض أن يكون في أيدي الطبقة العاملة. ففي الوقت الحاضر، تبدو المنظمة كلها في حالة مرتبكة وشاذة، ولها احتمالات مختلفة كثيرة. سابقاً كان الناس يشكلون فرق دفاع محلي بشكل عفوي، وكان الهواة يصنعون القنابل اليدوية. ارتعب أصحاب المراكز العليا تماماً من هذه الميول والنزعات طبعاً..... الجنرال الذي عاين الاستعراض، كان من النوع الأبله المخرف العادي والعاجز والمقعد عملياً، وألقى واحداً من أشد الخطابات إحباطاً التي سمعتها في حياتي. لكن الرجال جاهزون تماماً لكي يُلهموا. ارتفع هتاف عالٍ لخبر يقول إن البنادق وصلت أخيراً. يوم أمس كان خبر موت بالبو (المارشال بالبو قائد القوى الجوية الإيطالية والمسؤول عن قصف إثيوبيا في الحرب الإيطالية الإثيوبية) على الملصقات حين مشيت أنا وكونولي ومررنا في الشارع. أنا وكونولي كنا مسرورين تماماً، وروى لي كيف أسر بالبو وأصدقاؤه زعيم السنوسيين في طائرة ورموه منها. الكل لم يكونوا مستائين حتى (الامز) باستثناء السلميين. وأعتقد أن (اي) مبتهج أيضاً. في وقت لاحق في المساء (قضيت الليلة في كرومز هيل- غرينيتش بيت غوين شونزي) حيث وجدنا فأرة تسللت إلى داخل الحوض، ولم تستطيع أن تصعد وتتسلق الأطراف، فلجأنا إلى صنع نوع من درج من صناديق رقائق الصابون، استطاعت بواسطته الصعود وخرجت. لكن في هذه المرة كانت مرعوبة جداً، فهربت تحت الشريط الرصاصي الذي في حافة الحوض، ولم تتحرك حتى بعد أن تركناها وشأنها بعد نصف ساعة. في النهاية أخرجتها إيلين بلطف بأصابعها وتركتها تذهب. هذا النوع من الشيء لا يهم........ لكن حين أتذكر كم تزعجني مأساة ثيتس (في يونيو/

حزيران ١٩٣٩ فشلت الغواصة ثيتس في أن تطفو في أول غوص لها بعد إطلاقها مباشرة فغرق الطاقم كله) فعلياً إلى درجة التدخل بشهيتي للطعام، وأعتبرها تأثير تخيف للحرب، لدرجة أن المرء بات يسره فعلاً سماع غرق غواصة للعدو ورسوها في القاع.

١ يوليو/ تموز

أطلقت إشاعات في كل صحف اليوم، تقول إن بالبو ارتطم على جانبه بقوة كما في حالة الجنرال فون فريتش (الجنرال فيرتر فون فريتش عضو من الحرس القديم في هيئة الأركان الألمانية، وهو الذي لم يخف احتقاره لهتلر. مات في عملية عسكرية يعتقد أنها من تدبير هتلر). في الوقت الحاضر حين يقتل شخص بارز في معركة، يظهر هذا الإيحاء بشكل حتمي. هناك حالات في الحرب الإسبانية دوروتي والجنرال مولا. (بوينافينتورا دوروتي رئيس الفوضويين الإسبان في بداية الحرب الأهلية، قاتل محترف، أصبح جنرالاً وقائداً شعبياً. قتل في الدفاع عن مدريد ربما على يد الشيوعيين) (الجنرال مولا زميل معادل لفرانكو تحت الجنرال سانجورجو، قتل في المراحل الأولى من الحرب الإسبانية الأهلية قبل ظهور قضية الأقدمية مع فرانكو). الإشاعات عن بالبو تأسست على بيان لسلاح الجو الملكي، بأنهم لا يعرفون أي شيء عن قتال جوي قتل فيه بالبو كما زعموا. إن كانت هذه كذبة كما يمكن أن تكون، فهي واحدة من الضربات الجيدة الأولى التي أنجزتها الدعاية البريطانية.

٣ يوليو/ تموز

في كل مكان، هناك شعور بشيء قريب من اليأس بين الناس المفكرين، بسبب فشل الحكومة في التصرف، وبسبب استمرار العقول الميتة والمؤيدين للفاشية في مراكز القيادة والأمر. اعتراف متزايد أن الشيء الوحيد الذي يصحح هذا الوضع بشكل مؤكد، هو غزو غير ناجح يتضافر معه خوف متزايد من ألا يحاول هتلر الغزو أخيراً، وأنه سيذهب إلى أفريقيا والشرق الأوسط.

٥ يوليو/ تموز

يوضح الانعدام شبه التام للخسائر البريطانية في المعارك ضد السفن الحربية الفرنسية في أوران، أن البحارة الفرنسيين لا بد أنهم رفضوا أن يخدموا البنادق، أو بأي حال إن فعلوا ذلك

فقد فعلوه من دون حماس........ على الرغم من اللغط في الصحف حول "الأسطول الفرنسي العاطل" إلخ إلخ، يبدو من قائمة السفن المعطاة أن حوالي نصف البحرية الفرنسية ليست محسوبة، ولا شك أن أكثر من نصف الغواصات كذلك. لكن ليس هناك شيء في الصحف حول العدد الذي وقع بيد الألمان أو الإيطاليين والعدد الذي مازال في المحيطات...... انفجار الحقد المخيف للراديو الألماني (إن كان التقرير صحيحاً، فهو يطالب فعلياً الشعب الإنكليزي بشنق تشرشل في ساحة ترافالغار) يظهر كم هي صحيحة هذه الحركة.

١٠يوليو/ تموز

لقد أعاقوا البارجة الفرنسية ريتشيليو التي كانت في ميناء داكار. لكن لا تحرك للاستيلاء على أي من موانئ فرنسا في غرب أفريقيا غير محصنة بقوة بلا شك...... حسب ما جاء عن فيرنون بارتلت (صحفي سياسي ليبرالي مشهور لصحيفة نيوز كرونيكل، كان ينقل تقارير عن كل أزمات العالم المتصلة بهتلر وموسوليني والشرق الأقصى) أن الألمان سيقدمون مقترح سلام عبر الخطوط التي تكهنت بها سابقاً، أي أن تُقصى إنكلترا من أوروبا، لكنها ستحتفظ بالإمبراطورية، وتخرج حكومة تشرشل وتستبدل بحكومة مقبولة من قبل هتلر. الوقاحة هي أنه هناك زمرة متشوقة للموافقة على هذا موجودة في إنكلترا، ولا شك أنه تم تشكيل حكومة ظل. يبدو أن الذي لا يصدق تقريباً، هو أن يتخيل أي أحد أن جماهير الشعب سوف تسامح مثل هذا التدبير إذا لم يكافح ويجمد أولاً......... نُقل دوق ويندسور عن طريق البحر كحاكم للبهاما، وهذا نظرياً حكم بالنفي.... الكتاب الذي أنتجه غولانكس رجال مذنبون، "الاتهام" المعتاد لجماعة ميونيخ، يباع مثل الكعك الحار. حسب ما جاء عن صحيفة التايم أن الشيوعيون الأمريكيون يعملون ويدهم في قفاز مع النازيين المحليين لمنع وصول الأسلحة الأمريكية إلى إنكلترا. لا يمكن أن يتأكد المرء من مدى حرية العمل المحلية التي يتمتع بها الشيوعيون. إلى وقت متأخر جداً، بدا أنهم لا يمتلكون شيئاً البتة، وأنهم اتبعوا أحياناً سياسات متناقضة في بلدان مختلفة. ربما سمح لهم بترك "الخط" والتخلي عنه حين يعني التمسك الصارم به الانقراض.

١٦ يوليو/ تموز

لا أخبار حقيقة منذ عدة أيام باستثناء شبه استسلام الحكومة البريطانية لليابان، أي اتفاق وقف إرسال تجهيزات حربية عبر بورما لفترة معينة. هذا ليس محدداً جداً، لذلك يمكن أن يلغى من قبل أي حكومة لاحقة. إن (غولانكس) يعتقد أنها محاولة الحكومة الأخيرة (أي آخر محاولة لأصحاب الاستثمارات في هونغ كونغ إلخ) لتهدئة اليابان واسترضائها، وبعدها سيُجبرون على دعم الصين بالتأكيد. ربما يكون الوضع هكذا، لكن أية طريقة هذه في فعل الأشياء؟

لا تنجز عملاً محتشماً حتى تنكص، كما أن بقية العالم لم يعد يصدق أن دوافعك يمكن أن تكون نزيهة. يقول (دبليو) إن الطبقة المثقفة اليسارية في لندن انهزامية تماماً الآن، وتعتبر الوضع ميئوساً منه، ولا ترغب بشيء سوى الاستسلام. كم من السهل التنبؤ بأنهم سينهارون تحت زعيق جبهتهم الشعبية، حين يبدأ العرض الحقيقي.

٢٢ يوليو/ تموز

لا توجد أخبار حقيقية منذ أيام. الحدث الرئيسي في هذه اللحظة هو مؤتمر الرابطة الأمريكية الذي بدأ الآن وامتصاص الروس لدول البلطيق الذي يجب أن يوجه ضد ألمانيا. زوجة كريبس وبناته سوف يذهبون إلى موسكو. من الواضح أنه يتوقع إقامة طويلة هناك. قيل إن إسبانيا تستورد نفطاً بكميات كبيرة. ومن الواضح أنه للاستخدام الألماني ونحن لم نوقفه. هراء كثير في النيوز كرونيكل هذا الصباح عن رغبة فرانكو في البقاء بعيداً عن الحرب، ومحاولته صد التأثير الألماني إلخ...... سوف يكون كما قلت، سيتظاهر فرانكو بأنه مؤيد لبريطانيا، وهذا سوف يستخدم كمبرر لمعاملة إسبانيا بشكل لطيف، ويسمح باستيراد أي كمية، وفي النهاية سيدخل فرانكو إلى جانب الألمان.

٢٥ يوليو/ تموز

لا أخبار في الحقيقة..... أرسل أشخاص متنوعون أطفالهم إلى كندا وندموا على ذلك مسبقاً....... إن الخسائر المميتة في الأرواح من الغارات الجوية في الشهر الماضي التي نشرت، بلغت حوالي ٣٤٠ حالة وفاة. إن كان هذا صحيحاً، فهو فعلياً رقم أقل من وفيات الطرق في

نفس الفترة......... قيل إن عدد متطوعي الدفاع المحلي الآن بلغ ١٣٠٠٠٠٠ متحمس، وأن التجنيد قد توقف وأعيدت تسميته بالحرس الوطني. هناك إشاعات أيضاً أن هؤلاء الذي يعملون كضباط عسكريين من دون تفويض، يجب أن يستبدلوا برجال من الجيش النظامي. هذا يشير إلى: إما أن السلطات بدأت تأخذ متطوعي الدفاع المحلي على محمل الجد كقوة مقاتلة، أو أنها خائفة منهم.

توجد إشاعات الآن، تقول إن لويد جورج هو بيتان المحتمل لإنكلترا.......... كررت الصحافة الإيطالية نفس الادعاء، وقالت إن صمت لويد جورج يثبت أنها حقيقة. من السهل طبعاً التخيل أن لويد جورج يلعب هذا الدور بدافع الضغينة والحسد، لأنه لم يُعط وظيفة. لكن من الأسهل بكثير تخيله يتعاون مع الزمرة التورية التي ستفضل وتؤيد هكذا مسار. باستمرار حين أمشي في الشارع، أجد نفسي أنظر إلى النوافذ لأرى أيها سيكون أعشاش بنادق آلية. (دي) يقول إن الأمر سيان بالنسبة إليه.

٢٨ يوليو/ تموز

هذا المساء رأيت مالك الحزين يطير فوق بيكر ستريت. لكن هذا ليس غير محتمل كالشيء الذي رأيته منذ أسبوع أو اثنين، أي صقر (كيسترل) يقتل عصفوراً في وسط ملعب اللورد للكريكيت. أعتقد أن السبب هو الحرب، أي نقص حركة المرور التي تميل إلى زيادة الحياة البرية في داخل لندن. الرجل الصغير الحجم الذي أنسى اسمه دائماً، كان يعرف بجويس (وليام جويس المعروف باللورد هاوهاو يفترض من طريقة كلامه أنه مواطن أمريكي لم يحصل أبداً على الجنسية البريطانية، رغم أنه قضى جل حياته في إنكلترا، وكان قومياً مسعوراً. أصبح فاشياً. وفي عام ١٩٣٩ ذهب إلى ألمانيا وحصل على الجنسية الألمانية عام ١٩٤٠. أعدمه البريطانيون في نهاية الحرب) من الحزب الفاشي المنشق الذي نسب إليه بشكل مشترك بكونه اللورد هاوهاو. يقول إن جويس كره موسلي بانفعال شديد، وتحدث عنه بلغة غير قابلة للطبع أبداً. موسلي نصير هتلر الرئيسي في إنكلترا (السير أوزوالد موسلي محافظ ثم مستقل، ثم عضو برلمان عن حزب العمال. في عام ١٩٣١ انفصل عن الحزب وشكل الحزب الجديد مؤخراً، ثم أصبح مؤيداً متعصباً لهتلر، وحوّل حزبه إلى اتحاد الفاشيين البريطانيين) ومن الممتع أنه يجب أن يستخدم جويس وليس أحد رجال موسلي. هذا يثبت ما قاله بوركيناو إن هتلر لا يريد

وجود حزب فاشي قوي جداً في إنكلترا. من الواضح أن الحافز دائماً هو الانشقاق وحتى شق المنشقين. تهاجم الصحافة الألمانية حكومة بيتان، لكن الدافع ليس مؤكداً تماماً، وهكذا أيضاً عناصر الصحافة الفرنسية الذين هم تحت سيطرة الألمان. دورييه (جاك دورييه سياسي فرنسي أصبح قائداً فاشياً بعد أن كان شيوعياً ومتعاوناً نشطاً مع الألمان) طبعاً إلى المقدمة هنا. كانت صدمة لي حين أعلنت السنداي تايمز أن الألمان في باريس يستغلون بيرغري (غاستون بيرغري نائب فرنسي ومفكر، انتقل من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، وأصبح متآمراً بعد سقوط فرنسا). لكني أقبل هذا بحذر وأعرف كيف تُكذّب هذه الأحزاب المنشقة الصغيرة عادة من قبل اليمين واليسار الرسميين على السواء.

٨ أغسطس/ آب

لقد بدأ الهجوم الإيطالي على مصر أو بالأحرى على الصومال البريطانية. لا توجد أخبار حقيقية بعد، لكن الصحف تلمح بأن الصومال لا تستطيع الصمود بالقوات التي لدينا هناك. النقطة الهامة هي خسارة بيريم التي ستغلق عملياً البحر الأحمر.

إتش جي ويلز يعرف تشرشل ويقول إنه رجل طيب وليس مرتزقاً ولا حتى متطلعاً. لقد عاش "مثل مفوض روسي" "يصادر" سياراته إلخ، لكنه لا يهتم بتاتاً بالنقود. لكنه --- ويقول إن تشرشل يملك قدرة معينة على إغلاق عينيه عن الوقائع، ولديه ضعف برفضه المطلق أن يخذل الصديق الشخصي والمسؤول عن عدم طرد أناس مختلفين.--- والذي أحدث شجاراً ضخماً حول اضطهاد اللاجئين، ويعتبر أن مركز كل التخريب وزارة الحرب.

هو يؤمن أن سجن اللاجئين المعادين للفاشية، أنموذج متعمد تماماً من التخريب المؤسس على المعرفة بأن البعض من هؤلاء الناس على اتصال مع الحركات السرية في أوروبا، وقد يقدرون في لحظة ما على إحداث ثورة "بلشفية" التي من وجهة نظر الطبقة الحاكمة أسوأ بكثير من الهزيمة. هو يقول إن اللورد إس.... هو الرجل الذي يقع عليه أغلب اللوم. سألته هل يظن أنه كان عملاً مقصوداً على دور اللوردـ هذا كان أصعب شيء تقرره. قال إنه يعتقد أن اللورد... يعرف تماماً ماذا يفعل. في هذه الليلة استمعت إلى محاضرة مع شرائح فانوس سحري لضابط كان في حملة دونكيرك. كانت محاضرة رديئة جداً. قال لقد قاتل البلجيكيون

جيداً، وليس صحيحاً أنهم استسلموا من دون إنذار (في الحقيقة أعطوا إنذاراً بثلاثة أيام) لكنه تكلم بشكل سيئ عن الفرنسيين. لديه صورة لفوج من جنود الزواوي وهم يفرون بوضوح وراء البيوت المنهوبة، ورجل سكران تماماً على الرصيف.

٩ أغسطس/ آب

أصبح وضع النقود لا يطاق تماماً........ كتبت رسالة طويلة إلى ضريبة الدخل. يشير الناس إلى أن الحرب عملياً وضعت نهاية إلى سبيل رزقي. وفي الوقت نفسه رفضت الحكومة أن تعطيني أي وظيفة. لن يكون للحقيقة اللازمة والوثيقة الصلة فعلياً حول وضع الكاتب، واستحالة أن يكتب كتباً مع استمرار هذا الكابوس، أي وزن رسمياً.......... أنا لا أشعر بالارتياب نحو الحكومة، وسأتملص من دفع الضريبة إن استطعت. مع ذلك سأعطي حياتي من أجل إنكلترا بسرور وسهولة إن ظننت أن هذا ضروري. لا أحد وطني بخصوص الضرائب. لا أخبار حقيقية في الأيام الماضية. فقط معارك جوية والطيران البريطاني دائماً يحرز نقاط كثيرة إن كانت التقارير صحيحة. أتمنى لو أستطيع التكلم مع ضابط في سلاح الجو الملكي، وأحصل على فكرة ما إذا كانت هذه التقارير صحيحة.

١٦ أغسطس/ آب

الأمور تتطور نحو الأسوأ في الصومال، وهي عملية عسكرية هجومية على مصر من الجناح. معارك جوية هائلة فوق القناة، إن كانت التقارير قريبة من الحقيقة مع خسائر ألمانية هائلة. مثلاً إسقاط حوالي ١٤٥ طائرة يوم أمس..... يمكن للناس في داخل لندن أن يتعاملوا مع غارة حقيقية واحدة تعلمهم كيف يتصرفون. في الوقت الحالي يتصرف كل واحد بأقصى الغباء، ويتوقف كل شيء ماعدا النقل، إن لم تؤخذ احتياطات وقائية. في الخمس عشرة ثانية الأولى كان هناك رعب عظيم ونفخ الصفارات وصياح على الأطفال ليذهبوا إلى داخل البيوت، ثم تجمع الناس في الشوارع وحملقوا في السماء. في النهار يخجل الناس في الظاهر أن يدخلوا إلى الملاجئ إلى أن يسمعوا القنابل. يوم الثلاثاء والأربعاء كانا يومين مجيدين في ولينغتون (قرية في هيرتفوردشاير حيث عاش أورويل منذ ١٩٣٦). لا توجد جرائد ولا ذكر للحرب. كانوا يقطعون الشوفان، ونحن أخرجنا ماركس (كلب أورويل) يومين ليساعد في

مطاردة الأرانب، أبدى فيها ماركس سرعة غير متوقعة. الشيء برمته أعادني مباشرة إلى طفولتي، التي هي ربما آخر قطعة من ذلك النوع من الحياة التي سأملكها.

١٩ أغسطس/ آب

هناك سمة من سمات الغارات الجوية، هي السذاجة المفرطة عند كل واحد حول الضرر الذي تفعله بالأماكن البعيدة. جورج أم وصل حديثاً من نيوكاسل، التي يُعتقد عموماً هنا أنها تحطمت بشكل خطير، وأخبرنا أن الضرر لا يذكر. من جانب آخر هو وصل متوقعاً أن يجد لندن محطمة إلى مزق. وسؤاله الأول عند وصوله كان "إن كنا مررنا بوقت صعب". من السهل أن نرى كيف يستطيع الناس الذين يعيشون في أماكن بعيدة كأمريكا مثلاً، تصديق أن لندن احترقت، وأن إنكلترا تموت من الجوع إلخ إلخ. وفي الوقت نفسه هذا يثير الافتراض إن كان أثر غاراتنا الجوية على ألمانيا الغربية، أقل ضرراً مما ينقل في الأخبار.

٢٠ أغسطس/ آب

تضع الصحف وجهاً جيداً بقدر ما يمكن، على الانسحاب من الصومال الذي هو هزيمة خطيرة وأول خسارة لأرض بريطانية منذ قرون..... شيء يدعو إلى الرثاء أن الصحف (النيوزكرونيكل الوحيدة التي رأيتها اليوم) عازمة على معاملة الخبر بأنه جيد. هذا كان يمكن أن يصنع البداية لهياج آخر يقابل ببعض الخذلان من الحكومة.

شكاوي وسط الحرس الوطني بأن الغارات الجوية باتت الآن أكثر شيوعاً، وأن الخفراء لا يملكون قبعات قصديرية. تفسير من الجنرال مكنمارا الذي أخبرنا أن الجيش النظامي مازال بحاجة إلى ٣٠٠٠٠٠ قبعة قصديرية - هذا بعد سنة من الحرب.

٢٢ أغسطس/ آب

تبدو صحافة بيفربروك، مقارنة مع العناوين التي رأيتها في الصحف الأخرى، أنها تقلل الإيحاء بأن جريمة قتل تروتسكي نُفذت بواسطة المخابرات السوفييتية. في الحقيقة في عدد إيفنينغ ستاندارد الصادر اليوم، هناك مواد منفصلة كثيرة عن تروتسكي، لم تذكر هذا الإيحاء. لا شك أنه مازالت عيونهم على روسيا، ويريدون استرضاء الروس بأي تكلفة، بالرغم من رسوم ديفيد لو الهزلية (سياسي وكاريكاتير. آراؤه يسارية. عمل للإيفنينغ ستاندارد، ومن

بعدها لمانشستر غارديان). لكن تحت هذا، يمكن أن توجد مناورة أخبث. إن الرجال المسؤولين عن إيفينينغ ستاندارد الذين يقدمون سياسة مؤيدة لروسيا، أذكياء ودهاة كفاية ليعرفوا أن "خط" الجبهة الشعبية ليس الطريق حقيقة لضمان تحالف روسي.

لكن هم يعرفون أن الكتلة الكبيرة من الرأي اليساري في إنكلترا، مازالت تسلم كأمر بديهي بأن سياسة معادية للفاشية كاملة، هي الطريق إلى جعل روسيا تقف إلى جانبنا. لذلك فإن تخريب روسيا هو طريق لدفع الرأي العام إلى جهة اليسار. الغريب أنني دائماً أعزو هذه الدوافع المنحرفة إلى أناس آخرين كوني أي شيء باستثناء أن أجرح نفسي، وأجد من الصعب استعمال طرق وأساليب مباشرة حتى عندما أرى حاجة لها. اليوم في ساحة بورتمان، رأيت عربة بأربعة دواليب بأناقة جيدة جداً مع حصان جيد وسائق عربة من طراز ما قبل عام ١٩١٤.

٢٣ أغسطس/ آب

هذا الصباح أُطلق إنذار غارة جوية في حوالي الساعة الثالثة صباحاً. نهضت من السرير ونظرت إلى الوقت، ثم شعرت أنني عاجز عن فعل أي شيء، وعدت إلى النوم فوراً. هم يتحدثون عن إعادة ترتيب نظام الإنذار، وسيعملون هكذا إن كانوا سيمنعون كل إنذار من أن يكلف آلاف الجنيهات في وقت ضائع وخسارة نوم إلخ. في الحقيقة إن أصوات الإنذار في الوقت الحالي في منطقة واسعة حين تقوم الطائرات الألمانية بعملية في قسم منها، لا تعني فقط أن يستيقظ الناس من النوم من دون ضرورة إلى فعل ذلك، ويبعد الناس عن أعمالهم، وإنما تعني وجود انطباع انتشر بأن إنذار الغارات الجوية مزيف دائماً، وهذا شي خطير بشكل واضح.

حصلت للتو على زي الحرس الوطني الخاص بي بعد شهرين ونصف.

ليلة أمس، ذهبت إلى محاضرة لجنرال----، مسؤول عن حوالي ربع مليون رجل. قال إنه أمضى سابقاً واحداً وأربعين عاماً في الجيش. كان في حملة فالاندرز، ولا شك أنه سُرح من الخدمة بسبب العجز. تعليقاً على أن الحرس الوطني قوة دفاعية ثابتة، قال باحتقار وبطريقة واضحة إنه لا يرى أي فائدة من تدربنا على الاختفاء والالتجاء "والتحرك زحفاً على بطوننا" إلخ إلخ. من الواضح أنها ضربة إلى مدرسة تدريب أوسترلي بارك (مركز تدريب للحرس الوطني، أسسها وأدارها توم وينترينغهام مع همفري سلاتر، علّما فيها حرب

العصابات وقتال الشوارع المؤسس على تجاربها في اللواء الأممي أثناء الحرب الأهلية الإسبانية) وقال إن مهمتنا كانت أن نموت في مواقعنا. وكان أيضاً كبيراً على التدرب على الحراب، ولمح إلى أن رتب الجيش النظامي والتحية العسكرية إلخ كان يجب أن تدخلا قريباً........ هؤلاء الرجعيون القوميون البائسون السخيفون والمخرفون بوضوح والمنحطون في كل شيء ماعدا الشجاعة البدنية، هم مثيرون للشفقة، ويشعر المرء بالحزن عليهم إن لم يكونوا معلقين حول رقابنا مثل أحجار الرحى. الموقف من الجنود العاديين في هذه الأحاديث التشجيعية - التواق جداً لتكون متحمساً وجاهزاً للهتاف والضحك على النكات والشعور طول الوقت بأن هناك شيئاً خطأ- يشعرني بالإشفاق والحزن دائماً. لقد حان الوقت تقريباً الذي يقفز فيه المرء عالياً على المنصة، ويخبرهم كيف يتم إنهاكهم وتخريبهم، وكيف تتم خسارة الحرب وبواسطة من، بالنسبة إليهم أن تثور وتجرف الرجعيين في صندوق القمامة. حين أراقبهم يستمعون إلى واحد من هذه الأحاديث الحمارية، أتذكر دائماً المقطع في مذكرة صامويل بتلر عن عجل صغير رآه مرة يأكل روثاً. لم يستطع أن يقرر تماماً إن كان أحبّ المادة أو لا، وكل ما احتاجه كان بقرة مجربة ما كي تعطيه نخزة بقرنها، بعدها سيتذكر طوال حياته أن الروث غير صالح للأكل. خطر لي أمس كيف ستستمر الدولة الروسية وتتقدم من دون تروتسكي؟ والشيوعيون في كل مكان آخر؟ ربما سوف يجبرون أن يخترعوا بديلاً.

٢٦ أغسطس/ آب

(غرينتش) كانت الغارة التي حدثت في الرابع والعشرين، أول غارة حقيقية على لندن حتى الآن بقدر اهتمامي، أي الأولى التي استطعت فيها سماع القنابل. كنا نراقب عند الباب الأمامي حين قصفت أحواض الهند الشرقية. لم تذكر صحف الأحد قصف الأحواض. لهذا من الواضح أنهم يخفون الأمر حين تقصف أهداف مهمة.... كانت خبطة عالية، لكنها ليست مرعبة، ولم تعط انطباعاً بأن الأرض اهتزت. لهذا من الواضح أن القنابل التي أسقطوها لم تكن كبيرة جداً. أتذكر قنبلتين كبيرتين أسقطتا قرب هويسكا، حين كنت في المستشفى في مونفلورايت. الأولى على بعد أربعة كيلومترات نتج عنها هدير اهتزاز البيوت ففررنا من أسرتنا مرعوبين. ربما كانت من ألفي رطل، والقنابل التي أسقطت الآن من وزن خمسمائة رطل.

٢٩ أغسطس/ آب

إنذار غارات جوية خلال الساعات الثلاث الأخيرة بلغ مجموعها من ١٦ إلى ١٨ ساعة في الليالي الثلاث... من الواضح تماماً أن هذه الغارات الليلية يراد بها الإزعاج بشكل أساسي، وطالما من المسلم به عند سماع صوت صفارة الإنذار، يجب على الكل أن يندفع بحثاً عن ملجأ، لا يحتاج هتلر إلا إلى إرسال طائراته في أكثر من نصف دزينة في المرة الواحدة ليعطل العمل ويسرق النوم من الناس إلى أجل غير محدد. على كل حال، هذه الفكرة متعبة مسبقاً..... لأول مرة منذ عشرين سنة، سمعت قاطع التذاكر في الحافلة يفقد أعصابه ويكون جلفاً مع المسافرين. مثلاً الليلة قبل الفائتة، خرج صوت من الظلام: "من يدير هذه الحافلة يا سيدتي، أنا أم أنت؟" أعادني مباشرة إلى نهاية الحرب الماضية..... أنا وإيلين لم نكترث إلا بالحد الأدنى للغارات، وأنا بصدق كنت تحت انطباع أنها لا تقلقني إطلاقاً باستثناء التشويش والفوضى الذي تسببه. لكن هذا الصباح بعد قسط من النوم لساعتين كما أفعل دائماً حين أعود من واجب الحراسة، انتابني حلم كريه جداً بقنبلة تسقط قربي وترعبني وتفقدني صوابي. قارن الحلم الذي كنت أحلم به، بنهاية فترتنا في إسبانيا حيث أكون على منحدر عشبي من دون غطاء، وقذائف الهاون تسقط حولي.

٣١ أغسطس/ آب

أصبحت الإنذارات بالغارات الجوية التي يوجد منها الآن نصف دزينة تقريباً كل أربع وعشرين ساعة، ضجراً كبيراً. انتشر رأي بسرعة أن المرء يجب أن يستخف بالغارات باستثناء حين تكون معروفة على صعيد كبير وفي منطقة المرء. يجب أن أقول عن الناس الذين يتجولون في ريجينت بارك، إنهم على الأقل اكترثوا نصف اكتراث بإنذار الغارة.... ليلة أمس عندما كنا ذاهبين إلى النوم، حدث انفجار ثقيل. وفي وقت لاحق في الليلة، استيقظنا على صوت ارتطام هائل، وقيل لنا إن سببه قنبلة في مايدا فالي. أنا وإيلين علقنا على شدة الصوت ونمنا من جديد. غرقنا في النوم مع انطباع غامض من إطلاق مدافع مضادة للطائرات، ووجدنا أنفسنا عقلياً عائدين إلى الحرب الأهلية الإسبانية، في واحدة من تلك الليالي، حين يكون لديك قش جيد تنام عليه، وقدمان جافتان، وعدة ساعات راحة أمامك، وصوت إطلاق نار بعيد، يعمل كعقار منوم بشرط أن يكون بعيداً جداً.

١ سبتمبر/ أيلول.

مؤخراً اشتريت قبعة غارات....... يبدو أن قبعات غارات من حجم سبعة فما فوق نادرة جداً. من الواضح أنهم يتوقعون جنوداً ذوي رؤوس صغيرة. هذا ينسجم مع الملاحظة التي قدمها شخص في منصب عالٍ إلى ريتشارد ريس في باريس، حين حاول أن ينضم إلى الجيش--- "يا إلهي أنت لا تتوقع أننا نريد رجالاً أذكياء في خط الجبهة أليس كذلك؟" كل ثياب الحرس الوطني الموحدة مصنوعة بقياس رقبة عشرين بوصة...... المحلات في كل مكان بدأت تستفيد من الحرس الوطني، قمصان خاكي إلخ تعرض بأسعار خيالية مع ملاحظات "مناسبة للحرس الوطني" كما في برشلونة؛ حيث في الأيام الأولى كانت الموضة أن تكون في الميليشيا.

٣ سبتمبر/ أيلول

تحدثت يوم أمس مع السيدة سين التي عادت حديثاً من كارديف، وقالت إن الغارات هناك شبه مستمرة. وقد تقرر أخيراً أن العمل بأحواض السفن يجب أن يستمر بغارات أو من دون غارات. وبعد ذلك مباشرة تقريباً نجحت طائرة ألمانية في إسقاط قنبلة بشكل مباشر في مستودع إحدى السفن. وحسب ما قالته السيدة سين فإن بقايا سبعة رجال يعملون هناك "أخرجت في الدلاء". فوراً كان هناك إضراب في الحوض، وبعده كان عليهم أن يعودوا إلى ممارسة الاختباء. وهذا النوع من الشيء هو الذي لا تكتبه الصحف. لقد أصبح واضحاً الآن، لدى كل الأطرف، أن الخسائر في الأرواح في آخر الغارات مثلاً في رامسغيت، قد قللتها السلطات كثيراً لترضي السكان المحليين الذين لا يحبون أن يقرؤوا عن "الأضرار التافهة". حين يقتل مئة شخص إلخ إلخ، سأحرص على أن أرى أرقام الخسائر في هذا الشهر أغسطس/ آب، وأقول إنها تصل إلى ألفين شهرياً لو قالوا الحقيقة. مايكل يقدر أن الوقت الضائع في مصنعه للثياب بسبب الغارات الجوية، يكلفه خمسين جنيهاً أسبوعياً. وهذه من الواضح أنها مسألة فردية صغيرة.

٧ سبتمبر/ أيلول

بات إنذار الغارات الجوية مألوفاً جداً ويدوم وقتاً طويلاً. وبالنسبة إلى الناس فقد نسوا إن كان الإنذار الذي يعمل الآن هو إنذار بغارة أم إنذار إعلان بانتهاء الغارة. بات ضجيج القنابل والمدافع ماعدا حين يكون قريباً جداً (الذي ربما يعني ضمن ميلين اثنين) مقبولاً الآن

كخلفية عادية للنوم أو الحديث. أنا لم أسمع بعد انفجار قنبلة من نوع الهدير الذي يجعلك تشعر بأنك متورط شخصياً.

في خطاب تشرشل، بلغ عدد الذين قتلوا في الغارات الجوية خلال شهر أغسطس/ آب ١٠٧٥ شخصاً. حتى لو كان الرقم صحيحاً، فمن المحتمل أنه اعتراف أقل بكثير من العدد الحقيقي، بما أنه يتضمن خسائر أرواح مدنية........ التكتم الذي يُمارس رسمياً حول الغارات غير عادي. نقلت صحف اليوم أن قنبلة سقطت في ساحة "في وسط لندن" ويستحيل أن تعرف أي ساحة كانت، على الرغم من آلاف الناس الذين يُفترض أنهم يعرفون.

١٠ سبتمبر/ أيلول

لا أستطيع أن أكتب عن الكثير من الجنون في الأيام القليلة الأخيرة. ليس الأمر أن القصف يقلقنا بحد ذاته، بقدر ما تفعل فوضى حركة المرور، وصعوبة الاتصال الهاتفي المتكررة، وإغلاق المتاجر كلما كانت هناك غارة إلخ، مجتمعة مع ضرورة لحاق المرء بعمله العادي قد أرهق المرء، وحول حياته إلى لهاث سريع مستمر للتعويض عن الوقت الضائع.......

تمثل القنابل المؤجل عملها إزعاجاً كبيراً جداً، لكن يبدو أنهم ينجحون في تحديد أماكن معظمها، ويخرجون كل الناس القريبين من المكان حتى تنفجر القنبلة. في كل ساوث لندن هناك مجموعات صغيرة من الناس البؤساء التعساء يتجولون في المكان مع حقائب وصرر، وهم إما أناس تحولوا إلى مشردين، أو في أكثر الحالات أناس طردتهم السلطات بسبب قنبلة لم تنفجر......

أمضينا أغلب الليلة الماضية في الملجأ العمومي. لقد ساقنا إلى هناك الصفير المتكرر وصوت انفجار القنابل الذي لم يكن بعيداً جداً على فواصل بحوالي ربع ساعة. هناك قلق مخيف يعود إلى الاكتظاظ الشديد، رغم أن المكان كان مجهزاً بشكل حسن مع إضاءة كهربائية ومراوح. أغلب الناس من طبقة العمال الكبار في السن الذين تذمروا بمرارة من قسوة المقاعد وطول الليلة، لكن لا يوجد حديث انهزامي.....

يُشاهد الناس الآن كل ليلة عند الغروب وهم يصطفون عند أبواب الملاجئ مع معدات نومهم. هؤلاء الذين دخلوا أولاً يخطفون الأماكن التي على الأرض، وربما يمضون ليلة جيدة معقولة. بالإضافة إلى الغارات النهارية، تستمر ساعات الغارات الليلية من الساعة الثامنة

مساء إلى الساعة الرابعة والنصف صباحاً، أي من العتمة إلى الفجر. أعتقد أن ثلاثة أشهر من الغارات المستمرة بنفس الشدة كغارات الليالي الماضية الأربع، ستكسر معنويات كل شخص.

١٢ سبتمبر/ أيلول

حالما بدأت الغارات الجوية الجدية، لوحظ أن الناس كانوا أكثر استعداداً من قبل للتحدث مع الغرباء في الشارع..... هذا الصباح قابلت شاباً في العشرين تقريباً في أفرول قذر، ربما يعمل صانعاً في مرآب. كان ممتعضاً جداً وانهزامياً من الحرب ومرعوباً من الدمار الذي شاهده في ساوث لندن. قال إن تشرشل زار المنطقة التي قصفت قرب إيلفانت في بقعة دمر فيها عشرون بيتاً من أصل اثنين وعشرين. ولاحظ قائلاً إن هذا "لم يكن سيئاً جداً". قال الشاب: "لو قال هذا لي لعصرت رقبته وخنقته". كان متشائماً بخصوص الحرب، ويرى أن هتلر سيفوز بالتأكيد، ويحول لندن إلى حالة مثل وارسو. تكلم بمرارة عن الناس الذي تحولوا إلى مشردين في ساوث لندن، وتبنى وجهة نظري بحماس حين قلت إنه يجب أن تصادر البيوت الفارغة في ويست لندن وتعطى لهم. هو اعتبر أن كل الحروب تُخاض لفائدة الأغنياء، لكنه وافقني أن هذه الحرب ربما تنتهي بثورة. مع كل هذا لم يكن غير محب لوطنه. قسم من حقده يعود لأنه حاول أن ينضم إلى القوة الجوية أربع مرات في الأشهر الستة الأخيرة، وكان يؤجَّل دائماً.

الليلة وليلة أمس كانوا يجربون الأداة الجديدة لإبقاء وابل النيران مستمراً من المدافع المضادة للطائرات. واضح أنه إطلاق أعمى ومجرد صوت، لكن أعتقد أن هناك نوعاً من كاشف صوت يقدر الارتفاع الذي يجب أن تنفجر فيه القذائف... الضجيج هائل ومستمر تقريباً، لكن لم نكترث به ونشعر أنه إلى جانبنا. أمضيت ليلة أمس في مكان ستيفن سبيندر مع بطارية تطلق في الساحة على فواصل قصيرة خلال الليلة. نمت خلالها بسهولة كافية، ولم تُسمع قنابل في ذلك المكان.

الدمار في إيست ايند وساوث ايند لندن رهيب بكل المقاييس..... خطاب تشرشل ليلة أمس أشار بجدية كبيرة إلى خطر غزو وشيك. إذا جرت محاولة الغزو فعلياً ولم يكن هذا خدعة، فإن الفكرة كما يفترض إما أنه سيضرب ويدمر قواعدنا الجوية على طول الساحل الجنوبي، وبعدها يمكن قصف الدفاعات الأرضية بسهولة، وبنفس الوقت يسبب كل

الفوضى الممكنة في لندن واتصالاتها بالجنوب، أو أن يجذب أقصى ما يستطيعه من قواتنا الدفاعية جنوباً قبل شن الهجوم على اسكتلندا أو ربما ايرلندا. في الوقت الحالي، فإن كتيبتنا من الحرس الوطني وبعد ثلاثة أشهر ونصف، لديها حوالي بندقية واحدة لكل ستة رجال، ولا توجد أسلحة أخرى باستثناء قنابل حارقة، وربما زي رسمي واحد لكل أربعة رجال. أخيراً وقفوا ضد السماح للأفراد بأخذ البنادق إلى البيت، فكلها يجب أن تكوم في مكان واحد؛ حيث قد تأتي قنبلة وتدمرها كلها في أية ليلة.

١٤ سبتمبر/ أيلول

في الليلة الأولى من وابل النيران الذي كان الأشد، قيل إنهم أطلقوا ٥٠٠٠٠٠ قذيفة، أي بمعدل خمسة جنيهات لكل قذيفة، أي ما يعادل ثروة بمليونين ونصف، لكن تستحقها من أجل تأثيرها على المعنويات.

١٥ سبتمبر/ أيلول

هذا الصباح رأيت طائرة تسقط لأول مرة. سقطت مقدمتها أولاً ببطء من الغيوم مثل الشنقب، فقد أصيبت وهي تحلق عالياً في السماء. التهليل الهائل وسط الناس قوطع بين فينة وأخرى بالسؤال "هل أنت واثق من أنها ألمانية؟" كانت الأوامر المعطاة مربكة جداً وكانت هناك أعداد كثيرة جداً من الطائرات، لذلك لا أحد يعرف أيها طائرات ألمانية وأيها طائراتنا. كان اختباري الوحيد إذا كانت الطائرة التي أشاهدها فوق لندن طائرة قاذفة، فيجب أن تكون ألمانية، وإن كانت طائرة مقاتلة، فعلى الأرجح إنها لنا.

١٧ سبتمبر/ أيلول

قصف شديد في هذه المنطقة ليلة أمس حتى الحادية عشرة ليلاً تقريباً.......... كنت أتحدث في مدخل هذا البيت إلى شابين وفتاة كانت معهما. كان الوضع النفسي للثلاثة مشوقاً. كانوا خائفين بشكل علني وبلا خجل، ويتحدثون عن كيف أن ركبهم كانت تصطك ببعضها إلخ. ومع ذلك كانوا في الوقت نفسه مثارين ومهتمين ويراوغون خارج الأبواب بين القنابل، ليروا ماذا كان يحدث ويلتقطون شظايا. بعد ذلك في غرفة صغيرة محصنة للسيدة سين في الدور السفلي، كانت السيدة سين وابنتها والخادمة وثلاث بنات صغيرات مستأجرات هنا.

كانت كل النسوة باستثناء الخادمة يصرخن في انسجام ويعانقن بعضهن ويخبئن وجوههن في كل مرة تسقط فيها قنبلة، لكنهن يكونن في بعض الأحيان سعيدات تماماً وعاديات مع إجراء حديث نشط وحيوي. ماركس أيضاً يكون على هذا الحال أثناء الغارات، أي خاضع وخائف. لكن بعض الكلاب تصاب بالجنون وتصبح متوحشة أثناء الغارات، ويجب أن تضرب بالرصاص. (إيلين) تقول الشيء نفسه عن غرينيتش. حين قصصت شعري في المدينة، سألت الحلاق إن كان يتابع عمله أثناء الغارات. قال لي إنه يفعل، فقلت وحتى لو كنت تحلق ذقن أحدهم؟ قال أوه نعم، أستمر بنفس الطريقة تماماً. وفي يوم ما ستسقط قنبلة قريبة كفاية ستجعله يقفز ويسلخ نصف وجه الزبون.

لاحقاً بادرني رجل بالكلام، أظنه نوع من تاجر متنقل مع أنموذج سيئ من الوجه، بينما كنت أنتظر الحافلة. بدأ بحديث مشتت عن كيف خرج هو وزوجته من لندن، وكيف كانت أعصابه تخونه، وكيف عانى مشاكل في بطنه إلخ إلخ. أنا لا أعرف كم بقي هناك من هذا النوع.......... كان هناك رحيل كبير طبعاً من إيست لندن، وكل ليلة يحدث ما يرقى إلى هجرة جماعية إلى أماكن توجد فيها تجهيزات ملاجئ كافية. عملية دفع شلنين ثمن بطاقة وقضاء الليلة في واحدة من محطات المترو العميقة مثل بيكاديلي، تتزايد....... كل واحد تحدثت معه يوافق على أن البيوت المفروشة الفارغة في ويست ايند يجب أن تستخدم للمشردين. لكن أعتقد أن الأغنياء الخنازير مازالوا يملكون القوة لمنع هذا من الحدوث. قبل الأمس زحف خمسون شخصاً من إيست اينت يرأسهم واحد من أعضاء مجلس بورو، إلى داخل سافوي، وطالبوا باستخدامها كملجأ ضد الغارات الجوية. لم تنجح الإدارة في طردهم، إلى أن انتهت الغارة وخرجوا طوعياً. حين ترى كيف مازال الأثرياء يتصرفون فيما يتطور بوضوح إلى حرب ثورية، تظن أنك في بطرسبوغ في عام ١٩١٦

(مساءً) من شبه المستحيل أن تكتب في هذا الصخب الجهنمي. (الأضواء الكهربائية انطفأت. لحسن الحظ لدي بعض الشموع) شوارع كثيرة في الحي (أضيئت ثانية)، طوقت بسبب قنابل لم تنفجر أي لكي تصل إلى البيت من بيكر ستريت قل ٣٠٠ ياردة، مثل محاولة أن تجد طريقك إلى قلب متاهة.

٢١ سبتمبر/ أيلول

كنت عاجزاً منذ أيام عن شراء مجلد آخر لأستمر في كتابة هذه المذكرة، لأن مكتبات القرطاسية الثلاث أو الأربع القريبة والمجاورة لي، كلها طوقت إلا واحدة بسبب القنابل التي لم تنفجر.

ملامح نظامية للزمن: أكوام من الزجاج المكنس، وركام من حجارة، وشظايا صوان، ورائحة غاز متسرب، وعقد من متفرجين ينتظرون عند النطاق المضروب حول الأمكنة التي فيها قنابل لم تنفجر.

أمس عند مدخل شارع قريب من هنا، كانت مجموعة صغيرة تنتظر مع رجل من القوة الاحتياطية الجوية في قبعة سوداء وسطهم. سمع هدير مدمر مع غيمة غبار ضخمة، فجاء الرجل ذو القبعة القصديرية السوداء يركض نحو مركز قيادة القوة الاحتياطية الجوية؛ حيث ظهر رجل آخر بقبعة بيضاء، وهو يمضغ لقمة من الخبز والزبدة.

الرجل في القبعة السوداء: "دورسيت سكوير يا سيدي"

الرجل في القبعة البيضاء: "حسناً" (أشّر بعلامة صغيرة في دفتره).

أناس يصعب تصنيفهم، يتجولون هنا وهناك، تم إجلاؤهم من بيوتهم بسبب القنابل المؤجل انفجارها. أمس أوقفتني فتاتان اثنتان في الشارع وكانتا أنيقتين جداً في مظهرهما باستثناء وجهيهما اللذين اتسخا بالتراب. "نرجوك يا سيدي، هل تخبرنا أين نحن الآن؟".

ومن ناحية ثانية، هناك مناطق شاسعة من لندن عادية تقريباً، وكل واحد فيها سعيد تماماً في النهار، ولم يفكر قط في الليلة القادمة كما يبدو، مثل حيوانات عاجزة عن التنبؤ بالمستقبل، طالما هي تملك القليل من الطعام ومكاناً تحت الشمس.

٢٤ سبتمبر/ أيلول

شارع أكسفورد يوم أمس، من مدرج أكسفورد إلى قوس المرمر، فارغ تماماً من حركة المرور إلا من بضع مشاة عابرين، مع شمس بعد الظهر التي كانت تسطع على الطرق الفارغة، وتلمع على كسرات وشظايا لا تحصى من الزجاج المحطم. خارج جون لويس هناك كومة من المانيكانات المصنوعة من الجص الوردية جداً والحقيقية، تبدو مثل كومة من الجثث التي يمكن

أن يخطئ المرء بها من مسافة قليلة، مثل الوضع الذي كان في برشلونة تماماً، لكنهم كانوا هناك قديسين من الجص في الكنائس المنتهكة.

دار نقاش طويل حول إمكانية أن تسمع قنبلة (أي صفيرها) قادمة مباشرة إليك. كل شيء يعتمد على إن كانت القنبلة أسرع من الصوت.... طورت شيئاً واحداً بنجاح وأظنه مرضياً ومقنعاً، وهو كلما كنت أبعد عن القنبلة الساقطة، كلما كان الصوت الذي تسمعه أطول. أما الأزيز (الصوت القصير) فيجب أن يجعلك تغوص وتبحث عن غطاء وحماية. أعتقد أن هذا هو المبدأ فعلاً الذي بناء عليه يتفادى المرء القذيفة. وهناك طريقة يبدو أن المرء يعرفها بالغريزة.

الطائرات تعود وتعود في كل بضعة دقائق، وهي مثلما حين تكون في بلد شرقي وتفكر بأنك قتلت آخر بعوضة داخل شبكتك، وفي كل مرة تطفئ فيها الضوء، تبدأ بعوضة أخرى بالأزيز.

٢٧ سبتمبر/ أيلول

صحيفة النيوز كرونيكل اليوم انهزامية بشكل واضح، ربما بعد أخبار أمس عن داكار (في سبتمبر/ أيلول عام ١٩٤٠ قامت حملة بريطانية، بالتعاون مع قوات فرنسية بقيادة الجنرال ديغول، بمحاولة استرداد ميناء داكار من حكومة فيشي وفشلت). لكن لدي شعور أن النيوز كرونيكلز ملزمة بأن تصبح انهزامية مهما حدث، وسوف تكون في المقدمة فوراً حين تتقدم شروط سلام مقبولة. هؤلاء الناس ليس لديهم سياسة محددة ولا إحساس بالمسؤولية، لا شيء سوى كره تقليدي للطبقة الحاكمة البريطانية مبني على ضمير منشق أساساً. ليس هناك إلا محدثات ضجيج مثل نيوز كرونيكلز إلخ. كل هؤلاء الناس سينهارون بالتأكيد، حين تصبح ظروف الحرب لا تحتمل.

قنابل كثيرة ليلة أمس، لكن أعتقد أن أية واحدة منها لم تسقط ضمن نصف ميل عن هذا البيت. الاضطراب الناتج عن مرور القنبلة عبر الهواء مذهل. كل البيت يهتز بشكل كافٍ لتتقعقع الأشياء على الطاولة. طبعاً هم يرمون قنابل كبيرة جداً الآن. قيل إن القنبلة غير المتوقعة في ريجينت بارك، كانت "بحجم صندوق البريد العمودي". كل الليلة تقريباً كانت الأضواء تنطفئ على الأقل مرة، لم تكن تنقطع فجأة حين ينقطع الاتصال، وإنما كانت تخبو

تدريجياً لتأتي عادة من جديد بعد خمس دقائق. لا أحد يعرف كما يبدو، لماذا تغرق الأضواء حين تمر القنبلة عن قرب.

١٥ أكتوبر/ تشرين الأول

أكتب هذا في ولينغتون، لأنني كنت مريضاً لمدة نصف شهر بذراع مسمومة. لا أخبار كثيرة، أي فقط أحداث ذات أهمية عالمية؛ لا شيء أثر علي كثيراً شخصياً.

يوحد الآن أحد عشر طفلاً تم إجلاؤهم في ولينغتون (١٢ وصلوا لكن أحدهم هرب وأعيد إلى بيته). فتاة واحدة من ستيبني قالت إن جدها قصف سبع مرات. هم يبدون أطفالاً لطيفين وسيهدؤون ويستقرون تماماً.

مع ذلك هناك الشكاوى المعتادة ضدهم في بعض الأحياء، مثلاً من صبي صغير مع سيدة..... عمره سبع سنوات: "هو شيطان صغير قذر. نعم هو كذلك. يبلل سريره ويوسخ سرواله. سوف أفرك أنفه لو كنت مسؤولة عن هذا الشيطان الصغير القذر".

بعض التمتمات والهمسات عن عدد اليهود في بادلوك --- يوضح أن اليهود يتفوقون بشكل كبير من حيث العدد على الناس الذين يلتجئون في خطوط المترو. يجب أن أحاول وأتأكد من هذا.

موسم البطاطا جيد هذه السنة، بالرغم من الطقس الجاف.

١٩ أكتوبر/ تشرين الأول

كآبة لا توصف في إشعال النيران كل صباح بورق جرائد السنة الماضية، ورؤية لمحات من العناوين المتشائمة التي تتصاعد في الدخان.

٢١ أكتوبر/ تشرين الأول

بالإشارة إلى إعلانات في محطات المترو "كن رجلاً" إلخ (تطلب من الرجال القادرين جسدياً ألا يلتجئوا إلى هناك وأن يتركوا متسعاً للنساء والأطفال). يقول دي إن الدعاية التي تدور في لندن أنه من الخطأ نشر هذه الملاحظات باللغة الإنكليزية.

بريستلي الذي كانت برامجه تبث ليلة الأحد تتضمن دعاية اشتراكية، طُرد من البث بشكل واضح وبإصرار من حزب المحافظين..... يبدو كما لو أن طاقم مارغيسون يوشك أن يقدم

رداً حاداً الآن (جيه بي بريستلي روائي غزير الإنتاج ومسرحي وأديب. أثناء ١٩٤٠ و ١٩٤١ كان يلقي أحاديث مشهورة أسبوعية على الراديو، يحث الأمة فيها على الثبات والوحدة في الصراع ضد هتلر، لكي يجعل البلاد أكثر ديمقراطية ومساواة).

(دي آر مارغيسون عضو برلمان محافظ عن روغبي، ومخلص عنيد لكل رئيس وزراء خدمه، فقد دعم تشامبرلاين حتى سقوطه من الرئاسة، ثم عين في عهد تشرشل وزير حرب بعد ستة أشهر. لقب بفيسكونت، بعد أن أعفاه تشرشل من منصبه في ربيع تلك السنة.

٢٥ أكتوبر/ تشرين الأول

الليلة قبل الفائتة تفحصت حشوداً التجأت في تشانسري لين وأكسفورد سيركس ومحطات بيكر ستريت. ليسوا كلهم يهوداً، لكن أظن أن نسبة من اليهود أعلى مما يراها المرء عادة في حشد بهذا الحجم. السيئ بخصوص اليهود، أنهم ليسوا منافين للذوق فقط، وإنما يتعمدون إزعاج ومضايقة الآخرين. هناك امرأة يهودية خائفة تشبه شخصية كرتونية نظامية في المجلات الهزلية، شقت طريقها بالقوة من القطار في أكسفورد سيركس، موجهة اللطمات إلى كل من يقف في طريقها. أعادتني إلى أيام مترو باريس.

تفاجأت حين وجدت أن (دي) الذي هو يساري في آرائه بوضوح، يميل إلى مشاركة الشعور الراهن ضد اليهود. يقول إن اليهود في الدوائر التجارية، تحولوا إلى مؤيدين لهتلر أو يتحضرون لفعل هذا. يبدو هذا لا يصدق تقريباً، لكن حسب ما جاء عن دي، سوف يعجبون بأي واحد يركلهم. ما أشعر به هو أن أي يهودي، أقصد يهودي أوروبي، سوف يفضل النظام الاجتماعي الذي من نوع هتلر على نظامنا، لو لم يحدث أنه هو من كان يضطهدهم. الشيء نفسه مع أي أوروبي من وسط أوروبا كاللاجئين مثلاً. هم يستغلون إنكلترا كملجأ، لكنهم لا يستطيعون تفادي الشعور بأعمق الاحتقار لها. يمكنك أن ترى هذا في أعينهم، حتى عندما لا يبوحون بهذا مباشرة وصراحة. الحقيقة أن تلك النظرة المتعصبة الضيقة والنظرة القارية، هما نظرتان متنافرتان تماماً.

حسب ما يراه إف. صحيح تماماً أن الأجانب يخافون أكثر من الإنكليز أثناء الغارات. إنها ليست حربهم، ولذلك ليس لديهم شيء يقويهم. أعتقد أن هذا يمكن أن يكون مسؤولاً عن

الحقيقة -أنا متأكد عملياً أنها حقيقة، لكن يجب ألا يذكرها المرء- إن أفراد الطبقة العاملة خائفون أكثر من أفراد الطبقة الوسطى.

نفس الشعور باليأس على الأحداث الوشيكة في فرنسا وأفريقيا وسوريا وإسبانيا -الشعور بتكهن ما يجب أن يحدث، وكوننا عاجزين عن منعه، والشعور مع تأكد مطلق بأن الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تعمل في هكذا طريقة لتوجه لكمتها أولاً.

غارات جوية ألطف بكثير من الأيام القليلة الماضية.

١٦ نوفمبر/ تشرين الثاني

لم أفكر أبداً في أنني يجب أن أعيش حتى تتخمني أصوات إطلاق المدافع، لكن ذلك حدث.

٢٣ نوفمبر/ تشرين الثاني

قبل الأمس، تناولت طعام الغداء مع.... إتش بي المتشائم نوعاً ما من الحرب. يعتقد أنه لا يوجد رد على النظام الجديد، أي أن هذه الحكومة عاجزة عن صياغة رد، والناس هنا وفي أمريكا يمكن دفعهم إلى قبوله بسهولة. أنا أسأل إن كان الناس لن يروا أي عرض للسلام على طوال هذه الخطوط على أنه مصيدة. إتش بي يقول "أف اللعنة، أستطيع أن ألبسه ثياباً لكي يظنوا أنه أعظم انتصار في تاريخ العالم. أستطيع أن أجعلهم يأكلونه". ذلك صحيح طبعاً. كل شيء يعتمد على الشكل الذي سيقدم فيه إلى الناس. طالما أن صحفنا لا تقوم بأعمال قذرة، فلن تكون مبالية تماماً للمناشدات من أوروبا. على أي حال إتش بي متأكد أن --- وشركاؤه سيعملون على الاستسلام والخيانة. ويبدو أن --- رغم أنها ليست خاضعة للرقابة، فقد حذرت كل الصحف الآن بألا تنشر أي تأويل عن سياسة الحكومة تجاه إسبانيا.

قبل بضعة أسابيع، جمع دوف كوبر مراسلي الصحف، وأكد لهم "بناء على كلمة شرف منه" أن "الأشياء كانت تسير جيداً جداً في إسبانيا في الحقيقة". (أكثر ما يمكن أن يقوله المرء إن كلمة دوف كوبر أكثر قيمة من كلمة هور) (هور رجل دولة بريطاني).

يقول إتش بي إنه حين انهارت فرنسا، كان هناك اجتماع لمجلس الوزراء ليقرر إن كانوا سيستمرون في الحرب أم سيسعون إلى مصالحة وشروط ومُهل. كانت نتيجة الاقتراع ٥٠ إلى

٥٠ وكان هناك صوت واحد حاسم. وحسب ما جاء عن إتش بي، فإن هذا الصوت كان صوت تشامبرلاين. إن كان هذا صحيحاً، فأنا أتساءل إن كان هذا سينشر للعلن أبداً. لقد كان هذا صنيع تشامبرلاين الأخير العلني، هذا العجوز المسكين، كما يمكن أن يقول المرء.

صفة مميزة لصوت الحرب في الشتاء: الرنين الموسيقي لحبات المطر المتساقطة على القبعات القصديرية.

٢٨ نوفمبر/ تشرين الثاني

تناولت طعام الغداء أمس مع سي رئيس تحرير فرانس (بيير كوميرت صحفي فرنسي ودبلوماسي سابق أتى إلى إنكلترا بعد هدنة ١٩٤٠.)...... لدهشتي كانت معنوياته جيدة، ولم تكن لديه شكاوى. كنت أتوقع لاجئاً فرنسياً يتذمر بشكل لانهائي حول الطعام إلخ، لكن سي يعرف إنكلترا جيداً وعاش هنا من قبل. يقول إن هنالك مقاومة أكثر بكثير في فرنسا المحتلة وغير المحتلة، مما يدرك الناس هنا، لكن الصحافة تقللها بلا شك، بسبب علاقاتنا المستمرة مع فيشي. ويقول إنه أثناء الانهيار الفرنسي، لم يتخيل أي أوروبي أن إنكلترا سوف تستمر في القتال وكذلك الأمريكيون أيضاً. وهو إلى حد ما محب للإنكليز بوضوح، ويعتبر الملكية فائدة عظيمة لإنكَلترا، وقد كانت العامل الرئيسي في منع توطد الفاشية هنا حسب ما يرى..... إنها حقيقة. في المجمل، إن الرأي المعادي للفاشية في إنكلترا، كان مؤيداً لإدوارد، لكن سين يكرر بوضوح ما كان متداولاً في القارة.

كان سي رئيس قسم الصحافة خلال حكومة لافال الذي قال له في عام ١٩٣٥ إن إنكلترا الآن "مجرد مظهر" وإن إيطاليا بلاد قوية حقاً، لذلك يجب على فرنسا أن تقطع علاقاتها مع إنكلترا وتدخل مع إيطاليا. وقال عند العودة من توقيع الاتفاقية الفرنسية الروسية إن ستالين كان أقوى رجل في أوروبا. وبالمجمل، فإن نبوءات لافال دُحضت كما يبدو رغم ذكائه.

روايات متعارضة من شهود عيان حول الضرر الذي أصاب كوفنتري، ويبدو من المستحيل أن تعرف القصف من بعيد. حين نعمنا بليلة هادئة هنا، وجدت أن أناساً كثيرين مرتبكين قليلاً بسبب شعورهم المؤكد أنهم سيمرون بوضع سيئ في المدن الصناعية، ويشعر به كل واحد في داخل عقله، أننا نحجرنا نحوه، وأن المعنويات في مكان آخر أقل موثوقية الآن.

١ ديسمبر/ كانون الأول

إن الوغد تشيابي مجرد جسد ميت الآن، والكل مبتهج مثلما ابتهجوا حين مات بالبو. إن هذه الحرب تقتل بعض الفاشيين على أي حال.

٨ ديسمبر/ كانون الأول

أذعتُ برنامجاً الليلة قبل الفائتة...... قابلتُ هناك بولونياً فرّ حديثاً من بولونيا عن طريق تحت الأرض لم يكشف عنه..... قال: في حصار موسكو تضررت ٩٥ بالمئة من البيوت، ودمرت ٢٥ بالمئة، وتعطلت كل الخدمات والكهرباء والماء. وباقتراب النهاية لم يكن لدى الناس أي دفاع مهما كان نوعه ضد الطائرات والأسوأ المدفعية. والناس يندفعون إلى الخارج ليقطعوا قطعاً صغيرة من حصان قتلته قذيفة، ثم تطردهم قذائف جديدة، ويعودون من حيث أتوا، ثم يندفعون إلى الخارج مرة أخرى. حين فصلت وارسو، كان الناس مدعومين بالإيمان بأن الإنكليز كانوا قادمين لنجدتهم، وكانت هنالك إشاعات طوال الفترة عن جيش إنكليزي في دانزيك إلخ إلخ......

خلال الفترة السيئة من القصف، حين كان كل واحد شبه مجنون ليس من القصف نفسه بقدر ما هو من النوم المتقطع ومكالمات الهاتف المتقطعة وصعوبة الاتصالات إلخ إلخ، وجدت قصاصات شعر تافه كانت تدخل في ذهني دائماً. هي لم تتجاوز أبداً السطر الواحد أو السطرين، وتتوقف حين يركد القصف. والأمثلة كانت:

فلاح روماني عجوز/ عاش في مورنينغتون كريسنت.

والمفتاح لم يناسب والجرس لم يرن/ لكننا نقف كلنا لأن الرب أنقذ الملك.

حين ذهب ماسح أراضي بورو لينام/ على عصاه أو عموده أو مجثمه.

٢٩ يناير/ كانون الثاني ١٩٤١.

إن رد فعل اليمين الآن في أوجه، ولا شك أن دخول مارغيسون إلى مجلس الوزراء هو استغلال متعمد لانتصار وافل في مصر. المضحك تماماً هو مراجعة نقدية لكتاب اللنبي عن حياة وافل، كتبتها منذ عدة أشهر ونشرتها الهورايزن في الوقت الذي ساد فيه خبر سيدي براني وانتشر تماماً. أنا قلت في المراجعة: بما أن وافل (الجنرال السير أرتشيبالد وافل) تسلم مناصب قيادية هامة، كان الاهتمام الرئيسي للكتاب الضوء الذي ألقاه على فطنته الخاصة به وتركته

ليُستنتج أنني لم أفكر كثيراً بهذا. لهذا كانت الضحكة علي-رغم أن الرب يعلم أنني سعيد جداً، لأنني كنت مخطئاً.

كلمة "غارة جوية" تستخدم الآن لتعني أي نوع من الهجوم على أي شيء. قارن "قصف" في الحرب الماضية. "غارة جوية" لم تستخدم بعد كفعل تطور أنا أتوقعه.

٢٢ يناير/ كانون الثاني

.... أنا مقتنع ربما عن حق، أن خطر جلبة الميثاق الشعبي قد بخس تقديره، وأن المرء يجب أن يرد ويثأر ولا يتجاهله. هو يقول إن آلاف الناس السذج خدعوا بالبرنامج الجذاب لميثاق الشعب، ولم يدركوا أنه مناورة انهزامية المقصود منها مساعدة هتلر. أقتبس رسالة من عميد كانتربيري (المبجل المطلق هيلويت جونسون الذي لقب بالعميد الكاهن الأحمر لتعاطفه وتأييده لروسيا) الذي قال "أريدك أن تفهم أنني متحمس تماماً للفوز بالحرب، وأنني أؤمن أن ونستون تشرشل القائد الوحيد الممكن لنا حتى تنتهي الحرب" (أو كلام بهذا المعنى) ومع ذلك أيّد الميثاق الشعبي. يبدو أن هناك الآلاف مثل هذا.

على ذكر ماذا--- يقول، في الواقع لقد جمع طاقم ميثاق الشعب الكثير من المال من مكان ما وملصقاتهم في كل مكان، وهناك أيضاً الكثير من الملصقات الجديدة من الديلي ووركر. لم تسدد قيمة مساحة الفراغ، لكن حتى الطباعة ستكلف قدراً كبيراً من المال.

مزقت أمس عدداً من هذه الملصقات، وهذه أول مرة أفعل فيها شيئاً كهذا. قارن في الصيف حين كتبت بالطبشور "اطردوا تشامبرلاين" إلخ، وفي برشلونة بعد قمع البيوم حين كتبت بالطبشور "فيسكا بيوم". في أي وقت عادي، أن أكتب على جدار أو أتدخل بما كتبه أي أحد آخر، هو شيء ضد غرائزي.

نقص البصل جعل كل واحد حساساً بشكل شديد إلى رائحة البصل. ربع بصلة مقطعة طولياً في يخنة تبدو قوية بإفراط. عرفت إيلين قبل الأمس حالما قبّلتها، أنني أكلت بصلاً قبل ست ساعات.

مثال عن الابتزاز المستمر. حين لا يتم التحكم بسعر أي صنف فإنه يصبح ندرة- سعر ساعات المنبه. أرخص نوعية يمكن الحصول عليها الآن بـ ١٥ شلناً - هذا النوع الذي كان بـ ٥ شلنات يباع الآن بـ ١٨ شلناً و٦ بنسات، وكل الأخريات بأسعار متطابقة.

استخدمت الديلي إكسبريس "غارة" كفعل.

أخبار هذا الصباح - اخترقت دفاعات طبرق، ومنعت الديلي ووركر. سررت جداً بالخبر الأخير.

٢٦ يناير/ كانون الثاني

حصة من المساحة في هذا الأسبوع في النيو ستيتمان:

سقوط طبرق (مع ٢٠٠٠٠ أسير)- سطران.

منع الديلي ووركر والويك- ١٠٨ أسطر (الويك صحيفة إخبارية شيوعية لمشتركين خاصين، يحررها كلود كوكبيرن).

كل الناس المفكرين قلقون حول الهدوء في نهاية الحرب، ويشعرون أن بعض الأعمال الشيطانية قد تم تحضيرها. لكن التفاؤلية الشعبية تتزايد مرة أخرى، وتوقف الغارات حتى لبضع أيام له مخاطره. أصغيت قبل الأمس إلى محادثة هاتفية لشخص آخر كما يفعل المرء دائماً في هذه الأيام بسبب تشابك الخطوط والأسلاك. سمعت امرأتين تتحدثان حول نفس الموضوع "لن تكون طويلة الآن" إلخ إلخ. في صباح اليوم التالي، ذهبت إلى متجر السيدة جيه، وعلقت قائلاً بأن الحرب ربما تستمر ثلاث سنوات. صعقت السيدة جيه وارتعبت. "أوه لا يمكنك التفكير هكذا! أوه ذلك غير ممكن! نحن طردناهم كما ينبغي الآن. نحن أخذنا بارديا، ومن هناك نستطيع الزحف إلى داخل إيطاليا، وذلك هو الطريق إلى ألمانيا، أليس كذلك؟". يجب أن أقول إن السيدة جيه امرأة هادئة وذكية بشكل استثنائي، ومع ذلك هي غير مدركة أن أفريقيا هي الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط.

٧ فبراير/ شباط

يوجد الآن انقسام متزايد في الرأي -السؤال ضمني من البداية، لكن الناس لم يدركوه إلا مؤخراً- وهو: هل نحن نقاتل النازيين أم الشعب الألماني؟

هذا مرتبط بالسؤال إن كان على إنكلترا أن تفصح عن أهدافها من الحرب، أو في الحقيقة إن كان لديها أي أهداف. كل ما يمكن تسميته رأياً محترماً، هو ضد إعطاء الحرب أي معنى مهما كان ("مهمتنا أن نضرب البوش -شتيمة تعني الجندي الألماني- هذا هو الهدف الوحيد

الذي يستحق الحديث عنه") وهذا يجب أن يصبح سياسة رسمية أيضاً. قيل إن كراسة فانسيتارت "أكره ألمانيا" تباع مثل الكعك الساخن. (روبرت فانسيتارت هو دبلوماسي وكاتب الكراسة المشار إليها هنا سجل أسود: الألمان- الماضي والحاضر).

لا توجد أخبار محددة من فرنسا. من الواضح أن بيتان سوف يتنازل عن أخذ لافال إلى مجلس الوزراء. عندها سيكون هناك لغط جديد حول مرور قوات عبر فرنسا المحتلة وقواعد في أفريقيا إلخ. "موقف ثابت" آخر ثم تنازل أكثر. كل هذا يعتمد على عامل الوقت، أي إن كان الألمان يستطيعون الحصول على موطئ قدم في أفريقيا قبل أن تنهار الجيوش الإيطالية هناك نهائياً. ربما المدافع التالية ستوجه ضد إسبانيا، وسيتم إخبارنا أن فرانكو أبدى "موقفاً ثابتاً" وأن ذلك يُظهر كم كانت الحكومة البريطانية محقة حين أخذت موقفاً استرضائياً نحو إسبانيا، حتى يستسلم فرانكو ويهاجم جبل طارق، أو يسمح للجيوش الألمانية أن تعبر أراضيه. أو ربما حين يستلم لافال السلطة، سيقاوم لوقت قصير المطالب الألمانية الجائرة، ثم ينقلب فجأة من نذل إلى وطني، ويتخذ "موقفاً ثابتاً" مثل موقف بيتان الآن. الشيء الذي لن يفهمه المحافظون البريطانيون، هو أن قوات اليمين ليس فيها قوة، وهي موجودة لتضرب وتهزم.

٢١ فبراير/ شباط

استدعي آرثر كيسلر هذا الأسبوع، وسوف يُجند إلى الرواد (البايونير) لأن الأقسام الأخرى من القوات مُنعت عنه لأنه ألماني. يا للغباء المرعب حين يكون لديك رجل موهوب صغير السن يتكلم عدداً من اللغات لا أعرف عددها، ويعرف شيئاً عن أوروبا خصوصاً الحركات السياسية الأوروبية، وتكون غير قادر أن تستفيد منه إلا في جرف القرميد.

كنت مرعوباً اليوم من الدمار في كنيسة سانت بول وحولها الذي لم أره من قبل. كنيسة سانت بول بالكاد كشطت، وهي واقفة مثل صخرة. لفت انتباهي لأول مرة أن الصليب الذي فوق القبة عبارة عن صليب مزخرف. كان يجب أن يكون صليباً بسيطاً ناتئاً مثل مقبض سيف.

الغريب تماماً أنه لا تبدو هناك أي ارتدادات وأصداء تتكلم عن ذلك الأحمق العجوز ايرونسايد، الذي أخذ لقب "اللورد ايرونسايد عن اركاينجل". هذا حقاً كان عينة وحشية من الصفاقة، وشيء يجب الاحتجاج ضده مهما كان رأي المرء في النظام الروسي الحاكم.

(الفيلد مارشال ايرونسايد رئيس هيئة الأركان الإمبريالية، ثم رئيس الحرس الوطني وقائد أركان قوات التحالف ضد البلاشفة في اركاينجل).

١ مارس/ آذار

آل (ب) الذين أتوا إلى لندن منذ بضعة أسابيع، ولم يروا شيئاً من القصف الجوي، يقولون إنهم وجدوا أن أهالي لندن تغيروا كثيراً جداً. كان الجميع هستيريين، ويتحدثون بنغمات أعلى بكثير إلخ. إن كان الأمر هكذا، فإنه شيء يحدث تدريجياً ولا يلاحظه المرء حين يكون في وسطه كما مع نمو الطفل. التغير الوحيد الذي لاحظته بوضوح منذ أن بدأت الغارات الجوية، هو أن الناس أصبحوا أكثر استعداداً للتحدث مع الغرباء في الشارع...... محطات المترو لا تنتن والأسرة المعدنية الجديدة جيدة تماماً، والناس الذين يراهم المرء هناك وجدوها معقولة للنوم ويبدون راضين وعاديين في كل الطرق -لكن هذا ما يزعجني بالضبط. ماذا يجب على المرء أن يتوقعه من أناس يواصلون العيش في هذه الحياة دون الإنسانية ليلة تلو أخرى لمدة أشهر، وتشكل الفترات التي لا تقترب فيها أي طائرة من لندن من أسبوع أو أكثر للمرة الواحدة؟...... من المرعب أن ترى أطفالاً مازالوا في كل محطات المترو يعتبرون الأمر بديهياً، ويجدون تسلية كبيرة في الركوب حول الدائرة الداخلية. قبل وقت قليل كان دي جيه قادماً إلى لندن من شيلتنهام، وفي القطار كانت امرأة شابة مع طفليها اللذين تم إجلاؤهما إلى مكان ما في ويست كنتري واللذين تعيدهما من هناك الآن. حين اقترب القطار من لندن، بدأت غارة جوية، وأمضت المرأة بقية الرحلة تبكي. ما الذي جعلها تقرر أن تعود؟ حقيقة إنه في ذاك الوقت لم تكن هناك غارات على لندن لمدة أسبوع أو أكثر، ولهذا استنتجت أن "الأمر مناسب الآن". ماذا يتوقع المرء من عقلية مثل هؤلاء الناس؟

٣ مارس/ آذار

ذهبت ليلة أمس مع جي كي يرى الملجأ في السرداب الذي تحت كنيسة غرينتش. كانت الأسرّة الخشبية المفروشة بالخيش المعتاد، قذرة (لا شك أنها تكون مقملة حين يكون الطقس أكثر دفئاً) وإضاءته سيئة وله رائحة كريهة ومكتظ دائماً، وليس في هذه الليلة بالذات، والسرداب عبارة عن شبكة من الممرات الضيقة التي تصل بين القناطر التي هي أسماء العائلات التي دفنت فيها، وكان أحدثها في عام ١٨٠٠ تقريباً........ أصر جي وآخرون أنني

لم أره في أسوأ حالاته حين يكون مكتظاً (حوالي ٢٥٠ شخصاً) في الليالي، وتصبح الرائحة النتنة لا تطاق. لكنني تمسكت برأيي، رغم عدم موافقة أي واحد من الآخرين معي أن يلعب الأطفال وسط مدافن مملوءة بالجثث، أسوأ كثيراً من أن يتأقلموا مع قدر محدد من الرائحة البشرية الحية.

٤ مارس / آذار

في ولينغتون، انتشر الزعفران في كل مكان وتبرعم القليل من زهر المنثور، وبدت هرة اللبن الثلجية في أحسن حلاتها. زوج من الأرانب البرية يجلسان في القمح الشتوي ويحملقان ببعضهما. بين الحين والآخر، تخرج، في هذه الحرب وعلى فواصل شهرية، أنفك فوق الماء لبضع لحظات، وتلاحظ أن الأرض مازالت تدور حول الشمس.

١٤ مارس/ آذار

في الأيام القليلة الأخيرة، كانت هناك إشاعات وتلميحات أيضاً في الصحف عن أن "شيئاً ما سوف يحدث" في البلقان، أي أننا سوف نرسل قوة وحملة إلى اليونان. إن كان الأمر كذلك، فيجب أن يكون الجيش أو أغلبه في ليبيا الآن. سمعت قبل شهر أن ميتاكساس، قبل أن يموت، طلب منا عشر فرق وقدمنا له أربع. يبدو شيئاً خطيراً جداً أن تخاطر بجيش في أي مكان غرب المضائق. لكي تحصل على أي أفكار قيمة عن استراتيجية هذه الحملة، عليك أن تعرف كم عدد الرجال الذين يستغني عنهم وافل، وكم العدد الذي يجب إبقاءه في ليبيا، وكيف وضع الشحن، وكيف شبكة المواصلات من بلغاريا إلى داخل اليونان، وكم عدد الآليات الممكنة التي نجح الألمان في جلبها عبر أوروبا، ومن يسيطر بشكل فعال على البحر بين صقلية وطرابلس. ستكون كارثة مخيفة إذا نجح الألمان في عبور البحر من صقلية، واستعادوا كل ما خسره الإيطاليون، بينما تغوص قوتنا الرئيسية في مستنقع سالونيكا. كل واحد يعتقد أن المسألة تنجح في كلتا الطريقتين. أن تضع جيشاً في اليونان، هي مخاطرة هائلة لا تقدم كسباً إيجابياً كثيراً، إلا إذا تورطت تركيا، فعندها تستطيع سفننا الحربية دخول البحر الأسود. ومن جانب آخر إن خذلتنا اليونان، نكون قد برهنا مرة وإلى الأبد للجميع أننا لا نستطيع أن نساعد أية أمة أوروبية في الحفاظ على إستقلالها. الشيء الذي أخشاه أكثر من غيره،

هو تدخل ضعيف وفشل فاضح كما في النرويج. أنا أؤيد وضع كل بيضنا في سلة واحدة، ونجازف بهزيمة كبرى، لأنني لا أظن أن أي هزيمة أو نصر بالمعنى العسكري الضيق، يهم بقدر الإثبات بأننا إلى جانب الضعيف ضد القوي.

المشكلة أنه أصبح من الصعب جداً أن نفهم ردود أفعال الأوروبيين كما هي، كما أنهم يبدون الآن عاجزين عن فهمنا. الألمان الذين تكلمت معهم، انزعجوا من خطئنا الفادح في بداية الحرب، لأننا لم نقصف برلين فوراً، واكتفينا بمجرد بعشرة وريقات وكراريس سخيفة. مع ذلك أنا أعتقد أن كل الناس الإنكليز كانوا مبتهجين بهذه الإيماءة (نحن كنا سنظل هكذا، حتى لو عرفنا في ذلك الوقت أن الوريقات والكراريس عبارة عن هراء) لأننا رأيناها كبرهان على أن قتالنا ليس مع الناس العاديين البسطاء في ألمانيا. من جانب آخر، يعلن هافنر، في كتابه الذي نشرناه للتو (هافنر: صحفي ومنفي ألماني معادٍ لهتلر) إنها حماقة من جانبنا أن ندع الايرلنديين يحتفظون بقواعد هامة وحيوية، وأننا يجب أن نأخذ هذه القواعد فوراً. يقول إن مشهد سماحنا لبلاد مستقلة بشكل زائف مثل ايرلندا أن تتحدانا، يجعل كل أوروبا تضحك علينا. هذه هي النظرة الأوروبية مع عدم فهمها للشعوب الناطقة بالإنكليزية. في الواقع، إن أخذنا القواعد الايرلندية بالقوة من دون مسار طويل من الدعاية مسبقاً، فسيكون أثر هذا على الرأي العام كارثياً، ليس في الولايات المتحدة فقط، وإنما في إنكلترا أيضاً.

أنا لا أحب نغمة الكلام الرسمي عن إثيوبيا، فهم يدمدمون عن تعيين "مقيم" بريطاني كما في محاكم الراجاوات الهنود حين يعاد الإمبراطور إلى العرش. يمكن أن يكون الأثر مرعباً حتى إن سمحنا ظاهرياً بقول إننا نسرق إثيوبيا لأنفسنا. إن طُرد الإيطاليون، فستكون لدينا الفرصة أن نقوم بأضخم إيماءة تظهر فوق كل حجة، أننا لا نقاتل من أجل يدنا. وسيتردد صدى هذا في كل أنحاء العالم، لكن هل لديهم الشجاعة أو الحشمة لفعلها؟ لا يستطيع المرء التأكد من ذلك. يستطيع المرء التنبؤ بالحجج المزيفة التي تمهد لاغتصاب إثيوبيا لأنفسنا والهراء حول العبودية إلخ إلخ.

أسقط عدد كبير من الطائرات الألمانية في الليالي القليلة الماضية، ربما لأنها كانت ليالي صحو ومفضلة للمقاتلات، لكن هناك إثارة كبيرة حول "سلاح سري ما" قيل إنه قيد الاستخدام. الإشاعة الشعبية حول وجود شبكة مصنوعة من الأسلاك، تطلق في الجو وتعلق فيها الطائرات.

٢٠ مارس/ آذار

غارات قوية ليلة أمس، ولم تسقط سوى طائرة واحدة. لا شك أن الإشاعات عن "سلاح سري" كلها هراء.

الكثير من القنابل في غرينتش؛ إحداها بينما كنت أتحدث إلى (إيلين) على الهاتف، حدث توقف مفاجئ في المحادثة وصوت رنين.

فسألت: ما هذا؟ أجابت إيلين: لقد تحطمت النوافذ فقط.

سقطت القنبلة في الحديقة المقابلة للبيت، فقطعت سلك المنطاد المضاد للطائرات المعادية، الذي يطير على ارتفاع منخفض، وجرحت أحد رجال المنطاد، وواحداً من الحرس الوطني. اشتعلت النيران في كنيسة غرينتش، ومازال الناس يلتجئون في السرداب والنار تحترق فوقهم، والماء يتدفق في الأسفل، ولم يقوموا بأية حركة للخروج، إلى أن أجبرهم الحراس على ذلك.

قنصل ألماني في طنجة (أول مرة منذ ١٩١٤). يبدو أننا سنسمح بطعام أكثر إلى داخل فرنسا احتراماً للرأي الأمريكي. حتى لو أنشئت لجنة محايدة لمراقبة هذا، فلن تكون مفيدة للفرنسيين. سيسمح الألمان لهم بالاحتفاظ بهذا القمح إلخ، بما أننا نرسله ونمنع كمية مماثلة في مكان آخر. حتى حين نكون مستعدين للسماح بدخول السفن الغذائية، لا توجد أي علامة عن انتزاع الحكومة لأي شيء بالمقابل -كطرد العملاء الألمان من شمال أفريقيا مثلاً. إن المسار المناسب أن ننتظر حتى تكون فرنسا على حافة المجاعة، وتتأرجح حكومة بيتان نتيجة ذلك، عندها نستغني عن إمداد كبير حقاً من الطعام، مقابل بعض التنازلات الجوهرية كاستسلام وحدات مهمة من الأسطول الفرنسي مثلاً. أية سياسة كهذه غير واردة إطلاقاً للحكومة في الوقت الحالي طبعاً. لو استطاع المرء أن يتأكد أن ----، ----- وكل نوعهم خونة فعلاً أو مجرد حمقى.

عند العودة والنظر إلى هذه المفكرة، أرى مؤخراً أنني كتبت فيها على فواصل أطول بكثير وأقل بكثير عن الأحداث العامة، مما فعلت حين بدأت بكتابتها. إن الشعور بالعجز يتزايد في كل واحد منا. يشعر أحدنا أن تأرجح الرأي الضروري، لا يستطيع أن يحدث الآن إلا بثمن كارثة أخرى، نحن لا نستطيع تحملها. ولذلك لا يجرؤ المرء على تمنيها. الأسوأ هو أن الأزمة القادمة الآن، ستكون أزمة جوع، لا يملك الشعب الإنكليزي تجربة حقيقية منها. قريباً جداً سوف تكون المسألة: هل سنستورد السلاح أم الطعام. النعمة أن الفترة الأسوأ سوف تأتي في

أشهر الصيف، وستكون هناك صعوبة شيطانية بأن تجعل الناس يواجهون الجوع، في الوقت الذي لا يرون فيه وجود أي هدف أياً كان من الحرب، وحين يستمر الأغنياء في العيش كما كانوا من قبل تماماً، وكما سيكونون طبعاً إذا لم يتم التعامل معهم بالقوة. لا يهم عدم امتلاك أهداف حربية، حين تكون قضية ضد غزو، لأنه من وجهة نظر الناس العاديين فإن إبعاد الأجانب عن إنكلترا وطردهم هو هدف حربي كافٍ. لكن كيف نستطيع أن نطلب منهم أن يجوعوا أطفالهم لكي نصنع دبابات لنقاتل في أفريقيا، في حين كل ما أخبروهم به في الوقت الحاضر، لا يوجد فيه شيء يوضح أن القتال في أفريقيا أو أوروبا له أية علاقة بالدفاع عن لندن؟

على جدار في ساوث لندن، كتب شيوعي أو واحد من أصحاب القمصان السود على الجدار "الجبن وليس تشرشل". يا له من شعار سخيف. إنه يلخص جهلاً نفسياً لهؤلاء الناس، الذين حتى الآن لم يفهموا أن بعض الناس سيموتون من أجل تشرشل، ولن يموت أحد من أجل الجبن.

٢٣ مارس/ آذار

حضرت أمس استعراضاً إجبارياً تقريباً للحرس الوطني، شارك فيه في اليوم الوطني للابتهال. كان هناك ممثلون عن خدمة الحرائق الإضافية، وطلاب القوة الجوية، والقوة الجوية النسائية الإضافية إلخ إلخ. ارتعبت من الوطنية المفرطة والشعور بأنك أقوم من الآخرين...... أنا لم أنصدم بشجب الكنيسة للحرب، لأنني لاحظت أشخاصاً كثيرين اعترفوا أنهم كذلك، وكانوا تقريباً دائماً ناس غير متدينين أنفسهم. إن قبلت بالحكومة، فأنت تقبل بالحرب، وإن قبلت بالحرب، ففي أغلب الحالات يجب أنك تفضل فوز طرف على آخر. أنا لا أستطيع أبداً أن أطور أي اشمئزاز من مطارنة يباركون ألوان الأفواج إلخ، فكل ذلك النوع من الشيء مؤسس على فكرة عاطفية، جوهرها أن القتال يتضارب مع حبك لأعدائك. وعملياً لا تستطيع أن تحب أعداءك إن كنت مستعداً إلى قتلهم في ظروف معينة. لكن المقرف حول خدمات مثل هذه، هو غياب أي نوع من النقد الذاتي.

من الواضح أن المتوقع من الرب أن ينجدنا على أساس أننا أفضل من الألمان. في الصلاة المؤلفة من أجل المناسبة يُسأل الرب "أن يقلب قلوب أعدائنا ويساعدنا أن نسامحهم ويعطيهم توبة عن أخطائهم ويمنحهم استعداداً للاعتذار"، ولا شيء عن أن يسامحنا أعداؤنا. يبدو لي

أن الموقف المسيحي سيكون أننا لسنا أفضل من أعدائنا -نحن كلنا خطاؤون بؤساء، لكن كما يحدث، فمن الأفضل أن تسود قضيتنا، ولذلك من المشروع أن نصلي من أجل هذا.........
أعتقد أن الفكرة التي تكون سيئة للمعنويات، هي أن ندع الناس يدركون أن العدو لديه حجة، حتى لو كان ذلك خطأً نفسياً في رأيي. لكن ربما هم لا يفكرون في الأصل بالتأثير على الناس المشاركين في الصلاة، وإنما يبحثون فقط عن نتائج مباشرة من حملة صلاتهم الشاملة، كنوع من صندوق نيران يطلق على ملائكتهم.

٢٤ مارس/ آذار

التقارير عن طردات ألمانية ضخمة في الأطلسي، لها هيئة الإشاعات الزائفة، والهدف منها أن تسحب السفن البريطانية الكبيرة والقوية بعيداً. ويمكن تصور هذا على أنه مقدمة للغزو. خفت توقع الغزو كثيراً، لأن الناس شعروا أن هتلر لا يستطيع الآن إلحاق الهزيمة بإنكلترا بأي قوة يستطيع أن يجلبها إلى هنا، إذا لم تُنهك القوة البريطانية البحرية والجوية كثيراً مسبقاً. أعتقد أن الأمر كذلك، وأن هتلر لن يحاول شن الغزو حتى يكون لديه نجاح دراماتيكي في مكان آخر، لأن الغزو بحد ذاته سيبدو فشلاً، وسيحتاج إلى شيء ما ليعادله. لكنني أعتقد أن غزواً فاشلاً يعني خسارة ١٠٠ ألف أو حتى ٥٠٠ ألف رجل ربما يفي بغرضه، بسبب الشلل التام للصناعة ولمورد الغذاء الداخلي الذي يسببه. إذا أمكن إنزال بضع مئات الآلاف من الرجال على البر الإنكليزي وصمدوا لثلاثة أسابيع، فسوف يسببون ضرراً أكبر بآلاف المرات مما تستطيع الغارات الجوية فعله. لكن آثار هذا لن تكون ظاهرة فوراً. ولذلك فإن هتلر لن يجربه إلا حين تكون الأشياء جيدة بشكل ظاهر له ولصالحه. من الواضح أن هناك نقصاً خطيراً جداً في معدات الحرس الوطني والأسلحة..... ومن جانب آخر قيل إن الأسلحة التي اغتنمت في أفريقيا ضخمة جداً، لذلك أرسلوا خبراء لجردها، وستصنع الرسومات، وتصنع أسلحة بهذه المواصفات، وستكون الأسلحة المغتنمة كافية، مثل النواة لصنف كامل من التسليح.

٧ أبريل/ نيسان

قصفت بلغراد يوم أمس، وأول بيان رسمي هذا الصباح يقول إن هناك جيشاً بريطانياً في اليونان قوامه ١٥٠ ألف رجل، هكذا يقولون. لهذا توضح السر أين ذهب الجيش البريطاني الذي كان في ليبيا وحُل أخيراً، رغم أن هذا كان واضحاً تماماً حين تراجع البريطانيون من

بنغازي. مستحيل القول الآن إن كانت معاهدة الصداقة بين يوغسلافيا والاتحاد السوفيتي، تعني أي شيء أو لا تعني شيئاً، لكن من الصعب التصديق أنها لن تشير إلى تردي العلاقات الروسية الألمانية. يحصل المرء على إشارة أخرى من الموقف الروسي، في حال رجع الإمبراطور الإثيوبي واستعاد حكمه، أي أن كانت الحكومة الروسية ستعترف به وترسل سفيراً إلى بلاطه.

نقص في العمالة واضح أكثر فأكثر، وأسعار مثل هذه الأشياء كالمنسوجات والأثاث ترتفع إلى مستوى مخيف... صناعة الأثاث المستعمل تزدهر الآن بعد سنين من الكساد....... واضح أن التعبئة العسكرية تستخدم الآن كطريقة لإسكات الأشخاص غير المرغوبين. عمر الاحتياط للصحفيين ارتفع إلى ٤١ - هذا لن يجلب لهم أكثر من بضع مئات من الرجال، لكنه يمكن أن يستخدم ضد أفراد لا يرغبون بذلك. سيكون من الهزلي أنني بعد أن أرفض من الجيش لأسباب صحية قبل عشرة شهور، أكتشف فجأة أن صحتي تحسنت إلى الحد الذي أكون فيه لائقاً لأكون مجنداً في البايونير (الرواد).

أفكر دائماً بجيشنا في اليونان والخطر الشديد الذي يمر به بعد أن طرد إلى البحر. يستطيع المرء تخيل كيف يعصر الاستراتيجيون من أنموذج ليدل هارت (كابتن بي إتش لندل هارت، خبير عسكري ألّف أعمالاً ضخمة عن الحرب) أيديهم فوق الحركة الطائشة، لكنها صحيحة سياسياً إن تطلع المرء إلى سنتين أو ثلاث إلى الأمام. وأفضل ما يستطيع المرء قوله وحتى بالمعنى الاستراتيجي الضيق، يجب أن يتوفر هناك بعض الأمل في النجاح، أو سيرفض الجنرالات المعنيون تولي المهمة. من الصعب ألا تشعر بأن هتلر لم يسئ توقيت ضربته بحدود شهر. ضاعت إثيوبيا، ومن الصعب أن تكون كارثة إيطاليا البحرية مقصودة، وأيضاً الحرب في البلقان التي دامت سبعة أشهر لها آثار يجب أن تكون خطيرة على مخزون ألمانيا من الطعام في فصل الخريف.

٨ أبريل/ نيسان

قرأت للتو **معركة بريطانيا**، وهو الكتاب الأكثر رواجاً لوزارة الإعلام (يوجد طلب كبير جداً عليه، وكان الحصول على نسخ صعب المنال لعدة أيام). قيل إن كاتب الروايات المثيرة فرنسيس بيدينغ هو من جمعه وصنفه. أعتقد أنه ليس سيئاً، لكن نظراً لأنه ترجم إلى لغات كثيرة، فسوف يقرأ بلا شك في كل العالم -إنه أول رواية رسمية في اللغة الإنكليزية عن

أول معركة جوية كبيرة جداً في التاريخ- المحزن أنهم لم يمتلكوا إحساس تجنب النغمة الدعائية تماماً. فالكراس يغص بالمآثر المجيدة "البطولية" إلخ وتكلم عن الألمان باستخفاف تقريباً. لماذا لا يستطيعون تقديم رواية دقيقة رزينة للوقائع وهي المفضلة تماماً أخيراً؟ من أجل القليل من الابتهاج الذي أنجزته هذه الكراسة في إنكلترا، أضاعوا فرصة إنتاج شيء يكون مقبولاً في كل أنحاء العالم، كمستند ومرجع قياسي يستخدم للرد على الأكاذيب الألمانية.

لكن الذي انطبع في ذهني بشكل رئيسي حين قرأت **معركة بريطانيا** وبحثت عن التواريخ المطابقة في هذا المفكرة، هو الطريقة التي ذكرت فيها أحداث "ملحمية" لم تبدُ أبداً هامة جداً في وقتها. في الحقيقة لدي عدد من الذكريات النشطة والقوية في اليوم الذي اخترق فيه الألمان وقصفوا الأحواض والسفن (أعتقد أنه كان في السابع من سبتمبر/ أيلول) لكن أغلبها من أشياء تافهة. أولاً، النزول من الحافة لتناول الشاي مع كونولي، وامرأتان أمامي أصرتا أن انفجارات القذائف في السماء كانت مظلات، حتى إني قررت ألا أتطوع وأصحح الأمر لهما. ثم الالتجاء في مدخل في بيكاديلي من الشظايا المتساقطة مثلما يحتمي المرء من وابل من المطر. ثم صف طويل من الطائرات الألمانية ملأت السماء، وبعض من الضباط الشبان من سلاح الجوي الملكي والبحرية خرجوا يركضون من الفنادق، ويمررون لبعضهم مناظير عسكرية من واحد إلى آخر. ثم الجلوس في بيت كونولي في الطابق العلوي نراقب الحرائق الهائلة بعد كنيسة القديس بول، وذيل الدخان الكبير من برميل نفط في مكان بأسفل النهر، وها هو سلاتر يجلس في النافذة ويقول: "إنها مثل مدريد تماماً - حنين إلى الوطن تماماً". الشخص الوحيد الذي تأثر بالشكل المناسب كان كونولي، الذي أخذنا إلى أعلى السطح، وبعد التحديق في الحرائق لبعض الوقت قال: "إنها نهاية الرأسمالية. إنه يوم الحساب علينا". لم أشعر أنها ستكون بهذا الشكل، لكني دهشت من حجم اللهب وجماله. في تلك الليلة أيقظتني الانفجارات، وخرجت إلى الشارع لأرى إن كانت الحرائق مازالت مشتعلة- في الحقيقة كان الليل ساطعاً كأنه نهار حتى في حي إن دبليو - لكن مازلت لم أشعر بأن هناك حدثاً تاريخياً كان يجري. بعد ذلك، حين هجرت محاولة قهر إنكلترا بالقصف الجوي بشكل واضح، قلت لفايفل (تي آر (توسكو فايفل) كاتب وصحفي ومذيع صديق أورويل) "كانت تلك ترافلغار، أما الآن فهذه أوسترليتز" لكني لم أر هذا التشابه في ذلك الوقت.

النيوز كرونيكل انهزامية جداً مرة أخرى، وأطلقت صيحة كبيرة حول التخلي عن بنغازي، مع تضمين أننا ينبغي أن نذهب إلى طرابلس، لأن التقدم جيداً، بدلاً من سحب القوات لاستخدامها في اليونان. وهؤلاء هم بالضبط الناس الذي سيرفعون أعلى الزعيق لو كنا واصلنا غزو الإمبراطورية الإيطالية، وتركنا اليونانيين في المأزق.

٩ أبريل/ نيسان

الميزانية تغلبت تقريباً على حملة البلقان، وأخرجتها من الأخبار. إن الذي يناقش في كل مكان حسب ما وصل إلى مسمعي، هو الخبر الأول وليس الثاني.

أخبار هذا المساء لها مظهر سيئ جداً. أصدرت اليونان بياناً عن أن الصرب تراجعوا وكشفوا خاصرتهم اليسرى. معنى هذا أن الناس لا يقولون رسمياً أشياء مثل تلك -عملياً، إن البيان يعني أن الصرب خذلوا اليونانيين- إذا لم يشعروا أن الأشياء تتطور بسوء شديد.

الحرس الوطني يملك الآن بنادق رشاشة على الأقل، اثنتان لكل جماعة. يبدو الأمر مختلفاً جداً حين كنا سنسلح ببنادق الرش -لكن لم يكن هناك أي بندقية رش- وكان سؤالي إن كنا نأمل بعض البنادق الرشاشة، يثير الضحك كشيء سخيف ينافي العقل.

١١ أبريل/ نيسان

جاء في تقارير صحف الأمس أن بريطانيا ترتب كي تقرض مليونين ونصف جنيه لإسبانيا -كمكافأة للاستيلاء على طنجة كما أعتقد. هذه علامة سيئة جداً. خلال الحرب كان الوضع الدائم حين نكون في ضيق مفرط بشكل استثنائي، أن نبدأ بتقديم تنازلات لقوى ديكتاتورية ثانوية.

١٢ أبريل/ نيسان

فكرة أن القوات الألمانية في ليبيا أو بعضها وصلت إلى هناك عن طريق سفن فرنسية وأراضٍ أفريقية فرنسية، قُبلت بسهولة من كل واحد اقترحت عليه، لكن لا شك أنه ليس هناك ذكر لأية إمكانية كهذه في الصحافة. ربما هم مازالوا يتلقون تعليمات لإسكات أي انتقاد لفيشي فرنسا.

قبل يومين، رأيت سمك مياه عذبة (بيرتش) للبيع في محل بيع سمك. قبل سنة لم يلمس الشعب الإنكليزي، أي أهل المدن، شيئاً كهذا.

١٣ أبريل/ نيسان

الأخبار في الحقيقة هي حول كل من اليونان أو ليبيا...... في الصحيفتين اللتين تمكنت من الحصول عليهما اليوم السنداي بيكتوريال، كانت انهزامية قائمة والسنداي إكسبريس ليس أقل منها بكثير. عدد الأمس من الإيفنينغ ستاندارد فيه مقال بقلم "مراسلنا العسكري"...... كل هذا يوحي بأن الصحف ربما تتلقى أخباراً سيئة لا يُسمح لها بتمريرها ونشرها.... يعرف الرب أنها فوضى رهيبة. الشيء الوحيد المشجع ربما، هو أن الخبراء العسكريين كلهم مقتنعون أن تدخلنا في اليونان كارثي، والخبراء العسكريون دائماً على خطأ.

حين تثبت الحملة في الشرق الأقصى بشكل أو بآخر ويستقر الوضع بطريقة ما، سوف أتوقف عن كتابة هذه المذكرة. إنها تغطي الفترة بين حملات هتلر الربيعية لعامي ١٩٤٠ و ١٩٤١. في وقت ما ضمن الشهر القادم أو الشهرين القادمين، يجب أن يبدأ طور عسكري وسياسي جديد. الأشهر الستة الأولى من هذه المفكرة، غطت فترة نصف ثورية تلت الكارثة في فرنسا. الآن نحن بوضوح في فترة كارثية أخرى، لكنها من نوع مختلف، ومفهومة أقل من قبل الناس العاديين، وليست بالضرورة تنتج تحسناً سياسياً مرافقاً. عند النظر إلى الجزء المبكر من هذه المفكرة، أرى الآن أن تنبؤاتي السياسية دحضت. ومع ذلك فإن التغيرات الثورية التي توقعتها تحدث الآن، ولكن في حركة بطيئة. أعرف أنني قلت إن الإعلانات الخاصة سوف تختفي من الجدران خلال سنة واحدة. هي لم تفعل طبعاً -ذلك الإعلان القذر عن شراب السعلة وغيره مازالت لاصقة على المكان كله، لكنها الآن أقل بكثير وملصقات الحكومة أكثر بكثير. قال كونولي مرة إن المثقفين يميلون ليكونوا على حق حول توجه الأحداث، ولكنهم يخطئون حول درجة سرعة أدائها، وهذا صحيح تماماً.

سجلت يوم السبت مع المجموعة ٣٨، وكنت مرعوباً حين رأيت أي مجموعة حقيرة المظهر كانت. والشيء الذي يلفت انتباه المرء حين يرى جماعة كهذه اختيرت حسب تاريخ الميلاد، هو السرعة التي يتقدم بها عمر الطبقات العاملة. هم لا يعيشون أقصر أو فقط بضع سنوات أقصر من الطبقة الوسطى، وإنما بكونهم يملكون متوسط عمر هائل يمتد من الثلاثين إلى الستين.

١٤ أبريل/ نيسان

الأخبار اليوم مرعبة. الألمان على الحدود المصرية، وقوة بريطانية في طبرق يبدو أنها عزلت، رغم أن القاهرة أنكرت هذا. الآراء منقسمة حول: إن كان الألمان يملكون حقاً جيشاً ساحقاً في ليبيا، أو أنهم يملكون قوة صغيرة نسبياً فقط، بينما لا نملك نحن أي شيء عملياً، وأن أغلب قواتنا ومركبات القتال ستُسحب إلى جبهات أخرى، بعد أن أخذنا بنغازي. في رأيي، فإن الاحتمال الثاني هو الأرجح، وأيضاً احتمال أن نرسل قوات أوروبية فقط إلى اليونان ونبقي الهنود والزنوج في مصر. (دي) الذي يتكلم عن معرفة بجنوب أفريقيا، يعتقد أنه بعد أن تؤخذ بنغازي، فإن الجيش الذي سينقل لن يكون مناسباً للاستخدام في اليونان مثل استخدامه ليكمل الحملة الإثيوبية. وإن الحافز من أجل هذا، كان سياسياً لإعطاء الجنوب أفريقيين المعادين لنا تقريباً نصراً يبقيهم في مزاج طيب. إذا استطعنا الاحتفاظ بمصر، سيكون الأمر جديراً من أجل تنظيف البحر الأحمر، وفتح ذلك الطريق للسفن الأمريكية. لكن التكملة الضرورية لهذا هي الموانئ الفرنسية في غرب أفريقيا، التي كان بإمكاننا السيطرة عليها منذ سنة تقريباً من دون قتال.

حصلت معاهدة عدم اعتداء بين روسيا واليابان، وكانت شروطها المنشورة غامضة جداً في معظمها. لكن يجب أن يكون هناك كما يفترض عبارة سرية بواسطتها وافقت روسيا على أن تتنازل بلا شك عن الصين بالتدريج ومن دون اعتراف بما يحدث، كما في حالة إسبانيا، وإلا فمن الصعب أن نرى أي معنى للاتفاقية.

لا أخبار حقيقية أياً كانت من اليونان. فقط قصة سخيفة عن دورية مدرعة بريطانية تفاجئ مفرزة من الجنود الألمان، تكررت إلى الآن على مدى ثلاثة أيام متوالية.

١٥ أبريل/ نيسان

ليلة أمس ذهبت إلى الحانة لأستمع إلى أخبار الساعة التاسعة، ولكني وصلت إلى هناك متأخراً بضع دقائق، فسألت صاحبة الحانة ماذا كان في الأخبار. "أوه، نحن لا نشغل الراديو أبداً. لا أحد يصغي إليها كما ترى. وهم لديهم البيانو يعزف في الحانة الأخرى، ولا يطفئونه من أجل الأخبار" هذا في لحظة يوجد فيها أقوى تهديد مميت لقناة السويس، قارن ذلك بأسوأ لحظة في حملة دونكيرك حين كانت النادلة لا تشغل الراديو على الأخبار إلا حين أطلب منها ذلك..... قارن أيضاً الزمن في

عام ١٩٣٦ حين احتل الألمان الراينلاند مرة أخرى. كنت في بارنزلي في ذلك الوقت. دخلت إلى حانة بعد أن انتهت نشرة الأخبار مباشرة وعلقت جزافاً: "لقد عبر الجيش الألماني الراين". في جو غامض تذكرت شيئاً، فقد تمتم أحد ما "هل تتكلم"، ولا إجابة أكثر من تلك... وهكذا أيضاً في كل لحظة من الأزمة من عام ١٩٣١ فصاعداً. يصبح لديك كل الوقت إحساس الرفس ضد جدار من الغباء لا يُخترق. لكن طبعاً غباؤهم أوقفهم في مكان جيد. لو كانت أية أمة أوروبية في وضع مثل وضعنا، لصرخت عالياً من أجل السلام منذ وقت طويل.

١٧ أبريل/ نيسان

غارة قوية جداً ليلة أمس، ربما هي الأقوى منذ أشهر كثيرة بالنسبة إلى لندن..... قنبلة في أرض ملعب اللورد للكريكت. تلاميذ يتمرنون في الشباك كالمعتاد هذا الصباح على بعد بضع ياردات من حفرة القنبلة، وقنبلة أخرى في فناء كنيسة القديس جون وود. هذه القنبلة لم تسقط لحسن الحظ وسط القبور، الشيء الذي كنت أخشى من حدوثه....... مررت هذا الصباح بشارع جانبي في هامستيد، فرأيت بيتاً واحداً حولته قنبلة إلى كوم من النفاية-- منظر معتاد جداً لدرجة أنه قلما يلاحظه المرء. ضرب نطاق حول الشارع، وبدأت فرق الحفر بالعمل، ورتل من سيارات الإسعاف ينتظر. تحت تلك الكومة الضخمة من القرميد، كانت هناك أجساد مشوهة، وبعضها ربما حي.

ظلت المدافع تطلق نيرانها طوال الليل تقريباً..... اليوم لا أستطيع أن أجد أحداً يعترف بأنه نام ليلة أمس. و(إيلين) تقول الشيء نفسه. الصيغة هي: "أنا لم أغمض عيني لحظة واحدة". أعتقد أن هذا كله هراء. بالتأكيد، إنه من الصعب أن تنام في هكذا جلبة، لكن إيلين وأنا نمنا نصف الليلة كما يجب.

٢٢ أبريل/ نيسان

ذهبت إلى ولنغتون لمدة يومين أو ثلاثة. غارات ليلة السبت يمكن أن تسمع بسهولة هناك -على بعد ٤٥ ميلاً.

حين كنت في ولنغتون زرعت ٤٠ أو ٥٠ رطلاً من البطاطا التي قد تعطي ٢٠٠ إلى ٦٠٠ رطل، حسب الموسم. سيكون من الغريب -أتمنى ألا يكون هكذا، لكنه على الأرجح

سيكون- حين يأتي هذا الخريف، ستكون هذه البطاطا إنجازاً أهم من كل المقالات والنشرات الإذاعية إلخ، وأي شيء عملته هذه السنة.

الخط الإغريقي البريطاني يبدو أنه انتقل جنوباً وارتكز على جانبنا إلى موقع شمال أثينا غير بعيد. إذا كانت تقارير الصحف صحيحة، فقد عبروا سهل ثيسالي من دون ضرر كبير. الشيء الذي يزعج كل واحد والذي سيثير عاصفة في أستراليا، هو نقص الأخبار الحقيقية. قال تشرشل في خطابه إن الحكومة تواجه صعوبة في الحصول على أخبار من اليونان. الشيء الذي يزعج أكثر، هو التصريح المتكرر بأننا ألحقنا خسائر هائلة بالأرواح بالألمان الذين يتقدمون في تشكيل مغلق ويقتلون في عصب إلخ إلخ.

مثل الذي قيل أثناء معركة فرنسا........ هجوم على جبل طارق أو في كل الأحوال حركة معاكسة في إسبانيا، ومن الواضح أنها مؤقتة، ستحدث قريباً. أصبحت خطابات تشرشل تبدو مثل خطابات تشامبرلاين --- تتملص من الأسئلة إلخ إلخ.

دخلت قوات بريطانية العراق منذ أيام. لا أخبار بعد أن كانوا يقومون بالعمل الصحيح والمناسب، أي مسح العملاء الألمان إلخ. الناس على جميع الأطراف يقولون "الموصل لن تكون مفيدة لهتلر حتى لو وصل إلى هناك. البريطانيون سينسفون الآبار قبل ذلك". وأنا أتساءل: هل سيفعلون؟ هل نسفوا آبار رومانيا حين توفرت الفرصة؟ الشيء المثير للكآبة في هذه الحرب، ليست الكوارث التي نحن مجبرين أن نعاني منها في هذه المرحلة، وإنما المعرفة بأن من يقودوننا هم أشخاص ضعاف العقول والشخصية..... أمر مثل حين تعتمد حياتك على لعبة شطرنج، وعليك أن تجلس وتراقبها، لترى أغبى النقلات وأشدها حماقة تلعب، وأنت عاجز عن منعها.

٢٣ أبريل/ نيسان

يبدو أن الإغريق يحزمون الأمتعة. من الواضح أنه سيكون هناك جحيم سندفعه في أستراليا، طالما هو يؤدي إلى مجرد استجواب في الحملة الإغريقية وشجار عام سيحدد فيه موقع أستراليا في الإمبراطورية، وربما إدارة الحرب تتدقرط بطريقة ما؛ فهذا كله نحو الأفضل.

٢٤ أبريل/ نيسان

لا أخبار واضحة ومحددة من اليونان. كل واحد يعرف أن جيشاً يونانياً أو جزءاً من جيش يوناني أو ربما كل الجيش اليوناني، قد استسلم. ليس هناك إشارة عن عدد الرجال الذين لنا هناك، وأي نوع من الوضع تركوا فيه، وإن كان من الممكن الصمود، وإن كان كذلك فأين إلخ إلخ. التلميحات المرمية في الديلي إكسبريس توحي بأننا عملياً لا نملك أية طائرة هناك. شروط هدنة رسمها الإيطاليون تهدف بوضوح إلى استعمال أسرى الحرب اليونانيين كرهائن لاحقاً، مع النظر إلى ابتزاز البريطانيين لتسليم كريت وجزر أخرى.

لا إشارة عن الموقف الروسي. الألمان الآن قريبون جداً من الدردنيل، ومن الواضح أن الهجوم على تركيا وشيك. الروس عندئذ يجب أن يقرروا بوضوح إن كانوا سيتخذون أي موقف ضد ألمانيا ويضغطون على تركيا كي لا تقاوم، أو ربما يحصلون على إيران ثمناً لهذا، أو يجلسون ساكنين ويراقبون كل الشاطئ الجنوبي لبحر البلطيق وقد أصبح في أيدي الألمان. في رأيي، هم سيفعلون الاحتمال الثاني أو الاحتمال الثالث، وفي كلا الحالتين سيقومون بعربدة عامة بالتقوى والتفوق.

٢٥ أبريل/ نيسان

سي من قطاعي في الحرس الوطني، وهو بائع دجاج بالمهنة، لكنه في الوقت الحاضر يتعامل بكل أنواع اللحم، وقد اشترى أمس عشرين حماراً وحشياً باعتها حديقة الحيوان. لحم الكلب فقط ليس للاستهلاك البشري على ما يفترض. يبدو هذا لي مضيعة... قيل إن هناك ٢٠٠٠ حصان سباق في إنكلترا، كل واحد منها يأكل ١٠-١٥ رطلاً من القمح يومياً، أي أن هذه البهائم تلتهم كل يوم ما يعادل حصة من الخبز لفرقة من الجنود.

٢٨ أبريل/ نيسان

خطاب تشرشل ليلة أمس جيد جداً كخطاب، لكن من المستحيل أن تنقب عن أية معلومة فيه. الحقيقة الوحيدة الملموسة التي استطعت استخراجها، هي أنه في وقت هجومه على ليبيا، لم يستطع وافل أن يحشد أكثر من فرقتين لنقل ٣٠٠٠٠ رجل. سمعت الخطاب في معسكر الحرس الوطني. الرجال تأثروا به وفي الحقيقة حركهم. لكني أعتقد أن اثنين فقط من الذين

كانوا هناك، دخلهم أدنى من مستوى خمس جنيهات أسبوعياً. إن خطابة تشرشل جيدة فعلاً بطريقة قديمة الطراز، لكني لا أحب طريقة إلقائه. المحزن هو أنه إما لا يستطيع أو لا يريد أو ليس مسموحاً له أن يقول أي شيء محدد وواضح!

٢ مايو/ أيار

أتى رجل من........ صباح الأمس، ليفصّل غطاء لكرسينا ذي الذراعين. أنموذج تاجر القماش المعتاد صغير وأنيق مع شيء أنثوي حوله، وأعشاش من الدبابيس فوق الشخص كله. أخبرني أن هذه هي المهمة المنزلية الوحيدة التي قام بها اليوم. فهو كل الوقت تقريباً يقص أغطية للمدافع التي يبدو أنها تصنع بنفس طريقة أغطية الكراسي........ وقال إن أهالي........ يعتمدون كثيراً على هذا.

٣ مايو/ أيار

عدد الذين تم إجلاؤهم من اليونان من ٤١٠٠٠ إلى ٤٣٠٠٠، لكن تبين أن لنا رجالاً أقل هناك مما كان متصوراً، أي ربما حوالي ٥٥٠٠٠. يتوقع أن الخسائر بالأرواح ٣٠٠٠ والأسرى ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ وهذه تنسجم مع الأرقام الألمانية. قيل إن ٨٠٠٠ عربة فُقدت، عربات من كل الأنواع كما أظن. لم تذكر خسارة أية سفينة، لكن يفترض خسارة البعض. سبيندر، وهو واحد من الوزراء الأستراليين، أوضح علناً أن البنادق بلا فائدة ضد الدبابات مثل الأقواس والأسهم.

تلك خطوة إلى الأمام بأي حال. ظاهرياً، يوجد ما يرقى إلى الحرب في العراق، وفي أفضل الأحوال هذه مصيبة..... في كل الاحتمالات لن نتعامل بشكل مناسب مع ما يسمى بالجيش العراقي، الذي بلا شك يمكن قصفه وتمزيقه في بضع ساعات. إما أن نوقع اتفاقاً من نوع ما نتنازل فيه عن كل شيء ونترك المسرح لنفس الشيء ليحدث مرة أخرى، أو أن نسمع بأن الحكومة العراقية سيطرت على آبار النفط. لكن هذا لا يهم بما أنهم وافقوا على أن يعطونا كل التسهيلات الضرورية إلخ إلخ. ثم تسمع بعد ذلك في الحال أن الخبراء الألمان نجحوا في الوصول بالطائرة أو عبر تركيا، أو أننا نقف موقف الدفاع ولا نفعل شيئاً إلى أن ينجح الألمان في نقل جيش بالجو، حينها سنقاتل ونحن في وضع خاسر. كلما تتأمل سياسة الحكومة البريطانية، وهذا كان صحيحاً ومستمراً على الدوام منذ عام ١٩٣١، يكون لديك نفس

الشعور الذي تحسه حين تضغط على دواسة البنزين في سيارة لا تعمل فيها سوى أسطوانة واحدة، وهو شعور بالضعف المميت. المرء لا يعرف مقدماً بالضبط ماذا ستفعل، لكنه يعرف بكل الأحوال هل تستطيع أن تنجح أو تتصرف قبل فوات الأوان....... الغريب في الأمر، هي الثقة النسبية التي يشعر بها المرء حين تكون مسألة قتال فقط، والعجز حين تكون مسألة استراتيجية أو دبلوماسية. يعرف المرء مقدماً أن استراتيجية الحكومة البريطانية المحافظة يجب أن تفشل، لأن الإرادة لإنجاحها ليست هناك. وساوسها حول مهاجمة الحياديين -إنه الاختلاف الاستراتيجي الرئيسي بيننا وبين ألمانيا في الحرب الحالية- مجرد علامة من رغبة لاشعورية في الفشل. لا يكون لدى الناس وساوس حين يقاتلون من أجل قضية يؤمنون بها.

٦ مايو/ أيار

عرض الأتراك التوسط في العراق، وهذا ربما علامة سيئة. هناك تعبئة في إيران. الحكومة الأمريكية أوقفت شحنات مواد الحرب إلى الاتحاد السوفييتي، وهذا شيء جيد بحد ذاته، لكنه على الأرجح علامة سيئة أخرى.

مناظر مذهلة في محطات المترو حين يذهب عبرها المرء في وقت متأخر من الليل. اللافت جداً هو الجو المنزلي العادي النظيف الذي تجده عند الكل، وخصوصاً عند الأزواج المتزوجين حديثاً، والنوع البسيط الحريص من نماذج الذين يشترون بيوتهم من جمعية سكنية، والذين اندسوا معاً تحت لحف وردية. وعائلات كبيرة يراها المرء هنا وهناك، أب وأم وعدد من الأولاد كلهم رصفوا في صف مثل أرانب على بلاطة. كلهم يبدون نائمين بسلام تحت ضوء مصباح ساطع. الأولاد يستلقون على ظهورهم مع خدود وردية صغيرة مثل دمى من الشمع، ويغطون في النوم.

١١ مايو/ أيار

الخبر الأهم في الأيام القليلة الأخيرة الذي وضع بعيداً على صفحة خلفية من الصحف، كان إعلان الروس أنهم لم يعودوا يستطيعون الاعتراف بحكومتي النرويج وبلجيكا، وكذلك الأمر مع يوغسلافيا حسب ما جاء عن صحف الأمس. هذه هي أول حركة دبلوماسية منذ أن نصب ستالين نفسه رئيساً، وترقى إلى إعلان أن روسيا سوف تقبل بإذعان بأي عمل

عدواني أياً كان. يفترض أنه صدر تحت ضغط ألماني، وأتى مع إزالة مولوتوف، ويجب أنه يشير إلى توجه معين للسياسة الروسية ووقوفها إلى جانب الألمان. وهذا يحتاج إلى سلطة ستالين لفرضه. لن يمر وقت طويل حتى يقوموا بتحرك عدائي ضد تركيا أو إيران أو كليهما.

غارات ثقيلة جداً ليلة أمس. قنبلة سببت أضراراً خفيفة لهذا البناء، أول مرة يحدث هذا لبيت كنت أنا في داخله. حوالي الساعة الثانية صباحاً، في وسط إطلاق نار المدافع المعتاد والقنابل البعيدة، دوّى صوت انفجار مدمر أيقظنا من النوم، لكنه لم يكسر النوافذ أو يهز الغرف بشكل ملحوظ. نهضت إيلين وذهبت إلى النافذة؛ حيث سمعت أحداً ما يصيح أن هذا البيت هو الذي ضرب. بعد ذلك بقليل خرجنا إلى الممرات، ووجدنا دخاناً كثيفاً ورائحة احتراق مطاط. صعدنا إلى السطح، ورأينا نيراناً في أغلب نقاط المحيط وواحدة إضافية إلى الغرب على بعد أميال مع لهب ضخم يتراقص، لكننا قررنا أخيراً أن كتلة البيوت التي ضربت لم تكن هذه. في هذا الوقت كان الدخان كثيفاً، مما جعل الرؤية صعبة في الممر. على الفور سمعنا "نعم! نعم! مازال هناك أحد في رقم ١١١!" والحراس يصيحون بنا أن نخرج. وقعت أيدينا على بعض الثياب، والتقطنا بضعة أشياء وخرجنا في هذه المرة، وتخيلنا أن البيت يمكن أن يحترق جدياً ومن المستحيل أن يرجع إلى سابق عهده. في هكذا أوقات يأخذ المرء ما يشعر أنه مهم. ولاحظت فيما بعد أن ما أخذته لم يكن الآلة الكاتبة أو أية وثيقة، وإنما سلاحي الناري وجراب يحتوي طعاماً كنا نبقيه دائماً جاهزاً. فعلياً، فإن كل ما حدث كان أن القنبلة أشعلت حريقاً في المرآب، فأحرقت السيارات التي كانت فيه. دخلنا إلى بيت (دي) الذي قدم لنا الشاي، وأكلنا لوحاً من الشوكولا كنا ندخره منذ شهور. لاحقاً، لاحظتُ أن وجه إيلين تلوث بلون أسود وقالت "كيف يكون شكل وجهك برأيك؟" نظرت في المرآة، ورأيت وجهي أسود تماماً. لم يخطر لي عندئذ أنه سيكون هكذا.

ليس لدي نظرية عن سبب وصول هيس (رودولف هيس نازي ألماني، وهو الثاني بعد غورينغ كخليفة لهتلر. طار إلى اسكتلندا حاملاً مقترحات سلام إلى دوق هاملتون). إنه أمر غريب تماماً. الشيء الوحيد الذي أعرفه، هو إن كانت هناك إمكانية لخسارة هذه الفرصة الدعائية، فستجدها الحكومة البريطانية.

١٨ مايو/ أيار

العراق وسوريا والمغرب وإسبانيا ودارلان وستالين وراستشيلج علي وفرانكو -أحس بالعجز المطلق. إن كان هناك شيء خطأ، فسيتم فعله بشكل معصوم عن الخطأ. أصبح المرء يؤمن بذلك، كما لو كان قانوناً طبيعياً.

يوم أمس أو في اليوم الذي قبله أعلنت الصحف: "النازيون يستخدمون القواعد الجوية السورية". حين أعلنت هذه الحقيقة في البرلمان، كانت هناك صيحات "يا للعار!". الظاهر أن هناك أشخاصاً قادرين على أن يُفاجؤوا حين تنقض شروط الهدنة ويستفيد النازيون من الإمبراطورية الفرنسية. ومع ذلك، فإن أي غريب مثلي يستطيع أن يرى في اليوم الذي خرجت فيه فرنسا من هذه الحرب، أن هذا سيحدث.

من الواضح أن كل فرص كسب الحرب ضاعت بطريقة محترمة. خطة تشرشل وشركائه هي أن يستغنوا عن كل شيء، ثم يستعيدون الأشياء كلها بالطائرات الأمريكية وبأنهار من الدم. طبعاً هم لن ينجحوا، وكل العالم سوف ينقلب ضدهم بما فيهم أمريكا ربما. خلال سنتين، إما سنُقهر ونُهزم، أو نكون جمهورية اشتراكية تقاتل من أجل حياتها مع قوة بوليسية سرية، ونصف السكان جوعى. الطبقة الحاكمة البريطانية حكمت على نفسها بالموت، حين فشلت في الدخول إلى داكار وجزر الكناري وطنجة وسوريا، حين كانت الفرصة موجودة.

٢١ مايو/ أيار

كل العيون على كريت. كل واحد يقول الشيء نفسه -إن هذا سوف يوضح بطريقة أو بأخرى إمكانية غزو إنكلترا. هذا يمكن أن يكون هكذا، إذا أخبرونا الحقيقة اللازمة الوحيدة، أي كم عدد الرجال الذين لدينا هناك وكيف معداتهم. إن كان لدينا من ١٠ إلى ٢٠ ألف رجل فقط وكانوا من المشاة، فقد يقهرهم الألمان بالعدد فقط، حتى إن عجزوا عن إنزال دبابات. إذا أخذنا كل الاعتبارات، فإن الظروف في كريت لصالح الألمان، أكثر بكثير مما تكون لصالح إنكلترا. بقدر ما يكون الهجوم على كريت اختباراً، فالمرجح أكثر أن يكون اختباراً للهجوم على جبل طارق.

٢٤ مايو/ أيار

أخبار من كريت جيدة نوعاً ما ظاهرياً، لكن نغمة تشاؤم مرئية في كل مكان تحت السطح. لا أخبار من سوريا أو العراق، وهذه هي الإشارة الأسوأ. أعلن دارلان أنه لن يسلم الأسطول الفرنسي. سوف تنتزع لكمات أكثر بلا شك بسبب هذه الكذبة الصريحة.

٢٥ مايو/ أيار

أسمع سراً أننا خسرنا ثلاث سفن حربية في عمليات قبالة كريت. أعذار كثيرة في الصحف عن عدم امتلاكنا لطائرات مقاتلة. لا تفسير لماذا لم نجعل أراضي الإنزال الموجودة في كريت مستحيلة على حاملات الجنود الألمانية، ولماذا فشلنا في تسليح أهالي كريت قبل فوات الأوان.

٣١ مايو/ أيار

مازلت غير سعيد تماماً حول إثيوبيا. رأيت اليوم شريط أخبار عن قوات جنوب أفريقيا تزحف إلى داخل أديس أبابا. في قصر الإمبراطور (أو مهما كان البناء) رفع العلم الإنكليزي أولاً، وبعد ذلك فقط رفع العلم الإثيوبي.

١ يونيو/حزيرن

نحن ننسحب من كريت. لقد ذكروا إخلاء ثلاثة عشر ألف رجل. لا ذكر بعد للعدد الكامل المتورط. الانطباع المخيف سوف ينشأ إن رحّلنا القوات البريطانية وتركنا اليونانيين في الخلف. علماً أنه من وجهة نظر عسكرية وحشية، ربما يكون ذلك الشيء الذي نفعله هو الصحيح.

البريطانيون في بغداد، وسيكون خبراً أفضل لو أنهم كانوا في دمشق أيضاً. المرء يعرف مقدماً أننا لن نضع شروطاً قاسية على العراقيين، أي أننا لن نمتلك آبار النفط كشرط لمنحهم هدنة. سقط هيس من الأخبار منذ بضعة أيام. الردود المراوغة للأسئلة عنه في البرلمان ونكران تلقي دوق هاملتون رسالة منه، وبيان أن وزارة الإعلام التي "زودت بمعلومات خاطئة" حين نشرت هذا الخبر، وفشل واضح للبرلمان في السؤال عن الذي أعطى معلومات خاطئة لوزارة الإعلام ولماذا، كلها أشياء شائنة جداً، تحثني على أن أبحث في هانسارد، لأكتشف أن الرقابة لم تقصه في تقارير الصحف. دوّت صفارات الإنذار للتو بعد فترة من ثلاثة أسابيع، لم تكن فيها غارة جوية واحدة.

٣ يونيو/ حزيران

بعد أن اكتمل إخلاء كريت، جرى هناك حديث عن عشرين ألف رجل نقلوا. لذلك من الواضح أنهم بدؤوا بالإخلاء قبل أن يعترف بهذا في الصحافة بوقت كثير، والسفن التي غرقت، ربما فقدت في تلك العملية العسكرية. الخسائر الإجمالية ستكون كما يفترض، حوالي عشرة آلاف رجل وسبع سفن حربية (ثلاثة طرادات وأربع مدمرات) وربما بعض السفن التجارية أيضاً، وكثير من المدافع المضادة للطائرات، وعدد قليل من الدبابات والطائرات. كل هذا لا شيء بتاتاً......... الصحف تنتقد بجرأة أكبر مما فعلت حتى الآن. إحدى الصحف الأسترالية تقول بشكل علني وصريح إن الدفاع عن قبرص عديم الجدوى، إذا لم نقم بعمل عسكري ضد سوريا. ليس هنا أي علامة واضحة عن هذا. تقارير هذا الصباح، تقول إن الألمان أنزلوا للتو وحدات مدرعة في اللاذقية. مع هذا فهناك إشارات غامضة عن أن البريطانيين ربما يغزونها. بعد بضعة أيام يمكن أن يفوت الأوان، هذا إذا لم يتأخر ستة شهور مسبقاً.

٨ يونيو/ حزيران

دخل البريطانيون سوريا هذا الصباح.

١٤ يونيو/ حزيران

غموض تام -ولا أحد لديه أخبار حقيقية- يحيط بالوضع بين روسيا وألمانيا. لم أستطع الاتصال مع أي أحد رأى كريبس منذ عودته. يستطيع المرء الحكم فقط من الاحتمالات العامة، ويبدو لي أن الحقائق الحاكمة هي (١) ستالين لن يذهب إلى حرب مع ألمانيا إن كانت هناك أية طريقة لتجنبها غير الانتحار، و(٢) ليس من مصلحة هتلر أن يفقد ستالين هيبته في هذه المرحلة، لأنه طيلة الوقت يستخدمه ضد الطبقة العاملة في العالم. الاحتمال الأكبر من أي هجوم على روسيا أو أي اتفاق ظاهري يضر بروسيا، هو تنازل مقنع كتحالف ربما يُغطى بهجوم على إيران أو تركيا. بعدها سنسمع أن هنالك "تبادل تقنيين" إلخ إلخ، ويبدو بعدها وجود الكثير من المهندسين الألمان في باكو. لكن احتمالية أن يبدو كل هذا مناورة، هي مجرد خدعة لتغطية حركة وشيكة في مكان آخر، فربما يجب أن يظل غزو إنكلترا في المشهد.

١٩ يونيو/ حزيران

ليس هناك اتفاقية عدم اعتداء بين ألمانيا وتركيا. هذه هي مكافأتنا لعدم تطهيرنا سوريا بسرعة. من الآن فصاعداً، استدارت الصحافة التركية ضدنا، وسيكون لهذا أثره على الشعوب العربية.

جرى سباق الخيل في نيوماركت أمس، والظاهر أن حشوداً ضخمة حضرته. حتى الديلي إكسبريس كانت ساخرة حول هذا. صرحت الإيفنينغ ستاندارد أن هتلر يجب أن يغزو بريطانيا خلال ثمانين يوماً، وقالت إن المناورات في أوروبا الشرقية ربما قناع لهذا- لكن الهدف من هذا في اعتقادي، هو تخويف الناس للعمل بجهد أكبر. توقفت الحكومة البريطانية عن إصدار وثائق تسمح لسفن البلدان المحايدة بنقل بضائع من دون أن تفتش إلى بتسامو، وأوقفت ثلاث سفن فنلندية على أساس أن فنلندا الآن أرض محتلة من قبل العدو. هذه الإشارة الأوضح إن هناك شيء ما يحدث فعلاً بين روسيا وألمانيا.

٢٠ يونيو/ حزيران

كنا كلنا في حالة نصف ذوبان لعدة أيام مضت. فوجئت أن إحدى الفوائد الثانوية لهذه الحرب، أنها انقطعت عن عادتها الحمقاء في صنع عناوين الأخبار عن طقس يوم أمس.

٢٢ يونيو/ حزيران

غزا الألمان الاتحاد السوفييتي هذا الصباح. الكل في قمة الإثارة. يفترض عموماً أن يكون هذا التطور لمصلحتنا. يكون كذلك فقط إن نوى الروس فعلياً أن يقاتلوا ويردوا الهجوم، واستطاعوا أن ينشئوا مقاومة جدية إن لم تكن كافية لإيقاف الألمان، فعلى الأقل تكون كافية لتنهك قوتهم الجوية والبحرية. من الواضح أن الهدف الألماني المباشر والعاجل ليس الأراضي أو البترول، وإنما مسح القوة الجوية الروسية من الوجود تماماً، وبهذا تتم إزالة الخطر عن مؤخرتهم حين يتعاملون أخيراً مع إنكلترا. من المستحيل التخمين بنوع العرض الذي يستطيع الروس تقديمه. أسوأ فأل هو أن الألمان لم يحاولوا هذا، لو لم يكونوا متأكدين من أنهم يستطيعون تحقيقه وبسرعة كافية.

٢٣ يونيو/ حزيران

خطاب تشرشل كان جيداً جداً في رأيي. إنه لم يرض اليسار، وغاب عن بالهم أنه يجب أن يخاطب كل العالم من أمريكيي الغرب والوسط والطيارين وضباط البحرية وأصحاب الحوانيت الناقمين والمزارعين وأيضاً الروس أنفسهم، بالإضافة إلى الأحزاب السياسية اليسارية. كانت إشاراته المعادية للشيوعية صحيحة بالكامل، وأكدت ببساطة حقيقة أن عرض المساعدة كان صادقاً. يستطيع المرء أن يتخيل الصراخ الذي سيثيره المراسلون حول هذه الأشياء في نيوز ستيتمان. ماذا سيكون الانطباع برأيهم إن وقف ستالين وأعلن "أنا كنت مؤيداً مقتنعاً دائماً بالرأسمالية"؟

من المستحيل تخمين أي انطباع ستحدثه حركة هتلر هذه في الولايات المتحدة. فكرة تكوين حزب مؤيد للنازية قوي في إنكلترا، هي خطأ مطلق. ليس هناك شك بأن الناس الأثرياء يودون أن يروا هتلر يدمر النظام السوفييتي الحاكم، لكنهم سيكونون أقلية صغيرة. سيكون الكاثوليك بينهم بالتأكيد، لكن ربما يكونون أذكياء جداً، ولن يظهروا أيديهم إلى أن تبدأ المقاومة الروسية في الانهيار. تحدثت مع أناس في الحرس الوطني ومن ضمنهم الرجعيون والتجار الأغنياء جداً، فوجدت أن الكل يؤيدون الروس تماماً، رغم الانقسام الكبير في الرأي حول قدرة الروس على المقاومة. محادثة أنموذجية سجلت كما أتذكرها:

بائع دجاج بالجملة: "حسناً، أتمنى أن يعطيهم الروس جلداً وضرباً جيداً وقوياً".

صانع ملابس (يهودي): "سوف يتمزقون إرباً مثل المرة السابقة. سوف ترى".

طبيب (أجنبي ربما مهاجر): "أنت مخطئ تماماً. كل واحد يقلل من قوة روسيا. سوف يمسحون الأرض بالنازيين".

سمان يبيع بالجملة: "اللعنة عليهم. يوجد مائتا مليون حقير منهم".

صانع ثياب: "نعم، لكنهم ليسوا منظمين إلخ إلخ إلخ".

إن كل ما قيل هو عن جهل، لكنه يظهر ماهية عواطف الناس. منذ ثلاث سنين، كانت الغالبية العظمى من الناس الذين دخلهم فوق ألف جنيه في السنة أو حتى ست جنيهات في الأسبوع، ستصطف مع الألمان ضد الروس، لكن في هذا الوقت جعلهم كره ألمانيا ينسون كل شيء آخر.

الكل يعتمد على: إذا كانت روسيا وبريطانيا جاهزتين ومستعدتين للتعاون فعلاً أم لا، بلا أجندات خفية ولا محاولة إلى دفع وطأة القتال الشديدة على بعضهما البعض. لا شك أن هناك حزباً مؤيداً للنازية قوياً في روسيا، وأقول إن ستالين على رأسه. إن كانت روسيا ستبدل اصطفافها مرة ثانية، ويلعب ستالين دور بيتان، فلا شك أن الشيوعيين هنا سيتبعونه، ويصبحون مؤيدين للنازية مرة أخرى. إن مُسح نظام الحكم السوفييتي عن وجه الأرض وقُتل ستالين أو أُسر، سينقل كثير من الشيوعيين برأيي ولاءهم إلى هتلر.

في الوقت الحاضر، أصدر الشيوعيون البريطانيون نوعاً من بيان يدعو إلى "حكومة شعبية" إلخ إلخ، لكنهم سوف يبدلون نغمتهم فور وصول التعليمات والرسائل من موسكو. إن كان الروس سيقاومون فعلاً، فليس من مصلحتهم أن تكون هناك حكومة ضعيفة في بريطانيا أو تأثيرات تخريبية تعمل هنا. الشيوعيون بلا شك سيكونون وطنيين خارقين ضمن عشرة أيام -ربما يكون الشعار "كل السلطة لتشرشل"- وسيهملون تماماً. لكن إذا كان التحالف بين البلدين صحيحاً وصادقاً مع قدر معين من الأخذ والعطاء (التبادل)، فيجب أن تكون النتائج السياسية على كلا الجانبين من أجل الأفضل. الظروف الخاصة التي جعلت المقاومة العسكرية الروسية تؤثر تأثيراً سيئاً في إسبانيا، ليست موجودة هنا.

كل واحد يلاحظ بترقب أي إزعاج سيصيب الروس الأحرار.

هناك تكهن بأنهم سيكونون مثل الروس البيض. الناس لديهم تخيلات لستالين في حانوت صغير في بوتني (منطقة في غرب لندن) يبيع سماورات ويقوم برقصات قوقازية إلخ إلخ.

٣٠ يونيو/ حزيران

لا أخبار حقيقية عن الحملة الروسية الألمانية. ادعاءات مفرطة من كلا الجانبين طوال الأسبوع عن عدد الدبابات المعادية المدمرة. كل ما يستطيع المرء تصديقه فعلاً، هو الاستيلاء على البلدات، ومزاعم الألمان إلى الآن ليست كبيرة. لقد أخذوا ليمبيرغ، ويبدو أنهم احتلوا ليتوانيا، ويزعمون أيضاً أنهم التفوا حول مينسك. لكن الروس يزعمون أنهم أوقفوا تقدمهم. بأي حال، كان هناك اختراق. كل واحد متفائل جداً مسبقاً. لقد قضم الألمان أكثر مما يستطيعون مضغه. "إذا لم يخترق هتلر في الأسبوع القادم، فإنه سينتهي" إلخ. قلة من الناس يفكرون في أن الألمان جنود جيدون، ولم يتعهدوا بهذه الحملة من دون فرص وازنة مسبقاً.

تقديرات ارزن تضعها على الشكل الآتي: "إن ظل هناك جيش روسي حتى شهر أكتوبر/ تشرين الأول يقاتل ضد هتلر، فإنه (هتلر) سينتهي في هذا الشتاء على الأرجح". إن السبب الذي جعل الحكومة الروسية تصادر كل أجهزة اللاسلكي (الراديو) الخاصة غير مؤكد، ويحتمل الأمر تفسيرات عديدة.

لا شيء محدد وواضح حول طبيعة تحالفنا مع الاتحاد السوفييتي. ليلة أمس كان الجميع ينتظرون بلهو كبير أن يسمعوا نشيد اليسار الانترناسيونالي يعزف بعد نشيد الحفاء الآخرين الوطني. لم يحدث شيء كهذا طبعاً. على كل حال، كان هناك وقت طويل قبل أن يضاف النشيد الوطني الإثيوبي إلى الأناشيد الأخرى. يجب عليهم أن يعزفوا لحناً ما يمثل جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية، لكن اختياره سيكون مهمة معقدة.

٣ يوليو/ تموز

إن خطاب ستالين الذي بث، هو عودة مباشرة إلى الجبهة الشعبية وخط الدفاع عن الديمقراطية، وبالتالي هناك تناقض تام لكل الذي كان يقوله هو وأتباعه في السنتين الماضيتين. مع ذلك، فقد كان خطاباً قتالياً رائعاً، وهو مساوٍ تماماً لخطاب تشرشل، وأوضح أنه لا يرغب على أية تسوية في كل الأحوال في هذه اللحظة، لكن بدت مقاطع منه تتضمن تراجعاً كبيراً يفكر فيه، كما أشير إلى بريطانيا والولايات المتحدة بعبارات ودية وبالحلفاء تقريباً، رغم عدم وجود تحالف رسمي حتى الآن. وتكلم عن ريبنتروب وشركائه بـ "آكلي لحوم البشر"، وهكذا وُصفوا من قبل البرافدا أيضاً. من الظاهر أن أحد أسباب الأسلوب الغريب في الخطابات الروسية، هو أن اللغة الروسية تحتوي على مفردات كبيرة من كلمات الشتم، أكثر مما يوجد لها مرادفات في اللغة الإنكليزية. لا يستطيع المرء الحصول على مثال أفضل من الضحالة الأخلاقية والعاطفية لزمننا، من حقيقة أننا كلنا الآن مؤيدون لستالين تقريباً. هذا مجرم قاتل مثير للاشمئزاز يقف إلى جانبنا مؤقتاً، ولهذا نُسيت أعمال التطهير فجأة، وهكذا الحال مع فرانكو وموسوليني إلخ. ألا يجب أن يأتوا إلينا أخيراً. أكثر شيء صحة يمكن أن يقوله المرء عن ستالين، هو أنه ربما يكون مخلصاً كفرد، بعكس أتباعه الذين يعجزون عن ذلك، لأن تغيير جبهاته اللانهائي في كل الأحوال هو قراره الخاص به. إنه حالة "حين ينقلب أبانا سننقلب نحن"، وأبانا ينقلب كما يفترض، لأن الروح تحركه.

٦ يوليو/ تموز

تزايد ضجر عدد من الصحف من أننا لم نفعل الكثير من أجل مساعدة الاتحاد السوفييتي. أنا لا أعرف إن كانت هناك معركة غير الغارات الجوية يُعد ويُحضر لها حقيقة، لكن إن لم نحاول أي شيء، فهذه علامة مقلقة بمعزل عن النتائج السياسة والعسكرية التي يمكن أن تمتلكها. لأننا إذا لم نقدر أن نشن هجوماً برياً في الوقت الذي توجد فيه ١٥٠ فرقة ألمانية منشغلة في روسيا، فمتى سنكون قادرين إذاً؟ لم أسمع إشاعات مهما كانت عن تحركات القوات، لهذا ليس هناك حملات تُعد بأي شكل من إنكلترا. التطور الجديد الوحيد هو دافع ورغبة بيفربروك في الدبابات، وهي مشابهة لرغبته في الطائرات في السنة الماضية. لكن هذا لا يحمل ثماراً لبضعة أشهر، ولا توجد أي إشارة أين ستستخدم هذه الدبابات. أنا لا أستطيع أن أصدق أنهم يريدونها للاستخدام ضد غزو ألماني. إذا كان الألمان في وضع يسمح لهم بجلب أعداد كبيرة من الوحدات المدرعة هنا، أي إذا كان لديهم تحكم تام في البحر والجو، فيجب علينا أن نخسر الحرب مسبقاً. لا حديث عن تحالف رسمي مع روسيا، ولا شيء في الواقع يوضح علاقتنا، بالرغم من التعبيرات الودية تقريباً من كلا الجانبين. نحن لا نستطيع طبعاً أن نخاطر، إلى أن يصبح من المؤكد أنهم في تحالف قوي وثابت معنا، أي أنهم سوف يواصلون القتال حتى لو نجحوا في صد الغزو.

لا أخبار موثوقة من الجبهات. الألمان عبروا البروث، لكن يشك إن كانوا عبروا بيرسينا أم لا. الدمار الذي زعمه الطرفان غير حقيقي بشكل واضح. الروس يزعمون أن الخسائر الألمانية ٧٠٠٠٠٠ قتيل أي ١٠ بالمئة من جيش هتلر كله.

تفحصت عدداً من صحف كاثوليكية وعدة نسخ من تروث (صحيفة لليمين المتطرف)، كي أرى ما هو موقفها من شبه تحالفنا مع الاتحاد السوفييتي. الصحف الكاثوليكية لم تذهب لتؤيد النازية وربما لن تفعل هذا. الخط أن روسيا موضوعياً إلى جانبنا، ويجب أن تُدعم، لكن يجب أن يكون هناك تحالف محدد. تروث التي تكره تشرشل، تأخذ نفس الخط، لكن هناك ظلاً عدائياً للروس أكثر. بعض من الصحف الكاثوليكية الايرلندية ذهبت لتؤيد النازيين صراحة. إن كان الأمر هكذا، فستكون هناك ارتدادات مماثلة في الولايات المتحدة الأمريكية. سيكون ممتعاً أن نرى إن كانت "الحيادية" التي فرضت على الصحافة الايرلندية التي تحرم

وتمنع أي تعليق على أي دولة محاربة، سوف يتم فرضها بالقوة في حالة روسيا، بعد أن دخلت روسيا الحرب.

صوت الميثاق الشعبي بالدعم التام للحكومة، وطلب "مقاضاة قوية للحرب" - هذا بعد نصف شهر من مطالبتهم "بسلام الشعب". القصة التي تدور هي أنه حين وصل خبر غزو هتلر لروسيا إلى نيويورك كافيه حيث كان بعض الشيوعيين يتحدثون، خرج أحدهم إلى المرحاض، ثم عاد ليجد أن "خط الحزب" قد تبدل أثناء غيابه.

٢٨ أغسطس/ آب

أنا موظف في البي بي سي الآن بلا شك.

الخط على الجبهة الشرقية الآن على الشكل الآتي: تالين، جوميل، سمولينسك، كييف، دنيبروبيتروفسك، خرسون. احتل الألمان منطقة يجب أن تكون أكبر من ألمانيا، لكنهم لم يدمروا الجيوش الروسية. البريطانيون والروس غزوا إيران منذ ثلاثة أيام، والإيرانيون ساعدوا. لا توجد إشاعات يستطيع المرء أن يلتقطها عن حركات القوات في هذه البلاد. لديهم شهر واحد فقط من الآن ليبدؤوا شيئاً ما على القارة، وأنا لا أعتقد أنهم ينوون أي شيء من هذا النوع. تحت شروط بيان تشرشل- روزفلت، يقرأ المرء أن مشاعر الأمريكان المعادين لهتلر قد بردت وهدأت، نتيجة لغزو الاتحاد السوفييتي. ومن جانب آخر لا توجد أية علامة بأن الرغبة لتحمل تضحيات في هذه البلاد قد زادت بسببها. مازالت هناك شكاوى شعبية بأننا لم نعمل ما يكفي لمساعدة الاتحاد السوفييتي، لكن حجمها صغير جداً. أعتقد أن الحملة الروسية يمكن أن تعتبر راسخة، بمعنى أن هتلر لا يستطيع اختراق القوقاز والشرق الأوسط هذا الشتاء، لكنه لن ينهار، وقد ألحق ضرراً أكبر مما تلقى. ليس هناك نصر في المدى المنظور في الوقت الحالي. نحن في حرب طويلة منهكة كئيبة مع تزايد افتقار كل واحد طوال الوقت. الطور الجديد الذي تكهنت به سابقاً، بدأ الآن، والفترة شبه الثورية التي بدأت مع دونكيرك انتهت. لذلك أنا أضع حداً لهذه المفكرة، وأنهيها كما نويت أن أفعل حين بدأ الطور الجديد.

مذكرة زمن الحرب

من ١٤ مارس/ آذار ١٩٤٢
إلى ١٥ نوفمبر/ تشرين الأول ١٩٤٢

١٤ مارس/ آذار

سأفتح هذه المذكرة من جديد بعد فاصل من ستة أشهر. الحرب دخلت مرة أخرى في طور جديد. التاريخ الفعلي لمغادرة كريبس إلى الهند لم يظهر، لكن يفترض أنه ذهب في هذا الوقت. رأي الناس العاديين هنا يبدو متشائماً حول سفره. تعليق متكرر ومألوف -"فعلوها لتخرجه من الطريق" (وهذا واحد من الأسباب التي زعمها الراديو الألماني). هذا سخيف جداً، ويعكس المناطقية عند الشعب الإنكليزي الذي لا يستطيع أن يدرك أية أهمية للهند. الناس المطلعون بشكل أفضل متشائمون، لأن عدم نشر شروط الحكومة على الهند، يشير بالتأكيد تقريباً إلى أنها شروط غير جيدة. مستحيل أن نكتشف ما هي السلطات التي لدى كريبس. هؤلاء الذين ربما يعرفون شيئاً، سوف لن يفشوا شيئاً، والمرء لا يستطيع سحب تلميحات منهم إلا بوسائل غير مباشرة فقط. مثال، أنا أوحيت في رسالتي الإخبارية (في برنامجي في البي بي سي) أنني تلقيت تعليمات كي أرسم شخصية لكريبس وأقدمه كسياسي متطرف. هذا يجذب الإنذار "لا تذهب بعيداً جداً في ذلك الاتجاه" الذي يطرح الافتراض بأن أصحاب المناصب العليا ليس لديهم أمل كبير بتقديم الاستقلال التام للهند. (طار السير ستافورد كريبس إلى الهند في ٢٢ مارس/ آذار في محاولة لترتيب تسوية وسط مع حزب المؤتمر الهندي وحزب استقلال الهند، ليضمن تعاون الهند أثناء الحرب، ويسمح بانتقال تدريجي إلى الاستقلال حين تنتهي الحرب. نهرو وحزب المؤتمر لم يقبلا بشيء أقل من الاستقلال التام. ولأن كريبس لم يكن مخولا بتقديم هذا، فقد توقفت المحادثات في ١٠ أبريل/ نيسان، وعاد إلى إنكلترا).

إشاعات من كل الأنواع تنتشر في كل مكان. يشكك أناس كثيرون كما يبدو بأن روسيا وألمانيا ستتوصلان إلى سلام منفصل هذه السنة. من دراسة الراديو الألماني والروسي، وصلت إلى الاستنتاج منذ زمن، بأن تقارير الانتصارات الروسية مزيفة بشكل كبير، لكن طبعاً فإن

الحملة لم تسر حسب الخطة الألمانية. أعتقد أن الروس ربحوا نوع النصر الذي كسبناه نحن في معركة بريطانيا -أي تأخير الهزيمة في الوقت الحالي، لكننا لم نقرر شيئاً. أنا لا أؤمن بسلام منفصل، إلا إذا انهزمت روسيا بشكل واضح، لأنني لا أرى كيف تستطيع روسيا أو ألمانيا أن توافق على التخلي عن أوكرانيا. من جانب آخر يظن بعض الناس (أنا لدي هذا من أبرامز الروسي البلطيقي المتعاطف مع ستالين بقوة، لكنه ليس عضواً في الحزب الشيوعي) أنه إذا استطاع الروس طرد الألمان من أرضهم، فسوف يعقدون نوعاً من سلام غير معلن، وبعد ذلك يستمرا في قتال زائف.

إشاعات حول مغادرة بيفربروك (استقال اللورد بيفربروك من منصبه كوزير للإنتاج الحربي، وترك الحكومة تحت عذر مرض بدني. أما الأسباب السياسية الحقيقية خلف هذه الحركة، فمازالت قضية تخمين). إشاعات حول رحيل بروك:

أ- أصر كريبي على هذا كشرط لدخول الحكومة.

ب- جرى التخلص من بيفربروك، لأنه معروف باتصاله مع غورينغ بخصوص تسوية سلمية.

ج- أصر الجيش على إزاحة بيفربروك، لأنه كان يرسل كل الطائرات إلى روسيا، بدلاً من ليبيا والشرق الأقصى.

أنا الآن أعمل في البي بي سي منذ ستة أشهر. هل سأبقى فيها إن حدثت التغيرات السياسية التي أتنبأ بها؟ على الأرجح لا. جوها شيء وسط بين مدرسة فتيات ومصحة مجانين، وكل ما نفعله في الوقت الحاضر بلا فائدة أو أسوأ من ذلك. استراتيجية إذاعتنا ميئوس منها أكثر من استراتيجيتنا العسكرية. مع ذلك، يصبح المرء ذا عقلية دعائية، ويطور وجهة نظر لم توجد عنده سابقاً. مثال: أنا أزعم عادة في كل رسائلي الإخبارية أن اليابان تتآمر لمهاجمة روسيا. أنا لا أصدق هذا، لكن الحسابات هي التالية:

إذا هاجم اليابانيون روسيا، نستطيع أن نقول لكم "أنا أخبرتكم"

إذا هاجم الروس أولاً، نستطيع- بعد أن بنينا صورة لمؤامرة يابانية مسبقاً- أن نتظاهر بأن اليابان هي من بدأت ذلك.

إن لم تندلع حرب أخيراً، نستطيع أن نزعم أن هذا حدث لأن اليابانيين خائفون جداً من روسيا.

كل الدعاية عبارة عن أكاذيب، حتى حين يروي المرء الحقيقة. أنا لا أظن أن هذا يهم، طالما يعرف المرء ماذا يفعل ولماذا.......

في ١١ مارس/ آذار، بدأتُ بنشر إشاعة فحواها أن البيرة ستخضع لنظام الحصص، ونقلتُ الخبر إلى ثلاثة أشخاص مختلفين. سأكون مهتماً لأرى في أي تاريخ ستعود هذه الإشاعة إلي. (٣٠ مايو/ أيار ١٩٤٢. لم تعد أبداً. هذا يلقي الضوء على الطريقة التي تتكون فيها الإشاعات).

تحدثت لفترة قليلة قبل الأمس مع "ويليام هيكي" (مذكرة اجتماعية ظهرت في الإكسبريس، وكان يحررها في هذا الوقت توم دريبيرغ) الذي عاد حديثاً من الولايات المتحدة الأمريكية، وقال إن المعنويات هناك مرعبة، والإنتاج لم يبدأ، وهناك شعور عدائي هائج ومتفشٍ نحو بريطانيا من كل الأنواع، بالإضافة إلى شعور معادٍ للروس يؤججه الكاثوليك أيضاً.

١٥ مارس/ آذار

إنذار قصير بغارة جوية في حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً. لا قنابل ولا مدافع. أول مرة منذ عشرة أشهر أسمع هذا الصوت. داخلياً أنا خائف نوعاً ما، وكل واحد آخر يشعر مثلي بشكل واضح، لكننا تعمدنا ألا نكترث. وفي الحقيقة لم نشر إلى حقيقة وجود غارة، إلى أن سمعنا الصوت الذي يشير إلى انتهاء الغارة.

٢٢ مارس / آذار

أخبرني ايمسون (شاعر وناقد يعمل في البي بي سي) أنه يوجد منع صارم من وزارة الخارجية لأي خبر يوحي بأن اليابان ستهاجم الاتحاد السوفيتي، لهذا تم تجنب هذا الموضوع بشكل متعمد في النشرات الإذاعية الموجهة إلى الشرق الأقصى، بينما كان يدفع به طول الوقت في النشرات الموجهة إلى الهند. لم يعلموا بعد أننا نقول هذا، فنحن لم نُحذر، ورسمياً لم نعرف بخصوص المنع، وأننا نبذل أقصى ما نستطيع خلال استمراره. نفس الفوضى في كل مكان على الجبهة الدعائية. مثال: أوقفت هورايزن من الحصول على ورقها الإضافي لتطبع نسخاً

للتصدير بسبب مقالتي عن كيبلينغ (كل شيء كان على ما يرام في اللحظة الأخيرة، لأن هارولد نيكوليم ودوف كوبر تدخلا) وفي الوقت نفسه، طلبت من البي بي سي أن أكتب "مقالة خاصة" مبنية على المقالة الأولى.

الدعاية الألمانية متضاربة بطريقة مختلفة تماماً -أي هي هكذا عمداً مع تجرد مطلق من المبادئ والضمير في تقديم كل شيء إلى كل واحد: الحرية إلى الهند، وإمبراطورية استعمارية إلى إسبانيا، والتحرر إلى الكفيريين (الجنوب أفريقيين السود)، وقوانين عرقية أشد صرامة إلى البوير إلخ إلخ. كل شيء قانوني وسليم من وجهة نظر الدعاية في رأيي، نظراً للجهل السياسي الكبير عند غالبية الناس، وعدم اهتمامهم بأي شيء خارج شؤونهم المباشرة، وقلة تأثرهم بالتضارب والتناقض. منذ أسابيع قليلة كانت محطة البث البريطانية الجديدة تهاجم محطة تحدي العمال (محطة أخرى تبث دعاية بالإنكليزية إلى ألمانيا) وتحذر الناس ألا يصغوا إليها لأن "موسكو تمولها"

الشيوعيون في المكسيك يطاردون فيكتور سيرج مرة أخرى (روسي المولد فرنسي الاختيار، من الأدباء الثوار الروس. نفي إلى سيبريا كتروتسكي، وعمل مراسلاً لصحيفة باريس بعد إطلاق سراحه في إسبانيا أثناء الحرب الأهلية. استقر في المكسيك حيث مات فقيراً) ويطاردون أيضاً لاجئين تروتسكيين آخرين وصلوا إلى فرنسا، ويحرضون على طردهم إلخ إلخ، وهو نفس التكتيك الذي اتبع في إسبانيا. اكتأبت جداً برؤية هذه المكائد القديمة وهي تظهر ثانية، ليس لأنها مقززة أخلاقياً جداً جداً، وإنما من هذا التفكير: لعشرين سنة استخدم الكومنترن هذه الأساليب، وكان الفاشيون دائماً وفي كل مكان يهزمونه، لذلك بما أننا ارتبطنا بهم بنوع من التحالف، فسوف ننهزم معهم.

الشكوك بأن روسيا تنوي عقد سلام منفصل، تبدو الآن واسعة الانتشار. من الاثنين سيكون من الأسهل لروسيا أن تتخلى عن أوكرانيا وتسلمها لأسباب جغرافية ونفسية، لكن من الواضح أن الروس لن يتخلوا عن حقول نفط القوقاز من دون قتال. تطور واحد ممكن، وهو اتفاق سري بين هتلر وستالين، يحتفظ فيه هتلر بالأراضي الروسية التي اجتاحها أو بقسم منها، وبعد ذلك لا يقوم بأي هجمات أخرى، وتوجيه هجومه باتجاه الجنوب نحو حقول النفط في العراق وإيران، وتستمر روسيا وألمانيا في حرب شكلية زائفة خلال الوقت الراهن.

يبدو لي بشكل واضح أن سلاماً منفصلاً هو الاحتمال الأكبر، أن قمنا بغزو قاري في هذه السنة، لأننا لو نجحنا في إرباك الألمان وسحبوا قسماً كبيراً من جيشهم، ستكون روسيا في وضع أفضل فوراً لتسترجع أراضيها المحتلة وتساوم على صفقة.. الشيء الوحيد الذي قد يمنع هذا النوع من الخداع القذر، هو تحالف ثابت وقوي بيننا وبين الاتحاد السوفييتي مع أهداف حرب معلنة بالتفصيل. وهذا مستحيل حين تحكمنا هذه الحكومة وربما أيضاً حينما يبقى ستالين في السلطة: على الأقل، المحتمل فقط أن نستطيع الحصول على نوع مختلف من الحكومة، ثم نجد طريقة ما للتكلم مع الشعب الروسي من فوق رأس ستالين. نفس الشعور الذي جربه المرء أثناء معركة فرنسا -أي ليس هناك أي أخبار. هذا ناشئ بشكل رئيسي عن قراءة لا تنتهي للصحف. فيما يتعلق بمصدري الإخباري، أنا الآن أقرأ خمس صحف صباحية كل يوم وعدة طبعات من الصحف المسائية، بالإضافة إلى تقارير رصد ومراقبة يومية. الكمية من المادة الجديدة في كل قطعة مطبوعة يقرأ فيها المرء كمية صغيرة جداً، لكي يحصل على انطباع عام بعدم وجود شيء يحدث. بالإضافة إلى ذلك، فحين تسوء الأشياء، يستطيع المرء التنبؤ بكل شيء. الحدث الوحيد الذي فاجأني في الأسابيع الماضية، كان مهمة كريبس إلى الهند.

٢٧ مارس/ آذار

يتوقع غداً أن تنفجر أخبار الشروط التي أخذها كريبس إلى الهند. أما في الوقت الراهن، فهي مجرد إشاعات، وكلها معقولة لكنها غير متناسقة مع بعضها البعض تماماً. الأقوى - ستعرض على الهند معاهدة شبيهة بالمعاهدة المصرية. كي اس شيفانكار (كاتب وصحفي هندي في إنكلترا) عدونا اللدود، يعتبر هذا مقبولاً إذا أعطيت وزارات الدفاع والمالية والداخلية للهنود.

كل الهنود هنا أكثر تفاؤلاً بعد أسبوع أو اثنين من الاكتئاب. يبدو أنهم شموا بطريقة ما ربما من الوجوه الحزينة في وزارة الهند أن الشروط ليست سيئة أخيراً.

نقاش رهيب في البرلمان حول "قضية" الديلي ميرور (صحيفة يومية يسارية مشهورة. اتهمها تشرشل بالخط الانهزامي أي انتقاد معالجة الحكومة للحرب. بعد نقاش شهير في البرلمان أخفقت وتلاشت القضية) ايه بيفان يقرأ مقاطع من مقالة موريسون في الديلي ميرور، كتبت منذ بداية الحرب لتسلية المحافظين المعادين للديلي ميرور، لكنه لا يستطيع أبداً أن يقاوم

مشهد اشتراكيين اثنين يضربان بقوة بعضهما. كاسندرا (اسم وهمي لويليام كونور، صحفي راديكالي مشهور يكتب عموداً في الديلي ميرور) أعلن أنه يستقيل لينضم إلى الجيش. نبوءة: هو سيعود إلى الصحافة خلال ثلاثة أشهر. لكن أين سنكون بعد ثلاثة أشهر بأي حال؟

انهزم مرشح الحكومة (بأكثرية صغيرة جداً) في الانتخابات الفرعية في غرانتهام. في اعتقادي، هذا يحدث لأول مرة منذ أن بدأت الحرب.

نداء مفاجئ من سريتنا في الحرس الوطني قبل أسبوع أو أسبوعين. احتاج الأمر أربع ساعات ونصف لتجتمع السرية وتوزع الذخيرة، وسنستغرق ساعة أخرى لوضع كل واحد في موقعه القتالي، ويعود هذا بشكل رئيسي إلى الازدحام المسبب برفض توزيع الذخيرة إلا بمجيء كل رجل إلى المقر الرئيسي ليتزود بها هناك. أرسلت مذكرة عن هذا إلى الدكتور توم جونز الذي وجهها مباشرة إلى السير جاس غريغ (معاون وزير الحرب، ثم وزير الحرب لاحقاً). في وحدتي لم أستطع أن أحصل على هكذا مذكرة كقائد للسرية- أو على الأقل، لم أستطع أن أجعلها يُصغى إليها.

الزعفران يملأ الفضاء الخارجي. يبدو المرء وكأنه يراه عبر ضباب أخبار الحرب. رسالة بذيئة من إتش جي ويلز الذي خاطبني بالقول "أنت قذارة" من بين كلمات أخرى.

الفاتيكان يتبادل الممثلين الدبلوماسيين مع طوكيو. الفاتيكان الآن له علاقات دبلوماسية مع كل دول المحور و-أعتقد- من دون أن تكون له علاقة مع أي دولة من الحلفاء. علامة سيئة، ومع ذلك فإن لهذه الخطوة الأخيرة معنى جيداً، وتعني أنهم قرروا بوضوح الآن أن المحور وليس نحن هو من يؤيد السياسة الأكثر رجعية ويمثلها.

١ أبريل/ نيسان.

أنا مكتئب جداً بسبب فشل مهمة كريبس، وأغلب الهنود حزينون بسببها أيضاً، وحتى الذين يكرهون إنكلترا يريدون حلاً كما أعتقد. لكن بالرغم من أسلوب "اقبلها أو ارفضها" الذي بدأت به حكومتنا، أعتقد أن الشروط سوف تعدل فعلياً، استجابةً لضغط لهذه الغاية.

يظن البعض أن الروس خلف الخطة، وأن هذا بسبب ثقة كريبس في تقديم شيء غير جذاب بشكل ظاهر. بما أنهم ليسوا في الحرب ضد اليابان، لا يمكن أن يكون للروس أي

موقف رسمي بخصوص المسألة الهندية، لكنهم ربما يوزعون توجيهات إلى أتباعهم، ومنهم تصل إلى مؤيدين روس. لكن عندئذ لن يوجد هنود كثيرون يؤيدون الروس بشكل موثوق. لا علامة بعد من الحزب الشيوعي البريطاني الذي ربما يعطي سلوكه تفسيراً للموقف الروسي. على هذا النوع من التخمين، يجب أن نبني دعايتنا؛ حيث لا توجيهات واضحة أو نافعة تسلّم لنا من الأعلى.

أراد كونولي يوم أمس أن يقتبس مقطعاً من الحنين إلى كتالونيا في نشرته الإذاعية. فتحت الكتاب وأتيت على الجمل التالية:

إحدى أشد خصائص الحرب بغضاً، هي أن الحرب كلها عبارة عن دعاية، وكل الصراخ والأكاذيب والكره تأتي بشكل ثابت من أناس لا يقاتلون.... والحال دائماً نفسه في كل الحروب؛ يقوم الجنود بالقتال، ويقوم الصحفيون بالصياح، ولا يوجد وطني حقيقي يقترب من الخندق الذي على خط الجبهة أبداً باستثناء جولات الدعاية القصيرة. أحياناً يريحني أن أفكر أن الطائرات ستبدل ظروف الحرب. حين تأتي الحرب القادمة، ربما نرى ذلك المنظر غير المسبوق في التاريخ: وطني متطرف مع ثقب رصاصة فيه.

ها أنا أعمل في البي بي سي، بعد أقل من خمس سنين من كتابة ذلك. أعتقد أننا سنكتب النقوش على أضرحتنا عاجلاً أو آجلاً.

٣ أبريل/ نيسان

قرار كريبس للبقاء أسبوعاً إضافياً في الهند، يعتبر فألاً حسناً، إضافة إلى أنه ليس هناك تفاؤل كثير حوله. غاندي يثير المشاكل عمداً، ويرسل برقيات تعزية إلى عائلة بوز (سوباس شاندرا بوز، صحفي هندي وزعيم يساري، عضو في المؤتمر. كان معادياً بعنف لبريطانيا) حول خبر وفاته، ثم برقيات تهنئة، حين تبين أن ذلك التقرير لم يكن صحيحاً. كما يحث الهنود أيضاً ألا يتبنوا سياسة الأرض المحروقة إن تعرضت الهند للغزو. مستحيل أن تكون متأكداً أي علبة هذه. لكن من ناحية أخرى، هؤلاء الذين ضد غاندي يدعون أن لديه أسوأ نوع من أصحاب النفوذ الرأسماليين (الهنود) خلفه. وفي الواقع إنه يقيم دائماً في بيت مليونير ما أو آخر، وهذا ليس متنافراً بالضرورة مع قداسته المزعومة، لكن سلميته قد تكون صادقة. في

الفترة السيئة من عام ١٩٤٠ هو حثّ أيضاً على عدم المقاومة في إنكلترا إن تعرضت إنكلترا للغزو. أنا لا أعرف إن كان غاندي أو بوشهان هو البديل الأقرب إلى راسبوتين في عصرنا.

يقول أناند (موتك راج أناند) إن المعنويات بين الهنود المنفيين هنا متدنية جداً. مازالوا يميلون إلى الاعتقاد أن اليابان ليس عندها خطط شريرة بخصوص الهند، والكل يتحدثون عن سلام منفصل مع اليابان، ومتحمسون جداً لإعلانهم الولاء نحو روسيا والصين. قلت له إن الحقيقة الأساسية حول كل المثقفين الهنود تقريباً، هي أنهم لا يتوقعون الاستقلال، ولا يستطيعون تخيله، ولا يريدونه في قلوبهم. هم يريدون أن يكونوا في المعارضة دائماً يجربون استشهاداً غير مؤلم، وهم أغبياء جداً ليتخيلوا أنهم يستطيعون لعب نفس ألعاب تلاميذ المدارس مع اليابان أو ألمانيا، مثلما استطاعوا أن يفعلوا ذلك مع بريطانيا. تفاجأت قليلاً حين وافقني إلى حد ما. يقول إن "عقلية المعارضة" عامة بينهم، وخصوصاً بين الشيوعيين، وإن كريشنا مينون (رجل دولة هندي، محامٍ ومؤلف وصحفي) "يتوق إلى اللحظة التي تتعطل فيها المفاوضات". في اللحظة نفسها، حين يتكلمون ببرود عن خيانة الصين بعقد سلام منفصل، تجدهم يصرخون بأن القوات الصينية في بورما لم تحصل على دعم جوي مناسب. لاحظت أن هذا طفولي. ايه: "أنت لا تستطيع أن تبالغ في تقدير حمقهم الطفولي يا جورج. إنه بلا قعر" السؤال هو: إلى أي مدى يعكس الهنود الذين يعيشون هنا وجهة نظر المثقفين في الهند؟ هم أبعد عن الخطر، وأصيبوا بعدوى الجو السلمي للأشهر العشرة الماضية مثل البقية منا. لكن من جانب آخر، فإن كل من بقي هنا فترة طويلة تقريباً، أصبح متأثراً بوجهة نظر غربية. لذلك فإن المثقفين الهنود الحقيقيين على الأرجح، هم أسوأ بكثير. أناند نفسه ليست لديه هذه النواقص، فهو معادٍ للفاشية بصدق، وقد سبب الكثير من العنف لمشاعره وربما لسمعته بسبب دعمه لبريطانيا، لأنه يدرك أن بريطانيا على الجانب المعادي للفاشية بشكل موضوعي.

٦ أبريل/ نيسان

ألقيت أمس نظرة عجلى على الطريق الدائري الذي بني بين أوكسبيردج ودينهام. اندهشت من المستوى الهائل للتعهد. غرب أوكسبريدج يقع وادي كولن، وفوق هذا الطريق جسر من القرميد والأعمدة الإسمنتية. وأعتقد أن طول الجسر ربع ميل. بعد ذلك يتابع الطريق على سد مرفوع. ارتفاع كل واحد من هذه الأعمدة عشرون قدماً وسماكته خمسة عشر قدماً، وهناك

عمودان في كل خمسة عشر ياردة. يجب أن أقول إن كل عمود يستخدم أربعين ألف قرميدة باستثناء الأساسات، والطريق الذي فوق السد استهلك أطناناً من الحديد الصلب والإسمنت المسلح في كل ياردة منه. كميات هائلة من الفولاذ المقوى ملقاة، وألواح ضخمة من الغرانيت تكفي لبناء سفينة حربية من الحجم الجيد. إن الطريق الالتفافي لن يكون على الأغلب ذا فائدة إلى أن تنتهي الحرب، حتى لو انتهى العمل به قبل ذلك. في الوقت الحالي هناك نقص في العمالة في كل مكان. الظاهر أن الناس الذين يبيعون القرميد أقوياء جداً (قارن الملاجئ السطحية غير المفيدة التي حتى حين عمروها، كان من الواضح أنها بلا فائدة لكل واحد يعرف أي شيء عن البناء والترميمات الضرورية المتواصلة للبيوت الخاصة غير المسكونة في كل أرجاء لندن) من الواضح أنه حين تتجاوز الفضيحة مستوى وقدراً محدداً، تصبح غير مرئية.

رأيت في دينهام شخصاً يسوق عربة تجرها الكلاب في حالة جيدة.

١٠ أبريل/ نيسان

خسائر بحرية بريطانية في الأيام الثلاثة أو الأربعة الأخيرة: غرق طرادين وحاملة طائرات وتحطم مدمرة. خسائر المحور غرق طراد. من خطاب نهرو اليوم: "من يموت إن عاشت الهند؟" كم سيتأثر الورديون (اليساريون) - كيف سيسخرون من "من يموت إن عاشت إنكلترا؟".

١١ أبريل/ نيسان

فشلت مهمة كريبس إلى الهند أخيراً. لكن أنا لا أعتبر هذا أمراً نهائياً. أصخت السمع إلى خطاب كريبس الآتي من دلهي، والذي أعدنا بثه من إنكلترا إلخ. هذا الإرسال الذي نستمع إليه من دلهي أحياناً، هو مؤشرنا الوحيد عن الحال الذي يبدو عليه بثنا في الهند، فهو دائماً ذو نوعية سيئة، وهناك قدر كبير من الضجيج الخلفي الذي يستحيل إزالته في التسجيلات. الخطاب جيد في القسم الأول منه وصريح وصادق تماماً، لدرجة أنه سبب إهانة كبيرة كما أعتقد. في القسم المتأخر، انتقل كريبس إلى مزاج النجود ذات النسمات المبهجة. والحقيقة الغريبة أنه في المقاطع الأكثر تمجيداً في خطابه، اتضح وجود تغيير معين في نغمات صوتية مستعارة من تشرشل. وهذا قد يؤشر إلى الحقيقة التي سوف تفسر تعهده لهذه المهمة حين لم

يكن يملك إلا هذه الشروط الرديئة ليقدمها- إنه في الوقت الحاضر تحت تأثير تشرشل الشخصي كثيراً.

١٨ أبريل/ نيسان

لا شك أن خطاب كريبس سبّب إساءة كبيرة في الهند. خارج الهند أشك إن كان عدد كبير من الناس يلوم الحكومة البريطانية على تعطل المحادثات. مشكلة واحدة الآن، هي تعبيرات الأمريكيين التي تنقصها اللباقة، والذين يثرثرون منذ سنوات "بحرية الهند" والإمبريالية البريطانية، وفجأة أصبحت عيونهم مفتوحة على الحقيقة بأن الطبقة المثقفة الهندية لا تريد الاستقلال أي لا تريد المسؤولية. ألقى نهرو خطاباً استفزازياً، مغزاه أن كل الإنكليز مثل بعضهم مهما كان حزبهم إلخ إلخ. وأيضاً حاول أن يخلق مشكلة بين بريطانيا والولايات المتحدة، بادعائه أن الولايات المتحدة قامت بكل القتال الحقيقي، وفي الوقت نفسه كرر القول على فواصل أنه ليس مؤيداً لليابانيين، وأن حزب المؤتمر سوف يدافع عن الهند إلى النهاية. وبناء عليه، اختارت البي بي سي هذه المقاطع من خطاباته، وبثتها من دون ذكر المقاطع المعادية لبريطانيا، ما جعل نهرو يتشكى (على صواب تماماً) بأن خطاباته حُرِّفت وشُوّهت. توجيه جديد أخبرنا أنه حين يحتوي أحد خطاباته على مقاطع عدائية لبريطانيا أو عدائية لليابان، فمن الأفضل تجاهلها كلها. يا لها من فوضى! لكن أعتقد إجمالاً أن مهمة كريبس كان لها أثر جيداً، لأنها أوضحت القضية من دون تشويه سمعة كريبس وتكذيبه في هذه البلاد (كما يتم ذلك بسهولة كبيرة). مهما قيل رسمياً، يبقى الاستنتاج الذي انتزعه كل العالم هو: (أ) الطبقة الحاكمة البريطانية لا تنوي التنازل؛ و(ب) الهند لا تريد استقلالاً، ولذلك لن تحصل عليه مهما كانت نتيجة الحرب.

التحدث إلى وينترينغهام (توماس وينترينغهام كاتب وجندي له مؤلفات طرق جديدة في الحرب، وسياسيات النصر، وحرب الشعب) عن الموقف الروسي المحتمل تجاه مفاوضات كريبس (طبعاً إن لم تكن في حرب ضد اليابان، فلن تستطيع اتخاذ موقف رسمي) أنا قلت ربما يجعل الأشياء أسهل بكثير لو أن أكبر عدد ممكن من المدربين العسكريين الذين سوف يُرسلون إلى الهند لاحقا، كانوا من الروس. نتيجة واحدة ممكنة، وهي أن الهند أخيراً سوف تُغزى من قبل الاتحاد السوفييتي. ولكن أنا لا أعتقد أبداً أن الروس سيتصرفون في الهند

بطريقة أفضل مما فعلنا نحن، لكنهم ربما يتصرفون بشكل مختلف، وذلك يعود إلى النظام الاقتصادي المختلف. قال وينترينغهام إنه حتى في إسبانيا يميل بعض المندوبين الروس إلى معاملة الإسبان كـ "سكان أصليين "، وسيفعلون في الهند المثل بلا شك. من الصعب جداً ألا يفعلوا، لأن أغلبية الهنود عملياً أدنى من الأوروبيين، والمرء لا يستطيع أن يتجنب الشعور بهذا، وبعد وهلة قليلة يتصرف المرء بناء على هذا.

سيتأرجح الرأي الأمريكي ويعود ويبدأ بوضع اللوم بخصوص الوضع الهندي على البريطانيين كما من قبل.

من الواضح أن ما يستطيع المرء الحصول عليه من الصحف الأمريكية، هو ذلك الشعور القوي المعادي لبريطانيا، وظهور الانعزاليين من جديد بعد اعتزال مؤقت بنفس البرنامج والشعارات السابقة. صحيفة الأب كوفلين أقصيت من البريد. الذي يرعبني دائماً حول عاطفة العداء الأمريكي لبريطانيا، هو الجهل المروع والشيء نفسه مع الشعور المعادي لأمريكا في إنكلترا.

١٩ أبريل/ نيسان

قصفت طوكيو أو يفترض ذلك أمس. حتى الآن جاء هذا الخبر من مصادر يابانية وألمانية فقط. في هذه الأيام، من المسلم به أن كل واحد يكذب، وأن تقريراً من هذا النوع لن يصدقه أحد إلى أن يؤكده كلا الطرفين. حتى اعتراف من قبل العدو بأن عاصمته قصفت، قد يكون كذبة لسبب أو لآخر.

تقول (أي- إيلين زوجة أورويل) إن أناند قال لها أمس معلقاً كما لو أن الأمر بديهي، إن بريطانيا ستعقد سلاماً منفصلاً هذا العام، وبدا متفاجئاً حين اعترضت. طبعاً الهنود يجب أن يقولوا هذا وقالوها دائماً منذ ١٩٤٠ لأنه يزودهم بعذر في حال الضرورة، لكونهم معادين للحرب، وأيضا لأنهم لو استطاعوا السماح لأنفسهم بأن يحسنوا الظن في بريطانيا، فسوف تُدمر بنيتهم العقلية. أخبرني فايفل كيف في عام ١٩٤٠ حين كان تشامبرلاين في الحكومة، كان في اجتماع حضره بريت وهنود آخرون. علق الهنود بطريقة الماركسية الزائفة "طبعاً حكومة تشامبرلاين- تشرشل توشك على عقد تسوية سلمية". عند ذلك أخبرهم بريت أن

تشرشل لن يعقد تسوية سلمية أبداً، وإن الاختلاف الوحيد (عندئذ) الموجود في بريطانيا، هو الاختلاف بين تشرشل وتشامبرلاين.

حديث متزايد عن غزو لأوروبا -لدرجة تجعل المرء يفكر أن شيئاً من هذا النوع سيحدث، وإلا فلن تخاطر الصحف وتسبب خيبة الأمل بالحديث كثيراً عنه. كل واحد تقريباً يبدو أنه مازال يفكر في أن العرفان بالجميل عامل في سياسة القوة. افتراضان يتكرران في صحافة اليسار عادة: (أ) أن فتح جبهة ثانية هو الطريق لمنع روسيا من عقد سلام منفصل؛ (ب) كلما قاتلنا أكثر، كلما حصلنا على أشياء أكثر في التسوية السلمية النهائية. عدد قليل من الناس يظنون أنه لو نجح غزو لأوروبا إلى درجة سحب الجيوش الألمانية من روسيا، فلن يظل عند ستالين دافع قوي للاستمرار في القتال، وإن خيانة من هذا النوع مشابهة ومنسجمة مع المعاهدة الروسية الألمانية والاتفاق الذي من الواضح أن الاتحاد السوفييتي دخل فيه مع اليابان.

بالنسبة إلى الافتراض الآخر: يتحدث كثير من الناس كما لو أن السلطة لتقرير سياسة لمرحلة ما بعد الفوز بالحرب، هي نوع من مكافأة، لأنك قاتلت جيداً فيها. طبعاً، إن الأشخاص القادرين فعلياً على الهيمنة على الأمور، هم هؤلاء الذين يملكون القوة العسكرية الأكبر. قارن أمريكا في نهاية الحرب الأخيرة. في الوقت الراهن هناك خطوتان اثنتان يمكن أن تصححا الوضع: (أ) اتفاق واضح مع الاتحاد السوفييتي مع تصريح مشترك (مفصل) بأهداف الحرب؛ و(ب) إن غزو إسبانيا مستحيل تماماً سياسياً في ظل الحكومة الحالية.

٢٥ أبريل/ نيسان

اعتقل طيارون أمريكيون هبطوا اضطرارياً على التراب الروسي، بعد أن قصفوا طوكيو. حسب الراديو الياباني، فإن الروس يسهلون حركة العملاء اليابانيين عبر روسيا من السويد (وبالتالي من ألمانيا) إلى اليابان. إذا كان الأمر صحيحاً، فهذا تطور جديد، لأن هذا المرور توقف منذ اللحظة التي هاجمت فيها ألمانيا الاتحاد السوفيتي. لغز سوباس شاندرا بوز في أي مكان يبقى غير قابل للاختراق.

الوقائع الرئيسية هي التالية:

١ -في زمن اختفائه، صرحت الحكومة البريطانية أنه ذهب إلى برلين.

٢- جرى بث صوت زعم وحدد بأنه له على راديو الهند الحرة (ألمانيا).

٣- زعم الراديو الإيطالي مرة أن بوز في الأراضي اليابانية.

٤- يبدو أن الهنود هنا إجمالاً يظنون أنه في أرض يابانية.

٥-إن الفرار إلى الأراضي اليابانية، سيكون مادياً أسهل من الفرار إلى جهة أخرى.

٦-تقرير فيشي عن موته في حادث طائرة بين بانكوك وطوكيو رغم أنه خطأ بالتأكيد تقريباً، لكن يبدو أنه يوحي أن الناس في مناطق فيشي سلموا بديهياً أنه في أرض يابانية.

٧-حسب مهندسين، ليس من المستحيل أن يبث صوته مرمزاً من طوكيو إلى برلين، وهناك يعاد إلى شكله الصحيح ويعيدون بثه.

هناك أراء أخرى لا تحصى وإشاعات لا نهاية لها. السؤالان اللذان يصعب الجواب عليهما هما: إن كان بوز في اليابان، فلماذا هذا الجهد الموسع لجعله يبدو أنه في برلين حيث يكون غير فعال بالمقارنة؟ إن كان بوز في ألمانيا، فكيف وصل إلى هناك؟ طبعاً من المحتمل جداً أنه وصل إلى هناك مع تستّر روسي. عندئذ يطرح السؤال التالي، إن كان الروس مرروا بوز سابقاً، فهل أخبرونا بعد ذلك حين دخلوا الحرب إلى جانبنا؟ لمعرفة الجواب على ذلك السؤال، سيعطي المرء دليلاً مفيداً إلى موقفهم منا. طبعاً لا يستطيع المرء الحصول على معلومات عن أسئلة من هذا النوع هنا. يجب على المرء أن يقوم بدعايته في الظلام، ويخرب بحذر التوجيهات السياسية حين تبدو أكثر من سخيفة عادة.

للحكم من خلال الراديو، الألمان يؤمنون في الغزو القادم إما من فرنسا أو من النرويج. ما هي فرصة الدخول إلى إسبانيا! كما ثبتوا موعداً لها (الأول من مايو/ أيار) ربما يناقشون إمكانية الغزو لكي يسخروا حين لا يحدث. لا علامة هنا لأي تحضيرات للغزو -لا إشاعات حول تجمع قوات أو قوارب أو إعادة ترتيب السكك الحديدية أو الجداول إلخ. العلامة الأكثر إيجابية، هي خطاب بيفربروك المؤيد للغزو في الولايات المتحدة.

يبدو أنه ليس هناك أخبار أياً كانت. منذ شهور لم تكن الصحف فارغة بهذا الشكل. لفت انتباهي البنية البدنية العادية والمظهر الرديء العام للجنود الأمريكيين، الذين يراهم المرء في الشارع بين الحين والآخر، لكن الضباط عادة أفضل من الجنود العاديين.

٢٧ أبريل/ نيسان

تخمينات كثيرة حول معنى خطاب هتلر الذي ألقاه يوم أمس. بشكل عام، أعطى الخطاب انطباعاً من التشاؤم. خطاب غزو بيفربروك فُسر بشكل متنوع في قيمته الظاهرية كحديث منشط للأمريكيين، وكشيء لإقناع الروس أننا لن نتركهم في مأزق، وكبداية لهجوم على تشرشل (الذي ربما أجبر على الرد بعمل دفاعي). في الوقت الحاضر، مهما قيل أو فعل، فإن المرء يبحث باستمرار عن دوافع خفية، ويفترض أن الكلمات تعني أي شيء باستثناء ما يبدو أنها تعنيه......

كلنا غارقون في القذارة. حين أتحدث إلى أي أحد أو أقرأ كتابات أي أحد لديه رأي سكين يريد فرضه على الآخرين، أشعر أن الأمانة الفكرية والحكم المتوازن اختفيا ببساطة من على وجه الأرض. إن فكر كل واحد فكر قضائي جنائي، وكل واحد يفترض "قضية" ويقمع بشكل متعمد وجهة نظر خصمه مع تبلد تام لأي عذابات ماعدا عذاباته هو وأصدقاؤه. القومي الهندي غارق حتى القاع في الإشفاق على الذات وكره بريطانيا، وغير مبال تماماً بالبؤس في الصين. والسلمي الإنكليزي يحمس نفسه إلى نوبات جنون حول معسكرات الاعتقال في جزيرة الإنسان، وينسى هؤلاء الذين في ألمانيا إلخ إلخ. يلاحظ المرء هذا في حالة الناس الذين يختلف معهم كالفاشيين أو السلميين مثلاً، لكن في الحقيقة كل واحد لديه آراء واضحة ومحددة. كل واحد كاذب وكل واحد متحجر الفؤاد تماماً نحو الناس الذين هم خارج مدى اهتمامه وتعاطفه المباشر. اللافت أكثر من أي شيء، هو الطريقة التي يشغل بها التعاطف ويعطله مثل صنبور وفقا للحيل والذرائع السياسية. كل الورديين أو أغلبهم الذين يقذفون بأنفسهم إلى الأمام والخلف في غضبهم الهائج ضد الأعمال الوحشية النازية قبل الحرب، نسوا كل شيء حول هذه الأعمال الوحشية، ومن الواضح أنهم فقدوا تعاطفهم مع اليهود إلخ إلخ حالما بدأت الحرب تضجرهم. الشيء نفسه مع الناس الذين كرهوا روسيا مثل السم إلى ٢٢ يونيو/ حزيران ١٩٤١ ثم فجأة نسوا أعمال التطهير والجي بي يو، في اللحظة التي دخلت فيها روسيا الحرب. أنا لا أفكر في الكذب لغايات سياسية، وإنما بالتغييرات الفعلية في الشعور الشخصي. لكن هل لا يوجد أحد لديه رأي ثابت وقوي ووجهة نظر متوازنة؟ في الواقع هناك الكثير، لكنهم عاجزون وبلا أية سلطة. كل السلطة في أيدي المصابين بجنون الاضطهاد.

٢٩ أبريل/ نيسان

يوم أمس ذهبت إلى البرلمان لأسمع مناقشة وضع الهند. إنه عرض بائس باستثناء خطاب كريبس. هم الآن يجلسون في مجلس اللوردات. خلال خطاب كريبس، يتكون لدى المرء انطباع بأن المجلس مملوء، لكن عند تبدأ العد لا تجد سوى ٢٠٠ أو ٢٥٠ عضواً يكفون لملء أغلب المقاعد. كل شيء له منظر رث. وسائد حمراء على المناضد -أستطيع أن أقسم إنها كانت حمراء مترفة جداً في الماضي. مقدمة قمصان البوابين والحجاب قذرة جداً. حين رأيت هذا الهراء الكئيب يتواصل أو حين قرأت عن الأيام الأخيرة لعصبة الأمم، أو تهريج السياسيين الهنود مع تغييرهم المستمر لجبهاتهم واصطفافاتهم وسياساتهم واتهاماتهم واحتجاجاتهم وإيماءاتهم عموماً، أتذكر دائماً مجلس الشيوخ الروماني الذي وجد في آخر إمبراطورية. هذا انحطاط للديمقراطية البرلمانية، وهذه المخلوقات مجرد أشباح تثرثر في زاوية ما، بينما الأحداث الحقيقية تجري في مكان آخر.

٦ مايو/ أيار

لا يبدو أن الناس راضون عن مدغشقر (غزا الحلفاء المستعمرة الفرنسية ذات الأهمية الاستراتيجية التي تؤيد بيتان) كما فعلوا بخصوص سوريا (في عام ١٩٤١ أوشك الألمان على احتلال سوريا واتخاذها قاعدة جوية، فاستردها الحلفاء من فيشي الفرنسية، واحتفظوا بها إلى نهاية الحرب) ربما لم يستوعبوا جيداً مغزاها الاستراتيجي، لكن الأكثر في اعتقادي كان بسبب الحاجة إلى دعاية مناسبة معززة مسبقاً. في حالة سوريا، فإن وضوح الخطر والقصص المستمرة عن التسلل الألماني والشك الطويل إن كانت الحكومة ستتصرف، أعطى الناس الانطباع أن الذي فرض القرار هو الرأي العام. وحسب معرفتي ربما كان الأمر كذلك إلى حد ما. لا يوجد أي تحضير مماثل في هذه الحالة. حالما أصبح من الواضح أن سنغافورة كانت في خطر، أشرتُ إلى أننا قد نضطر إلى الاستيلاء على مدغشقر، والأفضل البدء بتعزيز صحفنا الإخبارية الهندية. لقد تعرضت للكبت إلى هذا الوقت، ومنذ عدة أسابيع أتت توجيهات أعتقد من وزارة الخارجية، أن مدغشقر كان يجب ألا تذكر. السبب المعطى (بعد نزول القوات البريطانية) "لكي لا نكشف سر العرض". النتيجة، فإن الهجوم على مدغشقر، يمكن أن يمثل في كل أرجاء آسيا كجزء من اغتصاب إمبريالي.

رأيت امرأتين تقودان عربة مربية أطفال قديمة الطراز اليوم (عربة يجرها حصانان). منذ أسبوع أو اثنين رأيت رجلين في عربة يجرها حصانان، وأحد الرجلين يرتدي قبعة مستديرة رمادية.....

٨ مايو/ أيار

حسب ما جاء عن إف جيه وربيرغ، سيوقع حلف أنغلوروسي والمندوبون الروس في لندن مسبقاً.

أنا لا أصدق هذا.

الراديو التركي (منذ بعض الوقت، في اعتقادي، كان المصدر الأفضل الموثوق للمعلومات) يزعم أن الألمان والروس يستعدون لاستخدام الغاز السام في المعركة القادمة.

معركة بحرية كبيرة جداً تدور في بحر الكورال (المرجان). حوادث الغرق التي ادعاها الطرفان كبيرة جداً، لذلك لا يعرف المرء من سيصدق منهما. لكن من استعداد ورغبة الراديو الياباني للحديث عن المعركة (لقد سموها مسبقاً معركة بحر الكورال) فالافتراض هو أنهم يعولون على تحقيق هدفهم........

١١ مايو/ أيار

إنذار آخر بالغاز (في خطاب تشرشل) ليلة أمس. أعتقد أننا سوف نستخدمه قبل أن تمر أسابيع كثيرة.

من نشرة إذاعية يابانية: "لكي تحقق العدالة للروح الوطنية عند الكوريين، قررت الحكومة إدخال التجنيد الإجباري في كوريا".

تاريخ الغزو الألماني لبريطانيا حسب الإشاعات: ٢٥ مايو/ أيار.

رأيت كريبس يوم الأربعاء، وهي أول مرة أتكلم معه في الواقع. كان الانطباع جيداً نوعاً ما. كان التحدث إليه سهلاً ومريحاً أكثر مما توقعت، وكنت مستعداً تماماً للرد على الأسئلة. رغم عمره البالغ ثلاثة وخمسين عاماً، فإن بعضاً من حركاته شبه صبيانية. من جانب آخر له أنف أحمر بلا ريب.

رأيته في واحدة من غرف الاستقبال أو مهما كان اسمها خارج مجلس اللوردات. طبعات قديمة ممتعة على الجدران، وتيجان على المقاعد وعلى منافض السجائر، لكن كل شيء في منظر فاسد بشكل غامض تملكه كل المنشآت البرلمانية الآن. قافلة من الناس الذين يصعب تصنيفهم، ينتظرون ليروا كريبس. بينما انتظرت لأحاول التكلم مع سكرتيره، خطرت ببالي عبارة أتذكرها دائماً في تلك المناسبات "يرتجف في غرفة انتظار" في السير الذاتية في القرن الثامن عشر، تقرأ دائماً عن أشخاص ينتظرون رعاتهم ورؤساءهم و"يرتجفون في غرف الانتظار". في واحدة من تلك العبارات الجاهزة مثل "لا تترك حجراً من دون أن تقلبه"، ولكن كم صحيح هذا حالما تصل إلى أي مكان قريب من السياسة، أو حتى الصنف الأغلى ثمناً من الصحافة. كريبس يعتبر أن بوز في الأراضي الألمانية. يقول إن المعروف أنه خرج عبر أفغانستان. سألته ما رأيه ببوز (الذي كان يعرفه جيداً)، ووصفه "ببيضة فاسدة بالكامل". قلت هناك شك قليل أنه مؤيد شخصي للفاشية. كريبس: "هو مؤيد لصبهاس. ذلك كل ما يهتم به. هو لن يفعل أي شيء يعتقد أنه سيساعد سيرته طويلاً".

أنا لست متأكداً من الدليل أن بث بوز الإذاعي كان بهذا الشكل. قلت إنني أعتقد أن بضعة هنود قليلين كانوا معادين للفاشية بشكل موثوق. كريبس يخالف الجيل الأصغر سناً. قال إن الشيوعيين الصغار والاشتراكيين اليساريين معادون مخلصون للفاشية، ولديهم فهم غربي للاشتراكية والأممية. دعنا نأمل أن الأمر هكذا.

١٩ مايو/ أيار

لم يذكرني اتلي بشيء أكثر من سمكة ميتة حديثاً قبل أن يمر عليها الوقت لتيبس.

٢١ مايو/ أيار

قيل إن مولوتوف في لندن. أنا لا أصدق هذا.

٢٢ مايو/ أيار

قيل إن مولوتوف ليس في لندن فقط، بل أن المعاهدة الأنغلو روسية وقعت مسبقاً. هذا يأتي من وربيرغ الذي يكون متفائلاً جداً ومتشائماً جداً بالتناوب - في أي حال هو يؤمن بالتغييرات الضخمة المثيرة. إن كان الخبر صحيحاً، فسيكون مصادفة سعيدة غير متوقعة من

أجل ملء رسالتي الإخبارية. بات من الصعب أكثر فأكثر أن تجد أي شيء تضعه داخل هذه (الرسائل) مع لا شيء يحدث باستثناء على ما يجري على الجبهة الروسية، والأخبار من هناك إن كانت من مصادر روسية أم ألمانية، فإنها تتزايد دجلاً أكثر فأكثر. أتمنى لو أستطيع أن أخصص أسبوعاً لأراجع البث الروسي والألماني في السنة الماضية، وأجمع مزاعمهم المتنوعة. يجب أن أقول إن الألمان يفترض أنهم قتلوا عشرة ملايين رجل، والروس تقدموا إلى مكان ما جيد خارج المحيط الأطلسي.......

٢٢ مايو/ أيار

إشاعات أكثر أن مولوتوف في لندن. أيضاً فقرات موجزة في الصحف، توحي أن الأمر يمكن أن يكون هكذا (من دون ذكر أسماء طبعاً).

٣٠ مايو/ أيار

كل يوم في جوار ريجنت ستريت تقريباً، يرى المرء يابانياً كهلاً أصفر جداً وصغيراً جداً مع وجه مثل وجه سعدان مريض يتعذب، يمشي ببطء إلى الأمام مع شرطي ضخم يمشي بجانبه، وفي بعض الأيام يعقدان محادثة رزينة. أعتقد أنه واحد من أركان السفارة. لكن لا أعرف إن كان الشرطي هناك ليمنعه من ارتكاب أعمال تخريب، أم لحمايته من الغوغاء الهائجة.

يبدو أن إشاعة مولوتوف، قد هدأت وربيرغ، الذي قبل قصة مولوتوف، من دون أي شك، نسيها الآن، وامتلأ بقصة داخلية عن سبب طرد غارفين من الأوبزيرفر. والسبب كان رفضه مهاجمة تشرشل. كل الأستوريين مصممين أن يتخلصوا من تشرشل، لأنه مؤيد للروس، وتغيير الأوبزيرفر جزء من هذه المناورة. يجب على الأوبزيرفر أن تقود الهجوم على تشرشل، وفي الوقت نفسه أن تشق الصحفيين الموهوبين الصغار القادرين على أن يعطوا الحرب معنى ثورياً، وجعلهم يستخدمون طاقتهم على العبثيات، إلى أن يمكن التخلص منهم. كل شيء محتمل بشكل طبيعي. من جانب آخر، أنا لا أعتقد من ديفيد أستور الذي يتصرف مثل الفيل الواقع في شرك، أن يشارك عن قصد في أي شيء كهذا. من المسلي ألا ترى سوى صحافة بيفربروك التي ليست مَلَكية أكثر من الملك بما يخص روسيا، أما أسبوعية نقابة العمال ليبور نورذيرن فويس، فقد اكتشفت فجأة أن غارفين معادٍ مشهور للفاشية، وأنه طُرد بسبب آرائه المتطرفة. (جيه إل

غارفين، صحفي يساري ورئيس تحرير الأوبزيرفر في بداية الحرب. حين كان في عمر متقدم، اختلف مع الفيسكونت أستور، مالك الصحيفة حول ملائمة تشرشل أن يكون رئيس وزراء، وبنفس الوقت وزيراً للدفاع -اللورد أستور شكك بصواب هذا. جعل اللورد أستور ابنه الثاني المبجل ديفيد أستور مساهماً ثانوياً في الجريدة، ورغم أن ديفيد أستور أمضى الحرب في مشاة البحرية، إلا أن له صوتاً في شؤون الجريدة. في نهاية الحرب، حوّل إل أستور الجريدة إلى تروست. أصبح ديفيد أستور محرر الشؤون الخارجية، ثم رئيس التحرير. التقى بأورويل في بداية الحرب، وبقيا صديقين حتى وفاة أورويل).

شيء واحد يلفت انتباه كل شخص في هذه الأيام، وهو النقص في ذكرياتهم. أخبرني ميزموند هوكينز (روائي وناقد أدبي ومذيع في البي بي سي) منذ فترة قصيرة، أنه جلب مؤخراً بعض السمك المقلي ملفوفاً في ورقة جريدة يعود تاريخها إلى عام ١٩٤٠. على أحد أطرافها مقالة تثبت أن الجيش الأحمر لم يكن جيداً. وعلى الجهة الأخرى تقرير مفصل عن ذلك البحار الشهم المشهور المحب للإنكليز الأدميرال دارلان. (الأدميرال دارلان، ضابط بحرية فرنسي وسياسي. كان آمر القوى البحرية الفرنسية حتى سقوط فرنسا في مايو/ أيار ١٩٤٠. أصبح وزير البحرية في حكومة بيتان، وكان الثاني في الوزارة بعد بيتان. اغتاله شاب فرنسي معادٍ للفاشية في الجزائر في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٢).

٤ يونيو/ حزيران

طقس حار جداً. تدهشني عادية الأشياء ونقص الاستعجال وقلة في البزات النظامية ومظهر عام غير حربي لمجموعات تندفع ببطء عبر الشوارع، وهي تدفع عربات أطفال، أو تتسكع في الساحات لتنظر إلى شجيرات الزعرور البري. من الملاحظ سلفاً أن هناك سيارات أقل أيضاً. هنا وهناك سيارة مع محول وقود في الخلف، لها مظهر عربة حليب قديمة الطراز. من الواضح أنه لا يوجد بترول مهرب كثير أخيراً.

٦ يونيو/ حزيران

مازالت إشاعة مولوتوف مستمرة. كان هنا للتفاوض على معاهدة، ورجع إلى بلاده كما قيل، لكن لا توجد أية إشارة أو تلميح في الصحف.

قيل إن هناك خلافاً كبيراً حول إدارة النيوستيتمان على قضية الجبهة الثانية. بعد سنة كاملة من الصراخ بأن علينا أن نفتح جبهة ثانية فوراً، همد كنغزلي مارتين وسكت (صحفي يساري ورئيس تحرير النيوستيتمان). يقول إن العدو لا يمكن الوثوق به، والجنود سيقتلون ضباطهم من وراء ظهورهم.. إلخ. هذا بعد محاولته طوال الحرب أن يجعل الجنود لا يثقون بضباطهم. في الوقت الراهن، أعتقد الآن أن هناك جبهة ثانية متوقعة بلا ريب، هذا إن توفر شحن كافٍ.

٧ يونيو/ حزيران

فترت همة وحماس السنداي إكسبريس. يبدو الخط الرسمي الآن يتجه إلى أن غاراتنا الجوية هي جبهة ثانية. من الواضح أن هناك نشرة تعليمات من الحكومة تخبر الصحف أن تسكت عن هذا الموضوع.

إذا رغبت الحكومة في أن توقف الصحف من نشر إشاعات مضللة، فلماذا لم يتم إسكاتها في وقت مبكر أكثر. من الممكن أنه تم تقرير الغزو الآن بالتأكيد، وطلب من الصحف أن تكون ضد الجبهة الثانية لكي تخدع العدو. في هذه المتاهة من الأكاذيب التي نعيش فيها، فإن التفسير الوحيد الذي لا يصدقه المرء أبداً، هو التفسير الواضح. قارن قصة ديفيد أستور عن لقاء اليهود الألمانيين في القطار:

اليهودي الأول: إلى أين أنت ذاهب؟

اليهودي الثاني: إلى برلين.

اليهودي الأول: كذاب! تقول ذلك لتخدعني فقط. أنت تعرف أنك إن قلت أنا ذاهب إلى برلين، فسأعتبر أنك ذاهب إلى لايبزغ. وأنت طول الوقت، أيها المحتال القذر، مصمم على الذهاب إلى برلين حقاً!"

الثلاثاء الماضي أمضيتُ مساء طويلاً مع كريبس (الذي عبر عن رغبته في مقابلة بعض الأدباء) ومع إيمبسون وجاك كومون وديفيد أوين ونورمان كاميرون وغاي بيرغيس ورجل آخر (مسؤول) لم أحصل على اسمه. استمر اللقاء حوالي ساعتين ونصف من دون أي شيء نشربه. إنه النقاش غير الحاسم المعتاد. على كل، فإن كريبس إنساني جداً ومستعد للاستماع. الشخص الذي واجهه كان جاك كومون. قال كريبس أشياء عديدة أذهلتني وأرعبتني قليلاً.

إحداها كان أن أشخاصاً كثيرين من الذين يعتبر رأيهم جديراً بالاعتبار، يعتقدون أن الحرب ستنتهي في أكتوبر/ تشرين الأول، أي أن ألمانيا ستدمَّر في ذلك الوقت. حين قلت إنني يجب أن أنظر إلى ذلك على أنه كارثة خالصة وبسيطة (لأنه إن تم الفوز بالحرب بهذه السهولة، فلن يكون هنا ثوران، وسيظل الأغنياء الأمريكيون في وضع طبيعي) يبدو أنه لم يفهم. قال إنه بمجرد أن يتم الفوز بالحرب فإن القوى الناجية العظمى سوف تدير العالم كوحدة، وبدا أنه لا يشعر أن هناك فرقاً كبيراً إن كانت القوى العظمى رأسمالية أو اشتراكية. ديفيد أوين والرجل الذي لم أعرف اسمه أيداه. رأيت أنني كنت ضد العقل الرسمي الذي يرى كل شيء عبارة عن مشكلة في الإدارة، ولا يفهم في نقطة محددة، أي أنه حين تهدد المصالح الاقتصادية فإن الروح الشعبية تتوقف عن القيام بوظيفتها. الفرضية الأساسية لمثل هؤلاء الناس أن كل واحد يريد العالم أن يعمل بشكل صحيح ومناسب، وسيبذل أقصى جهده للحفاظ على دوران العجلات. هم لا يدركون أن أغلب هؤلاء الذين يمتلكون السلطة والقوة، لا يكترثون البتة بالعالم ككل، وأن اهتمامهم الوحيد هو زيادة أموالهم الخاصة بهم.

لا أستطيع تحاشي الشعور بانطباع قوي أن كريبس رُشي مسبقاً ليس بالمال أو أي شيء من هذا النوع طبعاً، ولا حتى بالمداهنة والإحساس بالقوة التي في كل الاحتمالات هو لا يكترث بها بالأصل: لكن بمجرد المسؤولية التي تجعل الرجل رعديداً بشكل آلي. بالإضافة إلى ذلك، فحالما تكون في السلطة يقصر مدى مناظيرك. ربما تُشوه رؤية عين الطائر مثل رؤية عين الدودة....

١٠ يونيو/ حزيران

المرة الوحيدة التي يسمع المرء فيها أناساً يغنون في البي بي سي هي في الصباح الباكر بين الساعة السادسة والثامنة، وذلك هو الوقت الذي تعمل فيه الخادمات النهاريات؛ حيث يصل جيش ضخم منهن بنفس الوقت، فيجلسن في صالة الاستقبال ينتظرن مكانسهن التي توزع عليهن، ويثرن ضجيجاً كضجيج ببغاء في البيت، ومن ثم يشكلن فرقاً رائعة تغني معاً. يكنسن الممرات ويصبح للمكان جو مختلف في هذا الوقت عن كل الأوقات اللاحقة من اليوم.

١١ يونيو/ حزيران

أعلن الإمام في الراديو أن ساكني قرية ليديس التشيكية (١٢٠٠ ساكن تقريباً) كانوا مذنبين بإيواء قتلة مأجورين من هايريتش، فقاموا بقتل كل الذكور في القرية، وأرسلوا النساء إلى معسكرات الاعتقال، فيما أرسلوا كل الأطفال من أجل "تعليمهم وتربيتهم من جديد. كما جرفوا كل بيوت القرية وسووها بالأرض وبدلوا اسمها. أنا أحتفظ بنسخة من الإعلان حين سجل في تقرير البي بي سي الصباحي. لم يفاجئني بشكل خاص أن يفعل الناس هذا النوع من الشيء، ولا حتى أنهم يعلنون جهاراً أنهم يفعلونه، لكن الذي يؤثر بي هو أن رد فعل الناس الآخرين على مثل هكذا أحداث، محكوم فقط بالموضة السياسية اللحظية. وهكذا، قبل الحرب كان الورديون يصدقون كل قصة رعب خرجت من ألمانيا أو الصين، والآن لم يعد الورديون يصدقون الأعمال الوحشية الألمانية أو اليابانية، وحذفوا بشكل آلي كل قصص الرعب، واعتبروها "دعاية". وبعد وقت قصير سوف يُسخر منك إذا قلت إن قصة ليديس يمكن أن تكون صحيحة. وعلى الرغم من أن الحقائق موجودة، فقد أعلن الألمان عنها بأنفسهم، وسُجلت على أقراص الحاكي، ومازالت متوفرة بلا شك. قارن قائمة الأعمال الوحشية الطويلة من عام ١٩١٤ فصاعداً، الأعمال الوحشية الألمانية في بلجيكا، والأعمال الوحشية البلشفية، والأعمال الوحشية التركية، والأعمال الوحشية البريطانية في الهند، والأعمال الوحشية الأمريكية في نيكاراغوا، والأعمال الوحشية النازية، والأعمال الوحشية الإيطالية في إثيوبيا وسيرناسيا، والأعمال الوحشية للحمر والبيض في إسبانيا، والأعمال الوحشية اليابانية في الصين- كل حالة تصدق أو لا تصدق حسب الميول السياسية مع عدم اهتمام مطلق بالحقائق، ومع استعداد تام لتبديل معتقدات المرء فور تبدل المشهد السياسي.

الأعمال الوحشية (بعد ١٩١٨)

التاريخ يصدقه اليمين واليسار

١٩٢٠ الأعمال الوحشية التركية (سميرنا).

أعمال سين فين الوحشية. أعمال بلاك أند تان الوحشية البلشفية، والأعمال الوحشية البريطانية في الهند (أرميستار).

١٩٢٣ الأعمال الوحشية الفرنسية (الرور).

١٩٢٨ الأعمال الوحشية الأمريكية (نيكاراغوا) (؟)

١٩٣٣ الأعمال الوحشية البلشفية (مجاعة أوكرانيا).

١٩٣٩-٤٣ الأعمال الوحشية النازية.

١٩٣٥ الأعمال الوحشية الإيطالية (إثيوبيا وسيرناسيا).

١٩٣٦-٩ أعمال الحمر الوحشية، وأعمال الفاشيين الوحشية في إسبانيا.

١٩٣٧ الأعمال الوحشية البلشفية، والأعمال الوحشية اليابانية (التطهير العرقي) (نانكينغ).

١٩٣٩ أعمال وحشية ألمانية، وأعمال وحشية بريطانية (اس اس دنيرا إلخ).

١٩٤١ أعمال وحشية يابانية.

١٣ يونيو/حزيران

الحقيقة الأكثر تأثيراً حول زيارة مولوتوف، هي أن الألمان لا يعرفون شيئاً عنها. لم تذكر كلمة واحدة في الراديو حول حضور مولوتوف إلى لندن، إلى أن أعلن رسمياً عن توقيع المعاهدة، لكن الراديو الألماني كان يصرخ طوال الفترة عن بلشفة بريطانيا. من الواضح أنهم كانوا سيكشفون السر لو عرفوا به فعلياً. وبحساب الأشياء المترابطة الأخرى (مثلاً أسر جواسيس هواة في العام الماضي أسقطوا بالمظلات مع أجهزة بث لاسلكية محمولة ومع قطع من السجق الألماني في حقائبهم). هذا يوحي أن النظام الجاسوسي الألماني في هذه البلاد، غير جاهز وغير قادر على الكثير....

١٥ يونيو/ حزيران

من تقرير لإذاعة البي بي سي.

براغ تحت الوصاية الألمانية. ١٠-٦-٤٢ انتقام هايدنش: قرية جرى مسحها من الوجود: قتل كل الرجال رمياً بالرصاص:

إعلان.

أعلن رسمياً: أن البحث والتحقق من قتلة الجنرال هايدريتش من الإس إس (القوة الشرطية النازية) أثبتت إشارات لا تقبل الشك أن سكان ليديس المحليين قرب كاندو، قد أيدوا ودعموا وقدموا المساعدة إلى دائرة المتآمرين المعنيين. بالرغم من استجواب السكان المحليين، إلا أن وسائط الدليل الوثيقة الصلة كانت مصانة من دون مساعدة السكان. إن موقف السكان من الهجوم الوحشي ظاهر جداً، وتؤكده أعمال أخرى معادية للرايخ، مثل اكتشاف مواد مطبوعة معادية للرايخ، ومخازن ذخيرة وأسلحة، وأجهزة إرسال لاسلكية غير شرعية، وكميات ضخمة من بضائع ممنوعة، وأيضاً بحقيقة أن سكان المحلة في خدمة وكالة فعالة معادية في الخارج. بما أن سكان هذه القرية انتهكوا القوانين الصادرة بشكل فاضح بنشاطهم ودعمهم الذي قدموه لقتلة أوبرغروبين فوهرر هايدريتش، فقد تم إعدام الذكور البالغين رمياً بالرصاص، وإرسال النساء إلى معسكرات الاعتقال، وتسليم الأطفال إلى سلطات تعليمية مناسبة، كما سويت أبنية القرية بالأرض، وتم إلغاء اسمها أيضاً.

ملاحظة: هذا تكرار باللغة الألمانية مطابق لإعلان باللغة التشيكية من براغ، الساعة التاسعة عشرة حين كان الاستقبال رديئاً جداً......

لا شك الآن أن الجبهة الثانية قد أقرت. كل الصحف تتحدث عنها كشيء مؤكد، وموسكو تعلنها بشكل واسع. إن كانت عملية ومعقولة حقاً، فهذا يبقى قيد الانتظار طبعاً.

٢١ يونيو/ حزيران

الشيء اللافت في البي بي سي - هو بوضوح نفس الشيء في أقسام أخرى مختلفة- ليست القذارة الأخلاقية الكثيرة والعقم الجوهري لما نقوم به، بقدر ما يكون الشعور بالإحباط واستحالة عمل أي شيء حتى ولو قطعة ناجحة من النذالة. سياستنا مشتتة جداً والتشوش كبير جداً، وهناك تغييرات كثيرة جداً في الخطة، وخوف من الذكاء وكره شامل جداً له، لذلك لا يستطيع المرء أن يخطط أي نوع من حملة إذاعية أياً كان نوعها. حين يخطط المرء سلسلة من الأحاديث مع خط دعائي محدد تقريباً خلفها، يقال له تابع، وتقدم في الأول ثم يختنق على أساس أن هذا أو ذاك "طائش" أو "ليس في وقته"، ثم يقال له ثانية تابع، ثم يقال له أن تخفف تركيز كل شيء، وتتوقف عن أي تعبير واضح قد يتسلل هنا أو هناك، ثم يقال له أن "يعدل" السلسلة بطريقة ما لدرجة تزيل معناها الأصلي. وفي اللحظة الأخيرة يلغى

الشيء كله فجأة بمرسوم وأمر غامض من الأعلى، ويقال للمرء أن يرتجل سلسلة مختلفة لا يشعر المرء أي اهتمام بها، والتي في أي حال ليس لها فكرة محددة خلفها. يتظاهر المرء باستمرار بمجرد هراء بسبب امتلاك أحاديث تبدو ذكية جداً وتلغى في اللحظة الأخيرة. بالإضافة إلى ذلك، فإن هناك في المنظمة موظفين زائدين لدرجة أن هناك عدداً من الأشخاص ليس لديهم أي عمل حرفياً. لكن حتى حين ينجح المرء في الحصول على شيء جيد نوعاً ما على الهواء، فإن ما يقله هي معرفته بعدم وجود أحد يستمع إليه. باستثناء أوروبا كما أعتقد، لا أحد يستمع إلى البي بي سي في ما وراء البحار، وهي حقيقة معروفة لكل شخص مهتم بالبث وراء البحار. أجريت بعض بحوث إصغاء في أمريكا، ومعروف أنه لا يوجد سوى ٣٠٠ ألف شخص في الولايات المتحدة كلها يستمعون إلى البي بي سي. وفي الهند أو أستراليا لن يكون العدد قريباً من ذلك أبداً. وتبين مؤخراً (أي سنتان بعد أن بدأت الخدمة الإمبراطورية) أن الكثير من الهنود لا يعرفون أن البي بي سي تبث للهند على موجات الراديو القصيرة.

الأمر نفسه مع النشاط الشعبي الوحيد الآخر الذي أشارك فيه، الحرس الوطني. بعد سنتين لم يجر أي تدريب حقيقي، ولم تنفذ أي تكتيكات خاصة، ولم تثبت أي مواقع قتالية، ولم تُبْنَ أي تحصينات- كل شيء خاضع إلى تغييرات لانهاية لها من الخطط وغموض تام بالنسبة إلى ما يفترض أنه هدفنا. تفاصيل المنظمة ومواقع القتال تتبدل بشكل متكرر جداً، لذلك لا أحد يعرف في أية لحظة ما هي التدابير الراهنة المفترضة. سأعطي مثالاً واحداً: ظلت كتيبتنا تحاول حفر شبكة من الخنادق في ريجينت بارك لأكثر من سنة في حال إنزال قوات محمولة جواً هناك. وعلى الرغم من أننا حفرنا مرات كثيرة، إلا أن هذه الخنادق لم تكن في حالة تامة أبداً، إذ بعد أن نكمل نصف العمل، تكون هناك دائماً تغييرات في الخطة وأوامر جديدة ثم تبديل آخر، وهكذا بشكل غير محدود. لا شيء يحدث أبداً باستثناء العمل العصبي والاضطراب المستمر الناتج عن خيبات أمل متوالية شاملة. أفضل ما يستطيع المرء تمنيه، هو أن يكون الأمر نفسه على الجانب الآخر.

٢٤ يونيو/ حزيران

استمعتُ ليلة أمس إلى اللورد هاو-هاو -ليس جويس الذي يبدو أنه انقطع عن الهواء لبعض الوقت، وإنما رجل بدا لي كأنه جنوب أفريقي، ثم تلاه رجل آخر ذو لهجة كوكنية

أكثر. كان هناك قدر جيد حول حركة مؤتمر الهند الحرة في بانكوك، لكني دهشت حين لاحظت أن الأسماء الهندية كلها لُفظت بشكل خاطئ جداً - مثال راس بيهاري بوز تحول إلى راس بيري بوز، على الرغم من توفر كل الهنود الذين يبثون من ألمانيا للنصح في هذه النقاط. ربما هم يدخلون ويخرجون من نفس البناء كما اللورد هاوهاو كل يوم، لكن من المشجع قليلاً أن ترى هذا النوع من القذارة يحدث على الجانب الآخر أيضاً.

(راس بيهاري بوز، قومي هندي عمل من أجل استقلال بلاده منذ ١٩١١ كان مسؤولاً عن تنظيم حركات إرهابية. وفي عام ١٩١٥ ذهب إلى اليابان ليعبئ دعماً آسيوياً لعصبة استقلال الهند التي نظمت الجيش الهندي الأممي. في عام ١٩٤٣ انتقلت قيادة الجيش إلى سوباهس شاندرا بوز).

٢٦ يونيو/ حزيران

كل واحد بدا انهزامياً جداً بعد قضية ليبيا (في ٢٠ يونيو/ حزيران سقطت طبرق بيد الألمان، وشكلت نكسة للحملة الشمال أفريقية). بردت بعض الصحف بخصوص الجبهة الثانية مرة أخرى. توم دريبيرغ (ويليام هيكي) ربح الانتخابات الفرعية مسجلاً ضعف أصوات المرشح المحافظ. هذه رابع مرة من أصل آخر ست انتخابات تخسرها الحكومة.

١ يوليو/ تموز

في كالو ايند، وركس (مقيم في مزرعة). لا ضجيج سوى الطائرات والطيور وجزازات العشب التي تقص القش. لا ذكر للحرب باستثناء الإشارة إلى الأسرى الإيطاليين الذين يعملون في بعض المزارع، والذين كما يبدو أنهم اعتبروهم عمالاً جيدين ومن أجل قطف الفاكهة، وهم يفضلون على أهالي البلدات الآتين من ورسيستر، ووصفوا بـ "البارعين" بالرغم من صعوبات الإطعام، توجد وفرة من الخنازير والدواجن والإوز والديوك الرومية في المتناول، والزبدة في كل وجبة في هذا المكان.

قاذفات ضخمة فوق رؤوسنا طوال اليوم. أيضاً تقوم طائرات بأشياء غير عادية، مثل جر طائرات أخرى بسلك (ربما طائرات شراعية؟) أو تحمل طائرات أصغر على ظهورها.

٣ يوليو/ تموز

فشل تصويت توجيه اللوم ب ٤٧٥-٢. هذا الرقم يعني أن هنالك حالات امتناع قليلة جداً. نفس الخدعة كالعادة -تحول النقاش إلى طلب تصويت ثقة في تشرشل نفسه الذي يجب أن يُعطى ذلك له، حيث لا يوجد أحد يأخذ مكان تشرشل. يمكن جعل الأمور أسهل على الحكومة بواسطة الدوافع السيئة الواضحة لمهاجميها الرئيسيين كـ هور-بيليشا مثلاً. أنا لا أعرف إلى متى يمكن أن تستمر هذه الكوميديا، لكن ليس لفترة أطول. (ليزيل هور بيليشا، عضو برلمان ووزير حرب، طرده تشامبرلاين، وبقي بلا منصب في عهد تشرشل).

ليس هناك أية إشارة حول الجبهة الآنية في خطاب تشرشل.

من الواضح أن اليابانيين سيهاجمون روسيا قريباً جداً. يبدو أنهم مستقرون بقوة في اللوشيان الخارجي، الذي لا يمكن فهمه إلا كحركة لقطع الاتصالات بين روسيا والولايات المتحدة الأمريكية.

الورديون يقتلهم الذعر، لدرجة أنهم لم يتعادلوا منذ دونكيرك. مقالة النيوستيتمان الأهم معنونة بالتالي: "مواجهة الشبح". اعتبروا خسارة مصر أمراً بديهياً. يعرف الرب إن كان هذا سيحدث فعلياً، لكن هؤلاء الناس تنبؤوا بخسارة مصر مراراً وتكراراً من قبل، لدرجة أن عملهم هذا مرة أخرى يكفي لإقناع المرء بأنه لن يحدث. الغريب أنهم كيف يعملون دائماً ما يريد الألمان منهم أن يفعلوه - مثال: لفترة من الوقت في الماضي طالبوا أن نوقف الغارات على ألمانيا، ونرسل قاذفاتنا إلى مصر. قبل ذلك بقليل كنا نرسل قاذفاتنا إلى الهند. على كل حال، إنها نفس الحركة التي تطالب بها محطات ألمانيا "الحرة". شيء آخر يلفت انتباهي أيضاً، وهو الترفع الهوائي الذي يتحدث فيه كل الورديين عن غاراتنا الجوية على ألمانيا -غارات جوية لا تحقق سوى تأثير بسيط إلخ إلخ. وهؤلاء هم الناس الذين كانوا يزعقون بأعلى الأصوات أثناء الغارات الجوية على لندن.....

١٠ يوليو/ تموز

منذ يوم أو يومين وصلت شاحنتان تعودان للبحرية مع فريق من الخدمة البحرية الملكية النسائية، وبحارة أمضوا عدة ساعات من العمل في إزالة اللفت من حقل السيد فيليب. كل

نساء القرية ابتهجن بمنظر البحارة في سراويلهم الزرقاء وقمصانهم البيض. "ألا يبدون نظيفين! أنا أحب البحارة. هم يبدون نظيفين دائماً". البحارة وخدمة البحرية الملكية النسائية، بدوا أيضاً مستمتعين بوجودهم في الخارج وبالشراب في الحانة بعد ذلك. بدا أنهم ينتمون إلى منظمة تطوعية ترسل عمالاً إلى الأماكن المحتاجة.

شرح السيد الأمر قائلاً: "إنها منظمة تطوعية من مالفيرن، وهي ترسل الخدمة المحلية الثانوية (الفرع النسائي في الجيش) أحياناً، وأحياناً أخرى ترسل بحارتها. طبعاً نحن نحب أن يعملوا لدينا. حسناً هذا يجعلك مستقلاً قليلاً بعمالك الخاصين بك كما ترى. إن العمال بغيضون في هذه الأيام. يعرفون أنك لا تستطيع الاستغناء عنهم. ولا تستطيع أيضاً أن تجد امرأة تقوم لك بالعمل داخل البيت في هذه الأيام. الفتيات لا يبقين هنا من دون وجود دار سينما في القرية. لدي امرأة تأتي، لكني لا أستطيع الحصول على أي عمل منها. والذي يساعد قليلاً هو أن تحصل على بضع عمال متطوعين. يجعلك الأمر أكثر استقلالاً".

كم هو صحيح ومناسب، حين تفكر كم هو ضروري ألا يُهمل العمل الزراعي، وكم هو صحيح ومناسب أيضاً أن يكون لأهل المدن والبلدات القليل من التواصل والاحتكاك مع التربة. مع ذلك يبقى عمل المنظمات التطوعية والعمل الذي يقوم به البحارة في صناعة القش وغيرها والأسرى الإيطاليين، هو مجرد عمل مستأجر......

أغلق "الجرس الأزرق" مرة أخرى بسبب نقص البيرة. سكر جدي لمدة أربعة أو خمسة أيام في الأسبوع ثم ظمئ. لكن أحياناً حين يغلقون، يُرى الضباط المحليون يشربون في غرفة خاصة ـ بينما يُطرد الجنود العاديون بالإضافة إلى العمال. "الأسد الأحمر" في القرية التالية يعمل بنظام مختلف، يفسره المالك لي: "أنا لا أؤيد إعطاءها كلها لزوار الصيف. إن كان هناك نقص في البيرة، دع الناس المحليون يأتون أولاً. كثير من الأيام أبقي الباب الأمامي مغلقاً، ومن ثم لا يعرف سوى الناس المحليين طريق الدخول من الخلف. رجل يعمل في الحقول يحتاج إلى بيرته خصوصاً مع الطعام الذي يجب أن يأكله في هذه الأيام. لكني أعطيهم حصصاً. أقول لهم "الآن انظروا إليّ، أنتم تريدون بيرتكم نظامية ودائمة أليس كذلك؟ أليس من الأفضل أن تشربوا باينتاً واحداً كل يوم بدلاً من أربعة باينتات في يوم واحد، والثلاثة أيام التالية تكونون عطشانين". نفس الشيء مع الجنود. أنا لا أحب أن أحرم أي بحار من البيرة،

لكني فقط أدعهم يأخذون باينت واحد في شربتهم الأولى. بعد ذلك نصف باينت فقط يا أولاد. بهذا الشكل توزع الحصص، وكل واحد يحصل على حصة قليلة.

٢٢ يوليو/ تموز

من رسالة أحمد علي الأخيرة من الهند:

هذا قليل جداً من دلهي القديمة قد يهمك:

في شارع مزدحم، هناك بائع صحف يصيح باللغة الأوردية: "بانديت جواهر لال يقول إن مسبحته هي الطريق". المقصود أنه بدّل موقفه نحو الحكومة، وحين سئل قال: "لا يمكنك أبداً الوثوق به؛ اليوم يقف بجانب الحكومة ويساعد في جهد الحرب، وغداً يفعل العكس تماماً". ثم ابتعد عني كثيراً، وبدأ يصرخ مضيفاً: "جواهرلال تحدى الحكومة". لكني لم أجد هذا "التحدي" في الصحف.

بائعو صحف آخرون يبيعون صحفاً أوردية: "ألمانيا حطمت روسيا في الهجوم الأول بالذات" لا حاجة للقول إنني قرأت عكس هذا تماماً في الصحف الإنكليزية في صباح اليوم التالي. من الواضح أن صحف الأوردو نقلت أخبارها مما قاله راديو برلين. لا أحد يمنع بائعي الصحف من الصياح بما يحبونه في هذه الأيام.

في أحد الأيام كنت ذاهباً إلى "تونغا"، فسمعت سائقاً يصرخ بحصانه الذي جفل: "لماذا تراجعت مثل ساركار خاصتنا! تقدم مثل هتلر"، ثم شتم ولعن.

الشيء الممتع، هو الخروج إلى الأسواق الشرقية والاستماع إلى صخب القيل والقال- بشرط طبعاً ألا يكون الجو حاراً بشكل لا يطاق. سوف أخبرك من وقت إلى آخر إن كنت مهتماً.

٢٣ يوليو/ تموز

أنا اكتب مواد في هذه المذكرة، أقل بكثير مما كنت أفعل، وذلك لأنني لا أملك حرفياً أي وقت احتياطي لذلك، على الرغم من أنني لا أفعل شيئاً ليس عبثاً، وليس لدي سوى القليل أظهره بدلاً عن الوقت الذي أضيعه. يبدو لي أن الحال نفسه مع كل واحد- الشعور المخيف جداً من الإحباط ومن حماقة عمل الأشياء البلهاء، ليست بلهاء لأنها جزء من الحرب والحرب غبية بالأصل، لكنها أشياء في الحقيقة لا تساعد أو بأي حال تؤثر على جهد الحرب، لكنها

تعتبر ضرورية من قبل الآلة البيروقراطية الضخمة التي نحن عالقون في شراكها. الكثير من الهراء الذي يخرج من البي بي سي، مجرد طلقة في الغلاف الجوي لا يصغي إليه أحد، ومعروف لهؤلاء المسؤولين عن هذا الهراء، أن لا أحد يستمع إليه. وحول هذا الهراء العقيم، يتجمع مئات من العمال المهرة، يكلفون البلاد عشرات الآلاف في كل سنة، وينضم إليهم آلاف آخرون ليس لديهم في الحقيقة أية وظيفة حقيقية، لكنهم وجدوا لأنفسهم كوة هادئة وجلسوا فيها متظاهرين بالعمل. الحال نفسه في كل مكان، وخصوصاً في الوزارات.

إن الخبز الذي يرميه المرء على المياه أحياناً، يصل إلى أماكن غريبة. لقد أجرينا سلسلة من ستة أحاديث حول الأدب الإنكليزي الحديث، برنامج ثقافي جداً كما أعتقد ولم يُستمع إليه أبداً في الهند. هسياو تشين طالب صيني، يقرأ الأحاديث في ذا ليسنار، وهو متأثر جداً بها، لذلك بدأ يكتب كتاباً باللغة الصينية عن الأدب الغربي الحديث، معتمداً كثيراً على أحاديثنا. لهذا فإن الدعاية الموجهة إلى الهند تخطئ الهند وتضرب الصين بالصدفة. ربما أفضل طريقة للتأثير على الهند، تكون بالبث إلى الصين.

اعتُبر الحزب الشيوعي الصيني وصحافته قانونيين مرة جديدة، وأقول بعد هذا إنهم يجب أن يرفعوا الحظر عن الديلي ووركر، وإلا سيكون الوضع سخيفاً جداً.

هذا يذكرني بالقصة التي حكاها لي ديفيد أوين، والتي أعتقد أنها لم تدخل في مذكراته. عند وصول كريبس إلى الهند، طلب من نائب الملك أن يطلق سراح الشيوعيين المحتجزين والمعتقلين. وافق نائب الملك (أعتقد أن أغلبهم أطلق سراحهم منذ ذلك الحين)، لكن في آخر لحظة، تردد وقال بعصبية: "لكن كيف تستطيع أن تتأكد بأنهم شيوعيون فعلاً؟".

قيل إننا سوف نضطر إلى زيادة استهلاكنا من البطاطا بنسبة عشرين بالمئة، جزئياً لتوفير الخبز، وجزئياً للتخلص من موسم البطاطا الذي كان هائلاً هذه السنة.

٢٦ يوليو/ تموز

عن مناورات الحرس الوطني. مررت أمس واليوم بمعسكرات صغيرة متنوعة للجنود في الغابات ومحطات تحديد المواقع بالرادار إلخ، ولفت انتباهي مظهر الجنود وصحتهم الرائعة والنظرة الوحشية في وجوههم. كلهم شبان ويانعون مع أطراف سمينة مدورة ووجوه موردة

وبشرة نظيفة جميلة. لكن سيماءهم بهيمية وقحة- ليسوا متوحشين أو شريرين بأي حال، وإنما مخدرون بالملل والضجر والعزلة والسخط والتعب اللانهائي والصحة البدنية.

٢٧ يوليو/ تموز

تحدثتُ اليوم مع أحد المذيعين المالطيين. يقول إنه قادر على أن يبقى على اتصال جيد مع مالطا، وإن الظروف هناك سيئة جداً و"آخر رسالة استلمتها وصلتني هذا الصباح كانت مثل - كيف سأقول إنها مثل المنخل، فقد قطعها وقصها الرقيب، أنت تفهم ذلك لكني عرفت منها رغم ذلك". تابع ليخبرني، من بين أشياء، أن خمسة باوندات من البطاطا تكلف الآن ما يعادل ثمانية شلنات. هو يعتبر أن القافلتين الاثنتين اللتين حاولتا الوصول إلى مالطا، الأولى من إنكلترا التي نجحت في الوصول إلى هناك كانت تحمل ذخائر، والقافلة القادمة من مصر التي فشلت في الوصول إلى هناك كانت تحمل الغذاء. أنا قلت "لماذا لا يستطيعون إرسال طعام مجفف بالطائرة؟". هز كتفيه متظاهراً بشعور غريزي أن الحكومة البريطانية لن تذهب إلى تحمل هذا العناء الكبير من أجل مالطا، على الرغم من أن المالطيين يبدون مؤيدين راسخين لبريطانيا، والفضل في ذلك يعود إلى موسوليني طبعاً.

يزعم البث الإذاعي الألماني أن فوروشيلوف في لندن، وهو الشيء غير المحتمل، والذي لم تنتشر إشاعات حوله هنا. ربما كانت رمية في الظلام، لكي يعوضوا عن فشلهم في حالة مولوتوف، واستقروا على الرواية التالية: إن مندوباً روسياً رفيع المستوى يحتمل أن يكون هنا في هذه اللحظة. إن كانت القصة صحيحة، فيجب عليّ أن أنقح أفكاري عن المخابرات الألمانية وأعدها في هذه البلاد.

قُدّر الحشد الذي حضر إلى اجتماع الجبهة الثانية في ساحة ترافليغار أمس، بأربعين ألفاً في الصحف اليمينية وستين ألفاً في صحف اليسار، ولكنه ربما يكون خمسين ألفاً في الحقيقة. تتحدث تقارير سرية بأنه على الرغم من الخط الشيوعي الحالي من "كل السلطة لتشرشل" إلا أن المتحدثين الشيوعيين في الحقيقة يهاجمون الحكومة بعنف شديد.

٢٨ يوليو/ تموز

قرأت اليوم صحفاً أقل من المعتاد، لكن الصحف التي رأيتها سكتت فجأة عن الحديث عن الجبهة الثانية باستثناء النيوز كرونيكلز. نشرت إيفنينغ نيوز مقالاً مضاداً للجبهة الثانية،

بقلم الجنرال برانريغ على صفحتها الأولى. علقت على هذا إلى هربرت ريد الذي قال بتشاؤم "أخبرتهم الحكومة أن يسكتوا حولها". صحيح طبعاً أنه إذا كانوا عازمين أن يبدؤوا شيئاً ما، فيجب عليهم أن ينكرونه ظاهرياً. قال ريد إنه يعتقد أن الوضع في روسيا يائس، وبدا منزعجاً جداً حوله، رغم أنه كان في الماضي أكثر عدائية لستالين مني. قلت له "ألا تشعر باختلاف تام نحو الروس حين أصبحوا في مأزق الآن؟" ووافقني الرأي. بخصوص تلك المسألة، شعرتُ بشعور مختلف تماماً نحو إنكلترا حين رأيت إنكلترا في ورطة. عند استعراض الماضي أرى أنني كنت معادياً للروس (أو بصورة أدق معادياً لستالين) أثناء السنوات التي ظهرت فيها روسيا جبارة عسكرياً وسياسياً، أي من ١٩٣٣ إلى ١٩٤١ أما قبل تلك الفترة وبعدها، فكنت مؤيداً للروس. يمكن للمرء أن يفسر هذا بطرق عديدة مختلفة.

غارة صغيرة على ضواحي لندن ليلة أمس. المدفعية الصاروخية الجديدة التي يدير بعضها الحرس الوطني الآن، اشتركت في المعركة، وقيل إنها أسقطت بعض الطائرات (٨ طائرات). هذه هي المرة الأولى التي يستطيع الحرس الوطني أن يقول إنه اشترك في معركة بعد أكثر من سنتين من تشكيله. لا يعترف الألمان بالضرر الذي يصيب الأهداف العسكرية أبداً، لكنهم يعترفون بخسائر الأرواح المدنية بعد غاراتنا الكبيرة. فبعد غارة هامبورغ منذ ليلتين، وصفوا الخسائر بالثقيلة، والصحف هنا تعيد نشر هذا الخبر بفخر. منذ سنتين كنا نندهش كلنا ونرتعب من فكرة قتل المدنيين، وأتذكر القول لأحد ما أثناء الغارات الجوية: متى سيرد سلاح الجو الملكي على القصف بأقصى ما يستطيع من القصف. في غضون سنة واحدة سترى عناوين في الديلي إكسبريس: "غارة ناجحة على دار أيتام برلين. الأطفال يحترقون". لم يصل الأمر إلى ذلك بعد، لكنه التوجه الذي نسير فيه.

أغسطس/ آب

إذا كانت الأرقام المعطاة لي صحيحة، فإن الألمان خسروا عشرة بالمئة من قوتهم في كل الغارات الأخيرة. حسب ما جاء عن بيتر ميسفيلد (مراسل جوي للسنداي تايمز، ومستشار شخصي لبيفربروك) هذا لا علاقة له بالمدافع الجديدة، وإنما يعود إلى فعل الطائرات المقاتلة الليلية. هو أخبرني أيضاً أن المقاتلة إف دبليو ١٩٠ أفضل بكثير من أي مقاتلة نملكها الآن في الخدمة الفعلية. رجل يبني السفن الطائرة اسمه باوير، كان يبث معه، يوافقه على هذا. أوليفر

ستيوارت (الميجور أوليفر ستيوارت، خبير في علم الطيران وصحفي ومذيع ومراسل جوي للمانشستر غارديان) يعتبر أن الغارات الألمانية الجديدة غارات استطلاعية، وأنهم ينوون بدء غارات القصف من جديد قريباً بأي حال، هذا إن استطاعوا إطلاق أيديهم في روسيا.

لم أفعل الكثير حول عطلة البنوك في نهاية الأسبوع. كنت مشغولاً في كل ثانية بصنع قن للدجاج. هذا النوع من الشيء الآن يحتاج إلى براعة كبيرة بسبب الصعوبة القصوى في الحصول على الخشب. لا شعور بالذنب أو تضييع الوقت حين أعمل أي شيء من هذا النوع -على العكس هناك شعور غامض بأن أية مهنة عاقلة يجب أن تكون نافعة أو مبررة بأي مقياس.

٣ أغسطس/ آب

يقول ديفيد أستور إن تشرشل في موسكو، ويقول أيضاً لن تكون هناك جبهة ثانية. لكن إذا طُلبت جبهة ثانية، فيجب على الحكومة أن تفعل كل ما في وسعها لنشر انطباع معاكس مسبقاً. وديفيد أستور قد يكون واحداً من الناس الذين اعتادوا على زرع الإشاعات.

يقول ديفيد أستور إنه حين يتم إنزال المغاوير، فإن الألمان لن يقاتلوا أبداً، وسينسحبون فوراً، ولا شك أن لديهم أوامر ليفعلوا هذا. هذه حقيقة ليس من المسموح نشرها -مبرر مفترض لمنع العامة من أن يصبحوا مسرفين في الثقة.

حسب ما قاله ديفيد أستور: كريبس لا ينوي أن يستقيل من الحكومة، ولديه خطة بديلة جاهزة. هو لا يستطيع طبعاً التكلم عن هذا علناً، لكنه سيعمل هكذا في السر. على كل حال، سمعت أن (جون) ماكموراي حين أقام مع كريبس مؤخراً، لم يستطع أن يحصل على شيء منه مهما كان بخصوص نواياه السياسية.

٤ أغسطس/ آب

الراديو التركي (من بين وسائل بث أخرى) قال أيضاً إن تشرشل في موسكو.

٥ أغسطس/ آب

رعب عام من فعل حكومة الهند المتهور بنشر وثائق استولت عليها في غارة شرطية على مقرات حزب المؤتمر (بعد فشل مهمة كريبس إلى الهند، أصبح حزب المؤتمر متصلباً جداً. وفي أول أغسطس/ آب تولى غاندي حملة عصيان مدني. أغارت الحكومة على مقرات حزب

المؤتمر في محاولة لضمان النظام، واستولت على نص المسودة الأصلية لقرار استقلال الهند الذي سلم إلى اللجنة العاملة في حزب المؤتمر التي نشرته فيما بعد). كالمعتاد فإن الوثيقة الحاسمة قادرة على أن تحمل أكثر من تفسير، والنزاع الناتج سيحول ببساطة العناصر المتأرجحة في الكونغرس ليكونوا معادين أكثر لبريطانيا. الشعور المعادي للهند الذي أثارته الصحف في أمريكا وربما روسيا والصين، ليس فيه أية فائدة لنا على المدى البعيد.

أعلنت الحكومة الروسية اكتشاف مؤامرة قيصرية من النمط القديم جداً. لا أستطيع تحاشي شعور غامض أن هذا مرتبط بشكل ما مع اكتشاف متزامن لمؤامرة غاندي مع اليابانيين.

٧ أغسطس/ آب

هيو سلاتر مكتئب وقانط جداً حول الحرب. يقول إنه في المعدل الذي يتراجع به الروس، ليس مستحيلاً أن ينجو تيموشنكو بجيشه سليماً كما نقلت التقارير (المارشال تيموشينكو انسحب بنجاح عبر الدون ليدافع عن الفولغا قرب موسكو). يقول أيضاً إن نغمة صحافة موسكو والراديو، تبين أن المعنويات في روسيا يجب أن تكون سيئة جداً. أنا أعرف كما كل واحد تقريباً باستثناء وربيرغ، أنه لن تكون هناك أية جبهة ثانية. وهذا استنتاج يستنتجه كل واحد من زيارة تشرشل إلى موسكو. يقول الناس: "لماذا عليه أن يذهب إلى موسكو ويخبرهم أننا سوف نفتح جبهة ثانية؟ لا بد أنه ذهب ليخبرهم أننا لا نستطيع فعل ذلك". لو أن كل واحد يوافق على اقتراحي بأن يغرق تشرشل في طريق عودته إلى الوطن مثل كيتشنر، لكان عملاً رائعاً وفرحة. طبعاً يبقى الاحتمال أن تشرشل ليس في موسكو.

ليلة أمس قمنا بفك وتركيب بندقية ستين لأول مرة. ليس هناك ما نتعلمه فيها. لا أجزاء احتياطية. إن تعطلت وكان عطلاً خطيراً فيها، سترميها ببساطة وتأخذ واحدة أخرى بدلاً منها. وزن البندقية من دون مخزن خمس باوندات ونصف -وزن الرشاش (تومي غان) سيكون من ١٢ إلى ١٥ باونداً. السعر التقديري ليس خمسين جنيهاً كما تخيلت وإنما ١٨ جنيهاً. أستطيع أن أرى مليون أو مليونين من هذه الأشياء، ومع كل واحدة خمسمائة خرطوشة وكتاب تعليمات، تغمر كل أرجاء أوروبا في مظلات صغيرة. إن كان لدى الحكومة الشجاعة لفعل ذلك، فستكون قد أحرقت قواربها فعلاً.

٩ اغسطس/ آب

قمنا بالرمي من بندقية ستين لأول مرة اليوم. لا ركل أو اهتزاز، صوت قليل جداً ودقة مقبولة. حوالي ألفين وخمسمائة جولة من الرمي، حالتا انسداد فقط، في كل حالة كان السبب خرطوشة عاطلة-العلاج أن تحرك المزلاج يدوياً.

١٠ أغسطس/ آب

نهرو وغاندي وآزاد (عبد الكلام آزاد، زعيم قومي هندي مسلم، وهو الناطق بلسان حزب المؤتمر) وكثيرون آخرون في السجن. أعمال الشغب في أغلب أراضي الهند، وعدد من الوفيات، وعدد لا يحصى من الاعتقالات. خطاب أميري الفاضح (ليو أميري، سياسي محافظ وعضو برلمان ووزير خارجية للهند) تكلم عن نهرو وشركائه بـ"رجال أشرار" و"مخربين" إلخ. هذا طبعاً يذاع على الخدمة الإمبراطورية البي بي سي، ويعاد بثه على راديو كل الهند. أفضل نكتة كانت أن الألمان بذلوا قصارى جهدهم لمنعها، لكن لم ينجحوا لسوء الحظ. شعور رهيب بالاكتئاب وسط الهنود، والكل متعاطف مع الهند. حتى بخاري (ذو الفقار علي بخاري، منظم البرامج الهندية في البي بي سي) رجل من العصبة الإسلامية كان يبكي ويتحدث عن استقالته من البي بي سي. من الغريب لكن الصحيح تماماً، أن الطريقة التي تتصرف بها الحكومة البريطانية الآن في الهند، تزعجني أكثر من هزيمة عسكرية.

١٢ أغسطس/ آب

رسالة إخبارية سياسية مرعبة من الهند هذا الصباح. أعمال الشغب لا معنى لها -الوضع جيد وتحت السيطرة- بعد كل شيء فإن أعداد الوفيات ليست كبيرة إلخ إلخ. بالنسبة إلى مشاركة الطلاب في أعمال الشغب، هذا يفسر على خط "الصبيان يبقون صبياناً". "نحن كلنا نعرف أن الطلاب في كل مكان يسرهم جداً أن ينضموا إلى أي نوع من المرح الصاخب" إلخ إلخ، تقريباً فإن كل واحد مشمئز تماماً. بعض من الهنود حين سمعوا بهذا النوع من الهراء، شحب لون وجوههم، إنه منظر غريب.

أغلب الصحف تتحدث عن خطأ قاسٍ، صحافة روثرمير تتحدث بشكل مقزز. إن نجحت هذا الإجراءات القمعية في الهند في الوقت الحالي، فستكون آثارها سيئة جداً في هذه

البلاد. كل شيء يبدو قد أعد من أجل عودة كبيرة للراجعين، وبدأ يظهر تقريباً كما لو أن ترك روسيا في مأزق كان جزءاً من المناورة.....

١٤ أغسطس/ آب

كان هورابين (جيه إف هورابين، صحفي من حزب العمال، حقق شهرة واسعة بخرائطه التعليمية) يذيع برنامجه اليوم، وكالعادة قدمناه على أنه الرجل الذي رسم الخرائط لويلز في كتابه **موجز للتاريخ**، ولنهرو في **لمحات من تاريخ العالم**. لقد نشر هذا وأعلن عنه بشكل مكثف مسبقاً، وكان ربط هورابين بنهرو جذباً للمستمعين الهنود. اليوم اقتطعت الإشارة إلى نهرو من الإعلان - لكون نهرو في السجن، ولذلك أصبح سيئاً.

١٨ أغسطس/ آب

من رسالة جورج كوب (كان قائد وحدة البيوم التي كان أورويل يخدم فيها في إسبانيا. انضم إلى الفيلق الفرنسي الأجنبي، وأسره الألمان، ثم هرب وعمل في فرنسا كمهندس وعميل بريطاني) من مرسيليا بعد إجراء معقد عن عمل هندسي كان يقوم به.....

أنا أوشك على البدء في الإنتاج على صعيد صناعي. لكن أنا متأكد من أنني سأستمر حقاً، لأن لدي عقوداً محددة مع شركتي التي طورت مؤخراً كما أخشى من علاقات تقلل كثيراً من استقلالها، وربما تستفيد شركة أخرى أكرهها من عملي، لأنني لم أرتب إطلاقاً معها. وبالنسبة إلى الوقت الحالي، فأنا لست مستعداً لتوقيع أي عقد. إن أُجبرتُ على التوقف، فأنا فعلاً لا أعرف ماذا سوف أفعل؛ أتمنى من بعض أصدقائي الأعزاء جداً الذين أكتب إليهم بشكل متكرر، ألا يكونوا بطيئين وسلبيين كما يبدون. إن لم تُفتح أي آفاق في هذا المجال، فأنا أتأمل أن أستفيد من عملية أخرى لي تعود إلى بناء الجسور التي - كما تذكر - نفذتها بشكل ناجح في سان ماتيو قبل الحرب.

مترجم: "أخشى أن تدخل فرنسا في تحالف كامل مع ألمانيا. إذا لم تفتح الجبهة الثانية قريباً سأبذل أقصى جهدي في الفرار إلى إنكلترا".

١٩ أغسطس/ آب

غارة كبيرة للمغاوير على دييي اليوم. الغارة كانت مستمرة هذا المساء. يمكن تصورها على أنها الخطوة الأولى في غزو أو اختبار من أجل الخطوة الأولى، لكنني لا أعتقد أن الأمر

كذلك. الإنذار الذي بُث للشعب الفرنسي أن هذه مجرد غارة وأن عليهم ألا ينضموا إليها، كان في تلك الحالة خدعة.

٢٢ اغسطس/ آب

ديفيد أستور منقبض جداً حول غارة ديبي التي رآها عن قرب تقريباً، والتي يقول إنها كانت فشلاً تاماً باستثناء الدمار الكبير للطائرات المقاتلة الألمانية التي لم تكن جزءاً من الخطة. يقول إن القضية شوهت بالتأكيد في الصحافة، والآن تشوه في التقارير إلى رئيس الوزراء، وإن الحقائق الأساسية كانت كالتالي:

من خمسة آلاف رجل كانوا متورطين، كان منهم ألفان على الأقل قتلى أو أسرى. لم يتعمدوا أن يبقوا على الشاطئ أطول مما فعلوا فعلياً (أي من الفجر حتى الرابعة صباحاً) لكن الفكرة كانت أن يدمروا كل الدفاعات في ديبي، وكانت محاولة فعل هذا فشلاً ذريعاً. في الحقيقة، لقد حصل ضرر بسيط بالمقارنة: دمار بضع بطاريات مدفعية.. إلخ، وواحدة فقط من المفارز الرئيسية الثلاثة حققت هدفها. الاثنتان المتبقيتان لم تبتعدا كثيراً، وذبحتا على الشاطئ بنيران المدفعية. كانت الدفاعات هائلة، وكان من الصعب التعامل معها حتى لو كان هناك دعم مدفعي، لأن المدافع غرقت في وجه المنحدر أو تحت أغطية إسمنتية هائلة. غرقت مراكب كانت تنزل الدبابات أكثر من تلك التي وصلت إلى الشاطئ. تم إنزال من عشرين إلى ثلاثين دبابة، لكن لم تنزل أية واحدة ثانية. صور الصحف، التي تظهر دبابات أعيدت إلى إنكلترا قصداً، هي صور مضللة. المهمة العامة كانت أن الألمان عرفوا بالغارة مسبقاً، فمنذ أن بدأت فاجؤونا فوراً تقريباً بقوة دعمهم الجوي، وأبقوا طائراتهم المقاتلة على الأرض ليحافظوا على قوتها، ثم أرسلوها إلى الجو فور سماعهم بنزول الدبابات على البر. خسروا عدداً من الطائرات، واختلفت التقديرات في هذا العدد، لكن حسب ما جاء عن سلاح الجو الملكي كانت عالية حتى مائتين وسبعين طائرة. بناء على القوة البريطانية في الجو، كانت المدمرات قادرة على أن تظل مستلقية خارج ديبي طول اليوم. واحدة غرقت لكن ببطارية شاطئية، ولكن حين أتى طلب لمهاجمة بعض الأهداف على الشاطئ، شكلت المدمرات خطاً قتالياً وتسابقت نحو الشاطئ مطلقة مدافعها الأمامية، بينما كانت الطائرات المقاتلة تساندها من الأعلى.

يعتبر ديفيد أستور أن هذا يثبت بوضوح أن غزو أوروبا مستحيل. طبعاً نحن لا نستطيع أن نشعر بثقة من أنه لم يُزرع ليقول هذا، مع الأخذ في الاعتبار من يكون والده وأمه. لا أستطيع أن أتجنب الشعور بأن الوصول إلى الشاطئ في نقطة ذات دفاع قوي جداً من دون دعم من طائرات قاذفة أو دعم مدفعي باستثناء مدافع المدمرات (من أربعة إلى تسعة مدافع كما أعتقد) أو القوات المحمولة جواً، كان إنجازاً هاماً.

٢٥ أغسطس/ آب

واحدة من الإشاعات الكثيرة التي تدور بين الهنود هنا، هي أن نهرو وغاندي وآخرين أبعدوا إلى جنوب أفريقيا. هذا نوع الشيء الذي ينتج عن رقابة المطبوعات ومنع الصحف.

٢٧ أغسطس/ آب

رفع المنع عن الديلي ووركر. ظهرت من جديد في السابع من سبتمبر/ أيلول (نفس اليوم الذي قدم فيه تشرشل بيانه إلى البرلمان).

الراديو الألماني يزعم مرة أخرى أن اس سي بوز في بينانغ. لكن المؤشرات أن هذا زلة لسان من آر بي بوز.

٢٩ أغسطس/ آب

إعلان في حانة لأقراص منعشة - فيناسيتين أو شيء من هذا النوع:

إعلان -تنصح بها المهن الطبية تماماً- "الإضاءة" اكتشاف عجيب- الملايين يأخذون هذا العلاج من أجل- من أجل -آثار السكر- هيستريا الحرب - الإنفلونزا- الصداع -ألم الأسنان- الألم العصبي -الأرق -الروماتيزم- الاكتئاب إلخ إلخ- لا تحتوي على الأسبرين.

إشاعة أخرى وسط الهنود عن نهرو- هذه المرة أنه نجا.

٧ سبتمبر/ أيلول

توجد مشكلة بوضوح في سوريا. مذكرة هذا الصباح بهذا المعنى -لسوء الحظ الشديد ضد إرادة حكومة إتش إم- يصر الجنرال ديغول أن سوريا مازالت تحت الانتداب الفرنسي، ومن المستحيل توقيع معاهدة الآن كما في حالة العراق. موقف الجنرال ديغول يعتبر بائساً جداً.

لكن كما يكون هو القائد المعتمد لفرنسا الحرة والوضع القانوني الكلي غامض جداً (المسألة يجب أن تقررها عصبة الأمم التي لسوء الحظ لم تعد موجودة)، فإن حكومة إتش إم عاجزة إلخ إلخ. بعبارة أخرى، لن يحصل السوريون على أية معاهدة، واللوم في هذا يقع على دميتنا ديغول، وإن أمكن سوف نسرق سوريا لأنفسنا. حين أسمع هذا الهراء الفارغ الذي يلغط به روشبروك -ويليامز (مدير البي بي سي) هذا الصباح، وعلينا كلنا أن نصغي ونتظاهر بالجدية وعدم الضحك، تدخل في رأسي، ولا أعرف لماذا، أبيات من **السلالات الحاكمة** لهاردي عن تتويج نابليون في روما:

ألم يتلعثم المطران في لهجته ويخفت صوته/ وتتشوه شفتاه بضحكة محبوسة؟ في مباركة شخص هدفه أن يفوز/ بالكرسي الذهبي الذي دفأته مؤخرات أخرى؟

عادت الديلي ووركر إلى الظهور اليوم -معتدلة جداً لكنها تحث على (أ) جبهة ثانية، (ب) كل المساعدة لروسيا على شكل أسلحة، (ج) برنامج ديماغوجي (غوغائي) من أجور عالية شامل سيكون متضاربا تماماً مع (أ) و(ب).

١٠ سبتمبر/ أيلول

ألقيت محاضرة ليلة أمس في مولي كوليج في لامبيث. قاعة صغيرة فيها حوالي مائة شخص من مثقفي الطبقة العاملة (نفس نوع الحضور في فرع نادي الكتاب اليساري) (الكتاب اليساري أسسه فيكتور غولانكس عام ١٩٣٦ واستمر في نشر كتب شهرية عن مواضيع معادية للفاشية أو اشتراكية). أثناء الأسئلة، لا يقل عن ستة أشخاص سألوا "ألا يعتقد المحاضر أن رفع الحظر عن الديلي ووركر خطأ كبير- المبررات المقدمة أن ولاء الديلي ووركر ليس موثوقاً وأنها مضيعة للورق. امرأة واحدة فقط أيدت الديلي ووركر.. من الواضح أنها شيوعية. وعبّر واحد أو اثنان من الآخرين عن نفاد صبرهم ("أوه هي تقول ذلك دائماً!"). هذا بعد سنة، خلالها كان هناك جلبة لم تتوقف من منظمات يسارية عن حل رفع الحظر. يهمل المرء دائماً أحكامه لأنه يستمع إلى الأقلية الواضحة، وينسى التسعة وتسعين بالمئة الآخرين. قارن. كان أغلب الناس بالتأكيد تقريباً خلف سياسة تشامبرلاين، لكنك حين تقرأ النيوستيتمان لا ترى الأمر هكذا.

١٥ سبتمبر/ أيلول

شعور فاضح بالعجز بخصوص القضية الهندية - خطابات تشرشل والنية الواضحة للبليمبز (الرجعيين) أن يقوموا بمحاولة أخرى فيما يعتبرونه قاسياً، والطريقة الوقحة التي تستطيع فيها الصحف أن تحرف القضية برمتها، عارفين جيداً أن الشعب لن يعرف أبداً أو يهتم جيداً، لكي يتحقق من الوقائع. هذا الأخير أسوأ عرض من الجميع - لكن في الواقع إن لامبالاتنا بخصوص الهند، ليست أسوأ من عدم اهتمام المثقفين الهنود بالصراع ضد الفاشية في أوروبا.

٢١ سبتمبر/ أيلول

قابلت أمس ليدل هارت لأول مرة..... لديه هياج كبير عن بربرية قصف لوبيك. اعتبر ليدل أن البريطانيين يملكون أسوأ سجل من كل الآخرين في الوحشية والتدمير خلال الحروب في القرون الحديثة، لكنه طبعاً عارض بقوة الجبهة الثانية، وكان متلهفاً أيضاً إلى أن نوقف القصف. ليس هناك أي مغزى في فعله، بما أنه لا يستطيع أن ينجز أي شيء ولا يضعف ألمانيا. من جهة أخرى، ينبغي علينا ألا نبدأ بالقصف في المكان الأول (لقد عاند بأننا نحن من بدأه) لأنه يجلب علينا انتقاماً أكبر.

أوزبيرت سيتويل كان هناك أيضاً...... كلاهما اعترفا بأنهما اشمئزا من استيلائنا على مستعمرات فيشي. قال سيتويل إن شعارنا كان "حين تبدو الأمور سيئة، استولِ من جديد على مدغشقر".

قال إنه في حالة الغزو في كورنول كان لدى الحرس الوطني أوامر أن يطلقوا النار على الفنانين. قلت إنه في كورنول ربما يكون هذا من أجل الأفضل. سيتويل: "غريزة ما ستقودهم إلى الأشياء الأفضل".

٢٢ سبتمبر/ أيلول

أغلب الذخيرة من أجل بنادق ستين إيطالية أو مصنوعة في ألمانيا لإيطاليا. أتخيل أن هذا يجب أن يكون أول سلاح يمتلكه الجيش البريطاني، يقاس عياره بالمليمترات بدلاً من البوصات. كانوا سيصنعون سلاحاً آلياً جديداً رخيصاً، ولديهم مخازن هائلة من الذخيرة الجاهزة التي اغتنمت في إثيوبيا، صنعوا البنادق لتناسب أغلفة الطلقات بدلاً من العكس.

الفائدة أن الذخيرة تناسب أي بندقية نصف آلية قارية. سيكون ممتعاً أن نرى إن كان الألمان أو اليابانيون خرجوا بسلاح ٣٠٣ ليناسب الذخيرة البريطانية.

٢٨ سبتمبر/ أيلول

استعراض للكنيسة في الهواء الطلق في ريجنت بارك يوم أمس. كما كان ينبغي للمشهد أن يكون مؤثراً- الكتيبة في ساحة فارغة، فرقة حراس كولدستريم والرجال يقفون حاسري الرؤوس (يوم خريفي جميل، ضباب خفيف وسكون لم تتحرك فيه وريقة شجر، كلاب تعدو في المكان) وينشدون التراتيل بأفضل ما استطاعوا. لكن لسوء الحظ كانت هناك خطبة مع الوحل الشوفوني، وهي المعتادة في مناسبات كهذه، والتي تجعلني أصبح مؤيداً للألمان طالما أنا أصغي إليها. أيضاً صلاة خاصة "للناس في ستالينغراد"- قبلة يهوذا.

تفصيل أحبطني في هذه المناسبات، وهو تنورة القس البيضاء التي تبدو كلها خطأ على خلفية من الأزياء العسكرية. لفتت انتباهي حرفية الفرقة الموسيقية خصوصاً قائد الفرقة (ضابط من الحراس في قبعة سوداء مدببة) حين يقترب كل مصلي من الختام، يدبّ نشاط حركي في الفرقة، تخرج المترددات (آلات موسيقية) من حقائبها الجلدية، عصا قائد الفرقة تظهر عالياً، ويستعدون ليقولوا بصوت عالٍ آمين حين يصل القس إلى "من خلال يسوع المسيح ربنا".

٥ أكتوبر/ تشرين الأول

سوف يُعين نائب ملك جديد للهند قريباً. لا إشارة عن الشخص الذي سيكون. البعض يقول إنه الجنرال أوشينليك -الذي على علاقة طيبة مع اليسار الهندي كما قيل.

حديث طويل مع براندر (لورانس براندر، مؤلف ومحاضر في الأدب الإنكليزي في الهند لمدة ١٢ سنة قبل الحرب) والذي عاد بعد رحلة إلى الهند دامت ستة أشهر. استنتاجاته كئيبة جداً، لدرجة لا أستطيع أن أدع نفسي تدونها. باختصار-الأمور في الهند أسوأ بكثير من أن يُسمح لأي واحد هنا أن يدركها، والوضع في الحقيقة يمكن استرداده، لكنه لن يسترد لأن الحكومة مصممة ألا تقوم بتنازلات حقيقية. وسوف تفتح أبواب الجحيم إن كان هناك غزو ياباني. وبرامجنا الإذاعية عقيمة تماماً، ولا أحد يستمع إليها. قال براندر إن الهنود يستمعون إلى

أخبار البي بي سي، لأنهم يعتبرونها أصدق من الأنباء التي تبثها طوكيو أو برلين. هو يعتبر أننا يجب أن نبث أخباراً وموسيقى ولا شي غير ذلك. هذا ما كنت أقوله منذ زمن في الماضي.

اليوم على شرف الذكرى السنوية للثورة الصينية، رُفع العلم الصيني فوق دار الإذاعة. لسوء الحظ كان مقلوباً رأساً على عقب.

حسب ما جاء عن ديفيد أستور، فإن كريبس سيستقيل قريباً -الهذر أن مجلس وزراء الحرب خدعة، وأن تشرشل في الحقيقة هو السلطة الوحيدة فيه.

١١ أكتوبر/ تشرين الأول

السلطات في كندا سجلت الآن عدداً من الأسرى الألمان، يساوي عدد الأسرى البريطانيين المسجلين في ألمانيا. اللعنة، إلى أين سنصل؟

١٧ أكتوبر/ تشرين الأول

سمعت "نكتة يهودية" على خشبة مسرح ذا بليارز -نكتة معتدلة وحكاها يهودي لكنه مازال معادياً لليهود قليلاً في ميوله.

إشاعات أكثر عن جبهة ثانية. الموعد هذه المرة في العشرين من أكتوبر/ تشرين الأول، وهو موعد غير محتمل أن يكون يوم ثلاثاء. يبدو من الواضح أن شيئاً ما سيحدث في غرب أو شمال غرب أفريقيا.

١٥ نوفمبر/ تشرين الثاني

أجراس الكنائس تقرع هذا الصباح- احتفالاً بالنصر في مصر. أول مرة أسمعها منذ أكثر من سنتين.

جورج أورويل

الأعمال السياسية والأدبية

العقول الحرة – كما يقول نيتشه – تحدث ضجيجاً عظيماً. وجورج أورويل صاحب عقل حر، ولكنه مضاد لنيتشه فيما يتعلق بالعرق والحريات والأخلاق. إنه النقيض الأخلاقي بمعنى ما.

لقد أحدث جورج أورويل، في حياته وبعد مماته، ضجيجاً كبيراً، لا يزال يسمع صوته إلى الآن. ورغم هدير قنابل الطائرات والقذائف الحارقة، زمن الحرب العالمية الثانية، إلا أن صوت أورويل كان قوياً كفاية، ليلفت الأنظار إليه؛ مع أن صوته كان مضاداً للهمجية الغربية برمتها، وقتلها للإنسان في الأرض الأوروبية أو في الأمكنة البعيدة.

هذا العقل الناضج والخطر، حمل الآخرين على نعته بمعاداة الوطن، أو بالجبان، لأنه ناهض احتلال الآخر والليبرالية والديمقراطية الزائفة، ودافع عن الإنسان في أي مكان.

يقرأ أورويل الأدب السابق والمعاصر له، بذهنية مفتوحة، ولا يتطرف أبداً في الحكم على الأعمال الأدبية، مع أنه ينظر إليها من زاوية خاصة، زاوية فنية إنسانية في الوقت نفسه. ولعل من الملفت أنه يضيء نقاطاً قلما ينتبه إليها القارئ، ومن خلالها يحرض على قراءة ثانية لهذا العمل أو ذاك.

هنا، في هذا الكتاب، يرتقي أورويل ككاتب مقال أدبي وسياسي رفيع، ولن أكون متطرفاً إذا قلت إن مقالاته أشد حيوية من رواياته. إنه هنا يتحالف مع الفن والعقل والفضيلة، بشجاعة فائقة.

عقبة زيدان

نينوى
للدراسات
والنشـــر
والتوزيـع